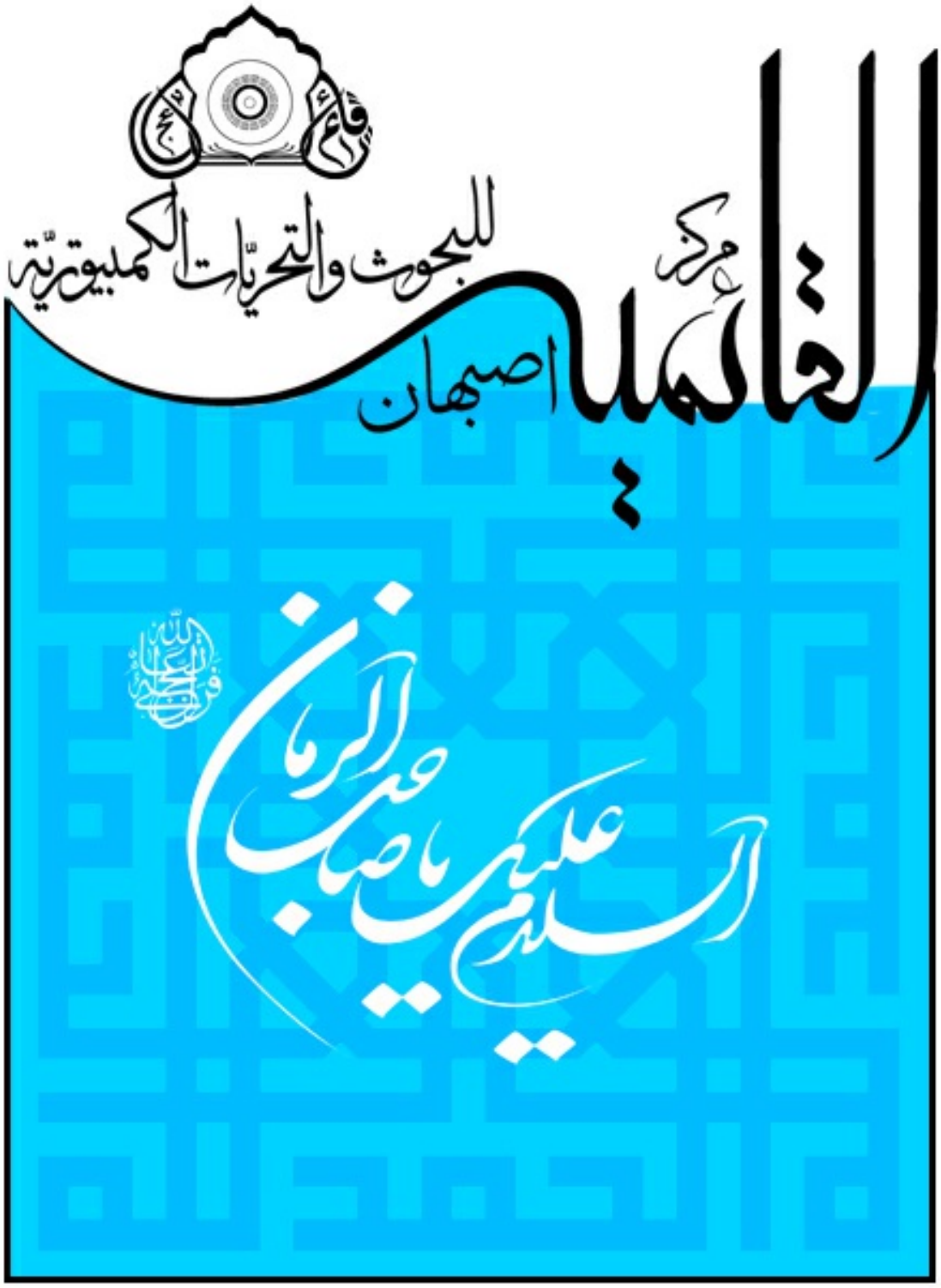

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

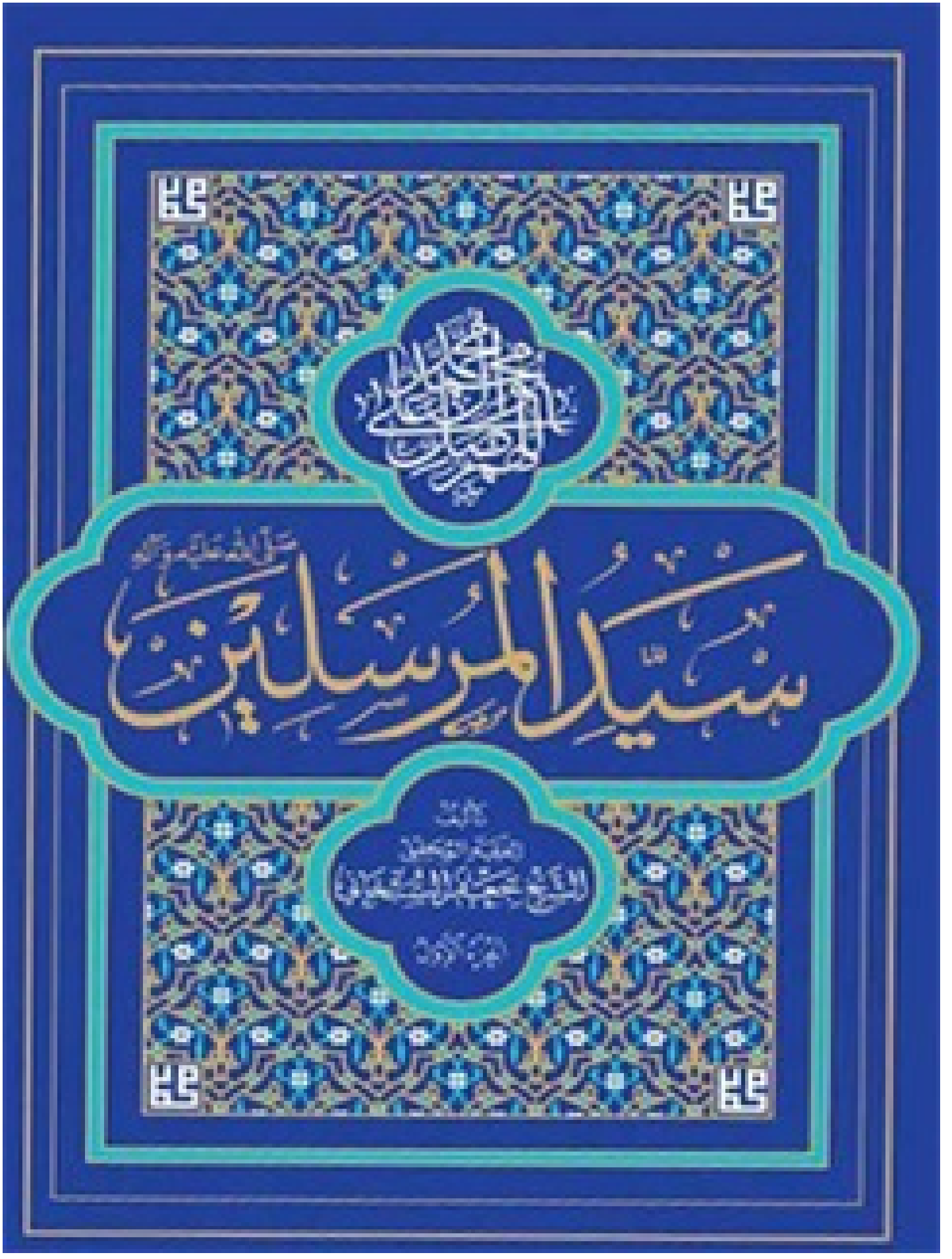
سید المرسلین صلی اللہ علیہ وآلہ وسلم

بسم الله الرحمن الرحیم

سید المرسلین صلی الله علیه و آله : دراسه موضوعیه لحیاه الرسول الاکرم...

کاتب:

آیت الله العظمی جعفر سبحانی

نشرت فی الطباعة:

موسسه امام صادق (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵

سید المرسلین صلی الله علیه و آله : دراسه موضوعیه لحیاه الرسول الاکرم... ----- ۳۸

اشاره ----- ۳۸

المجلد ۱ ----- ۳۹

اشاره ----- ۳۹

هویّه الکتاب ----- ۴۱

السیره المحمّدیه مدرسه الأجیال ----- ۴۶

مقدّمه المحاضر ----- ۵۰

اشاره ----- ۵۰

عندما یلتقی العالم الحاضر بالعالم الغابر ----- ۵۱

حیاه العظماء والخالدین ----- ۵۴

الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم وحیاه حافله بالأحداث ----- ۵۴

مزایا هذا الکتاب ----- ۵۸

۱ سیّد المرسلین فی ضوء القرآن الکریم ----- ۶۰

۲ شبه الجزیره العربیه أو مَهْد الحضاره الإسلامیه ----- ۷۵

اشاره ----- ۷۵

مَکهُ المعظمه ----- ۷۷

تاریخ مکّه ----- ۷۸

المَدینهُ المنوَّرهُ ----- ۷۸

۳ العَرَب قبلَ الإسلام ----- ۸۳

اشاره ----- ۸۳

أخلاقُ العرب وتقالیدُهم العامّه ----- ۸۵

هل کانَ للعرب حضَارهٌ قبل الإسلام؟ ----- ۸۷

ملامح المجتمع الجاهلی العربی من منظار القرآن الکریم ----- ۹۰

اشاره ---- ۹۰
۱. الشِرْکُ فی العِباده ---- ۹۲
۲. إنکارُ المعاد ---- ۹۲
۳. هَیْمَنهُ الخرافات ---- ۹۳
۴. الفساد الأخلاقی ---- ۹۵
۵. وَأدُ البنات وإقبارُهن ---- ۹۶
۶. تصوّراتهم الخرافیه حول الملائکه ---- ۹۷
۷. کیفیه الانتفاع من الأنعام ---- ۹۷
۸. الاستقسام بالأزلام ---- ۹۸
۹. النسیء ---- ۹۸
۱۰. الربا ---- ۹۹
صورٌ من الوضع الجاهلی ---- ۱۰۰
العقیده والدین فی الجزیره العربیه ---- ۱۰۲
عقیده العرب حول حاله الإنسان بعد الموت ---- ۱۰۶
الآداب مرآه أخلاق الشعوب ونفسیاتها ---- ۱۰۸
مکانه المرأه عند العرب الجاهلیه ---- ۱۰۹
المرأه ومکانتها الاجتماعیه عند العرب ---- ۱۱۲
مقارنه بسیطه ---- ۱۱۵
العربُ والرُّوح القتالیه ---- ۱۱۶
الأخلاق العامّه فی المجتمع الجاهلی العربی ---- ۱۱۸
النزوع إلی الخرافه والأساطیر فی المجتمع الجاهلی ---- ۱۲۰
الخرافات فی عقائد العرب فی الجاهلیه ---- ۱۲۳
نماذج من الخرافات فی المجتمع الجاهلی ---- ۱۲۴
اشاره ---- ۱۲۴
۱. الاستسقاء بإشعال النیران ---- ۱۲۵
۲. ضرب الثور إذا عافت البقر الماء ---- ۱۲۵

٣. كيّ صحيح الإبل ليبرأ السقيمُ ---- ١٢٦
٤ - حبس ناقه عند القبر إذا مات كريمٌ ---- ١٢٧
٥. عَقرَ الإبل عَلى القُبُور ---- ١٢٧
٦. التعشير ---- ١٢٨
٧. تصفيق الضالّ فى الصحراء ليهتدى ---- ١٢٨
٨. الرتم ---- ١٢٩
٩. وطئ المرأه القتيل الشريف لبقاء وَلَدها ---- ١٢٩
١٠. طَرْحُ السِنّ نَحو الشَمْس إذا سَقَطَتْ ---- ١٣٠
١١. تعليق شىء نجس على الرجل وقايه من الجنون ---- ١٣٠
١٢. الاستشفاء بدم الرئيس ---- ١٣١
١٣. شقّ البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل ---- ١٣١
١٤. معالجهُ المرضى بالأُمور العجيبه ---- ١٣١
١٥. خرافاتٌ حول الغائب منهم ---- ١٣٣
١٦. عقائدهُمْ العجيبه فى الجنّ وتأثيرُهُ ---- ١٣٤
١٧. تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والأشياء ---- ١٣٤
مكافحهُ الإسلام لهذه الخرافات ---- ١٣٥
أوضاع العرب الإجتماعيه قبيل ظهور الإسلام ---- ١٣٨
دُوَل الحيره وغسّان ---- ١٤٢
الدين فى أرض الحجاز ---- ١٤٥
العلم والثقافه فى الحجاز ---- ١٤٧
الإمام علىّ عليه السلام يصف العهد الجاهلىّ ---- ١٤٧
فاطمه الزهراء عليها السلام تصف الوضع الجاهلى ---- ١٥٢
جعفر بن أبى طالب يصف العهد الجاهلى ---- ١٥٣
٤ إمبراطوريّتا الرّوم وإيران إبّان عهدِ الرّسالهِ ---- ١٥٥
اشاره ---- ١٥٥
أوضاع الروم إبّان عهد الرساله ---- ١٥٥

ظاهره الجدل العقیم فی المجتمع الرومی ---- ۱۵۷
أوضاع إیران إبّان عَهد الرساله ---- ۱۶۰
البَذخ والتَرف فی البلاط الساسانی ---- ۱۶۱
الوضع الاجتماعی فی إیران ---- ۱۶۲
حَقُّ التعلّم خاصّ بالطبقات العلیا!! ---- ۱۶۴
صفحهٌ سوداءُ من جرائم خسروبرویز ---- ۱۶۸
حکم التاریخ فی الملوک الساسانیین: ---- ۱۶۹
الفوضی فی الحکومه الساسانیه ---- ۱۷۰
الفوضی الدینیه فی إیران الساسانیین ---- ۱۷۲
الحروب الإیرانیه الرومیه ---- ۱۷۶
۵ أسلاف رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۱۷۹
۱. بطل التوحید: إبراهیم الخلیل علیه السلام ---- ۱۷۹
اشاره ---- ۱۷۹
مولد إبراهیم علیه السلام ---- ۱۸۰
إبراهیم ومکافحته للوثنیه ---- ۱۸۴
حوار إبراهیم الخلیل علیه السلام مع عبده الکواکب ---- ۱۸۵
طریقه الأنبیاء فی الحوار والجدال ---- ۱۹۰
هَل کان آزر والدَ إبراهیم؟ ---- ۱۹۲
القرآن ینفی أُبوّه «آزر» لإبراهیم علیه السلام ---- ۱۹۳
إبراهیم محطِّم الأَصنام ---- ۱۹۵
العِبَر القیمه فی هذه القصه ---- ۱۹۹
هجره الخلیل علیه السلام ---- ۲۰۳
کیف ظهرت عین زمزم؟ ---- ۲۰۵
تجدید اللقاء ---- ۲۰۷
۲. قُصَیُّ بنُ کلاب ---- ۲۰۹
۳. عبدمناف ---- ۲۱۱

۴. هاشم ---------- ۲۱۱
اشاره ---------- ۲۱۱
أُمیّه بن عبدشمس یحسد هاشماً ---------- ۲۱۴
هاشم یَتَزوَّج ---------- ۲۱۵
۵. عبدُ المطّلب ---------- ۲۱۶
اشاره ---------- ۲۱۶
حَفرُ زَمزَم ---------- ۲۱۸
التفانی فی سبیل الوفاء بالعهد والنذر ---------- ۲۲۱
حادثه عام الفیل ---------- ۲۲۳
ماهی أسباب هذه الحادثه؟ ---------- ۲۲۴
عَبدُالمطّلب یَذهب إلی مُعسکر أَبرهه ---------- ۲۲۸
إنتظار قریش ---------- ۲۲۹
کلمه حول المعجزه ---------- ۲۳۱
نقاطٌ تقتضی التأمّل فی التفسیر المذکور ---------- ۲۳۵
نقطتان هامّتان ---------- ۲۳۷
بحثٌ علمیٌ حول المعجزه ---------- ۲۳۸
اشاره ---------- ۲۳۸
۱ - ماهی المعجزهُ وما هو تعریفها؟ ---------- ۲۳۹
۲. هل الإعجاز یهدم القوانین العقلیه المسلَّمه؟ ---------- ۲۴۱
۳. هل المعجزه تصدر عن علل ماديه غیر معروفه فقط؟ ---------- ۲۴۴
۴. کیف تدلّ المعجزه علی صحّه ادّعاء النبوّه؟ ---------- ۲۴۶
۵. بماذا نمیّز المعاجز عن غیرها من الخوارق؟ ---------- ۲۴۷
ماذا بَعْدَ هزیمه الأحباش؟ ---------- ۲۵۴
أوهام قریش تتفاقم!! ---------- ۲۵۵
عَبدُ اللّه والدُ النبیّ: ---------- ۲۵۷
دَورُ الأَیادی المشْبُوهَه فی تاریخ الإسلام ---------- ۲۵۹

قِصَّه فاطمه الخَثعَمِيَّه ---- ۲۶۰
علائم الإختلاق فی هذه القصه! ---- ۲۶۲
طهاره النبیّ من دنس الآباء وعهر الأُمّهات ---- ۲۶۴
وفاهُ عَبْد اللّه فی «یَثْرب»: ---- ۲۶۵
۶ مَولدُ رَسُول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۲۶۷
اشاره ---- ۲۶۷
فترهُ الطُفوله فی حَیاه العُظماء ---- ۲۶۷
فی أیّ یوم وُلدَ رَسُولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم؟ ---- ۲۷۲
أیُّ القولین هو الصحیح؟ ---- ۲۷۲
فَتْرَهُ الحَمْل ---- ۲۷۳
مُؤاخَذاتٌ وإشکالاتٌ عَلی هذا البَیان: ---- ۲۷۶
الإحتفال بذکری المولد النبوی ---- ۲۷۷
مَراسمُ تسمیه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۲۸۰
خَطأ الْمُستَشْرقینْ ---- ۲۸۱
«أحمد» کانَ مِنْ أسماء النبیّ المشهوره ---- ۲۸۲
فتْرَهُ الرّضاع فی حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۲۸۶
نَظرهُ الإسلام فی تأثیر الرضاع ---- ۲۸۸
۷ فَتْرهُ الطفُوله فی حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۲۹۰
اشاره ---- ۲۹۰
خَمسَهُ أعوام فی الصَحْراء ---- ۲۹۴
۸ العَوْده إلی أحضان العائله ---- ۲۹۶
اشاره ---- ۲۹۶
سَفْرهٌ إلی یثرب ---- ۲۹۸
وَفاه عبْدالمُطَّلب ---- ۳۰۰
کفاله أبی طالب للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۳۰۱
سَفرهٌ إلی الشام ---- ۳۰۲

أكذُوبَهُ المُسْتشرقيْن ---- ٣٠٤
نَظْرهٌ إجْماليّه إلى النَّوْراه الحاضِرَه ---- ٣٠٨
٩ فَتره الشَباب فی حیاه النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم ---- ٣١٦
اشاره ---- ٣١٦
رسولُ اللّه وقدرتُه الروحیّه ---- ٣١٧
حُروبُ الفِجار ---- ٣١٧
حِلْفُ الْفُضُول: ---- ٣٢١
١٠ من فتره الشباب إلی مزاوله التجاره ---- ٣٢٥
اشاره ---- ٣٢٥
سبب آخر لرعی الغنم ---- ٣٢٧
سببٌ ثالث ---- ٣٢٨
إقْتراح أبی طالب ---- ٣٢٨
هل عَمِلَ النبیُّ أجیراً لخدیجه؟ ---- ٣٢٩
رحله النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم التجاریه إلی الشام ---- ٣٣٠
خَدیجه زَوجهُ الرَّسول الأُولی ---- ٣٣٢
خدیجه فی أحادیث الرسول صلی الله علیه و آله و سلم ---- ٣٣٥
افتخار أهل البیت بخدیجه علیها السلام ---- ٣٤٤
العللُ الظاهریه والحقیقیه وراء زواج خدیجه بالنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ---- ٣٤٥
کیفَ تمّت خِطبهُ خدیجه؟ ---- ٣٤٧
عمر خدیجه عند زواجها بالنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ---- ٣٤٩
١١ من الزواج إلی البعثه ---- ٣٥٢
اشاره ---- ٣٥٢
فَترهُ الشَبابِ فی حیاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ---- ٣٥٣
مشاعر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم الإنسانیه فی فتره الشباب ---- ٣٥٤
أولادُ خدیجه ---- ٣٥٥
حَدْسٌ لا أساس له من الواقع!! ---- ٣٥٦

دَعِیُّ رسول اللّه: زید بن حارثه ----- ۳۵۷
بدایهُ الخِلاف بَین الوثنیّین ----- ۳۵۸
أعمدهُ الوثنیّه تهتزُّ ----- ۳۵۹
نموذج آخر عن ضَعف قریش ----- ۳۶۱
أمینُ قَریشُ یَکْفُلُ عَلیّاً ----- ۳۶۴
إیمان النبیّ وآبائه وکفلائه قبل الإسلام ----- ۳۶۵
إیمان جدّه عبدالمطّلب ----- ۳۶۵
إیمان کفیله وعمه أبی طالب ----- ۳۶۹
إیمان والدَی النبیّ الأکرم ----- ۳۷۰
إیمان النبیّ باللّه وتوحیده قبل البعثه ----- ۳۷۲
شبهات المستشرقین علی عدم إیمان النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قبل البعثه ----- ۳۷۷
اشاره ----- ۳۷۷
الآیهُ الأُولی: الهدایه بعد الضلاله ----- ۳۷۸
الآیه الثانیه: الأمر بهجر الرجز ----- ۳۸۱
الآیه الثالثه: عدم علمه بالکتاب والإیمان ----- ۳۸۳
اشاره ----- ۳۸۳
تفسیر الآیه بآیه أُخری ----- ۳۸۷
الآیه الرابعه: عدم رجائه إلقاء الکتاب الیه ----- ۳۹۰
الآیه الخامسه: لو لم یشأ ما تلوته ----- ۳۹۲
۱۲ بدء الوَحْی ----- ۳۹۵
اشاره ----- ۳۹۵
دَور الأنبیاء فی إصلاح المجتمع: ----- ۳۹۸
مثالٌ واضح فی المقام ----- ۳۹۹
أمین قریش فی غار حِراء ----- ۴۰۲
بدء الوحی ----- ۴۰۴
ظاهره القضایا الغیبیّه فی رأی المادیّین ----- ۴۰۵

الروح المجرّده ---- ۴۰۷
ظاهره الوحی عِند المادیّین ---- ۴۰۸
أبرز النظریات المادّیه لظاهره الوحی ---- ۴۰۹
ظاهرهُ الوحی فی منظار العقل والدین ---- ۴۱۸
قنواتُ المعرفه الثّلاث ---- ۴۱۹
أنواع الوحی وأصنافه ---- ۴۲۱
أساطیرُ مختَلقه ---- ۴۲۲
بقیه حادثه نزول الوحی ---- ۴۲۳
خدیجه تذهب إلی ورقه بن نوفل ---- ۴۲۴
بُطلانُ هذه المزاعم ---- ۴۲۶
۱۳ متی نزل الوحی أوّلاً؟ ---- ۴۲۹
اشاره ---- ۴۲۹
ما أجاب به علماء الشیعه ---- ۴۳۰
الأنبیاء والبشاره برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۴۳۴
محمّد خاتم الأنبیاء ---- ۴۳۷
۱۴ ما سَبَقنی أحدٌ ---- ۴۳۹
أوّلُ من آمنَ بالنبیّ منَ الرجال والنِّساء ---- ۴۳۹
مِنَ النساء: «خدیجه» ---- ۴۳۹
أقدمُ الرجال إسلاماً: «علیّ» علیه السلام ---- ۴۴۰
النصوص النبویه: ---- ۴۴۵
کلمات أمیر المؤمنین علیه السلام ---- ۴۴۷
کلمه الإمام السبط الحسن علیه السلام: ---- ۴۵۱
رأی الصحابه والتابعین فی أوّل مَن أسلم ---- ۴۵۱
مناظره بین المأمون وإسحاق: ---- ۴۶۸
قضیّهُ «انقطاع الوَحْی» ---- ۴۶۹
أُسطوره ولیس تاریخاً! ---- ۴۷۱

اختلافُ المؤرّخين فی مسأله «انقطاع الوحی» ---- ۴۷۲
الإختلاف فی مده انقطاع الوحی ---- ۴۷۶
۱۵ الدَعْوَهُ السِرِّیّه ودَعوَهُ الأقربین ---- ۴۷۸
اشاره ---- ۴۷۸
دَعْوهُ الأَقْرَبیْن ---- ۴۸۰
کیفیّه دَعوه الأقربیْن ---- ۴۸۴
خِیانهٌ تاریخیّهٌ و جِنایَهٌ أدبیّه!! ---- ۴۸۶
النبوّه والإمامه توأمان ---- ۴۸۸
۱۶ الدعوه العامّه ---- ۴۹۰
اشاره ---- ۴۹۰
الثباتُ والإستقامه علی طریق الهدف ---- ۴۹۱
ثَباتُ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وَ صَبرُهُ ---- ۴۹۲
قریش تمشی إلی أبی طالب للمرّه الثالثه ---- ۴۹۵
قریش تحاولُ تطمیع رسول اللّه! ---- ۴۹۵
نماذجٌ من إیذاء قُریش وتعذیبها للمُسلمین ---- ۴۹۷
أبوجهل یکمُن لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۵۰۲
أبولهب یؤذی رسول اللّه ---- ۵۰۳
صبر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم واستقامته ---- ۵۰۴
إیذاء المسلمین وتعذیبُهم! ---- ۵۰۴
اشاره ---- ۵۰۴
۱. بلال الحبشی: ---- ۵۰۵
۲. آلُ یاسر رمز الصمود والمقاومه! ---- ۵۰۶
۳. عَبدُاللّه بن مسعود ---- ۵۰۸
۴. أبوذر: أوّل المجاهرین بالإسلام ---- ۵۰۹
قبیلهُ غِفار تعتنق الإسلام ---- ۵۱۱
أعداء النبیّ الألدّاء ---- ۵۱۳

عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام ---- ۵۱۴
۱۷ رأی قریش فی القرآن ---- ۵۱۹
اشاره ---- ۵۱۹
رأی الوَلید فی القرآن: ---- ۵۱۹
رأی عتبه بن ربیعه فی القرآن ---- ۵۲۱
تحجّجاتُ قریش العجیبه: ---- ۵۲۳
الدوافع وراء معاداه قریش وعنادهم: ---- ۵۳۰
اشاره ---- ۵۳۰
۱. حَسَدُهُمْ للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم: ---- ۵۳۰
۲. معارضه الدعوه الإسلامیه لشهواتهم: ---- ۵۳۲
۳. الخَوفُ مِن عُقُوبات الیوم الآخر: ---- ۵۳۲
۴. الخَوفُ مِن القَبائل العَربیه المشرکَه: ---- ۵۳۳
طائفهٌ مِن اعتراضات المشرکین: ---- ۵۳۴
القُرآن والنُزُولُ التدریجیّ: ---- ۵۳۴
الأسرارُ المنطقیّه للنُزول التدریجی للقرآن: ---- ۵۳۷
أسرارٌ أُخری لِنُزُول القرآن تدریجاً: ---- ۵۴۰
۱۸ إلی الحبشه ---- ۵۴۳
الهجره الأُولی ---- ۵۴۳
الهجره الثانیه إلی الحبشه: ---- ۵۴۷
قریش توفد رجالاً لاسترداد المسلمین: ---- ۵۴۸
العَودهُ من الحبشه: ---- ۵۵۴
وفدٌ مسیحیّ لتقصّی الحقائق یدخل مکّه: ---- ۵۵۶
وفد قریش إلی یهود یثرب للتحقیق: ---- ۵۵۷
۱۹ الأسلحهُ الفاشله والأسالیب الباطله ---- ۵۵۹
اشاره ---- ۵۵۹
۱. الاتّهاماتُ الباطله: ---- ۵۶۰

اشاره ----- ۵۶۰
الإصرار فی نسبه الجنون إلیه صلی الله علیه و آله و سلم: ----- ۵۶۴
القرآن یرد علی جمیع الاتهامات: ----- ۵۶۶
۲. فکرهٔ معارضه القرآن: ----- ۵۶۹
۳. تحجّجات صبیانیّه وجاهلیّه: ----- ۵۷۱
۴. مقترحات عجیبه ومطالیب غریبه: ----- ۵۷۳
اشاره ----- ۵۷۳
صبر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم واستقامته وثباته: ----- ۵۷۴
معاجز النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لم تنحصر فی القرآن الکریم: ----- ۵۷۵
اشاره ----- ۵۷۵
۱. شقّ القمر ----- ۵۷۵
۲. الإسراء والمعراج ----- ۵۷۶
۳. مباهله أهل الباطل ----- ۵۷۶
۴. الإخبار بالمغیبات ----- ۵۷۶
حرص النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم علی هدایه قریش: ----- ۵۷۷
۵. تحریم المشرکین استماع القرآن ----- ۵۷۹
اشاره ----- ۵۷۹
واضعو القرار ینقضون قرارهم!! ----- ۵۸۰
۶. منع الأشخاص من الإیمان برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ----- ۵۸۱
اشاره ----- ۵۸۱
الأوّل: الأعشی بن قیس: ----- ۵۸۱
الثانی: الطُفیل بن عَمرو الدوسیّ: ----- ۵۸۳
۲۰ أُسطوره الغرانیق ----- ۵۸۵
اشاره ----- ۵۸۵
ماهی أُسطوره الغرانیق؟! ----- ۵۸۶
محاسبه بسیطه لهذه الأُسطوره ----- ۵۸۷

رأی العقل فی هذه القصه: ---- ۵۸۸
تکذیب القِصَّه من طریق آخر ---- ۵۹۰
دَلیلٌ لغَویٌّ علی تفنید هذه الأُسطوره ---- ۵۹۱
شبهات للمستشرقین والرد علیها ---- ۵۹۳
اشاره ---- ۵۹۳
۱. ما هو المقصود من تمنّی الأنبیاء والرُسل؟ ---- ۵۹۴
۲. ما هو المقصود من تدخّل الشیطان؟ ---- ۵۹۴
۳. ما هو المقصود من محو آثار التدخّل؟ ---- ۵۹۶
۲۱ الحصار الاقتصادی والاجتماعی ---- ۵۹۸
اشاره ---- ۵۹۸
قریش تحاصر النبیّ والمسلمین اقتصادیاً واجتماعیاً ---- ۵۹۹
وضع بنی هاشم المأساوی فی الشِعب ---- ۶۰۲
۲۲ أبو طالب رجل الإیمان والتضحیات ---- ۶۱۰
اشاره ---- ۶۱۰
نماذج من مشاعر أبی طالب ومودّته للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۶۱۳
التغییر فی برنامج السفر ---- ۶۱۶
أبو طالب والدِفاعُ عن حوزه العقیده والإیمان ---- ۶۱۷
تصَوّرٌ باطلٌ ---- ۶۱۹
الدافع الحقیقیّ لأبی طالب ---- ۶۲۰
لمحات من تضحیات أبی طالب ---- ۶۲۱
تکفیر أبی طالب قضیّهٌ ذات بواعث سیاسیّه: ---- ۶۲۳
الأدِلّه علی إیمان أبی طالب ---- ۶۲۴
اشاره ---- ۶۲۴
الطریق الأوّل: آثار أبی طالب العلمیّه والأدبیه ---- ۶۲۵
الطریق الثانی: دفاع أبی طالب عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وحمایته له ---- ۶۲۷
اشاره ---- ۶۲۷

وصیه أبی طالب عند وفاته ---- ۶۲۸
الطریق الثالث: رأی أقربائه وأصدقائه ---- ۶۲۹
رأی علماء الشیعه فی أبی طالب ---- ۶۳۱
نظره إلی حدیث «الضحضاح» ---- ۶۳۱
اشاره ---- ۶۳۱
۱. ضعف أسناد هذه الروایه ---- ۶۳۲
۲. نصّ حدیث الضحضاح یخالف الکتاب والسنّه ---- ۶۳۳
۲۳ المعراج ---- ۶۳۶
المعراج فی نظر القرآن والسنّه والتاریخ ---- ۶۳۶
هل للمعراج جذور قرآنیه؟ ---- ۶۳۹
أحادیث المعراج: ---- ۶۴۱
متی وَقَعت هذه الحادثه؟ ---- ۶۴۲
هل کان المعراج جسمانیاً؟ ---- ۶۴۵
ما هو المراد من المعراج الروحانی؟ ---- ۶۴۶
نَغمهٌ شاذهٌ: ---- ۶۴۹
المعراج وقوانین العلم الحدیث: ---- ۶۵۰
ما هو الهدفُ من المعراج؟ ---- ۶۵۵
۲۴ سفره صلی الله علیه و آله و سلم إلی الطائف ---- ۶۵۷
اشاره ---- ۶۵۷
النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم یعود إلی مکّه: ---- ۶۶۱
نقطه هامه: ---- ۶۶۳
الدعوه فی أسواق العرب: ---- ۶۶۴
دعوه رؤساء القبائل فی مواسم الحج: ---- ۶۶۵
۲۵ بیعه العقبه ---- ۶۶۷
اشاره ---- ۶۶۷
وقعه بُعاث: ---- ۶۶۹

تفصیل الحادث: ----- ۶۷۰
بیعه العقبه الأُولی: ----- ۶۷۱
بیعه العقبه الثانیه: ----- ۶۷۲
أوضاعُ المسلمین بعد بیعه العقبه: ----- ۶۷۵
ردود فعل قریش تجاه بیعه العقبه: ----- ۶۷۸
تأثیر الإسلام ونفوذه المعنوی: ----- ۶۸۰
مخاوف قریش المتزایده: ----- ۶۸۳
حوادث السنه الأُولی من الهجره ----- ۶۸۶
۲۶ قصّه الهجره ----- ۶۸۶
اشاره ----- ۶۸۶
الإمدادات الغیبیه والعنایات الإلهیه: ----- ۶۸۸
ملک الوحی یخبر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بخطّه قریش لاغتیاله ----- ۶۹۰
إ قتحام الأعداء لبیت الوحی: ----- ۶۹۳
النبیُّ فی غار ثور: ----- ۶۹۵
قریش تفتش عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم: ----- ۶۹۵
الإمام علی علیه السلام والتفانی فی سبیل الحق: ----- ۶۹۶
کلام من ابن تیمیه: ----- ۷۰۰
الجواب التفصیلی: ----- ۷۰۲
الخطیب وقضیه المبیت: ----- ۷۰۴
بقیه قصهِ هجرهِ النبیّ: ----- ۷۰۵
الخروج من الغار: ----- ۷۰۸
صفحهُ التاریخ الأُولی: ----- ۷۰۸
لماذا أصبح العامُ الهجریُ مبدأ للتاریخ؟ ----- ۷۰۹
الهجره النبویه مبدأ لتاریخ المسلمین کافّه: ----- ۷۱۰
مَن الّذی جعل الهجره مبدأً للتاریخ؟ ----- ۷۱۳
نماذج من رسائل النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم والصحابه المؤرّخه: ----- ۷۱۳

التذکیر بنقطتین: ---- ۷۱۸
مؤامره الطاغوت: ---- ۷۲۰
الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم یبدأ رحلته إلی یثرب ---- ۷۲۰
النزول فی قریه قباء: ---- ۷۲۳
المدینه تهبُّ لقدوم النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم: ---- ۷۲۵
النبیُّ صلی الله علیه و آله و سلم یدخُلُ المدینه: ---- ۷۲۷
أصل النفاق ومنشؤه: ---- ۷۲۹
فهرس المحتویات ---- ۷۳۲
المجلد ۲ ---- ۷۶۳
اشاره ---- ۷۶۳
اشاره ---- ۷۶۴
هویّه الکتاب ---- ۷۶۶
مقدمه المؤلّف ---- ۷۷۱
مُمیّزات النهضه الإلهیه وخصائصها ---- ۷۷۱
خصیصه «الخلود» والعمق فی شخصیه رسول الإسلام ---- ۷۷۱
المصادر الأُولی والأصیله للکتابه عن سیره النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۷۷۴
حوادث السنهِ الأُولی من الهجره ---- ۷۷۸
اشاره ---- ۷۷۸
۲۷ أوّل عمل إیجابی للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی المدینه ---- ۷۷۸
عقد میثاق تعایش بین المسلمین وغیرهم ---- ۷۷۸
مع عمّار بن یاسر فی بناء المسجد النبویّ ---- ۷۸۱
ضئرٌ أرأف من والده!! ---- ۷۸۶
التآخی أعظم معطیات الإیمان ---- ۷۸۸
منقبتان عظیمتان ---- ۷۸۹
منقبهٌ أُخری لعلیّ علیه السلام ---- ۷۹۰
معاهده الدفاع المشترک بین المسلمین ویهود یثرب ---- ۷۹۱

أعظم معاهده تاريخيه ---- ۷۹۳
ممارسات اليهود الإجهاضيه ---- ۷۹۹
إسلام عبداللّه بن سلّام ---- ۸۰۰
خطةٌ يهوديه أُخرى للقضاءِ على الحكومه الإسلاميه ---- ۸۰۱
حوادث السنه الثانيه من الهجره ---- ۸۰۵
۲۸ مناوراتٌ عسكريه واستعراضاتٌ حربيه ---- ۸۰۵
اشاره ---- ۸۰۵
تهديد خطوط قريش التجاريه ---- ۸۰۶
النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يلاحق قريشاً بنفسه ---- ۸۰۹
ما هو الهدف من المناورات العسكريه؟ ---- ۸۱۴
نظريه المستشرقين ---- ۸۱۵
۲۹ تحويل القبله من بيت المقدس إلى الكعبه ---- ۸۲۰
اشاره ---- ۸۲۰
كرامةٌ علميه لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ---- ۸۲۵
۳۰ معركه بدر الكبرى ---- ۸۲۶
اشاره ---- ۸۲۶
النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يتوجّه إلى منطقه ذَفران ---- ۸۲۸
المشكله الّتى كانت تواجهها قريش ---- ۸۳۱
النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يعقد شورى عسكريه ---- ۸۳۳
إخفاء الحقائق وكتمانها ---- ۸۳۴
قرار الشورى الحاسِم أو رأى زعيم الأنصار ---- ۸۳۶
جمع المعلومات حول العدوّ ---- ۸۳۷
كيف هربَ أبو سفيان؟ ---- ۸۴۰
علم المسلمين بإفلات قافله قريش ---- ۸۴۱
إختلاف قريش فى القتال ---- ۸۴۱
«العريش» أو غرفه القياده ---- ۸۴۴

نظره إلی مسأله «العریش» ---- ۸۴۴
تحرّک قریش باتّجاه بدر ---- ۸۴۷
قریش تتشاور فی القتال ---- ۸۴۷
اختلاف قاده قریش فی أمر القتال ---- ۸۴۸
ما هو الأمر الّذی حتّم القتال؟ ---- ۸۵۱
المبارزات الفردیه أوّلاً ---- ۸۵۱
أیّ القولین هو الأصحّ؟ ---- ۸۵۳
الهجومُ العامُّ ---- ۸۵۴
رعایه الحقوق ---- ۸۵۶
مصرع أُمیّه بن خلف ---- ۸۵۶
خسائر بدر فی الأرواح والأموال ---- ۸۵۷
«ما أنتم بأسمع منهم» ---- ۸۵۸
الشعر یخلّد هذه القصه ---- ۸۵۹
بعد معرکه بدر ---- ۸۶۱
قتل أسیرین فی أثناء الطریق ---- ۸۶۳
بشائر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم إلی المدینه ---- ۸۶۵
المکیّون یعرفون بمقتل أسیادهم ---- ۸۶۵
اشتراک العباس عمّ النبیّ فی بدر ---- ۸۶۶
المنع من النَوح والبکاء فی مکه ---- ۸۶۷
رسول الإسلام ومکافحه الأُمیّه ---- ۸۶۸
ما ورد فی السیره حول مصیر الأسری ---- ۸۶۹
کلام لابن أبی الحدید فی المقام ---- ۸۷۱
القرآن یتحدّث عن معرکه بدر ---- ۸۷۳
۳۱ زواج سیده النساء فاطمه بنت رسول اللّه ---- ۸۷۸
اشاره ---- ۸۷۸
مشاکل الزواج فی العصر الحاضر ---- ۸۷۹

رسول الإسلام يكافح هذه المشاكل عملياً ---- ۸۸۰
جهاز فاطمه ---- ۸۸۴
مراسم الزواج تقام ببساطه ---- ۸۸۷
محاولات يائسه للنيل من على وفاطمه عليهما السلام ---- ۸۹۰
العلّامه الأمينى يرد على افتراءات المستشرق النصرانى الحاقد ---- ۸۹۱
العقّاد والنيل من فاطمه عليها السلام ---- ۹۰۱
۳۲ جرائم «بنى قينقاع» ---- ۹۰۳
اشاره ---- ۹۰۳
لهيب الحرب يبدأ من شراره ---- ۹۰۶
تقارير جديده تصل إلى المدينه ---- ۹۱۰
قريش تغيّر مسير تجارتها ---- ۹۱۴
حوادث السنه الثالثه من الهجره ---- ۹۱۶
۳۳ الدفاع عن الحريّه ---- ۹۱۶
غزوه أحد أو الدفاع عن الحريّه عند جبل أُحُد ---- ۹۱۶
إغتيال مفسد آخر ---- ۹۲۰
قريش تتكفّل نفقات الحرب ---- ۹۲۰
الاستخبارات ترفع تقريراً إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ---- ۹۲۳
جيش قريش يتحرک باتجاه المدينه ---- ۹۲۳
منطقه «أُحد» ---- ۹۲۵
المشاوره فى كيفيه الدفاع ---- ۹۲۶
المشاورات العسكريه ---- ۹۲۷
الاقتراع من أجل الشهاده!! ---- ۹۲۸
حصيله الشورى ---- ۹۳۰
النبىُّ يلبس لامه الحرب ---- ۹۳۱
النبىّ يخرجُ مِنَ المَدينه ---- ۹۳۲
جنديان فدائيان ---- ۹۳۳

العسكران يصطفّان ---- ۹۳۷
رفع معنويات الجنود وتقويه عزائمهم ---- ۹۳۹
العدوّ ينظّم صفوفه ---- ۹۴۰
الإثاره النفسيّه وإلهاب الحماس ---- ۹۴۰
بدايه القتال ---- ۹۴۲
المقاتلون بدافع الشهوه!! ---- ۹۴۵
الهزيمه بعد الانتصار ---- ۹۴۶
شائعه مقتل النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم ---- ۹۴۹
هل يمكن إنكار فرار بعض الصحابه من أرض المعركه؟ ---- ۹۵۰
القرآن يكشف عن بعض الحقائق ---- ۹۵۲
التجارب المرّه ---- ۹۵۴
خمسه يتحالفون على قتل النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم ---- ۹۵۶
الدفاع الموفق أو النصر المجدّد ---- ۹۶۰
بقيه أحداث واقعه «أُحد» ---- ۹۷۱
العدوُّ يحاول استغلال الفرصه ---- ۹۷۲
نهايه المعركه ---- ۹۷۴
آخر ما نطق به سعدُ بن الربيع ---- ۹۷۷
النبيّ يعود إلى المدينه ---- ۹۷۹
ذكريات مثيره عن امرأه مؤمنه ---- ۹۸۱
نموذج آخرّ من النسوه المجاهدات ---- ۹۸۱
لابدّ من ملاحقه العدو ---- ۹۸۵
حمراءُ الأسد ---- ۹۸۷
لا يُخدَعُ مؤمن مرّتين ---- ۹۸۹
ميلاد الإمام الحسن السبط ---- ۹۹۰
حوادث السنه الرابعه من الهجره ---- ۹۹۱
۳۴ فاجعه فريق المبلّغين ---- ۹۹۱

اشاره ---- ۹۹۱
خطّه ماکره للفتک بالمبلّغین ---- ۹۹۲
الغدر بالدعاه إلی الإسلام وقتلهم ---- ۹۹۴
جریمه بئر معونه ---- ۹۹۸
کیدُ المستشرقین وجفاؤهم ---- ۱۰۰۰
المؤمن لا یلدغ من جحر مرّتین ---- ۱۰۰۱
۳۵ غزوه «بنی النضیر» ---- ۱۰۰۳
اشاره ---- ۱۰۰۳
بماذا یجب أن تقابل هذه الجریمه؟ ---- ۱۰۰۵
المستشرقون و دموع التماسیح ---- ۱۰۰۷
دور حزب النفاق أیضاً ---- ۱۰۰۸
مزارع بنی النضیر تقسَّم بین المهاجرین فقط ---- ۱۰۱۱
۳۶ تحریم الخمر ذات الرقاع، بدر الصغری ---- ۱۰۱۴
تحریم الخمر ---- ۱۰۱۴
وقفه عند «البیان الشافی» ---- ۱۰۱۹
روایه مختلَقَه ---- ۱۰۲۰
غزوهُ ذات الرقاع ---- ۱۰۲۵
مواقف خالده فی هذه الغزوه ---- ۱۰۲۷
الحُرّاس الصامدون ---- ۱۰۲۷
غزوه بدرٍ الصغری ---- ۱۰۲۸
ولادهُ السِبط الأصغر لرسول اللّه ---- ۱۰۳۰
حوادث السنه الخامسه من الهجره ---- ۱۰۳۱
۳۷ من أجل تحطیم التقالید الخاطئه ---- ۱۰۳۱
اشاره ---- ۱۰۳۱
مَن هو زید بن حارثه؟ ---- ۱۰۳۲
زیدٌ یتزوّج بابنه عمّه النبیّ ---- ۱۰۳۳

زید یطلّق زوجته ---- ۱۰۳۴
زواج النبیّ بمطلقه متبنّاه لإبطال سنه جاهلیه أُخری ---- ۱۰۳۵
المستشرقون وقضیه زواج النبیّ بزینب ---- ۱۰۳۹
توضیح عبارتین ---- ۱۰۴۴
۳۸ غزوه الأحزاب ---- ۱۰۵۰
اشاره ---- ۱۰۵۰
۱. غَزوه دُومه الجندل ---- ۱۰۵۰
۲. غزوه الخندق (الأحزاب) ---- ۱۰۵۱
اشاره ---- ۱۰۵۱
استخبارات المسلمین ترفع تقریراً للقیاده ---- ۱۰۵۵
القوله النبویه الخالده فی شأن سلمان ---- ۱۰۵۸
مقاتلو العرب والیهود یحاصرون المدینه ---- ۱۰۵۹
العدد الدقیق لقوّات الطرفین ---- ۱۰۵۹
خطر البرد، وتناقص الغذاء والعلف ---- ۱۰۶۰
حیی بن أخطب یدخل حصن بنی قریظه ---- ۱۰۶۱
النبی یعرف بنقض بنی قریظه للعهد ---- ۱۰۶۳
تجاوزات بنی قریظه الأوّلیه ---- ۱۰۶۴
الإیمانُ فی مواجهه الکفر ---- ۱۰۶۶
أبطالٌ من العرب یَعبُرونَ الخندق ---- ۱۰۶۸
تصاول البطلین ---- ۱۰۷۲
قیمه هذه الضربه ---- ۱۰۷۳
لماذا التنکّر لهذا الموقف؟ ---- ۱۰۷۴
مروءه علیّ علیه السلام وشهامته ---- ۱۰۷۶
جیش العرب یتفرّق فی موقفه ---- ۱۰۷۷
العوامل الّتی فرّقت کلمه «الأحزاب» ---- ۱۰۷۹
مبعوثو قریش یمشون إلی بنی قریظه ---- ۱۰۸۱

آخر العوامل لهزيمه الكفّار ---- ۱۰۸۲
القرآن الكريم و معركه الأحزاب ---- ۱۰۸۳
حوادث السنه الخامسه من الهجره ---- ۱۰۸۹
۳۹ سقوط آخر أَوكار الفساد والمؤامره ---- ۱۰۸۹
اشاره ---- ۱۰۸۹
قوات الإسلام تحاصر بنى قريظه ---- ۱۰۹۰
اليهودُ يتشاورون حول الموقف ---- ۱۰۹۱
خيانهُ أبى لبابه ---- ۱۰۹۴
إلى أىّ مدى ذهب الطابورُ الخامس فى مشاغبته؟ ---- ۱۰۹۷
تقييم ما استند إليه سعد فى حكمه ---- ۱۰۹۹
حوادث السنه السادسه من الهجره ---- ۱۱۰۵
۴۰ أعداء الإسلام تحت المراقبه المشدّده ---- ۱۱۰۵
اشاره ---- ۱۱۰۵
أهل الرأى من قريش يهاجرون إلى الحبشه ---- ۱۱۰۷
الوقايه من تكرار التجارب المرّه ---- ۱۱۰۹
غزوهُ ذى قَرد ---- ۱۱۱۰
النذر غير المشروع ---- ۱۱۱۱
۴۱ تمرّد بنى المُصطَلِق ---- ۱۱۱۳
اشاره ---- ۱۱۱۳
غزوه بنى المُصطلِق ---- ۱۱۱۴
أوّل خلاف بين المهاجرين والأنصار ---- ۱۱۱۵
منافق حاول إشعال الموقف ---- ۱۱۱۶
صراعٌ بين الإيمان والعاطفه ---- ۱۱۱۹
الزَواجُ المبارک ---- ۱۱۲۲
الفاسق يفتضح ---- ۱۱۲۳
۴۲ قصّه الإفک ---- ۱۱۲۴

اشاره ---- ۱۱۲۴
المنافقون يتّهمون شخصاً نقيّ الجيب ---- ۱۱۲۶
أبرز النقاط فی آيات «الإفک» ---- ۱۱۲۸
الزيادات فی هذه القصّه ---- ۱۱۳۰
اشاره ---- ۱۱۳۰
۱. منافاتها لمقام النبوّه والعصمه ---- ۱۱۳۰
۲. سعدُ بن معاذ توفّی قبل حادثه «الإفک» ---- ۱۱۳۲
الروايه الأُخری فی سبب النزول ---- ۱۱۳۴
۴۳ رحلهٌ سياسيّهٌ دينيّهٌ ---- ۱۱۳۶
اشاره ---- ۱۱۳۶
مندوبُو قريش عند النبی صلی الله عليه و آله و سلم ---- ۱۱۴۱
رسول اللّه يبعث مندوباً إلی قريش ---- ۱۱۴۴
النبیّ يبعث سفيراً آخر إلی قريش ---- ۱۱۴۵
بيعهُ الرضوان ---- ۱۱۴۷
سهيلُ بن عمرو يفاوضُ رسولَ اللّه ---- ۱۱۴۸
التاريخ يعيد نفسه ---- ۱۱۵۱
نَصُّ صُلح الحديبيه ---- ۱۱۵۲
نشيد الحريه ---- ۱۱۵۳
آخر الجهود للحفاظ علی عمليه الصلح ---- ۱۱۵۵
تقييم عاجل لصلح الحديبيه ---- ۱۱۵۸
قريش تصرُّ علی إلغاء أحد بنود المعاهده ---- ۱۱۶۲
النساءُ المسلمات لا يُسلَّمن إلی قريش ---- ۱۱۶۵
حوادث السنه السابعه من الهجره ---- ۱۱۶۶
۴۴ النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم يعلن عن رسالته العالميه ---- ۱۱۶۶
اشاره ---- ۱۱۶۶
الرسالهُ المحمَّديه كانت عالميه ---- ۱۱۶۸

آیات تدلّ علی عالمیه الرساله المحمّدیه ---------- ۱۱۶۹
رُسُل الإسلام إلی المناطق النائیه ---------- ۱۱۷۰
أوضاع العالم أیام إبلاغ الرساله العالمیه ---------- ۱۱۷۲
رسولُ النبی صلی الله علیه و آله و سلم فی أرض الروم ---------- ۱۱۷۳
قیصر یحقّق حولَ النبی صلی الله علیه و آله و سلم ---------- ۱۱۷۵
أثر رساله النبی إلی قیصر ---------- ۱۱۷۸
سَفیر النبیّ فی البلاط الإیرانی ---------- ۱۱۷۹
نظریه الیعقوبی ---------- ۱۱۸۱
أوامر «خسرو» إلی والیه علی الیمن ---------- ۱۱۸۲
سفیرُ النبیّ فی أرض مصر ---------- ۱۱۸۵
المقوقس یکتب کتاباً إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ---------- ۱۱۸۸
المغیره بن شعبه فی البلاط المصری ---------- ۱۱۸۹
سفیر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی أرض الذکریات «الحبشه» ---------- ۱۱۹۱
محاوره بین سفیر النبیّ وحاکم الحبشه ---------- ۱۱۹۳
رساله النجاشی إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ---------- ۱۱۹۴
تقییم سریع لمراسله النبی صلی الله علیه و آله و سلم قاده العالم ---------- ۱۱۹۵
کتاب رسول اللّه إلی أمیر الغساسنه (بالشام) ---------- ۱۱۹۸
سادس السفراء فی أرض الیمن ---------- ۱۲۰۰
رسائل أُخری لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ---------- ۱۲۰۲
۴۵ قلعه خیبر أو بُؤره الخطر ---------- ۱۲۰۳
اشاره ---------- ۱۲۰۳
إحتلالُ النقاط والطرق الحسّاسه لیلاً ---------- ۱۲۰۸
متاریس الیهود تتهاوی ---------- ۱۲۱۰
التقوی فی ظروف المخمصه الشدیده ---------- ۱۲۱۳
فتح الحصون الواحد تلو الآخر ---------- ۱۲۱۵
الانتصار الکبیر فی خیبر ---------- ۱۲۱۸

تحریف الحقائق ---- ۱۲۲۱
ثلاث نقاط مشرقه فی حیاه علی علیه السلام ---- ۱۲۲۴
عوامل الانتصار ---- ۱۲۲۵
اشاره ---- ۱۲۲۵
۱. التخطیط والتکتیک العسکری الدقیق ---- ۱۲۲۶
۲. تحصیلُ المعلومات حول العدوّ ---- ۱۲۲۷
۳. تفانی امیر المؤمنین علیه السلام ---- ۱۲۲۹
الرحمه فی ساحه القتال ---- ۱۲۲۹
مصرع کنانه بن الربیع ---- ۱۲۳۰
تقسیم غنائم الحرب ---- ۱۲۳۱
قافله من أرض الذکریات ---- ۱۲۳۲
حجم الخسائر وعدد القتلی ---- ۱۲۳۴
العفو بعد الانتصار ---- ۱۲۳۴
سلوک الیهود المتعجرف ---- ۱۲۳۷
حیله مُجازه ---- ۱۲۴۰
۴۶ قصّه فَدَک ---- ۱۲۴۳
اشاره ---- ۱۲۴۳
حکم الأراضی المفتوحه بلا قتال ---- ۱۲۴۴
قصّه فدک بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۱۲۴۷
فدک فی محکمه التاریخ ---- ۱۲۵۱
السیطره علی وادی القُری ---- ۱۲۵۲
۴۷ عمره القضاء ---- ۱۲۵۳
اشاره ---- ۱۲۵۳
النبی یدخل مکّه ---- ۱۲۵۶
النبی صلی الله علیه و آله و سلم یغادر مکّه ---- ۱۲۵۹
احداث السنه الثامنه من الهجره ---- ۱۲۶۲

۴۸ معرکه مؤته ---- ۱۲۶۲
اشاره ---- ۱۲۶۲
حادثه أفجع من السابقه ---- ۱۲۶۴
خلافٌ حول مَن هو الأمير الأوّل؟ ---- ۱۲۶۶
جيشا الإسلام والروم يتواجهان ---- ۱۲۶۹
حيره المقاتلين المسلمين بعد مقتل القاده ---- ۱۲۷۲
الجنود يعودون إلى المدينه ---- ۱۲۷۴
أُسطوره بدل التاريخ الصحيح ---- ۱۲۷۵
النبیّ يبكى بشده لمقتل جعفر ---- ۱۲۷۶
۴۹ غَزوهُ ذات السَلاسِل ---- ۱۲۷۷
اشاره ---- ۱۲۷۷
تفاصيل هذه الغزوه ---- ۱۲۸۰
الإمام علیّ ينتدَب لقياده العمليه ---- ۱۲۸۲
عوامل انتصار الإمام علیّ فی هذه الموقعه ---- ۱۲۸۳
إعتراض وجواب ---- ۱۲۸۵
۵۰ فَتحُ مَكَّه ---- ۱۲۸۸
اشاره ---- ۱۲۸۸
تفاصيلُ فتح مكَّه ---- ۱۲۸۹
قريشُ تتوجّس خيفه من ردّ النبیّ صلى الله عليه و آله و سلم ---- ۱۲۹۳
جاسوسٌ يُكتَشف! ---- ۱۲۹۶
النبى صلى الله عليه و آله و سلم يتحرّک باتجاه مكّه ---- ۱۳۰۳
العفو عند المقدره ---- ۱۳۰۵
تكتيکٌ رائع لجيش الإسلام ---- ۱۳۰۸
العباس يصطحب أبا سفيان إلى خيمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم ---- ۱۳۱۰
أبوسفيان بين يدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ---- ۱۳۱۱
مكّه تستسلم من دون إراقه دماء ---- ۱۳۱۳

أبو سفيان يرجع إلى مكّه ---- ۱۳۱۷
القواتُ الإسلاميه تدخل مكّه ---- ۱۳۱۹
كسرُ الأصنام وغسل الكعبه ---- ۱۳۲۱
عليٌّ عليه السلام على كَتِف النبى صلى الله عليه و آله و سلم ---- ۱۳۲۴
النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم يعلنُ عن العفو العام ---- ۱۳۲۷
بلالٌ يرفع الأذان على سطح الكعبه ---- ۱۳۲۷
النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم يتحدّث إلى أقاربه ---- ۱۳۲۹
خطابُ النبى التاريخى فى المسجد الحرام ---- ۱۳۳۰
اشاره ---- ۱۳۳۰
۱. التفاخر بالنسَب ---- ۱۳۳۱
۲. التفاضل بالقوميه العربيه ---- ۱۳۳۲
۳. لجميع أبناء البشر لا لبعض دون بعض ---- ۱۳۳۲
۴. الحروب الطويله والأحقاد القديمه ---- ۱۳۳۳
۵. الأُخوّه الإسلاميه ---- ۱۳۳۴
معاقبه المجرمين ---- ۱۳۳۴
قصّه عكرمه وصفوان ---- ۱۳۳۶
اشاره ---- ۱۳۳۶
۱. مبايعه النبى نساء مكّه ---- ۱۳۳۷
۲. هدمُ بيوت الأصنام بمكّه وما حولها ---- ۱۳۴۰
جرائم أُخرى لخالد ---- ۱۳۴۳
۵۱ معركه حنين ---- ۱۳۴۵
اشاره ---- ۱۳۴۵
جيشٌ قليل النظير ---- ۱۳۴۶
الحصول على المعلومات العسكريه ---- ۱۳۴۷
تجهيزات المسلمين ---- ۱۳۴۹
صمود النبى ومَن ثَبتَ من أصحابه ---- ۱۳۵۰

غنائمُ الحرب ---------- ۱۳۵۲
لقطتان من الخلق النبوی العظیم ---------- ۱۳۵۲
۵۲ غزوه الطائف ---------- ۱۳۵۴
اشاره ---------- ۱۳۵۴
شدخُ جدار الحصن بالمنجنیق ---------- ۱۳۵۷
ضغوطٌ اقتصادیه ونفسیه ---------- ۱۳۵۸
آخر محاوله لفتح حصن الطائف ---------- ۱۳۵۹
جیشُ الإسلام یعود إلی المدینه ---------- ۱۳۶۰
حوادث ما بعد الحرب ---------- ۱۳۶۱
النبی صلی الله علیه و آله و سلم یلتقی الشیماء أُخته من الرضاعه ---------- ۱۳۶۵
۲. اسلام مالک بن عوف ---------- ۱۳۶۶
۳. تقسیم الغنائم ---------- ۱۳۶۷
رسول اللّه یعتمر ---------- ۱۳۷۱
۵۳ لامیّه کعب بن زهیر المعروفه ---------- ۱۳۷۲
اشاره ---------- ۱۳۷۲
قصّه کعب بن زهیر بن أبی سلمی ---------- ۱۳۷۴
حُزنٌ قارَن فَرحاً ---------- ۱۳۷۷
حوادث السنه التاسعه من الهجره ---------- ۱۳۷۹
۵۴ علیٌّ بن أبی طالب فی أرض طیّ ---------- ۱۳۷۹
عام الوفود ---------- ۱۳۷۹
هدم بیوت الأصنام ---------- ۱۳۸۲
علیّ فی أرض طیّ ---------- ۱۳۸۳
قصه إسلام عدی بن حاتم الطائی ---------- ۱۳۸۴
۵۴ غَزْوَهُ تَبُوک ---------- ۱۳۸۸
اشاره ---------- ۱۳۸۸
تعبئهُ المقاتلین وتهیئه نفقات الحرب ---------- ۱۳۹۰

المتخلّفُون عن القتال ---- ۱۳۹۰
اکتشافُ شَبکّهٍ جاسُوسیّه فی المدینه ---- ۱۳۹۲
عدمُ مشارکه «علیّ» علیه السلام فی غزوه تَبُوک ---- ۱۳۹۴
جیش الإسلام یتحرّک نحو تبوک ---- ۱۳۹۶
النبیُّ صلی الله علیه و آله و سلم یَستعرضُ جیشَهُ ---- ۱۳۹۷
قصّه مالک بن قیس ---- ۱۳۹۸
مصاعبُ الطریق ---- ۱۳۹۹
تعلیماتٌ احتیاطیّه ---- ۱۴۰۰
علم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بالمغیّبات ---- ۱۴۰۱
إخباره بمغیَّب آخر ---- ۱۴۰۲
جیش الإسلام فی أرض تبوک ---- ۱۴۰۵
بعث خالد إلی دَومه الجندل ---- ۱۴۰۸
تقییم إجمالیّ لغزوه تبوک ---- ۱۴۰۹
المنافقون یخطّطُون لاغتیال النبی صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۱۴۱۱
النیّه تقومُ مقام العمل ---- ۱۴۱۲
أخذ المتخلّفین بالعقاب النفسیّ ---- ۱۴۱۴
قصّه مسجد ضرار ---- ۱۴۱۶
۵۶ وَفد ثقیف فی المدینه ---- ۱۴۱۹
اشاره ---- ۱۴۱۹
وقوع الفرقه والاختلاف فی قبیله ثقیف ---- ۱۴۲۰
وَفْدُ ثَقِیف ---- ۱۴۲۱
شروط وَفد ثقیف ---- ۱۴۲۳
۵۷ إعْلان البراءه من المشرکین فی منی ---- ۱۴۲۶
اشاره ---- ۱۴۲۶
تعصّبٌ بغیضٌ فی تحلیل هذا الحدث ---- ۱۴۳۲
حوادث السنه العاشره من الهجره ---- ۱۴۳۵

۵۸ فی رثاء الولد العزیز ---- ۱۴۳۵
اشاره ---- ۱۴۳۵
اعتراض غیر وجیه ---- ۱۴۳۷
مکافحه الخرافات ---- ۱۴۳۹
۵۹ وفد نجران فی المدینه ---- ۱۴۴۱
اشاره ---- ۱۴۴۱
مفاوضاتُ وَفد نجران مع النبی ---- ۱۴۴۳
خروجُ النبی صلی الله علیه و آله و سلم للمباهله ---- ۱۴۴۵
إنصراف وَفْد نجران عن المباهله ---- ۱۴۴۷
صورهُ العهد النبویّ لأهْل نجران ---- ۱۴۴۸
أکبر فضیله ---- ۱۴۴۹
۶۰ تاریخ المباهله عاماً وشهراً ویوماً ---- ۱۴۵۱
اشاره ---- ۱۴۵۱
عام المباهله حسب المشهور ---- ۱۴۵۲
الشهر والیوم الّذی وقعت فیه المباهله ---- ۱۴۵۲
رأینا حول عام المباهله ---- ۱۴۵۴
زمن المباهله یوماً وشهراً ---- ۱۴۵۶
هل کانت قضیه المباهله فی السنه التاسعه؟ ---- ۱۴۶۱
۶۱ ۱. تقییم البراءه من المشرکین ۲. وفود القبائل فی المدینه ---- ۱۴۶۴
اشاره ---- ۱۴۶۴
محاوله اغتیال النبی صلی الله علیه و آله و سلم ---- ۱۴۶۵
أمیر المؤمنین فی ربوع الیمن ---- ۱۴۶۷
۶۲ حجّه الوداع ---- ۱۴۷۰
اشاره ---- ۱۴۷۰
الإمام علی علیه السلام یعود من الیمن ---- ۱۴۷۴
شروع مراسِمُ الحج ---- ۱۴۷۶

خطابُ النبیّ التاریخی فی حجّه الوداع ----- ۱۴۷۷
۶۳ إکمال الدین الإسلامی بتعیین الخلیفه ----- ۱۴۸۲
اشاره ----- ۱۴۸۲
اقتضاءُ المحاسبات الاجتماعیه فی مسأله الخلافه ----- ۱۴۸۵
اشاره ----- ۱۴۸۵
۱. النبوّه والإمامه توأمان ----- ۱۴۸۹
۲. قصّه الغدیر ----- ۱۴۹۰
واقعه الغدیر خالده إلی الأبد ----- ۱۴۹۳
الدلائل الأُخری علی أبدیّه الغدیر ----- ۱۴۹۵
۶۴ ۱. المتنبّئون کَذباً ----- ۱۵۰۱
اشاره ----- ۱۵۰۱
لمحه عابره عن هویه مسیلمه ----- ۱۵۰۳
التفکیر فی أمر الرُّوم ----- ۱۵۰۵
الأعذارُ غیر المقبوله ----- ۱۵۱۰
الاستغفار لأهل البقیع ----- ۱۵۱۱
حوادث السنه الحادیه عشره من الهجره ----- ۱۵۱۳
۶۵ الکتابُ الذی لم یُکتب ----- ۱۵۱۳
اشاره ----- ۱۵۱۳
إیتونی بقلم وقرطاس ----- ۱۵۱۵
ماذا کان الهدف من الکتاب؟ ----- ۱۵۱۹
لماذا لم یصرَّ النبی علی کتابه الکتاب؟ ----- ۱۵۲۲
تلافی الأمر وتداارکه ----- ۱۵۲۲
تقسیم الدنانیر ----- ۱۵۲۴
غضب النبی من الدواء الذی سقی ----- ۱۵۲۵
وداع النبی صلی الله علیه و آله و سلم مع أصحابه ----- ۱۵۲۵
۶۶ اللحظاتُ الأخیره ----- ۱۵۲۸

اشاره ---------- ۱۵۲۸
النبیُ صلی الله علیه و آله و سلم یتحدّث مع ابنته الزهراء ---------- ۱۵۲۹
مسواکُ النبی قبیل وفاته ---------- ۱۵۳۱
وصایا النبی صلی الله علیه و آله و سلم قبیل رحیله ---------- ۱۵۳۱
یوم الوفاه ---------- ۱۵۳۳
فهرس المحتویات ---------- ۱۵۳۷
تعریف مرکز ---------- ۱۵۷۶

سید المرسلین صلی الله علیه و آله : دراسه موضوعیه لحیاه الرسول الاکرم...

اشاره

سرشناسه:سبحانی تبریزی، جعفر، ۱۳۰۸ -

Sobhani Tabrizi, Jafar

عنوان و نام پدیدآور:سیدالمرسلین صلی الله علیه و آله: دراسه موضوعیه لحیاه الرسول الاکرم.../ جعفر السبحانی؛ بقلم جعفر الهادی.

مشخصات نشر:قم: موسسه الامام صادق (ع)، ۱۴۴۱ق.= ۱۳۹۹.

مشخصات ظاهری:۲ج.

شابک:دوره:۹۷۸-۹۶۴-۳۵۷۶۴۶-۲ ؛ ج.۹۷۸:۱-۹۶۴-۳۵۷۶۴۷-۹ ؛ ج.۹۷۸:۲-۹۶۴-۳۵۷۶۴۸-۶

وضعیت فهرست نویسی:فیپا

یادداشت:عربی.

موضوع:محمد(ص)، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ق.

موضوع:Muhammad, Prophet, d. ۶۳۲

موضوع:غزوات

موضوع:Ghazavat

موضوع:سنت نبوی

موضوع:*Wonts of the Prophet

موضوع:اسلام -- تاریخ -- از آغاز تا ۱۱ق

موضوع:Islam -- History -- To ۶۳۲

شناسه افزوده:هادی، جعفر، ۱۳۲۵ - ۱۳۹۹.

شناسه افزوده:Hadi, Ja'far

رده بندی کنگره:BP۲۲/۹

رده بندی دیویی:۲۹۷/۹۳

شماره کتابشناسی ملی:۶۱۸۱۶۰۶

وضعیت رکورد:فیپا

ص :۱

المجلد ۱

اشاره

سیدالمرسلین صلی الله علیه و آله: دراسه موضوعیه لحیاه الرسول الاکرم...

جعفر السبحانی؛ بقلم جعفر الهادی

ص:۲

هويّه الكتاب

سيد المرسلين صلى الله عليه و آله و سلم

دراسه موضوعيه لحياه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم وما رافقها من أحداث تاريخيه ودينيه وسياسيه وعسكريه واجتماعيه

محاضرات

العلّامه المحقّق

الشيخ جعفر السبحانى

بقلم

جعفر الهادى

الجزء الأوّل

نشر

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

ص:٣

سبحانی تبریزی، جعفر ۱۳۰۸ -

سیـد المرسـلین صـلی الله علیه و آله و سـلم / تـألیف جعفر السـبحانی؛ تعریب جعفر الهـادی. - قم: مؤسـسه الإمـام الصادق علیه السلام، ۱۳۹۹.

۲ ج. (۱. ISBN ۹۷۸-۹۶۴-۳۵۷-۶۴۷-۹ (VOL

۲VOL.SET) ۲-۶۴۶-۳۵۷-۹۶۴-۹۷۸ ISBN)

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیپا.

کتابنامه به صورت زیر نویس.

۱. محمد صـلی الله علیه و آله و سلم، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ ق -- سرگذشت نامه. الف. هادی، جعفر، ۱۳۲۵ - مترجم. ب. مؤسسه امام صادق علیه السلام. ج. عنوان.

۹ س ۲ س/ ۲۲/۹ BP ۹۳/۲۹۷

۱۳۹۹

اسم الکتاب:... سیّد المرسلین صلی الله علیه و آله و سلم / ج ۱

المؤلف:... العلّامه المحقّق الشیخ جعفر السبحانی

بقلم:... الأُستاذ الشیخ جعفر الهادی

الموضوع:... السیره النبویه

الطبعه:... الأُولی

تاریخ الطبع:... ۱۳۹۹ ه. ش / ۱۴۴۱ ه ق/ ۲۰۲۰ م

المطبعه:... مؤسسه الإمام الصادق علیه السلام

الناشر:... مؤسسه الإمام الصادق علیه السلام

القطع:... وزیری

عدد النسخ:... ۱۰۰۰

التنضيد والإخراج الفنى:... مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

تسلسل النشر: ۱۰۷۲ تسلسل الطبعه الأُولى: ۵۰۷

حقوق الطبع محفوظه للمؤسسه، فلا يجوز شرعاً استنساخ أو نشر اصدارات

المؤسسه إلّابعد التنسيق مع المؤسسه واستحصال الموافقه الرسميه

توزيع: مكتبه التوحيد

ايران – قم؛ ساحه الشهداء

? ۳۷۷۴۵۴۵۷؛ ۰۹۱۲۱۵۱۹۲۷۱

www.shia.ir

www.tohid.ir

http://www.imamsadiq.org

بسم الله الرحمن الرحيم

ص:۵

«لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللّهِ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ» .(۱)

النبیُّ الأکرم «محمّد» صلی الله علیه و آله و سلم أُسوهٌ للمسلمین... أُسوهٌ یقتدون بها فی جمیع مناحی حیاتهم: الفردیه والاجتماعیه، والسیاسیه... أُسوه إلی الأبد... فی کلّ زمان و مکان، فی کلّ عصر و مصر، لجمیع المسلمین من کلّ لون ولغه.

ولکن کیف یتأسّی المسلمون - فی مختلف الأجیال والأدوار - برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وکیف یقتدون بسیرته المثلی، ویهتدون بهدیه العظیم؟

إنّ هذا لا یتسنّی إلّاإذا کانت حیاه رسول الإسلام بجمیع خصوصیاتها، وتفاصیلها، وفی جمیع مجالاتها ونواحیها، مدوّنه مسجّله، بل ومحلّله تحلیلاً دقیقاً وعمیقاً.

من هنا فإنّ الضروره تقضی بوجود تاریخ مدوَّن، مشفوع بالتحلیل الدقیق، والدراسه الموضوعیه لشخصیه وسیره سید المرسلین صلی الله علیه و آله و سلم فی کافّه مجالاتها الشخصیه والرساله والسیاسیه والعسکریه.

حقّاً إنّ فی حیاه رسول الإسلام العظیم «محمّد بن عبداللّه» صلی الله علیه و آله و سلم - کما هو واضحٌ لمن تتبّع وتصفّح - أُموراً دقیقه، ولکن بالغه العظمه فی مدالیلها ومعانیها، بالغه الأهمیّه فی معطیاتها ودروسها.

فرسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم هو خاتم الأنبیاء، ورسالته وشریعته خاتمه الرسالات

۱- . الأحزاب: ۲۱.

والشرائع ونهضته هی النهضه الکبری الّتی مهّدَ لها الأنبیاء السابقون، وقد فتحت هذه النهضه الإلهیه صفحه جدیده فی حیاه البشریه، وغیّرت مسار التاریخ الإنسانی تغییراً جذریّاً، وأسّست حضاره کبری لا تزال أمواجها - رغم مرور أربعه عشر قرناً - حیّه نابضه، فاعله، تهزُّ الضمائر، وتتفاعلُ مع العقول.

ولهذا فإنَّ السیره المحمّدیه مشحونهٌ بالمناهج والدروس، زاخره بالبصائر والعبر، بقدر ما هی ملیئه بالدقائق والحقائق، واللطائف والأسرار.

حقّاً إنّ حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بحاجه إلی تعمّقٍ جدیدٍ کلّما تجدّد الزمن، وکلّما تقدّمت العلوم والمعارف، وتطوّرت الحیاه، وانفتحت أمام البشریه آفاق جدیدهٌ فی شتّی الأصعده والمجالات.

ولا شکّ أنّ هذه المهمّه لیست عملاً بسیطاً ومهمّه سهله، وخاصّه مع ما علیه الکثیر من المصادر التاریخیه الأُولی من تصحیف أوتحریف أوتشویه للحقائق، أو تغییر للأحداث.

فإنّ هذه المهمّه تحتاج - فی ما تحتاج إلیه - إلی ثلاثه شروط أساسیه:

۱. عقلیه متفتّحه، متدبّره، نافذه، متأنّیه.

۲. جهود کبیره، وتتبّع واسع، وتمییز للصحیح عن السقیم، والدخیل عن الأصیل.

۳. معرفه بجوانب تتّصل بالسیره المحمَّدیه اتّصالاً وثیقاً کالمعرفه بمکانه سیّد المرسلین صلی الله علیه و آله و سلم فی القرآن الکریم.

فمع توفّر هذه الشروط یمکن الحصول علی صوره نقیّه، ومفیده للسیره المحمَّدیه المبارکه، صوره تتّفق مع روح القرآن، وتلتقی مع الواقع، وتصلح للاقتداء، والاهتداء، وإقتفاء الأثر.

ولقد توفّرت هذه الشروط - وللّه الحمدُ - فی أَستاذنا العلّامه المحقّق سماحه آیه اللّه الشیخ جعفر السبحانی، حفظه اللّه.

فهو المعروف بسلسلته القرآنیه «مفاهیم القرآن» الّتی تکشف عن إحاطه کبیره بکتاب اللّه العزیز، وإلمام قلیل النظیر بمفاهیمه. کما عرف بأعماله الفکریه، الناضجه المتنوعه الکاشفه عن عقلیه متفتّحه واعیه ومعاصره.

ولهذا کان خیرَ مَن قام فی عصرنا الحاضر بدراسه السیره المحمَّدیه الطاهره العبقه، فکان هذا العمل التاریخی المبارک الّذی توفّرت فیه المستلزمات الثلاثه الآنفه الذکر: العقلیه المتفتّحه، والمعرفه الواسعه بالقرآن الکریم وخاصّه فی ما یتّصل بالرَّسول الأکرم، إلی جانب التتبّع الواسع والاستقصاء الکبیر لمواقع العبره والإسوه فی حیاه خاتم الأَنبیاء وسیّد المرسلین.

ولا أجدنی - فی هذا التقدیم العابر - بحاجه إلی ذکر نقاط القوّه الکثیره فی هذه الدراسه المستوعبه لشخصیه وحیاه رسول الإسلام، بل أری أن یحاول القارئ الکریم بنفسه الاطّلاع علی ذلک حتّی لا یفوته شیء ممّا لا یفوّت، وسیقف بنفسه أیضاً علی جسامه ما بذل فی هذه الدراسه من جهد، وروعه ما ضُمِّنت من تحلیل، وأهمیه ما احتوته من حقائق.

وفی الختام أسأل اللّه العلی القدیر أن یتقبّل منّا جمیعاً هذا الجهد، ویجعله ذخراً لیوم لا ینفع فیه مال ولا بنون، إنّه خیر معین.

جعفرالهادی

۳۰ شعبان ۱۴۰۹ ه

قم المقدّسه

مقدّمه المحاضر

اشاره

التاريخُ فی أَعظَم ملاحمه

يُحاولُ الإنسان دائماً أن ينظر إلى كلّ قضيّه من القضايا من نافذه الحسّ، وأن يدرسها من خلال الرؤيه الحسيّه الماديّه، لأنَّ أوثقَ المعلومات لديه هی تلك الّتی تتألّف من هذه «المعلومات الحسّيه» ولهذا فإنّ المسائل الّتی تحظی بأَدلّه حسّيه أكثر، تكسب فی العاده قسطاً أكبر من ثقه الإنسان وتصديقه.

وعلى هذا الأساس عمَدَ العالم اليوم إلى تأسيس آلاف المختبرات الضخمه للتحقيق فی شتّى القضايا العلميه، ويعكف العلماءُ فی هذه المختبرات على دراسه وتحليل الأُمور المتنوّعه بأُسلوب خاص وطريقه معيّنه.

ولكن هل يمكن - يا تُرى - أن تدخلَ المسائلُ والقضايا الاجتماعيه فی نطاق التجربه المختبريه، وتخضع للمجهر والميكروسكوب، ليمكن الحكم فی هذه المجالات من خلال ذلك؟!

فمثلاً؛ هل يمكن أن نعرفَ عن طريق التجارب المختبريه ما يؤدّی إليه الاختلافُ والتشرذم فی المجتمع الواحد، وما يصيب شعباً من الشعوب أو أُمّه من الأُمم من هذا الطريق؟

أم هل يمكن تقييمُ ما تنتهی إليه جهودُ المستعمرين، أو ما يؤول إليه الظلمُ والحيف، من خلال تجربه حسّيه؟

أم هل يمكنُ الوقوفُ على نتائج «الاختلاف الطبقیّ»، «والتمييز العنصریّ» فی المجتمع عن طريق التجربه المختبريه؟

فی الإجابه عن كلّ هذه الأسئله يجب أن نقول: كلّا مَعَ الأسف.

وذلك لأنَّه لا توجد للقضايا الاجتماعيه - رغم أهميّتها القصوى - مثل هذه المختبرات، وحتّى لو أمكن توفير مثل هذه المختبرات المناسبه لتحليل وتقييم ودراسه القضايا الاجتماعيه، فإنّ إنشاءها وإيجادها يكلِّف نفقات باهضةً، وتستدعى جهوداً عظيمه.

ولكنَّ الأمر الّذى فى مقدوره أن يقلّل من حجم هذا النقص إلى حدّ كبير هو أنّنا نملك اليوم شيئاً يُسمّى ب: «تاريخ الماضين» والّذى يشرح لنا ما كان عليه البشرُ - أفراداً وجماعات - طوال آلاف السنين من الحياه على هذه الأرض، كما ويعكس مختلف الذكريات والخواطر عنهم، من إنتصارات وهزائم، ونجاحات وانتكاسات، ويوقفنا بالتالى على كلّ ما وقع فى حياه الأُمم والشعوب من حوادث مرّه أو حلوه.

إنَّ التاريخ يذكر لنا: كيف وُجدَت الحضارات المشرقه والمدنيات العظمى فى العالم، وكيفَ سلكت - بعد مدّه - طريق السقوط والانقراض، حتّى أنّها قد مُحيت عن صفحه الوجود بالمرّه، وأصبحت خبراً بعد أثر، وبالتالى ما هى العوامل الّتى كانت وراء سياده الشعوب ثم اندحارها.

إنّ حياه الماضين وتاريخهم يحتفظ لنا فى صفحاته بقسط كبير ومهمّ جداً من هذه الحوادث، ولهذا صحّ أن يقال: «التاريخ مختبر الحياه العظيم»، فبمعونه التاريخ يمكن تقييم مختلف القضايا الاجتماعيه، ودراستها واستخلاص النتائج والعبر المفيده منها.

عندما يلتقى العالم الحاضر بالعالم الغابر

وإنَّ من حُسن الحظ أنّنا لم نكن أوّل من حطَّ قدمه على هذا الكوكب، فهذه الأرضُ بسهولها وشعابها العريضه، وتلك السماء بنجومها وكواكبها الزاهره شهدتا ملايين الملايين من البشر الذين سكنوا الأرض من قبلنا، وشهدتا أفراحهم

وأتراحهم، همومهم وغمومهم، وحروبهم، ومصالحاتهم، وكلّ ما رافق واكتنف حياتهم من حبّ وبغض وظلمات وأنوار، وارتقاء وهبوط، إلى غير ذلك من شؤون وشجون الحياه البشريه الّتى يزخر بها تاريخ الشعوب والأقوام والأُمم.

صحيح أنّهم قد اختفوا مع الكثير من أسرار حياتهم، وغابوا جميعاً - أشخاصاً وأسراراً - فى بحر من النسيان وانسدل عليهم الستار، إلّاأنّ قسطاً مُلفِتاً للنظر وجمله يُعتد بها من تلك الأُمور إمّا أنّها قد دُوّنت بأيدى أصحابها، أو لا تزال طبقاتُ الأرض وبطون التلال تحتفظ بها فى ثناياها وطيّاتها، كما ولا تزال ذات الأطلال الصامته - فى ظاهرها - تشكل أضخم متحف، وأغنى معرض، وأكبر مختبر، يعيد لنا شريط التاريخ ويحكى وقائعه وأحداثه، ويشرحُ رموزه وأسراره.

إنَّ مُطالعه تلكم الصفحات من تاريخ الأُمم الغابره فى الكتب، أو فى الأطلال العظيمه، أو فى ما يعثر عليه المنقِّبون فى بطون التلال، وثنايا الأرض تعلّمنا أُموراً كثيره، وتضيف إلى عُمرنا عُمراً جديداً وزمناً إضافياً، لا يُستهان به وذلك بما تقدّمُ لنا مِنَ الخبره والعبره، والهدى والبصيره.

أليست حصيله العمر ما هى إلّاما استفاده المرء من تجارب؟ ألا يجعل التاريخ خلاصه أفضل التجارب تحت تصرّفنا؟

ولقد أشار الإمام أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى وصيه لولده إلى هذه الحقيقه حيث قال:

«أَىْ بُنَىَّ، إِنِّى وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِى، فَقَدْ نَظَرْتُ فِى أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِى أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِى آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّى بِمَا انْتَهَى

إِلَیَّ مِنْ أَمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَی آخِرِهِمْ».(۱)

ولکنّ المؤسف أن کُتُب التاریخ الموجوده الآن تعانی من نقص کبیر من حیث الإشاره إلی العبر والدروس الاجتماعیه المفیده، لأنّ هذه المصنّفات لم تدوَّن لأجل هذا الغرض، ولهذا أُغفِلَ فیها - فی الأغلب - کلّ ما هو مؤثّرٌ فی کشف الحقائق التاریخیه، وإبراز العلل الکامنه وراء الحوادث المتنوّعه والوقائع المختلفه، وبالتالی فقد تجاهلت تلک الکتب والدراساتُ ما هو المفتاح الطبیعیّ لحلِّ الرُّموز الکبری فی مسیره التاریخ البشری، واعتنتْ - بدلاً عن ذلک - بالقضایا التافهه.

لقد تصدّی کثیرٌ من المؤرّخین لتدوین وتسجیل القضایا التاریخیه، تاره بهدف التسلیه وأُخری بدافع إبراز الفضل لأقوامهم أو طوائفهم، وإظهار تفوّقها علی الأقوام والطوائف الأُخری، وثالثه بدافع الحب والبغض، أو التعصّب لهذا أو ذاک ولهذا عجزت هذه المؤلّفات والکتب عن حلّ أیّه مشکله، وتبدید أیّه حیره، بل هی تزید المرء ضلالاً إلی ضلال، وحیره إلی حیره!

ولکن رغم کلّ هذا یستطیع أُولو النباهه والبصیره، وأصحاب الفهم والتحقیق أن یتوصّلوا - من خلال مطالعه هذه المؤلّفات التاریخیه علی ما فیها من عیوب ونقائص، ومع ما فیها من أساطیر عن الشعوب المختلفه - إلی ما یساعدهم علی کشف الکثیر من أسرار وخلفیّات القضایا والأُمور المتعلّقه بالشعوب الماضیه، تماماً کما یفعل الطبیبُ الحاذق، أو القاضی البارعُ الّذی یمکنهما من خلال الوقوف علی القرائن الجزئیه المتفرّقه، التوصّل إلی اکتشاف نوع «المرض» أو حاله «المتّهم» الحقیقیه، وما یعانی منه فی واقعه النفسی.

***

۱- . نهج البلاغه: قسم الکتب برقم ۳۱.

حياه العظماء والخالدين

إنَّ أعظم صفحات التاريخ قيمه هى تلك الّتى تعكس لنا حياه العظماء وسيره الرجال الخالدين، وتبحث عنها بصدق وأمانه وموضوعيه.

فإنَّ لحياتهم أمواجاً خاصّه، كما أنّها زاخره بأنواع الحوادث.

لقد كانوا عظماء حقّاً، وكذلك كان كلّ ما يرتبط بهم، ومن ذلك تاريخهم، إنّه شىء عظيم يستحقّ التأمّل والتدبّر، فهو يتّسِمُ بِلمعان يلفت الأنظار، ويخلب الألباب وإنّه غنى بالعظات والعبر، زاخرٌ بالبصائر والدروس إلى درجه لا توصف.

إنّهم معجزهُ الخليقه بلا ريب، وإنّ حياتهم لهى - فى الحقيقه - ملحمه التاريخ الكبرى، وساحه البطولات الخالده، ومسرح الحماسات العظمى، الحيّه النابضه على مرّ العصور، والأيام.

لقد كان أُولئك العظماء يعيشون فى الأغلب على خطّ الثورات والتغييرات الاجتماعيه الأَوّل، وبعباره أصحّ: كانت الثورات والتحوّلات الاجتماعيه تجد مصداقيتها فى حياتهم وتتجسّد فى مواقفهم، ولهذا كانوا يشكّلون - فى واقع الأمر - حلقه الاتّصال بين الحضارات المختلفه المتناقضه، وكانت حياتهم الحافله بالأحداث شاهده للألوان المختلفه والمشاهد المثيره المتنوّعه.

***

الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم وحياه حافله بالأحداث

لم تتّسم حياه أحد من الرجال التاريخيّين والعظماء الخالدين - من حيث وفره الأحداث، وكثره المواقف الخالده، وشموليه الوقائع - كما اتّسمت به حياه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، ولا اتّصفت شخصيه بمثل ما اتّصف به ذلك النبىّ العظيم.

فلم يستطع أحدٌ سواه أن يؤثّر فى بيئته، ثم فى جميع العالم، وينفذ إلى

أعماق الأعماق بمثل السرعه والسعه الّتی حصلت له صلی اللّه علیه وآله.

ولم یوجد أیُّ واحد منهم قط من مجتمعه المنحطّ المتخلّف، حضاره بتلک العظمه والشموخ، کما فَعلهُ رسولُ الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم، وتلک حقیقه یقرّ بها کلّ مؤرّخی الشرق والغرب.

إنّ مطالعه عمیقه لسیره وحیاه هذا الإنسان العظیم، قادره علی أن تعلّمنا الکثیر الکثیر، وأن توقفنا علی مشاهد متنوّعه فی غایه النفع ومنتهی الفائده.

منها: الأَیام الأُولی مِن بناء الکعبه المعظّمه، واستیطان أسلاف النبیّ الکریم «مکّه»، وهجوم عسکر الفیل الفاشل لهدم بیت اللّه المعظّم، والأحداث والملابسات المرافقه لمولد النبیّ صلّی اللّه علیه وآله.

ومنها: المشاهد المحزنه والألیمه، کوفاه «عبداللّه» و «آمنه» والدی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی مطلع حیاته الشریفه بتلک الکیفیه المؤلمه.

ومنها: المشاهد العظیمه والمهیبه والحافله بالأسرار مثل الأیام الأُولی من نزول الوحی، وما جری فی جبل «حراء»، وما تبعه من مواقف الاستقامه والمقاومه الّتی أبداها واتّخذها رسول اللّه وأصحابه المعدودون طیله ثلاثه عشر عاماً، فی سبیل نشر الدین الإسلامی فی مکّه، ومکافحه الوثنیه والجاهلیه.

وکذا مشاهد مثیره وساخنه وحماسیه مثل وقائع السنه الأُولی من الهجره المبارکه وما عقبتها من حوادث ومواقف.

***

وقد أُلّفت حَول حیاه رسول الإسلام - أعظم قاده البشریه علی الإطلاق - کتبٌ ورسائلٌ ودراساتٌ کثیره، بحیث لو أُتیح لنا أن نجمعها فی مکان واحد لشکّلت مکتبه عظیمه وضخمه.

ویمکن القولُ - بشکل قاطع - بأنّه لیس ثمه من عظیم استقطب اهتمام

التاريخ والمؤرّخين والمفكّرين العالميّين الكبار، كما ليس ثمّه شخصيّه من شخصيّات العالم كتب حولها المؤلّفون والباحثون هذا القدر الهائل من المؤلّفات والمصنّفات، والرسائل والكتب، كما حصل لرسول الإسلام محمّد صلى الله عليه و آله و سلم.

إلّا أنّ أكثر هذه الكتب والمؤلّفات تعانى من أحد إشكالين: إمّا أنّ الكتاب جاء على نسق التسجيل المجرّد للحوادث، أو النصوص التاريخيه، من دون أن يتصدّى فيه مؤلّفه لتحليلها، ودراسه خلفياتها ونتائجها، وإصدار الحكم اللازم فيها، بل إنّ البعض قد تجنّب عن بيان علل الوقائع الإسلاميه وأسبابها، وثمارها ومعطياتها كذلك.

أو أنّ المؤلّف - فى بعضها الآخر - عمَد إلى طائفه من الآراء الحدسيه، والاجتهادات الباطله، العاريه عن الدليل وأثبتها فى مؤلَّفه على أنّها الحكم الحقّ، وخلط هذه الأحكام مع بيان الحوادث، ومن ثم أخرج كتابه ذاك إلى الجمهور المتعطّش إلى تاريخ الإسلام، على أنّه التاريخ المحقَّق، المُمحَّص.

إنّ الإشكال الّذى يَردُ على الطائفه الأُولى هو: أنّ الهدف من التاريخ ليس هو مجرَّد تسجيل الحوادث التاريخيه وضبطها وتدوينها، إنّما هو كتابه صفحات التاريخ، وقضاياه وأحداثه من المصادر الصحيحه الموثوق بها، وإبراز عللها وأسبابها، وثمارها ونتائجها، والتاريخ بهذا الشكل أعظم كنز تركه الأقدمون لنا، ومثل هذا النوع من الدراسه التاريخيه لم تُدوَّن - أو أنه قلّما دُوِّنت - حول أعظم قاده البشر، محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم فقد تجنّب أكثر كتّاب السيره النبويه عن إظهار الرأى فى الحوادث، أوالقيام بأى تحليل للوقائع، بحجّه الحفاظ على أُصول الحوادث ونصوصها.

فى حين أنَّ هذا العُذر، وهذه الحجه غير كافيه لتبرير هذا الموقف، لأنّه كان فى مقدور أُولئك المؤرّخين - للحفاظ على ما ذكروه - أن يؤلفوا نوعين من الكتب،

نوعاً يختص بسرد الوقائع والنصوص التاريخيه على ما هى عليه من دون إبداء رأى، أو تحليل ودراسه، ونوعاً آخر يعتنى بذكر الحوادث والقضايا التاريخيه مع تحليلها ودراستها بصوره موضوعيه صحيحه، أو أن يتم كلا الأمرين فى كتاب واحد بأن تفرز الحوادث التاريخيه عن التحليل والرأى.

على كلّ حال قلّما نجد بين قدماء الكُتّاب المسلمين من تصدّى للسيره النبويه المحمَّديه الطاهره بهذه الصوره، وقلّما يوجد هناك كتابٌ يتناولُ حياه خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين بالتحليل المذكور.

بل لابدّ من القول بأنّ السيره النبويه الطاهره ليست هى وحدها التى حُرمت من مثل هذا النمط من التأليف والكتابه، بل شمل هذا الحرمان أكثر الحوادث التاريخيه الّتى وقعت على مرّ العصور الإسلاميه فهى أُدرجت فى الكتب من دون دراسه موضوعيه وتقييم دقيق.

نعم إنّ أوّل من فتح هذا الطريق بوجه عامّه المؤلّفين والكتّاب هو:

العلّامه المغربى «ابن خلدون»(۱) فقد أسّس فى مقدّمته المعروفه باسم (مقدّمه ابن خلدون) منهج التاريخ التحليلى بنحوٍ من الأنحاء.

وأمّا الطائفه الثانيه من تلك الكتب فهى وإن أُلّفت على نمط التاريخ التحليلى واتّسمت بصفه التحقيق والدراسه ولكن حيث إنّ بعضهم لم يتجشّم عناء التتبع والاستقصاء، أو أنّه اعتمد فى تحليله للحوادث على المصادر غير المتقنه وغير الصحيحه، فقد تورّط فى أخطاء فظيعه محيّره، وأكثر مؤلفات المستشرقين - الّتى لم تكتَب فى الأغلب بهدف التوصّل إلى الحقيقه - من هذا النمط، ومن هذه القُماشه.

۱- . هو القاضى عبدالرحمن بن محمَّد الحضرمى المالكى المتوفّى عام ۸۰۸ ه، ومقدّمته وتاريخه - على ما فيهما من أخطاء فظيعه فى التحليل - معدودان من الكتب الجيده المفيده، وهما مبتكران فى موضوعهما.

ولقـد دأبنا فی هـذه الـدراسه – بعد ملاحظه هذه الإشـكالات – علی أن نقدّم إلی القرّاء – جهد الإمكان – كتاباً يخلو عن عيوب ونقائص كلتا الطائفتين.

***

مزايا هذا الكتاب

قد لا يكون من الضرورى بيان مزايا هذا الكتاب، واستعراض امتيازاته فی مقدّمته، فذلك أمرٌ ينبغی أن يقف عليه القارئ الكريم بنفسه ضمن مطالعته لهذه الدراسه، إلّاأنّه إلفاتاً لنظر القارئ نشير إلی مزيتين هامّتين هما:

الأُولی: أنّنا عمـدنا – فی هذا الكتاب – إلی تناول وبيان الحوادث والوقائع المهمّه الّتی تنطوی علی قَدَر أكبر من الفائده، والعبره، وأعرضنا صفحاً عن ذكر الأحداث الجزئيه، والوقائع الصغيره مثل الكثير من السرايا.

ثم إنّنـا أخـذنا الحوادث التـاريخيه هـذه من المصـادر الأصـليه، والأـوّليه، الّتی دُوِّنت فی القرون الإسـلاميه المشـرقه الأُولی، فقد استخلصـنا الحادثه من مجموعه تلك المصادر، ثم أشـرنا إلی مصـدر أو مصدرين من المصادر الّتی ذكرت الحادثه بصوره أكثر تفصيلاً ودقّه.

وربّما يظن بعضُ القرّاء الكرام أنّنا اكتفينا فی نقل الحوادث والوقائع بمراجعه مصدر أو مصدرين ممّا ذكرناه فی هامش الصفحه، فی حين أنّ الواقع هو غير هـذا، فنحن قـد راجعنـا حتّی فی نقـل الحوادث مهمّـا صـغرت، أكثر المصادر الأصـليه المعروفه، وبعد التحقّق والتثبّت منها، لخصّناها وذكرناها فی هذا الكتاب.

ولو أنّنا أشرنا – فی جميع الحوادث والوقائع – إلی جميع المصادر الّتی مررنا بها لاستأثر جدول المصادر بقسم كبير من صفحات هذا الكتاب، وهو أمرٌ من شأنه أن يبعث علی الملل عند القرّاء، فلكی لا يحس القرّاء بأیّ تعَب أو مَلَل من جانب،

ولأجل أن نحافظ على وثائقيه الكتاب وأصاله أبحاثه وإتقانها من طرف آخر، اكتفينا بذكر القدر اللازم من المصادر وتجنبنا تحشيدها بتلك الصوره المملّه.

وأمّا المزيه الثانيه: فإنّنا أشرنا - ضمن فصول الكتاب - إلى الاعتراضات والإشكالات، بل وأحيانا إلى مواطن الإساءه الّتى قام بها المستشرقون المغرضون وأجبْنا على جميع الانتقادات والاعتراضات غير المبرَّره وغير الصحيحه بأجوبه مقنعه وقاطعه وصحيحه، وجرَّدْناهم من الأسلحه الّتى شَهَرُوها فى وجه الإسلام ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - كما يقول المثل - وتلك حقيقه يقف عليها القارئ الكريم بنحو أجلى فى محلّها.

وعلى هذا الأساس عَمَدنا إلى ذكر رأى المؤلّفين الشيعه (فى المسائل المختلف فيها بين المؤرّخين الشيعه والمؤرّخين السنّه) مع ذكر المصادر والشواهد التاريخيه الواضحه والمبرهنه عليه، وأزحْنا كل ما يَدُور حول ذلك الرأى من شبهه أو إشكال، ويستهدف إنكار صحّته وحقّانيته.

ويشتمل كتابنا هذا على ۶۶ فصلاً فى جزأين.

إنّنا إذ نقدّمُ هذه الدراسه التحليليّه لشخصيه وحياه خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه و آله و سلم إلى القرّاء الكرام، نأمل أن يهتم بها عامّه المسلمين وخاصّه المثقفين والشّباب منهم بوجه خاصّ، ويتناولوا هذه السيره العطره بالمطالعه المتأنّيه والتأمّل والتدبّر، ونأمل أن يستطيع شبابُنا المؤمن المتحمّس من أن يرسم خريطه حياته وحياه مجتمعه، على ضوء ما يستلهمُه ويستوحيه من سيره وحياه رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه الحقبه البالغه الخطوره. واللّه وليّ التوفيق. جعفر السبحانى

۲۶ / جمادى الآخره / ۱۳۹۲ ه

۱ سیّد المرسلین فی ضوء القرآن الکریم

لقد سلّط القرآن الکریم الضوء علی رسول الإسلام محمَّد بن عبداللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی آیات کثیره تناولت بیان أسمائه ونشأته وصفاته وخصاله، وبشارات الأنبیاء السابقین به، وعصمته وأُمّیته، ورسالته، وخاتمیته، وجهوده العظیمه التی بذلها فی سبیل إبلاغ مهمّته، والخطابات الخاصّه الإلهیه الموجّهه إلیه، وما یجب علی المؤمنین تجاهه فی حیاته وبعد وفاته، وما یجب علیهم تجاه أهل بیته وعترته.

ولکی تکون هذه الرؤیه القرآنیه الشامله الدقیقه هی القاعده الإساسیه فی دراسه الشخصیه والسیره المحمَّدیه العظیمه، آثرنا إدراج طائفه من هذه الآیات فی مقدّمه هذا الکتاب.

۱. قوله تعالی: «وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» .(۱)

۲. قال تعالی: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَی الْکُفّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ» .(۲)

۳. قال تعالی: «وَ إِذْ قالَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ یا بَنِی إِسْرائِیلَ إِنِّی رَسُولُ اللّهِ إِلَیْکُمْ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْراهِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ یَأْتِی مِنْ بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ» .(۳)

۴. قال تعالی: «ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی * وَ لَلْآخِرَهُ خَیْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولی

۱- . آل عمران: ۱۴۴.

۲- . الفتح: ۲۹.

۳- . الصف: ۶.

وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى * أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى * وَ وَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدى * وَ وَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى» .(۱)

۵. قال تعالى: «أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ * اَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ» .(۲)

۶. قال تعالى: «وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ» .(۳)

۷. قال تعالى: «اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ» .(۴)

۸. قال تعالى: «اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» .(۵)

۹. قال تعالى: «اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ» .(۶)

۱۰. قال تعالى: «فَآمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» .(۷)

۱۱. قال تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ

۱- . الضحى: ۳-۸.

۲- . الانشراح: ۱-۴.

۳- . آل عمران: ۸۱.

۴- . الأعراف: ۱۵۷.

۵- . البقره: ۱۴۶.

۶- . الأنعام: ۲۰.

۷- . الأعراف: ۱۵۸.

وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَهَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِينٍ * وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» .(۱)

۱۲. قال تعالی: «وَ أَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَهَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» .(۲)

۱۳. قال تعالی: «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» .(۳)

۱۴. قال تعالی: «اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِی خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ * اَلَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ» .(۴)

۱۵. قال تعالی: «ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوی * وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوی * إِنْ هُوَ إِلّا وَحْیٌ يُوحی * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوی * ذُو مِرَّهٍ فَاسْتَوی * وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلی * ثُمَّ دَنا فَتَدَلّی * فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنی * فَأَوْحی إِلی عَبْدِهِ ما أَوْحی * ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأی * أَ فَتُمارُونَهُ عَلی ما يَری * وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَهً أُخْری * عِنْدَ سِدْرَهِ الْمُنْتَهی * عِنْدَها جَنَّهُ الْمَأْوی * إِذْ يَغْشَی السِّدْرَهَ ما يَغْشی * ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی * لَقَدْ رَأی مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْری» .(۵)

۱۶. قال تعالی: «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ * لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ» .(۶)

۱۷. قال تعالی: «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِی لَهُ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ

۱- . الجمعه: ۲-۴.

۲- . النساء: ۱۱۳.

۳- . العنكبوت: ۴۸.

۴- . العلق: ۱-۵.

۵- . النجم: ۲-۱۷.

۶- . الحاقه: ۴۴-۴۷.

مُبِينٌ» .(۱)

۱۸. قال تعالی: «وَ يَقُولُونَ أَ إِنّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ» .(۲)

۱۹. قال تعالی: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ» .(۳)

۲۰. قال تعالی: «وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ» .(۴)

۲۱. قال تعالی: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى» .(۵)

۲۲. قال تعالی: «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» .(۶)

۲۳. قال تعالی: «وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ» .(۷)

۲۴. قال تعالی: «وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا» .(۸)

۲۵. قال تعالی: «إِنّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» .(۹)

۲۶. قال تعالی: «وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً» .(۱۰)

۲۷. قال تعالی: «أَ لَيْسَ اللّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» .(۱۱)

۲۸. قال تعالی: «وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا» .(۱۲)

۱- . یس: ۶۹.

۲- . الصافات: ۳۶-۳۷.

۳- . الحاقه: ۴۰-۴۱.

۴- . التکویر: ۲۴.

۵- . الأعلی: ۶.

۶- . البقره: ۱۳۷.

۷- . المائده: ۶۷.

۸- . التوبه: ۷۴.

۹- . الحجر: ۹۵.

١٠- . الإسراء: ٧٣-٧٤.

١١- . الزمر: ٣٦.

١٢- . الطور: ٤٨.

۲۹. قال تعالی: «تِلْکَ آیاتُ اللّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعالَمِینَ» .(۱)

۳۰. قال تعالی: «اُتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ الْکِتابِ» .(۲)

۳۱. قال تعالی: «وَ اتَّبِعْ ما یُوحی إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ» .(۳)

۳۲. قال تعالی: «وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ» .(۴)

۳۳. قال تعالی: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ» .(۵)

۳۴. قال تعالی: «قُلْ یا أَیُّهَا النّاسُ إِنَّما أَنَا لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ» .(۶)

۳۵. قال تعالی: «وَ إِنَّکَ لَتَدْعُوهُمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ» .(۷)

۳۶. قال تعالی: «تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً» .(۸)

۳۷. قال تعالی: «وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلاّ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً» .(۹)

۳۸. قال تعالی: «وَ ما کانَ اللّهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ» .(۱۰)

۳۹. قال تعالی: «لَقَدْ جاءَکُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِکُمْ عَزِیزٌ عَلَیْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِیصٌ عَلَیْکُمْ» .(۱۱)

۴۰. قال تعالی: «بِالْمُؤْمِنِینَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ» .(۱۲)

۱- . آل عمران: ۱۰۸.

۲- . العنکبوت: ۴۵.

۳- . الأحزاب: ۲.

۴- . الشعراء: ۲۱۴.

۵- . الحجر: ۹۴.

۶- . الحج: ۴۹.

۷- . المؤمنون: ۷۳.

۸- . الفرقان: ۱.

۹- . الفرقان: ۵۶.

۱۰- . الأنفال: ۳۳.

۱۱- . التوبه: ۱۲۸.

۱۲- . التوبه: ۱۲۸.

۴۱. قال تعالی: «وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ» .(۱)

۴۲. قال تعالی: «إِنَّکَ لَعَلی هُدیً مُسْتَقِیمٍ» .(۲)

۴۳. قال تعالی: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ * عَلی قَلْبِکَ لِتَکُونَ مِنَ الْمُنْذِرِینَ» .(۳)

۴۴. قال تعالی: «إِنّا أَرْسَلْناکَ بِالْحَقِّ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِیمِ» .(۴)

۴۵. قال تعالی: «کَما أَرْسَلْنا فِیکُمْ رَسُولاً مِنْکُمْ یَتْلُوا عَلَیْکُمْ آیاتِنا وَ یُزَکِّیکُمْ وَ یُعَلِّمُکُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ یُعَلِّمُکُمْ ما لَمْ تَکُونُوا تَعْلَمُونَ» .(۵)

۴۶. قال تعالی: «لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ إِذْ بَعَثَ فِیهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ إِنْ کانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ» .(۶)

۴۷. قال تعالی: «هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ کَفی بِاللّهِ شَهِیداً * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ» .(۷)

۴۸. قال تعالی: «یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً * وَ داعِیاً إِلَی اللّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِیراً» .(۸)

۴۹. قال تعالی: «وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلاّ کَافَّةً لِلنّاسِ بَشِیراً وَ نَذِیراً» .(۹)

۱- . الأنبیاء: ۱۰۷.

۲- . الحج: ۶۷.

۳- . الشعراء: ۱۹۳-۱۹۴.

۴- . البقره: ۱۱۹.

۵- . البقره: ۱۵۱.

۶- . آل عمران: ۱۶۴.

۷- . الفتح: ۲۸-۲۹.

۸- . الأحزاب: ۴۶.

۹- . سبأ: ۲۸.

۵۰. قال تعالی: «قُلْ إِنَّما أَعِظُکُمْ بِواحِدَهٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنی وَ فُرادی ثُمَّ تَتَفَکَّرُوا ما بِصاحِبِکُمْ مِنْ جِنَّهٍ إِنْ هُوَ إِلّا نَذِیرٌ لَکُمْ بَیْنَ یَدَیْ عَذابٍ شَدِیدٍ» .(۱)

۵۱. قال تعالی: «فَفِرُّوا إِلَی اللّهِ إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ» .(۲)

۵۲. قال تعالی: «وَ أَرْسَلْناکَ لِلنّاسِ رَسُولاً وَ کَفی بِاللّهِ شَهِیداً» .(۳)

۵۳. قال تعالی: «وَ أَنْزَلَ اللّهُ عَلَیْکَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ عَلَّمَکَ ما لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ وَ کانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَیْکَ عَظِیماً» .(۴)

۵۴. قال تعالی: «إِنّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ» .(۵)

۵۵. قال تعالی: «لکِنِ اللّهُ یَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَیْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِکَهُ یَشْهَدُونَ وَ کَفی بِاللّهِ شَهِیداً» .(۶)

۵۶. قال تعالی: «ما کانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِکُمْ وَ لکِنْ رَسُولَ اللّهِ وَ خاتَمَ النَّبِیِّینَ» .(۷)

۵۷. قال تعالی: «قُلْ یا أَیُّهَا النّاسُ إِنِّی رَسُولُ اللّهِ إِلَیْکُمْ» .(۸)

۵۸. قال تعالی: «وَ لا یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّهَ لِلّهِ جَمِیعاً هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ» .(۹)

۵۹. قال تعالی: «فَلَعَلَّکَ تارِکٌ بَعْضَ ما یُوحی إِلَیْکَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ أَنْ یَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَکٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِیرٌ وَ اللّهُ عَلی کُلِّ شَیْ ءٍ

۱- . سبأ: ۴۶.

۲- . الذاریات: ۵۰.

۳- . النساء: ۷۸.

۴- . النساء: ۱۱۳.

۵- . النساء: ۱۶۳.

۶- . النساء: ۱۶۶.

۷- . الأحزاب: ۴۰.

۸- . الأعراف: ۱۵۸.

۹- . یونس: ۶۵.

وَكِيلٌ» .(۱)

۶۰. قال تعالى: «وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ» .(۲)

۶۱. قال تعالى: «وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ» .(۳)

۶۲. قال تعالى: «لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» .(۴)

۶۳. قال تعالى: «وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السّاجِدِينَ * وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» .(۵)

۶۴. قال تعالى: «وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلاّ بِاللّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» .(۶)

۶۵. قال تعالى: «فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً» .(۷)

۶۶. قال تعالى: «فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ» .(۸)

۶۷. قال تعالى: «وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ * وَ قَوْمُ إِبْراهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ * وَ أَصْحابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ» .(۹)

۱- . هود: ۱۲.

۲- . هود: ۱۲۰.

۳- . الرعد: ۳۲.

۴- . الحجر: ۸۸.

۵- . الحجر: ۹۷-۹۹.

۶- . النحل: ۱۲۷-۱۲۸.

۷- . الكهف: ۶.

۸- . طه: ۱۳۰.

۹- . الحج: ۴۲-۴۴.

۶۸. قال تعالی: «وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِینَ وَ کَفی بِرَبِّکَ هادِیاً وَ نَصِیراً» .(۱)

۶۹. قال تعالی: «لَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ أَلاّ یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ» .(۲)

۷۰. قال تعالی: «وَ لا تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ وَ لا تَکُ فِی ضَیْقٍ مِمّا یَمْکُرُونَ» .(۳)

۷۱. قال تعالی: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَ لا یَسْتَخِفَّنَّکَ الَّذِینَ لا یُوقِنُونَ» .(۴)

۷۲. قال تعالی: «وَ مَنْ کَفَرَ فَلا یَحْزُنْکَ کُفْرُهُ» .(۵)

۷۳. قال تعالی: «وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ وَ إِلَی اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» .(۶)

۷۴. قال تعالی: «سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی الَّذِی بارَکْنا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیاتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ» .(۷)

۷۵. قال تعالی: «فَلا تَذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَیْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللّهَ عَلِیمٌ بِما یَصْنَعُونَ» .(۸)

۷۶. قال تعالی: «وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْکِتابِ الْمُنِیرِ» .(۹)

۷۷. قال تعالی: «فَلا یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنّا نَعْلَمُ ما یُسِرُّونَ وَ ما یُعْلِنُونَ» .(۱۰)

۷۸. قال تعالی: «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِینَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ

۱- . الفرقان: ۳۱.

۲- . الشعراء: ۳.

۳- . النحل: ۱۲۷.

۴- . الروم: ۶۰.

۵- . لقمان: ۲۳.

۶- . فاطر: ۴.

۷- . الأسراء: ۱.

۸- . فاطر: ۸.

۹- . فاطر: ۲۵.

۱۰- . یس: ۷۶.

اَلْمَنْصُورُونَ» .(۱)

۷۹. قال تعالی: «وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّی حِينٍ * وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ» .(۲)

۸۰. قال تعالی: «وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّی حِينٍ * وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ» .(۳)

۸۱. قال تعالی: «اِصْبِرْ عَلی ما يَقُولُونَ» .(۴)

۸۲. قال تعالی: «أَ لَيْسَ اللّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» .(۵)

۸۳. قال تعالی: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ» .(۶)

۸۴. قال تعالی: «وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداهِ وَ الْعَشِیِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَیْ ءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَیْ ءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ» .(۷)

۸۵. قال تعالی: «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداهِ وَ الْعَشِیِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَهَ الْحَياهِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» .(۸)

۸۶. قال تعالی: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا كانُوا مَعَهُ عَلی

۱- . الصافات: ۱۷۱-۱۷۲.

۲- . الصافات: ۱۷۳-۱۷۵.

۳- . الصافات: ۱۷۸-۱۷۹.

۴- . ص: ۱۷.

۵- . الزمر: ۳۶.

۶- . المؤمن: ۵۵.

۷- . الأنعام: ۵۲.

۸- . الكهف: ۲۸.

أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَکَ أُولئِکَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوکَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَکُمْ کَدُعاءِ بَعْضِکُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْکُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» .(۱)

۸۷. قال تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاّ أَنْ يُؤْذَنَ لَکُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَ لکِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِکُمْ کانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْکُمْ وَ اللّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِکُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِکُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ ما کانَ لَکُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّهِ وَ لا أَنْ تَنْکِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِکُمْ کانَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيماً» .(۲)

۸۸. قال تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ کَجَهْرِ بَعْضِکُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُکُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أُولئِکَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَکَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَکْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَکانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .(۳)

۸۹. قال تعالى: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيکُمْ رَسُولَ اللّهِ لَوْ يُطِيعُکُمْ فِي کَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ

۱- . النور: ۶۲-۶۳.

۲- . الأحزاب: ۵۳.

۳- . الحجرات: ۱-۵.

لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ» .(۱)

۹۰. قال تعالى: «وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» .(۲)

۹۱. قال تعالى: «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» .(۳)

۹۲. قال تعالى: «وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» .(۴)

۹۳. قال تعالى: «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» .(۵)

۹۴. قال تعالى: «فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» .(۶)

۹۵. قال تعالى: «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللّهَ كَثِيراً» .(۷)

۹۶. قال تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .(۸)

۹۷. قال تعالى: «فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» .(۹)

۹۸. قال تعالى: «إِنَّ اللّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا

۱- . الحجرات: ۷.

۲- . القلم: ۴.

۳- . الحجر: ۸۸.

۴- . الشعراء: ۲۱۵.

۵- . التوبه: ۱۲۹.

۶- . آل عمران: ۱۵۹.

۷- . الأحزاب: ۲۱.

۸- . آل عمران: ۳۱.

۹- . النساء: ۶۵.

عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً» .(۱)

۹۹. قال تعالى: «إِنّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ * إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» .(۲)

۱۰۰. قال تعالى: «إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (۳).(۴)

۱- . الأحزاب: ۵۶.

۲- . الكوثر: ۱-۳.

۳- . الأحزاب: ۳۳.

۴- . ولقد بحث سماحه الأُستاذ العلّامه المحقّق الشيخ جعفر السبحانى دام ظلّه صاحب هذه المحاضرات، حول جميع هذه الآيات ونظائرها فى دراسه معمّقه وشامله فى الجزء السابع من موسوعته «مفاهيم القرآن»، فراجع.

۲ شبه الجزیره العربیه أو مَهْد الحضاره الإسلامیه

اشاره

تقع شبه الجزیرهُ العَربیه فی الجنوب الغربی من قاره آسیا، وتبلغ مساحتُها ثلاثه ملایین کیلومتر مربع، أی ضِعف مساحه إیران، وسته أضعاف فرنسا، وعشره أضعاف إیطالیا، وثمانین ضِعف سویسرا.

ویَحدُّ شبه الجزیره - الّتی هی أشبه ما یکون بمستطیل غیر متوازی الأضلاع - من الشمال فلسطین وصحراءُ الشام، ومن الشرق الحیره ودجله والفرات والخلیج الفارسی، ومن الجنوب المحیط الهندی والبحر العربی، ومن الغرب البحر الأحمر.

وعلی هذا یحاصر هذه الجزیره من الغرب والجنوب البحر، ومن الشمال والشرق الصحراء، والخلیج.

وقد جرت العاده بتقسیم هذه المنطقه من القدیم إلی ثلاثه أقسام:

۱. القسم الشمالی والغربی ویُسمّی بالحجاز.

۲. القسم المرکزی والشرقی ویُسمّی بصحراء العرب.

۳. القسم الجنوبی ویُسمّی بالیمن.

وتُشکّل داخلَ شبه الجزیره هذا صحاری کبیره، ومناطق شاسعه رملیه حاره، وغیر قابله للسکنی تقریباً، ومن جمله هذه الصحاری صحراء «بادیه السماوه» الّتی تُسمّی الیوم بصحراء «النفوذ»، وصحراء أُخری واسعه الأطراف تمتد إلی الخلیج الفارسیّ یُطلق علیها الیوم اسم «الربع الخالی» وقد کان یُسمّی قسمٌ من هذه

الصحارى سابقاً بالأحقاف، ويُسمّى القسم الآخر بالدهناء.

فعليه فالصحارى تُشكّل ثُلث مساحه شبه الجزيره العربيه، هى أراضى خاليه من الماء والعشب وغير قابله للسكنى، اللهم إلّابعض المياه المتجمّعه بسبب تساقط الأمطار، فيجتمع حولها بعض القبائل العربيه بعض الوقت، ويرعون فيها إبلهم وأنعامهم ردحاً قليلاً من الزمن.

وأمّا حاله المناخ فى شبه الجزيره العربيه، فالهواء فى الصحارى والأَراضى المركزيه (الوسطى) حارٌ وجافٌ جداً، وفى السواحل مرطوبٌ، وفى بعض النقاط معتدلٌ، وبسبب رداءه الطقس فعدد السكّان بالنسبه للمساحه قليل جدّاً.

وتوجد فى هذه الجزيره سلسله جبال تمتد من الجنوب إلى الشمال، ويقارب ارتفاع أعلى قممها ٢۴٧٠ متراً.

وقد كانت معادن الذهب والفضه والأحجار الكريمه تشكل مصادر الثروه فى شبه الجزيره العربيه منذ القدم، وكان سكّانها يعتنون – من بين الأنعام والحيوانات – بتربيه الإبل والفرس أكثر من غيرهما، ومن بين الطيور بالحمام والنعامه أكثر من الطيور الأُخرى.

بيد أنّ أكبر مصدر للثروه فى الجزيره العربيه اليوم يأتى عن طريق استخراج النفط.

وتعتبر مدينه «الظهران» – الّتى يُسمّيها الأُوربيّون بالدهران – المركز النفطى الرئيسى فى هذه الجزيره، وتقع هذه المدينه فى منطقه الأحساء الّتى تقع فى المنطقه الشرقيه من الجزيره العربيه على حدود الخليج الفارسى.

ولكى يتعرّف القارئ الكريم على الأَوضاع فى شبه الجزيره العربيه بنحو أكثر تفصيلاً فإنّنا نعمد إلى شرح الأقسام الثلاثه المذكوره:

١. «الحجاز» وهى المنطقه الّتى تشكل القسم الشمالى والغربى من الجزيره العربيه وتمتد أراضيها على ساحل البحر الأحمر ابتداء من فلسطين وحتّى حدود اليمن.

والحجاز منطقه جبليه، وذات صحار قاحله، وأراض حجريه، وصخريه، يكثر فيها الحصى.

ولقد كانت هذه المنطقه - فى التاريخ - أكثر شهره من غيرها، ومن المعلوم أنَّ هذه الشهره جاءت بسبب جمله من العوامل المعنويه والدينيه، فهى الآن تضمّ بين جوانحها بيت اللّه الحرام «الكعبه المعظمه»، قبله ملايين المسلمين، ومهوى أفئدتهم.

وقد كانت البقعهُ الّتى تقوم عليها «الكعبه المعظمه» تحظى منذ سنوات مديده قبل بزوغ الإسلام باحترام العرب وغيرهم، ولهذا حَرَّموا القتال حول الكعبه تعظيماً لها، حتّى إذا جاء الإسلام أقَرَّ للكعبه ولما حولها، مثل ذلك الاحترام، والتعظيم أيضاً.

ومن أهمّ مُدن الحجاز: «مكّه» و «المدينه» و «الطائف»، وكان للحجاز منذ القديم ميناءان هما: ميناء «جدّه» الّذى يستخدمه أهل مكّه، وميناء «ينبع» الّذى يستخدمه أهلُ المدينه، فى سَدِّ الكثير من إحتياجاتهم، ويقع هذان الميناءان على ساحل «البحر الأحمر».

مَكهُ المعظمه

وهىَ من أَشهر مُدُن العالم وأكثر المُدُن الحجازيه سُكّاناً، وترتفع عن سطح البحر بما يقارب ٣٠٠ متر.

وإذ تقع مدينه «مكّه» بين سلسلتين من الجبال لذلك فإنّها لاتُرى من بعيد.

تاريخ مكّه

يبدأ تاريخ «مكّه المكرمه» من زمن النبىّ إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد أسكن هذا النبىُّ ولده «إسماعيل» مع أُمّه «هاجر» فى أرض مكّه، فنشأ اسماعيل هناك، وتزوّج من إحدى القبائل الّتى سكنت على مقربه من تلك المنطقه، الّتى تعرف ب: قبيله جرهم.

ثم إنّ إبراهيم عليه السلام بنى وبأمر من اللّه تعالى البيت الحرام «الكعبه».

وتقول بعض الروايات الصحيحه: إنّ الكعبه بُنيت على يد النبىّ نوح عليه السلام وإنّ إبراهيم عليه السلام جدّد بناءها.

وهكذا نشأت وبعد هذا تأسّست مدينه مكّه.

وتتكوّن نواحى «مكّه» من أراض سبخه شديده الملوحه غير قابله للزراعه أصلاً، حتّى أنّ بعض المستشرقين يذهب إلى أنّه لا يوجد أيه منطقه فى العالم فى رداءه أوضاعها الجغرافيه والمحيطيه والطبيعيه، مثل هذه المنطقه.

المَدينهُ المنوَّرهُ

وهى مدينه تقع فى شمال مكّه وتبعد عنها ب: ٩٠ فرسخاً تقريباً (الفرسخ يساوى ٥,٥ كيلومتراً تقريباً) وتحيط بها بساتين ومزارع ونخيل وافره، وأرضها صالحه للزراعه.

وكانت المدينه المنوّره تُسمّى قبل الإسلام ب «يثرب»، وبعد أن هاجر إليها رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم سُمّيت بمدينه الرسول، ثم اطلقت عليها لفظه «المدينه» مجرّده، تخفيفاً.

ويحدّثنا التاريخ أنّ العمالقه كانوا أوّل من سكن هذه الديار، ثم خلف العمالقه طائفه اليهود، والأوس والخزرج الذين سُمِّى المسلمون منهم بالأَنصار فيما بعد.

هذا وقد سلمت الحجاز - على عكس سائر المناطق - من طمع الطامعين وغزو الغزاه والفاتحين، ولم نشاهد فيها أى شىء من آثار حضاره الامبراطوريتين العظيمتين آنذاك قبل الإسلام: الروم والفرس، وذلك لأنها كانت تتألَّف من أراض قاحله مجدبه غير قابله للسكنى والعيش فلم تحظ باهتمام أحد من أُولئك الفاتحين حتّى يفكّر فى تسيير العساكر، وتجييش الجيوش لفتحها ليعود بعد تحمّل الكثير من المشاكل الّتى تستلزمها عمليه الاستيلاء على أراضى تلك المنطقه، خالى الوفاض صفر اليدين.

وللوقوف على هذه الحقيقه اقرأ القصه التاليه التى نقلها «ديودرس».

عندما دخل ديميتريوس القائد اليونانى الكبير «بطرا» (وهى مدينه قديمه من مدن الحجاز) بهدف فتح جزيره العرب خاطبهُ سكّانُ تلك المدينه قائلين:

لماذا تحاربنا أيها الملك ديميتريوس ونحن من سُكان الصحارى الّتى لا تُسدُّ فيها خلّه، ترانا نقطن فى هذه البقاع القاحله فراراً من العبوديه. إقبل هديتنا، وارجع إلى حيث كنت، سنكون من أوفى الأصدقاء لك، ولكنّك إذا رغبت فى حصرنا حُرِمْتَ كلّ هناءه، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل طرق حياتنا الّتى تعوَّدناها منذ نعومه أظفارنا، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنّك لن تجد واحداً ممّن أسرت يستطيع أن يألف حياه غير الّتى ألفناها.

هنالك رأى ديميتريوس أن يقبل هديتهم وأن يرضى بالمآب.(١)

١- . حضاره العرب تأليف غوستاف لوبون: ٩١-٩٢ ترجمه عادل زعيتر.

٢ – المنطقه الوسطى والشرقيه، التى تُسمّى ب «صحراء العرب»، ومنطقه «نجد» الّتى هى جزء من هذه المنطقه، وهى أرض مرتفعه يقوم فيها بضع قُرى صغيره معدوده.

ولقد أصبحت الرياضُ – الّتى اتّخذها السعوديون عاصمه لهم بعد سيطرتهم على البلاد – من المراكز المهمه فى هذه الناحيه من الجزيره.

٣ – المنطقه الجنوبيه الغربيه من الجزيره العربيه، والّتى تسمى ب «اليمن» وتمتد طولاً من الشمال إلى الجنوب حوالى (٧٥٠) كيلومتراً ومن الغرب إلى الشرق حوالى (٤٠٠) كيلومتر.

وتقدر مساحه هذا البلد بستين ألف ميل مربع تقريباً، ولكنّها كانت – قبل ذلك – أوسع من هذا القدر، وقد كان قسم منها (وهوعدن) خلال النصف الأوّل من القرن الأخير تحت الانتداب البريطانى، ومن هنا ينتهى شمالاً إلى نجد، وجنوباً إلى عدن، وغرباً إلى البحر الأَحمر وشرقاً إلى صحراء الربع الخالى.

ومن مُدُن اليمن المعروفه مدينه «صنعاء» التاريخيه العريقه، ومن موانئها المشهوره ميناء «الحديده» الواقع على البحر الأحمر.

واليمن من أكثر مناطق الجزيره العربيه خصوبه وبركه، ولها تاريخ مشرقٌ وعريق فى المدنيه والحضاره، فقد كانت اليمن مقرّاً لملوك تُبَع، الذين حكموا اليمن سنيناً طويله، وكانت اليمن قبل الإسلام مركزاً تجارياً مهمّاً، وهى فى الحقيقه ملتقى طرق الحجاز، اشتهرت فى العصور القديمه بمناجم الذهب، والفضه، والحديد، والنحاس، وكانت تصدّر إلى خارج البلاد.

ولا تزال آثار الحضاره اليمنيه القديمه باقيه إلى الآن.

ولقد قام أهلُ اليمن الاذكياء ببناء الدور والعمارات العاليه والجميله بهممهم

العاليه فی عصور کان البشر یفقد فیها الوسائل الثقیله، والأجهزه المعقّده.

کان ملوک الیمن یحکمون البلاد دون أی منازع، إلّاأنهم رغم ذلک لم یکونوا یمتنعون عن تنفیذ ما رسمه حکماء الیمن ورجالهم من أنظمه وقوانین للحکم وإداره البلاد آنذاک.

ولقد سبقوا الآخرین فی الزراعه والفلاحه، ووضعوا لإحیاء الأراضی وزراعتها، نظاماً دقیقاً للریّ طبقوا بنوده بدقّه، ولهذا کانت بلادهم تعدّ - آنذاک - من البلدان الراقیه المتقدّمه من هذه الناحیه.

فها هو «غوستاف لوبون» المؤرّخ الفرنسی المعروف یکتب حول الیمن قائلاً: وهی أغنی جزیره العرب وأخصبها وأکثرها سکاناً، وهی أهم جزء من البقاع الّتی کان یسمّیها القدماء! بلاد العرب السعیده.(۱)

ویکتب الإدریسیّ المؤرّخ المعروف الّذی کان یعیش فی القرن الثانی عشر حول «صنعاء» قائلاً: کانت صنعاء مقر ملوک الیمن، وعاصمه جزیره العرب، وإنّه کان لملوکها قصر متین شهیر، وأنّها کانت تشتمل علی بیوت مصنوعه من الحجاره المنحوته(۲).

هذه الآثار العجیبه الّتی عثر علیها المستشرقون وعلماء الآثار فی تنقیباتهم الأخیره تثبت حضاره عجیبه للیمن فی عصورها القدیمه وذلک فی مختلف نواحیها مثل «مأرب» و «صنعاء» و «بلقیس».

ففی مدینه مأرب (وهی مدینه سبأ المعروفه) قصور نضره ذات أبواب عسجدیه، وآینه من ذهب وفضه وسرر من المعادن الثمینه. وقال أرتیمیدور: إنّ

۱- . حضاره العرب: ۵۵.

۲- . نزهه المشتاق فی اختراق الآفاق علی ما فی حضاره العرب: ۵۵.

قصورها ذات سقوف مزخرفه بالذهب والعاج والحجاره الثمينه، وذات أثاث فاخر وآنيه منقوشه.(۱)

ومن آثار «مأرب» التاريخيه السدُّ المعروفُ باسم ذلك البلد والّذى لا تزال أطلاله باقيه، وهو السدّ الّذى تهدَّم بسبب السيل الّذى سماه القرآن الكريم بسيل العَرِم.

وقد جاء ذكر سبأ فى قوله تعالى:

«لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَىْ ءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِى إِلاَّ الْكَفُورَ * وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِىَ وَ أَيّاماً آمِنِينَ * فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ» (۲).(۳)

۱- . حضاره العرب: ۹۴.

۲- . سبأ: ۱۵-۱۹.

۳- . للوقوف على المزيد من المعلومات عن اليمن قديماً وحديثاً، راجع الكتب المؤلّفه حول جغرافيه العالم الإسلامى.

۳ العَرَب قبلَ الإسلام

اشاره

لمعرفه أوضاع العرب قبل الإسلام يمكن الرجوع إلى المصادر التاليه:

۱. التوراه، رغم ما فيها من تحريف.

۲. كتابات اليونانيين والروميين فى القرون الوسطى.

۳. الكتابات التاريخيه الّتى كتبها علماء الإسلام ومؤلّفوه.

۴. الآثـار القـديمه الّتى عثر عليهـا المستشـرقون فى تنقيباتهم والّتى اسـتطاعت من أن تكشف النقاب عن طائفه لا يُسـتهان بها من الحقائق فى هذا الصعيد.

إلّا أنّه مع وجود كلّ هذه المصادر والمراجع لا تزال هناك نقاطٌ كثيرهٌ عن تاريخ العرب فى القرون البعيده تعانى من الغموض.

ولكن حيث إنَّ دراسه أوضاع العرب قبل الإسـلام هى من باب المقدّمه فى هذا الكتاب، والهدف الأساسى إنّما هو دراسه السيره النبويه الطاهره، من هنا نكتفى فى هذا الفصل باسـتعراض النقاط الخاصّه والواضحه من حياه العرب قبيل الإسلام على أنّنا يمكننا أن نقف على وصف دقيق لحاله العرب خاصّه قبيل بزوغ الإسلام من خلال مصدرين إسلاميّين أساسيّين هما:

۱. القرآن الكريم.

۲. ماورد عن الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه.

فقد وردت فى هذين المصدرين تصريحاتٌ ونصوصٌ صريحه تكشف

عمّا كان عليه العرب فى الجاهليه من سوء الأحوال والأوضاع والأخلاق فى جميع الأصعده والأبعاد، وسنشير إلى أبرز هذه النصوص ونقف عندها بعض الشيء، ولكنّنا نستعرض قبل ذلك شيئاً من تاريخ العرب فى القرون البعيده فنقول:

إنّ من المسلَّم به أنّ شبه الجزيره العربيه كانت منذ أقدم العصور موطناً لقبائل كثيره انقرض بعضها بمرور الأيام، وفى ثنايا الأحداث، بيد أنّ هناك ثلاث قبائل قد تشعَّبتْ عنها أفخاذٌ وفروعٌ تحظى بشهره أكثر من بين مَن سكنوا هذه المنطقه.

وهذه القبائل الأُمّ هى:

١. العرب البائده: وإنما سُمّيت بالبائده لأنّها أُبيدت بالعذاب الإلهى السماوىّ أو الأرضىّ بسبب عصيانها وتمرّدها، وهلكت شيئاً فشيئاً، ولم يبق على وجه الأرض من نسلهم أحد!

ولعلّهم كانوا هم المعنيون بقوم «عاد» و «ثمود» الذين جاء ذكرُهم فى القرآن الكريم مراراً.

٢. القحطانيّون: وهم أبناء يَعرُب بن قحطان الذين كانوا يقطنون فى «اليمن» وسائر المناطق الجنوبيه من الجزيره العربيه ويُسمّون بالعرب الأُصلاء، وهم اليمنيون اليوم، ومنهم قبائل الأوس والخزرج وهما قبيلتان كبيرتان كانتا تقطنان المدينه المنوره إبان ظهور الإسلام.

وقد كان للقحطانيّين حكومات كثيره، كما كانت لهم جهودٌ كبرى فى تعمير أرض اليمن وإحيائها، وقد تركوا من ورائهم حضارات ومدنيّات لا يستهان بها.

وتوجد الآن كتابات تُقرأ بصوره علميه توضّحُ إلى حدّ كبير تاريخ

القحطانيّين وكلُ ما يقال عن مدنيّه العرب وحضارتهم قبل الإسلام تعود فى الحقيقه إلى هذه الطائفه وخاصه من سكَنَ منهم أرضَ اليمن.

٣. العدنانيّون: وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وسوف يأتى ذكر جذور هذه الطبقه فى الأبحاث القادمه. وخلاصه ذلك: أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام أُمِرَ أن يسكن وَلده الرضيع إسماعيل مع زوجته «هاجر» أُم اسماعيل فى أرض مكّه، فخرج بهما إبراهيم عليه السلام من «فلسطين» وهبط بهما فى ذلك الوادى العميق الخالى من الماء والعشب «مكّه» ثم إنّ يد العنايه الإلهيه امتدّت إلى تلك العائله المهاجره، وجادت عليها بعين «زمزم» الّذى جلب الرواء والحياه إلى تلك المنطقه القاحله الضامئه. ثم تزوّج إسماعيل من قبيله «جُرهُمْ» الّتى خيّمت بالقرب من مكّه، وأصاب من هذا الزواج عدداً كبيراً من الأبناء، والأحفاد، وأحفاد الأحفاد كان من جملتهم «عدنان» الّذى ينتهى نسب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إليه.

ثم تشعَّبت ذريهُ إسماعيل إلى بطون وأفخاذ، وعشائر وقبائل عديده، كان من بينها قبيله قريش الّتى حظيت بشهره أكبر، ومنها عشيره بنى هاشم الّتى انحدر منها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كما ستعرف ذلك بالتفصيل، عمّا قريب.

أخلاقُ العرب وتقاليدُهم العامّه

والمراد منها هو الأَخلاق والآداب الاجتماعيه الّتى كانت سائده فى ذلك المجتمع، وقد سادت بعض هذه الأخلاق والعادات والتقاليد فى المجتمع العربى عامّه.

ويمكن تلخيصُ ما كانَ العربُ يتمتعون به من أخلاق وصفات حسنه عامّه فى ما يلى:

لقـد كان العرب زمن الجاهليه وبخاصّه ولـد «عـدنان» أسـخياء بالطبع، يكرمون الضـيف، وقلّما يخونون الأمانه، لا يغتفرون نقض العهود، ولا يتهاونون مع من يتنكّر للمواثيق، يضـحّون فى سبيل المعتقـد، ويتحلّون بالصـراحه الكامله، وربّما وجـد فيهم مَن تمتع بذكاء لامع، وذاكره خارقه يحفظ بها الأشعار والقصائد الطوال، والخطب المفصّله.

هـذا إلى جـانب براعتهم فى فن الشـعر والخطـابه بحيث لم يسـبقهم فى ذلـك غيرهم، وإلى جانب أنّهم كانوا مضـرب المثل فى الشجاعه والجرأه، والمهاره فى الفروسيه والرمى.

وكانوا يرون الفرار والإدبار فى الحرب عاراً لازماً، وصفه ذميمه يلام صاحبها بسببها أشدّ اللوم.

ولكن فى مقابل ذلك كلّه كانوا يعانون من مفاسد أخلاقيه تطغى على كلّ كمال عندهم، وتنسى كلّ فضيله.

ولولا تلك الكوّه المباركه الّتى فتحت عليهم من عالم الغيب، لطويت صفحه حياتهم الإنسانيه على القطع واليقين.

أى لو لم تبزغ شـمس الإسـلام فى أواسط القرن السادس الميلادى، ولم تسـطع أشـعتها الباعثه على الحياه، على عقولهم وقلوبهم لما رأيت اليوم من العرب العدنانيين أىُّ أثر، ولتكرّرت مقوله العرب البائده مرّه أُخرى!

لقـد حَوَّل فقدان القياده الرشـيده، وغياب الثقافه الصـحيحه حياه العرَب، من جانب، وانتشار الفساد والفحشاء من جانب آخر إلى حياه حيوانيه مُزريه حتّى أنّ صـفحات التاريخ تروى لنا أخباراً وقصصاً مفصّله عن حروب دام بعضها خمسين عاماً، وبعضها الآخر مئه عام قد نشبت بين القبائل العربيه لأسباب بسيطه ودوافع تافهه جدّاً.

لقد أدّى عدم سياده النظام والقانون على الحياه العربيه، وعدم وجود حكومه قويّه مسيطره على الأوضاع، تُوقف البغاه والمتمرّدين عند حدودهم، إلى أن يعيش العرب - آنذاك - فى صوره القبائل الرُحّل، ويرحلوا فى كلّ سنه إلى منطقه معيّنه من الصحراء التماساً للعشب والماء لأنفسهم ولأنعامهم، فإذا عثروا على ماء وعُشب أو شىء من آثار الحياه نزلوا عنده، وأنزلوا رحالهم بجواره، فإذا سمعوا عن وجود مكان أفضل استأنفوا رحلتهم الصحراويه التماساً لحياه أكثر بركه، وعطاء، وأوفر خصباً وأمناً. هذه الحيره وهذا الضياع وعدم الاستقرار كان ناتجاً من أمرين:

الأوّل: سوء الأوضاع الجغرافيه ورداءه الأحوال الطبيعيه للجزيره العربيه، وخاصّه من حيث الماء والمناخ والمراعى.

والثانى: الحروب والمصادمات الدمَويه الكثيره، واضطراب الأحوال الاجتماعيه، الّتى كانت تُلجئ جماعات كثيره إلى التنقل الدائم والرحيل عن الأوطان ومغادرتها، وعدم الاستقرار فى منطقه واحده.

هل كانَ للعرب حضَارةٌ قبل الإسلام؟

يستنتج مؤلّف كتاب «حضاره العرب» من دراسته لأوضاع العرب فى الجاهليه أنّهم كانوا أصحاب حضاره عريقه سبقت الإسلام بقرون.

فالقصور الضخمه الّتى أقاموها فى مختلف نقاط ومناطق الجزيره العربيه، والعلاقات التجاريه الّتى كانت لهم مع أرقى شعوب الأَرض، شواهد قويه على تمدّنهم وحضارتهم الغابره، لأنّ قوماً أنشأوا المدن العظيمه - قبل الرومان بقرون كثيره - وكانت علاقاتهم بأرقى وأكبر شعوب الأرض وثيقه، لا يمكن عدّهم همجاً، وشعباً بلا حضاره.

ثم إنّه يستدل – فی موضع آخر من کتابه – علی حضاره العرب الغابره بآدابهم ووحده وکمال لغتهم إذ یقول:

«ولو کان التاریخ صامتاً إزاء حضاره لقطعنا – مع ذلک – بوجودها قبل ظهور «محمَّد» بزمن طویل، ویکفی لتمثّلها أن نذکر أنّه کان للعرب آداب ناضجه ولغه راقیه.

والحق أنَّ الآداب واللغه من الأُمور الّتی لا تأتی عفواً، وهی تتّخذ دلیلاً علی ماض طویل، وینشأ عن اتّصال أُمّه بأرقی الأُمم اقتباسُها لما عند هذه الأُمم الراقیه من التمدّن إذا کانت أهلاً لذلک».

وقد خَصَّصَ المؤلّفُ المذکور صفحات عدیده فی کتابه لإثبات حضاره عریقه وعظیمه للعرب قبل الإسلام معتمداً فی ذلک علی ثلاثه أُمور:

۱. وجود لغه راقیه.

۲. وجود علاقات مع الأُمم الراقیه.

۳. وجود قصور وأبنیه ضخمه، وفخمه فی الیمن کما یصفها المؤرّخان المسیحیان المعروفان «هیردوتس» و «ارتمیدور» اللذان کانا یعیشان قبل المسیح بقرون، وقدامی المؤرخین المسلمین کالمسعودی(۱).

لا کلام فی أنّه کانت هناک فی بعض مناطق الجزیره العربیه بعضُ حضارات، ولکن الأدلّه الّتی استند الیها المؤلفُ المذکورُ لا یمکن أن تکون شاهداً ودلیلاً علی وجود الحضاره فی جمیع نقاط الجزیره العربیه أبداً.

صحیح أنّ تکامل اللغه یسیر جنباً إلی جنب مع غیره من مظاهر المدنیّه، ولکن لا یمکن أن نعتبر اللغه العربیه لغه مستقله وغیر مرتبطه باللغات الأُخری، أی

۱- . لاحظ: حضاره العرب: ۷۸-۱۰۰.

العبرانيه والسريانيه والآشوريه والكلدانيه، لأنّ جميع هذه اللغات - حسب ما يؤيّده ويؤكّده المتخصّصون فى علم اللغات - كانت ذات يوم متّحده الأصل، وقد تشعّبت من لغه واحده، وفى هذه الحاله يحتمل أن تكون اللغه العربيه قد حقّقت تكاملها عبر اللغه العبرانيه أو الآشوريه، وبعد تكاملها أصبحت لغه مستقله، أى أنّ الآخرين أسهموا فى تكميلها.

كما أنه لا شكّ أنّ وجود علاقات تجاريه مع الأُمم والشعوب الراقيه هو الآخر دليل على الحضاره والمدنيه، إلّاأنّه هل كانت جميع مناطق الجزيره العربيه تملك مثل هذه العلاقات، أم إنّ أكثرها كانت محرومه من ذلك؟

هذا من جهه.

ومن جهه أُخرى فإنّ وجود علاقات بين حكومتين فى الحجاز وهما:

«الحيره وغسّان» وبين حكومتى «الفرس» و «الروم» لا يدل أبداً على وجود حضاره فى المنطقتين الحجازيتين، إذ أن جميع هذه الحكومات كانت متّصفه بالعماله، فإنّ الكثير من البلاد الافريقيه هى اليوم من مستعمرات الدول الأُوربيه ومع ذلك لا توجد فيها أيّه مؤشرات ولا أيّه مظاهر من الحضاره الغربيه الواقعيه. طبعاً لا يمكن إنكار حضاره «سبأ ومأرب اليمن» العجيبه لأنّه مضافاً إلى ما جاء حول هذه الحضاره فى التوراه، وما نُقِلَ عن «هيردوتس» وغيره، كتبَ المؤرّخ المعروفُ «المسعودى» عن مأرب يقول: إنّ أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأَثراها وأغدقها، وأكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مُروجاً، مع بُنيان حسن، وشجر مصفوف، ومساكب للماء متكاثفه، وأنهار وأزهار متفرّقه، وكانت مسيره أكثر من شهر للراكب المجدّ على هذه الحاله، وفى العرض مثل ذلك، وأنّ الراكب والمارّ كان يسير فى تلك الجنان من أوّلها إلى أن ينتهى إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه لاستتار الأرض بالعماره الشجريه واستيلائها عليها وإحاطتها

بها، وكان أهلها فی أطيب عيش وأرفهه، وأهنأ حال وأرغـد قری، وفی نهايه الخصب وطيب الهواء وصـفاء الفضاء، وتـدفّق الماء وقوه الشوكه، واجتماع الكلمه، ونهايه المملكه... فذلّت لهم البلاد، وأذعن لطاعتهم العباد فصاروا تاج الأرض.(۱)

وخلاـصه القول: إنّ هـذه الـدلائل لا تـدلّ علی وجود حضاره فی كلّ مناطق الجزيره العربيه وخاصّه منطقه الحجاز الّتی لم تـذق طعم الحضاره أبـداً، حتّی أنّ «غوسـتاف لوبون» نفسه يعترف بهذه الحقيقه إذ يقول: إنّ جزيره العرب نجَتْ من غزو الأجنبی خلا ما أصاب حـدودها الشـماليه، وإنّ عظماء الفاتحين من مصـريّين وأغارقه ورومان وفرس وغيرهم ممّن انتهبوا العالم لم يَنالوا شـيئاً من جزيره العرب الّتی أوصدت دونهم أبوابها.(۲)

وعلی فرض صحّه كلّ ما قيلَ عن وجود حضاره شامله فی جميع مناطق الجزيره العربيه فإنّه يجب القول بأنّ القدر المسلَّم فی هذا المجال هو أنّه لم يبق أی أثر من هـذه الحضارات فی منطقه الحجاز، إبان طلوع الإسـلام، وبزوغ شـمسه، وهی حقيقه يصـرّح بها القرآن الكريمُ إذ يقول تعالی: «وَ كُنْتُمْ عَلی شَفا حُفْرَهٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها» .(۳)

وينْبغی هنا أن نقف عنـد القرآن الكريم قليلاً - كما وعَدْنا بذلك - فإنّه خير مرآه تعكس أحوال العرب وأوضاعهم بدقّه متناهيه وبشموليه ماوراءها شموليه.

ملامح المجتمع الجاهلی العربی من منظار القرآن الكريم

اشاره

إنّ القرآن يكشف إجمالاً عن أنَّ النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم بُعِثَ إلی قوم لم يبعث إليهم

۱- . مروج الذهب: ۲/۱۶۱ و ۱۶۲.

۲- . حضاره العرب: ۹۳.

۳- . آل عمران: ۱۰۳.

أحدٌ قبله إذ يقول: «وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» .(۱)

ويقول فی آیه أُخری: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» .(۲) ومن المعلوم أنّ المقصود فی هاتین الآیتین ونظائرهما هم قریش والقبائل القریبه منها.

علی أنّ أشمل وصف قرآنیّ لأوضاع المجتمع العربی الجاهلی وأحواله هو قول اللّه تعالی: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» .(۳)

فإنَّ هذه الآیه تصوّرُ حیاه العرب تصویراً مرعباً، إذ تُصوِّرُهُمْ أوّلاً وکأنّهم قد سقطوا فی قعر بئر الجاهلیه، والضلال، والشقاء، فلا ینقذهم شیء من قعر التردّی والسقوط إلّاالتمسُّک بحبل اللّه، حبل الإیمان والقرآن.

وتصوِّرُهُمْ ثانیاً وکأنّهم علی شفیر جهنم یوشک أن یسقطوا فیه ویهووا فی نیرانه، ولیست تلک النار إلّانیران العداوات والحروب الّتی لو لم یقض علیها الإسلامُ بتعالیمه لأحرقت حیاه العرب جمیعاً.

هذه هی صورهٌ سریعهٌ عمّا کان علیه العرب فی الجاهلیه من جهل وتردّی.

وأمّا تفصیل ذلک فیمکن الوقوف علیه بمراجعه الآیات الأُخری التی تعرضت لذکر عادات العرب وأخلاقهم، وأفعالهم، وتقالیدهم، بصوره مفصّله، وها نحن نشیر هنا إلی تلکم العادات والأخلاق الفاسده علی ضوء تلک الآیات علی

۱- . القصص: ۴۶.

۲- . السجده: ۳.

۳- . آل عمران: ۱۰۳.

نحو الاختصار تاركين التوسّع فی ذلک إلی مجال آخر.

لقد اتّصف المجتمعُ العربیُ الجاهلی قبل الإسلام وشاعت فیه أخلاق وعادات من أبرزها مایلی:

۱. الشِرْکُ فی العِباده

صحیح أنّ العرب فی الجاهلیه کانت - کما یکشف القرآن ذلک لنا - موحِّده فی جمله من الأُمور والمجالات کالخالقیه والذات،(۱) إلّاأنّهم کانوا - فی الأکثر - مشرکین فی العباده، بل قد ذَهبُوا فی هذا السبیل الباطل إلی أحطّ المستویات فی اتّخاذ المعبودات والوثنیه.

وإلی ذلک یشیر قوله تعالی: «وَ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَکاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِینَ وَ بَناتٍ بِغَیْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمّا یَصِفُونَ» .(۲)

وقوله تعالی: «أَ فَرَأَیْتُمُ اللاّتَ وَ الْعُزّی * وَ مَناهَ الثّالِثَهَ الْأُخْری» .(۳)

وغیر ذلک من الآیات الّتی تشیر إلی ما کانَ یعبُدُه الجاهِلیُّون مِن أوثان وأصنام ومبلغ ما وصلوا إلیه من انحطاط، واسفاف وانحراف فی هذا المجال.

۲. إنکارُ المعاد

کان المشرکون والجاهلیّون یرفُضُون الاعتراف بالمعاد الّذی یعنی عوده الإنسان إلی الحیاه فی عالم آخر للحساب والجزاء، ویصفون مَن یخبر عن ذلک

۱- . نعم یُستَفاد من آیهٍ واحدهٍ أنّه کان هناک اتجاهٌ نادرٌ بین العرب فی الجاهلیه ینسب الظواهرالطبیعیه إلی الطبیعه والدهر یقول اللّه تعالی: وَ قالُوا ما هِیَ إِلاّ حَیاتُنَا الدُّنْیا نَمُوتُ وَ نَحْیا وَ ما یُهْلِکُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّ یَظُنُّونَ» (الجاثیه: ۲۴).

۲- . الأنعام: ۱۰۰.

۳- . النجم: ۱۹ و ۲۰.

اليوم بالجنون أو الكذب على اللّه!!

يقول تعالى: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ فِي الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ» .(۱)

۳. هَيْمَنهُ الخرافات

لقد كانت حياه العرب الجاهليه مليئهً بالخرافات الّتى كان منها تحريمهم الأكل من أنعام أربعه ذكرها القرآن منـدّداً بهذه البدعه إذ قال: «ما جَعَلَ اللّهُ مِنْ بَحِيرَهٍ وَ لا سائِبَهٍ وَ لا وَصِيلَهٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ» .(۲)

البحيره على وزن فعيله بمعنى المفعول من البحر وهو الشق، وبحرت أُذن الناقه أبحرها بحراً: إذا شققتها شقاً واسعاً. وهى الناقه إذا كانت نتجت خمسه أبطن، وكان آخرها ذكراً - وقيل أُنثى - بحروا أُذنها وامتنعوا من ركوبها ونحرها، ولا تُطرد عن ماء، ولا تُمنع من مرعى، وإذا لقيها المعيى لم يركبها.(۳)

والسائبه: على وزن فاعله من ساب الماء إذا جرى على وجه الأرض. وهى المخلاه وهى المسيبه. وكانوا فى الجاهليه إذا نذر إنسان نذراً لقدوم من سفر أو برء من مرض أو ما أشبه ذلك قال: ناقتى سائبه فكانت كالبحيره فى التخليه.(۴) وقيل هى الّتى تسيّب للأصنام أى تعتق لها. وقيل: إنّ السائبه هى الناقه إذا تابعت بين عشر

۱- . سبأ: ۷ و ۸.

۲- . المائده: ۱۰۳.

۳- . مجمع البيان: ۳/۴۳۰-۴۳۱.

۴- . التبيان: ۴/۳۸.

إناث ليس فيهن ذكر، سيبت فلم يركبوها ولم يجزّوا وبرها ولم يشرب لبنها إلّا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها، ثم يخلّى سبيلها مع أُمها وهى البحيره.(۱)

الوصيله: على وزن فعيله وهى فى الغنم كانت الشاه إذا ولدت أُنثى فهى لهم، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأُنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم. وقيل: كانت الشاه إذا ولدت سبعه أبطن فإن كان السابع جدياً ذبحوه لآلهتهم ولحمه للرجال دون النساء، وإن كان عناقاً استحيوها وكانت من عرض الغنم، وإن ولدت فى البطن السابع جدياً وعناقاً قالوا: إنّ الأُخت وصلت أخاها فحرّمته علينا، فحرما جميعاً، فكانت المنفعه واللبن للرجال دون النساء.

وقيل: الوصيله: الشاه إذا أتأمت عشر إناث فى خمسه أبطن ليس فيها ذكر، جعلت وصيله فقالوا: قد وصلت، فكان ما ولدته بعد ذلك للذكور دون الإناث.(۲)

والحام: هو الذكر من الإبل كانت العرب إذا أنتجت من صلب الفحل عشره أبطن قالوا: قد حمى ظهره، فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء، ولا من مرعى.۳

والظاهر أنّ هذا المذهب تجاه هذه الأنواع من الأنعام كان بدافع الاحترام والشكر لما وهب أصحابها من النعم والبركات، غير أنّ هذا العمل - كان فى حقيقته - نوعاً من الإيذاء والإضرار بهذه الحيوانات، لأنّهم كانوا يُهملونها ويحرمونها من العنايه اللازمه فكانت تشقى بقيه حياتها، وتقاسى من الحرمان، مضافاً إلى ما كان يصيبُها من التلف والضياع، وما يلحق ثروتهم والنعم الّتى وهبها اللّه لهم من هذا الطريق من الضرر والخساره.

۱- . مجمع البيان: ۳/۴۳۰ و ۴۳۲.

۲- (۲و۳) . مجمع البيان: ۳/۴۳۲.

والأسوأ من كلّ ذلك أنّهم - كما يُستفاد من ذيل الآيه - كانوا ينسبون هذه المبتدعات المنكرات وهذا المنع والحظر إلى اللّه سبحانه وتعالى، إذ يقول سبحانه: «وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ» وقد أعلمَ اللّه فى مطلع الآيه أنّه لم يحرّم مِن هذه الاشياء شيئاً، وأنّهم ليكذبون على اللّه بادّعائهم أنّ هذه الأشياء من فعل اللّه أو أمره.

وقد أشار القرآن إلى هذه الخرافات الّتى كانت تُكبّل عقول الناس فى ذلك المجتمع إذ يقول: «وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِى كانَتْ عَلَيْهِمْ» .(۱)

۴. الفساد الأخلاقى

كان المجتمع الجاهلى العربى يعانى من فساد ذريع فى الأخلاق، وقد أشار القرآن الكريم إلى اثنين من أبرز وسائل الفساد ومظاهره هما: القمار (الّذى كانوا يسمّونه بالميسر، وإنّما اشتق من اليسر لأنّه أخذ مال الرجل بيُسر وسهوله من غير كدٍّ ولا تعب) والخمر.

وقد بلغ شغفهم بالخمر أنّهم أعرضوا عن قبول الإسلام واعتناقه لأنّه يحرّم تناول الخمر وشربه، كما نقرأ ذلك فى قصه الأعشى عمّا قريب.

يقول القرآنُ فى هذا الصعيد: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما» .(۲)

وقد استطاع القرآن الكريم عبر مراحل أربع أن يستأصل هذه العاده البغيضه الّتى كانت قد تجذرت بشكل عجيب فى نفوس أُولئك القوم، حتّى أصبحت السمه البارزه لحياتهم وأصبح التغنّى بالخمره، ووصفها الطابع الغالب لآدابهم،

۱- . الأعراف: ۱۵۷، وراجع المحبّر: ۳۳۰-۳۴۰.

۲- . البقره: ۲۱۹.

واللون البارز الّذى يصبغ قصائدهم وأشعارهم.

على أنّ الفساد الأخلاقى فى المجتمع الجاهلى العربى قبل الإسلام لم يكن ليقتصر على معاقره الخمر، ومزاوله الميسر؛ بل تعدّى إلى ألوان أُخرى ذكرها القرآن الكريم فى ثلاثه عشر موضعاً، حيث عدّ منها الزنا، واللواط، والقذف، وإكراه الفتيات على البغاء، وما شاكل ذلك.(۱)

۵. وَأدُ البنات وإقبارُهن

يشير القرآن الكريم أيضاً إلى عاده جاهليه سيئه أُخرى كانت رائجه بين قبائل العرب الجاهليه قاطبه وهى دفن البنت حيةً.

فقد شجب القرآن الكريم هذه العاده البغيضه وهذا العمل اللا إنسانى ونهى عنه بشده فى أربعه مواضع، إذ قال تعالى: «وَ إِذَا الْمَوْؤُدَهُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» (۲). وقال تعالى: «وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَهَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً» .(۳)

وقد أتى جدُ «الفرزدق» «صعصعه بن ناجيه بن عقال» رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وعدّ من أعماله الصالحه فى الجاهليه أنّه فدى مئتين وثمانين موؤده فى الجاهليه، وأَنقَذهُنَّ من الموت المحتَّمْ باشترائهنَّ من آبائهن بأمواله.

وقد افتخر «الفرزدق» بإحياء جدِّه للموءُودات فى كثير من شعره إذ قال:

ومنّا الّذى منَع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يُوأد(۴)

۱- . راجع للوقوف على ذلك: سوره النساء: ۱۵ و ۱۶. وسوره النور: ۲ و ۳ وغيرها. وراجع المحبّر: ۳۳۰-۳۴۰.

۲- . التكوير: ۸ و ۹.

۳- . الإسراء: ۳۱.

۴- . بلوغ الأرب فى معرفه أحوال العرب: ۳/۴۵-۴۶.

۶. تصوّراتهم الخرافيه حول الملائكه

وممّا أشار إليه القرآن الكريم تصورات عرب الجاهليه حول الملائكه، فقد كانوا يعتقدون أنّ الملائكه من الإناث وأنّهن بنات اللّه، إذ يقول تعالى:

«فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَهَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ * أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ * ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» .(۱)

۷. كيفيه الانتفاع من الأنعام

إذا كانت العربُ الجاهليه تمتنع من تناول لحوم الأنعام الأربعه المذكوره آنفاً وتجتنب عن استعمال ألبانها وشعورها وأصوافها إلّاأنّها كانت فى المقابل تتناول الدم، والميته والخنزير، وتأكل من الحيوانات والأنعام الّتى تقتلها بصوره قاسيه، وبالتعذيب والأذى، وربّما كانت تعتبر ذلك نوعاً من العباده، ويُعرف ذلك من الآيه التاليه الّتى نزلت تنهى بشده عن أكل هذه اللحوم، وتحرّم تناولها، إذ يقول سبحانه:

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَهُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَهُ وَ الْمَوْقُوذَهُ وَ الْمُتَرَدِّيَهُ وَ النَّطِيحَهُ وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ إِلاّ ما ذَكَّيْتُمْ وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ» .(۲)

فقد حرم اللّه فى هذه الآيه أكل:

۱. الميته.

۲. الدم.

۳. لحم الخنزير.

۱- . الصافّات: ۱۴۹-۱۵۴.

۲- . المائده: ۳.

۴. ما ذكر اسم غير اللّه عليه.

۵. الّتى تموت خنقاً، وهى المنخنقه.

۶. الّتى تضرب حتّى تموت، وهى الموقوذه.

۷. الّتى تقع من مكان عال فتموت وهى المترديه.

۸. الّتى تموت نطحاً من حيوان آخر وهى النطيحه.

۹. ما افترسه سبع إلا إذا ذُكى قبل موته.

۱۰. وما ذُبِح أمام الأصنام.

۸. الاستقسام بالأزلام

فقد كان تقسيم لحم الذبيحه يتم عن طريق الأزلام، والأزلام جمع (زلم) بوزن (شَرَف) وهى عيدان وسهام تستخدم فى ما يشبه القرعه لتقسيم لحم الذبيحه.

فقد كان يشترى عشره أنفار بعيراً ثم يذبحونه، ثم يكتبون على سبعه منها اسهماً مختلفه من الواحد إلى السبعه ولا يكتبون على ثلاثه منها شيئاً، ويجعلونها فى كيس ثم يستخرجونها واحده بعد أُخرى، كلُ واحده باسم أحدهم فيأخذ كل واحد منهم من الذبيحه ما خرج له من السهم، وهكذا يقتسمون الذبيحه بينهم(۱)، فنهاهم اللّه عن ذلك بقوله: «وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ» لأنَّه ضربٌ من القمار الّذى ينطوى على مفاسد الميسر والقمار.

۹. النسىء

كان العرب الجاهليون يعتقدون حرمه الأشهر الحرم (وهى أربعه: المحرّم،

۱- . راجع للوقوف على تفصيل هذه الطريقه بلوغ الأرب: ۳/۶۲-۶۳، والمحبّر: ۳۳۲ و ۳۳۵.

ورجب وذوالقعده، وذوالحجه) فكانوا يتحرّجون فيها من القتال، وجرت عاده العرب على هذا من زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

إلّا أنّ سَدَنه الكعبه أو رؤساء العرب كانوا يعمَدُون أحياناً، ولقاء مبالغَ يأخذُونها، أو جرياً مع أهوائهم، إلى تأخير الأشهر الحُرمَ، وهو الأمر الّذى عبّر عنه القرآن الكريم بالنسىء ثمّ نهى عنه وعدّه كفراً إذ قال: «إِنَّمَا النَّسِيٓءُ زِيادَهٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّهَ ما حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ» .(۱)

وقد ذكرت كُتُب التاريخ والسير كيفيه النسىء وتأخير الأشهر الحرم، الّذى كان يتمّ بصور مختلفه منها: أنّ جماعه ما لو كانت ترغب فى استمرار الغاره والقتال ولم تطق تأخير الحرب مده الأشهر الحرم كانت تطلب من سدنه الكعبه، لقاء ما تقدّمه لهم من هدايا وأموال، تجويز الغاره والقتال فى شهر مُحرّم، وتحرم القتال فى شهر صفر بدله ليتم عدد الأشهر الحرم (وهى أربعه). وهذا هو معنى قوله تعالى:

«لِيُواطِؤُا عِدَّهَ ما حَرَّمَ اللّهُ» وكانوا إذا أحلُّوا الْقتالَ والغاره فى المحرّم من سنه حَرَّمُوه فى المحرّم مِنَ السَنه التاليه، وهذا هو معنى قوله تعالى: «يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً» .

۱۰. الربا

وممّا يشير إليه القرآنُ الكريم من المفاسد الشائعه، والأعمال المنكره فى المجتمع العربى الجاهلى قبل الإسلام: «الربا» الّذى كان يشكل العمود الفقرى فى اقتصاد ذلك المجتمع.

وقد حاربَ القرآنُ الكريمُ هذه العاده المقيته، وهذا الفسادَ الاقتصادى حرباً

۱- . التوبه: ۳۷.

شعواء، إذ قال تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ» .(۱)

والعجيب أنهم كانُوا يُبرّرونَ هذا العمل اللا إنسانى بقولهم «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا» (۲) فإذا كان البيعُ حلالاً وهو أخذ وعطاء فليكن الرّبا كذلك حلالاً، فإنّه أخذٌ وعطاء أيضاً، مع أن «الرّبا» من أبشع صور الاستغلال، وقد ردَّ سبحانه على هذه المقاله بقوله تعالى: «وَ أَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا» (۳) ففى البيع والشراء يتساوى الطرفان فى تحمّل الضرر المحتمل، بينما لا يتضرّر المرابى فى النظام الربوى أبداً وإنّما يلحق الضرر بمعطى الربا دائماً، ولهذا تنمو المؤسّسات الربويه، ويعظم رصيدُها، وثروتها يوماً بعد يوم فيما يزداد الطرفُ الآخر بؤساً وفقراً، ولا يحصل من جهوده المضنيه إلّاعلى ما يسدُّ جوعته، ويقيم أوده، لا أكثر، كلُّ ذلك نتيجه لهذا الأُسلوب الاقتصادى غير العادل.

صورٌ من الوضع الجاهلى

ما قدّمناه كان أبرز المفاسد الأخلاقيه والاجتماعيه والاقتصاديه والسياسيه الّتى أشار اليها القرآن الكريمُ، وأمّا التاريخ فملىء بالصور والقصص الّتى تحكى عن تردّى حاله العرب الجاهليه وسقوطها الفظيع فى قعر الفساد فى جميع المناحى والجهات.

واليك فى ما يلى نماذج وصوراً معدوده تكفى للوقوف على الحاله العامّه فى ذلك المجتمع نقتبسها لك من أصحّ المصادر وأوثقها:

۱- . البقره: ۲۷۸ و ۲۷۹.

۲- . البقره: ۲۷۵.

۳- . البقره: ۲۷۵.

وهـا نحن نقـدم قصه «أسـعد بن زراره» الّتى تسـلّط الضوء على مـا كـان عليه الوضع الجـاهلى فى أكثر منـاطق الحجـاز، فقـد قال الطبرسـى فى «إعلام الورى بأعلام الهـدى»: قـدم «أسـعد بن زراره» و «ذكوان بن عبد قيس» وهما من الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حرب قـد بقوا فيهـا دهراً طويلاً- وكـانوا لا- يضـعون السـلاح لا- بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم «يوم بُعاث» وكانت للأوس على الخزرج؛ فخرج أسـعد بن زراره وذكوان إلى مكّه فى عمره رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسـعد بن زراره صديقاً لعتبه بن ربيعه، فنزل عليه فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حربٌ وقد جئناك نطلب الحلف عليهم، فقال له عتبه: بعدت دارنا من داركم ولَنا شـغل لا نتفرّغ لشـىء. قال سـعد: وما شـغلكم وأنتمْ فى حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبه: خرج فينا رجلٌ يدّعى أنّه رسول اللّه، سـفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا وأفسدَ شُـبّاننا، وفرّق جماعَتَنا، فقال له أسعد: مَن هو منكم؟ قال: ابن عبداللّه بن عبدالمطلب من أوسـطنا شـرفاً، وأعظمنا بيتاً. وكان أسعد وذكوان، وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم - النضـير وقريظه وقينقـاع - أنّ هـذا أوان نبىّ يخرج بمكّه يكون مهاجره بالمـدينه لنقتلنكم به يا معشـر العرب، فلمّا سـمعَ ذلك أسـعد وقع فى قلبه مـا كان سـمعَ من اليهود، قال: فأينَ هو؟ قال: جالس فى الحجر، وإنّهم لا يخرجون من شـعبهم إلّافى الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلّمه فإنّه ساحر يسحرك بكلامه، وكان هذا فى وقت محاصَره بنى هاشم فى الشعب، فقال له «أسعد»: فكيف أصـنعُ وأنا معتمر لابدَّ لى أن أطوف بالبيت؟ قال: ضعْ فى أُذنيكَ القطنَ، فدخل «أسـعدُ» المسـجد وقد حشا أُذُنيه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول اللّه جالس فى الحجر مع قوم من بنى هاشم، فنظر إليه نظره فجازه، فلمّا كان فى الشوط الثانى قال فى نفسه:

ما أجد أجهلَ منى؟ أيكونُ مثل هذا الحديث بمكّه فلا أتعرّفه حتّى أرجع إلى قومى

فأخبرهم، ثم أخذ القطن من أذنيه ورمى به وقال لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: أنعَمْ صباحاً، فرفع رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم رأسه إليه وقال: قد أبدَلَنا اللّه به ما هو أحسن من هذا، تحيه أهل الجنه: السلام عليكم، قال له أسعد: إنَ عهدَك بهذا لقريب، إلى مَا تدعُويا محمَّد؟ قال: إلى شهاده ألّا إله إلّااللّه، وإنّى رسولُ اللّه، و أدْعُوكُمْ إلى: «أَلّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ بِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» .(۱)

فلمّا سمع «أسعد» هذا قال له: أشهد أن لا إله إلّااللّه، وأنك رسولُ اللّه، يا رسول اللّه بأبى أنت وأُمّى....(۲)

إنّ الامعان فى مفاد هاتين الآيتين يغنينا عن دراسه شامله وواسعه لأوضاع العرب الجاهليه؛ لأنّ هاتين الآيتين تكشفان عن الأمراض الأخلاقيه الّتى كانت تكتنف حياه العرب الجاهليه. ولهذا تلا رسول اللّه الآيات الّتى تشير إلى هذه الأدواء والأمراض ليلفت نظر «أسعد» إلى أهداف رسالته الكبرى.

العقيده والدين فى الجزيره العربيه

عند ما رفع «إبراهيم الخليل» عليه السلام لواء التوحيد فى البيئه الحجازيه، وأعاد بناء الكعبه المعظمه ورفع قواعدها بمعونه ابنه «إسماعيل»، تبعه فى ذلك طائفه من الناس ممّن أنار اللّه به قلوبهم، إلّاأنّه من غير المعلوم إلى أىّ مدى استطاع ذلك

۱- . الأنعام: ۱۵۱-۱۵۲.

۲- . بحار الأنوار: ۱۹/۸-۹؛ إعلام الورى: ۱/۱۳۷-۱۳۸.

النبیّ العظیم أن یعمّم دین التوحید ویبسط لواءه علی الجمیع، ویؤلّف صفوفاً متراصّه، وجبهه عریضه قویّه من الموحّدین، غیر أنّ من المعلوم أنّه أصبحت تلک المنطقه مسرحاً للوثنیه ولعباده الأشیاء المختلفه مع الأیام فقد کانت الطبقه المثقّفه من العرب تعبد الکواکب والقمر، فهذا هو المؤرّخ العربی الشهیر الکلبی الّذی توفّی عام ۲۰۶ هجریه یکتب فی هذا الصدد قائلاً کان «بنوملیح» من خزاعه یعبدون الجن، وکانت «حمیر» تعبد الشمس، و «کنانه» تعبد القمر، و «تمیم» الدبران، و «لخم» و «جذام» المشتری، و «طی» سُهیلاً، و «قیس» الشِّعری، و «أسد» عطارداً.

أمّا الدهماء والذین کانوا یشکلون أغلبیه سکان الجزیره فقد کانوا یعبدون - مضافاً إلی الصنم الخاص بالقبیله أو العائله - ثلاثمئه وستین صنماً، وکانوا ینسبون أحداث کلّ یوم من أیّام السنه إلی واحدٍ منها.

وقد دخَلَتْ عبادهُ الأصنام والأوثان فی مکّه بعد «إبراهیم الخلیل» علیه السلام علی ید «عمر بن لحی»، ولکنّها لم تکن فی بدایه أمرها بتلک الصوره الّتی وصلت إلیها فی ما بعد فقد کانوا یعتبرونها فی بدایه الأمر شفعاء إلی اللّه ووسطاء بینه وبینهم، ولکنّهم تجاوزوا هذا الحدّ فی ما بعد حتّی صاروا یعتقدون شیئاً فشیئاً بأنّها ذوات قدره ذاتیه مستقله، وأنّها بالتالی آلهه وأرباباً.

وکانت الأصنام المنصوبه حول الکعبه تحظی باحترام جمیع الطوائف العربیه، ولکن الأصنام الخاصّه بالقبائل کانت موضع احترام جماعه خاصّه فقط، ولأجل أن تبقی حرمه هذه الأصنام والأوثان الخاصّه محفوظه لا یمسّها أحد بسوء کانوا ینشئون لها أماکن وبیوت خاصّه، وکانت سدانه هذه البیوت والمعابد تنتقل من جیل إلی آخر بالوراثه.

أمّا الأصنام العائلیه فقد کانت العوائل تقتنیها للعباده کل یوم ولیله، فإذا أراد

أحدهم السفر كان آخر ما يصنعه فی منزله هو أن يتمسّح به أيضاً.

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعه أحجار فنظر إلی أحسنها، واتخذهُ رَبّاً وجعَلَ ثلاثه أثافیّ لقدْره، وإذا ارتحل تركه.

وكان من شَغَفَ أهلِ مكّه وَحُبّهم للكعبه والحرم أنّه كان لا يسافر منهم أحدٌ إلّا حَمَل معه حجراً من حجاره الحرم تعظيماً للحرم، وحبّاً له فحيثما حلّوا نصبوه وطافوا به كطوافهم بالكعبه صبابه بها، ويمكن أن تكون هذه هی «الأنصاب» الّتی فُسّرت بالأحجار العاديه غير المنحوته وتقابلها الأوثان، وهی الأحجار المنحوته علی هيئه خاصّه، وأمّا «الأصنام» فهی المعموله من خَشَب أو ذهب أوفضه علی صوره إنسان.

لقد بلغ خضوعُ العرب أمام الأصنام والأوثان حدّاً عجيباً جدّاً، فقد كانوا يعتقدون بأنّهم يستطيعون كسبَ رضاها بتقديم القرابين إليها، وكانوا بعد نحر الهدايا يلطخون وجوه الأصنام ورؤوسها بدماء تلك الهدايا، وكانوا يستشيرونها فی مهام أُمورهم، وجلائل شؤونهم، فإذا أرادوا الوقوف علی مستقبل الأمر الّذی تصدّوْا له ومعرفه عاقبته أخيرٌ هو أم شرٌ استقسمَ لهم أمين القداح بقدحی (الأمر والنهی) وهیَ قطع كُتِبَ علی بَعضها (إفْعَلْ) وعلی بعضها الآخر (لا تَفْعَلْ) فيمدُّ أمين القداح يده ويجيل القداح ويخرج واحداً فإنْ طَلَع الآمر فعل أو الناهی ترك.

وخلاصه القول: إنّ الوثنيّه كانت هی العقيده الرائجه فی الجزيره العربيه، وقد تفشَّتْ فيهم فی مظاهرَ متنوّعه ومتعدّده، وكانت الكعبه المعظّمه - فی الحقيقه - محطَّ أصنام العرب الجاهليه وآلهتهم المنحوته، فقد كان لكلّ قبيله فی هذا البيت صنم، وبلغ عدد الأصنام الموضوعه فی ذلك المكان المقدس (۳۶۰) صنماً فی مختلف الأشكال والهيئات والصور، بل كان النصاری أيضاً قد نقشوا علی جدران البيت وأعمدته صوراً لمريم والمسيح والملائكه، وقصّه إبراهيم.

وكان من جمله تلك الأصنام: «اللات» و «العُزّى» و «مناه» الّتى كانت تعتبرها قريش بنات اللّه وتختص عبادتها بقريش.

وكانت «اللات» تعتبر أُمُّ الآلهه، وكان موضعها بالقرب من «الطائف» وكانت من الحجر الأبيض، وأمّا «مناه» فكانت فى عقيدتهم إلهه المصير وربَّه الموت والأجل وكان موضعها بين «مكّه» و «المدينه».

ولقد اصطحب «أبوسفيان» معه يوم «أُحد»: «اللات» و «العزّى».

ويروى أنّه مرض ذات يوم «أبو أُحيحه» وهو رجل من بنى أُميه، مرضه الّذى مات فيه، فدخل عليه أبولهب يعوده، فوجده يبكى، فقال: ما يبكيك يا با أُحيحه؟ أمن الموت تبكى ولابد منه؟ قال: لا ولكنى أخاف أن لا تُعبَد العزّى بعدى! قال أبولهب: واللّه ما عُبدَت حياتك (لأجلك) ولا تُترك عبادتُها بعدك لموتك!! فقال أبو أُحيحه: الآن علمتُ أنّ لى خليفه(۱).

ولم تكن هذه هى كلّ الأَصنام الّتى كانت تعظِّمها وتعبُدُها العربُ بل كانت لقريش أصنامٌ فى جوف الكعبه وحولها وكان أعظمها «هُبَل»، كما أنّه لم يكن لكلّ قبيله صنم خاص فحسب، بل كانت كلّ عائله تعبد صنماً خاصّاً بها مضافاً إلى صنم القبيله، وكانت المعبودات تتراوح بين الكواكب، والشمس، والقمر، والحجر، والخشب، والتراب، والتمر، والتماثيل المنحوته المختلفه فى الشكل، والهيكل، والاسم، المنصوبه فى الكعبه أو فى سائر المعابد. لقد كانت الأصنام جميعها أو أغلبها معظَّمه عند العرب، يتقرّبون عندها بالذبائح ويقرّبون لها القرابين، وجرت عاده بعض القبائل آنذاك أن تختار من بين أفرادها كلّ سنه شخصاً فى مراسيم خاصّه ثم تذبحه عند أقدام أصنامها، وتقبر جسده على مقربه من المذبح.

۱- . الأصنام للكلبى: ۲۳.

هـذا العرض المختصـر يكشف لنا كيف أنّ أرض الجزيره العربيه برمّتها كانت قد أصـبحت مسـرحاً للأصـنام ومسـتودعاً ضـخماً للأوثـان، وكيف تحوّلت هـذه البقعه من العـالم ببيوتهـا وأزقتها وصـحاريها وحتّى بيت اللّه المحرم كانت قـد تحولت إلى مخزن للنُّصُب المؤلَّهه، والتماثيل المعبوده، ويتجلّى هذا الأمر من قول شاعرهم الّذى أسـلم وراح يسـتنكر ما كان عليه من عباده الأصنام المتعدّده الخارجه عن الإحصاء والعدّ، إذ قال:

أَرَبّاً واحِداً أمْ ألف رَب أدينُ إذا تقسَّمَتِ الأُمورُ

عَزلتُ اللاتَ والعزى جميعاً كذلك يَفعَلُ الجَلِدُ الصَبُور

فلا عُزّى أدين ولا ابنتيها ولا صَنَمىْ بنى عمرو أزُورُ

ولا غنماً أزورُ وكان ربّاً لنا فى الدهر إذ حلمى يسيرُ

ولكن أعبدُ الرحمان رَبِّى لِيَغْفِرَ ذَنبِىّ الربُّ الغفُورُ(۱)

وقـد حـدثت بسـبب الاختلاـف والتعـدّديه فى عبـاده الأصـنام والأوثان المؤلَّهه السـخيفه الباطله، تناقضاتٌ، وصـراعاتٌ، وحروب ومناحرات، قد جرّت بالتالى ويلات ومآس وخسائر مادّيه ومعنويه كبرى على تلك الجماعه المتوحشه، الضالّه.

***

عقيده العرب حول حاله الإنسان بعد الموت

وعن مصير الإنسان وحالته ما بعد الموت هذه المشكله الفلسفيه العويصه كانت رؤيه العرب ونظرتهم تتلخّص فى ما يلى:

۱- . بلوغ الأرب فى معرفه أحوال العرب: ۳/۲۴۹.

عنـد ما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده على هيئه طائر شبيه بالبوم يسـمى عندهم ب «الهامّه والصدى» ثم يبقى هذا الطائر قريباً من جسد الميّت ينوح نوحاً مقرحاً وموحشاً، وعند ما يوارى الميّت يبقى هذا الطائر مقيماً عند قبره إلى الأبد!

وربّما وقفَ على جدار منزل الميّت أحياناً لِتَسقُّطِ أخبار عائلته والاطّلاع على أحوالهم!!

قال شاعرهم فى ذلك:

سُلِّطَ المُوتُ والمنونُ عليهم فَلَهم فى صدى المقابر هامُ

وإذا كـان المرء قـد مـات بموتَه غير طبيعيه كمـا لو قُتِـلَ - مثلاً- فـإنَّ ذلك الحيوان ينادى باسـتمرار: «اسـقونى... اسـقونى» أى إسقونى بسفك دم القاتل وإراقته؛ ولا يسكن عن هذا النواح والنداء الخاص إلا بعد الانتقام والثأر من قاتله.

قال أحدهم فى ذلك:

فياربّ إنْ أهلَكْ ولم تُروَ هامتى بِلَيلى أَمُتْ لا قَبرَ أَعطَشَ مِن قَبرى(۱)

من هنـا بالضـبط تتجلّى الحقيقه للقـارئ ويعلم جيـداً كيف أنّ تاريـخ العرب مـا قبـل الإسـلام وتـاريخهم مـا بعـد الإسـلام ما هو إلّاتاريخان على طرفى نقيض:

فـذلك تاريخ جاهليه، ووثنيه وإجرام، وهذا تاريخ علم ووَحدانيه وإنسانيه وإيمان، وشـتان ما بين وأد البنات، وبين رعايه الأيتام، وبين السـلب والنهب والإغـاره، وبين المواسـاه والإيثـار، وبين عبـاده الأوثـان والأصـنام الصـمّاء العمياء، والتقرّب إلى اللّه الواحد القادر.

۱- . بلوغ الأرب: ۲/۳۱۱-۳۱۲.

الآداب مرآه أخلاق الشعوب ونفسياتها

إنّ الحركه الفكريه والثقافيه، وما يتركه أىُ شعب من الشعوب من قصص وحكايات أفضل وسيله للتعرّف على خلفياته النفسيه والأخلاقيه، ذلك لأنّ الآداب بما فيها الشعرُ والقصهُ، والخطبهُ والحكايهُ، والمثلُ والكنايهُ مرآهٌ صادقهٌ تعكس المستوى الفكرى لأىّه جماعه، وتعتبرُ خير مقياس لتمدّنها، وحضاراتها، وأفكارها ونفسياتها، تماماً كما تحكى اللوحاتُ الفنيهُ عن حياه عائله، أو منظر طبيعى جميل، أو اجتماعات صاخبهٍ، أو مشاهدَ قتاليه.

إنَ القصائد والأَمثال العَربيه الّتى كانت رائجه آنذاك تستطيع - قبل كلّ شىء - أن تكشف عن الوجه الحقيقى لتاريخهم ونمط حياتهم وسلوكهم، ولهذا السبب لا يجوز لأى مؤرّخ واقعى يسعى إلى الحصول على صوره كامله عن تاريخ شعب من الشعوب أن يتجاهل التركه الفكريه والأدبيه والثقافيه لذلك الشعب، سواء أكان شعراً أم نثراً، أمثالاً أم حكماً، قصصاً أم أساطير.

ومن حسن الحظ أنّ مؤرّخى الإسلام أثبتوا وسجلوا بإتقان ما أُثِرَ من العرب ممّا يرتبط بآدابهم فى العصر الجاهلى بقدر ما أُتيحَ لهم ذلك.

وقد كان أبو تمّام «حبيب بن أويس» (المتوفّى عام ٢٣١ هجريه) والّذى يُعتبر من كبار أُدباء الشيعه، وله قصائد رائعه فى مدح آل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، ممّن اعتنى عنايه بالغه بهذه الناحيه، حيث جَمع فى كتابٍ واحدٍ طائفه كبيره جدّاً من الشعر الجاهلى مفصّله فى عشره أبواب هى:

١. الحماسه.

٢. المراثى.

٣. الأدب.

۴. النسیب.

۵. الهجاء. ۶. الإضافات.

۷. الصفات.

۸. السیر.

۹. المُلَح.

۱۰. مذمّه النساء.

وقد تناولَ هذا الدیوان التاریخیُ القیّم عددٌ کبیرٌ من أُدباء المسلمین وعلمائهم بشرح أبیاته، وتفسیر غوامضها، وبیان أغراضها، ومقاصدها.

کما ترجم أصلُ الدیوان إلی لغات أجنبیه عدیده جاء ذکر طائفه منها فی کتاب «معجم المطبوعات».(۱)

مکانه المرأه عند العرب الجاهلیه

إنّ الباب العاشر من هذا الدیوان خیر وسیله لمعرفه ما کانت علیه المرأه فی العصر الجاهلی من الحرمان، وأقوی دلیلٍ علی أنّها کانت تعیشُ - فی ظل ذلک العهد - فی أسوأ الحالات وأشد الظروف وأتعسها.

هذا مضافاً إلی أنّ الآیات القرآنیه الّتی تنزّلت وهی تشجبُ بعنف معامله الجاهلین للعنصر النسائی، وقسوتهم علی الأُنثی، هی الأُخری أفضل شاهد علی مدی الإنحطاط الأخلاقی والتدهور السلوکی الّذی انحدروا إلیه فی هذا المجال.

۱- . معجم المطبوعات: ۲۹۷، وقد اشتهر هذا الدیوان ببابه الأوّل: «الحماسه» فسمی دیوان الحماسه.

إنّ القرآن الكريم يصف عـاده وأد البنـات بقوله: «وَ إِذَا الْمَوْؤُدَهُ سُـئِلَتْ» (۱)أى ليسـأل يوم القيامه عن البنات اللاتى وُئـدن وهنّ أحياء.

إنّ القرآن الكريم بهذه العباره الموحيه إنما يتحدّث - فى الحقيقه - عن عاده وأد البنات بمراره، ويشجبها بشده حتّى أنّه يعتبرها جريمه نكراء لا تمر - فى الآخره - بدون حساب شديد، وسؤال خاص.

حقاً إنّه لأمرٌ يكشف عن مدى القسوه الّتى كانت عليها قلوبُ تلك الجماعه.

إنّها قسوه تغشى كلّ عواطف المرء فلا يعود يسمع معها نداء الضمير، ولا يحسُّ معها بوخز الوجدان، إنّه لا يعود يسمع معها حتّى صراخ بنته الجميله البريئه، واسـتغاثاتها المؤلمه وهى ترى بأُمّ عينيها حفيرتها، وتحس بيدى والدها القاسى، وهو يدفعها إلى تلك الحفره ويدفنها حيّه!

إنّها قسوه تكشف عن أسوأ وأحطّ درجات الانحطاط الخلقى، والتقهقر الإنسانى.

وبنو تميم هى أوّل قبيله أقدمت على هذه الجريمه النكراء، وكان السـبب أنّ «بنى تميم» امتنعوا عن دفع ضريبه الأتاوه الّتى كانت عليهم إلى الملك، فجرّد إليهم النعمان بن المنـذر حاكم العراق آنذاك جيشاً كبيراً لضـرب هذا التمرّد، وانتصـر على «بنى تميم» فى المآل وغنم منهم الغنائم وسبى منهم الفتيات والنساء، فوفـدت وفود «بنى تميم» على النعمان بن المنـذر وكلّموه فى الـذرارى والنسـاء، فحكم النعمـان بـأن يجعل الخيار فى ذلك إلى النساء، فأيه امرأه اختارت زوجَها ردّت عليه، فاختَلَفْنَ فى الخيار، فاختار بعضهُنَّ العوده إلى الأهل والآباء، واختارت بنتٌ لقيس بن عاصم

۱- . التكوير: ۸.

سابیها علی زوجها مما أثار هذا الموقف والاختیار غیظ والدها العجوز «قیس بن عاصم» فنذرَ من ذلک الحین أنْ یدسَ کلَّ بنتٍ تُولَد له. وهکذا سنّ لقومه الوأد، وأخذت بقیه القبائل بهذه العاده البغیضه الوحشیه إرضاءً لغیرتهم وظلّوا یمارسونها أعواماً متمادیه.(۱)

وإلیک واحده من القصص المأساویه فی هذا المجال:

قیل لماوفد «قیس بن عاصم» علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم سأله بعض الأنصار عمّا یتحدّث به فی الموءُودات، فأخبر أنّه ما ولدت له بنت إلّاوأدها، قال: کنتُ أخاف العار وما رحمتُ منهنَ إلّابُنیّه کانت ولدتها أُمّها وأنا فی سفر، فدفعتها إلی أخواتها، وقدمت أنا من سفری فسألتها عن الحمل، فأُخبِرت أنّها ولَدت ولداً میتاً، وکتمتْ حالها، حتّی مضت علی ذلک سنونٌ، وکبرت الصبیّه، وینعت، فزارت أُمّها ذات یوم، فدخلتُ فرأیتها وقد ظفرت شعرها وجعلت فی قرونها جداداً ونظمت علیها ودعاً، وألبستها قلاده من جزع، فقلت لها: من هذه الصبیّه؟ وقد أعجبنی جمالها فبکت أُمّها، وقالت: هذه ابنتک، فأمسکتُ عنها حتّی غفلتْ أُمّها ثم أخرجتها یوماً فحفرتُ لها حفره وجعلتها فیها وهی تقول: یا أبت ما تصنع؟ أخبرنی بحقّک!! وجعلتُ أُقلّب علیها التراب، وهی تقول: أنت مغط علیَّ بهذا التراب، أنت تارکی وحدی، ومنصرفٌ عنی، وجعلتُ أقذفُ علیها حتّی واریتها، وانقطع صوتُها، فتلک حسرتها فی قلبی، فَدَمعتْ عینا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقال: «إن هذه لقسوه، ومن لا یَرحَم لا یُرحَم».(۲)

وقد ذکر ابن الأثیر فی کتابه «أُسد الغابه» فی ماده: قیس: أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم سأل قیساً عن عدد البنات اللاتی وأدهنَّ فی الجاهلیه؟ فأجاب قیسٌ

۱- . بلوغ الأرب فی معرفه أحوال العرب: ۳/۴۲-۴۳.

۲- . حیاه محمَّد: تألیف محمَّد علی الحاج سالمین: ۲۴ و ۲۵.

بأنّه وأد اثنتی عشره بنتاً له.(۱)

ورُوی عن ابن عباس أنّه قال: کانت الحامل إذا قَربت ولادتها حفرت حفره فمخضت علی رأس تلک الحفره، فإذا ولدت بنتاً رمت بها فی الحفره وإذا ولدت ولداً حبسته.(۲)

المرأه ومکانتها الاجتماعیه عند العرب

کانت المرأه عندهم تباع وَ تُشتری کالمتاع، وکانت محرومه من جمیع الحقوق الاجتماعیّه والفردیه، حتّی حقّ الإرث.

وقد کان المثقّفون من العرب یعُدُّون النساء من الحَیوانات، ولهذا کانوا یعتبرونهن جزءاً من أثاث البیت ویعاملونهن معامله الریاش والفراش حتّی سار فیهم المثلُ المعروفُ: «وإنّما أُمّهات الناس أوعیه».

کما أنّهم غالباً ما کانوا یقتلون بناتهم فی الیوم الأوّل من میلادهن خشیه الفقر تاره، ودفعاً للعار والشنآن تاره أُخری.

وقد کان هذا القتل یَتُمُّ إمّا بذبحهن أو إلقاءهنّ من شاهق، أو إغراقهنّ فی الماء أو الدفن وهن أحیاء کما سبق.

وقد تعرّض القرآنُ الکریم - الّذی یعدّ من وجهه نظر المستشرقین الکتابَ والمصدرَ التاریخی العلمی الوحید الّذی لم تنله یدُ التحریف - تعرَّض لذکر قصه من هذا النوع ضمن آیات من سوره النحل حیث قال: «وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثی ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ کَظِیمٌ * یَتَواری مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ یُمْسِکُهُ عَلی

۱- . راجعْ: أُسد الغابه: ۴/۲۲۰، وجاء فی بلوغ الأرب فی معرفه أحوال العرب: ۳/۴۳ أنّه وأد بضع عشره بنتاً.
۲- . بلوغُ الأرب: ۳/۴۳.

هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِی التُّرابِ أَلا ساءَ ما یَحْکُمُونَ» .(۱)

هذا والمؤسف أکثر هو ما کان علیه وضع الزواج فی الجاهلیه، حیث لم یکن یستند إلی أی قانون، ولم یخضع لأیّواحد من النظم المعقوله، بل کان وضعاً عدیم النظیر فی ذلک الزمان، فلم یکن لعدد الزوجات - مثلاً - حدّ معلوم، أو قاعده ثابته.

کما أنّه کلّما أرادوا التخلّص من مهر الزوجه عمدوا إلی إیذائها بقسوه، حتّی تتخلّی هی بنفسها عن حقّها، وکان اقترافها لأیّ عَمل مناف للعفه هو الآخر سبباً لسقوط حقّها فی المهر بالمرّه.

ولطالما استغلَّ بعض الأشخاص هذا القانون الجائر للتخلّص مِن مهور زوجاتهم فاتّهموهن بالخیانه الزوجیه!!

ومن قبیح ما کانوا یفعلون أن یتزوّج الرجل بزوجه أبیه بعد تطلیقها، أو وفاته وربّما تناوب الأبناء علی امرأه أبیهم واحداً بعد واحد، فقد روی محمد بن حبیب فی المحبّر: وکانَ الرجل (من العرب الجاهلیه) إذا مات قام أکبر ولده فألقی ثوبه علی امرأه أبیه، فورث نکاحها. فإن لم یکن له حاجه فیها تزوّجها بعضُ إخوته بمهر جدید.(۲)

وقد أبطل الإسلامُ هذه العاده الفاسده حیث قال اللّه تعالی: «وَ لا تَنْکِحُوا ما نَکَحَ آباؤُکُمْ مِنَ النِّساءِ إِلاّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ کانَ فاحِشَهً وَ مَقْتاً وَ ساءَ سَبِیلاً» .(۳)

۱- . النحل: ۵۸ و ۵۹.

۲- . المحبّر: ۳۲۵-۳۲۶.

۳- . النساء: ۲۲، و کانوا یُسمّون من یتزوج زوجه أبیه الضیزن، وکان هذا الزواج یسمّی فی الجاهلیه «نکاح المقت» ویُسمّی الولد منه: مقتیّ. (راجع: بلوغ الأرب: ۲/۵۳؛ ومجمع البیان للطبرسی: ۳/۲۶.

وقد ذكرت كتبُ التاريخ والسيره طائفه ممّن فعلوا هذا نعرض عن ذكر أسمائهم.

كما ذكرت تلك الكتب أنواعاً أُخرى من المناكح الفاسده الشنيعه الّتى أبطلها الإسلام.(۱)

ثم إنّ المطلَّقه لم يكن لها الحقّ - فى زمن الجاهليه - فى أن تتزوّج برجل آخر بعد انقضاء عدّتها إلّاإذا أذنَ لها الزوجُ الأوّل الّذى كان غالباً مّا يأخذ مهرها فى الزواج الثانى فى قبال الإذن.

وربما مَنَع أُولياؤُها من أن تتزوّج بزوجها الأوّل الّذى طلَّقها، ثم خطبها بعد انقضاء العِدّه إذا رضيَتْ به ورغبت فيه، أو أنْ تتزوّج بمن أرادَت وأحبَّت - بعد انقضاء العِدّه - أصلاً، حميّه جاهليه.

وكان الرجُل يرث امرأه ذى قرابته إذا مات عنها، تماماً كما يرث ما خَلف من أمتِعهِ المنزل، زاعماً بأنّه أحقُّ بها من غيره، فيعضلها (يمنعها من الزواج) أو تردُ إليه صداقها. وفى روايه: إن كانت جميله تزوّجها، وإن كانت دميمه حبسها حتّى تموتَ فيرثها، وقد نهى اللّه تعالى عن ذلك، وأبطلَ تلك العادات إذ قال تعالى: «وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» .(۲)

وقال سبحانه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ» .(۳)

وقال تعالى: «وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

۱- . لاحظ: المحبّر: ۳۳۷-۳۴۰.

۲- . البقره: ۲۳۲.

۳- . النساء: ۱۹.

سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» .(۱)

وخلاصه القول؛ إنّ المرأه كانت فی العَهد الجاهِلِیِّ بشرّ حال، ویکفی لتلخیص ما قلناهُ أنّه لمّا خطب أحدهم إلی رجل إبنَتَه، وذکَرَ لَهُ المهر والصداق قال: إنّی وإن سِیْقَ إلیّ المهْر ألْف وعَبْدانِ (أی عَبیدَ ومماليك) وذَوْد (وهو من الإبل مِنَ الثلاث إلی العشر) عَشْرُ، أَحَبُّ أصْهاری إلیّ القَبْرُ، وقال شاعرهم، فی ذلك.

لِكُلِّ أبی بِنتٍ یُراعی شُؤْونَها ثلاثهُ أصهار إذا حمد الصهرُ

فَبَعَلٌ یراعیها وخدر یکنّها وَقبرٌ یُواریها، وأفضَلُها القبر(۲)

کما أنّ العرب کانت مصفقه ومتّفقه علی توریث البنین دون البنات.(۳)

مقارنه بسیطه

ولو لاحظتَ أیّها القارئ الحقوقَ الّتی قرّرها الإسلام فی مجال (المرأه) لأذعنتَ - حقّاً - بأنّ هذه الأحکام والمقرّرات وهذه الخطوات المؤثّره الّتی خطاها النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی سبیل إصلاح حقوق المرأه، وتحسین أوضاعها، هی بذاتها شاهدُ حق، ودلیل صدق علی حقانیّته، وصدق ارتباطه بعالم الوحی. فأیّه رعایه ولطف بالمرأه وحقوقها وأیُّ اهتمام بشأنها وکرامتها أعلی وأکثر من أن یوصی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم - مضافاً إلی ما جاء فی آیات وأحادیث کثیره تؤکّد علی حقوق المرأه وتوصی أتباع هذا الدین بالرحمه بهن واحترامهن - فی خطبته الشهیره فی (حَجّه الوداع) بالمرأه، ویؤکّد علی ذلك أشد تأکید إذ یقول صلی الله علیه و آله و سلم:

۱- . البقره: ۲۳۱.

۲- . بلوغ الإرب: ۲/۹.

۳- . المحبّر: ۲۳۶.

«أيّها النَّاسُ إنَّ لِنسائكَمْ عَلَيكَمْ حقّاً، ولكم عليهنَّ حقاً... فاتّقوا اللّه فى النِّساء واْستوصُوا بهنَّ خيراً، فإنهنَّ عندكم عوانٌ (أى أسيرات)... أطعمُوهُنَّ ممّا تأكُلُون، واكسوهن ممّا تَلبِسُونَ».(۱)

العربُ والرُّوح القتاليه

من الناحيه النفسيه يمكن القول بأنّ عرب الجاهليه كانوا النموذج الكامل للإنسان الحريص، الموصوف بالطمَع الشديد، القوىّ التعلّق بالمادّيات.

لقد كانوا ينظرون الى كلّ شىء من زاويه منافعه ومردوداته المادّيه، كما أنّهم كانوا دائماً يرون لأنفسهم فضيله وميزه على الآخرين.

كانوا يحبّون الحريه حبّاً شديداً، ولذلك كانوا يكرهون كلّ شىء يقيّد حريتهم.

يقول ابن خلدون عنهم: «إنّهم (أى العرب الجاهليه) بطبيعه التوحُّش الّذى فيهم أهلُ انتهاب وعيث، ينتهبون ما قدروا عليه... وكان ذلك عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقه الحكم، وعدم الانقياد للسياسه وهذه الطبيعه منافيهٌ للعمران ومناقضه له».

ويضيف قائلاً: «فطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس، وأنّ رزقهم فى ضلال رماحهم وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حدٌّ ينتهون إليه، بل كلّما امتدت أعينهم إلى مال أو مَتاع أو ماعون انتهبوه»(۲).

لقد كانت الإغاره والنهب والقتال من العادات المستحكمه عند القوم، ومن

۱- . وردت هذه العبارات فى مصادر مختلفه مع شىء طفيف من الاختلاف، راجع: تحف العقول: ۳۲-۳۳؛ عوالى اللآلى: ۱/۲۵۵ برقم ۱۶؛ سنن النسائى: ۵/۳۶۴ برقم ۹۱۵۲.

۲- . مقدّمه ابن خلدون: ۱۴۹.

الطبائع الثانويه فی نفوسهم، وقد بلغ ولعهم وشغفهم بكلّ ذلك ونزوعهم الشديد إليه أنّ أحدهم - كما يقال - سأل النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم بعد أن سمع منه وصف الجنه وما فيها من نعيم: وهل فيها قتال؟

ولمّا سمع الجواب بالنفی قال: إذن لا خير فيها!!

أجل لقد سجّل التاريخ للعرب ما يقرب من (۱۷۰۰) وقعه وحرباً، إمتد أمدُ بعضها إلی مائه سنه أو أكثر، يعنی أنّ أجيالاً كثيره كانت تتوارث الحرب، وتستمر فی قتال الخصم، وربَّ حرب داميه طويلهُ الأمد إندَلعت بسبب قضيَه تافهه.(۱)

لقد كان العربی فی العهد الجاهلی يعتقد بأنَ الدم لا يغسلهُ إلّاالدم، وقضيه «الشنفری» الّتی هی أشبه بالأساطير لغرابتها يمكن أن تعكس مدی «العصبيه الجاهليه» الّتی كانت سائده آنذاك.

فالشنفری يُهانُ علی يد رجل من «بنی سلامان» فيعزم علی الانتقام منه، وذلك بأن يقتل مائه من تلك القبيله، وبعد التربُّص الطويل يغتال تسعاً وتسعين، ويبقی مشرَّداً حتّی تغتالُه جماعه من اللصوص عند بئر فتفعل جمجمته - بعد مقتله - فعلتها، اذْ تتسبَّبُ بعد مرور سنين فی قتل رجل من قبيله «بنی سلامان» وبذلك يكتمل العدد الّذی حلف علی قتلهم من تلك القبيله، وذلك عندما يمر رجل من «بنی سلامان» علی تلك المنطقه فيهب طوفان شديد يلقی بجمجمه

۱- . العرب قبل الإسلام: ۳۱۹ و ۳۲۰. هذا وتعتبر حرب داحس والغبراء، من أيام العرب التاريخيه قبل الإسلام، وقد نشأت بسبب سباق بين فرسين هما داحس والغبراء (وهما فرسين لقيس بن زهير من بنی عبس) وفرسين آخرين (لحذيفه الغدر) انتهی إلی التنازع فی السباق وازداد التنافر بين المتسابقين وانجرّ إلی طعن أحدهما الآخر، وأن تتهيّأ علی إثر ذلك مقدّماتُ حرب طويله بين قبيلتی الرجلين وحلفائهما استمرّت من عام ۵۶۸ م إلی عام ۶۰۸ م وهلاك الكثير من القبيلتين. (راجع الكامل فی التاريخ لابن الأثير: ۱/۵۶۶).

«الشنفرى» على ذلك الرجل فتصيبُه فى رجله بشده، فيموتُ بما لحقه من ألم وجراحه.(۱)

ولقد بلغ أُنس العرب الجاهليه بالقتال وسفك الدماء أن جعلوا القتل والسفك للدماء من مفاخر الرجال!!

ويبدو ذلك جليّاً لمن يقرأ قصائدهم الملحميه الّتى تفوح منها رائحه الدم، ويخيّم عليها شبح الموت، تلك القصائد الّتى يمدح فيها الشاعر نفسه أو قبيلته بما أراقوه من دماء!! وما أزهقوه من أرواح وما سبوه من نساء!! وأيتموه من أطفال!!

ونجد فى البيت الشعرىّ التالى مدى انزعاج الشاعر العربىّ الجاهلى لما أصابَ قبيلته مِن نكسهٍ وذل وهزيمه فى ميدان القتال، إذ يقول:

فَلَيْتَ لى بِهمُو قَوماً إذا ركَبُوا شَنُّوا الإغارَه رُكباناً وفُرسانا

ويصف القرآن الكريم هذه الحاله بقوله: «وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَهٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها» .(۲)

الأخلاق العامّه فى المجتمع الجاهلى العربى

ومهما يكن من أمر فإنّ عوامل مختلفه كالجهل وضيق ذات اليد، وجشوبه العيش، وعدم وجود قانون صحيح يحكم الحياه الاجتماعيه، وحاله البداوه الموجبه للتوحّش، والكسل والبطاله وغير ذلك من الرذائل الاخلاقيه كانت قد حَولَّتْ جوَّ الجزيره العربيه إلى جوّ فاسدٍ قاتم، حتّى أنّ أُموراً يندى لها الجبين قد أخذت طريقها إلى حياه تلك الجماعه وراحت تتخذ شيئاً فشيئاً صفه العادات المتعارفه!!

۱- . تاريخ العرب: ۱/۱۱۱، وراجع أيضاً بلوغ الأرب فى معرفه أحوال العرب: ۲/۱۴۵-۱۴۶.

۲- . آل عمران: ۱۰۳.

لقد كانت الغارات وعملياتُ النهب، والقمار، والربا، والأسر، والسبى من الأعمال والممارسات الرائجه فى حياه العرب الجاهليه، وكان شرب الخمر ومعاقرتها بلا حدود هو الآخر من الأعمال القبيحه الشائعه لديهم، ولقد ترسَّخت هذه العاده القبيحه فى حياتهم إلى درجه أنّها صارت جزءاً من طبيعتهم، وحتّى أنّ شعراءهم خصّصوا مساحات كبيره فى قصائدهم لامتداح الخمره ووصفها، وكانت الحانات مفتوحه تستقبل الزبائن طول الوقت، وقد نُصِبَت عليها رايات.

فها هو شاعرُهم يقول:

إذا متُّ فادفِنّى إلى جَنبِ كَرَمهٍ تُرَوّى عِظامى بَعدَ مَوتى عُرُوقُها

ولا تَدفِنَنّى فى الفَلاهِ فإنَّنِى أخافُ إذا مامِتُّ أن لا أذوقُها(۱)

لَقَدْ بَلغت معاقَرهُ الخمر من الرواج فى الحياه العربيه الجاهليه بحيث أصبحت لفظه «التجاره» تعادل فى عرفهم بيع الخمور، والاتّجار بها.

ولقد كانت الأخلاق تفسَّر عند العرب الجاهليه بنحو آخر عجيب، فإنّهم مثلاً كانوا يمدحون الشجاعه والمروءه والغيره، ولكنهم كانوا يقصدون من «الشجاعه» القدره على الإغاره وسفك الدماء، وكثره عدد القتلى فى الحروب!!

كما أن الغيره كانت تعنى عندهم وأد البنات، حتّى أنّ هذا العمل الوحشىّ كان يُعدّ عندهم من أعلى مظاهر الغيره، وكانوا يرون الوفاء والوحده فى نصره الحليف حقاً أو باطلاً وهكذا فإن أكثر القصص التى نُقِلَت عن شجاعتهم وشَغَفهم بالحريه كانت الشجاعه والشغف بالحريه فيها تتلخص وتتجسَّد فى الإغاره والإنتقام.

أنّهم كانوا يعشقون - فى حياتهم - المرأه والخمره والحرب ليس غير.

۱- . تفسير مفاتيح الغيب: ۶/۱۰۷.

النزوع إلى الخرافه والأساطير فى المجتمع الجاهلى

ولقد بَيَّنَ القرآنُ الكريمُ أهدافُ البعثه المحمَّديه المقدّسه بعبارات موجزه، وممّا يلفت النظر - أكثر من أىّ شىء - ما ذكرهُ تعالى فى الكتاب العزيز حول أهم هذه الأهداف والغايات العليا إذ قال: «وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِى كانَتْ عَلَيْهِمْ» .(۱)

فلابدَّ أن نعرفَ ماذا كانت تلك الأغلال والسلاسلَ الّتى كانتْ عَربُ الجاهليه ترزحُ تحتها حتّى قَبيْل بُزوغ فجر الإسلام؟

لا ريبَ أَنَّها لم تكن من جنس الأَغلال والسَلاسل الحديديه، ولم يكن المقصودُ منها ذلك أبداً، فماذا كانت إذَنْ يا ترى؟

أجَل إنَّ المقصودَ مِنْ هذه الأغلال هى الأوهام والخرافات الّتى كانت تَقيِّد العقلَ العربى عن الحركه، وتعيقه عن النمو والتقدّم، ولا شكّ أن مثل هذه السلاسل والأغلال الّتى تقيّد الفكر البشرى وتمنعه من التحليق والتسامى، أثقل بكثير من الأغلالَ والقيود الحديديه وأضرّ على الإنسان منها بدَرجات ومراتب، لأنّ الأغلالَ الحَديديَه توضَع عن الأيدى والأرجل بعد مضىّ زمان، ويتحرّر الإنسان منها، بعد حين، ليدخل معترك الحياه بعقليه سليمه مبرّأه من الأوهام والخرافات، وقد زالَتْ عنه ما تركته تلك الحدائد من جروح وآلام.

أمّا السلاسل والأغلال الفكريه (ونعنى بها الأوهام والأباطيل والخرافات) التى قد تهيمن على عقل الإنسان وتكبّلُ شعوره فإنّها طالما رافقت الإنسان إلى لحظه وفاته، وأعاقته عن المسير والانطلاق، دون أن يستطيع التحرّر منها، والتخلّص من آثارها، وتبعاتها، اللهم إلّاإذا استعان على ذلك بالتفكير السليم، والهدايه الصحيحه.

۱- . الأعراف: ۱۵۷.

فبـالتفكير السـليم وفى ضوء العقل البعيـد عن أىّ وهم وخيال يمكنه التخلّص مِن تلك الأغلال والقيود الثقيله، وأمّا بـدون ذلك فإن أىّ سعى للإنسان فى هذا السبيل سيبوء بالفشل.

إنّ من أكبر مفاخر نبىّ الإسـلام أنّه كافَحَ الخرافات، وأعلن حرباً شـعواء على الأساطير، ودعا إلى تطهير العقل من أدران الأوهام والتخيّلات، وقال: لقد جئت للأخذ بساعِد العقل البشـرى، وأشدّ عضدَه، وأُحارب الخرافه مهمّا كان مصدرها، وكيفما كان لونها وأيّاً كانت غايتها، حتّى لو خَدَمَت أهدافى، وساعَدَتْ على تحقيق مقاصدى المقدّسه.

إنّ ساسه العالم الذين لايهمهم إلّاإرساء قواعد حكمهم وسـلطانهم على الشـعوب، لا يتورّعون عن التوسّل بأيه وسيله، والاستفاده من أيّه واقعه فى سبيـل تحقيق مـآربهم حـتّى أنّهم لاـ يتـأخّرون عن التـذرّع بترويـج الخرافـات والأسـاطير القـديمه بين الشـعوب للوصول إلى سـدّه الحكم، أو البقـاء فيهـا مـا أمكنهم ذلك. ولو اتّفق أن كانوا رجالاً موضوعيين ومنطقيين فإنّهم فى هـذه الحاله دافعوا عن تلـك الخرافـات والأوهام والأساطير الّتى لا تنسـجم مع أىّ مقياس عقلى بحجه الحفاظ على التراث القومى، أو احترام رأى أكثريه الشعب، أوما شابه ذلك من الحجج المرفوضه.

ولكنَّ رسولَ الإسـلام لم يكتف بإبطـال المعتقـدات الخرافيه الّتى كـانت تُلحِق الضـرر به، وبمجتَمعه، بـل كـان يكافـح ويحارب بجميع قواه كلّ أُسـطوره أو خرافه شـعبيه أو فكره فاسده باطله، تخدم غرضه، وتساعد على تحقيق التقدّم فى دعوته ويسـعى إلى أن يجعـلَ الناسَ يعشـقون الحقيقه لا أن يعبـدوا الخرافات، ويكونوا ضـحايا الأساطير والأوهام، واليك واحـداً من هـذه المواقف العظيمه على سبيل المثال لا الحصر.

لما ماتَ إبراهيم بن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو ابنه الوحيد، حزن عليه النبيُّ حزناً شديداً، فكانت تنحدر الدموع منه على غير اختيار، واتّفق أن انكسفت الشمس فى ذلك اليوم أيضاً، فذهب المولعون بالخرافه فى ذلك المجتمع (العربى) على عادتهم إلى ربط تلك الظاهره بموت إبراهيم واعتبار ذلك دليلاً على عظمه المصاب به فقالوا: انكسفت الشمسُ لموت ابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فصعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المنبرَ فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: «أيُّها الناس إنَّ الشمسَ والقمر آيتان من آيات اللّه يجريان بأمره، مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياتِه، فإذا انكسفا، أو أحدُهما صلّوا».

ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاه الكسوف.(۱) وهى ما تسمّى بصلاه الآيات.

إنّ فكره انكساف الشمس لموت ابن صاحب الرساله وإن كان من شأنها أن تقوّى من موقع النبىّ فى قلوب الناس، وتخدم بالتالى غرضه، وتساعد على انتشار دعوته، وتقدّمها، إلا أنّه صلى الله عليه و آله و سلم رفض أن يحصل على المزيد من النفوذ فى قلوب الناس بواسطه هذا الطريق.

على أنّ محاربَه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم للخرافات والأساطير الّتى كانت نموذجا بارزاً من محاربته للوثنيه، وتأليه المخلوقات وعبادتها، لم تكن من سيرته فى عهد الرساله بل كان ذلك دأبه فى جميع أدوار حياته، حتّى يوم كان صبياً يدرج، فإنّه كان يحارب الأوهام والخرافات، ويعارضها فى ذلك السن أيضاً.

تقول حليمهُ السعديه مرضعه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم:... فلمّا تمَّ له (أى لمحمَّد) ثلاث سنين قال لى يوماً: «يا أُمّاهُ مالِىَ لا أرَى أخَوَىَّ بالنّهار»؟

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۸۸/۱۵۵ ح ۱۲.

قلت له: يا بُنيّ إنّهما يرعيان غنيمات، قال: «فَمالى لا أخْرُج مَعَهما»؟ قلت له:

تحبُّ ذلك؟ قال: نَعَمْ.

فلمّا أصبح دهَّنته وكَحَّلته وعلَّقت فى عنقه خيطاً فيه جزع يمانيه (وهى من التمائم الباطله كانت تعلّق على الشخص فى أيام الجاهليه لدفع الآفات عنه)، فنزَعَها، ثمّ قال لى: «مَهْلاً يا أُماه فَإنَّ مَعِىَ مَنْ يَحْفُظنِىْ».(۱)

الخرافات فى عقائد العرب فى الجاهليه

كانت عقائدُ جميع الأُمم والشعوب العالميه يوم بزوغ شمس الإسلام ممزوجه بألوان من الخرافات والأساطير.

فالأساطير اليونانيه والساسانيه كانت تخيّم على أفكار الشعوب الّتى كانت تعدُّ فى ذلك اليوم من أرقى الشعوب والمجتمعات.

على أنّه لا تزال خرافات كثيره تسود وإلى الآن فى المجتمعات الشرقيه المتقدّمه، ولم تستطع الحضارةُ الراهنه أن تزيلها من حياه الناس ومعتقداتهم.

إنّ تنامى الخرافه يرتبط إرتباطاً وثيقاً بالمستوى العلمى والثقافى فى كلّ مجتمع، فبقدر ما يكون المجتمع متخلّفاً من الناحيه الثقافيه والعلميه تزداد نسبه وجود الخرافه ومقدار نفوذها فى عقول الناس ونفوسهم.

لقد سجّل التاريخ عن سُكّان شبه الجزيره العربيه طائفه هائله وكبيره من الأوهام والخرافات، وقد جمع السيّد محمود الآلوسى أكثرها فى كتابه «بلوغ الأرب فى معرفه أحوال العرب»، مُرفقاً كل ذلك بما حصل عليه من الشواهد الشعريه وغيرها.

ومن يتصفّح هذا الكتاب يقف على ركام هائل من الخرافات الّتى كانت تملأ

۱- . بحار الأنوار: ۳۹۲/۱۵.

العقل العربی الجاهل آنذاک وتعشعش فی نفوسهم، وقد کانت هذه السلسله الرهیبه من الأوهام هی السبب فی تخلّف هذا الشعب عن بقیه الشعوب والأُمم الأُخری.

ولقد کانت هذه الخرافات من أکبر السدود فی طریق تقدّم الدعوه الإسلامیه، ولهذا أجتهد النبیُّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم بکل طاقاته فی محو وإزاله آثار الجاهلیه الّتی لم تکن سوی تلک الأوهام والأساطیر والخرافات.

فعندما وجَّه «معاذ بن جبل» إلی الیمن أوصاه بقوله:

«وأمِتْ أمرَ الجاهِلیَّه إلّاما سنَّهُ الإسلامُ، وَأظهِرْ أمرَ الأسلام کلّه صغیرهُ وکبیرهُ».(۱)

لقد وقف رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أمام جماهیر کبیره من العرب الذین کانت عقولُهم ترزخ تحت الأفکار والمعتقدات الخرافیه ردحاً طویلاً من الزَمن یعلن عن نهایه عهد الأفکار والأوهام الجاهلیه إذ قال: «ألا إنّ کُلُّ دم ومال ومأثره کانت فیْ الجاهِلیَّه تحتَ قَدَمیّ هذه إلی یوم القیامه».(۲)

نماذج من الخرافات فی المجتمع الجاهلی

اشاره

وللوقوف علی مَدی أهمیه التعالیم الإسلامیه وقیمتها نلفت نظر القارئ الکریم إلی نماذج من هذه الخرافات، ومن أراد التوسّع فلیراجع «بلوغ الأرب فی معرفه أحوال العرب».(۳)

۱- . تحف العقول: ۲۵.

۲- . کنز العمال: ۵/۱۳۰ برقم ۱۲۳۵۷؛ السیره النبویه لابن کثیر: ۴/۴۰۱، دار المعرفه، بیروت.

۳- . لاحظ: بلوغ الأرب فی معرفه أحوال العرب: ۲/۲۸۶-۳۶۹.

١. الاستسقاء بإشعال النيران

كانت العرب إذا أجدبت، وأمسكت السماء عنهم، وأرادوا أن يستمطروا، عَمَدوا إلى السلع والعشر (وهما أشجار سريعه الاشتعال) فحزموهما، وعقدوهما فى أذناب البقر، وأضرموا فيها النيران وأصعَدوها فى جبل وَعر، واتبعوها يدعون اللّه تعالى، ويستسقونه، وإنّما يضرمون النيران فى أذناب البقر تفاؤلاً للبرق بالنار...

وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات الأُخرى، وكانت هذه الثيران والأبقار إذا صاحت من وجع الاحتراق ظنّت العرب بأنّ ذلك هو الرعد!!!

وقد قال شاعرهم فى ذلك:

يا (كحلُ) قَد أثقَلتَ أذنابَ البَقَر بسَلع يُعقَدُ فيها وعُشر

فَهَل تَجُودينَ بِبَرقٍ أو مَطَر؟

٢. ضرب الثور إذا عافت البقر الماء

كانوا إذا أورَدُوا البقر فتمتنع من شرب الماء، ضرَبوا الثورَ لِيقتحمَ الماء، بعدَه ويقولون: إنْ الجنَّ تصدُّ البقرَ عن الماء، وأنّ الشيطان يركَبُ قَرَنى الثورَ، ولا يدع البقر تشربُ الماء، ولذلك كانوا يضربون وجه الثور.

وقد قال فى هذا شاعرهم:

كَذاك الثورُ يضرَبْ بالهَراوى إذا ما عافَت الْبَقَر الظِماءُ

وقال آخر:

فإنى إذاً كالثَور يُضرب جَنبُهُ إذا لَم يَعْف شُرباً وعافت صواحبه(١)

١- . عافت أى كرهت شرب الماء.

وقال ثالث:

فلا تجعلوها كالبقير وفحلُها يُكسِّر ضرباً وهْو للورد طائعُ

وما ذَنبُه إن لم ترد بَقَراته وَقَدْ فاجأتْها عند ذاك الشرائعُ

٣. كيّ صحيح الإبل ليبرأ السقيمُ

إذا كان يصيب الإبل مرض أو قرح فى مشافرها وأطرافها عمدوا إلى بعير صحيح من تلك الإبل فكوَوْا مِشفَرَهُ وعَضُدَه وفَخذَه يرون أنّ ذلك إن فعلوه ذهبَ العُرُّ والقرح والمرض عن إبلهم السقيمه، ولا يعرف سبب ذلك.

وقد احتمل البعض أنّهم إنّما كانوا يفعلون ذلك وقايه للصحاح من الإصابه بالعُرّ الّذى أصاب غيرها، أو أنّه نوع من المعالجه العلميه، ولكن لماذا ترى كانُوا يَعمدُونَ إلى بعير واحد من بين كلّ تلك الإبل، فلابدّ من القول بأنّ هذا الفعل كان ضرباً من الأعمال الخرافيه الّتى كانت سائده فى ذلك المجتمع الجاهلى قبل الإسلام.

وقد قال شاعرهم عن ذلك:

وَكَلّفتنى ذنبَ امرئ وتركتُه كذِى العُرّ يكوى غيرُه وهو راتع

وقال آخر:

كمن يكوى الصحيح يروم بُرءاً بِه مِن كلِ جَرباء الإهاب

وقال ثالث:

فالزمْتَنِى ذنباً وغيرىَ جرَّه حنانيل لا تكو الصَحيح بأجربا

۴ – حبس ناقه عند القبر إذا مات كريمٌ

إذا ماتَ منهم كريمٌ عقلوا ناقته أوبعيره عند القبر الّذى دُفِنَ فيه ذلك الكريم، فعكَسُوا عنقها، وأداروا رأسها إلى مؤخَّرها وتركوها فى حفيره لا تطعَم ولا تسقى حتّى تموت، وربما أُحرقَت بعد موتها وربما سُلِخَتْ ومُلئ جِلدُها ثماماً، وكانوا يزعمون أنّ مَن مات ولم يُبْلَ عليه (أى لم تعقل ناقه عند قبره هكذا) حُشِر ماشياً، ومن كانت له بليه (أى ناقه عقلت هكذا) حُشِر راكباً على بليّته.

وقد قال أحدهم فى هذا الصدد:

إذا مِتُّ فادفنّى بحرّاء ما بها سوى الأصرخين أو يفوِّز راكبُ

فإن أنتَ لم تُعْقرْ عَلىَّ مطيَّتى فلا قامَ فى مال لك الدهر حالبُ

وقال آخر وهو يوصى ولده بأن يفعلوا له ذلك:

أَبُنىَّ لا تنسَ البليّه إنّها لأبيك يومَ نُشُوره مركوبُ

۵. عَقرُ الإبل عَلى القُبُور

كانوا إذا ماتَ أحدُهم ضربوا قوائم بعير بالسَيف عند قبره، وقيل إنّهم كانوا يفعلون ذلك مكافأه للميّت المضياف على ما كان يعقره من الإبل فى حياته وينحره للأضياف.

وقد أبطلت الشريعه المقدّسه هذه العاده الباطله فى ما أبطلته فقد جاء فى الحديث «لا عَقْر فى الإسلام».

وقد قال أحدُهم حولَ العَقر هذا:

قُلْ للقوافِل والغُزاه إذا غَزَوا والباكرين وللمجدّ الرائح

إنَ الشَجاعه والسَماحه ضُمِّنا قبراً بِمروَ عَلى الطريق الواضح

فإذا مررتَ بِقبره فاعقِرْ بهِ كُومَ الجلاد وكلّ طِرف سابحِ

وأنضحْ جَوانبَ قبره بدمائها فَلَقدْ يكونُ أخا دم وذبائح

۶. التعشير

ومن خرافاتهم أنّ الرجلَ منهم كان إذا أرادَ دخولَ قريه فخافَ وباءها أوجنّها، وقف على بابها قبل أن يدخلها فنَهقَ نهيقَ الحمار، ثم علّق عليه كعبَ أرنب كأنَّ ذلك عوذه له، ورقيه من الوباء والجن، ويسمّون هذا النهيق التعشير.

قال شاعرهم:

ولا يَنْفَعُ التعشير أن حُمَّ واقع ولا زعزعٌ يُغنى ولا كَعبُ أرنب

وقال الآخر:

لعمرىَ إن عشّرتُ من خيفه الرَّدى نِهاق حَمير أنّنى لجزوعُ

۷. تصفيق الضالّ فى الصحراء ليهتدى

كان الرجلُ منهم إذا ضَلّ فى فلاه قَلَب قميصه وصفق بيديه، كأنّه يومئ بهما إلى انسان مهتدى.

قال أعرابى فى ذلك:

قلبتُ ثيابى والظنونُ تجولُ بى وترمى برجلى نحو كلَ سَبيل

فلأياً بلائى ما عرفت حليلتى وأبصرتُ قصداً لم يُصَب بدليل

٨. الرتم

وذلك أنّ الرجل منهم كان إذا سافر عَمَد إلى خيط فعقده فى غصن شجره أوفى ساقها فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإنْ وجده بحاله علم أنّ زوجتَه لم تخنهُ، وإن لم يَجِدْه أو وَجَدَهُ محلولاً قال: قد خانتنى. وذلك العقد يسمى «الرتم».

قال شاعرهم فى ذلك:

خانته لما رأتْ شَيْباً بمفرقه وغَرّه حِلفُها والعَقْدُ للرتم

وقال الآخر:

لا تحسَبنّ رتائماً عقدّتَها تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال ثالث:

يعلل عمروٌ بالرتائم قلبه وفى الحىّ ظبيٌّ قد أحلّت محارقه

فما نَفَعَتْ تِلكَ الوصايا ولا جَنَتْ عَليهِ سوى ما لا يحبُّ رتائمه

٩. وطئ المرأه القتيل الشريف لبقاء وَلَدها

فقد كانت العرب تقول: إنّ المرأه المقلاه - وهى الّتى لا يعيش لها وَلَدٌ - إذا وطئت القتيلَ الشريف عاشَ وَلَدُها.

قال أحدُهم:

تظلّ مقاليت النساء يَطأنه يَقُلْنَ ألا يلقى على المرء مئزر

١٠. طَرْحُ السِنّ نَحو الشَمْس إذا سَقَطَتْ

ومن تخيّلات العرب وخرافاتهم أنّ الغلام منهم إذا سَقَطَتْ له سنٌ أخذها بين السبابه والإبهام واستقبل الشمسَ إذا طلعت وقذف بها وقال: يا شمس أبدلينى بسنّ أحسن منها، وليجر فى ظلمها أياتك، أو تقول: أياؤك، وهما جميعاً شعاع الشمس.

قال أحدهم وهو يصف ثغر معشوقته:

سقته اياه الشمس إلّالثاته أسفَّ ولم تكرم عليه باثمدِ

أى كأنّ شعاع الشمس أعارته ضوءها.

هذا وقد أشار شاعرُهم إلى هذا الخيال (أوقل الخرافه المذكوره) إذ قال:

شادنٌ يحلو إذا ما ابتسَمَتْ عن أقاح كأقاح الرمل غر

بدلته الشمسُ من منبته بَرَداً أبيضَ مصقولَ الأثر

١١. تعليق شيء نجس على الرجل وقايه من الجنون

ومن تخيّلات العرب أنّهم كانوا إذا خافُوا على الرجل الجنونَ، وتعرّض الأرواح الخبيثه له نجَّسوه بتعليق الأقذار، كخرقه الحيض وعظام الموتى قالوا:

وأنفعُ من ذلك أن تعلِّقُ عليه طامثٌ عظامَ موتى ثم لا يراها يومَه ذلك. وأنشدوا فى ذلك:

فلو أن عِندى جارتَين وراقياً وعَلَّقَ أنجاساً عَلّى المعلقُ

وقالت امرأه وقد نَجَّست ولَدها فلم ينفعه ذلك ومات:

نجّستُهُ لا ينفعُ التنجيسُ والموتُ لا تفوتُه النفوسُ

۱۲. الاستشفاء بدم الرئيس

فقد كانت العرب تعتقد أنّ دم الرئيس أو الكبير يشفى من عضه الكلْب الكَلِب.

قال الشاعر:

بناهُ مكارم وأساه جُرحٍ دِماؤُهُمْ من الكَلبِ الشفاءُ

وقال آخر:

أحلامُكُمْ لسِقامِ الجهل شافيةٌ كَما دِماؤكُمُ تشفى من الكَلَب

۱۳. شقّ البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل

ومن أوهامهم وتخيّلاتهم أنّهم كانوا يزعمون أنّ الرجل إذا أحب امرأه وأحبّته فشقّ برقعها وشقّت رداءه صلح حبُهما ودام، فإن لم يفعلا ذلك فَسَد حبُهما، قال فى ذلك أحدهم:

وكم شَقَقْنا مِن رداء محبِّرٍ وَ مِنْ بُرقُعٍ عَنْ طَفله غير عانس

إذا شُق بُردٌ شُق بالبرد بُرقعٌ دواليك حتّى كلُّنا غير لابسِ

نروم بهذا الفعل بُقياً على الهوى وإلف الهوى يُغوى بهذى الوساوس

۱۴. معالجهُ المرضى بالأُمور العجيبه

ومن مذاهبهم الخرافيه فى معالجه المرضى إذا بثرت شفه الصبى حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحىّ: الحلأ الحلأ، الطعام الطعام، فَتُلقى له النساءُ كِسَرَ الخبز، واقطاع التمر واللحم فى المنخل ثم يُلقى ذلك للكلاب فتأكله، فيبرأ مِنَ المرض، فإن أكل صبيٌّ من الصبيان من ذلك الّذى ألقاهُ للكلابِ تمره أو

لقمه أو لحمه، بثرت شفته.

فقد روى عن إمرأه أنّها أنشدت:

ألا حلأ فی شفه مشقوقَه فقد قضی منخلُنا حقوقَه

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا إذا طالت علّه الواحد منهم، وظنُّوا أنَّ به مسّاً من الجن لأنّه قَتَلَ حيه، أو يربوعاً، أو قنفذاً، عملوا جِمالاً من طين وجعلوا عليها جوالق وملاؤها حنطه وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال فی باب جحر إلی جهه المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلی تلك الجمال الطين فاذا رأوا أنّها بحالها، قالوا: لم تقبل الديه فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدّد ما عليها من الميره قالوا: قد قبلت الديه، واستدلّوا علی شفاء المريض وفرحوا وضربوا الدفّ.

قال بعضهم:

قالُوا وقد طالَ عَنائی والسَّقمْ إحمِلْ إلی الجِن جمالات وضَمّ

فَقَد فَعَلت والسقام لم يرم فبالذی يملَك برئی اعتصمْ

وقال آخر:

فياليتَ أنّ الجن جازُوا حمالَتی وزُحزحَ عنی ما عنانی من السقم

أُعلّلُ قلبی بالَّذی يزعُمونه فَيالَيتَنی عُوفيت فی ذلك الزعم

ومن مذاهبهم فی هذا المجال أنّ الرجلَ منهم كان إذا ظهرت فيه القوباء (وهو مرض جلدی) عالجها بالريق.

قال أحدهم:

يا عَجَباً لهذه الفليقه هَل تُذهِبَنَّ القُوَباءَ الريقه

۱۵. خرافاتُ حول الغائب منهم

كانوا إذا غُمَّ عليهم أمرُ الغائب ولم يعرفوا له خبراً جاءُوا إلى بئر عاديه (أى مظلمه بعيده القعر) أو جاءُوا إلى حصن قديم ونادوا فيه: يا فلان أو يا أبا فلان (ثلاث مرّات)، ويزعمون أنّه إن كان مَيّتاً لم يسمَعوا صوتاً، وإن كان حيّاً سمعُوا صوتاً ربّما توهموه وهماً، أو سمعوه من الصدى فَبَنَوا عليه عقيدَتهم، قال بعضهم فى ذلك:

دَعوتُ أبا المِغوار فى الحَفْر دعوه فما آضَ صوتى بالذى كنت داعيا(۱)

أظنُ أبا المغوار فى قصر مظلم تجرُّ عليه الذارياتُ السَوافيا

وقال آخر:

وكمْ ناديتُه والليلُ ساج بِعادىّ البِئار فما أجابا

ومن ذلك أنّ الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال: (أرى من أُحبُّه) فإن كان غائباً توقّع قدومَه، وإنْ كان بعيداً توقَّع قربه، وقالَ أحدهم:

إذا اختلَجَتْ عَينى أقولُ لعَلَّها فَتاه بنى عمرو بها العينُ تَلْمعُ

وقال آخر:

إذا اختلَجَت عَينى تَيقَّنتُ إنّنى أراكَ وَ إن كانَ المزارُ بَعيدا

وكانوا إذا لا يُحِبُّونَ لمسافر أنْ يعودَ إليهم أوقدُوا ناراً خَلفَهُ ويقولون فى دعائهم «أبعَدهُ اللّهُ وأسحقَهُ وأوقدَ ناراً إثرهُ» قال بعضهم:

صحوتُ وأوْقدتُ لِلجَهلِ ناراً وَرد عليك الصبا ما استعارا

۱- . آضَ أى عاد ورجع.

۱۶. عقائدهُمْ العجیبه فی الجنّ وتأثیرُهُ

کانت العربُ فی الجاهلیه تعتقد فی الجن وتأثیر هذا الکائن فی شتی مجالات حیاتهم اعتقاداتٌ عجیبه وفی غایه الغرابه.

فتاره تستعیذُ بالجن، وقد إستعاذَ رجلٌ منهُمْ وَ مَعَهُ ولدٌ فأکلهُ الأَسدُ فقال:

قَدْ استعَذْنا بعظیم الوادی مِن شَرِّ ما فیهِ مِنْ الأعادی

فلم یجرنا من هزبر عادی

وعن الاستعاذه بالجنّ قال اللّه سبحانَهُ فی القرآن: «وَ أَنَّهُ کانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ یَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً» .(۱)

ومن ذلک إعْتقادُهُمْ بهتاف الجن، ولهم فی هذا المجال أساطیرُ خرافیهٌ مذکوره فی محلّها.

ومن هذا القبیلُ إعتقادهُم بالغول، فقد کانت تزعم العربُ فی الجاهلیه أنّ الغیلان فی الفلوات (وهی من جنس الشیاطین) تتراءی للناس، وتغول تغولاً أی تتلوّن تلوناً فتضلّهم عن الطریق، وتهلکهم، ومن هذا القبیل أیضاً إعتقادُهم بالسعالی!!

وقد قال أحدُهم فی ذلک:

وساحرهٌ عینیّ لو أنَّ عینَها رَأَت ما أُلاقیهِ مِنَ الهَول جَنّتِ

أبیتُ وسعلاهٌ وغولٌ بِقَفْره إذا اللیلُ وارى الجن فیه أرنت

۱۷. تشاؤمهم بالحیوانات والطیور والأشیاء

ومن مذاهبهم الخرافیه تشاؤمهم بأشیاء کثیره وحالات عدیده:

۱- . الجن: ۶.

فمن ذلک؛ تشاؤمهم بالعطاس.

وتشاؤمهم بالغراب حتّی قالوا: فلانٌ أشآم من غراب البَیْن، ولهم فی هذا المجال أبیاتٌ شعریه کثیرهٌ منها قول أحدهم:

لیتَ الغرابُ غداه ینعَبُ دائباً کانَ الغرابُ مقطَّعَ الأوداجِ

وکذا تشاؤُمهمْ وتطیّرهم بالثور المکسور القرن والثعلب. إلی غیر ذلک من التخیّلات والأوهام والخرافات والأساطیر، والإعتقادات العجیبه، والتصوّرات الغریبه الّتی تزخر بها کتبُ التاریخ المخصّصهِ لبیان أحوال العرب قَبْلَ الإسلام وحتّی إبّان قیام الحضاره الإسلامیه.

مکافحهُ الإسلام لهذه الخرافات

ولقد کافح الإسلامُ جمیع هذه الخرافات بطرق مختلفه، وأسالیب متنوّعه.

أمّا بالنسبه إلی ما کانوا یفعلونَهُ بالحیوانات، فمضافاً إلی أنّ أیّ شیء من هذه الأَعمال لا ینسجم مع العقل والمنطق والعلم؛ لأنّ المطر والغیث لا ینزل من السماء بإشعال النیران، وضرب الثیران لا یؤثر فی البقر، کما لا ینفع کیُّ البعیر الصحیح فی شفاء الإبل السقیمه، وتعتبر هذه الأعمال نوعاً من تعذیب الحیوانات، وقد نهی الإسلام بشده عن تعذیب الحیوانات وإیذائها، بأیّ شکل کان.

فقد روی عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أنّه قال: «لِلدّابهِ عَلی صاحبها ستُّ خصال:

۱. یَبدأ بعلفها إذا نَزَل.

۲. ویُعرضُ علیها الماء إذا مَرَّ به.

۳. ولا یضرب وجهها فإنّها تسبِّحُ بحمدِ ربِّها.

۴. ولا یقفْ علی ظهرها إلّافی سَبیل اللّه عزّ وجلّ.

۵. ولا یحمّلها فوق طاقتها.

۶. ولا یکلّفها من المشی إلّاما تطیقُ.

وقد رویت فی ذلک روایات عن رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم.(۱)

ومن هنا ندرکُ أنّ التعالیم فی مجال الرفق بالحیوان، وحمایته، علی النقیض من العادات الجاهلیه السائده فی البیئه العربیه آنذاک.

وأمّا بالنسبه إلی التمائم والأَشیاء الأُخری الّتی کانت تعلّقها العربُ علی أعناق وصدور رجالها، وأولادها، من الأحجار والخَرَز، وَ عظام الموتی، ومعالجه المرضی والمصابین وغیرهم بها أحیاناً، فقد حاربَها الإسلامُ، بعد أن أبطلها کما أبطل الأفاعیل الّتی سبق أن ذکرناها قبل هذا.

فلمّا جاءت جماعات من الأعراب إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وسألوه عن الرّقی والقلائد الّتی کانوا یتداوون بها أو یسترقونها بدلاً عن التداوی بالعقاقیر والأدویه قائلین یا رسول اللّه: أنتداوی؟

قال رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «تداووا فإنَّ اللّه لَمْ یَضَعْ داء إلّاوَضَعَ لَهُ دَواء».(۲)

بل نجد النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم یأمر سعد بن أبی وقاص عندما أُصیب بمرض فی فؤاده أن یعالج نفسَه عِند طبیب إذ قال له لمّا عادَه وعرف بحاله: «إنَک رجلٌ مفودٌ، إئتِ الحارثَ بن کِلْده أخا ثقیفٍ فإنَّهُ رَجلٌ یتطبَّب».(۳)

هذا مضافاً إلی أنّه وردت أحادیث کثیره تصرّح ببطلان التمائم السحریّه الّتی لا تنفع ولا تضرّ أبداً، وها نحنُ نشیر فی ما یلی إلی نموذجین من هذه الأحادیث:

۱- . من لا یحضره الفقیه: ۲/۲۸۶ برقم ۲۴۶۵. وراجع للوقوف علی أحادیث حقوق الحیوان کتابنا: الشؤون الاقتصادیه: ۱۳۰- ۱۵۹.

۲- . سنن أبی داود: ۲/۲۱۹ برقم ۳۸۵۵، کتاب الطب، باب فی الرجل یتداوی.

۳- . کنز العمال: ۱۰/۸۵ برقم ۲۸۴۶۸.

۱. تقول أم قیس: دخلتُ بابن لی علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قد أعلقت علیه من العُذْرَه (وهی قلاده سحریه جاهلیه) فقال: «علام تدغَرْن أولادَکنَّ بهذا العِلاق، علیکنَّ بهذا العُود الهِنْدیّ» وکان صلی الله علیه و آله و سلم یقصد عصاره هذا العود.(۱)

۲. رُوی عن الإمام جعفر بن محمَّد الصادق علیه السلام أنّه قال: «إنَّ کثیراً مِنَ التمائم شِرْکٌ».(۲)

هذا مضافاً إلی أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وأوصیاءه الکرام - بارشادهمُ الناس إلی ما ینبغی أن یتداووا به من العقاقیر والأدویه وما أعطوْه من تعالیم قیّمه کثیره فی هذا المجال ممّا جمعه المحدّثون الکبار تحت عنوان: «طبّ النبیّ» و «طب الرضا» و... - قد وجّهوا ضربه قوّیه أُخری إلی تلک الأوهام والتخیّلات، والخرافات والأساطیر الّتی کان یعانی منها المجتمعُ العربی الجاهلی قبل الإسلام.(۳) وأمّا الغول، والطیره، والتشاؤم، والهامّه، والنَوء، فقد حاربها النبیّ بصراحه إذ قال: صلی الله علیه و آله و سلم «لا هامَّه، ولا نَوء، ولا طِیَره، ولا غول».(۴)

وقال صلی الله علیه و آله و سلم: «العِیافَهُ والطِیَرهُ والطَرْق مِن الجبْت».(۵)

۱- . صحیح البخاری: ۷/۱۷، کتاب الطب، باب اللدود.

۲- . وسائل الشیعه: ج ۴، الباب ۴۱ من أبواب قراءه القرآن، الحدیث ۴.

۳- . وقد فتح المحدّثون من الفریقین أبواباً خاصّه لأحادیث الطبّ النبویّ فی کتب الحدیث أیضاً.

۴- . التاج الجامع للأُصول: ۳/۱۹۶ و ۱۹۷، الفصل الرابع باب نفی مزاعم الجاهلیه، قال مؤلّف التاج: الهامّه طائر أو البوم إذ سقط فی مکان تشاءم أهلُه، أو دابّه تخرجُ من رأس القتیل أو من دمه، فلا تزالُ تصیح حتّی یؤخذَ بثاره، والنَوء نجمٌ یأتی بالمطر وآخر یأتی بالریح (حسب عقیده الجاهلیه)!!

۵- . مسند أحمد: ۳/۴۷۷؛ التاج الجامع للأُصول: ۳/۲۰۱. قال مؤلّف التاج: العیافه زجر الطّیر والتفاؤل بأسمائها وأصواتها کالتفاؤل بالعُقاب علی العِقاب، وبالغُراب علی الغُربه، وبالهُدْهُدْ علی الهُدی، وکذا بأفعالها، وکیفیه طیرانها فکانت العرب تزجر الطیرَ وتثیره، فما أخذ منها ذات

وعن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أیضاً أنه قال: «إنَّ الرقی والتمائم والتولَه شرکٌ».(۱)

وعن معاویه بن الحکم السلمی قال: قلتُ یا رسولَ اللّه: أُموراً کنّا نصنعها فی الجاهلیه، کنّا نأتی الکهّان، قال: فلا تأتوا الکهانَ، قال: قلت: کنّا نتطیّر؟ قال: «ذاک شیء یجدُهُ أحدُکُمْ فی نفسِه فلا یَصُدَّنکم».(۲)

إنّ وجودَ النهی الشدید والمکرّر فی الأحادیث الکثیره عن الطیره والتشاؤم، والزجر والعیافه والتمائم والتوله والهامّه والنوء والغول، والکهانه، وإیذاء الحیوانات وکیّهنّ، وتعذیبهن، وماشابه ذلک یدل بوضوح وقوّه علی مدی رسوخ هذه العادات الباطله فی الحیاه العربیّه الجاهلیه، یکشف عن مبلغ اعتقادهم بها، ونزوعهم إلیها، وهو بالتالی یکشف عن مغزی قوله تعالی: «وَ یَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی کانَتْ عَلَیْهِمْ» (۳) فأیّه سلاسل وأَغلال أثقل وأسوأ عاقبه وأشدّ وطئاً، من هذه الأغلال... أغلال الخرافه والوهم، وسلاسل التخیّلات والأساطیر؟!!

أوضاع العرب الإجتماعیه قبیل ظهور الإسلام

إنّ أوّل خطوه خطاها البَشَر باتّجاه النمط الإجتماعی کانت عندما أقْبَل علی تأسیس وإقامه الحیاه القبلیه، فالقبیله تتکوّن من إجتماع عدّه عوائل وأُسر مترابطه فیما بینها بوشائج القربی والنسب تحت زعامه شیخ القبیله، وبهذا یتحقّق أبسط نمط من أنماط الحیاه الإجتماعیه.

۱- . سنن ابن ماجه: ۲/۱۱۶۷ برقم ۳۵۳۰؛ التاج الجامع للأُصول: ۳/۲۰۳. قال مؤلِّف الجامع: «التوله»: نوع من السحر یحبّب الرجلَ إلی زوجته، وهو من عمل المشرکین (أی فی الجاهلیه).

۲- . صحیح مسلم: ۷/۳۵، باب تحریم الکهانه وإتیان الکهان.

۳- . الأعراف: ۱۵۷.

وقد كانت الحياةُ العربيه - آنذاك - من هذا القبيل، فكلُ مجموعه من العوائل المترابطه نسبياً تتجمع فى شكل قبيله، وتشكل بذلك مجتمعاً صغيراً يخضع فيه الجميع لأوامر رئيس القبيله وزعيمها، ولقد كان الجامع بين أفراد القبيله هو الرابطه القوميه، والوشيجه النسبيه، وكانت هذه القبائل تختلف فى عاداتها ورسومها، وتقاليدها وأعرافها، اختلافاً كبيراً، وإذ كانت كلّ قبيله تعتبر القبائل الأُخرى غريبه عنها لذلك كانت لا تقيم للآخرين وزناً ولا قيمه، ولا تعترف لهم بأىّ حق أو حرمه.

ولهذا كانت ترى الإغاره على الآخرين وقتلهم، ونهب أموالهم، وسلب ممتلكاتهم وسبى نسائهم من حقوقها القانونيه المشروعه، اللّهم إلّاأن يكون بين القبيله، والقبيله الأُخرى حلف أو معاهده.

هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت القبيله الّتى تتعرض للإغاره من جانب قبيله أُخرى ترى من حقّها أن تردَّ الصاع صاعين، فتقتل كلّ أفراد القبيله المغيره، لأنّ الدّم - فى نظرهم - لا يغسله إلّاالدّم!!!

ولقد تبدّلت أخلاقيةُ العرب هذه بعد انضوائهم تحت لواء الإسلام الحنيف، بل تحوَّلوا من نمط الحكومه القبليه المتخلّفه والنظام العشائرى الضيّق هذا، إلى حكومه عالميّه، واستطاع رسولُ الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم أن يؤلّف من القبائل العربيه المتفرّقه أُمّه واحده.

ولا شكّ أنّ تأليف أُمّه واحده من قبائل وجماعات اعتادت طوال سنين مديده من التاريخ على التناحر والتنازع، والتخاصم والتقاتل، والتهاجم والإغاره فيما بينها، واستمرأت سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وذلك فى مدّه قصيره، عملٌ عظيم جدّاً، ومعجزه اجتماعيه لا نظير لها، لأن مثلَ هذا التحوُّل العظيم إذا أُريدَ لَهُ أن

يتمَّ عبر التحوُّلات والتطوّرات العاديّه لاحتاج إلى تربيه طويله الأمد، ووسائل لا تحصى كثره.

يقول «توماس كارليل» فى هـذا الصدد: لقد أخرج اللّه العرب بالإسـلام من الظلمات إلى النور، وأحيا به منها أُمّه خامله لا يُسـمعُ لها صوتٌ ولا يُحسُّ فيها حركه، حتّى صار الخمولُ شُهره، والغموض نباهه، والضعه رفعه، والضعف قوّه، والشراره حريقاً، وشمل نورُه الأَنحاء، وعمَّ ضوؤه الأرجاء، وما هُو إلا قرنٌ بعد إعلان هذا الدين حتّى أصبح للعرب (المسلمين) قدمٌ فى الهند وأُخرى فى الأندلس.(۱)

وإلى هذه الحقيقه يشير أيضاً مؤلّف تاريخ اللغات الساميه الشـهير «رينان» قائلاً: «لا مكان لبلاد العرب فى تاريخ العالم السياسىّ والثقافى والـدينىّ قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعاده الّذى صار به العربُ أُمّه فاتحه مُبدعه ولم يكن لجزيره العرب شأنٌ فى القرون الأُولى مِنَ الميلاد، حين كانت غارقه فى دياجير ما قبل التاريخ».(۲)

أجـل إنَّ هـذه القبائـل العربيه الجـاهليه المختلفه المتنـاحره لم تكن تعيش أيّه حضـاره، ولم تمتلـك أيّه تعـاليم وقوانين، وأنظمه وآداب قبـل مجىء الإسـلام، لقـد كانت محرومه من جميع المقوّمات الإجتماعيه الّتى توجبُ التقـدّم والرقى، ولهـذا لم يكن من المتوقّع أبـداً أن تصل إلى تلك الذرى الرفيعه من المجد والعظمه، ولا أن تنتقل من نمط الحياه القبليه الضـيّقه إلى عالم الإنسانيه الواسع، وأُفق الحضاره الرحيب بمثل هذه السُّرعه الّتى وَصَلت إليه والزمن القصير الّذى انتقلت فيه.

۱- . المخططات الاسـتعماريه لمكافحه الإسـلام للصواف: ۳۸؛ الإسـلام والعلم الحديث: ۳۳. وراجع الأمثل فى تفسـير كتاب اللّه المنزل: ۲/۶۲۴.

۲- . حضاره العرب: ۸۷.

إنَّ مَثَل الشعوب والأمم البشريه مثل المبانى والعمارات تماماً.

فكما أنّ البناء القوىّ الراسخ يحتاج إلى موادّ إنشائيه قويّه معدَّه بإتقان ومحضّره بإحكام حتّى يستطيع البناء المصنوع من هذه الموادّ، والمؤسّس بعنايه وهندسه متقَنه من الوقوف فى وجه الأعاصير، والأمطار الغزيره كذلك يحتاج كيانُ كلّ أُمّه رشيده من الأُمم إلى أُسس وقواعد محكمه (وهى الأُصول والآداب الكامله، والأخلاق الإنسانيه العاليه) لتستطيع البقاء والتقدّم.

ولهذا السبب لابدّ من التأمّل فى أمر وسرّ هذه الظاهره العجيبه ولابد أن نتساءل:

كيف تحقّق ذلك التطوّرُ العظيم، وذلك التحوّل العميق للعرب الجاهليه، ومن أين نشأ؟؟

كيف أمكن أن تتحوّل جماعه متشتته، متعاديه، متناحره، متباغضه، فيما بينها، بعيده عن النظم الإجتماعيه، بمثل هذه السرعه إلى أُمّه متآلفه متآخيه متعاونه متسالمه متحابّه، وتشكّل دوله قوّيه وكياناً سياسياً شامخاً أوجب أن تخضع لها دول العالم وشعوبه، وتطيعها، وتحترم مبادءها وأخلاقها وآدابها آنذاك.

حقّاً لو كان فى مقدور العرب أن يحرزوا ذلك التقدّم الهائل بفعل عامل ذاتى فلماذا لم تستطع عربُ اليمن الّذين كانوا يمتلكون شيئاً كبيراً من الثقافه والحضاره، والذين عاشوا الأنظمه الملكيه سنيناً عديده، بل وربَّت فى أحضانها ملوكاً وقاده كباراً، أن تصل إلى مثل هذه النهضه العظيمه الشامله، وتقيم مثل هذه الحضاره العريضه الخالده.

لماذا لم تستطع العربُ الغساسنَه الذين كانوا يجاورون بلادَ الشام المتحضّره، ويعيشون تحت ظلّ حضاره «الروم» أن يصلوا إلى هذه الدرجه من الرشد؟

لماذا لم تستطع عربُ الحيرَه الذينَ كانُوا - وإلى الأمس القريب - يعيشون فى ظلّ الإمبراطوريه الفارسيه أن ينالوا مثل هذا الرقى والتقدّم؟ وحتّى لو وصلوا إلى هذه الدرجه من التقدّم وحقّقوا هذه القفزه فإنّه لم يكن أمراً يثير العجب لأنّهم كانوا يعيشون فى أحضان مدنيات كبرى، ويتغذون منها، ولكن الّذى يثير الدهشه، والعجب هو أن يستطيع عرب الحجاز من تحقيق هذه النهضه الباهره، ويرثوا الحضاره الإسلاميه العظمى وهم الذين كانوا يفتقرون إلى أبسط مقوّمات الحضاره الذاتيه، ولم يكن لهم عهدٌ بأىَّ تاريخ حضارىّ مشرق، بل كانُوا كما عرفت يرزحون تحت أغلال الوَهْم والتخَيُّل، ويسيرون فى ظلمات الخرافات والأساطير.

***

دُوَل الحيره وغسّان

على العموم كانت المناطقُ ذاتُ المناخ الجيّد من الجزيره العربيه حتّى آخر قرن قبل الإسلام تحت سيطره ثلاث دول كبرى هى: «إيران»، «الروم»، «والحبشه».

فالشرق والشمال الشرقى من هذه المنطقه كانت تحت حمايه «إيران».

والشمال الغربى كان تابعاً للروم.

والمناطق المركزيه والجنوب كانت تحت نفوذ «الحبشه».

وعلى إثر مجاوره هذه المناطق للدول المتحضّره المذكوره، وما كان بينها من نزاع وتنافس دائمين، ظهرَت فى المناطق الحدوديه للجزيره العربيه دول شبه متحضّره، وشبه مستقلّه كان كلٌّ واحده منها تابعه فى حضاراتها لدوله متمدّنه عظمى تجاورها.

وقد كانت دول «غسان»، و «الحيره» «وكنده» من هذه الدول شبه المستقلّه

وشبه المتمدّنه، وكانت كلّ واحده منها تابعه لإحدى الدول العظمى آنذاك: «إيران»، «الروم»، «الحبشه».

الحيره: يتبيَّن من الآثار والأخبار أنّه هاجرت - فى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد - بعضُ الطوائف العربيه، وذلك فى نهايات الحكم الأشكنانى، إلى الأراضى المجاوره للفرات، وسيطروا على قسم من أراضى العراق، وقد أوجدت هذه الجماعةُ المهاجرةُ القرى والقلاع هناك، شيئاً فشيئاً، وأحدثت المدنَ الّتى مِن أهمّها: «الحيره» الّتى كانت تقعُ على حافه صحراء بالقرب مِن مدينه الكوفه الحاليه. وقد كانت هذه المدينه - وكما يظهر من اسمها - فى بدايه أمرها قلعه (لأنّ الحيره تعنى فى اللغه السريانيه: الدير وما يشبهه) يسكنها العرب ثم تطوّرت شيئاً فشيئاً إلى مدينه.

وقد ساعد مناخها الجميل، والمياهُ الوافره الّتى تأتى إليها من الفرات، وجوده الأحوال الطبيعيه الأُخرى إلى أن تجتذب اليها أصحاب الصحراء، وسكان البوادى، والقفار، كما واستطاعت هذه المدينه وبفضل مجاورتها للحضاره الفارسيه أن تكتسب من ثقافتها ومدنيتها ما أفاض عليها لوناً من الحضاره والمدنيه، وقد بُنيت بالقرب من «الحيره» قصورٌ مثل «الخورنق» الّذى أضاف إلى هذه المدينه جمالاً وبهاء خاصّين، وقد تعرَّف العربُ الساكنون فى هذه المنطقه على الخط والكتابه، ويمكن أن تكون الكتابه والقراءه قد سرتا منها إلى بقيه مناطق الحجاز ومُدُنها.(۱)

ولقد كان ملوك «الحيره» وأمراؤها من اللخميّين العرب يؤيّدون من قِبَل الدوله الإيرانيه بقوّه، وسبب هذا التأييد، والحمايه الإيرانيه لأُمراء الحيره وملوكها

۱- . فتوح البلدان للبلاذرى: ۴۵۷.

كان يكمن فى أنّ ملوك إيران - آنذاك - كانوا يُريدون أن تكونَ الحيره سَدّاً، وحاجزاً بينهم وبين عرب الباديه، يدفعون بهم خطرَ الغزاه من أهل الصحارى على الحدود الإيرانيه.

ولقد سجَّلَ التاريخُ أسماء هؤلاء الأُمراء؛ وقد نظم «حمزه الأصفهانى» فهرستاً بأسمائهم، وجدولاً بأعمارهم ومُدد حكوماتهم، ومن كان يعاصرهم من ملوك بنى ساسان الإيرانيين.(۱)

ومهما يكن الأمر فإنّ دوله اللخميّين العرب كانت من أكبر الحكومات العربيه شبه المتحضّره فى منطقه الحيره، وكان آخر ملوك هذه السلسله هو «النعمان بن المنذر» صاحب القصه التاريخيه الّتى تتضمّن خلعه من الحكم، وقتله بواسطه الملك الإيرانى: «خسرو برويز».(۲)

غَسان: فى أوائل القرن الخامس أو أوائل القرن السادس الميلادى هبط جماعه من المهاجرين اليمنيين فى الشمال الغربى - أقصى نقاط الجزيره العربيه - وفى جوار الإمبراطوريّه الروميّه، وأسّسوا دوله الغساسنه، وقد كانت هذه الدوله تحت حمايه الروم، وكان مُلوكُها يُنصبّون من جانب إمبراطوريات «قسطنطينيه» مباشره، تماماً كما كان مُلُوك «الحيره» يُنصبّون من جانب ملوك إيران.

ولقد كانت دوله الغساسنه متحضّره نوعاً ما، وحيث إنّ مراكز حكمها كانت قريبه من ناحيه إلى «دمشق» ومجاوره ل: «بُصرى» مركز القسم الرومى من الجزيره العربيه من ناحيه أُخرى، لذلك تأثّرت بحضاره الروم تأثّراً كبيراً وبالغاً.

ولقد كان الغساسنه متحالفين مع الروم بسبب ما كان بينهم وبين ملوك الحيره اللخميّين العرب والإيرانيين من الاختلاف والنزاع، ولقد حكم فى دوله الغساسنه

۱- . لاحظ: سِنىّ ملوك الأرض: ۷۳-۷۶.

۲- . لاحظ: الأخبار الطوال: ۱۰۹.

تسعه أو عشره من الأمراء والملوك تباعاً.

الدين فى أرض الحجاز

لقد كان الدينُ الرائج فى الحجاز هو الوثنيه، وعباده الأصنام.

نعم كانت هناك أقليّات دينيه يهوديه تقطن فى يثرب (المدينه فيما بعد) وخيبر، كما أنّه كان هناك من يتبع المسيحيه وهم سكّان نجران، البلد الحدودى لليمن والحجاز.

وكان الدين الرائج فى المناطق الشماليه من الحجاز (أى الشام حالياً) هو المسيحيه بسبب مجاوره هذه المناطق للروم وخضوعها للسياده الروميه.

ولو أنّنا استثنينا من الحجاز هذه المناطق الحسّاسه الثلاث لما وجدنا فى بقيه مناطق الحجاز إلّاالوثنيه فى أشكال مختلفه، واعتقادات متنوعه، اللّهم إلّابضع أفراد كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد ممّن يُسمّون بالأحناف كانوا على دين التوحيد، وكان عددهم بالنسبه إلى الأكثريه الساحقه من العرب الوثنيين قليلًا جدّاً.

فمنذ زمن النبىّ «إبراهيم» الخليل وابنه «إسماعيل» عليهما السلام دخل التوحيد، ودخلت بعض التعاليم الأخلاقيه والدينيه إلى أرض الحجاز، وكان الحج وأداء مناسكه إحتراماً للكعبه الشريفه هو أحدُ هذه التعاليم والسنن الّتى دخلت مع «الخليل» إلى هذه المنطقه، ثم إنّ رجلًا من قبيله «خزاعه» يسمى «عمرو بن لحى» الّذى كانت زعامه مكّه قد عهدت إليه، أدخل عباده الأوثان فى مكّه فى ما بعد، وذلك عندما سافر هذا الخزاعى إلى بلاد الشام فوجد قوماً من العمالقه يعكفون على تماثيل جميله النقش والمنظر يعبدونها، ويؤلّهونها، فقال لهم: ما هذه الأصنام الّتى أراكُم تعبدون؟؟ قالوا له: هذه أصنامٌ نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها

فتنصـرنا، فقال لهم: أفلا تعطوننى منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له: «هُبَل» فقدم به مكّه فنصبه ودعا الناس إلى عبادته، وتعظيمه.(۱)

وهكذا دخلت الوثنيه إلى «مكّه» المكرّمه، وأصبحت عباده الأوثان والأصنام عباده رائجه فى تلك الديار.

وأشهر أصنام العرب هى:

۱. هبل وكانت أعظم أصنام العرب الّتى فى جوف الكعبه.

۲. اساف.

۳. نائله وكانت هى واساف على موضع زمزم ينحرون عندهما.

۴. اللات وكانت لثقيف بالطائف.

۵. العُزّى وكانت بنخله الشاميه، وكانت لقريش وبنى كنانه.

۶. مناه وكانت للأوس والخزرج ومن ذهب مذهبهم من أهل يثرب.

۷. عميانس وكان بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم وحروثهم.

۸. سعد.

۹. ذوالخلصه وكانت لدوس وخثعم وبجيله.

۱۰. مناف.(۲)

ولقـد كـانت هـذه هى أشـهر أصـنام العرب علاوه على الأصـنام الأُخرى غير المعروفه الّتى كانت تختصُّ بطائفه دونَ أُخرى، أو بعائله دون عائله.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۵۰-۵۱. والعمالقه هم طائفه من العرب عاشوا وسادوا ثمّ بادوا قبل الإسلام.

۲- . راجع الأصنام للكلبى، والمحبر: ۳۱۵-۳۱۹.

العلم والثقافه فی الحجاز

کـان أهـلُ الحجـاز یوصَـفون بالأُـمیّین، والأُـمیّ هو من لم یتعلّم القراءه والکتابه، فهو کمن ولـدتهُ أُمّه، أو هو باق فی عَـدم العلم بالقراءه والکتابه علی الحاله الّتی ولـدته علیها أُمّه. ولأجل أن نعرف مـدی ما کان علیه العلمُ والثقافه عند العرب من القیمه یکفی أن نعلم بأنّ عدد الذین کانوا یعرفون القراءه والکتابه بین قریش إلی ما قبل ظهور الإسـلام لم یکن یتجاوز (۱۷) شخصاً فی مکّه و (۱۱) نفراً فقط من بین الأوس والخزرج فی المدینه.(۱)

إذا لاحظنا هذا التخلّف والانحطاط فی مجال العلم والثقافه فی البیئه العربیه الجاهلیه یتّضح لنا مدی تأثیر الإسـلام، وأدرکنا عظمه التعـالیم الإسـلامیه فی جمیع الحقول الإعتقـادیه والإقتصـادیه والأخلاقیه والثقافیه، ولابـدّ فی تقییم الحضارات أن نطالع ونـدرس الحلقه السابقه، ثم نقیّم الحلقه التالیه فی ضوء ذلک، وفی هذه الصوره نقف علی عظمه تلک الحضاره الحقیقیه.(۲)

الإمام علیّ علیه السلام یصف العهد الجاهلیّ

وقد وصف الإمامُ علیّ أمیرُالمؤمنین علیه السلام تلک الحاله فی خطبه، وحیث إنّه

۱- . راجع: فتوح البلدان: ۴۵۷-۴۵۹.

۲- . للوقوف علی معلومات أوسع وأکثر حول عقائد مختلف طوائف المجتمع العربی الجاهلی، وثقافتها وتقالیدها راجع الکتابین التـالیین: ألـف: «بلـوغ الأرب فی معرفه أحـوال العرب» تـألیف السـید محمـود الآلوسـی المتوفّی عـام ۱۲۷۰ هجری قمری. بـاء: «المفصَّل فی تاریخ العرب قبل الإسـلام» تألیف الأُستاذ جواد علی، وهذا الکتاب أُخرجَ فی (۱۰) مجلدات، وقد بُحثَ فیها کل ما یرتبط بحیاه العرب فی العهد الجاهلی.

عاصر ذروه ذلک الوضع المأساوی ووصفه وصفاً دقیقاً، لذلک ینبغی أنْ نقف عند کلامه قلیلاً لیتبیّن لنا جیّداً ما کان علیه العربُ إبّان عهد الرساله الإسلامیه المبارکه:

قال علیه السلام فی الخطبه (الثانیه) من «نهج البلاغه»:

«... وأشْهَدُ أنَّ مُحمَّداً عَبدُهُ وَ رَسوله أرْسَلَهُ بالدینِ المَشْهُور والعَلَم المأثور، والکِتاب المَسْطُور، والنُّور الساطِع، والضِیاء اللامع، والأمر الصادع، إزاحه للشُبهات واحتجاجاً بالبَیِّنات وَ تَحْذیراً بالآیات، وتَخْویفاً بالمَثُلات(۱)، والناسُ فی فتن انْجَذَم(۲) فیها حَبْلُ الدِّین، وتزَعْزَعتْ سَواری(۳) الیَقْین واْختَلَفَ النَجْرُ(۴)، وتَشتَّتَ الأمرُ، وَضاقَ المَخْرَجُ، وعَمِیَ المَصْدَرُ، فالهُدی خامِلٌ، والعَمی شامِلٌ، عُصِیَ الرَّحْمنُ و نُصِرَ الشَیْطانُ وَ خُذِلَ الإیْمانُ، فَانْهارَت دَعائِمهُ، وتَنکَّرَتْ مَعالِمُهُ وَدَرَست(۵) سُبُلُه وعَفَت شُرُکُه(۶)، أطاعُوا الشَیْطانَ فَسلکُوا مسالِکه، وورَدُوامناهِلَه(۷) بِهِمْ سارتْ أعلامُه، وقامَ لِواؤُهُ فی فِتَن داستْهُمْ بأَخْفافِها(۸)ووَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِها(۹) وقامَتْ عَلی سَنابِکِها(۱۰) فَهُمْ فیها تائهون حائرُونَ جاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فی خَیر دار وَشَرِّ جِیران نُومُهُمْ سُهُودٌ وَ کُحْلُهمْ دُمُوعٌ بأَرْض عالِمُهْا مُلْجَمٌ وجاهِلُها مُکرَمٌ.(۱۱)

۱- . المثلات: العقوبات.

۲- . انجذم: انقطع.

۳- . السواری: الدعائم.

۴- . النجر: الأصل.

۵- . درست: انطمست.

۶- . الشُرک: الطُرق.

۷- . المنهل: مورد النهر.

۸- . الخف: هو للبعیر کالقدم للإنسان.

۹- . الظلف: للبقر والشاه کالخفّ للبعیر والقدم للإنسان.

۱۰- . السنابک: طرف الحافر.

۱۱- . نهج البلاغه: ۴۶-۴۷، تحقیق صبحی الصالح.

وقال فی الخطبه (التاسعه والثمانین) أیضاً:

«أرْسَلَهُ (صلّی اللّه علیه وآله) عَلی حِین فَتْرَه مِنَ الرُّسُلِ، وَطُول هَجْعه من الأُمَم واعْتزام(۱) مِنَ الفِتَن، وانْتِشار مِن الأُمور وَتلظٍّ(۲) مِنَ الحرُوب، والدُّنْیا کاسِفَهُ النُّور ظاهِرَهُ الغُرُور، عَلی حین اْصفِرار مِنَ وَرَقها، وإیاس مِنْ ثَمَرها واغْورار(۳) مِنْ مائها، قَد دَرَسَت مَنارُ الْهُدی وَ ظَهَرَتْ أَعلامُ الرَّدی، فَهِیَ مُتَجَهِّمَه(۴) لأهْلِها عابِسهٌ فیْ وَجْه طالِبها، ثَمَرُها الفِتْنَهِ وَ طَعامُها الجیْفَهُ (۵)، وشعارُها الخوفُ، وَدثارُها السَیْفُ».(۶)

وَقالَ فی الخطبه (السادسه والعشرین): «إنَّ اللّه بَعَث مُحمَّداً صلی الله علیه و آله و سلم نَذیراً لِلعالَمِین، وأمِیناً عَلی التَّنْزیْل، وَأنتُم مَعشَر العَرَب عَلی شَرِّ دینٍ وَفی شَرِّ دار، مُنیخُونَ (۷) بَیْنَ حِجارَهٍ خُشْنٍ (۸) وحَیّات صُمٍّ (۹) تَشربُونَ الکَدِرَ وَتَأکُلُونَ الجَشِبَ (۱۰) وَتَسْفِکُونَ دِماءکُمْ وتقطعُونَ أَرْحامَکُمْ، الْاصنامُ فیکُم مَنْصوبَه، وَالآثامُ بِکُمْ مَعْصُوبَه(۱۱)».(۱۲)

۱- . اعتزم الفرس: إذا مرّ جامحاً.

۲- . تلظٍّ: تَلَهُّبٍ.

۳- . اغورار الماء: ذهابه.

۴- . تجهّمه: استقبله بوجه کریه.

۵- . إشاره إلی أکل العرب للمیته من شده الاضطرار.

۶- . نهج البلاغه: ۱۲۱-۱۲۲.

۷- . منیخون: مقیمون.

۸- . الخُشّن: جمع خشناء من الخشونه.

۹- . الصُمّ: الّتی لا تسمع لعدم انزجارها بالأصوات.

۱۰- . الجشِب: الطعام الغلیظ.

۱۱- . معصوبه: مشدوده.

۱۲- . نهج البلاغه: ۶۸.

وقال علیه السلام فی الخطبه (الثالثه والثلاثین): «إنَّ اللّه بعثَ مُحمَّداً صلی الله علیه و آله و سلم ولَیسَ أحدٌ مِنَ العَرب یقرأ کِتاباً ولا یدّعی نُبوّه، فساق الناس حتّی بوَّأَهُمْ محلَّتَهُمْ (۱)، وَبلَّغهُمْ مَنجاتَهُمْ، فَاستقامَتْ قَناتُهُمْ (۲)، واطمأَنَّت صفاتُهُمْ».(۳)

وقال فی الخطبه (الخامسه والتسعین) أیضاً:

«... بَعَثَهُ (صلّی اللّه علیه وآله) والنّاسُ ضُلالٌ فی حَیْرَه، وَحاطِبُونَ فی فِتْنَه، قَد اسْتَهْوَتْهُمْ الأَهْواء، وَاسْتَزَلَّتْهُمْ الْکِبْریاء وَاسْتَخَفَّتْهُمْ (۴) الجاهِلیَّهُ الجَهْلاء، حُیاری فی زلْزال مِنَ الأَمْر، وَبَلاء مِنَ الْجَهْلِ، فَبالَغَ صلی الله علیه و آله و سلم فی النَّصیحَه، وَمَضی عَلی الطَّریْقَه، وَدَعا إلی الْحِکْمَه وَ الْمَوعِظَه الْحَسَنَه».(۵)

وقال علیه السلام: فی الخطبه (السادسه والتسعین) أیضاً:

«... مُسْتَقَرُّهُ خَیْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبَتُهُ أشْرَفُ مَنْبَتٍ فی مَعادِنِ الْکَرامَه، وَمَماهِدِ(۶)السَّلامَه، قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئدهُ الأَبرار، وَثُنِّیَتْ إلَیْهِ أزمَّهِ الأَبْصار، دَفَنَ اللّه بِهِ الضَّغائِنَ، وَأطْفأَ بِهِ الثَّوائرَ(۷) أَلَّف بِه إخْواناً، وَفَرَّقَ بِهِ أقْراناً، أَعزَّ بِهِ الذّله، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّه، کَلامُهُ بَیانٌ وَ صَمْتُهُ لِسان».(۸)

وقال علیه السلام فی الخطبه (۱۵۱) أیضاً:

۱- . بَوّأهم محلَّهُمْ: أنزلَهم منزلتهم.

۲- . القناه: العود کنایه عن القوّه.

۳- . نهج البلاغه: ۷۷.

۴- . استخفّتهم: طیّشَتْهُمْ.

۵- . نهج البلاغه: ۱۴۰.

۶- . الممهَد: ما یُبسَط فیه الفراش.

۷- . الثائره: العدواه.

۸- . نهج البلاغه: ۱۴۱.

«... أضاءتْ به [صلى الله عليه و آله و سلم] البلاد بَعْدَ الضَّلالَهِ المُظْلِمَهِ، والْجهالَهِ الغالِبَهِ، والْجَفْوَه الْجافِيَهِ، وَالنّاسُ يسْتَحِلّونَ الْحَريمَ، وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيْمَ، يَحْيونَ عَلى فَتْرَه(۱)، وَيَمُوتُونَ عَلى كَفْرَه».(۲)

وقال علیه السلام فی الخطبه (۱۹۸):

«.. ثُمَّ إنَّ اللّه سُبْحانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله و سلم بِالْحَقِّ حِيْن دَنا مِنَ الدُّنْيا الإنْقِطاعُ وَ أقْبَلَ مِنَ الآخِرَه الإطّلاع(۳)، وَأظْلَمَتْ بَهْجَتُها بَعْدَ إشْراقٍ، وَقامَتْ بأهْلِها عَلى ساقٍ، وَخَشُنَ مِنها مِهادٌ(۴)، وَأزِفَ (۵) منها قيادٌ، فی انْقِطاعٍ مِنْ مدّتها وَاقْتِراب مِنْ أشْراطِها(۶)، وَتَصَرُّم(۷) مِنْ أهْلِها وانْفِصام (۸) مِنْ حَلْقَتِها، وَانْتِشارٍ(۹) مِنْ سببها وَعَفاء(۱۰) مِنْ أعْلامِها، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْراتِها وَ قِصَرٍ مِنْ طُولِها».(۱۱) وقال علیه السلام فی الخطبه (۲۱۳):

«أرْسَلَهُ بِالضِّياء وَ قَدَّمَهُ فی الْإصْطِفاء، فَرتَقَّ (۱۲) به المَفاتِقَ (۱۳)، وَساوَرَ(۱۴)بِه المُغالِبَ، وَذَلَّلَ بِه الصُّعُوبَه، وَسَهّل بِهِ الحُزُونَهَ (۱۵)، حَتّى سَرَّحَ الضَّلالَ عَنْ

۱- . علی فتره: علی خلوّ من الشرائع.

۲- . نهج البلاغه: ۲۱۰.

۳- . الاطّلاع: الإتیان.

۴- . خشونه المهاد: کنایه عن شدّه آلام الدنیا.

۵- . ازف: قرب.

۶- . الشَرط: العلامه.

۷- . التصرّم: التقطّع.

۸- . الانفصام: الانقطاع.

۹- . انتشار الأسباب: تبدّدها حتّی لا تُضبّط.

۱۰- . عفاء الأعلام: اندراسها.

۱۱- . نهج البلاغه: ۳۱۴-۳۱۵.

۱۲- . رتق: سدّ به الفتقَ.

۱۳- . المفاتق: مواضع الفتق.

۱۴- . ساور: ثاوبَ.

۱۵- . الحزونه: غلظ فی الأرض.

يمين وَ شِمال».(۱)

وقال فی الخطبه (۱۹۱):

«وَأشهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه ابْتَعَثه وَ النّاسُ يَضربُون فی غَمْرِهِ (۲)، وَيَمُوجُونَ فی حَيْرَهٍ قَدْ قادَتْهُمْ أزمَّهُ الحَيْنِ (۳)، وَاستَغْلَقَتْ عَلی أَفْئدَتِهِمْ أقْفالُ الرَّيْنِ»(۴).(۵)

فاطمه الزهراء علیها السلام تصف الوضع الجاهلی

وقد وصفت السیّده فاطمه الزهراء بنتُ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم العهدَ الجاهلی بمثلِ ذلک إذ قالت فی خطبتها أمام أبی بکر والمسلمین:

«فَبَلَّغَ (أی رسولُ اللّه) الرِّساله صادِعاً بالنَّذاره،(۶) مائلًا عن مَدْرَجَهِ المُشْرکین ضارباً ثَبَجَهُمْ،(۷) آخِذاً بأَكْظامِهِمْ داعِياً إلی سَبِيْل رَبِّه بِالحِكْمَهِ وَالْمَوْعظَهِ الْحَسَنَهِ يجف الْأَصْنامَ و يَنْكُثُ الهامَ (۸) حتّی انْهَزَمَ الجَمْعُ وَوَلُّوا الدُّبُر حَتی تَفَرّی الليلُ عَنْ صُبْحِهِ وَأسْفَرَ الحَقُ عَنْ محْضِهِ (۹) وَنَطَقَ زَعيمُ الدين وَخَرستْ شَقاشقُ (۱۰) الشَّياطين وطاحَ وَشِيظُ(۱۱) النِّفاقِ وانَّحَلَّتْ عُقَدُ الْكُفْر

۱- . نهج البلاغه: ۳۳۰.

۲- . الغَمره: الماء الکثیر.

۳- . الحین: الهلاک.

۴- . الرین: التغطیه.

۵- . نهج البلاغه: ۲۸۳.

۶- . النذار: الإنذار.

۷- . الثبج: الکاهل.

۸- . الهامه: الرأس.

۹- . المحض: الخالص.

۱۰- . الشقشقه: شیء یشبه الرئه یخرج من فم البعیر إذا هاج.

۱۱- . الوشیظ: الأتباع والخدم.

والشِّقاقِ، وَفُهْتُمْ بِكَلِمَهِ الإخْلاص فی نفَر مِنَ البیض الْخِماص وَ كُنْتُمْ عَلی شَفا حُفْرَه مِنَ النّار مُذْقَهَ (۱) الشّارب، وَنُهْزَه(۲) الطامع وقَبْسَهِ العِجْلان(۳)، وَمَوطئَ الأَقْدام تَشْرَبُونَ الطَرقَ (۴). وَ تَقْتاتُونَ القِدَّ(۵)، أذِلَّهً خاسِئینَ، تَخافُونَ أنْ یَتخَطَّفَكُم النّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ، فَأَنْقَذكُمُ اللّه تبارك وتَعالی بِمُحَمَّدٍ بَعْدَ أن مُنِیَّ بِبُهْم(۶) الرجال وَ ذُؤبانِ الْعَرَب، وَمَرَده أهْلِ الْكِتاب(۷)، كُلَّما أوْقَدُوا ناراً لِلْحَرب أطْفأَها اللّه، أوْ نجَمَ (۸) قَرْنُ الشَّیْطانِ أوْ فَغرَتْ (۹) فاغِرَهً مِنَ الْمُشركیْن، قَذَفَ أخاهُ فی لَهواتِها(۱۰)فَلا یَنْكَفِئُ (۱۱) حَتّی یَطَأ جناحها بَأخْمصِهِ».(۱۲)

جعفر بن أبی طالب یصف العهد الجاهلی

ویشهد بذلك أیضاً ما قاله جعفر بن أبی طالب رحمه الله عند النجاشی ملك الحبشه عندما أراد مَبعوثا قریش استعادتَهما إلی مكّه:

أیّها الملك، كُنّا قوماً أهلَ جاهِلیّه، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ المیته، ونأتی

۱- . المذقه: شربه من اللبن الممزوج بالماء.

۲- . النهزه: الفرصه.

۳- . قبسه العجلان: الشعله من النار الّتی یأخذها الرجل العاجل.

۴- . الطرق: الماء الّذی خوضته الابل وبوّلت فیه.

۵- . القد: قطعه جلد غیر مدبوغ.

۶- . البهمه: الشجاع الذی لا یهتدی من أن یؤتی.

۷- . المارد: العاتی.

۸- . نجم: طلع.

۹- . فَغرت: فتحت.

۱۰- . اللهاه: اللحمه المشرفه علی الحلق فی أقصی الفم.

۱۱- . ینكفئ: یرجع.

۱۲- . الاحتجاج للطبرسی: ۱/۱۳۶. وراجع شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۱۶/۲۵۰؛ بلاغات النساء لابن طیفور: ۱۲-۱۳.

الفواحِشَ، ونقطعُ الأرْحام، ونسيء الجوارِ، ويأكلُ القويُ مِنّا الضعيف، فكنّا على ذلك، حتّى بعث اللّه إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبَه وصدقَه وأمانَته وعفافَه، فدعانا إلى اللّه لنوحِّده ونعبده، ونخلعُ ما كنّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجاره والأوثان، وأمرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانه، وصله الرحم، وحُسْنِ الجوار، والكفِّ عن المحارم والدّماء، ونَهانا عنِ الفَواحِش، وقول الزُور، وأكل مالِ اليَتيم، وقذفِ المحصَنات، وأمَرنا أنْ نَعبُدَ اللّه وَ حدَهُ لا نشركُ بِهِ شيئاً، وأمَرَنا بالصّلاهِ والزّكاهِ والصِّيام - قالت: فعدّد عليه أُمور الإسلام -(۱) فصدّقناه وآمَنّا به واتَّبعناهُ على ما جاء به من اللّه، فعبدنا اللّه وحدَه فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرّمَ عَلَيْنا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فَعدا علينا قومُنا فَعذَّبُونا وافتتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عباده الأَوثان مِنْ عِبادَه اللّه تعالى، وأنْ نَسْتَحِلَّ ما كنا نَستحِلَّ من الخَبائث.(۲)

۱- . يعنى: أُمّ سلمه، راويه الحديث.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۲۳-۲۲۴.

۴ إمبراطوريّتا الرُوم وإيران إبّان عهدِ الرِّسالهِ

اشاره

للوقوف على أهميّه النهضه الإسلاميه المباركه الّتى تحقّقت على يدى النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم بعد إرساله من جانب اللّه تعالى وقيمتها، تكتسبُ دراسه بيئتين اجتماعيّتين أهميّه قصوى، وتانِك البيئتان هما:

١. بيئهُ نزول القرآن الكريم، أى البيئه الّتى ظهر فيها الإسلامُ، وترعرع ونما.

٢. البيئه العالميه (خارج الجزيره العربيه)، ويعرف ذلك بدراسه عقائد الناس وأفكارهم فى أكثر مناطق العالم - يومَذاكَ - مدنيه وحضاره، ومطالعه آدابهم وأخلاقهم وتقاليدهم، وأعرافهم، ومدنيّاتهم الّتى كانت تعتبرُ أفضل الأفكار والمدنيّات، وأرقى الحضارات، والأوضاع آنذاك.

ولقد كانت بيئتا: الإمبراطوريه الرومانيه، والإمبراطوريه الإيرانيه ألمع نقطه فى ذلك اليوم، كما يدلنا التاريخ على ذلك. ولابدَّ استكمالاً لهذا البحث من دراسه الأَوضاع فى هاتين الإمبراطوريتين، فى مناطقها، ومن نواحيها المختلفه، لنقف من هذا الطريق على قيمه الحضاره الّتى أتى بها الإسلام، ونعرف ذلك بوجه أفضل.

***

أوضاع الروم إبّان عهد الرساله

إنّ أوضاع الروم لم تكن بأقل سوءاً من أوضاع منافستها «إيران» فالحروب

الداخليه من جانب والمعارك الخارجيه المستمره مع «إيران» وصراعها الدائم المستمر مع الأخيره على منطقه «أرمينيه» وغيرها، كلّ ذلك كان يهيّئ الناس فى تلك البلاد للقبول بثوره جديده تضع حدّاً لمآسيهم ومحنهم.

ولقد كان للاختلافات والمنازعات الطائفيه والمذهبيه النصيب الأكبر والأَوفر فى توسيع رقعه هذه الاختلافات، والمنازعات.

فالحربُ لم تتوقَفْ أبداً بين الوثنيّين والمسيحيّين ولم تنطفئ شرارتها يوماً أبداً.

فكان إذا غَلَب رجالُ الكنيسه على دست الحكم وأخذوا بمقاليده مارسوا أشدّ أنواع الضغط والاضطهاد بحقِّ خصومهم ومنافسيهم الأمر الّذى كان يساعد على إيجاد أقليّه ناقمه من جهه، كما ويمكن اعتبار ذلك عاملاً مساعداً من جهه أُخرى على تهيئه الشعب الرومانى لاحتضان الدعوه الإسلاميه، وتقبّلها.

لقد كان حرمانُ طوائف كثيره ومختلفه ناشئاً من ممارسات رجال الكنيسه القاسيه ومواقفهم المتزمته.

هذا مضافاً إلى أنّ اختلاف القساوسه والرهبان النصارى فيما بينهم من جهه، وتعدّد المذاهب من جهه أُخرى كان يعمل على التقليل من هيبه الإمبراطوريه الرومانيه وجرّها إلى الضعف والوهن المتزايد يوماً بعد يوم.

هذا بغضّ النظر عن أنَ البيض والصُفر من سُكّان الشمال والمشرق كانوا يفكّرون فى السيطره على المناطق الغنيه من أُوربا، وربّما ألحق أحدُهما بالآخر خسائر فادحه وباهضه فى الصراعات والصادامات الّتى كانت تقع بينهما. وكان هذا هو نفسُه السبب فى أن تنقسم الامبراطوريهُ الرومانيه إلى معسكرين: المعسكر (أو القسم) الشرقى، والمعسكر (أو القسم) الغربى.

ويعتقد المؤرّخون أنّ أوضاع الروم السياسيه، والاجتماعيه والاقتصاديه فى القرن السادس كانت مضطربه، ومتدهوره جدّاً، حتّى أنّهم لا يرون فى غلبه الروم وتفوّقها على إيران شاهداً على قدرتها العسكريه، بل يرون أنّ هزيمه إيران كانت بسبب الفوضى الّتى كان سائده آنذاك فى جهاز الحكم الإيرانى. إنّ هاتين الدولتين اللتين كانتا تتربَّعان على عرش السياده والسياسه العالميه فى مطلع ظهور الإسلام كانتا تعيشان حاله سيئه من الفوضى، والهرج والمرج، ومن البديهىّ أنَّ مثل هذه الأَوضاع كان من شأنها أن توجد حاله من التهيّؤ الكبير والظمأ الشديد إلى دين صحيح يضع حَدّاً ونهايه لتلك الحاله، ويعيد تنظيم حياتهم.

ظاهره الجدل العقيم فى المجتمع الرومى

المتعارف أن يعمد جماعهٌ مِنَ البطّالين والفسقه إلى طرح سلسله من القضايا التافهه والمسائل الخاويه، والنقاش حولها بهدف التوصُّل إلى أغراض فاسده، فيستهلكون بذلك أوقات الناس، ويهدرون أعمارهم على منحر الجدل العقيم.

وهى حاله لها مصاديق كثيره وشواهد عديده فى كثير من بلاد المشرق، ولسنا بصدد التوسّع فيها فعلاً.

وقد كانت «الروم» تعانى يومئذ من مثل هذه الحاله أكثر من أىّ مكان آخر.

فقد كان ملوك الروم ورجال الحكم والسياسه تبعاً لمذاهب دينيه كنسيّه يعتقدون بأنّ المسيح ذو طبيعتين ومشيئتين، ولكن طائفه أُخرى من النصارى وهم «اليعقوبيه» كانوا يقولون بأنّه: ذو طبيعه ومشيئه واحده.

وقد وجهت هذه المسأله الباطله نفسها، والجدل الواهى حولها ضربه

شديده إلى وحده الروم ومن ثم استقلالها، وأحدثت فى صفوفها إنشقاقاً عميقاً حيث كانت السلطات الحاكمه تضطر إلى الدفاع عن معتقداتها، ولذلك كانت تضطهد معارضيها، وتلاحقهم وهذا الاضطهادُ والضغطُ الروحىّ سبَّب فى لجوء البعض إلى الدوله الإيرانيه، كما كان هؤلاء همُ الذين تركوا المقاومه عند مواجهه الجيش الإسلامى، وألقوا السلاح، واستقبلوا جنود الإسلام بالأحضان.

كانت الرومُ تمرُّ آنذاك بظروف أشبه ما تكون بظروف القرون الأُوربيه الوسطى الّتى ينقل عنها «فلاماريون» الفلكىّ الشهير القضايا التاليه الّتى تدلُّ على المستوى الفكرىّ والثقافىّ لأُورُبا فى القرون الوسطى:

لقد كان كتابُ «المجموعه اللاهوتيه» المظهر الكامل للفلسفه المدرسيه فى القرون الوسطى، وقد بقى هذا الكتاب يُدرَّس فى أوربا خلال أربعمئه سنه ككتاب رسمى ومعترف به.

وقد كان من الأبحاث المطروحه فى هذا الكتاب البحث حول عدد الملائكه الّتى يمكنها أن تستقر على رأس إبرَه؟! أو عدد الفراسخ بين العين اليسرى والعين اليمنى للأب الخالد؟! إلى غير ذلك من القضايا التافهه!!

إنّ الإمبراطوريه الروميه السيئه الحظ فيما كانت تعانى من الحروب الخارجيه الكثيره، كانت تعانى كذلك من النزاعات والاختلافات الداخليه - الّتى كانت - على الأغلب - تتصف بالصبغه المذهبيه والطائفيه - وكانت تدفع بالبلاد إلى حافّه الهاويه، وتزيدها قرباً إليها يوماً بعد آخر.

ولمّا رأى اليهود (وهى الزمره الشرّيره المتآمره على الشعوب دائماً) تصاعد الإضطهاد والضغط الّذى يمارسه الإمبراطور المسيحى الرومى، خطّطت لإسقاط ذلك النظام، فاحتلت مدينه أنطاكيه ذات مرّه، ومثّلت بأسقف أنطاكيه الأكبر فصلموا

أَذنه، وجدعوا أنفه، فانتقمت حكومه الروم لهذه الجنايه بعد مدّه، وقتلت اليهود فی أنطاكيه فی مذبحه كبيره.

وقد تكرَّرت هذه الجرائم الفظيعه وهذه المذابح، والمذابح الانتقاميه المضادّه بين اليهود والنصارى عدّه مرّات، وربّما سرت موجه الروح الانتقاميه أحياناً إلى خارج البلاد، فمثلاً اشترى اليهود من إيران ذات مرّه ثمانين ألف مسيحی ثم حزّوا رؤوسهم انتقاماً وتشفّياً.

من هذا يستطيع القارئ الكريم أن يقف على الصوره القاتمه للوضع السيّئ والمتردّی الّذی كان عليه العالم إبان بزوغ شمس الإسلام، ويذعن - مع المذعنين - بأنّ التعاليم الإسلاميه الرفيعه التی أنقذت العالم من ذلك الوضع المأساوی لم تكن أبداً وليده الفكر البشریّ، وأنّ نسيم الوحده، المنعش، ونغمه السلام الّتی يهدف إليه الإسلام ويسعی إلى تحقيقه وإقراره فی الحياه البشريه ليس لها من مصدر إلّا الغيب، إذ كيف يمكن القول بأنّ الإسلام الّذی يعترف حتّی للحيوانات بحقّ العيش والحياه نابع من تلك البيئه المغرقه فی القسوّه والوحشيه، وناشئ من ذلك المحيط المفحم بروح الانتقام والتشفّی.

لقد أبطل الإسلامُ جميع تلك المجادلات العقيمه والمناقشات التافهه حول مشيئه عيسی وشخصيته، وقال فی نعته ووصفه:

«مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَهٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنّی يُؤْفَكُونَ» .(۱)

إنّ هذه الآيه أنهت الكثير من أبحاث رجال الكنيسه الباطله الخاويه حول «الروح» و «المسيح» ودمه، وشخصيته، وحقيقته، كما أنّ الإسلام بفضل التعاليم

۱- . المائده: ۷۵.

الرفيعه، وإحياء السجايا والملكات الفاضله أنقذ البشريه من المنازعات، الفارغه، والمذابح الفظيعه.

أوضاع إيران إبّان عَهد الرساله

إنّ ما دفعَنا إلى دراسه أوضاع الإمبراطوريه الروميه هو نفسه يحتّم علينا أيضا دراسه أوضاع إيران يومذاك.

لقد صادف ظهورُ الإسلام وبعثه الرسول الكريم محمّد صلى الله عليه و آله و سلم (۶۱۱ ميلاديه) عهد السلطان الإيرانى خسرو برويز (۵۹۰-۶۲۸ م)، ففى عهد «خسرو برويز» هذا هاجر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من مكّه إلى المدينه المنوّره (الجمعه ۱۶ تموز ۶۲۲ م)، وصارت هذه الواقعه مبدأ للتاريخ الإسلامى.

فى هذه الأَيام كانت الدولتان العظيمتان (الروم الشرقيه وإيران الساسانيه) تسيطران على معظم مناطق العالم المتحضّر، ولم تزل هاتانَ الدولتان فى نزاع مستمرّ وصراع دائم على مناطق النفوذ حتّى بعد ظهور الإسلام.

فقد بدأت حروب إيران والروم الطويله من عهد السلطان الإيرانى أنوشيروان (۵۳۱-۵۸۹ م) واستمرَّت إلى عهد الملك «خسرو برويز» واستغرقت أربعاً وعشرين عاماً من الزمان.(۱)

وقد سبَب تحمّل «إيران» و «الروم» للخسائر الكبرى، فى الأرواح والأموال خلال هذه المعارك الطويله فى إضعاف تينك الدولتين، وتعطيل وشلّ قواهما بحيث لم يبق منهما إلّاشبحُ دولتين لا أكثر.

ولكى نقف على الوضع العام فى إيران آنذاك من جهاته المختلفه، وأبعاده

۱- . لاحظ: تاريخ علوم وأدبيات در إيران: ۳ و ۴؛ وإيران در زمان ساسانيان: ۲۶۷ (باللغه الفارسيه).

المتنوّعه وبصوره أفضل، يجب أن نلقى نظره فاحصه على وضع الحكومات الّتى توالت على سدّه القياده الإيرانيه بعد حكم «انوشيروان» وحتّى بدايه دخول المسلمين.

البَذخ والتَرف فى البلاط الساسانى

كانت حياه الملوك الساسانيين تتّسم عموماً بالبذخ والترف، والتشريفات الطويله العريضه، وكان البلاطُ الساسانى الفخم جدّاً يخلب ببريقه، بريق العيون، ويسحر الأفئده والعقول.

وكان للإيرانيين فى عهد الساسانيين لواء يُعرف ب «درفش كاويانى» أى العلم الكاويانى نسبه إلى كاوه وهو بطل قومى إيرانى أُسطورى، وقد كانوا يحملونه معهم فى الحروب، أو ينصبونه فوق قصورهم أثناء إحتفالات الساسانيين الكبرى، وقد كان هذا اللواء موشّحاً ومزيّناً بأغلى أنواع المجوهرات بلغت قيمتها التقديريه - حسب قول بعض الكتاب: «۱/۲۰۰/۰۰۰» درهم (أو ما يعادل ۳۰/۰۰۰ پوند).

وقد بلغت مجموعه المجوهرات والأشياء الثمينه والتصاوير والرسوم المحيّره للعقول الّتى كانت تكتضُّ بها قصور الساسانيين من حيث الأهميه والقيمه حدّاً سحرت العيون وخلبَت الألباب.

ولو أنّنا أردنا أن نقف على عجائب ما فى تلك القصور، وما كانت تحتوى عليه من غرائب الأشياء لكفانا أن نلقى نظره واحده إلى السجّاده البيضاء والكبيره التى كانت مفروشه فى إحدى صالات بعض تلك القصور، وهى السجّاده الّتى كانت تُدعى بالفارسيه ب «بهارستان كسرى» وهو بساط كانوا يُعدّونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين، فكانوا إذا أرادُوا الشرب وتعاطى الخمر فرشوه، وشربوا عليه

فكأنهم فی ریاض وكان هذا البساط ستیناً فی ستین أرضُه بذهب ووشیُه بفصُوص، وثمره بجوهر وورقه بحریر»(۱)!!

وقیل أیضاً: إنّ هذا البساط كان مئه وخمسین ذراعاً فی سبعین ذراعاً، وكان منسوجاً من خیوط الذهب والمجوهرات الغالیه جداً!!

وقد كان «خسرو برویز» أكثر الملوك الساسانیین میلاً إلی الترف، والبذخ، واتّخاذ الزینه، وقد بلَغَت عددُ نسائه وجواریه ثلاثه آلاف امرأه واثنا عشر كما نقل حمزه الأصفهانی فی كتابه «سنی ملوك الأرض».(۲)

وجاء فی تاریخ الطبری: كان «كسری برویز» هذا قد جمع من الأموال ما لم یجمعه أحدٌ من الملوك،... وكان أرغب الناسِ فی الجوهر والأوانی.(۳)

الوضع الاجتماعی فی إیران

لم یكن الوضعُ الإجتماعی فی عهد الساسانیین بأفضل من الوضع السیاسی آنذاك أبداً، فقد بلغ الاختلاف الطبقی الّذی كان سائداً فی إیران منذ زمن بعید أشدَّه وأقوی درجاته، وأسوأ حالاته.

فطبقه النبلاء والكهنه كانت تتمیّز علی بقیه الطبقات تمیّزاً كاملاً فهم یختصّون بجمیع المناصب الاجتماعیه الحسّاسه والعلیا، بینما حُرم الكسبه والمزارعون وبقیه أبناء الشعب من كافّه الحقوق الاجتماعیه، ولم یكن لهم من

۱- . لاحظ: تاریخ الطبری: ۳/۱۳۰. وجاء فیه: كانت القطف ستین ذراعاً فی ستین ذراعاً، بساطاً واحداً مقدار جریب فیه طرق كالصور، وفصوصٌ كالأنهار وخلال ذلك كالدَّیر وفی حافاته كالأَرض المرزوعه والأَرض المبقله بالنبات فی الربیع من الحریر علی قضبان الذهب، ونواره بالذَهب والفضّه!!

۲- . لاحظ: سنیّ ملوك الأرض والأنبیاء: ۴۲۰.

۳- . تاریخ الطبری: ۱/۶۱۶.

واجب ودور فی النظام إلّادفع الضرائب الثقیله والمشارکه فی الحروب.

یکتب أحدُ الکتّاب الإیرانیین وهو الأُستاذ سعید نفیسی فی هذا الصعید قائلاً:

إنّ ما کان یثیر روح النفاق بین الإیرانیین أکثر هو سیاسه التمایز الطبقی القاسی جداً الّذی کان الساسانیون یتبعونها فی التعامل مع الشعب، وکان لها جذورٌ فی العهود والحضارات السابقه، ولکنها بلغت ذورتها فی العهد الساسانی بالذات!! ففی الدرجه الأُولی کان للعائلات السبع من النبلاء، ثم للطبقات الخمس، إمتیازاتٌ خاصّه حُرمَ منها عامّه أبناء الشعب.

فالملکیه کانت محصوره - تقریباً - فی تلک العائلات السبع مع العلم أنّ الشعب فی العهد الساسانی کان یقاربُ عدد نفوسه مئه وأربعین ملیوناً فی حین لا یبلغ عددُ کلّ واحد من تلک العائلات الممتازه والمتمیّزه فی شؤونها مئه ألف شخص، فیکون مجموعُها سبعمئه ألف.(۱)

وإذا افترضنا أنَّ حرّاسَ الحدود وأمراءهم والمُلّاک الذین کانوا یتمتعون هم الآخرون بشیء من حق الملکیه کان یبلغ عددهم أیضاً سبعمئه ألف أیضاً فیکون حق التملّک والمالکیه حینئذٍ خاصّاً بملیون ونصف من مجموع مئه وأربعین ملیوناً، فقد کانت تلک الزمره القلیله هی الّتی تملک، وأمّا الآخرون وهم الأکثریه الساحقه فقد کانوا محرومین من هذا الحقّ الطبیعی الموهوب لهم من جانب اللّه أساساً وأصلاً.

لقد کان الکسبه والفلاحون المحرومون من جمیع الحقوق، والإمتیازات إلّا

۱- . تاریخ اجتماعی إیران: ۲/۶-۲۴ (باللغه الفارسیه).

أنّهم يتحمَّلون نفقات حياه البذخ والرفاهيه الّتى كان يرفل بها النُبلاء والأشراف والطبقات العليا، لا يأملون خيراً وراء استمرار هذه الأوضاع، ودوامها، ولهذا كثيراً ما كان المزارعون والفلاحون والطبقات الدنيا من الشعب يغادرون أعمالهم، ومزارعهم ويلجأون إلى الأديره فراراً من الضرائب الباهضه والأتاوات القاصمه للظهور، المبدده للثروات.(۱)

يقول مؤلف كتاب «إيران فى عهد الملوك الساسانيين».

إنّ حروب إيران - الروم الطويله بدأت من عهد حكومه الملك الإيرانى أنوشيروان (۵۳۱-۵۸۹ م).(۲)

وخلاصه القول: إنّه كان فى الإمبراطوريه الساسانيه أقليه صغيره - تقلّ نسبتُها عن ۱/۵٪ (واحد ونصف بالمئه) من مجموع الشعب - تملك كلّ شىء بينما كان أكثر من (۹۸,۵٪) من الشعب الإيرانى محرومين من حق الحياه تماماً كالعبيد.

حَقُّ التعلّم خاصّ بالطبقات العليا!!

فى العهد الساسانى كان أبناء الأغنياء والبيوتات الرفيعه هم وحدهم الذين يتمتعون بحقّ التعليم، بينما كان عامّه جماهير الشعب، والطبقات الوسطى والدنيا محرومين من تحصيل العلوم واكتسابها.

وقد كانت هذه المنقصه باديه وواضحه فى عصور إيران القديمه جدّاً بحيث ذكرها الشعراء الكبار فى ملاحمهم ودواوينهم الملكيه المعروفه بالرغم من أنّ الهدف من تلك الملاحم والدواوين كان هو الحماسه، والتفاخر بالبُطولات

۱- . لاحظ: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى: ۷۰ و ۷۱.

۲- . إيران فى عهد الملوك الساسانيين: ۴۲۴.

وتجييش العواطف، بعد مدح الملوك والأمراء.

فها هو «الفردوسى»(۱) الشاعر الملحمى الفارسى المعروف، بل أشهر شعراء إيران قد ذكر فى شاهنامته (وهى الملحمه الشعريه الّتى يذكر فيها أمجاد ملوك الفرس فى قرابه ستين ألف بيت) قصّه فى هذا الصدد تعتبر أفضل شاهد على ما قلناه. وقد وقعت هذه القصّه فى زمن «أنو شيروان»، أى فى الوقت الّذى كانت الإمبراطوريه الساسانيه تمرُّ فيه بعهدها الذهبى.

وهذه القصّه تشهد بأنّ أكثريه الشعب فى عهد هذا الملك أيضاً كانت محرومه من حقّ التعلم، وممنوعه عن اكتساب الثقافه.

يقول الفردوسى: لقد أبدى حذّاء استعداده لتحمّل نفقات الجيش الإيرانى - فى حربه مع الروم - بدفع ما يحتاجون إليه من ذهب وفضه.

ومع أنّ السلطه فى عهد «انوشيروان» كانت بحاجه ماسّه إلى مساعدات ماليه كبيره إذ كان يتعيّن عليها أن تجهّز ما يقرب من ثلاثمئه ألف مقاتل قد أُصيبوا بالمجاعه وقلّه العتاد، بحيث أدى ذلك إلى وقوع بعض الاعتراضات، وإلى ظهور الفوضى فى الجنود، ممّا أدى بدوره إلى قلق الملك الإيرانى «أنوشيروان».

والتخوّف من مضاعفات هذه الحاله، وآثاره السيئه فى قتاله للروم، ولذلك بادر إلى استدعاء وزيره المحنّك «بزرجمهر» للتشاور معه فى المخلص من ذلك الوضع المحرج، ثم أمره بالتوجّه إلى منطقه «مازندران» وجمع الأموال اللازمه من سكانها.

ولكن «بزرجمهر» حذَّر الملك من مغبّه هذا العمل، وأضاف بأنّ هذا من

۱- . راجع للتعرّف على شخصيه هذا الشاعر: الموسوعه العربيه الميسره: ۱۲۸۶.

شأنه أن يضاعف من الخطر ثم اقترح جمع الأموال اللازمه عن طريق القروض الشعبيه فاستحسن «انوشيروان» اقتراحه وأمره باتخاذ الترتيبات اللازمه على التو، فيرسل الوزير مندوبين له إلى المدن الإيرانيه ليكلّم التجار وأصحاب الثروه فى الأمر.

فيبدى الحذّاء المذكور استعداده لتحمّل كلّ نفقات الجيش لوحده إلّاأنّه اشترط لذلك بأن يسمحوا لولده الوحيد الراغب فى تحصيل العلم جدّاً أن يتعلّم.

فاستحقر الوزير شرطه ووعده بالإنجاز، والسماح لولده بالتعلّم وتحصيل العلم، ثم عرض الأمر على الملك انو شيروان وهو يأمل فى أن يتجاوب الملك مع رغبه الحذّاء وطلبه الصغير إذا ما قيس بما سيعطيه من أموال طائله فى تلك الأوضاع الحرجه.

ولكن الملك استشاط غضباً لهذا الطلب، ونهر الوزير قائلاً: دع هذا، ما أسوأ ما تطلبه، إنّ هذا لا يمكن أن يكون، لأنّ ابن الحذّاء بخروجه من وضعه الطبقى يهدم التقليد الطبقىّ المتبع، فينفرط بذلك عقد الدوله، ويكون ضرر هذا المال علينا أكثر من نفعه، وشره أكثر من خيره.

ثم إنّ الفردوسى يعمد إلى شرح المنطق الميكافيلى حكايه عن لسان انوشيروان إذ يقول ناظماً ذلك فى أبيات(۱) إليك ترجمتها:

وإذا أصبح إبنُ الحذّاء عالماً كاتباً عارفاً فعندما يجلس ولدنا على مسند

۱- . وإليك هذه الأبيات باللغه الفارسيه: چو بازارگان بچه گردد دبير هنرمند و با دانش و ياد گير چو فرزند ما برنشند به تخت دبيرى ببايدش پيروز بخت هنر بايد از مرد موزه فروش سپارد بدو چشم بينا و گوش بدست خردمند مرد نژاد نماند جز از حسرت و سرد باد

الحكم والسلطنه واحتاج إلى كاتب، فإنّه سيضطر إلى الاستعانه بابن ذلك الحذّاء - الكاتب - (وهو من عامّه الشعب ومن أبناء الطبقه الدنيا، وفى حين جرت عادتنا إلى الآن على أن نستعين بأبناء الأشراف والنبلاء لا أبناء الطبقه الدنيا!!!

وإذا حصل ابن الحذّاء وبائع الأحذيه على العلم والمعرفه أعاره العلم والمعرفه حينئذٍ عيوناً بصيره، وآذاناً سميعه فيرى حينئذٍ ما يجب أن لا يراه، ويسمع ما يجب أن لا يسمعه، وحينئذ لا يبقى لأبناء الملوك إلا الحسره والتأسّف.(۱)

وهكذا يعيد الملك دراهم الحذّاء المسكين إليه رافضاً طلبه ويعود الحذّاء خائباً وهو يتوسّل بما يتوسّل به المستضعفون والمحرومون المظلومون وهو الدعاء والضراعه إلى اللّه فى الليل، وفى هذا قال الفردوسى: عاد مبعوث الملك بدراهم الحذّاء إليه فأُصيب الحذّاء لذلك بغمّ شديد، ثمّ لما جنّ الليل تضرع الحذّاء إلى اللّه وشكا إليه الملك طالباً عدالته.(۲)

والعجيب هو أن يصف البعض هذا السلطان بالعادل وهو الّذى لم يعالج أسوأ مشكله فى المجتمع الإيرانى أيام حكمه وسلطانه وهى المشكله الثقافيه، بل تسبّب فى أن يصاب الشعبُ الإيرانى بالمزيد من المشاكل الاجتماعيه وغيرها.

فقد وأد ودفن فى القبور ما يقرب من ثمانين ألف انسان وهم أحياء (أو مئه ألف كما قيل) فى حادثه واحده، وهى فتنه مزدك، حتّى أنّه ظنَّ أنّه قد قضى على جذور تلك الفتنه وهو لا يعلم أنّها لم تُستأصل؛ لأنّ مثل هذه الأساليب القمعيه إنّما تقضى فقط على المسبَّب دون السبب وتكافح المجرم لا الجرم.

۱- . راجع شاهنامه (باللغه الفارسيه) وتاريخ اجتماعى إيران: ۶۱۸.

۲- . فرستاده برگشت و شد بادرم دل كفشگر زان درم پر زغم شب آمد، غمى شد ز گفتار شاه خروش جرس خواست از بارگاه

لقد كان السبب الحقيقى وراء تلك الفتنه هو الظلم الاجتماعى، والاختلاف الطبقىّ، واحتكار الثروات، والمناصب على أيدى طبقه خاصّه وحرمان الأكثريه الساحقه من الشعب، وغير ذلك من المفاسد وكان عليه لو أراد الإصلاح أن يعالج هذه الأُمور ليأتى على المشكله من أساسها، ولكنّه بدل ذلك كان يريد - بالقهر والقمع وفى ظلّ الحراب والسياط - أن يظهر الناس أنفسهم بمظهر الراضين عن السلطه، الموافقين على تصرفاتها، وأحوالها وأوضاعها السيئه!!!

ومن هنا نعرف بطلان الحديث المروىّ عن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم الّذى قال فيه:

(وُلدتُ فى زمن الملك العادل) ويقصد به انوشيروان.(۱)

صفحهٌ سوداءٌ من جرائم خسروبرويز

ومن جرائم الملك خسروبرويز ومظالمه المنكره ما فعله بوزيره الشهير «بزرجمهر» الّذى خدم البلاط الشاهنشاهى الإيرانىّ ثلاثه عشر عاماً، وكان ذلك موجباً لشهرته فى البلاد وحسن سمعته بين الناس.

فقد عَمَدَ هذا الملك إلى سجن الوزير المذكور، والنكايه به، وقدكتب إلى الوزير المسجون رساله يقول فيها: إنَّ حظَّك مِنَ العلم والمعرفه أنّه عرّضك للقتل!!

فأجابه «بزرجمهر» بقوله: «فقد انتفعتُ بعلمى مادام قد حالفنى الحظُ، وحيث عاكسنى الآن، فإنّنى اصبر وأنتفعُ بصبرى، فإذا فاتنى فعلُ خير كثير فإنّنى سعيدٌ لأنَّنى لم أرتكب كذلك شرّاً كثيراً، وإذا ما سلبتنى منصب الوزاره فإنّى فى

۱- . راجع فى هذا المجال: شعب الإيمان للبيهقى: ۴/۳۰۵؛ تذكره الموضوعات للفتنى: ۸۸؛ الأسرار المرفوعه فى الأخبار الموضوعه للملا على القارى: ۳۶۲؛ كشف الخفاء للعجلونى: ۲/۳۴۰.

الوقت نفسه قد استرحت كذلك من غم الحيف بالناس، فلا أبالى بما أنا فيه».

ولما بلغَت هذه الرساله إلى الملك «برويز» استشاط غضباً، وأمر بقطع شفتى الوزير، وجَدْع أنفه، وعندما عرف الوزيرُ بهذا الأمر الظالم قال: أجل أن شفتى تستحقان أكثر من هذا. فسأله خسروبرويز: ولماذا؟ فقال: لأنّهما وصفتاك عند العامّه والخاصّه بما لا تستحق من الأوصاف، وأعطتاك ما ليس فيك من الخصال، فأمالتا إليك القلوب، ورغَّبتا فيك النفوس، والأفئده، وأشاعتا عنك أمجاداً لم تستحقّها، يا أسوأ الملوك وأظلم الحكّام، تقتلنى الآن بسوء الظن بعد أن كنت على يقين من وفائى، وصدقى، وإخلاصى، وسلامتى، فمَن بعد هذا يأمل فى عدلك، ومَن بعد هذا يثق بقولك؟!

فازداد «خسروبرويز» لسماع هذه الكلمات الساخنه غضباً على غضب، وأمر من فوره بقتل الوزير، فضرب عنقه فى التوّ.(۱)

وتلك هى معامله ذلك الملك الموصوف زوراً بالعادل مع أقرب مقرّبيه، وأكثر معاونيه إخلاصاً، ووفاء له فكيف كانت يا تُرى معاملته مع سائر أفراد الرعيه وبقيه أفراد الشعب؟!

حكم التاريخ فى الملوك الساسانيين:

لقد اتّخذ الحكّام الساسانيُّون فى عهودهم وحكوماتهم سياسه ظالمه وقاسيه، وقد أخضعوا الناس لسلطانهم بالسيف والعنف.

كانوا يفرضون على الناس ضرائب ثقيله وأتاوات باهضه قاصمه للظهور،

۱- . يذكر الفردوسى الشاعر الملحمى هذه القصه فى شاهنامته المعروفه عند ذكر وقائع انوشيروان أثناء حربه مع الروم (لاحظ: الشاهنامه: ۶/۲۵۷-۲۶۰).

ولهذا السبب كان عامّه الشعب الإيرانى غير راضين على حكمهم وسيرتهم، ولكنّهم خوفاً على نفوسهم، ما كانوا يتمكّنون من الإعلان من استيائهم هذا، بل لم يكن لأرباب الفكر والرأى والعارفين بالأُمور شأن ولا قيمه فى البلاط الشاهنشاهى.

لقد بلغ الاستبداد لدى الحكّام الساسانيين حدّاً لم يستطع معه أحدٌ من إظهار رأيه، ولم يجرأ أحدٌ على إبداء أيه ملاحظه فى شأن من الشؤون.

لقد بلغت القوه بخسروبرويز حدّاً عجيباً وصفه الثعالبى بقوله:

قيل لخسرو برويز (كسرى) دعونا فلاناً الوالى فتباطأ عن الامتثال، فأمر الملك من فوره قائلاً إن كان يصعب عليه مجيئه ببدنه كلّه، فإنّنا يكفينا شيء منه، فليؤتى برأسه فحسب.(۱)

الفوضى فى الحكومه الساسانيه

وممّا يجب أن لا نغفل عن ذكره هو ما تعرُضت له الحكومه الساسانيه فى أواخر عهدها من الفوضى الإدرايه، وتفاقم الهرج والمرج فى جهازها الحكومى.

فقد دبّ الصراع والنزاع ونشب التنافس الحاد بين الأُمراء، والأعيان وقاده الجيش فى ذلك العهد وذهب كلُّ فريق يختار أميراً من أبناء العائله المالكه، ويقوم بتصفيه الطائفه الأُخرى الّتى اختارت أميراً آخر.

وعندما فكّر العرب المسلمون فى فتح إيران كانت العائله الساسانيه المالكه قد بلغت ذروه الضَّعف والإنقسام.

وممّا يدل على ذلك تعاقبُ ما يقرب من (۱۴) ملكاً على مسند الحكم

۱- . إيران در عهد ساسانيان: ۳۱۸.

والسلطان خلال مدّه أربعه أعوام من مقتل الملك «خسرو برويز» وجلوس «شيرويه» مجلسه وحتّى آخر ملكٍ من ملوك بنى ساسان.

وهذا يعنى أنّ حكومه إيران انتقلت خلال مدّه لا تتجاوز أربعه أعوام من يد إلى يد أُخرى (۱۴ مره)!! ومن الواضح ما يلحق بأيّه دوله ومملكه تتعرض ل (۱۴) انقلاب يُقتل فيه ملك، ويحل محلّه ملك آخر فى مثل هذه المدّه القصيره.

فقد كان كلُ حاكم يتسلَّم زمام الحكم ويستولى على عرش السلطان يعمد إلى قتل واغتيال كلّ مَن كان يطمع فى العرش، ولا يتورّع فى سبيل إرساء قواعد حكمه من ارتكاب كلّ ما يراه ضرورياً، فكان الأب يقتل ابنه، والابنُ يقتل أباه، وربّما يقتل الأخ إخوته، والزوجه زوجها وهكذا...

فقد قتل «شيرويه» أباه(۱) للحصول على مقعد الحكم والسلطان، كما أباد أربعين شخصاً من أبناء الملك «خسروبرويز» أى إخوته!!.(۲)

وكان «شهر براز» يقتل كلّ من لا يثق به، وقد أدّى هذا إلى أن يقضى على كل أبناء سلالته من الأُمراء الساسانيين ممّن كان قد تسنَّم عرش السلطان والملوكيه قبله، رجلاً كان ذلك أم امراه، صغيراً كان أم كبيراً، لكى لا يبقى فى الوجود من يطمع فى السلطان أو يدّعيه!!

وصفوه القول: إنّ الفوضى السياسيه بلغت فى أواخر العهد الساسانى حدّاً بحيث كانوا يجلسون فيه الأطفال والصبيان والنساء على أريكه الحكم، ثم يثورون عليهم ويقتلونهم بعد أيام أو أشهر ويحلون محلَّهم أشخاصاً آخرين!!

وعلى هذا فإن الدوله الساسانيه رغم قوّتها الظاهريه كانت آخذه فى

۱- . تاريخ الطبرى: ۲/۲۹۷.

۲- . تاريخ اجتماعى إيران: ۲/۱۵-۱۹ (بالفارسيه).

الانحطاط والإنحلال وسائره نحو التمزّق والفناء.

الفوضى الدينيه فى إيران الساسانيين

لقد كان أهمّ عامل للفوضى الّتى كانت تعانى منها الأوضاع فى العهد الساسانى هو الاختلاف فى المعتقدات الدينيه الّتى كانت سائده آنذاك.

فحيث إنّ «أردشير بن بابك» مؤسّس السلسله الساسانيه كان ابن مؤبد (وهو رجل دين زردشتى) وقيّماً على بيت نار، وقد تمكّن من السلطان بفضل الموابده، فإنّه اجتهد فى الترويج لدين آبائه فى إيران.

وفى عهد الساسانيين كان الدين الرسمى والشائع فى أوساط الشعب الإيرانى هو الدين الزرادشتى، ولمّا كانت السلاله الساسانيه قد توصّلت إلى الحكم بواسطه الموابده - كما أسلفنا - لذلك كان الموابده والقيّمون على بيوت النار (ونعنى بهم رجال الدين الزرادشتى) يحظون بمكانه كبرى لدى البلاط الساسانى إلى درجه أنّهم أصبحوا يشكّلون فى أواخر العهد الساسانى أقوى طبقه، وأشدّ الأجنحه نفوذاً فى المجتمع الإيرانى آنذاك.

ولقد كان الحكام الساسانيّون دائماً ممَّن رشحهم للحكم الموابده ورجال الدين الزردشتى المجوسى، ولذلك كان الحكّام يأتمرون بأوامرهم، ولو أنّ أحداً منهم خالف الموابده عارضوه أشدَّ المعارضه، وسحبوا عنه تأييدهم ودَعْمهمْ، ولهذا اجتهد الملوك الساسانيون فى كسب رضا الموابده، والعنايه بهم أكثر من غيرهم من الطبقات، وقد تسبَّبت عنايه أُولئك الملوك بالموابده وحمايتهم لهم فى تزايد عددهم، يوماً بعد يوم.

وقد كان الساسانيون يستغلون رجال الدين المجوس أكبر استغلال لتثبيت قواعد حكمهم، وتقويه مواقعهم فى السلطان، ولذلك أقاموا فى مختلف مناطق

البلاد الإيرانيه العريضه بيوت النار (وهى معابد المجوس) جاعلين فى كلّ واحد من هذه المعابد ثلّه كبيره من الموابده كسدنه.

فقد كتب المؤرّخون يقولون: إنّ «خسرو برويز» شيّد بيتاً للنار عظيماً ووكّل به (١٢ ألف) هيربد (وهو منصب خاص ورتبه خاصه فى نظام القياده الدينيه المجوسيه) لينشدوا فيه الأناشيد الدينيه، ويؤدوا الطقوس والشعائر المجوسيّه!!.(١) وعلى هذا الأساس كان الدين المجوسى دين البلاط، وكان رجاله فى خدمه الملوك.

هذا وقد اجتهد الموابده - بكلّ ما فى وسعهم - فى إبقاء الطبقات الكادحه والمحرومه من أبناء الشعب الإيرانى فى حاله من الركود والجمود وحاله عدم الإحساس بالآلام والرضا بالأمر الواقع.

ولقد تسبّبت الصلاحياتُ الواسعه والحريات المطلقه المخوّله إلى الموابده فى ابتعاد الناس عن الدين المجوسى والنفور منه، فجماهير الشعب كانت تبحث لنفسها عن غير ما يتديّن به الأشراف من عقيده ودين.

يقول مؤلّف كتاب «تاريخ اجتماعى إيران»: وقد سعى الشعب الإيرانى - فى المآل - إلى أن يتخلّص من ضغوط الأشراف والموابده واضطهادهم، ولهذا ظهر بيت الزردشتيين فى قبال الدين الرسمى «المزديه الزردشتيه» الّذى كان دين البلاط كما عرفنا، وكان يدعى: بهدين (أى: الدين الأفضل) مذهبان آخران.(٢)

أجل وبسبب ضغوط الأشراف وتشدّدات الموابده فى العهد الساسانى

١- . تاريخ تمدن ساسانى: ١/١ (بالفارسيه).

٢- . لاحظ: تاريخ اجتماعى إيران: ٢/٢٠.

ظهرت فی إیران مـذاهب مختلفه الواحـد تلو الآخر، وقد حاول «مزدک» ومِنْ قبله «مانی» أن یوجدا بأنفسـهِما تحوّلاً فی الأوضاع الدینیه وفی العقائد والمؤسسات، إلّا أنّهما منیا بالفشل فی هذا السبیل(۱).

فحوالی سنه (۴۹۷ میلادیه) قام «مزدک»، وألغی المالکیه الانحصاریه (الخاصّه)، ونسخ عاده تعدّد الزوجات، ونظام الحریم وکان ذلک فی مقـدّمه برامجه الإصـلاحیه، وقـد لقیت أفکاره هذه تأیّیداً قوّیاً من قِبل الطبقات المحرومه المسـحوقه الّتی فجرت بقیاده «مزدک» ثوره کبری، وانقلاباً هائلاً فی المجتمع الإیرانی.

ولقـد کـانت هـذه الثورات والانتفاضـات الشـعبیه لأجـل أن یتوصّـل النـاس إلی حقوقهم المشـروعه، الممنوحه لهم من قبـل اللّه خالقهم وبارئهم.

ولقد قوبل مذهب «مزدک» باعتراض شدید من قِبَل الموابده، وأُمراء الجیش، وجرّ إلی فتنه کبیره، وإلی تردّی الأوضاع فی إیران آنذاک.

کما أنّ المـذهب الزردشتی قـد فقد - فی أواخر العهد الساسانی - حقیقته بصوره کامله، ووصل الأمر بعباده النار وتقدیسـها إلی درجه أنّهم کانوا یحرِّمون الدقّ علی حدیده محماه اکتسبت لون النار ولهیبها بمجاورتها لها.

وبکلمه واحـده؛ لقد کانت أکثر المعتقدات الزردشتیه المجوسـیه تتألّف من الخرافات والأساطیر، وقد أعطت حقائق هذا الدین - فی هـذا العهـد - مکانها لحفنه من الشـعائر الجوفاء، والطقوس الفارغه، الّتی أضاف إلیها الموابده سلسـله من التشـریفات الطویله العریضه تثبیتاً لمواقعهم، ودعماً لمکانتهم فی المجتمع الإیرانی یومئذ.

۱- . المـذهب المانوی هو المذهب الزردشتی الخلیط بالمسـیحیه، فقد اخترع مانی من مسـلک قومی وآخر أجنبی مذهباً جدیداً ثالثاً.

لقد بلغت سيطره الخرافات والأساطير البعيده عن العقل والمنطق على هذه العقيده، ورسوخها فى هذا الدين حدّاً أقلق حتّى رجال الدين الزردشتى أنفسهم أيضاً، وقد كان بين الموابده أنفسهم من أدرك منذ البدايه تفاهه الطقوس والشعائر الزردشتيه الجوفاء فتخلّى عنها.

هذا من جانب ومن جانب آخر كان قد انفتح على الشعب الإيرانى منذ أيام الملك «أنوشيروان» فما بعد، طريق التفكير، والتأمّل، والتحقيق، وممّا قد قوّى هذا الأمر ما حصل من اتصالات بين العقائد الزردشتيه والمعتقدات المسيحيه وغيرها من العقائد والأديان وما تحقّق من تلاقح بينها نتيجه تسلل الثقافه اليونانيه والهنديه، وغيرها إلى الوسط الإيرانى، وتسبّب كلّ ذلك فى يقظه الشعب الإيرانى، ولذلك أصبح يعانى من هذه الخرافات والأساطير الّتى كانت الديانه الزردشتيه تعج بها أكثر من أى وقت مضى.

وعلى أيّه حال فإن الفساد الّذى ظهر فى أوساط رجال الدين الزردشت، وتطرّق الخرافات والأساطير الواهيه الكثيره إلى المعتقدات الزردشتيه تسَبّبَ فى حصول مزيد من التشتّت والاختلاف والتشرذم فى آراء الشعب الإيرانى وعقيدته.

ومع ظهور هذا الاختلاف وعلى أثر إنتشار المذاهب المتنوّعه ظهرت روح الشكّ والتردّد لدى الطبقه المفكّره والمثقّفه، وسرت منهم إلى بقيه الأصناف والفئات ممّا أدى ذلك إلى أن تفقد جماهير الشعب ثقتهم وإيمانهم القطعى، واعتقادهم الكامل السابق بتلك المعتقدات.

وهكذا استشرى الهرج والمرج وعمَّت الفوضى واللادينيه كلّ مناطق إيران والمجتمع الإيرانى، وقد رسم «برزويه» الطبيب الشهير فى العهد الساسانى ذلك الحال فصوّر نموذجاً كاملاً عن الاختلاف الاعتقادى والتشرذم الفكرى، وبالتالى اضطراب الأوضاع الإيرانيه فى العهد الساسانى، فى مقدمه «كليله ودمنه».

الحروب الإيرانيه الروميه

لقد أنقذ «بزرجمهر» – الوزير الإيرانى الشهير الّذى كان يحتل مكان الصداره فى حكومه «أنوشيروان» وكان موصوفاً بالتدبير والكفاءه العاليه – إيران من الأخطار الّتى أحدقت بها فى أكثر الأحايين، ولكن علاقته بالسلطان (أنوشيروان) كانت تتأثّر أحياناً بسعايه الساعين ووشايه الوشاه الذين كانوا يوغرون صدر الملك ضدّه فيستصدرون منه قراراً بحبسه وسجنه.

وقد أوغرّ هؤلاء السعاه والواشون أنفسُهم صدرَ «أنوشيروان» ضد امبراطور الروم، وألّبوه عليه، وشجّعوه على توسيع رقعه نفوذه، وتوسيع حدود بلاده، وإضعاف سيطره منافسه الخطير، متجاهلاً وثيقه «الصلح الخالد» الّتى عقدها مع الروم واتّفق فيها الجانبان على عدم التعرّض بعضهم لبعض.

وأدّى هذا التحريض بأنوشيروان إلى مهاجمه الروم، واشتعلت على إثرها نيران الحرب، واستطاع جنود إيران أن يفتحوا سوريه (وقد كانت مستعمره روميه) فى مدّه قصيره تقريباً، وحرق أنطاكيه ونهب آسيا الصغرى.

وبعد عشرين عاماً من القتال وسفك الدّماء، والكرّ والفر بين الروم وإيران وبعد أن فقد الجانبان قدراتهم وطاقاتهم فى تلك المعارك الطاحنه، وبعد الخسائر العظيمه الّتى تحمّلها الطرفان، إضطرّا إلى عقد وثيقه الصلح مرّه ثانيه، وحدّدوا حدود بلادهما، ومناطق نفوذهما كما كانت عليه فى السابق شريطه أن تدفع دوله الروم كلّ عام ما يعادل (عشرين ألف) دينار إلى دوله إيران.

ومِنَ الواضح الّذى لا يخفى ولا يحتاج إلى البيان أنّ حروباً طويله الأمد تدور رحاها بعيداً عن مركز الدوله من شأنها أن تأتى بالنتائج السيّئه والتبعات الثقيله على اقتصاد الشعب المحارب، وصناعته وتوجه إلى هذه الجوانب ضربات قويه،

لا تزول آثارها إلّابعد زمان طويل خاصّه مع ملاحظه الوسائل والأدوات فی تلک العصور. ومهما یکن فإنّ هذه الحروب، وهذه الحملات المکلّفه هیّأت المقدّمات الموجبه لسقوط الحکومه الإیرانیه الحتمی.

فإنّ آثار هذه المعارک لم تَزُل بعد إلّاوقد نشبت حربٌ أُخری دامت سبعه أعوام فإنّ «تی باریوس» امبراطور الروم بعد أن تسنّم عرش السلطان هدّد بحملاته الکبیره استقلال الدوله الإیرانیه بدافع الانتقام.

وفی الأثناء - وقبل أن یتضح موقف الطرفین وموقعهما فی تلک المعارک من الهزیمه أو الانتصار - مات «أنوشیروان» وخلفه فی إدراه البلاد ابنه «خسروبرویز».

وقد حمل هذا الأخیر علی الروم أیضاً، وذلک عام (۶۱۴ م) بحجج معیّنه، وفتح فی أوّل حمله من حملاته: بلاد الشام وفلسطین وأفریقیه ونَهب أُورشلیم، وأحرق کنیسه القیامه ومزار السیّد المسیح علیه السلام وهدم المدن، ودمّرها.

وقد انتهت هذه الحرب بعد مقتل تسعین ألف من النصاری لصالح الإیرانیین.

فی مثل هذه المرحله الّتی کان فیها العالمُ المتحضّر آنذاک یحترق فی نیران الحروب والظُلم، بُعِث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بالرساله الإسلامیه، وبلغ نداؤه المحیی للنفوس والعقول سمع البشریه، وقام یدعو الناس إلی الصلح والسلم، وإلی النظم والأمن.

ولقد أدّی انهزامُ الرومیین المتدینین، المؤمنین باللّه علی أیدی المجوس الکفّار، عبده النار، إلی أن یتفاءل أهلُ مکّه الوثنیون بهذا الحدث، ویحدّثوا (ویمنّوا) أنفسهم بالانتصار علی المسلمین المؤمنین باللّه عمّا قریب، وانطلقوا یردّدون هذه

الأمنيه أمام المسلمين وهم يحاولون بها إضعاف معنويّاتهم، وزعزعه إيمانهم، الأمر الّذى أقلق المسلمين.

ولم يتّخذ النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم موقفاً تجاه هذه الظاهره انتظاراً لما سينزل به عليه الوحىُ إلى أن نزلت آيات فى هذا المجال هى الآيات الأُولى من سوره الروم الّتى تقول: «الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللّهِ لا يُخْلِفُ اللّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ» .(۱)

وقد تحقّقت نبوءه القرآن هذه حول الروم فى عام (۶۲۷ ميلاديه) حيث استولى «هرقل» على «نينوى» فى حمله واحده.

وعلى أيّه حال كانت الدولتان المتنافستان تطويان الدقائق والساعات الأخيره من حياتهما فيما تستعدّان من ناحيه أُخرى لتجميع القوى، والتهيّؤ لشن حملات جديده، وخوض حروب ومعارك أُخرى ولكن حيث إنّ الإراده الإلهيه كانت قد تعلّقت بأن يسطع على تلك المنطقتين نورُ التوحيد وتنتعش نفوسُ الروميين والفرس الذابله الميّته بنسائم الإسلام الحيّه، وأشعته الهاديه، لذلك لم يلبث أن قُتِل «خسرو برويز» على يدى ابنه «شيرويه» الّذى لم يَدُم سلطانه بعد اغتياله لأبيه أكثر من ثمانيه أشهر، ثم سادت إيران بعد «شيرويه» فوضى شامله خلال أربعه أشهر، حيث تناوب على مسند الحكم حُكامٌ وأُمراء عديدون أربعه منهم من النساء، إلى أن أنهى الجيشُ الاسلاميّ بحملاته الناجحه هذه الأوضاع، ووضع نهايه لهذا الصراع السياسى الحادّ الّذى استمرّ خمسين عاماً والّذى ساعد بدوره على تقدّم الفتوحات الإسلاميه.

۱- . الروم: ۱-۶.

۵ أسلاف رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم

۱. بطل التوحید: إبراهیم الخلیل علیه السلام

اشاره

إنّ الهدف من استعراض حیاه النبیّ العظیم إبراهیم الخلیل علیه السلام هو التعریف بأجداد النبیّ محمّد صلی الله علیه و آله و سلم وأسلافه، لانتهاء نسبه الشریف إلی النبیّ إسماعیل بن إبراهیم علیهما السلام، وحیث إنّ لهاتین الشخصیتین العظیمتین وبعض أسلاف النبیّ العظام نصیبٌ هامٌّ فی تاریخ العرب والإسلام، لهذا ینبغی الحدیث عن أحوالهم بصوره مختصره، خاصَّه أنَّ حوادث التاریخ الإسلامی ترتبط ارتباطاً کاملاً - کحلقات سلسله واحده - بالحوادث السابقه، أو المقارنه لبزوغ الإسلام.

فعلی سبیل المثال تُعْتَبر کفاله «عبدالمطلب» لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وحمایته له، وجهود «أبی طالب» ودفاعه الطویل عن النبیّ، وعظمه الهاشمیّین وسموّ مقامهم وأخلاقهم، وجذور معاداه الأمویین لهم، الأُسس والقواعد الموضوعیه لحوادث التاریخ الإسلامی، ولهذا کان لابدّ من تخصیص فصل کامل فی التاریخ الإسلامی لهذه الأبحاث.

إنّ فی حیاه حامل رایه التوحید النبیّ «إبراهیم الخلیل» علیه السلام نقاطاً مشرقه وبارزه جدّاً.

فجهاده العظیم فی سبیل إرساء قواعد التوحید واقتلاع جذور الوثنیه ممّا لا ینسی.

وهکذا حواره اللطیف والزاخر بالمعانی مع عَبَده النجوم والکواکب فی

عصره والّذی ذکره القرآن الکریم لیعرّفنا علی أفضل وأسمی درس توحیدی لطلاب الحقیقه وبغاه الحق.

مولد إبراهیم علیه السلام

لقد وُلدَ بطَلُ التوحید فی بیئهٍ مظلمه کانت تسربلها ظلمات الوثنیه، وعباده البشر... فی بیئه کان الإنسان فیها یخضع لأَصنام نحتها بیدیه، کما یخضع لکواکب ونجوم.

لقد وُلد حامل لواء التوحید «إبراهیم الخلیل» علیه السلام فی «بابل» الّتی یعدّها المؤرّخون إحدی عجائب الدنیا السبع، ویذکرون حولها قصصاً وأُموراً کثیره تنبئ عن عظمتها وأهمّیه حضارتها، فیقول «هیردوتس» المؤرّخ المعروف - مثلاً -: لقد کانت بابل بنیه بشکل مربَّع طول کل ضلع من أضلاعه الأربعه (۱۲۰ فرسخاً) ومحیطه (۴۸۰ فرسخاً)(۱).

إنَّ هذا الکلام مهما کان مبالغاً فیه إلّاأنّه علی کلّ حال یکشف عن حقیقه لا تقبل الإنکار، إذا ما ضُمَّ إلی ما کتبه الآخرون عن تلک المدینه التاریخیه.

غیر أنّنا لا نری من تلک المدینه الیوم ومن مناظرها الجمیله، وقصورها الرائعه، إلّاتلاًّ من التراب فی منطقه بین «دجله» و «الفرات»، فالموت یخیّم علی کلّ تلک المنطقه، اللّهم إلّاعندما یکسر علماء الآثار بتنقیباتهم جدار الصمت أحیاناً، بحثاً عن آثار تلک المدینه، ویستخرجون بقایاها الموقوف علی معالم من حضاره أصحابها وسکانها.

لقد فتح رائد التوحید ومُرسی أرکانه «إبراهیم الخلیل» علیه السلام عینیه فی دوله «نمرود بن کنعان».

۱- . قاموس الکتاب المقدّس، مادّه بابل.

وكان نمرود هذا رغم أنّه يعبدُ الصنم يدّعى الألوهيَّه ويأمر الناس بعبادته.

وقد يبدو هذا الأمر عجيباً جدّاً فكيف يمكن أن يكون الشخص عابد صنم ومع ذلك يدّعى الأُلوهيه فى الوقت نفسه، إلّاأنّ القرآن الكريم يذكر لنا نظير هذه المسأله فى شأن «فرعون مصر»، وذلك عندما هزّ النبيّ موسى بن عمران عليه السلام قواعد العرش الفرعونى بمنطقه القوىّ، وحجّته الصاعقه، فاعترض أنصار فرعون وملؤه على هذا الأمر، وخاطبوا فرعون بلهجه معترضه قائلين: «أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ» .(۱) ومن الواضح جدّاً أنّ «فرعون» كان يدّعى الإلوهيه فهو الّذى كان يقول: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى» (۲)، وهو القائل: «ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِى» (۳) ولكنّه كان فى الوقت نفسه عابد صنم ووثنياً.

بَيْدَ أَنَّ هذه الازدواجيه ليست بالأمر الغريب عند الوثنيّين، ولا يمنع مانع فى منطقهم من أن يكون الشخصُ نفسه وثنياً يعبد الصنم، ومع ذلك يَدَّعى أنّه إلهٌ ويدعو الناس إلى عبادته فيكون إلهاً معبوداً، يعبد إلهاً أعلى منه، لأنّ المقصود من المعبود والإله ليس هو خالق الكون بل هو من يتفوَّق على الآخرين بنحو من أنحاء التفوّق ويمتلك زمام حياتهم بشكل من الإشكال.

هذا والتاريخ يحدّثنا أنّ العوائل فى بلاد الروم كانت تعبد كبارها، ومع ذلك كان أُولئك الكبار المعبودين أنفسهم يتّخذون لأنفسهم معبوداً أو معبودات أُخرى.

إنّ أكبر وسيله توسَّل بها «نمرودُ» فى هذا السبيل هو استقطاب جماعه من

۱- . الأعراف: ۱۲۷.

۲- . النازعات: ۲۴.

۳- . القصص: ۳۸.

الكهنه والمنجّمين الذين كانوا يُعدّون الطبقه العالمه والمثقّفه فى ذلك العصر.

فقد كان خضوعُ هذه الطبقه يمهّد لاستعمار الطبقه الدنيا والجاهله من الناس.

هـذا مضافاً إلى أنّه كان يُناصـر «نمرود» بعضُ من ينتسب إلى «الخليل» عليه السـلام بوشـيجه القربى مثل «آزر» الّذى كان يصـنع التماثيل، وكان عارفاً بأحوال النجوم والفلك أيضاً، وكان هـذا هو الآخر أحـد العراقيل الّتى كانت تمنع الخليل من إنجاح مهمّته، لأنّه مضافاً إلى مخالفه الرأى العام له، كان يواجه مخالفه أقاربه أيضاً.

لقـد كـان نمرود غارقـاً فى عالم خيالى عنـدما دقّ المنجمون فجأه أوّل ناقوس للخطر وقالوا له: سوف تنهار حكومتُك، ويتهاوى عرشك وسـلطانك على يـد رجل يولد فى تلك البيئه، الأمر الّذى أيقظ أفكاره النائمه، فتساءل من فوره، وهل وُلد هذا الرجل؟ فقيل له: لا، إنّه لم يولـد بعـد. فأمر من فوره بعزل الرجال عن النساء (وذلك فى الليله الّتى انعقدت فيها نطفه إبراهيم الخليل عليه السـلام عـدو نمرود، وهـادم ملكه، ومزيل سـلطانه وهى الليله التى حـدّدها وتكهّن بها المنجمون والكهنه من أنصار نمرود) ومع ذلك كان جلاوزه «نمرود» يقتلون كلّ وليد ذكر، وكان على القوابل أن يسجِّلن أسماء المواليد فى مكتبه الخاص.

ولقد اتّفق أن انعقدت نطفهُ «الخليل» فى نفس الليله الّتى منع فيها أىَّ لقاء جنسى بين الرجال، وأزواجهم.

لقـد حملت أُم إبراهيم به كما حملت أُم موسـى به، وأمضت فتره حملها فى خفاء وتستّر، ثم لجأت بعـد وضع وليـدها العزيز إلى غار بجبل على مقربه من المدينه حفاظاً عليه، وراحت تتفقده بين حين وآخر من الليل والنهار، قدر المستطاع.

وقد أرضى هذا الأسلوبُ الظالمُ «نمروداً» وأراح باله بمرور الزمن، إذ أيقن بأنّه قد قضى به على عدو عرشه، وهادم سلطانه، وتخلّص منه.

لقد قضى «إبراهيم» عليه السلام ثلاثه عشر عاماً فى ذلك الغار الّذى كان يتصل بالعالم الخارجى عبر باب ضيّق، ثم أخرجته أُمّه من ذلك الغار بعد ثلاثه عشر عاماً، ودخل «إبراهيم» فى المجتمع، فاستغرب المجتمع النمرودى وجوده وأنكروه.(۱)

لقد خرج «إبراهيم» من الغار، مؤمناً باللّه بفطرته، وقوّى توحيده الفطرى، بمشاهَده الأَرض والسماء، والنظر فى سطوع الكواكب والنجوم والتأمّل فى ما يجرى فى عالم النبات من نمو وحركه، إلى غير ذلك ممّا يجرى فى عالم الطبيعه العجيب.

لقد واجه إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من الغار جماعه من الناس بهرتهم أحوال الكواكب وعظمه أمرها، ففقدوا عقولهم تجاه هذه الظاهره، كما رأى جماعه أُخرى أحطَّ فكريّاً من سابقتها يعبدون أصناماً منحوته، بل واجه ما هو أسوأ بكثير من أعضاء الطوائف والجماعات الضالّه إذ رأى رجلاً يستغل جهل الناس وغباءهم ويدّعى الإلوهيه ويفرض عليهم عبادته والخضوع له!!

لقد كان إبراهيم عليه السلام يرى أَنَّ عليه أن يهيّئ نفسه لخوض المعركه فى هذه الجهات الثلاث المختلفه، وقد نقل القرآن الكريم قصه نضال النبىّ «إبراهيم» عليه السلام فى هذه الأصعده والجبهات الثلاث، وسننقل لك فى ما يأتى وباختصار ما ذكره القرآن فى هذا المجال.

۱- . تفسير البرهان: ۱/۵۳۵.

إبراهيم ومكافحته للوثنيه

كانت ظلمات الوثنيه قد خيَّمت على منطقه بابل (موضع ولاده الخليل) برمّتها.

فالآلهه المدَّعاه، والمعبودات (السماويه والأرضيه) الباطله قد سحرت عقول مختلف فئات الشعب، فبعضها فى نظرهم هى أرباب القدره والسلطه، وبعضها الآخر وسيله الزلفى والتقرّب إلى اللّه، إلى غير ذلك من التصوّرات السخيفه فى هذا الصعيد.

وحيث إنّ طريقه الأَنبياء فى هدايه البشريه وإرشادهم هى الاستدلال بالبراهين، والاحتجاج بالمنطق، لأنّهم إنّما يتعاملون مع قلوب الناس وعقولهم، ويبتغون إيجاد حكومه تقوم على أساس الإيمان واليقين، ومثل هذه الحكومه لا يمكن إقامتها بالسيف أو بالنار والحديد. لهذا يبدأون حركتهم بالتوعيه الفكريه.

إنّ علينا أن نفرّق بين الحكومات الّتى أراد الأنبياء تأسيسها، وحكومه الفراعنه والنمارده.

إنّ هدف الطائفه الثانيه هو: الرئاسه والزعامه، والحفاظ عليها بكلّ وسيله ممكنه فى حياتهم، وإن تلاشت وتهاوت من بعدهم.

ولكنّ الأنبياء والرسل يريدون حكومه تبقى قائمه فى جميع الحالات وماثله فى جميع الأوقات، فى الخلوه والجلوه، فى وقت الضعف، وفى وقت القوّه، فى حياتهم وبعد مماتهم... إنّهم يريدون أن يحكموا على القلوب لا على الأبدان، وهذا الهدف لا يتحقّق أبداً عن طريق القوّه واستخدام العنف والقهر!! إنّما يتحقّق عن طريق الحجّه والبرهان.

لقد بدأ النبىُ «إبراهيم» عملَه بمكافحه ما كان عليه أقرباؤُه الذين كان فى

طليعتهم وعلى رأسهم «آزر» وهو الوثنيه وعباده الأصنام، ولكنّه لم ينته من هذه المعركه ولم يحرز إنتصاراً كاملاً فى هذه الجبهه بعد، إلّاوواجه عليه السلام جبهه أُخرى، وكانت هذه الجماعه أعلى مستوى من أفراد الجماعه السابقه فى الفهم والثقافه. لأنّ هذه الجماعه - على خلاف أقرباء إبراهيم - قد نبذت عباده الأوثان والأَصنام(۱)، والمعبودات الأرضيه الحقيره، وتوجهت بعبادتها وتقديسها إلى الكواكب والنجوم والأجرام السماويه. ولقد بيَّن «الخليل» عليه السلام فى حواره العقائدى مع عُبّاد الأجرام السماويه، ومكافحته لمعتقداتهم الفاسده، سلسله من الحقائق الفلسفيه والعلميه الّتى لم يصل إليها الفكر البشرى يومذاك، وذلك ببيان بسيط مدعوم بأدلّه لا تزال إلى اليوم موضع إعجاب كبار العلماء، وروّاد الفلسفه والكلام.

والأَهم من ذلك - فى هذا المجال - أنّ القرآن الكريم نقل أدلّه «إبراهيم الخليل» عليه السلام باهتمام خاص وعنايه بالغه، ولهذا ينبغى لنا أن نتوقّف عندها قليلاً، وهذا ما سنفعله فى هذه الصفحات.

حوار إبراهيم الخليل عليه السلام مع عبده الكواكب

ذات ليله وقف إبراهيم عليه السلام عند ابتداء مغيب الشمس يتطلّع فى السماء - وهو ينوى هدايه الناس - وبقى ينظر إلى النجوم والكواكب من أوّل الغروب من تلك الليله إلى الغروب من الليله التاليه، وخلال هذه الساعات الأربع والعشرين حاور وجادل ثلاث فرق، من عبده النجوم وأبطل عقيده كلّ فرقه منها بأدلّه محكمه، وبراهين متقنه قوّيه.

۱- . ترتبط آيه ۷۴ من سوره الأنعام بحواره عليه السلام مع الوثنيين، بينما ترتبط الآيات اللاحقه لها بعبده الأجرام السماويه.

فعنـدما أقبل الليلُ وخيّم الظلام على كلّ مكان وهو يخفى كلّ مظاهر الوجود ومعالمه فى عالم الطبيعه، ظهر كوكبُ «الزُهره» من جانب الأُفق وهو يتلألأ.

فقال إبراهيم لِعُبّاد هذا الكوكب - وهو يتظاهر بموافقتهم جلباً لقلوبهم، ومقدّمه للدخول معهم فى حوار -: «هذا رَبِّى» .

وعندما أفل ذلك الكوكب وغاب عن الأنظار قال: «لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ» .

وبمثل هذا المنطق الجميل أبطل عقيده عبده الزهره، وأظهر خواءها وفسادها.

ثمّ إنّه عليه السلام نظر إلى القمر المنير الّذى يسحر القلوب بنوره وضوئه، فقال - متظاهراً بموافقه عبده القمر -: «هذا رَبِّى» ثم ردّ بأُسلوب منطقى محكم تلك العقيده أيضاً، عنـدما امتـدّت يد القدره المطلقه ولمّت أشعه القمر من عالم الطبيعه، وعندها اتّخذ إبراهيم عليه السلام هيئه الباحث عن الحقيقه ومن دون أن يصدم تلك الفرق المشركه ويجرح مشاعرها، إذ قال: «لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضّالِّينَ» (۱) لأَنّ القمر قد أَفل أيضاً كما أَفل سابقُه فهو كغيره أسير نظام عُلوىٍّ لا يتخلّف، وما كان كذلك لا يمكن أن يُعدَّ رباً يُعبَد، ويتوَجّه إليه بالتقديس والتضرّع.

ولمّا وَلّى الليل وأدبر، واكتسحت الشمس الوضّاءه بأشعتها حجب الظلام، وبثّت خيوطها الذهبيه على الوهاد والسهول، والتفت عَبدَه الشمس إلى معبودهم، تظاهر إبراهيم بالإقرار بربوبيتها اتّباعاً لقواعد الجدل والمناظره ولكن أُفول الشمس وغروبها أثبت هو الآخر بطلان عبادتها أيضاً بعد أن أثبت خضوعها للنظام الكونى العام، فتبرّأ «الخليل» عليه السلام من عبادتها بصراحه.

۱- . الأنعام: ۷۷.

وعندئذ أعرض عليه السلام عن تلك الطوائف الثلاث وقال: «إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِیفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ» .(۱)

لقد کان المخاطبون فی کلام إبراهیم علیه السلام هم الذین یعتقدون بأنّ تدبیر الکائنات الأرضیه، ومنها الإنسان قد أُنیطت إلی الأجرام السماویه وفوّضت إلیها!!

وهذا الکلام یفید أنّ الخلیل علیه السلام لم یقصد المطالب الثلاثه التالیه:

۱. إثبات الصانع (الخالق).

۲. توحید الذات وأنّه واحد غیر متعدد.

۳. التوحید فی الخالقیه، وأنّه لا خالق سواه.

بل کان ترکیزه علیه السلام علی التوحید فی «الربوبیه» و «التدبیر» وإداره الکون، وأنّه لا مدبّر ولا مربی للموجودات الأرضیه إلّااللّه سبحانه وتعالی، ومن هنا فإنّه علیه السلام فور إبطاله لربوبیه الأجرام السماویه قال: «إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ...» وهو یعنی أنّ خالق السماوات والأرض هو نفسه مدبّرها وربُها، وأنّه لم یفوّض أی شیء من تدبیر الکون - لا کلّه ولا بعضه - إلی الأجرام السماویه، فتکون النتیجه: أنّ الخالق والمدبّر واحد، لا أنّ الخالق هو اللّه والمدبّر شیء آخر.

ولقد وقع المفسّرون، والباحثون فی معارف القرآن فی خطأ، والتباس عند التعرّض لمنطق «إبراهیم» علیه السلام وشرح حواره هذا، حیث تصوّروا أنّ الخلیل علیه السلام قصد نفی «أُلوهیه» هذه الأجرام یعنی الأُلوهیه الّتی یعتقد بها جمیع شعوب الأرض ویکون هذا الکون الصاخِب آیه وجوده.

بینما تصوّر فریق آخر أنّ «إبراهیم» کان یقصد نفی «الخالقیه» عن هذه

۱- . الأنعام: ۷۹.

الأجرام السماويه، لأنّه من الممكن أن يخلق إله العالم كائناً كامل الوجود والصفات ثم يفوض إليه مقام الخالقيه، فى حين أنّ هذين التفسيرين غير صحيحين، بل كان هدف الخليل عليه السلام - بعد التسليم بوجود إله واجب الوجود، وتوحيده، ووحدانيه الخالق - البحث فى قسم آخر من التوحيد، ألا وهو التوحيد «الربوبى»، وبالتالى إثبات أنّ خالق الكون هو نفسُه مدبر ذلك الكون أيضاً، وعباره «وَجَّهْتُ وَجْهِیَ...» أفضل شاهد على هذا النوع من التفسير.

من هنا كان التركيز الأكبر فى بحث إبراهيم على مسأله «الربّ» و «الربوبيه» فى صعيد الأجرام كالقمر والزهره والشمس.(۱)

هذا واستكمالاً للبحث الحاضر لابدَّ من توضيح برهان النبىّ «إبراهيم» عليه السلام.

لقد استدلّ «إبراهيم» فى جميع المراحل الثلاث بأُفول هذه الأجرام على أنّها لا تليق بتدبير الظواهر الأرضيه وبخاصّه الإنسان.

وهنا ينطرح سؤال: لماذا يُعتبر أُفول هذه الأجرام شاهداً على عدم مدبِّريتها؟

إنّ هذا الموضوع يمكن بيانُه بصور مختلفه، كلّ واحده منها تناسب طائفه معيّنه من الناس.

إنّ تفسير منطق «الخليل» عليه السلام وأُسلوبه فى إبطال مدبِّريه الأجرام السماويه وربوبيّتها بأشكال وصور مختلفه أفضل شاهد على أنّ للقرآن الكريم أبعاداً مختلفه، وأنّ كل بُعدٍ منها يناسب طائفه من الناس.

۱- . لقد بيّنا مراتب التوحيد من وجهه نظر القرآن الكريم فى موسوعتنا مفاهيم القرآن، الجزء الأوّل: «معالم التوحيد فى القرآن الكريم» وأثبتنا هناك أنّ التوحيد فى الذات غير التوحيد فى الخالقيه، وأنّ هذين النوعين من التوحيد غير التوحيد فى الربوبيه، وهى غير المراتب الأُخرى للتوحيد، فراجع الكتاب المذكور تقف على هذه الحقيقه.

وإليك فی ما یلی التفاسیر المختلفه لهذا الاستدلال:

أ. إنّ الهدف من اتّخاذ الربّ هو أن یستطیع الکائن الضعیف فی ظلّ قدره ذلک الرب من الوصول إلی مرحله الکمال، ولابدّ أن یکون لمثل هذا الربّ ارتباطٌ قریبٌ مع الموجودات المراد تربیتها بحیث یکون واقفاً علی أحوالها، غیر منفصل عنها، ولا غریب علیها.

ولکن کیف یستطیع الکائن الّذی یغیب ساعات کثیره عن الفرد المحتاج إلیه فی التربیه ویُحرم ذلک الفرد من فیضه وبرکته، أن یکون ربّاً للموجودات الأَرضیه ومدبّراً لها؟!

من هنا یکون أُفول النجم، وغروبه، الّذی هو علامه غربته وانقطاعه عن الموجودات الأرضیه خیر شاهد علی أنّ للموجودات الأرضیه ربّاً آخر، منزّهاً عن تلک النقیصه، بعیداً عن ذلک العیب.

ب. إنَّ طلوع الأجرام السماویه وغروبها وحرکتها المنظّمه دلیل علی أنّها جمیعاً خاضعه لمشیئه فوقها، وأنّها فی قبضه القوانین الحاکمه علیها، والخضوع لقوانین منظمه هو بذاته دلیل علی ضعف تلک الموجودات، ومثل هذه الموجودات الضعیفه لا یمکن أن تکون حاکمه علی الکون، أو شیء من الظواهر الطبیعیه، وأمّا استفاده الموجودات الأرضیه من نور تلک الأجرام وضوئها فلا یدلّ أبدّاً علی ربوبیه تلک الأجرام، بل هو دلیل علی أنّ تلک الأجرام تؤدّی وظیفه تجاه الموجودات الأرضیه بأمر من موجود أعلی.

وبعباره أُخری: إنّ هذا الأمر دلیل علی التناسق الکونی، وارتباط الکائنات بعضها ببعض.

ج. ما هو الهدف من حرکه هذه الموجودات؟ هل الهدف هو أن تسیر من النقص إلی الکمال أو بالعکس؟

وحيث إنّ الصوره الثانيه غير معقوله، وعلى فرض تصوّرها لا معنى لأن يسير المربّى والمدبّر للكون من مرحله الكمال إلى النقص والفناء، يبقى الفرضُ الأوّل وهو بنفسه دليل على وجود مربٍّ آخر يوصل هذه الموجودات القوّيه فى ظاهرها من مرحله إلى مرحله، هو - فى الحقيقه - الربُّ الّذى يبلغ بهذه الموجودات وما دونها إلى الكمال.

طريقه الأنبياء فى الحوار والجدال

لقد أسلفنا فى ما سبق أنّ «إبراهيم» - بعد خروجه من الغار - واجه صنفين منحرفين عن جادّه التوحيد، هما:

١. الوثنيون.

٢. عَبَده الأجرام السماويه.

ولقد سمعنا حوار «إبراهيم» عليه السلام وجداله مع الفريق الثانى، وعلينا الآن أن نعرف كيف حاور الوثنيين وعبده الأصنام؟

إنّ تاريخ الأنبياء والرسل يكشف لنا عن أنّهم كانوا يبدأون دعوتهم من إنذار الأقربين ثمّ يوسّعون دائره الدعوه لتشمل عامّه الناس كما فعل رسول الإسلام فى بدء دعوته حيث بدأ بإنذار عشيرته الأقربين لمّا أمره اللّه تعالى بذلك، إذ قال:

«وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (١). وبذلك أسّس دعوته على إصلاح أقربائه وعشيرته.

ولقد سلك «الخليل» عليه السلام نفس هذا المسلك أيضاً، إذ بدأ عمله الإصلاحى بإصلاح أقربائه.

١- . الشعراء: ٢١۴.

ولقد كان لآزر بين قومه مكانه اجتماعيه عُليا فهو - مضافاً إلى معلوماته فى الصناعه وغيرها - كان منجّماً ماهراً، وذا كلمه مسموعه ورأى مقبول فى بلاط «نمرود» فى كلّ ما يخبر به من أخبار النجوم، وكلّ ما يستخرجه وما يستنبطه من الأُمور الفلكيه ويذكره من تكهّنات.

لقد أدرك «إبراهيم» أنّه بجلبه لآزار (عمّه) يستطيع أن يسيطر على أوساط الوثنيّين، ويجرّدهم من ركيزه هامّه من كبريات ركائزهم، ولهذا بادر إلى منع عمّه آزر - وبأفضل الأساليب - عن عباده الأوثان، بيد أنّ بعض الأسباب أوجبت أن لا يقبل «آزر» بنصائح «إبراهيم» عليه السلام، والمهم لنا فى هذا المجال هو أن نتعرّف على كيفيه دعوه الخليل وعلى أُسلوب حواره مع «آزر».

إنّ الإمعان فى الآيات الّتى تنقل حوار «إبراهيم» عليه السلام مع «آزر» توضح لنا أدب الأنبياء، وأُسلوبهم الرائع فى الدعوه والإرشاد، ولنقف عند حوار إبراهيم ودعوته، ليتّضح لنا ذلك.

يقول القرآن الكريم عن ذلك: «إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً * يا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا * يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا * يا أَبَتِ إِنِّى أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا» .

فأجابه «آزر» قائلًا: «أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِى مَلِيًّا» .

ولكن «إبراهيم» بسعه صدره وعظمه روحه تجاهل ردّ «آزر» العنيف ذلك وأجابه قائلًا: «سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى» .(1)

۱- . مريم: ۴۲-۴۷.

وأىّ جواب أفضلُ مِنْ هَذا البيان، وأىُّ لغه ألين مِنْ هذه اللغه وأحبّ إلى القلب، وأكثر رحمه ولطفاً؟!

هَل كان آزر والدَ إبراهيم؟

إنّ الظاهر من الآيات المذكوره وكذا الآيه (١١٥) من سوره «التوبه» والآيه (١۴) من سوره الممتحنه هو: أنّ «آزر» كان والد إبراهيم عليه السلام.

وقد كان إبراهيم يسمّيه أباً فى حين كان «آزر» وثنياً، فكيف يصحّ ذلك وقد اتّفقت كلمه علماء الشيعه عامّه على كون والد النبىّ الكريم «محمَّد» صلى الله عليه و آله و سلم وجميع الأَنبياء مؤمنين باللّه سبحانه موحّدين إيّاه تعالى.

ولقد قال الشيخ المفيد رضوان اللّه عليه فى كتابه القيّم «أوائل المقالات»:

واتّفقت الإماميه على أنّ آباء رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من لدن آدم إلى عبداللّه بن عبدالمطلب مؤمنون باللّه عزّ وجلّ موحّدون له. واحتجّوا فى ذلك بالقرآن والأخبار. وأجمعوا على أنّ عمّه أبا طالب رحمه الله مات مؤمناً، وأنّ آمنه بنت وهب كانت على التوحيد، وأنّها تحشر فى جمله المؤمنين.(١)

وفى هذه الصوره ما هو الموقف من ظواهر الآيات المذكوره الّتى تفيد أُبوّه «آزر» لإبراهيم، وما هو الحلّ الصحيح لهذه المشكله؟؟

يذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ لفظه «الأب» وإن كانت تُستعمل عاده فى لغه العرب فى «الوالد»، إلّاأنّ مورد استعمالها لا ينحصر فى ذلك.

بل ربّما استعملت - فى لغه العرب وكذا فى مصطلح القرآن الكريم - فى:

(العمّ) أيّضاً. كما وقع ذلك فى الآيه التاليه الّتى استعملت فيها لفظه الأب بمعنى العم إذ يقول سبحانه:

١- . أوائل المقالات: ۴۵، باب القول فى آباء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله وأُمّه وعمّه أبى طالب.

«إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِی قالُوا نَعْبُدُ إِلهَکَ وَ إِلهَ آبائِکَ إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (۱).

فإنّ ممّا لا ریب فیه أنّ «إسماعیل» کان عمّاً لیعقوب لا والداً له، فیعقوب هو ابن إسحاق، وإسحاق هو أخو إسماعیل. ومع ذلک سمّی أولادُ یعقوب «إسماعیل» الّذی کان (عمَّهم) أباً.

ومع وجود هذین الاستعمالین (استعمال الأب فی الوالد تاره، وفی العمّ تاره أُخری) یصبح احتمال کون المراد بالأب فی الآیات المرتبطه بهدایه «آزر» هو العمّ، أمراً وارداً، وبخاصّه إذا ضَمَمْنا إلی ذلک قرینه قویّه فی المقام وهی: إجماع العلماء الّذی نقله المفید رحمه الله علی طهاره آباء الأنبیاء وأجدادهم من رجس الشرک والوثنیه.

ولعلّ السبب فی تسمیه النبیّ «إبراهیم» عمَّه بالأب هو أنّه کان الکافل لإبراهیم ردحاً من الزمن، ومن هنا کان «إبراهیم» ینظر إلیه بنظر الأب، وینزله منزله الوالد.

القرآن ینفی أُبوّه «آزر» لإبراهیم علیه السلام

ولکی نعرف رأی القرآن الکریم فی مسأله العلاقه بین «آزر» و «إبراهیم» علیه السلام نلفت نظر القارئ الکریم إلی توضیح آیتین:

۱. لقد أشرقت منطقهُ الحجاز بنور الإیمان والإسلام بفضل جهود النبیّ «محمَّد» صلی الله علیه و آله و سلم وتضحیاته الکبری، وآمن أکثر الناس به عن رغبه ورضا، وعلموا بأنّ عاقبه الشرک، وعباده الأوثان والأصنام هو الجحیم والعذاب الألیم.

إلّا أنّهم رغم ابتهاجهم وسرورهم بما وُفقوا له من إیمان وهدایه، کانت

۱- . البقره: ۱۳۳.

ذكريات آبائهم وأمّهاتهم الذين مضوا على الشرك والوثنيه تزعج خواطرهم وتثير شفقتهم، وأسفهم.

وكان سماع الآيات التى تشرح أحوال المشركين فى يوم القيامه يحزنهم ويؤلمهم، وبغيه إزاله هذا الألم الروحى المجهد طلبوا من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يستغفر لآبائهم وأُمّهاتهم كما فعل «إبراهيم» فى شأن «آزر» فنزلت الآيه فى مقام الردّ على طلبهم ذاك، إذ قال سبحانه:

«ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ * وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّ عَنْ مَوْعِدَهٍ وَعَدَها إِيّاهُ فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيمٌ» .(۱)

إنَّ ثمه قرائن كثيره تدلّ على أنّ محادثه النبىّ «إبراهيم» وحواره مع «آزر» ووعده بطلب المغفره له من اللّه سبحانه قد انتهى إلى قطع العلاقات، والتبرّى منه فى عهد فتوّه «إبراهيم»، وشبابه، أى عندما كان «إبراهيم» لا يزال فى مسقط رأسه «بابل» ولم يتوجّه بعد إلى فلسطين ومصر وأرض الحجاز.

إنّنا نستنتج من هذه الآيه أنّ «إبراهيم» قطع علاقته مع «آزر» - فى أيام شبابه - بعدما أصرّ «آزر» على كفره، ووثنيته، ولم يعد يذكره إلى آخر حياته.

۲. لقد دعا «إبراهيم» عليه السلام فى أُخريات حياته - أى فى عهد شيخوخته - وبعد أن فرغ من تنفيذ مهمّته الكبرى (تعمير الكعبه) وإسكان ذريته فى أرض مكّه القاحله، دعا وبكلّ إخلاص وصدق لجماعه، منهم والداه، وطلب من اللّه إجابه دعائه، إذ قال فى حين الدعاء:

«رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ» .(۲)

۱- . التوبه: ۱۱۳ و ۱۱۴.

۲- . إبراهيم: ۴۱.

إنّ هـذه الآيه تفيـد بصـراحه أنّ الـدعاء المذكور كان بعد الفراغ من بناء الكعبه المعظّمه، وتشـييدها، يوم كان إبراهيم يمر بفتره الشـيخوخه، فـإذا كـان مقصـودُه مـن الوالـد فى الـدعاء المـذكور هـو «آزر» وإنّـه المراد له المغفره الإلـهيه كـان معنى ذلـك أنّ «إبراهيـم» كـان لـم يزل على صـله ب «آزر» حتّى أنّـه كـان يسـتغفر لـه فى حيـن أنّ الآـيه الـتى نزلت ردّاً على طلب المشـركين أوضـحت بأنّ «إبراهيم» كان قد قطع علاقاته ب «آزر» فى أيّام شـبابه، وتبرّأ منه، ولا ينسـجم الاستغفار مع قطع العلاقات. إن ضَمَّ هاتين الآيتين بعضـهما إلى بعض يكشف عن أنّ الّذى تبرّأ منه «إبراهيم» فى أيام شبابه، وقطع علاقاته معه، واتّخذه عدواً، هو غير الشخص الّذى بقى يذكره، ويستغفر له إلى أُخريات حياته.(۱)

إبراهيم محطِّم الأَصنام

لقد حلَّ موسم العيد، وخرج أهلُ بابل المغفّلين الجهله إلى الصـحراء للاستجمام، ولقضاء فتره العيد، وإجراء مراسيمه، وقد أخلوا المدينه.

ولقد كانت سوابق «إبراهيم»، وتحامله على الأصـنام، واستهزاؤه بها قد أوجدت قلقاً وشكّاً لدى أهل بابل، ولهذا طلبوا منه - وهم الـذين يسـاورهم القلق من موقفه تجاه أصـنامهم - الخروج معهم إلى الصـحراء، والمشاركه فى تلك المراسـيم، ولكن اقتراحهم هـذا بل إصـرارهم واجه رفض إبراهيم الّذى ردّ على طلبهم بحجّه المرض إذ قال: «إِنِّى سَـقِيمٌ» وهكـذا لم يشترك فى عيـدهم، وخروجهم وبقى فى المدينه.

حقّاً لقد كان ذلك اليوم يوم ابتهاج وفرح للموحّد والمُشرك، وأمّا للمشركين فقد كان عيداً قديماً عريقاً يخرجون للاحتفال به، وإقامه مراسيمه وتجديد ما

۱- . لاحظ: مجمع البيان: ۶/۸۶؛ والميزان فى تفسير القرآن: ۷/۱۷۰.

كان عليه الآباء والأسلاف إلى الصحراء حيث السفوح الخضراء والمزارع الجميله.

وكان عيداً لإبراهيم بطل التوحيد كذلك، عيداً لم يسبق له مثيل، عيداً طال انتظارُه، وأفرح حضوره وحلوله، فها هو إبراهيم يجد المدينه فارغه من الأغيار، والفرصه مناسبه للانقضاض على مظاهر الشرك والوثنيه، وحدث هذا فعلاً.

فعندما خرج آخر فريق من أهل بابل من المدينه، إغتنم «إبراهيم» تلك الفرصه ودخل وهو ممتلئ إيماناً ويقيناً باللّه فى معبدهم حيث الأصنام والأوثان المنحوته الخاويه، وأمامها الأطعمهُ الكثيره الّتى أحضرها الوثنيون هناك بقصد التبرّك بها، وقد لفتت هذه الأطعمه نظر «الخليل» عليه السلام، فأخذ بيده منها كسره خبز، وقدمها مستهزئاً إلى تلك الأصنام قائلاً: لماذا لا تأكلون من هذه الأطعمه؟

ومن المعلوم أنّ معبودات المشركين الجوفاء هذه لم تكن قادره على فعل أىّ شىءٍ أو حركهٍ مطلقاً، فكيف بالأكل؟!

لقد كانت تخيّم على جوّ ذلك المعبد الكبير سحابه من الصمت القاتل ولكنّها سرعان ما تبددت إثر أصوات المعول الّذى أخذ «إبراهيم» يهوى به على رؤوس وأيدى تلك التماثيل الجامده الواقفه بلا حراك.

لقد حطّم «الخليل» عليه السلام جميع الأصنام وتركها ركاماً من الأعواد المهشّمه، والأحجار والحديد المتحطّم، وإذا بتلك الأصنام المنصوبه فى أطراف ذلك الهيكل قد تحوّلت إلى تلّه فى وسط المعبد.

غير أنّ «إبراهيم» ترك الصنم الأكبر من دون أن يمسّه بسوء، ووضع المعول على عاتقه، وهو يريد بذلك أن يظهر للقوم بأنّ مُحطِمَ تلك الأَصنام هو ذلك الصنمُ الكبير، إلّاأنّ هدفه الحقيقى من وراء ذلك كان أمراً آخراً سنبينهُ فى ما بعد.

لقد كان «إبراهيم» عليه السلام يعلم بأنَّ المشركين بعد عودتهم من الصحراء، ومن مراسم عيدهم سيزورون المعبد، وسوف يبحثون عن علّه هذه الحادثه، وأنّهم بالتالى سوف يرون أنّ وراء هذه الحادثه واقعاً آخر، إذ ليس من المعقول أن يكون صاحب تلك الضربات القاضيه هو هذا الصنم الكبير الّذى لا يقدر أساساً على فعل شىء على الإطلاق.

وفى هذه الحاله سوف يستطيع «إبراهيم» عليه السلام أن يستفيد من هذه الفرصه فى عمله التبليغى ويستغل اعتراضهم بأنّ هذا الصنم الكبير لا يقدر على شىء أبداً، لتوجيه السؤال التالى إليهم: إذن كيف تعبدونه؟!!

فمنذ أن أخذت الشمس تدنو إلى المغيب ويقتربُ موعد غروبها، وتتقلّص أشعتها وتنكمش من الرَّوابى والسهول، أخذَ الناسُ يؤوبون إلى المدينه أفواجاً أفواجاً.

وعندما آن موعد العباده، وتوجّهوا إلى حيث أصنامهم، واجهوا منظراً فظيعاً وأمراً عجيباً لم يكونوا ليتوقَّعونه!!

لقد كان المشهد يحكى عن ذلّه الآلهه وحقارتها، وهو أمرٌ لفت نظر الجميع شيباً وشبّاناً، كباراً وصغاراً.

ولقد كانت تلك اللحظه لحظه ثقيله الوطأه على الجميع بلا استثناء.

فقد خَيَّم سكوتٌ قاتلٌ مصحوب بحنق ومضض على فضاء ذلك المعبد المنكود الحظ.

إلا أنّ أحدهم خرق ذلك الصمت الرهيب وقال: مَن الّذى ارتكب هذه الجريمه، ومَن فعل هذا بألهتنا؟!

ولقد كانت آراء «إبراهيم» ومواقفه السلبيه السابقه ضد الأصنام وتحامله

الصريح عليها تبعثهم على اليقين بأنّ «إبراهيم» وليس سواه هو الّذى صنع ما صنع بآلهتم وأصنامهم.

ولأجل ذلك تشكّلت فوراً محكمه يرأسها «نمرود» نفسه، فدعا نمرود أُمّ إبراهيم فقال لها: ما حملك على أن كتمتى أمر هذا الغلام حتّى فعل بآلهتنا ما فعل؟

ولقد أجابت أُمّ إبراهيم على هذا السؤال بقولها: أيّها الملك (فعلت هذا) نظراً منّى لرعيّتك، قال (نمرود): وكيف ذلك؟ قالت: رأيتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النسل، فقلت: إن كان هذا الّذى يطلبه دفعتُه إليه ليقتله ويكف عن قتل أولاد الناس، وإن لم يكن ذلك فبقى لنا ولدنا، وقد ظفرت به فشأنك، فكف عن أولاد الناس، فصوّب رأيها.

ثم جاء دور مساءله إبراهيم عليه السلام فسأله قائلاً: «أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ» (۱)، فقال إبراهيم: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» .(۲)

وقد كان «إبراهيم» عليه السلام يهدف من هذه الإجابه المصحوبه بالسخريه والازدراء هدفاً آخر، وهو أنّ «إبراهيم» عليه السلام كان على يقين بأنّهم سيقولون فى معرض الإجابه عن كلامه هذا: إنّك تعلم يا إبراهيم أنّ هذه الأصنام لا تقدر على النطق، وفى هذه الصوره يستطيع «إبراهيم» أن يُلفت نظر السلطات الّتى تحاكمه إلى نقطه أساسيه.

وقد حدث فعلاً ما كان يتوقّعه «إبراهيم» عليه السلام لما قالوا له وقد نكسوا على رؤوسهم: «لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ» فقال إبراهيم ردّاً على كلامهم هذا الّذى كان يعكس حقاره تلك الأصنام والأوثان وتفاهه شأنها: «أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ ما لا

۱- . الأنبياء: ۶۲.

۲- . الأنبياء: ۶۳.

يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» .(۱)

إلّا أنَّ تلك الزمره المعانده الّتی ران علی قلوبها الجهلُ والتقلیدُ الأعمی لم یجدوا جواباً لأبراهیم الّذی أفحمهم بمنطقه الرصین إلّاأن یحکموا بإعدامه حرقاً، فأوقدوا ناراً کبیره وألقوا بإبراهیم علیه السلام فیها إلّاأنّ العنایه الإلهیه شملت إبراهیم الخلیل علیه السلام، وحفظته من أذی تلك النار، وحوّلت ذلك الجحیم الّذی أوجده البشر، إلی جُنینه خضراء نضره، إذ قال: «یا نارُ کُونِی بَرْداً وَ سَلاماً عَلی إِبْراهِیمَ» .(۲)

العِبَر القیمه فی هذه القصه

مع أنّ الیهود یعتبرون أنفسَهم فی مقدّمه الموحّدین، لم ترد هذه القصه فی توراتهم الحاضره رغم کونها معروفه بینهم، بل تفرّد القرآنُ الکریم من بین الکتب السماویه بذکرها لأهمّیتها.

۱- . الأنبیاء: ۶۶-۶۷.

۲- . وقد ذکرت تفاصیل هذه القصّه فی الآیات ۵۱ إلی ۷۰ من سوره الأنبیاء وها نحن ندرج کل هذه الآیات هنا: وَ لَقَدْ آتَیْنا إِبْراهِیمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ کُنّا بِهِ عالِمِینَ * إِذْ قالَ لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِیلُ الَّتِی أَنْتُمْ لَها عاکِفُونَ * قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِینَ * قالَ لَقَدْ کُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمْ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ * قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللّاعِبِینَ * قالَ بَلْ رَبُّکُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِی فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلی ذلِکُمْ مِنَ الشّاهِدِینَ * وَ تَاللّهِ لَأَکِیدَنَّ أَصْنامَکُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِینَ * فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلّا کَبِیراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَیْهِ یَرْجِعُونَ * قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظّالِمِینَ * قالُوا سَمِعْنا فَتًی یَذْکُرُهُمْ یُقالُ لَهُ إِبْراهِیمُ * قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلی أَعْیُنِ النّاسِ لَعَلَّهُمْ یَشْهَدُونَ * قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا یا إِبْراهِیمُ * قالَ بَلْ فَعَلَهُ کَبِیرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ کانُوا یَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلی أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّکُمْ أَنْتُمُ الظّالِمُونَ * ثُمَّ نُکِسُوا عَلی رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ یَنْطِقُونَ * قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ ما لا یَنْفَعُکُمْ شَیْئاً وَ لا یَضُرُّکُمْ * أُفٍّ لَکُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ * قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ فاعِلِینَ * قُلْنا یا نارُ کُونِی بَرْداً وَ سَلاماً عَلی إِبْراهِیمَ * وَ أَرادُوا بِهِ کَیْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِینَ». وللوقوف علی تفاصیل وخصوصیات ولاده إبراهیم علیه السَّلام وتحطیمه للأصنام راجع: الکامل لابن الأثیر: ۱/۹۴-۱۰۰؛ وبحار الأنوار: ۱۲/۱۴-۵۵.

من هنا فإنّنا نذكرُ بعض النقاط المفيده، والدروس المهمّه فی هذه القصه الّتی يَهدِفُ القرآن من ذكرها وذكر أمثالها من قصص الأنبياء والرسل.

١. إنّ هذه القصّه خير شاهد على شجاعه «إبراهيم الخليل» عليه السلام وبطولته الفائقه.

فعزم إبراهيم على تحطيم الأصنام، ومحق وهدم كلّ مظاهر الشرك والوثنيه المقيته لم يكن أَمراً خافياً على النمرودیّين؛ لأنّه عليه السلام كان قد أظهر شجبه لها، وأعلن عن استنكاره لعبادتها وتقديسها من خلال كلماته القادحه فيها، واستهزائه بها، فقد كان عليه السلام يقول لهم بكلّ صراحه بأنّه سيتخذ من تلك الأصنام موقفاً مّا إذا لم يتركوا عبادتها وتقديسها، فقد قال لهم يوم أرادوا أن يخرجوا إلى الصحراء لمراسيم العيد:

«وَ تَاللّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» .(١)

ولقد كان موقف الخليل عليه السلام ينمَّ عن شجاعه كبرى فقد قال الإمام الصادق عليه السلام فی هذا الصدد:

«ومنها (أی وممّا تحلّی به النبیّ إبراهيم) الشجاعه وقد كشفت (قضيهُ) الأصنام عنه...، ومقاومه الرجل الواحد أُلوفاً من أعداء اللّه عزّوجلّ تمام الشجاعه».(٢)

٢ - إنّ ضربات «إبراهيم» القاضيه وإن كانت فی ظاهرها حربّاً مسلّحه، وعنيفه ضد الأصنام، إلّاأنّ حقيقه هذه النهضه - كما يُستفاد من ردود «إبراهيم» على أسئله الذين حاكموه، واستجوبوه - كانت ذات صبغه تبليغيه دعائيه.

فإنّ «إبراهيم» لم يجد وسيله لإيقاظ عقول قومه الغافيه، وتنبيه فطرتهم الغافله، إلّاتحطيم جميع الأصنام، وترك كبيرها وقد علق القدوم على عاتقه ليدفع

١- . الأنبياء: ٥٧.

٢- . بحار الأنوار: ١٢/٦٧.

بقومه إلى التفكير فى القضيه من أساسها، وحيث إنّ العمل لم يكن أكثر من مسرحيه، إذ لا يمكن أن يصدّق أحدهم بأنّ تلك الضربات القاضيه كانت من صنع ذلك الصنم الكبير وفعله، حينئذٍ يستطيع إبراهيم أن يستثمر فعله هذا فى دعوته، ويقول إنَّ هذا الصنم الكبير لا يقدر - وباعترافكم - على فعل أىّ شىء مهمّا كان صغيراً وحقيراً فكيف تعبدونه إذن؟!

ولقد استفاد «إبراهيم» من هذه العمليه فعلاً، وتوصّل إلى النتيجه الّتى كان يتوخّاها، فقد ثابوا إلى نفوسهم بعد أن سمعوا كلمات «إبراهيم» عليه السلام، واستيقظت ضمائرهم وعقولهم ووصفوا أنفسهم بالظلم بعد أن تبيّن لهم الحقّ وبطل ما كانوا يعبدون، إذ قال تعالى: «فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّالِمُونَ» (۱) وهذا بنفسه يفيد بأنّ سلاح الأنبياء القاطع فى بدء عملهم الرسالى كان هو: سلاح المنطق والاستدلال ليس إلّا، غايه الأمر أنّه كان يتعامل فى كلّ دوره بما يناسبها من الوسائل، وإلّا فما قيمه تحطيم عدد من الأَصنام الخشبيه بالقياس إلى مخاطره النبىّ «إبراهيم الخليل» بنفسه وحياته، وبالقياس إلى الأخطار الّتى كانت تتوجّه إليه نتيجه هذا العمل الصارخ.

إذن فلابدّ أن يكون وراء هذه العمليه الخطيره هدفٌ كبيرٌ وخدمه عظمى تستحق المخاطره بالنفس، ويستحق المرء امتداح العقل له إذا عرّض حياته للخطر فى سبيلها.

۳. لقد كان إبراهيم يعلم بأنّ هذا العمل سيؤدّى بحياته، وسيكون فيه حتفه، فكانت القاعده تقتضى أن يسيطر عليه قلقٌ واضطرابٌ شديدان، فيتوارى عن أعين الناس، أو يترك المزاح، والسخريه بالأَصنام على الأقل، ولكنّه كان على العكس من ذلك رابط الجأش، مطمئن النفس، ثابتَ القدم، فهو عندما دخَلَ فى المعبد الّذى

۱- . الأنبياء: ۶۴.

كانت فيه الأصنامُ تقدّم بقطعه من الخبز إلى الأصنام ودعاها ساخراً بها، إلى الأكل، وثم ترك الأصنام بعد اليأس منها تلاً من الخشب المهشّم، واعتبر هذا الأَمرَ مسأله عاديه لا تستأهل الوَجلَ والخوف، وكأنّه لم يفعل ما يستتبع الموت المحقَّق ويستوجب الإعدام المحتّم.

فهو عندما يأخذ مكانه أمام هيئه القضاه يقول معرّضاً بالأصنام: فعله كبير الأصنام فاسألوه، ولا شكّ أنّ هذا التعريض والسخريه بالأصنام إنّما هو موقف من لا- يوجس خيفه، ولا- يشعر بوجَـل من عمله، بل هو فعل من قد هيّأ نفسه لكلّ الأخطار المحتمله، واستعدّ لكل النتائج مهما كانت خطيره.

بل الأعجبُ من هذا كلّه دراسه وضع «إبراهيم» نفسه حينما كان فى المنجنيق وقد تيقّن أنّه سيكون وسط ألسنه اللهب بعد هنيئه، وتلتهمه النار المستعره تلك النار الّتى جمع أهل «بابل» لها الحطب الكثير تقرّباً إلى آلهتهم، وكانوا يعتبرون ذلك العمل واجباً مقدّساً... تلك النار الّتى كان لهيبها من القوّه بحيث ما كانت الطيور تستطيع من التحليق على مقربه منها.

فى هذه اللحظه الخطيره الحسّاسه جاءه جبرئيل وأعلن عن استعداده لإنقاذه وتخليصه من تلك المهلكه الرهيبه قائلاً له: هل لك إلىّ من حاجه؟

فقال «إبراهيم»: أمّا إليك فلا، وأمّا إلى ربِّ العالمين فنعم.(۱)

إنّ هذا الجواب يجسِّدُ إيمان «إبراهيم» العظيم، وروحه الكبرى.

لقد كان «نمرود» الّذى جلس يراقب تلك النار من عدّه فراسخ، ينتظر بفارغ الصبر لحظه الانتقام، وكان يحب أن يرى كيف تلتهم ألسنه النار «إبراهيم». فما أرهب تلك اللحظات!

لقد وضع إبراهيم عليه السلام فى المنجنيقُ، وبهزّه واحِده أُلقى فى وسط النار غير أَنّ

۱- . لاحظ: عيون أخبار الرضا: ۲/۶۰؛ وأمالى الصدوق: ۵۴۲؛ وبحارالأنوار: ۱۲/۳۵.

مشيئه اللّه، وإرادته النافذه تدخلت فوراً لتخلّص خليل اللّه ونبيّه العظيم، فحوّلت تلك النّار المحرقه الّتى أوقدتها يَدُ البشر إلى روضه خضراء أدهشت الجميع حتّى أَنَّ نمرود عندما أشرف على النار ورأى ذلك، التفت إلى «آزر» وقال - من دون إرادته -: «يا آزر ما أكرمَ إبراهيم على ربّه».(۱) إنّ انقلاب تلك النّار الهائله إلى روضه خضراء لإبراهيم قد تمّ بأمر اللّه المسبّب للأسباب والمعطّل لها متى شاء، المعطى لها آثارها، والسالب عنها ذلك، متى أراد.

أجل إنّ اللّه الّذى منح الحراره للنّار والإضاءه للقمر، والإشعاع للشمس لقادر على سلب هذه الآثار وانتزاعها من تلك الاشياء وتجريدها، ولهذا صحَّ وصفُه بمسبّب الاسباب، ومعطّلها.

غير أنّ جميع هذه الحوادث الخارقه والآيات الباهره لم تستطع أن توفر لإبراهيم الحريه الكامله فى الدعوه والتبليغ، فقد قرّرت السلطه الحاكمه وبعد مشاورات ومداولات إبعاد «إبراهيم» ونفيه، وقد فتح هذا الأَمرُ صفحه جديده فى حياه ذلك النبىّ العظيم، وتهيّأت بذلك أسبابُ رحلته إلى بلاد الشام وفلسطين ومصر وأرض الحجاز.

هجره الخليل عليه السلام

لقد حكمت محكمه «بابل» على «إبراهيم» بالنفى والإبعاد من وطنه، ولهذا اضطرّ عليه السلام أن يغادر مسقط رأسه، ويتوجّه صوبَ فلسطين ومصر، وهناك واجه استقبال العمالقه الذين كانوا يحكمون تلك البقاع وترحيبهم الحار به، ونَعِمَ بهداياهم الّتى كان من جملتها جاريه تدعى «هاجر».

۱- . لاحظ: تفسير البرهان: ۳/۸۲۶ برقم ۷۱۶۱.

وكانت زوجته «ساره» لم تُرزق بولد إلى ذلك الحين، فحرّكت هذه الحادثه عواطفها ومشاعرها تجاه زوجها الكريم إبراهيم، ولذلك حثّته على الزواج من تلك الجاريه علّه يُرْزَقُ منها بولد، تقرّ به عينه وتزدهر به حياته.

فكان ذلك، وولدت «هاجر» لإبراهيم ولداً ذكراً سُمّى بإسماعيل، ثم بعد مضى مده من الزمان حبلت ساره هى أيضاً وولدت - بفضل اللّه ولطفه - ولداً سُمّى بإسحاق.(۱)

وبعد مدّه من الزمان أمر اللّه تعالى «إبراهيم» بأن يذهب بإسماعيل وأُمّه «هاجر» إلى جنوب الشام «أى أرض مكّه» ويُسكِنهما هناك فى واد غير معروف إلى ذلك الحين... واد لم يسكنه أحدٌ بل كانت تنزل فيه القوافل التجاريه الذاهبه من الشام إلى اليمن، والعائده منها إلى الشام، بعض الوقت ثم ترحل سريعاً، وأمّا فى بقيه أوقات السنه فكانت كغيرها من أراضى الحجاز صحراء شديده الحراره، خاليه من السكان.

لقد كانت الإقامه فى مثل تلك الصحراء الموحشه عمليه لا تطاق بالنسبه لامرأه عاشت فى ديار العمالقه وألفت حياتهم وحضارتهم، وترفهم وبذخهم.

فالحراره اللاهبه والرياح الحارقه فى تلك الصحراء كانت تجسّد شبح الموت الرهيب أمام أبصار المقيمين.

وإبراهيم نفسه قد انتابته كذلك حالهٌ من التفكير والدهشه لهذا الأمر، ولهذا فإنّه فيما كان عازماً على ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» فى ذلك الواد قال لزوجته «هاجر» وعيناه تدمعان: «إنّ الّذى أمرنى أن أضعَكُمْ فى هذا المكان هو الّذى يكفيكم».

ثمّ قال فى ضراعه خاصه: «رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۲/۱۱۸ ح ۵۸.

مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» .(۱)

وعندما انحدر من ذلك الجانب من الجبل التفت إليهما وقال داعياً:

«رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاهَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَهً مِنَ النّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ» .(۲) إنَ هذه السفره والهجره وإن کانت فی ظاهرها أمراً صعباً، وعملیه لا تطاق، إلا أنّ نتائجها الکبری - الّتی ظهرت فیما بعد - أوضحت وبیّنت أهمّیه هذا العمل، لأنّ بِناء الکعبه، وتأسیس تلک القاعده العظمی لأهل التوحید، ورفع رایه التوحید فی تلک الربوع، وخلق نواه نهضه، دینیه عمیقه، انبثقت علی ید رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وشعّت من تلک الدیار إلی أنحاء العالم، کلُّ ذلک کان من ثمار تلک الهجره.

کیف ظهرت عین زمزم؟

لقد غادر «إبراهیم» علیه السلام أرض مکّه تارکاً زوجته وولده «إسماعیل» بعیون دامعه، وقلب یملأه الرضا بقضاء اللّه والأمل بلطفه وعنایته.

فلم تمض مدّه إلّاونفد ما ترک عندهما من طعام وشراب، وجفّ اللبن فی ثدیی «هاجر»، وتدهورت أحوال الرضیع «إسماعیل»، وکانت دموع الأُم الحزینه تنحدر علی حجرها، وهی تشاهد حال ولیدها الّذی قد أخذ العطش والجوع منه مأخذاً.

فانطلقت من مکانها فجأه تبحث عن الماء حتّی وصلت إلی جبل «الصفا»

۱- . البقره: ۱۲۶.

۲- . إبراهیم: ۳۷.

فرأت من بعيد منظر ماء عند جبل «مروه»، فأسرعت إليه مهروله، غير أنّ الّذى رأته وظنته ماء لم يكن الّا السراب الخادع، فزادها ذلك جزعاً وحزناً على وليدها ممّا جعلها تكرر الذهاب والإياب إلى الصفا والمروه أملاً فى أن تجد الماء ولكن بعد هذا السعى المتكرّر، والذهاب والإياب المتعدّد بين الصفا والمروه عادت إلى وليدها قانطةً يائسةً.

كانت أنفاس الرضيع الظامئ ودقّات قلبه الصغير قد تباطأت بل وأشرفت على النهايه، ولم يعد ذلك الرضيع الظامئ قادراً على البكاء ولا حتّى على الأنين.

ولكن فى مثل هذه اللحظه الحرجه الصعبه استجاب اللّه دعاء خليله وحبيبه «إبراهيم»، إذ لاحظت هاجر الماء الزلال وهو ينبع من تحت أقدام «إسماعيل».

فسرت تلك الأُم المضطربه - الّتى كانت تلاحظ وليدها وهو يقضى اللحظات الأخيره من حياته، وكانت على يقين بأنّه سرعان ما يموت عطشاً، وجهداً - سروراً عظيماً بمنظر الماء، وبرق فى عينيها بريق الحياه، بعد أن اظلمّت الدنيا فى عينيها قبل دقائق، فشربت من ذلك الماء العذب، وسقت منه رضيعها الظامئ، وتقشعت بلطف اللّه وعنايته وبما بعثه من نسيم الرحمه الربانيه كلّ غيوم اليأس، وسحُب القنوط الّتى تلبّدت وخيّمت على حياتها.

ولقد أدّى ظهور هذه العين الّتى تدعى بزمزم إلى أن تتجمّع الطيور فى تلك المنطقه و تحلق فوق تلك البقعه الّتى لم يُعهد أن حلَّقت عليها الطيور، وارتادتها الحمائم، وهذا هو ما دفع بجرهم وهى قبيله كانت تقطن فى منطقه بعيده عن هذه البقعه إلى أن تتنبه إلى ظهور ماء فيها لمّا رأت تساقط الطيور وتحليقها، فأرسلت واردين ليتقصيا لها الخبر ويعرفا حقيقه الأمر، وبعد بحث طويل وكثير، انتهيا إلى

حيث حلّت الرحمه الإلـهيه، وعنـدما اقتربـا إلى «هـاجر» وشاهـدا بـأَمٍّ عينيهما «امرأه» و «طفلاً» عنـد عين من الماء الزلال الّعذى لم يعهـداه من قبـل عـادا من فورهمـا من حيث أتيـا، وأخبرا كبار القبيله بما شاهـداه، فأخـذت الجماعه تلو الجماعه من تلك القبيله الكبيره تفـد إلى البقعه المباركه، وتخيّم عنـد تلك العين لتطرد عن «هاجر» وولـدها مراره الغربه، ووحشه الوحـده، وقد أدّى نمو ذلـك الوليـد المبـارك ورشـده فى رحـاب تلـك القبيله إلى أن يتزوّج إسـماعيل من تلك القبيله، ويصاهرهم، وبـذلك يحظى بحمايتهم له، وينعم بدفاعهم ورعايتهم ومحبتهم له. ولهذا ينتمى أبناء «إسماعيل» إلى هذه القبيله من جهه الأُم.

تجديد اللقاء

كـان إبراهيم عليه السـلام بعـد أن ترك زوجته «هـاجر» وولـده «إسـماعيل» فى أرض «مكّه» بـأمر اللّه، يـتردّد على ولـده بين فينه وأُخرى.

وفى إحدى سـفراته ولعلّها السـفره الأُولى دخل «مكّه» فلم يجد ولده «إسـماعيل» فى بيته، وكان ولده الّذى أصبح رجلاً قوياً، قد تزوّج بامرأه من جرهم.

فسأل «إبراهيم» زوجته قائلاً: أين زوجك؟ فقالت: خرج يتصيَّد، فقال لها:

هل عندك ضـيافه؟ قالت: ليس عندى شـىء وما عندى أحد، فقال لها إبراهيم: «إذا جاء زوجك فأَقرئيه السـلام وقولى له: فَلْيغيّر عتبه بابه».

وذهب إبراهيم عليه السلام منزعجاً من معامله زوجه ابنه «إسماعيل» له وقد قال لها ما قال.

ولمّا جاء إسماعيل عليه السلام وجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت:

جاءنى شـيخ صـفته كذا وكذا كالمسـتخفِّه بشأنه، قال: فماذا قال لك؟ قالت: قال لى أقْرئى زوجك السلام وقولى له: فليغيّر عتبه بابه!!

فطلّقها وتزوج أخرى، لأنّ مثل هذه المرأه لا تصلح أن تكون زوجه وشريكه حياه.(۱)

وقد يتساءل أحد: لماذا لم يمكث إبراهيم عليه السلام هناك قليلاً ليرى ولده إسماعيل بعد عودته من الصيد، وقد قطع تلك المسافه الطويله، وكيف سمح لنفسه بأن يعود بعد تلك الرحله الشاقّه من دون أن يحظى برؤيه ابنه العزيز؟!

يجيب أرباب التاريخ على ذلك بأنّ إبراهيم إنّما استعجل فى العوده من حيث أتى لوعد أعطاه لزوجته ساره بأن يعود إليها سريعاً، ففعل ذلك حتّى لا يخلف. وهذا من أخلاق الأنبياء.

ثمّ إن «إبراهيم» سافر مره أُخرى إلى أرض مكّه بأمر اللّه، وليبنى الكعبه الّتى تهدّمت فى طوفان «نوح»، ليوجّه قلوب المؤمنين الموحدين إلى تلك النقطه.

إنّ القرآن الكريم يشهد بأنّ أرض «مكّه» قد تحوّلت إلى مدينه بعد بناء الكعبه قبيل وفاه إبراهيم عليه السلام، لأنّ إبراهيم دعا بُعَيد فراغه من بناء الكعبه قائلاً:

«رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ» (۲) على حين دعا عند نزوله مع زوجته، وابنه إسماعيل فى تلك الأرض قائلاً:

«رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً» .(۳)

وهذا يكشف عن أنّ مكّه تحولت إلى مدينه عامره فى حياه الخليل عليه السلام، بعد أن كانت صحراء قاحله، وواد غير ذى زرع.

***

ولقد كان من المُستحْسَن اسْتكمالاً لهذا البحث أن نشرح هنا كيفيه بناء

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۲/۱۱۲ ح ۳۸ نقلاً عن قصص الأنبياء.

۲- . إبراهيم: ۳۵.

۳- . البقره: ۱۲۶.

الكعبه المعظمه، ونستعرض التاريخ الإجمالى لذلك، بيد أنّنا لكى لا نقصر عن الهدف المرسوم لهذا الكتاب أعرضنا عن ذلك وعمدنا إلى ذكر بعض التفاصيل عن أبرز وأشهر أجداد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى التاريخ.

۲. قُصَىُّ بنُ كلاب

إنّ أسلاف الرَّسول العظيم صلى الله عليه و آله و سلم هم على التوالى: عَبْدُ اللّه، عَبْدالْمُطَّلِبْ، هاشِم، عبدُ مَناف، قُصّىّ، كِلابٌ، مُرَّه، كَعْب، لُؤىّ، غالِب، فِهْر، مالِك، النَضر، كِنانه، خُزيمَه، مدُركه، إلياس، مُضَر، نَزار، مَعدّ، عَدنان.(۱)

من المسلّم أنّ نسب النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم إلى عدنان هو ما ذُكر، فلا خلاف فيه، إنّما وقع الخلاف فى عدد، وأسماء من هم بعد عدنان إلى إسماعيل عليه السلام، ولذلك لم يجز التجاوز عنه لحديث رواه ابن عباس عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إذ قال: «إذا بَلَغَ نَسَبى إلى عَدْنان فأَمْسِكُوا»(۲) هذا مضافاً إلى أَنّ النبىّ نفسه كان إذا عدّد أجداده فبلغ إلى عدنان أمسك، ونهى عن ذكر من بعده إلى إسماعيل، وقد روى عنه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال:

كَذِبَ النَسّابُونَ.

ولهذا فإنّنا نكتفى بذكر من اتفِق عليه، ونعمد إلى الحديث عن حياه كلِ واحد منهم.

ولقد كان كلُ من ذكرنا أسماءهم هنا معروفين، ومشهورين فى تاريخ العرب، بيد أنّ حياه طائفه منهم ترتبط بتاريخ الإسلام، ولهذا فإنّنا نقف عند حياه «قصىّ» ومَن لحقه إلى والد النبىّ «عبداللّه» ونعرض عن ذكر حياه غيرهم من

۱- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ۲/۵-۳۳.

۲- . بحار الأنوار: ۱۵/۱۰۵ ح ۴۹ عن مناقب ابن شهرآشوب: ۱/۱۳۴؛ وكشف الغمّه: ۱/۱۵.

أجداده وأسلافه صلى الله عليه و آله و سلم ممّن لا علاقه له بهذه الدراسه.(۱)

أمّا «قُصَیّ» وهو الجدّ الرابع لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فأُمّه «فاطمه» الّتی تزوّجت برجل من بنی کلاب ورزقت منه بولدین هما: «زهره» و «قصی» إلّاأنّ زوج فاطمه قد توفّی، وهذا الأخیر لم یزل فی المهد، فتزوّجت بزوج آخر یدعی ربیعه، وسافرت معه إلی الشام، وبقی «قصیّ» یحظی برعایه أبویه من ربیعه حتّی وقع خلاف بین قصیّ وقوم ربیعه، واشتدّ ذلک الخلاف حتّی انتهی إلی طرده من قبیلتهم، ممّا أحزن ذلک أُمّه، واضطرت إلی إرجاعه إلی «مکّه».

وهکذا أتت به ید القدر إلی «مکّه»، وسبّبت قابلیاته الکامنه الّتی برزت فی تلک المدینه فی تفوّقه علی أهل مکّه وبخاصّه قریش.

وسرعان ما احتلَّ قصیّ هذه المقامات العالیه، وشغل المناصب الرفیعه، مثل حکومه «مکّه» وزعامه قریش، وسدانه الکعبه المعظّمه، وصار رئیس تلک الدیار دون منازع.

ولقد ترک (قصیّ) من بعده آثاراً کثیره وعدیده منها تشجیع الناس علی بناء المساکن والبیوت حول الکعبه المعظمه، وتأسیس مکان للشوری لیجتمع فیه رؤساء القبائل العربیه من أجل التداول فی الأُمور وحلّ المشاکل یدعی بدار الندوه.

وقد توفّی «قصیّ» فی القرن الخامس المیلادی وخلف من بعده ولدین هما:

«عبد الدار» و «عبد مناف».

۱- . لقد بحث ابن الأثیر فی الکامل حول حیاتهم فراجع: ۲/۵-۲۳.

۳. عبدمناف

وهو الجدّ الثالث لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم واسمه «المغيره» ولقبه «قمر البطحاء»، وكان أصغر من أخيه «عبدالدار» إلّاأنّه كان يحظى بمكانه خاصّه عند الناس دون أخيه، وكان شعاره التقوى، ودعوه الناس إلى حسن السيره وصله الرحم، بيد أنّه مع ما كان له من المكانه القوّيه لم ينافس أخاه «عبدالدار» فى المناصب العاليه الّتى كان يشغلها. فقد كانت الزعامه لأخيه عبدالدار حسب وصيّه أبيهما «قصىّ».

ولكن بعد وفاه هذين الأَخوين وقع الخصام والتنازع بين أَبنائهما على المناصب، وانتهى ذلك الصراع الطويل إلى اقتسام المناصب والمقامات، وتقرر أن يتولى أبناء عبدالدار سدانه الكعبه وزعامه دار الندوه، ويتولى أبناء عبد مناف سقايه الحجيج وضيافتهم ووفادتهم.

وقد بقى هذا التقسيم المتّفق عليه سارى المفعول إلى زمن ظهور الإسلام.(۱)

۴. هاشم

اشاره

وهو الجدُّ الثانى لنبى الإسلام واسمه «عَمْرو» ولقبه «العُلاء» وهو الّذى وُلِدَ مع «عبد شمس» توأمين، وأخواه الآخران هما: «المطّلب» و «نوفل».

۱- . لم تكن هناك مناصب للكعبه يوم أُسّست ورُفعَ قواعدُها بل حدث كلّ ذلك تدريجاً بحكم المقتضيات والتطوّرات، وكانت هذه المناصب التى استمّرت إلى زمن ظهور الإسلام عباره عن: ۱. سدانه الكعبه. ۲. سقايه الحجيج. ۳. رفادتهم وضيافتهم. ۴. زعامه المكّيين وقياده جيشهم. ولم يكن هذا الأخير منصباً ذا صبغه دينيه.

هـذا وثمّه خلاف بين أرباب السيَر وكتّاب التاريخ فى أنّ هاشـماً وعبد شـمس كانا توأمين، وأنّ هاشـما ولد وإصـبعٌ واحده من أصابع قدمه ملصقه بجبهه «عبد شمس» وقد نزعت بسيلان دم، فتشاءم الناس لذلك.(۱)

يقول الحلبى فى سيرته: فكـانوا يقولون: سـيكون بينهمـا دم فكان بين ولـديهما، أى بين بنى العباس (وهم من أولاد هاشم) وبين بنى أُميّه (وهم من أولاد عبد شمس).(۲)

وكأنّ كاتب السيره قـد تجاهل الحوادث المحزنه والمؤسـفه الّتى وقعت بين بنى أُميّه وأبناء علىّ عليه السـلام، فى حين أنّ تلك الحوادث الـداميه الّتى تسـببها بنو أُميه وأُهرقَت فيهـا دمـاء ذريه رسول اللّه وعترته الطـاهره، أقوى شاهـد على تلـك العـداوه بين هاتين الطائفتين، ولكننا لا ندرى لماذا تجاهل ذكرها مؤلّف السيره الحلبيه ولم يشر إليها مطلقاً؟!

ثم إنّ من خصوصيات أبناء «عبد مناف» حسبما يُستفاد من الأدب الجاهلى، وما جاء فيه من أشعار، أنّهم توفوا فى مناطق مختلفه.

فهاشم - مثلاً - توفّى فى «غزه» وعبد شمس مات فى «مكّه»، ونوفل فى أرض العراق، والمطلب فى أرض اليمن.(۳)

وكان من سـجايا هاشم وأخلاقه الفاضـله أنّه كان كلّما هَلَّ هلال شـهر ذى الحجه قام صبيحته، وأسند ظهره إلى الكعبه المشرّفه، وخطب قائلاً:

«يـا معشـر قريش إنّكم سـاده العرب، وأحسـنها وجوهاً، وأعظمها أحلاماً (أى عقولاً) وأوسط العرب (أى أشـرَفها) أنساباً، وأقرب العرب بالعرب أرحاماً.

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲/۱۳؛ السيره الحلبيه: ۱/۷.

۲- . السيره الحلبيه: ۱/۷.

۳- . السيره الحلبيه: ۱/۸.

یـا معشـر قریش إنّکم جیرانُ بیت اللّه تعالی أکرمکَمُ اللّه تعالی بولایته، وخصّـکم بجواره، دون بنی إسـماعیل، وإنّه یأتیکم زوّار اللّه یعظّمون بیته فهم أضـیافه وأحق مَن أکرم أضـیاف اللّه أنتم، فأکرموا ضـیفه وزوّاره، فإنّهم یأتون شـعثاً غبراً من کلّ بلـد علی ضوامر کالقداح، فأکرموا ضیفه وزوّار بیته، فوربّ هذه البنیه لو کان لی مال یحتمل ذلک لکفیتکموه، وأنا مخرجٌ من طَیّب مالی وحلالـه مـا لم یُقطعْ فیه رحم، ولم یؤخـذْ بظلم، ولم یُـدخل فیه حرامٌ، فمن شـاء منکم أن یفعل مثل ذلک فعلَ، وأسألکم بحرمه هـذا البیت أن لا یخرج رجلٌ منکم من ماله لکرامه زوّار بیت اللّه وتقویتهم إلّاطیّباً لم یؤخذ ظلماً، ولم یقطع فیه رحمٌ، ولم یؤخذ غصباً».(۱) ولقد کانت زعامه «هاشم» وقیادته نافعه للمکیّین من جمیع النواحی، وکان لها تأثیرٌ کبیرٌ فی تحسین أوضاعهم.

ولقد سبّب کرمُه وما قام به من إطعام واسع فی سـنوات الجدب القاسیه فی تخفیف شدّه الوطأه عن أهل مکّه، وبالتالی أدی إلی عدم إحساسهم بالقحط، وآثار الجدب.

کما أنّ من خطواته البارزه وأعماله النافعه جـدّاً لتحسـین الحاله التجاریه للمکیّین هو ما عقده مع أمیر «غسان» من المعاهده، الأمر الّـذی دفع بأخیه «عبد شـمس» إلی أن یعاهد أمیر الحبشه، وبأخویه الآخرین «المطلب» و «نوفل» إلی أن یعاهدا أمیر الیمن وملک إیران بأن تکون القوافل التجاریه بموجب تلک المعاهدات للجانبین فی أمان من العدوان والتعرّض.

وقد أزالت هذه المعاهداتُ الکثیر من المشاکل، وکانت وراء ازدهار التجاره فی «مکّه المکرّمه» حتّی عهد بزوغ شمس الإسلام.

۱- . السیره الحلبیه: ۱/۹-۱۰.

ثم إنّ من أعمال «هاشم» وخطواته النافعه تأسيسُه لرحلتى قريش اللتين يتحدّث عنهما القرآن الكريم إذ يقول: «رحْله الشتاء والصّيف» وهما رحله إلى الشام، وكانت فى الصيف، ورحله إلى اليمن، وكانت فى الشتاء، وقد استمرّت هذه السيره حتّى ما بعد ظهور الإسلام أيضاً.

أُميّه بن عبدشمس يحسد هاشماً

ولقد حسد «أُميه بن عبد شمس» ابن أخى هاشم عمَّه «هاشماً» على ماحظى به من المكانه والعظمه، والنفوذ إلى قلوب الناس وجذبها نحوه بسبب خدماته وأياديه، وما كان يقوم به من بذل وإنفاق، وحاول جاهداً أن يقلّده ويتشبه بهاشم فى سلوكه ولكنّه رغم كلّ ما قام به من جهود ومحاولات لم يستطع أن يتشبّه به و يتّخذ سيرته، وكما لم يستطع بإيقاعه والطعن به، من أن يُقلّل من شأنه، بل زاده رفعه وعظمه.

لقد كان لهيب الحسد فى قلب «أُميه» يزداد اشتعالا يوماً بعد يوم، حتى دفع به إلى أن يدعو عمَّه «هاشماً» للذهاب إلى كاهن من كهنه العرب للمنافره عنده فتكون الرئاسه والزعامه لمن يمدحه ذلك الكاهن، وكانت عظمه «هاشم» وسموّ مقامه تمنع من منافره ابن أخيه (أُميّه) إلّاأنّه رضى بالمنافره هذه تحت إصرار (أُميّه) بشرطين:

١. أن يعطى المغلوبُ خمسين من النيّاق سود الحدق تنحر بمكه.

٢. جلاء المغلوب عن مكّه عشر سنين.

ومن حسن الحظِّ أنّ ذلك الكاهن نَطق بمدح «هاشم» بمجرد أن وقعت عيناه عليه فقال: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر... لقد سبق هاشمُ أُميّه إلى المآثر» إلى آخر كلامه. فقضى لهاشم بالغلبه وأخذ هاشم الإبل فنحرها

وأطعمها، وغاب أَميه عن مكّه والعيش بالشام عشر سنين.(۱)

وقـد اسـتمّرتْ آثارُ هذا الحسد التاريخى إلى ۱۳۰ عاماً بعـد ظهور الإسـلام، وتسـببت فى جرائم وفجائع كبرى عـديمه النظير فى التاريخ.

ثم إنّ القصّه السابقه مضافاً إلى أنّها تبيّن مبـدأ العداوه بين الأُمويّين والهاشـميّين، تبيّن أيضاً علل نفوذ الأُمويّين فى البيئه الشاميه، ويتبيّن أنّ علاقات الأُمويّين العريقه بأهل هذه المنطقه هى الّتى مَهّدت لقيام الحكومه الأُمويّه فى تلك الديار.

هاشم يَتَزوَّج

كانت «سلمى» بنت «عمرو الخزرجى» امرأه شريفه فى قومها، قد فارقت زوجها بطلاق، وكانت لا ترضى بالزواج من أحد، ولدى عـوده «هـاشم» مـن بعض أسـفاره نزل فى يـثرب أياماً فخطبهـا إلى والـدها، فرغبـت سـلمى فيه لشـرفه فى قريش، ولنبله وكرمه، ورضـيت بالزواج منه بشـرطين: أحـدهما أن لا تلد ولدها إلّا فى أهلها، وحسب هذا الإتّفاق بقيت «سـلمى» مع زوجها «هاشم» فى مكّه بعض الوقت حتّى إذا ظهر عليها آثار الحمل رجعت إلى: «يثرب» وهناك وضـعت ولداً أسموه «شيبه». وقد اشتهر فى ما بعد ب «عبدالمطلب».

وكتب المؤرّخون فى علّه تسـميته بهـذا الاسـم بـأنّ هاشـماً لمـا أحسّ بقرب انصـرام حيـاته قال لأخيه «المطلب»: يا أخى أدرك عبدك شيبه. ولذلك سُمّىَ شيبه بن هاشم: «عبدالمطلب».

وقيل: إنّ أحد المكّيين مرّ على غلمان يلعبون فى زقاق من أزقّه يثرب، وينتضـلون بالسـهام، ولمّا سبق أحدُهم الآخرين فى الرمى قال مفتخراً: «أنا ابنُ سيّد

۱- . الكامل لابن الأثير: ۲/۱۷؛ والسيره الحلبيه: ۱/۷.

البطحاء» فسأله الرجل عن نسبه وأبيه فقال: أنا شيبه بن هاشم بن عبدمناف، فلمّا قدم الرجلُ مكّه أخبر «المطلب» أخى «هاشم» بما سمعه ورآه، فاشتاق «المطلبُ» إلى ابن أخيه فذهب إلى المدينه، ولمّا وقعت عيناه على ابن أخيه «شيبه» عرف شبه أخيه هاشم، وتوسَّم فيه ملامحه، ففاضت عيناه بالدموع، وتبادلا قُبَلات الشوق، والمحبّه، وأراد أن يأخذه معه إلى «مكّه» وكانت أُمُه تمانع من ذلك، ولكن ممانعتها كانت تزيد من عزم العمّ على أخذه إلى «مكّه» وأخيراً تحققت أُمنيه العم فقد استطاع «المطلبُ» أن يحصل على إذن أُمه، فأردفه خلفه وتوجّه حدب «مكّه» تدفعه رغبه طافحه إلى إيصاله إلى والده هاشم.

وفعلت شمسُ الحجاز وأشعتها الحارقه فعلتها فى هذه الرحله فقد غيَّرت لون وجه شيبه وأبلت ثيابه، ولهذا ظنَّ أهل «مكّه» عند دخوله مع عمه «مكّه» أنّه غلام اقتناه «المطلبُ» فكان يقول بعضهم لبعض: هذا عبدالمطلب، وكان المطلب ينفى هذا الأمر، ويقول: إنّما هو ابن أخى هاشم وما هو بعبدى، ولكن ذلك الظن هو الآخر فعل فعلتَه، وعُرف «شيبه» بعبد المطلب.(۱)

وربما يقال: إنّ سبب شهرته بهذا الاسم هو أنّه تربّى وترعرع فى حجر عمّه «المطلب» وكانت العربُ تُسمّى مَن يترعرع فى حجر أحد وينشأ تحت رعايته عبداً لذلك الشخص تقديراً لجهوده وتثميناً لرعايته.

۵. عبدُ المطّلب

اشاره

عبدُالمطّلب بن هاشم وهو الجدّ الأوّل للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، كان رئيس قريش وزعيمها المعروف، وكانت له مواقف بارزه، وأعمال عظيمه فى حياته، وحيث إنّ ما وقع من الحوادث فى أيام حكمه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الإسلام ولهذا يتعين علينا دراسه بعض تلكم الحوادث والوقائع.

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲/۸ و ۹، السيره الحلبيه: ۱/۱۰-۱۱.

لا ـ شكّ أنّ المرء مهما تمتّع بنفسيه قويّه فإنّه سيتأثر - فى المآل - ببيئته وعاداتها، وتقاليدها، الّتى تصبغ فكره، بصبغه خاصّه، وتطبع عقليته بطابع معيّن.

بيد أنّ هناك بين الرجال من يقاوم تأثير العوامل البيئيه بمنتهى الشهامه والشجاعه، ويصون نفسه من التلوّث بشىء من أدرانها وأقذارها.

وبطلُ حديثنا هنا هو أحد النماذج الصادقه لأُولئك الرجال العظماء؛ لأنّ فى حياته صفحات مشرقه عظيمه، وسطوراً لامعه تنبئ عن نفسيته القوّيه، وشخصيته الشامخه.

فإنّ الّذى يعيش ثمانين عاماً فى وسط اجتماعى تسود فيه الوثنيه، ومعاقره الخمر، والربا، وقتل الأنفس البريئه، والفحشاء حتّى أنّ هذه الأُمور كانت من العادات والتقاليد الشائعه، ولكنّه مع ذلك لم يعاقر الخمر طوال حياته، وكان ينهى عن القتل والخمر والفحشاء، ويمنع عن الزواج بالمحارم، والطواف بالبيت المعظّم عرياناً، وكان ملتزماً بالوفاء بالعهد، وأداء النذر بلغ الأمر ما بلغ، لهو - حقّاً - نموذجٌ صادقٌ من الرجال الذين يندر وجودُهم، ويقل نظيرهم فى المجتمعات.

أجل إنّ شخصيه أودعت يد المشيئه الربانيه بين حناياها نورَ النبىِّ الأكرم أعظم قائد عالمى، يجب أن يكون إنساناً طاهر السُلوك، نقىَّ الجيب، منزّهاً عن أى نوع من أنواع الانحطاط، والفساد.

هذا ويستفاد من بَعض قصصه وكلماته القصار أنّه كان أحد الرجال المعدودين الذين كانوا يؤمنون باللّه واليوم الآخر فى تلك البيئه المظلمه، وكان يردِّدُ دائماً: «لَنْ يخرج من الدنيا ظلومٌ حتّى ينتقم منه، وتصيبُه عقوبه... واللّه إنّ وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسنُ بإحسانِه، ويعاقَبُ فيها المسىء بإساءته»(1) أى أنّ الظلوم شأنه فى الدنيا أن تصيبه عقوبه، فإذا خرج ولم تصبه العقوبه فهى معدّه له فى الآخره.

۱- . السيره الحلبيه: ۱/۷.

ولقد كان «حرب بن أَميه» من أقربائه، وكان من أعيان قريش ووجوهها أَيضاً، وكان يجاور يهودياً فاتّفق أن وقع بينه وبين حرب نزاع فى بعض أسواق تهامه، تبودلت بينهما فيه كلمات جارحه، وانتهى ذلك إلى مقتل اليهودى بتحريك من «حرب»، ولمّا علم «عبدُالمطّلب» بذلك قطع علاقته بحرب، وسعى فى استحصال ديه اليهودى المقتول من «حرب» ودفعها إلى أولياء القتيل، وهذه القصّه تكشف عن حبّ عبدالمطلب للمستضعفين والمظلومين وحبّه للحقّ والعدل.

حَفرُ زَمزَم

منذ أن ظهرت عين زمزم نزلت عندها قبيله جُرهم الّتى كانت بيدها رئاسه مكّه طوال سنين مديده، وكانت تستفيد من مياه تلك العين، ولكن مع ازدهار أمر التجاره فى «مكّه»، وإقبال الناس على الشهوات والمفاسد آل الأمر إلى جفاف تلك العين، ونضوب مائها بالمرّه.(۱)

ويقال: إن قبيله «جُرهُم» لمّا واجهت تهديداً من جانب قبيله خزاعه واضطرت إلى مغادره تلك الديار، وأيقن زعيمها «مضاض بن عمرو» بأنّه سرعان ما يفقد زعامته، ويزول حكمه وسلطانه بفعل هجوم العدو، أمر بأن يُلقى الغزالان الذهبيان، والسيوف الغاليه الثمن الّتى كانت قد أُهديت إلى الكعبه، فى قعر بئر زمزم، ثم يملأ البئر بالتراب ويعفى أثره إعفاء كاملاً حتّى لا يهتدى خصومه إلى مكانه أبداً، حتّى إذا عادت إليه زعامته وعاد إلى مكّه استخرج ذلك الكنز الدفين،

۱- . لا ريب أنّ تفشى الذنوب والمعاصى بين الناس من عوامل نزول البلايا والكوارث، ولا يبعد أن تكون الأعمال المخزيه من موجبات الجدب والقحط والمجاعات، وهذه الحقيقه مضافاً إلى انطباقها على القواعد الفلسفيه ممّا صرح به القرآن الكريم والسنّه الشريفه، قال سبحانه: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» سوره الأعراف، الآيه: ۹۶.

واستفاد منه. ثم نشب القتال بين «جرهم» و «خزاعه» واضطرت «جرهم» وكثير من أبناء إسماعيل إلى مغادره «مكّه المكرّمه»، والتوجّه إلى أرض اليمن، ولم يرجع أحدٌ منهم إلى «مكّه» أبداً. ووقعت زعامه مكّه منذ هذا التاريخ بيد «خزاعه» حتّى بزغ نجم قريش فى سماء مكّه بوصول قصىّ بن كلاب (الجدَ الرابع لنبى الإسلام) إلى سده الزعامه والرئاسه، ثم بعد مدّه انتهى أمر الزعامه إلى «عبدالمطلب» فعزم على أن يحفر بئر «زمزم» من جديد، ولكنّه لم يعرف بموقع البئر معرفه كامله حتّى إذا عثر عليه بعد بحث طويل قرّر أن يهيئ هو و ولده «حارث» مقدّمات ذلك.

وحيث إنّه يوجد فى المجتمع دائماً مَن يتحجّج ويجادل - بسبب سلبيته - ليمنع من أى عمل إيجابى مفيد، انبرى منافسو «عبدالمطلب» إلى الاعتراض على قراره هذا وبالتالى التفرّد بإعاده حفر بئر زمزم، لكى لا يذهب بفخر هذا العمل العظيم، وقالوا له: إنّها بئر أبينا إسماعيل، وإنّ لنا فيها حقّاً فأشركنا معك، ولكن «عبدالمطلب» رفض هذا الطلب لبعض الأسباب، فقد كان «عبدالمطلب» يريد أن يتفرّد بحفر زمزم، ويسبّل ماءها ليسقى منها جميع الحجيج دون مانع ولا منازع، ويحول بذلك دون المتاجره به، ولم يكن ليتسنّى له ذلك إلّاإذا قام بحفر زمزم بوحده دون مشاركه من قريش.

وقد آل هذا الأمر إلى النزاع الشديد فتقرّر أن يتحاكموا إلى كاهن من كهنه العرب وعقلائهم والقبول بما يقضى به، فتوجّه «عبدالمطلب» ومنافسوه إلى ذلك الكاهن وقطعوا الصحارى القاحله بين الحجاز والشام، وفى منتصف الطريق أصابهم جهدٌ وعطش شديدان، ولمّا تيقّنوا بالهلاك، وقرب الوفاه أخذوا يفكّرون فى كيفيه الدفن إذا هلكوا وماتوا، فاقترح «عبدالمطلب» أن يبادر كلُّ واحد إلى حفر حفرته حتّى إذا أدركهُ الموت دفنه الآخرون فيها، فإذا استمرّ بهم العطش

وهلكوا يكون الجميع (ماعدا من بقى منهم على قيد الحياه) قد أقبروا، ولم تغد أبدانهم طعمه للوحوش والطيور، فأيّد الجميع هذا الإقتراح، واحتفر كلّ واحد منهم حفيره لنفسه، وجلسوا ينتظرون الموت بوجوه واجمه، وعيون ذابله، وفجأه صاح عبدالمطلب: «واللّه إنّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت، لانضربُ فى الأرض ونبتغى لأنفسنا، لعجزٌ» وحثّهم على البحث عن الماء فى تلك الصحراء بصوره جماعيه عسى أن يجدوا ما ينقذهم من الموت، فركب عبدالمطلب وركب مرافقوه، وأخذوا يبحثون عن الماء يائسين غير مصدّقين، ولم يمض وقت حتّى ظهرت لهم عين ماء عذبه أنقذتهم من الموت المحتّم، وعادوا من حيث جاءُوا وهم يقولون لعبدالمطلب: «قد واللّه قضى لك علينا يا عبدالمطلب، واللّه لا نخاصمك فى زمزم أبداً، إنّ الّذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاه لهو الّذى سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً» وتنازلوا له لينفرد بحفر زمزم ويكون إليه أمره دون منازع، ولا شريك.(۱)

فعمد «عبدالمطلب» وولده الوحيد الحارث إلى حفر البئر، ونشأ من ذلك تلٌّ هائلٌ من التراب حول البئر، وفجأه عثر «عبدالمطلب» على الغزالين المصاغين من الذهب، والسيوف المرصعه المهداه إلى الكعبه، فشبَّ نزاع آخر بين «قريش» وبين «عبدالمطلب» على هذه الأشياء، واعتبرت «قريش» نفسها شريكه فى هذا الكنز، وتقرّر أن يلجأوا إلى القرعه لحل هذه المشكله، فخرجت القرعه باسم «عبدالمطلب»، وصار جميع ذلك الكنز إليه دون «قريش»، ولكن عبدالمطلب خصّ بتلك الأشياء الكعبه فصنع من السيوف باباً للكعبه، وعلّق الغزالين الذهبيّين فيها.

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱/۹۲-۹۶.

التفانی فی سبیل الوفاء بالعهد والنذر

رغم أنّ العرب الجاهليين كانوا غارقين فی الفساد الأخلاقی فإنّهم كانوا يتحلّون ببعض الصفات الحسنه، والخصال المحبَّبه.

وللمثال كان نقض العهود من أقبح الأفعال فی نظرهم، فإذا عقدوا عهوداً مع القبائل العربيه أوثقوها بالأيمان المغلّظه المؤكّده، والتزموا بها إلی النهايه، وربّما نذروا النذور الثقيله واجتهدوا فی أدائها مهمّا كلّف ذلك من مشقّه وثمن.

ولقد أحسَّ «عبدالمطلب» عند حفر بئر زمزم بالضعف فی قريش لقلّه أولاده، ولهذا نذر إذا رزقه اللّه تعالی عشره بنين أن يقدّم أحدهم قرباناً للكعبه، ولم يُطلِعْ أحداً علی نذره هذا.

ولم يمض زمان الّا وبلغ عَدَدُ أبنائه عشره، وبذلك حان أوان وفائه بنذره الّذی نذر، وهو أن يذبح أحدهم قرباناً للكعبه.

ولا شكّ أنّ تصور مسأله كهذه فضلاً عن تنفيذها كان أمراً فی غايه الصعوبه علی عبدالمطلب، ولكنّه كان فی نفس الوقت يخشی أن يعجز عن تحقيق هذا الأمر فيكون من الناقضين للعهد، التاركين لأداء النذر، ومن هنا قرّر أن يشاور أبناءه فی هذا الأمر، وبعد أن يكسب رضاهم وموافقتهم يختار أحدهم للذبح بالقرعه.(۱)

وتمّت عمليه القرعه، فأصابت «عبدَاللّه» والد رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم، فأخذ عبدالمطلب بيد ابنه، وتوجَّه من فوره إلی حيث يذبحه فيه.

ولمّا علمت قريش رجالُها ونساؤها بقصّه النذر المذكور وما آلت إليه عمليه

۱- . هذه القضيه ذكرها كثير من المؤرّخين وكتّاب السيره، وهذه القصّه إنّما هی جديره بالاهتمام من جهه أنّها تجسّد مدی إيمان «عبدالمطلب» وقوّه عزمه، وصلابه إرادته، وتبيّن جيّداً كم كان مصرّاً علی الوفاء بعهوده والتزاماته.

القرعه حَزِنَ الناس والشباب خاصّه لذلك حزنا شديداً وبكوا وضجّوا، وقال أحدُهم: ليتنى ذبحت مكان هذا الشاب.

فاقترحت قريشٌ على عبدالمطلب بأن يفدّى «عبداللّه»، وأظهروا استعدادهم لدفع الفديه إذا جاز ذلك، فتحيّر «عبدالمطلب» تجاه تلك المشاعر الساخنه، والاعتراضات القويه، وراح يفكّر فى عدم الوفاء بنذره، ويفكّر فى نفس الوقت فى الحصول على مخلص معقول من هذه المشكله، فقال له أحدهم: لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنه العرب عسى أن يجد لك حلّاً.

فوافق «عبدالمطلب» وأكابر قريش على هذا الاقتراح، وتوجّهوا بأجمعهم نحو «يثرب» قاصدين ذلك الكاهن، ولمّا قدموا عليه سألوه فى ذلك فاستمهلهم يوماً واحداً، ولما كان اليومُ الثانى دخلوا عليه فقال لهم: كم ديه المرء عندكم؟ قالوا:

عشرٌ من الإبل.

فقال: إرجعوا إلى بلادكم، وقَرّبوا عشراً من الإبل واضربوا عليها وعلى صاحبكم «أى عبداللّه» القداح، فإن خرجت القرعه على صاحبكم فزيدوا عشراً، حتّى يرضى ربُّكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربُكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداء.

فهدَّأ اقتراحُ الكاهن لهيبَ المشاعر الملتهبه لدى الناس، لأنّ نحر مئات الإبل كان أسهل عليهم من أن يشاهدوا شاباً مثل «عبداللّه» يتشحّط فى دمه.

ولهذا فإنّهم فور عودتهم إلى «مكّه» بادروا إلى إجراء القرعه فى مجمع كبير من الناس وزادوا عشراً عشراً حتّى إذا بلغ عدد الإبل مئه خرجت القداح على الإبل، ونجا «عبداللّه» من الذبح، فأحدث ذلك فرحه كبيره لدى الناس، بيدَ أَنّ «عبدالمطلب» طلب أن تُعاد عمليه القرعه قائلاً: «لا واللّه حتّى أضربَ ثلاثاً»، وأنّما أراد ذلك ليستيقن أنّ ربّه قد رضى عنه، ولكن فى كلّ مرّه كانت القداح تخرج على

الإبل المئه فنحرت الإبلُ ثم تركت لا يمنع عنها انسانٌ ولا سبع.(۱)

حادثه عام الفيل

عندما يحدُثُ أمرٌ عظيم فی أُمّه من الأُمم وخاصّه إذا كان ذا جذور دينيه أو ذا مدلولات قوميه أو سياسيه فإنّه سرعان ما يتحوّل - بفعل إعجاب الناس عامّه به - إلى مبدأ للتاريخ.

فقيام النبیّ موسی يعتَبر مبدأ للتاريخ عند اليهود، ومولد السيّد المسيح يعتبر مبدأ للتاريخ عند النصارى، والهجره النبويه الشريفه تعتبر مبدأ للتاريخ عند المسلمين.

وهذا يعنى أنّ كل أُمّه من الأُمم تقيس حوادثها من حيث الزمان بذلك الحدث الّذى تعتبره بدايه تاريخها.

وأحياناً تتخذُ الأُمم والشعوب بعض الحوادث مبدأ للتاريخ مع أنّها تملك مبدأ سياسياً للتاريخ، كما نلاحظ ذلك فی بلاد الغرب وشعوبه، فقد اتّخذت الثورهُ الفرنسيه، وثوره اكتوبر الشيوعيه مبدأ للتاريخ فی فرنسا، والاتحاد السوفياتی، بحيث أصبح يقاس بهما كلّ ما وقع من الحوادث بعدهما. ولكن الشعوب غير المتحضّره الّتی لم تمتلك مثل تلك الثورات والحركات السياسيه والدينيه كان من الطبيعی أن تتّخذ الحوادث الخارقه للعاده مبدأ لتاريخها بدلاً من الثورات والتحوّلات الاجتماعيه، وهذا ما حدث عند العرب قبل الإسلام.

۱- . لاحظ: الكامل فی التاريخ: ۲/۵-۷؛ بحار الأنوار: ۱۶/۷۴، وقد نُقلّ عن النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «أنا ابْن الذبيحين» يقصدُ بالأَول جدّه إسماعيل عليه السلام والثانی أباه «عبداللّه» الّذى كاد أن ينحر ولكنّه نجا من الذبح كما نجا جدُّه إسماعيل عليه السلام.

فإنّهم - بسبب حرمانهم من حضاره صحيحه - اتّخذوا من بعض الوقائع المفجعه والمرّه، كالحرب والزلزال، والمجاعه والقحط أو الحوادث غير الطبيعيه، الخارقه العاده مبدأ لتاريخهم.

ولهذا نجد بدايات متعدّده للتاريخ عند العرب، آخرها: حادثه عام الفيل وهجوم «أبرهه» على «مكّه» بهدف هدم الكعبه المشرفه، الّتى صارت فيما بعد مبدأ للتاريخ، تؤرّخ بالنسبه إليه بقيه الحوادث والوقائع اللاحقه.

ونظراً لأهميّه هذا الحدث التاريخى العظيم الّذى وقع عام ۵۷۰ م، واتّفقت فيه ولاده النبىّ الكريم صلى الله عليه و آله و سلم فإنّنا نتناول هذه القصّه بالعرض والتحليل:

ماهى أسباب هذه الحادثه؟

لقد ذكرت قصّه أصحاب الفيل فى القرآن بصوره مختصّره، وسوف ننقل - هنا - الآيات الّتى نزلت حول هذه القصّه بعد حوادثها.

يكتب المؤرّخون عن علّه هذه الحادثه أنّ ملك اليمن «تُبان أسعد» والد ذى نواس بعد أن أرسى قواعد حكمه مرّ فى إحدى رحلاته على يثرب (المدينه)، وقد كانت ل «يثرب» فى ذلك الوقت مكانهٌ دينيهٌ مرموقهٌ، فقد قطنها جماعه من اليهود، وبنوا فيها عدداً من المعابد والهياكل، فأكرم اليهودُ مقدم ملك اليمن، ودعوه إلى دينهم ليستطيعوا فى ظل حكمه حمايه أنفسهم من أذى المسيحيّين الروميّين، والمشركين العرب.

ولقد تركت دعوتهم وما رافقها من أساليب مؤثّره أثرها فى نفس ذلك الأمير واختار اليهوديه، واجتهد فى بثّها ونشرها.(۱)

۱- . راجع السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۲.

ثم ملك من بعده ابنه «ذو نواس» الّذى جدّ فى بثّ اليهوديه والتحق به جماعه خوفاً.

بيـد أنّ أهل نجران الّذين كانوا قد دانوا بالمسيحيه قبل ذلك امتنعوا من تغيير دينهم وترك المسيحيه واعتناق اليهوديه، وقاوموا «ذى نواس» مقـاومه شديـده، فشقّ ذلـك على ملك اليمن، وأغضـبه فتوجّه أحـد قادته إلى نجران على رأس جيش كبير لتأديب المتمردين من أهلها، فعسكر هذا الجيش على مشارف نجران، واحتفر قائده خندقاً كبيراً، وأوقد فيه ناراً عظيمه، وهدّد المتمردين بالإحراق بالنار.

ولكن أهـل نجران الـذين أحبّوا المسيحيه واعتنقوهـا برغبه كـبيره أظهروا شـجاعه كبرى، واسـتقبلوا الموت حرقـاً، وغـدوا طعمه للنيران.

يقول المؤرّخ الإسـلاميُّ «ابنُ الأثير الجزرى» بعـد ذكر هـذه القصّه: لمّا قتل «ذونواس» من قتل من أهل اليمن فى الأُخـدود لأجل العود عن النصـرانيه أفلَت منهم رجـلٌ يقـال له: دوس ذو ثعلبان حتّى أعجز القوم فقـدم على «قيصـر» فاستنصـره على «ذى نواس» وجنوده وأخبره بما فَعل بهم، فقال له قيصـر: بعـدت بلادك عنّا، ولكن سأكتبُ إلى النجاشـى ملك الحبشه وهو على هذا الدين وقريب منكم، فكتب قيصـر إلى ملـك الحبشه يـأمره بنصـره، فأرسـل معه ملـكُ الحبشه سـبعين ألفـاً، وأمّر عليهم رجلاً ـ يقـال له «أريـاط» وفى جنوده «أبرهه الأشـرم» فسـاروا فى البحر حتّى نزلوا بساحـل اليمن، وجمع «ذو نواس» جنوده فـاجتمعوا وكتب إلى زعمـاء قـومه من أهـل اليمن يـدعوهم إلى الاجتمـاع لمقـاتله عـدوّهم، فلم يجيبوه، فانهـارت حكومته أمـام حمله جيش الحبشه، وسيطر الأحباش على أرض اليمن، وجُعِلَ «أبرهه» أميراً عليها من قِبَل «النجاشى» بعد مقتل «أرياط»

على يد «أبرهه» فی صراع علی السلطه.(۱)

وهـذه القصّه هی الّتی تعرف فی القرآن الکریم بقصه «أصـحاب الأُخـدود» وقد جاء ذکرها فی سوره البروج إذ یقول اللّه تعالی: «قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ * اَلنّارِ ذاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَیْها قُعُودٌ * وَ هُمْ عَلی ما یَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِینَ شُهُودٌ * وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّ أَنْ یُؤْمِنُوا بِاللّهِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ * اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّهُ عَلی کُلِّ شَیْ ءٍ شَهِیدٌ» .(۲)

وقد ذکر المفسّرون هذه القصّه فی شأن نزول هذه الآیات بصوره مختلفه.(۳)

ثم إنّ «أبرهه» الّذی أسـکره الانتصـار والغلبه علی منـافسه، وتمـادی فی الشـهوات بنی فی صـنعاء کنیسه عظیمه تقرّبـاً إلی ملک الحبشه، وإرضـاء له ثمّ کتب کتابـاً إلی «النجاشـی» ملـک الحبشه یقول فیه: «إنّی قـد بَنیتُ لـک أیّهـا الملک کنیسه لم یُبن مثلها لملک کان قبلک، ولست بمُنْته حتّی أصرف إلیها حج العرب».

وقد أدّی معرفه العرب بما جاء فی هذا الکتاب إلی ردّه فعل شدیده لدیهم، إلی درجه أنّ امرأه مِن قبیله «بنی أفقم» تسـلّلت ذات لیله إلی تلک الکنیسه وأحـدثت فیها، فأثار هـذا العمل الّذی کان یـدلّ علی مدی ازدراء العرب بکنیسه «أبرهه» واحتقارهم لها، غضـب «أبرهـه»، هـذا من جـانب ومن جـانب آخر کـان «أبرهه» کلمّـا زاد فی تزیین تلـک الکنیسه زاد ذلـک من حقـد العرب، وحنقهم علیه، واحتقارهم لکنیسـته، فتسبّب کلّ ذلک فی أن یحلف أبرهه علی السیر إلی الکعبه وهـدمها، فسیَّر لـذلک جیشـاً عظیماً، وقدّم أمامهُ الفِیَله المقاتله، وخرج متوجهاً صوب مکّه وهو

۱- . لاحظ: الکامل فی التاریخ: ۱/۴۳۱-۴۳۳؛ والسیره النبویه: ۱/۲۴-۲۷.

۲- . البروج: ۴-۹.

۳- . راجع مجمع البیان: ۱۰/۳۱۲.

يعتزم هدم الكعبه بيت اللّه الحرام!!

فلمّا عرف زعماء العرب بغايته، وأدركوا خطوره ذلك العمل وأيقنوا بأنّ استقلال العرب وسيادتهم تتعرض لخطر السقوط، لم يمنعهم ما عهدوه من قوّه «أبرهه» وانتصاراته، بل خرج بعضهم إلى حربه فقاتلوه بكلّ شجاعه وبساله مدفوعين بدافع الغيره والحفاظ على الشرف المهدَّد بالخَطر.

فقد خرج «ذو نفر» وهو من أشراف أهل اليمن وملوكهم، ودعا قومَه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب «أبرهه» ولكن سرعان ما تغلّب «أبرهه» عليه بجيشه الكبير، ثم خرج له بعد ذلك «نفيل بن حبيب» وبقى يقاتله مدّه طويله فهزمه «أبرهه» وأُخِذَ له أسيراً، فطلب «نفيل» العفو منه، فاشترط عليه أن يدلّه على طريق مكّه ليعفو عنه، فدلّه نفيل حتّى الطائف، وأوكل الدلاله على بقيه الطريق إلى شخص آخر يُدعى «أبو رغال» فدلّه أبورغال على الطريق حتّى أرض «المغمَّس» وهى منطقه قريبه من «مكّه» فنزل «أبرهه» وجيشه بالمغمَّس، فأرسل أبرهه رجلاً من الحبشه - على عادته - إلى ضواحى «مكّه» فاستولى على أموال قريش من الإبل والغنم فساق إليه فى جمله ذلك مائتى بعير لعبد المطلب، ثم أمر رجلاً آخر يدعى «حُناطه» ليدخل «مكّه» ويبلغ أهلها عنه ما جاء من أجله، وهو هدم البيت المحرّم الكعبه المعظمه، وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: إنّ الملك يقول لك: «إنّى لم آت لحربكم، إنّما جئتُ لهدم هذا البيت، فإن تعرّضوا دونه بحرب فلا حاجه لى فى دمائكم»، فإن هو لم يرد حربى فأتنى به.

فدخل «حُناطه» مكّه ولمّا سأل عن سيد قريش و شريفها، وقد كانت قبائل قريش المختلفه قد تجمعت فى أطراف البلد جماعات جماعات تتذاكر فى أمر «أبرهه» وما يجب اتّخاذه من موقف تجاهه.

فـدلّوه على بيت «عبدالمطلب»، ولمّا دخل على «عبدالمطلب» أبلغه مقاله «أبرهه» فقال له عبدالمطلب: «واللّه ما نُريدُ حربَه، وما لَنا بذلك من طاقه، هذا بيت اللّه الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السـلام، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلّى بينه وبينه فواللّه ما عندنا دفع عنه»؟

فسرّ «حنـاطه» رسـول أبرهه بمنطق عبـدالمطلب ومقـالته الّتى كـانت تحكى عن قوّه إيمـانه، وعن روحه المسـالمه فطلب منه أن يصحبه إلى «أبرهه»، قائلاً:

فانطلق معى إليه فإنّه قد أمرنى أن آتيه بك.

عَبدُالمطّلب يَذهب إلى مُعسكر أَبرهه

فتوجّه عبـدالمطلب هو وجمـاعه من ولـده إلى معسـكر أبرهه، فأُعجب «أبرهه» بوقار رئيس قريش وهيبته إعجاباً شديـداً، وبهر به حتّى أنّه نزل له من تخته إجلالاً وأخـذ بيـده، وأجلسه إلى جنبه، فسـأله عن طريق مترجمه متأدّبـاً: ما الّـذى أتى به وماذا يريـد؟ فأجابه عبدالمطلب قائلاً: حاجتى أن يردَّ الملكُ علىَّ مئتى بعير أصابها لى.

فقال «أبرهه» لترجمانه: قل له: قـد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتنى، أتكلّمنى فى مئتى بعير أصـبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك و دين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمنى فيه؟!

فقال له عبدالمطلبُ: إنّى أنا ربُّ الإبل، وأنّ للبيت رباً سيمنعه، فقال «أبرهه» مغتراً بنفسه: ما كان ليمتنع منّى.

ثم أمر بأن ترد الإبل إلى أصحابها.

***

إنتظار قريش

ولقد انتظرت قريش عوده «عبدالمطلب» من معسكر «أبرهه» بفارغ الصبر لتعرفَ نتيجه ما دار بينه وبين أبرهه، وعندما عاد «عبدالمطلب» أخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج معه من مكّه، والتحرز فی رؤوس الجبال من معرّه الجيش فخرجوا إلی الشعاب، والجبال، ثم لمّا كان الليل نزل عبدالمطلب مع جماعه من قريش إلی الكعبه وأخذ بحلقه بابها يدعون اللّه ويستنصرونه علی أبرهه و جنده وقال «عبدالمطلب» مناجياً اللّه سبحانه: «اللَّهُم أنتَ أنيسُ المستَوْحشين ولا وحشه معك فالبيت بيتُك، والحرمُ حرمك، والدارُ دارُك، ونحن جيرانك تمنعُ عنه ما تشاء، وربُ الدار أولی بالدار» ثم قال:

لاهمّ إن(۱) العبد يمنع رَح له فامنع حِلالك(۲)

لا يغلِبنَّ صليبُهم ومحالهم عَدواً مِحالَك(۳)

وقال أيضاً:

يا ربِّ لا أرجُو لهم سواكا يا ربِّ فامنَع مِنهُمو حِماكا

إن عدوَّ البَيتِ مَن عاداكا إمَنعهُمُ أن يخربُوا قراكا

ثم إنّه ترك حلقه الباب، ولجأ ومن معه من قريش إلی الجبل لينظروا ما سيجری.

وفی الصباح وعندما كان «أبرهه» وجنده يستعدّون للتوجّه إلی «مكّه»، وإذا بأسراب من الطيور تظهر من جهه البحر يحمل كلّ واحد منها ثلاثه أحجار، حجر فی منقاره، وحجرين فی رجليه، فأظلم سماء الجيش بتحليق تلك الطيور فوق

۱- . لاهم أصلها: اللّهم والعرب تحذف الالف واللام وتكتفی بما بقی.

۲- . الحلال جمع حله وهی جماعه البيوت.

۳- . المحال: القوّه والشدّه.

رؤوس الجنـد، وتركت تلك الأحجار الصـغيره الحقيره فى ظاهرها أثرها العجيب، فقـد رجمت تلك الطيور جنود «أبرهه» بتلك الأحجار بأمر اللّه، فكانت لا تصـيب منهم أحداً إلّاتحطّم رأسَه، وتمزق لحم بدنه، وهوى صريعاً، وهلك من توّه، فأصابت واحدةٌ من تلك الأحجار رأس «أبرهه» نفسه فارتعدت فرائصه وأيقن بغضب اللّه وسـخطه عليه، فنظر إلى جنوده وهم أشلاء مبثوثون هنا وهناك على الأَرض كورَق الشجر فى فصل الخريف، فصاح بِمَن لم يزل على قيد الحياه من جنده يأمرهم بأن يتهيّأوا للعوده إلى اليمن، من حيث أتوا، فأخـذ بقيه الجنـد طريق اليمن هـاربين، غير أنّ هـذه البقيه قـد هَلَكَتْ شـيئاً فشـيئاً فى أثنـاء الطريق حتّى أنّ أبرهه نفسه لم يصل إلى صنعاء إلّابعد أن تفرّق لحمُ بدنه، وسقطت أعضاؤه وجوارحُهُ ومات بصوره عجيبه.

وقـد دَوَّى صوتُ هذه الواقعه العجيبه والرهيبه فى العالم آنذاك، وقد ذكرها القرآن الكريمُ فى سوره الفيل إذ يقول تعالى: «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ * أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجارَهٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ» .

ومـا ذكرنـاهُ هنـا - فى هـذه الصـفحات - ليس هو فى الحقيقه إلّاخلاصه ما وَردَ فى كتب التاريـخ الإسـلامى، وصـرح به القرآنُ الكريم.(۱)

واسـتكمالاً لهـذا البحث نعمـد هنـا إلى دراسه نظريه المفسّـر المصـرى الكبير الشـيخ «محمَّد عبـده» والكاتب المعروف الـدكتور «هيكل» وزير الثقافه المصرى السابق فى هذا المجال.

۱- . لاحظ: السيره النبويه: ۱/۲۸-۳۷؛ تاريخ الطبرى: ۱/۵۵۱-۵۵۶؛ والكامل فى التاريـخ: ۱/۴۴۲-۴۴۷؛ وبحار الأنوار: ۵/۱۳۰-۱۴۶.

كلمه حول المعجزه

لقد أوجدَ التقدّم العلميُّ الأخير فى مختلف مجالات العلوم الطبيعيه والفضائيه، وما استلزم ذلك من تهافت طائفه كثيره من الفرضيات، ضجّه عجيبه فى الغرب، فمع أنّ جميع تلك التطورات كانت مجرّدَ تطورات علميه تجرى فى مجال المسائل الطبيعيه أو الفلكيه، ولم يكن لها أيّه صله بالمعتقدات الدينيه، فإنّ هذا التحول والتطوّر وتلك الكشوف أوجدت شكّاً عجيباً لدى بعض الناس انسحب على جميع المعارف والمعتقدات الدينيه الموروثه على وجه الإطلاق! والسرّ فى ذلك هو أنّ العلماء رأوا بأنّ الفرضيات القديمه، الّتى بقيت تسيطر على الأوساط العلميه لمدّه طويله من الزمان، قد أصبحت اليوم عرضةً للبطلان والسقوط تحت مطارق التجربه وبواسطه الاختبارات العلميّه، والتحقيقات المختبريه، فلم يَعُد - بعد هذا - مجالٌ للقول بفرضيه الأفلاك التسعه الّتى طَلع بها «بطلميوس»، ولا بفرضيه مركزيه الأرض، ولا غيرها من عشرات الفرضيات، فقالوا فى أنفسهم: ولماذا لا تكون بقيه المعلومات والمعارف الدينيه من هذا القبيل؟!

وقد تفاقم هذا النوع من الشكّ فى قلوب جماعه من العلماء بالنسبه إلى جميع المعتقدات والمعارف الدينيه ونما بشكل قوىّ فى فتره قصيره، وعمَّ الأوساط العلميه كأىّ مرض!!

هذا مضافاً إلى أنّ محاكم التفتيش وتشدّد الكنيسه وأربابها كان لها النصيب الأكبر فى ظهور هذه الحاله بل فى نموّها، واطّرادها، لأنّ الكنيسه كانت تقضى على العلماء الذين نجحوا فى اكتشاف القوانين العلميه تحت التعذيب والاضطهاد القاسى بحجّه أنّها تخالف الكتاب المقدّس، وتعارض مقرَّرات الكنيسه!!

وممّا لا يخفى أنَّ مثل هذه الضُغُوط، وهذا الاضطهاد والتعجرف ما كان ليمرَّ

من دون حدوث ردّه فعل، وقد كان من المتوقَع منذ البدايه أنّ العلماء فى الغرب لو أَتيحت لهم الفرصه لانتقموا من الدين، بسبب سوء تصرّف أرباب الكنيسه، وسوء معاملتهم لهم خاصّه، وللناس عامّه.

وقد حدث هذا فعلاً فكلّما تقدم العلمُ خطوةً، واطّلع العلماء على العلاقات السائده بين الكائنات الطبيعيه، واكتشفوا المزيد من الحقائق الكونيه، والعلل الطبيعيه لكثير من الحوادث والظواهر المادّيه، وكذا علل الأمراض، قلّ اعتناؤهم بالقضايا الميتافيزيقيه، وما يدور حول المبدأ والمعاد والأفعال الخارقه للعاده كمعاجز الأنبياء، وازداد عدد المنكرين لها والشاكّين فيها، والمتردّدين فى قبولها يوماً بعد يوم!!

لقد تسبَّب الغرورُ العلميُّ الّذى أُصيب به العلماء فى الغرب فى أن ينظر بعض أُولئك العلماء إلى جميع القضايا الدينيه بعين الازدراء والتحقير، وأن يمتنعوا حتّى عن التحدّث فى المعاجز الّتى يخبر بها التوراه والإنجيل، ويعتبروا عصا موسى عليه السلام ويده البيضاء، ونفخه المسيح عليه السلام الّتى كانت تشفى المرضى وتحيى الموتى من الأساطير، وراحوا يتساءلون - فى عجب واستنكار -: وهل يمكن أن تتحوّل قطعةٌ من الخشب اليابس إلى أفعى، أو ثعبان؟ أو هل يمكن أن تعود الحياه إلى ميّتٍ بكلمات من الدعاء؟

لقد تصوّر العلماء الذين أسكرتهم فتوحاتهم العلميه، أنّهم ملكوا مفاتيح جميع العلوم، ووقفوا على جميع العلاقات بين الكائنات الطبيعيه والظواهر الكونيه، ومن هنا تصوَّرُوا أنّه لا توجد أيّهُ علاقه بين قطعه الخشب والثعبان، أو بين جمله من الدعاء والتفاتهٍ من بشر وعوده الروح إلى الموتى، ولهذا أخذوا ينظرون إلى هذه الأُمور بعين الشكّ والترديد، وربّما بعين الإنكار والرفض المطلق!!

وقد سرى هذا النوعُ من التفكير إلى أوساط بعض العلماء المصريّين الذين تأثّروا بهذا الإتّجاه أكثر من غيرهم، مع بعض التعديل فى ذلك الموقف، وشىء من الاختلاف فى النظره المذكوره، ولهذا اتّبعوا تلك السيره فى تحليل الوقائع والحوادث التاريخيه والعلميه من هذا النوع، والسِرّ فى تأثّر بعض علماء مصر بهذه النظره قبل وأكثر من غيرهم، هو احتكاك هذه الجماعه بالأفكار الوارده من الغرب قبل غيرهم، ومن هذه المنطقه سَرتْ بعضُ النظريات والآراء الغربيه إلى البلاد الإسلاميه الأُخرى.

لقد اختار هؤلاء طريقاً خاصّاً قَصَدُوا به الحفاظ على حرمه الكتاب العزيز، والأحاديث القطعيه ومكانتها من جهه، وكسب نظر العلماء المادّيين الطبيعيّين إلى أنفسهم من جهه أُخرى، أو أرادوا أن لا يختاروا ما لا يمكن التوفيق بينه وبين القوانين العلميه الطبيعيه وتطبيقه عليها.

لقد وجَدَ هؤلاء من جهه أنّ القرآن الكريم يخبر عن سلسله من المعجزات والخوارق الّتى لا يمكن تفسيرها بالعلوم العاديه المتعارفه، لأنّ العلم لا يستطيع أن يدرك العلاقه بين العصا الخشبيه اليابسه والثعبان، ومن جهه أُخرى كان القبول بالنظريات الّتى لا يمكن إثباتها بالحسّ والتجربه أمراً فى غايه الصعوبه لهم.

ولهذا السبب، وفى خِضمِّ الصراع بين هذين العاملين: العلم والعقيده، اختار هؤلاء الكتّاب والعلماء نهجاً يستطيعون به وضع نهايه لهذا الصراع، والتنازع، فيحافظون على ظواهر القرآن والأحاديث من جانب، ويتجنبون القول بما يخالف منطق العلم من جانب آخر، ويتلخّص هذا النهج فى تفسير جميع المعاجز و جميع خوارق العاده الّتى جرت على أيدى الأنبياء بالموازين العلميه الحاضره الرائجه فى هذا العصر بصوره تبدو وكأنّها أُمورٌ طبيعيه، وبهذا يكونون قد حافظوا على مكانه القرآن الكريم والأحاديث القطعيه المسلّمه، ولم يتفوّهوا بما يخالف العلم الحديث

ويتعارض مع معطياته.

ونحن هنا نذكر من باب النموذج والمثال: التفسير الّذى ذكره العلّامه المصرى المعروف «محمَّد عبده» لقصه أصحاب الفيل وماجرى لهم:

فهو يقول عند تفسيره لسوره الفيل:

«فيجوز لك أن تعتقد أنّ هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الّذى يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجاره من الطين المسموم اليابس الّذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامّه فأثار فيه تلك القروح الّتى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وأنّ كثيراً من هذه الطيور الضعيفه يعُدّ من أعظم جنود اللّه فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأنّ هذا الحيوان الصغير، الّذى يسمونه الآن بالميكروب، لا يخرج عنها».(۱)

وقال أحد الكتّاب مؤيّداً هذا الاتّجاه بقوله: «إنّ الطير المستعمل فى الكتاب العزيز يراد منه مطلق ما يطير، ويشمل الذباب والبعوض أيضاً».(۲)

ولابدَّ قبل دراسه هذه الأقوال أن نستعرض مرّه أُخرى الآيات النازله فى أصحاب «الفيل».

يقول اللّه تعالى: «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ * أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجارَهٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ» .

إنّ ظاهر هذه الآيات يفيد أنّ جيش أبرهه أُصيب بالغضب والسخط الإلهى،

۱- . راجع: تفسير فى ظلال القرآن: ۸/۶۶۷ (فى تفسير السوره).

۲- . نفس المصدر.

وأنّ هلاكه وفناءه كان بهذه الأحجار الّتى حملتها تلك الطيور، وألقتْ بها على رؤوس الجند وأبدانهم.

إنّ الإمعان فى مفاد هذه الآيات يعطى أنّ مَوتهم كان بسبب هذه الأسلحه غير الطبيعيه (الصغيره الحقيره فى ظاهرها، القوّيه الهدّامه بفعلها وأثرها).

وعلى هذا فإنَّ أى تفسير يخالف ظاهر هذه الآيات لا يمكن الذهاب إليه وحمل الآيات عليه ما لم يقم على صحته دليل قطعىّ.

نقاطٌ تقتضى التأمّل فى التفسير المذكور

١. أنَّ التفسير المذكور لا يستطيع كذلك أَن يجعل كلّ تفاصيل هذه الحادثه أمراً طبيعياً، بل هناك جوانب فى تلك الواقعه التاريخيه العجيبه لابدّ من تفسيرها بالعوامل والأسباب الغيبيه، لأنّه مع فرض أنّ هلاك الجُند وتلاشى أجسادهم تمَّ بواسطه ميكروب: «الحصبه» و «الجدرى»، ولكن من الّذى أرشد تلك الطيور إلى تلك الأحجار الصغيره الملوّثه بميكروب الحصبه والجدرى، فتوجّهت بصوره مجتمعه إلى تلك الأحجار الخاصّه بدل التوجّه إلى الحَبّ والطعام، ثمّ كيف بعد حمل تلك الأَحجار بمناقيرها وأرجلها حلَّقتْ فوق معسكر «أبرهه» ورجمت جنده كما لو أنّها جيشٌ منظّم موجّه؟؟

هل يمكن اعتبار كل ذلك أمراً عادياً، وحدثاً طبيعياً؟

ترى لو أنّنا فسَّرنا طرفاً من هذه الحادثه العظيمه والعجيبه بالعوامل الغيبيه، وبإراده اللّه النافذه فهل تبقى مع ذلك أيّه حاجه إلى أن نفسّر جانباً من هذه الحادثه بتفسير طبيعى مألوف، ونركض وراء التوجيهات البارده، لنجعلها أمراً مقبولاً.

٢. إنَّ الكائنات الدقيقه، أو ما يُسمّى الآن ب «الميكروب» لا شكّ أنّها عدوّه لمطلق الإنسان، وليس بصديقه لهذا أو ذاك، ومع ذلك كيف توجّهت إلى جنود

«أبرهه» وقتلتهم دون غيرهم، وكيف نسيت المكيين بالمرّه؟!

إنَّ التاريخ المدوَّنْ يثبت لنا أنّ جميع الضحايا فى هذه الواقعه العظيمه كانوا من جند «أبرهه» ولم يلحق فيها: أىّ أذى - إطلاقاً - بقريش، وغيرهم من سُكان الجزيره العربيه، فى حين أنّ الحصبه والجُدَرىِّ من الأمراض المعديه، الّتى تنقلها العوامل الطبيعيه كالرياح وغيرها من منطقه إلى أُخرى، ورُبَما تُهلِك أهل قطر بأجمعهم.

فهَل مع هذا يمكن أن نعدّ هذه الحادثه حدثاً طبيعياً عادياً؟!

٣. أنّ اختلاف هذا الفريق فى تحديد نوعيه الميكروب، يضفى على هذا الادّعاء مزيداً من الإبهام، ويجعله أقرب إلى البطلان.

فتاره يقولون: إنَّه ميكروب الوباء، وتارةً أُخرى يقولون: إنَّه داء الحصبه والجدرى، فى حين أنّنا لم نجد مستنداً صحيحاً لهذا الخلاف، ومبرراً وجيهاً لهذا الاختلاف، اللّهمَ إلّاما احتمله «عكرمه» من بين المفسّرين، وعكرمه هو نفسه موضع نقاش بين العلماء، وإلّا لما ذهب «ابن الأثير» من بين المؤرّخين وأرباب السيّر إلى ذكر هذا الرأى فى صوره الاحتمال الضعيف، قائلاً: وقال كثير من أهل السير أنّ الحصبه والجدرى أوّل ما رؤيا فى العرب بعد الفيل، وكذلك قالوا: إنّ العشر والحرمل والشيح لم تعرف بأرض العرب إلّابعد الفيل. ثم عاد فردّ هذا القول فوراً بقوله: وهذا ممّا لا ينبغى أن يعرج عليه فإنّ هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل مذ خلق اللّه العالم.(١)

والأعجب من الجميع ما أعطاه مؤلّف كتاب «حياه محمَّد» الدكتور هيكل وزير المعارف المصرى السابق من تفسير، عند ذكر قصه الفيل.

١- . الكامل فى التاريخ: ١/٢٦٣، ذكر أمر الفيل، تحقيق الشيخ عبدالوهاب النّجار، طبع مصر - ١٣٤٨ ه.

فهو بعد ذكر تلك القصه سرد آيات سوره الفيل، ومع أنّه أتى بقول اللّه تعالى «وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ» قال عن هلاك جنود أبرهه: «ولَعلّ جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحيه البحر، وأصابت العدوى أبرهه نفسه»(۱) فإذا كان الّذى جاء بهذا الميكروب هو الريح، فلماذا حلّقت طيورُ الأبابيل على رؤوس جيش أبرهه، وألقت بالأَحجار الصغيره على رؤوسهم دون غيرهم، وأى أثر كان لهذه الأحجار فى هلاك أُولئك الجنود وموتهم؟

فالحقّ هو: أن لا يُتبعَ هذا النمط من التفكير، وأن لا نسعى لتفسير معجزات الأَنبياء الكبرى بمثل هذه التأويلات والتفسيرات، بل إنّ طريق المعجزات والإعجاز أساساً يختلف عن طريق العلوم الطبيعيه الّتى تتحدّد دائرتها بمعرفه العلاقات العاديه بين الظواهر الطبيعيه، ولهذا يجب علينا أن لا نعمد - إرضاء لهوى جماعه ممّن لا يمتلكون أيّه معلومات دينيه، وليست لديهم أيّه معرفه بهذا النوع من القضايا - إلى التنازل عن أُسُسنا الدينيه المسلّمه، فى حين لا توجد أيّه حاجه مُلزمه إلى مثل ذلك التنازل والاعتذار!

نقطتان هامّتان

وهنا لابد من أن نذكّر بنقطتين:

الأُولى: يجب أن لا يظنّ أحدٌ - خطأ - أنّنا بما قلناه هنا نريد تصحيح كلّ ما تلوكه ألسنُ الناس، وتنسبه إلى الأنبياء العظام، أو إلى عباد اللّه الكرام، من دون أن يكون له أى سند صحيح أو وجه معقول، بل وربما اتَّسَمْ بطابع الخرافه فى بعض الأحيان والموارد.

بل مقصودنا هو: أن نثبّت - وطبقاً للمصادر الصحيحه والقطعيه المتوفّره - أنّ

۱- . حياه محمَّد لمحمَّد حسين هيكل: ۱۰۲ و ۱۰۳.

الأنبياء كانوا يقومون - لإثبات ارتباطهم بما وراء هذه الطبيعه - بأعمال خارقه للعاده، خارجه عن الناموس الطبيعىّ المألوف، تعجز العلومُ الطبيعيه الرائجه عن إدراك عللها، وأسبابها.

فهدُفنا هو الدفاع عن هذه الطائفه من المعاجز.

الثانيه: إنّنا لا نقول مطلقاً: أَنَّ وجود المعجزه هو تخصيصٌ لقانون العلّيه العامّ، بل إنّنا فى الوقت الّذى نحترمُ فيه هذا القانون المسلّم، نعتقد بأَنّ لجميع حوادث هذا العالم عللاً خاصّه وأسباباً معيّنه، وإنّه من المستحيل أن يوجَد شىء بعد عدمه من دون علّه، بَيْد أنّنا نقول: إنّ لهذه الطائفه من الظواهر والوقائع (أى المعاجز) عللاً غير طبيعيه، وإنّ هذه العلل ميسَّره ومتاحه لأنبياء اللّه ورسله والرجال الإلهيّين خاصّه، وليس فى مقدور أحد - لم يستطع لا عن طريق الحس ولا عن طريق التجربه أن يكتشف هذه العلل - أن يتنكّر لها، وينكرها، بل أنّ جميع الأعمال الخارقه الّتى يقوم بها أنبياء اللّه ناشئه عن علل لا يمكن تفسيرها بالعلل الطبيعيه المألوفه، ولو أنّها خضعت للتفسير والتوجيه لخرجت عن كونها معجزه، ولم يصدُق فى حقّها عنوان الإعجاز.

ولكى نقف على حقيقه هذا الأمر، ونعرف مدى بطلان المذهب المذكور (مذهب تفسير الخوارق والمعاجز بالتفسير المادّى والمألوف المحض) ينبغى أن نتبسّط قليلاً فى شرح مسأله الإعجاز ونبحث فى مدى علاقتها بقانون العلّيه العام.

بحثٌ علمىٌ حول المعجزه

اشاره

:

إنّ الحديثَ العلمىَّ عن المعجزه لابدَّ أن يتركَّز على عده نقاط أساسيَه هى:

١. ماهى المعجزه وما هو تعريفها؟

٢. هل الإعجاز يهدم القوانين العقليه المسلَّمه؟

۳. هل المعجزه تصدر عن علل مادّیه غیر عادیه فقط؟

۴. کیف تدل المعجزه علی صِدق ادّعاء النبوّه؟

۵. کیف وبماذا نمیّز المعجزه عن الخوارق الأُخری؟ إنَّ الاجابه عن هذه الأسئله کفیله بتوضیح حقیقه المعجزه، وبیان مدی بطلان الإتّجاه المذکور، نعنی: تفسیر المعاجز بالتفسیر المادّی الطبیعی.

علی أنّنا - نظراً لضیق المجال - سنختصر الجواب عن هذه الأسئله، وعلی من أراد التوسّع أن یرجع إلی کتب الکلام والعقیده.

۱ - ماهی المعجزهُ وما هو تعریفها؟

لقد عرَّف علماء العقیده المعجزه بتعاریف مختلفه أتقنها وأکملها هو: أنّ المعجزه أمرٌ خارقٌ للعاده، مقرونٌ بالدَّعوی، والتحدّی، مع عدم المعارضه، ومطابقه الدعوی.(۱)

ویعنی الشرطُ الأولُ (أی کون المعجزه أمراً خارقاً للعاده) أنّ کلّ ظاهره من الظواهر الطبیعیه الحادثه مرتبطه بعلّه حتماً، فلا یمکن صدورها من دون علّه، وهذا الکون مشحون بالعلل الّتی یکتشفها البشر شیئاً فشیئاً وتدریجاً عبر وسائله العادیه أو العلمیّه، ولکنّ المعجزه مع کونها ظاهره واقعیه ولهذا فهی کغیرها مرتبطهٌ بعلّه، بید أنّها تختلف عن غیرها من الظواهر فی أنّ من غیر الممکن کشف عللها من الطریق العادیه أو بواسطه التجارب والتحقیقات العلمیه، ولا یمکن تفسیرها وتبریرها بالعِلَل العادیه أو بما یکتشفه العلمُ من العلل لمثل هذه الحوادث، والمقصود من خرق العاده هو أنْ تقع المعجزهُ علی خلاف ما عهدناه وتعوَّدنا علیه

۱- . راجع للوقوف علی هذا التعریف: کشف المراد فی شرح تجرید الاعتقاد للعلّامه الحلّی شرحاً، والمحقّق نصیرالدین الطوسی متناً: ۱۵۷، وأیضاً شرح تجرید الاعتقاد للعلّامه القوشجی: ۴۶۵.

فی الظواهر الأخری وعِللها، مثل إشفاء المرضی من دون علاج ودواء کما هو المعهود، وإخراج الماء من صخره صمّاء من دون حفر أو تنقیب کما هو المألوف، وتحویل العصا إلی أفعی من دون تبییض وتفریخ وتوالد وتناسل، بل بمسح من ید، أو بعباره من لسان، أو بضرب من عصا!!

من هنا نکتشفُ أَنّ کلّ ظاهره یقف الناس العادّیون بالطرق العادیه أو العلماء خاصّه بالطرق العلمیه علی عللها وأسبابها لا تکون معجزه لأنّه فی هذه الصوره لم یقع أی شیء علی خلاف العاده، والمألوف لیدل علی مزیه فی الأنبیاء.

فإنّ مثل هذه الظاهره الّتی یکون لها علهٌ عادیهٌ یعرفها جمیعُ الناس، أو سببٌ علمی خاصٌ یعرفه علماء ومتخصّصو ذلک العلم یمکن أن یقوم بإیجاد أمثالها جمیعُ الناس، فلا تکون حینئذٍ معجزه.

ولا یعنی هذا - وکما أسلفنا - أَنَّ المعجزه لا تنتهی إلی أیّه علّه، أصلاً، بل هی تستند إلی علّه غیر متعارفه وغیر عادیه، ولمزید التوضیح سنبحث فی هذا المجال عند الإجابه عن السؤال الثالث.

ویُقصَد من الشرط الثانی (أی کون الإعجاز مقروناً بالدعوی) أن یَدّعی صاحبُ المعجزه النبوّه والسفاره من جانب اللّه تعالی، ویأتی بالمعجزه دلیلاً علی صحّه دعواه هذه، إذ فی غیر هذه الصوره لا یکون الأمرُ الخارق للعاده معجزهً بل یُطلَق علیه فی الاصطلاح الدینی لفظ «الکرامه» کما کان لمریم بنت عمران الّتی کلّما دخل علیها زکریا المحراب وجد عندها رزقاً فإذا سألها: من أین لها ذلک؟

قالت: هو من عند اللّه(۱).

ویعنی الشرطُ الثالثُ أن یکون الإعجاز مقروناً بدعوه الناس إلی الإتیان

۱- . راجع سوره آل عمران: ۳۷.

بمثله، وعجز الناس عن هـذه المعارضه، وعـدم قـدرتهم على الإتيان بمثله مطلقاً، إذ فى هـذه الصوره يتّضـح أَنَّ النبىّ يعتمد على قوه إلهيه غير متناهيه، قوّه خارجه عن حوزه الإنسان العادى وإمكاناته.

وأمّا الشـرط الرابع فيعنى أنّ الأمر الخارق للعاده إنّما يكون عملاً إعجازياً، ويسـتحق وصف المعجزه الـدالّه على ارتباط الآتى بها بالمقام الإلهىّ، إذا وافق الأمرُ الواقعُ ما يدّعى أنّه قادر على الإتيان به.

فلو قال: سأجعلُ هـذا البئر الجاف الفارغ من الماء، يفيض بالماء بإشاره إعجازيه، ثم يقع ما قاله، كان هذا الأمر معجزه حقّاً، وأمّا إذا حصل عكس ما قال، لم يكن ذلك إعجازاً، بل كان تكذيباً لمدّعيها.

هذا هو خلاصه ما يمكن أن يُقال حول تعريف المعجزه والإعجاز وهو يساعد على فهم طبيعه العمل الإعجازىّ.

٢. هل الإعجاز يهدم القوانين العقليه المسلَّمه؟

وبهـذا يتّضـح جواب السؤال المطروح فى هـذا المجـال وهو أن يقـال: إنّ قـانون العليّه (أى: ارتبـاط كلّ معلول حادث بعلّه) ممّا ارتكز عليه الـذهنُ البشـرىُ وقبلَه العلمُ والفلسـفه، ولذلك فإنّنا نلاحظ: كلّما وقف الإنسانُ على ظاهره - مهما كانت - بحَثَ عن علّتهـا فوراً، فإذا رأى حيّه، مثلاً عرف بأنّ علّتها الطبيعيه هى أن تبيض حيّه، ثم خروج حيّه من البيض بعـد سلسـله من التفاعلات، فكيف يمكن القبول بالمعـاجز مع أنّهـا لا تنشأ عن مثل هـذه العلل ولا تمرُّ بمثل هـذه المقـدّمات والمراحل والتفاعلات الطبيعيّه، مثل انقلاب العصا إلى ثعبان، أو نبوع الماء من الصخر من دون حفر أو تنقيب.

أليس هذا هدمٌ، أو تخصيصٌ لذلك القانون العقلىّ المسَلَّم العام؟

فإنّ الجواب على هذا السؤال هو أنّ مثل هذا السؤال لا يطرحه إلّاالَّذين يحصرُون العلل والعلاقات بين الأشياء فى العلل والعلاقات الماديّه الطبيعيه.

ولكن الحق هو أنَّ أيّه ظاهره مادّيه يمكن أن يكون لها نوعان من العلل:

١. العلهُ العاديه الّتى تخضع للتجربه.

٢. العلهُ غير العاديه الّتى لا يعرفها الناس ولم تكن متعارفه ولا تخضع للتجربه العلميه.

وهذا يعنى أنّه لا توجد أيّه ظاهره فى هذا العالم بدون علّه.

وتوضيحُ هذا أنّ أصل وجود الحيّه ونبوع الماء من الصخره وتكلّم الطفل - مثلاً - أمرٌ ممكنٌ، ولا يُعدّ من المحالات، لأَنّها لو كانت من المحالات لما تحقّق وجودها أبداً.

نعم أَنّها بحاجه إلى علّه لكى تتحقّق، والعلّه - سواء فى المعاجز أو غيرها - يمكن أن تكون إحدى الأُمور التاليه:

أ. العلّه الطبيعيه العاديه وهى ما أَلِفناها وأعتدنا عليها، مثل ظهور شجره من نواه بعد سلسله من التفاعلات.

ب. العلّه الطبيعيه غير العاديه وغير المعروفه وهذا يعنى أنّه قد يكون لظاهره معينه نوعان من العلل، وطريقان للتحقّق والوجود أحدهما معروف ومعلوم، والآخر مجهول غير معلوم، والأنبياء بحكم اتّصالهم بالعلم والقدره الإلهيه، يمكن أن يقفوا على هذا النوع مِنَ العلل - عن طريق الوحى - ويوجدوا الظاهره.

ج. تأثير النفوس والأرواح

إنَّ بعض الظواهر يمكن أن تكون ناشئه من تأثير أرواح الأَنبياء ونفوسهم القويه، كما نلاحظ ذلك فى مجال المرتاضين الهنود الذين يبلغون درجه

يستطيعون معها أن يقوموا بما يعجز عنه الأفرادُ العاديُّون، وذلك بفضل الرياضات النفسيه الّتى يخضعون لها. وهو ما يُسمّى باليوغا أحياناً، وقد كتبت حوله كتب ودراسات(۱).

وقد أشار إلى هذا جملةٌ من علماء الإسلام وفلاسفته منهم الفيلسوف الإسلامى الشهير صدر الدين الشيرازى حيث يقول: لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوّةٌ إلهيةٌ تكون بقوّتها كأنّها نفسُ العالم فيطيعُها العنصرُ طاعه بدنها لها، فكلّما ازدادت النفسُ تجرّداً وتشبّها بالمبادئ القصوى، ازدادت قوّةً وتأثيراً فى ما دونها.

وإذا صار مجرّدُ التصوّر والتوهّم سبباً لحدوث هذه التغيّرات فى هيولىّ البدن لأجل علاقه طبيعيّه، وتعلّقٍ جبلّى لها إليه، لكان ينبغى أن تؤثر فى بدن الغير وفى هيولىّ العالم مثل هذا التأثير، لأجل مزيد قوّه شوقيه، واهتزاز علوى للنفس ومحبّه إلهيه لها، فيؤثر نفسُه فى إصلاحها، وإهلاك ما يضرّها ويفسدها.(۲)

د. العللُ المجرّده عن الماده

يمكن أن تكون للظواهر علـلٌ مجرّده عن الماده كالملائكه، ذلك بأن تقوم الملائكه بأمر من اللّه سبحانه بتدمير قريه، أوتقوم بمعجزه بعد طلب النبىّ منها ذلك.

والملائكه مظاهرُ القدره الإلهيه فى الكون، وهى الّتى تدبّر أُمور الكون بأمر

۱- . راجع كتاب الطاقه الإنسانيه لأحمد حسين.

۲- . راجع: المبدأ والمعاد: ۳۵۵ و ۳۵۶ لصدر المتألهين المشهور بصدر الدين الشيرازى، وشرح المنظومه للحكيم السبزوارى: ۳۲۷ قال السبزوارى ناظماً: يطيعه العنصرُ طاعه الجَسَد للنفس فالكلُ كجسمه يُعَدّ

اللّه تعالى كما يقول القرآن الكريم: «فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» (۱)، وهى بالتالى جنود اللّه فى السماوات والأرض «وَ لِلّهِ جُنُودُ السَّماواتِ» (۲).

فلابدّ من إرجاع الظواهر الطبيعيه الواقعه إلى أحد هذه العوامل الأربعه، ولا يمكن أبداً حصر العلّه فى العلّه الطبيعيه العاديه المعروفه كما تصوّر منكرو الإعجاز، بل يمكن أن تكون كلُ واحده من هذه العلل سبباً لحدوث الظاهره الطبيعيه، فإذا لم نشاهد علّه ظاهره من الظواهر لم يجز لنا أن نُبادر - فوراً - إلى تصوّر أنّها ناشئهٌ من غير علّه.

ويجب إرجاع معاجز الأَنبياء إلى إحدى الطرق الأخيره، والقول بأنّ الأنبياء استخدموا - فى إيقاع الخوارق والمعاجز - إمّا العلل المادّيه غير المعروفه للعُرف، والعلم، وأما نفوسهم القوّيه الّتى حصلت لهم بفعل الجهاد الرُوحىّ العظيم والرياضات النفسيه الشديده فهى عله تلك الأفعال الخارقه للعاده.

كما ويمكن أن تكون جميع تلك الأفعال العجيبه ناشئه عن جمله من العلل والعوامل الغيبيه المدبِّره للكون بأمر اللّه ومشيئته.

إذن فلا تتحقّق المعجزه بدون عله كما يُتصوَّر، ولا يهدم الإعجاز القوانينَ العقليه المسلّمه.

۳. هل المعجزه تصدر عن علل ماديه غير معروفه فقط؟

قد يتصوّر البعض أنّ المعاجز تصدر عن علل مجرّده عن الماده فقط، نافين أن تكون لها أيَّه علل ماديه معروفه أوغير معروفه، فى حين لا يصحّ هذا السلب

۱- . النازعات: ۵.

۲- . الفتح: ۴.

الكلى، إذ ما أكثر الخوارق الّتى تنشأ عن أُمور عاديه وعبر سلسله من التفاعلات الطبيعيه.

فعنـدما يرقُـد مرتاض هنـدىٌ ليمرَّ عليه تراكتور من دون أن تحـدث فى جسـمه أيّه جراحات أو إصابات، فإنّ هناك أُموراً مادّيه كثيره دخلت فى هذا الأمر الخارق، مثل: وقوع هذا الحدث فى إطار الزمان الخاص، والمكان الخاص، ومثل جسم المرتاض، وما كنه الحراثه.

فإنّ جميع هذه الأشياء الماديه أثّرت فى ظهور هذا العمل الخارق.

وهكـذا عنـدما تنقلب عصـا الكليم عليه السـلام إلى حيّه على نحو الإعجـاز، فـإنّ العصا شـىء مادّى، وهكـذا الحال فى غيره من الموارد.

ولهذا لا يمكن أن نتجاهل تأثير العوامل والأُمور المادّيه فى ظهور الأُمور غير العاديه، وننكر دخالتها بمثل هذا الإنكار.

وهذه هى أكثر النظريات اعتدالاً فى هذا المجال.

وفى مقابل ذلك التفريط(۱) أفرط آخرون إذ قالوا: إنّ جميع المعاجز والخوارق ناشئه من علل مادّيه غير معروفه.

وحتّى مـا يقوم به المرتـاضون يعود إلى هـذه العوامـل الطبيعيه الّتى لاـ يعرفهـا ولاـ يقف عليهـا حتّى النوابغ من الناس فضـلاً عن العـاديين، لأـنّ العوامـل الطبيعيه على نوعين: المعروفه وغير المعروفه، والنـاس يسـتفيدون فى حيـاتهم اليوميه – فى الأغلب – من القسم الأوّل، بينما يستخدم الأنبياء والمرتاضون تلك العوامل الطبيعيه غير المعروفه الّتى وقفوا عليها وأدركوها دون غيرهم.

۱- . أى حصر علل الخوارق والمعاجز فى العوامل المجرَّده ونفى تأثير العلل الماديّه على نحوالإطلاق.

والسبب فی وصفنا هذه النظریه بالإفراط والتطرُّف هو عدم وجود دلیل لإثباتها، بل یمکن أن یقال أنّ مثل هذا الموقف ناشئ عن الانهزامیه تجاه العالم المادّی، أو أنّه لإرضاء المادّیین، والنافین لما یدخل فی إطار العالم المادّی، فإنّ المادّیین یرفضون أیّ عالم آخر غیر الطبیعه وآثارها وعلاقاتها وخواصها، وحیث إنّ إرجاع المعجزات إلی العلل المجرّده عن المادّه یخالف منطق المادّیین، ویضاد اتّجاههم وتصوّرهم، لهذا عمد أصحاب هذه النظریه (نظریه إرجاع المعاجز والخوارق إلی علل طبیعیه غیر معروفه وغیر عادیه) إلی مثل هذا التفسیر إقناعاً للمادّیین، وإرضاء لهم فقالوا: إنّ جمیع الخوارق والمعاجز ناشئه من علل طبیعیه ومادیّه علی الإطلاق، غایه ما فی الأمر أنّها علل غیر معروفه، شأنها شأن کثیر من العوامل الطبیعیه المجهوله.

ونحن بدورنا نترک هذه النظریه فی دائره الإجمال وبقعه الإمکان، لعدم الدلیل لا علی صحّتها ولا علی خطئها.

۴. کیف تدلّ المعجزه علی صحّه ادّعاء النبوّه؟

إنّ صفحات التاریخ ملیئه بذکر من ادّعوا النبوّه خداعاً وکذباً، واستغلالاً للناس، منتهزین سذاجه الأغلبیه الساحقه من جانب، وانجذابهم الفطری إلی قضایا التوحید والإیمان من جانب آخر.

فکیف وبماذا یُمیَّز النبیّ الصادق عن مدّعی النبوه؟؟

إنّ المعجزه هی إحدی الطرق التی تدل علی صحّه إدعاء النبوّه.

وإنما تدلُّ المعجزهُ علی صدق ادّعاء النبوّه، وارتباط النبیّ بالمقام الربوبی لأن اللّه الحکیم لا یمکن أن یزوّدَ الکاذب فی دعوی النبوّه بالمعجزه، لأنّ فی

تزويد الكاذب تغريراً للناس الذين يعتبرون العمل الخارق دليلاً على ارتباط الآتى به بالمقام الربوبىّ.

وإلى هذا أشار الإمامُ جعفر الصادق عليه السلام فى جواب أبى بصير حين سأله عن علّه إعطاء اللّه المعجزه لأنبيائه ورسله: وقال: «لِيَكُونَ دَليلاً عَلى صِدق مَن أتى به، والمعجزه علامهٌ للّه لا يعطيها إلّاأنبياءه وَرسَله، وحجَجَه، ليعرفَ به صدق الصادق مِنْ كذب الكاذِب».(۱)

۵. بماذا نميّز المعاجز عن غيرها من الخوارق؟

لا شَكَّ فى أنَّ السَّحَره والمرتاضين يقومون بأفعال خارقه للعاده مثيره للعجب والدهشه حتّى أنّ البسطاء ربّما يذهب بهم الاندهاش إلى حدّ الاعتقاد بأنّ القائمين بهذه الخوارق مزوَّدون بقوى غامضهٍ غيبيهٍ لا يتوصّلُ إليها البشر.

فكيف يمكن إذن أن نُمَيّز بَينَ المعاجز وتلك الخوارق والعجائب؟

إنّ التمييز بين هذه وتلك يمكن أن يتم إذا لاحظنا العلائم الفارقه بين المعجزه وغير المعجزه من الأعمال الخارقه للعاده، كأعمال السحره والمرتاضين (أصحاب اليوغا) ونظائرهم.

وهذه الفوارق هى عباره عن الأُمور التاليه:

۱. أنّ القوّه الغامضه الحاصله لدى المرتاضين والسحره ناشئه بصوره مباشره من التعلّم عند أساتذه تلك العلوم، وذلك طيله سنين عديده من الزمان.

بينما لا يرتبط الإعجاز بالتعلّم والتلمّذ أبداً، والتاريخ خير شاهد على هذا الكلام.

۱- . علل الشرائع: ۱/۱۲۲ ح ۱، باب (۱۰۰) علّه المعجزه.

۲. أنّ أَفعال السَّحره والمرتاضين العجيبه قابله للمعارضه والمقابله بأمثالها، وربّما بما هو أقوى منها، على عكس الإعجاز، فالمعجزات غير قابله لأن تعارض وتقابل بمثلها أبداً.

۳. المرتاضون والسَّحره لا يَتحدُّون أحداً بأفعالهم، ولا يطلبُون معارضه أحد لَهُمْ وإلّا لافْتضَحُوا وكبتوا.

بينما يتحدّى الأنبياء والرسل بمعاجزهم جميع الناس ويدعونهم لمعارضتهم والإتيان بمثل معاجزهم لوقدروا، واستطاعوا.

وهذا هو القرآن الكريم ينادى بأعلى صوته على مر العصور: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» .(۱)

وذلك لأنَ أفعال السَّحره الخارقه مهما كانت فإنّها تستند إلى الطاقه البشريه المحدوده، ولا تتجاوزها بينما يعتمد الأنبياء والرسل العنصر الغيبى، والإراده الإلهيه.

۴. أنّ أفعال السحره والمرتاضين الخارقه للعاده أُمور محدوده ومقتصرةٌ على ما تعلَّموه وتمرّنوا عليه، بينما لا تكون معاجز الأنبياء والرسل مقتصره على أُمور خاصّه، فهم لا يعجزون عن الإتيان بكلّ ما يطلبه الناس منهم، طبعاً حسب شرائط خاصّه مذكوره فى محلّها فى أبحاث الإعجاز.(۲)

۱- . الإسراء: ۸۸.

۲- . مثل أن لا يكون ما يطلبه الناس محالاً عقلياً كرؤيه اللّه، وأن لا يكون ما سيأتى لهم به دليلاً على ارتباطه بالمقام الربوبى، كما لو طلبوا منه أن تكون له جنّه من نخيل وأعناب وبيتٌ من ذهب، لأنّ هذه الأُمور لا تكون دليلاً على النبوّه إذ نلاحظ أنّ كثيراً مِنَ الناس يملكون هذه وليسوا مع ذلك بأنبياء.

فتلك معاجز موسى عليه السلام المتعدّده الابتدائيه، والمقترحه، ومعاجز المسيح عليه السلام المتنوّعه خير مثال على هذا الأمر.

۵. أنّ أصحاب المعاجز يقصدون من معاجزهم دائماً دعوه الناس إلى أهداف إنسانيه عاليه وغايات إلهيه ساميه وبالتالى هدايه المجتمع البشرى إلى المبدأ والمعاد، والأخلاق الفاضله فيما لا يهدفُ المرتاضون والسحَره إلّاتحقيق مآرب دنيويه حقيره، ونيل مكاسب مادّيه رخيصه.

هذا مضافاً إلى أنّ الأنبياء والرسل أنفسهم يختلفون عن السحره والمرتاضين فى نفسيّتهم العاليه، وأخلاقهم الفاضله وتاريخهم المشرق، وصفاتهم النبيله على العكس من السحره والمرتاضين.

هذه هى أَهمُّ العلامات الفارقه بين المعاجز الّتى تدلّ على نبوّه الأنبياء والخوارق الّتى يقوم بها المرتاضون والسحره.

وبعد أن تبيَّن كلّ هذا اتّضح أنَّ الخوارق الإلهيه الّتى هى من مقوله المعاجز أيضاً تختلف عن الأُمور العاديه فى أنّ عللها لا تنحصر فى العلل المادّيه غير المعروفه فضلاً عن الأُمور الماديه المعروفه، بل ربّما تكون مستنده إلى العلل المجرّده، فليس من الصحيح أن نسعى لتفسير الخوارق الإلهيه مثل: «قصه الفيل» الّتى أهلك اللّه تعالى فيها جيش «أبرهه» العظيم بأحجار صغيره من سجيل رمتها طيور أبابيل بالعلل الماديه المعروفه كما فعل من أشرنا إلى أسمائهم فى مطلع هذا البحث.(۱)

۱- . أى الأُستاذ الشيخ محمَّد عبده والأُستاذ محمَّد حسين هيكل.

ولهـذا عَـدلَ «سـيد قطب» عن رأيه الّذى كان قد أبداه فى ما سبق فى أمثال هذه الأمور، وقال: إنّ الطريق الأمثل فى فهم القرآن وتفسيره، وفى التصوّر الإسلامى وتكوينه... أن ينفُض الإنسان من ذهنه كلَّ تصوّر سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقرَّرات تصوّريه أو عقليه أو شعوريه سابقه، وأن يبنى مقرَّراته كلّها حسبما يصورُ القرآنُ والحديثُ حقائق هذا الوجود، ومن ثمّ لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفى شيئاً يثبته القرآن ولا يُؤَوّلَه، ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله، وما عدا المثبت والمنفى فى القرآن، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته.

نقول هذا بطبيعه الحال للمؤمنين بالقرآن... وهم مع ذلك يؤوّلون نصوصه هذه لتوائم مقرّرات سابقه فى عقولهم، وتصوّرات سابقه فى أذهانهم لما ينبغى أن تكون عليه حقائق الوجود.(۱)

وأمّا الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، ويعتسفون نفى هذه التصوّرات لمجرّد أنّ العلم لم يصل إلى شىء منها فهم مضحكون حقّاً! فالعلمُ لا يعلم أسرار الموجودات الظاهره بين يديه والّتى يستخدمها فى تجاربه، وهذا لا ينفى وجودها طبعاً! فضلاً عن أنّ العلماء الحقيقيّين أخذت كثره منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون، لأنّهم بالتجربه وجدوا أنفسهم – عن طريق العلم ذاته – أمام مجاهيل فيما بين أيديهم ممّا كانوا يحسبون أنّهم فرغوا من الإحاطه بعلمه فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليست عليه سمهُ الادّعاء، ولا طابع التطاول على المجهول كما يتطاول مُدّعو العلم، ومدّعو التفكير العلمى، ممّن

۱- . وهنا قال سيّد قطب فى هامش هذا الكلام ما نصه: وما أُبرئ نفسى أننى فيما سبق من مؤلّفاتى وفى الأجزاء الأُولى من هذه الظلال قد انسقتُ إلى شىء من هذا... وأرجو أن أتداركه فى الطبعه التاليه إذا وفق اللّه.

يُنكرون حقائق الديانات وحقائق المجهول.(۱)

ثم يقول فی موضع آخر من تفسیره ناقداً موقف الأُستاذ عبده من قصه الفیل الّتی هی إحدی الخوارق حیث حفظ اللّه تعالی بیته المعظّم علی نحوٍ خارق للعاده:

ویری الـذین یمیلون إلی تضـییق نطـاق الخوارق والغیبیـات، وإلی رؤیه السـنن الکونیه المـألوفه تعمـلُ عملها، أنّ تفسـیر الحادث بوقوع وباء الجدری والحصبه أقرب وأولی، وأنّ الطیر قد تکون هی: الذباب والبعوض الّتی تحمل المیکروبات، فالطیر هو کلّ ما یطیر.

ثم ینقلُ کلام الأُسـتاذ «عبده» الّذی ذکرناه بنصّه مع قوله: هذا ما یصحّ الاعتماد علیه فی تفسـیر السوره، وما عدا ذلک فهو ممّا لا یصـحّ قبوله إلّابتأویل إن صـحّت روایته، وممّا تعظم به القـدره أن یُؤخذَ من اسـتعز بالفیل - وهو أضـخم حیوان من ذوات الأربع جسـماً - ویُهْلـکَ بحیوان صـغیر لا یظهر للنظر ولا یـدرک بالبصـر حیث ساقه القـدرُ، لا ریب عنـد العاقل أنّ هـذا أکبر وأعجب وأبهر.

ثم یقول: ونحن لا نری أنّ هـذه الصوره الّتی افترضـها الأُسـتاذُ الإمامُ - صوره الجـدری أو الحصـبه من طین ملوث بالجراثیم... - أدلَّ علی قـدره، ولاـ أولی بتفسـیر الحـادث، فهـذه کتلـک فی نظرنا من حیث إمکان الوقوع، ومن حیث الـدلاله علی قـدره اللّه، وتـدبیره، ویسـتوی عنـدنا أن تکون السـنّه المـألوفه للنـاس، المعهوده المکشوفه لعلمهم، هی الّتی جرت، فـأهلکت قومـاً أراد اللّه إهلاکهم، أو أن تکون سنّه اللّه قد جَرت بغیر المألوف للبشر، وغیر المعهود المکشوف لعلمهم فحقّقت قدره ذاک.

۱- . فی ظلال القرآن: ۸/۳۲۶ (تفسیر سوره الجن).

ثم يقول: فقد كان اللّه سبحانه يريد بهذا البيت(۱) أمراً، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابه للناس وأمناً وليكون نقطه تجمّع للعقيده الجديده تزحفُ منه حرّه طليقه فی أرض حرّه طليقه لا- يهيمن عليها أحدٌ من خارجها ولا تسيطر عليها حكومهٌ قاهره تحاصر الدعوه فی محضنها، ويجعل هذا الحادث عبره ظاهره مكشوفه لجميع الأنظار فی جميع الأجيال، حتّی ليمتن بها علی قريش بعد البعثه فی هذه السوره، ويضربها مثلاً لرعايه اللّه لحرماته وغيرته عليها.

فممّا يتناسق مع جوّ هذه الملابسات كلّها أن يجیء الحادثُ غير مألوف ولا- معهود بكلّ مقوّماته وبكلّ أجزائه، ولا داعی للمحاوله فی تغليب صوره المألوف من الأمر فی حادث هو فی ذاته وبملابساته مفردٌ فذٌّ.

وبخاصه أنّ المألوف فی الجدری والحصبه لا يتّفق مع ما روی من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده، فإنّ الجدری أو الحصبه لا يُسقطُ الجسم عُضواً عضواً، وأنمله أنمله، ولا يشق الصدر عن القلب!!(۲)

ثم إنّ «سيد قطب» يشير إلی علل تفسير هذه الحادثه الخارقه للعاده بالتفسير المادّی العادی الطبيعی، والمدرسه العقليه الّتی كان الأُستاذ «عبده» علی رأسها، وضغط الفتنه بالعلم الّتی تركت آثارها فی تلك المدرسه، ونحن نكتفی بهذا القدر بالمناسبه، وإشعاراً بما يمكن أن يجنيه مثل هذا الاتجاه علی مقولات الدين ومفاهيمه ومقرراته عن الأحداث الكونيه والتاريخيه والإنسانيه والغيبيه.(۳)

هذا و يجدر بنا أن ننقل هنا ما قاله صاحب تفسير «مجمع البيان» فی هذا

۱- . أیّ الكعبه المشرّفه.

۲- . فی ظلال القرآن: ۸/۶۷۰.

۳- . لاحظ: فی ظلال القرآن: ۸/۶۶۸-۶۷۱ (فی تفسير سوره الفيل).

الصدد فی شأن حادثه الفیل استکمالاً لهذا البحث وتأکیداً لمعجزه هذا الحدث.

قال صاحب المجمع: وکان هذا من أعظم المعجزات القاهرات، والآیات الباهرات فی ذلک الزمان، أظهرهُ اللّه تعالی لیدل علی وجوب معرفته، وفیه إرهاص لنبوّه نبینا صلی الله علیه و آله و سلم لأنّه ولد فی ذلک العام،... وفیه حجهٌ لائحه قاصمه لظهور الفلاسفه والملحدین المنکرین للآیات الخارقه للعادات، فإنّه لا یمکن نسبه شیء ممّا ذکره اللّه تعالی من أمر اصحاب الفیل إلی طبع وغیره، کما نسبوا الصیحه والریح العقیم والخسف وغیرهما ممّا أهلک اللّه تعالی به الأُمم الخالیه إلی ذلک، إذ لا یمکنهم أن یروا فی أسرار الطبیعه إرسال جماعات من الطیر معها أحجارٌ معدّه مهیَّأه لهلاک أقوام معینین، قاصدات إیّاهُمْ دون من سواهم، فترمیهم بها حتّی تُهلِکهم، وتدّمرَ علیهم، حتّی لا یتعدّی ذلک إلی غیرهم، ولا یشکّ من له مسکه عن عقل ولب أنّ هذا لا یکون إلّامن فعل اللّه تعالی، مسبّب الأسباب ومذلِّل الصعاب، ولیس لأحد أن ینکر هذا؛ لأنّ نبینا صلی الله علیه و آله و سلم لما قرأ هذه السوره علی أهل مکّه لم ینکروا ذلک، بل أقرّوا به وصدّقوه مع شدّه حرصهم علی تکذیبه، واعتنائهم بالردِّ علیه، وکانوا قریبی العهد بأَصحاب الفیل، فلو لم یکن لذلک عندهم حقیقهٌ وأصلٌ لأنکَرُوهُ، وجحدوه، وکیف وأنّهم قد أرّخوا بذلک کما أرّخوا ببناء الکعبه، وموت قصیّ بن کعب وغیر ذلک.

وقد أکثر الشعراء ذکر الفیل ونظّموه ونقلته الرواهُ عنهم فمِن ذلک ما قاله (أُمیّه) بن أبی الصلت:

إنّ آیات ربِّنا بَیِّناتٍ ما یُمارىْ فیهِنّ إلّاالکَفُورُ

حبَس الفِیْلَ بالمُغمَّس حَتی ظَلّ یحبو کأنه مَعْقُورُ

وقال عبداللّه بن عمرو بن مخزوم:

أنتَ الجليل ربَنا لم تُدْنِس أنت حبَسْت الفيل بالمغمَّس

مِنْ بعد ما همَّ بشيء مَبْلسِ حبَستَه فی هيئه المكركس(۱)

وقال ابن قيس الرقيّات فی قصيده:

وَاسْتَهلَّتْ عَلَيْهِمُ الطَيْر با لجندلِ حَتی كأَنَّه مَرْجُومُ (۲)

ماذا بَعْدَ هزيمه الأحباش؟

لقد استوجب مقتل أبرهه وتحطّم جيشه وهلاكهم، وبالتالی هزيمه أعداء الكعبه المشرّفه، وأعداء قريش، أن يتعاظم شأن المكيين، وشأن الكعبه الشريفه فی نظر العرب، فلا يجرأ أحدٌ - بعد ذلك - فی أن يحدِّث نفسه بغزو مكّه، والإغاره علی قريش، أو أن يفكّر فی التطاول علی الكعبه المعظّمه صرح التوحيد الشامخ، فقد أخذ الناس يقولون فی أنفسهم: إنّ اللّه أهلك أعداء بيته المعظّم بمثل ذلك الإهلاك إحتراماً لبيته وتعظيماً لشأن قريش، وقلّما كان يتصوّر أحدٌ أنّ ما وقع كان لأجل المحافظه عی الكعبه فقط، أی من دون أن يكون لمكانه قريش ومنزلتهم وشأنهم دخل فی ذلك، ويشهد بذلك أنّ قريشاً تعرّضت مراراً لحملات متكرّره من غزاه ذلك العصر دون أن يُصابُوا بمثل ما أُصيب به جندُ «أبرهه» الّذی قصد الكعبه بالذات ويواجهوا ما واجهه، من الردع والكبت.

إنَّ هذا الفتح والظفر الّذی نالته قريش من دون تعب ونصب، ومن دون إراقه أيه دماء من أبنائها، أحدثت فی نفوس القرشيّين حالات جديده خاصّه، فقد زادت من غرورهم وحمّيتهم، وعنجهيتهم، واعتزازهم بعنصرهم، فأخذوا يفكّرون فی تحديد شؤون الآخرين، والتقليل من وزنهم، اعتقاداً منهم بأنّهم الطبقه الممتازه من

۱- . المنكَّس.

۲- . تفسير مجمع البيان للطبرسی: ۱۰/۴۴۸ فی تفسير سوره الفيل.

العرب دون سواهم. كما أنّها دفعتهم إلى أن يتصوَّروا أنّهم وحدهم موضع عنايه الأصنام (الثلاـ ثمائه والستين) فهم وحدهم الذين تحبُّهم تلك الأصنامُ، وتحميهم وتدافع عنهم!! ولأجل هذا تمادوا فى لَهوهم، ولعبهم، وتوسّعوا فى ممارسه اللذه والترف حتّى أنّهم أظهروا وَلعاً شديداً بالخمر، فكانوا يحتسونها فى كلّ مناسبه، وربّما مدّوا موائد الخمر فى فناء الكعبه، وأقاموا مجالس سَمرهم وأُنسهم إلى جانب أصنامهم الخشبيه، والحجريه، الّتى كان لكلّ قبيله من العرب بِينها صَنمٌ أو أكثر، ويقضون فيها أسعدَ لحظات حياتهم - حَسب تصوّرهم - وَهم يتناقلون فيها كل ما سمعوه من أخبار وقصص حول «مناذره» الحيره و «غساسنه» الشام وقبائل اليمن، وهم يتصوّرون أنّ هذه الحياه الجميله هى من بركه تلك الأصنام والأوثان، فهى الّتى جعلت عامّه العرب تخضع لقريش، وجعلت قريشاً أفضل من جميع العرب!!

أوهام قريش تتفاقم!!

إنَّ أخطرَ ما يمرُّ به إنسانٌ فى حياته هو أن يصفو عيشه من المشاكل، ردحاً من الزمن ويحسّ لنفسه بنوع من الحصانه الوهميه، فعندها تجده يخصّ الحياه بنفسه ويستأثر بكلّ شىء فى الوجود، ولاـ يرى لغيره من أبناء نوعه وجنسه من البشر أىّ حق فى الحياه، ولا أىّ شأن وقيمه تذكر، وذلك هو ما يصطلح عليه بالاستكبار والاستعلاء، والإحساس بالتفوّق، والغطرسه.

وهذا هو بعينه ما حصل لقريش بعد اندحار جيش «أبرهه» وهلاكه، وهلاك جنده بذلك الشكل العجيب الرهيب.

فقد عزمت قريش منذ ذلك اليوم - وبهدف إثبات تفوقّها وعظمتها للآخرين -، على أن تلغى أى احترام لأهل الحلّ لأنّهم كانوا يقولون: إنّ جميع

العرب محتاجون إلى معبدنا، وقد رأى العرب عامّه كيف اعتنت بنا آلهةُ الكعبه، خاصّه، وكيف حمتنا من الأعداء!!

ومن هنا بـدأت قريش تضـيّق على كلّ مَن يدخل مكّه من أهل الحل للعمره أو الحج، وتتعامل معهم بخشونه بالغه، وديكتاتوريه شديـده، ففرضت على كـلّ من يريـد دخول مكّه للحـج أو العمره أن لا يصـطحب معه طعاماً من خارج الحرم، ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتنى من طعـام أهـل الحرم، ويأكل منه، وأن يلبس عنـد الطواف بالبيت من ثياب أهل مكّه التقليـديه القوميه، أو يطوف عرياناً بالكعبه إن لم يكن فى مقـدوره شـراؤها واقتناؤها، ومَن كان يَرفُض الخضوع لهذا الأمر، مِن رؤساء القبائل وزعمائها، كان عليه أن ينزع ثيابه – بعد انتهائه من الطواف – ويلقيها جانباً، ولا يحق لأحد أن يمسّها أبداً لا صاحبها ولا غيره.(۱)

أمّـا النسـاء فكـان يجب عليهن إذا أردنَ الطـواف أن يُطفنَ عراه، وأن يضـعن خرقه على رؤوسـهن فقـالت امرأه من العرب، وهى كذلك تطوف بالبيت:

اليوم يبدو بعضُه أو كُلّه وما بدا منه فلا أُحِلُّه(۲)

ثم إنّه لم يكن يحق لأيّيهودى أو مسيحى – بعـد هزيمه «أبرهه» الّذى كان هو أيضاً مسيحياً – أن يدخل مكّه إلّاأن يكون أجيراً لمكيٍّ، وحتّى فى هذه الصوره كان يجب عليه أن لا يتحدّث فى شىء من أمر دينه ومن أمر كتابه.

لقد بلغت النخوهُ والعصبيه بقريش حدّاً جعلتهم يتركون بعض مناسك الحج الّتى كان يجب الإتيان بها خارج الحرم!!

۱- . وكـانت تسـمّى عنـدهم «اللّقى»، أى الملقى على الأـرض، وقيـل: أصـل اللقى أنّهم كـانوا إذا طـافوا خلعوا ثيـابهم وقالوا: لا نطوف فى ثيـاب عصـينا اللّه فيهـا فيلقونهـا عنهم، ويسـمّون ذلـك الثوب لقى، فإذا قضوا مناسـكهم لم يأخـذوها وتركوها بحالها ملقاه. لاحظ: بحار الأنوار: ۱۹/۶۷.

۲- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ۱/۴۵۲؛ السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۳۱.

لقـد أنفوا منـذ ذلـك اليوم أن يـأتوا بمناسك عرفه كما يفعل بقيه الناس فتركوا الوقوف بعرفه، والإفاضه منها مع أنّ آباءهم (من ولد إسماعيل) كانوا يُقرّون أنّها من المشاعر والحج،(۱) وكانت هيبه قريش وعظمتها الظاهريه رهنٌ - برمتها - بوجود الكعبه بين ظهرانيها، وبوظائف الحـج ومناسـكه هذه، إذ كان يجب على الناس فى كلّ عام أن يأتوا إلى هذا الوادى الخالى عن الزرع وهذه الصـحراء اليابسه لأداء المناسك، إذ لو لَم يكن فى هذه النقطه من الأَرض أىُ مطاف أو مشعر لما رغب أحد حتّى فى العبور بها فضـلًا عن المكث فيها عـدّه أيام وليال. لقـد كان ظهورُ مثل هذا الفساد الأخلاقى وهذا الموقف المتعصِّب من الآخرين أمراً لابدَّ منه بحسب المحاسبات الاجتماعيه.

فالبيئه المكيّه لابدّ أن تغرق فى الفساد والإنحراف حتّى يتهيّأ العالم لانقلاب أساسىّ ونهضه جذريه.

إنّ كلّ ذلك الانفلات الأخلاقى والترف والانحراف كان يهيّئ الأرضيه ويعدّها لظهور مصلح عالمى، أكثر فاكثر.

ولهـذا لم يكن غريبـاً أن يغضب «أبوسـفيان» فرعون مكّه وطاغيتهـا على «ورقه بن نوفـل» حكيم العرب الّـذى تنصّـر فى أُخريات حيـاته واطّلع على ما فى الإنجيل، كلّما تحـدَّث عن اللّه والأنبياء ويقول له: «لا حاجه إلى مثل هـذا الإله وهـذا النبىّ، تكفينا عنايه أصنامنا»!!

عَبدُ اللّه والدُ النبىّ:

يوم فـدى «عبدُالمطلب» ولده «عبداللّه» بمائه من الإبل، نحرها، وأطعم الناس فى سبيل اللّه، لم يكن يمض من عمر «عبداللّه» أكثر من أربعه عشر ربيعاً،

۱- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ۱/۴۵۲.

وقد تسبَّبَتْ هذه الواقعهُ فی أن یکتسب «عبدُاللّه» شهره خاصّه بین عشیرته مضافاً إلی شهرته الکبری بین قریش، وأن یحظی بمکانه کبیره عند أبیه: «عبدالمطلب» بنحو خاص، لأنّ ما یُکلِّفُ الإنسان غالیاً، ویتحملُ فی سبیله عناء أکثر لابدَّ أن یحظی لدیه بمکانه أکبر، ویحبّه محبّه تفوقُ المتعارف.

ومن هنا کان «عبدُاللّه» یتمتعُ باحترام یفوق الوصف بین أبناء عشیرته وأفراد عائلته وأقربائه.

ثم إنّ «عبدَاللّه» یوم کان یتوجّه برفقه والدهِ إلی المذبح کان یعانی من مشاعر وأحاسیسَ متناقضه ومتضاده، فهو من جانب کان یُکِنّ لوالده احتراماً کبیراً وحبّاً شدیداً، ولهذا لم یکن یَجدُ بدّاً من طاعته، والانصیاع لمطلبه، بینما کان من جانب آخر یعانی من قلق، واضطراب شدیدین علی حیاته الّتی کان یری کیف تعبث بها یدُ القدر، وتکادُ تقضی علیها کما یقضی الخریفُ علی أوراق الشجر.

کما أنّ «عبدالمطلب» نفسه کان هو الآخر تتجاذبه قوّتان متضادتان: قوهُ الإیمان والعقیده من جانب، وقوهُ العاطفه والمحبّه الأبویه من جانب آخر، وقد أوجدَت هذه الواقعه فی نفسی هاتین الشخصیتین آثاراً مُرّه یصعُب زوالها، بید أن تلک المشکله حیث عولجت بالطریقه الّتی ذکرناها ونجا «عبداللّه» من الموت المحقّق، فکّر «عبدالمطلب» فوراً فی أن یغسل عن قلب «عبداللّه» تلک المراره القاسیه بزواج «عبداللّه» بآمنه، وبذلک یقوّی من عری حیاته الّتی بلغت درجه الانصرام، بأقوی السُّبُل، وأمتن الوسائل.

ومن هنا توجّه «عبدالمطلب» إلی بیت «وهَب بن عبدمَناف» - فور رُجوعه من المذبح آخذاً بید ولده عبداللّه - وعقد لولده علی «آمنه بنت وَهَب» الّتی کانت تُعرَفُ بالعِفه، والطُهر، والنجابه، والکمال.

كما أنّه عقد لنفسه - فی ذات المجلس - علی «دلاله» ابنه عم آمنه، ورُزقَ منها «حمزه» عمّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم والمشابه له فی السن.(۱)

غیر أنّ الأُستاذ المؤرّخ «عبدالوهاب النجار» المدرّس بقسم التخصّص فی الأزهر الّذی صحح «الکامل فی التاریخ» لابن الأثیر، وعلّق علیه بملاحظات وهوامش مفیده، شکّک فی صحه هذه الروایه، واستغربها، وقال: لا أظنُ أنّه یصحّ شیء فی هذه الروایه، إذ المعقولُ أن یتریث «عبدالمطلب» بعد ذلک المجهود المضنیّ حتّی یریح نفسه ثم یذهب لیخطب لابنه.(۲)

ولکنّنا نعتقد بأنّ المؤرّخ المذکور لو نَظرَ إلی المسأله مِن غیر هذه الزاویه لسَهُل علیه التصدیقُ بهذه الروایه.

ثم إنّ «عبدالمطّلب» عَیّن موعداً للزفاف، وعند حلول ذلک الموعد تمّت مراسمُ الزفاف فی بیت «آمنه» طبقاً لما کان متعارفاً علیه فی قریش، ولبث «عبداللّه» مع «آمنه» ردحاً من الزمن حتّی سافر إلی الشام للتجاره، وعند عودته توفّی أثناء الطریق، کما ستعرف.

دَورُ الأَیادی المشْبُوهَه فی تاریخ الإسلام

لا شکّ أَنَّ التاریخ سَجَّلَ فی صفحاته کُلَّ ما یتعلّق بالشعوب والأقوام من نقاط مضیئه أو مظلمه، کقصص للعبره والعظه.

ولکنّ الحب والبغضَ تاره، والتساهل والبدعه تاره أُخری، وحبّ إظهار المقدره وإبراز القوه الأدبیه تاره ثالثه، وغیر ذلک من العوامل والأسباب عملت عملها فتدخّلت - فی جمیع الأدوار والعصور - فی صیاغه التاریخ، وخلَطت الغث

۱- . تاریخ الطبری: ۲/۷، والمذکور فی هذا المصدر «هاله».

۲- . الکامل فی التاریخ: ۲/۴، قسم الهامش.

بالسمين والحقيقه بالخرافه، وتلك هى مشكله كبرى تقع فى طريق المؤرّخ الّذى يريد عرض حوادث التاريخ فى أمانه وإستقامه، ولـذلك يجب عليه أن يميّز الحقّ عن الباطـل، والصـدق عن الكـذب من خلال الأخـذ بـالموازين العلميه، والممـارسه الكـامله للتاريـخ. ولقـد كان للعوامل المـذكوره تأثير أيضاً فى تدوين التاريخ الإسـلامى، فالأيادى المريبه المشـبوهه عملت على تحريف الحقائق فى هـذا المجال، بل وربّما عمد بعض الأصدقاء - بهدف تعظيم شأن النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله و سـلم إلى نسـبه بعض الأُمور الّتى يظهرُ عليها آثار الاختلاق والوضع، إليه صلى الله عليه و آله و سلم، وهو منها بُراء.

فقـد جاء فى التاريـخ أنّ نور النبوَّه كان يسـطع فى جبين «عبـداللّه» والد النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم دائماً(۱)، كما نقرأ أنّ «عبدالمطلب» كان يأخذ بيد ولده «عبداللّه» فى سنين الجدب والقحط، ويصعد الجبل ويستسقى متوسِّلاً إلى اللّه بالنور الّذى كان بيّنا فى جبين «عبـداللّه»، فهذا هو ما كتبه وسـجّله كثيرٌ من علماء الشـيعه والسـنّه فى مؤلّفاتهم، ونحن لا نملك أىّ دليل على عدم صحّته.(۲)

ولكن هذا النور صار أساساً لبعض الأساطير الّتى لا يمكن أن نقبل بها مطلقاً، وهذا ما نلاحظه فى القصه التاليه!!

قِصَّه فاطمه الخَثعَمِيَّه

«فاطمهُ» هذه هى أختُ «ورَقَه بن نوفل» الّذى كان من حكماء العرب وكُهّانهم، وكان له معرفه كبيره بالإنجيل. وقد سجّل التاريخ حديثه مع خديجه فى بدء بعثه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، وسوف نشير إليه فى محلّه من هذا الكتاب.

وكانت «فاطمه» أُخت «ورقه» قد سمعت من أخيها عن نبوّه رجل من أحفاد

۱- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۱/۶۳.

۲- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ۲/۷-۸؛ بحار الأنوار: ۱۵/۱۱۴.

«إسماعيل»، ولهذا ظلّت تنتظر، وتبحث.

وذات يوم وعندما كان «عبدالمطلب» متوجّهاً إلى بيت آمنه بنت وهب بعد قفوله ومنصرفه من المذبح وهو آخذ بيد «عبداللّه»، شاهدت «فاطمه الخثعميه» - الّتى كانت تقف على مقربه من منزلها - النور الساطع من جبين «عبداللّه»، والّذى كانت تنتظره مدّه طويله وتبحث عنه بشوق، فقالت: أين تذهب يا عبداللّه؟ لكَ مِثلُ الإبل الّتى نُحِرَت عنك، وقعْ علىَّ الآن.

فقال: إنّ معى أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه!!.

ثمّ تزوّج «عبداللّه» بآمنه فى نفس ذلك اليوم، وقضى معها ليله واحده.

ثم فى الغد من ذلك اليوم أتى المرأه «الخثعميه» الّتى عرضت نفسها عليه، وأبدى استعداده لتنفيذ رغبتها، ولكن «الخثعميه» قالت له: ليس لى بك اليوم حاجه، فلقد فارقك النورُ الّذى كان مَعك أمس!!.

وقيل: إنه لمّا عرضت تلك المرأه «الخثعميه» على «عبداللّه» ما عرضت، أجابها «عبداللّه» بالبداهه ببيتين من الشعر هما:

أمّا الحَرامُ فالمماتُ دُونَهُ وَالحِلُّ لاحلٌ فاستبينهُ

فكيفَ بالأَمر الّذى تبغِينَهُ يحمى الكريمُ عرضَه ودينَهُ

ولكن لم تمر ثلاثه من زواجه بآمنه، وإقامته عندها حتّى دعته نفسُه إلى أن يأتى الخثعميه، وعرض نفسه عليها قائلاً: هل لك فيما كنت أردتْ؟ فقالت: لقد رأيت فى وجهك نوراً فأردتُ أن يكون لى فأبى اللّه إلّاأن يجعله حيث أراد، فما صنعت بعدى؟

قال: زوَّجنی أبی آمنه بنت وهب»!!.(۱)

علائم الإختلاق فی هذه القصه!

لقد غَفل مختلِقُ هذه القصّه عن أُمور کثیره عند صیاغته لها، ولم یستطع إخفاء آثار الإختلاق عنها.

فلو کان یکتفی بالقول - مثلاً - بأنّ «فاطمه» صادفت «عبداللّه» ذات یوم فی زقاق من الأزقه، أو سوق من الأسواق، وشاهدت نورَ النبیّ ساطعاً من طلعته ففکّرت فی الزواج منه، رغبه فی ذلک النور، لکان من الممکن التصدیق بهذه القصه، بیدَ أنّ نصَّ القصه جاء بصوره لا یمکن القبول بها للأسباب التالیه:

۱. أنّ هذه القصه تفید أنَّ المرأه «الخثعمیه» عندما عرضت نفسها علی «عبداللّه»، کانت ید «عبداللّه» فی ید والده «عبدالمطلب»، فکیف یمکن أن تعرض تلک الفتاه نفسَها علیه وتبیّن مطلوبها له، ویدور بینهما ما دار، ولا یشعر بهما عبدالمطلب؟!

ثمّ ألم تستحِ من عظیم قریش «عبدالمطلب» الّذی لم یثنه عن طاعه اللّه تعالی شیء حتّی قتلُ ولده وذبحه.

ولو قلنا: إنّ مطلبها کان حلالاً مشروعاً، فإنّ ذلک لا ینسجم مع البیتین من الشعر اللَّذین ردّ بهما «عبداللّه» طلبها.

۲. والأصعب من ذلک قصّه عبداللّه نفسه. فإنّ ولداً مثل «عبداللّه» یحترم والده إلی درجه الاستعداد لأن یُذْبَحَ وفاءً لنذر والده، کیف یمکن أن یتفوّه فی حضره والده بما نُقِلَ عنه؟!

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۱/۱۰۱-۱۰۳؛ تاریخ الطبری: ۲/۵-۷؛ والکامل فی التاریخ: ۲/۷-۸.

ترى أيمكن لشاب نجا لتوّه من السيف والذبح، ولا يزال يعانى من آثار الصدمه الروحيه أن يستجيب لرغبات امرأه، أو يبدى استعداده ورضاه القلبىّ لذلك لولا وجود والده معه؟!! ترى هل كانت تلك المرأه جاهله بالظروف، لا تقدّر الأحوال، ولا تعرف الوقت المناسب لطرح مطلبها، أو أنَّ مختلق هذه القصه غَفل عن نقاط الضعف البارزه هذه؟!!

ثم إنّ ممّا يفضح هذه القصّه ويُظهر بطلانها ما جاء فى الصوره الثانيه لها، فإنّ عبداللّه - كما لاحظنا - جابه طلب تلك المرأه ببيتين من الشعر وقال ما حاصله بأنّ الموت أسهل عليه من ارتكاب هذا الفعل الحرام الّذى يأتى على دين الرجل وشرفه، فكيف يجوز لمثل هذا الشاب الطاهر الغيور أن يقع فريسه لتلك الأهواء، والرغبات الرخيصه الفاسده، والحال أنّه لم ينقض من زواجه أكثر من ثلاث ليال، وتدفعه غريزته الجنسيه إلى أن يبادر إلى بيت المرأه الخثعميه.

إنَّ ماجابَه به «عبداللّه» دعوه تلك المرأه، وما جاء فى ذينك البيتين من الشعر اللّذين يطفحان بالغيره، والإباء، لخيرُ دليل على طهاره «عبداللّه» وعفّته، وتقواه، وترفّعه عن الآثام والأدران، وابتعاده عن الأنجاس والأدناس.

وقد علّق الأُستاذ العلّامه «النجار» على هذه الأُسطوره بقوله: «ليس من المعقول أن يذهب عبداللّه يبغى الزنا فى الساعه الّتى تزوج فيها، ودخل فيها على امرأته».

ولكنّ الأُستاذ «النجار» أخطأ فى تشكيكه فى النور النبوىّ الساطع فى جبين «عبداللّه» حيث قال معقباً على كلامه السابق: «ولكنّها مسأله النور فى وجهه يريدون إثباتها ورسول اللّه غنى عن هذا كلّه».(۱)

۱- . هامش الكامل فى التاريخ: ۲/۴.

فإنّ ذلك ممّا رواه جميع المؤرّخين بلا استثناء، فلا داعى ولا وجه للتشكيك فيه!

طهاره النبىّ من دنس الآباء وعهر الأُمّهات

:

وينبغى هنا - وبالمناسبه - أن نشير إلى مسأله مهمّه فى تاريخ النبىّ الكريم صلى الله عليه و آله و سلم ألا وهى طهاره النسب النبوى من دنس الآباء ودناءتهم وعهر الأُمّهات وفسادهن، فلا يكون فى أجداده وجدّاته سفاح، وزنا.

وهذا ممّا اتّفق عليه المسلمون، بعد أن دلّ عليه العقل، إذ لو لم يكن النبىّ منزّهاً عن دناءه الآباء وعهر الأُمّهات، لتنفّرت عنه الطباع ولم يرغب أحدٌ فى متابعته، والانقياد لأوامره ونواهيه.

ولقد صرّح رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم بذلك فى أحاديث رواها السنّه والشيعه.

فقد جاء عن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال:

«نقلت من الأصلاب الطاهره إلى الأرحام الطاهره نكاحاً لا سفاحاً».(۱)

وجاء أيضاً أنّه صلى الله عليه و آله و سلم قال:

«لم يزل اللّه ينقلنى من الأصلاب الحسيبه إلى الأرحام الطاهره».(۲)

وقال الإمام أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام:

«وأشهد أنّ محمَّداً عبدُه ورسولُه وسيّدُ عباده كلما نسخَ اللّه الخلقَ فرقتين جعله فى خيرهما لم يُسهِم فيه عاهرٌ، ولا ضربَ فيه فاجرٌ».(۳)

وروى عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام فى هذا الصدد عند تفسير قول اللّه

۱- . كنز الفوائد: ۷۰.

۲- . السيره الحلبيه: ۱/۷۰.

۳- . نهج البلاغه: ۲/۱۹۴، الخطبه ۲۱۴، طبعه عبده.

تعالی: «وَ تَقَلُّبَکَ فِی السّاجِدِینَ» (۱) أنّهما قالا:

«فی أصلاب النبیّین، نَبیٍّ بعد نبیٍّ، حتّی أخرجه من صلب أبیه عن نکاح غیر سفاح من لدن آدم».(۲) وقد صرّح علماء الإسلام من الفریقین بهذا الأمر، واشترطوه فی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم.

قال المحقّق نصیر الدین الطوسی فی «تجرید الاعتقاد»: ویجب فی النبیّ العصمه... وعدم السهو، وکلّ ما ینفّرُ عنه من دناءه الآباء وعهر الأُمّهات....(۳)

وقد وافقه علی هذا العلّامه القوشجی الأشعری فی شرح التجرید.(۴)

وقال العلّامه المتکلّم المقداد السیوری فی «اللوامع الإلهیه»: ویجب أن لا یکون مولوداً من الزنا ولا فی آبائه دنیّ ولا عاهر.(۵)

وفاهُ عَبْد اللّه فی «یَثْرب»:

لقد بَدَأ «عبدُاللّه» بالزواج فصلاً جدیداً فی حیاته، وأضاء ربوعها بوجود شریکه للحیاه فی غایه العفّه والکمال هی زوجته الطاهره «آمنه»، وبعد مدّه من هذا الزواج المبارک توجّه فی رحله تجاریه - وبصحبه قافله - إلی الشام بهدف التجاره.

دقت أجراسُ الرحیل، وتحرّکت القافله التجاریه وفیها عبداللّه، وبدأت رحلتها من «مکّه» صوب الشام، وهی مشدوده بمئات القلوب والأفئده.

وکانت «آمنه» تمر فی هذه الأیام بفتره الحمل، فقد حملت من زوجها

۱- . الشعراء: ۲۱۹.

۲- . تفسیر مجمع البیان: ۷/۳۵۸، عند تفسیر الآیه.

۳- . کشف المراد فی شرح تجرید الاعتقاد: ۴۷۲، تحقیق الشیخ حسن زاده الآملی.

۴- . راجع: شرح القوشجی لتجرید الاعتقاد: ۳۵۹.

۵- . اللوامع الإلهیه: ۳۱۱.

«عبداللّه».

وبعد مُضىّ بضعه أشهر طلعت على مشارف مكّه بوادر القافله التجاريه وهى عائده من رحلتها، وخرج جمع كبير من أهل مكّه لاستقبال ذويهم المسافرين العائدين. ها هو والد «عبداللّه» ينتظر - فى المنتظرين - ابنه «عبداللّه»، كما أنّ عيون عروسه ولده «آمنه» هى الأُخرى تدور هنا وهناك تتصفّح الوجوه وتبحث عن زوجها «عبداللّه» فى شوق لا يوصف.

ولكن ومع الأسف لا يجدان أثراً من «عبداللّه» بين رجال القافله!!

وبعد التحقيق يتبيّن أنّ «عبداللّه» قد تمرّض أثناء عودته فى يثرب، فتوقّف هناك بين أخواله لكى يستريح قليلاً فإذا تماثل للشفاء عاد إلى أهله فى «مكّه».

وكان من الطبيعى أن يغتمّ هذان المنتظران «عبدالمطلب، وآمنه» لهذا النبأ، وتعلو وجهيهما آثار الحزن، والقلق وتنحدر من عيونهما دموع الأسى والأسف.

فأمرَ «عبدُالمطّلب» أكبر ولده: «الحارث» إلى أن يتوجَّه إلى «يثرب»، ويصطحب معه «عبداللّه» إلى مكّه.

ولكنّه عندما دخل يثرب عرف بأنّ أخاه: «عبداللّه» قد توفّى بعد مفارقه القافله له بشهر واحد، فعاد الحارث إلى مكّه، فأخبر والده «عبدالمطلب»، وكذا زوجته العزيزه «آمنه» بذلك، ولم يخلّف «عبداللّه» من المال سوى خمسه من الابل، وقطيع من الغنم، وجاريه تدعى «أُمّ أيمن» صارت فيما بعد مربيه النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.(۱)

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲/۷ و ۸؛ والسيره الحلبيه: ۱/۸۱-۸۲.

۶ مَولدُ رَسُول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم

اشاره

کـانت سُـحُبُ الجـاهلیه الـداکنه تُغطّی سـماء الجزیره العربیه، وتمحی الاعمـالُ القبیحهُ والممارساتُ الظالمه، والحروبُ الـدامیهُ، والنهبُ والسـلبُ، ووأدُ البنـات، وقتلُ الاولاد، کُلَّ فضـیله أخلاقیه فی البیئه العربیه، وکان المجتمع العربیّ قـد أصـبح فی منحـدر عجیب من الشقاء، لیس بینهم وبین الموت إلّاغشاء رقیق ومسافه قصیره!!

فی هـذا الوقت بالـذات طلعت علیهم شـمس السـعاده والحیاه فأضاءت محیط الجزیره الغارق فی الظلام الـدامس، وذلک عنـدما أشـرقت بیئه الحجـاز بمولـد النبیّ المبـارک «محمَّد» صـلی الله علیه و آله و سـلم وبهـذا تهیّأَت المقـدّمات اللازمه لنهضه شـعب متخلّف طال رزوحُه تحت ظلام الجهل، والتخلّف، وطالت معاناته لمراره الشقاء. فإنّه لم یمض زمن طویل إلّاوملأ نور هذا الولید المبارک أرجاء العالم وأسّس حضاره إنسانیه عظمی فی کلّ المعموره.

فترهُ الطُفوله فی حَیاه العُظماء

إنّ جمیع الفصول فی حیاه العظماء جـدیرهٌ بالتأمّل، وقمینه بالمطالعه، فربّما تبلغ العظمه فی شخصـیه أحـدهم من السـعه، والسـموّ بحیث تشـمل جمیع فصول حیـاته بـدء من الطفوله، بل وفتره الرضاع فتکون حیاته وشخصـیته برمّتها سلسـله متواصـله من حلقات العظمه.

إنّ جمیع الأدوار، والفترات فی حیاه العظماء، والنوابغ وقاده المجتمعات

البشريه، وروّاد الحضارات الإنسانيه وبُناتها تنطوى فى الأغلب على نقاط مثيره وحساسه وعلى مواطن توجب الإعجاب.

إنّ صفحات تاريخهم وحياتهم منذ اللحظه الّتى تنعقد فيها نطفهم فى أرحام الأُمّهات، وحتّى آخر لحظه من أعمارهم مليئه بالأسرار، زاخره بالعجائب.

فنحن كثيراً ما نقرأ عن حياه أُولئك العظماء فى أدوار طفولتهم أنّها كانت تقارن سلسلةً من الأُمور العجيبه، والمعجزه.

ولو سهل علينا التصديق بهذا الأمر فى شأن الرجال العاديين من عظماء العالم، لكان تصديقنا بأمثالها فى شأن الأنبياء والرسل أسهل من ذلك بكثير، وكثير.

إنّ القرآن الكريم ذكر فتره الطفوله فى حياه النبىّ موسى عليه السلام فى صوره محفوفه بكثير من الأسرار، فهو يقول ما خلاصته: إنّ مئآت من الاطفال قُتِلوا وذُبحوا بأمْر من فرعون ذلك العصر منعاً من ولاده موسى ونشوئه.

ولكنّ إراده اللّه شاءت أن يُولد الكليم، وظلّت هذه المشيئه تحفظه من كيد الكائدين، ولهذا لم يعجز أعداؤه عن القضاء عليه أو إلحاق الأذى به فحسب، بل تربّى فى بيت فرعون أعدى أعدائه.

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلَيْكَ مَرَّهً أُخْرى * إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّهً مِنِّى وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِى» .

ثمّ يقول: «إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ» .(۱)

ثمّ إنّ القرآن الكريم يذكر قصّه ولاده المسيح، ويصوّر طفولته

۱- . طه: ۳۷-۴۰.

ونشأته بشكل أعجب إذ يقول:

«وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا * قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا * قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا * قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنّاسِ وَ رَحْمَةً مِنّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا * فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا * فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا * فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً فَإِمّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا * يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قالَ إِنِّي عَبْدُ اللّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا * وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا * وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبّاراً شَقِيًّا * وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» .(۱)

فإذا كان أتباع القرآن والتوراه والإنجيل يشهدون بصحّه هذه المطالب حول ولاده هذين النبيين العظيمين من أُولى العزم موسى وعيسى عليهما السلام، ويقرّون بصدقها، فلا يصحّ فى هذه الصوره أن نستغرب وقوع أمثالها فى شأن رسول الإسلام، ونتعجب من الحوادث العجيبه الّتى سبقت أو رافقت ميلاده المبارك، ونعتبرها

۱- . مريم: ۱۶-۳۳.

أَموراً سطحیه لا تدلّ علی شیء.

فنحن نقرأ فی الکتب التاریخیه وفی کتب الحدیث عن وقوع حوادث عجیبه یوم ولاده النبیّ الکریم صلی الله علیه و آله و سلم مثل: ارتجاس(۱) أیوان کسری، وسقوط أربع عشره شرفه منه، وانخماد نار فارس الّتی کانت تُعبد، وانجفاف بحیره ساوه، وتساقط الأصنام المنصوبه فی الکعبه علی وجوهها، وخروج نور معه صلی الله علیه و آله و سلم أضاء مساحه واسعه من الجزیره، والرؤیا المخیفه الّتی رآها أنوشیروان ومؤبدوه، وولاده النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم مختوناً مقطوع السُرّه، وهو یقول: «أللّه أکبر، والحمدُ للّه کثیراً، سُبحان اللّه بکره وأصیلاً».

وقد وردت جمیع هذه الأُمور فی المصادر التاریخیه الأُولی، والجوامع الحدیثیه المعتبره.(۲)

ومع ملاحظه ما ورد فی حقّ موسی وعیسی علیهما السلام ونقلنا بعضه هنا، لا یبقی أیّ مجال للشکّ فی صحّه هذه الحوادث.

نعم ینبغی أن نسأل هنا: ماذا کانت تهدف هذه الحوادث غیر العادیه؟

وفی الإجابه عن هذا السؤال یجب أن نقول:

إنّ هذه الحوادث الخارقه والعجیبه کانت تهدف إلی أمرین:

الأوّل: أن تدفع بالجبابره، والوثنیین وعَبده الأصنام إلی التفکیر فیما هم فیه فیسألوا أنفسهم: لماذا انطفأت نیرانُهم الّتی طالما بقیت مشتعله تحرسها أعیان السَّدنه والکهنه؟

۱- . ارتجاس البناء أی رجف واضطرب وتحرک حرکه یسمع لها صوت. تاج العروس: ۸/۳۰۴، ماده «رجس».

۲- . لاحظ: تاریخ الیعقوبی: ۲/۵؛ بحار الأنوار: ۱۵/۲۴۸-۳۳۱؛ تاریخ الطبری: ۱/۵۸۰؛ البدایه والنهایه: ۲/۳۲۷؛ إمتاع الأسماع للمقریزی: ۴/۶۰ وغیرها.

لماذا سبّبت هزةٌ خفيفةٌ فی ارتجاس إيوان كسری العظيم المحكم البنيان، ولم يحدث لبيت عجوز فی نفس ذلك البلد شیء؟

لماذا تهاوت الأصنامُ المنصوبه فی الكعبه وحولها، وانكبّت علی وجوهها بينما بقيت غيرها من الأشياء علی حالها لم يصبها شیء أبداً؟

لو كانوا يفكّرون فی تلك الحوادث لعرفوا أنّ تلك الحوادث كانت تبشّر بعصر جديد... عصر انتهاء فتره الوثنيه وزوال مظاهر السلطه الشيطانيه واندحارها؟

الثانی: إنّ هذه الحوادث جاءت لتبرهن علی شأن الوليد العظيم، وأنّه ليس وليداً عادياً، فهو كغيره من الأنبياء العظام الذين رافقت مواليدهم أمثال تلك الحوادث العجيبه، والوقائع الغريبه، كما يُخبر بذلك القرآن الكريم عن حياه الأنبياء - كما عرفت - وتحدّثت بها تواريخ الشعوب والأُمم المسيحيه واليهوديه.

وأساساً لا يلزم أن تكون تلك الحوادث سبباً للعبره ووسيله للإتّعاظ يوم وقوعها، بل يكفی أن تقع حادثه فی إحدی السنين، ثم يعتبرُ بها الناس بعد أعوام عديده، وقد كانت حوادثُ الميلاد النبویّ من هذه المقوله، لأنّ الهدف منها كان هو إيجاد هزه فی ضمائر أُولئك الناس الذين كانوا قد غرقوا فی أوحال الوثنيه، والظلم، والانحراف الأخلاقی حتّی قمه رؤوسهم، وعشعشت الجهاله والغفله فی أعماقهم حتّی النخاع.

إنّ الذين عاشوا فی عصر الرساله، أو مَن أتی من بعدهم عندما يسمعون نداء رجل نهض - بكلّ قواه - ضدّ الوثنيه، والظلم، ثم يطالعون سوابقه، ويلاحظون إلی جانب ذلك ما وقع ليله ميلاده من الحوادث العظيمه الّتی تتلاءم مع دعوته، فإنّهم ولا شكّ سيعتبرون تقارن هذين النوعين من الحوادث دليلاً علی صحّه دعواه، وصدق مقاله، فيصدِّقونه، وينضوون تحت لوائه.

إنّ وقوع أمثال هذه الحوادث الخوارق عند ميلاد الأنبياء مثل «إبراهيم» و

«موسی» و «المسیح» و «محمّد» (صلّی اللّه علیه وعلیهم أجمعین) لا ـ یقلّ أهمّیه عن وقوعها فی عصر رسالتهم ونبوّتهم، فهی جمیعاً تنبع من اللُّطف الإلهی، وتتحقّق لهدایه البشریه، وجذبها إلی دعوه سفرائه ورسله.

فی أیّ یوم وُلدَ رَسُولُ اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم؟

لقد اتّفق عامّه کُتّاب السیره علی أنّ ولاده النبیِّ الکریم کانت فی عام الفیل سنه ۵۷۰ میلادیه.

لأنّه صلی الله علیه و آله و سلم رحل إلی ربه عام (۶۳۲) میلادیه عن (۶۲) أو (۶۳) عاماً، وعلی هذا الأساس تکون ولادته المبارکه قد وقعت فی سنه (۵۷۰) میلادیه تقریباً.

کما أنّ أکثر المحدّثین والمؤرّخین یتّفقون علی أنّه صلی الله علیه و آله و سلم ولدَ فی شهر ربیع الأوّل.

إنّما وقع الخلاف فی یوم میلاده، والمشهور بین محدّثی الشیعه أنّه کان یوم الجمعه السابع عشر من شهر ربیع الأوّل بعد طلوع الفجر.

والمشهور بین أهل السنّه أنّه صلی الله علیه و آله و سلم وُلدَ فی یوم الاثنین الثانی عشر من ذلک الشهر.(۱)

أیُّ القولین هو الصحیح؟

إنّ من المؤسف جدّاً أن یعانی التقویم الدقیق لمیلاد رسول الإسلام العظیم صلی الله علیه و آله و سلم ووفاته، بل مواليد ووفیات أکثر قادتنا وأئمتنا مثل هذا الارتباک، وأن لا تکون أوقاتها وتواریخها محدّدهً معلومه علی وجه التحقیق والیقین!.

۱- . وقد ذکر المقریزی فی «الإمتاع»: ۳، جمیع الأقوال المذکوره فی یوم میلاد النبیّ وشهره وعامه، فراجع.

ولقد تسبّب هذا الارتباك فی أن لا تستند أكثر احتفالاتنا ومآتمنا إلی تاريخ قطعیّ، فی حين نجد أنّ علماء الإسلام كانوا يهتمّون - عاده - بتسجيل الوقائع الّتی حدثت علی مدار القرون الإسلاميه فی نظم خاص وعنايه كبيره، ولكنّنا لا ندری ما الّذی منع من تسجيل مواليد هذه الشخصيات العظيمه ووفياتهم علی نحو دقيق، وصوره قطعيه؟!

علی أنّ مثل هذه المشكله يمكن حلّها بدرجه كبيره بالرجوع إلی أهل البيت عليهم السلام، فإنّ أی مؤرخ لو أراد أنْ يكتب عن حياه شخصيّه من الشخصيات وأراد أن يُلمّ بكلّ تفاصيلها ودقائقها لم يسمح لنفسه بأن يفعل ذلك من دون أن يراجع أبناء أو أقرباء تلك الشخصيه الّتی يزمع ترجمتها والكتابه عنها.

ولقد مضی رسولُ اللّه صلی الله عليه و آله و سلم وخلّف من بعده ذريه وقربی وهم الذين يطلق عليهم أهل البيت.

وأهل بيته يقولون: لو كان صحيحاً وحقّاً أنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم أبونا وجدّنا، وقد نشأنا فی بيته وترعرعنا فی حجره فإنّنا نقول إنّه قد ولد يوم كذا وتوفّی يوم كذا، فهل يبقی بعد ذلك مجال لأن نتجاهل قولهم ورأيهم، ونختار ما يقوله الآخرون من الأبعدين، وقديماً قالوا: أهل البيت أدری بما فی البيت؟(۱)

فَتْرَهُ الحَمْل

المعروفُ أنّ النورَ النبویَ الشريف استقرّ فی رحم آمنه الطاهر فی أيام التشريق - وهی اليوم الحادی عشر والثانی عشر والثالث عشر من شهر ذی

۱- . ومن هنا لابد من الاعتراف بأنّ ما ينقله ويكتبه الإماميه من تفاصيل تتعلّق بحياه رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم هی أقرب من غيرها إلی الحقيقه لأنّها مأخوذه عن أقربائه وأبنائه عليهم السلام.

الحجه(۱) – ولکن هذا الأمر لا ینسجم مع الرأی المشهور بین عامّه المؤرّخین من کون ولاده النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم فی شهر ربیع الأوّل، إذ فی هذه الصوره یجب أن نعتبر مده حمل «آمنه» به صلی الله علیه و آله و سلم إمّا ثلاثه أشهر وإمّا سنه وثلاثه أشهر، وکلا الأمرین خارجان عن الموازین العادّیه فی الحمل، کما أنّه لم یعدّهُ أحدٌ من خصائص النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم.(۲)

ولقد عالَج المحققُ الکبیر الشهید الثانی (۹۱۱-۹۶۶ ه) هذا الإشکال بالنحو التالی إذ قال:

إنّ إیام التشریق لم تکن ثابته عند العرب زمن الجاهلیه بل کانت تتغیر أو تتأخر حسب اختیار العرب الجاهلی من ذلک. وهذا هو المعبّر عنه فی القرآن الکریم بالنسیء فی قوله تعالی: «إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیادَهٌ فِی الْکُفْرِ یُضَلُّ بِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا یُحِلُّونَهُ عاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عاماً لِیُواطِؤُا عِدَّهَ ما حَرَّمَ اللّهُ» (۳).(۴)

وتوضیح هذا هو أنّ أبناء «إسماعیل» کانوا تبعاً لأسلافهم یؤدّون مناسک الحج فی شهر ذی الحجه، ولکنّهم رأوا – فی ما بعد – أن یحجّوا فی کلّ شهر عامین یعنی أن یحجّوا فی ذی الحجّه عامین، وفی المحرم عامین، وفی صفر عامین وهکذا.

وهذا یعنی أنّ الحج یعود کلّ أربعه وعشرین سنه فی موضعه الطبیعی (أی شهر ذی الحجّه).

وقد جری العربُ المشرکونَ علی هذه الطریقه حتّی صادفت أیامُ الحج شهر

۱- . لاحظ: الکافی: ۱/۴۳۹ أبواب التاریخ، باب مولد النبیّ صلّی اللّه علیه وآله ووفاته.

۲- . قد ذکر الطریحی فقط فی «مجمع البحرین» فی ماده «شرق» قولاً بهذا لم یُسم قائله.

۳- . التوبه: ۳۷.

۴- . الروضه البهیه فی شرح اللمعه الدمشقیه: ۵/۴۳۳.

ذی الحجّه فی السنه العاشره من الهجره النبویه فحّج النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی تلک السنه حجّه الوداع، فنهی فی خطبه له عن هذه الفعله (الّتی تُسمّی بالنسیء بمعنی تأخیر الحج عن موضعه وموعده) فقال: «ألا وَإنَّ الزَّمان قد استَدارَ کَهیئتِهِ یَوْمَ خَلَقَ اللّه السَّماواتِ وَالأَرضَ، السَّنه اثنا عشَرَ شَهراً، مِنها أرْبَعَهٌ حُرُمٌ: ثَلاثٌ مَتوالِیاتٌ:

ذوالقعده، وذوالحجه، والمحرَّم، ورجَب مضر الّذی بَین جمادی وشعبان».(۱)

وقد أراد صلی الله علیه و آله و سلم بذلک أنّ الأشهر الحُرم رجَعت إلی مواضعها، وعاد الحجّ إلی ذی الحجه وبَطل النسیء.

ونزل فی هذه المناسبه قولُ اللّه تعالی: «إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیادَهٌ فِی الْکُفْرِ یُضَلُّ بِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا یُحِلُّونَهُ عاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عاماً» .(۲)

من هنا تنتقل أیامُ التشریق کلّ سنتین من مواضعها، علی ما عرفت، وحینئذٍ لا منافاه بین القول بأنّ نور النبیّ انتقل إلی رحم أُمّه «آمنه بنت وهب» فی أیام التشریق، وبین ما أجمع علیه عامّه المؤرّخین من أنّه وُلدَ فی شهر ربیع الأوّل. وإنّما تکون المنافاه بین هذین الأَمرین إذا کان المراد من أیام التشریق هو الیومُ الحادی عشر، والثانی عشر، والثالث عشر من شهر ذی الحجه خاصّه، ولکن قلنا: إنّ أیام التشریق کانت تنتقل من شهر إلی آخر باستمرار، فیلزم أن یکون عام حمل أُمّه به، وعام ولادته أیام الحجّ الواقعه فی شهر جمادی الأُولی، وحیث إنّه صلی الله علیه و آله و سلم وُلدَ فی شهر ربیع الأوّل فتکون مُدّه حَمل «آمنه» به عشره أشهر تقریباً.(۳)

۱- . مجمع البیان: ۵/۵۴.

۲- . التوبه: ۳۷.

۳- . لاحظ: الروضه البهیه فی شرح اللمعه الدمشقیه: ۵/۴۳۳-۴۳۵.

مُؤاخَذاتٌ وإشكالاتٌ عَلى هذا البَيان:

إنّ النتيجه الّتى توصّل إليها المرحومُ «الشهيد الثانى» ليست صحيحه، كما أنّ المعنى الّذى ذكره للنسىء لم يقل به من بين المفسّرين إلّامجاهد، وأمّا الآخرون فقد فسَّروهُ بنحو آخر فلا يكون التفسيرُ الّذى مَرَّ قوّياً، وذلك:

أوّلاً: لأنّ «مكّه» كانت مركزاً لجميع الاجتماعات كما كانت معبداً للعرب جميعاً، ولا يخفى أنَّ تغيير الحجّ فى كلّ سنتين مرّةً واحدةً من شأنه أن يسبّب الالتباسَ لدى الناس ويوقعهم فى الخطأ والاشتباه، وبالتالى يتعرّض ذلك الاجتماع العظيم، وتلك العباده الجماعيه إلى خطر الزوال.

ولهذا يُستَبعد أن ترضى قريش والمكيّون بأن يخضع ما هو وسيله لعزّتهم وافتخارهم للتغيير والتبدّل الّذى من عواقبه أن يتعرّض وقته وموعده للنسيان، فيذهب ذلك الإجتماع، ويزول من الأساس.

ثانياً: إذا أخضَعنا ما قاله «الشهيد الثانى» لمحاسبه دقيقه فإنّ كلامه يستلزم أن تكون أيام التشريق والحج فى السنه التاسعه من الهجره واقعه فى شهر ذى القعده لا جمادى الأُولى فى حين أنّ أميرالمؤمنين عليّاً عليه السلام كُلِّفَ فى هذه السنه بالذات بأن يقرأَ سوره البراءه على المشركين فى أيام الحجّ، والمفسّرون والمحدّثون متّفقون على أنّه عليه السلام تلاها عليهم فى العاشر من شهر ذى الحجّه ثم أمهلهم أربعه أشهر ابتداء من شهر ذى الحجه لا ذى القعده.(۱)

ثالثاً: أنّ النسىء يعنى أنَّ العرب حيث لم يكن لديهم مصدر صحيح للرزق بل كانوا يعيشون فى الأغلب، على النهب والغاره لهذا كان من الصعب عليهم ترك

۱- . ولقد قام العلّامه المجلسى فى بحار الأنوار: ۱۵/۲۵۳ بهذه المحاسبه، وإنْ لم يشر إلى الإشكال الّذى أوردناه، فليراجع.

الحرب، فی الأشهر الحرم الثلاث (وهی ذوالقعده وذوالحجه، والمحرّم) لهذا ربّما طلبوا من سدَنه الکعبه بأن یسمحوا لهم بالقتال فی شهر المحرم، ثم یترکون الحرب فی شهر صفر، وهذا هو معنی النسیء فلم یکن نسیء وتأخیر للشهر الحرام فی غیر شهر محرَّم، وفی الآیه نفسها إشارهٌ إلی هذا المطلب: «یُحِلُّونَهُ عاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عاماً» .(۱) والّذی نراه فی حلّ هذه المشکله هو: أنّ العرب کانوا یحجُّون فی وقتین:

أحدهما شهر ذی الحجه، والثانی شهر رجب، وقد کانوا یؤدُّون کلّ مناسک الحج فی هذین الوقتین علی السواء، فیمکن أن یکون المقصودُ من حَمْل «آمنه» برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی أیام التشریق هو شهر رجب، فإذا اعتبرنا یوم ولادته هو السابع عشر من شهر ربیع الأوّل کانت مدّه حمل «آمنه» به ثمانیه أشهر وأیاماً.

الإحتفال بذکری المولد النبوی

ینبغی أن یحتفل المسلمون جمیعاً بمولد النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم ویقیموا المهرجانات الکبری فی هذه المناسبه الشریفه الّتی کانت مبدأ الخیر والبرکه، ومنشأ السعاده والکرامه للبشریه جمعاء، وأیّه مناسبه أحری بالإحتفال والاحتفاء من هذ المناسبه؟

علی أنّ إقامه مثل هذه الاحتفالات هو نوع من تکریم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهو أمرٌ مطلوب ومحبوب فی الشریعه المقدّسه.

فقد قال اللّه تعالی: «فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .(۲)

۱- . التوبه: ۳۷.

۲- . الأعراف: ۱۵۷.

وعزّر بمعنى فخّم وعظّم وأعان ونَصر كما فى اللغه(۱)، وهو لا يختص بزمان دون زمان، فعلى المسلمين فى كل وقت وزمان أن يعظّموا شأن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويكرّمونه، سواء فى حياته أو بعد مماته، لما له من فضل عظيم على الناس، ولما له من منزله عنداللّه تعالى.

كيف لا والاحتفال بميلاده لا يعنى سوى ذكر أخلاقه العظيمه، وسجاياه النبيله، والإشاده بشرفه وفضله وهى أُمور مدحه القرآن الكريم بها إذ قال سبحانه:

«وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (۲)، وقال تعالى أيضاً: «وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ» (۳) وغير ذلك من الآيات المادحه لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فإنّ الاحتفال بميلاد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الّذى يتحقّق بذكر صفاته وأخلاقه والإشاده به خير مصداق لرفع ذكره، الّذى فَعلهُ اللّه بنحوٍ مّا.

ولو كان رفع ذكر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أمراً غير جائز ولا- صحيح، بل فعلاً- قبيحاً لما فعله اللّه، فيكفى فى حسنه وصحّته بل ومشروعيته ومطلوبيته أنّ اللّه تعالى فعله بالنسبه لنبيّه صلى الله عليه و آله و سلم.

وهل يكون الاحتفال بمولد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وإظهار السرور والشكر للّه تعالى بمقدم نبيه المبارك عباده للنبىّ كما يزعم البعض إذ يقول:

«الذكريات الّتى ملأت البلاد باسم الأولياء هى نوع من العباده لهم وتعظيمهم».(۴)

والحال أنّ العباده فى مفهومها الاصطلاحى الموجب للشرك والكفر ليس إلّا

۱- . راجع: لسان العرب: ۴/۵۶۲، ماده «عزر».

۲- . القلم: ۴.

۳- . الشرح: ۴.

۴- . القائل هو محمد حامد الفقى رئيس جماعه أنصار السنّه المحمديه فى هوامشه على كتاب فتح المجيد: ۱۵۴، ثمّ نقل عن كتاب قرّه العيون ما يشابه هذا المضمون.

الخضوع لمن يُعتَقَدْ بإلوهيته وتعظيمه بهذه النيّه،(۱) وأين هذا من ذكر فضائل النبيّ فى يوم مولده والابتهاج بمقدمه والشكر للّه على ولادته.

ثم إنّ تعظيم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ينطلق من كونه عبداً مطيعاً للّه تعالى، أدّى رسالته بصدق وإخلاص، وجسّد بسلوكه وسيرته كلّ مكارم الأخلاق أصدق تجسيد فالاحتفال بمولده الكريم إحتفال بالقيّم الساميه، وشكر للّه على منّه، وإظهار للحب الكامن فى النفوس ليس إلّا.

والزعم بأنّه محرّم لكونه بدعه، أو لأنّه لا يخلو عن اشتماله على منكرات ومحرّمات كالرقص والغناء فهو مرفوض، مردود لأنّ الكلام إنّما هو حول أصل الاحتفال مجرّداً عن المحرّمات والمنكرات. إنّ الاحتفاء والاحتفال بمولد خاتم النبيين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إنّما هو تكريم لمن كرّمه اللّه تعالى، وأمر بتكريمه، وحثّ على احترامه وحبّه، ومودّته، وإنّه بالتالى أداء شكر للّه تعالى على تلك الموهبه العظيمه، وتلك العطيّه المباركه حيث مَنّ سبحانه على البشريه عامّه وعلى المسلمين خاصّه بأن شرّف الأرض بمولد عظيم نَعُمت الأرض ببركه شخصيته وخلقه، وأشرقت بنور رسالته ودعوته، فأيّه نعمه تُرى أولى بالشكر من هذه، وأى شكر أجمل وأفضل من الإحتفاء بمولد هذا النبيّ العظيم صلى الله عليه و آله و سلم، وذكر فضائله، ومناقبه، للتعرّف عليها، والاقتداء بها، وتشديد الحب له بسببها، والابتهال إلى اللّه فى يوم ميلاده، وطلب التوفيق الإلهى لمتابعته، والسير على نهجه، والدفاع عن رسالته، والذبّ دون دينه، بعد الشكر للّه تعالى على موهبته هذه؟؟

هذا ولقد درج المسلمون فى العصور الإسلاميه الأُولى على الإحتفال بذكرى المولد النبوّى وأنشدوا القصائد الرائعه فى مدحه، وذكر خصاله ومكارم

۱- . راجع مفاهيم القرآن (فى معالم التوحيد): ۱/۴۰۴-۴۴۰.

أخلاقه، وأظهروا السرور بمولده والشكر للّه تعالى بلطفه، وتفضله به صلى الله عليه و آله و سلم على البشريه.

قال الإمام الدياربكرى فى تاريخ الخميس فى هذا الصدد:

لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام ويعملون الولائم، ويتصدّقون فى لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور، ويزيدون فى المبرّات ويعتنون بقراءه مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كلّ فضل عميم.(۱)

مَراسمُ تسميه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم

حلَّ اليومُ السابعُ من الميلاد المبارك، فعقَّ عبدالمطلب عن النبىّ بكبش شكراً للّه تعالى ودعا جماعه ليشتركوا فى الاحتفال الّذى حضرهُ عامّه قريش لتسميه النبىّ، وسمّاه «محمَّداً»، وعندما سألوه عمّا حَمله على أن يُسمّى هذا الوليد المبارك «محمَّداً» وهو اسم لم يعرفه العرب إلّانادراً أجاب قائلاً: أردتُ أن يحمَده اللّه فى السماء وتحمده الناس فى الأَرض.(۲)

وإلى ذلك يشير حسان بن ثابت بقوله:

فَشقَّ لَهُ مِنْ إسُمهِ لِيُجلَّهُ فذو العَرْش مَحْمُودٌ وَ هذا محمَّدُ(۳)

ومن المسلّم أنّ هذا الإختيار لم يكن ليتم من دون دخاله للإلهام الالهى، لأَنّ اسم «محمَّد» وإن كان موجوداً عند العرب إلّاأنّه قَلّ مَن كان قد تسمّى بهذا الاسم، فحسب ما استقصاه بعضُ المؤرّخين لم يتسَم به إلى ذلك اليوم من العرب إلّاسته عشر شخصاً كما يقول شاعرهم:

۱- . تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس: ۱/۲۲۳، نقلاً عن المواهب اللدنيه: ۱/۲۷، للقسطلانى.

۲- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۱/۱۲۸.

۳- . بحار الأنوار: ۱۲۰/۱۶؛ السيره الحلبيه: ۱/۱۲۸.

إنَ الذينَ سَمُّوا باسم محمدٍ مِنْ قَبلِ خير الخَلقِ ضِعف ثمان(۱)

ولا يخفى أن نُدره المصاديق لأى لفظ من الالفاظ أو اسم من الأسماء من شأنِها أن تقلّل فرص الاشتباه فيه، وحيث إنّ الكتب السماويه كانت قد أخبرتْ عن اسم النبىّ الخاتم صلى الله عليه و آله و سلم وصفاته، وعلائمه الرُّوحيه والجسميه، لذلك يجب أن تكون علائمُه صلى الله عليه و آله و سلم واضحهً جدّاً جدّاً حتّى لا يتطرّق إليها التباسٌ أو اشتباهٌ، وقد كان من علائمه صلى الله عليه و آله و سلم اسمُه الشريف، فيجب أن تكون مصاديقُها قليله جدّاً حتّى يزيل ذلك أىّ عروض للشكّ والترديد فى تشخيص النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم خاصّه إذا ضمَّتْ إليه بقيه أوصافِه وعلائِمِه، وخصوصياته.

خَطأ الْمُستَشْرقينْ

لقد ذكر القرآنُ الكريمُ اسمين أو عدّه أسماء للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

ففى سوره آل عمران ومحمَّد والأحزاب والفتح فى الآيات ۱۴۴ و ۲ و ۴۰ و ۲۹ سمّاه «محمَّداً».(۲)

وفى سوره الصف الآيه ۶(۳) دعاه «أحمد».

والعلّهُ فى تسميّته بهذين الاسمين أنّ أُمّهُ «آمنه» سمّته «أحمداً» قبل أن

۱- . السيره الحلبيه: ۱/۱۳۴ ثمّ يذكر صاحب السيره أُولئك الأشخاص فى بيتين آخرين.

۲- . قال تعالى: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ». وقال تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ». وقال سبحانه: ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ». وقال عزّوجلّ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ».

۳- . إذ قال سبحانه: وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ».

يُسمّيه جدّه، كما هو مذكور فى التاريخ.

وعلى هـذا فـإنّ مـا ذكرهُ بعضُ المستشـرقين - فى معرض الاـعتراض - بـأنّ الإنجيـل - حسب تصـريح القرآن الكريم فى سـوره الصف الآيه ۶ - بشّر بنبىّ اسـمُه «أحمـد» لا «محمَّد» كلامٌ لا أساسَ له ولا مبرر، لأنّ القرآن الكريم الّذى سـمّى نبيّنا ب «أحمد» سمّاه فى عدّه مواضع ب «محمَّد»، فإذا كان المصدر فى تعيين اسم النبىّ هو:

القرآن الكريم، فإنّ القرآن سَمّاه بكلا الاسمين، فى موضع باسم «محمَّد»، وفى موضع آخر باسم «أحمد».

«أحمد» كانَ مِنْ أسماء النبىّ المشهوره

كلُّ مَن كان له أدنى إلمامٍ بتاريخ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم عَلِمَ أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يُدعى باسمين فى الناس منذ صغره أحدهما: «محمَّد» الّذى سَمّاه به جَدُّه «عبدالمطلب»، والآخر «أحمد» الّذى سمّته به أُمّه «آمنه».

وهذه حقيقه من حقائق التاريخ الإسلامى، وقد روى المؤرّخون هذا الأمر، ويمكن للقارئ الكريم أن يقرأه فى السيره الحلبيه.(۱)

ولقـد أنشأ عمُّه «أبوطالب»، الّـذى أُنيطَت إليه كفالته بعد وفاه عبدالمطلب، فبقى يقوم بهذه المهمّه طوال اثنين وأربعين عاماً بكل حرص ورغبه، ولم يمتنع فى هـذا السبيـل عن بـذل كـلّ مـا اسـتطاع من غـال ورخيص، أنشأ فى ابن أخيه أبياتاً سـمّاه فى بعضـها «محمَّد» وفى بعضها الآخر «أحمد»، وهذا يكشف عن أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان معروفاً آنذاك بكلا الاسمين.

وإليك فيما يأتى بعض هذه الأبيات الّتى سَمّى فيها «أبوطالب» النبىّ باسم أحمد:

۱- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۱/۱۲۸، باب تسميته صلى الله عليه و آله و سلم محمد وأحمد.

۱. إنْ یکَنْ ما أتی بهِ أحمدُ الیومَ سَناءً وکانَ فی الحشر دیناً

۲. وقالوا لأحمد أنتَ اْمرؤٌ خَلُوفُ الحدیث ضَعیف النُسبْ

۳. ألا إنّ أحمدَ قد جاءهم بحقٍ ولم یَأتِهِمْ بالکَذِبْ

۴. أرادُوا قَتْل أحمد ظالموه وَلیس لقتله فیهم زعیم

۵. ألا إنَّ خیرَ الناس نفْساً ووالداً إذا عُدَّ ساداتُ البریه أحمدُ

۶. فَلسْنا وبیتُ اللّه نسلم أحمداً لِعزّاء من عض الزمان ولا کرب(۱)

وقد سمّی «أبوطالب» النبیَ صلی الله علیه و آله و سلم فی أبیات أُخری بأحمد أیضاً قد ذکرها کبار المحقّقین من المؤرّخین والمحدّثین ونسبوها إلی أبی طالب ولکنّها غیر موجوده فی دیوانه.(۲)

۱- . لاحظ: دیوان أبی طالب علیه السلام؛ إیمان أبی طالب للمفید: ۳۱؛ مناقب ابن شهرآشوب: ۱/۵۸؛ الغدیر: ۷/۳۳۲ و ۳۶۴.

۲- . مثل قوله: لَعمری لقد کلِفتُ وَجْداً بأحمد وَأحبَبْتُهُ حُب الحبیب المواصلِ زعمتْ قریشٌ أَن أحمد ساحرٌ کَذِبَتْ وَربّ الراقصاتِ إلی الحَرم راجع دیوان أبی طالب، وسیره ابن هشام: ۱/۱۸۰؛ وشرح النهج لابن أبی الحدید: ۱۴/۷۹ وغیرها.

كما وأنّه قد سَمّاه غيرُ أبى طالب فى أبياته بأحمد ممّا يدلّ على أنّه كان مشتهراً بهذا الاسم فى ذلك الزمان، وتلك الأبيات كثيره تفوق حدّ الحصر والإحصاء لكنّنا ننقل نماذج منها هنا:

قال حسّان بن ثابت فى رثائه للنبى صلى الله عليه و آله و سلم:

مفجعةٌ قد شفّها فقدُ أحمد فظلّت لآلاء الرسول تُعدّدُ

أطالت وقوفاً تذرف العينَ جُهدها على طَلل القبر الّذى فيه أحمدُ(۱)

وقال فى رثائه أيضاً:

صَلّى الإلهُ وَمنْ يحف بعرشِهِ والطَّيِبُونَ عَلى المبارك أحمدِ(۲)

وقال فى رثاء جعفر بن أبى طالب الطيّار:

فمن كان أو من قد يكون كأحمد نظام الحق أونكال لملحد(۳)

وقال حَسّان وهو يذكر معجزه من معاجز النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم:

۱- . سيره ابن هشام: ۲/۶۶۶-۶۶۷؛ البدايه والنهايه: ۵/۳۰۱.

۲- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ۲/۳۲۳.

۳- . أُسد الغابه: ۲/۴؛ إمتاع الأسماع للمقريزى: ۲/۱۴۹.

ففی کَفِّ أحمدَ قد فجّرت عُیونٌ مِنَ الماءِ یومَ الظمأ(۱)

وقال کَعبُ بن مالک:

فهذا نَبِیُّ اللّه أحمدُ سَبّحت صِغارُ الحصی فی کَفِّه بالتَرنّم(۲)

وقال «ورقه بن نوفل» یومَ أخبرتهُ خدیجهُ بنزول الوحی علی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم:

فإنْ یَکُ حَقّاً یا خَدیجهُ فاعلمی حَدیثک إیّانا فأحمدُ مُرسَلُ (۳)

وقالت عاتکهُ بنتُ عَبدالمطلب ترثی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم:

یا عینُ جُودی ما بقیتِ بعبره سَحّاً علی خیر البریه أحمدِ(۴)

وقال العباسُ فی مناسبه تزویج النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بخدیجه:

أحمدُ سَیّدُ الوَری خیر ماشٍ وَ راکِب(۵)

۱- . بحار الأنوار: ۱۶/۴۱۳.

۲- . بحار الأنوار: ۱۶/۴۱۵.

۳- . بحار الأنوار: ۱۸/۱۹۵؛ إمتاع الأسماع: ۳/۲۰.

۴- . طبقات ابن سعد: ۲/۳۲۶؛ إمتاع الأسماع: ۱۴/۵۹۸.

۵- . بحار الأنوار: ۱۶/۷۲.

فتْرَةُ الرِّضاع فی حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم

لم یرتضع ولیدُ قریش المبارک «محمَّد» من أُمّه سوی ثلاثه أیام، ثم حَظِیَت بفخر إرضاعه - بعد ذلک - امرأتانُ هما:

۱. «ثویبه» مولاه «أبی لهب»، وقد أرضعته أربعه أشهر فقط، وکان النبیُ صلی الله علیه و آله و سلم وزوجتُه الوفیّه: «خدیجه بنت خویلد» یقدّران هذا العمل لها حتّی آخر لحظات حیاتها.(۱)

و «ثویبه» هذه کانت قد أرضَعَتْ قبلَ ذلک «حمزه» عمَّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم و «أبا سلمه بن عبد الأسد المخزومی» أیضاً فکانوا إخوه من الرضاعه.(۲)

وقد بعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بعد مَبعثه، مَن یشتریها من «أبی لهب» لیعتقها فأبی.

وکان النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم یکرمها کلّما دخلت علیه، وکان یبعث إلیها بالصِّله إلی أن بلغه خبرُ وفاتها عند منصرفه من وقعه «خیبر» فسأل عن ابنها؟ فقیل: مات قبلها، فسأل عن قرابتها؟ فقیل: لم یبق منهم أحد.(۳)

۲. «حلیمه السعدیه» بنت أبی ذؤیب الّتی کانت من قبیله سعد بن بکر بن هوازن، وکان أولادها عباره عن: «عبداللّه»، «أنیسه»، «شیماء»، وقد قامت آخر أولادها وهی «الشیماء» بحضانه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أیضاً:

وقد کان من عاده العرب یومذاک هو أن یدفعوا أولادهم الرضعاء إلی المراضع اللائی کُنَّ یَعِشنَ فی البوادی لینشأوا فی تلک البیئات المعروفه بطیب

۱- . تاریخ الخمیس فی أحوال أنفس نفیس: ۱/۲۲۲.

۲- . الکامل فی التاریخ: ۱/۴۵۹.

۳- . تاریخ الخمیس: ۱/۲۲۲، نقلاً عن سیره مغلطای وغیره.

هوائها، وقلّه رطوبتها، وعذوبه مائها ببنيه قويّه، هذا مضافاً إلى صيانتهم عن خطر الوباء الّذى كان يهدد الأطفال فى «مكّه»، ولأنّ ذلك كان له مدخلٌ عظيم، وتأثيرٌ بليغ فى فصاحه المولود لسلامه لغه أهل القبائل الساكنه فى البوادى آنذاك.

وكانت مراضعُ بنى سعد من المشهورات بهذا الأمر بين العرب، فقد كانت نساء هذه القبيله الّتى كانت تسكن حوالى «مكّه» ونواحى الحرم يأتين «مكّه» فى كل عام فى موسم خاص يلتمسنَ الرضَعاء ويذهبن بهم إلى بلادهنَّ حتى تتمّ الرضاعه.

وكان النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم قد تجاوز شهره الرابع لمّا قدمت نساء من بنى سعد «مكّه» يلتمسنَ الرضعاء فى سنه جدب وقحط، ولهذا كنَّ بحاجه شديده إلى مساعده أشراف «مكّه» وأعيانها.

ويقول بعض المؤرّخين: إنّه لم تقبل أيّه واحده من تلك المراضع أن تأخذ «محمَّداً» بسبب يتمه، وقد كان أغلبهن يُرِدْنَ أن يأخذنّ مَن يكون له أبٌ حىٌّ حتى يُغدق عَلَيْهنَّ بالمساعدات والصِّلات، وحتّى «حليمه» هى الأُخرى أبتْ أخذَهُ، ولكنَّها أيضاً لم تحصل على طفل لِهزال جسمها، فاضطرّت إلى أن تأخذ حفيد «عبدالمطلب» وقالت لزوجها: واللّه لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه، فقال لها زوجُها: لا عليك أن تفعلى، وعسى اللّه أن يجعل لنا فيه بركه.

ولقد أصاب الزوجان فى ظنّهما هذا، فمنذ أن أبدت «حليمه» استعدادها لخدمه ذلك اليتيم شملت الألطاف الإلهيه كلّ مجالات حياتها.(1) إنّ القسم الأوّل من هذه القصّه ليس سوى اسطوره، لأنّ مكانه البيت الهاشمى الرفيعه، وشخصيه رجل عُرِفَ بِكمال الجود والإحسان، وبعون

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۰۵-۱۰۶؛ بحار الأنوار: ۱۵/۳۶۴.

المحتاجين والمحرومين كانت سبباً فی أن لا تعرض المرضعات عن أخذ «محمَّد» فحسب، بل يتنازعن على أخذه، ولهذا لا يكون هذا القسمُ مِنَ التاريخ سوى أُسطوره تكذبها الحقائق.

وأمّا علّه عدم إعطائه صلى الله عليه و آله و سلم إلى غير «حليمه» من المرضعات فهی: أنّ وليد قريش لم يقبل أیّ ثدی من أثداء تِلكم المرضعات، ولم يزل كذلك حتّى قبلَ ثدی «حليمه السعديه»، فسرّ بذلك «عبدُالمطلب» وأهله سروراً عظيماً، بعد أن حزنهم امتناعُه عنهنَّ قبل ذلك.(۱)

قالت «حليمه»: استقبلنی عبدُالمطلب فقال: مَن أنت، فقلت: أنا امرأه من بنی سعد، قال: ما اسمُك؟ قلتُ: حليمه، فتبسَّم «عبدالمطلب» وقال: بَخ بَخ سَعدٌ وحلْمٌ، خصلتان فيهما خيرُ الدهر، وعز الأبد.(۲)

نَظرهُ الإسلام فی تأثير الرضاع

وهنا ينبغی بالمناسبه أن نشير إلى نظره الإسلام فی تأثير الرضاع فی شخصيّه الإنسان.

فقد سبق الإسلامُ العلمَ الحديثَ فی الكشف عن آثار اللبن فی تكوين الإنسان الخُلقی والنفْسیّ والعضوی سَلباً وإيجاباً.

ولهذا حثَّ الإسلام على استرضاع الأُم، كما حثّ على اختيار المرضعات الصالحات ونهی عن استرضاع اليهوديه والمجوسيه والنصرانيه والمجنونه منعاً من انتقال طباعِهنَ إلى الطفل عن طريق اللبن.

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۵/۳۴۲-۳۴۳.

۲- . السيره الحلبيه: ۱/۱۴۷.

واستکمالاً لهذا البحث نورد جمله من الأحادیث الّتی تصرّح بهذه الحقیقه العلمیه الهامّه:

۱. قال امیرالمؤمنین علی علیه السلام:

«تَخَیّرُوا للرضاع کما تَتَخیَّرون لِلنِّکاح فإنّ الرِّضاعَ یُغیّرُ الطِباعَ».(۱)

۲. وعنه علیه السلام أیضاً:

«اُنظرُوا مَنْ تُرضعُ أولادکُمْ فَإنّ الوَلَد یَشُبُّ عَلیهِ».(۲)

۳ - عن الإمام أبی جعفر الباقر علیه السلام أنّه قال:

«لا تَسْتَرضعُوا الحَمقاء فإنّ اللبن یُعدی، وإنّ الغُلامَ یَنزع إلی اللَبن...».(۳)

۴. وعنه علیه السلام أیضاً:

«استرضعْ لولَدک بِلَبنِ الحِسان وإیّاکَ وَ القِباحُ فإنَّ اللَبنَ قد یُعدی».(۴)

۵. وعن علی علیه السلام أنّه قال:

«ما مِنْ لَبن یَرضَعُ به الصَبیُّ أعظمُ بَرکَهً عَلیْه مِنْ لَبنِ أُمَّهِ».(۵)

۱- . قرب الأسناد: ۹۳ ح ۳۱۲.

۲- . فروع الکافی: ۶/۳ ح ۱۰، باب مَن یکره لبنه وهو لا یکره.

۳- . وسائل الشیعه: ج ۲۱، الباب ۷۸ من أبواب أحکام الأولاد، الحدیث ۲ (آل البیت).

۴- . التهذیب: ۸/۱۱۰ ح ۲۵ (۳۷۶).

۵- . الکافی: ۶/۴۰ ح ۱، باب الرضاع.

۷ فَتْرةُ الطفُوله فی حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم

اشاره

إنّ صفحات التاریخ تشهد بأنّ حیاه رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم من بدایه طفولته وأوان صباه وإلی یوم بعثه بالرساله کانت مشحونه بسلسله من الحوادث العجیبه الّتی تعَدُّ بأجمعها من کراماته صلی الله علیه و آله و سلم وتدلّ علی أنّ حیاه النبیّ لم تکن حیاه عادیه.

وینقسم المؤلّفون فی تفسیر هذه الحوادث إلی طائفتین:

۱. المادیُّون، وجماعه من المستشرقین: فإنّ العلماء المادّیین الذین یحصرون الوجود فی نطاق المادّه، ویعتبرون جمیع الظواهر ظواهر مادّیه، وینحتون لکل واحده منها علّه طبیعیه، لا یهتمون بهذه الحوادث ولا یُعیرونها أیّه أهمیه، لامتناع واستحاله وقوع أمثال هذه الظواهر حسب النظره المادّیه، ولهذا فکلّ ما یصادفونه فی ثنایا التاریخ من هذا الباب یعتبرونه من ولائد الخیال، وممّا نسجته أوهامُ التابعین لذلک الدین، أو الطریقه.

وقد تبعهم فی هذا الموقف جماعه من المستشرقین فرغم أنّهم یعتبرون أنفسهم - حسب الظاهر - فی عداد الموحِّدین، والمؤمنین باللّه، وبما بعد الطبیعه من عوالم الغیب، إلّاأنّهم - لضعف إیمانهم وبسبب غرورهم العلمی، وغلبه النزعه المادیه علی أفکارهم وأذهانهم - اتبعوا - لدی تحلیلهم لهذه الحوادث - المنهج المادیّ، فنحن نقرأ فی کتاباتهم مراراً وتکراراً زعمهم بأنَ النبوه ماهی إلّانبوغٌ بشریٌّ، وأنّ النبیّ مجرّد نابغه اجتماعی استطاع تغییر مسار الحیاه البشریه بأفکاره النیّره!!

ولا شکّ أنّ مثل هذا التصوّر ینبع من طریقه التفکیر المادّی الّذی یعتبر

جميع الأديان من ولائد الفكر البشرى وإفرازات الذهن الإنسانى، فى حين أنّ علماء العقيده أثبتوا فى: مباحث «النبوَّه العامه» أنَّ النبوّه عطيه إلهيه، وموهبه ربّانيه هى فى الحقيقه منشأ جميع الإلهامات والارتباطات المعنويه، ومصدر لمناهج الأنبياء وبرامجهم، ليست أبداً وليده نبوغهم الإنسانى، ولا- نسيجه فكرهم البشرى، وليس لها مصدر إلّاالإلهام من الغيب، ولكن عندما ينظر المستشرقُ المسيحى إلى هذه القضايا من زاويه الفكر المادّى ويريد تفسير جميع هذه الظواهر بالأُسس العلميه الّتى كشفت عنها التجربهُ ينتقد مثل هذه الحوادث ذات الطابع الإعجازى، وربّما أنكرها من الأساس.

٢. المؤمنون باللّه: الذين يعتقدون بأنّ العالم المادّى بجميع خصوصياته وخواصّه يخضع لتدبير عالم آخر، وأنّ ذلك العالم (أى عالم التجرّد وماوراء الطبيعه) هو المنظِم لهذه الطبيعه، وهو المدّبِر لهذا الكون المادّى.

وبعباره أُخرى: إنّ عالم المادّه ليس عالماً مسيِّباً، مستقلّاً عن غيره، وإنّ جميع الأنظمه والقوانين الطبيعيه والعلميه مسبَّبهٌ عن تأثيرات موجودات عُليا، وبخاصّه ناشئهٌ عن إراده اللّه الخالقِ، الّذى أعطى للمادّه وجودها، وأوجد القوانين والعلاقات الصحيحه بين أجزائها، وبنى بقاءها على سلسله من النواميس الطبيعيه.

إنَ هذا الفريق من الناس مع احترامهم للقوانين العلميه، وإذعانهم الصادق بما قاله العلماء فى صعيد العلاقات، والروابط القائمه بين القوانين ممّا أثبته العلم وأكّده، يعتقدون بأنّ مثل هذه القوانين الطبيعيه ليست أُموراً لا تقبل التغيير، والتبدّل.

فهم يعتقدون بأنّ العالم الأعلى يمكنه - إذا أراد - أن يُغيّر تلك القوانين لغايات خاصّه، وليس فى مقدوره ذلك فقط، بل فعلَ ذلك فى جمله من الموارد لأهداف عُليا.

وبعباره أُخرى: إنَّ الافعال الخارقه للعاده ليست ظواهر عاريه عن العلل، بل

إنَّ علّتها غير طبيعيّه، وافتقاد العلّه الطبيعيه (وخاصّه العله الطبيعيه غير المعروفه) ليس دليلاً على افتقاد مطلق العلّه.

والخلاصه؛ إنّ قوانين الخلقه ليست بحيث لا يمكن تبدُّلها، وتغيّرها بإراده بارئها وخالقها.

إنّهم يقولون: إنَّ جميع خوارق العاده، وجميع أفعال الأنبياء العجيبه الّتى تتّصف بصفه الإعجاز، والخارجه عن إطار القوانين الطبيعيه، تتحقّق من هذه الزاويه.

إنَّ هذا الفريق من الناس لا يسمَحُون لأنفسهم بأن يرفضوا الأعمال الخارقه للعاده، والكرامات الّتى جاء ذكرها فى القرآن الكريم، والأحاديث، أو وردت فى المصادر التاريخيه الصحيحه المعتبره، أو يشكّوا فيها بحجّه أنّها لا توافق الموازين الطبيعيه، والقوانين العلميه.

وها نحن نشير إلى قضيتين عجيبتين وقعتا فى فتره الطفوله من حياه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ومع أخذ ما قلناه بنظر الاعتبار لا يبقى أىُّ مجال للترديد، أو الاستبعاد:

١. لقد نقَلَ المؤرّخون عن «حليمه السعديه» قولها بأنّها لمّا تكفَّلت إرضاع النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أرادت أن ترضعه، فلمّا دخلت الدار وسمع عبدالمطلب بمجيئها جاء من ساعته ودخل الدار، ووقف بين يدى حليمه، ففتحت حليمه جيبها وأخرجت ثديها الأيسر، وأخذت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فوضعته فى حجرها، ووضعت ثديها فى فمه، والنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ترك ثديها الأيسر، واضطرب إلى ثديها الأيمن، فأخذت «حليمه» ثديها الأيمن من يد النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ووضعت ثديها الأيسر فى فمه، وذلك أنَّ ثديها الأيمن كان جهاماً (أى خالياً من اللبن ولم يكن يدرُّ به) لم يكن فيه لبن، وخافت (حليمه) أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إذا مصَّ الثدى ولم يجد فيه شيئاً لا يأخذ - بعده - الأيسر.

ولكن النبىّ أصرَّ على أخذ الثدى الأيمن، فلمّا مصَّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم الأيمن امتلأ فانفتح

حتّی ملأ شدقیه بأمر اللّه تعالی وببرکته....(۱)

۲. وتقول «حلیمه» أیضاً: إنّ البوادی أجدبت وحملنا الجُهد علی دخول البلد، فدخلتُ مکّه ونساء بنی سعد قد سبقن إلی مراضعهنّ... فأخذتُ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فعرفنا (به) البرکه والزیاده فی معاشنا ورياشنا حتّی أثرینا، وکثرت مواشینا، وأموالنا.(۲)

إنَّ مَن المسلم أنَّ حکم المادّیین، أومن یحذو حذوهم ویتّبع منهجهم فی هذه المسائل یختلف عن حکم المؤمنین باللّه.

فإنّ أتباع المنهج المادّی إذ عجزوا عن تفسیر هذا النوع من القضایا من زاویه العلوم الطبیعیه، نجدهم یبادرون إلی اعتبار هذه الحوادث من نسج الخیال، ومن ولائد الأوهام، وأمّا إذا کانوا أکثر تأدّباً لقالوا: إنّ رسول الإسلام لیس بحاجه إلی أمثال هذه المعاجز.

ونحن نقول: لا نقاش فی أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم غنیّ عن هذه المعاجز، إلّاأنّ عدم الحاجه شیء، والحکم بصحّه هذه الأُمور أوبطلانها شیء آخر.

وأمّا المؤمن باللّه الّذی یردُّ النظام الطبیعی، إلی مشیئه اللّه خالق الکون وإرادته العلیا، ویعتقد بأنّ کلّ الحرکات والظواهر فی العالم الطبیعی من أصغر أجزائه (الذره) إلی أکبر موجوداته (المجرّه) یجری تحت تدبیره، ونظارته، فإنّه بعد التحقّق من مصادر هذه الحوادث والتأکّد من وقوعها ینظر إلیها بنظر الاحترام، وأمّا إذا لم یطمئن إلیها لم یرفضها رفضاً قاطعاً.

ولقد ورد فی القرآن الکریم نظائر عدیده لهذه القصه حول «مریم» أُمّ عیسی، فالقرآن یخبرنا عن تساقط الرطب الجَنیّ من جذع النخله الیابسه کرامه لوالده

۱- . بحار الأنوار: ۱۵/۳۴۵-۳۴۶ بتصرّف یسیر.

۲- . المناقب لابن شهرآشوب: ۱/۳۲؛ بحار الأنوار: ۱۵/۳۳۲-۳۳۳.

المسیح عندما لجأت إلیه مریم عند المخاض إذ یقول:

«... أَلاّ تَحْزَنِی قَدْ جَعَلَ رَبُّکِ تَحْتَکِ سَرِیًّا * وَ هُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَهِ تُساقِطْ عَلَیْکِ رُطَباً جَنِیًّا» .(۱)

إنّه وإن کان الفرق بین «مریم» و «حلیمه» شاسعاً وکبیراً من حیث الملکات الفاضله والمکانه، والمنزله، إلّاأنّ منزله «مریم» علیها السلام لو استوجبت مثل هذا اللطف الإلهی، ففی المقام استوجب نفسُ مقام الولید العظیم، ومکانته عنداللّه تعالی أن تشمله العنایه الإلهیه.

کما أنّه قد جاء فی القرآن الکریم حول مریم علیها السلام أُمور أُخری مشابهه.

إنّ عصمه هذه المرأه الطاهره، وتقاها وطهرها البالغ کانت بحیث أنّ «زکریا» کلّما دخل علیها المحراب وجد عندها رزقاً، فإذا سألها: مِن أینَ لکِ هذا؟ قالت: هو مِنْ عِنداللّه؟(۲).

وَ علی هذا الأساس یجب أن لا نتردَّد ولا نسمح لأنفسنا بأن نشکّ فی مثل هذه الکرامات، أو نستبعدها.

خَمسَهُ أعوام فی الصَحْراء

أمضی ولیدُ «عبدالمطلب» فی قبیله «بنی سعد» مدّه خمسه أعوام، بلغ فیها أشُدّه.

وخلالَ هذه المدّه أخذته «حلیمه» إلی أُمّه مرّتین أو ثلاث، وقد سلّمته إلی أُمّه فی آخر مرّه.

وکانت المرّه الأُولی من تلک المرّات عند فطامه، ولهذا السبب أتت به صلی الله علیه و آله و سلم

۱- . مریم: ۲۴ و ۲۵.

۲- . «... وَ کَفَّلها زکریّا کُلَّما دَخلَ عَلَیْها زکَریّا المِحْرابَ وَجدَ عِنْدها رزْقاً قال یا مَریَمُ أنّی لَکِ هذا قالَتْ هُو مِنْ عِنْداللّه» (آل عمران: ۳۷).

«حليمه» إلى مكّه ولكنّها عادت به إلى الصحراء بإصرار منها، وكان السبب وراء هذا الإصرار على اصطحابه معها إلى الباديه هو أنّ هذا الوليد قد أصبح مبعث خير ورخاء، وبركه فى منطقتها، وقد دفع شيوعُ الوباء فى «مكّه» إلى أن تقبل أُمُّه الكريمه بهذا الطلب.(۱)

وأمّا المرّهُ الثانيهُ من تلك المرّات فكانت عندما قدم جماعه من نصارى الحبشه إلى الحجاز، فوقع نظرهم على محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم فى «بنى سعد»، ووجدوا فيه جميع العلائم المذكوره فى الكتب السماويه للنبى الّذى سيأتى بعد عيسى المسيح عليه السلام، ولهذا عزموا على أخذه غيله إلى بلادهم لما عرفوا أنّ له شأناً عظيماً، لينالوا شرف احتضانه ويذهبوا بفخره.(۲)

ولا مجال لاستبعاد هذه القضيه لأنّ علائم النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ذُكِرَت فى الإنجيل حسب تصريح القرآن الكريم، فلا يبعد أنّ علماء النصارى قد تعرّفوا فى ذلك الوقت على النبىّ من العلائم الّتى قرأوها ودرسوها فى كتبهم.

يقول القرآن الكريم فى هذا المجال:

«وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِى إِسْرائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْراهِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ» .(۳) ثمّ إنّ فى هذا الصعيد آياتٌ أُخر صرَّحت بجلاء بأنّ علائم رسول الإسلام فى الكتب السماويه الماضيه فى وضوح، ومن غير إبهام، وأنّ الأُمم السابقه كانت على علم بهذا الأمر.(۴)

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۴۰۱/۱۵.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۸/۱.

۳- . الصف: ۶.

۴- . اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْراهِ وَ الْإِنْجِيلِ» (الأعراف: ۱۵۷).

۸ العَوْده إلی أحضان العائله

اشاره

لقـد خَلقَت یـدُ القدره الإلهیه کلّ فرد من أفراد النوع الإنسانی لأمر معیّن، فهناک من خلق لاکتساب العلم والمعرفه، وهناک من خُلقَ للاختراع والاکتشاف، وثالثٌ خلق للسعی والعمل، وبعض للتدبیر والسیاسه، وفریق للتدریس والتربیه، وهکذا.

وإنّ المربِّیـن المخلصـین الـذین یهمّهـم تقـدم الأَفراد أو رقیّ مجتمعهم لا ـ یعمـدون إلی نَصب أحـد فی عمـل من الأعمـال ولا یعهـدون إلیه مسؤولیه من المسؤولیات إلّابعد اختبار سـلیقته ومواهبه، بغیه وضع الرجل المناسب فی المکان المناسب، إذ فی غیر هذه الحاله یتعرِّض المجتمع لضـررین کبیرین: أحدهما: أن لا یوکل إلی الفرد ما یستطیع القیام به، والثانی: أن یبقی العمل الّذی قام به ناقصاً، مبتوراً.

وقد قیل فی المثل: لکلّ إنسان موهبه، والسعید هو مَن اکتشف تلکم المواهب، وأصابها.

وقـد ذکروا أنّ أُسـتاذاً کان ینصـح تلمیذاً له کسولاً، ویعدّد له مضارَّ الکسل والتوانی، ویصف له حال من ترک الاشـتغال بالعلم، وضیّع ربیع حیاته فی البطاله والغفله.

وبینما الأُسـتاذ ینصح تلمیذه – وهو یسمع مواعظ أُستاذه – رأی تلمیذه یرسم بقطعه من الجص صوره علی المنضده، فأدرک من فوره أنّ هذا الصبیّ لم یُخلق

للـدرس وتحصـيل العلم، بـل خلقته يـد القـدره للرسم، فطلب منه أن يصـطحب أبـاه إلى المـدرسه فى اليوم القادم، ثم قال لوالد الصبىّ: إذا كان ولدك هذا كسولاً فى التعلّم، والتحصيل فإنّه يمتلك ذوقاً رفيعاً فى الرسم، ورغبه كبيره فى التصوير.

وقبل الوالـد نصـيحه المعلّم هـذه ولم يمض زمانٌ طويل إلّاوبرع الصبى وغدا قمه فى هذا الفن، بعد أن تابع هوايته بشـغف وأكثر من ممارستها.

إنّ فـتره الطفوله والصـبا فى حيـاه الأشـخاص خير فرصه لأوليـاء الأطفـال بـأن يختبروا مواهب أبنـائهم، ويتعرّفوا عليهـا من خلال تصـرّفاتهم، وأفكـارهم وردودهم، لأـنّ حركـات الطفـل وأقواله الجميله والحلوه خير مرآه لمـا ينطوى عليه من مواهب وقابليـات وصفات لوتوفرت لها ظروف التربيه الصحيحه لأمكن الاستفاده منها على أفضل صوره، وأحسن وجه.

إنّ مطـالعه فـاحصه لحيـاه النـبىّ الأـكرم صـلى الله عليـه و آله و سـلم وأقـواله وأفعـاله إلى وقت البعثه تُوقفنـا على صـوره كـامله لشخصـيته صـلى الله عليه و آله و سـلم وتوضح لنا أهدافه العليا، على أنّ مطالعه صفحات الطفوله فى حياته صلى الله عليه و آله و سلم فقط لا تكشف لنا عن مستقبله المشرق، بل أنّ دراسه الصوره الإجماليه لحياته وتاريخه إلى يوم مبعثه الشريف، وإعلانه عن نبوَّته وقيادته للمجتمع، تخبرنا عن ذلك المسـتقبل العظيم، وبالتالى عن هـذه الحقيقه وهى أنّ هـذه الشخصـيه خُلِقَت لأىّ عمل، وأن إدعاء الرساله والقياده له هل ينسجمُ مع سوابقه التاريخيه أم لا؟ هل تُؤيّد تفاصيلُ حياتِه خلال أربعين سنه قبل الرساله، وهل تؤيّد أفعالُه وأقوالُه، وبالتالى: سلوكه مع الناس ومعاشرته الطويله مع الآخرين، رسالته أم لا؟

من هنا نعمدُ إلى عرض بعض الصفحات من حياه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى أيّامها وسنواتها الأُولى.

لقد حافظت مرضعةُ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم عليه خمس سنوات، وقامت فى هذه المدّه برعايه شؤونه خير قيام، وبالغت فى كفالته والعنايه به، وخلال هذه المدّه تعلّم النبيّ لغه العرب على أحسن ما يكون، حتّى أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يفتخر بذلك فى ما بعد إذ كان يقول:

«أنا أعربكُمْ (أى أفصحكم)... واسترضعت فى بنى سعد».(۱)

ثم إنّ «حليمه» جاءت به إلى «مكّه»، وبقى عند أُمّه الحنون ردحاً من الزمن، وفى كفاله جده العظيم: «عبدالمطلب» ردحاً آخر منه، وكان هو السلوه الوحيده لأقاربه والبقيه الباقيه من أبيه: «عبداللّه».(۲)

سَفْرهٌ إلى يثرب

منذ أن فقَدت كَنّه «عبدالمطلب» وعروس ابنه: «آمنه» زوجها الشاب الكريم:

«عبداللّه» باتت تترقب الفرص لتذهب إلى «يثرب» وتزور قبر زوجها الحبيب الفقيد عن كثب، وتزور أقاربها فى يثرب فى نفس الوقت.

وذات مرّه فكّرت بأنّ تلك الفرصه قد سنحت، وأنّ ولدها «محمَّداً» قد كبُر، ويمكنه أن يشاركها فى حزنها، فتهيّأت هى وأُمّ أيمن للسفر، واتّجهت نحو يثرب برفقه «محمَّد»، ولبثت هناك شهراً.

ولقد انطوت (وبالأحرى حملت) هذه السفره على بعض الآلام الروحيه لوليد قريش «محمّد» لأنه صلى الله عليه و آله و سلم رأى فيها ولأوّل مرّه البيت الّذى توفّى فيه والده

۱- . السيره الحلبيه: ۱/۱۴۶.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۰۹.

العزيز، ودفن(۱) وكانت والدته قد حدَّثته بأمور عن والده إلى ذلك الحين.

وكانت لا تزال سحابهُ الحزن تخيّم على روحه الشريفه إذ فوجئ بحادثه مقرحه أُخرى، وغشيه موج آخر من الحزن لأنّه عند عودته إلى مكّه فقد أُمّه العزيزه فى أثناء الطريق فى منطقه تُدعى ب «الأبواء».(۲)

إنَ هذه الحادثه قد عزَّزتْ مكانه الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم فى عشيرته أكثر فأكثر، وجعلته يتمتع بمحبّه أزيد منهم، فهو الزهره الوحيده من تلك الجنينه المباركه، كما أنّه صار منذ ذلك الحين يتمتع بعنايه أكبر من قبل جدّه «عبدالمطلب» ولهذا كان يحبُّه أكثر من أبنائه، بل ويؤثره عليهم جميعاً.

ومن ذلك أنّه كان يُمدُّ فى فناء الكعبه المعظمه بساطٌ لزعيم قريش «عبدالمطلب» فيجلس هو عليه ويتحلَّقُ حوله وجوهُ قريش وسادتها وأولادُه، فإذا وقَعت عيناه على بقيه عبدالله «محمَّد» أمر بأن يُفرَّجَ له حتّى يتقدّم نحوه ثم يُجلِسُه إلى جنبه على ذلك البساط المخصوص به.(۳)

إنّ القرآن الكريم يُذكّر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بفتره يتمه ويقول: «أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى» .(۴) إن الحكمه وراء يُتم وليد قريش ليست واضحه لنا تمام الوضوح، ولكنّنا نعلم إجمالاً بأنّ سيل هذه الحوادث المؤلمه أحياناً، والمزعجه أحياناً أُخرى لم يك خالياً عن حكمه معقوله ومصلحه رشيده، بيد أنّنا مع كلّ هذا يمكن لنا الحدس بأنّ

۱- . كان البيت الّذى يضمّ قبر «عبدالله» عليه السّلام لا يزال موجوداً حتّى قُبيل توسعه الدائره حول المسجد النبوى الطاهر، ولكنه أُزيل بحجّه إيجاد تلك التوسعه.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۰۹؛ السيره الحلبيه: ۳/۴۹۷.

۳- . السيره النبويه: ۱/۱۰۹.

۴- . الضحى: ۶.

اللّه تعالى أراد أن يذوق قائد العالم البشرى ومعلّمه، وإمام الإنسانيه وهاديها - وقبل أن يتسلّم مهامه، ويزاول مسؤولياته العظمى ويبدأ قيادته - حُلو الحياه ومرَّها، ويجرِّب سرّاء العيش وضرّاءه، حتّى تتهيَّأ لديه تلك الروحُ الكبرى الصبوره الصامده، ويدّخر من تلك الحوادث الصعبه تجارب ودروساً، ويعدّ نفسه لمواجهه مسلسل الشدائد والمصاعب، والمشاق والمتاعب الّتى كانت تنتظره فى المستقبل.

و ربّما أراد اللّه تعالى أن لا تكون فى عنق نبيِّه طاعه لأحد، ولهذا أنشأه حرّاً خليّاً من كلّ قيدٍ، منذ الأيام الأُولى من حياته، يصنع نفسَه بنفسِه ويقيّض لها موجبات الرشد، وأسباب الرقىّ ليتّضح أنّ نبوغَهُ ليس نبوغاً بشريّاً عادياً ومألوفاً، وأنّه لم يكن لوالديه أى دخل فيه وفى مصيره، وبالتالى فإنّ عظمته الباهره نابعةٌ من مصدر الوحى، وليست من العوامل العاديه والأسباب المأنوسه المتعارفه.

وَفاه عبْدالمُطَّلب

لقد جرت عاده الحياه أن تتعرّض للمرء باستمرار، وتستهدف سفينه حياته كالأمواج المتلاحقه مُوجِّهه ضرباتها القويه لروحه، ونفسه.

أجل هذه هى طبيعه الحياه وسنّتها مع أفراد النوع الإنسانى من دون استثناء.

ولم يكن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمعزل عن هذه السنّه المعروفه وهذه القاعده الحياتيه العامّه.

فلم تكن أمواج الحزن تفارق قلب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لوفاه والديه بعد حتّى فاجأته مصيبه كبرى أُخرى.

إنّه لم يكن يمض من عمر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أكثر من ثمان سنوات إلاّ وفقد جدّه العظيم «عبدالمطلب»، وقد اعتصَرت وفاه «عبدالمطلب» قلب رسول اللّه ألماً وحزناً، وكان لها وقعٌ شديدٌ على نفسه المباركه، حتّى أنّه بكى لفقده بكاء شديداً

وظلّت دموعُه تجری من أجله إلی أن وری فی لحده، ولم ینس ذکره أبداً!!.(۱)

کفاله أبی طالب للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم

سیکون لنا حدیثٌ مفصَّل حول شخصیّه أبی طالب فی فصل خاص(۲)وسنثبت هناک إیمانه برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بالوثائق والأدلّه القاطعه، ولکنَّ من المناسب الآن أن نستعرض بعض الحوادث المرتبطه بفتره کفالته للنبی صلی الله علیه و آله و سلم.

لقد تکَفَّل أبوطالب - ولأَسباب خاصّه - رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وتقبّل تحمُّل هذه المسؤولیه بفخر واعتزاز، ولأنّ أباطالب - مضافاً إلی العلل المشار إلیها - کان أخاً لوالد النبیّ من أُمٍّ واحده أیضاً،(۳) کما أنّه کانَ معروفاً بجوده وکرمه، ومن هنا أوکَل «عبدالمطلب» أمر کفاله النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم حفیده، إلیه، وسوف نقصّ علیک تدریجاً سطوراً ذهبیه من تاریخه، تمثّل شاهد صدق علی خدماته القیّمه، وأیادیه الجلیله. یقولون: إنّ النبیّ شارک وهو فی العاشره من عمره جنباً إلی جنب مع عمّه فی حرب من الحروب،(۴) وحیث إنّ هذه الحرب وقعت فی الأشهر الحُرم لذلک سُمّیت بحرب «الفجار» وقد وردت تفاصیل حروب «الفجار» فی التاریخ بشکل مسهَب.

۱- . کتب الیعقوبی فی تاریخه: ۲/۱۰ و ۱۱ حول سیره عبدالمطلب، وأنّه کان موحِّداً لاوثنیاً، وذکر أنّ الإسلام أمضی الکثیر من سننه.

۲- . فی حوادث السنه العاشره.

۳- . السیره النبویه لابن هشام: ۱/۷۱ و ۱۱۶، وأُمّهما هی فاطمه المخزومیه.

۴- . لقد کتب الیعقوبی فی تاریخه: ۲/۱۵، طبعه النجف، أنّ أبا طالب لم یشترک فی هذه الحرب قط، کما لم یسمح لبنی هاشم بالمشارکه فیها أیضاً، لأنه کان ظلماً وعدواناً وقطیعه رحم واستحلالاً للشهر الحرام.

سَفرهٌ إلی الشام

لقد جرت العاده أن یسافر تجّار قریش إلی الشام کلّ سنه مرّه واحده.

فعزم «أبوطالب» علی أن یشارک فی رحله قریش السنویه هذه ذات مرّه، وعالج مشکله ابن أخیه «محمَّد» الّذی ما کان یقدر علی مفارقته بأنّه قرّر أن یترکه فی مکّه فی حراسه جماعه من الرجال، ولکنّه ساعه الرحیل واجه من ابن أخیه العزیز ما غیّر بسببه قراره المذکور، فقد شاهد «محمَّداً» وقد اغرورقت عیناه بالدموع لفراق کفیله الحمیم «أبی طالب»، فأحدثت ملامح «محمَّد» الکئیبه طوفاناً من المشاعر العاطفیه فی قلب «أبی طالب» بحیث اضطرته إلی أن یرضی بمشقّه اصطحاب «محمَّد» فی تلک الرحله.(۱)

لقد کانت سفره النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم هذه الّتی قام بها بصحبه عمّه وکافله «أبی طالب» فی الثانیه عشره من عمره، من أجمل وأطرف أسفاره صلی الله علیه و آله و سلم؛ لأنّه صلی الله علیه و آله و سلم عَبر فیها علی: «مَدیَن» و «وادی القری» و «دیار ثمود» واطّلع علی مشاهد الشام الطبیعیه الجمیله.

ولم تکن قافله قریش التجاریه قد وَصلت إلی مقصدها حتّی حدثت فی

۱- . ویذکر «أبوطالب» فی أبیات له قصّه هذه السفره وما جری فیها من البدء إلی الختام نقتطف منها بعض الأبیات: إنَّ ابنَ آمِنه النبیّ محمَّداً عِندی یفوقُ منازل الأولاد لما تعَلّق بالزمام رحمتُه والعیسُ قد قلَّصْنَ بالأزواد فَارفضَّ من عینیّ دمع ذارفٌ مثل الجمان مُفرّق الأفراد راعیتُ فیه قرابه موصوله وحفَظت فیه وصیه الأجداد وأمرتُه بالسیر بین عمومه بیض الوجوه مصالت أنجاد حتّی إذا ما القومُ بُصری عاینوا لاقوا علی شرک من المرصاد حبراً فاخبرهم حدیثاً صادقاً عنه وردّ معاشر الحُسّاد (تاریخ ابن عساکر: ۳/۱۲-۱۳؛ وديوان أبی طالب: ۳۳-۳۵).

منطقه تُدعى «بصرى» قضيه غيرت برنامج «أبى طالب» وتسببت فى عدوله عن المضىّ به فى تلك الرحله والقفول إلى مكّه.

وإليك فيما يلى مجمل هذه القضيه:

كان يسكن فى «بصرى» من نواحى الشام راهبٌ مسيحى يدعى «بحيرا» يتعبّد فى صومعته، يحترمه النصارى فى تلك الديار.

وكانت القوافل التجاريه إذا مرّت على صومعته توقّفت عندها بعض الوقت وتبرّكت بالحضور عنده.

وقد اتّفق أن التقى هذا الراهبُ قافله قريش الّتى كان فيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فلفت نظره شخصيهُ «محمَّد»، وراح يحدق فى ملامحه، وكانت نظراته هذه تحمل سراً عميقاً ينطوى عليه قلبه منذ زمن بعيد وبعد دقائق من النظرات الفاحصه، والتحديق فى وجه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم خرج عن صمته وانبرى سائلاً: أُنشدكم باللّه أيّكم وليّه؟

فأشار جماعه منهم إلى «أبى طالب» وقالوا: هذا وليّه.

فقال «أبوطالب»: إنّه ابن أخى، سلنى عمّا بدا لك.

فقال «بحيرا»: إنّه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ، نجده فى كتبنا وما روينا عن آبائنا، هذا سيّدُ العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه رحمه للعالمين. إحذرْ عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليقصدنَّ قتلَه.(۱) هذا وقد اتّفق أكثر المؤرّخين على أنَّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لم يتعدَّ تلك المنطقه، وليس من الواضح أنّ عمّه «أبا طالب» بعثه إلى مكّه مع أحد، (ويُستَبعد أن يكون عمُّه قد رضى بمفارقته منذ أن سمع تلك التحذيرات من الراهب بحيرا)، أم أنّه

۱- . روى الطبرى فى تاريخه: ۲/۳۲ و ۳۳؛ وابن هشام فى سيرته: ۱/۱۱۶-۱۱۹، هذه القصّه بتفصيل أكبر وقد اختصرناها هنا تمشياً مع حجم هذا الكتاب.

اصطحبه بنفسه إلى مكّه، وانثنى عن مواصله سفره إلى الشام.(۱)

وربّما قيل إنّه تابع - بحذر شديد - سفرَهُ إلى الشام مع ابن أخيه «محمَّد».

أكذُوبَهُ المُسْتشرقين

لقد آلينا على أنفسنا فى هذا الكتاب أن نشير إلى أخطاء المستشرقين بل وربّما أكاذيبهم، واتّهاماتهم الباطله، وشُبهاتهُم الواهيه ليتّضح للقرّاء الكرام الى أى مدى يحاول هذا الفريق إرباك أَذهان البُسطاء من الناس، وبلبله عقولهم حول قضايا الإسلام!!

إنّ قضيه اللقاء الّذى تمّ - فى بصرى - بين النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم والراهب «بحيرا» لم تكن سوى قضيه بسيطه، وحادثه عابره وقصيره، إلّاأنّها وقعت فى ما بعد ذريعه بأيدى هذه الزمره (المستشرقون) فراحوا يصرّون أشدّ إصرار على أنّ ما أظهره رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من تعاليم رفيعه ساميه بعد ۲۸ عاماً، واستطاع أن يُحيى بها تلك الأُمه الميّته قد تلقّاها من الراهب «بحيرا» فى هذه السفره. ويقولون: إنّ «محمَّداً» بما تمتع به من قوّه ذاكره، وصفاء نفس ودقّه فكر، وعظمه روح وهبته إيّاها يد القدر، أخذ من الراهب «بحيرا» فى لقائه به، قصص الأنبياء السالفين والأقوام البائده مثل عاد وثمود، وكثيراً من تعاليمه الحيويه.

ولا ريب فى أنّ هذا الكلام ليس سوى تصوّر خيالى لا يتلاءم ولا ينسجم مع حياته صلى الله عليه و آله و سلم بل وتكذّبه الموازين العقليه، واليك بعض الشواهد على هذا:

۱. لقد كان «محمَّد» صلى الله عليه و آله و سلم بإجماع المؤرّخين أُميّاً، لم يتعلّم القراءه والكتابه، وكان عند سفره إلى الشام، ولقائه ب «بحيرا» لم يتجاوز ربيعه الثانى عشر بعد، فهل يصدق العقل - والحال هذه - أن يستطيع صبىٌ لم يدرس ولم يتعلّم القراءه والكتابه

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۱۸ و ۱۱۹.

ولم يتجاوز ربيعه الثانى عشر أن يستوعب تلك الحقائق من «التوراه» و «الإنجيل»، ثم يعرضها - فى سن الأربعين - على الناس بعنوان الوحى الإلهىّ والشريعه السماويه؟!

إنّ مثل هذا الأمر خارج عن الموازين العاديه، بل ربّما يكون من الأُمور المستحيله لو أخذنا بنظر الاعتبار حجم الإستعداد البشرى.

٢. إنّ مدّه هذا اللقاء كان أقل بكثير من أن يستطيع محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم فى مثل تلك الفتره الزمنيه القصيره أن يستوعب «التوراه» و «الانجيل»، لأنّ هذه الرحله كانت رحله تجاريه ولم يستغرق الذهاب وإلاياب والإقامه أكثر من أربعه أشهر، لأنّ قريشاً كانت تقوم فى كل سنه برحلتين، فى الصيف إلى «الشام»، وفى الشتاء إلى «اليمن»، ومع هذا لا يُظنّ أن تكون الرحله برّمتها قد استغرقت أكثر من أربعه أشهر، ولا يستطيع أكبر علماء العالم وأذكاهم من أن يستوعب فى مثل هذه المدّه القصيره جدّاً محتويات ذينك الكتابين، فضلاً عن صبىّ لم يدرس، ولم يتعلّم القراءه والكتابه من أحد.

هذا مضافاً إلى أنّه لم يكن صلى الله عليه و آله و سلم مصاحباً لذلك الراهب كلّ تلك الأشهر الأربعه بل أنّ اللقاء الّذى وقع إتفاقاً فى أحد منازل الطريق لم يستغرق سوى عده ساعات لا أكثر.

٣. إنّ النَص التاريخى يشهد بأنّ «أباطالب» كان ينوى اصطحاب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إلى الشام، ولم يكن مقصده الأصلى «بُصرى» بل إنّ «بُصرى» كان منزلاً فى أثناء الطريق تستريح عنده القوافل التجاريه أحياناً، ولفتره قصيره جدّاً.

فكيف يمكن فى مثل هذه الصوره أن يمكث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى تلك المنطقه، ويشتغل بتحصيل علوم «التوراه» و «الإنجيل» ومعارفهما؟ سواء قلنا بأنّ

«أباطالب» أخذه معه إلى الشام، أو عاد به من تلك المنطقه إلى مكّه أو أعاده بصحبه أحدٍ إلى مكّه؟!

وعلى كلّ حال فإنّ مقصد القافله ومقصد «أبى طالب» لم يكن «بُصرى» ليقال: إنّ القافله اشتغلت فيها بتجارتها، بينما اغتنم «محمَّد» الفرصه واشتغل بتحصيل معارف العهدين.

۴. إذا كان محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم قد تلقّى أُموراً ومعارف من الراهب المذكور إذن لاشتهر ذلك بين قريش حتماً، ولتناقل الجميع خبر ذلك بعد العوده إلى مكّه.

هذا مضافاً إلى أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم نفسه ما كان يستطيع أن يدّعى أمام قومه فى ما بعد بأنّه أُمّى لم يدرس كتاباً، ولا تلمذ على أحد، فى حين أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم افتتح رسالته بهذا العنوان، ولم يقل أحدٌ، يا محمَّد كيف تدّعى بأنّك لم تقرأ ولم تدرس عند أحد وقد درست عند راهب «بصرى» وتلقّيت منه هذه الحقائق الناصعه وأنت فى الثانيه عشره من عمرك؟

لقد وَجَّه مشركو مكّه جميع أنواع الإتّهام إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وبالغوا فى البحث عن أيّه نقطه ضعف فى قرآنه يمكن أن يتذرّعوا بها لتفنيد دعوته، حتّى أنّهم عندما شاهدوا النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ذات مرّهْ عند «المروه» يجالس غلاماً نصرانياً استغلّوا تلك الفرصه وقالوا: لقد أخذ «محمّد» كلامه من هذا الغلام، ويروى القرآن الكريم مزعمتهم هذه بقوله:

«وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» .(۱)

ولكن القرآن الكريم لم يتعرّض لذكر هذه الفريه قط، كما أنّ مشركى قريش

۱- . النحل: ۱۰۳.

المجادلين المعاندين لم يتذرّعوا بها أبداً، وهذا هو بعينه دليلٌ قاطعٌ وقويٌ على أنّ هذه الفريه من افتراءات المستشرقين فى عصرنا هذا، ومن نسج خيالهم!!

۵ - إنّ قصص الأنبياء والرسل الّتى جاءت فى القرآن الكريم على وجه التفصيل تتعارض وتتنافى مع ما جاء فى التوراه والإنجيل.

فقد ذُكِرَت قصصُ الأنبياء وأحوالهم فى هذين الكتابين بصوره مشينه جدّاً، وطُرحت بشكل لا يتّفق مع المعايير العلميه والعقليه مطلقاً، وأنّ مقايسه عاجله بين هذين الكتابين من جانب وبين القرآن الكريم من جانب آخر تثبت بأنّ قضايا القرآن الكريم ومعارفه لم تتخذ من ذينك الكتابين بحال، ولو أنّ النبيَّ محمَّداً صلى الله عليه و آله و سلم قد اكتسب معارفه ومعلوماته حول الأنبياء والرسل من العهدين لجاء كلامُه مزيجاً بالخرافات والأَوهام.(۱) ۶ - إذا كان راهب «بُصرى» يمتلك كلّ هذه الكمّيه من المعلومات الدينيه والعلميّه الّتى عرضها رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فلماذا لم يحض هو بأى شىء من الشهره، ولماذا ترى لم يُربِّ غير «محمَّد» فى حين أنّ معبَده كان مزار الناس ومقصدَ القوافل؟!

۷ - يعتبرُ الكتاب المسيحيّون «محمّداً» صلى الله عليه و آله و سلم رجلاً أميناً صادقاً، والآيات القرآنيه تصرّح بأنّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن على علم مسبق أصلاً بقصص الأَنبياء والأُمم السابقين، وأنّ معلوماته فى هذا الصعيد لم تحصل لديه إلّاعن طريق الوحى.

فقد جاء فى سوره «القصص» هكذا: «وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى

۱- . تتجلى هذه الحقيقه أكثر فأكثر إذا ما قارنّا بين مواضيع القرآن الكريم، وبين ما جاء فى نصوص العهدين (التوراه والأنجيل) وقد تصدّى بعض الكتاب الإسلاميّين لمثل هذه المقارنه، وتعرضنا لها أيضاً فى بعض دراساتنا.

مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشّاهِدِينَ» .(۱)

وجاء فی سوره «هود» بعد نقل قصه نوح: «تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا» .(۲)

إنّ هذه الآيات توضّح أن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لم یکن علی علم أبداً بهذه الحوادث، والوقائع.

وهکذا جاء فی سوره «آل عمران»: «ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» .(۳)

إنّ هذه الآیه وغیرها من الآیات العدیده تصرّح بأن هذه الأخبار الغیبیّه وصلت إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم عن طریق الوحی فقط، وهو لم یکن علی علم بها مطلقاً.

نَظْرهٌ إجْماليَّه إلی التَوْراه الحاضِرَه

إنَّ هذا الکتاب السَماویّ تورَّط فی تناقضات عجیبه فی بیان قصص الأنبیاء والمرسلین لا یمکن نسبتها إلی الوحی مطلقاً، وها نحن نأتی هنا بنماذج فی هذا المجال من التوراه لیتّضح لنا أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لو کان قد أخذَ قضایا القرآن الکریم من ذلک الراهب فلماذا لا یحتوی هذا الکتاب العظیم علی تلک الأضالیل الّتی انطوت علیها «التوراه» و «الإنجیل».

وإلیک بعض ما جاء حول الأَنبیاء والمرسلین فی «التوراه» و «الإنجیل» ونقارن ذلک بما جاء فی القرآن الکریم لیتّضح مدی الفرق بین العهدین، والقرآن..

***

۱- . القصص: ۴۴.

۲- . هود: ۴۹.

۳- . آل عمران: ۴۴.

۱. داود علیه السلام:

جاء فی التوراه: «وکان فی وقت المساء أنّ داود قام من سریره وتمشّی علی سطح بیت الملک فرأی من علی السطح المرأه تستحمّ، وکانت المرأه جمیله المنظر جدّاً، فأرسل داود وسأل عن المرأه، فقال واحد: ألیست هذه بثشبع بنت ألیعام امرأه أُوریا الحثی، فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إلیه فاضطجع معها وهی مطهَّره من طمثها ثم رجعت إلی بیتها، وحبلت المرأه، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إنّی حُبلی،... وفی الصباح کتب داود مکتوباً إلی یوآب... وکتب فی المکتوب یقول: اجعلوا أُوریّا فی وجه الحرب الشدیده(۱)، وارجعوا من ورائه فیضرب ویموت... فلما سمعت امرأه أُوریّا أنّه قد مات أُوریّا رجلُها ندبت بعلها، ولمّا مضت المناحه أرسل داود وضمَّها إلی بیته وصارت له إمرأه، وولدت له إبناً، وأمّا الأمرُ الّذی فعله داود فقبح فی عینیّ الرب»!!.(۲)

هکذا تصف التوراه النبیّ الکریم داود، وترمیه بالزنا، وإکراه امرأه محصنه علی خیانه زوجها!!

بینما یصف القرآن الکریم النبیّ داود علیه السلام بأفضل الأوصاف إذ یقول سبحانه:

«وَ لَقَدْ آتَیْنا داوُدَ وَ سُلَیْمانَ عِلْماً وَ قالاَ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی فَضَّلَنا عَلی کَثِیرٍ مِنْ عِبادِهِ ... وَ قالَ یا أَیُّهَا النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّیْرِ وَ أُوتِینا مِنْ کُلِّ شَیْ ءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِینُ» .(۳)

۱- . أی فی مقدّمه الجیش المحارب.

۲- . العهد القدیم (التوراه): صموئیل، الثانی، الإصحاح الحادی عشر ۲ إلی ۲۷.

۳- . النمل: ۱۵-۱۶.

٢. النبيّ سليمان عليه السلام:

تقول «التوراه» عن النبيّ العظيم سليمان عليه السلام:

١ - «وداود الملكُ ولد سليمان من الّتى لأُوريّا».(١)

أى أنّ سليمان النبيّ الكريم - والعياذ باللّه - هو ابن زنا!!

٢ - وَ أَحَبَّ المَلِكُ سُلَيمان نساء غريبه... مِنَ الأُمم الذين قالَ عَنْهُمْ الربُ لبنىّ اسرائيل: لا تدخلونَ إليهم، وهُمْ لا يَدُخلونَ إليكم لأَنَّهُمْ يُميلونَ قلوبَكم وراء آلهتهم، فالتصق سلَيمانُ بهؤلاء بالمحبَّه، وكانت له سبع مئه من النساء السيدات، وثلاث مئه من السرارى فأمالت نساؤه قلبَهُ وكان فى زمان شيخوخه سليمان أنّ نساءه أملن قلبه وراء آلهه أُخرى، ولم يكن قلبُه كاملاً مع الرب إلهِهِ كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عَشتُورت إلاهه الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشرَّ فى عينى الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه،... فغضب الربُ على سليمان لأنّ قلبه مال عن الرب إله إسرائيل...»!!!.(٢)

إنّ سليمان - حسب هذه التعابير التوراتيه - يعشق النساء الأجنبيات، ويتقرّب إليهن بصنع أصنام لَهُنَّ. ويعبدها معهن، ويرتكب الشرور الّتى أغضبت الرب!!

بينما يقول القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام «وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً» .(٣)

ويقول: «وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَهً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِى بارَكْنا فِيها وَ كُنّا بِكُلِّ شَىْ ءٍ عالِمِينَ» .(۴)

١- . العهد الجديد (إنجيل مَتّى): الاصحاح الأول ۶.

٢- . التوراه: الملوك الأوّل، الإصحاح: ١١، العبارات ١:١١.

٣- . النمل: ١۵.

۴- . الأنبياء: ٨١.

إنّه نبيّ عظيم اختاره اللّه تعالى لوحيه، وأصطفاه لأداء رسالاته.

٣. يعقوب عليه السلام:

إنَّ «التوراه» تصف النبيّ العظيم يعقوب عليه السلام بأنّه رجل كـذّاب مخادع، أخـذ النبوّه من أبيه بالمكر والخـداع، «وحدث لمّا شاخَ إسحاقُ وكَلّت عيناهُ عن النظر أنّه دعا عيسو ابنه الأكبر، وطلب منه أن يصـطاد له صيداً، ويصنع له طعاماً جيّداً حتّى يباركه، ويعطيه النبوّه، ولكن يعقوب (إبن إسحاق من رفقه زوجته الأُخرى) بادر إلى صنع طعام لذيذ لأبيه وتظاهر بأنّه عيسو، لابساً ثياب عيسو، وقطعاً من جلود جَدْيي المعزى على عنقه، لأنّ عيسو كان مشعراً وكان يعقوب أملس الجسد، فبارك إسحاق ابنه يعقوب ومنحه النبوّه، وبعـد ذلك قـدم عيسو من الصـيد، فعرف إسحاقُ بأنّه خُـدِع، وأنّ يعقوب أخـذ منه النبوّه بالمكر، فارتعد إسحاقُ ارتعاداً عظيماً جدّاً وقال لعيسو متأسّفاً: قد جاء أخوك بمكر، وأخذ بركتك»!!.(١)

هذا هو حال يعقوب فى لسان «التوراه» المحرّفه!!

وأمّا القرآن الكريم فإنّه يقول عن هذا النبيّ الطاهر:

«وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» .(٢)

ويقول تعالى أيضاً:

«وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ * إِنّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَهٍ ذِكْرَى الدّارِ * وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ» .(٣)

١- . لاحظ: العهد القديم: سفر التكوين: الإصحاح السابع والعشرون: ١ إلى ۴۶، وقد ذكرنا هذه القصّه من التوراه بتلخيص.

٢- . الأنعام: ٨۴.

٣- . سوره ص: ۴۵-۴٧.

۴. إبْراهيم عليه السلام:

تقول «التوراه» عن إبراهيم عليه السلام إنّه لمّا أراد أن يدخلَ مصر قال لِزوجته ساره:

إنّى قد علمتُ أنّك امرأه حسَنه المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنّهم يقولون:

هذه امرأَته، فيقتلوننى، ويَسْتَبْقونكِ، قولى إنّكِ أُختى، ليكونَ لى خيرٌ بسببكِ وتحيا نفسى من أجلِكِ.

وكذلك فعَلتْ ساره و أُخِذت إلى بيت فرعون، فصنع إلى إبرام خيراً بسببها، وصار له غنم، وبقر، وحمير، وعبيد، وإماء، وأُتن، وجمال، ولمّا عرف فرعون - فى ما بعد - أنّ ساره زوجه إبراهيم، وليس أُخته عاتبه قائلاً: لماذا لم تخبرنى إنّها امرأتك، لماذا قلت: هى أُختى حتّى أخذتها لى لتكونَ زوجتى والآن هو ذا إمرأتك، خذْها واذهب».(۱)

إنّ إبراهيم الخليل عليه السلام فى وصف التوراه رجلٌ كذّابٌ، يكذب ويحتال.

أمّا القرآن الكريم فيصف هذا النبىّ الجليل بأعظم الأوصاف، ويعتبره أعظم الأنبياء إذ يقول عنه إنّه:

۱. حنيف مُوحِّدٌ للّه: «وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً» .(۲)

۲. إمامُ الناس: «إِنِّى جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً» .(۳)

۳. مُسْلِمٌ: «وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً» .(۴)

۴. حَليمٌ: «إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيمٌ» .(۵)

۱- . لاحظ: العهد القديم: سفر التكوين: الإصحاح الثانى عشر ۱-۲۰. بتلخيص واختصار.

۲- . آل عمران: ۶۷.

۳- . البقره: ۱۲۴.

۴- . آل عمران: ۶۷.

۵- . التوبه: ۱۱۴.

۵. أمّه كامِلَه بمفرده: «إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أَمَّةً» .(۱)

۶. أواهٌ يَخشى اللّه: «إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوّاهٌ» .(۲)

۷. مصطفى: «لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ» .(۳)

۸. ذو قلبٍ سَليم: «إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» .(۴)

۵. المسيح عليه السلام:

إنّ عيسى: يحتقر أُمّه، ويزدرى بها، - حسب روايه الإنجيل - «فجاءت حينئذٍ إخوته وأُمه ووقفوا خارجاً وأرسلوا يدعونه، وكان الجمع جالساً حوله، فقالوا له:

هو ذا أُمُّك وإخوتك خارجاً يطلبونك، فأجابَهُم قائلاً: من أُمّى وإخوتى؟ ثم نظرَ حوله إلى الجالِسين وقال: ها أُمّى وإخوتى، لأَنَّ مَنْ يصنع مشيئه اللّه هو أخى وأُختى وأُمّى»!!(۵)

إنّه يقول هذا الكلام عن أُمّه الّتى وصفها القرآن الكريم بأنّ اللّه تعالى اصطفاها على نساء العالمين.(۶)

إنه يفَضِّل تلاميذه الذين لم يؤمنوا به فى قلوبهم ذره من خردل، والذين خذلوه ليله الهجوم عليه من جانب اليهود(۷) - كما يقول الإنجيل - على أُمّه الصدّيقه.

۱- . النحل: ۱۲۰.

۲- . التوبه: ۱۱۴.

۳- . ص: ۴۷.

۴- . الصافات: ۸۴.

۵- . إنجيل مرقس: الإصحاح الثالث: ۳۱-۳۵.

۶- . آل عمران: ۴۲.

۷- . لاحظ: انجيل متّى: الإصحاح السابع والعشرون ۱-۶. انظر كيف وافق يهوذا الاسخريوطى وهو أحد الحواريين مع المتآمرين ضدّ المسيح، وأيضاً راجع نفس السفر: الإصحاح السادس والعشرين: وراجع إنجيل متّى: الإصحاح العاشر أيضاً.

كما أنّ الإنجيل يقول: إنّ المسيح حوّل الماء إلى الخمر فی عرس(۱) بل يقول إنّه عليه السلام: شرب الخمر، والحال أنّ الإنجيل يصرّح بحرمه الخمر فی مواضع عديده.(۲)

هذا هو «عيسى» النبیّ الطاهر وحواريوه حسب روايه الإنجيل!!.(۳)

أمّا القرآن الكريم فيقول عنه غير ما يقوله: «الإنجيل» وإليك بعض ما جاء فی الكتاب العزيز حول «المسيح» عليه السلام.

قال اللّه تعالى: «وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» .(۴)

وقال تعالى أيضاً: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَ كَلِمَتُهُ» .(۵)

ويكفی فی عظمه المسيح عليه السلام وعلوّ شأنه أنّه عليه السلام كلّم الناس فی المهد صبيّاً وقال: «إِنِّی عَبْدُ اللّهِ آتانِیَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِی نَبِيًّا * وَ جَعَلَنِی مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِی بِالصَّلاهِ وَ الزَّكاهِ ما دُمْتُ حَيًّا * وَ بَرًّا بِوالِدَتِی وَ لَمْ يَجْعَلْنِی جَبّاراً شَقِيًّا * وَ السَّلامُ عَلَیَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِی فِيهِ يَمْتَرُونَ» .(۶)

هذه هی مواقف القرآن الكريم من الأنبياء الكرام، والرسل العظام، وتلك هی مواقف «التوراه» و «الإنجيل» المشينه، المسيئه إلى شخصيّه سفراء اللّه مبلّغی رسالاته، فكيف يُعقل أن يكون القرآن الكريم مقتبساً من تلك الكتب وبينهما بُعد

۱- . لاحظ: إنجيل يوحنا: الإصحاح الثانی: ۱-۱۱.

۲- . لاحظ: إنجيل لوقا: الإصحاح الأوّل ۱۵ وغيره.

۳- . علی أنّ خرافات التوراه والإنجيل لا تنحصر فی ما ذكرناه هنا، وللتوسّع راجع: أنيس الأعلام تأليف فخر الإسلام، والهدی إلى دين المصطفی للعلّامه البلاغی.

۴- . البقره: ۸۷.

۵- . النساء: ۱۷۱.

۶- . مريم: ۳۰-۳۴.

المشرقين؟!

ثم لو أنَّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم كان قد اطّلع على هذه القضايا والقصص قبل إخباره بنبوّته فلماذا لم يرشح منها شيء في أحاديثه قبل الرساله وقد عاش بين قومه طويلاً؟!

قال اللّه سبحانه في معرض الردّ والجواب على اقتراح المشركين على النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم بأن يأتي لهم بقرآن غير الّذي جاء به:

«قُلْ لَوْ شاءَ اللّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» .(۱) فالآيه تؤكّد على أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم كان لابثاً في قومه، ولم يكن تالياً لسوره من سور القرآن، أو آياً من آياته، فكلّ ما أخبر به هو ممّا أوحى به اللّه تعالى إليه بعد أن بعثه بالرساله.(۲)

۱- . يونس: ۱۶.

۲- . للتوسّع راجع مفاهيم القرآن: ۳/۳۲۱-۳۲۳.

۹ فَتره الشَباب فی حیاه النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم

اشاره

یجب أن یکون قاده المجتمع أقویاء شجعان، لایرهبون أحداً، ولا یخافون شیئاً، یمتلکون قوّه روحیه کبری، ویتمتّعون بصبر عظیم، وإراده قوّیه، صلبه.

فکیف یستطیع الضعفاء والجبناء والمتردّدون، وضعّاف النفوس قیاده المجتمع، والخروج به من المآزق والمشاکل، وکیف یستطیعون أن یقاوموا أعداءهم ویحفظوا کیانهم وشخصیّتهم من عدوان هذا أو ذاک؟!

إنّ لعظمه القائد الروحیه، ولقواه البدنیه والنفسیه تأثیراً عظیماً وعجیباً فی أتباعه وأنصاره، فعند ما اختار الإمام أمیرُ المؤمنین علیه السلام أحدَ أصحابه المخلصین لولایه «مصر» کتب إلی أهل «مصر» المظلومین الذین ذاقوا الأَمرّین علی أیدی ولاتهم السابقین کتاباً ذکر فیه شجاعه هذا الوالی الجدید، وقدرته النفسیه الفائقه، وإلیک فیما یلی بعض الفقرات من ذلک الکتاب الّذی یعکس الشروط والمواصفات الواقعیه فی القائد:

«أمّا بعدُ فقَد بَعثتُ إلیکم عَبداً مِن عباد اللّه لا ینامُ أیّام الخوف، ولا ینکُل عن الأعداء ساعات الروع، أشدّ علی الفُجار من حریق النّار، وهو مالک بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له وأطیعوا أمره فیما طابقَ الحق، فإنه سَیْفٌ مِن سُیوف اللّه، لا کلیلُ الظَبّه، ولا نابِی الضریبه».(۱)

۱- . نهج البلاغه: قسم الرسائل، برقم ۳۸.

رسولُ اللّه وقدرتُه الروحيّه

لقد كانت آثار الشجاعه، والقوّه باديهً فی جبين عزيز قريش منذ طفولته وصباه، ففی الخامسه عشره من عمره الشريف شارک فی حرب هاجت بين قريش من جهه، وقبيله هوازن من جهه أُخری، وتـدعی «حرب الفجار»، وقد کان فی هذه الحرب يناول أعمامه النَّبل.

فها هو «ابن هشام» ينقل عن النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «کُنْتُ أُنبّلُ عَلی أعْمامِیْ».(۱)

إنّ مشارکته صـلی الله عليه و آله و سـلم فی العمليات الحربيه فی مثل هذه السن تکشف عن شـجاعته صلی الله عليه و آله و سلم وقـدرته الروحيه الکـبری، وتساعـدنا علی أن نـدرک مغزی مـا قـاله أميرالمؤمنين علی بن أبی طـالب عليه السـلام فی حقّ النـبیّ الکريم صـلی الله عليه و آله و سـلم: «کُنّا إذا أحمر الْبَأسُ إتّقيْنا برَسُول اللّه صـلی الله عليه و آله و سـلم، فَلَمْ يَکُنْ أَحَـدٌ مِنّا أقرَبَ إلی العَدوِّ مِنْهُ».(۲)

وسوفَ نشـير – وبعون اللّه عند ذکر جهاد المسـلمين للکفّار والمشـرکين – إلی نظام العسکريه الإسلاميه وکيفيه جهاد المسلمين وقتـالهم لأعـدائهم الّتی تمَّت بأجمعها بتوجيه من النبیّ صـلی الله عليه و آله و سـلم، وهو فی نفسه من الأبحاث الشـيّقه فی تاريخ الإسلام.

حُروبُ الفِجار

إنَّ الحديث بتفصـيل عن هذه الوقائع وعن تکتيکات هذه الحوادث التاريخيّه خارج عن إطار هذه الدراسه، بيد أنّنا – مع ذلک – نعمد إلی بيان أسباب

۱– . السـيره النبويه: ۱/۱۲۰، وقـد قال ابن الأثير فی النهايه: ۵/۱۰، ماده «نبل» بعـد نقل هذا الحديث وضـبط الکلمه «انبل» مشدّده «اُنبّل»: «إذا ناولته النبل ليرمی».

۲– . نهج البلاغه: فصل من غريب کلامه المحتاج إلی التفسير، الرقم ۹.

هذه الحروب الّتی شارک فی إحداها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بناء علی روایه بعض المؤرّخین وحوادثها علی نحو الإجمال بغیه إطلاع القارئ الکریم.

کانت العرب تقضی عامها کلّه بالقتال والإغاره، وقد تسبب هذا الوضع فی اختلال حیاتهم، واضطراب أُمورهم، ولأجل هذا کانوا یحرّمون القتال ویتوقّفون عنه فی أربعه أشهر من کلّ عام (هی شهر رجب، ذوالقعده، ذوالحجه، محرّم) لیتسنّی لهم - فی هذه المدّه - أن یقیموا أسواقهم، ویستغلّوها بالکسب والتجاره والبیع والشراء.(۱)

ولهذا کانت أسواق «عکاظ» و «مجنّه» و «ذوالمجاز» تشهد طوال هذه الأشهر الحرام اجتماعات کبری وتجمعات حافله وحاشده، کان یلتقی فیها العدوّ والصدیق جنباً إلی جنب، یتبایعون، ویتفاخرون.

فقد کان شعراء العرب المشهورون یلقون قصائدهم فی هذه الاجتماعات الکبری، کما یلقی کبارُ خطباء العرب وفصحاؤهم خطباً قویه، وأحادیث فی غایه الفصاحه والبلاغه، وکان الیهودُ والنصاری والوثنیون یعرضون معتقداتهم فی هذه المناسبات من دون خوف أو وجلٍ.

ولکنَ هذه الحرمه قد هُتکت أربعَ مرات فی تاریخ العرب، وتقاتلت القبائلُ العربیه فیما بینها فی هذه الأشهر الحرم، ولهذا سُمِّیت تلک الحروب بحروب «الفجار»، وفی مایلی نشیر إلیها علی نحو الإجمال:

الفِجارُ الأُولی:

ووقعت الحربُ فیها بینَ قبیلتی «کنانه» و «هوازن» وجاء فی سبب نشوب

۱- . یُستفاد من قوله تعالی فی الآیه ۳۶ من سوره التوبه: إِنَّ عِدَّهَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِی کِتابِ اللّهِ یَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَهٌ حُرُمٌ» أن تحریم القتال فی هذه الأشهر الأربعه کان ذا جذور دینیه، وکانت العرب الجاهلیه تحترم هذه الأشهر اتّباعاً لسُنّه «إبراهیم الخلیل» علیه السَّلام.

هذه الحرب أنّ رجلًا يُدعى «بدر بن معشر» كان قد أعدَّ لنفسه مكاناً فی سوق «عكاظ» يحضر فيه، ويذكر للناس مفاخره، فوقف ذات مرّه شاهراً سيفه يقول: أنا واللّه أعزُّ العرب فمن زعم أنّه أعزّ منّی فليضربها بالسيف.

فقام رجلٌ من قبيله أُخرى فضرب بالسيف ساقه فقطعها، فاختصم الناس وتنازعت القبيلتان، ولكنّهما اصطلحتا من دون أن يُقتل أحدٌ.(۱)

الفِجار الثانيه:

وكان سببها أنّ فتيه من قريش قعدوا إلى امرأه من «بنی عامر» وهی جميله، عليها برقع، فقالوا لها: إسْفری لننظر إلى وجهِک، فلم تفعلْ، فقام غلامٌ منهم، فجمع ذيل ثوبها إلى مافوقه بشوكه، فلمّا قامت انكشف جسمُها، فضحكوا، فصاحت المرأه قومها، فأتاها الناسُ، واشتجروا حتّى كاد أن يكون قتالٌ، ثم اصطلحوا، وانفضُّوا بسلام.

الفِجارُ الثالثه:

وسببه أنّ رجلاً من «كنانه» كان عليه دَيْنٌ لرجل من «بنی عامر»، وكان الكنانی يماطل، فوقع شجارٌ بين الرجل، واستعدی كلّ واحد منهما قبيلته، فاجتمع الناسُ، وتحاوروا حتّى كاد يكونُ بينهم القتالُ، ثم اصطلحوا.

الفِجارُ الرابعه:

وهی الحرب الّتی - قيل: إنّه - شارک فيها النبیّ الكريم صلى الله عليه و آله و سلم.

ولقد ادّعی البعض إنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يومذاک فی الخامسه عشره، أو الرابعه عشره من عمره.

۱- . ولقد كان ممّا أزاله الإسلام ومحاه هذا التفاخر الجاهلی المقيت، وستعرف هذا فی الأبحاث القادمه.

وقال بعضٌ: إنّه كان فی العشرین من عمره وحیث إنّ هذه الحرب قد استمرّت أربع سنوات. لهذا یمکن أن تکون جمیع هذه الأقوال صحیحه.(۱)

وقیل فی سببها: إنّ «النعمان بن المنذر» ملک الحیره کان یبعث إلی سوق «عکاظ» فی کلّ عام بضاعه فی جوار رجل شریف من أشراف العرب، یُجیرها له حتّی تباع هناک ویشتری بثمنها من أقمشه «الطائف» الجمیله المزر کَشه ممّا یحتاج إلیه، فأجارها «عروه الرجال الهَوازنی» فی تلک السنه، ولکن «البراض بن قیس الکنانی» انزعج لمبادره «عروه» إلی ذلک، فشکاه عند «النعمان بن المنذر» ولم یجد اعتراضه وشکواه، فحسد علی «عروه» حسداً شدیداً، فتَربَّص به حتّی غدر به فی أثناء الطریق، وبذلک لطّخ یده بدم هوازنی.

وکانت قریش یومذاک حلیف کنانه، وقد اتّفق وقوعُ هذا الأمر یوم کانت العرب مشغوله بالکسب والتجاره فی سوق عکاظ، فأخبر رجل قریشاً بمقتل الهوازنیّ علی ید الکنانیّ، ولهذا عرفت قریش وحلیفتها بنوکنانه بالأمر قبل هوازن، وأسرعوا فی الخروج من «عکاظ» وتوجّهوا نحو الحرم (والحرم هو أربعه فراسخ من کلّ جانب من مکّه، وکانت العرب تحرّم القتال فی هذه المنطقه) ولکن هوازن علمت بذلک فلاحقت قریش وحلیفتها فوراً، وأدرکتهم قبل الدخول فی الحرم فوقع بینهم قتال، ولمّا جنّ اللیل کفّوا عن الحرب فاغتنمت «قریش» وحلیفتُها فرصه اللیل، وواصلت حرکتها باتجاه الحرم المکی وبذلک نجت من خطر العدو.

ومنذ ذلک الیوم کانت تخرج قریش وحلیفتها من الحرم بین الفینه والأُخری وتقاتل هوازن، وقد شارک النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی بعض تلک الأیام مع أعمامه علی النحو الّذی مرّ بیانه.

وقد استمر الأمر علی هذه الحال مدّه أربع سنوات، حتّی أن وُضعَت نهایه

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۱/۱۱۹ و ۱۲۰؛ تاریخ الخمیس: ۱/۲۵۹.

لهذه الحرب الطويله بدفع قريش لهوازن دیه القتلی الذین کانوا یزیدون علی قتلی قریش علی ید هوازن.(۱)

وقد أسلفنا أنّ تحریم القتال فی الأشهر الحُرم کانت له جذورٌ دینیه، وحیث إنّ حرب «الفجار» استمرّت أربع سنوات فیمکن أن یکون لمشارکه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فیها وجهاً وجیهاً وهو الدفاع، خاصه أنّه لمّا سُئل صلی الله علیه و آله و سلم عن مشهده یومئذ فقال: «ما سَرّنی أنّی لم أَشْهدهُ، إنَّهُمْ تَعَدَّوْا عَلی قَومی، عرضوا (أی قریش) عَلَیْهم (أی علی هوازن) أنْ یَدْفعُوا إلَیْهِم البرّاض صاحِبَهُمْ (أی الّذی قتل عروه) فأَبُوا».(۲)

ویحتمل أن تکون مشارکته صلی الله علیه و آله و سلم فی غیر الأشهر الحُرم بناء علی استمرار هذه الحروب مدّه أربعه أعوام، وإنّما سُمیّت مع ذلک بالفجار لأنّ بدایتها وافقت الأشهر الحرم لا أنّها وقعت بتمامها فی الأشهر الحُرم.

وبذلک لا یبقی مجال لأن تُسْتَبْعَد مشارکه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی بعض أیام تلک الحرب.

حِلْفُ الْفُضُول:

لقد کان فی ما مضی میثاقٌ وحلفٌ بین الجرهمیّین یُدعی بحلف «الفُضُول»، وکان هذا الحِلفْ یهدف الی الدفاع عن حقوق المظلومین، وکان المؤسّسون لهذا الحلف هم جماعه کانت أسماؤهم برمّتها مشتقه من لفظه الفضل، وأسماؤهم - کما نقلها المؤرّخ المعروف «عماد الدین ابن کثیر» - هی عباره عن: «فضل بن فضاله»، و

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۱/۱۱۹؛ الأغانی: ۲۲/۳۰۷-۳۲۱.

۲- . الأغانی: ۲۲/۳۱۹.

«فضـل بن الحارث»، و «فضل بن وداعه»(۱)، وحيث إنّ الحلف الّـذى عقـدته جماعه من قريش فيما بينها كان متّحداً فى الهدف (وهو الدفاع عن حقوق المظلومين) مع حلف «الفضول» لذلك سُمّى هذا الاتّفاق وهذا الحلف بحلف «الفُضول» أيضاً.

فقبل البعثه النبويه الشـريفه بعشـرين عاماً دخل رجلٌ من «زبيد» فى مكّه فى شـهر ذى القعده، وعرض بضاعه له للبيع فاشتراها منه «العـاص بن وائـل»، وحبس عنه حقّه، فاسـتعدى عليه الزبيـدىّ قريشـاً، وطلب منهم أن ينصـروه على العاص، وقريش آنـذاك فى أنديتهم حول الكعبه، فنادى بأعلى صوته:

يا آل فِهر لمظلوم بضاعتُه بِبطن مكّه نائى الدار والنَفَر

ومُحرمٌ أشعثُ لم يَقض عُمْرتَه يا للرِّجال وبَيْن الحجر والحَجَر

إنّ الحرامَ لِمَن تمَّت كرامتُه ولا حَرام لِثوب الفاجر القذر

فأثارت هذه الأبيات العاطفيه مشاعر رجال من قريش، وهيّجت غيرتهم، فقام «الزُبير بن عبدالمطّلب» وعزم على نصرته، وأيّده فى ذلك آخرون، فاجتمعوا فى دار «عبـداللّه بن جَـدْعان» وتحالفوا وتعاهـدوا باللّه ليكونَنّ يـداً واحـده مع المظلوم على الظالم حتّى يؤدّى إليه حقّه ما أمكنهم ذلك، ثم مَشوا إلى «العاص بن وائل» فانتزعوا منه سلعه الزبيدى فدفعوها إليه.

وقد أنشدَ الزبير بن عبدالمطلب فى ذلك شعراً فقال:

۱- . البدايه والنهايه: ۲/۳۵۷.

إنّ الفُضُولَ تَعاقَدُوا وتَحالَفوا ألّا يقيمَ بِبطن مَكّه ظالمُ

أمرٌ عَلَيْهِ تَعاقَدُوا وتواثقُوا فالجارُ والمُعترُّ فيهم سالمُ

وقال أيضاً:

حَلفْت لَنعْقَدن حلفاً عليهمْ وإن كُنّا جميعاً أهلَ دار

نسمّيه «الفُضُولَ» إذا عَقَدْنا يَعُزُّ به الغَريبُ لِذى الجوار

ويعْلَمُ منْ حَوالى البيتِ أنّا أُباه الضَيْم نَمنَعُ كُلَّ عار(۱)

وقد شارك رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فى هذا الحلف الّذى ضمن حقوق المظلومين وحياتهم، وقد نُقِلت عنه صلى الله عليه و آله و سلم عبارات كثيره يشيد فيها بذلك الحلف ويعتزُّ فيها بمشاركته فيه، وها نحن ننقل حديثين منها فى هذا المقام.

قال صلى الله عليه و آله و سلم:

«لقد شَهدْتُ فى دار عبداللّه بن جدعان حلفاً لو دُعيتُ به فى الإسلام لأجبتُ».(۲)

كما أنّ ابن هشام نقل فى سيرته أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كان يقول فى ما بعد عن هذا

۱- . البدايه والنهايه: ۲/۳۵۵-۳۵۶.

۲- . البدايه والنهايه: ۲/۳۵۵.

الحلف: «لقد شهدت فی دار عبداللّه بن جدعان حلفاً ما أَحبُّ أنَّ لی به حُمُرَ النِعَم ولو أَدعی به الإسلام لأجبت».(۱)

ولقد بقی هذا الحلف یحظی بمکانه واحترام قویّین فی المجتمع العربی والإسلامی حتّی أنّ الأجیال القادمه کانت تری من واجبها الحفاظ علیه والعمل بموجبه، ویدلّ علی هذا قضیهٌ وقعت فی عهد إماره «الولید بن عتبه» الأموی(۲)علی المدینه.

فقد وقعت بین الإمام الحسین بن علی علیه السلام وبین أمیر المدینه هذا منازعه فی مال متعلّق بالحسین علیه السلام، ویبدو أنّ «الولید» تحامل علی الحسین فی حقّه لسلطانه، فقال له الإمامُ السبط الّذی لم یرضخ لحیف قط، ولم یسکت علی ظلم أبداً:

«أَحلِفُ باللّه لتَنْصِفَنّی مِنْ حَقّی، أوْ لآخُذَنَّ سَیفیْ ثمَّ لأَقُومَنَّ فی مَسجد رَسُول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثمَّ لأَدْعُونَّ بِحلفِ الفُضُول».(۳)

فاستجاب للحسین فریقٌ من الناس منهم «عبداللّه بن الزبیر»، وکرّر هذه العباره وأضاف قائلاً: وأنا أحْلِفُ باللّه لئن دعا به لآخُذَنَّ سَیْفی ثُمّ لأَقُومَنَّ مَعه حتّی یُنْصَفَ مِنْ حَقّهِ أوْ نَمُوتَ جَمیعاً.(۴)

وبلغت کلمه الحسین السبط علیه السلام هذه إلی رجال آخرین ک «المسوره بن مخرمه بن نوفل الزُهری» و «عبدالرحمان بن عثمان» فقالا مثل ما قال «ابن الزبیر»، فلمّا بلغ ذلک «الولید بن عتبه» أنصف الحسین علیه السلام من حقّه حتّی رضی.(۵)

۱- . السیره النبویه: ۱/۸۷.

۲- . من قبل عمّه معاویه.

۳- . السیره الحلبیه: ۱/۲۱۵.

۴- . السیره النبویه لابن هشام: ۱/۲۸۸.

۵- . البدایه والنهایه: ۲/۳۵۸ بتصرّف.

۱۰ من فتره الشباب إلی مزاوله التجاره

اشاره

یحمل القاده الإلهیّون العظماء وأصحاب الرسالات السماویه علی کواهلهم مسؤولیات کبری، ومهام عظمی تلازم - فی الأغلب - التعرض للمتاعب والمصاعب، والعذاب، وتحمّل الأذی، بل وربّما التعرض للقتل والاغتیال، وکلّما کبرت الأهداف، عظمت المشاکل، والمتاعب.

وعلی هذا الأساس، فإنّ نجاح القاده الرساليّین یتوقّف علی مدی صبرهم واستقامتهم فی وجه الاتّهامات والمضایقات، وفی وجه الأذی والعذاب، لأن الصبر والتحمّل فی جمیع مراحل الجهاد والعمل هو الشرط الأساسیّ للوصول إلی المقصود، وإلی تحقیق الهدف المنشود والغایه المطلوبه.

من هنا لیس لقائد حقیقی أن یخشی کثره العدو، ولیس له أن ینسحب، أو یضعف لقلّه الأتباع والمؤیّدین وبالتالی لیس له أن یقلق للنوائب فتخور عزیمته، أو تضعف إرادته، مهما عظمت حلقه البلاء واشتدّت، ومهما تزایدت الأزمات أو تواترت.

إنّنا نقرأ فی تاریخ الأَنبیاء وقصصهم أُموراً یعسر علی الإنسان العادیّ هضمها، ویصعب تصوُّرها.

فعن نوح النبیّ علیه السلام نقرأ أنّه دعا قومه تسعمائه وخمسین عاماً، ولم تنتج هذه الدعوه الطویله المضنیهُ سوی قلّه من المؤمنین والمؤیدین الذین لم یتجاوز عددهم الواحد والثمانین، وهذا یعنی أنّه لم یوفق فی کلّ اثنی عشر عاماً إلّالهدایه شخص واحد.

إنَّ إراده الصبر، وقوَّه التحمّل، والتصبّر تظهر لدى الإنسان شيئاً فشيئاً، فلابدّ أن تتلاحق حوادثٌ صعبهٌ، ولابد أن يمرَّ المرء بنوائب مزعجه حتّى تأنس روحُه بالأُمور الثقيله، والقضايا الصعبه.

لقد قضى رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم شطراً من حياته قبل البعثه فى رعى الغنم فى الصحارى والقفار، ليكون بذلك صبوراً فى تربيه الناس الذين سيكلَّف بقيادتهم وهدايتهم، وليستسهل كلّ صعب فى هذا المجال.

إنّ إداره المجتمع البشرىّ من أصعب الأُمور الّتى تواجه القاده، ورجال الإصلاح. والمقدره على الإداره هذه لا تسنح ولا تتهيَّأ لأَحد إلّابعد مزاوله الأُمور الصعبه، وممارسه الأعمال الشاقّه، وربّما يكون قيام النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم برعى الغنم من هذا الباب، ولهذا جاء فى الحديث.

«ما بَعثَ اللّهُ نَبيّاً قَطُّ حَتّى يَسْتَرْعيْه الغَنم، يُعلّمهُ بذلِكَ رعْيَهَ النّاسِ».(۱)

لقد قضى النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم شطراً من عمره الشريف فى هذا المجال، وينقل كثيرٌ من أرباب السير والمؤرّخين هذه العباره عنه صلى الله عليه و آله و سلم:

«ما بعث اللّه نبياً إلّاوَقَدْ رَعى الغَنم» فقال له أصحابه: وَ أَنتَ يا رَسُول اللّه؟

فقال: «وأنا رَعيْتُها لأَهْل مَكَّه بِالقَراريطِ».(۲)

إنّ شخصيه عظيمه يُفتَرضُ فيها أن تواجه - فى المستقبل - أشخاصاً عنودين كأبى جهل وأبى لهب، وأن تصنع ممّن انحطّت أفكارهم حتّى أنّهم سجدوا لكلّ حَجر ومَدر، أفراداً لا يخضعون لأى شىء سوى إراده الحقّ ومشيئته، لابدَّ أن تتسلّح قبل ذلك بسلاح الصبر، وتتجهّز بأداه التحمّل، وتتزوّد مسبقاً بقدره

۱- . علل الشرائع: ۱/۳۲ ح ۲، الباب ۲۹؛ بحار الأنوار: ۱۱/۶۵.

۲- . البدايه والنهايه: ۲/۳۶۰؛ السيره الحلبيه: ۱/۲۰۵.

الاستقامه على طريق الهدف، وهذا لا يكون إلّابتعويد النفس على هذه الصفات، وحملها على مشاق الأعمال.

سبب آخر لرعى الغنم

ويمكن أن نذكر هنا سَبباً آخر أيضاً وهو أنّ رجلًا حرّ النفس والعقل كرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تجرى فى شرايينه وعروقه دماء الغيره والشجاعه كان يشقّ عليه أن يشاهد كلّ ذلك الظلم والحيف الّذى كان يمارسه طغاه مكّه، وعتاه قريش وزعماؤها الظالمون القساه بحقّ الضعفاء، والمحرومين، وكذا كان يشقّ عليه أن يرى تظاهرهم بالعصيان والفسوق فى حرم اللّه، وعند بيته المعظم.

إنّ إعراض سُكّان مكّه عن عباده اللّه الواحد الحقّ، وطوافهم حول تلك الأصنام الخاويه هى - بلا ريب - أسوأ وأقبح ما يكون فى نظر الرجل الفاهم، والعاقل العالم، وأثقل ما يكون عليه.

من هنا رأى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أن يقضى ردحاً من الزمن فى الصحارى والقفار وعند سفوح الجبال الّتى كانت يومئذ بعيده بطبيعه الحال عن تلك المجتمعات الفاسده وأحوالها وأوضاعها، ليستريح (أو يتخلّص) بعض الشىء من آلامه الروحيه الناشئه مِن رؤيه تلك الأوضاع المزريه، والأحوال المشينه. على أَنَّ هذا الأمر لا يعنى أنّ للرجل المتّقى أن يسكت على الفساد والظلم، ويقرّ عليهما. ويفرّق بين حياته وحياه الآخرين ويعتزل عنهم ويتّخذ موقف اللامبالاه تجاه الأوضاع المنحرفه، والأحوال الشاذّه، بل أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لمّا كان مأموراً من جانب اللّه سبحانه بالسكوت والانتظار، لأنّه لم تكن ظروف «البعثه» والهدايه قد توفّرت وتهيّأت بعد، لذلك اتّخذ صلى الله عليه و آله و سلم مثل هذا الموقف.

***

سببٌ ثالث

ولقد كان هذا العمل (أى الاشتغال برعى الأغنام فى البرارى والقفار وعند السهول وسفوح الجبال) فرصه جيده لأن يتمكّن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم من النظر فى خلق السماوات والتطلّع فى النجوم والكواكب وأحوالها وأوضاعها، وبالتالى الإمعان فى الآيات الأنفسيه والآفاقيه التى هى جميعاً من آيات وجود اللّه تعالى، ومن مظاهر قدرته وحكمته وعلمه وإرادته.

إنّ قلوب الأنبياء والمرسلين مع أنّها منوَّره بمصابيح المعرفه المشرقه ومضاءه بأنوار الإيمان والتوحيد منذ بدء فطرتها، وخلقتها، ولكنّهم مع ذلك لا يرون أنفسهم فى غنىً عن النظر فى عالم الخلق، والتفكّر فى الآيات الإلهيه، إذ من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلى مراتب الإيمان، ويبلغون أسمى درجات اليقين، وبالتالى يتمكّنون من الوقوف على ملكوت السماوات والأرضين.

إقْتراح أبى طالب

لقد دفع وضع (محمَّد) المعيشى الصعب «أبا طالب» سيد قريش وزعيمها الّذى كان معروفاً بالسخاء وموصوفاً بالشهامه، وعلو الطبع، وإباء النفس إلى أن يفكّر فى عمل لابن أخيه، كيما يخفف عنه وطأه ذلك الوضع.

ومن هنا اقترح على ابن أخيه «محمَّد» العمل والتجاره بأموال «خديجه بنت خُويلد» الّتى كانت امرأه تاجره، ذات شرف عظيم، ومال كثير، تستأجر الرجال فى مالها أوتضاربهم إيّاه بشىء تجعله لهم منه.

فقد قال أبوطالب للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم:... وخديجه بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عيراتها فيتّجرون لها فى مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فوضعتَ

نفسَك عليها لأسرعتْ إليك، وفضَّلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك....

ولكن إباء رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وعلوّ طبعه، منعاه من الإقدام بنفسه على هذا الأمر من دون سابق عهد، ولهذا قال صلى الله عليه و آله و سلم لعمّه: «فلعلّها ترسل إليّ فى ذلك»، لأنّهاتعرف بأنّه المعروف بالأمين بين الناس.

فبلغ «خديجه» بنت خويلد، ما كان من محاوره عمّه «أبى طالب»، له، فقالت:

ما علمت أنّه يريد هذا، ثم أرسلت إليه صلى الله عليه و آله و سلم فقالت: إنّى دعانى إلى البعثه إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعفَ ما أُعطى رجلًا من قومك وأبعثُ معكَ غلامين يأتمران بأمرك فى السفر.

ففعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ولقى عمّه أبا طالب فذكر له ذلك فقال: «إنّ هذا لرزق ساقهُ اللّهُ إليك».(۱)

هل عَمِلَ النبىُّ أجيراً لخديجه؟

وهنا لابدّ من التذكير بنقطه فى هذا المجال وهى:

هل عمل النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أجيراً فى أموال خديجه، أم أنّه قد عمل فى تجارتها بصوره أُخرى كالمضاربه، وذلك بأن تعاقد النبىّ مع خديجه على أن يتاجر بأموالها على أن يشاركها فى أرباح تلك التجاره؟

إنّ مكانه البيت الهاشمىّ، وإباء النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم ومناعه طبعه، كلّ تلك الأُمور والخصال توجب أن يكون عملُ النبىّ فى أموال خديجه قد تمَّ بالصُوره الثانيه (أى العمل فى تجارتها على نحو المضاربه لا الإجاره)، وتؤيّد هذا المطلب أُمور هى:

۱- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۱/۲۱۶.

أوّلاً: أنّه لا يوجد فی اقتراح أبی طالب أیّه اشاره ولا أی کلام عن الإجاره، بل قد تحاور أبوطالب مع إخوته (أعمام النبیّ) فی هذه المسأله من قبل وقال:

«امضوا بنا إلی دار خدیجه بنت خویلد حتّی نسألها أن تُعطی محمَّداً مالاً یتّجر به».(۱)

ثانیاً: أنّ المؤرّخ الأقدم المعروف بالیعقوبی کتب فی تاریخه:... وأنّه ما کان ممّا یقول الناس أنّها استأجرته بشیء، ولا کان أجیراً لأحد قط.(۲)

ثالثاً: أنّ الجنابذی صرّح فی کتابه «معالم العتره النبویه» مرفوعاً عن محمد بن إسحاق قال: کانت «خدیجه بنت خویلد امرأه تاجره ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فی مالها، وتضاربهم إیّاه بشیء تجعله لهم منه (أی من ذلک المال أومن ربحه).(۳)

***

رحله النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم التجاریه إلی الشام

تهیّأت قافله قریش التجاریه للسفر إلی الشام، وفیها أموال «خدیجه» أیضاً، فی هذه الأثناء جعلت «خدیجه» بعیراً قویاً وشیئاً من البضاعه الثمینه تحت تصرّف وکیلها (أی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم) وأمرت غلامیها (میسره وناصح) اللّذین قرّرت أن یرافقاه صلی الله علیه و آله و سلم بأن یمتثلا أوامراه، ویطیعاه، ویتعاملا معه بأدب طوال تلک الرحله، ولا یخالفاه فی شیء.(۴)

۱- . بحار الأنوار: ۱۶/۲۲.

۲- . تاریخ الیعقوبی: ۲/۲۱.

۳- . بحار الأنوار: ۱۶/۹ نقلاً عن «معالم العتره النبویه» لأبی محمد بن عبدالعزیز الأخضر الجنابذی الحنبلی.

۴- . قالت خدیجه لهما: إعلما أنّنی قد أرسلتُ إلیکما أمیناً علی أموالی، وأنّه أمیر قریش وسیّدها، فلا یدٌ علی یده، فإن باع لا یُمنع، وإن ترک لا یؤمر، ولیَکُنْ کلامُکما له بلطف وأدب، ولا یعلو کلامکما علی کلامه. (بحار الأنوار: ۱۶/۲۹).

وأخيراً وصلت القافله إلى مقصدها واستفاد الجميع فى هذه الرحله التجاريه أرباحاً، إلا أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ربح أكثر من الجميع، كما أنّه ابتاع أشياء من الشام لبيعها فى سوق «تهامه».

ثم عادت تلك القافله التجاريه إلى «مكّه» بعد ذلك المكسب الكبير، والحصول على الربح الوفير.

ولقد تسنّى لفتى قريش «محمَّد» أن يمرّ - للمره الثانيه فى هذه السفره - على ديار عاد وثمود.

وقد حمله الصمتُ الكبير الّذى كان يخيّم على ديار وأطلال تلك الجماعه العاصيه المتمرّده فى نقله روحانيه إلى العوالم الأُخرى أكثر فأكثر، هذا مضافاً إلى أنّ هذه الرحله جدّدت خواطره وذكرياته فى السفره الأُولى، فقد تذكّر يوم طوى مع عمّه «أبى طالب» هذه الصحارى نفسها وهذه القفار ذاتها، وما كان يحظى فيها من عمّه من الحبّ والعنايه. وعند ما اقتربت قافله قريش إلى «مكّه»، وصارت عند مشارفها، التفت «ميسره» غلامُ خديجه، إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وقال: «يامحمَّد لقد جزنا عقبات بليله كنّا نجوزها بأيام كثيره، وربحنا فى هذه السفره ما لم نربح فى أربعين سنه ببركتك يا محمد، فاستقبل بخديجه وابشرها بربحنا» فأخذ النبىّ باقتراح ميسره، وسبق القافله العائده فى الدخول إلى مكّه، وتوجه نحو بيت «خديجه» بينما كانت خديجه جالسه فى غرفتها، فلمّا رأت النبىّ مقبلاً عليها، نزلت من منظرتها وركضت نحوه واستقبلته، وأدخلته فى غرفتها، فخبّرها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بما ربحوا، ببيان جميل، وكلام بليغ، فسرت «خديجه» بذلك سروراً عظيماً، ثم قدم «ميسره» فى الأثر، ودخل عليها، وأخبرها بكلّ ما رآه وشاهده من النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى تلك السفره من الكرامه والخير، والخُلق العظيم، والخصال الكريمه، ومن الأُمور الّتى كانت برمّتها

تدلّ على عظمه شخصيته صلى الله عليه و آله و سلم، وسمو خصاله.(۱)

ومن جمله ما حدّثها به ميسره هو أنّه لمّا وقع بين النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم وبين رجل تلاح وجدال فى بيع قال له ذلك الرجل: إحلف باللّات والعُزى، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: ما حلفتُ بهما قط، وإنّى أمرُّ فاعرضُ عنهما.(۲)

وحدّثها أيضاً بأنّه لمّا مرّ ببصرى نزلا فى ظل شجره ليستريحها فقال راهبٌ كان يعيش هناك لمّا رأى النبيّ يستريح فى ظل تلك الشجره: «ما نزل تحت هذه الشجره قط إلّانبيّ» سأل عن اسمه، فأخبره ميسره باسمه فقال: «هو نبيّ وهو آخر الأنبياء، إنّه هو هو ومُنزّلِ الإنجيل، وقد قرأت عنه بشائر كثيره».(۳)

خَديجه زَوجهُ الرَّسول الأُولى

حتّى قبل ذلك اليوم لم تكن حاله النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم الاقتصاديه ووضعه المالى يُحسدُ عليه، فقد كان بحاجه إلى مساعده عمّه «أبى طالب» الماليه، ولم يكن شغله على النحو الّذى يكفى لضمان نفقاته، من جانب، وتمكينه من اختيار زوجه وشريكه حياه وتكوين عائله، من جانب آخر.

ولكن هذه السفره إلى الشام وبخاصه على نحو الوكاله والمضاربه فى أموال امرأه جليله، معروفه فى قريش (أعنى خديجه) ساعدت وإلى حدّ كبير على تثبيت وضعه الاقتصادى وتقويه بنيته الماليه.

ولقد أعجبت «خديجه» بعظمه فتى قريش وسموّ أخلاقه، ومقدرته التجاريه

۱- . بحار الأنوار: ۱۶/۵ بتصرّف واختصار.

۲- . الطبقات الكبرى: ۱/۱۳۰ وفى بحار الأنوار: ۱۶/۱۸: أنّه صلّى اللّه عليه وآله قال: إليك عنّى ثكلتك أُمّك فما تكلّمت العربُ بكلمه أثقل علىَّ من هذه الكلمه.

۳- . بحار الأنوار: ۱۶/۱۸؛ الطبقات الكبرى: ۱/۱۳۰.

حتّی أنّها أرادت أن تعطیه زیاده علی ما تعاقدا علیه، تقدیراً له، وإعجاباً به، ولکنّه اکتفی بأخذ ما تقرّر فی البدایه ثم توجّه إلی بیت عمه «أبی طالب» وقدّم کل ما أخذه من «خدیجه» إلی عمّه «أبی طالب» لیوسّع به علی أهله.

ففرح «أبو طالب» بما عاین من ابن اخیه، وبقیه أبیه «عبدالمطلب»، وأخیه «عبداللّه» وأغرورقت عیناه بالدموع، وسرّ بما حقّق من نجاح وما حصل علیه من ربح من تلک التجاره سروراً کبیراً، واستعدّ أن یعطیه بعیرین یسافر علیهما ویتاجر، وراحلتین یُصلح بهما شأنه، لیتسنّی له بأن یحصل علی ثروه ومال یعطیه لعمّه لیختار له زوجه.

فی مثل هذه الظروف بالذات عزم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عزماً قاطعاً علی أن یتّخذ لنفسه شریکه حیاه ویکوّن أُسره، ولکن کیف وقع الاختیار علی «خدیجه» الّتی سبق لها أن رفضت کلّ طلبات الزواج الّتی تقدّم بها کبار الأثریاء والشخصیات القرشیه مثل «عقبه بن أبی معیط»، و «أبوجهل» و «أبوسفیان» للزواج بها؟؟!، وماذا کانت العلل الّتی جمعت هذین الشخصین غیر المتشابهین، من حیث مستوی الحیاه، والثراء؟ وکیف ظهرت تلک الرابطه القویه، وتلک العلاقه المعنویّه العمیقه، والأُلفه والمحبّه بینهما إلی درجه أنَّ «خدیجه» سلام اللّه علیها وهبت کل ثروتها للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لینفقها فی نشر الإسلام، وإعلاء کلمه الحقّ، وإرساء قواعد التوحید، وبثّ الدین الجدید، وأصبحت تلک الدار الفخمه الّتی کانت تزینها الکراسی المرصّعه، والستر المطرّزه، المصنوعه من أغلی الأقمشه الهندیه، والإیرانیه، ملجأ للمسلمین، وملتقی لأنصار الرساله؟!!

لابدَّ من البحث عن جذور هذه الحوادث فی تاریخ حیاه «خدیجه» نفسها، فإنّ من المسلَّم والبدیهیّ أنّ هذا النوع من الفداء، والتفانی والإیثار لم یکن ثابتاً لیتحقّق ما لم یکن لها جذور معنویه وطاهره.

إن صفحات التاريخ لتشهد بأنّ هذا الزواج كان ناشئاً من إيمان «خديجه» بتقوى عزيز قريش وفتاها الأمين «محمَّد» وطهره، وحبها الشديد لعفّته وكرم أخلاقه، ولهذا قال النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فى حقّها:

«أفضل نساء الجنه أربع: خديجه...».(۱)

إنّها أوّل امرأه آمنَتْ برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فقد قال على أميرالمؤمنين عليه السلام: فى خطبته الّتى يشير فيها إلى غربه الإسلام فى مبدأ البعثه النبويه الشريفه:

«ولَمْ يَجمَعْ بَيْتٌ واحِدٌ يَوْمَئذٍ فى الإسْلام غَيرَ رَسُول اللّه وَ خَديجَه وأَنا ثالِثُهما».(۲)

ويكتب «ابن الأثير»: وقال: عفيف الكندى: كنت امرَأً تاجراً فقدمت مكّه أيام الحج فأتيت العباس فبينما نحن عنده إذ خرج رجل فقام تجاه الكعبه يصلّى ثم خرجت امراهٌ تصلّى معه، ثم خرج غلامٌ فقام يصلّى معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ فقال:

هذا محمَّد بن عبداللّه ابن أخى زعم أنّ اللّه أرسله وأنّ كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجه آمنت به، وهذا الغلام على بن أبى طالب آمن به، وأيمُ اللّه ما أعلم على ظهر الأَرض أحداً على هذا الدين إلّاهؤلاء الثلاثه.(۳)

وينبغى هنا أن نعطى لمحه عن مكانه خديجه فى الإسلام تكميلا لهذه الدراسه.

۱- . خصال الصدوق: ۲۰۶ ح ۲.

۲- . نهج البلاغه: ۳۰۰، الخطبه ۱۹۲؛ شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد المعتزلى الشافعى: ۱۳/۱۹۷ و ۲۰۱.

۳- . الكامل فى التاريخ: ۲/۵۷.

خديجه فی أحاديث الرسول صلی الله عليه و آله و سلم

لقـد اكتسَـبَت «خديجه» بفضل إيمانها العميق بالرساله المحمديه، وتفانيها فی سبيل الإسـلام وبسـبب حرصـها العجيب علی حياه صـاحب الرسـاله وسـلامته، وعملها المخلص علی إنجاح مهمته، ومشاركتها الفعّاله، فی دفع عجله الـدعوه إلی الأمام، ومشاطرتها للنبیّ فی أكثر ما تحمّله من محن وأذی بصبر واستقامه وحب ورغبه.

لقـد اكتسـبت خـديجه بفضل كلّ هـذا وغيره مكانه ساميه فی الإسـلام، حتّی أنّ النبیّ ذكرها فی أحاديث كثيره وأشاد بفضـلها، ومكانتها وشرفها علی غيرها من النساء المسلمات المؤمنات، وذلك ولا شك ينطوی علی أكثر من هدف.

فمن جمله الأهـداف التی ربّمـا توخّاهـا النبیّ صـلی الله عليه و آله و سـلم من الإشـاده بخـديجه عليهـا السـلام إلفـات نظر المرأه المسلمه إلی القدوه الّتی ينبغی أن تقتدی بها فی حياتها وسلوكها فی جميع المجالات والأبعاد، والظروف، والحالات.

هـذا مضافاً إلی ما يمكن أن تقـدّمه المرأه وهی نصف المجتمع (إن لم تكن أكثره أحياناً) من دعم جـدّی للرساله، مادّياً كان أو معنوياً.

وفيما يلی نأتی ببعض الأحاديث الشـريفه الّتی تعكس مكانه خديجه، ومقامها، ومدی إسـهامها فی نصـره الإسـلام ودعم دعوته، وإرساء قواعده.

١. عن أبی زرعه عن أبی هريره يقول: قال رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم:

«أتی جبرئيل النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم فقال يا رسول اللّه: هذه خديجه قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هی أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومنّی، وبَشِّرها ببيتٍ فی الجنه من قصب لا صخَبَ فيه ولا نصَبِ».(١)

١- . صحيح البخاری: ۴/٢٣١، باب تزويج النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم خديجه وفضلها؛ صحيح مسلم: ٧/١٣٣.

۲. عن عائشه قالت: ما غِرتُ علی امرأه ما غِرتُ علی خدیجه، ولقد هَلَکتْ قبل أن یتزوجنی بثلاث سنین، لما کنتُ أسمعه یذکرها، ولقد أمره ربُه عزّوجلّ أن یبشرها ببیت من قصب فی الجنه، وإنْ کان لیذبح الشاه ثم یهدیها إلی خلائلها (أی خلیلاتها وصدیقاتها).(۱)

۳. وعن عائشه أیضاً قالت: ما غِرت علی نساء النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم إلّاعلی خدیجه، وإنّی لم أدرکها، قالت: وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إذا ذبح الشاه فیقول: أرسلوا بها إلی أصدقاء خدیجه قالت «أی عائشه»: فأغضبتُه یوماً فقلت: خدیجه!! فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «إنّی قد رزقت حبّها».(۲)

۴. ومن هذا القبیل ما کان یقوم به رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مع صاحبات خدیجه من الاحترام لهن والاحتفاء بهنّ:

فقد وقف صلی الله علیه و آله و سلم علی عجوز فجعل یسألها، ویتحفاها، وقال:

«إنّ حسن العهد من الإیمان، إنّها کانت تأتینا أیام خدیجه».(۳)

۵. وروی عن أنس قال: کان النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم إذا أُتی بهدیه قال: «إذهبوا بها إلی بیت فلانه فإنّها کانت صدیقه لخدیجه، إنّها کانت تحب خدیجه».(۴)

۶. روی مجاهد عن الشعبی عن مسروق عن عائشه قالت: کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لا یکاد یخرج من البیت حتّی یذکر خدیجه فیحسن الثناء علیها، فذکرها یوماً من الأیام فأدرکتنی الغیره فقلت: هل کانت إلا عجوزاً فقد أبدلک اللّه خیراً منها، فغضب حتّی اهتزّ مقدَمُ شعره من الغضب، ثم قال: «لا واللّه ما أبْدلَنی اللّه

۱- . صحیح مسلم: ۷/۱۳۳-۱۳۴، باب فضائل خدیجه علیها السلام.

۲- . صحیح مسلم: ۷/۱۳۴.

۳- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۱۸/۱۰۸. وذکر نحوه الحاکم فی مستدرکه: ۱/۱۶.

۴- . الشفا بتعریف حقوق المصطفی للقاضی عیاض: ۱/۱۲۶.

خیراً منها، آمنَتْ إذْ کَفَر الناسُ، وصدَّقتنی وکذَّبنی الناسُ، وواستنی فی مالها إذ حرمنی الناسُ، ورزقنی اللّه منها أولاداً إذ حرمنی أولاد النساء». قالت عائشه: فقلت فی نفسی: لا أذکرها بسیئهٍ أبداً.(۱)

۷. عن یعلی بن المغیره عن ابن أبی رواد قال: دخل رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی خدیجه فی مرضها الّذی ماتت فیه، فقال لها:

«بالکره منّی ما أری منک یا خدیجه، وقد یجعل اللّه فی الکُره خیراً کثیراً، أما علمت أن اللّه تعالی زوَّجنی معک فی الجنه مریم بنتَ عمران، وکلثمَ أُخت موسی وآسیه امرأه فرعون...».(۲)

۸. عن عکرمه عن ابن عباس قال: خطَّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أربع خطط فی الأَرض وقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: اللّه ورسولُه أعلم، فقال رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«أفضل نساء الجنه أربع: خدیجه بنت خویلد، وفاطمه بنت محمَّد، ومریم بنت عمران، وآسیه بنت مزاحم امرأه فرعون».(۳)

۹. عن أنس قال: أتی جبرئیل علیه الصلاه والسلام إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وعنده خدیجه رضی اللّه عنها فقال: إنّ اللّه یقرئ خدیجه السلام، فقالت: إنّ اللّه هو السلام، وعلیک السلام، ورحمه اللّه وبرکاته.(۴)

۱۰. عن أبی الحسن الأوّل (الکاظم) علیه السلام قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

۱- . أُسد الغابه: ۵/۴۳۸؛ الاستیعاب لابن عبدالبرّ: ۴/۱۸۲۳؛ ورواها مسلم أیضاً: ۷/۱۳۴؛ وکذا البخاری: ۵/۳۹ وقد حذفا آخرها من: فغضب حتّی... إلی آخر الروایه.

۲- . أُسد الغابه: ۵/۴۳۹؛ البدایه والنهایه: ۲/۷۴.

۳- . الخصال للصدوق: ۲۰۵ ح ۲۲؛ بحار الأنوار: ۱۶/۲، ح ۳.

۴- . المستدرک علی الصحیحین: ۳/۱۸۶.

«إنّ اللّه اختار من كلّ شیء أربعه... واختار من النساء أربعاً: مریم و آسیه وخدیجه وفاطمه».(۱)

۱۱. عن أبی الیقظان عمران بن عبداللّه عن ربیعه السعدی قال: أتیت حذیفه بن الیمان وهو فی مسجد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فسمعتُه یقول: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«خدیجهُ بنتُ خویلد سابقهُ نساء العالمین إلی الإیمان باللّه وبمحمد صلی الله علیه و آله و سلم».(۲)

۱۲. عن عروه قال: قالت عائشه لفاطمه (رضی اللّه عنها بنت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم): ألا أبشّرک أنی سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یقول:

«سیدات نساء أهل الجنه أربع: مریم بنت عمران، وفاطمه بنت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وخدیجه بنت خویلد، وآسیه».(۳)

۱۳. عن أبی عبداللّه (الصادق) علیه السلام قال: دخل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم منزله، فإذا عائشه مقبله علی فاطمه تصایحها وهی تقول: واللّه یا بنت خدیجه، ماترین إلا أنّ لأُمِّکِ علینا فضلاً، وأیُ فضل کانَ لها علینا؟! ماهی إلّاکبعضنا.

فسمع صلی الله علیه و آله و سلم مقالتها لفاطمه، فلمّا رأت فاطمه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بکت، فقال: ما یبکیک یا بنت محمَّد؟! قالت: ذکرتْ أُمّی فتنقّصتْها فبکیتُ، فغضب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثم قال:

«مَهْ یا حُمیراء، فإنّ اللّه تبارک وتعالی بارک فی الوَدُود الولود، وأَنّ خدیجه (رحمها اللّه) ولدَتْ مِنّی طاهِراً، وهو عَبْدُ اللّه وهو المطهّر وَ وَلدَتْ منّی القاسم، وفاطمه، ورقیه، وأُم کلثوم، وزینب، وأنت ممّن أعقم اللّهُ رحمه فلم تلدی

۱- . الخصال: ۲۲۵ ح ۵۸؛ بحار الأنوار: ۱۶/۲، ح ۵.

۲- . المستدرک علی الصحیحین: ۳/۱۸۴.

۳- . مستدرک الحاکم: ۳/۱۸۵-۱۸۶.

شيئاً».(۱)

أجل هذه هی «خديجه بنت خويلد» شرفٌ وعقلٌ، وحبٌ عميق لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ووفاء وإخلاص، وتضحيه بالغالى والنفيس فى سبيل الإسلام الحنيف.

هـذه هی «خديجه» أوّل مَن آمنت باللّه ورسوله، وصدّقت محمَّداً فيما جاء به عن ربّه، من النساء، وآزرته، فكان صـلى الله عليه و آله و سـلم لاـ يسـمع من المشـركين شـيئاً يكرهه من ردّ عليه، وتكـذيب له الّا فرّجَ اللّه عنه بخـديجه الّتى كانت تخفّف عنه(۲)، وتهوّن عليه مـا يلقى من قومه، بمـا تمنحه من لطفهـا، وعطفها، وعنايتها به صـلى الله عليه و آله و سـلم، فى غايه الإخلاص والودّ والتفانى.

ولهذا كان رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم يحبُّها حبّاً شديداً ويجلّها ويقدرها حقّ قدرها(۳)، ولم يفتأ يذكرها، ولم يتزوّج عليها غيرَها حتّى رحلت وفاء لها، واحتراماً لشخصها ومشاعرها، وكان يغضب إذا ذكرها أحدٌ بسوء، كيف وهى الّتى آمنت به إذ كفر به الناسُ، وصدّقته إذ كذّبه الناسُ، وواسته فى مالها إذ حرمهُ الناسُ.

ولهـذا أيضـاً كانت وفاتها مصـيبه عظيمه أحزنت رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم ودفعته إلى أن يُسـمّى ذلك العام الّـذى توفّى فيه ناصراه وحامياه، ورفيقا آلامه (زوجته هذه:

خـديجه بنت خويلـد، وعمّه المؤمن الصامـد الصابر أبوطالب عليهما السـلام) بعام الحـداد، أو عام الحزن(۴) وأن يلزم بيتـه ويقلّ الخروج(۵)، وأن ينزل صلى الله عليه و آله و سلم عند دفنها فى

۱- . الخصال: ۴۰۵ ح ۱۱۶؛ بحار الأنوار: ۱۶/۳ ح ۶.

۲- . نهايه الأرب فى فنون الأدب للنويرى: ۱۸/۱۷۱.

۳- . أعلام النساء: ۱/۳۳۰.

۴- . السيره الحلبيه: ۳/۴۹۸؛ تاريخ اليعقوبى: ۲/۳۵. وقـد روى اليعقوبى أيضاً عنه عليه السـلام أنّه قال بهذه المناسـبه: «اجتمعت على هذه الأُمّه مصيبتان لا أدرى بأيّهما أنا أشدّ جزعاً».

۵- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۲/۴۱؛ المواهب اللـدنيه حسب نقل تاريخ الخميس: ۱/۳۰۲ وفيه إضـافه: ونالت قريش منه ما لم تكن تنال.

حفرتها، ويدخلها القبر بيده، فی الحجون.(۱)

عن ابن عباس فی حدیث طویل فی زواج فاطمه الزهراء علیها السلام بعلی علیه السلام اجتمعن (نساء النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم) عند رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وکان فی بیت عائشه (لیسألنّه أن یُدخلَ الزهراء علی (علیّ) علیه السلام) فأحدقْن به وقُلنَ: فَدیناک بآبائنا وأُمهاتنا یا رسول اللّه قد اجتمعنا لأمر لو أنّ «خدیجه» فی الأحیاء لقرّتْ بذلک عینُها.

قالت أُمُّ سلمه: فلمّا ذکرنا «خدیجه» بکی رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثم قال: «خدیجه وأین مثل خدیجه، صدَّقْتنی حین کذَّبنی الناس، وآزرتنی علی دین اللّه وأعانتنی علیه بمالها، إنَ اللّه عزّوجلّ أمرَنی أنْ أُبشّر خدیجه ببیت فی الجنه من قصب (الزمرّد) لا صخَبَ فیهِ ولا نصَب».(۲)

لقد کانت خدیجه من خیره نساء قریش شرفاً، وأکثرهنّ مالاً، وأحسنهن جمالاً، وأقواهنُّ عقلاً وفهماً، وکانت تُدعی فی الجاهلیه بالطاهره لشدَّه عفافها وصیانتها۳؛ ویقال لها: سیده قریش۴، وکان لها من المکانه والمنزله بحیث کان کلُّ قومها وسُراه أبناء جلدتها حریصین علی الاقتران بها۵، وقد خطبها - کما یحدّثنا التاریخ - عظماء قریش وبذلوا لها الأموال، وممّن خطبها «عقبه بن أبی معیط» و «الصلت بن أبی یهاب» و «أبوجهل» و «أبوسفیان» فرفضتهم جمیعاً، واختارت رسول اللّه - وهی فی سن الأربعین وهو صلی الله علیه و آله و سلم فی الخامسه والعشرین - وهی تمتلک تلکم الثروه الطائله، وهو صلی الله علیه و آله و سلم لا یمتلک من حطام الدنیا إلّاالشیء الیسیر الیسیر، رغبه فی الاقتران به ولما عرفت فیه من کرم الأخلاق، وشرف النفس، والسجایا الکریمه والصفات العالیه، وهی ما کانت تبحث عنه فی حیاتها وتتمنّاه وإذا بتلک المرأه الغنیه الثریه المتنعّمه فی أفضل عیش تصبح فی بیت زوجها

۱- . لاحظ: السیره الحلبیه: ۲/۴۰.

۲- . بحار الأنوار: ۴۳/۱۳۱ نقلاً عن کشف الیقین.

الرسول صلى الله عليه و آله و سلم تلك الزوجه المطيعه الخاضعه، الوفيّه المخلصه، وتسارع إلى قبول دعوته، واعتناق دينه بوعى وبصيره وإراده منها واختيار، وهى تعلم ما ينطوى عليه ذلك من مخاطر ومتاعب، وتجعل كلّ ثروتها فى خدمه العقيده والمبدأ، وتشاطر زوجها آلامه، ومتاعبه، وترضى بأن تذوق مراره الحصار فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات وفى سنّ الرابعه أو الخامسه والستين. وهى مع ذلك تواجه كلّ ذلك بصبر وثبات(۱)، ودون أن يذكر عنها تبرُّم أو توجّع.

هذا مضافاً إلى أنّها كانت تعامل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأدب تامّ يليق بمقام الرساله والنبوه، على العكس من غيرها من بعض نساء النبىّ اللائى كنّ ربّما يثرن سخطه وغضبه، ويؤذينه فى نفسه وأهله.

وإليك فيما يأتى بعض ما قاله عنها كبار الشخصيات، والمؤرّخين ممّا يكشف عن عظيم مكانتها عند المسلمين أيضاً، قال أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام:

«كنتُ أوّلَ مَن أسلَم، فمكَثْنا بِذلِكَ ثلاث حجَج، وما عَلى الأَرض خَلْقٌ يُصلّى ويشهَد لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بما أتاهُ غيْرى، وغير ابنه خويلد رحمها اللّه وقد فعل».(۲)

وقال محمَّد بن إسحاق: كانت خديجه أوّلَ مَن آمن باللّه ورسوله وصدّقت بما جاء من اللّه، ووازرته على أمره، فخفّف اللّه بذلك عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلّافرّج اللّه ذلك عن

۱- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۱۴/۵۹ قال: خديجه بنت خويلد وهى عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله محاصَره فى الشِّعب.

۲- . بحار الأنوار: ۱۶/۲؛ ومثله فى روايات متعدّده فى شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۴/۱۱۹ و ۱۲۰.

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بها إذا رجع إليها تتبّعُه، وتخفّف عنه، وتهوّن عليه أمر الناس حتّى ماتت رحمها اللّه.(۱)

وعنه أيضاً: أنّ «خديجه بنت خويلد» و «أباطالب» ماتا فى عام واحد، فتتابع على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هلاك خديجه وأبى طالب، وكانت خديجه وزيره صدق على الإسلام، وكان رسول اللّه يسكن إليها.(۲)

وقال أبو أُمامه ابن النقّاش: إنّ سبق خديجه وتأثيرها فى أوّل الإسلام ومؤازرتها ونصرتها وقيامها للّه بمالها ونفسها لم يشركها فيه أحدٌ لا عائشه ولا غيرها من أُمّهات المؤمنين.(۳)

وقد جاء فى «المنتقى»: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عند ما أُمِرَ بأن يصدع بالرساله صعد على الصفا، وأخبر الناس بما أمره اللّه به فرماه أبوجهل (قبحه اللّه) بحجر فشجّ بين عينيه، وتبعه المشركون بالحجاره فهرب حتّى أتى الجبل، فسمع علىٌّ و خديجهٌ بذلك فراحا يلتمسانه صلى الله عليه و آله و سلم وهو جائع عطشان مرهق، ومضت خديجه تبحث عنه فى كلّ مكان فى الوادى وهى تناديه بحرقه وألم، وتبكى وتنحب؛ ونظر جبرئيل إلى خديجه تجول فى الوادى فقال: يا رسول اللّه ألا ترى إلى خديجه قد أبكت لبكائها ملائكه السماء؟ أُدعُها إليك فاقرئها منّى السلام وقل لها: إنّ اللّه يقرئك السلامَ، وبشّرها أنّ لها فى الجنهِ بيتاً من قصب لا نصَبَ فيه ولا صخَب، لؤلؤاً مكلّلاً بالذهب؛ فدعاها النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم والدماء تسيلُ من وجههِ على الأرض وهو يمسحها ويردّها،... فلمّا جنّ عليهم الليل انصرفت خديجه رضى اللّه عنها ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وعلى عليه السلام ودخلت به منزلها، فأقعدَتْه على الموضع الّذى فيه الصخره، وأظلّته بصخره من فوق رأسه، وقامت فى وجههِ تستره ببُردها، وأقبلَ المشركون

۱- . بحار الأنوار: ۱۶/۱۰-۱۲.

۲- . نفس المصدر.

۳- . تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس: ۱/۲۶۶.

يرمونه بالحجاره، فإذا جاءتْ من فوق رأسه صخره وقته الصخره، وإذا رمَوْهُ مِن تحته وقتْهُ الجدرانُ الحُيّط، وإذا رُمىَ من بين يديه وقتْهُ خديجه (رضى اللّه عنها) بنفسها، وجعَلتْ تنادى يا معشر قريش تُرمى الحُرّهُ فى منزلها؟ فلَمّا سمِعوا ذلك انصرفُوا عنه، وأصبَحَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وغدا إلى المسجد يُصلّى.(۱)

ولقد بَلَغ من خضوعها لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وحبّها له أنّها بعد أن تمَّ عقدُ زواجها برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قالت له صلى الله عليه و آله و سلم: «إلى بيتك، فبيتى بيتك، وأنا جاريتك».(۲) وجاء فى السيره الدحلانيه بهامش السيره الحلبيه: ولسبقها إلى الإسلام وحسن المعروف جزاها اللّه سبحانه، فبعث جبرئيل إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وهو بغار حراء وقال له: اقرأ عليها السَّلام من ربها ومنّى، وبشّرها ببيت فى الجنه من قصب لا صخب فيه ولا نصب؛ فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبرئيل السلام، وعليك يا رسول اللّه السلام ورحمه اللّه وبركاته، وهذا من وفور فقهها (رضى اللّه عنها) حيث جعلت مكان ردّ السلام على اللّه الثناء عليه ثم غايرت بين ما يليق به وما يليق بغيره، قال ابن هشام: والقصب هنا اللؤلؤ المجوّف، وأبدى السهيلى لنفى النصب لطيفه هى أنّه صلى الله عليه و آله و سلم لمّا دعاها إلى الإيمان أجابت طوعاً ولم تحوجه لرفع صوت ولا منازعه ولا نصب بل أزالت عنه كلّ تعب، وآنسته من كلّ وحشه، وهوّنت عليه كلّ عسير فناسب أن تكون منزلتها الّتى بشّرها بها ربُّها بالصفه المقابله لفعلها وصوره حالها (رضى اللّه عنها) وإقراء السلام من ربها خصوصيه لم تكن لسواها، وتميّزت أيضاً بأنّها لم تسؤه صلى الله عليه و آله و سلم ولم تغاضبه قط، وقد جازاها فلم يتزوّج عليها مده حياتها، وبلغت منه ما لم تبلغه امرأه قط من زوجاته.(۳)

۱- . بحار الأنوار: ۱۸/۲۴۲-۲۴۳. باختصار وتصرّف يسير.

۲- . بحار الأنوار: ۱۶/۴ نقلاً عن الخرائج والجرائح: ۱/۱۴۰.

۳- . سيره زينى دحلان بهامش السيره الحلبيه: ۱/۱۶۹.

افتخار أهل البيت بخديجه عليها السلام

وما يدلّ على سموّ مقامها وعلوّ منزلتها أنّ أهل البيت عليهم السلام طالما افتخروا بأنّ خديجه منهم، وأنّهم من خديجه وقد كانوا يعتزّون بها، ويشيدون بمكانتها:

فقد خطب معاويه بالكوفه حين دخلها والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر فذكر عليّاً عليه السلام فنال منه ثم نال من الحسن، فقام الحسين عليه السلام ليردَّ عليه، فأخذه الحسن بيده وأجلسه ثم قام فقال:

«أيُّها الذاكِرُ عَليّاً أنا الحَسن وأبى علىّ وأنت معاويهُ وأبوك صخرٌ، وأُمّى فاطمه وأُمُّك هند، وجدّى رسُولُ اللّه وجدُّك عُتبهُ بنْ رَبيعه، وجدّتى خديجه وجدتُك قتيله، فلعن اللّه أخْمَلَنا ذكراً، والأَمُنا حَسَباً، وشَرَّنا قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً». فقال طوائفُ من أهل المسجد: آمين(۱).

وقيل: إنّ «الحسين» عليه السلام ساير «أنس بن مالك» فأتى قبرَ خديجه فبكى، ثم قال: إذْهَبْ عَنّى قال «أنس»: فاستخفيتُ عنه فلمّا طال وقوفُه فى الصلاه سمعته يقول:

يا رَبِّ يَا رَبِّ أنْتَ مَولاهُ فَارْحَمْ عُبيْداً إلَيْكَ مَلْجاهُ

يا ذا المَعالِى عَلَيْكَ مُعْتَمدى طُوبْى لِمَنْ كُنْت أَنتَ مَوْلاهُ

طُوْبى لِمَنْ كانَ خادِماً أرقاً يَشْكُوْ إلى ذِىْ الجَلالِ بَلْواهُ

إلى آخر الأبيات.(۲)

هكذا كان أهل البيت النبوى - اقتداءً برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - يحترمون خديجه ويكرمونها، لما كان لها من شخصيه عظيمه، ولما أسدته إلى الإسلام وإلى رسول

۱- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد المعتزلى: ۱۶/۴۶-۴۷.

۲- . بحار الأنوار: ۴۴/۱۹۳، نقلاً عن عيون المحاسن.

الإسلام من خدمات لا تُنسى على مرّ الدهور.

إنّ بيان ونقل الأحاديث والروايات، وكذا الأقوال الّتى وردت فى شأن خديجه والحديث عن شخصيّتها ومكانتها ومدى إسهامها فى إنجاح ونصره الدعوه المحمّديه خارج عن إمكانيه هذه الدراسه، ونطاقها، لذلك نكتفى بهذه الإلماعه العابره.

ولنَعُدْ إلى تبيين الأسباب الظاهريه والباطنيه لزواجها من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

العللُ الظاهريه والحقيقيه وراء زواج خديجه بالنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم

إنّ الإنسان المادىّ الّذى ينظر إلى كلّ ما يحيط به من خلال المنظار المادّى، ويفسّره تفسيراً مادّياً قد يتصوّر (وبالأحرى يظن) أنّ «خديجه» كانت امرأه تاجره تهمُّها تجارتها، وتنميه ثروتها، ولأنّها كانت بحاجه ماسّه إلى رجل أمين قبل أى شىء، لذلك وجدت ضالّتها فى محمَّد الصادق الأمين صلى الله عليه و آله و سلم فتزوّجت منه، بعد أن عرضت نفسها عليه ومحمَّد صلى الله عليه و آله و سلم هو الآخر حيث إنّه كان يعلم بغناها وثروتها، قبِل بهذا العرض رغم ما كان بينه وبينها من فارق كبير فى السن.

ولكنّ التاريخ يثبت أنّ ثمّه أسباباً وعللاً معنويّه لا مادّيه هى الّتى دفعت بخديجه للزواج بأمين قريش وفتاها الصادق الطاهر.

وإليك فى ما يأتى شواهدنا على هذا الأمر:

١. عندما سألت «خديجه» ميسره عمّا رآه فى رحلته من فتى قريش «محمَّد» فخبّرها ميسره بما شاهد ورأى من «محمَّد» فى تلك السفره، وبما سمعه من راهب الشام حوله أحسَّت «خديجه» فى نفسها بشوق عظيم ورغبه شديده نحوه كانت نابعه من إعجابها بمعنويه محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم وكريم خصاله، وعظيم أخلاقه، فقالت من دون إرادتها: «حسبُك يا ميسره؛ لقد زدتنى شوقا إلى محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم، إذهبْ فأنت حرٌ

لوجه اللّه، وزوجتك وأولادك، ولَك عندى مائتا درهم وراحلتان» وخلعَت عليه خلعه سنيه.(۱)

ثم إنّها ذكرت ما سمعته من «ميسره» لورقه بن نوفل وكان من حكماء العرب: فقال ورقه: «لئنْ كانَ هذا حَقّاً يا خديجه، إنّ محمَّداً لنبيُّ هذهِ الأُمُّه».(۲)

۲. مرَّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يوماً بمنزل «خديجه بنت خويلد، وهى جالسه فى ملأ من نسائها وجواريها وخدمها، وكان عندها حبرٌ من أحبار اليهود، فلمّا مرّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم نظر إليه ذلك الحبر وقال: ياخديجه اعلمى أنّه قد مرّ الآن ببابك شاب حدث السن، فأمرى مَنْ يأتى بهذا، فأرسلت إليه جاريه من جواريها، وقالت: يا سيدى مولاتى تطلبك، فأقبل ودخل منزلَ «خديجه»،... فقال له الحبر: إكشفْ لى عَنْ بطنك، فكشف له، فلمّا رآه قال: هذا واللّه خاتم النبوّه، فقالت له خديجه: لو رآك عمه وأنت تفتّشه لحلّت عليك منه نازله البلاء، وإنّ أعمامه ليحذرون عليه من أحبار اليهود.

فقال الحبر: ومَن يقدر على «محمَّد» هذا بسوء، هذا وحقّ الكليم رسولُ الملك العظيم فى آخر الزمان، فطوبى لمن يكون له بعلاً، وتكون له زوجه وأهلاً فقد حازت شرف الدنيا والآخره.

فتعجَّبت «خديجه»، وانصرف «محمَّد» وقد اشتغل قلبُ خديجه بنت خويلد بحبّه... فقالت: أيّها الحبر بمَ عرفت محمَّداً أنّه نبيّ؟

قال: وجدتُ صفاته فى التوراه أنّه المبعوثُ آخر الزمان، يموت أبوه وأُمُّه، ويكفله جدّه وعمه، وسوف يتزوّج بامرأه من قريش سيده قومها وأميره عشيرتها، وأشار بيده إلى خديجه... فلمّا سمعت «خديجه» ما نطق به الحبر تعلّق قلبُها بالنبيّ صلى الله عليه و آله و سلم، وكتمت أمرها، فلمّا خرج من عندها قال: إجتهدى أن لا يفوتك

۱- . بحار الأنوار: ۱۶/۵۲.

۲- . السيره النبويه لابن هشام الحميرى: ۱/۱۲۳.

«محمَّدٌ» فهو الشرف فی الدنیا والآخره.(۱)

۳. کـان لخـدیجه عم یقـال له: ورقه، وکـان قـد قرأ الکتب کلّهـا (وکـان من کُهّان قریش وقـد قرأ صـحف «شـیث» علیه السـلام وصـحف «إبراهیم» علیه السـلام وقرأ التوراه والإنجیـل وزبور «داود» علیه السـلام) وکـان عالمـاً حبراً، وکان یعرف صـفات النبیّ الخـارج فی آخر الزمـان، وکـان عنـد ورقه أنّه یتزوّج بامرأه سـیده من قریش، تسود قومها، وتنفق علیه مالها، وتمکّنه من نفسـها، وتساعـده علی کـلّ الأُمور، فعلم ورقه أنّه لیس بمکّه أکثر مالاً من خـدیجه، فرجا ورقه أن تکون ابنه أخیه خـدیجه، وکان یقول لها: «یا خدیجه سوف تتّصلین برجل یکون أشرف أهل الأرض والسماء».(۲)

هـذه قضایـا ذکرهـا بعض المؤرّخین، وهی منقولهٌ ومثبته فی طـائفه کبیره من الکتب التـاریخیه، وهی بمجموعها تـدلّ علی العلل الحقیقیه والبـاطنیه لرغبه خـدیجه فی الزواج برسـول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم، وإنّ هـذه الرغبه کـانت ناشـئه من إعجـاب «خـدیجه» بأخلاق فتی قریش الأمین، ونبله، وطهارته، وعظیم سـجایاه وخصاله وحبّها لهـذه الأُمور، ولیس هناک أی أثر فی علل هذا الزواج لأمانه «محمَّد» وکونه أصلَح من غیره لهذا السبب للقیام بتجاره «خدیجه».

کیفَ تمَّت خِطبهُ خدیجه؟

من المسلّم به أنّ اقتراح الزواج جاء من جانب «خـدیجه» نفسـها أوّلاً حتّی أنّ ابن هشام(۳) نقل فی سـیرته: أنّ «خـدیجه» لمّا أخبرها میسـره بما أخبرها به بعثت إلی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سلم فقالت له: «یا ابْنَ عم إنّی قد رغبتُ فیک لقرابتک، وسِطَتِکَ (۴)

۱- . بحار الأنوار: ۱۶/۲۰-۲۱، نقلاً عن کتاب الأنوار لأبی الحسن البکری.

۲- . بحار الأنوار: ۱۶/۲۱.

۳- . السیره النبویه: ۱/۱۲۲.

۴- . یسط فی حسبه سطه: حلّ وسطه أی أکرمه. وأصل الکلمه الواو وهو بابها، والهاء فیها عوض

فی قومک، وأمانتک وحُسن خلقک، وصدق حدیثک» ثمّ اقترحَت علیه أن تتزوّج به.

ویعتقدُ أکثرُ المؤرّخین أنّ «نفیسه بنت علیّه» بَلّغتْ رساله «خدیجه» إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم علی النحو التالی:

قالت لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «یا محمَّد ما یمنعک أن تتزوّج... فإن کفیت ذلک ودُعیت إلی الجمال والمال والشرف والکفاءه ألا تجیب؟

فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: فمَن هی؟

فقالت: خدیجه، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: وکیف لی بذلک؟ فقالت: علیَّ، فذهبت إلی خدیجه فأخبرتها، فأرسلت خدیجه إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بوکیلها «عمرو بن أسد»(۱) لتحدید ساعه من أجل مراسم الخطبه فی محضر من الأقارب.(۲)

فشاور النبیُّ صلی الله علیه و آله و سلم أعمامه وفی مقدّمتهم «أبوطالب»، ثم عقدوا مجلساً فخماً حضره کبارُ وجوه قریش، ورؤساؤها فخطبَ «أبوطالب»، وبعد أنَ حَمداللّه وأثنی علیه وصفَ ابن أخیه محمَّداً بقوله:

«ثم إنّ ابْن أخی هذا محمَّد بن عبداللّه بن عبدالمطلب لا یوزَنُ برجل من قریش إلّارجح، ولا یقاس بأحد منهم إلّاعظم عنه، وإن کان فی المال قل فإنّ المالَ

۱- . المعروف أنّ والد خدیجه توفّی فی حرب الفجار ولهذا قام بالإیجاب من قبلها عمّها عمروبن أسد، ولهذا لا یصحّ ما ذکره بعض المؤرّخین من أنّ خویلد (والد خدیجه) امتنع من تزویجها لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی بدایه الأمر، ثم رضی بذلک نزولاً عند رغبه خدیجه.

۲- . لاحظ: تاریخ الخمیس: ۱/۲۶۴.

رزق حائل، وظِلَّ زائلٌ، وَلَهُ فی خدیجه رغبهٌ ولها فیه رغبهٌ، والصَّداق ما سألتم عاجله وآجله مِن مالی...».(۱)

وحیث إنّ «أباطالب» تعرَّض فی خطبته لذکر قریش، وبنی هاشم وفضیلتهم، ومنزلتهم بین العرب، لذلک تکلّم «ورقه بن نوفل بن أسد» الّذی کان من أقارب خدیجه(۲) وقال فی خطبه له: «لا تنکُرُ العشیره فضلکُمْ، ولا یَرُدُّ أحدٌ من الناس فخرکم وشرفکُمْ، وقد رغبنا فی الإتصال بحبلکم وشرفکُمْ».(۳)

ثم أُجری عقد النکاح ومهرها النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أربعمائه دینار وقیل أصدقها عشرین بکره.(۴)

عمر خدیجه عند زواجها بالنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم

المعروف المشهور أنّ خدیجه علیها السلام تزوّجت من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهی فی سنّ الأربعین وأنّها وُلدَت قبل عام الفیل بخمسه عشر عاماً.

وذکر البعضُ أقلَّ من ذلک أیضاً.

وقیل: إنّها تزوّجت قبل النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم برجلین أوّلهما «عتیقُ بن عائذ» ثمَ من بعده أبوهاله التمیمی وقد توفّی کلاهما بُعید زواجه بخدیجه.

وقد شکّک بعض العلماء فی قضیه زواجها قبل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم برجلین بل

۱- . بحار الأنوار: ۱۶/۱۶-۱۷.

۲- . المعروف أنّ ورقه کان عمّاً لخدیجه ولکن هذا موضع نقاش لأنّ «خدیجه بنت خویلد بن أسد» وورقه بن نوفل بن أسد فیکونان أولاد عمومه، أی أنّه ابن عم خدیجه وهی بنت عمّه. ولذلک جاء فی بعض المصادر وصفه ب «ابن عمّها» (تاریخ الخمیس: ۱/۲۸۲) وراجع قبله السیره النبویه لابن هشام: ۱/۱۵۶.

۳- . بحار الأنوار: ۱۶/۱۶؛ السیره الحلبیه: ۱/۲۲۷؛ تاریخ الخمیس: ۱/۲۶۴.

۴- . السیره الحلبیه: ۱/۲۲۶.

قطع بعضهم بأنّ خديجه لم تتزوج غير رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فقد ذكر أبو القاسم على بن أحمد الكوفى (المتوفّى ۳۵۲ ه) فى الاستغاثه حيث يقول: إنّ الإجماع من الخاص والعام من أهل الآثار ونقله الأخبار على أنّه لم يبق من أشراف قريش من ساداتهم وذوى النجده منهم إلّامن خطب خديجه ورام تزويجها فامتنعت على جميعهم من ذلك فلمّا تزوجها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم غضب عليها نساء قريش وهجرنها وقلن لها خطبك أشراف قريش وأُمراؤهم فلم تتزوّجى أحداً منهم وتزوّجت محمداً يتيم أبى طالب فقيراً لا مال له، فكيف يجوز فى نظر أهل الفهم أن تكون خديجه يتزوّجها أعرابى من تميم وتمتنع من سادات قريش وأشرافها على ما وصفناه، ألا يعلم ذو التمييز والنظر أنّه من أبين المحال وأفظع المقال، ولما وجب هذا عند ذوى التحصيل ثبت أنّ خديجه لم تتزوج غير رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم....(۱)

وقال ابن شهرآشوب: وروى أحمد البلاذرى، وأبو القاسم الكوفى فى كتابيهما، والمرتضى فى الشافى، وأبو جعفر فى التلخيص أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم تزوّج بها وكانت عذراء. يؤكد ذلك ما ذكر فى كتابى الأنوار والبدع: أنّ رقيه وزينب كانتا ابنتى هاله أُخت خديجه.(۲)

وقال الإصبهانى فى دلائل النبوّه: كانت خديجه امرأه باكراً.(۳)

كما استدل المشككون على ذلك باختلاف الروايات وتناقضها حول زواج

۱- . الاستغاثه: ۱/۷۰.

۲- . مناقب ابن شهرآشوب: ۱۳۸/۱، المكتبه الحيدريه، النجف - ۱۳۷۶ ه؛ بحار الأنوار: ۱۹۱/۲۲.

۳- . دلائل النبوّه: ۱۷۸، ط. دار طيبه، الرياض.

خديجه قبل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.(۱)

وقد روى أنّه كانت لخديجه أُخت اسمها هاله تزوّجها رجل مخزومى، فولدت له بنتاً اسمها هاله، ثم خلف عليها - هاله الأُولى - رجل تميمى يقال له: أبو هند فأولدها ولداً اسمه هند، وكان لهذا التميمى امرأه أُخرى قد ولدت له زينب ورقيه فماتت ومات التميمى، فلحق ولده هند بقومه وبقيت هاله أُخت خديجه والطفلتان اللّتان من التميمى وزوجته الأُخرى، وضمّتهم خديجه إليها، وبعد أن تزوّجت بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم ماتت هاله، فبقيت الطفلتان فى حجر خديجه والرسول صلى الله عليه و آله و سلم وكان العرب يزعمون أنّ الربيبه بنت، ولأجل ذلك نسبتا إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.(۲)

ونكتفى بهذا المقدار خوف الإطاله. واللّه العالم.

۱- . مثل اختلافهم فى اسم أبى هاله، هل هو التّباش بن زراره أو عكسه، أو هند، أو مالك؟ وهل هو صحابى أو لا؟ وهل تزوجته قبل عتيق، أو تزوّجت عتيق قبله؟ لاحظ: الصحيح من سيره النبىّ الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم: ۲/۲۰۸. ولاحظ أيضاً الإصابه: ۳/۶۱۱؛ وأُسد الغابه: ۵/۱۲ و ۱۳ و ۷۱.

۲- . وللمزيد من التفاصيل راجع الاستغاثه: ۱/۶۸-۷۰؛ الصحيح من سيره النبىّ الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم للسيد جعفر مرتضى العاملى: ۲/۲۰۷-۲۱۹.

۱۱ من الزواج إلی البعثه

اشاره

تُعتَبر فترهُ الشباب من أهمّ وأخطر الفترات فی حیاه الإنسان، ففی هذه الفتره تبلغ الغریزه الجنسیه نضجها وکمالها، وتصبحُ النفسُ البشریه لعبه فی أیدی الأهواء ویغلب طوفان الشهوه علی فضاء العقل، ویغطّی الظلامُ سماء التفکیر، وتشتد حاکمیه الغرائز المادّیه، وتتضاءل شعله العقل، وتتراءی أمام عیون الشباب بین الحین والآخر، وصباح مساء صروح عظیمه من الآمال الخیالیه.

ولو مَلک الإنسانُ - فی مثل هذه الفتره - شیئاً من الثروه، لتحوَّلتْ حیاته إلی مسأله فی غایه الخطوره فالغرائز الحیوانیه، وصحّه المزاج من جهه والإمکانات المادّیه والمالیه من جهه أُخری تتعاضدان وتغرقان المرء فی بحر من الشهوات، والنزوات، وتهیِّئان له عالماً بعیداً عن التفکیر فی المستقبل.

ومن هنا یصف علماء التربیه تلک الفتره الحسّاسه بأنّها الحدّ الفاصل بین الشقاء والسعاده، والفتره الّتی قلّما یستطیع شاب أن یرسم لنفسه فیها مساراً معقولاً، ویختار لنفسه طریقاً واضحاً علی أمل الحصول علی الملکات الفاضله، والنفسیه الرفیعه الطاهره الّتی تحفظه عن أیّ خطر متوقَع(۱). حقّاً إنّ کبح جماح النفس،

۱- . وإلی هذه الحقیقه أشار الشاعر أبو العتاهیه بقوله: إنّ الفراغ والشباب والجده مَفسده للمرء أی مفسده أعیان الشیعه: ۳/۳۹۸.

وزمَّها وحفظها مِنَ الانزلاق فی مهاوی الشهوات، والنزوات فی مثل هذه الفتره لهو أمر عسیر جدّاً، ولو أنّ الإنسانَ حُرمَ من تربیه عائلیه صحیحه مستقیمه کان علیه أن ینتظر مصیراً سیّئاً، ومستقبلاً فی غایه البؤس والشقاء.

فَترهُ الشَبابِ فی حیاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم

لیس من شکّ فی أنّ فتی قریش «محمَّد» صلی الله علیه و آله و سلم کان یتمتع فی أیام شبابه بصحّه جیّده، وقوّه بدنیه عالیه، وکان شجاعاً قویاً، لأنّه صلی الله علیه و آله و سلم قد تربّی فی بیئه حرّه بعیده عن ضوضاء الحیاه، وفتح عینیه فی عائله اتّصف جمیع أفرادها وأعضائها بالشجاعه والفروسیه، هذا من جانب، ومن جانب آخر کان یمتلک ثروه «خدیجه» الطائله فکانت ظروفُ الترف، والعیش الشهوانی متوفّره له بشکل کامل، ولکن کیف تری استفاد من هذه الإمکانات المادّیه؟ هل مدَّ موائد العیش واللّذه وشارک فی مجالس السهر والسمر واللهو واللعب، وأطلق العنان لشهوته، وفکّر فی إشباع غرائزه الجنسیه کغیره من شباب ذلک العصر، وتلک البیئه الفاسده؟

أم أنَّه اختار لنفسه منهجاً آخر فی حیاته، واستفاد من کلّ تلک الإمکانات فی سبیل تحقیق حیاه زاخره بالمعنویه، الأمر الّذی تبدو ملامحه بجلاء لمن تتبع تلک الفتره الحسّاسه من تاریخه؟ إنّ التاریخ لیشهد بأنّه صلی الله علیه و آله و سلم کان یعیش کما یعیش أی رجل، رجلٍ عاقل لبیبٍ وفاضل رشیدٍ، وأنّه طوی تلک السنوات الحسّاسه من حیاته کأحسن ما یکون، بعیداً عن العبث والترف والضیاع والإنزلاق إلی الشهوات والانسیاق وراء التوافه.

بل إنّ التاریخ لیشهد بأنّه کان أشدّ ما یکون نفوراً من اللهو، والعبث، والترف والمجون فقد کانت تلوح علی محیّاه دائماً آثار التفکّر والتأمّل، وکثیراً مّا کان یلجأ إلی سفوح الجبال أوالکهوف والمغارات للابتعاد عن الجوّ الإجتماعی الموبوء فی

مكّه، يلبث هناك أيّاماً يتأمّل فيها فى آثار القدره الإلهيه، وفى عظمه الصنع الإلهى، الرائع البديع.

مشاعر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم الإنسانيه فى فتره الشباب

ولقد وقعت فى إحدى أسواق مكّه ذات يوم حادثه هيّجت مشاعره الإنسانيه وحرّكت عواطفه وأحاسيسه، فقد رأى مقامراً قد خسر بعيره وبيته، بل بلغ الأمر به أن استرقّهُ منافسُه عشره أعوام.

وقد آلمت هذه القصه المأساويه فتى قريش «محمَّد» بشدّه، إلى درجه أنّه لم يَعُد يحتمل البقاء فى «مكّه» ذلك اليوم فغادرها من فوره وذهب إلى الجبال المحيطه بمكه ثم عاد بعد هزيع من الليل.

لقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ينزعج بشده لهذه المشاهد المحزنه والأوضاع المأساويه، وكان يتعجّب من ضعف عقول قومه، وانحطاط مداركهم.

ولقد كان بيت «خديجه» قبل زواج النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم بها ملاذاً للفقراء وكعبه لآمال المساكين والمحرومين، وبعد أن تزوّج النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم بها لم يطرأ على وضع ذلك البيت أىُّ تغيير من جهه الإنفاق والبذل.

ففى سنين الجدب والقحط الّتى كانت تضرب مكّه وضواحيها بين الحين والآخر ربّما قدمت «حليمه السعديه» مكّه لتزور ولدها الرضاعى «محمَّد» فكان النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يكرمها ويحترمها، ويفرش رداءه تحت أقدامها، ويصغى لكلامها بعنايه ولطف، وفاء لجميلها، وعرفاناً لعواطفها وأُمومتها.

فقد روى أنّ «حليمه» قدِمت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مكّه بعد تزوّجه خديجه، فشكت إليه جدب البلاد وهلاك المواشى فكلَّم رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم «خديجه» فأعطتها بعيراً وأربعين شاه، وانصرفت إلى أهلها موفوره، مسروره.

وروى أيضاً أنّه استأذنت «حليمه» عليه ذات مره فلمّا دخلت عليه قال: «أَمّى أَمّى» وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه.(۱)

أولادُ خديجه

لا ـ ريب فى أنَّ وجودَ الأولاـد فى الحياه العائليّه ممّا يقوّى أواصر الوشيجه الزوجيه، ويعمّق جُذُورها، ويمنح الجوَّ العائلىّ بهاء، ورَوْنقاً، وجمالاً خاصّاً.

ولقد أنجبت «خديجهُ» لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سته من الأولاد اثنين من الذكور، أكبرُهما «القاسم» ثم «عبدُاللّه» اللّذان كانا يُدعَيان ب: «الطاهر» و «الطيّب» وأربعاً من الإناث.

كتب ابن هشام يقول فى هذا الصدد: أكبرُ بناته رُقيَّه ثم زيْنَبْ ثم أُمُّ كلثوم، ثم فاطمه.

فأمّا الذكور من أولاده صلى الله عليه و آله و سلم فهلكوا فى الجاهليه، وأمّا بناته فكلُّهن أدركنَ الإسلام.(۲)

ورغم أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم قد عُرفَ بصبره وجَلده فى الحوادث والنوائب فربّما انعكست أحزانه القلبيه فى قطرات دموعه الساخنه المنحدره على خَدَّيه الشريفين فى موت أولاده.

ولقد بلغ به الحزنُ والغمُ لموت ولده «إبراهيم» من زوجته ماريّه القبطيه حدّاً لم يحدثْ لغيره من أولاده، إلّاأنّه رغم ذلك الحزن الآخذ من قلبه مأخذاً لم يفتر

۱- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۱/۱۶۸-۱۶۹.

۲- . مناقب ابن شهرآشوب: ۱/۱۴۰، قرب الأسناد: ۹ برقم ۲۹؛ الخصال: ۴۰۴ برقم ۱۱۵؛ بحار الأنوار: ۲۲/۱۵۱-۱۵۲. وقد ذكر البعض للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أكثر من ولدين، راجع: السيره النبويه: ۱/۱۲۲-۱۲۳؛ تاريخ الطبرى: ۲/۳۵؛ بحار الأنوار: ۲۲/۱۶۶.

لسانه عن حمد اللّه وشكره حتّى أنّ أعرابياً اعترض عليه صلى الله عليه و آله و سلم لمّا وجده يبكى على ولده قائلاً: يا رسول اللّه تنهى عن البكاء وأنت تبكى؟ أجابه بقوله:

«إنّما هذا رحمه، ومن لا يَرحَم لا يُرحَم».(۱)

حَدْسٌ لا أساس له من الواقع!!

لقد كتبَ الدكتور هيكل فى كتابه: «حياه محمَّد» يقول: «لا ريب أنّ خديجه عند موت كلّ واحد منهما (أى ولدى النبىّ: القاسم وعبداللّه) فى الجاهليه توجَّهت إلى آلهتها الأصنام تسألها ما بالها لم تشملها برحمتها وبرها».(۲)

إنَّ هذا الكلام لا يستند إلى أى دليل تاريخى، وليس هو بالتالى إلّاحَدْسٌ باطل، وادّعاء فارغ ليس له من منشأ إلّاأنّ أغلبيه أهل ذلك العصر كانوا عبَده أوثان، فلابُدّ أنّ خديجه كانت على منوالهم!!

فى حين أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يبغض الأصنام والأوثان من بدايه شبابه، وقد اتّضح موقفُه منها أكثر فى سفرته إلى الشام فى أموال خديجه يوم قال لمن استحلفه باللّات والعزى: «إليك عنّى، ثكلتك أُمّك فما تكلَّمت العربُ بكلمهٍ أثقل علىَّ من هذه الكلمه».(۳)

مع ذلك كيف يمكنُ القولُ بأنّ امرأه لبيبه عاقله لم يكن شدّهُ حبّها وشغفها بزوجها موضعَ شكّ، أن تتوجَّه عند موت وَلديها إلى الأصنام التى كانت أبغض الأَشياء عند زوجها، وخاصّه أنّ حبّها لزوجها «محمَّد»، بل إقدامها على الزواج منه إنّما كان بسبب ما كان يتحلّى به من إيمان ومعنويه، وصفات فاضله، وملكات

۱- . بحار الأنوار: ۲۲/۱۵۱.

۲- . حياه محمَّد: ۱۲۸.

۳- . بحار الأنوار: ۱۶/۱۷.

أخلاقيه عاليه، فهى قد سمعت عنه بأنّه آخر نبىّ، وأنّه خاتم المرسلين، فكيف والحال هذه يمكن أن يحتمل أحد أنّها - مع هذا الاعتقاد - بثّت شكواها وحزنها إلى الأوثان والأصنام؟؟!

دَعِىُّ رسول اللّه: زيد بن حارثه

عند الحَجَر الاسود أعلن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن تبنّيه له... ذلك هو زيد بن حارثه.

وكان «زيدٌ» ممّن سباهُ العرب من حدود الشام، وباعُوه فى أسواق مكّه رقيقاً لأحد أقرباء «خديجه» يُدعى «حكيم بن حزام»، ولكن لا يُعرف كيف انتقل إلى «خديجه» فى ما بعد؟

يقول هيكل فى كتابه «حياه محمَّد» فى هذا الصدد «لقد ترك موتُ ولدَىْ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى نفس النبىّ أثراً عميقاً حتّى إذا جىء بزيد بن حارثه يُباعُ طلب إلى «خديجه» أن تبتاعه ففعلت ثم أعتقه وتبنّاه».(۱)

ولكن أكثر المؤرّخين يقولون: إنّ «حكيم بن حزام» قد اشتراه لعمّته «خديجه بنت خويلد»، وقد أحبَّه رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لذكائه وطهره، فوهبته «خديجه» له عند زواجه صلى الله عليه و آله و سلم منها. ففتش عنه والدُه «حارثه» حتّى عرف بمكانه فى مكّه، فقدمها، ودخل على النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فطلب منه أن يأذن لزيد ليرحل معه إلى موطنه، فدعاه رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وخيّره بين المقام معه صلى الله عليه و آله و سلم والرحيل إلى موطنه مع أبيه، فاختار المقام مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لما وجد من خلقه، وحنانه، ولطفه العظيم، فلمّا رأى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ذلك أخرجه إلى الحجر وأعتقه ثم تبنّاه على مرأى من الناس ومسمع قائلاً: «يا من

۱- . حياه محمَّد: ۱۲۸.

حضر اشهدوا أنّ زيداً ابنى».(۱)

بدايهُ الخِلاف بَين الوثنيّين

لقـد أوجـدت البعثه النبويّهُ خلافاً واختلافاً كبيراً فى أوساط قريش وفرّقْت صـفوفهم، غير أنّ هـذا الاختلاف قـد وُجـدت أسـبابُه وعواملُه، وظهرت بوادرُه وعلائمُه قبل البعثه المباركه.

فقـد أبـدى جمـاعهٌ من الناس فى الجزيره العربيه استياءهم من دين العرب وأنكروا عقائـدهم الباطله، وطالما كانوا يتحـدّثون عن قرب ظهور النبىّ العربىّ الّذى يتمُّ على يديه إحياء التوحيد.

وكان اليهود يتوعّدون أهل الأصنام بالنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ويقولون:

ليخرجنَّ نبىٌّ فَليكسرن أصنامكم.(۲)

وكتب ابن هشام يقول: كان اليهود يقولون للعرب: إنّه قد تقارب زمان نبىّ يُبعث الآن نقتلكم معه قتلَ عاد وإرم.(۳)

وكتب يقول أيضـاً: وكـانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، والكهّان من العرب قـد تحـدّثوا بأمر رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم قبل مبعثه.(۴)

هذه الكلمات تُصوِّر انقضاء عهد الوثنيه فى نظرهم إلى درجه أنّ بعض القبائل أجابت النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لمّا بُعثَ، ودعاهم إلى اللّه، بينما أحجمت اليهودُ عن الإيمان به وبرسالته وبقيت على كفرها وجحودها لنبوّته الّتى طالما بشّرت بها.

۱- . أُسد الغابه: ۲/۲۲۵ و ۲۲۶.

۲- . بحار الأنوار: ۱۵/۲۳۱.

۳- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۳۷؛ مكتبه محمد على صبيح، مصر.

۴- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۳۲.

وقد نزل فيهم قولُه تعالى:

«وَ لَمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكافِرِينَ» (۱).(۲)

أعمدهُ الوثنيّه تهتزُّ

ولقد شهدَ أحدُ أعياد قريش حادثاً غريباً كان فى نظر العقلاء وأصحاب الفكر الثاقب منهم بمثابه جرس إنذار اذِن باقتراب سقوط دوله الوثنيّين، وإنهيار صروح الوثنيّه وعباده الأصنام، وانقراضها.

فقد اجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، فتنحّى أربعهٌ ممّن عُرفوا بالعلم ناحيه، وأخذوا يتحدَّثون سرّاً، وأخذوا ينتقدون عباده الأوثان والأصنام، وما عليه قومهم من فساد العقيده.

فقال بعضهم لبعض: تعلموا واللّه ما قومكم على شىء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم!! ما حَجرٌ نُطيف به لا يسمعُ ولا يبصرُ، ولا يضرُ ولا ينفعُ! يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً...

وكان هؤلاء الأربعه هم:

١. «ورقه بن نوفل» الَّذى اختار النصرانيه واستحكم فيها، واتّبع الكتب من أهلها حتّى علم علماً من أهل الكتاب.

٢. «عبيداللّه بن جَحش» الّذى أسلمَ عند ظهور الإسلام، ثم هاجر مع

١- . البقره: ٨٩.

٢- . السيره النبويه: ١/١٣٧.

المسلمين إلى الحبشه. ومعه امرأته حبيبه بنت أبى سفيان مسلمه، فلمّا قدمها تنصّر وفارق الإسلام، حتّى هلك هناك نصرانياً.

۳. «عثمان بن الحويرث» الّذى قدم على قيصر ملك الروم، فتنصَّر.

۴. «زيد بن عمرو بن نفيل» الّذى اعتزل الأوثان، وقال: اعبدُ رب إبراهيم.(۱)

إنّ ظهور مثل هذا الاستنكار والجحد للأوثان والوثنيه لا يعنى أبداً أنَّ دعوه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كانت تعقيباً لدعوه هذه الجماعه، واستمراراً لها!!

كيف يمكن أنْ نعتبر دعوه رسول اللّه العالميه مع ما انطوت عليه من أهداف كبرى، واستندت إليه من معارف وأحكام لا تُحصى، ردّه فعل لمثل هذا الحادث الصغير وتعبيراً عن مثل هذا الاستنكار المحدود؟!

إنّ الحنيفيه وهى سُنّه إبراهيم ودينه لم تكن قد مُحِيت كلّيّاً فى الحجاز بعد أيام بعثه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، بل كان هناك لا يزال بعض الأحناف (وهم الذين كانوا على دين إبراهيم عليه السلام) منتشرين فى أنحاء الجزيره العربيه، إلّاأنّ ذلك لا يعنى أنّهم كانوا قادرين على التظاهر بعقيدتهم بين الناس، أو قياده حركه، أو تربيه أفراد على نهجهم، أو أنّ توجُّهاتهم التوحيديه كانت من القوّه بحيث تستطيع أن تكون مصدر إلهام لقيم ومعارف وتعاليم وأحكام لِشخصيّه مثل رسول الإسلام «محمَّد» صلى الله عليه و آله و سلم.

فلم يُنقَل عن هؤلاء سوى بعض الإعتقادات المعدوده المحدوده مثل الاعتقاد بالمعاد واليوم الآخر، وشىء بسيط من البرامج الأخلاقيه، وحتّى ما نقل عنهم من إبيات توحيديه لا يمكن تأكيد انتسابها إليهم، وإنْ لم يمكن نفى ذلك أيضاً.(۲)

۱- . لاحظ: السيره النبويه: ۱/۱۴۷.

۲- . ولقد نقل ابن هشام فى كتابه: السيره النبويه: ۱/۱۴۸-۱۵۲ طائفه من الأبيات والقصائد

فهل يمكن والحال هذه أن نعتبر الثقافه الإسلاميه العظيمه، والمعارف العقليه العاليه، والقوانين والتشريعات المفصّله، والأنظمه الأخلاقيه والسياسيه والاقتصاديه الإسلاميه، الشامله الكامله، كنتيجه لمتابعه أُولئك النفر المعدود من «الأحناف» الموحّدين المنتشرين فى أنحاء مختلفه من بلاد الحجاز الذين كانت جلُ عقائدهم تتألّف من مجرد الاعتقاد بوجود اللّه، واليوم الآخر وقضيه أو قضيتين من قضايا الأخلاق؟!

نموذج آخر عن ضَعف قريش

لم يكن يمض على عُمر فتى قريش أكثر من خمس وثلاثين عاماً يومَ واجه اختلافاً كبيراً بين قريش، فأزال بحكمته ذلك التخاصم، ولقد كشفت هذه الحادثه عن مدى الإحترام الّذى كان فتى قريش «محمَّد» يحظى به لدى قريش، كما وتكشف عن قوه اعتقادهم بصدقه وأمانته.

واليك تفصيل هذه الحادثه:

انحدر سيلٌ رهيب من جبال مكّه المرتفعه نحو بيت اللّه المعظّم «الكعبه المقدّسه» فلم يسلم من هذا السيل بيت فى مكّه حتّى الكعبه المعظمه، الّتى تصدَّعتْ جدرانُها تصدعاً كبيراً بفعل ذلك السيل.

فعزمت قريشٌ على تجديد تلك البِنيه المعظمه، ولكنّها تهيّبت ذلك، وتردّدت فى هدم الكعبه، فأقدم «الوليد بن المغيره» وهدمَ ركنين منها على شىء

من الخوف، فانتظر أهلُ مكّه أن يحل به أمرٌ، ولكنّهم لمّا رأوا «الوليد» لم يصبه غضب من الآلهه، اطمأنّوا إلى أنّه لم يرتكب قبيحاً، وأنّه عمل ما فيه رضى آلهتهم، فأقدَمُوا جميعاً على هدم ما تبقى من الكعبه، واتّفق أن تحطّمت سفينه قادمه من «مصر» فى تجاره لرومىّ عند ميناء «جده» بفعل الرياح والعواصف، فعلمت بذلك قريش، وأرسلت رجالاً يبتاعون أخشابها ليستخدموها فى بناء الكعبه المعظمه، وأوكلوا أمر نجارتها إلى نجّار قِبطىّ محترف كان يقطن «مكّه».

ولمّا ارتفعت جدران الكعبه إلى قامه الرجل، وآن الأوان لوضع الحجر الأسود فى محله من الركن وقع الاختلاف بين زعماء قريش، وتنازعوا فى مَن يتولّى وضع الحجر الأسود فى مكانه.

وتحالفت قبيله «بنى عبدالدار» مع «بنى عَدىّ» على أن يمنعوا من أن ينال هذا الفخار غيرُهم، وعمدوا إلى إناء مملوء بالدم فوضعوا أيديهم فيه تأكيداً لذلك الميثاق.

من هنا تأخّرت عمليه البناء وتوقّفت خمسه أيام بلياليها، وكاد أن تنشب بينهم حربٌ داميه، وربّما طويله، فقد اجتمعت طوائف مختلفه من قريش فى المسجد الحرام وهى تنتظر حادثه خطيره، فعمد - فى الأخير - شيخ من شيوخ قريش يُدعى «أبو أُميّه بن مغيره المخزومى» من زعماء قريش وقال: يا معشر قريش، إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل مَن يدخل من باب هذا المسجد(۱)يقضى بينكم فيه، فقبلوا برأيه أجمع، فكان أوّل داخل عليه فتى قريش «محمَّد» صلى الله عليه و آله و سلم فلمّا رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمَّد.

فقال صلى الله عليه و آله و سلم: هلم إلىّ ثوباً، فأخذ الحجَر ووضعه فيه ثم قال:

۱- . وفى روايه: أوّل مَن يدخل باب الصفا.

«لتأخذْ كلَّ قبيله بناحيه من الثوب، ثم ارفعوهُ جميعاً»

ففعلوا حتّى إذا بلغوا به موضعه من الركن وضعه صلى الله عليه و آله و سلم هو بيده مكانه، وبهذا حال دون وقوع حوادث داميه كادت أن تقع بسبب تنازع قريش، واختلافها، وحلَّ الوفاق محل الشقاق بعد أن رضى الكلُّ بحكمه.(۱) وإلى قضيه التحكيم هذه يشير «هبيره بن أبى وهب» فى أبيات صوَّرت هذه الحادثه التاريخيه الكبرى، إذ قال:

تشاجَرَتِ الأحياء فى فَصْل خطهٍ جرت طيرهم بالنَحس مِن بعد أسعد

فلاقَوا لها بالبُغض بعد مَودَّه وأوقدوا ناراً بينهم شرّ موقد

فلما رأينا الأمر قد جدَّ جدُّه ولم يبقَ شىء غيرُ سلّ المهند

رضينا وقلنا العدل أوّلُ طالع يجىء من البطحاء على غير موعد

فلم يفجأنا إلّاالأمينُ محمَّدٌ فقلنا رضينا بالأمين محمَّد

بخير قريش كلِّها أمسى شيمه وفى اليوم مع ما يُحدثُ اللّه فى غد

فجاء بأمر لم ير الناس مثلَه أعمَّ وأرضى فى العواقب والبَدِ

فتلك يدٌ منهُ علينا عظيمه يروح بها ركب العراق ويغتذ(۲)

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۲۴-۱۲۷.

۲- . إمتاع الأسماع: ۴/۱۰۸. والجدير بالذكر أنّهم قالوا عند تجديد بناء الكعبه: «يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنيانها مِن كسبكم إلّاطيّباً، لا يدخلُ فيها مهر بغىّ، ولا بيع ربا، ولا مظلمه أحد من الناس» (البدايه والنهايه: ۲/۳۶۸) ولا شكّ أنّ هذه من بقايا تعاليم الأنبياء الّتى بقيت بينهم ولم تمح بالمرّه.

أمينُ قَريشُ يَكْفُلُ عَليّاً

أجدبت مكهُ وضواحيها سنه من السنين، وقلّ فيها الماء، وأصابت الناس أزمه شديده، وكان أبوطالب عليه السلام كثير العيال، فعزم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على أن يساعد عمّه أباطالب، ويخفّف عنه عبء العيال، فانطلق إلى عمّه العباس وقال له: «إنّ أخاك أباطالب كثير العيال وقد أصابَ الناس ماترى من هذه الأزمه، فانطلق بنا إليه فلنخفّفْ من عياله، آخذ من بنيه رجلًا وتأخذ أنتَ رَجلًا».

فكفل العباسُ جعفراً، وكفل رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عليّاً عليه السلام.

يقول أبوالفرج الاصفهانى المؤرّخ المعروف فى هذا الصدد:

وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أخذ «عليّاً» من أبيه وهو صغير فى سنه أصابت قريشاً وقحط نالهم، وأخذ حمزه جعفراً، وأخذ العباس طالباً ليكفوا أباهم مؤونتهم ويخفّفوا عنهم ثقلهم، وأخذ هو (أى أبوطالب) عقيلاً لميله كان إليه فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «اخترتُ مَن اختار اللّه لى عليكم: عليّاً».(۱)

إنّ هذه الحادثه وإن كانت فى ظاهرها تعنى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أقدم على هذا الأمر ليساعِدَ عمَّه أباطالب فى تلك الأزمه، لكن الهدف الأعلى والأخير كان أمراً آخر وهو أنْ: يتربّى على عليه السلام فى حجر النبىّ، ويغتذى من مكارم أخلاقه ويتبعه فى كريم أفعاله.

ولقد أشار الإمام علىٌّ عليه السلام نفسُه إلى هذا الموضوع بقوله:

«وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعى مِنْ رَسُول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالقَرابَهِ القريبَه وَ المَنزِلَهِ الخَصيْصَه، وضعنى فى حجره وَ أنا ولَد يَضمُّنِى إلى صَدْرِهِ وَ يَكنفُنى فى فِراشِه... وَ

۱- . مقاتل الطالبيين: ۱۵؛ السيره النبويه: ۱/۱۶۲ باب أنّ علىّ بن أبى طالب أوّل ذكر أسلم.

لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبعُهُ اتّباعَ الفَصِيل أثر أمِّه، يَرفَعُ لِي فی كُلِّ يَوْم مِنْ أخْلاقِهِ عَلَماً، وَيأمُرُنی بالإقتداء بِه»(۱).

إيمان النبیّ وآبائه وكفلائه قبل الإسلام

تدلُّ الدلائل التاريخيّه، القوّيه، فضلاً عن الأدلّه العقليه والمنطقيه على أنّ النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم لم يعبُدْ غير اللّه تعالى منذ وُلِدَ، وإلى أن رحل إلى ربّه، بل وكان كفلاؤه مثل عبدالمطلب وأبی طالب مؤمنون موحِّدُونَ هم أيضاً:

إيمان جدّه عبدالمطّلب

وأمّا عبدالمطلب كفيل النبیّ الأوّل فلا ننسى أنّه عندما قصد «أبرهه» هدم الكعبه فی جيش الفيل، نزل فی جوف الليل إلى الكعبه وأخذ بحلقه بابها يَدْعو اللّه سبحانه ويناجيه:

«اللّهم أنيسَ المُسْتَوحشِين، ولا ـ وحشه مَعكَ، فالبيتُ بَيْتُكَ، والحرم حرمك، والـدارُ دارُك، ونحنُ جيرانكَ، انّك تمْنَعُ عَنْه ما تشاء، وربّ الدّار أولى بالدّار».(۲)

ثم أنشأَ يقول:

يا ربّ لا أرجُو لَهُمْ سِواكا يارِبِّ فامْنَعْ مِنْهُمُو حِماكا

إنَ عَدُوَّ الْبيْت مَنْ عاداكا إمنَعْهُمُو أن يُخربوا فناكا(۳)

وهـذا يكشف بوضوح عن إيمـان عبـدالمطلب بـاللّه تعـالى، وتوكّله عليه سبحانه، وأنّه كـان الرجل الموحّـد الّـذی لا يلتجئ فی المصائب والمكاره إلى غير

۱- . نهج البلاغه: الخطبه ۱۹۲.

۲- . بحار الأنوار: ۱۵/۶۶.

۳- . الكامـل فی التاريـخ: ۱/۴۴۴؛ بحـار الأنوار: ۱۵/۷۰. ولعبـدالمطلب مواقف أُخرى مشابهه، وعديـده، راجع بصـددها مفاهيم القرآن: ۵/۱۳۶-۱۴۰.

كهف اللّه، ولا يعرف إلّاباب اللّه على عكس ما كانت الوثنيه عليه فإنّ قومه كانوا يستغيثون بالأصنام المنصوبه حول الكعبه.

وممّا يدلّ على إيمانه أيضاً توسّله لكشف غمّته باللّه سبحانه فقد تتابعت على قريش سنون جدب ذهبت بالأموال، وأشرفت الأنفس واجتمعت قريش لعبدالمطلب، وعَلَوا جبل أبى قبيس ومعهم النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم محمَّد وهو غلام فتقدّم عبدالمطلب وقال: لاهم (أى اللّهم) هؤلاء عبيدك وإماؤك وبنو إمائك، وقد نزل بنا ماترى، وتتابعت علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف والحافر، - أى الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير - فأشرفت على الأنفس - أى أشرفت على ذهابها - فأذهِب عنا الجدب، وائتنا بالحياء والخصب، فما برحوا حتّى سالت الأوديه، وفى ذلك تقول رقيقه:

بشيبه الحمد أسقى اللّه بلدتنا وقد عدمنا الحيا واجلوّذ المطر

إلى أن تقول:

مبارك الاسم يستسقى الغمام به ما فى الأنام له عدل ولا خطر(۱)

وإلى هذه الواقعه يشير أبوطالب فى قصيده أوّلها:

أبونا شفيع الناس حين سقوا به من الغيث رجاس العشير بكور

ونحن - سنين المحل - قام شفيعنا بمكه يدعو والمياه تغور

وقد نقل الشهرستانى هذه الواقعه فى كتابه «الملل والنحل» قال: وممّا يدلّ

۱- . السيره الحلبيه: ۱/۱۸۱-۱۸۲.

على معرفته (أى عبدالمطلب) بِحال الرساله وشرف النبوه أنّ أهل مكّه لمّا أصابهم ذلك الجدب العظيم، وأمسك السحاب عنهم سنتين أمر أباطالب ابنه، أن يُحضر المصطفى محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم فأحضره أبوطالب، وهو رضيع فى قماط، فوضعه فى يديه واستقبل الكعبه، ورماه إلى السماء، وقال: يا رب بحقّ هذا الغلام، ورماه ثانياً وثالثاً وكان يقول: بحقّ هذا الغلام أسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هطلاً، فلم يلبث ساعه أن طبق السحاب وجه السماء وأمطر، حتّى خافوا على المسجد.(۱)

وقال أيضاً: وببركه ذلك النور كان عبدالمطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغى، ويحثّهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيات الأُمور.(۲)

وببركه ذلك النور كان يقول فى وصاياه: «إنّه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتّى ينتقم اللّه منه وتصيبه عقوبه»، إلى أن هلك رجل ظلوم حتف أنفه لم تصبه عقوبه، فقيل لعبدالمطلب فى ذلك، ففكّر وقال: واللّه إنّ وراء هذا داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسىء بإساءته.(۳)

إنّ توسّل عبدالمطلب باللّه سبحانه وتولّيه عن الأصنام والأوثان، والتجاءه إلى ربّ الأرباب آيه توحيده الخالص، وإيمانه باللّه وعرفانه بالرساله الخاتمه، وقداسه صاحبها، فلو لم يكن له إلّاهذه الوقائع لكفت فى البرهنه على إيمانه باللّه، وتوحيده له.

وقد اعترف المؤرّخون لعبدالمطلب بهذا، فقد قال اليعقوبى: «ورفض (عبدالمطلب) عباده الأصنام، ووحّدَ اللّه عزّوجلّ، ووفى بالنذر، وسنّ سناً نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنّه الشريفه من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بها، وهى: الوفاء

۱- . الملل والنحل: ۲/۲۴۰؛ دار المعرفه، بيروت.

۲- . الملل والنحل: ۲/۲۳۹.

۳- . الملل والنحل: ۲/۲۳۹-۲۴۰.

بالنـذور، ومـائه من الإبـل فی الـديه، وأن لاـ تنكـح ذاتُ محرم، ولا تؤتی البيوت من ظهورها، وقطع يـد السارق، والنهی عن قتل الموءُوده، والمباهله، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا، والحدّ عليه، والقرعه، وأن لا يطوف أحد بالبيت عرياناً، وإضافه الضـيف، وأن لا ينفقوا إذا حجّوا إلّامن طيّب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحُرُم، ونفی ذوات الرايات.(۱)

هـذا وعن أُم أيمن «رضـی اللّه عنها» قالت: كنتُ أحضن النبیّ صـلی الله عليه و آله و سـلم (أی أقوم بتربيته وحفظه)، فغفلت عنه يوماً فلم أدر إلّابعبدالمطلب قائماً علی رأسی يقول «يا بركه».

قلت: لبيک.

قال: أتدرين أين وجدتُ ابنی؟

قلت: لا أدری.

قال: وجدته مع غلمان قريباً من السدره، لا تغفلی عن ابنی، فإنّ أهل الكتاب يزعمون أنّه نبیّ هذه الأُمّه، وأنا لا آمن عليه منهم.

وكان عبدالمطلب لا يأكل طعاماً إلّايقول علیّ بابنی (أی أحضروه). قال:

وكان عبـدالمطلب إذا أتی بطعام أجلس رسول اللّه صـلی الله عليه و آله و سـلم إلی جنبه، وربّما أقعده علی فخذه، فيؤثره بأطيّب طعامه.(۲)

ثم إنّه لمّا بلغ أجله أوصی إلی أبی طالب برسول اللّه وقال له: قد خلّفت فی أيديكم الشرف العظيم الّذی تطئون به رقاب العرب، وقال لأبی طالب:

أُوصيک يا عبد منافٍ بعدی بمفرد بعد أبيه فرد

۱- . تاريخ اليعقوبی: ۲/۱۰-۱۱، دار صادر بيروت. وفی بعض ما عدّه المؤرّخ المذكور نظر.

۲- . سيره زينی دحلان بهامش السيره الحلبيه: ۱/۱۸۰.

فارقهُ وهو ضجيع المهد فكنت كالأمّ له فی الوجد

تدنيه من أحشائها والكبد فأنت من أرجی بنيی بعدی

لدفع ضيم أو لشدّ عقدِ(۱)

هذا هو عبدالمطلب، وتعوّذه ببيت اللّه الحرام، ومواقفه بين قومه، وكلماته فی المبدأ والمعاد، وعطفه وحنانه علی رسول الإسلام، واهتمامه برساله خاتم النبيّين، وهی بمجموعها من أقوی الشواهد علی توحيده، وإيمانه باللّه، واعترافه برساله الرسول الكريم.

إيمان كفيله وعمه أبی طالب

وهكذا كان حال كفيل النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم الثانی أبوطالب عليه السلام، فإنّ له مواقفَ بارزه وكثيره قبل البعثه النبويه، وبعدها تكشف عن عمق إيمان شيخ الأباطح، وتوحيده.

ومن تلك المواقف استسقاؤه برسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی صباه:

فقد أصاب مكّه قحطٌ شديدٌ فی سنه من السنين فطلبت قريش من «أبی طالب» أن يستسقی لها فخرج ومعه غلامٌ - وهو رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم - كأنّه شمسُ دجن تجلّت عنها سحابه قتماء وحوله أُغيلمةٌ، فأخذه «أبوطالب» فألصق ظهره بالكعبه، ولاذ الغلام بإصبعه (أی أشار بها إلی السماء) وما فی السماء قزعه، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق، واغدودق وانفجر له الوادی، وأخصب البادی والنادی.

ففی ذلك يقول أبوطالب - فی مدح رسول اللّه -:

وابيضُ يُستَسقی الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامی عِصْمةٌ لِلأرامِلِ

۱- . تاريخ اليعقوبی: ۲/۱۳.

يَلُوذُ بِهِ الهُلاكُ مِن آلِ هاشِم فَهُمْ عِنْدهُ فی نَعمهٍ وَفَواضِل

وميزانُ عَدْل لايَخيسُ شعيره ووَزّانُ صِدْق وزنُه غير هائل(۱)

وكلّ هذا يعرب عن توحيد كفيلی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم الخالص، وإيمانهما باللّه تعالی، ولو لم يكن لهما إلّاهذين الموقفين لكفياهما دليلاً وبرهاناً علی كونهما مؤمنين موحّدِين.

كما أنّ ذلك يدل أيضاً علی أنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم نشأ وترعرع ونما فی بيتٍ كانت الديانه السائده فيه هی توحيد اللّه، وعبادته وحده ورفض الأصنام والأوثان.

إيمان والدَی النبیّ الأكرم

لقد نقلت عن عبداللّه والد رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم كلمات وأبيات تدلّ علی إيمانه ومن ذلك ما نقله أهل السير عندما عرضت فاطمه الخثعميه نفسها عليه لما كانت تری علی وجهه من النور، فأبی وقال:

أمّا الحرامُ فالمماتُ دونَه والحِلّ لاحِلّ فاستبينُه

يحمی الكريمُ عرضَه ودينَه فكيفَ بالأمر الّذی تبغينه(۲)

وقد روی عن النبیّ الأكرم صلی الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «لم أزلْ أُنقل من أصلاب الطاهرين إلی أرحام الطاهرات» ولعلّ فيه إيعازاً إلی طهاره آبائه وأُمّهاته من كلّ دنس وشرك.(۳)

وأمّا الوالده فيكفی فی إثبات إيمانها ما رواه الحفّاظ عنها عند وفاتها فإنّها

۱- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۱/۱۹۰، وللتوسّع راجع الغدير: ۷/۳۴۵ و ۳۴۶، وقد ذكرنا مواقف أبی طالب الإيمانيه عند البحث عن شخصيته فراجع.

۲- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحديد: ۲/۲۳۵؛ السيره الحلبيه: ۱/۶۳.

۳- . سيره زينی دحلان بهامش السيره الحلبيه: ۱/۵۸.

(رضی اللّه عنها) خَرجت مع النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وهو ابن خمس أو ست سنین ونزلت بالمدینه تزور أخوال جدّه وهم بنو عدی بن النجار ومعها أُمّ أیمن «برکه» الحبشیه، فأقامت عندهم، وکان الرسول بعد الهجره یذکر أُموراً حدثت فی مقامه ویقول: إنّ أُمّی نزلت فی تلک الدار، وکان قوم من الیهود یختلفون وینظرون إلیّ فنظر إلیَّ رجلٌ من الیهود فقال: یا غلام ما اسمک؟ فقلت: أحمد، فنظر إلی ظهری، وسمعته یقول: هذا نبیّ هذه الأُمّه، ثم راح إلی إخوانه فأخبرهم، فخافت أُمّی علیّ فخرجنا من المدینه، فلمّا کانت بالأبواء توفّیت ودُفنت فیها.

وروی أبو نعیم فی «دلائل النبوّه» عن أسماء بنت رهم قالت: شهدت آمنه أُمّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی علّتها الّتی ماتت بها، ومحمَّد علیه السلام غلام یفع (أی یافع) له خمس سنین عند رأسها فنظرت إلی وجهه وخاطبته بقولها:

إن صحَّ ما أبصرتُ فی المنام فأنت مبعوثٌ إلی الأنام

فاللّه أنهاکَ عن الأصنام أن لا تواليها مع الأقوام

ثمّ قالت: کلّ حیّ میّت، وکلّ جدید بال، وکلّ کبیر یفنی، وأنا میّته وذکری باق وولدتُ طهراً. وقال الزرقانی فی شرح المواهب نقلاً عن جلال الدین السیوطی تعلیقاً علی قولها: وهذا القول منها صریح فی أنّها کانت موحِّده إذ ذکرت دین إبراهیم علیه السلام، وبشّرت ابنها بالإسلام من عنداللّه، وهل التوحید شیء غیر هذا، فإنّ التوحید هو الاعتراف باللّه وأنّه لا شریک له، والبراءه من عباده الأصنام.(۱)

ونلفت نظر القارئ الکریم هنا إلی ما قاله المرحوم الشیخ المفید فی کتابه «أوائل المقالات» فی هذا الصدد:

۱- . الإتحاف للشبراوی: ۱۴۴؛ سیره زینی دحلان بهامش السیره الحلبیه: ۱/۵۷.

اتّفقت الإماميه على أنّ آباء رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من لدن آدم إلى عبداللّه بن عبدالمطلب مؤمنون باللّه عزّوجلّ موحّدون له، واحتجّوا فى ذلك بالقرآن والأخبار. قال اللّه عزّوجلّ: «اَلَّذِى يَراكَ حِينَ تَقُومُ * وَ تَقَلُّبَكَ فِى السّاجِدِينَ» (۱).(۲)

ثمَّ إنّ هنا سؤالين هما:

۱ – هل كان صلى الله عليه و آله و سلم قبل البعثه مُوحِّداً؟

۲ – بماذا وبأىِّ دين كان يتعبَّد صلى الله عليه و آله و سلم قبل البعثه؟

وإليك الحديث فيهما:

إيمان النبىّ باللّه وتوحيده قبل البعثه

إنَ الدلائل التاريخيه – بالإضافه إلى البراهين العقليه والكلاميه – تدلّ على أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان قبل أن يبعثه اللّه بالإسلام، مؤمناً باللّه، موحّداً إيّاه، لم يعبد وثناً قط، ولم يسجد لصنمٍ أبداً، وإنّ ذلك من المسلّمات.

وهذا الأمر وإن كان أمراً مسلّماً وواضحاً كوضوح الشمس، إلّاأنّنا نذكر بعض ما جاء فى التاريخ الثابت الصحيح ليقترن ذلك الاتّفاق بأصحّ الدلائل التاريخيه:

أمّا بغضه للأَصنام وتجنبه للأوثان وما يكون من هذا القبيل، فإليك بعض ما ذكره التاريخ الصحيح فى هذا المجال:

۱. جاء فى حديثٍ طويلٍ عن حليمه السعديه إنَّ النبىَّ صلى الله عليه و آله و سلم لمّا تمّ له ثلاث

۱– . الشعراء: ۲۱۸–۲۱۹.

۲– . أوائل المقالات: ۴۵، دار المفيد، بيروت – ۱۴۱۴ ه.

سنین قال لی یوماً: یا أمّاه (مرضعته حلیمه السعدیه): مالی لا أری أخَویَّ بالنهار؟ قلت له: یا بُنیّ إنّهما یرعَیان غُنَیْمات.

قال: فمالی لا أخرج معهما، قلت له: تحبُ ذلک؟ قال: نعم. فلمّا أصبَحَ محمَّد دهّنته (تقول حلیمه) وکحّلته وعلّقتُ فی عنقه خیطاً فیه جِزعٌ یمانیّ، فنزعها ثم قال لی:

«مَهْلاً یا أُمّاهُ فَإنَّ مَعِیَ مَنْ یَحفظنی».(۱)

۲. روی أنّ «بَحیرا» الراهب قال للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی سفرته الأُولی مع عمّه أبی طالب إلی الشام: یاغلام أسألک بحقّ اللّات والعزی إلّاأخبَرْتَنی عمّا أسألک، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«لا تسأَلْنِی باللّات والعُزّی فواللّه ما أبغَضتُ شَیئاً بغضَهُما» قال (الراهب):

فباللّه إلّاأخْبَرْتنی عمّا أسالک عنه، قال صلی الله علیه و آله و سلم: سَلْنی عمّا بدا لک.(۲)

۳. روی أنّه قد وقع بین النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وبین رجل تلاح فی سفرته الثانیه إلی الشام للتجاره بأموال خدیجه مع غلامها «میسره» بعد أن باع صلی الله علیه و آله و سلم سلعته، فقال له الرجل: إحلِفْ باللّات والعزی، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«ما حلفتُ بهما قطُّ، وإنّی أمُرُّ فأُعرِضُ عنهما».

وفی روایه أُخری:

«إلیکَ عَنی ثکلتْکَ أُمُّکُ فما تکلّمت العربُ بکلمه أثقلَ علیَّ من هذه الکلمه».

فقال الرجل: القولُ قولک. ثم قال لمیسره: هذا واللّه نبیّ تجده أحبارنا

۱- . المنتقی، الباب الثانی من القسم الثانی - للکازرونی کما فی البحار: ۱۵/۳۹۲.

۲- . الطبقات الکبری: ۱/۱۵۴، السیره النبویه: ۱/۱۱۷.

منعوتاً فی کتبهم.(۱)

وأمّا عبادته للّه تعالی فقد أجمع المؤرّخون علی أنّه صلی الله علیه و آله و سلم کان یخلو بحراء کلّ عام شهراً یعبد فیه اللّه تعالی.

وقد قال الإمام أمیرالمؤمنین علیّ بن أبی طالب علیه السلام فی هذا المجال:

«وَ لَقَدْ کانَ یُجاورُ فی کلِّ سَنه بحراء، فأراه وَ لا یراهُ غیری».(۲)

حتّی أنّ جبرئیل وافاهُ بالرساله فی ذلک المکان، وفی تلک الحال.

وقد صَرَّح بهذا أصحابُ الصحاح السته أیضاً إذ قالوا:

«وَ کانَ یخلو بغار حراء فیتحنّثُ فیه، وهو التعبّد اللیالی ذوات العدد».(۳)

کما أنّ الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام وصف هذا المقطع من حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بقوله:

«ولقد قرَن اللّه به صلی الله علیه و آله و سلم مِنْ لَدُنْ أَنْ کانَ فَطِیماً أَعْظَمَ مَلَکٍ مِنْ مَلَائِکَتِهِ یَسْلُکُ بِهِ طَرِیقَ الْمَکَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَیْلَهُ وَنَهَارَهُ».(۴)

وجاء فی الأخبار أنَّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حجّ قبل البعثه حجّات عدیده وکان یأتی بمناسکها علی وجه صحیح بعیداً عن أعین قریش.

قال الإمامُ الصادقُ علیه السلام: فی حدیث ابن أبی یعفور:

«حج رَسُولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عشر حجَّات مُستتراً فی کُلِّها».(۵)

وفی روایه: عشرین حجّه.(۶)

۱- . الطبقات الکبری: ۱/۱۳۰؛ بحار الأنوار: ۱۶/۱۷-۱۸.

۲- . نهج البلاغه: الخطبه ۱۹۲.

۳- . صحیح البخاری: ۱/۳، باب کیف کان بدء الوحی إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم؛ صحیح مسلم: ۱/۹۷، باب بدء الوحی إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

۴- . نهج البلاغه: الخطبه رقم ۱۹۲.

۵- . وسائل الشیعه: ج ۸، الباب ۴۵ من أبواب وجوب الحج وشرائطه، الحدیث ۵.

۶- . وسائل الشیعه: ج ۸، الباب ۴۵ من أبواب وجوب الحج وشرائطه، الحدیث ۶.

والسبب فی هذا الاستتار هو أنّ قریش کانت قد أسقطت بعض مناسک الحج، والعمره، فکانت تؤدّی الحج بصوره غیر صحیحه وربّما غیّرت أشهر الحج أحیاناً لبعض الاعتبارات السیاسیه والمادّیه، وهو ما سمّی بالنسیء، وقد مرّ بیانه.

إنّ هذه الوقائع وغیرها - وهی لیست بقلیله - أصدق دلیل علی إیمانه صلی الله علیه و آله و سلم، وتوحیده، إذ کیف یمکن أن یتنکّب مثل هذه الشخصیه الّتی نشأت وترعرعت فی ذلک البیت الطاهر، وقرن اللّه به ملکاً یتولّاه بالتربیه والهدایه عن جاده التوحید.

ثم إنّ ممّا لا ریب فیه أنّ الرسول الخاتم صلی الله علیه و آله و سلم هو أفضل من جمیع الأنبیاء والمرسلین بنصّ القرآن الکریم.

وقد صرّح القرآن بأنّ بعض الأنبیاء بلغوا درجه النبوّه فی الصغر، أو الصبا، ونزلت علیهم الکتب فی تلک الفترات.

فَمثلاً یقول القرآن الکریم عن یحیی بن زکریا: «یا یَحْیی خُذِ الْکِتابَ بِقُوَّهٍ وَ آتَیْناهُ الْحُکْمَ صَبِیًّا» .(۱)

ثم یقول عن «عیسی بن مریم» عندما کان فی المهد وکان وجوه القوم من بنی اسرائیل قد استنکروا ولادته من غیر أب، وطلبوا من «مریم البتول» أن توضّح لهم الأمر، وتبیّن لهم کیف حملت بعیسی؟!! فأشارت إلی المسیح علیه السلام أن کلِّموه وهو آنذاک فی المهد لم یمض علی ولادته سوی أیام معدودات؛ فنطق المسیح بفصاحه کبیره وقال:

«إِنِّی عَبْدُ اللّهِ آتانِیَ الْکِتابَ وَ جَعَلَنِی نَبِیًّا * وَ جَعَلَنِی مُبارَکاً أَیْنَ ما کُنْتُ وَ أَوْصانِی بِالصَّلاهِ وَ الزَّکاهِ ما دُمْتُ حَیًّا» .(۲)

۱- . مریم: ۱۲.

۲- . مریم: ۳۰-۳۱.

لقد بيَّن وليد «مريم» للناس أُصول دينه وفُروعه فی فتره الطفوله والرضاعه، وأعلن لهم عن توحيده وإيمانه باللّه سبحانه.

فهل يرضی ضميرک أيّها القارئ الكريم أن يكون «يحيی» و «المسيح» عليهما السلام مؤمنين معلنين عن توحيدهما، وإيمانهما منذ طفولتهما، وصباهما، ويكون أفضل الأنبياء والمرسلين، وأشرف الخلق أجمعين إلی سِنّ الأربعين علی غير إيمان، وتوحيد، مع أنّه صلی الله عليه و آله و سلم كان مشتغلاً بالتعبّد فی جبل «حراء» عند نزول الوحی عليه لأوّل مرّه؟

وإليک بعض ما قاله المؤرّخون، والعلماء فی هذا المجال استكمالاً لهذا المبحث: قال ابن هشام: فكان رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم يجاور ذلک الشهر من كلّ سنه يطعم مَن جاءه من المساكين، فإذا قضی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم جواره من شهره ذلک، كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف من جواره، الكعبه، قبل أن يدخل بيته، فيطوفُ به سبعاً أو ما شاء اللّه من ذلک، ثم يرجع إلی بيته حتّی إذا كان الشهر الّذی أراد اللّه تعالی به فيه ما أراد من كرامته من السنه الّتی بعثه اللّه تعالی فيها، وذلک الشهر شهر رمضان، خرج رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم إلی «حراء» كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتّی إذا كانت الليله الّتی أكرمه اللّه فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبرئيل عليه السلام بأمر اللّه تعالی.(۱)

وقال العلّامه المجلسی: وقد ورد فی أخبار كثيره أنّه صلی الله عليه و آله و سلم كان يطوف، وأنّه كان يعبد اللّه فی حراء، وأنّه كان يراعی الآداب المنقوله من التسميه والتحميد عند الأكل وغيره، وكيف يجوّز ذو مسكه من العقل علی اللّه تعالی أن يهمل أفضل أنبيائه أربعين سنه بغير عباده؟ والمكابره فی ذلک سفسطه.(۲)

۱- . السيره النبويه: ۱/۱۵۵.

۲- . بحار الأنوار: ۱۸/۲۸۰.

فإيمان النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم، وتوحيده قبل البعثه، إذن، أمرٌ مسلّمٌ لا شبهه فيه، ولا غبار عليه.

ولكن بعض الكُتّاب من المسيحيين ومن تبعهم، من المستشرقين وغيرهم، أبوا إلّاأن ينتقصوا النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فادّعوا ضلالَهُ قبل البعثه، وإنّه كان على غير إيمان، أو توحيد، واستدلّوا لزعمهم الباطل هذا بما توهّموا أنّه يدلّ على دعواهم من الآيات القرآنيه، وأبرزها الآيات التاليه:

١. «أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى * وَ وَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدى» .(١)

٢. «وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ * وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ» .(٢)

٣. «وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لاَ الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» .(٣)

٤. «قُلْ لَوْ شاءَ اللّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» .(۴) ۵. «وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاّ رَحْمَهً مِنْ رَبِّكَ» .(۵)

شبهات المستشرقين على عدم إيمان النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم قبل البعثه

اشاره

لقد استدلّ المستشرقون ومَن لفّ لفّهم ومن سبقهم أو لحقهم من المخطّئه بهذه الآيات على ضلال النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم قبل البعثه، وسلب الإيمان عنه، ولكنّها لا تدلّ على ما يريدون، ولأجل تسليط الضوء على مقاصدهم نبحث عنها واحده واحده.

١- . الضحى: ۶-٧.

٢- . المدّثر: ۴-۵.

٣- . الشورى: ۵٢.

۴- . يونس: ١۶.

۵- . القصص: ٨۶.

الآیهُ الأولی: الهدایه بعد الضلاله

ذکرالمفسّرون لقوله تعالی: «وَ وَجَدَکَ ضالاًّ فَهَدی» (۱) الّذی یشعر بهدایه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بعد الضلاله احتمالات عدیده، فی معرض الإجابه عن استدلال مَن استدلّ به لإثبات ضلال النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قبل البعثه، ولکن الحقّ أن یقال: إنّ الضال یُستعمل فی عرف اللغه فی موارد:

۱. الضالّ: من الضلاله ضدّ الهدایه والرشاد.

۲. الضالّ: من ضلّ البعیر إذا لم یعرف مکانه.

۳. الضالّ: من ضلّ الشیء إذا ضؤل وخفی ذکره.

وتفسیر الآیه بأیّ واحده من هذه المعانی لا یثبت ما یدّعیه الذین یتمسّکون بها لأثبات ضلال النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قبل البعثه.

أمّا المعنی الأوّل فهو المقصود فی کثیر من الآیات قال سبحانه: «غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَ لاَ الضّالِّینَ» .(۲)

لکن الضلاله علی نوعین:

النوع الأوّل ما تکون الضلاله فیه أمراً وجودیاً فی النفس یوجب ظلمه النفس ومنقصتها، مثل الکفر والشرک والنفاق، والضلاله بهذا المعنی قابله للزیاده والنقصان قال سبحانه: «إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیادَهٌ فِی الْکُفْرِ» .(۳)

النوع الثانی ما تکون الضلاله فیه أمراً عدَمیاً، وذلک عندما تکون النفس فاقده للرشاد، وعندئذ یکون الإنسان ضالاًّ بمعنی أنّه غیرُ واجدٍ للهدایه من عند نفسه، وذلک کالطفل الّذی أشرف علی التمییز وکاد أن یعرف الخیر والشر، ویمیز

۱- . الضحی: ۷.

۲- . الفاتحه: ۷.

۳- . التوبه: ۳۷.

بین الصلاح والفساد فهو آنذاک ضالّ بمعنی أنّه غیر واجد للنور الّذی یهتدی به فی سبل الحیاه، لا بمعنی کینونه ظلمه الکفر والفسق فی نفسه وروحه.

والمراد من الضالّ فی قوله تعالی «وَ وَجَدَکَ ضالًّا فَهَدی» لو کان ما یضادد الهدایه فهو یهدف إلی النوع الثانی، فیکون المعنی أنّک فی إبّان عمرک کنت غیر واجدٍ للهدایه من عند نفسک فهداک اللّه إلی أسباب السعاده وعرفک عوامل الشقاء، وهو إشاره إلی قانون إلهی عام فی حیاه البشر أنبیاء وأُناساً عادیین، وهو أنّ هدایه کلّ إنسان بل کلُّ ممکن مکتسبه من اللّه قال سبحانه: «قالَ رَبُّنَا الَّذِی أَعْطی کُلَّ شَیْ ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی» .(۱)

وعلی هذا الأساس فالآیه تهدف إلی ذکر النعم الّتی أنعم اللّه بها علی نبیّه الحبیب منذ أن استعدّ لها فآواه بعد ما صار یتیماً، وأفاض علیه الهدایه بعدما کان فاقداً لها بحسب ذاته، وبحکم طبیعته، ویعود زمن هذه العنایه الربّانیه بنبیّه إلی مطلع حیاته، وأُولیات عمره وأیام صباه بقرینه ذکر ذلک بعد الإیواء الّذی تحقّق بالیتم، وتمّ بجدّه عبدالمطلب فوقع فی کفالته إلی ثمانیه سنین. ویؤیّد ذلک قولُ إمام المتّقین علیّ بن أبی طالب علیه السلام: «و لقد قَرَنَ اللّه به صلی الله علیه و آله و سلم مِنْ لَدُنْ أَنْ کَانَ فَطِیماً أَعْظَمَ مَلَکٍ مِنْ مَلَائِکَتِهِ یَسْلُکُ بِهِ طَرِیقَ الْمَکَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَیْلَهُ وَنَهَارَهُ».(۲)

وصفوه القول: إنّ المراد بکونه ضالّاً هو أنّ لازم کون النبیّ ممکناً بالذات هو کونه فاقداً فی ذاته لکلّ کمال وجمال، مفاضاً علیه کلّ جمیل من جانب اللّه تعالی، وهذا هو إشاره إلی مقتضی التوحید الافعالی، وأین هذا من الضلاله المساوقه

۱- . طه: ۵۰؛ وراجع الآیات: ۲ و ۳ من سوره الأعلی، و ۴۳ من سوره الأعراف، و ۷۸ من سوره الشعراء، وغیرها.

۲- . نهج البلاغه: الخطبه ۱۹۲.

للكفر أو الشرك أوالفسق والعصيان؟!

ثم إنّ من المحتمل أن تكون الضلاله فی الآیه مأخوذه من «ضلّ الشیء إذا لم یُعرف مکانه» وفی الحدیث «الحکمه ضالّه المؤمن» أی مفقودته، لاضدّ الهدایه والرشاد، فیکون الضالّ بهذا المعنی منطبقاً علی ما نقله أهلُ السیر والتواریخ عمّا جری للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی أیام صباه یوم ضلّ فی شعاب مکّه، وهو صغیر فمنّ اللّه علیه إذ ردّه إلی جدّه، وقصته معروفه فی کتب السیر والتاریخ(۱)، ولولا رحمه اللّه سبحانه لأدرکه الهلاک ومات عطشاً أو جوعاً فشملتهُ العنایه الإلهیه.

أو أن تکون الضلاله فی الآیه مأخوذه من «ضلّ الشیء إذا خفی وغاب عن الأعین» فالإنسان الضال هو الإنسان المخفیّ ذکره، المنسیّ اسمُه لا یعرفه إلّاالقلیل من الناس، ولا یهتدی کثیر منهم إلیه.

ولو کان هذا هو المقصود، کان معناه حینئذٍ أنّه سبحانه رفع ذکره، وعرّفه للناس بعدما کان خاملاً ذکره منسیّاً اسمُه.

ویؤیّد هذا الاحتمال قوله سبحانه فی سوره الانشراح الّتی نزلت لتوضیح ما ورد فی سوره الضحی قائلاً:

«أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ * وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ * اَلَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَکَ * وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ» .(۲)

فرفع ذِکْره فی العالم عباره عن هدایه الناس إلیه، ورفع الحواجز بینه وبینهم، وعلی هذا فالمقصود من «الهدایه» هو هدایه الناس إلیه لا هدایته بعد ضلال، فکأنّه

۱- . لاحظ السیره الحلبیه: ۱/۱۸۰. وغیره، وفی هذه القصه یروی عن حیده بن معاویه العامری سمعت شیخاً یطوف بالبیت وهو یقول: یاربّ ردّ راکبی محمَّداً أردده ربّی واصطنع عندی یدا

۲- . الإنشراح: ۱-۴.

قال: فوجدك ضالاً، أى خاملاً ذكرك، باهتاً اسمُك، فهدى الناس إليك، وسيّر ذكرك فى البلاد.

وإلى ذلك يشير الإمام الرضا عليه السلام على ما فى خبر ابن الجهم بقوله: «قال اللّه عزّوجلّ لنبيه محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم: «أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى» يقول «ألم يَجدْكَ» وحيداً فآوى إليك الناسَ «وَ وَجَدَكَ ضالاًّ» يعنى عند قومك «فَهَدى» أى هَداهُمْ إلى معرفَتِك»(۱). قال الأُستاذ الشيخ محمَّد عبده فى هذا المجال:

لقد بُغِّضتْ إليه (أى إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم) الوثنيّةُ من مبدأ عمره فعاجلته طهارةُ العقيده، كما بادره حسنُ الخليقه، وما جاء فى الكتاب من قوله: «وَ وَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدى» لا يُفهَم منه أنّه كان على وثنيةٍ قبلَ الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم حاشَ للّه، إنّ ذلكَ لهوَ الإفكُ المُبين(۲).

الآيه الثانيه: الأمر بهجر الرجز

استدلّوا بقول اللّه تعالى: «وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ» على وجود أرضيه لعباده الصنم والوثن فى شخصيه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وذلك بتفسير الرجز بالصنم، والوثن، ويتّضح بطلان هذا الادّعاء والاستنباط إذا أمعنّا فى معانى واستعمالات هذه اللفظه فى الكتاب العزيز.

إنّ الرجز استعمل فى القرآن الكريم فى معان ثلاثه: العذاب، القذاره، الصنم.

وقد استعمل الرجز (بكسر الراء) فى تسع موارد فى القرآن الكريم، وقد أُريد منه فى جميعها العذاب إلّافى مورد واحد: وهى: البقره - ۵۹، والأعراف - ۱۳۴ (وجاءت اللفظه فيها مرّتين) و ۱۳۵ و ۱۶۲ والأنفال - ۱۱ وسبأ - ۵ والجاثيه - ۱۱

۱- . بحار الأنوار: ۱۶/۱۴۲، الحديث ۵.

۲- . رساله التوحيد للشيخ محمَّد عبده: ۱۳۵ و ۱۳۶.

والعنكبوت - ۳۴.

وجاء الرُجز - بضمّ الراء - مرّه واحده وهی الآیه الّتی نحن بصددها هنا.(۱)

وهذه الآیه لا تدلّ علی ما ذهب إلیه الذین یزعمون بأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کان علی غیر التوحید قبل البعثه.

وإلیک بیان هذا الموضوع مفصّلاً:

۱. إنّ الرُجز لو کان بمعنی «العذاب» دَلّت الآیه علی هجر ما یستلزم العذابَ، فیکون الخطابُ حینئذٍ مسوقاً من باب التعلیم، ومن باب «إیّاک أعنی وأسمعی یا جاره»، فیکون ظاهر الأمر هو مخاطبه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ونهیه عمّا یستلزم العذاب، وإراده تعلیم الأُمّه مثل قول اللّه تعالی فی خطابه للنبی «فَلاـ تَکُونَنَّ ظَهِیراً لِلْکافِرِینَ» (۲)، وقوله تعالی: «لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ» (۳)، فکما لا تدلّ الآیه علی وجود أرضیه الشرک فی شخصیه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم کذلک لا تدلّ الآیه علی وجود أرضیه التعرّض للعذاب فی شخصیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

۲. إن الرُجز لو کان بمعنی (القذاره) وهی تنقسم إلی مادّیه ومعنویه فیحتمل أن یکون المراد - بناء علی المعنی الأوّل - إشاره إلی ما ورد فی الروایات من أنّ أباجهل جاء بشیء قذر، وأمر رجلاً من قریش بإلقائه علی النبیّ، ففعل، فأمراللّه نبیّه بتطهیر ثوبه من الدنس.

ویحتمل أن تکون الآیه دعوه إلی اجتناب الصفات الذمیمه بناء علی إراده المعنی الثانی للفظه الرُجز، فتکون الآیه تعلیماً للناس علی النمط السابق، فلا تدلّ علی اتّصاف النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم بها.

۳. الرُجز بمعنی الصنم، لنفترض أنّ المقصود منه فی الآیه هو الصنم، لکن لا

۱- . المدَّثر: ۵.

۲- . القصص: ۸۶.

۳- . الزمر: ۶۵.

بمعنى أنّه وضعَ لـذاك المعنى، وإنّمـا وضعَ اللفـظُ لمعنى جـامع يعمُّ الصـنم والخمر والأزلام لاشتراك الجميع فى كونها رجزاً، ولأجـل ذلـك وصِف الجميع فى مورد آخر بـالرجس فقـال تعـالى: «إِنَّمَـا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِـرُ وَ الْأَنْصـابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ» .(۱)

ولكن يجـاب عن هـذا أيضـاً بـأنّ النبىّ يوم نزلت الآـيه لم يكن عابـداً للوثن بـل كـان مشـمّراً عن ساعـد الجـدّ لتحطيم الأصـنام ومكافحه عبدتها، فلا يصحّ أن يخاطَب من هذا شأنه بهجر الأصـنام إلّاعلى السبيل الّذى أشـرنا إليه وهو توجيه الخطاب إلى النبىّ وإراده الأُمّه به، لكون هذا النوع من الخطاب أبلغ فى التأثير، لأنّه سبحانه إذا خاطب أعزّ الناس إليه بهذا الخطاب فغيره أولى به.

الآيه الثالثه: عدم علمه بالكتاب والإيمان

اشاره

قوله سـبحانه: «وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتابُ وَ لاَ الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» .(۲)

زعم جماعه دلاله هذه الآيه – والعياذ باللّه – على أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كان فاقداً للإيمان قبل الإيحاء إليه.

لكنَّ حياته الشـريفه المشـرقه بالإيمان، والتوحيد، تفنّد تلك المقاله، فالتاريخ يشهد على أنّه صلى الله عليه و آله و سلم منذ بدايه عمره إلى أن لاقى ربّه مؤمناً موحّداً، وذلك أمرٌ لاشكّ فيه، ولا شـبهه تعتريه، وقد أجمع على ذلك أهلُ السـير والتاريخ، وحتّى أنّ الأحبار والرهبان كانوا معترفين بأنّه نبىُّ هذه الأُمه، وخاتم النبيين، وكان يسمع تلك

۱- . المائده: ۹۰.

۲- . الشورى: ۵۲.

الشهادات منهم فی فترات خاصّه فی «مکّه» و «یثرب» و «بصری» و «الشام»(۱)وغیرها، فکیف والحال هذه یمکن أن یکون غافلاً عن الکتاب الّذی ینزل إلیه أو یکون مجانباً للإیمان بوجوده سبحانه، و توحیده، والتاریخ المسلَّم الصحیح یؤکّد علی عدم صدق ذلک الاستظهار من الآیه الحاضره.

فلابدّ إذن من الإمعان فی مفاد الآیه کما لابدّ - فی تفسیرها - من الاستعانه بالآیات الوارده فی ذلک المساق.

بُعث النبیُّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم لهدایه قومه أوّلاً، وهدایه جمیع الناس ثانیاً، بالآیات والبیّنات، ونخصُّ بالذکر منها: القرآن الکریم (معجزته الکبری الخالده) الّذی بفصاحته أخرسَ فرسان الفصاحه، وقاده الخطابه، وببلاغته قهر ارباب البلاغه وملوک البیان، وخلب عقولهم، وقد دعاهم إلی التحدّی والمقابله، فلم یکن الجواب منهم إلّاإثاره الشکوک والتهم حوله، وحول ما جاء به، وعدم المعارضه بمثل القرآن قط.

فتاره قالوا: بأنّه یعلّمه بشر، وأُخری بأنّه إفکٌ افتراه وأعانه علیه قومٌ آخرون، وثالثه: بأنّه أساطیر الأوّلین، قد اکتتبها فهی تُملی علیه بکره وأصیلاً، قال سبحانه ردّاً علی هذه التهم الّتی أشرنا إلیها: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ لِیُثَبِّتَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هُدیً وَ بُشْری لِلْمُسْلِمِینَ * وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ إِنَّما یُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ إِلَیْهِ أَعْجَمِیٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِیٌّ مُبِینٌ» .(۲)

وقال سبحانه «وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هَـذا إِلاّ إِفْکٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَیْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً * وَ قالُوا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَها فَهِیَ تُمْلی عَلَیْهِ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِی یَعْلَمُ السِّرَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ کانَ غَفُوراً

۱- . راجع: السیره النبویه والسیره الحلبیه وبحارالأنوار.

۲- . النحل: ۱۰۲-۱۰۳.

رَحِيماً» .(۱)

والآيه المبحوثه بصدد بيان هذا الأمر، وأنّه وحى سماويٌ لا إفكٌ إفتراه، ولهذا بدأ كلامه بعباره: «وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ» : أى كما أنّه سبحانه أوحى إلى سائر الأنبياء بإحدى الطرق الثلاثه الّتى بيّنها فى الآيه المتقدّمه، أوحى إليك أيضاً روحاً من أمره، وليس هذا كلامك وصنيعك، بل كلام ربّك وصنيعه.

هذا مجمل الكلام فى الآيه ولأجل رفع النقاب عن مرماها نقدّم أُموراً تسلّط الضوء على الآيه:

الأوّل: أنّ المراد من الروح فى الآيه هو القرآن وسمّى روحاً لأنّه قوام الحياه الأُخرويه، كما أنّ الروح فى الإنسان قوام الحياه الدنيويه، وتؤيّد ذلك أُمورٌ:

أ - أنّ محور البحث الأصلى فى سوره الشورى هو: الوحى والآيات الوارده فيها البالغ عددُها (۵۳) آيه تبحث عن ذلك المعنى بالمباشره أوبغيرها.

ب - الآيه الّتى تقدّمت على تلك، تبحث عن الطرق الّتى يكلّم بها سبحانه أنبياءه ويقول: «وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلاّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ» .(۲)

ج - أنّه سبحانه بدأ كلامه فى هذه الآيه بلفظه: «وَ كَذلِكَ» : أى كما أوحينا إلى من تقدّم من الأنبياء كذلك أوحينا إليك بإحدى تلك الطرق «رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» ووجه الاشتراك بينه وبين النبيّين هو الوحى المتجلّى فى نبينا بالقرآن وفى غيره بوجه آخر.

كلّ ذلك يؤيّد أنّ المراد من الروح فى الآيه المبحوثه هو القرآن الملقى إليه.

نعم ورد فى بعض الروايات أنّ المراد منه هو روح القدس، ولكنّه لا ينطبق

۱- . الفرقان: ۴-۶.

۲- . الشورى: ۵۱.

على ظاهر الآيه، لأنّ الروح بحكم كونه مفعولاً ل «أَوْحَيْنا» يجب أن يكون شيئاً قابلاً للوحى حتّى يكون موحى، وروح القدس ليس موحى بل هو الموحى (بالكسر) فكيف يمكن أن يكون مفعولاً ل «أَوْحَيْنا» ، ولأجله يجب تأويل الروايات إن صحّت أسنادها.

الثانى: إن هيئه «ما كُنْتَ» أو «ما كانَ» تُستعمل فى نفى الإمكان والشأن قال سبحانه: «وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ» (۱)، وقال عزَّ اسمه: «وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّهً» .(۲)

وعلى ضوء هذا الأصل يكون مفاد قوله: «ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتابُ وَ لاَ الْإِيمانُ» أنّه لولا الوحىُ ما كان من شأنك أن تدرى الكتاب ولا الإيمان، فإن وقفتَ عليهما فإنّما هو بفضل الوحى وكرامته.

الثالث: أنّ ظاهر الآيه هو أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم كان فاقداً للعلم بالكتاب، والدرايه بالكتاب، وإنّما حصلت الدرايه بهما فى ظل الوحى وفضله فيجب إمعان النظر فى الدرايه الّتى كان النبىُّ فاقداً لها قبل الوحى وصار واجداً لها بعده، فما تلك الدرايه وذاك العلم؟

فهل المراد هو العلم بنزول الكتاب إليه إجمالاً والإيمان بوجوده وتوحيده سبحانه، أوالمراد العلم بتفاصيل ما فى الكتاب، والإذعان بها كذلك؟

لا شكّ أنّه لا سبيل إلى الأوّل لأنّ علمه - إجمالاً - بأنّه ينزل إليه الكتاب، أو إيمانه بوجود اللّه سبحانه كانا حاصلين قبل نزول الوحى إليه، ولم يكن العلم بهما ممّا يتوقّف على الوحى، فإنّ الأحبار والرهبان كانوا واقفين على نبوّته ورسالته ونزول الكتاب إليه فى المستقبل إجمالاً، وقد سمع النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم منهم فى فترات

۱- . آل عمران: ۱۴۵.

۲- . التوبه: ۱۲۲.

مختلفه: أنّه النبيّ الموعود فی الکتب السماویه، وأنّه خاتم الرسالات والشرائع، فهل یصحّ أن یقال إنّ علمه صلی الله علیه و آله و سلم بنزول کتاب علیه إجمالاً کان بعد بعثته وبعد نزول الوحی، أو أنّه کان متقدّماً علیه و علی بعثته، ومثلُهُ الإیمان باللّه سبحانه، وتوحیده، إذ لم یکن الإیمان باللّه أمراً مشکلاً متوقّفاً علی الوحی، وقد کان الأحناف فی الجزیره العربیه ومن جملتهم رجال البیت الهاشمی موحّدین مؤمنین مع عدم نزول الوحی إلیهم.

فیتعیّن الاحتمال الثانی وهو أنّ العلم التفصیلی بمضامین الکتاب وما فیه من الأُصول والتعالیم ثم الإیمان والإذعان بتلک التفاصیل، کانا متوقّفین علی نزول الوحی، ولولاه لما کان هناک علمٌ بها، ولا إیمان.

وبعباره أُخری: إنّ العلم والإیمان بالأُمور السمعیه الّتی لا سبیل للعقل إلیها مثل المعارف والأحکام والقصص ومجادلات الأنبیاء مع المشرکین والکفّار، وما نزل بساحه أعدائهم من إهلاک وتدمیر، لا یحصلان إلّامن طریق الوحی حتّی قصص الأُمم السالفه وحکایاتهم لتطرّق الوضع والدّس إلی کتب القصّاصین، والصحف السماویه النازله قبل القرآن.

***

تفسیر الآیه بآیه أُخری

إنّ الرجوع إلی ما ورد فی هذا المضمار من الآیات یوضّح المراد من عدم درایته بالکتاب أوّلاً، والإیمان ثانیاً.

أمّا الأوّل: فیقول سبحانه: «تِلْکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیها إِلَیْکَ ما کُنْتَ تَعْلَمُها

أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هـذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَهَ لِلْمُتَّقِينَ» (۱) فالآیه صریحه فی أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لم یکن عالماً بتفاصیل الأنباء، وقد وقف علیها من جانب الوحی، فعبّر عن عدم وقوفه علیها فی هذه الآیه بقوله: «ما کُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُکَ» وفی تلک الآیه بقوله: «ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ» والفرق هو أنّ «الکتاب» أعمّ من «أنباء الغیب» والأوّل یشتمل علی الأنباء وغیرها، وأمّا «الأنباء» فإنّها مختصّه بالقصص، والکلّ مشترکان فی عدم العلم بهما قبل الوحی والعلم بهما بعده.

وأمّا الثانی فقوله سبحانه: «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَیْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ کُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَکَ رَبَّنا وَ إِلَیْکَ الْمَصِیرُ» (۲)، فقوله: «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَیْهِ» صریحٌ فی أنّ متعلّق الإیمانِ الحاصل بعد الوحی، هو الإیمان «بِما أُنْزِلَ إِلَیْهِ» ، أعنی: تفاصیل الکتاب فی المجالات المختلفه، لا الإیمان باللّه وتوحیده، وعندئذ یرتفع الإبهام فی الآیه الّتی تمسّکت بها المخطّئه ومَن ینسبون عدم الإیمان باللّه وتوحیده إلی النبیّ قبل البعثه، ویتبیّن أنّ متعلّق الإیمان المنفیّ فی قوله: «وَ لَا الْإِیمانُ» هو «ما أُنْزِلَ» * لا الإیمان بالمبدأ وتوحیده.

والحاصل: إنّ هُنا شیئاً واحداً هو: «الإیمان بما أُنزل من المعارف والأحکام والأنباء» فقد نُفیَ عنَه فی الآیه المبحوث عنها لکونها ناظرهً إلی فتره ما قبل البعثه، وأثبت له فی الآیه الأُخری لکونها ناظره إلی ما بعد البعثه.

قال الطبرسی: «ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ» ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإیمان.(۳)

۱- . هود: ۴۹.

۲- . البقره: ۲۸۵.

۳- . مجمع البیان: ۹/۶۵.

وقال الفخر الرازی: المراد من الإیمان هو الإقرار بجمیع ما کلّف اللّه تعالی به، وإنّه قبل النبوّه ما کان عارفاً بجمیع تکالیف اللّه تعالی، بل إنّه کان عارفاً باللّه...

ثم قال: صفات اللّه تعالی علی قسمین: منها ما یمکن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا یمکن معرفته إلّابالدلائل السمعیه، فهذا القسم الثانی لم تکن معرفته حاصله قبل النبوّه.(۱)

وقال العلّامه الطباطبائی فی «المیزان»: إنّ الآیه مسوقه لبیان أنّ ما عنده صلی الله علیه و آله و سلم الّذی یدعو إلیه إنّما هو من عند اللّه سبحانه لا من قِبَل نفسه، وإنّما أُوتی ما أُوتی من ذلک بالوحی بعد النبوّه، فالمراد بعدم درایته بالکتاب هو عدم علمه بما فیه من تفاصیل المعارف الاعتقادیه والشرائع العملیه، فإنّ ذلک هو الّذی أُوتی العلمُ به بعد النبوّه والوحی، وبعدم درایته بالإیمان عدم تلبّسه بالالتزام التفصیلی بالعقائد الحقّه والأعمال الصالحه، وقد سُمّی العمل إیماناً فی قوله: «وَ ما کانَ اللّهُ لِیُضِیعَ إِیمانَکُمْ» (۲)(والمراد الصلوات الّتی أَتی بها المؤمنون إلی بیت المقدس قبل النسخ وتحویل القبله). فالمعنی ما کان عندک قبل وحی الروح (علمُ) الکتاب بما فیه من المعارف والشرائع ولا کنت متلبّساً بما أنت متلبّس به بعد الوحی من الالتزام التفصیلی الاعتقادی والعملی بمضامینه، وهذا لا ینافی کونه صلی الله علیه و آله و سلم مؤمناً باللّه، موحّداً قبل البعثه صالحاً فی عمله، فإنّ الّذی تنفیه الآیه هو العلم بتفاصیل ما فی الکتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً، ونفی العلم والالتزام التفصیلیین لا یلازم نفی العلم والالتزام الإجمالیّین بالإیمان باللّه، والخضوع للحقّ.(۳)

۱- . مفاتیح الغیب: ۱۹۰/۲۷.

۲- . البقره: ۱۴۳.

۳- . المیزان: ۷۷/۱۸.

الآيه الرابعه: عدم رجائه إلقاء الكتاب اليه

قال تعالى: «وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ» .(۱)

استدلّوا بأنّ ظاهر الآيه نفىُ علمه بإلقاء الكتاب إليه، فلم يكن النبىُّ راجياً لذلك، ولا واقفاً عليه.

أقول: إنّ توضيح مفاد هذه الآيه يتوقّف على إمعان النظر فى الجمله الاستثنائيه - أعنى قوله: «إِلاّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» - حتّى يتّضح المقصود، وقد ذكر المفسّرون فى توضيحها وجوهاً ثلاثه نأتى بها:

۱. أنّ «إلّا» استدراكيه، وليست استثنائيه فهى بمعنى «لكنَّ» لاستدراك مابقى من المقصود، وحاصل معنى الآيه: «ما كنت يا محمَّد ترجو فيما مضى أن يوحى اللّه إليك ويشرّفك بإنزال القرآن عليك، إلّاأنّ ربّكَ رَحِمَكَ، وأنعم به عليك وأراد بك الخير» نظير قوله سبحانه: «وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» (۲): أى ولكن رحمه من ربّك خصّك بها، وهذا هو المنقول عن الفرّاء.(۳)

وعلى هذا لم يكن للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أىُّ رجاء لإلقاء الكتاب إليه، وإنّما فاجأه الإلقاء لأجل رحمه ربه.

ولكن لا يصار إلى هذا الوجه إلّاإذا امتنع كون الاستثناء متّصلاً، لكون الانقطاع على خلاف الظاهر.

۲. أن يكون «إلّا» للاستثناء لا للاستدراك وهو متّصل لا منقطع، ولكن

۱- . القصص: ۸۶.

۲- . القصص: ۴۶.

۳- . تفسير الرازى: ۲۵/۲۲.

المستثنى منه جمله محذوفه معلومه من سياق الكلام، وهو كما فى «الكشّاف»:

«وما ألقى عليك الكتاب إلّارحمه من ربك»(۱): أى لم يكن لإلقائه عليك وجهٌ إلّا رحمه ربك، وعلى هذا الوجه أيضاً لا يُعلَم أنّه كان للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم رجاء لإلقاء الكتاب عليه وإن كان الاستثناء متصلّاً.

وهذا الوجه بعيد أيضاً لكون المستثنى منه، محذوفاً مفهوماً من الجمله على خلاف الظاهر وإنّما يصار إليه إذا لم يصحّ إرجاعُه إلى نفس الجمله الوارده فى نفس الآيه كما سيبيَّن فى الوجه الثالث.

۳. أن يكون «إلّا» استثناء من الجمله السابقه عليه أعنى قوله: «وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا» ويكون معناه: ما كنت ترجو (إلقاء الكتاب عليك) إلّاأن يرحمك اللّه برحمته فينعم عليك بذلك، (فتكون النتيجه): أى ما كنت ترجو إلّاعلى هذا.(۲)

فيكون هنا رجاء منفيّاً، ورجاء مثبتاً؛ أمّا الأوّل فهو رجاؤه بحادثه نزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العاديه، فلم يكن ذاك الرجاء موجوداً.

وأمّا رجاؤه به عن طريق الرحمه الإلهيه فكان موجوداً، فنفىُ أحد الرجاءين لا يستلزم نفىَ الآخر، بل المنفىّ هو الأوّل، والثابت هو الثانى، وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الآيه.

وقد سبق منّا أنّ جمله: «ما كُنْتَ» وما أشبهه تستَعمل فى نفى الإمكان، والشأن، وعلى ذلك يكون معنى الجمله: لم تكن راجياً لأن يلقى إليك الكتاب، وتكون طرفاً للوحى والخطاب إلّامن جهه خاصّه، وهى أن تقع فى مظله رحمته وموضع عنايته، فيختارك طرفاً لوحيه، ومخاطباً لكلامه، فالنبىّ بما هو إنسان عادى

۱- . تفسير الكشاف: ۳/۱۹۴.

۲- . تفسير الرازى: ۲۵/۲۲.

لم يكن راجياً لأن ينزل إليه الوحىُ، ويلقى إليه الكتاب، وبما أنّه صار مشمولاً لرحمته وعنايته، وصار إنساناً مثالياً، قابلاً لتحمّل المسؤوليه، وتربيه الأُمّه، كان راجياً به، وعلى ذلك فالنفى والإثبات غير واردين على موضع واحد.

وبهذا خرجنا بفضل هذا البحث الضافى أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان إنساناً مؤمناً، موحّداً، عابداً للّه، ساجداً، قائماً بالفرائض العقليه والشرعيه، مجتنباً عن المحرّمات، عالماً بالكتاب ومؤمناً به إجمالاً، وراجياً لنزوله إليه إلى أن بُعث لإنقاذ البشريه من الجهل، وسوقها إلى الكمال.

الآيه الخامسه: لو لم يشأ ما تلوته

قال سبحانه: «قُلْ لَوْ شاءَ اللّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (۱)، والآيه تؤكّد أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كان لابثاً فى قومه، ولم يكن تالياً لسوره من سور القرآن، أو آيه من آياته وليس هذا شىء ينكره القائلون بالعصمه، فقد اتّفقت كلمتهم على أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وقف على ما وقف عليه من آى الذكر الحكيم من جانب الوحى، ولم يكن قبله عالماً به، وأين هذا من قول المخطّئه من نفى الإيمان منه قبلها؟

وإن أردت الإسهاب فى تفسيرها فلاحظ الآيه المتقدّمه، فترى فيها اقتراحين للمشركين وقد أجاب القرآن عن أحدهما فى الآيه المتقدّمه وعن الآخر فى نفس هذه الآيه، وإليك نصّها: «قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ ما يُوحى إِلَىَّ إِنِّى أَخافُ

۱- . يونس: ۱۶.

إِنْ عَصَيْتُ رَبِّی عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» .(۱)

اقترح المشركون على النبیّ أحد أمرين:

۱. الإتيان بقرآن غير هذا مع المحافظه على فصاحته وبلاغته.

۲. تبديل بعض آياته ممّا فيه سبٌّ لآلهتهم وتنديدٌ بعبادتهم للأوثان والأصنام.

فأجابَ عن الثانی فی نفس الآيه بأنّ التبديل عصيان للّه، وأنّه يخافُ من مخالفه ربه، ولا محيص له إلّااتّباعُ الوحی من دون أنْ يزيدَ فيه أو ينقص عنه.

وأجاب عن الأوّل فی الآيه المبحوث عنها بأنّ ذلک أمر غير ممكن؛ لأنّ القرآن ليس من صنعی وكلامی حتّی أذهب به وآتی بآخر، بل هو كلام اللّه سبحانه وقد تعلّقت مشيئته بتلاوتی، ولو لم يشأ لما تلوته عليكم ولا أدراكُمْ به، والدليل على ذلک أنّی كنت لابثاً فيكم عُمُراً من قبل فما تكلّمت بسوره أو بآيه من آياته، ولو كان القرآن كلامی لبادرت إلی التكلّم به، أيام معاشرتی السابقه معكم فی المده الطويله، المديده.

قال العلّامه الطباطبائی فی تفسير الآيه: إنّ الأمر فيه إلی مشيئه اللّه لا إلی مشيئتی، فإنّما أنا رسول، ولو شاء اللّه أن ينزل قرآناً غير هذا ولم يشأ (تلاوه) هذا القرآنُ ما تلوتُه عليكم، ولا أدراكم به فإنی مكثت فيكم عُمُراً من قبل نزول القرآن...، ولو كان ذلک إلیّ وبيدی لبادرتُ إليه قبل ذلک، وبدت من ذلک آثار ولاحت لوائحه.(۲)

۱- . يونس: ۱۵.

۲- . الميزان فی تفسير القرآن: ۱۰/۲۸-۲۹؛ ولاحظ: تفسير المنار: ۱۱/۳۲۰.

فکیف یمکنُ والحال هذه أنّ یکون مجانباً للإیمان باللّه وتوحیده، لاهیاً عن عبادته وتقدیسه.

هذا وفی هذا المجال حدیث واسع اکتفَینا مِنه بهذا القدر، ومن أراد التوسّع علیه مراجعه موسوعتنا «مفاهیم القرآن».(۱)

وأمّا الکلام فی الجهه الثانیه وهی: أنّه بماذا وبأیّ دینٍ کان یتعبَّدُ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قبل البعثه، فقد وقع ذلک محطّاً للبحث بین العلماء، وحیث إنّه لا ینطوی علی فائده کبری، بعد أن تبیّن أنّه کان قبل البعثه مؤمناً، موحّداً، یعبُد اللّه، فإنّه یکفی أن نعرف أنّه کان صلی الله علیه و آله و سلم یلتزم بما ثبت له أنّه شرع اللّه تعالی... وبما یؤدّی إلیه عقله الفطری السلیم، وأنّه بالتالی کان مؤیّداً مسدّداً، وأنّه کان أفضل الخلق وأکمَلَهم خَلقاً، وخلقاً، وعقلاً، وأنّه کان یعمل حسب ما یُلهَم سواء أکان مطابقاً لشرع ما قبله أم مخالفاً، وأنّ هادیه وقائده منذ صباه إلی أن بُعث هو نفس هادیه بعد البعثه.(۲)

۱- . لاحظ: مفاهیم القرآن: ۵/۲۶۳-۳۳۵.

۲- . وللتوسّع والوقوف علی الآراء المختلفه فی هذا المجال راجع: مفاهیم القرآن: ۵/۲۸۳.

۱۲ بدء الوَحْی

اشاره

إنَّ التاریخَ الإسلامی یبدأ فی الحقیقه من یوم بعثه الرسول صلی الله علیه و آله و سلم بالرساله، والّتی وقعت علی أثره حوادث خاصّه.

ویوم بُعثِ النبیُّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم لهدایه الناس، ودوّی فی سمعه الشریف نداء «إنّک لرسول اللّه» الصادر عن ملاک الوحی أُلقیَت علی کاهله مسؤولیه کبری وثقیله جدّاً، علی نمط الوظیفه الهامّه الّتی أُلقیت علی کاهل مَن سبقه من الأنبیاء والرسل صلوات اللّه علیهم أجمعین.

منذ ذلک الیوم اتّضح هدف أمین قریش، أکثر فأکثر، وتجلّت خطّته أکثر فأکثر.

ونحن نری من اللازم قبل شرح الحوادث الأُولی الواقعه عند البعثه أن نعطی بعض الإیضاحات حول مسألتین:

۱. وجوبُ بعث الأنبیاء.

۲. دورُ الأنبیاء فی إصلاح المجتمع.

لقد أودعَ اللّه تعالی فی کیان کُلّ کائن من الکائنات أدوات تکامله، وجهّزه - لسلوک هذا الطریق - بالوسائل المتنوّعه، والأجهزه المختلفه اللازمه.

ولنأخذ مثلاً: نبته صغیره، فإنّ ثمه عوامل کثیره تتفاعل فیما بینها وتعمل لتحقیق التکامل فیها.

إنّ جذور کلّ نبته تعمل أکبر قدر ممکن لامتصاص العناصر الغذائیه، وتلبیه

احتياجات النبته، وتوصل العروق والقنوات المختلفه، عصاره ما تأخذه من الأرض إلى جميع الأغصان والأوراق.

إنّنا لو درسنا تركيب الورده لرأيناه أكثر مدعاه للإعجاب وأشدّ إثاره للتعجّب من تركيب بقيه النباتات.

فللكأس وظيفه توفير الغطاء اللّازم للأوراق الناعمه اللطيفه فى الورده.

وهكـذا الحال بالنسـبه إلى بقيه الأجهزه فى (الورده) ممّا أُنيط إليها مسؤوليه الحفاظ على كائن حىّ، وضـمان رشده ونموّه، فإنّها جميعاً تقوم بوظائفها المخلوقه لها بأحسن شكل، وأفضل صوره.

ولو أنّنـا خطونـا خطوات أكثر وتقـدّمنا بعض الشـىء لـدراسه الأـجهزه العجيبه فى عالم الأَحياء، لرأينا أنّها جميعاً وبـدون اسـتثناء مُزوّده بما يضمن بلوغها إلى مرحله الكمال المطلوب لها.

وإذا أردنـا أن نصبّ هـذا الموضـوع فى قـالب علمىّ لـوجب أن نقـول: إنّ الهـدايه التكوينيه، الّتى هى النعمه المتجلّيه فى عـالم الطبيعه، تشمل كلّ موجودات هذا العالم من نبات، وحيوان وإنسان.

ويبيّن القرآن الكريم هذه الهدايه التكوينيه الشامله بقوله:

«رَبُّنَا الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَىْ ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى» .(۱)

فإنّه يصـرّح بأنّ كلَّ شـىء فى هـذا الكون من الـذره إلى المجرَّه ينعم بهـذا الفيض العامّ، وأنَّ اللّه تعالى بعد أن قَدَّر كلَ موجود وكائن، بيّن له طريق تكامله، ورُقيّه، وهيّأ لكلّ كائن مِن تلك الكائنات ما يحتاج إليه فى تربيته ونموه، وهذه هى

۱- . طه: ۵۰.

(الهدايه التكوينيه العامّه) السائده على كلّ أرجاء الخليقه دونما استثناء.

ولكن هل تكفى هذه الهدايه الفطريه، التكوينيه لكائن مثل الإنسان، أشرف الموجودات، وأفضل ما فى هذه الخليقه؟!

بكل تأكيد: لا.

لأنّ للإنسان حياه أُخرى غير الحياه المادّيه، تشكل أساس حياته الواقعيه، ولو كان للإنسان حياه مادّيه جافّه فقط مثلما لعالم النباتات، والحيوانات، لكفت العواملُ والعناصرُ المادّيه فى تكامله، والحال أنّ للإنسان نوعين من الحياه، يكمن فى تكاملهما معاً رمز سعاده الإنسان ورقيّه.

إنّ الإنسان الأوّل، ونعنى به إنسان الكهوف والحياه البسيطه والفطره السليمه الّتى لم يطرأ على جبلته أىُّ إعوجاج لم يكن بحاجه إلى ما يحتاج إليه الإنسان الإجتماعىّ من التربيه والهدايه.

ولكن عندما خطا الإنسانُ خطوات أبعد من ذلك، وبدأ الحياه الاجتماعيه، وسادت على حياته فكره التعاون والعمل الجماعى برزت فى روحه ونفسيته سلسله من الانحرافات نتيجه للاحتكاك الاجتماعى، وغيّرت الخصال القبيحه والأفكار الخاطئه صفاتِه الفطريه، وبالتالى أخرج المجتمع من حاله التوازن! إنّ هذه الانحرافات حملت خالقَ الكون على أن يرسل إلى البشريه رجالاً أفذاذاً صالحين يتولّون تربيه البشر، وليقوموا بتنظيم برنامج المجتمع، والتخفيف من المفاسد الناشئه - بصوره مباشره - عن النزعه الاجتماعيه لدى الإنسان، وليضيئوا - بمشاعل الوحى المشعّه المنيره - طريق السعاده والخير للإنسانيه فى جميع المجالات والأبعاد.

إذ لا نقاش فى أنَّ الحياه الاجتماعيه والعيش بصوره جماعيه مع كونه مفيداً،

ينطوى على مفاسد لا تُنكر، ويجرّ إلى انحرافات كثيره لا تقبل الترديد.

ولهذا بعث اللّه سبحانه رجالاً مصلحين، وهداه مرشدين يعملون - قدر الإمكان - على الحدّ من الإنحرافات والمفاسد، ويضعون عجله المجتمع - بتنظيم القوانين الواضحه والأنظمه الحكيمه - على الطريق الصحيح، ويضمنون دورانها وحركتها فى المسار المستقيم.

وقد يُستفاد هذا الأمر - بوضوح - من قوله تعالى:

«كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» .(۱)

دَور الأنبياء فى إصلاح المجتمع:

إنّ الّذى يتصوّره الناس عاده هو أنّ الأنبياء مجرّد معلّمين إلهيّين بُعِثوا لتعليم البشريه.

فكما يتعلّم الطفل خلال حركته التعليميه ابتداء من الابتدائيه ومروراً بالمتوسطه وانتهاء بالجامعه، دروساً معيّنه ومواضيع خاصّه على أيدى الأساتذه والمعلمين، كذلك يتعلّم الناس فى مدرسه الأنبياء أُموراً خاصّه، ويكتسبون معارف معيّنه، وتتكامل أخلاقهم وصفاتهم وخصالهم الاجتماعيه جنباً إلى جنب مع اكتسابهم المعرفه والعلم على أيدى الأنبياء والمرسلين.

ولكنّنا نتصوّر أنّ مهمّه الأنبياء ووظيفتهم الأساسيه هى تربيه المجتمعات البشريه لا تعليمها، وأنّ أساس شريعتهم لا ينطوى على كلام جديد، وأنّه ما لم تنحرف الفطره البشريه عن مسارها الصحيح، وما لم تلفّها غشاوات الجهل والغفله

۱- . البقره: ۲۱۳.

لعرفت وأدركت خلاصه الدين الآلهى، وعصارته، من غير إبهام، ولا خفاء.

على أنّ هذه الحقيقه قد أشار إليها قاده الإسلام العظماء.

فقد قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى «نهج البلاغه» عن هدف الأنبياء:

«أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَهِ أَمَانَتَهُمْ (ايمانهم)، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللّهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ».(۱)

مثالٌ واضح فى المقام

إذا قلنا: إنّ وظيفه الأنبياء فى تربيه الناس وإصلاح نفوسهم هى وظيفه صاحب البستان فى تربيه شجيره من الشجرات، أو قلنا: إنّ مَثَل الأنبياء فى قياده التوجّهات الفطريه البشريه وهدايتها، مثل المهندس الذى يستخرج المعادن الثمينه من بطون الأوديه والجبال، لم نكن فى هذا القول مبالغين.

وتوضيح ذلك أنّ النبته، أو الشجيره الصغيره تحمل من بدايه انعقاد حبتها الأُولى كُلَّ قابليات النمو، والرشد، فإذا توفَّر لها الجوُ المناسب للنمو، دبّت الحياه والحركه فى كلّ أجزائها، واستطاعت بفعل جذورها القوّيه وأجهزتها المتنوّعه وفى الهواء الطلق، والضوء اللازم، من أن تقطع أشواطاً كبيره من التكامل، والنموّ.

فمسؤوليه البستانى فى هذه الحاله تتركّز فى أَمرين:

١. توفير الظروف اللازمه لتقويه جذور تلك النبته لكى تظهر القوى المودعه

١- . نهج البلاغه: الخطبه رقم ١.

فی تلک النبته أو الشجیره، وتخرج من حیّز القوّه إلی مرحله الفعلیه، والتحقّق.

۲. الحیلوله دون تعرّض تلک الشجره أو النبته للانحرافات والآفات، وذلک عندما تتّجه القوی الباطنیه صوب الوجهه المخالفه لسعادتها، وتسلک طریقاً ینافی تکاملها.

ومن هنا فإنّ مسؤولیه البستانی ووظیفته لیست هی الإنماء بل هی المراقبه وتوفیر الظروف اللازمه لیتهیّأ لتلک الشجره والنبته أن تُبرز کمالها الباطنی.

لقد خلق اللّه سبحانه البشرَ وأودع فی کیانه طاقات متنوّعه، وغرائز کثیره، وعجن فطرته وجبلَّته بالتوحید، وحبّ معرفه اللّه، وحبّ الحقّ والخیر، والعدل والإنصاف، کما وأودع فیه غریزه السعی والعمل.

وعندما تبدأ خمائر هذه الأُمور وبذورها الصالحه المودعه بالعمل والتفاعل فی کیان الإنسان تتعرّض فی الجو الاجتماعی لِبعض الانحرافات بصوره قهریه، فغریزه العمل والسعی تتخذ شیئاً فشیئاً صفه الحرص والطمع، وغریزه حبّ السعاده والبقاء تتّخذ صوره الأنانیه، وحبّ الجاه والمنصب، ویتجلّی نور التوحید والإیمان فی لباس الوثنیه وعباده الأصنام.

فی هذه الحاله یعمل سفراء اللّه إلی البشریه: (الأنبیاء والرسل) علی تهیئه أجواء الرُّشد والنموّ الصحیح لتلک الغرائز وتلک القوی والطاقات علی ضوء الوحی، والبرامج الصحیحه المستلهمه من ذلک المنبع الإلهی الهادی، ویقومون بالتالی بتعدیل انحرافات الغرائز، والوقوف دون تجاوزها حدودها المعقوله المطلوبه.

ولقد قال أمیرالمؤمنین علیه السلام فی مامرّ من کلامه: إن اللّه أخذ - فی مبدأ الخلق - میثاقاً یدعی «میثاق الفطره».

فما هوترى المقصود من ميثاق الفطره هذا؟

إنّ المقصود من هذا الميثاق هو: أنّ اللّه تعالى بخلقه وإيداعه الغرائز المفيده فى الكيان الإنسانى، وبمزج الفطره البشريه بعشرات الأخلاق الطيّبه والسجايا الصالحه يكون قد أخذ من الإنسان ميثاقاً فطرياً بأن يتبع خصال الخير، ويأخذ بالغرائز الطيّبه الصالحه.

فإذا كان منح جهاز البصر (العين) للإنسان هو نوع من أخذ الميثاق من الإنسان بأن يتجنّب المزالق، ولا يقع فى البئر، فكذلك إيداع حسّ التديّن، وغريزه الانجذاب إلى اللّه، وحبّ العدل، فى كيانه هو الآخر نوع من أخذ الميثاق منه بأن يظل مؤمناً باللّه، موحّداً إيّاه، عادلاً، منصفاً محبّاً للخير والحقّ.

وإنّ وظيفه الأنبياء هى أن يحملوا الناس على العمل بمقتضى ميثاق الفطره، وبالتالى فإنَّ مهمّتهم الأساسيه الحقيقيه هى تمزيق أغشيه الجهل وتبديد سحب الغفله الّتى قد تغلب على جوهره الفطره المطعمه بنور الإيمان، فتمنعها من الإشراق على وجود الإنسان، وتحرمُ الإنسان من هدايتها.

ومن هنا قالوا: إنّ أساس الشرائع الإلهيه يتألّف من الأُمور الفطريه، الّتى فُطر الإنسان عليها.

وكأنّ صرح الكيان الإنسانى (جَبَلٌ) اختفت بين ثنايا صخوره وفى بطونه أحجار كريمه كثيره ومعادن ذهبيه ثمينه، فالوجود الإنسانى هو الآخر قد أُودعَت فيه فضائل وعلوم، ومعارف وخصال، وأخلاق متنوّعه. فعندما يغورُ الأنبياء والمهندسون الروحيّون فى أعماق نفوسنا وذواتنا وهم يعلمون جيّداً أنّ نفوسنا معجونه بطائفه من الصفات والسجايا النبيله والمشاعر والأحاسيس الطيّبه، ويعملون على إعاده نفوسنا - بتعاليم الدين وبرامجه - إلى جاده

الفطره المستقيمه السليمه، فإنّهم فى الحقيقه يذكّروننا بأحكام فطرتنا، ويُسمّعوننا نداء ضمائرنا، ويلفتونها إلى الصفات، وإلى الشخصيه المودعه فيها.

تلك هى رساله الأنبياء، وذلك هو عملهم الأساسى، وهذا هو دورهم فى إصلاح النوع الإنسانى، أفراداً وجماعات.

أمين قريش فى غار حِراء

يقع جبل «حِراء» فى شمال «مكّه» ويستغرق الصعود إلى غار حراء مده نصف ساعه تقريباً.

ويتألّف ظاهر هذا الجبل من قطع صخريه سوداء، لا يُرى فيها أىُّ أثر للحياه أبداً.

ويوجد فى النقطه الشماليه من هذا الجبل غار يمكن للمرء أن يصل إليه ولكن عبر تلك الصخور، ويرتفع سقف هذا الغار قامه رجل، وبينما تضىء الشمس قسماً منه، تغرق نواح أُخرى منه فى ظلمهٍ دائمهٍ.

ولكن هذا الغار يحمل فى رحابه ذكريات كثيره عن صاحب له طالما تردّد عليه، وقضى ساعات بل وأياماً وأشهراً فى رحابه... ذكريات يشتاق الناس - وحتّى هذه الساعه - إلى سماعها من ذلك الغار، ولذلك تجدهم يسارعون إلى لقائه كلّما زاروا تلك الديار، متحمّلين فى هذا السبيل كلّ عناء، للوصول إلى رحابه، لكى يستفسروا منه عمّا جرى فيه عند وقوع حادثه: «الوحى» العظيمه، وليسألونه عمّا تحتفظ به ذاكرته من تاريخ رسول الإنسانيه الأكبر ممّا جرت حوادثه فى ذلك المكان التاريخى، العجيب.

ويتحدّث ذلك الغار هو الآخر إليهم بلسان الحال ويقول: هاهنا المكان الّذى كان يتعبّد فيه عزيز قريش وفتاها الصادق الأمين.

وهاهنا قضى ليالى وأياماً عديده وطويله قبل أن يبلغ مرتبه الرساله، فى عباده اللّه، والتأمّل فى الكون، وفى آثار قدره اللّه وعظمته.

أجل، لقد اختار محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم ذلك المكان البعيد عن ضجيج الحياه، للعباده والتحنّث، فكان يمضى جميع الأيام من شهر رمضان فيه، وربّما لجأ إليه فى غير هذا الشهر أحياناً أُخرى، إلى درجه أنّ زوجته الوفيّه كانت إذا لم يرجع إلى منزلها، تعرفُ أنّه قد ذهب إلى «غار حراء» وأنّه هناك مشتغل بالعباده والتحنّث والاعتكاف، وكانت كلّما أرسلَتْ إليه أحداً وجده فى ذلك المكان مستغرقاً فى التأمّل والتفكير، أومشتغلاً بالعباده والتحنّث.

لقد كان صلى الله عليه و آله و سلم قبل أن يبلغ مقام النبوه، ويُبْعَث بالرساله يفكّر - أكثر شىء - فى أمرين:

١ - كان يفكّر فى ملكوت السماوات والأرض، ويرى فى ملامح كلّ واحد من الكائنات الّتى يشاهدها نور الخالق العظيم، وقدرته، وعظمته وعلمه، وقد كانت تفتح عليه من هذا السبيل نوافذ من الغيب تحمل إلى قلبه وعقله النور الإلهىّ المقدّس. ٢. كان يفكر فى المسؤوليه الثقيله الّتى ستوضع على كاهله.

إنّ اصلاح المجتمع فى ذلك اليوم على ما كان عليه من فساد عريق وانحطاط عريض، لم يكن فى نظره وتقديره بالأمر المحال الممتنع. ولكن تطبيق مثل هذا البرنامج الإصلاحىّ لم يكن فى نفس الوقت أمراً خالياً من العناء والمشاكل، من هنا كان يفكّر طويلاً فى الفساد فى حياه المجتمع المكّى وما يراه من ترف قريش، وكيفيّه رفع كلّ ذلك وإصلاحه.

لقد كان صلى الله عليه و آله و سلم حزيناً لما يرى فى قومه من فساد العقيده المتمثّل فى الخضوع للأوثان الجامده، والعباده للأصنام الخاويه الباطله، ولطالما شوهدت آثار ذلك

الحزن على محيّاه، وملامح وجهه الشريف، ولكن لمّا لم يكن مأذوناً بالإفصاح بالحقائق، لذلك كان يتجنّب ردع الناس عن تلك المفاسد، ومنعهم عن تلك الانحرافات.

بدء الوحى

لقد أمر اللّه ملكاً من ملائكته بأن ينزل على أمين قريش وهو فى غار حراء ويتلو على مسمعه بضع آيات كبدايه لكتاب الهدايه والسعاده، معلناً بذلك تتويجه بالنبوّه، ونصبه لمقام الرساله.

كان ذلك المَلَك «جبرئيل»، وكان ذلك اليوم هو يوم المبعث النبوى الشريف الّذى سنتحدّث عن تاريخه فى المستقبل.

ولا ريب أنّ ملاقاه المَلك ومواجهته أمرٌ كان يحتاج إلى تهيّؤ خاصّ، ولو لم يكن محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم يمتلك روحاً عظيمه، ونفسيه قوّيه، لم يكن قادراً قط على تحمّل ثقل النبوّه، وملاقاه ذلك الملك العظيم.

أجل لقد كان «أمين قريش» يمتلك تلك الروح الكبرى، وتلك النفس العظيمه وقد اكتسبها عن طريق العبادات الطويله، والتأمّل العميق الدائم، إلى جانب العنايه الإلهيه.

ولقد روى أصحاب السير والتاريخ أنّه رأى رؤيً عديده قبل البعثه كانت تكشف عن واقع بَيّن واضحٍ وضوح النهار(۱).

ولقد كانت ألذّ الساعات وأحبّها عنده بعد كلّ فتره، تلك الساعات الّتى يخلو فيها بنفسه، ويتعبّد فيها بعيداً عن الناس.

۱- . لاحظ: صحيح البخارى: ۱/۲۲، كتاب العلم؛ بحار الأنوار: ۱۸/۱۹۴.

ولقد قضى على هذا الحال مدّه طويله حتّى أتاه - فى يوم معيّن - ملكٌ عظيم بلوح نصبَهُ أمامه وقال له: «إقرأ»، وحيث إنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان أُميّاً لم يدرس أجاب المَلَك بقوله: «ما أنا بقارئ».

وتكرّر هذا العمل مرّات أحسّ بعدها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى نفسه أنّه قادر على قراءه ما فى ذلك اللوح، فقرأ ساعتها تلك الآيات الّتى تشكّل - فى الحقيقه - ديباجه كتاب السعاده البشريه، وأساس رقيّها.

لقد قرأ صلى الله عليه و آله و سلم قوله تعالى:

«اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ * اَلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ» .(۱)

وبعد أَنْ انتهى جبرئيل من أداء مُهِمّتِه الّتى كُلِّفَ بها من جانب اللّه تعالى، وبلّغ إلى النبىّ تلكم الآيات الخمس، انحدر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من جبل حراء، وتوجّه نحو منزل خديجه.(۲)

ولقد أوضحت الآيات المذكوره برنامج النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إجمالاً، وبيّنت وبشكل واضح أنّ أساس الدين يقوم على القراءه والكتابه، والعلم والمعرفه، واستخدام القلم.

ظاهره القضايا الغيبيّه فى رأى الماديّين

لقد تسبّب التقدّمُ العظيم والمتزايد الّذى تحقّق فى ميدان العلوم الطبيعيه فى سلب الكثير من العلماء القدره على فهم وإدراك القضايا المعنويه والخارجه عن إطار العلوم الطبيعيه، وبالتالى أدى إلى تحديد وتضييق آفاق الفكر عندهم.

۱- . العلق: ۱-۵.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۵۵.

فإذا بهم أصبحوا يتصوّرون أنّ الوجود يتلخّص فى هذا الكون المادّى، وأنّه ليس فى الوجود من شىء سوى المادّه، وأنّ كل ما لا يمكن تفسيره وتبريره بالقوانين والقواعد المادّيه فهو أمر باطل، ومن نسج الخيال!!

إنّ هذا الفريق - لتسرّعه فى إصدار الحكم فى الأُمور المتعلّقه بالغيب وقضايا ماوراء الطبيعه، وحصر أدوات المعرفه بالحسّ والتجربه - أنكروا عالم الوحى، بحجّه أنّ الحسّ والتجربه لا يقودانهم إلى ذلك العالم، ولا يخبرانهم عن مثل تلك الموجودات، فلكونها بالتالى لا تخضع لمبضع التشريح، ومجهر الإختبار أنكروها بالمرّه، وكانت النتيجه أنّ أدوات المعرفه المعروفه (الحسّ والتجربه) حيث إنّها لا تهدى إلى عالم ماوراء المادّه فإذن لا وجود خارجى لذلك العالم ولحقائقه أبداً!

إنَّ هذا النمط من التفكير نمط ضيّق ومحدود جدّاً، مضافاً إلى أنّه يتّسم بالغرور والغطرسه، فهو من باب «استنتاج عدم الوجود من عدم الوجدان» فى خطوه متعجّله فجّه!!

فمادامت هذه الحقائق الّتى يعتقد بها الإلهيّون المؤمنون باللّه لا يمكن التوصّل إليها عن طريق الأدوات الفعليه المتعارفه بينهم للإدراك والمعرفه فهى إذن لا أساس لها من الواقع!!

إنّ الّذى لا شكّ فيه هو: أنّ الماديين لم يدركوا مقاله العلماء الإلهيّين حتّى فى مسأله إثبات الصانع الخالق فكيف بالعوالم الأُخرى لما فوق الطبيعه، ولو أنّ الفريقين تحاورا فى جوّ علمى مناسبٍ، بعيداً عن الأغراض والعصبيّات، لكان من المتوقّع أن تزول الفواصل بين المادّيين والإلهيّين فى أقرب وقت، وأن يرتفع هذا الاختلاف الّذى قسَّم العلماء إلى فريقين على طرفى نقيض؟!

لقـد أقام المؤمنون الموحِّدون عشـرات الأدلّه والبراهين القاطعه على وجود اللّه تعالى، وأثبتوا بأَنَّ هـذه العلوم الطبيعيه هى نفسـها تقودنا إلى الخالق العالم القادر، وأنّ هـذا النظام العجيب السائـد فى ظواهر الكائنات الطبيعيّه وبواطنها لـدليل قاطع، وبرهانٌ ساطع على وجـود مبـدع لهـذا النظـام، وأنّ جميـع أجزاء هـذا الكون المـادّىّ، من ذرّاته إلى مجرّاته، يسـير وفق قوانين دقيقه متقنه، ولا تستطيع الطبيعه الصمّاء العمياء أبداً أن تكون مبتكره لهذا النظام البديع، ومبدعه لهذا الترتيب الدقيق.

وهذا هو بنفسه برهان «نظام الوجود» أو (برهان النظم) الّذى ألّف العلماء الإلهيّون الموحدّون حوله عشرات الكتب والدراسات.

وحيث إنّ برهان النظم هـذا ممّا يفهمه جميع الناس على مختلف مراتبهم ومـداركهم، لذلك ركّزت عليه الكتب الاعتقاديه دون سواه، وسـلك كُلٌّ واحـد من العلماء طريقاً معيّناً وخاصّاً لتقريره، وبيانه، كما ودرست الأدلّه والبراهين الأُخرى الّتى لا تتّسم بمثل هذه الشموليه، فى الكتب، والمؤلّفات الفلسفيه والكلاميّه بصوره مفصّله ومبسوطه.

إنّ للعلماء الإلهيّين بيانات وأدلّه فى مجال (الروح المجرده)، وعوالم ما وراء الطبيعه (الميتافيزيقيا) نشير إلى بعضها هنا:

الروح المجرّده

إنّ الاعتقاد بالروح من القضايا ذات الطبيعه الشائكه، وقد استقطبت اهتمام العلماء وشغلت بالهم بشده.

فهنـاك فريـقٌ – ممّن اعتـاد أن يُخضِعَ كـلّ شـىء لمبضع التشـريح – ينكر وجود الروح، ويكتفى بالاعتقـاد بـالنفس ذات الطـابع المادّى، والعامله ضمن نطاق القوانين الطبيعيه فقط.

ووجود «الروح» والنفس غير المادّيه (أى المجرّده المستقلّه عن المادّه) من القضايا الّتى عُولجت ودُرست من قِبَل المؤمنين باللّه، والمعتقدين بالعالم الروحانى، بصوره دقيقه، وعميقه.

فهم أقاموا شواهِدَ عديدةً على وجود هذا الكائن (غير المادّىّ) وهى أدلّه وبراهين لو تمَّ التعرّف عليها ومناقشتها فى جوّ علمى هادئ مع الأخذ بنظر الاعتبار ما يقوم عليه منطق الإلهيّين - فى هذا المجال - من قواعد وأُسس، لأدّى ذلك إلى التصديق الكامل بها.

على أنّ ما يقوله الإلهيّون فى مجالات أُخرى مشابهه مثل: (الملائكه) و (الوحى) و (الإلهام) يقوم هو الآخر على الأساس الّذى شيّدوه ومهّدوه وبرهنوا عليه قبل ذلك بالأدلّه المحكمه، المتقنه(١).

ظاهره الوحى عِند الماديّين

يُعتبر الاعتقاد بالوحى أساساً لجميع الرسالات، والأديان السماويه، وتقوم هذه الظاهره (ظاهره الوحى) على أنّ الّذى يوحى إليه يمتلك روحاً قوّيه تقدر على تلقّى المعارف الإلهيّه من دون واسطه، أو بواسطه ملَك من الملائكه.

ويلخّصُ العلماء المختصُّون تعريفَهم للوحى على النحو التالى: «الوَحىُ تعليمُهُ تعالى مَنْ اصْطفاهُ مِنْ عِباده كُلَّ ما أرادَ اطّلاعه عليه من ألوان الهدايه والعِلم ولكِنْ بطريقه خَفيّهٍ غير مُعْتادَه للبَشر».

ولكنّ الماديّين - كما قلنا - لم يستطيعوا هضم هذه الحقيقه، وإدراك هذه الظاهره على حالها، وصورتها الغيبيه بسبب ما ذكرناه من منهجهم ونظرتهم إلى

١- . جاء تفصيل هذه البراهين والأدلّه فى الكتب الفلسفيه مثل: «الإشارات» و «الأسفار». وقد أشرنا إلى بعض هذه الأدلّه فى كتاب (اللّه خالق الكون)، فراجع.

الأمور والكائنات فذهبوا فی تفسیر ظاهره الوحی - الّتی هی کما أسلفنا من قضایا الغیب ومن عوالم ما فوق الطبیعه - مذاهب مختلفه ترجع برمّتها إلی الرؤیه المادّیه للوجود.

وإلیک أبرز هذه التفاسیر المادّیه لظاهره الوحی الغیبیه:

أبرز النظریات المادّیه لظاهره الوحی

۱. قالوا: الوحی هی القدره الفکریه، والنفسیه والعقلیه الّتی تحصل للإنسان بسبب التمرینات والریاضات الروحیه الّتی علی أثرها تنفتح علیه أبوابٌ من الغیب، فیخبر عن أُمور طالما تتّفق مع الواقع علی نحو ما یحصل للمرتاضین الهنود.(۱)

فالأنبیاء بسبب اعتزالهم للمجتمع - علی غرار ما یفعل المرتاضون - وإقبالهم علی الریاضات الروحیه تحصل لهم المقدره علی الإخبار بالغائبات، والکائنات الخفیّه علی غیرهم.

والجواب علی هذه النظریه هو:

أوّلاً: أنّ دراسه حالات المرتاضین تکشف لنا عن أنّهم طالما یخطأون فی إخباراتهم أخطاء فاضحه، بینما لم یُعهَد من نبیٍّ أنّه أخطأ فی إخباراته، وإنباءاته.

وثانیاً: أنّ ما یفعله المرتاضون لا ینطوی علی أیّه أهداف إصلاحیه علیا للمجتمع البشری، بل غایه همّهم هو: عرض الأفعال العجیبه علی الناس وربّما تسلیه المتفرجین، بینما یهدف الأنبیاء إلی إصلاح المجتمعات البشریه وقیادتها إلی ذری الکمال والتقدّم.

۱- . وهم الّذین یمارسون ریاضه الیوغا.

وثالثاً: أنّ المرتاضين لا يثقون بما يخبرون به، كما لم يُعرَف إلى الآن أنّ أحداً منهم قدّم للمجتمع البشرىّ برامج كامله وشامله للحياه البشريه الفرديه والاجتماعيه، بينما نجد الأنبياء يخبرون الناس بما أُمروا به وهم على إيمان كامل، ويقين ثابت منه، هذا إلى جانب أنّهم يحملون إلى البشريه برامج اجتماعيه وحيويه جامعه الأطراف، كامله الأبعاد، رفيعه الأهداف، عميقه الغايات، ترجع إليها كلُّ فضيله وكلّ خير عرفته المجتمعات إلى الآن.

ورابعاً: أنّ أعمال المرتاضين وما تحصَّلُ لهم من قوى وتنفتح عليهم من آفاق، محدوده، بينما لا تقف طاقاتُ الأنبياء وآفاق علومهم، وأبعاد أعمالهم عند حدّ.

فلا يمكن أبداً تفسير وتعليل ظاهره (الوحى) وما يحصل للرسل والأنبياء على أثره من أُمور تتخطّى حدود العالم المادّى المحدود، بالرياضه الروحيه الّتى يمارسها المرتاضون وما يحصل لهم على إثرها من أُمور.

٢ - قالوا: إنَّ (الوحى) نوعٌ من النبوغ، أو أنّه ناشئ من النبوغ، وأنّ الأنبياء هم نوابغ اجتماعيون لا أكثر.

وقد شرحوا نظريتهم هذه قائلين: بأنّ نظام الخليقه قد ربّى فى أحضانه نوابغَ صالحين، اهتدوا بفعل نبوغهم الفكرى الرفيع إلى أفكار وقيم رفيعه ودعوا مجتمعاتهم إلى الأخذ بها، والسير على هديها، لتحقيق الخير والعداله، فكان لهم بذلك أكبر نصيب فى إرشاد البشريه إلى سعادتها، فكلّ ما طرحوه من أفكار، وكلّ ما عرضوه على تلك المجتمعات باسم الدين أوالقانون ليست - فى الحقيقه - سوى نتيجه ما تمتّعوا به مِن نبوغ، وفكر خارق، ولا علاقه له بعالم آخر غير هذا العالم المادّى المألوف.

وقالوا: وإن ممّا يساعد على تقويه هذا النبوغ أَمور أبرزها:

الحبُّ، التعرّضُ للظلم الطويل، الطفوله وما يكتنفها من ضعف وعجز، الوحده، السكوت، التربيه الأُولى، والعيش فى صوره الأقليّه وما يرافقها من ظروف إجتماعيه غير مؤاتيه.

فإنّ جميع هذه الأُمور أو بعضها تدفع بالشخص إلى الإنطوائيه، والتفكير والتأمّل، للاهتداء إلى مخرج من المشاكل والصعوبات، ومخلص من الظروف الصعبه، والأحوال الشاقّه.

ويُجاب عن هذه النظريه بأنّ أصحابها حكموا على هذه القضيه على أساس موقف اتّخذوه سَلفاً فهُم حَصَروا الأشياء فى المادّه والأُمور المادّيه ثم فسّروا ما يرتبط بعالم الغيب بذلك، فجاء تفسيرهم لهذه الظاهره الغيبيه تفسيراً مادّياً، غفله منهم عن أنّ مثل هذا التفسير والتعليل لا يليق بظاهره (الوحى) الّتى تجسد أعلى قضيّه فى سلّم الحقائق العلميه والفلسفيه، ويرجع اليها أعظم القوانين والبرامج للسعاده البشريه.

نحن لا ننكر أنّ لما ذكروه من العوامل تأثيراً فى تقوّيه عمليه «التفكير» لدى الإنسان إلى درجه إيجاد ما يُسمّى بظاهره النبوغ لديه، إلّاأنّه لا يمكن أن يوجد مثل هذا الأَمر نبيّاً خضعت جميع النوابغ البشريه لعظمه تعاليمه الّتى أتى بها طوال أربعه عشر قرناً.

نبيّاً لم يزل ما جاء به من معارف عقليه وفلسفيه، وقوانين ترتبط بعالم الطبيعه وبالنظام الاجتماعى وآداب السلوك تحافظ على قوّتها، وعمقها، وأصالتها، ولمعانها كلّ المحافظه رغم كلّ ما أحرزه البشر فى ضوء نشاطه الفكرى والعقلى من تقدّم، فى المعارف والعلوم.

هذا مضافاً إلى أنّ نسبه هؤلاء الأنبياء جميع ما عرضوه على المجتمعات البشريه إلى العالم الآخر وإصرارهم على أنّها من جانب اللّه تعالى وليست من نسيج أفكارهم يناقض نظريه هذه الطائفه، الّتى تفسّر النبوّه بالنبوغ.

لنقرأ معاً الآيه الّتى يقول اللّه تعالى فيها حاكياً عن رسول الإسلام محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم:

«إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ ما يُوحى إِلَيَّ» .(۱)

أو يقول سبحانه:

«إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحى» .(۲)

۳. يقولون: إنّ الوحى هو ظهور الشخصيه الكامنه فى النبىّ وإيحاؤها لما ينفعه وينفع قومه المعاصرين له، إليه.

وربّما قالوا: إنَّ معلومات «محمَّد» وأفكارَه وآمالَه وَلّدتْ لديه إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفيّه على مخيلته الساميه، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملَك ماثلاً أمامه وهو يتلو على سمعه ما حدّث به بعد ذلك.

وتوضيح هذه النظريه هو: أنّ لكلّ إنسان شخصيتين:

۱. الشخصيه الظاهره العاديه وهى الّتى تخضع للحواس الخمس وتعمل بها.

۲. الشخصيه الباطنيه وهى الّتى تعمل عندما تتعطّل الحواس، ويتعطّل الشعورُ الظاهرى.

وهذه الشخصيه هى الّتى تحرّك جميع أعضاء الجسم الإنسانى الّتى لا تخضع لإرادته كالكبد، والقلب، والمعده وغيرها، كما أنّها هى مصدر الكثير من الإلهامات الطيبه فى الظروف الحرجه.

۱- . الأنعام: ۵۰.

۲- . النجم: ۴.

ثم قالوا: وهـذه الشخصـيه الباطنيه قـد أصـبحت مدركه بالحس، فإنّ المنوَّم مغناطيسـياً يظهر بمظهر العقل الراجح، والفكر الثاقب والنظر البعيد، ويقوم بما لا يقوم به فى حالته العاديه.

وقـد انتهى هؤلاء المادّيون من خلال تحقيقاتهم وتجاربهم إلى: أنّ شخصـيه الإنسان الباطنيه أرقى من شخصـيته العاديه، وإنّ ما يتوصَّل إليه الإنسان من أفكار عاليه رفيعه جداً، وما قد يتمتّع به من روح قويه هو من مظاهر هذه الشخصيه وفعاليتها.

فقالوا: وإنّ هذه الشخصيه هى الّتى تنفث فى روح الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من اللّه، وقد تظهر لهم متجسّده فيحسبونها من ملائكه اللّه هبطت عليهم من السماء!!!

فالوحى عند هؤلاء الباحثين فى الروح على الأُسلوب التجريبى لا يكون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاماً عن اللّه، بـل يكون فى تجلّى روح الإنسـان عليه بواسـطه شخصـيته البـاطنه فتعلّمه مـا لم يكن يعلم، وتهـديه إلى خير الطرق لهـدايه نفسـه وترقيه أُمّته.(۱)

ولكنّ هـذه النظريه هى الأُخرى تنبع من الغُرور العلمىّ الّذى أصاب هذا النمط من العلماء الَّذين يحاولون تفسـير كلّ ظواهر هذا العالم بالتفسير المادّى، وهو لا شكّ ينشأ من عِلمهم المحدود القاصر عن إدراك حقائق الوجود.

إنّنا لا نشكّ فى وجود ما يُسـمّى بالشخصـيه الباطنيّه لدى الإنسان فهو ممّا سـبق إلى كشفه والتنويه عليه الفلاسفه الإسلاميّون من قبل، ولكن كيف وعلى أىّ أساس حقَّ لهؤلاء أن يفسّروا ظاهره (الوحى الإلهىّ) والنبوّه بهذا الأمر؟

۱- . دائره معارف القرن العشرين لفريد وجدى: ۱۰/۷۱۹، مادّه «وحى».

هذا أوّلاً

وثانياً: أنَّ تجلّى الشخصيّه قلّما يحدث فى الأشخاص الأصحّاء، بل هو يحدث فى الأغلب عند المتعبين القلقين، والسكارى، والمصابين بالهزيمه والنكسه، لأنّ نافذه (اللّا وعى) عند غيرهم من الأصحّاء تنسد بسبب اشتغالهم الشديد بقضايا الحياه اليوميه وهمومها، ولا يبقى للشخصيه الباطنيه مجال للنشاط والفعاليه، كما هو العكس عند المتعبين والسكارى والمرضى الذين يقلّ اهتمامهم بالحياه اليوميه فيترك (الوعىُ) مكانه للّاوعى، وتترك الشخصيه الظاهريه المعطّله مكانها للشخصيه الباطنيه.

ولذلك نجد بين آلاف العلماء والمفكّرين مفكّراً أو عالماً واحد اتّفق له فى بدايه عمره أن اهتدى بصوره لا شعوريه إلى فكره خاصّه أونظريه معيّنه من دون سابق تفكير أواستدلال قائم على الشعور.

وخلاصه القول: إنّ تجلّى الشخصيه الباطنيه فى الحياه الإنسانيه قضيه نادره جداً، وهى لا تحدث إلّافى ظروف خاصّه مثل: المنامات والأحلام وغيرها من التحوّلات الحياتيه الّتى تقلّل من توجّه الإنسان إلى العالم الخارجىّ وتصرفُ التفاته وتوجُّهَه إلى الشخصيه الباطنيه.

ولكن هذه الحاله وهذه الشرائط (أى الغفله عن هموم الحياه اليوميه الخارجيه) لم تحصل للأنبياء قط.

فالنبى الأكرم محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم كان طوال (٢٣ سنه) وهى أعوام الرساله، مشتغلاً كلّ الاشتغال بقضايا الحياه اليوميه، فالنشاطات السياسيه، والتبليغيه وقضايا الدعوه والقياده كانت تهيمن على كلّ توجّهه واهتمامه، وتملأ عقله وروحه ونفسه.

فالكثير من آيات الجهاد ترتبط بساحات القتال والجهاد، وهذا يعنى أنّه كان

مشدوداً بروحه وعقله كلّه إلى تلك الأمور.

وثالثاً: أنَ هذه النظريه يمكن أن تصدق على نبوّه الأنبياء لو كان هؤلاء الأنبياء أفراداً متعبين، منهزمين، منتكسين، مرضى، معتزلين عن الحياه ليقال حينئذٍ إنّ هذه الحالات والظروف مهَّدت لانقطاعهم عليهم السلام عن هموم الحياه، وقضاياها، وبالتالى مهَّدت لفعاليه الشخصيه الباطنيه وعملها.

ولكن تاريخ الأنبياء يشهد بوضوح لا- إبهام فيه، بأنّهم كانوا - طيله حياتهم الرساليه - رجالاً مجاهدين، لا يهمهم إلّاإصلاح المجتمعات وقياده الجماعات وحلّ المشكلات الاجتماعيه، ورفع مستويات الناس معنوياً وفكرياً، وكانوا يعملون لتحقيق هذه الأهداف ليل نهار، بلا سأم ولا ملل، ولا تعب ولا نصب.

فكيف يمكن القول والحال هذه بأنّ الشخصيه الباطنيه تجلّت لديهم وأوحت إليهم بحقائق وقيم وأفكار؟

إنّ تفسير (الوحى الإلهى) الّذى يُلقى إلى الأنبياء ويكشف لهم عن أدقّ الحقائق وأرفعها، وأعظم المناهج وأكملها، بتجلّى الشخصيه الباطنيه، ناشئ من اعتقاد هذا الفريق من العلماء بأصاله المادّه، أو بعباره أُخرى: حصر الوجود فى المادّه، ومن هنا حاولوا إلْباس كلّ شىء - حتّى الأُمور المعنويه والغيبيه - اللباس المادىّ، وأغلقوا على أنفسهم باب عوالم الغيب، وعمدوا إلى التفتيش عن علّه مادّيه حتّى لظاهره (الوحى) الّتى لا تُقاس بمقاييس العالم المادّى.

هذا مضافاً إلى أنّ تفسير (الوحى الإلهىّ) عن طريق نظريه تجلّى الشخصيه الباطنيه، وخاصّه فى شأن رسول الإسلام «محمَّد» صلى الله عليه و آله و سلم يواجه إشكالات ومؤاخذات أُخرى تجعل هذه النظريه فى عداد الأساطير!!

وإنّ أبرز هذه الإشكالات الوارده على هذه النظريه فى مجال رسول

الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم هى: أنّ هذه النظريه ليست رأياً جديداً وتهمه جديده توجه إلى نبوّه رسول الإسلام.

فإنّ نظريه «الشخصيه الباطنيه، والوحى النفسى الذاتى» هى نظريه متبلوره ومتقدّمه لتهمه (الجنون والصَّرع) التى كان يَرمى بها العربُ الجاهليّون رسولَ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم!!

فقد كان المشركون فى بدء الدعوه يقولون: إنّ ما يقوله «محمَّد» وما يتكلّم به ليس إلّاأفكاره القلقه المضطربه الناشئه عن خياله، وأنّ القرآن هى تلك الأفكار المضطربه الّتى تسرّبت إلى فضاء عقله من دون إراده منه ولا اختيار!!

لنستمع إلى القرآن الكريم وهو ينقل عنهم هذا الاتّهام:

«بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ» (۱).

ولكنّ القرآن الكريم يردّ على هذه المزعمه الواهيه بقوله:

«وَ النَّجْمِ إِذا هَوى * ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى * وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلّا وَحْىٌ يُوحى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى» (۲).

إنّ القرآن الكريم يشجب - فى هذه الآيات المنتظمه انتظاماً رائعاً وبديعاً - هذه المزعمه (أى مقوله أنّ القرآن وليدُ الخيال لدى محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم)، ويردُّ الأمر إلى الوحى الإلهى، والتوجيه الربانىّ العُلوىَّ.

إنّ نظريه الوحى النفسىّ وتَجلّى الشخصيه الباطنيه الّتى طلع بها المادّيون فى عصرنا ما هىَ فى الحقيقه إلّاغطاء لمزعمه المشركين وتهمه الجنون والخيال، الّتى سبق أن رمى بها أعداء الرساله الإسلاميه ومعارضوها النبىَّ صلى الله عليه و آله و سلم تلك التهمه الّتى

۱- . الأنبياء: ۵.

۲- . النجم: ۱-۵.

یذکرها القرآن الکریمُ بقوله:

«وَ قالُوا یا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ» (۱).

وهی تهمه کان یوجّهها المعارضون دائماً إلی المصلحین وأصحاب الرسالات(۲)، وقد اتّخذت هذه التهمه صبغه علمیه جدیده، وتبلورت فی نظریه:

«الوحی النفسیّ، وتجلّی الشخصیه الباطنیه». إنّ القرآن الکریم یردّ علی هذه المزاعم والتصوّرات الباطله حول عملیّه الوحی ومسأله النبوّه ویرد علی نسبه الکهانه وماشابه ذلک کالخبر المنقول عن أهل السیر بمحاوله إلقاء النبیّ نفسه من شاهق فی بدایه الوحی الّذی یشبه نسبه الجنون إلیه صلی الله علیه و آله و سلم إذ یقول تعالی:

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ * ذِی قُوَّهٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ * مُطاعٍ ثَمَّ أَمِینٍ * وَ ما صاحِبُکُمْ بِمَجْنُونٍ * وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِینِ * وَ ما هُوَ عَلَی الْغَیْبِ بِضَنِینٍ * وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَیْطانٍ رَجِیمٍ * فَأَیْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلّا ذِکْرٌ لِلْعالَمِینَ * لِمَنْ شاءَ مِنْکُمْ أَنْ یَسْتَقِیمَ» (۳). بهذا البیان تبیَّنَ بطلان هذا التفسیر وجمیع التفاسیر الأُخری الّتی تحاول إعطاء (الوحی) طابعاً مادّیاً مألوفاً، شأنه شأن غیره من الظواهر الغیبیّه، ونحن استکمالاً لهذا البحث نشیر إلی ما هو الحقُّ فی هذا المجال، ممّا یؤیّد الواقع والعقل والدین:

۱- . الحجر: ۶، وأیضاً راجع الآیات التالیه: سبأ: ۸، الصافّات: ۳۶، الدخان: ۱۴، الطور: ۲۹، القلم: ۲، التکویر: ۲۲.

۲- . إذ یقول القرآن فی هذا الصدد: کَذلِکَ ما أَتَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ» (الذاریات: ۵۲ و ۵۳).

۳- . التکویر: ۲۰-۲۸.

ظاهرهُ الوحی فی منظار العقل والدین

لا شکّ أنّ حیاه کلّ فرد من أفراد الإنسان تبدأ من «الجهل» ثم یأخذ الإنسان بالدخول فی مجال العلم شیئاً فشیئاً، إلی أن تنفتح علیه بالتدریج نوافذُ علی الواقع الخارج عن ذهنه.

فیبدأ الإنسانُ بالتعرّف علی الحقائق عن طریق الحواسّ الظاهریه، ثم علی أثر التکامل فی جهازه العقلیّ والفکری یهتدی إلی الحقائق الخارجه عن مجال الحس واللمس، فیغدو عقلانیاً استدلالیّاً، ویقف علی طائفه من الحقائق الکلیّه والقوانین العلمیه.

وربّما یظهر بین أفراد النوع الإنسانی أصحابُ نفوس عالیه یقفون عن طریق الإلهام ومن خلال بصیره خاصّه علی حقائق وأُمور لا یُهتدی إلیها حتّی عن طریق الاستدلال والبرهنه!

ومن هنا قسّم العلماء إدراک البشر إلی ثلاثه أنواع: «إدراک العامّه»، «إدراک المفکّرین وأرباب الاستدلال»، «إدراک العرفاء وأصحاب البصائر والنفوس الکبری».

وکأَنَّ أصحاب الظاهر یستعینون علی اکتشاف الحقیقه بالحسّ، والمفکّرین یستعینون بالاستدلال والبرهنه، وأصحاب البصائر والمعرفه بالإلهام والإشراق وبالفیض علیهم من العالم الأعلی.

إنّ النوابغ فی مجال الأخلاق، وإنّ عقول العلماء الخلّاقه، وأفکار الفلاسفه العظیمه کلّها تؤیّد وتشهد بأنّ ما یحصلون علیه، وما یطلعون به علی المجتمع البشری ممّا لم یعرفوه من قبل ما هی إلّاشرارات مضیئه وملهمه تخطر لهم، ثم یعمدون إلی تنمیتها وبلورتها بالتجربه، أو بالاستدلال والبرهنه والتأمّل.

قنواتُ المعرفه الثَلاث

من هـذا الكلاـم نسـتنتج أنّ أمام بنى البشـر ثلاث طرق للوصول إلى مقاصـدهم؛ فالطريق الأوّل يسـتفيد منه جماهير الناس غالباً، بينما يسـتفيد طائفه خاصّه منهم من الطريق الثانى، ولا يستفيد من الطريق الثالث إلّاأفراد معدودون قلهٌ تكاملت عقولُهم، وتسامت أرواحهم. وهى كالتالى:

١ – الطريق التجريبى والحِسى، والمقصود منه ذلـك القسم من الإدراكـات والمعلومـات الوارده إلى محيط الـذهن البشـرىّ عن طريق الحواس الظاهريه كالمرئيات، والمشـمومات والمطعومات وغيرها ممّا يسـتقرُّ فى محيط إدراكنا بواسـطه الأجهزه المختصّـه بها.

وقد استطاع البشر اليوم، وبفضل اختراع التلسكوبات والميكروسكوبات وأجهزه التلفاز والراديو أن يقدّم خدمه كبرى للبشريه فى مجال الإدراكات الحسيه ويمهِّد لمزيدٍ من سيطرتها على البعيد والقريب.

٢ – الطريـقُ التعقُّلى الإسـتدلالى: فـإنّ المفكّرين يتوصّـلون إلى كشـف طـائفه من القوانين الكلّيّه الخـارجه عن الحسّ عن طريق عمليه التفكير والتأمّـل وتشـغيل جهاز العقل، وإقامه سلسـله من المقـدّمات البـديهيه الواضـحه، وبـذلك يمكن الوصول إلى قمم المعرفه والكمال العلمى.

إنَّ انكشاف القوانين العلميّه الكليّه، والمسائل الفلسـفيه، والمعارف المرتبطه بصـفات اللّه وأفعاله سـبحانه والقضايا المطروحه فى علم العقيده والأديان ناشئ برمَّته من جهاز العقل، وحركته، وناتج من عمليه التفكير، والإستدلال المذكوره.

٣ – طريق الإلهام: وهذا هو الطريق الثالث لمعرفه الحقائق، وهو فوق نطاق

الحسّ والتعقّل.

إنّه نوعٌ جديدٌ من المعرفه ونمط متميّز من إدراك الحقائق، ليس محالاً ـ من وجهه نظر العلم وإن كان يصعُب على أصحاب الإتجاه المادّى القبول به لكونه طريقاً غير حسّى ولا تعقّلى.

وأمّا من جهه الأُصول العِلميه فلا مجال لإنكاره، ولا مبرّر لعدّه من المحالات.

إنّ طريق التعرُّف على حقائق الكون الخارج عن الذهن - فى منهج المادّيين، وأصحاب النزعه المادّيه - ينحصر فى قناتين لا أكثر، وهما اللّذان سبق ذكرُهما، فى حين أنّ هناك - حسبَ نظره الأديان والشرائع الكبرى وحسب نظره الفلاسفه والعرفاء الإلهيّين - قناه ثالثه أيضاً.

بل إنَّ هذا الطريق الثالث - كما أسلفنا فى مسأله الوحى - أكثر واقعيه، وأقوى أُسُساً، وأوسع آفاقاً عند من يدَّعون الرساله، والنبوّه من جانب اللّه سبحانه، وإن نفوس أُولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاء وطراوةً بفضل هذا الطريق، وفى ضوء هذه القناه.

وكلّما حصل ارتباط بين اللّه، وبين فرد من أفراد النوع الإنسانى على نحو خاص، أُلقيت الحقائق فى وجوده من دون توسّط الحواسّ الظاهريه، وإعمال الفكر، واستخدام جهاز العقل.

وهذا النوع من الإلقاء يسمّى حيناً بالإلهام، وبالإشراق حيناً آخر.

ولكن كلّما نتج من ارتباط الإنسان بما وراء الطبيعه سلسله من التعاليم العامّه والأنظمه والبرامج الشامله أُطلِق على هذا النوع من الإلقاء عنوان (الوحى)، وسمِّىَ الآتى بها (ملَك الوحى) والآخذ لها (نبيّاً).

هذا وقد يوجب الإلهام الثقه والاطمئنان للملهَم إليه، ولكنّهُ لا يمكن أن يكون مبعث الإطمئنان والثقه عند الآخرين.(۱)

من هنا اعتبر العلماء «الوحىَ» الطريقَ المطمئنّه الوحيده إلى المعرفه العامّه...

الوحى الّذى ينزل على الأنبياء الذين ثبتت نبوّتهم بالدلائل القاطعه، من المعجزه وغيرها.

أنواع الوحى وأصنافه

إنّ فى مقدور الروح الإنسانيه بسبب ما تملك من كمالات أن تتّصل بالعوالم الروحانيه من الطرق المختلفه، ونحن هنا نشير إلى هذه الطرق الّتى جاء ذكرها فى أحاديث قاده الإسلام وأئمته، باختصار:

۱. تاره يتلقّى الحقائق السماويه العليا على نحو الإلهام، فيتّخذ ما يتمّ إلقاؤه فى النفس عبر هذا الطريق حكم (العلوم البديهيه) الّتى لا يتطرّق إليها أى ريب وشك.

۲. وقد يسمع عبارات وكلمات من جسم معيّن (كالجبل والشجره) كسماع موسى عليه السلام كلام اللّه من الشجره.

۳. وربّما تنكشف الحقائق له فى عالم الرؤيا انكشاف النهار.

۴. وقد ينزلُ عليه ملَكٌ من جانب اللّه بكلام خاص.

۱- . وإنّما قلنا «قد» أى يمكن أن يوجب الاطمئنان ولم نقطع بذلك لأنّ مصدر هذه الإلهامات ليست معلومه وواضحه، ولا يمكن الاعتماد على مطلق الواردات القلبيه والفجائيه الّتى لا تستند إلى أُصول معلومه. وبعباره أُخرى: يجب الفصل والتمييز بين الإلهامات الرحمانيه والإلقاءات الشيطانيه بواسطه الموازين العقليه والشرعيه.

وقـد نزل القرآن الكريم على النبيّ الأكرم صـلى الله عليه و آله و سـلم من هذا الطريق، وقد صـرّح القرآن الكريم نفسه بهذا عند قوله تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» .(۱)

أساطيرُ مختَلقه

لقـد كتب المؤرّخون والكتّاب عن حياه كثير من الشخصـيات العالميه، وضـبطوا كلّ ما جلَّ ودقَّ فى هـذا المجال، وربّما تحمّلوا عناء الرحلات الطويله والأسفار الشاقّه لتكميل دراساتهم، وكتاباتهم.

غير أنّ التاريـخ لاـ يعرف شخصـيه مثـل رسـول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم ضـبطت تفاصـيل سـيرته الـدقيقه، واهتم أتبـاعه وأصحابه ومحبّوه بكلّ شارده وارده فى حياته الشريفه.

إنَّ هـذا الولع الشديـد بتسـجيل كلّ شـىء - مهما صـغر - من حياه النبيّ الأعظم صـلى الله عليه و آله و سـلم وسـيرته العطره كما ساعد على ضبط جميع الجزئيات والتفاصيل فى هذا المجال، تسبّب فى بعض الموارد فى إلصاق بعض الزوائد بحياه النبيّ الأكرم وشخصيته العظيمه، الطاهره.

ومثل هذا لا يبعد عن المحبّين الجهلاء فكيف بالأعداء الألدّاء العارفين.

من هنـا يتعيّن على كـلّ مؤلّفٍ يكتب عن سـيره شخصـيه من الشخصـيات أن لاـ يغفـل عن مبـدأ (الحـذر والإحتيـاط) فى تحليله لحوادثها، وقضاياها، فلا يغفل عن تقييم كلّ ما جاء حولها من روايات وقصص فى ضوء الموازين التاريخيّه الدقيقه.

وإليك بقيه ما جرى فى واقعه نزول (الوحى) فى حراء:

۱- . الشعراء: ۱۹۳-۱۹۵، وقد أُشير فى سوره الشورى الآيه ۵۱ إلى هذه الطرق الأربع جميعها.

بقیه حادثه نزول الوحی

استنارت نفس رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وروحه الکبری بنور «الوحی» المبارک، وتعلّم کلّ ما ألقی علیه مَلَک الوحی فی ذلک اللقاء العظیم، وانتقشت تلک الآیات الشریفه فی صدره حرفاً حرفاً، وکلمه کلمه.

وقد خاطبه نفس ذلک المَلَک بعد تلاوه تلکم الآیات بقوله:

یا محمَّد... أنت رسولُ اللّه... وأنا جبرئیل.

وقیل: إنّه صلی الله علیه و آله و سلم سمع هذا النداء عند نزوله من غار حراء وقد اضطرب رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لهذین الحدَثین، اضطرب لعظمه المسؤولیه الکبری الّتی أُلقیت علی کاهله.

وکان هذا الاضطراب طبیعیاً بعض الشیء، وهو لا ینافی بالمرّه یقینه صلی الله علیه و آله و سلم وإیمانهُ بصدق ما أُنزلَ علیه لأنّ الروح مهما بلغت من العظمه والسموّ والقوّه والصلابه، ومهمّا کانت قوّه ارتباطها بعالم الغیب، وبالعوالم الرُّوحانیه العُلیا فإنَّها عندما تواجه لأوّل مرّه مَلَکاً لم تره من قبل، وذلک فی مثل المکان الّذی التقی النبیُّ (فوق الجبل) لابُدَّ أنْ یحصل لها مثل هذا الاضطراب، ولهذا زال ذلک الاضطراب عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی ما بعد. ثم إنَ الاضطراب والتعب الشدید قد تسبّبا فی أن یتوجّه النبیُ صلی الله علیه و آله و سلم إلی بیت «خدیجه» علیها السلام، وعندما دخل بیتها ووجدت علی ملامحه آثار الاضطراب والتفکیر سألته عن ما جری له، فحدَّثها بکلّ ما سمع ورأی وقصَّ علیها ما کان من أمر جبرئیل معه، فعظّمت «خدیجهُ» علیها السلام أمره، ودعت له، وقالت: إبشر فواللّه لا یخزیک اللّه أبداً.

ثم إنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم الّذی کان یشعر بالجهد والتعب قال لزوجته الوفیه

«خديجه»: دثّرْنى... دَثِّرينى.

فدثّرته، فَنام بعض الشيء.

خديجه تذهب إلى ورقه بن نوفل

لقد تحدّثنا فى الصفحات الماضيه عن «ورقه» وقلنا: إنّه كان ممّن تنصَّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراه والإنجيل وكان ابن عمّ خديجه.

فعندما سمعت «خديجه» زوجه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ما سمعته منه انطلقت إلى «ورقه» لتخبره بما سمعته من زوجها الكريم، وشرحت له كُلّ شيء ممّا جرى له مع جبرئيل.

فقال «ورقه» فى جواب ابنه عمّه: واللّه إنّ ابن عمّك لصادق، وإنّ هذا لبدء نبوّه، وإنّه ليأتيه الناموس الأكبر (أى الرساله والنبوّه).(۱)

إنّ ما ذكرناه إلى هنا هو فى الحقيقه ملخّص الروايات التاريخيه المتواتره الّتى وصلت إلينا، والّتى دُوِّنت فى جميع الكتب.

بيد إنّنا نلاحظ بين ثنايا هذه الحادثه أُموراً لا تتّفق مع ما نعرفه عن أنبياء اللّه ورُسُله العظام، كما أنّها لا تتّفق مع ما قرأناهُ إلى الآن عن حياه هذا النبىّ العظيم صلى الله عليه و آله و سلم.

وما سنذكره الآن من هذه الزوائد إمّا يجب اعتباره من قبيل الأساطير التاريخيه، أو أنّ علينا تأويله بنوع من التأويل.

وإنا لنعجب قبل كلّ شيء من المفكّر المصرىّ الدكتور «هيكل» كيف سمح لنفسه وهو الّذى تحدّث فى مقدّمه كتابه عن مشكله تسرب الأساطير إلى التاريخ

۱- . الطبقات الكبرى: ۱/۱۹۵.

النبوىّ، وقال: بأنّ هناك من دسَّ فى السيره النبويه، عن عداوه أو جهل، بعض الأكاذيب.

ولكنّه مع ذلك ينقل هنا أُموراً لا أساس لها من الصحّه أبداً، فى حين أعطى فريقٌ من علماء الشيعه - كالمرحوم الطبرسى - ملاحظات مفيده فى هذا الصعيد.

وإليك فى ما يلى بعض هذه الأساطير والقضايا المختلقه، على أنّها لم تكن جديره بالإشاره أبداً لولا أنّ بعض المحبّين الجَهلاء، والأعداء الأذكياء ذكروها فى كتبهم، وكرّروها فى دراساتهم:

١. قالوا: إنَّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم عندما دخل منزل خديجه، كان يفكّر فى نفسه: لعلّ بصرَه خدعه، أو أنّه كاهن، أو فيه جنون!!

ولكن لمّا قالت له خديجه: «إنّ اللّه لا يفعل بك ذلك يا ابْن عبداللّه، إنّك تصدق الحديث، وتؤدّى الأمانه، وتصلُ «الرحم» اطمأنَّ، وزالَ عنه الشكُّ والتردّد، وألقى على «خديجه» نظرَ شكر وموده، ثم طلب أن يُزمَّل، فزمِّلَ فنام!!(١)٢. يقول الطبرى وغيره من مؤرّخى السيره: إنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لمّا سمع نداء يقول: «يا محمَّد أنت رسول اللّه» أصابَهُ خوفٌ شديدٌ حتّى أنّه همَّ بأن يطرح نفسَهُ من أعلى الجبل، فتبدّى له (مَلَك الوحى) ومنعه عن ذلك!!!

٣ - ثم إنَّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ذهب ليطوف بالكعبه بعد ذلك اليوم، فرأى «ورقه بن نوفل» وشرح لورقه ما جرى له مع جبرئيل، فقال له ورقه:

«والّذى نفسى بيده، إنَّك لنبىَّ هذه الأُمه، ولقد جاءك الناموسُ الأكبرُ الّذى جاء موسى ولتُكذبَنَّه، ولتوذينَّه ولتخرجَنَّه ولتقاتلنّه» فأحسّ «محمَّد» بأنّ ورقه

١- . الطبقات الكبرى: ١/١٩٥؛ حياه محمَّد: ١٣۴.

يصدّقه، فاطمأن.(۱)

بُطلانُ هذه المزاعم

إنّ الّذى نتصوّره هو أنّ جميع هـذه القصـص مختلقه من الأساس، وقـد دُسَّت فى التاريخ والتفسـير عن قصدٍ وهَدف، أو دخلت فيهما عن غير ذلك.

وذلك:

أوّلاً: لأنّنا لتقييم هذه المزاعم يجب أن نُلقى نظره فاحصه على تاريخ الأنبياء الماضين وسيرهم.

إنّ القرآن الكريم قصَّ علينا قضاياهم، وسيرهم، وقد وردت فى هذا المجال روايات وأخبار كثيره.

وإنّنا لا نجد أىّ أثر لمثل هذه القصص المشينه فى حياه أىّ واحدٍ منهم.

إنّ القرآن الكريم يقصّ علينا قصّه بدء نزول (الوحى) على «موسى» بشكل كاملٍ ويبيّن جميع التفاصيل فى قصته عليه السلام ولا يـذكر أىّ شـىء من الخوف، والارتعاش، والوحشه والفزع، بحيث يحـدّث نفسه بالإنتحار على أثر سـماع الوحى!! مع أنّ أرضـيه الخوف والفزع فى مجال «موسـى» كانت متوفره أكثر، لأنّه سـمع فى ليله ظلماء وهو فى صحراء خاليه نداء من الشجره يخبره بأنّه نبىٌّ مرسَلٌ.

ولكن موسـى - كما يصرّح القرآن الكريم، بهذه الحقيقه - حافظ على هدوئه، وسكونه، وعندما خاطبَهُ اللّه تعالى بقوله: «أَنْ أَلْقِ عَصاكَ» * ألقاها من فوره، وكان

۱- . السيره النبويه: ۱/۱۵۶.

خوفه من ناحيه العصى الّتى تبدّلت إلى ثعبان مخيف، لا من جهه الإيحاء إليه.

فهل يمكن، أو يجوز لنا أن نقول: كان «موسى» لحظه الوحى إليه مطمئناً هادئاً ساكناً، ولكن أفضل الأنبياء والمرسلين اضطرب عند سماع كلام المَلك، وفزع إلى درجه فكّر فى إلقاء نفسه من أعلى الجبل؟! هل هذا كلام معقول؟!

لا ريب أنّ روح محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم ما لم تكن مهيَّأه من جميع الجهات وبصوره كامله لتلقّى السرّ الإلهىّ (النبوّه) لا يمكن أن يمنَّ عليه الربُ الحكيمُ بمنصب النبوّه، ويختاره لمقام الرساله، لأنّ الهدف الجوهرىّ من ابتعاث الرُسل، وإرسال الأنبياء هو هدايه الناس وإرشادهم.

ومن كان كذلك من حيث ضعف الروح ووهن النفس بهذه المرتبه بحيث يحدّث نفسه بالإنتحار خوفاً(۱) وفزعاً كيف يمكن أن ينفذ إلى نفوس الناس ويؤثّر فيهم؟!

ثانياً: كيف يمكن أن يطمئن موسى بمجرد سماعه للنداء الإلهىّ إلى أنّه صادرٌ من جانب اللّه، فطلبَ من ربّه من فوره أن يجعل أخاه هارون وزيراً له لأنّه أفصحُ منه قولاً(۲)، بينما لا يطمئن سيد المرسلين وخاتمهم؟!

ثالثاً: لقد كان «ورقه» مسيحيّاً حتماً، ولكنّه عندما أراد أن يزيل عن «محمَّد» الشكّ والإضطراب ذكر نبوَّه «موسى» عليه السلام وقال: لقد جاءك الناموس الأكبر الّذى جاء موسى.(۳)

۱- . كما نقل هيكل فى كتابه: «حياه محمَّد».

۲- . طه: ۲۹.

۳- . السيره النبويه: ۱/۱۵۶. وقد نقل المرحوم المجلسى فى بحار الأنوار: ۱۸/۲۲۸ هذه العباره عن المنتقى ولكنّه بإضافه لفظه «عيسى» أيضاً ولكن لا وجود لذلك فى صحيح البخارى وسيره ابن هشام اللّذين هما الأساس لهذه الأُمور.

ألا يدلّ هذا على أنّ ثمه يداً اسرائيليّه وراء هذه الحبكه هى الّتى صاغت هذه القصه واختلقتها فى غفلهٍ عما كان يدين به «ورقه» بطلُ القصه؟!

كلّ هذا بغضّ النظر عن أنّ مثل هذه الأُمور تتنافى والعظمه الّتى نعهدها من النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، ولا تنسجم معها أبداً، ويبدو أنّ مؤلّف «حياه محمّد» أدرك إلى درجه ما خرافيه هذه القصّه ولذلك نجده ينقل بعض مواضيعها بعد جمله: «كما يقولون».

وقد حارب أئمهُ الشيعه هذه الأساطير بكلّ قوّه، وأبطلوها برمّتها.

فعندما يسأل زراره الإمام الصادق عليه السلام مثلاً: كيف لم يَخفْ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فيما يأتيه من قِبَل اللّه أن يكون ممّا ينزغ به الشيطان؟

قال الإمام عليه السلام: «إنّ اللّه إذا اتّخذَ عبداً ورسولاً، أنزل عليه السكينه والوقار، فكان يأتيه من قِبَل اللّه عزّوجلّ مثل الّذى يراه بعينه».(۱)

ويقول العلّامه الشيعى الكبير المرحوم الطبرسى فى تفسيره، فى هذا الصدد:

«إنّ اللّه لا يوحى إلى رسوله إلّابالبراهين النيّره والآيات البيّنه الدالّه على أنّ ما يوحى إليه إنّما هو من اللّه تعالى، فلا يحتاج إلى شىء سواها ولا يفزعُ، ولا يَفْرُق».(۲)

۱- . بحار الأنوار: ۱۸/۲۶۲، الحديث ۱۶ نقلاً عن تفسير العياشى: ۲/۲۰۱، الحديث ۱۰۶.

۲- . مجمع البيان: ۱۰/۱۷۴.

۱۳ متی نزل الوحی أوّلاً؟

اشاره

لقد تَعرّضَ یوم مبعث رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم للاختلاف من حیث التعیین والتحدید فهو مثل یوم ولادته ویوم وفاته صلی الله علیه و آله و سلم غیر مقطوع به، من وجهه نظر المؤرّخین وکُتّاب السیره النبویّه.

فلقد اتّفق علماء الشیعه علی القول بأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بُعِث بالرساله فی السابع والعشرین من شهر رجب، وأنّ نزول الوحی علیه قد بدأ من ذلک الیوم نفسِه.

بینما اشتهر عند علماء السُنّه أنّ رسول الإسلام قد أُوتی هذا المقام العظیم فی شهر رمضان المبارک.

ففی ذلک الشهر الفضیل کُلِّف «محمّد» صلی الله علیه و آله و سلم من جانب اللّه تعالی بهدایه الناس، وبُعثَ بالرساله.

ولمّا کانت الشیعه تشایع عتره النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وأهل بیته الصادقین، وتعتقد بصحّه ما یرونه ویقولون به اتّباعاً لقول رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فیهم، فی حدیث الثقلین:

«إنّهما لن یفترقا» فإنّهم اتّبعوا - فی تحدید یوم المبعث النبوی الشریف - القول المأثور - بنقل صحیح - عن عتره النبیّ المطهّرین فی هذا المجال.

فقد روی عن أبناء الرسول وعترته الطاهره أنّ عظیمَ هذا البیت و سیّده (أی النبیّ) قد بُعِثَ فی السابع والعشرین من شهر رجب، وهم فی ذلک حجّه.

ولهذا لا یمکن الشکّ والتردّد فی صحّه هذا القول وثبوته.(۱)

۱- . راجع بحار الأنوار: ۱۸/۱۸۹.

نعم غـايه مـا يمكن الاسـتدلال به على القول الآـخر هو تصـريح القرآن الكريم نفسِه بـأنّ آيـات القرآن نزلت فى شـهر رمضـان، وحيث إنّ يومَ بعثه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كانَ هو بنفسه يوم بدء نزول الوحى، والقرآن عليه، لهذا يجب القول بأنّ يوم البعثه الشريفه إنّما كان فى نفس الشهر الّذى نزل فيه القرآن الكريم: أى شهر رمضان المبارك.

وإليك فيما يأتى الآيات الّتى تدلّ على أنّ القرآن الكريم نزل فى شهر رمضان:

١. «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» .(١)

٢. «حم * وَ الْكِتـابِ الْمُبِينِ * إِنّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَهٍ مُبارَكَهٍ» (٢) وتلك الليله هى ليله القَدْر الّتى قال عنها سـبحانه: «إِنّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَهِ الْقَدْرِ * لَيْلَهُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» .(٣)

ما أجاب به علماء الشيعه

ولقد أجاب مُحدِّثو الشيعه ومفسّروهم عن هذا الاستدلال بطرق مختلفه نذكر طائفه منها هنا:

الجوابُ الأوَّل:

إنّ الآيـات المـذكوره إنّمـا تـدلّ على أنّ القرآن نزل فى شـهر رمضـان وبالـذات فى ليله مبـاركه منه هى «ليله القـدر»، ولكنّها لا تتعرّض لـذكر محلّ نزول هذه الآيات، وأنّها أين نزلت؟ وهى بالتالى لا تدلّ أبداً ومطلقاً على أنّها نزلت فى تلك الليله على قلب رسول اللّه؟

١- . البقره: ١٨٥.

٢- . الدخان: ١-٣.

٣- . القدر: ١ و ٣.

فیحتمل أن یکون للقرآن نزولات متعدّده إحداها نزول القرآن علی رسول اللّه تدریجاً.

والآخر نزوله الدفعی من اللوح المحفوظ إلی البیت المعمور.(۱)

وعلی هذا فما المانع من أن تکون بعض آیات القرآن (من سوره العلق) قد نزلت علی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی السابع والعشرین من شهر رجب. ثم نزل القرآن بصورته الجمعیه الکامله فی شهر رمضان من مکان معیّن أسماه القرآن باللوح المحفوظ، إلی موضع آخر عُبّر عنه فی بعض الروایات بالبیت المعمور.

ویؤیّد هذا الرأی قولُ اللّه تعالی فی سوره الدخان: «إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهٍ مُبارَکَهٍ» فإنَّ هذه الآیه - بحکم رجوع الضمیر فیها إلی الکتاب - تصرّح بأنّ الکتاب العزیز بأجمعه نزل فی لیلهٍ مبارکهٍ (فی شهر رمضان)، ولابدَّ أنَ یکون هذا النزول غیر ذلک النزول الّذی تحقّق فی یوم المبعث الشریف، لأنّ فی یوم المبعث لم تنزل سوی آیات معدوده لا أکثر.

وخلاصه الکلام هی أنّ الآیات الّتی تصرّح بنزول القرآن فی شهر رمضان فی لیله مبارکه (لیله القدر) لا یمکن أن تدلّ علی أنّ یوم المبعث الّذی نزلت فیه بضعُ آیات أیضاً کان فی ذلک الشهر نفسِه، لأنَّ الآیات المذکوره تدلّ علی أنّ مجموع القرآن لا بعضه قد نزل فی ذلک الشهر، فی حین لم تنزل فی یوم المبعث سوی آیات معدوده کما نعلم.

وفی هذه الصوره یحتمل أن یکون المراد من النزول الجمعیّ للقرآن هو نزول مجموع الکتاب العزیز فی ذلک الشهر من «اللوح المحفوظ» إلی «البیت المعمور».

۱- . للتعرف علی معنی اللوح المحفوظ راجع کتب التفسیر.

وقد روى علماء الشيعه والسنّه روايات وأخباراً بهذا المضمون، وبخاصّه الأستاذ الأزهرى محمّد عبدالعظيم الزرقانى الّذى أورد روايات عديده فى هذا الصدد فى كتابه.(۱)

الجواب الثانى:

وهو أمتن الأجوبه والردود على هذا القول.

فقد بذل الأُستاذُ الطباطبائى جهداً كبيراً لتوضيحه وبيانه فى تفسيره القيّم؛ وإليك خلاصته:

إنّ قول اللّه تعالى إنا أنزلناه فى شهر رمضان، المقصود منه هو نزول حقيقه القرآن على قلب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّ للقرآن مضافاً إلى وجوده التدريجى، واقعيه أطلع اللّه تعالى نبيّه العظيم عليها فى ليله معيّنهٍ من ليالى شهر رمضان المبارك.(۲)

وحيث إنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم كان قد عرف من قبل بجميع القرآن الكريم لذلك نزلت الآيه تأمره بأن لا يعجل بقراءته حتّى يصدر الأمر بنزول القرآن تدريجاً إذ يقول تعالى: «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ» .(۳)

وخلاصه هذا الجواب هى: أنَّ للقرآن الكريم وجوداً جمعياً علمياً واقعياً وهو الّذى نزل على الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم مرّه واحده فى شهر رمضان، وآخر وجوداً تدريجياً كان بدء نزوله على النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى يوم المبعث، واستمرّ تنزله إلى آخر حياته الشريفه على نحو التدريج.

الجواب الثالث: التفكيك بين نزول القرآن والبعثه

إنّ للوحى - كما أوضحنا ذلك فى مبحث أنواع الوحى إجمالاً - مراتب

۱- . لاحظ: مناهل العرفان فى علوم القرآن: ۱/۳۷.

۲- . لاحظ: الميزان فى تفسير القرآن: ۲/۱۴-۱۶.

۳- . طه: ۱۱۴.

ومراحل، تتمثّل أوّلُ مراتبه فی الرؤیا الصادقه الّتی رآها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

والمرتبه الأُخری تمثّلت فی سماعه للنداء الغیبیّ الإلهی من دون وساطه ملک.

وآخر تلک المراتب هو أن یسمع النبیُّ کلام اللّه من ملک یبصره ویراه، ویتعرّف عن طریقه علی حقائق العوالم الأُخری.

وحیث إنّ النفس الإنسانیه لا تستطیع فی الوهله الأُولی تحمُّل مراتب (الوحی) جمیعها دفعه واحده بل لابدّ أن تتحمّلها تدریجاً، لهذا یجب القول بأنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قد سمع یوم المبعث (الیوم السابع والعشرون من شهر رجب) النداء السماویّ الّذی یخبره بأنّه رسول اللّه، فقط ولم تنزل فی مثل هذا الیوم أیّه آیه قط، وقد استمر الأمر علی هذا المنوال مدّه من الزمان. ثم بعد مدّه بدأ نزول القرآن الکریم علی نحو التدریج ابتداء من شهر رمضان.

وخلاصه هذا الجواب هی أنّ ابتعاث الرسول صلی الله علیه و آله و سلم بالرساله فی شهر رجب لا یلازم نزول القرآن فی ذلک الشهر حتماً. وعلی هذا الأساس ما المانع من أن یُبعَث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی شهر رجب، وینزل القرآنُ الکریم فی شهر رمضان من نفس ذلک العام؟

إنّ هذه الإجابه وإن کانت لا توافق کثیراً من النصوص التاریخیه (لأنّ کثیراً من المؤرّخین صرّحوا بأنّ الآیات الخمس من سوره العلق نزلت فی یوم المبعث نفسه) إلّاأنّ هناک - مع ذلک - روایات ذکرت قصه البعثه بسماع النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم للنداء الغیبیّ، ولم تذکر شیئاً عن نزول قرآن أو آیات، بل هی تشرح الواقعه علی النحو التالی إذ تقول:

فی ذلک الیوم سمع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ملکاً یقول له: یا محمَّد إنّک لرسول

اللّه، وجاء فی بعض الأخبار أنّه سمع هذا النداء، فقط، ولم تذکر شیئاً عن مشاهده الملک.

وللمزید من التوضیح، والتوسّع یُراجع «بحار الأنوار» فی هذا المجال.(۱)

علی أنَ هذه الإجابه تختلف عن الإجابه الرابعه الّتی تقول بأنّ مبعثَ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم کان فی شهر رجب، وکان نزولُ القرآن الکریم بعد انقضاء الدعوه السرّیه الّتی استغرقت ثلاثه أعوام.

الأنبیاء والبشاره برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم

وینبغی - استکمالاً لهذا الفصل من التاریخ النبوی - أن نلفت نظر القارئ الکریم إلی أنّ الرساله المحمَّدیه المبارکه، ممّا بشّر به جمیع الأنبیاء المتقدّمین زمنیاً علی خاتم الأنبیاء والمرسلین محمَّد صلی الله علیه و آله و سلم.

ولقد أشار القرآن الکریم إلی ذلک إذ قال اللّه تعالی:

«وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِیثاقَ النَّبِیِّینَ لَما آتَیْتُکُمْ مِنْ کِتابٍ وَ حِکْمَهٍ ثُمَّ جاءَکُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَکُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلی ذلِکُمْ إِصْرِی قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَکُمْ مِنَ الشّاهِدِینَ» .(۲)

وهذه الآیه وإن کانت تکشف عن أصل عام وکلّی وهو: وجوب تصدیق اتّباع النبیّ السابق للنبی اللاحق، إلّاأنّ المصداق الأتمّ لها هو رسول الإسلام الکریم.

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۸/۱۸۴ و ۱۹۰ و ۱۹۳ و ۲۵۳؛ الکافی: ۲/۴۶۰؛ تفسیر العیّاشی: ۸۰/۱. وهذا الجواب لا ینسجم مع ما رواه البخاری من أنّ بعثه النبیّ رافقت نزول آیات من سوره العلق علیه.

۲- . آل عمران: ۸۱.

فيظهر من هذه الآيه أنّ اللّه تعالى أخذ الميثاق المؤكّد من جميع الأنبياء أو من أصحاب الشرائع منهم أن يؤمنوا برساله محمّد صلى الله عليه و آله و سلم، ويدعوا أتباعهم إلى تصديقه واتّباعه ونصرته.

روى الفخر الرازى عن أميرالمؤمنين علىّ عليه السلام:

«إنّ اللّه تعالى ما بَعث آدم عليه السلام ومَن بعده من الأنبياء عليهم الصلاه والسَّلام إلّا أخذ عليهم العهد لئن بُعث محمّد وهو حى ليؤمننّ به ولينصرنه».(۱)

وممّا يؤيّد هذا أنّ القرآن دعا أهل الكتاب إلى بيان ما قرأوه ووجدوه فى كتبهم حول رسول الإسلام للناس من دون كتمان، واليك فيما يأتى طائفه من الآيات المصرّحه بهذا الأمر:

۱. قال اللّه تعالى:

«وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ» .(۲)

۲. قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النّارَ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيامَهِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» .(۳)

۳. وقال تعالى:

«اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ

۱- . تفسير الرازى: ۸/۱۲۳.

۲- . آل عمران: ۱۸۷.

۳- . البقره: ۱۷۴.

لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» .(۱)

۴. وقال سبحانه:

«اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .(۲)

إنّ القرآن الكريم يصرّح بجلاء أنّ السيد المسيح عليه السلام أخبر عن رسول الإسلام ورسالته إذ يقول تعالى:

«وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ» .(۳)

كما يتحدّث القرآنُ الكريمُ عن أهل الكتاب الذين تنكّروا لرساله النبيّ محمّد صلى الله عليه و آله و سلم عندما بُعثَ وقد كانوا من قبل يخبرون عنه ويطلبون النصر به على أعدائهم إذ قال سبحانه:

«وَ لَمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكافِرِينَ» .(۴)

بل ويخبرنا القرآنُ الكريم بأَنَّ إبراهيم عليه السلام يومَ أحلّ زوجتَه وولده إسماعيل بأرض مكّه دعا قائلاً:

۱- . البقره: ۱۴۶.

۲- . الأعراف: ۱۵۷.

۳- . الصف: ۶.

۴- . البقره: ۸۹.

«رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .(۱)

وقد انطبقت هذه الأوصاف على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إذ يصفه القرآن الكريم بقوله:

«لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» .(۲)

محمَّد خاتم الأنبياء

واستكمالاً لهذا البحث ينبغى أيضاً أن نشير إلى أبرز ناحيه فى رساله النبىّ محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم ونبوته وهى مسأله الخاتميه.

فإنّ القرآن الكريم صرّح فى آيات عديده بكون رسول اللّه محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم خاتم النبيّين، وشريعته خاتمه الشرائع، فلا نبىّ بعده، ولا رساله بعد رسالته.

وها نحن ندرج أبرز الآيات الوارده فى هذا المجال:

۱. قال تعالى:

«ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كانَ اللّهُ بِكُلِّ شَىْ ءٍ عَلِيماً» .(۳)

۲. قال سبحانه:

«تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» .(۴)

۳. وقال سبحانه:

۱- . البقره: ۱۲۹.

۲- . آل عمران: ۱۶۴.

۳- . الأحزاب: ۴۰.

۴- . الفرقان: ۱.

«وَ أُوحِیَ إِلَیَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» .(۱)

۴. وقال تعالی:

«وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلاّ کَافَّةً لِلنّاسِ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النّاسِ لا یَعْلَمُونَ» .(۲)

والآیاتُ الثلاث الأخیره تفید بأنّ رساله النبیّ محمَّد صلی الله علیه و آله و سلم عامّه وعالمیه وأبدیه لأنّه فی غیر هذه الحاله وفی غیر هذه الصوره لن یکون نبیاً للناس کافّه، وللعالمین جمیعاً. ولن یکون نذیراً لقومه ولمن بلغه نداؤه.

هذا وقد صرّح النبیُّ صلی الله علیه و آله و سلم نفسه فی أحادیث کثیره بهذا الموضوع وهو الصادق المصدّق.

فعن أبی هریره قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«أُرسلتُ إلی الناس کافّه وبی خُتِم النبیّون».(۳)

۱- . الأنعام: ۱۹.

۲- . سبأ: ۲۸.

۳- . الطبقات الکبری: ۱/۱۹۲.

۱۴ ما سَبَقنی أحدٌ

أوَّلُ من آمنَ بالنبیّ منَ الرجال والنِّساء

لقد انتشرَ الإسلامُ فی العالَم بصوره تدریجیه، ویوصَف الذین بادروا إلی الإیمان بالرساله الإسلامیه والمساعده علی نشرها قبل غیرهم ب «السابقین».

وقد کان السبق إلی الإیمان برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی صدر الإسلام معیاراً للفضل ولهذا یجب أن ندرس هذا الموضوع فی ضوء المصادر الصحیحه، ونتعرّف علی مَن سَبق إلی الإیمان بالرساله الإسلامیه من الرجال، ومن النساء.

مِنَ النساء: «خدیجه»

إنّ من المسلَّم به تاریخیاً أنّ «خدیجه» کانت أوّل امرأه آمنت برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم،(۱) ولم یخالف فی هذا أحدٌ، ونحن هنا ننقل مستنداً تاریخیاً مهمّاً واحداً ذکره المؤرّخون نقلاً عن إحدی زوجات النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، مکتفین به رعایهً للاختصار. تقول عائشه: کان رَسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لا یکاد یخرج من البیت حتّی یذکر «خدیجه» فیحسن الثناء علیها، فذکرها یوماً من الأیّام فأدرکتنی الغیره، فقلت: هل کانت إلّاعجوزاً فقد أبدلک اللّه خیراً منها، فغضب حتّی اهتز مقدّم شعره من الغضب ثم قال:

۱- . لاحظ: مستدرک الحاکم: ۳/۱۸۴؛ أُسد الغابه: ۵/۴۳۷؛ البدایه والنهایه: ۳/۲۰.

«لا- واللّه ما أبدَلنی اللّه خیراً منها، آمنَت بی إذ کَفَر النـاسُ، وَ صَدَّقَتنی وکَذَّبنی النّاسُ، وواستنی فی مالها إذ حرمنی الناسُ، ورزقنی اللّه منها أولاداً إذ حرمنی أولاد الناس».(۱)

وممّا یدل أیضاً علی سبق خدیجه فی الإیمان برسول اللّه کلّ نساء العالم جمعاء ما جری فی قضیه بدء الوحی، ونزول القرآن، لأنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم عندما انحدر من غار «حراء» وأخبر زوجته «خدیجه» بما جری له واجه - رأساً - إیمان زوجته به وقبولها لکلامه، وتصدیقها برسالته، تصریحاً وتلویحاً.

هذا مضافاً إلی أنّها کانت قد سمعت من قبل أخباراً تتعلّق بنبوّته ومستقبل رسالته من کهنه العرب وأهل الکتاب، وهذه الأخبار وأمانه فتی قریش وصدقه الّذی اشتهر به هی الّتی دفعت بها إلی أن تتزوّج بالفتی الهاشمیّ (محمَّد).

أقدمُ الرجال إسلاماً: «علیّ» علیه السلام

إنّ المشهور المقارب للمتّفق علیه بین المؤرّخین، سنّه وشیعه، هو أنّ «علیّاً» کان أوّل من آمن برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من الرجال.(۲)

ونری فی مقابل هذا القول المشهور أقوالاً أُخر نادره قد نقل ناقلوها ما یخالفها أیضاً:

فمثلاً یقال: إنّ زید بن حارثه ربیب رسول اللّه وابنه بالتبنّی، أو أبوبکر کان أوّل من أسلم، ولکن دلائلَ عدیده (نذکر بعضها هنا علی سبیل الاختصار) تشهد علی خلاف هذین القولین.

وإلیک بعض هذه الدلائل:

۱- . أُسد الغابه لابن الأثیر الجزری: ۵/۴۳۸؛ الوافی بالوفیات للصفدی: ۱۳/۱۸۱.

۲- . لاحظ: بحار الأنوار: ۳۸/۲۰۱ و ۲۲۸-۲۷۷، الباب ۶۵.

۱. علیٌّ تربّی فی حجر النبیّ

لقد تلقّی علیٌ علیه السلام تربیته فی حجر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ونشأ وترعرع فی بیته منذ طفولته، وکان النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم یجتهد فی تربیته والعنایه به کالوالد الرحیم.

قال عامّه المؤرّخین وکُتّاب السیره بالاتّفاق: إنَّ قریشاً أصابتهم أزمهٌ شدیدهٌ (قبل بعثه النبیّ) وکان أبوطالب ذا عیال کثیر، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم للعباس عمّه، وکان من أیسر بنی هاشم: یا عباس إنّ أخاک أباطالب کثیر العیال، وقد أصاب الناس ماتری من هذه الأزمه فانطلق بنا إلیه فلْنخفّف عنه من عیاله، آخذ من بنیه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنکفلهما عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتّی أتیا أباطالب فقالا له: إنا نرید أن نخفّف عنک من عیالک حتّی ینکشف عن الناس ما هم فیه (إلی أن قال:) فأخذ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علیّاً فضمّه إلیه، وأخذ العباس جعفراً فضمّه إلیه، فلم یزل علیٌ مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حتّی بعثه اللّه تبارک وتعالی نبیّاً فاتّبعه علی رضی اللّه عنه وآمن به وصدّقه.(۱)

فی هذا الصوره یجب أن نقول بأنّ علیّاً علیه السلام انتقل إلی بیت النبیّ وهو دون الثامنه، لأَنَّ الغرض من أخذ النبیّ إیّاه من أبیه «أبی طالب» هو التخفیف عن کاهل زعیم مکّه (أبی طالب)، ومن الواضح أنَّ صبیّاً فی مثل هذا السنّ (دون الثامنه) مضافاً إلی أنَّ فصله عن والدَیه أمرٌ فی غایه الصعوبه، لن یکونَ لأَخذهِ وتکفّلِهِ أیُ أثر هامّ فی وضع أبیه (أبی طالب) المعیشیّ.

وعلی هذا یجب أن نفترض له علیه السلام عمراً یکون لأخذه فیه من قِبَل النبیّ تأثیراً معتداً به فی وضع أبیه الإقتصادی والمعیشی.

فکیف یمکن القول - والحال هذه - أنّ أباعد عن البیت النبویّ مثل «زید بن

۱- . السیره النبویه: ۱/۱۶۲؛ البدایه والنهایه: ۳/۳۴.

حارثه» وغیره اطّلعوا علی أسرار الوحی، بینما جهل ابن عم النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وأقرب الناس إلیه والّذی کان معه فی أکثر الأوقات بما أتی به صلی الله علیه و آله و سلم وما نزل علیه.

إنّ غرضَ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم من تربیه الإمام علیّ وتکفّله إیّاه کان إلی حدّ کبیر هو أداء ما أسدی إلیه أبوطالب من خدمات، ولم یکن ثمّه شیء أحبَّ إلی رسول اللّه من أنْ یهدیَ أحداً إلی الصراط المستقیم، فکیف یمکن أن یقال - والحال هذه - أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حرم ابن عمّه الّذی کان یتمتّع بذکاء باهر وضمیر یقظ، من هذه النعمه الکبری؟!

إنَ من الأفضل أن نسمَعَ هذا الأمر من لسان «علی» نفسه، فقد بیّن علیه السلام فی الخطبه القاصعه منزلَته من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقربه إلیه هکذا:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِی مِنْ رَسُولِ اللّهِ صلی الله علیه و آله و سلم بِالْقَرَابَهِ الْقَرِیبَهِ، وَالْمَنْزِلَهِ الْخَصِیصَهِ. وَضَعَنِی فِی حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ (ولیدٌ) یَضُمُّنِی إِلَی صَدْرِهِ، وَیَکْنُفُنِی فِی فِرَاشِهِ، وَیُمِسُّنِی جَسَدَهُ، وَیُشِمُّنِی عَرْفَهُ... وَلَقَدْ کُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِیلِ أَثَرَ أُمِّهِ، یَرْفَعُ لِی فِی کُلِّ یَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، وَیَأْمُرُنِی بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ کَانَ یُجَاوِرُ فِی کُلِّ سَنَهٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ، وَلَا یَرَاهُ غَیْرِی، وَلَمْ یَجْمَعْ بَیْتٌ وَاحِدٌ یَوْمَئِذٍ فِی الْإِسْلَامِ غَیْرَ رَسُولِ اللّهِ صلی الله علیه و آله و سلم وَخَدِیجَهَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَی نُورَ الْوَحْیِ وَالرِّسَالَهِ، وَأَشُمُّ رِیحَ النُّبُوَّهِ».(۱)

وجاء فی تاریخ الطبری عن ابن إسحاق قال: کان أوّل ذکر آمن برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وصلّی معه وصدّقه بما جاءه من عنداللّه «علی بن أبی طالب» علیه السلام وهو یومئذ ابن عشر سنین، وکان ممّا أنعم اللّه به علی علیّ بن أبی طالب علیه السلام أنّه کان فی

۱- . نهج البلاغه: الخطبه ۱۹۲، وفی الخطبه ۱۳۱ یقول: «اللَّهُمَّ إِنِّی أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ یَسْبِقْنِی إِلَّا رَسُولُ اللّهِ صلی الله علیه و آله و سلم بِالصَّلَاهِ».

حجر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قبل الإسلام.(۱)

۲. علیٌّ وخديجه يقيمان الصلاه مع النبیّ صلى الله عليه و آله و سلم

ينقل ابن كثير والطبرسى وكثير من علماء التاريخ والرجال القصه التاليه عن عفيف الكندى، بأنّه قال:

كنت امرأً تاجراً فقدمتُ «منى» أيام الحج، وكان العباس بن عبدالمطلب امرأً تاجراً، فأتيته أبتاع منه وأبيعه، قال: فبينا نحن عنده إذ خرج رجلٌ من خباء فقام يصلّى تجاه الكعبه، ثم خرجت امرأه فقامت تصلّى، وخرج غلام يصلّى معه، فقلت: ياعباس ما هذا الدين، إنّ هذا الدين ما ندرى ما هو؟ فقال: هذا محمَّد بن عبداللّه يزعم أنّ اللّه أرسله به، وأنّ كنوز كسرى وقيصر ستُفتَح عليه، وهذه امرأته «خديجه بنت خويلد» آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه «على بن أبى طالب» آمن به قال عفيف: فليتنى كنت آمنت يومئذٍ فكنت أكون (رابعاً).(۲)

وهذه الواقعه ينقلها ويرويها حتّى الذين يقصرون فى روايه فضائل الإمام علىّ وكتابتها، وفى إمكان القارئ الكريم أن يقف على هذه القصه فى المصادر المذكوره على وجه التفصيل.

۳. أنا الصِدّيق الأكبر

تلاحَظ هذه العباره ونظائرُها كثيراً، فى خطب الإمام علىّ عليه السلام وكلماته فهو يكرّر العبارات التاليه بكثره:

«أنا عَبْدُاللّه، وأخو رسوله صلى الله عليه و آله و سلم، وأنا الصِدّيقُ الأكبر، لا يقولُها بعدى إلّا

۱- . تاريخ الطبرى: ۲/۵۷.

۲- . البدايه والنهايه: ۳/۳۵؛ إعلام الورى: ۱/۱۰۵. ولاحظ: تاريخ الطبرى: ۲/۵۶-۵۷؛ الكامل فى التاريخ: ۲/۵۷؛ أُسد الغابه: ۳/۴۱۴.

كاذب مفتر، صَلّيتُ مَعَ رسُول اللّه قبل الناسِ بسَبْع سِنين».(۱).

۴. أوَّلكم إسلاماً: عليٌّ

ولقد وردت أحاديث متواتره عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وبتعابير متنوّعه قال فيها:

«أوَّلُكُمْ وارداً عَلَيَّ الحوضَ، أوَّلُكُمْ إسْلاماً عليُّ بنُ أبى طالب».(۲)

وعند ما يدرس المنصف المحايد هذه الأحاديث، يقطع بأسبقيه الإمام علىّ عليه السلام إلى الإسلام، وتقدّمه على غيره فى الإيمان بالدعوه المحمَّديه، ولا يختار القولين الآخرين اللَّذين لا يذهبُ إليهما إلّاالأقليّه.

فإنَّ ما يناهز الستين شخصاً من الصحابه والتابعين يؤيّدون القولَ الأوّلَ (أى أنّ عليّاً أوّلُ القوم إسلاماً وأقدمهم أيماناً) وحتّى الطبرىّ نفسه الّذى شكَّكَ فى هذا القول، واكتفى بنقله دون اختياره وتأكيده، روى بأنّ «ابن سعد» سأل أباه قائلاً: أكان أبوبكر أوّلكم إسلاماً، فقال: لا ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين.(۳)

ومن غريب الأمر أنّ مؤرّخاً كبيراً كابن كثير يتنكّر لهذه الحقيقه الساطعه فقد ذكر فى كتابه «البدايه والنهايه» حديثاً صحيحاً بإسناد الإمام أحمد والترمذى فى إسلام أميرالمؤمنين وأنَّه أوَّل من أسلم وصلّى ثمَّ أردفه بقوله: وهذا لا يصحّ من أىّ وجه كان روى عنه، وقد ورد فى أنَّه أوَّل من أسلم من هذه الأُمَّه أحاديثٌ كثيرهٌ لا يصحّ منها شىء... إلخ.(۴)

وقد تصدّى العلّامه المحقّق الأمينى رحمه الله للردّ على هذا المقال بالتفصيل

۱- . تاريخ الطبرى: ۲/۵۶؛ سنن ابن ماجه: ۱/۴۴ برقم ۱۲۰؛ سنن النسائى: ۵/۱۰۷؛ مستدرك الحاكم: ۳/۱۱۲ وغيرها.

۲- . يراجع مصادر هذا الحديث فى الغدير: ۳/۲۱.

۳- . تاريخ الطبرى: ۲/۶۰.

۴- . البدايه والنهايه: ۷/۳۷۰.

ونظراً لأهميّه ما كتبه العلّامه الأمينى وما احتوى عليه من نصوص تاريخيه نسرده هنا بكامله مع ما فيه من تكرار بسيط لبعض ما ذكرناه.(۱)

يقول العلّامه الأمينى:

ألا مسائل هذا الرَّجل لِمَ لا يصحّ شىء منها من أىّ وجه كان؟! والطرق صحيحهٌ، والرِّجال ثقات، والحفّاظ حكموا بصحَّته، وأرباب السير أطبقوا عليه، وكان من المتسالم عليه بين الصَّحابه الأَوَّلين والتابعين لهم بإحسان.

ونحن لو نقتصر على كلمتنا هذه يحسبها القارئ دعوى مجرّده لده دعوى ابن كثير (أعاذنا اللّه عن مثلها) وتخفى عليه جليَّه الحال فيهمنا ذكرُ نزر ممّا يدلُّ على المدَّعى وإن لم يسعنا إيراد كثير منه روماً للاختصار.

النصوص النبويه:

۱. قال صلى الله عليه و آله و سلم: «أوَّلكم وارداً - ورودا - على الحوض أوَّلكم إسلاماً علىُّ بن أبى طالب».

أخرجه الحاكم فى المستدرك ۳ ص ۱۳۶ وصحَّحه م - والخطيب البغدادى فى تاريخه ج ۲ ص ۸۱ و يوجد فى الاستيعاب ۲ ص ۴۵۷. شرح ابن أبى الحديد ۳، ص ۲۵۸.

وفى لفظ: «أوَّل هذه الأُمّه وروداً على الحوض أوَّلها إسلاماً علىُّ بن أبى طالب، رضى اللّه عنه». السيره الحلبيَّه ۱ ص ۲۸۵. سيره زينى دحلان ۱ ص ۱۸۸ هامش الحلبيَّه.

وفى لفظٍ: «أوَّل الناس وروداً على الحوض أوّلهم إسلاماً علىُّ بن أبى

۱- . الغدير: ۳/۲۱۹-۲۳۶.

طالب». مناقب الفقيه ابن المغازلى [: ص ۳۴ ح ۲۲]. مناقب الخوارزمى [: ص ۵۲ ح ۱۵].

۲. قال صلى الله عليه و آله و سلم لفاطمه: «زوّجتك خير أُمَّتى، أعلمهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأوَّلهم سلماً». راجع ما مرَّ ص ۹۵.

۳. قال صلى الله عليه و آله و سلم لفاطمه: «إنَّه لأوَّل أصحابى: إسلاماً. أو: أقدم أُمَّتى سلماً.

حديث صحيحٌ، راجع ص ۹۵.

۴. أخذ صلى الله عليه و آله و سلم بيد علىّ، فقال: «إنَّ هذا أوَّل من آمن بى، وهذا أوَّل من يُصافحنى يوم القيامه، وهذا الصدِّيق الأكبر». راجع الجزء الثانى ص ۳۱۳، ۳۱۴.

۵. عن أبى أيوب قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «لقد صلّت الملائكه علىّ وعلى علىّ سبع سنين لأنّا كنّا نصلّى وليس معنا أحدٌ يُصلّى غيرنا».

مناقب الفقيه ابن المغازلى [: ص ۳۲ ح ۱۷] باسنادين م - أُسد الغابه ۴:۱۸؛ ومناقب الخوارزمى [: ۵۳ ح ۱۷] وفيه: ولِمَ ذلك يا رسول اللّه؟ قال: لم يكن معى من الرجال غيره.

كتاب الفردوس للديلمى. شرح ابن أبى الحديد عن رساله الاسكافى ۳ ص ۲۵۸. فرائد السمطين الباب ۴۷.

۶. ابن عبّاس قال: قال النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم: «إنَّ أوَّل من صلّى معى علىّ». فرائد السمطين الباب ۴۷ بأربع طرق.

۷. معاذ بن جبل قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «يا علىُّ! أخصمك بالنبوَّه ولا نبوَّه بعدى، وتخصم الناس بسبع ولا يُجاحدك فيه أحدٌ من قريش، أنت أوَّلهم إيماناً باللّه، وأوفاهم بعهد اللّه، وأقومهم بأمراللّه». الحديث. (حليه الأولياء: ۱ / ۶۶).

۸. أبوسعید الخدری قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لعلّی - وضرب بین کتفیه -:

«یا علیُّ لک سبع خصال لا یُحاجّک فیهنَّ أحدٌ یوم القیامه؛ أنت أوَّل المؤمنین باللّه إیماناً، وأوفاهم بعهداللّه، وأقومهم بأمر اللّه». الحدیث. (حلیه الأولیاء ۱ ص ۶۶).

۹. من حدیث أبی بکر الهذلی وداود بن أبی هند الشعبی عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أنَّه قال لعلیّ علیه السلام: «هذا أوّل مَن آمن بی وصدَّقنی وصلّی معی». شرح ابن أبی الحدید ۳ ص ۲۵۶.

۱۰. إنَّ أبابکر وعمر خطبا فاطمه فردَّهما رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقال: «لم أُؤمر بذلک». فخطبها علیٌّ فزوَّجه إیّاها وقال لها: «زوَّجتکِ أقدم الأُمَّه إسلاماً». روی هذا الحدیث جماعهٌ من الصحابه منهم: أسماء بنت عمیس، وأُمّ أیمن، وابن عبّاس، وجابر بن عبداللّه. شرح ابن أبی الحدید ۳ ص ۲۵۷.(۱)

کلمات أمیر المؤمنین علیه السلام

۱. قال علیه السلام: «أنا عبداللّه، وأخو رسول اللّه، وأنا الصِّدیق الأکبر، لا یقولها بعدی إلّاکاذبٌ مفتری، ولقد صلّیت مع رسول اللّه قبل الناس بسبع سنین، وأنا أوَّل مَن صلّی معه».

إسناده من طریق ابن أبی شیبه والنسائی وإبن ماجه والحاکم والطبری صحیحٌ رجاله ثقات، راجع الجزء الثانی من کتابنا ۳۱۴.

۲. قال علیه السلام: «أنا أوَّل رجل أسلم مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم».

أخرجه أبو داود بإسناده الصحیح کما فی شرح ابن أبی الحدید ۳، ص ۲۵۸.

۳. قال علیه السلام: «أنا أوّل من أسلم مع النبیَّ صلی الله علیه و آله و سلم».

أخرجه الخطیب البغدادی فی تاریخه ۴، ص ۲۳۳.

۱- . الغدیر: ۳/۲۱۹-۲۲۱.

۴. قال علیه السلام: «أنا أوَّل من صلّی مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم».

أخرجه أحمد، والحافظ الهیثمی فی «مجمع الزوائد» وقال: رجاله رجال الصحیح غیر حبَّه العرنی وقد وثق. وأخرجه أبوعمرو فی الإستیعاب ۲، ص ۴۵۸.

وابن قتیبه فی «المعارف» ص ۷۴ من طریق أبی داود عن شعبه عن سلمه بن کهیل عن حبّه عنه علیه السلام. والإسناد صحیحٌ رجاله ثقاتٌ.

۵. قال علیه السلام: «أسلمت قبل أن یسلم النّاس بسبع سنین». الرِّیاض النضره: ۲ / ۱۵۸.

۶. قال علیه السلام: «عبدت اللّه مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم سَبع سنین قبل أن یعبده أحدٌ من هذه الأُمَّه». مستدرک الحاکم: ۳/۱۱۲.

۷. قال علیه السلام: عن حکیم مولی زاذان قال: سمعت علیّاً یقول: «صلّیت قبل النّاس سبع سنین، وکنّا نسجد ولا نرکع، وأوَّل صلاه رکعنا فیها صلاه العصر» شرح ابن أبی الحدید: ۳/۲۵۸.

۸. قال علیه السلام: «عبدت اللّه قبل أن یعبده أحدٌ من هذه الأُمَّه خمس سنین».

الإستیعاب: ۲/۴۴۸؛ الرِّیاض النضره: ۲/۱۵۸؛ السیره الحلبیَّه: ۱/۲۸۸.

۹. قال علیه السلام: «آمنت قبل الناس سبع سنین». خصائص النسائی: ۳.

۱۰. قال علیه السلام: «ما أعرف أحداً من هذه الأُمَّه عَبَدَ اللّه بعد نبینا غیری، عبدتُ اللّه قبل أن یعبده أحدٌ من هذه الأُمَّه تسع سنین». خصائص النسائی: ۳.

۱۱. من خطبه له علیه السلام یوم صفِّین: «وابن عمِّ نبیِّکم معکم بین أظهرکم یدعوکم إلی طاعه ربِّکم، ویعمل بسنَّه نبیِّکم صلی الله علیه و آله و سلم فلا سواء من صلّی قبل کلِّ ذکَر لم یسبقنی بصلاتی مع رسول اللّه». کتاب نصر (صفین): ۳۵۵؛ شرح ابن أبی الحدید:

۱/۵۰۳.

۱۲. قال علیه السلام: «اللهمَّ لا أعرف عبداً من هذه الأمَّه عبدَک قبلی غیر نبیّک».

[قاله ثلاث مرّات] ثمَّ قال: لقد صلّیت قبل أن یُصلّی الناس. وفی لفظ: قبل أن یُصلّی أحدٌ. أخرجه أحمد، أبویعلی، البزّار، الطبرانی، الهیثمی فی المجمع ۹، ص ۱۰۲. وقال: إسناده حسنٌ. شیخ الإسلام الحموئی فی الفرائد الباب ۴۸.

۱۳. من کتاب له علیه السلام کتبه إلی معاویه: «إنَّ أولی النّاس بأمر هذه الأُمَّه قدیماً وحدیثاً أقربها من رسول اللّه، وأعلمها بالکتاب، وأفقهها فی الدین، وأوَّلها إسلاماً، وأفضلها جهاداً». کتاب صفِّین لابن مزاحم: ۱۶۸، ط. مصر.

۱۴. فی حدیث عنه علیه السلام: «لا واللّه إن کنت أوَّل من صدَّق به فلا أکون أوَّل من کذّب علیه». المحاسن والمساوئ ۱، ص ۳۶. تاریخ القرمانی هامش الکامل لابن الأثیر ۱، ص ۲۱۸.

۱۵. قال علیه السلام: «بُعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یوم الإثنین وأسلمت یوم الثلاثاء».

مجمع الزوائد: ۹/۱۰۲. تاریخ القرمانی: ۱/۲۱۵. الصواعق: ۷۲. تاریخ الخلفاء للسیوطی ۱۱۲. إسعاف الراغبین ۱۴۸.

۱۶. من کتاب کتبه علیه السلام إلی معاویه: «إنَّ محمَّداً صلی الله علیه و آله و سلم لمّا دعا إلی الإیمان باللّه والتوحید کنّا أهل البیت أوَّل من آمن به؟ وصدَّق بما جاء به، فلبثنا أحوالاً مجرَّمه (أی کامله) وما یعبد اللّه فی ربع ساکن من العرب غیرنا». کتاب صفِّین لابن مزاحم:

۱۰۰.

۱۷. قال علیه السلام یوم صفِّین مخاطباً أصحاب معاویه: «ویحکم أنا أوَّل مَن دعا إلی کتاب اللّه، وأوَّل مَن أجاب إلیه». کتاب نصر (صفیّن): ۵۶۱.

۱۸. قالت معاذه بنت عبداللّه العدویَّه: سمعت علیَّ بن أبی طالب علی منبر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یقول: «أنا الصدّیق الأکبر، آمنت قبل أن یُؤمن أبوبکر، وأسلمت

قبل أن يسلم أبوبكر». راجع الجزء الثانى ص ۳۱۴.

۱۹. قال عليه السلام فى خطبه خطبها فى معسكر صفّين: «أتعلمون أنّ اللّه فضّل فى كتابه السابق على المسبوق، وأنّه لم يسبقنى اللّه ورسوله أحدٌ من الأُمَّه؟!» قالوا:

نعم. راجع الجزء الأوّل (الغدير) ص ۱۹۵.

۲۰. قال عليه السلام: «صلّيت مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ثلاث سنين قبل أن يُصلّى معه أحدٌ من النّاس». أخرجه أحمد باسنادين.

۲۱. قال عليه السلام: يوم الشورى فى حديث أسلفناه: «أمنكم أحدٌ وحَّد اللّه قبلى؟» قالوا: لا. «أمنكم أحدٌ صلّى القبلتين غيرى؟» قالوا: لا. راجع ج ۱ ص ۱۵۹-۱۶۳، وهذه الفقره من الحديث عدَّها ابن أبى الحديد ممّا استفاضت به الرِّوايات.

۲۲. مرَّ فى الجزء الثانى ص ۲۵ فى أبيات له عليه السلام كتبها إلى معاويه:

سبقتكمُ إلى الإسلام طرّا غلاماً ما بلغت أوان حلمى

۲۳. ذكر ابن طلحه الشافعى فى مطالب السؤول: ۱۱ له عليه السلام:

أنا أخو المصطفى لا شكَّ فى نسبى به رُبيت وسبطاه هما ولدى

صدَّقته وجميع النّاس فى بُهم من الضَّلاله والإشراك والنكد

قال: قال جابر: سمعت عليّاً يُنشد بهذا ورسول اللّه يسمع: فتبسَّم رسول اللّه وقال: صدقت يا على؟(۱)

۱- . الغدير: ۳/۲۲۱-۲۲۴.

كلمه الإمام السبط الحسن عليه السلام:

۲۴. من خطبه للإمام الحسن عليه السلام فى مجلس معاويه قوله: «أُنشدكم اللّه أيّها الرَّهط؟ أتعلمون أنَّ الّذى شتمتموه منذ اليوم صلّى القبلتين كلتيهما؟ وأنت يا معاويه بهما كافرٌ، تراها ضلاله، وتعبد اللات والعزّى غوايه؛ وأنشدكم اللّه هل تعلمون أنَّه بايع البيعتين كلتيهما: بيعه الفتح وبيعه الرضوان؟ وأنت يا معاويه بإحداهما كافرٌ، وبأُخرى ناكثٌ. وأنشدكم اللّه هل تعلمون أنَّه أوَّل الناس ايماناً؟! وإنَّك يا معاويه وأباك من المؤلَّفه قلوبهم». شرح ابن أبى الحديد: ۲/۱۰۱.

۲۵. وفى خطبه له عليه السلام مرَّت فى ج ۱، ص ۱۹۸: «فلمّا بعث اللّه محمَّداً للنبوَّه، واختاره للرِّساله، وأنزل عليه كتابه ثمَّ أمره بالدعاء إلى اللّه، فكان أبى أوَّل من استجاب للّه ولرسوله، وأوَّل من آمن وصدَّق اللّه ورسوله صلى الله عليه و آله و سلم وقد قال اللّه فى كتابه المنزل على نبيِّه المرسل: «أفمن كان على بيِّنهٍ من ربِّه ويتلوه شاهدٌ منه» فجدّى الَّذى على بيِّنهٍ من ربِّه، وأبى الّذى يتلوه وهو شاهدٌ منه».(۱)

رأى الصحابه والتابعين فى أوّل مَن أسلم

۱. أنس بن مالك قال: نُبِّئ (بُعث) النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم يوم الإثنين وأسلم علىّ يوم الثَّلاثاء. وفى لفظ له: بُعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يوم الإثنين وصلّى علىّ يوم الثَّلاثاء.

أخرجه الترمذى فى جامعه ۲، ص ۲۱۴. الطبرانى. الحاكم فى المستدرك ۳ ص ۱۱۲. ابن عبدالبرّ فى الإستيعاب ۳ ص ۳۲. ابن الأثير فى جامع الأُصول كما فى تلخيصه تيسير الوصول ۳ ص ۲۷۱. الحموئى فى فرائد السمطين الباب ۴۷. وأوعز إليه العراقى فى التقريب ۱، ص ۸۵. ويوجد فى شرح ابن أبى الحديد ۳ ص ۲۵۸.

۱- . الغدير: ۳/۲۲۴.

تذکره السبط ۶۳. السراج المنیر شرح الجامع الصغیر ۲ ص ۴۲۴. شرح المواهب ۱ ص ۲۴۱.

۲. بُریده الأسلمی قال: أُوحی إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یوم الإثنین وصلّی علیّ یوم الثَّلاثاء. أخرجه الحاکم فی المستدرک ۳ ص ۱۱۲ وصحَّحه هو وأقرَّه الذهبی.

۳. زید بن أرقم قال: أوَّل من أسلم مع رسول اللّه علیّ بن أبی طالب.

تاریخ الطبری بإسنادین صحیحین رجالهما ثقات. مسند أحمد ۴، ص ۳۶۸.

مستدرک الحاکم ۴، ص ۳۳۶ وصحَّحه هو وأقرَّه الذهبی. الکامل لابن الأثیر ۲، ص ۲۲.

۴. زید بن أرقم قال: أوَّل مَن صلّی مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علیٌّ.

أخرجه أحمد والطبرانی کما فی مجمع الهیثمی ۹ ص ۱۰۳ وقال: رجال أحمد رجال الصحیحین. أبوعمرو فی الإستیعاب ۲، ص ۴۵۹.

۵. زید بن أرقم قال: أوَّل مَن آمن باللّه بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علیٌّ بن أبی طالب. الإستیعاب ۲، ص ۴۵۹.

۶. عبداللّه بن عبّاس قال: أوَّل مَن صلّی علیّ.

جامع الترمذی ۲، ص ۲۱۵. تاریخ الطبری ۲، ص ۲۴۱ بإسناد صحیح.

الکامل لابن الأثیر ۲ ص ۲۲. شرح ابن أبی الحدید ۳ ص ۲۵۶.

۷. عبداللّه بن عبّاس قال: لعلیٍّ أربع خصال لیست لأحد: هو أوَّل عربیّ وأعجمیٍّ صلّی مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم. مستدرک الحاکم ۳، ص ۱۱۱، الإستیعاب ۲ ص ۴۵۷.

۸. عبداللّه بن عبّاس قال مجاهد: إنَّه قال: أوَّل مَن رکع مع النبیِّ صلی الله علیه و آله و سلم علیٌّ بن أبی طالب فنزلت فیه هذه الآیه: «وَ أَقِیمُوا الصَّلاهَ وَ آتُوا الزَّکاهَ وَ ارْکَعُوا مَعَ الرّاکِعِینَ» .(۱) تذکره السبط ۸.

۱- . البقره: ۴۳.

۹. عبداللّه بن عبّاس قال فی خطبه له: إنَّ ابن آکله الأکباد قد وجد من طغام أهل الشام أعواناً علی علیٍّ بن أبی طالب ابن عمّ رسول اللّه وصهره وأوَّل ذکر صلّی معه.

کتاب صفّین لابن مزاحم ۳۶۰. شرح ابن أبی الحدید ۱ ص ۵۰۴. جمهره الخطب ۱ ص ۱۷۵.

۱۰. عبداللّه بن عبّاس قال: فرض اللّه تعالی الإستغفار لعلی فی القرآن علی کلّ مسلم بقوله تعالی: «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِینَ سَبَقُونا بِالْإِیمانِ» (۱) فکلُّ مَن أسلم بعد علیٍّ فهو یستغفر لعلیٍّ. شرح ابن أبی الحدید: ۳/۲۵۶.(۲)

۱۱. عبداللّه بن عبّاس قال: أوّل مَن أسلم علیٌّ بن أبی طالب.

الإستیعاب ۲ ص ۴۵۸. مجمع الزوائد ۹ ص ۱۰۲.

۱۲. عبداللّه بن عبّاس قال: کان علیّ أوَّل مَن آمن من الناس بعد خدیجه رضی اللّه عنهما.

الإستیعاب ۲ ص ۴۵۷ وقال: قال أبوعمرو رضی اللّه عنه: هذا إسنادٌ لامطعن فیه لأحد لصحَّته وثقه نقلته. وصحَّحه الزرقانی فی شرح المواهب ۱ ص ۲۴۲.

۱۳. کان ابن عبّاس بمکَّه یُحدِّث علی شفیر زمزم ونحن عنده فلمّا قضی حدیثه قام إلیه رجلٌ فقال: یابن عبّاس؟ إنّی امرؤ من أهل الشام من أهل حمص إنَّهم یتبرَّأون من علیّ بن أبی طالب رضوان اللّه علیه ویلعنونه. فقال: بل لعنهم اللّه فی الدنیا والآخره وأعدَّلهم عذاباً مهیناً. أیُبعد قرابته من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم؟ وإنّه لم یکن أوّل ذکران العالمین إیماناً باللّه ورسوله؟ وأوَّل مَن صلّی ورکع وعمل بأعمال البرّ؟ قال الشامی: إنَّهم واللّه ما یُنکرون قرابته وسابقته غیر أنَّهم یزعمون أنّه قتل

۱- . الحشر: ۱۰.

۲- . الغدیر: ۳/۲۲۴-۲۲۶.

الناس. الحديث. المحاسن والمساوئ للبيهقى ۱، ص ۳۰.

۱۴. عفيف قال: جئت فى الجاهليّه إلى مكّه وأنا أُريد أن ابتاع لأهلى من ثيابها وعطرها فأتيت العبّاس بن عبدالمطلب وكان رجلاً تاجراً فأنا عنده جالسٌ حيث أنظر إلى الكعبه وقد حلقت الشمس فى السَّماء فارتفعت وذهبت إذ جاء شابّ فرمى ببصره إلى السَّماء ثمَّ قام مستقبل الكعبه، ثمَّ لم ألبث إلّايسيراً حتّى جاء غلامٌ فقام على يمينه، ثمَّ لم يلبث إلّايسيراً حتّى جاءت امرأهٌ فقامت خلفهما، فركع الشابُّ فركع الغلام والمرأه، فرفع الشابُّ فرفع الغلام والمرأه، فسجد الشابُّ فسجد الغلام والمرأه فقلت: يا عبّاس؟ أمرٌ عظيمٌ. قال العبّاس: أمرٌ عظيمٌ، أتدرى مَن هذا الشابُّ؟ قلت: لا. قال: هذا محمَّد بن عبداللّه ابن أخى. أتدرى مَن هذا الغلام؟ هذا علىّ ابن أخى. أتدرى مَن هذه المرأه؟ هذه خديجه بنت خويلد زوجته، انَّ ابن أخى هذا أخبرنى أنَّ ربَّه ربّ السماء والأرض أمره بهذا الدين الّذى هو عليه، ولا واللّه ما على الأَرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثه.

خصائص النسائى ۳. تاريخ الطبرى ۲ ص ۲۱. الرِّياض النضره ۲ ص ۱۵۸.

الإستيعاب ۲ ص ۴۵۹. عيون الأثر ۱ ص ۹۳. الكامل لابن الأثير ۲ ص ۲۲. السيره الحلبيَّه ۱ ص ۲۸۸.

۱۵. سلمان الفارسى قال: أوَّل هذه الأُمَّه وروداً على نبيِّها الحوض أوَّلها إسلاماً علىُّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه.

الإستيعاب ۲ ص ۴۵۷. مجمع الزوائد ۹ ص ۱۰۲ وقال: رجاله ثقاتٌ. وعدَّه الإسكافى فى رسالته على العثمانيَّه. وأبو عمرو فى الإستيعاب. والعراقىُّ فى شرح التقريب ۱ ص ۸۵. والقسطلانى فى المواهب ۱ ص ۴۵ ممَّن روى أنَّ عليّاً أوَّل مَن أسلم.

۱۶. أبو رافع قال: صلّى النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم أوَّل يوم الاثنين وصلّت خديجه آخره

وصلّى عليّ يوم الثَّلاثاء من الغد.

أخرجه الطبرانى كما فى شرح المواهب ١ ص ٢۴٠. عيون الأثر ١ ص ٩٢.

وتجده وسابقه فى الرِّياض النضره ٢ ص ١۵٨. شرح ابن أبى الحديد ٣ ص ٢۵٨.

١٧. أبو رافع قال: مكث عليّ يصلّى مستخفياً سبع سنين وأشهراً قبل أن يصلّى أحدٌ. أخرجه الطبرانى. والهيثمى فى المجمع ٩ ص ١٠٣. والحموئى فى الفرائد ب ۴٧.

١٨. أبوذر الغفارى، عدَّ ممَّن روى أنَّ عليَّ بن أبى طالب أوَّل من أسلم.

الإستيعاب ٢ ص ۴۵۶. التقريب وشرحه ١ ص ٨۵. المواهب اللدنيَّه ١ ص ۴۵.

١٩. خباب بن الأرت قال: رأيت عليّاً يُصلّى قبل الناس مع النبيّ وهو يومئذ بالغٌ مستحكم البلوغ. رساله الإسكافى. وعُدَّ ممَّن روى أنَّ عليّاً أوَّل مَن أسلم فى الاستيعاب ٢ ص ۴۵۶. والمواهب اللدنيَّه ١ ص ۴۵.

٢٠. المقداد بن عمرو الكندى، ممَّن روى أنَّ عليّاً أوّل مَن أسلم كما فى الإستيعاب ٢ ص ۴۵۶. والتقريب وشرحه ١ ص ٨۵. والمواهب اللدنيَّه ١ ص ۴۵.(١)

٢١. جابر بن عبداللّه الأنصارى، قال: بُعث النبيُّ صلى الله عليه و آله و سلم يوم الإثنين وصلّى عليّ يوم الثَّلاثاء. الطبرى ٢ ص ٢١١. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح ابن أبى الحديد ٣ ص ٢۵٨، وعدّه أبوعمرو والعراقيُّ والقسطلانى ممَّن روى أنَّ عليّاً أوَّل من أسلم.

٢٢. أبو سعيدالخدرى روى أنَّ عليَّ بن أبى طالب أوَّل من أسلم.

١- . الغدير: ٣/٢٢۶-٢٢٧.

الإستيعاب ۲ ص ۴۵۶. شرح التقريب ۱ ص ۸۵. المواهب اللدنيّه ۱ ص ۴۵.

۲۳. حذيفه بن اليمان قال: كنّا نعبد الحجاره ونشرب الخمر وعليٌّ من أبناء أربع عشره سنه قائمٌ يصلّى مع النبيِّ ليلاً ونهاراً، وقريش يومئذ تسافه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ما يذبُّ عنه إلّاعليّ. شرح ابن أبى الحديد ۳ ص ۲۶۰.

۲۴. عمر بن الخطاب، قال عبداللّه بن عبّاس: سمعت عمر وعنده جماعهٌ فتذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر: أمّا عليّ فسمعت رسول اللّه: يقول فيه ثلاث خصال، لوددت أن تكون لى واحده منهنَّ، وكانت أحبّ إلىَّ ممّا طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو عبيده وأبوبكر وجماعه من أصحابه إذ ضرب النبيُّ صلى الله عليه و آله و سلم على منكب عليٍّ رضى اللّه عنه فقال له: يا عليُّ؟ أنت أوَّل المؤمنين إيماناً، وأوَّل المسلمين إسلاماً، وأنت منّى بمنزله هارون من موسى.

رساله الإسكافى. مناقب الخوارزمى [: ۵۵ ح ۱۹]. شرح ابن أبى الحديد ۳ ص ۲۵۸.

۲۵. عبداللّه بن مسعود قال: أوَّل حديث علمته من أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّى قدمت مكّه مع عمومه لى (وذكر مثل حديث عفيف المذكور ص ۲۲۶) رساله الإسكافى.

۲۶. أبو أيّوب الأنصارى، أخرج الطبرانى عنه أنَّه قال: أوَّل الناس إسلاماً عليُّ بن أبى طالب. شرح التقريب ۱ ص ۸۵. شرح الزرقانى ۱ ص ۲۴۲.

۲۷. أبومرازم يعلى بن مرَّه، عدَّه الزرقانى فى شرح المواهب ۱ ص ۲۴۲ ممَّن قال: إنَّ عليّاً أوَّل الناس إسلاماً.

۲۸. هاشم بن عُتبه المرقال قال: أنت يا أميرالمؤمنين! أقرب الناس من

رسول اللّه رحماً، وأفضل الناس سابقه وقدماً. کتاب نصر (صفین): ۱۲۵. جمهره الخطب ۱ ص ۱۵۱.

۲۹. فی کلام لهاشم بن عُتبه یوم صفِّین: إنَّ صاحبنا هو أوَّل من صلّی مع رسول اللّه، وأفقهه فی دین اللّه، وأولاه برسول اللّه.

کتاب نصر (صفین) ۴۰۳. تاریخ الطبری ۶ ص ۲۴. الکامل لابن الأثیر ۳ ص ۱۳۵. وقال هاشم یوم صفِّین:

مع ابن عمّ أحمد المعلّی فیه الرَّسول بالهدی استهلا

أوّل من صدَّقه وصلّی فجاهد الکفّار حتّی أبلی(۱)

۳۰. مالک بن الحارث الأشتر قال فی خطبه له: معنا ابن عم نبیِّنا وسیفٌ من سیوف اللّه علیُّ بن أبی طالب، صلّی مع رسول اللّه لم یسبقه إلی الصلاه ذکَر، حتّی کان شیخاً لم یکن له صبوهٌ ولا نبوهٌ ولا هفوهٌ، فقیهٌ فی دین اللّه، عالمٌ بحدود اللّه.

کتاب نصر ۲۶۸. شرح ابن أبی الحدید ۱ ص ۴۸۴. جمهره الخطب ۱ ص ۱۸۳.(۲)

۳۱. عدّی بن حاتم قال فی خطبه له مخاطباً معاویه: ندعوک إلی أفضل الأُمَّه سابقه، وأحسنها فی الإسلام آثاراً.

کتاب نصر ۲۲۱. تاریخ الطبری ۶ ص ۲. شرح ابن أبی الحدید ۱ ص ۳۴۴.

وفی لفظ ابن الأثیر فی الکامل ۳ ص ۱۲۴: إنَّ ابن عمّک سید المسلمین أفضلها سابقهً.

۱- . کتاب صفین لابن مزاحم: ۳۷۱، طبعه مصر.

۲- . الغدیر: ۳/۲۲۷-۲۲۹.

۳۲. عـدیّ بن حاتم قال فی خطبه أخری له: إن کان له - لعلیٍّ - علیکم فضلٌ فلیس لکم مثله فسلّموا وإلّا فنازعوا علیه، واللّه لئن کان إلی العلم بالکتاب والسنَّه؟ إنّه لأعلم الناس بهما. ولئن کان إلی الإسلام؟ إنَّه لأخو نبی اللّه والرأس فی الإسلام.

الإمامه والسیاسه ۱ ص ۱۰۳.

۳۳. محمَّد بن الحنفیَّه قـال سالم بن أبی الجعـد قلت له: أبوبکر کان أوَّلهم إسـلاماً؟! قال: لا. الاستیعاب ۲ ص ۴۵۸. إذا ثبت أنَّ أبابکر لم یکن أوَّل الناس إسلاماً فعلیّ علیه السلام هو المتعیَّن سبق إسلامه.

۳۴. طارق بن شـهاب الأحمسـی فی کلام له: ثمَّ قلت: ادع علیّاً وهو أوَّل المؤمنین إیماناً باللّه وابن عمّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ووصیّه، هذا أعظم، الحدیث. شرح ابن أبی الحدید ۱ ص ۷۶.

۳۵. عبـداللّه بن هـاشم المرقـال قـال فی خطبه له: یا أیّها الناس! إنَّ هاشـماً جاهـد فی طاعه ابن عمّ رسول اللّه، وأوَّل من آمن به؛ وأفقههم فی دین اللّه. کتاب نصر ۴۰۵.

۳۶. عبداللّه بن حجل قال: یا أمیرالمؤمنین! أنت أوَّلنا إیماناً، وآخرنا بنبیِّ اللّه عهداً. الإمامه والسیاسه ۱ ص ۱۰۳، کتاب نصر.

۳۷. أبو عمره بشیر بن محصن قال فی جمع من أصحاب علی ومعاویه: إنَّ صاحبی أحق البریّه کلّها بهذا الأمر فی الفضل والدین والسابقه فی الإسلام والقرابه من رسول اللّه. کتاب نصر ۲۱۰.

۳۸. عبـداللّه بن خبـاب بن الأرت قال ابن قتیبه: إنّ الخارجه الّتی خرجت علی علیٍّ بینما هم یسـیرون فإذا هم برجل یسوق امرأته علی حمار له فعبروا إلیه الفرات فقالوا له: مَن أنت؟ قال: أنا رجلٌ مؤمنٌ، قالوا: فما تقول فی علیِّ بن أبی

طالب؟ قال: أقول: إنَّه أميرالمؤمنين وأوَّل المسلمين إيماناً باللّه ورسوله. قالوا: فما اسمك؟ قال: وأنا عبداللّه بن خباب بن الأرت صاحب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم. الإمامه والسياسه ۱ ص ۱۲۲.

۳۹. عبداللّه بن بُريده قال: أوَّل الرجال إسلاماً عليٌّ بن أبى طالب ثمّ الرهط الثلاث: أبوذر وبُريده وابن عمّ لأبى ذرّ. أخرجه محمَّد بن إسحاق المدنى فى الجزء الأَوَّل من المغازى.

۴۰. محمَّد بن أبى بكر كتب إلى معاويه كتاباً منه: فكان أوّل من أجاب وأناب، وصدّق ووافق، وأسلم وسلم أخوه وابن عمِّه عليٌّ بن أبى طالب - إلى أن قال -: أوَّل الناس إسلاماً، وأصدق الناس نيَّه - إلى قوله - يالك الويل! تعدل نفسك بعليٍّ وهو وارث رسول اللّه ووصيّه وأبو ولده، وأوّل الناس له اتِّباعاً، وآخرهم به عهداً، يُخبره بسرِّه، ويشركه فى أمره. نصر فى كتاب صفِّين ۱۳۳.(۱)

۴۱. عمرو بن الحمق قال لعلى: أحببتك لخصال خمس: إنَّك ابن عمِّ رسول اللّه، وأوَّل من آمن به. وفى لفظ: وأسبق النّاس إلى الإسلام، أبوالذريَّه الّتى بقيت فينا من رسول اللّه، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً فى الجهاد. كتاب صفِّين ۱۱۵. جمهره الخطب ۱ ص ۱۴۹.

۴۲. سعيد بن قيس الهمدانى يرتجز فى صفِّين بقوله:

هذا عليٌّ وابن عمِّ المصطفى أوَّل من أجابه ممّن دعا(۲)

هذا الإمام لا يُبالى من غوى

۴۳. عبداللّه بن أبى سفيان قال مجيباً الوليد:

۱- . الغدير: ۳/۲۲۹-۲۳۰.

۲- . شرح النهج لابن أبى الحديد: ۱۳/۲۳۲ وفيه «أوّل من أجابه فيما روى».

وإنَّ وليّ الأمر بعد محمَّدٍ عليّ و فی كلِّ المواطن صاحبه

وصيُّ رسول اللّه حقّاً وصنوه وأوَّل مَن صلّی ومَن لان جانبه

رساله الإسكافی، وذكرهما الحافظ الكنجی فی الكفايه: ۴۸ للفضل بن العبّاس.

۴۴. خزيمه بن ثابت الأنصاری عدَّه العراقی فی شرح التقريب ۱ ص ۸۵، والزرقانی فی شرح المواهب ۱ ص ۲۴۲ ممّن قال بأنَّ عليّاً أوَّل الناس إسلاماً.

وقالا: أنشد المرزبان له فی عليٍّ:

أليس أوَّل من صلّی لقبلتكم وأعلم النّاس بالقرآن والسنن؟؟

وذكر له الإسكافی فی رسالته كما فی شرح ابن أبی الحديد ۳ ص ۲۵۹:

وصيُّ رسول اللّه من دون أهله وفارسه مذ كان فی سالف الزمنْ

وأوَّل من صلّی من الناس كلّهم سوی خيره النسوان واللّه ذو المننْ

وذكرهما له الحاكم فی المستدرك ۳ ص ۱۱۴، وذكر قبلهما:

إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا أبو حسن ممّا نخاف من الفتنْ

وجدناه أولی النّاس بالنّاس أنَّه أطبّ قريش بالكتاب وبالسننْ (۱)

۴۵. كعب بن زهير، ذكر الزرقانی فی شرح المواهب ۱ ص ۲۴۲ له. من قصيده يمدح بها أميرالمؤمنين عليه السلام:

إنَّ عليّاً لميمون نقيبته بالصّالحات من الأفعال مشهورُ

صهر النبیِّ وخير النّاس كلّهُم فكلّ من رامه بالفخر مفخورُ

صلّی الصلاه مع الأُمِّی أوَّلهم قبل العباد وربُّ الناس مكفورُ

۱- . ولهذه الأبيات بقيه توجد فی الفصول المختاره: ۲۶۷.

۴۶. ربیعه بن الحارث بن عبدالمطلب، ذکر جمعٌ من الأعلام له أبیات وذکرها آخرون لغیره وهی:

ما کنت أحسب أنّ الأمر منصرفٌ عن هاشم ثمَّ منها عن أبی حسن

ألیس أوَّل مَن صلّی لقبلتهم؟! وأعلم النّاس بالآیات والسنن؟!

وآخر النّاس عهداً بالنبیِّ؟ ومَن جبریل عون له فی الغسل والکفن؟

مَن فیه ما فِیهمُ ما تمترون به؟! ولیس فی القوم ما فیه من الحسنِ

ماذا الّذی ردَّ کم عنه؟! فنعلمه ها إنَّ بیعتکم من أوَّل الفتنِ

وذکر الإسکافی فی رسالته البیتین الأوَّلین منها ونسبهما إلی أبی سفیان بن حرب بن أُمیَّه بن عبد شمس حین بویع أبوبکر. شرح ابن أبی الحدید ۳ ص ۲۵۹.

۴۷. الفضل بن أبی لهب قال ردّاً علی قصیده الولید بن عقبه:

ألا إنَّ خیر النّاس بعد محمَّدٍ مهیمنه التالیه فی العرف والنکرِ

وخیرته فی خیبر ورسوله بنبذ عهود الشرک فوق أبی بکر

وأوَّل مَن صلّی صنو نبیِّه وأوَّل من أردی الغواه لدی بدر

فذاک علیُّ الخیر من ذا یفوقه؟! أبو حسن حلف القرابه والصهر

۴۸. مالک بن عباده الغافقی حلیف حمزه بن عبدالمطلب قال:

رأیت علیّاً لا یلبّث قرنه إذا ما دعاه حاسراً أو مسربلا

فهذا وفی الإسلام أوَّل مسلم وأوَّل من صلّی وصام وهلّلا

۴۹. أبو الأسود الدؤلی یهدِّد طلحه والزبیر بقوله:

وإنَّ علیّاً لکم مصحرُ یماثله الأسد الأسودُ

أما إنَّه أوَّل العابدين بمكّه واللّه لا يُعبدُ(۱)

۵۰. جندب بن زهير كان يرتجز يوم صفين بقوله:

هذا عليٌّ والهدى حقّاً معه يا ربّ فاحفظه ولا تضيِّعه

فإنَّه يخشاك ربّى فارفعه نحن نصرناه على مَن نازعه

صهر النبيِّ المصطفى قد طاوعه أوَّل مَن بايعه وتابعه(۲)

۵۱. زفر بن يزيد(۳) بن حُذيفه الأسدى قال:

فحوطوا عليّاً فانصروه فإنَّه وصيُّ وفى الإسلام أوَّل أوَّل

وإن تخذلوه والحوادث جمَّه فليس لكم عن أرضكم متحوّل(۴)

۵۲. النجاشى بن الحارث بن كعب قال:

فقل للمضلّل من وائل ومن جعل الغثَّ يوماً سمينا

جعلت ابن هند وأشياعه نظير عليٍّ أما تستحونا؟!

إلى أوَّل النّاس بعد الرسول أجاب النبيَّ من العالمينا

وصهر الرَّسول ومن مثله إذا كان يوم يشيب القرونا؟!(۵)

۵۳. جرير بن عبداللّه البجلى قال:

فصلّى الإله على أحمد رسول المليك تمام النعمْ

وصلّى على الطهر من بعده خليفتنا القائم المدَّعمْ

عليّاً عنيت وصيَّ النبيَّ يجالد عنه غواه الأُممْ

۱- . رساله الإسكافى كما شرح ابن أبى الحديد: ۱۳/۲۳۲.

۲- . الغدير: ۳/۲۳۰-۲۳۲.

۳- . فی بعض المصادر: زفیر بن زید.

۴- . رساله الإسکافی کما فی شرح ابن أبی الحدید: ۱۳/۲۳۲.

۵- . کتاب صفین لنصر بن مزاحم: ۶۶.

له الفضل والسبق والمكرما ت وبيت النبوَّه لا المهتضمْ

۵۴. عبداللّه بن حكيم التميمى قال:

دعانا الزبير إلى بيعه وطلحه من بعد أن أثقلا

فقلنا: صفقنا بأيماننا فإن شئتما فخذا الأشملا

نكثتم عليّاً على بيعه وإسلامه فيكمُ أوَّلا

۵۵. عبدالرحمن بن حنبل [جعل] الجمحى حليف بنى الجمح قال:

لعمرى لئن بايعتم ذا حفيظه على الدين معروف العفاف موفَّقا

عفيفاً عن الفحشاء أبيض ماجداً صدوقاً وللجبّار قدماً مصدِّقا

أبا حسن فارضوا به وتبايعوا فليس كمن فيه يرى العيب منطقا

علىٌّ وصىُّ المصطفى ووزيره وأوَّل مَن صلّى لذى العرش واتَّقى(۱)

۵۶. أبو عمرو عامر الشعبى الكوفى قال: أوَّل مَن أسلم من الرِّجال علىُّ بن أبى طالب وهو ابن تسع سنين. رساله الإسكافى كما فى شرح ابن أبى الحديد: ۳ / ۲۶۰.

۵۷. أبو سعيد الحسن البصرى قال: علىٌّ أوَّل مَن أسلم بعد خديجه. أخرجه أحمد عن عبدالرَّزاق عن معمر عن قتاده عنه. ورواه الإسكافى فى رسالته عن عبدالرَّزاق كما فى شرح ابن أبى الحديد ۳ ص ۲۶۰.

وقال الحجّاج للحسن وعنده جماعهٌ من التابعين وذكر علىّ بن أبى طالب:

۱- . كفايه الطالب للحافظ الكنجى: ۴۸.

ما تقول أنت يا حسن؟ فقال: ما أقول؟ هو: أوَّل مَن صلّى إلى القبله، وأجاب دعوه رسول اللّه. وإنَّ لعلیٍّ منزله من ربِّه وقرابه من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردَّها أحد. فغضب الحجّاج غضباً شديداً وقام عن سريره فدخل بعض البيوت.

وقال رجل للحسن: مالنا لا نراك تثنى على علیٍّ وتقرّظه؟ قال: كيف؟! وسيف الحجّاج يقطر دماً، إنَّه أوَّل من أسلم، وحسبكم بذلك. رساله الإسكافى كما فى شرح ابن أبى الحديد ۳ ص ۲۵۸.

۵۸. الإمام محمَّد بن علىّ الباقر عليه السلام قال: أوَّل مَن آمن باللّه علىٌّ بن أبى طالب وهو ابن إحدى عشره سنه. شرح ابن أبى الحديد ۳ ص ۲۶۰.

۵۹. قتاده بن دعامه الأكمه البصرى قال: علىٌّ أوَّل مَن أسلم بعد خديجه.

أخرجه أحمد كما سمعت، والقسطلانى عدّه ممّن قال به فى المواهب ۱ ص ۴۵، وأقرّه الزرقانى فى شرحه ۱ ص ۲۴۲.

۶۰. محمَّد بن مسلم المعروف بابن شهاب(۱) عدَّه القسطلانى فى المواهب ۱ ص ۴۵، وأقرّه الزرقانى فى شرحه ۱ ص ۲۴۲ من القائلين بأنَّ علیّاً أوَّل مَن أسلم.

۶۱. أبوعبداللّه محمَّد بن المكندر المدنى قال: علىّ أوَّل مَن أسلم. تاريخ الطبرى ۲ ص ۲۱۳. الكامل لابن الأثير ۲ ص ۲۲.

۶۲. أبو حازم سلمه بن دينار المدنى قال: علىّ أوّل من أسلم. تاريخ الطبرى ۱ ص ۲۱۳. الكامل لابن الأثير ۲ ص ۲۲.

۶۳. أبو عثمان ربيعه بن أبى عبدالرَّحمن المدنى قال: علىّ أوَّل مَن أسلم.

۱- . نسبه إلى جد جده.

تاریخ الطبری ۲ ص ۲۱۳. الکامل لابن الأثیر ۲ ص ۲۲.

۶۴. أبو النضر محمَّد بن السائب الکلبی قال: علیّ أوَّل من أسلم، أسلم وهو ابن تسع سنین. تاریخ الطبری ۲ ص ۲۱۳. الکامل لابن الأثیر ۲ ص ۲۲.

۶۵. محمَّد بن إسحاق قال: کان أوّل ذکر آمن برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وصلّی معه وصدّقه بما جاءه من عنداللّه علیُّ بن أبی طالب وهو یومئذ ابن عشر سنین(۱)وکان ممّا أنعم اللّه به علی علیِّ بن أبی طالب أنَّه کان فی حجر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قبل الإسلام.

وقال: وذکر بعض أهل العلم أنَّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کان إذا حضرت الصَّلاه خرج إلی شعاب مکَّه وخرج معه علیُّ بن أبی طالب، مستخفیاً من عمِّه أبی طالب وجمیع أعمامه وسائر قومه فیصلّیان الصَّلوات فیها، فإذا أمسیا رجعا فمکثا کذلک ماشاء اللّه أن یمکثا، ثمَّ إنَّ أبا طالب عثر علیهما یوماً وهما یصلِّیان فقال لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: یابن أخی ما هذا الدین؟ الحدیث.

تاریخ الطبری ۲ ص ۲۱۳. سیره ابن هشام ۱ ص ۲۶۴، ۲۶۵. سیره ابن سیِّد الناس ۱ ص ۹۳. الکامل لابن الأثیر ۴ ص ۲۲. شرح ابن أبی الحدید ۳ ص ۲۶۰.

السیره الحلبیَّه ۱ ص ۲۸۷.

۶۶. جُنید بن عبدالرَّحمن قال: أتیت من حوران إلی دمشق لآخذ عطائی فصلَّیت الجمعه ثمَّ خرجت من باب الدرج فإذا علیه شیخٌ یقال له: أبو شیبه القاصّ یقصُّ علی الناس، فرغَّب فرغبنا، وخوَّف فبکینا، فلمّا انقضی حدیثه قال: اختموا مجلسنا بلعن أبی تراب. فلعنوا أبا تراب علیه السلام، فالتفت إلیَّ من علی یمینی فقلت له:

فمّن أبو تراب؟ فقال: علیُّ بن أبی طالب ابن عمَّ رسول اللّه، وزوج ابنته، وأوَّل النّاس إسلاماً، وأبوالحسن والحسین. فقلت: ما أصاب هذا القاص؟! فقمت إلیه

۱- . فی الکامل لابن الأثیر: ۲/۳۲: احدی عشره سنه. نقلاً عن ابن اسحاق.

وكان ذا وفره فأخذت وفرته بيدى وجعلت ألطم وجهه وأبطح برأسه الحائط، فصاح فاجتمع أعوان المسجد فوضعوا ردائى فى رقبتى وساقونى حتّى دخلونى على هشام بن عبدالملك وأبو شيبه يقدمنى فصاح: يا أميرالمؤمنين؟ قاصّك وقاصّ آبائك وأجدادك أتى إليه اليوم أمرٌ عظيمٌ. قال: مَن فعل لك؟ فقال: هذا. فالتفت إلىَّ هشام وعنده أشراف النّاس فقال: يا أبا يحيى؟ متى قدمت؟ فقلت: أمس وأنا على المصير إلى أميرالمؤمنين فأدركتنى صلاه الجمعه فصلّيت وخرجت إلى باب الدرج فإذا هذا الشيخ قائمٌ يقصُّ فجلست إليه فقرأ فسمعنا، فرغّب مَن رغّب، وخوّف مَن خوّف؛ ودعا فأمّنا، وقال فى آخر كلامه: اختموا مجلسنا بلعن أبى تراب، فسألت مَن أبو تراب؟

فقيل: علىُّ بن أبى طالب، أوَّل الناس إسلاماً، وابن عم رسول اللّه، وأبوالحسن والحسين، وزوج بنت رسول اللّه. فواللّه يا أميرالمؤمنين؟ لوذكر هذا قرابه لك بمثل هذا الذكر ولعنه بمثل هذا اللعن لأحللت به الّذى أحللت، فكيف لا أغضب لصهر رسول اللّه وزوج إبنته؟! فقال هشام: بئس ما صنع. تاريخ ابن عساكر ۳ ص ۴۰۷.(۱)

هذه جملهٌ من النصوص النبويَّه، والكلم المأثوره عن أميرالمؤمنين والصحابه والتابعين فى أنَّ علياً أوَّل مَن أسلم: وهى تربو على مائه كلمه، أضف إليها ما مرَّ (ج ۲ ص ۲۷۶) من أنَّ أميرالمؤمنين سبّاق هذه الأُمَّه. وأشفع الجميع بما أسلفناه (ج ۲ ص ۳۰۶) من أنَّه صلوات اللّه عليه صدِّيق هذه الاُمه، وهو الصِّديق الأكبر.

فهل تجد عندئذ مساغاً لمكابره ابن كثير تجاه هذه الحقيقه الراهنه وقوله:

وقد ورد فى أنَّه أوَّل من أسلم. إلخ؟! فإذا لا يصحُّ مثل هذه فما الَّذى يصحّ؟ وإن كان

۱- . الغدير: ۳/۲۳۲-۲۳۶.

لا يصحّ شيء منها فما قيمه تلك الكتب المشحونه بها؟! كلّا، إنَّها كلمه هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون.

وأنت ترى الرجل يزيّف هذه الكلم والنصوص الكثيره الصحيحه بحكم الحفّاظ الأثبات بكلمه واحده قارصه، ويعتمد فى إثبات أىِّ أمر يروقه فى تاريخه على المراسيل والمقاطيع والآحاد، ونقل المجاهيل وأفناء الناس. انتهى كلام العلّامه الأمينى قدس سره.(۱)

مناظره بين المأمون وإسحاق:

ولقد دار بين المأمون العباسى وإسحاق وهو من العلماء المشهورين حوار طريف فى هذا المجال ينقله ابن عبد ربّه فى كتابه «العقد الفريد» نذكر هنا خلاصته:

قال المأمون: يا إسحاق أى الأعمال كان أفضل يوم بَعث اللّه رسوله؟

إسحاق: الإخلاص بالشهاده.

المأمون: أليس السبق إلى الإسلام؟

إسحاق: نعم.

المأمون: إقرأ ذلك فى كتاب اللّه يقول: «وَ السّابِقُونَ السّابِقُونَ * أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» (۲) إنَّما عُنى من سبق إلى الإسلام، فهل علمت أحداً سبق عليّاً إلى الإسلام؟

إسحاق: إنَ عليّاً أسلَم وهو حديث السنّ لا يجوز عليه الحكمُ، وأبوبكر أسلمَ وهو مستكمل يجوز عليه الحكم.

وهنا أمسك المأمونُ بزمام الكلام وقال:

۱- . الغدير: ۳/۲۱۹-۲۳۶.

۲- . الواقعه: ۱۰-۱۱.

أخبرنی عن إسلام علیّ حین أسلم لا یخلو من أن یکون رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم دعاه إلی الإسلام، أو یکون إلهاماً من اللّه؟

قال إسحاق: بل دعاه رسول اللّه إلی الإسلام.

قال المأمون: یا إسحاق هل یخلو رسول اللّه حین دعاه إلی الإسلام من أن یکون دعاه بأمر من اللّه أو تکلّف ذلک من نفسه؟

ثمّ قال: یا إسحاق لا تنسب رسولَ اللّه إلی تکلّف فإنّ اللّه یقول: «وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَکَلِّفِینَ» .(۱)

فإذا دعاه بأمر اللّه ولیس من صفه الجبّار - جلَّ ذکرُه - أن یُکلِّفَ رسلَه دعاء مَنْ لا یجوز علیه حکم، أفتراه فی قیاس قولک یا إسحاق؟ أن علیّاً أسلم صبیّاً لا یجوز علیه الحکمُ قد تکلّف رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من دعاء الصبیان ما لا یطیقون.(۲)

وعلی هذا الأساس یجب اعتبار إیمان علیّ علیه السلام إیماناً صحیحاً ثابتاً لم یقلّ عن إیمان الآخرین أهمیهً وقیمه بل هو أفضل مصداق لقوله تعالی:

«وَ السّابِقُونَ السّابِقُونَ * أُولئِکَ الْمُقَرَّبُونَ» ، هو الإمام علی بن أبی طالب.

قضیّهُ «انقطاع الوَحْی»

لقد أضاءت روحُ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ونفسُه الشریفه واستنارت بنور الوحی، ودفَعَه ذلک إلی التأمّل والتفکیر فی الوظیفه الکبری والثقیله الّتی جعلها اللّه علی کاهله، وخاصّه عندما خاطبه الله تعالی بقوله: «یا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ» .(۳)

۱- . ص: ۸۶.

۲- . العقد الفرید: ۵/۳۵۲، طبعه بیروت، دار الکتب العلمیه، و ج ۵/۹۴، طبعه لجنه التألیف، القاهره.

۳- . المدثر ۱-۳.

وهنا طرح المؤرّخون و بخاصّه الطبرىّ الّذى لا يخلو تاريخه من الأساطير الإسرائيليّه قضيّه باسم «انقطاع الوحى» فقالوا: إنّ رسول اللّه بعد أن رأى ذلك الملَك وسمع منه الآيات الأُولى من القرآن الكريم بقى ينتظر نزولَ خطاب آخر من جانب اللّه تعالى، ولكن دون جدوى، فهو لم يرَ ذلك المَلك الجميل بعد ذلك، ولا أنّه سمع النداء الغيبىّ مرّه أُخرى على غرار ما رأى وسمع فى بدء نزول الوحى. ولو كان لانقطاع الوحى فى بدايه عهد الرساله (الّذى ادّعاه هؤلاء) حقيقه فما هو سوى النزول التدريجى للقرآن ليس إلّا.

وقد تعلَّقت المشيئه الإلهيه أساساً بأن ينزلَ الوحىُ على رسول اللّه تدريجاً، لا دفعةً واحدةً وذلك لمصالح معيّنه، وحيث إنّ الأَمر فى بدء الوحى كان على أوّله وفى بدايته، لذلك لم ينزل الوحى الإلهى بعد المرّه الأُولى فوراً، ولكن حُمِلَ هذا على «انقطاع الوحى» ولم يكن لا انقطاع الوحى ولا أيّه مسأله أُخرى من هذا القبيل.

وحيث إنّ هذه المسأله قد تذرَّع بها الكُتّابُ المغرضون لذلك ينبغى أن نعطيها بعض الاهتمام ليتّضح أنّ ما أُدّعى من انقطاع الوحى، قضيهٌ فارغهٌ عن الحقيقه ولذلك لا صحّه لتطبيقِ الآيات القرآنيه عليها.

ولتوضيح هذا الأمر ننقل هنا نصّ ما كتبه الطبرىّ ونقله فى تاريخه، ثم نعمد بعد ذلك إلى نقده.

يكتب الطبرى حول بدايه نزول الوحى على النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وما تبعه من أحداث قائلاً:... ثم أبطأ عليه (على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وجزع جزعاً شديداً) جبريل فقالت له خديجه: ما أرى ربَك إلّاقد قلاك، قال: فأنزل اللّه عزّوجلّ قوله: «وَ الضُّحى * وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى * وَ لَلْآخِرَهُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى * وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى * أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى * وَ وَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدى

وَ وَجَدَکَ عائِلًا فَأَغْنی * فَأَمَّا الْیَتیمَ فَلا تَقْهَرْ * وَ أَمَّا السّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَ أَمّا بِنِعْمَهِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ» (۱).(۲)

ولقد أوجدَ نزولُ هذه الآیات سروراً عظیماً لدی خدیجه علیها السلام، وعلمت بأنّ ما قالته حول رسول اللّه لا أساس له من الصحّه.

أُسطوره ولیس تاریخاً!

إنَّ ذاکرهَ التاریخ تحفظ وتتذکّر جیّداً تاریخ حیاه السیده خدیجه.

إنَّ خدیجه الّتی کانت أخلاق محمَّد الفاضله وخصاله المجیده، وأفعاله الحمیده ماثله أمام عینیها والّتی کانت تؤمن بعدل ربّها، کیف یجوز أن تسیء الظن باللّه تعالی وبنبیّه الکریم، العظیم الشأن؟!

إنَّ مقامَ النبوَّه ومنصبَ الرساله، والسفاره الإلهیه لا یُعطی إلّالمن یملک طائفهً من الصفات النبیله والخصال الرفیعه، وما لم یتّصف شخصُ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بهذه الصفات العلیا، وما لم تتوفّر فیه مثل هذه الشرائط الخاصّه والمواصفات المعیّنه لم یُمنح له ذلک المنصب قط. وتقع العصمه والسکینه القلبیه، والاعتماد والتوکل فی طلیعه هذه الخصال والمواصفات، ومع هذه الأوصاف والخصال یستحیل أن یدور فی خلده مثل تلک التصوّرات الخاطئه.

ولقد قال العلماء: إنّ المسیره التکامالیه عند الأنبیاء تبدأ من فتره الطفوله والصبا، فإنّ الغشاوات والحجب تبدأ تتساقط وتنقشع الواحده تلو الأُخری منذ ذلک الوقت، ویستمر ذلک حتّی تصل الإحاطه العلمیه لدیهم حدَّ الکمال فلا یشکّون فی شیء یرونه أو یسمعونه أبداً، ومَن حاز هذه المراتب لا یمکن أن یتطرّق الشکّ والحیره والتردّد إلی قلبه وعقله مطلقاً.

۱- . الضحی: ۱-۱۱.

۲- . تاریخ الطبری: ۲/۴۸.

إنَّ آیات سوره «الضحی» وخاصّه عباره «ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی» (۱) تفید فقط بأنّ هناک من قال مثل هذه العباره للنبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم وأمّا مَن هو قائلها؟ وکم ترکت هذه العباره مِن تأثیر فی نفسیه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وروحیته فهی ساکته عن کلّ ذلک؟ وذهب بعضُ المفسّرین إلی أنّ قائلها هم بعضُ المشرکین، ولهذا الاحتمال لا تکون جمیع الآیات مرتبطه ببدء الوحی، لأنّه لا أحد غیر «علیّ» و «خدیجه» کان یعرف فی بدء البعثه بنزول الوحی، لیتسنّی له أن یعترض علی رسول اللّه، ویعیّره بانقطاعه عنه بعد ذلک، فإنّ أمر المبعث والرساله - کما سنقول ذلک فیما بعد - بقیَ خافیاً علی أکثر المشرکین لمدّه ثلاثه أعوام تماماً، فهو لم یکن مکلَّفاً بإبلاغ رسالته إلی عامّه الناس، إلی أن نزَل قولُه تعالی: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ» (۲) الّذی أمره اللّه فیه بالجهر بأمر رسالته لعامّه الناس بلا استثناء.

اختلافُ المؤرّخین فی مسأله «انقطاع الوحی»

لم یرد فی القرآن الکریم أیُّ ذکر مطلقاً لمسأله (انقطاع الوحی) بل لم ترد به إشاره أیضاً، إنّما نلاحظها فی کتب السیره والتفسیر فقط، ویختلف کُتّاب السیره والمؤرّخون فی علّه (انقطاع الوحی) هذا، ومدّته اختلافاً کبیراً یجعلنا لا نعتمد علی أیّ واحد منها، وها نحن نشیر إلیها بشکل مّا:

۱. أنّ الیهود سألوا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عن أصحاب الکهف، وعن الروح، وعن قصه ذی القرنین فقال علیه الصلاه والسّلام: سأُخبرکم غداً، ولم یستثن، فاحتبس عنه الوحی.(۳)

۱- . الضحی: ۳.

۲- . الحجر: ۹۴.

۳- . روح المعانی: ۳۰/۱۵۷. ولاحظ: السیره الحلبیه: ۱/۴۹۹.

بناء على هـذا لا يمكن أن نربط هـذه المسأله ببـدء الوحى ومطلع عهد الرساله لأنّ اتّصال علماء اليهود وأحبارهم مع النبيّ صـلى الله عليه و آله و سـلم عن طريق قريش وسؤالهم إيّـاه حول هـذه الأُمور الثلاثه، وقع فى حـدود السـنه السابعه من البعثه يوم توجّه وفد من قريش إلى المدينه ليسألوا علماء اليهود عن صـحّه ما جاء به رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم، فاقترح اليهود عليهم أن يسألوا النبيَّ عن تلك الأُمور الثلاثه.(۱)

۲. قالت خوله - كانت تخـدم النبيّ صـلى الله عليه و آله و سـلم -: إنّ جرواً دخل البيت، فدخل تحت السـرير فمات، فمكث نبى اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم أياماً لا ينزلُ عليه الوحىُ، فقـال: يـا خوله ما حـدث فى بيتى، ما بجبرئيل لا يأتينى؟ قالت خوله: فقلت لو هيّأت البيت وكنسـته، فأهويت بالمكنسه تحت السـرير فإذا جروٌ ميّت فألقيته خلفَ الجدار... فأنزلَ اللّهُ هذه السوره، ولمّا نزل جبرئيل سأله النبيَّ صلى الله عليه و آله و سلم عن التأخّر؟ فقال: أما علمت أنّا لا ندخلُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ.(۲)

۳. إنّ المسلمين قالوا: يا رسول اللّه، مالكَ لا ينزلُ عليكَ الوحىُ؟ فقال:

«وكيف ينزِلُ علىّ وأنتمْ لا تنقون رواجبكم، ولا تقصُّون أظفاركُمْ، ولا تأخذونَ من شواربكم»؟ فنزلَ جبرئيلُ بهذه السوره.(۳)

۴. أهـدىَ عثمـان إلى النبيّ صـلى الله عليه و آله و سـلم عنقود عنب وقيل عِـذق تمر، فجاء سائلٌ فأعطاه ثم اشتراه عثمان بـدرهم فقدّمه إليه صلى الله عليه و آله و سلم ثانياً ثم عاد السائل فأعطاه، وهكذا ثلاث مرّات، فقال صلى الله عليه و آله و سلم: ملاطفاً لا غضبان: أسائلٌ أنت يا فلان أم تاجر؟ فتأخّر الوحىُ أيّاماً فاستوحش، فنزلت السوره.(۴)

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۹۶.

۲- . تفسير القرطبى: ۹۳/۲۰.

۳- . تفسير القرطبى: ۹۳/۲۰.

۴- . روح المعانى: ۱۵۷/۳۰.

۵. إن جرواً لأحد نساء النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أو أحد أقربائه حال دون نزول الوحی علیه.(۱)

۶. إنَ رسولَ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لمّا سأل جبرئیلَ عن تأخّر الوحی؟ قال جبرئیل: لا أملِکُ من نفسی شیئاً إنّما أنا عبدٌ مأمورٌ.(۲)

ثم إنّ هناک أقوالاً أُخری یمکنُ الحصول علیها من مراجعه التفاسیر.(۳)

ولکنَ الطبریّ نقَلَ وجهاً آخر تمسَّکَ به المغرضون والمرضی من الکُتّاب واعتبروه دلیلاً علی طروء الشکّ علی قلب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهو أنّ الوحی انقطع عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بعد حادثه (حراء) فقالت خدیجه للنبی صلی الله علیه و آله و سلم: ما أری ربَّک إلّا قد قلاک!!

فأنزل اللّه:

«وَ الضُّحی * وَ اللَّیْلِ إِذا سَجی * ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی» .(۴)

وممّا یدلُّ علی أَهداف هذا النوع من الکُتّاب، المریضه، أو عدم تتبعهم واستقصائهم، أنّهم تمسّکوا من بین جمیع الأقوال بهذا الاحتمال، واستندوا إلیه للحکم علی شخصیه کرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الّذی لم یرَ فی حیاته أی أثر للشکّ والحیره مطلقاً.

وإنّنا مع ملاحظه النقاط التالیه یمکننا أن نقف علی بطلان هذا الاحتمال وتفاهته:

۱. لقد کانت السیده خدیجه من النساء اللواتی أحببن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حبّاً

۱- . غرائب القرآن فی هامش تفسیر الطبری: ۳۰/۱۰۸.

۲- . تفسیر أبوالفتوح الرازی: ۱۲/۱۰۸.

۳- . مجمع البیان: ۱۰ / تفسیر سوره الضحی.

۴- . تفسیر الطبری: ۳۰/۲۹۱.

صادقاً وعميقاً، فهی الّتی وفت لزوجها حتّی النفس الأخیر، ووقفت ثروتها الطائله لتحقیق أهدافه، وکانت فی عام البعثه قد قضیت خمسه عشر عاماً من حیاتها الزوجیه، ولم تر خدیجه طوال هذه الفتره من زوجها إلّاالتقوی والطهر ولم تلمس منه إلّاکَرَم الصفات و نبل الأخلاق، فقد کانت من المصدّقین له صلی الله علیه و آله و سلم من أوّل یوم وکانت تراعی نهایه الأدب فی تکلّمها معه وعشرتها إیّاه صلی الله علیه و آله و سلم فکیف تتکلّم مثل هذه المرأه المؤمنه الوفیّه، مع زوجها بغلیظ القول، وتوجّه له مثل هذه الکلمه غیر المهذَّبه، بل والجارحه؟!!

۲. إنّ آیه: «ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی» لا تدلّ علی أنّ «خدیجه» قالت مثل هذا الکلام لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، بل غایه ما تفیده هذه الآیه هی أنَّ مثل هذا الکلام قد وُجّه إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وأمّا مَن هو القائل، ولماذا قال هذا الکلام؟ فلیس ذلک معلوماً.

۳. إنّ ناقل هذه الروایه یصف «خدیجه» تاره بأنّها طمأنت النبیّ، وسکّنت من روعه إلی درجه أنّها منعته عن الانتحار، ولکنّه یصفها تاره أُخری بأنّها قالت له بأنّ اللّه عاداه وقلاهُ، ألا ینبغی هنا أن نقول: «کن ذکوراً ثم أکذب»؟!

۴. إذا کان الوحیُ قد انقطع بعد حادثه جبل (حراء) ونزول بضع آیات من سوره «العلق» إلی أن نزلت سوره «الضحی»، فذلک یقتضی - فی هذه الصوره - أن تکون سوره «الضحی» ثانی سوره من حیث الترتیب التاریخی لنزول السُّور، فی حین أنَّ تاریخ نزول الآیات و السور القرآنیه یفید أنّها السورهُ الحادیه عشَره من سُور القرآن الکریم؛ لأنّ فهرس السور القرآنیه حسب نزولها هو کالتالی:

۱. العلق.

۲. القلم.

۳. المزمِّل.

۴. المدّثر.

۵. تبّت (المَسَد).

۶. التکویر.

۷. الأعلی.

۸. الإنشراح.

۹. والعصر.

۱۰. الفجر.

۱۱. الضحی.(۱)

نعم انفرد الیعقوبی من بین المؤلّفین باعتبار سوره الضحی - فی تاریخه(۲) - السوره الثالثه من حیث تاریخ النزول، وحتّی هذا الرأی لا ینسجم مع القصه المذکوره «انقطاع الوحی».

الإختلاف فی مده انقطاع الوحی

لقد تعرّض تحدید مدّه انقطاع الوحی بشکله المزعوم لإبهام کبیر، فقد ذکر ذلک بصور مختلفه فی التفاسیر والأقوال التالیه هی:

۴. أیّام.

۱۲. یوماً.

۱۵. یوماً.

۱۹. یوماً.

۱- . تاریخ القرآن للزنجانی: ۵۸.

۲- . تاریخ الیعقوبی: ۲/۳۳.

۲۵. یوماً.

۴۰. یوماً.

ولکن بعد دراسه فلسفه النزول التدریجی للقرآن الکریم سنری أنّ انقطاع الوحی وتوقفّه لم یکن حدثاً إستثنائیاً، لأنّ القرآن الکریم أعلن منذ أوّل یوم أنّ المشیئه الإلهیّه تعلّقت بأن ینزل القرآن بصوره تدریجیه، منجّمه إذ یقول تعالی:

«وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّاسِ عَلی مُکْثٍ» .(۱)

ویکشفُ القرآن النقاب - فی موضع آخر - عن سرِّ نزول القرآن تدریجاً إذ قال:

«وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَهً واحِدَهً کَذلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَکَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِیلًا» .(۲)

ومع ملاحظه طریقه نزول الآیات والسور القرآنیه هذه یجب أنْ لا یُتَوقع نزولُ الآیات کلّ یوم وکلَّ ساعه، وأن ینزل جبرئیلُ علی النبیّ علی الدَّوام، ویأتی إلیه بالآیات دون انقطاع، بل إنَ الآیات القرآنیه کانت تنزل علی رَسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی فواصل زمنیه مختلفه وفقاً للاحتیاجات، وبحسب الأسئله المطروحه علی النبیّ، ولأسرار أُخری فی النزول التدریجی شرحها علماء الإسلام(۳).

وفی الحقیقه لم یکن هناک ما یُسمّی بانقطاع الوحی، بل کلّ ما کان فی الأمر هو أنّه لم یکن ثمّه ما یوجب النزول الفوری، والمتلاحق للوحی.

۱- . الإسراء: ۱۰۶.

۲- . الفرقان: ۳۲.

۳- . راجع للوقوف علی هذه المسأله: «مفاهیم القرآن»: ۲/۱۲۲-۱۲۴ معالم الحکومه الإسلامیه.

۱۵ الدَعْوَهُ السِرِّیَّه ودَعوَهُ الأقربین

اشاره

استمرّ النبیُّ صلی الله علیه و آله و سلم یدعو إلی دینه سِرّاً مدّه ثلاثه أعوام. وقد عَمِدَ فی هذه السنوات إلی بناء الکوادر وإعدادها بدل توجیه الدعوه إلی عامّه الناس، فإنَّ اعتبارات معیّنه فی ذلک الوقت کانت توجبُ أنْ لا یجهَر بدعوته ولا یُعْلِنَ عن رسالته، ویکتفی بالاتّصالات الفردیه السِّریه ویدعو أشخاصاً معیّنین إلی دینه.

وقد کانت هذه الدعوه السرِّیه هی السبب فی أن ینجذب إلی الدّین الإسلامی جماعه من الناس، وتواجه دعوته صلی الله علیه و آله و سلم منهم بالقبول، وقد سجَّل التاریخ أسماء هؤلاء السابقین الذین آمنوا برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فی هذه الفتره من عهد الرساله، وتاریخ الإسلام، والیک بعضهم:

۱. السیده خدیجه بنت خویلد (زوجه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم).

۲. علیّ بن أبی طالب علیه السلام.

۳. زید بن حارثه.

۴. الزبیر بن العوام.

۵. عبدالرحمن بن عوف.

۶. سعد بن أبی وقاص.

۷. طلحه بن عبیداللّه.

۸. أبوعبیده الجراح.

۹. أبو سلمه.

۱۰. الأرقم بن أبی الأرقم.

۱۱. عثمان بن مظعون.

۱۲. قدامه بن مظعون.

۱۳. عبداللّه بن مظعون.

۱۴. عبیده بن الحارث.

۱۵. سعید بن زید.

۱۶. خباب بن الأرتّ.

۱۷. أبوبکر بن أبی قحافه.

۱۸. عثمان بن عفان.

وغیرهم من الذین قبلوا دعوه النبیّ، وآمنوا بنبوّته فی هذه الفتره.(۱)

ولقد کان أقطاب قریش و أسیادها منهمکین - طیله هذه الأعوام الثلاثه - فی لهوهم ومجونهم، ومع أنّهم کانوا قد عرفوا بعض الشیء عن دعوه النبیّ السرّیه إلّا أنّهم لم یظهروا أیّه ردّه فِعل تجاهها، ولم یقوموا بشیء ضدّها.

ولقد کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی هذه السنوات الّتی تعتبر فترهُ صیاغه الفرد یخرج مع بعض أتباعه إلی شعاب مکّه للصلاه فیها بعیداً عن أنظار قریش.

واتّفق أن رآهم بعض المشرکین فی ما کانوا یُصلّون فی شعب من شعاب مکّه، واستنکروا عملهم هذا، وأدّی ذلک إلی منازعه عابره بینهم وبین المشرکین جرح علی أثرها أحد المشرکین علی یدی «سعد بن أبی وقاص» أحد المسلمین، ومن هنا قرّر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم اتّخاذ بَیْت «الأرقم بن أبی الأرقم» محلّاً للعباده بدل

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۱/۱۶۵-۱۶۶.

شعاب مكّه، ليستطيع القيام فيه بالتبليغ والعباده بحريّه وأمان، بعيداً عن أعين المشركين.(۱) ولقد كان «عمّار بن ياسر» و «صهيب بن سنان» الرومیّ ممّن آمنوا برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى ذلك البيت.(۲)

دَعْوهُ الأَقْرَبِيْن

يبدأ العقلاء من الناس من أصحاب البرامج الواسعه والمشاريع الكبرى، أعمالهم الكبرى - عاده - من بدايات صغيره ونقاط محدّده، فإذا حقّقوا نجاحاً فى هذه البدايات بادروا إلى توسيع نطاق نشاطهم فوراً، وهكذا جنباً إلى جنب مع النجاحات الّتى يحقّقونها فى كلّ خطوه يوسّعون دائره العمل، ويجتهدون فى تحقيق المزيد من النجاح، والتكامل لما هم بصدده.

ولقد سأل أحد الشخصيات زعيماً فى دوله كبيره من الدول الكبرى المعاصره: ما هو سرّ نجاحكم فى الأعمال الإجتماعيه، وما هو الأمر الّذى يساعدكم على النجاح فى مشاريعكم؟

فأجابه ذلك الزعيم قائلاً: إنّ طريقه عملنا نحن الغربيّين تختلف عن طريقتكم أنتم أهل الشرق، فنحن دائماً نخطّطُ لمشاريع كبرى و نبدأ من مكان صغير، وبعد إحراز النجاح نعمد إلى توسيع نطاق العمل، وإذا اكتشفنا فى منتصف الطريق خطأ برنامجنا غيّرنا أُسلوب عمَلنا، وعَدلنا إلى طريقه أُخرى، وبدأنا بعمل آخر.

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲/۶۱.

۲- . هذا البيت كان عند جبل الصفا، وكان معروفاً إلى مدّه ب «دار الخيزران». أُسد الغابه: ۴/۴۴، السيره الدحلانيه بهامش السيره الحلبيه: ۱/۱۹۲؛ السيره الحلبيه: ۱/۴۵۶.

أمّا أنتم الشرقيون فتدخلون ساحةَ العمل فی برامجکم الکبری من مکان کبیر، وتبدأون من نقطه واسعه، وتحاولون تطبیق مشروعکم جمله واحده، فإذا واجهتم فی خلال العمل طریقاً مسدوده لم یکن فی إمکانکم أن ترجعوا من منتصف الطریق إلّابتحمل خسائر کبری فادحه.

هذا مضافاً إلی أنّ أنفسکم کأنّها قد عُجنت بالعجله ولذلک توذُّون قطفَ ثِمار جهودکم ونتیجه عملکم فی الحال دونما صبر وترقّب وانتظار، وهذه هی بنفسها طریقه تفکیر إجتماعیّه خاطئه، من شأنها أن تجعل الإنسان أمام طُرق مسدوده کثیره وغریبه.

هذا ما قاله ذلک الغربیّ.

ولکن الّذی نتصوّره ونعتقده نحن هو: أنّ هذه الطریقه من التفکیر لا ترتبط لا بالشرق ولا بالغرب، بل هی میزه العقلاء الأذکیاء من الناس، فإنّهم یعتمدون هذا الأُسلوب لإنجاح مهامّهم، وتحقیق مقاصدهم.

ولقد اتّبع قائد الإسلام الأکبر الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله و سلم هذه الطریقه فی عمله الرسالی فرکّز جهدَه علی الدعوه السرّیه إلی دینه مدّه ثلاثه أعوام من دون تعجُّل، وکان یعرضُ دینه علی کلّ مَن وجده أهلاً للدعوه، ومستعدّاً من الناحیه الفکریه للتبلیغ.

فرغم أنّه کان یهدف إلی تشکیل دوله عالمیه کبری ینضوی تحت لوائها (لواء التوحید) جمیع أفراد البشریه، إلّاأنّه لم یعمد إلی الدعوه العامّه طیله هذه الأعوام الثلاثه، بل لم یوجّه الدعوه الخاصّه حتّی إلی أقاربه، إنّما اکتفی بالاتصال الشخصی بمن وجده مؤهّلاً وصالحاً للدعوه، ومستعدّاً لقبول الدِّین، حتّی أنّه استطاع فی هذه الأعوام الثلاثه أن یکسب فریقاً من الأتباع من الذین اهتدوا إلی دینه وقبِلُوا دعوته.

وقد كان زعماء قريش - كما أسلَفنا - منهمكين طوال هذه الأعوام الثلاثه فى اللذّه والهوى وكان فرعون «مكّه» وطاغيتها: «أبوسفيان» وجماعته كلّما سَمِعوا بالدَّعوه أطلقوا ضحكه استهزاء وقالوا لأنفسهم: إنّها أيّام وتنطفئ بعدها شعله الدعوه هذه فوراً، تماماً كما انطفأت من قبل دعوه «ورقه» و «أُميّه» (اللّذين أخَذا يحبّذان إلى العرب التوجّه نحو المسيحيه ونبذَ الوثنيه بعد أن قرءا الإنجيل والتوراه) وبالتالى لن يمرّ زمانٌ حتّى يُنسى هذا الأُمر، ويغدو خبراً بعد أثر، بل لا شىء يُذكر.

بهذا التصوّر، وبهذه العقليّه واجَهت زعامه «مكّه» دعوه النبىّ فى البدايه، ولهذا لم يقم زعماء قريش خلال هذه السنوات الثلاث بأىّ عَملٍ عدائىّ ضدّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، بل ظلّوا ينظرون إليه بنظر الإحترام، ويُراعون معه قواعد الأدب والسلوك، وكان النبىّ هو أيضاً لا يتعرّض لأصنامهم وآلهتهم فى هذه الأعوام الثلاثه بسوء ولا يتناولها بالنقد والاعتراض بصوره علنيه، بل كان مركّزاً جهده على الاتصال الشخصى بذوى البصائر من الأشخاص وهدايتهم إلى دينه الحنيف.

ولكن منذ أنْ بدأ النبىُّ دعوه الأقربين وأخذ ينتقد وثنيّتهم، ويذكر أوثانهم بسوء ويعترض على تصرّفاتهم اللاإنسانيه أصبح حديث الألسن. ومنذ ذلك اليوم أيضاً بدأت يقظه قريش، وعرفوا أمر محمَّد يختلف عن أمر «ورقه» و «أُميّه» اختلافاً بيّناً وأنّه لبين الدعوتين فرقاً كبيراً، ولهذا بدأت المعارضه والمخالفه السرّيه والعلنيه، لدعوه النبىّ.

وقد بدأ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بكسر جدار الصمت بدعوه أقربائه إلى دينه ثم شرع بعد ذلك بدعوه الناس أجمعين.

على أنّه ما من شكّ فى أنّ الإصلاحات العميقه الّتى يراد لها أن تترك أثراً فى جميع شؤون الناس وكلّ مناحى حياتهم، وتغيّر مسير المجتمع تحتاج قبل أىّ شىء إلى قوّتين:

۱. قوّهُ البیـان، بأن یسـتطیع الـداعیه والمصـلح بیان الحقائق الّتی جاء بها من أفکاره الخاصّه، أو ما تلقّاه عن طریق آخر إلی الناس بأُسلوب جذّاب، یأسر القلوب، ویسحر العقول.

۲. القوّهُ الـدفاعیهُ الّتی یسـتطیع تشـکیل خطّ دفاعی منها عنـد التعرّض لهجوم الأعـداء والخصوم، وفی غیر هذه الصوره سـتنطفئ شعله الدعوه ویفشل المصلح فی خطاه الأُولی.

ولقـد کـان البیـان لـدی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم فی أعلی مرتبه من الکمـال فکـان قادراً کأقوی خطیب علی بیان تعـالیم دینه للنـاس فی غـایه الفصاحه والبلاغه. ولکنّه کان یفتقر فی الأیام الأُولی من دعوته إلی عنصـر (القوّه الثانیه)، أی (القوّه الـدفاعیه)، الرادعه الحامیه، لأنه اسـتطاع فی السـنوات الثلاث الأُولی من رسالته أن یضم إلی دعوته قرابه أربعین شـخصاً، وذلک فی الظروف السـرّیه الشدیـده، ولاـ ریب أنّ تلـک القلّه القلیله من الأتباع لم تکن قادره علی أن تتولّی مسؤولیه الـدفاع عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، وحمایه رسالته.

من هنا عَمَـد رسولُ اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم وبهدف تحصـیل القوّه الدفاعیه المطلوبه وتشـکیل النواه المرکزیه إلی دعوه أقربائه إلی دینه قبل التوجّه بالـدعوه إلی عامّه الناس، لیتمکَّن من هـذا الطریق، أن یزیل النقصَ من جهه عـدم وجود القوه الثانیه، ویکوّن منهم سیاجاً قویاً یحفظه، ویحفظ رسالته من الأخطار المحتمله.

علی أنّ فائـده هـذه الـدعوه کـانت علی الأقل دفع أبناء عشـیرته إلی الـدفاع عنه بـدافع القربی والرحم علی فرض أنّهم لم یؤمنوا برسالته، ولم یقبلوا دعوته.

هذا مضافاً إلی أنّه صـلی الله علیه و آله و سـلم کان یعتقد أنّ أیّ إصلاح وتغییر لابد أن یبدأ من إصلاح الداخل وتغییره، فما لم یستطع الإنسان من إصلاح أبنائه وأقربائه وردعهم

عن قبائح الأفعال لا يمكن لدعوته أبداً أن تؤثر فی الأجانب والأبعدين، لأنَّ المناوئين سيعترضون عليه لدعوته فی هذه الحاله، ويشيرون إلی أفعال أبنائه وعشيرته.

من هنا أمره اللّه تعالی بأن يدعو عشيرته الأقربين إذ خاطبه قائلاً:

«وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ» .(۱)

کما أنّه خاطبه بصدد دعوه الناس عامّه بقوله:

«فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِينَ * إِنّا کَفَيْناکَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» .(۲)

کيفيّه دَعوه الأقربيْن

کانت طريقه رسولُ اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی دعوه عشيرته الأقربين طريقه جميله وذکيّه جدّاً، فقد تجلّت فی ذلک حقيقه أوضحت أسرار هذه الدعوه فی ما بعد أکثر فأکثر.

فإنّ المفسّرين کتبوا عند قوله تعالی: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ» (۳) وکذا الأغلبيه القريبه للإجماع مِنَ المؤرّخين أنّ اللّه أمر نبيّه صلی الله عليه و آله و سلم بأنْ ينذر عشيرته الأقربين ويدعوهم إلی دينه و رسالته فأمر رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم علیّ بن أبی طالب الّذی کان آنذاک فی ربيعه الثالث عشر أو الخامس عشر بأن يُعدَّ طعاماً ولبناً، ثم دعا صلی الله عليه و آله و سلم خمساً وأربعين رجلاً ـ من سراه بنی هاشم ووجوههم، وعزم علی أن يبوح لضيوفه ويکشف لهم عن أمر رسالته فی خلال تلک الضيافه إلّاأنّه – وللأسف – ما أن انتهوا من الطعام حتّی بادر أبولهب فتکلّم بکلمات سخيفه قبل أن يتحدّث النبیُّ صلی الله عليه و آله و سلم ممّا جعل الجوّ غير مناسب لأنْ يطرَح النبیُّ صلی الله عليه و آله و سلم موضوع

۱– . الشعراء: ۲۱۴.

۲– . الحجر: ۹۴ و ۹۵.

۳– . الشعراء: ۲۱۴.

رسالته عليهم، فانفضّ المجلسُ دون تحقيق هذا الغرض.

ولمّا كان من غد أمر النبيُّ عليّاً عليه السلام بإعداد الطّعام واللّبن ثانيه، وكرّر دعوه تلك الجماعه، إلى ضيافه أُخرى، وبعد أن فرغوا من الطعام تكلّم رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقال:

«يا بَنى عَبْدِ الْمُطَّلِب إنّى وَ اللّه ما أعلَمُ شابّاً فى العَربَ جاء قومَهُ بأَفضَل ممّا قد جِئتُكُمْ به، إنّى قَدْ جِئْتُكم بِخير الدُّنيا والآخِره، وَقَدْ أَمرَنى اللّه تعالى أن أدْعوكُمْ إليه، فأيّكُمْ يؤازرُنى عَلى هذا الأمر على أنْ يكونَ أخى وَوَصِيّى وَ خَليفَتى فِيكُم»؟

قال (على عليه السلام): فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت - وإنّى لأحدثهم سنّاً، وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً -:

أنا يا نبى اللّه أكونُ وَزيركَ عليه».

(فأعاد القول، فأمسكوا وأعدت ما قلت)، فأخذ برقبتى ثم قال لهم:

«إنَّ هذا أخى وَ وَصيّى وَ خَليفَتى فيكُمْ (أو عَليْكُمْ) فاسْمَعُوا لهُ، وَ أطِيْعُوا».

فقامَ القوم يضحكون، ويقولون لأبى طالب «قد أمرك أن تسمع لابنكَ وتطيعَ».(۱)

إنَ ما كتبناه هو - فى الحقيقه - خلاصهٌ لحديث مفصَّل رواه أكثر المفسّرين والمؤرّخين بعبارات مختلفه، ولم يشكّك فى صحّته أحدٌ، بل اعتبروه من مسلَّمات التاريخ، إلّا «ابن تيميه» الّذى اتّخذ موقفاً خاصّاً من أهل بيت النبىّ صلّى اللّه عليه و عليهم أجمعين.

۱- . تاريخ الطبرى: ۲/۶۲ و ۶۳؛ الكامل فى التاريخ: ۲/۶۲-۶۳؛ مسند أحمد: ۱/۱۱۱، وشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۱۳/۲۱۰ و ۲۱۱.

خِيانهٌ تاريخيّهٌ و جِنايَهٌ أدبيّه!!

إنّ تحريفَ الحقائق وقلبَها، أو إخفاء الوقائع لهُو حقّاً من أوضح مصاديق الخيانه والجنايه.

ولقد سلَكَ فريقٌ من الكُتّاب المتعصّبين عبر التاريخ للأسف مثل هذا الطريق المقبوح، وأسقطوا مؤلّفاتهم العلميّه والتاريخيّه بارتكابهم خطيئه التحريف فی جمله من الحقائق، من الاعتبار، وهم يخالون أنّ عملهم قادر علی أن يبقی الحقائق فی هاله الإهمال والغموض.

إلّا أنّ أمر هؤلاء قد انكشف مع انْقضاء الزّمن، وتكامُل العِلْم، ودَفع بفريق من أهل التحقيق والإنصاف إلی أن يمزقوا بأطراف أقلامهم حجب الزيف والتحريف ويُظهروا الوقائع والحقائق علی حقيقتها.

وإليك فی ما يأتی بعض هذا الخيانات:

١. لقد ذكر محمَّد بن جرير الطبری (المتوفّی عام ٣١٠ ه) فی تاريخه حادثه دعوه الأقربين بشكل مفصَّل وعلی النحو الّذی مرّ علی القارئ الكريم.

بيد أنّه حرّف فی تفسيره(١) وكَتمَ، فهُو عند تفسير قوله تعالی: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» يذكرُ كلّ ما ذكره فی تاريخه، ولكنّه يغيّر ويبدّل فی قول رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم حيث يقول: «علی أن يكون أخی ووصيّی وخليفتی»، فهو يكتب فی تفسيره هكذا: «علی أنْ يكونَ أخی وكذا وكذا».

ولا ريب أنَّ فی تغيير عباره «أخی ووصيّی وخليفتی عَليكم (أوفيكم) إلی:

«كذا وكذا» غرضَاً مريضاً، وهو بالتالی خيانه تاريخيه فاضحه.

١- . تفسير الطبری: ١٩/١۴٩ برقم ٢٠٣٧۴.

على أنّ الطبرىّ لم يكتف بهذا القدر من التغيير فى كلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بل غيّر حتّى فى الجمله الّتى تعقبتها وهى قوله صلى الله عليه و آله و سلم بعد أن قام علىٌّ عليه السلام للمرّه الثالثه وأعلن عن استعداده لمؤازره النبىّ بعد إحجام القوم وسكوتهم: «إنّ هذا أخى ووصيّى و خليفتى» حيث أبدلها بعباره: «إنَّ هذا أخى وكذا وكذا»!!!

إنّ على المؤرّخ أن يكون حرّاً وشهماً فى كتابه الحقائق وروايتها، فيثبتها ويرويها كما هى، بكلّ شجاعه، وصَلابَه.

ولا ريب أنّ الّذى دفع بالطبرىِّ إلى أن يرتكب مثل ذلك التبديل والتغيير هو تعصّبه المذهبى، فهو لا يعتبر الإمام عليّاً خليفه رسول اللّه بلا فصل، وحيث إنّ تينك الكلمتين: «خَليفتى ووَصيّى» تصرّحان بخلافه «علىّ» للنبىّ ووصايته بلا فصل لذلك يغيّر ويبدّل حتّى ينتصر لمذهبه بالتحريف فى شأن نزول هذه الآيه أيضاً.

٢. ولقد فعل ابن كثير (المتوفّى عام ٧٣٢ ه) نظير هذا فى تاريخه وكذا فى تفسيره(١) وسلك نفس الطريق الّذى سلكه - من قبل - سلفُه الطبرى ضارباً عرض الجدار مبدأ أمانه النقل!!!

ونحن لا نعذر ابن كثير فى عمله هذا أبداً، لأنّه قد اعتمد - فى رواياته التاريخيه، فى تاريخه وتفسيره معاً - تاريخ الطبرى، لا تفسيره ولا شكّ أنّه قد مرَّ على هذه القصه فى تاريخ الطبرىّ، ولكنّه مع ذلك حاد عن الطريق السوىّ فأعرض عن نقل روايه التاريخ - فى هذه الحادثه - وعَمَد - بصوره غير متوقعه - إلى نقل روايه التفسير!!!

٣. والأغرب من تينك الخيانتين ما ارتكبه - فى عصرنا الحاضر - وزير

١- . البدايه والنهايه: ٣/٥٣؛ تفسير ابن كثير: ٣/٣۶۴.

المعارف المصريه الأسبق الدكتور «هيكل» فى كتابه «حياه محمَّد»، وفتح بعمله باب التحريف فى وجه الجيل الحاضر. والعجب أنّ «هيكل» هاجم - فى مقدّمته - جماعه المستشرقين بشده وانتقدهم بعنف لتحريفهم الحقائق التاريخيه، واختلاقهم لبعض الوقائع فى حين لم يقصر عنهم فى هذا السبيل فهو:

أوّلاً: نقل الواقعه المذكوره (دعوه الأقربين المعروفه بحادثه يوم الدار أو حديث بدء الدعوه) فى الطبعه الأُولى من كتابه المذكور بصوره مبتوره ومقتضبه جدّاً واكتفى من الجملتين الحسّاستين بذكر واحده منهما فقط وهى قولُ النبىّ مخاطباً الحضور فى ذلك اليوم: «مَنْ يُؤازرنى يكونُ أخِىْ وَوصيّى و خَليفَتِى» بينما حذف بالمرّه الجمله الّتى قالها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لِعَلى بعد أن قام للمرّه الثانيه وأعلن مؤازرته للنبىّ وهى قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «إنَّ هذا أخىْ وَ وَصيّى وَ خَلِيْفتى»!!!

ثانياً: أنَّه خطا فى الطبعات الثانيه والثالثه والرابعه، خطوه أبعد حيث حذَف كلتا الجملتين معاً وبهذا قد وجّه ضربه كبرى إلى قيمته ككاتب، وقيمه كتابه، كدراسه تاريخيه!!

النبوّه والإمامه توأمان

إنّ الاعلان عن وصايه علىّ عليه السلام وخلافته فى مطلع عهد الرساله وبدايه أمر النبوّه يفيد - بقوه ووضوح - إنَّ هذين المنصبين ليسا بأمرين منفصلين، ففى اليوم الَّذى يعلِنُ فيه رسولُ اللّه عن رسالته ونبوَّته، يعيّن خليفته ووصيَّه من بعده، وهذا يشهد - بجلاء - بأنّ النبوَّه والإمامه يشكِّلان قاعده واحده، وأنّ هذين المنصبين إن هما إلّاكحلقتين متّصلتين لا يفصل بينهما شىء.

كما أنّ هذه الحادثه تكشف - من جانب آخر - عن مدى الشجاعه الروحيه

الّتی کـان یتحلّی بهـا الإمـام أمیرُ المؤمنین «علیُّ بن أبی طـالب» علیه السـلام، حیث قـام - فی مجلس أحجم فیه الشـیوخ الـدُهاه والساده المجرِّبون عن قبول دعوه النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم خوفاً وتهیّباً - وأعلن بکلّ شـجاعه مؤازرته للنبیّ، واسـتعداده للتضـحیه فی سبیـل دینه ورسالته وهو آنـذاک غلامٌ فی ربیعه الثالث أو الخامس عشـر، وما حابی أعـداء الرساله ولا ماشاهم کما فعل المصلحون من الساسه والزعماء المتخوّفون علی مصالحهم ومراکزهم آنذاک!!!

صحیح أنّ «علیّاً» علیه السـلام کان فی ذلک الیوم أصـغر الحاضـرین سنّاً إلّاأنّ معاشرته الطویله للنبیّ قد هیّأتْ قلبهُ لتقبُّل الحقائق الّتی تردّد شیوخ القوم فی قبولها، بل عجزوا عن درکها وفهمها!!

ولقد أعطی أبو جعفر الإسکافی حقّ الکلام فی هذا المجال إذ قال:

فهـل یُکلّف عملُ الطعام، ودعاء القوم صـغیرٌ غیر ممیّز، وغِر غیر عاقل، وهل یؤتمَن علی سـرّ النبوّه طفلٌ... وهل یُـدعی فی جمله الشـیوخ والکهول إلّاعاقـل لـبیب، وهـل یضع رسولُ اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم یـده فی یـده، ویعطیه صـفقه یمینه بالأُـخوه والوصـیّه، والخلافـه، إلّـاوهو أهـل لـذلک، بالغ حـدّ التکلیف، محتمل لولایه اللّه، وعـداوه أعـدائه، وما بال هـذا الطفل لم یأنس بأقرانه ولم یلصق بأشـکاله، ولم یُرَ مع الصبیان فی ملاعبهم بعد إسلامه، وهو کأحدهم فی طبقته، کبعضهم فی معرفته، وکیف لم ینزع إلیهم فی سـاعه من ساعـاته... بل ما رأیناه إلّاماضـیاً علی إسـلامه، مصـمّماً فی أمره، محقّقاً لقوله بفعله، قـد صـدّق إسـلامه بعفافه وزهده، ولصق برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من بین جمیع من بحضرته، فهو أمینه وألیفه فی دنیاه وآخرته.(۱)

۱- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۱۳/۲۴۴-۲۴۵.

۱۶ الدعوه العامّه

اشاره

کان قد انقضت ثلاث سنوات علی بدء البعثه یوم عمد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی دعوه الناس عامّه بعد دعوه عشیرته الأقربین.

فقد استطاع خلال السنوات الثلاث الأُولی من عمر الدعوه أن یهدی - من خلال الاتّصالات السرّیه - مجموعه من الأشخاص إلی الإسلام ولکنّه دعا هذه المرّه وبصوت عالٍ عامّه الناس إلی دین التوحید.

فعن ابن عباس قال: صعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ذات یوم علی الصفا فقال: یا صباحاه (وهی کلمهٌ کانت العربُ تطلقها کلّما أحسَّت بخطر، أو بلغها نبأ مُرعبٍ فکانت هذه الکلمه بمثابه جرس الخطر)(۱) فاجتمعت إلیه قریش فقالوا: مالک؟

فقال صلی الله علیه و آله و سلم: أرأیتکم إن لو أخبرتکم أنَّ العدوّ مُصبحکم أو ممسیکم أکنتم تصدّقونی؟

قالوا: بلی.

قال: فإنی نذیر لکم بین یدی عذاب شدید.

فقال أبو لهب: تبّاً لک ألهذا دعوتنا.(۲)

وفی روایه أُخری أنّه صلی الله علیه و آله و سلم قال: إنّما مثلی ومثلکم کمثل رجل رأی العدو

۱- . قال الجزری فی النهایه: ۲/۲۷۱: صعد النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم علی الصفا وقال: یا صباحاه؛ هذه کلمه یقولها المستغیث، وأصلها إذا صاحوا للغاره لأنّهم أکثر ما کانوا یغیرون عند الصباح ویسمّون یوم الغاره یوم الصباح، فکأنّ القائل: یا صباحاه یقول: قد غشینا العدو.

۲- . سنن النسائی: ۶/۲۴۴ برقم ۱۰۸۱۹.

فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه إلى أهله فجعل يهتف: ياصباحاه.(۱)

ولقد كانت قريش تعرف عن دينه بعض الشيء، قبل هذا ولكنّها تملّكها الخوفُ هذه المرّه، وهى تسمعُ ذلك الإنذار القوىّ فبادر أحد قاده الكفر إلى تبديد تلك المخاوف فوراً، إذ قال لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: تبّاً لك، ألهذا دعوتنا؟، وتفرّق على أثرها الناس.

الثباتُ والإستقامه على طريق الهدف

إنّ نجاح أىّ شخص مرهونٌ بأمرين:

الأوّل: الإيمان بالهدف.

والثانى: الاستقامه والثبات والسعى الدائب لتحقيق ذلك.

إنَّ الإيمان هو المحرِّك الباطنى والقوّه الخفيّه الّتى تجر الإنسان - شاء أم لم يشأ - نحو الغايه الّتى يتوخّاها، وتسهِّل عليه الصعاب، وتدعوه إلى العمل الدائب لتحقيق مقصوده، لأنّ شخصاً كهذا يعتقد اعتقاداً قويّاً بأنَّ سعادته، ومجده يتوقَّفان على ذلك.

وبعباره أُخرى: إذا آمن إنسان بأنّ سعادته ومجده يتوقّفان على تحقيق هدف معيّن فإنّه سيندفع بقوّه الإيمان نحو تحقيق ذلك الهدف، متجاوزاً كلّ الصعاب، ومتحدّياً كلّ المشكلات فى ذلك السبيل.

فالمريض الّذى يرى شفاءه فى شرب دواء مرّ مثلاً سيستسهل شُربه.

والغوّاص الّذى يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ ثمّه درراً غاليه الثمن تحت أمواج البحر سيلقى بنفسه فى قلب تلك الأمواج دونما خوف أو وجل، ليخرج منها بعد

۱- . السيره الحلبيه: ۱/۴۶۰.

دقائق ظافراً بأغلى الجواهر.

بينما إذا كان المريض أو الغوّاص يشكُّ فى عمله، أو يعتقد بعدم فائدته، فإنَّه لن يُقدمَ عليه قط، وإذا ما أقدم فإنّ عمله سيكون حينئذٍ مقروناً بالجهد والعناء. فقوه الإيمان إذن هى الّتى تذلّل كلّ مشكله، وتسهِّل كلَّ معضله.

غير أنّه لا ـ ريب فى أنَّ الوصولَ إلى الهَدف لا ـ يخلو من مشاكلّ وموانع، فلابدّ من السعى لرفع تلك الموانع، وإزاله تلكم المشاكل.

وقد قيل قديماً: إنَّ مع كلّ ورده أشواك، فكيف يمكن قطف ورده دون أن تُدمى أنامل القاطف بالأشواك المحيطه بها؟؟

هذا وقد بيّن القرآنُ الكريمُ هذه المسأله (وهى أنّ رمز السعاده هو: الإيمان بالهدف والثبات فى طريق تحقيقه) فى جمله قصيره إذ قال:

«إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَهُ أَلاّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّهِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» .(۱)

ثَباتُ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وَ صَبرُهُ

لقد أدّت اتّصالاتُ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم الخاصّه. قَبل الدعوه العامّه، وجهودُه الكبرى بعد الجهر بالدعوه، إلى ظهور ونشوء صفٍّ مرصوص من المسلمين فى وجه صفوف الكفر، والوثنيه.

فالَّذين دخَلُوا سرّاً فى حوزه الإسلام والإيمان قبل الدعوه العامّه تعرَّفوا على المسلمين الجدد الذين لُبّوا داعى الإسلام بعد إعلان الرساله، وشكّل القدامى والجدد جماعه قويّه متعاطفه متحابه، وكان ذلك بمثابه إنذار لأوساط الكفر والشرك والوثنيه، أربكها وجعلها تشعر بالخطر.

۱- . فُصّلت: ۳۰.

على أنّ ضرب نهضه ناشئه والقضاء عليها كان أمراً سهلاً لقريش، ولكنّ الّذى أرعب قريشاً ومنعها من توجيه مثل هذه الضربه هى أنَّ أفراد هذه الجماعه، وعناصر هذه النهضه لم يكونوا من قبيله واحده، ليمكن مواجهتها وضربُها بكلّ قوّه، بل انتمى من كلّ قبيله إلى الإسلام، عددٌ من الأفراد، ومن هنا لم يكن اتّخاذ أىّ قرار حاسم بحقّهم أمراً سهلاً وبسيطاً.

من هنا قرّر ساده قريش وكبراؤها - بعد تداول الأمر فى ما بينهم - أن يبدأوا بالقضاء على أساس هذه الجماعه، ومحرِّك هذا الحزب، والداعى إلى هذه العقيده بمختلف الوسائل فيحاولوا ثنيه عن دعوته بالإغراء والتطميع تاره، ويمنعوا من انتشار دينه بالتهديد والإيذاء تاره أُخرى.

وقد كان هذا هو برنامج قريش وموقفها من الدعوه طيله عشر سنوات وهى المدّه المتبقيه من سنوات البعثه من الفتره المكيه، إلى أن قرّرت بالتالى قتله، ولكّنه استطاع أن يبطل مُؤامرتهم بالهجره إلى المدينه قبل أن يتمكّنوا من القضاء عليه.

ولقد كان «أبوطالب» آنذاك زعيم بنى هاشم ورئيسها المطلق، وكان رجلاً طاهر القلب عالى الهمّه، شجاعاً، كريماً، وكان بيته ملجأ دافئاً للمحرومين والمستضعفين، وملاذاً أميناً للفقراء والأيتام، وكان يتمتع فى المجتمع العربى - علاوه على رئاسه مكّه و بعض مناصب الكعبه - بمكانه كبرى و منزله عظيمه، وحيث إنّه كان كفيلاً لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد وفاه جدّه «عبدالمطلب»، لذلك حضر ساده قريش بصوره جماعيه(۱) عنده وقالوا له:

«يا أباطالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعابَ دينَنا، وسفَّه أحلامنا وضلّل آباءنا، فإمّا أن تكفّه عنّا، وإمّا أن تخلّى بيننا و بينه».

۱- . أدرج ابن هشام فى سيرته: ۱/۱۷۰-۱۷۱ أسماءهم بالتفصيل نذكر منهم: عتبه وشيبه ابنا ربيعه، وأبو سفيان وأبو البخترى وأبو جهل والوليد بن المغيره... وغيرهم.

فقال لهم «أبو طالب» قولاً رفيقاً، وردَّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه.

بيد أنَّ نفوذ الإسلام وانتشاره كان يتزايد باستمرار، وكانت جاذبيّه الدّين المحمَّدى، وبيان القرآن البليغ يساعدان على ذلك، فيترك أثره فى الناس، وخاصّه فى الأشهر الحرم حيث يفد الحجيجُ على مكّه من مختلف أنحاء الجزيره، وكان النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يعرض دينه عليهم، فكانت أحاديثه الجذّابه، وكلماتُه البليغه، ودينُه المحبَّب تؤثر فى قلوب كثير منهم، فيميلون إلى الإسلام ويقبلون دعوه الرسول.

وهنا أدرك طغاه مكّه وفراعنتها أنّ «محمَّداً» قد بدأ يفتح له مكاناً فى قلوب جميع القبائل، وأصبح له أنصارٌ وأتباعٌ فى كثير منها، ممّا دفعهم مرّه أُخرى إلى الحضور عند «أبى طالب» حاميه الوحيد، وتذكيره بالإشاره والتصريح بالأخطار المحدقه باستقلال المكّيين وعقائدهم نتيجه نفوذ الإسلام وانتشاره فقالوا له أجمع: يا أباطالب، إنّ لك سنّاً، وشَرفاً، ومنزله فينا، وإنّا قد استنهيناك مِن ابن أخيك فلم تنهَه عنّا، وإنا واللّه لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتّى تكفه عنّا، أو ننازله وإيّاك فى ذلك حتّى يهلك أحد الفريقين.

إنّ قريشاً حين قالوا لأبى طالب هذه المقاله، بعث إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقال له: يابن أخى إنّ قومك قد جاءونى، فقالوا لى كذا وكذا... فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«يا عَمّ، واللّه لو وضعُوا الشَمْس فى يمينى، والقمرَ فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهرهُ اللّه، أو أهلكَ فيه، ما تركتُه».

ثم استعبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فبكى ثم قام، فلمّا ولىّ ناداه أبو طالب فقال: أقبل يابن أخى، قال: فأقبل عليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقال:

«إذهَبْ يا ابْن أَخى فَقُلْ ما أحبَبْتَ فَواللّه لا أَسلمك لِشَىءٍ أبداً».(۱)

قريش تمشى إلى أبى طالب للمرّه الثالثه

ثم إنّ قريشاً لمّا عرفت أنّ أبا طالب أبى خذلان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وإسلامه وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم مشوا إليه بعماره بن الوليد ابن المغيره فقالوا له:

يا أَبا طالب هذا عمارهُ بن الوليد أنهَدُ فتى فى قريش وأجملُه، فخذهُ فلك عقلُهُ ونصرُه، واتخذه ولداً فهو لكَ، وأسلِمْ إلينا ابن أخيكَ هذا، الّذى فرّق جماعه قومكَ، وَسفَّه أحلامَهُمْ فنقتله، فإنّما هو رجل برجل!!

فقال (أبوطالب وهو مستاء من هذه المساومه الظالمه):

«واللّه لبئس ما تسومونني! أتعطونى ابنكم أغذُوهُ لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟! هذا واللّه ما لا يكون أبداً».

فقال «المطعم بن عدى بن نوفل»: واللّه يا أبا طالب لقد أنصفَكَ قومُك، فما أراك تريد أن تقبَل منهم شيئاً.

فقال أبوطالب للمطعم: واللّه ما أنصفونى، ولكنّك قد أجمَعتَ خُذْلانى، ومظاهره القوم علىّ، فاصنَعْ ما بدا لك.(۲)

قريش تحاولُ تطميع رسول اللّه!

ولمّا علمت قريش بأنّه لا يمكن إرضاء «أبى طالب» بخذلان ابن أخيه «محمَّد»، فهو وإن كان لا يتظاهر بالإسلام، إلّاأنّه يكنُّ لابن أخيه، وُدّاً عميقاً، ومحبّه

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۷۱-۱۷۲.

۲- . تاريخ الطبرى: ۲/۶۷-۶۸؛ السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۷۲.

کبری، من هنا قرّروا بأنْ یترکوا مفاوضته، إلّاأنّهم فکّروا فی خطه أخری وهی أن یُحاولوا إثناء النبیّ عن المضیّ فی دعوته بتطمیعه بالمناصب، والهدایا، والأموال، والفتیات الجمیلات، ولهذا مشوا إلی بیت «أبی طالب» ودخلوا علیه ومحمَّد جالسٌ إلی جنبه فتکلّم متکلِّمهُمْ وقال: یا محمَّد إنا بعثنا إلیک لِنُکلِّمک، فإنّا واللّه لا نعلم رجلاً من العرب أدخل علی قومه ما أدخلت علی قومک، لقد شتمت الآباء، وعیّبت الدین، وسببت الآلهه، وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعه، ولم یبق أمر قبیح إلّا أتیته فیما بیننا وبینک، فإن کنت إنّما جئت بهذا الحدیث تطلب به مالاً ـ جمعنا لک من أموالنا حتّی تکون أکثرنا مالاً، وإن کنت إنّما تطلب الشرف فینا فنحن نسوّدک ونشرّفک علینا، وإن کان هذا الّذی یأتیک تابعاً من الجّن قد غلب علیک بذلنا أموالنا فی طبّک.(۱)

فقال أبوطالب لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: أی ابن أخی ما بال قومک یشکونک، یزعمون أنّک تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال: وأکثروا علیه من القول.

وتکلم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فقال: یا عم إنّی أُریدهم علی کلمه واحده یقولونها تدین لهم بها العرب وتؤدّی إلیهم بها العجم الجزیه.

ففزعوا لکلمته، ولقوله فقال القوم: کلمه واحده نعم وأبیک عشراً.

قالوا: فماهی؟ فقال أبوطالب: وأی کلمه هی یا ابن أخی؟

قال: «لا إله إلّااللّه».

قال: فقاموا فزعین ینفضون ثیابهم وهم یقولون: «أَ جَعَلَ الْآلِهَهَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَیْ ءٌ عُجابٌ» (۲).(۳)

۱- . السیره الحلبیه: ۱/۴۸۸.

۲- . ص: ۵.

۳- . تاریخ الطبری: ۲/۶۵-۶۶.

نماذجٌ من إيذاء قُريش وتعذيبها للمُسلمين

يومَ صدَعَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بما أُمر، وجَهر بدعوته للناس وأيس ساده قريش من قبوله لأىّ اقتراح من إقتراحاتهم بعدما سمعوه يقول: «واللّه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتّى يُظهِرَه اللّه أو أهلك دونه ما تركتُه» بدأت فى الحقيقه مرحله من أشدّ مراحل حياته، وأكثرها متاعبَ ومصاعبَ، لأنّ قريشاً كانت لا تزال إلى ذلك الوقت تراعى حرمته وتحترمه، وتسيطر على أعصابها، ولكنّها عندما فشلت فى خططها لجرّه إلى مساومتها اضطرَّت إلى تغيير نهجها وأُسلوبها معه لتقفَ دون إنتشار دينه مهما كلَّف من الثمن مستخدمه فى هذا السبيل كلّ الوسائل الممكنه.

من هنا قرّر ساده قريش بالإجماع أن يتوسَّلوا بسلاح الاستهزاء والسخريه، والإيذاء والتهديد، بهدف صرفه عن المضىّ فى دعوته.(۱)

ولا يخفى أنّ المصلح الّذى يفكّر فى هدايه العالم البشرىّ كلّه يجب أن يتزوّد بقدر كبير من الصبر والتحمّل، أمام جميع المشكلات والمتاعب، والمكاره والشدائد، ليتغلّب عليها شيئاً فشيئاً، كما كان دأب كلّ المصلحين الآخرين.

ونحن هنا نورد طرفاً من أذى قريش لرسول اللّه وأتباعه ليتّضح مدى صبر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وثباته، واستقامته على طريق الدعوه.

ولقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يتمتع - مضافاً إلى العامل الروحى والمعنوىّ الباطنى الّذى كان يساعده من الداخل، أعنى: الإيمان والصبر والإستقامه والثبات - بعامل خارجىّ تولّى حراسته وحمايته وذلك حمايه بنى هاشم، وعلى رأسهم أبوطالب له صلى الله عليه و آله و سلم؛ لأنّه عندما عرف «أبوطالب» بعزم قريش القاطع على إيذاء ابن

۱- . راجع لمعرفه أبرز من كان يؤذى النبىّ والمسلمين: المحبر: ۱۵۷ و ۱۶۱.

أخيه (محمَّد) دعا بنى هاشم عامّه، وطلب منهُم جميعاً حمايه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم والقيام دونه، فلبَّوا نداء سيّدهم، وأجابوه إلى ما دعاهم من حمايه رسول اللّه وحراسته بعضٌ بدافع الإيمان وآخر بدافع الرَّحم، إلّا «أبولهب» ورجلان آخران انضموا إلى أعداء النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ولكن هذا السياج الدفاعىّ لم يقدر - مع ذلك - على صيانته صلى الله عليه و آله و سلم من بعض الحوادث المرّه، لأنّ قريشاً ألحقت به الأذى، وأنزلت به مكروهاً، كلّما وجدته وَحيداً بعيداً عن أعين حُماته. وإليك فيما يأتى بعض النماذج من ذلك الأذى:

١. مَرَّ «أبوجهل» برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه ببعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ومولاه لعبداللّه بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادى قريش عند الكعبه، فجلس معهم، فلم يلبث «حمزه بن عبدالمطلب» رضى اللّه عنه أن أقبلَ متوشّحاً قوسَه راجعاً من قَنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتّى يطوف بالكعبه، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على ناد من قريش إلّاوقف وسلَّم وتحدَّث معهم، وكان أعز فتى فى قريش، وأشدّ شكيمه.

فلمّا مرّ بالمولاه، وقد رجع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى بيته قالت له: يا أبا عماره (وتلك هى كنيته) لو رأيت ما لقى ابنُ أخيك محمَّد آنفاً من أبى الحكم بن هشام (وتعنى أبا جهل): وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبَّه، وبلَغَ منهُ ما يُكرَه، ثم انصرف عنه ولم يكلّمه محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم.

فاحتمل «حمزه» الغضب لمّا أراد اللّه به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِدّاً لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به.

فلمّا دخل المسجد نظر إليه جالساً فی القوم، فأقبل نحوه، حتّی إذا قام علی رأسه رفع القوس فضربه بها فشجَّهُ شجّه منکره، ثم قال: «أتشمته وأنا علی دینه أقول کما یقول. فردَّ ذلک علیَّ إن استطعتَ».

فقامت رجالٌ من بنی مخزوم إلی «حمزه» لینصروا «أباجهل» فقال أبوجهل:

دعوا أبا عماره فإنّی واللّه قد سبَبْتُ ابن أخیه سبّاً قبیحاً(۱). وبهذا منع «أبو جهل» الّذی کان ممّن یدرک خطوره مثل هذه المواقف من وقوع شجار وقتال.

إنَّ التاریخ الثابت والمسلَّم یشهد بأنّ وجودَ رجال ذوی بأس وقوّه بین صفوف المسلمین مثل «حمزه» الّذی أصبح فی ما بعد من کبار قاده الإسلام، قد کان له أثرٌ کبیرٌ فی حفظ الإسلام، والحفاظ علی حیاه الرسول صلی الله علیه و آله و سلم ودعم جماعه المسلمین، وتقویه جناحهم، فهذا ابن الأثیر(۲) یقول عن حمزه: لمّا أسلم حمزه عرفت قریش أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قد عزّ وأنّ حمزه سیمنعه فکفّوا عن بعض ما کانوا ینالون منه.

من هنا أخذت قریش تفکّرُ فی إعداد خطط أُخری لمواجهه قضیه الإسلام والمسلمین، سنذکرها فی المستقبل.

هذا ویری بعضُ المؤرّخین مثل ابن کثیر الشامی(۳) علی أنّ رُدود فعل إسلام «أبی بکر» و «عمر» وأثرهما لم تکن بأقلّ من تأثیر إسلام «حمزه»، وإنَّ الدین قویَ جانبه بإسلام هذین الرجلین، وکسَبَ المسلمون بذلک القوه والحریّه فی العمل والتحرّک، والحقیقه أنّه لا شکّ فی أنّه لکلّ فرد تأثیره فی تقویه ودعم الإسلام، إلّاأنّه لا یمکن القولُ بحال بأنّ تأثیر إسلام الشیخین کان یعدل تأثیر إسلام

۱- . السیره النبویه: ۱/۱۸۸-۱۸۹؛ تاریخ الطبری: ۲/۷۲.

۲- . الکامل لابن الأثیر: ۲/۸۳.

۳- . البدایه والنهایه: ۲/۲۶ و ۳۲.

«حمزه»، فإنّ «حمزه» ما إنْ سمع بأنّ قريشاً أساءت إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلّا وتوجه، من دون أن يُعرّج على أحد، إلى المسيء وانتقم منه فى الحال أشدّ انتقام، ولم يجرؤ أحد على الوقوف فى وجهه ومنع المسيء منه، ومن غضبه وانتقامه، بينما يكتب ابن هشام فى سيرته عن «أبى بكر» أمراً يكشف عن أنّ «أبابكر» يوم دخل فى صفوف المسلمين لم يكن قادراً على حمايه نفسه، ولا على الدفاع عن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم. وإليك نصُّ الواقعه:

مرَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ذاتَ يوم على جماعه من قريش وهم جلوسٌ عندَ الحجر، فوثبوا إليه وثبه رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنتَ الّذى تقول:

كذا و كذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

نعم أنا الّذى أقولُ ذلك، فأخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه (وهم يقصدون قتله) فقام «أبوبكر» دونه وهو يبكى ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول رَبّى اللّه؟ ثمّ انصرفوا عنه (ولم يقتلوه لأمر رأوه)، فرجع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى منزله، ورجع «أبوبكر» يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه.(۱)

إنّ هذه الروايه التاريخيه إذا دلّت على مشاعر الخليفه تجاه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إلّاأنّها تدلّ قبل أى شىء على عجزه وضعفه.

إنّه يدلُّ على أنّه لم يملك ذلك اليوم أيّه مقدره بدَنيه وروحيه، ولا أيّه مكانه اجتماعيه تُرهَب، وحيث إنَّ إلحاق الأذى بشخص رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان ينطوى فى نظر قريش على عواقب لا تحمد، لذلك تركوا رسولَ اللّه، وَوَجَّهُوا ضربتهم إلى رفيقه وصدعوا فرق رأسه.

۱- . السيره النبويه: ۱/۱۸۷-۱۸۸. وقد ذكر الطبرى فى تاريخه: ۲/۷۲، قصه صدع رأس أبى بكر بالتفصيل فراجع.

ولو أنّک قارنت بین هاتین الحادثتین وقایست بین موقف «حمزه» الشجاع وموقف الخلیفه الأوّل هذا لاستطعت أن تقضی بسهوله بأنَّ عزه الإسلام وقوّه المسلمین، وتعزیز موقفهم، وخوف الکفّار کان یعود إلی إسلام أیّ واحد من ذینک الرجلین؟!

هذا وستقرأ فی القریب العاجل کیفیه إسلام «عمر». وسنری بأنَّ إسلامه - کإسلام صدیقه - لم یزد هو الآخر من قدره المسلمین الدفاعیه، وأنّهم بالتالی لم یعتزّوا بإسلامه.

فیوم أسلم «عمر» کادَ أن یُقتل لولا «العاص بن وائل السهمی» لأنّه هو الّذی خاطب الذین قصدوا قتل «عمر» قائلاً: رَجُلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تریدون [منه]؟ أترونَ بنی عَدِیّ بن کعب یسلمون لکم صاحبَهم هکذا، خلوًّا عن الرجل.(۱)

إنّ هذه العباره الّتی قالها «العاص» لإنقاذ الخلیفه الثانی من أیدی الذین اجتمعوا علی قتله تفید - بوضوح - أنّ الخوف من قبیله «عمر» هو الّذی کان وراء ترکهم إیاه وعدم قتله، وقد کان دفاعُ القبائل عن أبنائها سنّه فطریه وعاده متعارفه یومذاک، وکان یتساوی فیها الکبیر والصغیر، والشریف والوضیع.

أجل إنَ بنی هاشم هم کانوا - فی الواقع - الحصن الحقیقی للمسلمین، وقد کان القسط الأکبر من هذا الأمر یتحمّله «أبوطالب» وذووه، وإلّا فإنَّ الأشخاص الآخرین الذین کانوا ینضمُّون إلی صفوف المسلمین لم تکن لدیهم القدره علی الدفاع عن أنفسهم، فکیف بالدفاع عن الإسلام وجماعه المسلمین لیقال: بأنّ المسلمین اعتزوا بهم؟

۱- . السیره النبویه: ۱/۲۳۳.

أبوجهل يكمُن لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم

لقد أغضب تقدّمُ الإسلام المطّرد قريشاً بشدّه فلم يمرُّ يوم دون أن يبلغهم نبأ عن انضمام واحد من أفراد قريش إلى صفوف المسلمين ولأجل هذا راح مرجل الغضب والحنق على النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يغلى فى نفوسهم؛ فهذا فرعون مكّه «أبوجهل» قال لقريش فى مجلس من مجالسهم: يا معشر قريش إنّ محمَّداً قد أبى إلّا ما ترون: من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإنّى أُعاهِدُ اللّه لأَجلسنَّ له غداً بحجر ما أُطيق حمله - أو كما قال - فإذا سجد فى صلاته فضختُ به رأسه.

فلمّا أصبح «أبوجهل» أخذ حجراً كما وصَف، ثم جلس لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ينتظره، وغدا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كما كان يغدو. وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمكه وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلّى صلّى بين الركن اليمانى والحجر الأسود، وجعل الكعبه بينه وبين الشام، فقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يصلّى، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبوجهل فاعلٌ، فلمّا سجد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم احتمل «أبوجهل» الحجر، ثم أقبل نحوه، حتّى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه، مَرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتّى قذف الحجَر من يده، وقامت إليه رجالُ قريش فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلتُ لكم البارحه، فلمّا دنوتُ منه عرضَ لى دونهُ فحل من الإبل، لا واللّه ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه....(۱)

إنه ليس من شكّ فى أنَّ قوه غيبيّه أدركتْ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأمر اللّه تعالى فى تلك اللحظه، وصوّرت ذلك المنظر الرهيب، وحفظت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كما وعده

۱- . السيره النبويه: ۱/۱۹۴.

تعالى وعداً لا خلف فيه إذ قال: «إِنّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» .(۱)

وهناك نماذج كثيرةٌ من أذى قريش لشخص رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سجَّلها التاريخ فى صفحاته، وقد عقد «ابن الأثير»(۲) فصلاً خاصّاً لهذا الموضوع ذكر فيه أسماء أعداء رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الألدّاء، فى مكّه، وبيّن أنواع ما كانوا يؤذُون به النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وما قد مرّ ذكره فى الصفحات السابقه ما هو إلّانماذج من ذلك، فقد كان صلى الله عليه و آله و سلم يواجه فى كل يوم نوعاً خاصّاً من الأذى، والمضايقه.

فقد رُوى أنَّ النبىَّ صلى الله عليه و آله و سلم كان يطوف ذات يوم فشتمه «عقبه بن أبى معيط» وألقى عمامَته فى عنقه، وجرّه من المسجد، فأخذوه من يده، خوفاً مِن بنى هاشم.(۳)

أبولهب يؤذى رسول اللّه

ولقد تعرّض رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لأذى لا مثيل له من جانب عمّه «أبى لهب» وزوجته «أُم جميل» وقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يجاورهم، فلم يألوا جهداً فى إزعاجه وإيذائه فكم من مرّه ومره ألقيا الرماد والتراب على رأسه الشريف وثيابه.

وكم من مرّه نشرت أُمّ جميل الشوك على طريقه، أو جمعته على باب بيته لتؤذيه عند الخروج.

ولا شكّ أنّ معارضَه أنسباء النبىّ وأقربائه لدعوته المباركه، وإيذاؤهم إيّاه كان أكثر إيلاماً لنفسه الشريفه، وأشدّ وقعاً عليها، حتّى أنّنا نجد القرآن يخصّ أبا

۱- . الحجر: ۹۵.

۲- . الكامل فى التاريخ: ۲/۷۰ كما وعقد المجلسى رحمه اللّه فى البحار: ۱۸/۱۴۸-۲۴۳، باباًخاصاً بعنوان: «باب المبعث واظهار الدعوه وما لقى (صلّى اللّه عليه وآله) من القوم.

۳- . مناقب ابن شهر آشوب: ۱/۵۲؛ وفى السيره الحلبيه: ۱/۲۹۳ نظيره.

لهب باللعن وينزل سوره خاصّه به وبزوجته ممّا يكشف عن هذه الحقيقه إذ يقول:

«تَبَّتْ يَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ * ما أَغْنی عَنْهُ مالُهُ وَ ما کَسَبَ * سَیَصْلی ناراً ذاتَ لَهَبٍ * وَ امْرَأَتُهُ حَمّالَهَ الْحَطَبِ * فِی جِیدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ» .(۱)

صبر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم واستقامته

ولکنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کان یواجه کلّ ذلک الأذی وما شابهه من التحجّجات - الّتی سنشیر إلیها - بصبر عظیم، وثبات تتعجّب منه الجبال الشمّاء، وذلک إیماناً منه برسالته.

إیذاء المسلمین وتعذیبُهم!

اشاره

یرجع تقدّمُ الإسلام فی مطلع عهد الرساله إلی عوامل منها: ثبات رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم نفسه، وثباتُ أتباعه وأنصاره.

ولقد تعرّفنا - فی ما سبق - علی أمثله ونماذج من ثبات قائد الإسلام الأکبر وصبره، واستقامته فی ما لقی من أذیً ومضایقه.

علی أنّ ثبات أنصاره وأتباعه الذین آمنوا فی مکّه (مرکز الحکومه الوثنیه آنذاک) هو الآخر ممّا یدعو إلی الإعجاب ویستحقّ الاحترام. وسنذکر صمودَهم وثباتهم فی حوادث ما بعد الهجره فی محلّه.

وأمّا هنا فنسلّطُ الضوء علی حیاه عدد من أتباع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم القدامی الذین تحمّلوا أشدّ أنواع العذاب وکانوا یعیشون فی المحیط المکّی حیث لم یکن ملجأ لهم یلجأون إلیه، وهاجروا منه لأغراض الدعوه والتبلیغ بعد أن تحمّلوا شیئاً

۱- . المسد: ۱-۵.

كثيراً من الإيذاء والتعذيب على أيدى المشركين والوثنيين القساه.

١. بلال الحبشى:

كان أبواهُ ممّن أُسروا فى الجاهليه وجىء بهم من الحبشه إلى جزيره العرب ثم إلى مكّه.

وأمّا بلال الّذى أصبح فى ما بعد مؤذّن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فقد كان غلاماً ل «أُميّه بن خلف» الّذى كان من أشدّ أعداء النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم.

وحيث إنّ عشيره النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم تولَّتِ الدِفاع عنه صلى الله عليه و آله و سلم وحمايته ولم يتمكّن أُميه من إلحاق الأذى برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عمد إلى تعذيب غلامه بلال الّذى أسلم، أمام الناس، بأشدّ أنواع الأذى والتعذيب انتقاماً، وتشفّياً.

فقد كان أُميّه بن خلف يُخرجه إذا حميت الظهيره، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكّه، ثم يأمر بالصخره العظيمه فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتّى تموت، أو تكفر بمحمَّد، وتعبد اللّات والعزّى، فيقول وَهو فى ذلك البلاء: أَحَدٌ أَحَدٌ.(١)

ولقد أثار ثباتُ هذا الغلام الأسود وجلدُهُ وصبرُه على أذى سيّده، إعجابَ الآخرين، حتّى كان «ورقه بن نوفل» يمرّ به وهو يعذّب بذلك، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدْ، فيقول: أحد أحد واللّه يا بلال ثم يقبل على أُميّه بن خلف ومن يصنع ذلك به من «بنى جمح» فيقول: أحلف باللّه لئن قتلتموه على هذا لأتخذنّه حناناً (أى لأجعلنَّ قبره متبرّكاً ومزاراً).(٢)

وربّما زاد «أُميّه» من تعذيبه لبلال فربط حبلاً بعنقه وترك الصبيان يديرون به

١- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢١٠.

٢- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢١٠.

فی الأزقه والسکک.(۱) وقد أَسِر «أَمیّه» وابنه فی معرکه «بدر» وکانا أوّلَ من أَسِرا من المشرکین، ولم یوافق بعضُ المسلمین علی قتلهما ولکنّ بلالاً ـ قال: «رأسُ الکفر أُمیّه بن خلف لا ـ نجوتُ إنْ نجا». وأدّی إصرارُ بلال علی قتلهما إلی قتل أُمیّه وابنه جزاء أعمالهما الظالمه.(۲)

۲. آلُ یاسر رمز الصمود والمقاومه!

کان «عَمّار» ووالداه من السابقین إلی الإسلام فهم أسلموا یوم کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یلتقی بأصحابه ویدعو إلی الإسلام فی بیت «الأرقم بن أبی الأرقم»، وعندما عرف المشرکون بانضمامهم إلی صفوف المسلمین عمدوا إلی إیذائهم وتعذیبهم ولم یألوا جهداً فی ذلک أبداً.

فقد کان المشرکون یخرجون «عمّاراً» وأباه «یاسر» وأُمَّه «سُمیّه» فی وقت الظهیره إلی رمضاء مکّه لیقضوا ساعات طویله تحت أشعه الشمس الحارقه، وفوق الرّمال الملتهبه والصخور المتّقده کأنّها الجمرات.

وقد تکرّر هذا العذابُ مرّات عدیده حتّی أودی بحیاه «یاسر» فقضی نحبَه علی تلک الحال.

وقد خاشنت زوجتُه «سُمیّه» أبا جَهل وکلمته فی زوجها بغلیظ القول، فطعنها اللعین برمح فی قلبها فقضت - هی الأُخری - نحبَها، وکانا أوّلَ شهیدین فی الإسلام.(۳)

وقد آلم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ما شاهده من حالهما وهما یعذّبان بأشد أنواع

۱- . لاحظ: الطبقات الکبری لابن سعد: ۳/۲۳۳.

۲- . لاحظ: تاریخ الطبری: ۲/۱۵۳؛ السیره النبویه لابن هشام: ۲/۴۶۱.

۳- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۸/۲۴۱؛ والسیره الحلبیه: ۱/۴۸۳.

العذاب فقال لهُما ولولدهما «عمّار» وهو يصبّرهم، والدموع تنحدر على خدّيه:

«صَبراً آلَ ياسِر فإنّ موعدكم الجنه».(۱)

وبعد أن قضى والدا «عمّار» نحبَهما تحت التعذيب بالغ المشركون القساه فى تعذيب «عَمّار» وإيذائه والتنكيل به، وأخذوا يعذّبونه على نحو ما كانوا يعذّبون به بلالاً، وهم يقصدون قتله، وإلحاقه بأبويه!! أو يتبرّأ من دين النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فاضطر إلى أن يعطيهم ما يريدون ويظهر الرجوع عن الإسلام، إبقاء على نفسه، وتقيّه منهم فتركوه، وانصرفوا عن قتله، ولكنّه سرعان ما ندم على فعله من التظاهر بترك الإسلام وتألّم من ذلك فجاء إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو يبكى، فقال له النبىّ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال: إن عادوا فعد، فنزلت الآيه التاليه فى إيمان عمّار: «إِنَّما يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ * مَنْ كَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ» (۲).(۳)

هذا وروى أنّ أباجهل حينما قصد تعذيب «آل ياسر» وكانوا أضعف مَن بمكّه أمر بسوط ونارٍ ثم سحبوا عمّاراً وأبويه على الأرض، فكان يكوى بطرف السيف والخنجر المحمى بالنار المشتعله أبدانهم، ويضربهم بالسوط ضرباً شديداً.

وقد تكرّر هذا العمل القاسى كثيراً حتّى استشهد «ياسر» وزوجته «سُميّه» بسبب ذلك التعذيب المرير، ولكن دون أن يفتئا حتّى النفس الأخير عن مدح رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والإشاده بدينه.

ولقد أثار هذا المنظر المؤلم مشاعر فتيان من قريش فأقدموا - رغم عدائهم للإسلام ومشاركتهم لغيرهم من المشركين فى بغض الرسول - على تخليص

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۱۱؛ السيره الحلبيه: ۱/۴۸۲.

۲- . النحل: ۱۰۵ و ۱۰۶.

۳- . الدّر المنثور: ۴/۱۳۲ عند تفسير الآيتين المذكورتين.

«عمّار» الجريح المنهك عذاباً من براثن «أبى جهل» ليتمكّن من مواراه أبويه الشهيدين.

۳. عَبدُاللّه بن مسعود

تشاور المسلمون فى ما بينهم فى مقرّهم السرّى فى مَن يجهر بالقرآن على مسامع قريش، فى المسجد الحرام لأنّها لم تسمع منه شيئاً إذ قالوا: واللّه ما سَمِعَتْ قريشٌ هذا القرآن يجهر لها قط فمَنْ رَجُلٌ يُسمِعُهُموه؟

فقال عبداللّه بن مسعود: أنا.

قالُوا: إنّا نخشاهم عليك، إنّما نريد رجلاً له عشيره يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال: دَعونى فإنّ اللّه سيمنعنى.

قال: فغدا «ابن مسعود» حتّى أتى المقامَ فى وقت الضحى وقريش فى أنديتها، حتّى قام عند المقام ثم قرأ: «بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» رافعاً بها صوته، «اَلرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ» .

قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأمّلوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أُم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنّه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعَلوا يضربون فى وجهه، وجعل يقرأ حتّى بلَغَ منها ماشاء اللّه أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا فى وجهه فقالوا له: هذا الّذى خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء اللّه أهون علىّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً....(۱)

۱- . السيره النبويه: ۱/۲۰۶.

۴. أبوذر: أوّل المجاهرين بالإسلام

كـان «أبوذر» رابع أو خامس من أسـلم(۱)، وعلى هـذا فهو من الـذين أسـلموا فى الأيّام الأُولى من بزوغ شـمس الإسـلام وطلوع فجره، فإذَنْ هو من السابقين إلى الإسلام.

وقـد صـرّح القرآنُ الكريمُ بـأنّ للـذين سـبقوا إلى الإيمـان برسول اللّه فى بـدء بعثته وبالتـالى فـإنَ للسابقين عنـداللّه تعالى مكانه عظيمه، ومقاماً لا يضاهى إذ قال تعالى: «وَ السّابِقُونَ السّابِقُونَ * أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» (۲)، وقال تعالى فيهم أيضاً:

«وَ السّـابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهـاجِرِينَ وَ الْأَنْصـارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسـانٍ رَضِـيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَـدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .(۳)

وقال تعالى كذلك فى من آمن قبل فتح مكّه وفضـلِهم، ومكانتهم المعنويه المتفوّقه على مَن أسـلم بعدَ إعتزاز الإسـلام، واشتداد أمره، وقيام دَوْلته يعنى أنّهم ليسوا سواء.

«وَ مـا لَكُمْ أَلاّ تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ وَ لِلّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا يَسْـتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْـحِ وَ قاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَهً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا...» .(۴)

أجل هذه هى مكانه السابقين فى الإسلام وكان «أبوذر» منهم.

هذا مضافاً إلى أنَّه يُعَدُّ أوّل من نادى بالإسلام على رؤوس الأشهاد وفى الملأ من قريش.

۱- . أُسد الغابه: ۵/۱۸۶؛ الإصابه: ۷/۱۰۷؛ الإستيعاب: ۱/۲۵۲ برقم ۳۳۹ و ج ۴/۱۶۵۳.

۲- . الواقعه: ۱۰-۱۱.

۳- . التوبه: ۱۰۰.

۴- . الحديد: ۱۰.

فيومَ أسلم «أبوذر» كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يدعو الناس إلى الإسلام سرّاً، ولم تتهيّأ بعدُ ظروفُ الجَهْر بالدعوه إلى هذا الدّين، فإنَّ أتباع الإسلام والمؤمنين به لم يتجاوز عددُهم فى ذلك اليوم عدد الأصابع، هم: النبيُّ صلى الله عليه و آله و سلم وخمسه ممّن آمنُوا به، وقبلوا دعوته، ومع ملاحظه هذه الإعتبارات والظروف لم يكن بدّ - حسب الظاهر - من أن يُخفى «أبوذر» إسلامَه، ويعودَ إلى قبيلته من دون أن يعرف به أحدٌ فى مكّه.

ولكنَّ روحَ «أبى ذر» الطافحه بالإيمان والحماس أبت ذلك، وكأنّه قد خُلِقَ لينهض فى كلّ زمان ومكان ضدّ الظلم والطغيان، ويرفع عقيدته فى وجه الباطل وأهله، ويكافح الإنحراف والإعوجاج أيّاً كان مصدرُه، وصاحبه. وأىُّ باطل أكبر من أن يُطأطِئ الناسُ أمامَ أصنامٍ مصنوعهٍ من الحجر، ويخضعوا أمام أوثان منحوته من الخشب لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تعطى ولا تمنع، ويسجدوا لها ويتخذوها آلهه دون اللّه الخالق الكبير المتعال؟؟

إنّه ليس فى وسع «أبى ذر» أن يتحمَّل هذا المشهد البغيض المقرف!!

من هنا قال لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد أن مكث فى مكّه قليلاً و قرأ شيئاً من القرآن: يا نبىّ اللّه ما تأمرنى؟

قال: ترجعُ إلى قومك حتّى يبلُغك أمرى.

فقال له: والّذى نفسى بيده لا أرجع حتّى أصرخ بالإسلام فى المسجد.

قال: فدخل المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلّااللّه، وأنَّ محمَّداً عبدهُ ورسوله.

قال: فقال المشركون: صبأ الرجل صبأ الرجل، فضربوه حتّى صُرِع، فأتاه العباس بن عبدالمطلب فأكبّ عليه - بطريقه لطيفه - وقال: قتلتم الرجل يا معشر قريش! أنتم تجّار طريقكم على غفار، فتريدون أن يقطع الطريق، فأمسكوا

عنه.

ثم عاد اليوم الثانى فصنع مثل ذلك ثم ضربوه حتّى صرع، فأكب عليه العباس وقال لهم مثل ما قال فى أوّل مرّه، فأمسكوا عنه.(۱)

ولا شكّ فى أنّه لو لم يكن العباس لما نجا أبوذر من مخالب المشركين فى أغلب الظن، ولكن أباذر لم يكن بذلك الرجل الّذى يتراجع عن هدفه بسرعه، ولهذا بدأ جهاده من جديد.

ففى يوم رأى امرأه تطوف بالبيت، وتدعو ساف و نائله (وهما صنمان لقريش) وتسألهما أن يقضيا لها حاجاتها، فانزعج أبوذر من جهل تلك المرأه، ولكى يفهمها بأنّها تدعو صنمين لا يضرّان ولا ينفعان بل ولا يشعران قال: أنكحى أحدهما صاحبه. فتعلّقت به وقالت: أنت صابئ، فجاء فتيه من قريش فضربوه، وجاء ناس من بنى بكر فنصروه.(۲)

قبيلهُ غِفار تعتنق الإسلام

لقد أدرك رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم قابليات تلميذه وناصره الجديد، وصلابته الخارقه فى مكافحه الباطل، ولكن حيث إنّ الوقت لم يكن يحنْ بعد للدخول فى مواجهه ساخنه مع المشركين لهذا أمره رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأن يلحق بقومه، ويدعوهم إلى الإسلام، قائلاً له: «إلحق بقومك فإذا بلغك ظهورى فأتنى».

فعاد أبوذر إلى قومه، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام ويكلّمهم عن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ويدعوهم إلى نبذ الأصنام وعباده اللّه الواحد، والتخلّق بالأخلاق الرغيبه.

۱- . الطبقات الكبرى: ۴/۲۲۵؛ ولاحظ: الاستيعاب: ۴/۱۶۵۴؛ الإصابه: ۷/۱۰۶؛ الدّرجات الرفيعه: ۲۲۸.

۲- . الطبقات الكبرى: ۴/۲۲۳.

فأسلم أبواه، أوّلاً، ثم أسلم نصف رجال قبيلته «غفار» ثم اختار البقيه الإسلام بعد هجره النبىّ إلى المدينه، ثم تبعتها قبيله «أسلم» حيث وفدوا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم واعتنقوا الإسلام.

ثم التحق أبوذر بعد معركه بدر وأُحد برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى المدينه وأقام فيها.(۱)

وربّما كان إيذاء المشركين للمسلمين المؤمنين برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يتّخذ طابع التهديد والترهيب وممارسه الضغط النفسى والاقتصادى والاجتماعى.

فقد كان أبوجهل إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعه أنّبه وأخزاه، وقال له: تركتَ دين أبيك وهو خير منك، لنُسَفِّهَنَّ حلمَك، ولنفيلنَّ رأيك، ولنضعنَّ شرفك.

وإن كان تاجراً قال له: لنكسدنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك.

وإن كان ضعيفاً ضربَهُ، وأغرى به.(۲)

وروى أيضاً أنّ «خبّاب بن الأرت» صاحب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان قيناً بمكّه يعمل السيوف وكان قد باع من «العاص بن وائل» سيوفاً عملها له حتّى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال له: يا خَبّاب أليس يزعم «محمَّد» صاحبكم هذا الّذى أنت على دينه أنّ فى الجنه ما ابتغى أهلُها من ذهب أو فضه أو ثياب أو خدم، قال خبّاب: بلى، قال: فأنظِرنى إلى يوم القيامه يا خبّاب حتّى أرجعَ إلى تلك الدار، فأقضيك هنالك حقّك، فواللّه لا تكونُ أنت وصاحبك يا خبّاب آثر عنداللّه

۱- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ۴/۲۲۱ و ۲۲۲ و ۲۲۶؛ الدرجات الرفيعه: ۲۲۵ و ۲۲۶ و ۲۲۹ و ۲۳۰.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۱۱. قوله: لنفيلن رأيك: أى نضعفه ونفسده.

منّی!!(۱)

أعداء النبیّ الألدّاء

إنّ للتعرّف علی أعداء رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وخصومه الألدّاء، ومواقفهم دوراً هاماً فی تحلیل جمله من حوادث التاریخ الإسلامی الّتی وقعت بعد الهجره النبویه.

ونحن نکتفی هنا بإدراج أسماء طائفه منهم ونذکر شیئاً من خصوصیاتهم.

۱. «أبولهب»: عمّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، وقد کان جاراً له صلی الله علیه و آله و سلم وهو الَّذی لم یفتأ لحظه واحده عن تکذیب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وإیذاء المسلمین.

۲. «الأسود بن عبد یغوث» وکان أحد المستهزئین وهو ابن خال النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم کان إذا رأی المسلمین قال لأصحابه استهزاءً: قد جاءکم ملوک الأَرض الذین یرثون کسری وقیصر!!(۲)

ولم یمهله أجلُه لیری بأُمّ عینیه کیف ورث المسلمون أرض کسری وقیصر، ووطأوا عرشهما.

۳. «الولید بن المغیره» شیخ قریش وحکیمها الّذی کان یملک ثروه هائله، وسوف نتحدّث عنه وعن موقفه من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الفصل القادم.

۴. «أُمیّه» و «أُبیّ» ابنا خلف، وقد مشی «أُبی» هذا بعظم رمیم إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ذات یوم ففتّه فی یده ثم نفخه نحو النبیّ وقال: أتزعم أنّ ربک یُحیی هذا بعدما تری (أو بعدما رمّ)؟ فأنزل اللّه تعالی: «وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ * قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۱/۲۳۸.

۲- . السیره الحلبیه: ۱/۵۱۱.

عَلِيمٌ» .(۱)

وقد قتل ابنا خلف هذان فی بَدْر. ۵. «أبو الحکم بن هشام» الّذی سـمّاه المسلمون لعناده وتعصُّبه الجاهل ضدّ الإسلام بأبی جهل، وقد قُتل هو الآخر فی بدر أیضاً.

۶. «العاص بن وائل» وهو والد «عمرو بن العاص»، وهو الّذی وصف رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بالأبتر.

۷. «عقبه بن أبی معیط» الّذی کان من ألدّ أعداء النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم، وأشدّ خصومه بغضاً له صلی الله علیه و آله و سلم، وکان لا یألو جهداً فی مضایقه المسلمین ولا یترک فرصهً تمرّ دون إیذائهم!.(۲)

هؤلاء هـم بعض أعـداء رسـول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم المبـالغین فی معـاداته، وهنـاک غیرُهم کـأبی سـفیان ممّن ذکر المؤرّخون خصوصیاتهم کامله فی مؤلّفاتهم، وقد أعرضنا عن إدراجهم بأجمعهم هنا رعایه للاختصار.

عمر بن الخطاب یعتنق الإسلام

لقد کان إسلام کلّ واحد من الذین أجابوا دعوه الرسول صلی الله علیه و آله و سلم نابعاً من سبب معیَّن.

فربَّما أدَّت حادثهٌ صغیرهٌ إلی أن یعتنق فردٌ أو فریقٌ الإسلام، وینضمُّوا إلی صفوف المسلمین.

وقد اتّسمَ السَّبَبُ الّذی آل إلی إسـلام عمر - من بین جمیع تلکم الأسباب والعلل - بطرافه تقتضی التوقّف عنده فی هذه الدراسه التاریخیه التحلیلیه.

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۷/۳۴؛ السیره النبویه لابن هشام: ۱/۲۴۲-۲۴۳.

۲- . الکامل فی التاریخ: ۲/۷۴. وراجع أیضاً أُسد الغابه، والإصابه والاستیعاب وغیرها.

على أنّ التسلسل التاريخی، والتنظيم الوقائعی لأحداث الإسلام وإن كان يقتضی منّا أن نأتی على ذكر هذه الحادثه بعد هجره صحابه النبیّ صلى الله عليه و آله و سلم إلى الحبشه، إلّا أنّ الحديث حيث دار هنا حول صحابه النبیّ وكيفيه إسلامهم ومواقفهم، ناسب أن نشير هنا إلى كيفيه إسلام الخليفه الثانی.

يقول ابن هشام: كان إسلام عمر - فی ما بلغنی - أنّ أُخته فاطمه بنت الخطاب وكانت عند «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» وكانت قد أسلمت وأسلمَ زوجها «سعيدُ بن زيد»، وهما مستخفيان بإسلامهما من عُمَر (وهؤلاء هم كُلٌّ من أسلم من آل الخطاب) وكان خبّاب بن الأرت يختلف إلى فاطمه بنت الخطاب يُقرئها القرآن.

(وكان «عُمر» الّذی كانت بينه وبين المسلمين علاقات سيئه جدّاً قد أزعجه ما أصابَ المجتمع المكّی من تشتُّت وفرقه، وما لحق بقريش من المتاعب إثر ظهور الإسلام، من هنا عزم على أن يقضی على علّه هذا الأمر باغتيال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والفتك به).

فخرج عمر يوماً متوشّحاً سيفَه يريد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ورهطاً من أصحابه، وقد ذكروا له أنّهم قد اجتمعوا فی بيتٍ عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عمّه «حمزه» بن عبدالمطلب و «أبوبكر» و «على بن أبی طالب» فی رجال من المسلمين ممّن كان أقام مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمكّه ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشه، فلقيه «نعيم بن عبداللّه» (وقد كان صديقاً حميماً لعمر) فقال له: أينَ تريد يا عمر؟

فقال: أُريد محمَّداً هذا الصابئ، الّذی فرّق فی أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعابَ دينها، وسبَّ آلِهتها، فأقتُله.

فقال له نعيم: واللّه لقد غرّتك نفسُك من نفسِك يا عمر، أترى بنی عبد مناف

تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلتَ محمَّداً!! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرَهم؟ قال: وأىُ أهل بيتى؟

قال: ختنُك وابنُ عمّك «سعيد بن زيد» وأُختك «فاطمه بنت الخطاب» فقد واللّه أسلما، وتابعا محمَّداً على دينه فعليك بهما.

(فأغضب هذا النبأُ عُمر بشدّه فانصرف عن الهدف الّذى كان يرمى إليه) قال:

فرجع عمر عامداً إلى أُخته وختنه، وعندهما «خبّاب بن الأرت» معه صحيفه فيها سوره «طه» يقرئُهما إيّاها، فلمّا سمعوا حسّ «عُمر» تغيّب «خبّاب» فى مخدع لهم، أوفى بعض البيت، وأخفت «فاطمه بنت الخطاب» الصحيفه فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع «عُمر» حين دنا إلى البيت قراءه «خبّاب» عليهما، فلمّا دخل قال: ما هذه الهينمه(۱) الّتى سمعت؟

قالا له: ما سمعتَ شيئاً.

قال: بلى واللّه، لقد أُخبرِتُ أنّكما تابعتما محمَّداً على دينه.

وبطش بختنه «سعيد بن زيد» فقامت إليه أُختُه «فاطمه بنت الخطاب» لتكفَّه عن زوجها، فضربها فشجَّها.

فلمّا فعل ذلك قالت له أُخته وختنُه: نعم قد أسلمنا وآمنّا باللّه ورسوله، فاصنعْ ما بدا لك.

فلمّا رأى «عُمر» ما بأُخته من الدَّم نَدمَ على ما صنع، فارعوى، وقال لأُخته:

أعطينى هذه الصحيفه الّتى سمعتكم تقرأون آنفاً أنظرُ ما هذا الّذى جاء به محمَّد؟

فلمّا قال ذلك قالت له أُخته: إنّا نخشاك عليها. قال: لا تخافى وحلف لها

۱- . الهينمه: صوت كلام لا يُفهم.

بآلهته ليَرُدّنها إذا قرأها، إليها.

فلمّا قال ذلك طمعت فی إسلامه، فقالت له: يا أُخيّ، إنّك نجسٌ علی شِركك وإنّه لا يمسُّها إلّاالطاهر، فقامَ «عمر» فاغتسل، فأعطته الصحيفه وفيها (آياتٌ من سوره) «طه» هی:

«طه * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقی * إِلاّ تَذْكِرَهً لِمَنْ يَخْشی * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلی * اَلرَّحْمنُ عَلَی الْعَرْشِ اسْتَوی * لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّری * وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفی» (۱).

فقرأها، فلمّا قرأ منها صدراً - تركت هذه الآياتُ المحكمه الفصيحه البليغه تأثيراً شديداً فی نفسه - قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه...؟

(وقرر الرجلُ، الّذی كان قبل ثوان عدوَّ الإسلام الأوّل، أن يُغيّر موقفه، فتوجّه إلی البيت الّذی ذكر له أنَّ فيه رسول صلی الله عليه و آله و سلم وجماعه من أصحابه وهو متوشّح سيفَه)، فضربَ عليهم الباب، فلمّا سَمِعُوا صوته قام رجلٌ مِن أصحاب رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشّحاً السيفَ، فرجَع إلی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم وهو فزع فقال: يا رسول اللّه: هذا عمر متوشّحاً السيف، فقال حمزه: فائذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسولُ اللّه صلی الله عليه و آله و سلم: إئذن له، فأذِنَ له الرجل، ونهض إليه رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم حتّی لقيه فی الحجره، فأخذ حجزته (وهو موضع شد الإزار) أو بمجمع ردائه ثم جَبذَهُ جبذَهً شديدهَ، وقال: ما جاء بك يابن الخطاب فواللّه ما أری أن تنتهی حتّی ينزل اللّه بك قارعه؟!

فقال عُمر: يا رسول اللّه جئتك لأُؤمن باللّه وبرسوله وبماجاء من عند

۱- . طه: ۱-۷.

اللّه.(۱)

وهكذا أسلم «عمر» عند رسول اللّه وأصحابه وانضوى إلى صفوف المسلمين.

ثم إنّ ابن هشام روى روايه أُخرى فى كيفيه إسلام عمر مَن أراد الوقوف عليها راجعها فى السيره النبويه.(۲)

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۲۹-۲۳۱.

۲- . لاحظ: السيره النبويه: ۱/۲۳۲.

۱۷ رأی قریش فی القرآن

اشاره

إنّ البحث حول حقیقه الإعجاز القرآنی أمرٌ خارج عن إطار هدفنا فی هذا الکتاب، فذلک متروکٌ إلی الکتب الإعتقادیه والکلامیه.

ولکن الأبحاثَ التاریخیَّه تهدینا إلی أنّ القرآن الکریم کان مَن أکبر وأقوی أسلحه الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم بحیث خضع أمام فصاحته البالغه وحلاوه کلماته وقوه آیاته، وعباراته، أساتذه الفصاحه والبلاغه وأُمراء البیان والکلام، وعمالقه الکتابه والخطابه، واعترفوا برمَّتهم، وقضّهم وقضیضهم بأَنَّ القرآن الّذی جاء به محمَّد یحتل أعلی مکان فی الفصاحه والبلاغه، وأنَّ مثل هذا الحدیث لم یعرفه البشر ولم یعهد له التاریخ الإنسانی نظیراً.

فلقد کانت جاذبیّه «القرآن الکریم» وتأثیر حدیثه بحیث ترتعد عند استماع آیاته فرائص أعدی أعدائه، وربّما انهارت قواه، فبقی مده طویله، لا یقوی علی حِراک، ولا یملک فعل شیء.

وفیما یلی نذکر بعض النماذج فی هذا المجال:

رأی الوَلید فی القرآن:

کان «الولیدُ بن المغیره» ممّن ترجُع إلیه العربُ لحلّ الکثیر من مشاکلهم، وکان ذا سنٍّ، وثروه کبیره فیهم.

وعندما واجهت قریش مشکله ظهور الإسلام وانتشاره فی القبائل مشی فریقٌ منهم إلی الولید یلتمسون منه حلّاً لهذا الأمر الّذی بات یهدّد کیان الزعامه

المكيّه الجاهليه، وطلبوا منه أن يبيّن رأيه فى القرآن الكريم وقالوا له: يا أبا عبد شمس ما هذا الّذى يقول محمد أسحر، أم كهانه، أم خطب؟

فقال: دعونى أسمع كلامه، فدنا من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو جالس فى الحجر، فقال: يا محمَّد أنشدْنى من شعرك.

فقال النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم: ما هو بشعر، ولكنّه كلام اللّه الّذى به بعث أنبياءه ورسله.

فقال: اتلُ علىّ منه، فقرأ عليه رسول اللّه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم».

فلمّا سمع: الرحمن، استهزأ منه وقال: تدعو إلى رجل باليمامه يُسمّى الرحمن؟

قال. لا، ولكنّى أدعو إلى اللّه وهو الرحمن الرحيم ثم افتتح سوره «حم السجده»، فلمّا بلغ إلى قوله تعالى:

«فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَهً مِثْلَ صاعِقَهِ عادٍ وَ ثَمُودَ» .(۱)

فلمّا سمعه (الوليد)، اقشعر جلده، وقامت كلّ شعره فى رأسه ولحيته، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا أبا الحكم صبا أبو عبد شمس إلى دين محمَّد، أما تراه لم يرجع إلينا وقد قبل قوله، ومضى إلى منزله.

فاغتمّت قريش من ذلك غمّاً شديداً، وغدا عليه أبوجهل فقال: يا عم نكّست برؤوسنا وفضحتنا.

قال: وما ذاك يا ابن أخى؟

قال: صبوت إلى دين محمَّد.

۱- . فصّلت: ۱۳.

قال: ما صبوتُ وإنّی علی دین قومی وآبائی، ولکنّی سمعت کلاماً صعباً تقشعر منه الجلود، قال أبوجهل: أشِعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطبٌ هی؟

قال: لا وإنّ الخطب کلام متّصل، وهذا کلام منثور، لا یشبه بعضُه بعضاً، له طلاوه.

قال: کهانه هی؟

قال: لا.

قال: فما هو؟

قال: دعنی أَفکر فیه.

فلمّا کان من الغد، قالوا: یا أبا عبد شمس ما تقول؟ قال: قولوا: هو سحر فإنّه أخذ بقلوب الناس فأنزل اللّه تعالی فیه:

«ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِیداً * وَ جَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً * وَ بَنِینَ شُهُوداً» إلی قوله: «عَلَیْها تِسْعَهَ عَشَرَ» (۱).(۲)

***

رأی عتبه بن ربیعه فی القرآن

کان «عتبه بن ربیعه» من کبراء قریش وأشرافها، ویوم أسلم «حمزه» وأصبح أصحاب رسول اللّه یزیدون ویکثرون اغتمّت قریش کلّها، وخشی زعماء المشرکین أن ینتشر الإسلام أکثر من هذا، فقال عتبه یوماً وهو جالس فی نادی

۱- . المدثر: ۱۱-۳۰.

۲- . بحار الأنوار: ۱۷/۲۱۱-۲۱۲؛ إعلام الوری بأعلام الهدی: ۱/۱۱۰-۱۱۲.

قريش، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى «محمَّد» فأكلّمه وأعرض عليه أُموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء ويكف عنّا؟

فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه. فقام إليه «عتبه» حتّى جلس إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فقال: يابن أخى إنّك منّا حيث ما قد علمت من الشرف فى العشيره، والمكان فى النسب، وإنّك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامَهم، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفّرت به مَن مضى من آبائهم، فاسمع منّى أُعرض عليك أُموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منّا بعضَها، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخى إن كنتَ إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سَوَّدناك علينا حتّى لانقطع أمراً دونك، وإن كنتَ تريدُ به مُلكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الّذى يأتيك رئيّاً (وهو ما يتراءى للناس من الجنّ) تراه لا تستطيع ردَّهُ عن نفسك، طلبنا لك الطبَّ، وبذَلنا فيه أموالنا حتّى نُبرئك منه، فإنّه ربّما غلب التابع على الرجل حتّى يداوى منه؛ حتّى إذا فرغ «عتبه»، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يستمع منه قال: أقد فرغتَ يا أبا الوليد؟ قال: نعم قال: فاسمع منّى؛ قال: أفعل، قال:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَ قالُوا قُلُوبُنا فِى أَكِنَّهٍ مِمّا تَدْعُونا إِلَيْهِ».(۱)

ثم مضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فيها يقرؤها عليه، فلمّا سمعها منه «عتبه» أنصت لها وألقى يديه خلفَ ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، (وبقى على هذه مده من

۱- . فصلت: ۱-۵.

الزمن صامتاً وكأنّه قد سُلِبَ قدره النطق)، ثم انتهى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى السجده فسجد ثم قال:

«قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ فأنتَ وذاك».

فقام «عتبه» إلى أصحابه (وقد تغيَّرت ملامحُه) فقال بعضهم لبعض: نحلف باللّه لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الّذى ذهبَ به!! فلمّا جَلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائى أنّى قد سمعت قولاً واللّه ما سمعت مثله قط، واللّه ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانه، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فواللّه ليكوننَّ لقوله الّذى سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تصِبهُ العربُ فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه ملكُكُم، وعزُّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرَكَ واللّه يا أبا الوليد بلسانه!!

قال: هذا رأيى فيه، فاصنَعوا ما بدا لكم.(۱)

هذان نموذجان من رأى كبار فصحاء العرب فى العهد الجاهلىّ، فى القرآن الكريم.

على أنّ هناك أمثله ونماذج أُخرى كثيره فى هذا المجال.

تحجّجاتُ قريش العجيبه:

اجتمع «عتبه بن ربيعه»، و «شيبه بن ربيعه» و «أبوسفيان بن حرب» و «النضر بن الحارث»، و «أبو البخترى»، و «الوليد بن المغيره»، و «أبوجهل»

۱- . السيره النبويه: ۱/۱۸۹-۱۹۰.

و «العاص بن وائل» وغيرهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبه، ثم قال بعضهم لبعض: إبعثوا إلى «محمَّد» فكّلِمُوه، وخاصموه حتّى تعذروا فيه، فبعثوا إليه؛ فجاءهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلَّمهم فيه بداء وأنّهم قد غَيَّروا مواقفهم، وكان يحبّ رشدهم وهدايتهم حتّى جلس إليهم. فقالوا له: يا محمَّد إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمكَ، وانّا واللّه ما نعلم رجلاً ـ من العرب أدخلَ على قومه مثلَ ما أدخلتَ على قومك لقد شتمتَ الآباء، وعبتَ الدّين، وشتمت الآلهه... ومضوا يعدّدون أُموراً من هذا القبيل ثم اقترحوا عليه أُموراً ذكرها اللّه تعالى بتمامها فى الآيه ۹۰ إلى ۹۳ من سوره الإسراء حيث يقول حاكياً عن لسانهم:

«وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى

۱. تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا

۲. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا

۳. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا

۴. أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلَائِكَهِ قَبِيلاً

۵. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ

۶. أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ» !!

***

وحيث إنَّ مضمون هذه الآيات هو عدم تلبيه النبىّ لِمطالبِ قُريش حيث قال: «قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلّا بَشَراً رَسُولاً» قد تذرّع به المستشرقون للإيقاع بالرساله المحمَّديه لذلك نعمد هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات والعلل المنطقيّه لعدم تلبيه النبىّ مطالب قريش ومقترحاتهم.

الجواب: إنَّ الأنبياء لا يأتون بالمعاجز فی کلّ ظرف و زمان، فإنّ للإعجاز شروطاً خاصه لم تتوفّر فی هذه الاقتراحات، وهذه الشروط هی:

أوّلاً: أن لا تکون المعجزه من الأُمور المستحیله الّتی لا یمکن تحقّقها، فإنّ مثلَ هذه الأُمور خارجه عن إطار القدره، ولا تتعلّق بها مشیئه اللّه تعالی ولا مشیئه أیّ صاحب إراده مطلقاً.

وعلی هذا الأساس إذا طلب الناسُ من النبیّ أمراً محالاً، فقوبل طلبهم بعدم الاهتمام من قبل النبیّ لم یکن ذلک دلیلاً علی إنکار صدور المعجزه علی أیدی الأنبیاء قط.

هذا الشرط لم یکن متوفّراً فی بعض مقترحات المشرکین المذکوره (المقترح الرابع) فإنّهم طَلبوا من النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أن یأتی لهم باللّه سبحانه وتعالی لیقابِلوه وجهاً لوجه، ویروه جهره ومن قریب، ورؤیه اللّه تعالی أمر محال، لأنّ رؤیته تستلزم أن یکون سبحانه محدوداً بالزمان والمکان، وأن یکون جسماً وذا لون وصوره وهو تعالی منزهٌ عن المادّه ولوازم المادیه.

بل حتّی مقترحُهم الثالث لو کان المقصود منه أن تسقط السماء علیهم (لا أن تسقط قطعه من الصخر علی رؤوسهم و تقتلهم) فإنّ ذلک هو أیضاً من المحالات، إذ أن المشیئه الالهیه تعلّقت بأن یفعل اللّه هذا فی نهایه العالم، والنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم کان قد أخبر المشرکین بهذا الأمر أیضاً کما یدلّ علیه قولُهم: «کما زعمتَ».

إنَّ إنهدامَ المنظومه الشمسیّه وتبعثرَ النجوم وتساقطها وإن لم یکن فی حد ذاته بالأمر المحال، ولکنّه - حسب المشیئه الإلهیه الحکیمه وإرادته النافذه القاضیه بأن یستمر النوع البشری، ویصل إلی مرحله الکمال - یعدّ محالاً، ولا یمکن أن یفعل حکیمٌ خلاف ما یقتضیه هدفه وغایته.

ثانياً: حيث إنّ الغايه المنشوده من اقتراح وطلب الإعجاز هو أن يستدِلّ به على صدق دعوى النبىّ، وصحه انتسابه إلى اللّه، وبالتالى يكون بدافع تحصيل سند على ارتباطه بعالم ما فوق الطبيعه، لذلك فإنّ أىّ اقتراح ومطالبه بالمعجزه لا تتوفّر فيها هذه الصفه يعنى على فرض أن يلبّى النبىُ طلبَهم ويأتى لهم بالمعجزه لا يكون ذلك دليلاً على ارتباطه بعالم الغيب، فحينئذٍ لا معنى ولا موجب لأن يقوم النبىُّ بما لا يرتبط بشؤونه ولا يخدم هدفه.

وقد كانت بعض مقترحات المشركين المذكوره من هذا النوع، وذلك مثل تفجير ينبوع من الأرض، أو أن تكون له جَنّه من نخيل وعنب، أو أن يكون له بيتٌ من زخرف وذهب، فإنّ مثل هذه الأُمور لا تدلّ على نبوّه مَن يمتلكها، إذ ما أكثر الذين يمتلكون واحده من هذه الأشياء وليسوا مع ذلك بأنبياء، بل ربّما يملكون أكثر من ذلك، ومع ذلك لا يشم فيهم رائحه الإيمان فضلاً عن النبوه.

فإذا لم ترتبط هذه الأشياء بمقام النبوّه، ولا تكون دليلاً على صدق مَن يدّعيها كان الإتيان بها أمراً لغواً وعبثاً تعالى عنه مقام النبوّه، وجلّت عنه منزله الأنبياء.

وقد يقال: إنّ هذه الأشياء(۱) لا تدلّ على صدق دعوى النبىّ إذا حصلت عن طريق الأسباب العاديه، ولكنّها لو حصلت بصوره غير عاديّه ولا متعارفه كانت ولا شكّ من المعاجز الإلهيه، ودلّت على صدق النبىّ وصحّه دعواه.

ولكنّ الظاهر أنّ هذه فكرهٌ باطله؛ لأنّ المشركين كانوا يهدفون من اقتراحاتهم هذه أن يكون النبىُّ صاحب مال و ثروه، فقد كانوا يستبعدون أن يكون نبىُّ اللّه ورسولُه فقيراً لا يملك شيئاً من الثروه والمال، وكانوا يعتقدون أنّ الوحى

۱- . أى الأُمور الثلاثه المقترحه: الينبوع والجنه والبيت من ذهب.

الإلهى يجب أن ينزل على رجل غنىّ ذى طول وحول، ولذلك قالوا مستغربين ومستنكرين:

«وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» (۱)؟!!

أى لماذا لم ينزل هذا القرآن على رَجُلٍ ثَرىّ من مكّه أو الطائف.

وممّا يدلّ على أنّ الهدف كان هو أن يملك النبىُ مثل هذه الأُمور بأى طريق كان، ولو بالطريق العادىّ أنّهم كانوا يريدون هذه الأشياء للنبىّ نفسه، إذ قالوا:

«أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ» .(۲)

وبعباره أُخرى: كانوا يقولون إذا أنت لا تمتلك بستاناً أو بيتاً من ذهب فإنّنا لن نؤمن لك!!

ولو كان الهدف هو أن يحصل هذان الأمران بواسطه القدره الغيبيه لم يكن وجه حينئذٍ لقولهم: ما لم يكن «لَكَ» بيتٌ من زخرف، فإنّنا نؤمن بك بل كان يكفى أن يقولوا: إذا لم تحدِث وتوجد بيتاً وجنّه فإنّنا لن نؤمن لك.

أمّا قولهم فى مطلع اقتراحاتهم: «تُفجّرَ لَنا منَ الأَرض يُنبوُعاً» فإنّ مقصودَهم لم يكن هو أن يستخرج لهم بالإعجاز ينبوعاً لينتفعوا به، بل يفعل ذلك لكى يؤمنوا به.

ثالثاً: أنَ المقصود من المعجزه هو الاهتداء فى ضوئها إلى صحّه دعوى النبىّ وصدق مقاله، والإيمان بمنصبه، والاعتقاد بمقامه، وعلى هذا إذا كان بين المقترحين للمعجزه من يكونُ الإتيان له بالإعجاز سبباً لإيمانه بالنبىّ، فحينئذٍ كان الإتيان بالمعجزه وتلبيه اقتراحه أمراً مستحسناً، وغير مقبوح عقلاً.

أمّا إذا كان المقترحون، يقترحون عناداً ولجاجاً، أو يطلبون ما يطلبونه لهواً

۱- . الزخرف: ۳۱.

۲- . الإسراء: ۹۳.

وتسليةً كما يفعل الناس مع السحره والمرتاضين فإنّ منزله النبيّ أجلّ - حينئذٍ - من أن يلبّى مثلَ هذه المقترحات، ويستجيب لمثل هذه المطالب، وقد كانت بعض اقتراحات المشركين من هذا النمط.

فإنّ مطالبتهم بأن يصعَدَ النبيُّ إلى السماء، أو أن يُنزل من السماء كتاباً يقرأونه لم يكن بهدف إكتشاف الحقيقه لأنّهم لو كانوا ممّن يهدف الوصول إلى الحقيقه فلماذا لم يكتفوا بمجرّد صعوده إلى السماء بل كانوا يصرّون على أن يضمَّ أمراً آخر إلى عروجه وصعوده (وهو أن ينزّل معه كتاباً)!!

ثم إنّه يُستفاد من آيات أُخرى، غير هاتين الآيتين أيضاً، أنّهم كانوا سيعاندون، ويصرّون على كفرهم حتّى بعد نزول الكتاب عليهم من السماء كما يصرّح بذلك قوله تعالى:

«وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ» .(۱)

فمن غير المستبعد أن يكون الكتابُ المنزّلُ فى قرطاس إشاره إلى اقتراح المشركين الّذى جاء ضمن آيات سوره الإسراء أى قولهم: «أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ» (۲) فقال اللّه سبحانه: حَتّى لَو فعلنا لهم ذلك لكفروا، وأحجموا عن الإيمان.

رابعاً: أنَّ طلبَ المعجزه إنّما هو لأجل أن يستتبع الإتيانُ بها الإيمانَ بالرساله والانضمام إلى صفوف المؤمنين، فإذا كانت نتيجةُ المعجزه هى إباء المقترحين، استلزم ذلك نقض الغرض المنشود من المعجزه، وانتفاء فائدتها.

فإذا كان المقصود من سقوط السماء عليهم، هو نزول الصخور السماويه

۱- . الأنعام: ۷.

۲- . الإسراء: ۹۳.

لإبادتهم، فإنّ هذا الطلب لا يتّفق أبداً مع هدف الإعجاز وهو من أوضح مصاديق نقض الغرض.

وبالتالى ينبغى أن نـذكّر بنقطه وهى: أنّ النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم على خلاف ما تصوّر المسـتدلّون بهـذه الآيه على نفى آيه معجزه لرسول الإسـلام، لم يصف نفسه بالعجز وعدم القدره على الإتيان بالمعجزه، بل أفاد بقوله: «سُبْحانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً» (۱) أمرين:

۱ - تنزيه اللّه، فهو بقوله: «سُبْحانَ رَبِّى» نزّه اللّه تعالى عن كلّ عجز ونقص كما نزّهه عن الرؤيه ووصـفه بالقدره على كلّ شـىء ممكن.

۲. محدوديّه قدره النبىّ، إذ بقوله صـلى الله عليه و آله و سـلم: «هَلْ كُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً» أفاد بأنّه امرئ مأمور لا أكثر وأنّه مطيعٌ لأمر اللّه وإرادته فهو يأتى بما يريد ربُّه، والأمرُ إلى اللّه كلّه، وليس للنبىّ أن يُلبّى أىَ طلبٍ واقتراحٍ بإرادته.

وبعبـاره أُخرى: أنّ الآـيه ركّزت فى مقـام الجـواب على طلبهـم بعـد تنزيه اللّه عن العجز والرؤيه على كلمـتى: «البشـر والرسـول» والهـدف هو أنّه: إذا أنتم قد طلبتم هذه الأُمور منّى من جهه إنّنى بشـر، كان طلبكم هذا طلباً غير صـحيح، لأنّ هذه الأُمور تحتاج إلى قدره الهيه.

وإن طلبتموهـا منّى من جهه أنّى نبىّ ورسولٌ فإنّ النبىّ والرسولَ ما هو إلّا إمرئ مأمورٌ يفعلُ ما يأذنُ به اللّه، وليس له أن يفعل ما يشاء هو دون إراده اللّه تعالى.

وبهذا اتّضح أنّ هذه الآيات لا تدلُّ على ما استدلّ به النافون لمعاجز النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

وكان ممّا تَحجّجت به قريش على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّهم قالوا:

۱- . الإسراء: ۹۳.

لَوْ كـانَ مُحمَّد نبيّاً لشـغَلته النبوهُ عن النساء ولأمكنه جميع الآيات (أى لأتته الآيات دفعه واحـده) ولأمكنه منعُ الموت عن أقاربه، ولمّـا مـات أبوطـالب وخـديجه فنزل قولُه تعالى: «وَ لَقَـدْ أَرْسَـلْنا رُسُـلاً مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ * يَمْحُوا اللّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْـدَهُ أُمُّ الْكِتابِ * وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِـدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ» .

وبذلك ردّ عليهم(۱).(۲)

الدوافع وراء معاداه قريش وعنادهم:

اشاره

هـذا القسم هو إحـدى النقاط الجديره بالدراسه فى تاريخ الإسـلام، لأنّ المرء قد يسائل نفسه، لماذا يا ترى كانت قريش تعارض رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم أشـدّ المعـارضه رغم أنّهـا كـانت تعتبره الصادق الأمينَ ولم تعهـد منه انحرافاً أو خطأ قط وكانت تسمع كلامَه الفصيح البليغ الّذى يأسر القلوب، وربّما شاهدوا حدوث بعض الخوارق للعاده، الخارجه عن حدود القوانين الطبيعيه على يديه.

إنّ هذا التمرّد والمعارضه يعود إلى علّه أو علل عديده هى:

۱. حَسَدُهُمْ للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم:

لقد عارض رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم وخالفه فريقٌ ممّن عارضه بسبب حسدهم له، فقد كانوا يتمنُّون أن يكونوا هم صاحب هذا المنصب، وصاحب هذه المنزله.

۱- . الرعد: ۳۸-۴۰.

۲- . بحار الأنوار: ۱۹/۱۷ عن المناقب لابن شهر آشوب: ۱/۵۰.

فقد قال المفسِّرونَ عند قوله تعالى: «وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» (۱) أنّ «الوليد بن المغيره» قال: أيُنزَّل على محمَّد وأُترك وأنا كبير قريش وسيّدها ويترك «أبو مسعود بن عمرو بن عمير الثقفى» سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين، فأنزل اللّه تعالى فيه الآيه.(۲)

وروى أنّه قال: واللّه لو كانت النبوّه حقّاً لكنتُ أولى بها منكَ، لأنّنِى أكبرُ منكَ سنّاً، وأكثر منكَ مالاً.(۳)

وكان «أُميّه بن أبى الصلت» من الذين كانوا يقولون هذا الكلام حول رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وكان يتمنّى كثيراً أن ينال هو هذا المقام ويحظى بهذا المنصب العظيم، ولم يتبع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى آخر حياته، وكان يؤلّب الناس عليه.

وقد سأل «الأخنسُ بن شريق» - وهو من أعداء رسول اللّه - أبا جهل يوماً: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعتَ من «محمَّد»؟

فقال: ماذا سمعتُ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ، أطعَمُوا فأطعَمنا، وحَملوا فحمَلنا، وأعطوا فأعطينا، حتّى إذا تجاذبنا على الركب، وكنّا كفرسى رهان، قالوا: منّا نبيٌّ يأتيه الوحىُ من السماء، فمتى ندركُ مثل هذه، واللّه لا نؤمنُ به أبداً ولا نصدّقه.(۴)

هذه النماذج تُظهِرُ الحسد الّذى كان يحول بين زعماء قريش وساداتها وبين إتّباع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتصديقه، فَعتَوا على اللّه وتركوا أمره عياناً، ولجّوا فيما هم عليه من الكفر، وهناك نماذج وأمثله أُخرى سجّلتها صفحات التاريخ أعرضنا عن إدراجها هنا.

۱- . الزخرف: ۳۱.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۴۲.

۳- . بحار الأنوار: ۱۸/۲۳۵.

۴- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۰۸.

۲. معارضه الدعوه الإسلامیه لشهواتهم:

وکـان لهـذا العامـل الأـثر الأکبر فی عتو قریش و معارضـتها لـدعوه النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم؛ لأنّهم کانوا أصـحاب لهو ولعب، وفسق ومجون، ومثـل هؤلاء الـذین أمضوا سـنوات عدیـده علی هـذا النحو، دون أن یقیّـدهم شـیء من الحـدود والقیود، وجَـدوا دعوه النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم تخـالف عـاداتهم القـدیمه، وکان ترک مثل تلک العادات الّتی تتفق مع أهوائهم ورغباتهم النفسیّه أمراً یلازم النصب والعناء والجهد.

۳. الخَوفُ مِن عُقُوبات الیوم الآخر:

إنّ سماع آیات العذاب الّتی تنذر الفَسقه والظالمین وتوعدهم بالعقوبات الثقیله أرعب قلوبهم، وأقلق نفوسهم بشده.

فعندما کان رسولُ اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم یتلو الآیات المتعلّقه بیوم القیامه وأوضاعه، وقضایاه فی الاجتماعات والأماکن العامّه، کان یحدث بذلک ضجهً کبری فی أوساطِهِم، فیهدم مجالس لهوهم، وأُنسهم.

إنّ العربی الّذی کان یسلِّحُ نفسه بکلّ ما استطاع من سلاح لیدفع عن نفسه أیَ خطر محتمل، ویعمد إلی ممارسه القرعه ویتعاطی الأنصـاب والأزلاـم لیحصـل علی لقمه عیشه، ویتفـأل بالأحجـار، ویتطیّر ویتشـاءم بـالطیور ویسـتدلُّ بحالاتها علی حوادث وقَعت أوتقعُ، لم یکن علی استعداد لأن یهدأ من دون ان یحصل علی ضمان بعدم التعرّض لما یخبر عنه «محمَّد» من عذاب وعقاب!!

من هنا کانوا یحاربون النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ویخالفونه حتّی لا یسمعوا وعده ووعیده.

والیک بعض الآیات الّتی کانت تقلق بشده نفوس المترفین من قریش:

«فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّهُ * یَوْمَ یَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِیهِ * وَ أُمِّهِ وَ أَبِیهِ * وَ صاحِبَتِهِ

وَ بَنِيهِ * لِكَلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» .(۱)

وبينما كانوا يمدّون موائد اللهو والشراب فی ظلال الكعبه ويحتسون كؤوس الخمر كانوا فجأه يسمعون هذه الآيه:

«كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ» .(۲)

فتلقی فی نفوسهم رعباً عجيباً، وينتابهم الاضطراب الشديد حتّی أنّهم كانوا يلقون بكؤوس الخمر جانباً ويتملّكهم خوف شديدٌ لم يعرفوا له مثيلاً.

۴. الخَوفُ مِن القَبائل العَربيه المشركَه:

قال «الحارث بن نوفل بن عبد مناف» لرسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم: إنّا لنعلم أنَّ قولك حقٌّ، ولكن يمنعُنا أن نتبع الهُدی معك ونؤمن بك مخافهَ أن يتخطّفنا العربُ من أرضنا (إن تركنا الوثنيه التی تدين بها ويعتبروننا سَدنه لأوثانها) ولا طاقه لنا بها.

فنزل (قوله تعالی يرد عليهم):

«وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدی مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبی إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَیْ ءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنّا» (۳).(۴)

وهكذا كان تخوّف قريش من العرب إن هی تركت ما كان عليه العربُ من الوثنيه والشرك أحد الأسباب لعتوهم وَإعراضهم عن قبول الدعوه الإسلاميه.

۱- . عبس: ۳۳-۳۷.

۲- . النساء: ۵۶.

۳- . القصص: ۵۷.

۴- . بحار الأنوار: ۱۸/۲۳۶.

طائفةٌ مِن اعتراضات المشركين:

وربّما اعترض المشركون على النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم قائلين: إنّ هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء، وإنّما أرضُ الأنبياء الشامُ، فأت الشامَ.(۱)

وكان أكثر المشركين يقولون - وذلك بوحي من اليهود - لماذا لا ينزل القرآن على «محمَّد» دفعه واحده كالتوراه والإنجيل، فحكى القرآن الكريم إعتراضهم هذا بنصّه إذ قال:

«وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً» .

ثم قال تعالى ردّاً على اعتراضهم هذا:

«كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ» .(۲)

إنّ القرآن يهتم بهذا الإعتراض، ويوضح مسأله «النزول التدريجى» للقرآن الكريم و يقطع الطريق على المستشرقين المغرضين ومن حذا حذوهم، بمنطقه المحكم، وبيانه القوىّ.

وها نحن نعمد هنا إلى إعطاء شيء من التوضيح لهذه المسأله أيضاً:

القُرآن والنُزُولُ التدريجىّ:

إنّ التاريخ القطعىّ لنزول القرآن وكذا مضامين آيات سوره تشهد بأنّ آيات القرآن الكريم وسوره نزلت تدريجاً.

فبمراجعه فاحصه لأوضاع مكّه، والمدينه يمكن تمييز المكىّ من هذه الآيات عن مدنيّها.

فالآيات الّتى تتحدّثُ عن مكافحه الشرك والوثنيه ودعوه الناس إلى اللّه

۱- . بحار الأنوار: ۱۸/۱۹۸.

۲- . الفرقان: ۳۲.

الواحد، والإيمان باليوم الآخر مكيّه، بينما تكون الآيات الّتى تدور حول الأحكام وتحثّ على الجهاد والقتال مدنيّه، ذلك لأنّ الخطاب فى البيئه المكيّه كان موجّهاً إلى المشركين عَبده الأوثان الذين كانوا ينكرون توحيدَ اللّه، واليوم الآخر، فهنا تكونُ الآيات الّتى تتحدّث حول هذا الموضوع قد نزلت فى هذه البيئه.

فى حين كان الخطاب فى المدينه المنوره موجّهاً إلى المؤمنين باللّه، وإلى جماعه اليهود والنصارى، وكان الجهاد والقتال فى سبيل إعلاء كلمه اللّه هو الأعمال المهمّه الّتى بدأها رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وواصلها فى هذه البيئه، من هنا تكون الآيات الّتى تتضمّن الحديث حول الأحكام والفروع والقوانين، ويدور الحديث فيها أيضاً حول عقائد اليهود والنصارى ومواقفهم وتتضمّن الحثَّ - كذلك - على الجهاد والقتال والتضحيه فى سبيل إعلاء كلمه اللّه وإعزاز دينه، آيات مدنيّه.

إنّ كثيراً من الآيات ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالحوادث الّتى وقعت فى زمن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وهذه الحوادث هى الّتى تشكّل ما يسمّى بشأن أو أسباب النزول التى يكون الوقوفُ عليها مُوجباً لفهم مفاد الآيه، وإيضاح مفادها، فإنّ وقوع هذه الحوادث كان سبباً لنزول آيات فيها بالمناسبه.

على أنّ بعض الآيات الأُخرى نزلت جواباً على أسئله الناس، ولرفع حاجاتهم فى المجالات المختلفه.

والبعضُ الآخر منها نزلت لبيان المعارف والأحكام الإلهيه.

ولهذه الأسباب يمكن القولُ بأنّ القرآن الكريم نزل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تدريجاً لتدرّج موجبات النزول.

وقد صرَّح القرآن الكريم بهذا الأمر أيضاً فى بعض المواضع إذ قال:

«وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلى مُكْثٍ» .(۱)

۱- . الإسراء: ۱۰۶.

وهنا يطرح هذا السؤال وهو: لماذا لم تنزل آياتُ القرآن كُلّها على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جمله واحده، ودفعه واحده كما حدث ذلك للتوراه والإنجيل من قبل؟!

إنّ هذا السؤال لم يكن جديداً بل طرحه أعداء النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم ومعارضوه فى عصر الرساله فى صوره الاعتراض أيضاً حيث كانوا يقولون:

«لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً» .(۱)

ويمكن تقرير و شرح هذا الاعتراض على نحوين:

۱. إذا كان الإسلام ديناً إلهياً، وكان القرآن كتاباً سماوياً منزلاً من جانب اللّه على رسوله، فلابدّ أن يكون ديناً كاملاً، ومثل هذا الدين الكامل يجب أن ينزل بواسطه ملائكه الوحى على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جمله واحده من دون تدرّج ولا توقّف فى نزول الآيات، إذ لا مبرّر ولا داعىَ لأن ينزل دينٌ كاملٌ من جميع الجهات، مكمّل من حيث الأُصول والفروع والتشريعات والواجبات والسنن، على نحو التدريج فى ۲۳ عاماً، ولمناسبات مختلفه.

وحيث إنّ القرآن نزَلَ منجّماً، وبصوره متفرّقه متناثره، وعقيب طائفه من الأسئله، أو وقوع حوادث و طروء حاجات فى أزمنه مختلفه يمكن الحدس بأنّ هذا الدين لم يكن كاملاً من حيث الأُصول والفروع، وهو يتدرّج فى التكامل ومثل هذا الدين الناقص الّذى يسير نحو كماله خطوه خطوه وبالتدريج لا يصحّ أن يوصَف بالدين الإلهىّ. ۲. إنّ آيات القرآن والتاريخ القطعى والمسلّم للتوراه والإنجيل والزّبور تحكى جميعها عن أنّ هذه الكتب السماويه أُعطيت إلى المرسلين بها فى ألواح مكتوبه مدوّنه، فلِمَ لم ينزل القرآن الكريم على هذا الغرار، كأن ينزل القرآن على

۱- . الفرقان: ۳۲.

«محمَّد» فی لوح مکتوب کما نزلت التوراه فی ألواح مکتوبه؟!

وحیث إنّ المشرکین لم یکونوا یعتقدون بهذه الکتب السماویه قط، ولم یکن لهم علم مسبق بکیفیه نزولها، لذا یمکن القولُ بأنّ مقصودهم من هذا الاعتراض کان هوالشکل الأوّل من هذا التوضیح، والّذی یتلخّص فی أنّه لماذا لم ینزّل ملائکه الوحی آیات القرآن علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم جمله واحده، بل نزلت هذه الآیات علیه صلی الله علیه و آله و سلم فی فواصل زمنیه متفاوته، وبمناسبات و حسب وقائع مختلفه متدرّجه؟!

الأسرارُ المنطقیّه للنُزول التدریجی للقرآن:

ولقد کشف القرآنُ القناعَ - فی معرض الردّ علی إعتراض المشرکین هذا - عن حِکَم وأسرار النزول التدریجیّ للقرآن الکریم.

وإلیک توضیح هذا القسم الّذی أشار إلیه الکتاب العزیز بعباره مقتضبه قصیره:

۱. إنّ الرسولَ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم یتحمَّل مسؤولیات کبری، وإنّ شخصیه کهذه من الطبیعی أن یواجه مشاکلَ ومتاعبَ باهضه وصعبه، ولا ریب أنّ تلک المشاکل والمتاعب توجب الکلل، وانخفاض مستوی النشاط مهما کانت الروحُ الّتی یتمتع بها الشخصُ عظیمه، وقویّه، فی مثل هذه الحاله یکون تجدیدُ الارتباط بالعالم الأعلی، وتکرّرُ نزول الملک من جانب اللّه تعالی باعثاً علی تجدّد النشاط، وعاملاً قویاً فی بثّ القوه والحماس والمعنویه الفاعله فی نفس النبیّ وروحه، وبالتالی فإنّ العنایه والمحبّه الإلهیه الممتدّه لنبیّه ورسوله إنّما تتجدّد بتکرّر نزول الوحی علیه صلی الله علیه و آله و سلم من جانبه تعالی.

وقد أشار القرآن إلی هذه الحقیقه النفسیه الکبری إذ قال:

«كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ» .(۱)

۲. ويمكن أن تكون الجملةُ المذكوره ناظره إلى جهه أُخرى وهى: أنّ المصالح التربويه والتعليميه تقتضى أن يتنزّلَ القرآنُ الكريمُ على نحو التدريج ويُلقى إلى الناس على هذا الشكل أيضاً، وذلك لأنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم معلّم الأُمّه، وطبيبُها الروحىُّ الّذى بُعِث إلى الناس بالوصفات الإلهيه لتعليمهم، وهدايتهم ومعالجه أمراضهم وأدوائهم الاجتماعيه والخلقيّه، والفكريه، وكُلِّفَ بأن يُطبّق هذه الوصفات فى حياتهم العمليه، ومثل هذا يتطلّب التدرّج لينفَع الدواء - حينئذٍ - وتنجعَ المعالجهُ.

إنّ أفضل وأنجح أساليب التربيه هو أن يمتزج الجانب العملىّ بالجانب النظرى فى أيّه محاوله تربويه، وأن يطبق كلّ ما يدرسه الأُستاذ بصوره عمليه تطبيقيه، ويعطى لما يلقيه من معلومات، صبغه تحقيقيه، ويتجنّبَ بشده إتّصافَ أفكاره وآرائه بالطابع النظرىّ البحت.

فلو أنّ الأُستاذ المتخصّص فى الطبّ اكتفى بإلقاء جمله من المعلومات الكلّيّه والأُسس العامّه من الطبّ على طلابه فى الصف حُرم النتائج المتوخّاه والغايات المطلوبه من تعليم الطبّ، بشكل كامل.

أمّا إذا قَرنَ الأُستاذ درسَه النظرى بالإرشاد العملىّ وطبّق ما ألقاه وبيّنه من أفكار ومعلومات فى هذا المجال على جسم مريض راقد أمام الطلبه، فإنّه سيحصل على نتائج أحسن، ويساعد الطلبه على فهم أفضل للمواد الّتى درسوها فى هذا المجال.

فلو أنَّ الآيات القرآنيه الكريمه قد نزلت جملةً واحده (والحال أنّ المجتمع

۱- . الفرقان: ۳۲.

الإسلامی لم یکن یحتاج إلی کثیر منها) کان القرآن - حینئذٍ - فاقداً لهذه المزیه التربویه الهامّه الّتی أشرنا إلیها قریباً فی مثال تدریس الطب.

إنّ بیان الآیات الّتی یشعر الناس فی أنفسهم بعدم الحاجه إلی أخذها وتعلّمها، لا یترک التأثیرَ الباهرَ فی القلوب، بینما إذا نزل ملائکه الوحی بآیات القرآن حسب حاجات الناس الّتی یشعرون فیها بضروره تعلّمها لتضمّنها الأحکامَ والأُصولَ والفروعَ الّتی یحتاجون إلیها، فإنّه لا شکَّ یکون لها فی هذه الحاله تأثیر أحسن وأقوی فی قلوب الناس. کما سیکون لها ترسّخٌ أکبر فی نفوسهم، وسیظهرُ الناس من أنفسهم استعداداً أکبر لأخذ ألفاظها ومعانیها، وفوق کلّ ذلک سیشعرون بنتائج هذه التعالیم عند تعلیم النبیّ إیّاها لهم، وعندئذ تتحقّق المقوله التربویه الّتی أشرنا إلیها فی ما سبق وهی اقتران کلام المربّی بالنتیجه لأن النظریات اتّخذت طابعاً عملیاً، ولم تکن مجرد نظریات لا ترتبط بالواقع.

ولکن یبقی هنا سؤالٌ آخر وهو: إذا کان نزولُ القرآن قد تحقَّق علی نحو التدریج وتبعاً للاحتیاجات والحوادث المختلفه، فإنّ ذلک یستلزم انفصام العلاقات والروابط بین الآیات والسور، وهذا ینتج أن لا یهتم الفکر البشری بتعلّم وحفظ معارفها لتبعثرها، وتباعد أزمنتها وغیاب علاقاتها، ولکن لو نزل القرآنُ جمله واحده وتلاه ملائکه الوحی علی رسول اللّه دفعه واحده لرُوعیَت الروابطُ والعلاقات بین قضایا الوحی ولتضاعَفَت رغبهُ الناس واستعدادهم لأخذها وحفظها؟

ولقد أجاب القرآن الکریم أیضاً علی هذا السؤال إذ قال: صحیح أنّ آیات القرآن الکریم نزلت علی نحو التدریج تبعاً لطائفه من المقتضیات والموجبات إلّا أنّ هذا النزول التدریجی لا یمنع أبداً من ترابط مطالبه، وارتباط مواضیعه بعضها ببعض، فإنّ اللّه تعالی أفاض علی هذه الآیات إنسجاماً وترابطاً خاصاً یمکن

الإنسان من تعلّمها وضبطها وحفظها إذا أعطى الموضوعَ قليلًا من الإهتمام، إذ قال تعالى:

«وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا» .(۱)

أی إنّنا أعطينا آيات القرآن نظاماً معيناً وترتيباً خاصاً.

أسرارٌ أُخرى لِنُزُول القرآن تدريجاً:

۳. لقد واجَه رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فی فتره رسالته ونبوّته فئات مختلفه من الناس:

كالوثنيين، واليهود والمسيحيّين الذين كان لكلّ فئه منهم ديناً خاصاً، وعقائد وتصوّرات خاصّه حول المبدأ والمعاد، وغيرهما من المعارف العقليه.

وقد كانت اللقاءات المختلفه هذه توجب أن يعمد الوحی الإلهیّ إلى توضيح وبيان عقائد هذه الفئات (وإن لم يكن مطلوباً ومقترحاً من قبلهم) ويقيم الأدلّه والبراهين على بطلانها، وزيفها، هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت هذه اللقاءات فی أزمنه متفاوته، وأوقات مختلفه، لهذا لم يكن بدّ من أن ينزل الوحیُ الإلهی تدريجاً، وفی الأوقات المختلفه، ويتصدّى لبيان بطلان تلك العقائد والتصوّرات ويجيب على شبهات المخالفين واعتراضاتهم.

وربّما كانت توجب هذه المواجهاتُ العقائديه إلى أن يطرحوا على النبیّ صلى الله عليه و آله و سلم بعض الأسئله إمتحاناً واختباراً له وكان على النبیّ أن يجيب عنها، وحيث إنّ هذه الأسئله كانت تطرَح فی أوقات مختلفه، لهذا لم يكن مناص من أن ينزل الوحیُ الإلهیُ فی الأوقات والأزمنه المختلفه، وعلى نحو التدريج.

هذا مضافاً إلى أنّ حياه النبیّ نفسَها كان حياه ثوره، ووقائع، وكان النبیُ يواجه

۱- . الفرقان: ۳۲.

باستمرار أحداثاً وقضايا يجب توضيح حكمها، وبيان المنهج فيها من جانب الوحى الإلهى.

وربّما كان الناس أنفسهم يواجهون فى حياتهم اليوميه حوادث وأُموراً يرجعون فيها إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يطلبون منه الحكم الإلهىّ فيها ويسألونه عمّا يجب اتّخاذه من الموقف الشرعىّ فى تلك الحوادث وما يشابهها.

وحيث إنّ هذه الحوادث، وما يترتّب عليها من تساؤلات كانت تقع فى أوقات مختلفه، وبمرور الزمن، لذلك لم يكن بد أيضاً من أن ينزل الوحىُ الإلهىّ بالتدريج ليجيب عن هذه الأسئله أوّلاً بأوّل.

وقد أشار القرآنُ الكريمُ إلى هذه النقاط، وإلى نقاط أُخرى غيرها فى قوله تعالى:

«وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً» .(۱)

۴. إنّ للنزول التدريجىّ للقرآن الكريم وراء كلّ ذلك سرّاً آخر، وعلّه أُخرى غفلوا عنها، ألا وهى: هدايه الناس وتوجيه أنظارهم إلى منشأ هذا الكتاب، وأنّ القرآن ليس إلّاكتاباً سماوياً، ووحياً إلهياً لا غير، ولا يمكن أن يكون من نسج العقل البشرىّ، لأن القرآن نزل خلال (۲۳ عاماً) عبر طريق طويل من أنواع الحوادث والوقائع المسرّه والمحزنه، المقرونه بالنصر والهزيمه، والنجاح والإخفاق، ولا شكَّ أنّ هذه الحالات المختلفه، والأحاسيس والمشاعر المتنوّعه المتباينه، تترك أثراً عميقاً فى نفس الإنسان، وروحه وعقله، ولا يمكن لإنسان واحد أن يتكلّم بكلام من نوع واحد، وبنبره واحده، فى حالتين نفسيّتين متضادتين، فالكلام الصادر فى حال الفرح والابتهاج والمسرّه من اللسان أوالقلم، يختلف من حيث الفصاحه

۱- . الفرقان: ۳۳.

والبلاغه و جمال اللفظ وعمق المعنى اختلافاً بارزاً عن الكلام الصادر فى حال الحزن والتعب، والإخفاق، والهزيمه.

بينما لا يوجد أى شىء من الاختلاف من حيث الألفاظ والمعانى بين آيات القرآن الكريم مع أنّها نزلت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو يمر بحالات مختلفهٍ من الحزن والسرور والإخفاق والانتصار والسرّاء والضرّاء، والعسر والرخاء والجهد والنشاط، بل نجد تلك الآيات على نمط ونسق واحدٍ من القوه والفصاحه والبلاغه، وجمال اللفظ وعمق المعنى بحيث يستحيل على أىّ بشر بلَغَ ما بلغ أن يعارض آيه من آياته أو سوره من سوره، وكأنّ القرآن الكريم كميه من الفضّه المائعه خرجت من الأُتون جمله واحده لا يوجد بين آياتها أىُّ شىء من التفاوت والاختلاف، أو كأنّه جوهره واحده أوّلها كآخرها وآخرها كأوّلها.

ولعلّ الآيه التاليه الّتى تنفى أىّ نوع من أنواع الاختلاف فى القرآن إذ تقول:

«وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (۱) إشاره إلى هذا السرّ.

إنَّ المفسّرين اعتبروا هذه الآيه ناظره إلى نفى الاختلاف والتناقض بين مفاهيم الآيات ومفاداتها، ومقاصدها، فى حين لا تنفى هذه الآيه مجرّد هذا النوع من الاختلاف بل تقدّس القرآن المجيد وتنزهه من جميع أنواع الاختلاف والتناقض الّذى هو من لوازم العمل والانتاج البشرى.

۱- . النساء: ۸۲.

۱۸ إلى الحبشه

الهجره الأُولى

تُعتَبر هجره فريق من المسلمين إلى أرض الحبشه دليلاً بارزاً على إيمانهم وإخلاصهم العميق لدينهم، ولربّهم؛ وذلك لأنّ فريقاً من الرجال والنساء يقرّرون - وبهدف الحفاظ على عقيدتهم والتخلّص من أذى قريش ومضايقتها والحصول على مكان آمن يقيمون فيه شعائرهم بحريه ويعبدون اللّه الواحد - مغادره (مكّه)، التى ترزح تحت ظلام الوثنيه، فلا يمكن أن يرفعوا نداء التوحيد عالياً فى أيّه نقطه من نقاطها، ولا يمكنهم إقامه أحكام الدين الحنيف فيها من دون خوف أو وجل، وبعيداً عن الإرهاب، ويفكّرون، ويفكّرون، وأخيراً يقودُهم التفكير إلى أن يفاتحوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بهذه المسأله، ويطلبوا فى ذلك رأى النبىّ الّذى يقوم دينه على مبدأ: «إِنَّ أَرْضِى واسِعَهٌ فَإِيّاىَ فَاعْبُدُونِ» .(۱)

لقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يعرف أوضاع المسلمين المؤلمه جيداً، فقد كان هو يحظى بحمايه بنى هاشم، وكان الفتيان الهاشميّون يحمونه ويحفظونه من كلّ أذى، ولكنّ - الذين آمنوا به من الإماء والعبيد، ومن ليست لهم حمايه من الأحرار المستضعفين - الّذين كانوا يشكّلون عدداً كبيراً من المسلمين السابقين - كانوا يتعرضون لشتّى صنوف العذاب والإيذاء والمضايقه من قريش الّتى لم تأل جهداً، ولم تدّخر وسعاً، ولم تفوّت فرصهً ولا وسيلهً لإلحاق العنت والأذى بالمؤمنين

۱- . العنكبوت: ۵۶.

برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ولا يستطيع صلى الله عليه و آله و سلم منعهم من ذلك.

وقد كان زعماء كلّ قبيله يعمدون - للمنع من نشوب أىّ صِدام بين القبائل - إلى تعذيب مَن أسلم من أبناء قبيلتهم، وإيذائه والتنكيل به، وقد مرّت عليك نماذج وأمثله من أذى قريش وتعذيبها القاسى للمسلمين.

لهذه الأسباب عند ما طلب أصحابُ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم رأيه فى الهجره من مكّه قال فى جوابهم:

«لَوْ خَرجْتُمْ إلى أرض الحَبَشه، فإنَّ بِها مَلِكاً لا يُظلَمُ عِندَهُ أحَدٌ، وهى أرضُ صِدْقٍ حَتى يَجعَلَ اللّهُ لكُم فَرَجاً ممّا أنتُم فيهِ».(۱)

أجَل انَ مجتمعاً صالحاً يتسلَّم زمامَ الأمر فيه رجلٌ صالحٌ عادلٌ نموذج مصغّر من جنّه عدن بالنسبه إلى المسلمين المضطهدين فى بلدهم بسبب عقيدتهم، وهو ما كان يريده ويتمنّاه أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليتمكّنوا من القيام بشعائر دينهم فيه فى جوٍّ من الطمأنينه والأمن.

ولقد كان لكلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أثر قوىٌ فى نفوس تلك الثلّه المؤمنه الباحثه عن أرض تعبد فيها اللّه فى أمان، بحيث لم يمض زمان إلّاوقد شدّت رحالها وغادرت مكّه ليلاً فى غفله من الأجانب المشركين مشاه وركباناً، متجهةً نحو جدّه، للسفر عبر مينائها إلى أرض الحبشه.

وكان هذا الفريق يتألّف من عشر أو خمسه عشر شخصاً بينهم أربعه من النسوه المسلمات.(۲)

والآن يجب أن نرى لماذا لم يذكر رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم للمسلمين مناطقَ أُخرى للهجره إليها، وإنّما ذكر الحبشه فقط؟

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۲۱۳/۱؛ تاريخ الطبرى: ۷۰/۲.

۲- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۷۰/۲.

إنّ سر هذا الاختيار يتّضح إذا درسنا أوضاع الجزيره العربيه وغيرها من المناطق آنذاك.

إنّ الهجره إلى المناطق العربيه الّتى كان سكانها من المشركين والوثنيّين قاطبه كان أمراً محفوفاً بالخطر، فإنّ المشركين كانوا سيمتنعون عن قبول المسلمين فى أرضهم إرضاء لقريش أو وفاء وتعصباً لدين الآباء (الوثنيّه).

وكذلك المناطق الّتى كان يقطنها المسيحيّون أو اليهود، من الجزيره العربيه لم تكن تصلح لهجره المسلمين إليها هى الأُخرى، لأنّ تينك الطائفتين كانتا تتقاتلان فيما بينهما فى صراع مذهبىّ وطائفى، فلم تكن الأوضاع لتسمح بأن يدخل طرفٌ ثالث فى حلبه الصراع، هذا مضافاً إلى أنّ ذينك الفريقين (اليهود والنصارى) كانا يحتقران العنصر العربىّ أساساً، فكيفَ يمكن الهجره إلى مناطقهم والتعايش معهم؟!

أمّا «اليمن» فقد كان تحت سيطره الحكم الإيرانىّ الملكىّ، ولم تكن السلطاتُ الإيرانيه آنذاك لتسمح بإقامه المسلمين فى ربوع «اليمن»، لما عُرف من نقمتها فيما بعد على الدعوه الإسلاميه إلى درجه أنّه لما وصلت رساله النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إلى «خسروبرويز» كتب إلى عامله على اليمن فوراً «احمل إلىَّ هذا الّذى يذكر أنّه نبىٌّ، وبدأ بِاسمه قبل اسمى، ودعانى إلى غير دينى»(١)!!.

وكذلك كانت «الحيره» تحت الاستعمار والنفوذ الإيرانىّ كاليمن.

وأمّا «الشام» فقد كانت بعيده عن «مكّه المكرمه»، هذا مضافاً إلى أنّ «اليمن» و «الشام» كانتا سوقين لقريش، وكانت تربُط قريش بسكان هاتين المنطقتين روابط وعلاقات وثيقه، فإذا كان المسلمون يلجأون إليها أُخرجوا منهما بطلبٍ من قريش، تماماً كما طلبت من ملك الحبشه مثل هذا الطلب، ولكنّه رفض طلبهم.

١- . بحار الأنوار: ٢٠/٣٨٢.

وقد كانت الرحله البحريه - فی تلک الآونه - وبخاصه برفقه النساء والأطفال رحله شاقّه جداً، من هنا كانت هذه الهجره، وترک الحياه والمعيشه فی الوطن دليلاً قوياً على إخلاص أُولئک المهاجرين لدينهم وعمق إيمانهم به، وصدقه.

ولقد كان ميناء «جده» آنذاک ميناء تجارياً عامراً كما هو عليه الآن، ومن حسن التوفيق أنّ هذه الثلّه المهاجره قد وصلت إلى هذا الميناء فی الوقت الّذی كانت فيه سفينتان تجاريتان على أُهبه الإقلاع، والتوجّه نحو الحبشه، فبادر المسلمون إلى ركوبها والسفر عليها دون تلكّؤ خشيه لحاق قريش بهم والقبض عليهم، لقاء نصف دينار عن كلّ راكب.

وكان ذلک فی شهر رجب فی السنه الخامسه من مبعث رسول اللّه.(۱)

ولمّا عرف المشركون بهجره بعض المسلمين أمروا جماعهً من رجالهم بملاحقه أُولئک المهاجرين وإعادتهم إلى مكّه فوراً، ولكن المسلمين المهاجرين كانوا قد غادروا شواطئ «جده» قبل أن يدركهم الطلب.(۲)

ومن الواضح أنّ ملاحقه مثل هذه الثله الّتی لم تلجأ إلى أرض الغير إلّالأجل الحفاظ على عقيدتها والفرار من الفتنه لنموذج بارز من عتوّ قريش وعنادها. فأُولئک المهاجرون مؤمنون تركوا الأهل والوطن، وأغمضوا الطرف عن المال، والتجاره، وخرجوا يطلبون أرضاً نائيه يمارسون فيها شعائرهم بحريه، ومع ذلک لا يكف عنهم زعماء مكّه وجبابرتها وطغاتها!!

أجل أنّ رؤساء «دار الندوه» بمكه وأقطابها كانوا يعلمون جيداً أسرار هذه الهجره وآثارها من خلال بعض القرائن، والمؤشرات ولذلک كانوا يردّدون فيما بينهم أُموراً سنذكرها فی ما بعد.

۱- . بحار الأنوار: ۱۸/۴۱۲ نقلاً عن مجمع البيان للطبرسی: ۳/۴۰۰.

۲- . السيره النبويه: ۱/۳۲۱-۳۲۳.

هـذا والجـدير بالـذكر أنّ أعضاء هذا الفريق المهاجر لم يكونوا من قبيله واحده، بل كان كلّ واحد من هؤلاء العشره ينتمى إلى قبيله خاصه.

الهجره الثانيه إلى الحبشه:

ثم إنّه وقعت بعـد هـذه الهجره هجره أُخرى، وكـان فى مقـدّمه المهـاجرين هـذه المره «جعفر بن أبى طـالب». ابن عم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ولقـد تمّـت الهجره الثـانيه فى منتهى الحريّه، لأـنّ المسـلمين المهـاجرين اسـتطاعوا فى هـذه الهجره أن يصـطحبوا معهم نسـاءهم وأولادهم، بحيث بلغ عدد المسلمين فى أرض الحبشه هذه المره (٨٣).

هذا إذا لم نحص من وُلد فى أرض الحبشه لهُم، وإلّا كان العددُ أكثر من هذا الرقم.

ولقد وَجَدَ المسـلمون المهاجرون أرضَ الحبشه كما وصـفها رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم لهم: منطقه عامره، وبيئه آمنه حرّه، تصلح لأَن يُعبد فيها اللّه تعالى بحريه وأمان.

تقول «أُمّ سـلمه» الّتى تشـرّفت بـالزواج من رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم فى مـا بعـد، عن تلك الأرض: لمّا نزلنا أرضَ الحبشه جاوَرنا بها خير جار النجاشى، أمنّا على ديننا، وعبدنا اللّه تعالى، لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه.(١)

كمـا أنّه يُسـتفاد ممّـا قـاله بعض أُولئـك المهـاجرين من الشـعر فى الحبشه، إنّهم أمنوا بأرض الحبشه، وحمـدوا جوار النجاشـى، وعَبدوا اللّه لا يخافون على ذلك أحداً.

١- . السيره النبويه لابن هشام: ١/٢٢٢.

ونحن نكتفى هنا بإدراج بعض الأبيات من قصيده مطوَّله أنشأها «عبداللّه بن الحارث» فى هذا الصدد:

يا راكباً بَلِّغن عَنّى مُغلْغَله(۱) مَن كانَ يرجُو بلاغَ اللّه والدّينِ

كلَّ امرئ مِن عِباداللّه مضطَهدٍ ببَطنِ مكّه مقهور ومفتونِ

أنّا وجَدنا بِلادَاللّه واسعةً تُنجِى مِنَ الذُلِّ والمخزاه والهون

فَلا تُقيموا عَلى ذُلِّ الحَياه وَخز ى فى المَماتِ وَعَيب غير مأمون(۲)

ويقول ابن الأثير: وكان مسيرهم (إلى الحبشه) فى رجب سنه خمس من النبوه، وهى السنه الثانيه من إظهار الدعوه، فأقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا فى شوال سنه خمس من النبوه، وكان سبب قدومهم إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أنّه... بلغ الخبر مَن بالحبشه من المسلمين أنّ قريشاً أسلمت، فعاد منهم قومٌ وتخلّف قومٌ.(۳)

هذا ويمكن للقارئ الكريم أن يقف على تفاصيل هذا القسم فى السيره النبويّه لابن هشام.(۴)

قريش توفد رجالاً لاسترداد المسلمين:

عندما بلغ قريشاً وزعماء «مكّه» ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون من أمن وحريه، وما حصلوا عليه من حسن الجوار والطمأنينه والراحه فى أرض الحبشه ثارت ثائره الحسد والغيظ فى قلوبهم، وتوجّسوا خيفه من نفوذ المسلمين فى الحبشه؛ لأنّ أرض الحبشه قد أصبحت قاعده قويه للمسلمين، وكانت الزعامهُ

۱- . المُغلغَله: الرساله ترسَل من بلد إلى بلد.

۲- . السيره النبويه: ۱/۲۲۰.

۳- . الكامل فى التاريخ: ۲/۷۷.

۴- . لاحظ: السيره النبويه: ۱/۲۴۵.

المكيهُ تتخوّفُ من أن يجد أنصارُ الإسلام وأتباعُه منفذاً إلى بلاط النجاشى زعيم الأحباش وملِكهم، ويُميّلوا قلبَه نحو الإسلام، ويكسبوا تأييده للمسلمين، فيؤول الأمر إلى أن يعبّئ جيشاً كبيراً للقضاء على حكومه المشركين الوثنيّين فى شبه الجزيره العربيه، وعندها تكون الكارثه.

فاجتمع أقطابُ «دار الندوه» مره أُخرى للتشاور فى الأمر، فاستقرّ رأيهم على أن يبعثوا إلى البلاط الحبشىّ مَن يقدّم إلى النجاشىّ ووزرائه هدايا مناسبه يستميلونهم بها ليستطيعوا من هذا الطريق التأثير على النجاشى ثم يتسنّى لهم بعد ذلك أن يقنعوه بضروره إخراج المسلمين المهاجرين من أرضه أن يتّهمونهم عنده بالسفاهه والجهل، وابتداع دين جديد منكر، والإرتداد عن دين الآباء والأجداد!!

ولكى تتحقّق خطّتهم هذه على أحسن وجه ويصلوا عن طريقها إلى أفضل النتائج اختاروا من بينهم رجلين ماكرين أصبح أحدُهما فى ما بعد من دهاقنه السياسه وهما: «عمروُ بن العاص»، و «عبداللّه بن أبى ربيعه» وقد روى هذه الحادثه ابن هشام فى سيرته عن أُمّ سلمه قالت:... ثم بعثوا بذلك عبداللّه بن أبى ربيعه وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: إدفعا إلى كلّ بطريق هديته قبل أن تكلّما النجاشى فيهم، ثم قدّما إلى النجاشىّ هداياه، ثم سلاه أن يسلّمهم إليكما قبل أن يكلّمهم.

قالت: فخرجا (موفَدا قريش) حتّى قدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار عند خير جار فلم يبق من بطارقته بطريق إلّادفعا إليه هديته قبل أن يكلّما النجاشى وقالا لكل بطريق منهم:

إنه قد ضوى(۱) إلى بلد الملك منّا غُلمان سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم

۱- . ضوى أىّ لجأ وأتى ليلا.

يَدخلوا فى دينكم، وجاءُوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملِك فيهم أشرافُ قومهم ليردَّهم إليهم فإذا كلَّمنا الملكُ فيهم، فأُشيروا عليه بأن يسلّمهم إلينا، ولا يكلّمهم، فإنّ قومَهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نعم.

ثم إنّهما قدّما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما، ثم كلّماه فقالا له:

أيّها الملك إنّه قد ضَوى إلى بلدك منّا غِلمان سفهاء، فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءُوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيّها الملك، قومُهم أعلى بهم عيناً، وأعلمُ بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضبَ النجاشىّ (وكان رجلاً حكيماً عادلاً) ثم قال: لاها اللّه، إذن لا أُسلمهم إليهما، ولا يُكادُ قوم جاوَرُونى، ونَزلوا بلادى، واختارونى على مَن سواى حتّى أدعوَهم فأسألهم عمّا يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتُهُم إليهما، ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنتُ جِوارَهم ما جاورونى.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فدعاهم، فلمّا جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ نقول واللّه ما علّمنا، وما أمرنا به نبيُنا صلى الله عليه و آله و سلم كائناً فى ذلك ما هو كائن.

فلمّا جاءوا - وقد دعا النجاشى أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله - سألهم فقال لهم:

ما هذا الدين الّذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا (به) فى دينى ولا فى دين أحدٍ من هذه الملل؟

قالت: فكان الّذى كلّمه جعفر بن أبى طالب (رضوان اللّه عليه) فقال له:

«أيُّها الملك، كنّا قوماً أهلَ جاهليه، نعبُدُ الأَصنامَ، ونأكلُ الميتةَ، ونأتى الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونسىءُ الجوار، ويأكلُ القوىّ منّا الضعيف، فكنّا على ذلك حتّى بعث اللّه إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبَه وصدقه وأمانته وعَفافه، فدعانا إلى اللّه لنوحِّدَه ونعبُدَه، ونخلَعَ ما كنّا نعبُد نحن وآباؤنا من دونه من الحجاره والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الامانه، وصله الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبدَ اللّه وحدَه، لا نشركُ به شيئاً، وأمرنا بالصلاه والزكاه والصيام - قالت: فعدد عليه أُمور الإسلام - فصدّقناه وآمنّا به، واتّبعناه على ما جاء به من اللّه، فعبدنا اللّه وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذّبونا، وافتتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عباده الأوثان من عباده اللّه تعالى، وأن نستحل ما كنّا نستحل من الخبائث، فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نظلَم عندكَ أيّها الملك».

قال: فقال له النجاشى: هل معَك ممّا جاء به عن اللّه من شىء؟

قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشىّ: فاقرأهُ علىَّ، فقرأ عليه صدراً من «كهيعص» (قرأ جعفر آيات من مطلع سوره مريم، واستمرَّ فى قراءته، وبذلك بيّن نظره الإسلام إلى «مريم» عليها السلام وطهاره جيبها، وإلى مكانه المسيح عليه السلام، وعظمه شأنه، وجليل مقامه). قالت: فبكى واللّه النجاشىُ حتّى اخضلّت لحيتُه

بالدموع، وبكت أسقافتُه(۱) حتّى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشی:

«إنّ هذا والّذی جاء به عیسی لیخرجُ من مشکاه واحده، انطلقا فلا واللّه لا أُسلِّمهم إلیکما ولا یُکادون.

قالت: لمّا خرجا من عنده قال «عمرو بن العاص» - وکان امرأً خدّاعاً ماکراً -:

واللّه لآتینّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم (وهو یعنی أنّه سیأتی بحیلهٍ تقضی علی جذور المهاجرین بالمره).

قالت: فقال له عبداللّه بن أبی ربیعه: لا تفعل، فإنّ لهم أرحاماً وإن کانوا خالفونا، قال: واللّه لأخبرنّه أنّهم یزعمون أنّ عیسی ابن مریم عبد. ثمّ غدا علیه الغد فقال له:

أیّها الملک، إنّهم یقولون فی «عیسی بن مریم» قولاً عظیماً. فأرسل إلیهم فسلهم عمّا یقولون فیه.

قالت: فأرسل النجاشیُ إلیهم لیسألهم عنه، وهو الملک المحنَّک الّذی لا یأخذ الأُمور علی ظواهرها، ومن غیر تحقیق ودراسه، فأدرک المسلمون بفطنتهم أنّه سیسألهم هذه المره عن موقفهم من المسیح علیه السلام فاتّفقوا أن یکون «جعفر» متکلّمهم وخطیبهم وعندما سألوه عمّا سیجیب به الملک قال: أقول واللّه ما قال اللّه، وماجاء به نبیُّنا کائناً فی ذلک ما هو کائن؟

قالت: فلمّا دخلوا علیه (النجاشیّ) قال لهم: ماذا تقولون فی عیسی بن مریم؟

قالت: فقال جعفر بن أبی طالب: نقول فیه الّذی جاءنا به نبینا صلی الله علیه و آله و سلم: هو عبداللّه ورسوله وروحه وکلمته ألقاها إلی مریم العذراء البتول.

۱- . الأساقفه؛ جمع أُسقف: علماء النصاری.

فضرب النجاشی بیده إلی الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: واللّه ماعدا عیسی بن مریم ما قلتَ هذا العود.

فتناخرت بطارقته حوله حین قال ما قال، فقال: وإن نخرتم واللّه، اذهبوا فأنتم شیوم (آمنون) فی أرضی مَن سبّکم غُرِمَ، ثم قال: مَن سبّکم غرِمَ، ثم قال: مَن سبّکم غرم، ما أُحب أنّ لی دبراً من ذهب وإنی آذیتُ رجلاً منکم. ردّوا علیهما هداياهما فلا حاجه لی بها، فواللّه ما أخذ اللّه منی الرشوه حین ردّ علیّ مُلکی فآخذ الرشوه فیه، وما أطاع الناس فیَّ فأُطیعهم فیه».

قالت: فخرجا (مبعوثا قریش) من عنده مقبوحین مردوداً علیهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخیر دار مع خیر جار.(۱)

***

وینبغی أن نسجّل هنا موقفاً آخر من مواقف أبی طالب فی تأیید المسلمین، ونصره الدین الحنیف.

فقد أرسل «أبوطالب» أبیاتاً للنجاشیّ یحثُّه علی الدفع عن المهاجرین وحسن جوارهم وتلک الأبیات هی:

ألا لَیتَ شِعری کیفَ فی النأی جعفرٌ وعمروٌ وأعداء العدو: الأقاربُ؟

وهل نالَت أفعال(۲) النجاشیّ جعفراً وأصحابه أو عاق ذلک شاغبُ؟

تَعلّم، أبیتَ اللعنَ، أنّک ماجِدٌ کریمٌ فلا یشقی لَدیک المجانبُ

تعلّم بأنّ اللّه زادک بسطهً وأسبابَ خیر کلّها بک لازب

وأنّک فَیضٌ ذوسجال غزیره یَنالُ الأعادی نفعهُا والأقارب(۳)

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۱/۲۲۲-۲۲۵ باختلاف یسیر.

۲- . إحسان.

۳- . السیره النبویه لابن هشام: ۱/۲۲۲.

العَودهُ من الحبشه:

قلنا فی ما مضی أنَّ المجموعه الأُولی من المهاجرین رجَعت من الحبشه إلی مکّه لأنباء بلغتها عن إسلام قریش عامه وانضوائها تحت رایه الإسلام. حتّی إذا دنوا من «مکّه» بلغهم أنّما کانوا تحدّثوا به من إسلام أهل مکّه کان باطلاً، فلم یدخل منهم إلی «مکّه» إلّاقلیل دخلوها مستخفین أو فی جوار بعض الشخصیات القرشیه بینما عاد الأکثرون من حیث جاءُوا.

وکان ممّن دخل «مکّه» بجوارٍ، «عثمان بن مظعون» الّذی دخلها بجوار «الولید بن المغیره» ولکنّه کان یشاهد ما فیه أصحابُ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من البلاء، والعذاب، وهو یغدو ویروح فی أمان من الولید بن المغیره، قال: واللّه إنّ غدوّی ورواحی آمناً بجوار رجل من أهل الشرک، وأصحابی وأهلُ دینی یلقَون من البلاء والأذی فی اللّه ما لا یصیبنی لنقصٌ کبیر فی نفسی، فمشی إلی «الولید بن المغیره» فقال له: یا أبا عبد شمس وفَت ذِمّتُک، قد رَددْتُ إلیک جوارَک.

فقال له: لِمَ یابن أخی؟ لعلَّه آذاک أحدٌ من قومی؟

قال: لا ولکنّی أرضی بجوار اللّه ولا أُرید أن أستجیر بغیره.

قال: فانطلق إلی المسجد فاردُد علیّ جواری علانیه کما أجرتُک علانیهً.

قال: فانطلقا فخرجا حتّی أتیا المسجدَ، فقال «الولیدُ» مخاطباً مَن حضر مِن قریش: هذا عثمان قد جاء یردُّ علیّ جواری.

قال: صدق، قد وجدتُه وفیّاً کریمَ الجوار، ولکنّی قد أحببتُ أن لا أستجیرَ بغیراللّه، فقد رددتُ علیه جواره.(۱)

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۱/۲۴۷.

ثم لم يمض شيء مِنَ الوقت حتّى دخَلَ المسجدَ «لبيد بن ربيعه» وكان شاعراً متكلِّما بارزاً من شعراء العرب ومتكلّميها ووقف فی مجلس من قريش ينشدهم و «عثمان بن مظعون» جالس معهم فقال مِن جمله ما قال شعراً:

ألا كلُ شيء ما خلا اللّه باطلُ

فقال عثمان بن مظعون: صدقتَ فقال: لبيد:

وكلُ نعيم لا محاله زائلُ

قال عثمان: كذبت، نعيمُ الجنه لا يزول، فاستثقل «لبيد» تكذيب عثمان وتحدّيه له فی ذلك الجمع فقال: يا معشر قريش واللّه ما كان يؤذی جليسُكم، فمتی حدث هذا فيكم؟؟

فقال رجلٌ مِن القوم: إنَّ هذا سفيه فی سفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلا تجدنّ فی نفسكَ من قوله.

فردّ عليه «عثمان» حتّی تفاقم الأمر بينهما، فقام إليه ذلك الرجلُ فلطم عينه فخضّرها (وأصابها)، والوليد بن المغيره قريب يری ما بلغ عثمان فقال: أما واللّه يا ابن أخی إن كانت عينُك عَمّا أصابها لغنيّه لقد كنت فی ذمّه منيعه (وهو يريد أنّك لو بقيت فی ذمّتی وجواری لما أصابك ما أصابك).

فقال عثمان رادّاً عليه: بل واللّه إنّ عينی الصحيحه لفقيرهٌ إلی مِثل ما أصابَ أُختَها فی اللّه، وإنّی لفی جوار مَن هو أعزُّ منكَ، وأقدرُ يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد: هلمّ يا ابنَ أخی إن شئت فعُد إلی جوارك، فقال ابنُ مظعون:

لا.(۱)

وكانت هذه صورهٌ رائعهٌ من صور كثيره لصمود المسلمين، وتفانيهمْ فی

۱- . السيره النبويه: ۱/۲۴۸.

سبيل العقيده، وإصرارهم على النهج الّذى اختاروه، ومواساه بعضهم لبعض فى أشدّ فتره من فترات التاريخ الإسلامى.

وفدٌ مسيحىٌ لتقصّى الحقائق يدخل مكّه:

قـدمَ على رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم وهو بمكه عشـرون رجلاً ـ أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبرُه من الحبشه، (مبعوثين من قِبَل أساقفتها لتقصّى الحقائق بمكه، والتعرف على الإسـلام). فوجدوا رسول اللّه فى المسجد، فجلسوا إليه، وكلّموه وسألوه، ورجالٌ من قريش (فيهم «أبوجهل») فى أنديتهم حول الكعبه.

فلمّا فرغوا من مسـأله رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم عمّا أرادوا، دعاهم رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم إلى اللّه عزوجلّ وتلا عليهم (آيات من) القرآن، فلمّا سـمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له و آمنوا به وصدّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصَف لهم فى كتابهم (الإنجيل) من أمره.

فلمّا قامُوا عنه، اعترضهم «أبوجهل بن هشام» فى نفر من قريش، فقالوا لهم:

خيَّبكُمُ اللّه مِن ركبٍ بعَثكُم مَن وراءكم من أهـل دينكم ترتـادون لهم لتـأتوهم بخـبر الرجـل، فلم تطمئنّ مجالسُـكم عنـده حتّى فارقتُم دينكُم، وصدَّقتموهُ بما قال، ما نعلمُ ركباً أحمقَ مِنكُم.

فقـالوا لهم: سـلامٌ عليكم لا نُجاهِلكم، لنا ما نحنُ عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسـنا خيراً.(۱) وبذلك الكلام الجميل ردّوا على فرعون مكّه الّذى كان يبغى - كسحابه داكنه - حجب أشعه الشمس المشرقه، وحالوا دون وقوع صدام.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۶۳. وقد نزلت فى هذا الشأن الآيات ۵۲ إلى ۵۵ من سوره القصص.

وفد قريش إلى يهود يثرب للتحقيق:

لقد أيقظ وفدُ نصارى الحبشه إلى مكّه وما نجم عن لقائهم برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قريشاً ودفعهم إلى تشكيل وَفد يتألّف من «النضر بن الحارث» و «عُقبه بن أبى معيط» وغيرهما وإرسالهم إلى أحبار يهود المدينه ليسألونهم عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ودينه.

فقال أحبارُ اليهود لمبعوثى قريش: سَلوا محمَّداً عن ثلاث نأمركم بهنَّ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسَل، وإن لم يفعل فالرجلُ متقوّلٌ، فروا فيه رأيكم:

١. سلوه عن فتيه ذَهبوا فى الدهر الأوّل (يعنون بهم أصحاب الكهف) ما كان أمرهم، فإنّه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ.

٢. وسلوه عن رجل طوّاف (يعنون به ذا القرنين) قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟

٣. وسلوه عن الروح ماهى؟

فإذا أخبركم بذلك فاتّبعوهُ، فإنّه نَبىّ، وإن لم يفعل، فهو رَجُلٌ متقوِّلٌ فاصنَعوا فى أمره ما بدا لكم.

فعادَ وفد قريش إلى «مكّه» ولما قدموها قالوا لقريش ما سمعوه من أحبار اليهود.

فجاءُوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وطرحوا عليه الأسئله الثلاثه السالفه. فقال رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: انتظر فى ذلك وحياً.

ثم نزل الوحىُ يحملُ إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الأجوبه المطلوبه عن تلك

الأسئله.(۱)

وقد ورَدَ الجواب عن السؤال عن الروح فی الآیه ۸۵ من سوره الإسراء.

وأُجیبَ عن السؤالین الآخرین عن أصحاب «الکهف» وذی القرنین بتفصیل فی سوره «الکهف» ضمن الآیات ۹-۲۸ و الآیات ۷۳-۹۳.

وقد وردت تفصیلاتُ هذه الإجابات الّتی أجابَ بها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی أسئلتهم فی کتب التفسیر.

ولابدَّ هنا من أن نُذکِّر القارئ الکریم بنقطه مفیده وهی أنّ المراد من «الرّوح» فی سؤال القوم لیس هو الرُّوح الإنسانیه، بل کان المراد هو جبرئیل الأمین، (بقرینه أنَّ المقترحین الأصلیّین لهذه الأسئله: هم الیهود وکانوا یکرهون الروح الأمین، ویعادونه)، وهو أمرٌ مبحوثٌ فی محلِّه من کتب التفسیر.

۱- . لاحظ: السیره النبویه: ۱/۱۹۵.

۱۹ الأسلحهُ الفاشله والأساليب الباطله

اشاره

نظّم أسياد قريش صفوفهم لمكافحه عقيده التوحيد، بعد أن أدركوا عقم المواقف المبعثره من هذا الدّين وأهله.

فقد حاولوا فی بدايه الأمر أن يُثنُوا رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم عن المضیّ فی مواصله دعوته، وذلك بتطميعه بالمال والجاه وماشابه ذلك، ولكن لم يحصلوا من ذلك علی شیء، فقد خيّب ذلك الرجلُ المجاهدُ ظنونهم فيه، وبدّد آمالهم فی إثنائه عن هدفه بكلمته الخالده المدوّيه: «واللّه لو وَضعوا الشمس فی يمينی، والقَمر فی يسارى علی أن أترك هذا الأمر لما فعلتُ» وهو يعنی أنّ تمليكه العالم كلَه لا يثنيه عن هدفه ولا يصرفه عن تحقيق ما نُدِبَ إليه وأُرسل به.

فعمدوا إلی سلاح آخر هو التهديد والأذى، والتنكيل به وبأصحابه وأنصاره، ولكنّهم واجهوا صمودَه وصمود أنصاره وأصحابه، وثباتهم الّذى أدّى إلی انتصار المؤمنين فی هذا الميدان، وخيبه المشركين وهزيمتهم.

وقد بَلَغ من ثبات المسلمين علی الطريق أنّهم أقدموا علی مغادره الوطن، وترك الأهل والعيال، والهجره إلی الحبشه فراراً بدينهم إلی اللّه، وسعياً وراء نشره وبثه فی غير الجزيره من الآفاق.

ولكن رغم إخفاق أسياد قريش المشركين فی جميع هذه الجهات والميادين وعجزهم عن استئصال شجره التوحيد الفتيه، وفشل جميع الأسلحه الّتی استخدموها للقضاء علی الدين الجديد وأهله، لم تنته محاولاتهم الإجهاضيّه،

بل عمدوا هذه المرّه إلى استخدام سلاح جديد حسبوه أمضى من سوابقه.

وهذا السلاح هو سلاحُ الدعايه ضدّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّه صحيحٌ أنّ إيذاء وتعذيب جماعه المؤمنين فى «مكّه» تمنع غيرهم من سُكان «مكّه» من الإنضواء إلى الإسلام إلّاأنّ الحجيج الذين كانوا يسافرون إلى مكّه فى الأشهر الحرُم وكانوا يلتقون رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى جوّ من الأمن والطمأنينه خلال تلك المواسم كانوا يتأثّرون بدعوه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ويتزعزعُ اعتقادهم بالأوثان على الأقل، إن لم يؤمنوا بدينه، ولم يستجيبوا لدعوته، ثم إنّهم كانوا ينقلون رساله الإسلام وأنباء النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إلى مواطنهم، ومناطِقهم وكان ينتشر بذلك اسم رسول اللّه، وأنباء دينه فى شتّى مناطق الجزيره العربيه، وكان هذا هو بنفسه ضربه قويه توجّه إلى صرح الوثنيه فى مكّه، وعاملاً قوياً فى انتشار عقيده التوحيد، وسطوع أمره.

من هنا اتّخذ سادهُ قريش أُسلوباً آخر، قاصدين بذلك الحيلوله دون انتشار الإسلام، واتّساع رقعته، وقطع علاقه المجتمع العربى به.

وإليك فيما يأتى بيان تفاصيل هذا الأُسلوب، وهذه الخطه:

١. الاتّهاماتُ الباطله:

اشاره

يمكن التعرّف على شخصيه أى واحد وتقييمها من خلال ما يرميه به أعداؤه من شتائم وسباب، وما يكيلون له من اتّهامات ونسب، فَإنّ العدو يسعى دائماً إلى أن يتّهم خصمَه بنوع من أنواع التهم ليُضِلَّ الناس، ويصرفهم عنه، وليتمكّن بما يحوكُه حوله من أراجيف وأباطيل الحط من شأنه فى المجتمع وإسقاطه من الأنظار والأعين.

إنّ العدوّ الذكىّ يسعى دائماً إلى أن ينسب إلى منافسه ما يُصدِّقه ولو فئه خاصه من الناس على الأقل، ويوجبُ شكَّهم فى صدقه، ويتجنّب تلك النِسَب الّتى

لا تصدَّق فی شأنه، ولا تناسبُ أخلاقه وأفعاله المعروفه عنه، ولا تمسّه بشکلٍ من الأشکال، لأنّه سوف لا یَجنی فی هذه الحاله إلّاعکسَ ما یقصد، وخلاف ما یرید.

ومن هنا یستطیع المؤرّخُ المحقّقُ أن یتعرّف علی الشخصیه الواقعیه لمَن یدرسه، وعلی مکانته الإجتماعیه، وأخلاقه وسجایاه ولو من خلال ما ینسبُه الأعداء إلیه، وما یکیلون له من أکاذیب وإفتراءات، ونسب باطله واتّهامات، لأنّ العدوّ الّذی لا یخاف أحداً لا یقصّرُ فی کیل کلِّ تهمه تنفعُهُ وتخدمُ غرضَه إلی الطرف الآخر، ویستخدم هذا السلاح (أی سلاح الدعایه) ما استطاع، وما ساعدته معرفُته بالظروف، ودرایته بالفَرص.

فإذا لم ینسَب إلیه أیُّ شیء من تلک النسب الباطله، فانّ ذلک إنّما هو لأجل طهاره جیبه، ونقاء صفحته، وتنزُّه شخصیته عن تلک النسب، ولأنّ المجتمع لم یکن لیعبأ بها ولم یصدّقها فی شأنه.

ولو أنّنا تصفّحنا أوراق التاریخ الإسلامی لرأینا أنّ قریشاً مع ما کانت تکنُّ من عداء، وتحِملُ من حِقد علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وکانت تسعی بکلّ جهدها أن تهدم صرح الإسلام الجدید الظهور، وأن تحطّ من شأن مؤسّسه وبانیه لم تستطع مع ذلک أن تستفید من هذا السلاح، وتستخدمه کاملاً.

فقد کانت تفکّر فی نفسها: ماذا تقول فی حقّ رسول اللّه؟ وماذا تری تنسب إلیه؟؟

هل تتّهمه بالخیانه المالیه وها هم جماعه منهم قد ائتمنوه علی أموالهم؟!(۱)کما أنّ حیاته الشریفه طوال الأربعین سنه الماضیه جسّدت أمانته أمام الجمیع، فهو الأمین بلا منازع؟

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۹/۶۲.

هل تتّهمه بالجرى والانسياق وراء الشهوه واللّذه؟ وكيف تقول فى حقّه مثل هذا الكلام مع أنّه بدأ حياته الشبابيه بالتزويج بزوجه كبيره السنّ إلى درجه مَا، وبقى معها حتّى لحظه انعقاد هذه الشورى فى «دار الندوه» بهدف الدعايه ضدّه، ولم يُعهَد منه زلّه قدم فى هذا السبيل قط؟!

وبالتالى بماذا تتّهم محمَّداً الصادق الأمين، الطاهر العفيف، وأيّه تهمه ترى يمكن أن تُصدَّق فى حقّه، أو يحتمل الناس صدقها فى شأنه ولو بنسبه واحد فى المائه؟

لقد تحيَّر ساده «دار الندوه» وأقطابها فى كيفيه استخدام هذا السلاح، سلاح الدعايه ضدّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فقرَّروا فى نهايه الأمر أن يطرحوا هذا الأمر على صناديد من صناديد قريش ويطلبوا رأيه فيه، وهو «الوليد بن المُغيره» وكان ذا سنّ فيهم، ومكانه، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنّه قد حضر هذا الموسم، وإنّ وفود العرب ستقدَم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذّبُ بعضكم بعضاً، ويردُ قولُكم بعضُه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم قولوا أسمَع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا واللّه ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهّانَ فما هو بزمزمه الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا تخالجه،

ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

فقال: ما هو بساحر لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

وهكذا تحيَّروا فی ما ينسبون إلی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم.

وأخيراً أشار عليهم الوليد أن يقولوا: إنّه ساحر، جاء بقول هو سِحْرٌ، يفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

ويدلُّ عليه ما أوجده من الخلاف والإنشقاق والتفرُّق بين أهل مكّه الَّذين كان يُضرب بهم المثل فی الوحده والاتّفاق.(۱)

وقد ذكر المفسِّرون فی تفسير سوره «المدثّر» هذه القصه بنحو آخر فقالوا:

لمّا أُنزل علی رسول اللّه «حم * تَنْزِيلُ الْكِتابِ...» * قام إلی المسجد و «الوليد بن المغيره» قريب منه يسمع قراءته، فلمّا فطن النبیُ صلی الله عليه و آله و سلم لاستماعه لقراءته، أعاد قراءه الآيه، فتركت الآيه فی نفس الوليد تأثيراً شديداً فانطلق إلی منزله، ولم يخرج منه أيّاماً، فسخرت منه قريشٌ وقالت: صبأ - واللّه - الوليدُ ثم مشی رجال من قريش إليه وسألوه رأيه فی قرآن محمَّد، واقترح كل واحد منهم أمراً، ولكنه رد عليها بالنفی جميعاً، فقالت قريش: إذن ما هو؟ فتفكّر «الوليد» فی نفسه ثم قال: ما هو إلّاساحرٌ أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله،

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۷۴-۱۷۵ بتلخيص.

ووُلده وموالیه فهو ساحر وما یقوله سحر یؤثر.(۱) ویری المفسّرون أنّ الآیات التالیه نزلت فی شأنه إذ یقول اللّه تعالی:

«ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِیداً * وَ جَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً * وَ بَنِینَ شُهُوداً * وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِیداً * ثُمَّ یَطْمَعُ أَنْ أَزِیدَ * کَلاّ إِنَّهُ کانَ لِآیاتِنا عَنِیداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَکَّرَ وَ قَدَّرَ * فَقُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَکْبَرَ * فَقالَ إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ یُؤْثَرُ ... (إلی قوله:) فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْکِرَهِ مُعْرِضِینَ * کَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَهٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَهٍ» .(۲)

***

الإصرار فی نسبه الجنون إلیه صلی اللّه علیه و آله و سلم:

یعتبر اتّصاف النبیّ الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلم واشتهاره بین الناس بالصدق والأمانه وغیرها من مکارم الأخلاق منذ شبابه من مسلّمات التاریخ.

وهو بالتالی أمرٌ اعترف به حتّی أعداؤه الألدّاء، فقد دانوا بفضله، وأقرُّوا بأخلاقه الکریمه و سجایاه النبیله، دون تلکؤ، ولا إبطاء.

وقد کانَ من أوصافه الحسنه البارزه أنّ جمیع الناس کانوا یدعونه «الصادق» «الأمین» وکانوا یثقون بأمانته ثقه کبری(۳) حتّی أنّ المشرکین کانوا یودعون ما غلا من أموالهم عنده، واستمر هذا الأمر حتّی عشره أعوام بعد دعوته العلنیّه.

وحیث إنّ دعوته صلی اللّه علیه و آله و سلم قد ثقلت علی المعاندین فاجتهدوا فی أن یصرفوا

۱- . لاحظ: مجمع البیان: ۱۰/۱۷۸.

۲- . المدثر: من ۱۱-۵۱.

۳- . بحار الأنوار: ۱۹/۶۲ عن عبیداللّه بن أبی رافع قال: کانت قریش تدعو محمّداً صلی اللّه علیه و آله و سلم فی الجاهلیه الأمین، وکانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وکذلک من یقدم مکّه من العرب فی الموسم، وجاءته النبوه والرساله والأمر کذلک.

عنه النـاس بمـا ينسـبون إليه من بعض النسب الّتى تـوجب سـوء الظنّ به، ومن ثم إفشـال دعـوته، وحيث إنّهم كـانوا يعلمون أنّ النِسَبَ الأُـخرى ممّـا لاـ يقيم لها المشـركون وزناً، لأنّها أُمور بسـيطه فى نظرهم، من هنا رأوا بأنّ يتّهمونه بالجنون، والزعم بأنّ ما يقوله و يقرؤه ما هو إلّامن نسج الخيال، ومن أثر الجنون الّذى لا يتنافى مع الزهد، والأمانه، وذلك تكذيباً لدعوته.

ثم عملت قريش على إشاعه هذه النسبه، واتّخذت وسائل عديده وما كره لترويجها وبثّها بين الناس.

ومن شـدّه مكرهم ومراءاتهم أنّهم كانوا يتّخـذون موقف المتسائل المحايـد فيطرحون هـذه التهمه فى قالب الشك، والترديـد إذ يقولون:

«أَفْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّهٌ» .(۱)

وهـذه هى بعينها الحيلهُ الشـيطانيه الّتى يتوسَّل بها ويتستر وراءها أعـداء الحقيقه دائماً عند ما يريدون تكذيب المصـلحين العظام، وإسقاط خطواتهم وأفكارهم من الاعتبار، والحطّ من شأنها وأهميتها.

ويشـير القرآنُ أيضـاً إلى أنّ هـذا الأُسـلوب المـاكر الـذميم لم يكن مختصّـاً بالمعارضـين فى عهـد الرسـاله المحمَّديه، بـل كـان المعارضون فى الأعصر الغابره أيضاً يتوسّلون بهذا السلاح لتكذيب الرسل، والأنبياء إذ يقول عنهم:

«كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ» .(۲)

وتحدّث الأناجيلُ الحاضره هى الأُخرى عن أنّ المسيح عليه السلام عندما وعظ

۱- . سبأ: ۸.

۲- . الذاريات: ۵۲ و ۵۳.

اليهود قالوا: إنّ به مسّاً من الشيطان، فهو يهذى فلماذا تصغون إليه؟!.(۱)

ومن المسلّم والبديهى أنَّ قريشاً لو كان فى مقدورها أن تتّهم رسولَ اللّه الصادق الأمين صلى الله عليه و آله و سلم بغير هذا الاتّهام وتنسب إليه غير هذه النسبه لما تأخّرت عن ذلك، ولكن حياه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم المشرقه خلال الأربعين سنه الماضيه، وسوابقه اللامعه فى المجتمع المكىّ وغير المكى كانت تحول دون أن ينسبوا إليه شيئاً من تلك النسب القبيحه، الذميمه. لقد كانت «قريش» مستعده لأن تستخدم أى شىء - مهما صغر - ضد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فمثلاً عند ما وجده أعداء الرساله يجلس إلى غلام مسيحىّ يدعى «جبر» عند المروه، انطلقوا يستخدمون هذا الأمر ضدّه صلى الله عليه و آله و سلم فوراً فقالوا: واللّه ما يُعلِّمُ محمَّداً كثيراً ممّا يأتى به إلّا «جبر» النصرانى.

فردّ عليهم القرآن الكريمُ بقوله:

«وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ» .(۲)

«وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ» .(۳)

القرآن يرد على جميع الاتهامات:

وربّما نسبوا إليه صلى الله عليه و آله و سلم الكهانه، والكاهن هو مَن يتصل بعناصر من الجن(۴)

۱- . انجيل يوحنا: الفصل ۱۰، الفقره: ۲۰.

۲- . النحل: ۱۰۳.

۳- . الدخان: ۱۳ و ۱۴.

۴- . الجن كائن من الكائنات ومخلوق من مخلوقات اللّه تعالى وقد أخبر به القرآن الكريم فى مواضع عديده كما سُمّيت إحدى السور باسم الجن.

أو الشياطين ويتلقّى منهم أخباراً حول الماضى والمستقبل، وكان هذا موجوداً قبل الإسلام كما ترويه كتب السير والتواريخ.(۱)

وقد رد القرآن الكريم على هذه المقاله و هذا الزعم إذ قال تعالى:

«وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ» .(۲)

كما ردّ أيضاً تهمه السحر، والكذب والافتراء والشعر، إذ قال تعالى وهو يصف المتّهمين تاره بالكفر وأُخرى بالظلم:

«وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذّابٌ» .(۳)

وقال تعالى: «وَ قالَ الظّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلًا مَسْحُوراً» .(۴)

وقال سبحانه متعجباً مِنهم: «قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ» .(۵)

وقال تعالى: «وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» .(۶)

وقال سبحانه: «وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ» .(۷)

وقال عزّوجلّ: «فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ» .(۸)

وقال تعالى: «قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ» .(۹)

وقال تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ» .(۱۰)

وقال سبحانه: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ

۱- . راجع: بلوغ الإرب فى معرفه أحوال العرب: ۳/۲۶۹ باب علم الكهانه والعرافه.

۲- . الحاقه: ۴۲.

۳- . ص: ۴.

۴- . الفرقان: ۸.

۵- . الشعراء: ۱۵۳.

۶- . الحجر: ۶.

۷- . التكوير: ۲۲.

۸- . الطور: ۲۹.

۹- . النحل: ۱۰۱.

۱۰- . هود: ۱۳.

آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً» .(۱)

وقال سبحانه: «أَفْتَری عَلَی اللّهِ کَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّهٌ» .(۲)

وقال تعالی: «أَمْ یَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَیْبَ الْمَنُونِ» .(۳) وقال تعالی: «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما یَنْبَغِی لَهُ إِنْ هُوَ إِلّا ذِکْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِینٌ» .(۴)

وربّما وصفوا القرآن بأنّه أضغاث أحلام فردّهم سبحانه بقوله.

«بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ» .(۵)

وهکذا نجدهم ذهبوا فی استخدام سلاح الاتّهام والتشویش علی الشخصیه المحمَّدیه والرساله الإسلامیه کلّ مذهب، فمرّه وصفوه بأنّه کاهن، وأُخری بأنّه ساحر، وثالثه بأنّه مسحور، ورابعه بأنّه مجنون، وخامسه بأنّه معلّم، وسادسه بأنّه کذاب، وسابعه بأنّه مفترٍ، وثامنه بأنّه مفترٍ أومجنون علی سبیل الترديد، وتاسعه بأنّه شاعر، وعاشره بأنّ ما یقوله ما هو إلّاأضغاث أحلام.

۲. فکرهُ معارضه القرآن:

لم یُجدِ استخدام سلاح الاتّهام ضد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم نفعاً، ولم یأت بالثمار الّتی کان یتوخّاها المشرکون منه، لأنّ الناس کانوا یُدرکون بفطنتهم وفراستهم أنّ للقرآن جاذبیّه غریبه، وأنّهم لم یسمعوا کلاماً حلواً، وحدیثاً عذباً مثله.

إنّ لکلماته من العمق والعذوبه بحیث یتقبّلها کلُّ قلب، وتسکن إلیها کلّ نفس.

۱- . الفرقان: ۴.

۲- . سبأ: ۸.

۳- . الطور: ۳۰.

۴- . یس: ۶۹.

۵- . الأنبیاء: ۵.

من هنا لم ينفع اتّهام قريش لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالجنون وبأنَّ ما يقوله إن هو إلّا من نسج الخيال، ونتائج الجنون، شيئاً، فقرّرت أن تخطّط لتدبير آخر ظناً منهم بأنّ تنفيذه سيصرف الناس عنه، وعن الاستماع إلى كتابه، ألا وهو: معارضه القرآن الكريم.

فعمدت إلى «النضر بن الحارث» وكان من شياطين قريش، وممّن كان يؤذى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وينصب له العداوه، وكان قد قضى شطراً من حياته فى الحيره بالعراق وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث «رُستم» و «إسفنديار» وقصصهم، وحكاياتهم، وأساطيرهم، وطلبوا منه أن يجمع الناسَ ويقص عليهم من تلكم الأساطير والحكايات يلهى بها الناس عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ويصرفهم عن الإصغاء إلى القرآن الكريم!!

فكان إذا جلس رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مجلساً فذكَّر (الناس) فيه باللّه، وحذر قومه ما أصاب مَن قبلَهم من الأُمم من نقمه اللّه، خَلفه «النضرُ» فى مجلسه إذا قام صلى الله عليه و آله و سلم ثم قال: أنا واللّه يا معشر قريش أحسنُ حديثاً منه فهلمَّ إلىّ، فأنا أُحدِّثكم أحسنَ من حديثه.

ثم يحدّثهم عن ملوك الفرس و «رستم» و «اسفنديار» ثم يقول:

بماذا محمَّد أحسن حديثاً منّى وما حديثه إلّاأساطير الأَوّلين اكتتبها كما اكتتبتُها؟

وقد كانت هذه الخُطه حمقاء جداً إلى درجه أنّها لم تدم إلّاعده أيّام لا أكثر حتّى أنّ قريشاً سأمت من أحاديث «النضر» وسرعان ما تفرّقت عنه.

وقد نزل فى هذا الشأن آيات هى:

«وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَهً وَ أَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى

يَعْلَمُ السِّرَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ کانَ غَفُوراً رَحِیماً» (۱).(۲)

***

۳. تحجّجات صبیانیّه وجاهلیّه:

وربّما جسَّدوا معارضتهم للدعوه المحمَّدیه فی صوره تحجّجات ومجادلات جاهلیّه ومآخذ سخیفه أخذوها علی رسول اللّه ورسالته، تنم عن تکبّر وجهل، وعناد ولجاج طبعوا علیه.

وها نحن نذکر أبرزها:

أ - لماذا لم ینزل القرآن علی ثریّ من أثریاء مکّه أو الطائف؟!

قال تعالی حاکیاً قولهم: «لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلی رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ» .(۳)

ب - لماذا لم یرسل إلیهم ملائکه ولماذا هو بشر؟!

قال تعالی حاکیاً عنهم: «وَ ما مَنَعَ النّاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدی إِلاّ أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولاً» .(۴)

وقال تعالی حاکیاً عنهم أیضاً:

«وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعامَ وَ یَمْشِی فِی الْأَسْواقِ» .(۵)

ج - أنَّه یدعو إلی خلاف ما کان علیه الآباء، من الدین والعقیده والسلوک؟

یقول عنهم سبحانه:

۱- . الفُرقان: ۵ و ۶.

۲- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۱/۱۹۵ و ۲۳۹.

۳- . الزخرف: ۳۱.

۴- . الإسراء: ۹۴.

۵- . الفرقان: ۷.

«وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ» .(۱)

د – تبديل الآلهه بإلهٍ واحدٍ.

قال اللّه حاكياً عنهم:

«وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذّابٌ * أَ جَعَلَ الْآلِهَهَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْ ءٌ عُجابٌ» .(۲)

ه – القول بحشر الأجساد وتجدّد الحياه فى يوم القيامه.

قال تعالى حاكياً عنهم:

«وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِى الْأَرْضِ أَ إِنّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ» .(۳)

و – لماذا ليس عنده مثل ماكان لدى موسى من المعجزات كالثعبان المنقلب من العصا، وقد توصّل المشركون إلى هذا النمط من الاعتراض بسبب اتّصالهم بأحبار اليهود.

يقول اللّه حاكياً عنهم:

«فَلَمّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِىَ مِثْلَ ما أُوتِىَ مُوسى» .(۴)

ز – لماذا ليس معه ملك يُرى ويشاهَد ويحضر معه فى كلّ مقام ومشهد.

قال تعالى: «وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» .(۵)

۱– . المائده: ۱۰۴.

۲– . ص: ۴ و ۵.

۳– . السجده: ۱۰.

۴– . القصص: ۴۸.

۵– . الأنعام: ۸.

۴. مقترحات عجيبه ومطاليب غريبه:

اشاره

وكان المشركون إذا نفذت تحجّجاتهم واعتراضاتهم الواهيه، وقوبلوا بردود قويه وقاطعه عليها عمدوا إلى طرح مقترحات سخيفه على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى سياق معارضتهم لدعوته، ونورد هنا أبرز تلك الاقتراحات ليعرف القارئ الكريم مدى معاناه النبىّ الكريم صلى الله عليه و آله و سلم من قومه:

لقد اقترحوا عليه:

١. أن يعبد أصنامهم سنه ويعبدوا إلهه سنه أُخرى وجعلوا ذلك شرطاً لإيمانهم بدعوته!!

فأنزل اللّه تعالى فى ردّهم سوره «الكافرون»:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ * لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ * وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ».

٢. تبديل القرآن، فقد دفع نقدُ القرآن الكريم للوثنيه، والازدراء على الأصنام، دفعهم إلى أن يطلبوا من النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أن يأتى لهم بقرآن آخر لا يحتوى على شجب عباده الأوثان والازدراء بالأصنام، وإبطالها.

قال اللّه تعالى عن فعلهم هذا: «وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ» .(١)

فردّ اللّه عليهم بقوله: «قُلْ ما يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ ما يُوحى إِلَىَّ إِنِّى أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» .(٢)

١- . يونس: ١۵.

٢- . يونس: ١۵.

۳. مطالیب مادیه عجیبه!!

وقد عمدوا - بسبب عنادهم وعتوّهم - إلی المطالبه بأُمور لا ترتبط بهدایه الناس، مثل مطالبته بأن یفجر لهم ینابیع، أو یُسقط السماء علی رؤوسهم قطعاً، أو یصعد إلی السماء، أو یأتی باللّه سبحانه وتعالی، أو غیر ذلک من الاقتراحات والمطالیب الّتی کانت إمّا مستحیله فی نفسها أوتناقض غرض الدعوه!!

قال اللّه حاکیاً عنهم ذلک: «وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً * أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّهٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِیراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللّهِ وَ الْمَلائِکَهِ قَبِیلًا * أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ» .(۱)

صبر النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلم واستقامته وثباته:

ولقد قابل رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کلّ هذه التحجّجات الإیذائیه وما طرح مِنَ الاقتراحات المستحیله بصبر عظیم وثبات هائل، إیماناً منه بدعوته، وحرصاً علی إبلاغ رسالته.

یقول اللّه تعالی فی هذا الصدد:

۱. «فَاصْبِرْ کَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» .(۲)

۲. «وَ اتَّبِعْ ما یُوحی إِلَیْکَ وَ اصْبِرْ حَتّی یَحْکُمَ اللّهُ وَ هُوَ خَیْرُ الْحاکِمِینَ» .(۳)

۳. «وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُکَ إِلّا بِاللّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ» .(۴)

۱- . الإسراء: ۹۰-۹۳.

۲- . الأحقاف: ۳۵.

۳- . یونس: ۱۰۹.

۴- . النحل: ۱۲۷.

۴. «وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداهِ وَ الْعَشِیِّ» .(۱)

۵. «فَاصْبِرْ لِحُکْمِ رَبِّکَ وَ لا تَکُنْ کَصاحِبِ الْحُوتِ» .(۲)

۶. «وَ اصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِیلاً» .(۳)

***

معاجز النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لم تنحصر فی القرآن الکریم:

اشاره

وبالمناسبه لابد أن نذکر أنّ المشرکین ومَن حذا حذوهم من الکفّار والمعارضین للرساله الإسلامیه کانوا یطالبون رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بمعاجز ودیات لا بدافع الرغبه فی الإیمان بدعوته، بل بدافع اللجاج والعناد، وإلّا فإنّ معاجز النبیّ لم تنحصر فی الکتاب العزیز، فقد أتی رسول اللّه بآیات ومعاجز کثیره أُخری غیر القرآن، کان کلّ واحده منها تکفی للاقتناع برسالته، والإیمان بصحّه دعواه.

فالقرآن نفسه یشیر إلی أبرز هذه المعاجز وهی:

۱. شقّ القمر

فقد طلب المشرکون من النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أن یشق لهم القمر نصفین حتّی یؤمنوا به، فلمّا فعل ذلک لهم بإذن اللّه کفروا به وقالوا: إنّه سحر!!

یقول اللّه تعالی:

«اِقْتَرَبَتِ السّاعَهُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ * وَ إِنْ یَرَوْا آیَهً یُعْرِضُوا وَ یَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» .(۴)

۱- . الکهف: ۲۸.

۲- . القلم: ۴۸.

۳- . المزمل: ۱۰.

۴- . القمر: ۱ و ۲.

۲. الإسراء والمعراج

إنّ العروج برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - والّذى سيأتى مفصّلًا - هو الآخر معجزه من معاجزه القويه، وقد نطق بها القرآن بقوله:

«سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (۱).

۳. مباهله أهل الباطل

إنّ تقدّم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مع مَن خرج بهم إلى المباهله، وإحجام النصارى عن مباهلته، معجزه أُخرى من معاجزه صلى الله عليه و آله و سلم وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه القضيه إذ قال:

«فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ» .(۲)

وستأتى قصّه المباهله على نحو التفصيل فى حوادث السنه العاشره من الهجره.

۴. الإخبار بالمغيبات

أخبر القرآن الكريم بأُمور غيبيه كثيره، فقد أخبر عن غلبه الروم بعد سنين، قال تعالى:

«الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى

۱- . الإسراء: ۱.

۲- . آل عمران: ۶۱.

بِضْعِ سِنِينَ لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ» .(۱)

هذا وقد أخبرت الأخبار والأحاديث عن معاجز كثيره لرسول اللّه غير القرآن الكريم. ومن هذه المعاجز ما ذكره الإمام أمير المؤمنين علّى بن أبى طالب - كما فى نهج البلاغه - حول سؤال المشركين من النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم قلع شجره بعروقها وجذورها ولمّا فعل ذلك وقال: «يا أيّتها الشجره إن كنت تؤمنين باللّه واليوم الآخر، وتعلمين أنّى رسول اللّه فانقلعى بعروقك حتّى تقفى بين يدىّ بإذن اللّه».

فانقلعت بعروقها ولها دوىّ عجيب ووقفت بين يدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ولكنّهم كذّبوا وقالوا: ساحر كذّاب، علوّاً واستكباراً.

وقد صرّح الإمام فى كلامه هذا أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أخبرهم بأنّهم لا يؤمنون وإن ظهرت لهم المعجزه الّتى طلبوها، وإنّ فيهم مَن يطرح فى القليب (فى معركه بدر) وإنّ منهم من يحزّب الأحزاب (لمعركه الخندق).(۲)

حرص النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم على هدايه قريش:

كان النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يحرص على هدايه قريش وإرشادهم وإيقاظهم. فقد كان زعيم المسلمين وقائدهم يعلم جيداً بأنّ اعتقاد أغلبيه الناس بالأوثان ما هو إلّاأمر نابع من تقليد الآباء، والجدود، أو اتّباع أسياد القبيله وكبرائها، وهو بالتالى لا يستند إلى جذور فى أعماق الناس وأُسس فى عقولهم ونفوسهم.

۱- . الروم: ۱-۴. وقد أشار القرآن الكريم إلى موارد أُخرى من هذه القبيل. فقد أخبر عن هلاك أبى لهب قال تعالى: تَبَّتْ يَدا أَبِى لَهَبٍ وَ تَبَّ...». وأخبر عن هزيمه المشركين فى بدر، قال سبحانه: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ» (القمر: ۴۵).
۲- . لاحظ: نهج البلاغه: الخطبه ۱۹۲.

من هنا فإنَّ أىَّ انقلاب يحصل ويحدث فى أوساط الساده والكبراء بأن يؤمن أحدهم مثلاً- كان كفيلاً بأن يحلّ الكثير من المشاكل.

من هنا كان ثمّه إصرار كبير على جرّ «الوليد بن المغيره» الّذى أصبح ابنه «خالد» فى ما بعد من قاده الجيش الإسلامىّ، لأنّه كان أسنَّ مَن فى قريش وأكثرهم نفوذاً، وأعلاهُم مكانه، وأقواهم شخصيه، وكان يُدعى حكيم العرب، وكانت العرب تحترم رأيه إذا اختلفت فى أمر.

وقد كلّمه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ذات يوم فى ذلك وقد طمع فى إسلامه، فَبينا هو فى ذلك إذ مرَّ به «ابن أُم مكتوم»، فكلّم رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وجعل يستقرئه القرآن فشقَّ ذلك منه على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حتّى أضجره، وذلك أنّه شغله عمّا كان فيه من أمر «الوليد». وما طمع فيه من إسلامه، فلمّا أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فنزل قوله تعالى:

«عَبَسَ وَ تَوَلّى * أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى * وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى * أَمّا مَنِ اسْتَغْنى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّى * وَ ما عَلَيْكَ أَلاّ يَزَّكّى * وَ أَمّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى * وَ هُوَ يَخْشى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّى * كَلاّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ» (۱).(۲)

وقد فنّد علماء الشيعه ومحقّقوهم هذه الروايه التاريخيه، واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الّذى امتَدحَهُ ربُّ العالمين بالخلق العظيم، ووصفه بالرأفه بالمؤمنين، وقالوا: ليس فى الآيات ما يدلّ على أنّ الّذى عبَس وتولّى هو رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

وقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّها نزلت فى رجل من بنى أُميَه، كان عند النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، فجاء ابن أُمّ مكتوم، فلمّا رآه تقذر منه، وجمع نفسه، وعبس، وأعرض

۱- . عبس: ۱-۱۱.

۲- . لاحظ السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۴۴-۲۴۵.

بوجهه عنه، فحكى اللّه سبحانه ذلك.(۱)

***

۵. تحريم المشركين استماع القرآن

اشاره

كانت البرامجُ الواسعه الّتى دبّرها الوثنيّون فى «مكّه» لمكافحه الإسلام والحيلوله دون انتشاره بين القبائل والجماعات، تُنفَّذ الواحده تلو الآخرى، ولكن دون جدوى، ودون أن يكسب أصحابُها من ورائها أى نجاح، وأيّه نتائج على المستوى المطلوب، فقد كانت تلك المؤامرات تفشل فى كلّ مره، ولا يجنى المشركون منها سوى الخيبه والفشل، وسوى النتائج المعكوسه فى أغلب الأحايين.

فقد مارسوا الدعايه ضد رسول اللّه فتره من الزمن ولكن لم يحالفهم التوفيقُ الكاملُ فى ذلك، فقد وجدوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أكثر ثباتاً واستقامه فى طريقه وأشدّ إصراراً على هدفه، وكانوا يرون بأُمّ أعينهم بأنّ عقيده التوحيد فى انتشار مستمر ومتزايد، يوماً بعد يوم.

ولهذا قرَّر ساده قريش وزعماء «مكّه» المشركون أن يمنعوا الناس عن سماع القرآن. ولكى تتحقّق خطّتهم هذه وتلبس ثوب الوجود بَثّوا جواسيسهم فى كلّ أنحاء مكّه ومداخلها ليمنعوا من يفدُ إليها للحج أوالتجاره من الاتّصال بمحمَّد، ومنعه بكلّ صوره ممكنه، عن الاستماع إلى القرآن، وأعلن مناديهم ما ذكره القرآن عند قوله تعالى:

۱- . مجمع البيان: ۱۰/۲۶۶. وقد بحثنا هذا الموضوع بالتفصيل فى تفسيرنا «منيه الطالبين فى تفسير القرآن المبين»: ۳۰/۹۸-۱۰۶، وأثبتنا أنّ العابس ليس رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم. فمن أراد التفصيل فليرجع إلى تفسيرنا المذكور.

«وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» .(۱)

لقد كان القرآن أقوى أسلحه النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم، فقد ألقى رعباً عجيباً فى نفوس الأعداء وأقضّ مضاجعهم.

وكان أشراف قريش وأسيادها يرون بأُمّ أعينهم كيف أنَّ أعدى أعداء النبيَّ صلى الله عليه و آله و سلم (وهو أبوجهل) عندما مشى إليه ليستهزئ به، ويسخر منه، ما أن سمع آيات من القرآن، إلّاوفقد السيطره على نفسه، ولان قلبه، ولهذا لم يكن أمام أُولئك الأسياد إلّاأن يمنعوا من سماع القرآن منعاً باتاً، ويحرّموا التحدّث إلى النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم تحريماً قاطعاً.

ولهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعض ما يتلوه من القرآن وهو يصلّى إسترق السمع دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنّهم قد عرفوا أنّه يستمع منه ذهبَ خشيهَ أذاهُم فلم يستمع.(۲)

واضعو القرار ينقضون قرارهم!!

ولكن من الطريف العجيب أنّ نفس الذين كانوا يمنعون الناس بشده عن الاستماع إلى القرآن، وكانوا يعدون كلّ مَن يتجاهل قرار (تحريم الاستماع إلى القرآن) مخالفاً يتعرّض للملاحقه والعقاب، نقضوا بعد أيام من إصدار هذا القرار قرارهم وانضمُّوا إلى صفوف المخالفين له فى الخفاء.

فإذا بالذين يمنعون من سماع القرآن فى العلن، يستمعون إليه فى الخفاء!

واليك بعض ما جرى فى هذا الصعيد:

خرج «أبوسفيان» و «أبوجهل» و «الأخنس» ليله ليستمعوا من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو يصلّى من الليل فى بيته، فأخذ كلٌّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه،

۱- . فصّلت: ۲۶.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۰۶.

وكـلَّ لاـ يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلَعَ الفجرَ تفرَّقوا، فجمعهم الطريقُ، فتلاوموا، وقال بعضـهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً، ثم انصـرفوا؛ حتّى إذا كـانت الليله الثـانيهُ عـاد كـلُّ رجـل منهم إلى مجلسه، فبـاتوا يسـتمعون له، حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضـهم لبعض مثل ما قالوا أوّل مره، ثم انصـرفوا، حتّى إذا كـانت الليله الثـالثه أخـذ كـلُّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يسـتمعون له، حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتّى نتعاهد ألّا نعود، فتعاهدوا على ذلك. ثم تفرّقوا.(۱)

***

۶. منع الأشخاص من الإيمان برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم

اشاره

بعـد خطه (تحريم الاسـتماع إلى القرآن) بـدأوا بتنفيذ خطه أُخرى وهى منع كلّ قريب وبعيد ممّن رغبوا فى الإسـلام وقدموا إلى مكّه ليتعرّفوا على النبىّ، وعلى ما أتى به من كتاب ودين، من الاتصال بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم.

فبثّت قريش جواسيسها فى الطرق المؤدّيه إلى مكّه ليتصلوا بمن يلقونه من هؤلاء ويبادروا إلى منعه من الاتصال برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والإيمان برسالته، بشتّى الحيل والأساليب.

وإليك نموذجين حيّين من هذا الأمر.

الأوّل: الأعشى بن قيس:

وكان من شعراء العهد الجاهلى البارزين، وكانت قصائده تتناقلها مجالس

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۰۶-۲۰۷.

السَّمر القرشيه، وتتغنّى بها محافل أنسهم.

وقد بلغ «الأعشى» فى كبره نبأ ما جاء به رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من التوحيد ومن تعاليم الإسلام العظيمه، وكان يعيش فى منطقه نائيه عن مكّه، حيث لم تصل إليها أشعه الرساله الإسلاميه على وجه التفصيل بعد، ولكن ما قد سمع به من تعاليم الإسلام على نحو الإجمال قد أوجد فى نفسه هياجاً خاصاً وحرّك مشاعره فأنشأ قصيده مطوّله يمدح فيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ثم خرج إلى مكّه ليهديها إليه صلى الله عليه و آله و سلم وهو فى نفس الوقت يريد الإسلام.

ورغم أنّ تلكم القصيده لا تتجاوز أبياتُها ٢۴ بيتاً، ولكنّها تُعدّ من أفضل وأفصح ما قيل من الشعر فى الإسلام، وفى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى العهد النبوى ويوجد نصّ ها الكامل فى «ديوان الأعشى» وقد قال فيها وهو يذكر بعض تعاليم الإسلام:

نَبيّاً يرى ما لا تَرون وذكرُه أغار لعَمرى فى البلاد وأنجدا

فإياك والميتات لا تقربنّها ولا تأخذ سَهماً حديداً لتفصدا

وذا النُصب المنصوب لا تُنسكُنَّه ولا تعبد الأوثان واللّه فاعبُدا

ولا تقربنَّ حُرَّه كان سرُّها عليك حراماً فانكحن أوتأبّداً

وذا الرحم القربى فلا تقطعنَّه لعاقبه، ولا الأسير المقيَّدا

وسبِّح على حين العشيات والضحى ولا تحمَد الشيطان واللّه فاحمدا

فلمّا كان بمكه أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسألوه عن أمره، فأخبرهم بأنّه جاء يريد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليسلم، (وحيث إنّهم كانوا يعرفون بأنّ «الأعشى» رجل يحب النساء والخمر حبّاً كبيراً لذلك عمدوا إلى الضرب على هذا الوتر لينفّروه من الإسلام)، فقالوا له: يا أبا بصير (وهى كنيه الأعشى) إنّه يُحرّم

الزنا.

فقال الأعشى: واللّه إنّ ذلك لأمرٌ ما لى فيه من أرب.

فقالوا له: يا أبا بصير فإنَّه يحرِّم الخمرَ.

فقال الأعشى - وقد صُدِمَ بهذا الخبر -: أمّا هذه فواللّه فى النفس منها لعلالات، ولكنّى منصرفٌ فاتروّى منها عامى هذا، ثم آتيه فأُسلم!! فانصرفَ فمات فى عامه ذلك، ولم يَعُدْ إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.(۱)

الثانى: الطُفيل بن عَمرو الدوسىّ:

وهو الشاعر العربى الحكيم العذب اللسان، صاحب النفوذ والكلمه المسموعه فى قبيلته.

يروى أنّه قدم «مكّه» ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بها، وكانت قريش تخشى أن يتّصل بالنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فيسلم.

ومن البديهى أنّ إسلام رجل مثله كان ممّا يشقّ على قريش جدّاً، ولهذا مشى إليه رجالٌ منهم وقالوا له - محذرين إيّاه من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم -:

يا طُفيل، إنّك قدمت بلادَنا، وهذا الرجلُ الّذى بين أظهرنا قد أعضلَ بنا، وقد فرّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وإنّما قوله كالسحر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنَّه، ولا تسمعنَّ منه شيئاً.

ففعلت تحذيراتُ قريش فعلتَها فى نفس الطفيل وهم يكرّرونها عليه بقوه وإصرار، حتّى أنّه قرّر أن لا يسمع من النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم شيئاً، ولا يكلّمه، وحشّى أُذنه - حين غدا إلى المسجد للطواف - قطناً، خوفاً من أن يبلغه شىء من قول رسول

۱- . السيره النبويه: ۱/۲۵۹-۲۶۰.

اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو لا يريد أن يسمعه!!!

يقول الطفيل: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قائمٌ يصلّى عند الكعبه، فقمتُ منه قريباً فأبى اللّه إلّاأن يسمعنى بعض قوله، قال: فسمعتُ كلاماً حسناً، فقلت فى نفسى: واثكلَ أُمّى، واللّه إنّى لرجل لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى علىّ الحسَنُ من القبيح، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الّذى يأتى به حسناً قبلتُه، وإن كان قبيحاً تركتُه؟

فمكثتُ حتّى انصرف رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى بيته فاتّبعته حتّى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمَّد إنّ قومك قد قالوا لى كذا وكذا للذى قالوا، فواللّه ما برحوا يخوّفوننى أمرك حتّى مددت أُذنى بكرسف لئلّا أسمع قولك، ثم أَبى اللّه إلّا أن يُسمعنى قولك فسمعتهُ قولاً حسناً، فأعرض علىّ أمرك، فعرض علىّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الإسلام وتلا علىّ القرآن، فلا واللّه ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهاده الحق. ثم قلت: يا نبىّ اللّه إنّى امرؤ مطاعٌ فى قومى وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام.

ثم يكتب ابن هشام قائلاً: إنّ الطفيل لم يزل بأرض «دوس» يدعوهم إلى الإسلام حتّى هاجر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينه ومضى «بدر» و «أُحد» و «الخندق» فقدم على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمن أسلم معه من قومه وهم سبعون أوثمانون بيتاً ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بخيبر فلحقوا جميعاً برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بخيبر، وبقى مع النبىّ حتّى قُبِضَ صلى الله عليه و آله و سلم ثم سار مع المسلمين - فى زمن الخلفاء - إلى «اليمامه» وشارك فى معركتها وقُتِلَ فيها.(۱)

۱- . السيره النبويه: ۱/۲۵۶-۲۵۸ بتلخيص.

۲۰ أُسطوره الغرانيق

اشاره

قـد يكون بين القرّاء من يودُّ التعرّف على أُسـطوره «الغرانيق» الّتى رواهـا بعض مؤرّخى السـنّه ومعرفه جـذورها، كما يودّ التعرّف على الأيادى الخفيه الّتى كانت وراء اختلاق هذه الأُسطوره، وأمثالها من الأكاذيب، والمفتريات.

كان اليهودُ وبخاصّه أحبارهم ولا يزالون العدوّ رقم واحد للإسلام.

وقد عَمَد فريقٌ منهم - مثل «كعب الأحبار» وغيره - ممّن تظاهروا باعتناق الإسلام إلى تحريف الحقائق باختلاق الأكاذيب وجعل الأخبار المفتراه على لسان الأنبياء.(۱)

ولقد أدرج بعضُ المؤلّفين المسـلمين بعض هذه المفتريات فى مؤلّفاتهم وجعلوها فى عداد الحديث والتاريخ الصـحيح من دون تمحيصها والتحقيق فيها، ثقه بكلّ من أظهر الإسلام وتظاهر بالإيمان، وانضم إلى صفوف المسلمين!!

ولكنَّ اليوم حيث يجـد العلمـاء فرصه أكبر للتحقيق فى هـذا النوع من الأحـاديث والأخبار، والمنقولات والنصوص، وبخاصّه بعد أن توفّرت لديهم، بفضل جهود طائفه من المحقّقين المسلمين القواعد والضوابط الكفيله بتمييز الحسن عن القبيح، والصحيح عن السقيم، وفرز الحقائق التاريخيه عن القصص الخياليّه، والروايات الاسطوريه.

من هنا لا ينبغى لكاتب مسلم ملتزم أن يعتبر كلّ ما يراه فى مصنّف تاريخىّ

۱- . وهى الّتى يُطلَق عليها الاسرائيليات وقد أُلّفَت فى هذا المجال بعض الكتب.

أو غير تاريخيّ متقدِّم أمراً صحيحاً مقطوعاً بسلامته، ويرويه فی کتابه من دون دراسه وتحقيق، وتمحيص وتقييم.

ماهی أُسطوره الغرانيق؟!

يقولون: إنّ «الأسود بن المطلب» و «الوليد بن المغيره» و «أُميه بن خلف» و «العاص بن وائل» وهم من زعماء قريش وأسيادها قالوا لرسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم:

يا محمَّد هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبدُ فنشترک نحن وأنت فی الأمر!!

وقالوا ذلک رفعاً للاختلاف، وتضييقاً لشقّه الخلاف، فأنزلَ اللّه سبحانه سوره الكافرين الّتی أمر فيها نبيّه أن يقول فی جوابهم:

«لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ» .

ومع ذلک كان رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم يرغب فی أن يساوم قريشاً ويجاريهم وكان يقول فی نفسه: ليت نزل فی ذلک أمر يقرّبنا من قريش.

وذات يوم وبينما كان صلی الله عليه و آله و سلم يتلو القرآن عند الكعبه ويقرأ سوره «النجم» فلمّا بلغ قوله تعالی:

«أَ فَرَأَيْتُمُ اللاّتَ وَ الْعُزّی * وَ مَناهَ الثّالِثَهَ الْأُخْری» .(۱)

أجری الشيطان علی لسانِه الجُمْلتين التاليتين:

«تِلْکَ الْغَرانِيقُ الْعُلی. مِنْها الشفاعَهُ تُرْتَجی».

فقرأهما من دون إختيار، وقرأ ما بعدها من الآيات، ولمّا بلغ آيه السجده سجد هو ومن حضر فی المسجد من المسلمين والمشركين أمام الأصنام، إلّا «الوليد» الّذی عاقه كبر سنه عن السجود!!

۱- . النجم: ۱۹ و ۲۰.

وفرح المشركون، وارتفعت نداءاتهم يقولون: لقد ذكر «محمَّد» آلهتنا بخير.

وانتشر نبأ هذه المصالحه والتقارب بين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والمشركين، المهاجرين إلى الحبشه، فعاد على أثرها جماعه منهم إلى مكّه، ولكنّهم ما أن كانوا على مشارف «مكّه» إلّاوعرفوا بأنّ الأمر تغيّر ثانيه، وأنّ ملك الوحى نزل على النبيّ وأمره مره أُخرى بمخالفه الأصنام ومجاهده الكفّار والمشركين، وأخبره بأنّ الشيطان هو الَّذى أجرى تينك الجملتين على لسانه، وأنّه لم يقله، وأنّه ليس من «الوحى» فى شىء أبداً.

وعندئذ نزلت الآيات (۵۲-۵۴) من سوره «الحج» الّتى يقول اللّه تعالى فيها:

«وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلاّ إِذا تَمَنّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللّهُ ما يُلْقِى الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّهُ آياتِهِ وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

«لِيَجْعَلَ ما يُلْقِى الشَّيْطانُ فِتْنَهً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَهِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظّالِمِينَ لَفِى شِقاقٍ بَعِيدٍ * وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» .

هذه هى خلاصه أُسطوره «الغرانيق» الّتى أوردها «الطبرى» فى تاريخه(۱)ويذكرها ويردّدها المستشرقون المغرضون بشىء كبير من التطويل والتفصيل!!

محاسبه بسيطه لهذه الأُسطوره

لنفترض أنّ «محمّداً» لم يكن نبياً مرسلاً ولكن هل يمكن لأحد أن ينكر ذكاءه وحنكته، وفطنته وعقله؟!

فهل لعاقل فَطِن، محنَّك لبيب مثله أن يفعل مثل هذا؟!

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲/۷۵-۷۸.

إنّ الـذكيّ اللبيب الّـذى يجد أنصاره يتكاثرون ويتزايدون يوماً بعد يوم وتقوى صـفوفهم أكثر فأكثر بينما تتفرّقُ صـفوفُ أعدائه ومناوئيه ويتناقص معارضوه وخصومُه، هـل يقـدم فى مثـل هـذه الحـاله على عمـل يوجب أن يسـىء الجميعُ ظنّهم به، ويشـك الصديق والعدوُ فى أمره؟!

هـل تصـدّق أنت أيها القارئ الكريم أنّ رجلاً ترك جميع الأموال والمناصب الّتى عرضـتها قريش عليه، فى سبيل دينه الحنيف، وعقيده التوحيد أن يصبح مره أُخرى من دعاه الشرك، ومروّجى الوثنيه؟؟!

إنّنا لن نصدّق بمثل هذا الاحتمال فى حقّ مصلح أو سياسى عادى من الساسه والمصلحين فكيف برسول اللّه ونبيّه العظيم؟!

رأى العقل فى هذه القصه:

١. إنّ العقـل يحكم بأنّ المرشـدين الـذين يبعثهم اللّه تعالى إلى البشـريه لهـدايتها وإرشادها، وتزكيتها وتعليمها مصونون عن أى خطأ وزلـل بقـوه (العصـمه) الّتى أُوتوهـا، إذ لـو تعرّض مثـل هؤلاء إلى الخطأ والزلـل فى أُمـور الـدين لزالـت ثقه النـاس بهم وبكلامهم.

يجب علينـا أن نقـارن بين أمثـال هـذه القصـص، وبين هـذا الأصل العقائـدىّ المنطقى ونعالـج بواسـطه معتقـداتنا القويه المبرهَنه متشابهات التاريخ ومعضلاته.

إنّ من المسـلَّم أنّ عصـمه رسـول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم كـانت تمنعه وتحفظه من أى نوع من هـذه الحوادث فى تبليغ رسالته السماويه.

٢. إنّ هذه الأُسـطوره تقوم أساساً على أنّ النبىّ قد تعب من أداء مهمَّته الّتى ألقاها اللّه سـبحانه عليه، وقد شقَّ عليه ابتعاد الوثنيّين عنه، فكان يبحث عن مخلَص من هذا الوضع المتعِب، يكون طريقاً - حسب تصوّره - إلى إصلاح وضعهم!!

ولكن العقل يقضى بأنّ على الأنبياء أن يكونوا صابرين حلماء أكثر ممّا يتصوّر، وأن يكونوا مضرب المثل عند الجميع فى ذلك، فلا يُحدّثوا أنفسَهم بالتهرّب من المسؤوليه وترك الساحه مطلقاً، مهما اشتدّت الظروف، وتأزّمت الأحوال. بينما لو صحّت هذه الروايه - الأُسطوره - لكانت دليلاً على أنَّ بَطلَ حديثنا قد فَقَد عنان الصبر وأفلت منه زمام الثبات والاستقامه وأنّه بالتالى تعب وملّ، وضنى وكلّ، وهو أمرٌ لا ينسجم مع ما يحكم به العقل السليمُ فى حقّ الأنبياء، كما لا يتّفق كذلك مع ما عهدناه من سوابق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ومن مستقبله أبداً.

إنّ مختلق هذه الأُسطوره لم يمرّ بخاطره وباله أنَّ القرآن الكريم شهد ببطلان هذه القصه، إذ يعد اللّه تعالى نبيه الكريم، بأن لا يتسرّب إلى القرآن أى شىء من الباطل، إذ قال:

«لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ» .(۱)

كما وعده أيضاً بأن يَصونه عبَر جميع أدوار البشريه من أى حادث سيّئ، إذ قال سبحانه:

«إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ» .(۲)

ومع ذلك كيف يستطيع الشيطان الرجيم عدو اللّه أن ينتصر على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويسرّب إلى القرآن شيئاً باطلاً، ويصبح القرآنُ الّذى تقوم معارفه وتعاليمه على أساس معاداه الوثنيه ومحاربتها داعياً إلى الوثنيه؟؟!!

إنّه لأمر عجيبٌ جداً أن يفترى مختلِقُ هذه الأُسطوره أمراً ضدَّ التوحيد فى موضع قد كذّبه القرآنُ قبل هذا المكان بقليل، إذ قال اللّه تعالى:

۱- . فصّلت: ۴۲.

۲- . الحجر: ۹.

«وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْىٌ يُوحى» .(۱)

فكيف يترك اللّه نبيّه - وقد وعده بهذا الوعد - من دون حفيظ، ويسمح للشيطان بأن يتصرّف فى قلبه وعقله ولسانه؟!

إنّ هذه الأدلّه العقليه إنّما تفيد مَن يكون مؤمناً بنبوه محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم ورسالته.

وأمّا المستشرقون الذين لا يعتقدون بنبوته، ويعمدون إلى شرح ونقل وترديد أمثال هذه الأساطير للحطّ من شأن دينه ورسالته فلا تكفيهم هذه الدلائل، فلابدّ أن ندخل معهم فى البحث من باب آخر.

تكذيب القِصَّه من طريق آخر

إنّ النصّ التاريخىّ يقول: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قرأ هذه السوره، وكبار قريش وأكثرهم من عمالقه الكلام، وأبطال الفصاحه والبلاغه العربيه حضور فى المسجد، ومنهم «الوليد بن المغيره»، متكلّم العرب ومنطيقها المفوّه المعروف بينهم بالذكاء وحصافه العقل والنباهه، وقد سمعوا جميعاً هذه السوره إلى ختامها حيث سجد الجميع بسجدتها.

فكيف اكتفى هذا الجمعُ المؤسسُ للفصاحه والبلاغه الذين كانوا ينقدون كلّ ما يعرض عليهم نقداً دقيقاً؟!

كيف اكتفوا بتينك الجملتين اللتين امتدحتا آلهتهم، وقد تضمّنت الآيات السابقه عليهما، واللاحقه لهما على شتم آلهتم وتفنيدها، والازدراء بها بصوره صارخه و صريحه؟!

كيف تصوّر مختلق هذه الأُكذوبه الفاضحه، تلك الجماعه أصحاب اللغه العربيه وآباءها ونقّاد الكلام المعدودين عند العرب كلّها من عمالقه الفصاحه

۱- . النجم: ۳ و ۴.

والبلاغه بلا منازع، والذين كانوا أعرف من غيرهم بإشارات تلك اللغه، وكناياتها (فضلاً عن تصريحاتها).

كيف اكتفى هؤلاء بتينك العبارتين فى امتداح آلهتهم، وغفلوا عمّا سبقها ولحقها من الذمّ لها والطعن الصارخ فيها؟

إنّه لا يمكن قط أن نخدع العاديّين من الناس بهاتين الجملتين المحفوفتين بكلام مطوَّل يذم عقائدهم وسلوكهم، فكيف بمن عُرف باللب، والحصافه، والحكمه والذكاء؟!

وها نحن ندرج هنا الآيات المتعلّقه بالمقام ونترك أصفاراً (وفراغاً) فى مكان الجملتين اللتين ادّعى إضافتهما، ثم نترك للقارئ نفسه أن يقيم بنفسه هل لتينَك الجملتين مكانٌ بين هذه الآيات (الّتى وردت فى ذمّ الأصنام والقدح فيها):

وإليك هذه الآيات:

«أَ فَرَأَيْتُمُ اللاّتَ وَ الْعُزّى * وَ مَناةَ الثّالِثَهَ الْأُخْرى...١ * أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَهٌ ضِيزى * إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى» .(١)

ثم هل يسمحُ إنسانٌ عاديّ لنفسه أن يكفَّ عن معاداه نبيٍّ هاجَمَ عقائدهُ طيله عَشره أعوام، وهدر إستقلاله وكيانه، وجرَّ عليه الشقاء بتسفيه أحلامه، وشتم آلهته، لعبارات متناقضه وكلام خليط من الذّم الكبير والمدح العابر.

دَليلٌ لغَويٌّ على تفنيد هذه الأُسطوره

يقول العلامهُ الجليلُ الشيخ محمَّد عبده: لم يُستعمَل لفظ الغرانيق فى الآلهه

١- . النجم: ١٩-٢٣.

أبداً لا فی اللغه ولا فی الشعر العربی.(۱)

و «غرنوق» و «غَرنیق» اللّذان جاءا فی اللغه استعملا فی نوع من طیور الماء أو الشابّ الجمیل، ولا یَنطبق أیُ واحد من هذه المعانی علی الآلهه.

وقد اعتبر «السیرولیم مویر» أحدُ المستشرقین قصه «الغرانیق» هذه من مسلَّمات التاریخ واستدل لها بقوله: لم یکن یمض علی هجره المهاجرین الأُول إلی الحبشه أکثر من ثلاثه أشهر یوم صالح محمَّدٌ قریشاً فعادوا إلی مکّه.

إنّ المسلمین الذین هاجَروا إلی تلک الأَرض وکانوا یعیشون فی أمن وطمأنینه فی جوار النجاشیّ إذا لم یکونوا یبلغهم نبأ مصالحه النبیّ لقریش لما عادوا إلی مکّه للّقاء بذویهم.

فإذن لابدَّ أَنَّ «محمَّداً» قد تذرَّع بشیء لمصالحه قریش، والتقرّب إلیها، وهذا الشیء هو قصه الغرانیق»!!.(۲)

ولکن یجب أن نسأل هذا المستشرق المحترم:

أوّلاً: لماذا یجب أن تکون عوده المهاجرین ناشئه عن نبأ صحیح حتماً.

إنّ النفعیّین وذوی الأهواء والأغراض یسعون دائماً إلی بثّ عشرات بل مئات الأخبار الکاذبه بین جماعتهم لتحقیق مآرب خاصّه لهم، فما الّذی یمنع من أن نحتمل أنّ هناک من افتعل خبر مصالحه النبیّ لقریش بهدف إرجاع المهاجرین من الحبشه إلی «مکّه». وقد صدّق بعض أُولئک المهاجرین هذا الخبر الکاذب فعادوا إلی أرض الوطن، بینما لم ینخدع الآخرون بها وبقوا فی الحبشه ولم یعودوا

۱- . نقله عنه القاسمی فی تفسیره: ۱۲/۵۵-۵۶.

۲- . راجع حیاه محمَّد: ۱۶۵ و ۱۶۶.

إلى مكّه؟

ثانياً: لنفترض أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم كان يريد أن يصالح قريشاً، فهل يكونُ الطريق إلى السلام والمصالحه منحصراً فى افتعال هاتين الجملتين.

ألم يكن إعطاء مجرَّد وَعد مناسب أو مجرّد السكوت عن عقائدهم كافياً لتهدئه خواطرهم، واجتذاب قلوبهم نحوه؟

وعلى كلّ حال فإنّ عوده المهاجرين لا يكونُ دليلاً على صحّه هذه الأُسطوره، كما أنّ المصالحه والتقارب غير متوقّفين على النُّطق بهاتين الجملتين.

والأعجب من هذا أنّ البعضَ تصوَّر الآيات (۵۲-۵۴ من سوره الحج) قد نزلت فى قصه الغرانيق.

شبهات للمستشرقين والرد عليها

اشاره

وحيث إنّ هذه الآيات قد وقعت ذريعه بأيدى المستشرقين ومرتكبى جريمه التحريف فى التاريخ، فإنّنا نعمدُ هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات، ونبين للقارئ بأنّها تنظر إلى أمر آخر، ولا ترتبط بهذه القصه بتاتاً.

وها هو نصُّ الآيات المشار إليها: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلاّ إِذا تَمَنّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللّهُ ما يُلْقِى الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّهُ آياتِهِ وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ ما يُلْقِى الشَّيْطانُ فِتْنَهً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَهِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظّالِمِينَ لَفِى شِقاقٍ بَعِيدٍ * وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» .(۱)

والآن يجب أن نبيّن مفاد الآيات ولنبدأ بالآيه الأُولى:

۱- . الحج - ۵۲-۵۴.

إنّ الآيه الأولى تذكّرُ بثلاثه أَمور هى:

١. أنَّ الأنبياء والرسل يتمنّون.

٢. أنَّ الشيطانَ يتدخّل فى تمنّياتهم.

٣. أنّ اللّه يمحى آثار ذلك التدخّل.

وبتوضيح هذه النقاط الثلاث يتّضح مفاد الآيه والمراد منها.

وإليك توضيح تلكم النقاط الثلاث:

١. ما هو المقصود من تمنّى الأنبياء والرُسل؟

لقد كان الأنبياء والرسل يحبّون هدايه أُممهم، ونشر دينهم وتعاليمهم فيها، وكانوا يدبّرون أُموراً ويخطّطون خططاً لتحقيق أهدافهم هذه، كما كانوا يتحمّلون فى هذا السبيل كلّ المتاعب والمصاعب، ويثبتون فى جميع المشكلات والمحن.

ولم يكن رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم مستثنى عن هذه القاعده، فقد كان صلى الله عليه و آله و سلم يخطّط لتحقيق أهدافه كثيراً، ويهيّئ مقدّمات ويبيّن القرآن هذه الحقيقه بقوله:

«وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلاّ إِذا تَمَنّى» .

فاتّضح إلى هنا المراد من لفظ تمنّى ولنشرح الآن النقطه الثانيه.

٢. ما هو المقصود من تدخّل الشيطان؟

إنّ تدخُّل الشيطان يمكن أن يتمّ على نحوين:

١. أن يوجد الشكّ والترديد فى عزم الأنبياء، ويوحى إليهم بأنَّ هناك عوائق كثيره تحول بينهم وبين أهدافهم، ولذلك لن يحرزوا نجاحاً فى تحقيق تلك الأهداف.

۲. بأنّ الأنبياء كلّما مهّدوا لأمر وهيّأوا له مقدّماته، وَ ظهرت منهم أمارات تدلّ على أنّهم مقدِمون على تنفيذه فعلاً أقام الشيطان ومن تبعه من شياطين الإنس العراقيل والموانع فى طريقهم، ليمنعوهم من الوصول إلى غاياتهم.

أمّا الاحتمالُ الأوّل فلا ينسجم لا مع الآيات القرآنيه الأُخرى ولا مع الآيه اللاحقه.

أمّا مِن جهه الآيات الأُخرى فلأنّ القرآن ينفى بصراحه لا صراحه فوقها أنّه لا سلطان للشياطين على أولياء اللّه وعباده الصالحين (ولو بأن يصوّروا لهم بأنّهم لن يقدروا على تحقيق آمالهم، وأهدافهم) إذ يقول:

«إِنَّ عِبادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ» .(۱)

ويقول أيضاً: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» .(۲)

إنّ هذه الآيات، والآيات الأُخرى الّتى تنفى سلطان الشيطان على أولياء اللّه وعباده الصالحين، وتأثيره فى قلوبهم ونفوسهم لخيرُ شاهد وأفضل دليلٍ على أنَّ المقصودَ من تدخّل الشيطان فى تمنّيات الأنبياء لَيس بمعنى إضعاف عزيمتهم، وإرادتهم وتكبير الموانع والعراقيل فى نظرهم.

أمّا من جِهَه الآيات المبحوثه فإنّ الآيه الثانيه والثالثه تفسّر وتشرح علّه التدخّل على النحو الآتى: إنّنا نختبر بهذا العمل فريقين من الناس: الفريق الأوّل: الَّذين فى قلوبهم مرض، والفريق الثانى: الذين يؤمنون باللّه واليوم الآخر.

يعنى أنَّ تدخُّل الشيطان فى أعمال الأنبياء عن طريق تحريك الناس ضِدَّهم

۱- . الحجر: ۴۲، الإسراء: ۶۵.

۲- . النحل: ۹۹.

وضـدَّ أهـدافهم يوجب مخـالفه الفريق الأـوّل ومعارضـتهم للأنبياء، فى حين يكون الأمر على العكس من ذلك فى الفريق الثانى فإنّه يزيد من ثباتهم وصمودهم.

وإنّ بيان أن لتـدخل الشـيطان فى تمنّيات الأنبياء، مثل هـذين الأثرين المختلفين (أى يحمل فريقاً على المخالفه وفريقاً آخر على الثبـات والصـمود) يفيـد أنّ المراد بالتـدخّل هنـا هو المعنى الثـانى، يعنى أنّ التـدخّل يحصـل عن طريق تحريك الناس ضـدّهم، وإلقاء الوساوس فى قلوب أعـدائهم، وخلق الموانع والعراقيل فى طريقهم لا أنّهم يتصـرّفون فى نفوس الأنبياء وقلوبهم ويضـعفون إرادتهم وعزمهم.

إلى هنا اتّضح معنى تدخّل الشيطان فى تمنّيات الأنبياء والرسل.

والآن حان الحين لتوضيح المطلب الآخر يعنى محو آثار هذا التدخّل.

٣. ما هو المقصود من محو آثار التدخّل؟

إذا كان معنى تـدخّل الشـيطان هو تحريك الناس وتأليبهم ضـد الأنبياء ليمنعوا الأنبياء والرسل من التقـدّم فى أهدافهم، فإنّ محو آثار التـدخّل الشـيطانى من قبل اللّه - حينئذٍ - يكون بمعنى أنّ اللّه يدفع عن أنبيائه ورسـله كيد الشـيطان ليتّضح الحقُّ للمؤمنين، ويكون اختباراً لمرضى القلوب كما يقول تعالى فى آيه أُخرى.

«إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَياهِ الدُّنْيا» .(١)

وخلاصه القول: إنّ القرآن يخبر - فى هذه الآيات - عن سنّه للّه قديمه فى مجال الأنبياء وهى:

إنّ تَمنّى التقـدّم فى الأهـداف وتمنّى التوفيق فى هـدايه الناس هو فعل الأنبياء دائماً. ثم يأتى الـدور لتـدخّل الشـيطان وأتباعه من شياطين الإنس والجنّ، وذلك

١- . غافر: ٥١.

بإيجاد الموانع والعقبات فی طريق الأنبياء والرسل.

ثم يأتی من بعد ذلک حلول المدد الإلهی الغيبیّ بمحو و فسخ کلّ التدابير الشيطانيه المضادّه لأهداف الأنبياء المعرِقله لتحقيق أمانيّهم.

وهذه هی إحدی السنن الإلهيه الثابته الّتی جرت فی جميع الأُمم السالفه. إنّ تاريخ الأنبياء والرسل وقصصهم من نوح وإبراهيم وأنبياء بنی إسرائيل وبخاصّه موسی وعيسی عليهما السلام، و تاريخ حياه الرّسول الأکرم صلی الله عليه و آله و سلم خير شاهد علی هذا المطلب.

وينبغی استکمالاً لهذا البحث أن نقول: ولأجل ما ورد علی هذه القصه الأُسطوريه من مؤاخذات رفضها وفنّدها بعض المحقّقين من أهل السنّه إذ قال بعد ذکرها علی النحو الّذی أدرجها الطبری فی تاريخه وأرسله إرسال المسلّمات:

وأهل الأُصول يدفعون هذا الحديث بالحجّه.

ومن صحَّحهُ قال فيه أقوالاً:

منها: أنّ الشيطان قال ذلک وأذاعه والرسول عليه الصلاه والسَّلام لم ينطق به.

(وذکر وجوهاً أُخری ثم قال:) والحديث علی ما خيّلت غير مقطوع بصحّته.(۱)

۱- . لاحظ: الروض الأنف (فی تفسير السيره النبويه لابن هشام) لعبد الرحمن السهيلی (المتوفّی ۵۸۱ ه): ۲/۱۲۶.

۲۱ الحصار الاقتصادی والاجتماعی

اشاره

إنّ أبسط وسیله وأسهلها لضرب الأقلّیات فی أی مجتمع، والقضاء علیها هو ما یُسمّی بالمکافحه السلبیه الّتی تقوم أساساً علی اتّحاد الأکثریه واتّفاقها علی مقاطعه الأقلیّه المتمرّده.

إنّ عکس هذا یحتاج إلی أدوات متعدّده مختلفه، لأنّه یتطلب مثلاً أن یحمل جماعه من المقاتلین السلاح، وتتوجّه نحو الأهداف المطلوبه عبر التضحیه بقدر کبیر من الأنفس والأموال، وإزاله العشرات من الموانع والسواتر، وهو أمر لا یُقدم علیه القاده المحنّکون إلّابعد توفّر کلّ مستلزمات المواجهه واتّخاذ جمیع التدابیر اللازمه، والاستعداد الکامل، وبالتالی لا یقدمون علی هذه الخطوه ما لم تدعو الضروره إلیها، وتنحصرُ الحیله فی القتال.

ولکنّ المکافحه السلبیه لا تتوقّف علی مثل هذه الأُمور، بل تحتاج إلی أمر واحد وهو اتّفاق الأکثریه.

یعنی أن یتّفق مَن یعنیهم الأمرُ ولهم عقیده واحده ویتحالفوا فی ما بینهم بصدق علی أن یقطعوا کلّ صلاتهم وعلاقاتهم بالأقلیّه المعارضه، فیحرّموا التعامل التجاریّ معهم ویوقفوا الاتصال العائلیّ بهم، ولا یشرکونهم فی أعمالهم الاجتماعیه ولا یتعاونوا معهم فی أُمورهم الشخصیّه أیضاً. فی مثل هذه الحاله تضیق الأَرض علی الأقلّیه بما رحبت وتغدو الدنیا لهم علی سعتها کسجن ضیق وصغیر، ویصیرون عُرضه للانهیار والسقوط بأقلّ قدر ممکن من الضغط علیها.

إنّ الاقليّه المخالفه المتمرّده ربّما تستسلم – فی هذه الحاله – وتؤوب من منتصف الطريق، وتطيع إراده الأكثريه.

ولكن أقليه كهذه لابد أن تكون ممَّن لا تعود مخالفتها للأكثريه إلى أمر عقائديّ ولا يكون لانفصالها عن الأكثريه طابعٌ أُصوليٌّ مبدئی، كما لو كان خلافها مع الأكثريه مثلاً على تحصيل ثروه أو منصب مهمّ أو ما شاكل ذلك.

فإنّ مثل هذه الأقليه إذا أحسّت بخطر جدّی، أو واجهت العذاب والسجن والحصار ستتراجع عن مخالفتها وتعود إلى طاعه الأكثريه مؤثره اللّذه العابره المؤقّته على اللّذه الاحتماليه، لأنّها لم تنطلق من دوافع إيمانيه أصيله، ولم يكن المحرّك لها محرّكاً روحياً معنوياً.

ولكن الجماعه الّتی يقوم خلافُها للأكثريه على أساس الإيمان بهدف مقدّس، لن تنصاع أبداً لمثل هذه الضغوط، ولن تنثنی أمام هذه الرياح والعواصف، ولا يزيدها ضغطُ الحصار إلّاصلابه وقوه، وإصراراً وعناداً، وتردُّ جميع ضربات العدوّ بالصبر والاستقامه.

إنّ صفحات التاريخ البشريِّ تشهد بأنّ أقوى العوامل لثبات كلّ أقليّه وصمودها فی وجه الأكثريه هو: قوهُ الإيمان، وعاملُ الاعتقاد، الّذی ربّما يؤدّی رساله الثبات والمقاومه ببذل آخر قطره دم فی ساحه المواجهه.

ولنا على هذا عشرات بل ومئات الأمثله من التاريخ الغابر والحاضر.

قريش تحاصر النبیّ والمسلمين اقتصادياً واجتماعياً

لقد شقَّ على قريش انتشار الإسلام المتزايد وأزعجها نفوذه العجيب فی القبائل العربيه فی مده غير طويله بالنسبه إلى عمر الدعوه ولهذا كانت تفكّر باستمرار فی حلّ لهذه المشكله.

فإنّ إسلام شخصيات ذات أهميه ومكانه كبرى مثل حمزه، وكذا رغبه فتيه قريش المتفتحين فى الإسلام، وحريه العمل والتحرّك الّتى اكتسبها المسلمون على أثر الهجره إلى أرض الحبشه، كلّ ذلك زاد من حيره، واضطراب الزعامه الجاهليه فى مكّه، الّتى زادها حيره، وانزعاجاً، فشل جميع مخططاتها الإجهاضيه ضد الإسلام والمسلمين، وعدم حصولها على أيّه نتائج تذكر!!

من هنا فكرت فى خطه جديده، وهى أن تفرض حصاراً اقتصادياً قوياً على النبىّ والمسلمين تقطع به كلّ الشرايين الحيويه للمسلمين، وبذلك تحدّ من سرعه انتشار الإسلام وتقف دون نفوذه، وبالتالى تخنق بين كمّاشه هذا الحصار مؤسّس هذه العقيده التوحيديه، وأنصاره.

ولهذا اجتمع زعماء قريش فى «دار الندوه» ووقّعوا ميثاقاً كتبه «منصور بن عكرمه» وعلّقوه فى جوف الكعبه، وتحالفوا بأن تلتزم قريش ببنوده حتّى الموت.

ونصّ هذا العقد على الأُمور التاليه:

١. أن لا يبتاعوا من أنصار النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ولا يبيعوهم شيئاً.

٢. أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم.

٣. أن لا يؤاكلوهم ولا يكلّموهم.

۴. أن يكونوا يداً واحده على «محمَّد» وأنصاره.

وقد وقّعت على هذه الصحيفه الظالمه القاطعه كلُّ الشخصيات البارزه فى قريش إلّا «مطعم بن عدى» وأعلنت عن سريان مفعوله بكلّ قوه وإصرار.

فلمّا علم حامى النبىّ الأكبر أبوطالب عليه السلام بذلك جمع بنى هاشم و بنى المطلب وحمّلهم مسؤوليه الدفاع عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والحفاظ على حياته وسلامته، وأمرهم بالخروج من مكّه وبدخول شعب كائن بين جبال مكّه كان

يعرف بشعب أبی طالب فيه بعض البيوت العاديه، والسقائف البسيطه جداً، والسكنى فی ذلك الشعب بعيداً عن المجتمع المكّی المشرك.

وعمد إلی بثّ رجال منهم فی نقاط مرتفعه للمراقبه والحراسه تحسّباً لأی هجوم مباغت تقومُ به قريش.(۱)

وقد استمر هذا الحصار ثلاثه أعوام كامله، وبلغ الجهدُ بالمحاصَرين فی الشعب بحيث ارتفع صراخ الأطفال من الجوع والضر، وبلغت هذه الصرخات مسامع قساه مكّه إلّاأنّها لم تؤثر فيهم قط.

كان الشباب والرجال منهم يعيشون علی تمره واحده طوال اليوم، وربّما تناصف اثنان تمره واحده، ولم يمكنهم الخروج من الشعب طوال هذه السنوات الثلاث إلّافی الأشهر الحرم حيث يسود الأمنُ كلّ أنحاء الجزيره العربيه.

فإذا حلّ الموسمُ كانت بنُو هاشم تخرج من الشعب فيشترون ويبيعون ثم يعودون إلی الشعب إلی الموسم الثانی.

وكان النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم يستغلّ هو أيضاً تلك المواسم فی نشر دينه، والدعوه إلی ما أتی به. وكانت عناصر قريش تحاول مضايقه النبیّ وأنصاره وتمارس الحصار الاقتصادی عليهم بشكل من الأشكال حتّی فی هذه المواسم، فكانوا يحضرون عند مواقع البيع والشراء، فإذا وجدوا مسلماً يريد أن يبتاع شيئاً اشتروه بثمن أغلی ليمنعوا المسلم منه!!

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۳۴؛ تاريخ الطبری: ۲/۷۸، وقد كتبت هذه الصحيفه الظالمه فی الليله الأُولی من السنه السابعه للبعثه وعندما عرف أبوطالب بأمرها أنشد قصيده فی ذمهم مطلعها: ألم تعلموا أنا وجدنا محمَّداً نبياً كموسی خُطَّ فی أوّل الكُتب

وکـان «أبو لهب» أکثر الناس إصـراراً علی هـذا العمل، فقـد کان ینادی فی الأسواق: یا معشـر التجار، غالوا علی أصـحاب محمَّد حتّی لاـ یـدرکوا معکم شـیئاً، فقـد علمتم مـالی ووفـاء ذمّتی، فأنـا ضـامن أن لا خسار علیکم، فیزیـدون علیهم فی السـلعه قیمتها أضـعافاً، حتّی یرجع الرجل المسلم إلی أطفاله وهم یتضاغون من الجوع ولیس فی یدیه شیء یطعمهم به، ویغدو التجار علی أبی لهب فیربّحهم فیما اشتروا من الطعام واللباس!!.(۱)

وکان «الولید بن المغیره» ینادی: أیّما رجل منهُم وجدتموه عند طعام یشتریه فزیدوا علیه.(۲)

وضع بنی هاشم المأساوی فی الشِعب

لقـد بلغ الجهـد والجوع بالمحاصَـرین فی الشـعب حـدّاً جعلهم یأکلون کلّ ما تقع علیه أیـدیهم من الخبط وورق السـمر حتّی أن «سـعد بن أبی وقاص» یقول: لقد جعت حتّی أنّی وطئتُ ذات لیله علی شـیء رطب فوضعته فی فمی وبلعته، وما أدری ما هو إلی الآن.(۳)

هذا وقد بثّت قریش جواسیسها علی الطرق المؤدّیه إلی الشعب لیمنعوا من إیصال الطعام إلی من فیه، فلا یصل إلیهم شیء إلّاسراً و مستخفی به ممّن أراد صلتهم من قریش.

فقـد روی أنّ «حکیم بن حزام» (ابن أخ خـدیجه) و «أبو العاص بن الربیع» و «هشام بن عمرو» کانوا یسـرّبون إلی «بنی هاشم» فی الشعب سرّاً وفی أواسط

۱- . الروض الأنف فی تفسیر السیره النبویه: ۲/۱۲۷.

۲- . سیره ابن إسحاق (السیر والمغازی): ۲/۱۴۰.

۳- . الروض الأنف: ۲/۱۲۷.

الليل تحت جنح الظلام، فكان الواحد منهم يحمل قمحاً وتمراً على بعير ويأتى به إلى باب الشعب ثم يصيحُ بها فتدخلُ الشعب ويأخذه بنو هاشم.

وربّما صادفهم بعض جواسيس قريش، فهمُّوا بقتله، أو سبّبوا له بعض المتاعب.

فقد روى أنّ أبا جهل لقى حكيم بن حزام بن خويلد، ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمّته خديجه بنت خويلد، وهى عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ومعه فى الشعب، فتعلّق به وقال: تذهب بالطعام إلى بنى هاشم؟ واللّه لا تبرح أنت وطعامك حتّى أفضحَك بمكه. فجاءه أبو البخترى فقال: مالك وله؟

فقال: يحمل الطعام إلى بنى هاشم.

فقال له أبو البخترىّ - وكان من أعداء الإسلام هو أيضاً -: طعام كان لعمّته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل.

فأبى «أبوجهل» حتّى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ له «أبوالبخترى» لحى بعير فضربه به فشجّه ووطأه وطئاً شديداً».(۱)

وخلاصه القول؛ إنّ قريشاً بالغت فى تضييق الحصار على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ومن تبعه حتّى أنّ مَن كان يدخل «مكّه» من العرب. كان لا يجسر على أن يبيع من بنى هاشم شيئاً، ومَن باع منهم شيئاً انتهبوا ماله، وكان «أبوجهل»، و «العاص بن وائل» و «النضر بن الحارث بن كلده»، و «عقبه بن أبى معيط» يخرجون إلى الطرقات الّتى تدخل «مكّه» فمَن رأوه معه ميره وطعام نهوه أن يبيع من بنى هاشم شيئاً، ويحذرونه إن باع شيئاً منهم نهبوا ماله.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۳۶، هذا ويشكّك أحد المحقّقين فى نوايا حكيم بن حزام فى هذا العمل، وفى أن يكون قد حصل بدافع الوفاء لوشيجه القربى، بل كان بدافع الربح الأكثر لما ثبت - حسب قوله - من أنّه كان يحتكر الطعام على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

كما وعدوا على مَن أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتدّ البلاء عليهم، وأبدت قريش لبنى عبدالمطلب الجفاء.

ولكن لم يستطع كلُّ ذلك أن يفتَّ فى عضد النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ويقلّل من إصراره وثباته على الطريق، ولا مِن اصرار أتباعه وثباتهم وإيمانهم.

وأخيراً تركت صرخاتُ أطفالُ بنى هاشم فى الشعب من الجوع والعرى والجهد والضر، وأوضاعهم المأساويه أثرها فى نفوس بعض المشركين الموقعين على تلك الصحيفه الظالمه، وذلك الميثاق المشؤوم، فندموا على إمضائهم لتلك المقاطعه بشده وصاروا يفكّرون فى نقضها بشكل من الأشكال.

فمشى «هشام بن عمرو» إلى «زهير بن أبى أُميه» (وكان من أحفاد عبدالمطلب من جانب بناته) وقال له وهو يحثّه على نقض الصحيفه: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يُنكحون ولا يُنكحُ إليهم؟

أما إنّى أحلِفُ باللّه أن لو كانُوا أخوال أبى الحكم (أى أبى جهل) ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً؟

فقال زهير: ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ إنّما أنا رجلٌ واحدٌ، واللّه لو كان معى رجلٌ آخر لقمتُ فى نقضها حتّى أنقضَ ها. قال: قد وجدتَ رجلاً.

قال: فمن هو؟ قال: أنا.

قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى «المطعم بن عدى» فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك، موافقٌ لقريش فيه! أما واللّه لئن أمكنتُمُوهم من هذه لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً؟

قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنّما أنا رجلٌ واحدٌ.

قال: قد وجدتَ ثانياً.

قال: من هو؟ قال: أنا.

قال: أبغِنا ثالثاً.

قال: قد فعلتُ.

قال: مَن هوَ؟

قال: زهير بن أبى أُميه.

قال: ابغِنا رابعاً.

فذهب إلى «البَخترى بن هشام» فقال له نحواً ممّا قال للمطعم بن عدى، فقال: وهل مَن يُعين على هذا؟

قال: نعم.

قال: من هُوَ؟

قال: «زهير بن أبى أُميه» و «المطعم بن عدىّ» وأنا معك.

قال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى «زمعه بن الأسود بن المطلب» فكلَّمه وذكر له قرابتهم وحقّهم فقال له: وهل على هذا الأمر الّذى تدعونى إليه من أحد؟

قال: نعم... ثم سمّى له القوم (الذين وعدوه بالمساعده على نقض تلك الصحيفه القاطعه الظالمه).

فاتّفقوا على أن يحضروا فى أنديه قريش فى المسجد ويُعلِنُوا مخالفَتهم لتلك الصحيفه.

فلمّا أصبحوا غَدوا إلى أنديتهم... ثم أقبل «زهير بن أبى أُميّه» على الناس

وقال:

يـا أهـل مكّه أنأكـل الطعـام ونلبسُ الثيـاب، وبنو هاشم هلكى لا يُباعون ولا يُبتاعُ منهم؟ واللّه لا أقعـد حتّى تشقّ هـذه الصـحيفه القاطعه الظالمه.

فقال أبوجهل، وكان فى ناحيه المسجد: كذبتَ واللّه لا تُشقّ.

فانتصر زمعه لزهير وردَّ على أبى جهل قائلًا: أنت واللّه أكذبُ، ما رضينا كتابَها حيث كتبت.

وقال أبوالبخترى من ناحيه مؤيّداً موقف زميله: صدق زمعهُ لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرّ به.

وقال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى اللّه منها، وممّا كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فأحسّ أبوجهل بأنَّ ذلك كان أمراً مبيَّتاً مدبَّراً من قبل فقال:

هذا أمرٌ قُضِىَ بليل، تُشُوور فيه بغير هذا المكان.

وكـان أبوطـالب - حسب بعض الروايـات التـاريخيه - جالسـاً ذلك اليوم فى ناحيه المسـجد، فقام المطعم إلى الصـحيفه ليشـقَّها فوجد (الإرضه)(۱) قـد أكلتها، إلّا «باسـمك اللّهمَ» (الّتى صُـدرَت بها تلك الصـحيفه وهى جمله كانت قريش تبـدأ بها عهودَها ورسائلها).(۲)

فلمّا رأى «أبوطالب» ذلك رجع إلى الشعب وأخبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بما

۱- . وهى دوده بيضاء شبه النمله، وهى آفه كلّ شىء من خشب ونبات. راجع لسان العرب: ۷/۱۱۳، ماده «ارض».

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۵۲-۲۵۳.

جرى، وعاد المحاصَرون فى الشعب إلى منازلهم مره أَخرى بعد المشوره مع «أبى طالب».

ويروى طائفةٌ من المؤرّخين أنّ «خديجه» و «أبا طالب» أنفقا أموالَهما برمّتها خلال سنوات المحاصره.

وذكر بعض أهل العلم: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قال لأبى طالب: يا عمّ إنّ ربّى اللّه قد سلّط «الإرضه» على صحيفه قريش فلم تَدع فيها اسماً هوللّه إلّاأثبتتهُ فيها، ونفت منها الظلم والقطيعه والبهتان.

فقال أبوطالب: أربّك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فواللّه ما يدخلُ عليك أحَدٌ.(۱)

ثم قامَ ولبسَ ثيابَه، ومشى هو ورسولُ اللّه وشخصٌ آخر حتّى دخلوا المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه، فلمّا دَنا أبوطالب منهم قامُوا إليه وعظَّموه، وتباشروا وظنّوا أنّ الحصَر والبلاء حمل أبا طالب على التخلّى عن موقفه، فقالوا له: قد آن لك أن تطيب نفسُك عن قتل رجل فى قتله صلاحُكم وجماعتكم (أو قد آن لك أن تسلّم إلينا ابن أخيك).

فقال أبو طالب: واللّه ما جئت لهذا، ولكنَّ ابن أخى أخبرنى ولم يكذّبنى أنّ اللّه تعالى أخبَرهُ أنّه بعث على صحيفتكُم القاطعه دابَّه فلحست جميع ما فيها من قطيعه رحم وظلم وجور وترك اسم اللّه، فهلم صحيفتكم، فإن كان حقّاً فاتّقوا اللّه وارجعُوا عمّا أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعه الرَّحم.

وإن كان باطلاً دفعتُه إليكم فإن شئتم قتلتمُوهُ، وإن شئتم استحييتموه.

۱- . وإنّما اتخذ مثلَ هذا الإجراء حتّى لا يفشو ذلك الخبر فيبلغ المشركين فيحتالُوا للصحيفه ويكذّبوا بذلك خبر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم.

فقالوا: رضينا، وتعاقدوا على ذلك.

ثم بعثوا إلى الصحيفه وأنزلوها من الكعبه، وعليها أربعون خاتماً.

فلمّا أتَوا بها نَظر كلُّ رجل منهم إلى خاتمه، ثم فكوها فإذا ليس فيها حرفٌ واحدٌ إلّا «باسمك اللّهمَّ»، كما أخبرهم بذلك رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

غير أنَّ هذا لم يوجب هدايتهم بل زادهم شرّاً وعناداً، ورجع بنو هاشم مرّه أُخرى إلى الشعب وبقوا محاصرين فيه مدّه من الزمن، ولم يمكنهم الرجوعُ إلى منازلهم بمكه إلّابعد أن نقضها هشام.(۱)

وقد قال «أبوطالب» فى مدح هذا (أى نقض الصحيفه القاطعه والنَفر الذين قاموا بنقضها) قصيده مطوَّله جاء فى مطلعها.

ألا هل أتى بَحريُّنا(۲) صنعُ ربّنا على نأيهم واللّه بالناس أرودُ(۳)

فيخبرهم أنَّ الصحيفه مُزّقَت وأنّ كلُّ ما لم يَرضه اللّه مُفسدُ(۴)

هذه أمثلهٌ ونماذجُ من رُدود الفعل الظالمه والمواقف المناوئه الّتى اتّخذتها قريشٌ تجاه الدعوه المحمديه.

على أنّه لا يمكن الادّعاء القطعىّ بأنّ جميع هذه الردود قد وقعت على الترتيب الّذى ذكرناه تماماً، ولكن يمكن بمراجعه النصوص التاريخيّه تحصيل مثل هذا الترتيب وخاصّه أنّ مسأله انتهاء المحاصره الاقتصاديه قد وقعت فى منتصف شهر رجب من السنه العاشره للبعثه الشريفه.

۱- . لاحظ: السيره النبويه: ۱/۲۵۳.

۲- . يقصد من هاجر من المسلمين إلى الحبشه فى البحر.

۳- . أى أرفقُ.

۴- . السيره النبويه: ۱/۲۵۳-۲۵۵. وقد أدرج ابن هشام القصيده بتمامها، فراجع.

كما أنَّ أذى قريش وردود فعلها ضدّ الإسلام والمسلمين وضدّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خاصّه لم تنحصر فى ما ذكرناه فى هذه الفصول بل كانت هناك أساليب أُخرى سلكتها قريش لتحطيم شخصيه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وإضعاف عزيمته مثل وصفهم للنبى صلى الله عليه و آله و سلم بالأبتر.

فقد كان «العاصُ بن وائل السهمى» إذا ذكر رسول اللّه قال: دعوهُ، فإنَّما هو رجلٌ أبترٌ لا عقب له، لومات لا نقطع ذكره واسترحتم منه.

فأنزل اللّه تعالى فى ذلك سوره الكوثر الّتى يقول فيها:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * إِنّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ * إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

وقد أخبر بها اللّه نبيَّه بأنّه سيهبُه ذريّه كثيره.(۱)

ولقد كتبَ العلّامه الفخر الرازى فى تفسيره لهذه السوره: المعنى أنّه يعطيه نسلاً يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قُتِلَ من أهل البيت؟ ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بنى أُميّه فى الدنيا أحدٌ يُعبأ به.(۲)

ووجه المناسبه أنّ الكافر شمت بالنبىّ حين مات أحد أولاده وقال: إنّ محمَّداً أبتر فإن مات مات ذكره، فأنزل اللّه هذه السوره على نبيّه تسليه له كأنه تعالى يقول: إن كان ابنك قد مات فإنّا أعطيناك فاطمه، وهى وإن كانت واحده وقليله، ولكن اللّه سيجعل هذا الواحد كثيراً.

۱- . السيره النبويه: ۱/۲۶۵. وجميع التفاسير.

۲- . تفسير الرازى (مفاتيح الغيب): ۳۲/۱۲۴، تفسير سوره الكوثر.

۲۲ أبو طالب رجل الإيمان والتضحيات

اشاره

فی الوَقت الّذی کنّا نسطّر فیه مواضیع هذا الفصل کان سجن «القطیف» یضمُّ بین جدرانه رجلًا حر الضمیر شجاعاً مقداماً لم یکن له من ذنب إلّاأنّه ألّف کتاباً باسم «أبو طالب مؤمن قریش» یتناول إسلام «أبی طالب» وإیمانه وإخلاصه مثبتاً کلّ ذلک من مصادر أهل السنّه.(۱)

فطلبت منه السلطات القضائیه فی الحجاز - وفی عصر یتّسمُ بحرّیه التفکیر والبیانِ والإعتقادِ - بأن یتراجع عن کلامه، وحیث إنّه لم یکن لیرید أن ینکر حقیقه اعتقد بها عن قناعه ویقین، حکمت علیه تلک السلطات بالإعدام!!

وقد نجا هذا المؤمن الشجاع والکاتب الحرّ من الإعدام اثر جهود إسلامیه واسعه وخُفِّضت عقوبته إلی الحبس المؤبّد، ومن ثمّ خفّضت إلی عقوبه الجَلد ثمانین جلده!!.

وقد أُطلق سراحه بفضل الجهود المتضافره لعلماء الشیعه ومفکّریهم.

لقد سقطت مؤامره الحصار الاقتصادی ضدّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بفعل جهود ثله من ذوی المروءه وأیضاً بفضل صمود النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وثباتهم العظیم. وخرج النبیّ وأنصاره من «شِعب أبی طالب» بعد ثلاث سنوات من النفی والعذاب وعادوا إلی منازلهم ظافرین مرفوعی الرؤوس.

۱- . والکتاب یقع فی ۳۴۰ صفحه طبع بالحجم الوزیری وطُبع فی بیروت مراراً وقدّم له الأدیبُ اللبنانی المعروف «بولس سلامه» صاحب ملحمه الغدیر وملاحم أُخری.

وعاد التعامُل الاقتصادی مع المسلمین إلی ما کان علیه قبل الحصار، وکانت أوضاع المسلمین تسیر نحو الانتعاش والانفراج شیئاً فشیئاً، وإذا برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یُفاجَأ بحادث مؤلم مرٍّ ذلک هو وفاه شخصیهٍ کبری أحدث فقدانها أثراً سیّئاً فی نفوس المسلمین وبخاصّه المستضعفین منهم.

ولقد کان هذا الأثر عظیماً جداً بحیث لا یمکن قیاسه بشیءٍ بالنظر إلی تلک الظروف الحسّاسه، وذلک لأنّ نمو أیه عقیدهٍ وفکره إنّما یکون فی ظل عاملین أساسیّین: أحدهما: حریه التعبیر، والآخر: القوه الدفاعیه الّتی تحمی أصحاب تلک العقیده والفکره ضدّ حملات الخصوم الّتی لا ترحم.

ولقد کان المسلمون - آنذاک - یتمتعون بحریه البیان والتعبیر، ولکنّهم افتقدوا بسبب الحادث المفاجئ المذکور العاملَ الجوهری والمصیری الثانی یعنی: حامی الإسلام والمدافع الوحید عنه الّذی وافته المنیه فی تلک الأیام الحسّاسه وحُرم المسلمون بوفاته من حمایته ودفاعه، ووقایته.

***

أجل لقد فَقَد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حامیه العظیم الّذی تولی مهمه کفالته والدفاع عنه، والمحافظه علی حیاته بصدق وإخلاص وجدّ و رغبه، وکان یقیه بنفسه وذویه ویؤثره علی نفسه وأولاده وینفق علیه من ماله حتّی کَبُرَ وصار له مال وطول منذ أن کان صلی الله علیه و آله و سلم فی السنه الثامنه من عمره وحتّی یوم وفاه ذلک الحامی العظیم، ورسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الخمسین من عمره.

لقد فَقَد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم شخصیهً خاطبها عبدُالمطلب عند وفاته بالشعر قائلاً:

أُوصِیکَ یا عَبدَ منافٍ بعدی بموحد بَعدَ أبیهِ فَردِ

فأجابه أبوطالب قائلاً: يا أبَه لا توصنى بمحمّد فإنّه ابنى وابن أخى.(۱)

ولعلّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قد تذكّر فى اللحظه الّتى ظهر فيها على جبين أبى طالب عرقُ الموت جميع الحوادث الحلوه والمرّه وقال فى نفسه:

۱. إنّ هذا الشخص المسجّى على فراش الموت هو عمّه الرؤوف الّذى ظلَّ يحرسه بالليل والنهار طيله سنوات الحصار فى الشعب، فاذا جاء الليل قام عند رأسه بالسيف يحرسه. ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مضطجع ثم يقيمه من فراشه إذا مضى شطرٌ من الليل ويضجعه فى موضع آخر ويضجع مكانه ولده «على بن أبى طالب» حتّى لا تغتاله قريش بعد أن رَصَدوا مكانه، وكمنوا له، وكان يفعل أبوطالب ذلك طوال الليل كلّه فيفدينى بولده «على» ويقينى به حتّى إذا قال له «علىٌ» ليله:

«يا أبتاه إنّى مقتول ذات ليله».

فأجابه أبوطالب بنبره المتحمّس الصبور:

إصبِرَن يا بُنَىَّ فَالصبرُ أحجى كُلُّ حَىٍّ مَصِيرُه لِشُعُوبِ

قَد بَلَوناك وَ البَلاءُ شَديدٌ لِفِداءِ النَجيبِ وَ ابنِ النَجيبِ

فأجابه «علىٌّ» بكلام أكثر حلاوهً وعمقاً قائلاً:

أَتَأمُرُنى بالصَّبرِ فى نَصر أحمَدٍ؟ وَ وَاللّهِ ما قُلتُ الّذى قُلتُ جازعاً

وَلكِنَّنى أَحبَبتُ أن تَرَ نُصرَتى وَ تعلَمَ أَنّى لَم أَزَل لَكَ طائِعاً(۲)

۲. إنّ هذا الجثمان الّذى فارقته الروح هو جثمان عمّى العطوف الّذى شُرّدَ هو وذووه، وعرَّض نفسَه وأهلَه للبَلاء والمحنَه بسبب الحصار لأجلى، وأمر بأن

۱- . مناقب ابن شهرآشوب: ۱/۳۴-۳۵؛ بحار الأنوار: ۳۵/۸۶ ح ۳۰.

۲- . مناقب ابن شهر آشوب: ۱/۵۸؛ بحار الأنوار: ۳۵/۹۳.

يحرسوننى ليلَ نهار، تاركاً زعامته وسيادته، وكلّ شؤُونه للحفاظ علىَّ والإبقاء على رسالتى، وأرسل إلى قريش رسالةً قويةً أعلنَ فيها عن وُقُوفه إلى جانبى وأنّه لن يسلمنى ويخذلنى مادام حيّاً إذ قال:

فَلا تَحسبُونا خاذِلين مُحمَّداً لذى عزّه مِنّا وَ لا متعزّب

سَتَمنعُه مِنّا يَدٌ هاشِميّةٌ وَ مَركَبُها فى الناسِ أخشن مركب(۱)

بعد أن تحقّق موت «أبى طالب» ارتفع الصراخ والنحيب من منازله وبيوته، واجتمع حول بيته العدوُّ والصديقُ، والقريبُ والبعيد، واشترك الجميعُ فى مراسيم دفنه بقلوب آلمتها الفجيعه به، وقرّحها الحزنُ عليه.

وهل ترى تنتهى آثار وردود فعل وفاه شخصيه عظيمه الشأن مثل «أبى طالب» الّذى كان زعيم قريش، وسيد عشيرته بمثل هذه السرعه، والبساطه؟

كلّا بل سيكون لفقدانه أكبر الأثر على مسيره الدعوه كما ستعرف ذلك مستقبلاً.

نماذج من مشاعر أبى طالب ومودّته للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم

إنّ التاريخ البشرىّ يحتفظ فى صفحاته بأمثله كثيره عن مشاعر تبادَلها الأشخاصُ وعواطف وديّه قويّه أبداها البعض تجاه بعض تدورُ أكثرها حول محور الدوافع الماديه كالتى تدور حول معيار الجمال أو المال، ولهذا سرعان ما يذهب الحماسُ وتنطفئُ شعلهُ الحبّ، ويتضاءل لهيبُ العاطفهُ فى كيانهم حتّى تزول بالمرَّه ولا يبقى منها شىء أبداً لعدم ثبات هذه الدوافع.

ولكنَّ المشاعرَ والعواطفَ الّتى تنبعُ من أواصر الإيمان بفضائل شخص ما

۱- . بحار الأنوار: ۱۹/۴ و ۲۰ و ج ۳۵/۹۳، وفيه: لدى غربه منا ولا متقرب.

وكمالاتِه الروحيه والمعنويه لا تنمحى ولا تتلاشى بسرعه.

وقد كانت موده «أبى طالب» لمحمّد صلى الله عليه و آله و سلم وحبّه الشديد له تنبع من كلا هذين الدافعّين.

فقد كان «أبو طالب» يؤمن بمحمّد صلى الله عليه و آله و سلم ويرى فيه من جانب الإنسان الكاملَ، بل يعتبره فى قمّه الكمال الانسانى، ومن جانب آخر كان «محمّد» ابن أخيه، وقد أحلّه ذلك من قلبه محلّ الابن والأخ.

لقد كانت لصفات «محمّد» وخصاله المعنويه والأخلاقيه، وطهره مكانه كبرى فى قلب عمّه «أبى طالب» إلى درجه أنّه كان يصطحبه معه إلى المصلّى، ويستسقى به أى أنّه يقسم على اللّه بمقامه أن يدفعَ عن الناس القحط والجدب وينزّلَ عليهم الغيث، فكانت دعوتُه تستجاب من دون تأخير.

فقد نقل كثيرٌ من المؤرّخين الحادثه التاليه:

قحط الناسُ فى «مكّه» وحواليها سنةً من السنين، ومَنعتِ السماء والأرض بركاتها عنهم بشكل عجيب، فمشت قريش بعيون باكيه إلى «أبى طالب» تطلب منه بإلحاح أن يستسقى لهم، وأن يذهب إلى المصلّى ويدعو ربّه لينزِّلَ عليهم المطر وينقذهم من تلك المحنه الصعبه.

فخرج «أبو طالب» وقد أخذ بيد غلام كأنّه شمسُ دجن (دجنه) تجلّت عنها غمامه، فأسند ظهره إلى الكعبه ورفع وجهه نحو السماء وقال: يا رب هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً، دائماً هاطلاً.

ويكتب المؤرّخون أنّ السماء كانت صافيه لا غيم فيها أبداً ساعه استسقى «أبو طالب» برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ولكن ما أن فرغ «أبوطالب» من دعائه إلّاوأقبلت السحاب فى الحال، وغطّت سماء «مكّه» وما حولها من المناطق القريبه إليها،

وأرعدت السماء وأبرقت ثم جرى غيث عظيم سالت به الأوديه، وروت القريب والبعيد، وَسُرّ به الجميع ورضوا.(۱)

وقد أشار «أبوطالب» فی لا میّته المعروفه إلی هذه الحادثه.

وقد أنشأ «أبوطالب» تلک القصیده فی أحلک الظروف وأشدّها، یوم زادت قریشٌ من ضغوطها علی حامی الرسول صلی الله علیه و آله و سلم لیسلِّمَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلیها.

وقد ذکَّر فیها «أبوطالب» قریشاً بحادثه الاستسقاء برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قبل الإسلام وکیف أنّها أُمطِرَت ببرکته، بعد قحط طویل، وجدب مهلِک، کاد یبید الحرث والضرع، وذلک عندما یقول:

وابیض یُستسقی الغمامُ بوجهه ربیع الیتامی عصمه للأرامل

تلوذُ به الهُلاک مِن آل هاشم فهم عندَهُ فی نعمه وفواضل

وقد نقل «ابن هشام» فی سیرته(۲) أربعه وتسعین بیتاً من هذه القصیده، فیما أورد «ابن کثیر» الشامی فی تاریخه(۳) اثنین وتسعین بیتاً فقط.

وهی قصیده فی منتهی الروعه والعذوبه، وفی غایه القوه والجمال، وتفوق فی هذه الجهات کلّ المعلقات السبع الّتی کان عرب الجاهلیه یفتخرون بها، ویعدّونها من أرقی ما قیل فی مجال الشعر والنظم.

وقد أورد «أبو هفان العبدی» الجامع لدیوان «أبی طالب» مائه وواحد وعشرین بیتاً من هذه القصیده فی ذلک الدیوان، ویمکن أن تکون کلُّ تلک القصیده وتمامها.

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۸/۲ و ۳؛ السیره الحلبیه: ۱/۱۹۰.

۲- . السیره النبویه: ۱/۱۷۶-۱۸۰.

۳- . البدایه والنهایه: ۳/۷۰-۷۴.

ونحن نورد هنا أبياتاً متفرّقه من هذه القصيده ممّا يتّصل منها برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بصوره صريحه.

كَذِبتُم وبيتِ اللّه نبزى محمّداً ولما نطاعِن دونه ونناضل(۱)

ونُسلِمُه حتّى نُصرَّعَ حوله ونَذهَل عن أبنائنا والحلائِل

لَعمرى لقد كلّفتُ وجداً بأَحمدٍ وإخوته دأبَ المحبِّ المواصل

فلا زال فى الدنيا جمالاً لأهلها و زَيناً لمن والاه ربُّ المشاكل(۲)

فَمَن مثلُه فى الناس أىُ مؤمَّل إذا قاسَهُ الحُكام عند التفاضل

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائش يُوالى إلاهاً ليس عنه بِغافِلِ

لقد علِمُوا أنَّ ابْننا لا مكذَّبٌ لدينا ولا يُعنى بقولِ الأباطِل

فأصبَحَ فينا أحمدٌ فى أُرومه تقصّر عنه سَوره المتطاول(۳)

حَدِبْتُ بنفسى دونَه وحميته ودافعتُ عنه بالذُّرا والكلاكل(۴)

فَأيّدَهُ ربُّ العباد بنصره وأظهرَ ديناً حقُّه غير باطل(۵)

التغيير فى برنامج السفر

لم يكن يمض أكثر من اثنى عشر ربيعاً من عُمُر «محمّد» بعد، عندما أراد «أبوطالب» التوجّه إلى الشام مع قافله قريش التجاريه.

وعندما استعدّت القافله لمغادره مكّه ودق جرس الرحيل، أخذ «محمّد»

۱- . أى نُغلَبَ عليه.

۲- . المشاكل: العظيمات من الأُمور.

۳- . السوره: الشده والبطش.

۴- . الذرا: جمع ذروه وهى أعلى ظهر البعير.

۵- . راجع السيره النبويه: ۱/۱۷۷-۱۸۰.

فجأه بزمام الناقه الّتی کان یرکبها عمُّه وکافله «أبوطالب» بینما اغرورقت عیناه صلی الله علیه و آله و سلم بالدموع وقال:

«یا عمّ إلی مَن تکلنی، لا أب لی ولا أُم»؟. هذا المشهد المؤثّر وبخاصّه عند ما رأی «أبوطالب» عینی محمّد وقد اغرورقت بالدموع، فعل فعلته فی نفس العم الکافل الحنون، فانحدرت عبرات العطف من عینیه وقرّر من فوره ومن دون سابق تفکیر فی الموضوع أن یصطحب ابن أخیه «محمّداً» معه فی هذا الرحله، ومع أنّه لم یحسب لهذا الأمر - من قبل - أی حساب، فإنّ «أباطالب» قبل بأن یتحمّل کلّ ما یترتّب علی قراره هذا، فحمله معه علی ناقته، وبقی یفکر فی أمره، ویدبّر شأنه، ویحافظ علیه طوال تلک الرحله، وشهد منه أثناء الطریق کرامات وخوارق، وقد أنشأ فی ذلک قصیدهً موجودهً فی دیوان أبی طالب، ومطلع هذه القصیده هو:

إنَّ ابن آمنه النبیّ محمّداً عندی یفوقُ منازلَ الأولاد(۱)

***

أبو طالب والدِفاعُ عن حوزه العقیده والإیمان

لیست هناک قوهٌ تساعد علی الثبات والمقاومه، والصمود والاستقامه، مثل قوه الإیمان، فالایمان بالهدف هو العامل القوی وراء تقدّم الإنسان فی میدان الحیاه، فهو الّذی یهضم فی نفسه کل الآلام والمتاعب، ویدفع بالمرء إلی المضی قدماً فی طریق الوصول إلی أهدافه المقدّسه، حتّی ولو کلّفه ذلک التعرض للموت.

إنَّ الجندیّ المُسلَّح بقوهِ الإیمان منتصرٌ لا محاله.

۱- . لاحظ: إیمان أبی طالب للشیخ المفید: ۳۶؛ دیوان أبی طالب: ۳۳-۳۵؛ تاریخ ابن عساکر: ۱۰/۱.

إنّ الجندیّ الّذی یعتقد بأنّ الموت فی طریق العقیده هو عین السعاده لابدّ أن یحرز النصر.

إنّ علی الجندی - قبل أن یسلِّحَ نفسَه بسلاح العصر - أن یتزوّد فی قلبه من طاقه الإیمان بالهدف، ویضیء قلبه بمصباح الاعتقاد بالحقیقه، وحبِّها، ویجب أن یکون جهادُه وصلحُه من أجل العقیده والدفاع عن حوزتها، وکیانها.

إِنَّ أفکارنا وعقائدنا نابعهٌ من روحنا، وفی الحقیقه أنَّ فکر الإنسان ولید عقله، فکما أنَّ الإنسان یحبُ ولده حبّاً شدیداً کذلک یحب أفکاره الّتی هی ولائد عقله وروحه، بل إن حبّ الإنسان لعقیدته أکثر من حبّه لأولاده، ولهذا فهو یدافع عن عقائده حتّی الموت، ویغضی - فی سبیل الدفاع عن حوزه العقیده والحفاظ علیها - عن کلّ شیء بینما هو غیر مستعدّ لأن یضحی بنفسه فی سبیل الحفاظ علی أولاده.

إنّ حب المرء للمال والمنصب حبٌّ محدود، فهو ینساق مع هذا الحبّ مادام لم یهدّد حیاته خطرُ الموت الحقیقی، ولکنّه مستعد لأن یمضی - فی سبیل الدفاع عن حیاض العقیده - إلی حدّ الموت، ویؤثر الموت الشریف فی سبیل العقیده علی الحیاه، ویَری الحیاه الحقیقیه والواقعیه فی وجود الرجال المجاهدین، وهو یردّد:

«إنّما الحیاه عقیده وجهاد».(۱)

ولنلق نظره فاحصه علی حیاه بطل حدیثنا (ونعنی به المدافع الوحید عن الإسلام وحامی الرسول الأوحد فی بدایات عهد الرساله) فماذا کان دافعه إلی هذا

۱- . المراد من العقیده المقدّسه هو بطبیعه الحال ما تذوب «الأنا» فیها فی التوحید والإیمان باللّه إذ هنا یصدُق قولُه: قِف عند رأیک واجتهد إنّ الحیاه عقیدهٌ وجِهاد

الأمر، وما الّذى كان يحركه فى هذا السبيل؟ وأى شىء كان وراء مضيه فى هذا الطريق إلى حافّه العدم، والغض عن النفس والنفيس، والمقام، والقبيله وغير ذلك والتضحيه بكلّ ذلك فى سبيل «محمّد» صلى الله عليه و آله و سلم.

إنّ من المتيقَّن أنّ دافعه إلى ذلك لم يكن المحرّك المادىّ، وبالتالى لم يقصد من وراء الدفاع عن ابن أخيه، وحمايته، والحدب عليه، كسب أمر مادى كتحصيل مال وثروه، لأنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن له يومئذ مالٌ، ولا ثروه.

وكما أنّ مقصود «أبى طالب» لم يكن أيضاً تحصيل مقام، وإحراز مكانه اجتماعيه؛ لأنّه كان يملك فى ذلك المجتمع أعلى المناصب وأهمها، فقد كانت له رئاسه «مكّه» والبطحاء، بل هو فقد منصبه وشخصيته الممتازه و مكانته المنقوله بسبب دفاعه عن «محمّد»، وعدم الاستجابه لقومه فى تسليمه إليهم، والتخلّى عنه؛ لأنّ دفاعه عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قد استوجب سخط زعماء قريش عليه واستياءهم من موقفه، وخروجهم عن طاعته، ودفعهم إلى التمادى فى معاداه «بنى هاشم» و «أبى طالب» والثوره عليهم!!

تصَوّرٌ باطلٌ

ربّما يتصوّر بعض ضعفاء البصيره أنّ علّه حدب «أبى طالب» على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والتضحيه فى سبيله بالنفس والنفيس كانت هى: علاقه القربى، ووشيجه الرَّحِم، أو بتعبير آخر: إنّ التعصّب القبلىّ، والعصبيه القوميه هو الّذى دفع بأبى طالب إلى أن يعرّض نفسه لكلّ ذلك المكروه فى سبيل ابن أخيه.

ولكنّ هذا ليس سوى مجرّد تصوّر باطل لا غير، ويتّضح بطلانه بدراسه مختصره؛ لأنّه لا تسطيع أيه وشيجه قربى على أن تدفع أحداً إلى أن يضحّى بنفسه فى أحد أقربائه إلى هذه الدرجه من التضحيه والمفاداه، بحيث يقى مثلاً

ابن أخيه عليه، ويكون مستعداً لأن يتقطّع ولده بالسيوف إرباً إرباً دون ابن أخيه.

إنّ العصبيّات القبليه والعائليه وإن كانت تدفع بالإنسان حتّى إلى حافّه الموت، ولكن لا معنى لأن تختصّ، هذه الحمايه الناشئه عن العصبيه العائليه والقبليه الشديده بفرد واحدٍ، وشخص خاص معيّن من أفراد العائله والقبيله، فى حين نجد «أبا طالب» قد قام بكلّ هذه التضحيه فى سبيل شخص واحد، وفرد معين (أى النبىّ)، ولا يفعل مثل هذه فى سبيل غيره من أبناء «عبدالمطلب» و «هاشم» وأحفادهما ومَن ينتمى إليهم بوشيجه القربى ورابطه الرحم.

الدافع الحقيقىّ لأبى طالب

وعلى هذا الأساس فإنّ المحرّك والدافِع الحقيقىّ لأبى طالب لم يكن أمراً مادياً ولا الجاه والمنصب، أو التعصب القومى، والعائلى، بل كان أمراً معنوياً، وأنّ ضغوط العدوّ وقوّته كانت تدفعه إلى الاستعداد للقيام بأى نوع من أنواع التضحيه وذلك الأمر المعنوىّ هو اعتقاده الراسخ برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يعتبر «محمّداً» مظهراً كاملاً للفضيله والإنسانيه، ويعتبر دينه أفضل برنامج للسعاده، وحيث إنّه كان يحبُّ الحقيقه، ويعشق الكمالَ والحقّ، لذلك كان من الطبيعىّ أن يدافع عن الحقّ والحقيقه، وينصرهما بكلّ وجوده، وبكلّ قواه.

وهذا المعنى هو المستفاد من قصائد «أبى طالب» وأشعاره، فهو يصرّح بأنّ «محمّداً» رسولٌ كموسى وعيسى إذ يقول:

لِيَعلَم خِيارُ النّاسِ أَنَّ مُحمَّداً وزير لموسى وَ المَسيحِ بنِ مَريَم

أَتانا بِهَدی مِثلَ ما أتیا بهِ فَکُلّ بِأمرِ اللّهِ یَهدی وَ یَعصِمِ (۱)

ویقول فی قصیده أُخری:

ألَم تَعلَمُوا أَنَّا وَجَدنا محمّداً نَبِیّاً کَمُوسی خطّ فی أوّل الکُتب(۲)

هذا وتعتبر أبیاته الّتی سبق أن أشرنا إلیها والکثیر من أمثالها ممّا جاء ذکره فی دیوان أبی طالب، وفی ثنایا التاریخ والتفسیر والحدیث شواهد حیّه وقویه علی أنّ محرّک «أبی طالب» الواقعی ودافعه الحقیقی إلی الدفاع عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کان هو اعتقاده الخالص، وإسلامه الواقعی ولم یکن له أی دافع آخر سوی الإیمان والعقیده.

ونحن هنا نکشف النقابَ عن بعض مواقفه فی الدفاع عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وحمایته بعد اضطلاعه بعبء الرساله، ونترک لک أیّها القارئ بأن تدقّق فی مثل هذه المواقف الفدائیه ثم تقضی بنفسک: هل تنبع مثل هذه التضحیه، ومثل هذا التفانی، والفداء إلّامن الإیمان والاعتقاد؟

***

لمحات من تضحیات أبی طالب

اجتمع أسیاد قریش وأشرافها فی بیت أبی طالب والنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم حاضر، وتبودلت بین الجانبین أحادیث حول رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ودینه وما خلق من مشکلات فی مکّه، وحاول القرشیّون إثناء النبیّ عن دعوته وعمله ولکن دون

۱- . مجمع البیان: ۴/۳۲؛ مستدرک الحاکم: ۲/۶۲۳ و ۶۲۴. وفی أعیان الشیعه: ۴/۱۲۱: (نظیر) بدل (وزیر).

۲- . مجمع البیان: ۴/۳۱. وقد نقل ابن هشام فی السیره النبویه: ۱/۲۳۵-۲۳۶ خمسه عشر بیتاً من هذه القصیده.

جدوی، فلمّا یئسوا من الحصول علی النتیجه الّتی کانوا یریدونها نهضوا من مکانهم لیترکوا بیت «أبی طالب» قال «عقبه ابن أبی معیط» غاضباً مهدّداً: لا نعود إلیه أبداً، وما خیر من أن نغتال محمّداً!!

فلمّا کان مساء تلک اللیله فقد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وجاء «أبوطالب» وعمومته إلی منزله فلم یجدوه، فجمع فتیاناً من بنی هاشم وبنی المطلب، ثم قال - وهو یظن أنّ قریشاً کادت برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: لیأخذ کلّ واحد منکم حدیده صارمه ثم لیتبعنی إذا دخلت المسجد، فلینظر کلّ فتی منکم، فلیجلس إلی عظیم من عظمائهم فیهم ابن الحنظلیه - یعنی أبا جهل - فإنّه لم یغب عن شر إن کان محمّد قد قتِل، فقال الفتیان: نفعل فجاء زید بن حارثه فوجد أبا طالب علی تلک الحال فقال: یا زید أحسست ابن أخی؟ قال: نعم کنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: لا أدخل بیتی أبداً حتّی أراه.

فخرج زید سریعاً حتّی أتی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهو فی بیت عند الصفا و معه أصحابه یتحدّثون فأخبره الخبر، فجاء رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی أبی طالب فقال: یا ابن أخی: أین کنت؟ أکنتَ فی خیر؟ قال: نعم، قال: أدخل بیتک، فدخل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فلمّا أصبح أبوطالب غدا علی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فأخذ بیده فوقف علی أندیه قریش ومعه الفتیان الهاشمیون والمطلبیون فقال: یا معشر قریش هل تدرون ما هممتُ به؟

قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، وقال للفتیان اکشفوا عمّا فی أیدیکم، فکشفوا، فإذا کلّ رجل منهم معه حدیده صارمه. فقال: واللّه لو قتلتموه ما بقّیت منکم أحداً حتّی نتفانی نحن وأنتم، فانکسر القوم، وکان أشدَّهم انکساراً أبوجهل.(۱)

۱- . الطبقات الکبری لابن سعد: ۱/۲۰۲-۲۰۳.

لو لاحظت أيها القارئ الكريم هذه الصفحات وغيرها من تاريخ «أبى طالب»، ودرستَ حياته لرأيت كيف أنّ «أبا طالب» ظلّ طوال اثنين وأربعين سنه بأيّامها ولياليها يحدب على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويدافع عنه، ويحاميه، وبخاصه فى السنوات العشر الأخيره من حياته الّتى صادفت بعثه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ودعوته، فقد أظهر من الدفاع عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والحرص على حياته، وحمايه هدفه أكثر ممّا يُتصوّر. ولقد كان العامل الوحيد الّذى دفعه إلى مثل هذا الموقف الراسخ العظيم فى هذا السبيل هو: عمق الإيمان برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وقوه الاعتقاد الخالص برسالته.

ولو أنّنا ضممنا إلى تضحياته الشخصيه تضحيات ولده العزيز «علىّ» لأدركنا مغزى البيتين اللّذين أنشدهما «ابن أبى الحديد» المعتزلى الشافعى إذ قال:

ولولا أبوطالب وابنُه لما مَثُلَ الدِّينُ شخصاً وقاما

فذاك بمكّه آوى وَ حامى وَ هذا بِيَثربَ جَسَّ الحماما(۱)

تكفير أبى طالب قضيّهٌ ذات بواعث سياسيّه:

ليس من ريب فى أنّه لو ثبت عُشر هذا القدر من الشواهد الدالّه على إسلام «أبى طالب» وإيمانه بالرساله المحمّديه، لغيره ممّن هو بعيدٌ عن قضايا السياسه، وخارج عن دائره الحقد والبغض لاتّفق الجميع سنهً وشيعهً على إسلامه وإيمانه، ولكن كيف ذهب فريقٌ إلى تكفير «أبى طالب» مع كلّ هذه الشواهد القويّه القاطعه على إيمانه، حتّى أنّ فريقاً من الكتّاب ذهب إلى أنّ بعض الآيات المشعره بالعذاب

۱- . شرح نهج البلاغه: ۱۴/۸۴ يقول ابن أبى الحديد: صنّف بعض الطالبيّين فى هذا العصر كتاباً فى إسلام أبى طالب، وبعثه إلىّ، وسألنى أن أكتب عليه بخطّى نظماً أو نثراً أشهد فيه بصحّه ذلك، وبوثاقه الأدلّه عليه (إلى أن قال:) فكتبت على ظاهر المجلد هذه الأبيات.

نزلت فی شأنه؟!

بینما توقّف فی هذا الأمر، وذهب أفراد معدودون من علماء السـنّه إلی الحکم بإسـلامه وإیمانه، ومنهم «زینی دحلان» مفتی مکّه المتوفّی سنه ۱۳۰۴ من الهجره.

ولکن الإنصـاف هو أن یقـال: إنّ الهـدف من طرح هـذه المسأله والتوقّف فی إیمان «أبی طالب» أو تکفیره لم یکن إلّاالطعن فی أبنائه، وبخاصّه أمیرالمؤمنین الإمام علیّ علیه السلام.

ولقـد جرّ بعض کتّاب السـنّه - لتبریر تکفیر أبی طالب - هـذه المسأله إلی غیر أبی طالب ووسع دائره التکفیر هـذه حتّی شـملت آباء النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أیضاً حیث ذهب إلی أنّ أبوی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ماتا کافرین أیضاً.

ونحن لا یهمنا هنا أن نعلم بأنّ تکفیر والدی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم مخالفٌ لإجماع الإمامیه والزیدیه، وکذا جماعه من علماء السـنّه، ومحقّقیهم، إنّما الکلام هو حول مَن اتّهموا ببساطه متناهیه حامی النبیّ صـلی الله علیه و آله و سلم الوحید والمدافع عنه بلا منازع.

الأدِلّه علی إیمان أبی طالب

اشاره

إنّ التعرّف علی عقیده أحد، ومعرفه نمط تفکیره، یمکن عن ثلاث طرق هی:

۱. دراسه ما ترک من آثار علمیّه وأدبیه.

۲. أُسلوب عمله، وتصرفاته فی المجتمع.

۳. رأی أقربائه، وأصدقائه غیر المغرضین فیه.

ونحن نستطیع أن نتعرَّف علی إیمان «أبی طالب» وعقیدته من خلال هذه الطرق.

فإنّ أشعار «أبی طالب» تدلّ بجلاء لا لُبس فیه علی إیمانه وإخلاصه، وکذا تکونُ خدماته القیمه فی السنوات العشر الأخیره من عمره شاهداً قویاً علی إیمانه العمیق.

کما وأنَّ رأی أقربائه المنصفین متّفق علی أنَّ «أبا طالب» کان مسلماً مؤمناً ولم یقل أحدٌ من أقربائه، فی حقّه بغیر هذا أبداً.

وإلیک إثبات هذا الموضوع عن هذه الطرق الثلاث علی وجه التفصیل:

الطریق الأوّل: آثار أبی طالب العلمیّه والأدبیه

نحن نختار هنا من بین قصائد «أبی طالب» المطوَّله، بعض الأبیات الّتی تثبت إیمانه برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، واعتقاده بالإسلام، من غیر إبهام.

۱. لِیَعلَم خِیارُ النّاسِ أنَّ مُحمَّداً وزیر لموسی وَ المَسیح بنِ مَریَم

أتانا بَهَدی مِثلَ ما أَتیا به فَکُلٌّ بِأمرِ اللّه یَهدِی وَ یَعصِم (۱)

۲. تمنیتمُ أن تَقتُلُوهُ وإنّما أمانیُّکُم هذی کَأحلامِ نائِم

نَبیٌّ أتاهُ الوحیُ من عِندِ رَبّهِ وَمَن قالَ لا یَقرَع بِها سنَّ نادِم(۲)

۳. ألَم تَعلَمُوا أنّا وَجَدنا محمّداً نبیّاً کَمُوسی خُطَّ فی أوّلِ الکُتُب

وَ أنَّ عَلَیهِ فی العِبادِ محبهً وَ لا حیفَ فی من خصَّهُ اللّه بالحُبّ (۳)

۱- . مجمع البیان: ۴/۳۲؛ مستدرک الحاکم: ۲/۶۲۳؛ أعیان الشیعه: ۴/۱۲۱، وفیه (نظیر) بدل (وزیر).

۲- دیوان أبی طالب: ۳۲؛ شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۱۴/۷۳.

۳- . دیوان أبی طالب: ۳۲؛ بحار الأنوار: ۳۵/۱۵۹؛ السیره النبویه لابن هشام: ۱/۲۳۴.

۴. وَاللّهِ لَن يَصِلوا إلَيکَ بِجَمعِهِم حَتّی أوسَّدَ فی التّراب دَفينا

فأمضی لأمرک ما عَلَيْکَ غَضاضهٌ وَابشِر وَقرَّ بذاک مِنکَ عُيُونا

وَدَعوتَنی وعلمتُ أنّکَ ناصِحٌ وَلَقَد دَعَوت وَ کُنت ثمَّ أمِينا

وعرضت ديناً قد عرفت بأنّه مِن خَير أديان البَريّه دينا(۱)

۵. أوتُؤمنوا بکتاب منزل عَجَب عَلی نَبیّ کمُوسی أوکذِی النون(۲)

۶. لَقَد عَلِمُوا أنَّ ابنَنا لا مُکذَّبٌ لَدَينا وَ لا يَعنی بِقولِ الأباطِل

فأيّده رَبُّ العِبادِ بِنَصرِهِ وَأظهَرَ ديناً حَقُّهُ غيرُ باطل(۳)

إنّ کلّ واحده من هذه المقطوعات الشعريّه الّتی تشکّل قسماً صغيراً من قصائد مفصّله لأبی طالب، تشهد بإيمانه بدين ابن أخيه «محمّد» صلی الله عليه و آله و سلم.

وخلاصه القول: إنَّ بيتاً واحداً من هذه الأبيات کافٍ فی إثبات إيمان صاحبها وقائلها، ولو أنّ أحداً قالها وهو خارج عن فلک الصراعات السياسيه، وبعيد عن دوائر التعصّبات والأغراض لحکم الجميعُ - بالاتّفاق - بإسلام قائله وإيمانه الخالص العميق.

ولکن لمّا کان «أبوطالب» هو قائلها، وکانت الأجهزه الدعائيه فی الحکومات الأُمويه والعباسيّه تعمل بکلّ جهدها ضدّ آل «أبی طالب» من هنا أبی فريقٌ من الناس أن يُثبتوا مِثل هذه الفضيله الکبری لأبی طالب عليه السلام. هذا من جانب.

۱- . البدايه والنهايه: ۳/۵۶.

۲- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحديد: ۱۴/۷۴؛ ديوان أبی طالب: ۱۷۳.

۳- . السيره النبويه لابن هشام: ۱/۱۸۰.

ومن جانب آخر فإنّ أبا طالب والـد «علی» الّذی کانت سـلطات الخلفاء تعمل ضدّه علی الدوام، وتسـتغل کلّ الوسائل للحطّ من شأنه، کان إسـلام أبیه وإیمانه بالرساله المحمدیه یُعدُّ فضـیله بارزه من فضائله علیه السلام فی حین أنّ کفر آباء الخلفاء وشرکهم یعدُّ مثلبه توجب الحطّ من شأنهم، وقیمتهم.

وعلی کـلّ حال قام جماعه بتکفیر أبی طالب رغم کلِّ هـذه الأشـعار والأقوال، والمواقف الصادقه، بل لم یکتفوا بـذلک، فادّعوا نزول آیات من القرآن تدلّ علی کفره، وشرکه!!!

الطریق الثانی: دفاع أبی طالب عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم وحمایته له

اشاره

إنّ الطریق الثانی للبرهنه والتدلیل علی إیمان «أبی طالب» هو مواقفه من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وکیفیه دفاعه وذبه عنه و حمایته له، وحدبه علیه صلی الله علیه و آله و سلم وما قام به من خدمات جلیله فی هذا الطریق.

إنّ کـلّ واحـده من هـذه الخـدمات تسـتطیع بمفردهـا أن تکون المرآه الصادقه الّتی تعکس فکر «أبی طالب» وعقیـدته وما کان یحمله بین جوانحه من إیمان بالرساله والرسول، وإخلاص للّه تعالی.

لقد کان «أبوطالب» هو ذلکم الشخصـیه الّتی لم یرض لنفسه بأن ینکسـر قلب ابن أخیه لترکه فی مکّه، واصـطحبه معه إلی الشام فی الرحله التجـاریه الّتی سـبق ذکرهـا، رغم الموانع الکـثیره، وفقـدان الوسائـل اللاـزمه، ورغم مـا تَرتّب علی اصـطحابه معه من متاعب.

إنّ ایمانه بابن أخیه کان عمیقاً إلی درجه أنّه أخذه إلی المصلّی واستسـقی به، مقسـماً به علی اللّه تعالی أن یکشف العذاب عن قومه، ویرسل رحمته علیهم، فیستجیب اللّه دعاءه، وینزل علیهم غیثاً وافراً ممرعاً، بقیت قصته فی ذاکره التاریخ.

إنّه ذلـك الرجل الّذى لم يفتأ عن الحفاظ على حياه رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم لحظه واحـده، فهو الّذى تحمّل فى سبيله ثلاـثه أعوام عجـاف من الحصـار الاقتصـادى والاجتماعى الصـعب، مؤثراً العيش فى الشـعب وفى شـغاف الجبال والوديان القاحله على زعامه قريش، ورئاسه مكّه إلى أن أعيته تلك المحن والمتاعب ففقد بذلك صحّته، وانحرف بذلك مزاجه، وتوفّى متأثراً بتلك المتاعب والمصاعب، والمشاق والمحن بعد نقض الصحيفه، وانتهاء الحصار، والعوده إلى المنازل بأيام معدوده!!

لقد كان إيمان «أبى طالب» برسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم قوياً وراسخاً إلى درجه أنّه رضى بأن يتعرّض كل أبنائه لخطر القتل والاغتيال ليبقى «محمّد» ولا يمسُّه من أعدائه أى سوء، فكان يُضـجِع ولده علياً فى موضعه، حتّى إذا أرادوا إغتياله لا يصيبه شىء، وهذا يعنى أنّه كان يقيه بنفسه وبأولاده.

وفوق هذا كلّه استعدَّ فى يوم من الأيام لأن يقتل كلّ زعماء قريش وأسـيادها انتقاماً لمحمّد، وكان من الطبيعى أن يقتل فى هذا العمليه بنو هاشم كلُّهم أيضاً.(۱)

وصيه أبى طالب عند وفاته

وعند وفاته قال لأولاده:

«أُوصـيكم بمحمّـد خيراً فإنّه الأمينُ فى قُريش، وهو الجامعُ لكلّ ما أُوصـيكم به، وقـد جاءَ بأمرٍ قبله الجَنان، وأنكره اللِسان مخافه الشـنئان، وأيم اللّه لكأنّى انظرُ إلى صعاليك العرب، وأهل البرّ فى الأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدّقوا كلمته، وعظّموا أمره فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش و صـناديدها أذناباً، ودُورُها خراباً، وضُعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه

۱- . راجع الصفحه ۵۷۸ من هذا الكتاب.

أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده...».

ثم ختم وصيته هذه بقوله:

يا معشر قريش كونوا له ولاةً، ولحزبه حماةً، واللّه لا يسلك أحدٌ منكم سبيله إلّا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلّاسعد.(۱)

نحن لا نشكّ فی أنّ «أبا طالب» كان صادقاً فی أُمنيّته هذه لأنّ خدماته الكبری وتضحياته المتواصله خلال عشر سنوات من بدايه عهـد الرساله شاهـده علی صـدق مقاله، كما كان صادقاً فی الوعد الّذی قطعه علی نفسه لابن أخيه (محمّد) فی مبدأ البعثه عندما جمع رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم أعمامه وعشيرته الأقربين ودعاهم إلی الإسلام فقال له أبوطالب:

«اُخرج يا ابن أخی فإنّكَ الرفيعُ كعباً، والمنيع حزباً، والأعلی أباً.

واللّهِ لا يَسلِقُك لسانٌ إلّاسلَقتهُ ألسن حِداد، واجتذَبته سيوفُ حداد.

واللّهِ لَتَذلَنَّ لَكَ العربُ ذلَّ البُهم لحاضِنها».(۲)

***

الطريق الثالث: رأی أقربائه وأصدقائه

ويحسن بنا أخيراً أن نسأل عن أبی طالب وعن إيمانه وإخلاصه، أقاربَه غير المغرضين لأنّ «أهل البيت أدری بما فی البيت».

۱ – لمّا مات أبوطالب جاء علیٌ عليه السلام إلی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فآذنه بموته، فتوجّع

۱– . السيره الحلبيه: ۲/۴۹–۵۰.

۲– . الطرائف تـأليف السـيد ابن طـاووس: ۳۰۲ برقم ۳۸۸، نقلاً ـ عن كتـاب «نهـايه الطلب وغـايه السؤول فی مناقب آل الرسول» تأليف إبراهيم بن علی الدينوری الحنبلی.

توجّعاً عظيماً، وحزن حزناً شديداً، ثم قال له: امض فتولّ غسله فإذا رفعته على سريره فأعلمنى، ففعل، فاعترضه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو محمول على رؤوس الرجال: قال: «وصلتك رحم يا عم، وجزيت خيراً فلقد ربّيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً».

ثم تبعه إلى حفرته، فوقف عليه فقال:

«أما واللّه لأستغفرنَّ لك، ولأشفعنَّ فيك شفاعةً يعجبُ لها الثقلان».(۱)

۲. روى أنّ على بن الحسين عليهما السلام سئل عن إيمان أبى طالب؟ فقال:

«واعجباً! إنّ اللّه تعالى نهى رسوله أن يقرّ مسلمه على نكاح كافر، وقد كانت فاطمه بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تَزَل تحتَ أبى طالب حتّى مات».(۲)

۳. روى عن محمّد بن على الباقر عليهما السلام أنّه قال:

«لو وُضِعَ إيمان أبى طالِب فى كفّه ميزان، وإيمانُ هذا الخلقِ فى الكفّه الأُخرى لرجح إيمانه».

ثم قال:

«ألم تَعلَموا أنَّ أميرَالمؤمنين عليّاً عليه السلام كانَ يأمر أن يُحجَّ عن عَبدِاللّه وَأبيه أبى طالب فى حياته، ثم أوصى فى وصيّته بالحج عنهم».(۳)

۴. قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام:

«إنَّ أصحاب الكَهف أسَرُّوا الإيمان، وأَظهَروا الشركَ فآتاهُمُ اللّهُ أجرَهم

۱- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۱۴/۷۶.

۲- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۱۴/۶۹.

۳- . شرح نهج البلاغه: ۱۴/۶۸.

مرّتين، وإنّ أبا طالِب أسرّ الإيمان، وأظهر الشرك، فآتاه اللّه أجرَه مَرّتين».(۱)

رأى علماء الشيعه فى أبى طالب

ولقد اتّفقَ علماءُ الإماميّه والزيديّه تبعاً لأهل بيت النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم على: أنّ «أبا طالب» كان من أبرز المؤمنين برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ولم يخرج من الدنيا إلّابقلب يفيض إيماناً بالإسلام، وإخلاصاً للّه تعالى، وحبّاً للمسلمين، وقد أُلِّفَت فى هذا المجال كتب ورسائل، ودراسات عديده، يمكن الوقوف عليها لمن أراد.(۲)

نظره إلى حديث «الضحضاح»

اشاره

واستكمالاً لهذا الحديث ينبغى أن نلقى نظره إلى روايه تشكّك فى إيمان أبى طالب، فقد روى بعض الكتّاب مثل البخارى، ومسلم عن رواه نظير سفيان بن سعيد الثورى، عبدالملك بن عمير، عبدالعزيز بن محمّد الدراوردى حديثاً نسبوه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال عن أبى طالب رحمه اللّه:

«وجدتُه فى غمرات من النّارِ فأخرجتُه إلى ضحضاحٍ».(۳)

«لعلّهُ تنفعُه شفاعَتى يومَ القيامه فيجعَلُ فى ضَحضاحٍ منَ النّار يبلغُ كعبَيه، يغلى منهُ دماغُهُ».(۴)

إنّ هذه الروايه وإن كانت تكذّبها عشرات الأحاديث والروايات الإسلاميه، والدلائل القاطعه الساطعه، وتثبت بطلانها وتفاهتها، ولكنّنا بهدف الوصول إلى

۱- . شرح نهج البلاغه: ۱۴/۷۰؛ بحار الأنوار: ۳۵/۱۱۱.

۲- . راجع: الغدير: ۷/۳۳۰-۴۰۹، طبعه دار الكتاب العربى، بيروت؛ وص ۴۰۲-۴۰۴ طبعه النجف الأشرف.

۳- . صحيح مسلم: ۱/۱۳۵، باب أهون أهل النار عذاباً، كتاب الإيمان.

۴- . صحيح البخارى: ۴/۲۴۷، باب قصه أبى طالب.

مزید من التوضیح نعمد إلی دراسه أمرین مرتبطین بهذا الحدیث.

۱. ضعف أسناد هذه الروایه

إنّ رواه هذه الروایه - کما أسلفنا - هم عباره عن سفیان بن سعید الثوری وعبدالملک بن عمیر و عبدالعزیز بن محمّد الدراوردی الذین سندرس أحوالهم واحداً واحداً علی ضوء أقوال علماء الرجال المعترف بهم عند أهل السنّه، حیث قالوا:

ألف. سفیان بن سعید الثوری

قال أبوعبداللّه محمد بن أحمد بن عثمان الذهبی - وهو من علماء الرجال البارزین عند أهل السنّه - فی سفیان الثوری: کان یدلّس عن الضعفاء.(۱)

إنّ هذا الکلام شاهد قوی علی وجود التدلیس عند الثوری، وعلی روایته عن الضعفاء أو المجهولین، وهو وصف یُسقطه عن درجه الاعتبار.

ب. عبدالملک بن عمیر

قال عنه الذهبیّ: طال عُمره وساء حفظُه، قال أبو حاتم: لیس بحافظ، تغیّر حفظه، وقال أحمد: ضعیف یغلط، وقال ابن معین: مخلط، وقال ابن خراش: کان شعبه لا یرضاه، وذکر الکوسج عن أحمد بن حنبل: أنّه ضعیف جداً.(۲)

فمن مجموع هذه العبارات نعرف أنّ عبدالملک کان یتّصف بصفات عدیده هی أنّه:

۱. سیّئ الحفظ.

۱- . میزان الاعتدال: ۲/۱۶۹.

۲- . میزان الاعتدال: ۲/۶۶۰.

۲. ضَعیف.

۳. کثیر الغلط.

۴. مخلط.

ومن الواضح أنّ کلّ واحده من الصفات والحالات المذکوره کافیه لأن تبطلَ الأحادیث الّتی یرویها عبدالملک بن عمیر، والحال أنّه قد اجتمعت جمیع نقاط الضعف هذه فی هذا الرجل. ج. عبدالعزیز بن محمد الدراوردی

ولقد وصفَهُ علماء الرجال عند أهل السنّه بالنسیان، وقلّه الحفظ فلا یمکن الاستناد إلی مروایاته.

فقد قال أحمد بن حنبل عنه: إذا حدّث من حفظه جاء بأباطیل.

وقال أبو حاتم عنه: لا یُحتَجُّ به.

وقال أبو زرعه أیضاً: سیّئ الحفظ.(۱) ومن مجموعه هذه العبارات یتّضح بجلاء أنّ الرواه الأصلیّین لحدیث الضحضاح ضعفاء فی غایه الضعف، إلی درجه لا یمکن الاعتماد علی مروایاتهم.

۲. نصّ حدیث الضحضاح یخالف الکتاب والسنّه

لقد نُسِب إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی هذه الروایه أنّه أخرج أبا طالب من نار جهنم إلی ضحضاح وبهذا خفَّفَ عنه العذاب، أو أنّه صلی الله علیه و آله و سلم تمنّی أن یشفع له، فیخفِّفَ اللّهُ عنه العذابَ، علی حین نفی القرآنُ الکریم والسنّه النبویه الشریفه تخفیف العذاب عن الکفّار کما ونفیا شفاعه أحد فی حقّهم.

۱- . میزان الاعتدال: ۲/۶۳۴.

وعلى هذا الأساس فلو كان أبوطالب كافراً، لم يجز للنبيّ صلى الله عليه و آله و سلم أن يخفّف عنه العذاب، أو يتمنّى له الشفاعه فى يوم الجزاء.

وبهذا يظهر بطلان محتوى حديث الضحضاح.

وإليك فيما يأتى أدلّه ما قلناه من الكتاب والسنّه:

ألف: القرآن الكريم

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد:

«وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ» .(۱)

ب: السنّه النبويه

إنّ السنّه النبويه الطاهره تنفى أيضاً الشفاعه للكفّار، ونذكر من باب النموذج بعض تلك الأحاديث:

۱. روى أبوذر الغفارى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال:

«أُعطيت الشفاعه وهى نائله من أُمّتى مَن لا يشرك باللّه شيئاً».(۲)

۲. روى أبو هريره عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال:

«وشفاعتى لمَن شهد أن لا اله إلّااللّه مخلصاً، وأنَّ محمّداً رسول اللّه يصدِّق لسانُه قلبَه، وقلبُه لسانَه».(۳)

إنّ الآيات والروايات المذكوره تثبت بوضوح بطلان نصّ حديث

۱- . فاطر: ۳۶.

۲- . مسند أحمد: ۵/۱۶۲؛ الترغيب والترهيب: ۴/۴۳۳.

۳- . مسند أحمد: ۲/۳۰۷؛ الترغيب والترهيب: ۴/۴۳۷.

الضحضاح عند مَن يقول بأنّ أبا طالب مات كافراً.

ونتيجه البحث: أنّه تبيّن ممّا ذكر أنّ حديث الضحضاح لا أساس له من الصحّه لا من جهه السند والطريق، ولا من جهه المتن والنصّ، ولا يمكن الاستدلال به.

وبهذا ينهار أقوى حصن يتمسّكُ به البعض للخدشه فى إيمان أبى طالب الثابت المسلّم.

ص:٥٩٢

۲۳ المعراج

المعراج فی نظر القرآن والسنّه والتاریخ

کان اللیل یخیم علی الأُفق، ویسودُ الظلام علی کلّ مکان.

فقد حان الأوانُ لأن ترقدَ جمیع الأحیاء فی مساکنها، وتستریح فی جحورها وأعشاشها، وتغمض الأجفان لبعض الساعات عن مظاهر الطبیعه، لتستعید نشاطها من أجل العمل فی یوم جدیدٍ حافلٍ بالنشاط والحرکه والسعی.

فذلک قانون الطبیعه فی کلِّ لیلٍ ونهارٍ.

ولم یکن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بمستثنی عن هذا الناموس الطبیعی.

فهو صلی الله علیه و آله و سلم مضی لیستریح بعد أن صلّی صلاه العتمه أیضاً.

ولکنّه فجأهً سمع صوتاً مألوفاً مأنوساً له، وکان ذلک هو صوت أمین الوحی «جبرئیل» وهو یخبره بأنّ أمامه اللیله سفراً بعیداً ورحله طویله، وأنّه سیرافقه فی هذا الرحله إلی مختلف نقاط الکون، وسیسافر علی متن دابه فضائیه تدعی «البراق».

لقد بدأ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم رحلته الفضائیه العظیمه من بیت أُخت علی بن أبی طالب(۱) «أُمّ هانی»، وتوجّه علی متن تلک الدابه إلی «بیت المقدس» فی الأردن

۱- . لاحظ: مجمع البیان: ۶/۲۱۷.

وفلسطين والّذى يُسمّى «المسجد الأقصى» أيضاً، وهبط فى تلك النقطه بعد مده قصيره جداً، وزار مواضع عديده من ذلك المسجد، وتفقّد «بيت لحم» مسقط رأس «السيد المسيح» ومنازل الأنبياء وآثارهم ومحاريبهم، وصلّى عند كلّ محراب من بعض تلك المحاريب ركعتين.

ثم بدأ بعد ذلك القسم الثانى من رحلته، حيث عرج من ذلك المكان إلى السماوات العلى، وشاهد النجوم والكواكب، واطّلع على نظام العالم العلوى، وتحدّث مع أرواح الأنبياء، والملائكه السماويّين، واطّلع على مراكز الرحمه والعذاب (الجنه والنار)(۱) ورأى درجات أهل الجنه، وأشباح أهل النار عن كثب، وبالتالى تعرف على أسرار الوجود، ورموز الطبيعه، ووقف على سعه الكون، وآثار القدره الإلهيّه المطلقه، ثم واصل رحلته حتّى بلغ إلى سدره المنتهى(۲)، فوجَدها مسربله بالعظمه المتناهيه والجلال العظيم وعندها انتهى برنامج رحلته صلى الله عليه و آله و سلم، فأمر بأن يعود من حيث أتى فعاد صلى الله عليه و آله و سلم ومرّ فى عودته على بيت المقدس ثانيه، ثم توجّه منه إلى «مكّه»، ومرّ خلال الطريق على قافله تجاريه لقريش وقد ضلّ بعير لهم فى البيداء وكانوا يبحثون عنه، ثم وجد فى رحلهم قعباً مملوء من الماء فشرب منه وصبَّ بقيته على الأرض أو غطاه كما كان بناء على روايه. وترجّل عن مركبته الفضائيه العجيبه فى بيت «أُمّ هانى» قبيل طلوع الفجر، وأخبرها بالخبر قبل أى أحد، ثم كشف عن هذا الحادث فى أنديه قريش صباح نفس تلك الليله.

فاستبعد السامعون قصه المعراج والحركه السريعه هذه، واعتبروه أمراً محالاً وأنكروه، وفشا هذا الخبر فى جميع الأوساط وغضب بسببه أشراف قريش وساداتهم أكثر من غيرهم.

۱- . لاحظ: مجمع البيان: سوره الإسراء: ۶/۲۱۵.

۲- . لتوضيح معنى سدره المنتهى راجع كتب التفسير.

وكعادتها بادرت قريش إلى تكذيب هذه القصّه وقالوا: هذا واللّه الأمر البيّن (العجيب المنكر) واللّه إنّ العير لتطّرد شهراً من مكّه إلى الشام مدبره، وشهراً مقبله، أفيذهب ذلك «محمّدٌ» فى ليله واحده؟

وقالوا: إن صدقَتَ فصف لنا بيتَ المقدس، فإنّ فينا من شاهدهُ.

فلم يصف لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بيت المقدس فحسب بل أخبرهم بكلّ مامرّ به وفعله ورآه فى طريق عودته من بيت المقدس إلى «مكّه» وقال: وآيه ذلك أنّى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا، وقد ضلّ لهم بعير وقد همّوا فى طلبه، وشربت من ماء فى آنيه لهم مغطاه بغطاء ثم غطّيت عليها كما كان، ثم مررتُ بعير بنى فلان وقد نفّرت لهم ناقه وانكسرت يدها.

فقالت قريش: أخبرنا عن عير قريش.

فقال صلى الله عليه و آله و سلم: إنَّها الآن فى التنعيم (وهو مبدأ الحرم) يتقدّمها جمل أورق (أبيض مائل إلى السواد) عليه غرارتان وستدخل الآن مكّه.

فغضبت قريش من هذه الأخبار القاطعه وقالت: سنعلمنَّ الآن صِدقه أو كِذبه.

ثم لم تمض لحظاتٌ إلّاوطلعت العير عليهم، وحدَّثهم أبوسفيان بكلّ ما أخبرهم به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من ضياع بعيرٍ لهم فى الطريق وهمّهم فى طلبه، وأنّهم وضعوا ماء مملوء فغطوه ولمّا رجعوا وجدوه مغطّى كما غطوه ولكن لم يجدوا فيه ماءً.

هذه هى خلاصه ما جاء فى كتب التفسير، والتاريخ، والحديث حول المعراج.

وإذا أراد القارئ الكريم أن يقف على تفاصيل أكثر فى هذا المجال فما عليه

إلّا أن يراجع بحارالأنوار باب «المعراج».(۱)

هل للمعراج جذور قرآنيه؟

لقد جاءَ ذكر «المعراج» وسير الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم العجيب فى العالم العلوى، والفضاء غير المتناهى فى سورتين من القرآن الكريم بشكل واضح وصريح كما وأُشير إليه فى سور أُخرى أيضاً. ونحن نكتفى هنا باستعراض الآيات الّتى ذكرت هذه القضيّه بصورهٍ واضحهٍ، ونقف عند بعض النقاط الجديره بالدراسه فيها:

يقول اللّه تعالى فى سوره الإسراء:

«سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (۲).

ويستفاد من ظاهر هذه الآيه أُمور:

۱. لكى نعلم بأنَّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لم يطو تلك المسافات، ولم يقم برحلته إلى تلك العوالم بقوّه بشريه، بل تسنّى له كلُّ ذلك بقوه غيبيّه، فبها استطاع أن يطوى تلك المسافات البعيده فى زمن قصير جداً بدأ اللّه تعالى حديثه عن الإسراء بقوله:

«سُبْحانَ الَّذِى» وهو إشاره إلى تنزيه اللّه عن كلِّ نقص وعيب.

ولم يكتف بذلك بل وصف نفسَه بوضوح بأنّه هو تعالى سبب هذه الرحله والمسيّرُ فيها إذ قال: «أَسْرى» : أى إنَّ اللّه تعالى هو الّذى سرى برسوله صلى الله عليه و آله و سلم، وأخذه إلى تلك الرحله.

وهذه العنايه لأجل أن لا يتصوّر الناس بأنّ هذه الرحله تحقّقت بالوسائل

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۸/۲۸۳-۴۱۰؛ السيره النبويه: ۲/۲۷۳-۲۷۶.

۲- . الإسراء: ۱.

العادیه، وحسب القوانین الطبیعیه لیتسنّی لهم إنکارها، إنما تحقّقت بقدره اللّه وعنایته الربوبیه الخاصّه.

۲. إنّ هذه الرحله تحقّقت برمّتها خلال اللیل، ویستفاد هذا المطلب - علاوه علی کلمه لیلاً - من کلمه «أَسْری» أیضاً؛ لأنّ العرب کانت تستعمل اللفظه المذکوره فی السیر لیلاً.

۳. مع أنّ هذه الرحله بدأت من بیت «أُمّ هانی» ابنه أبی طالب، فإنّ الآیه صرّحت بأنّها تَمَّت من المسجد الحرام، ولعلّ هذا لأنّ العرب کانت تعتبر کلّ مکّه حرماً إلهیاً، ومن هنا کان کلّ مکان من مکّه یتمتّع عندهم بحکم الحرم والمسجد الحرام، فیکون المراد بالمسجد الحرام هنا مکّه، ومکّه والحرم کلّها مسجد، فصحَّ أن یقول: «مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» .

وتَذهب بعض الروایات إلی أنَّ المعراج کان من نَفس المسجد الحرام.

ثم إنَّ هذه الآیه وإن کانت تصرّح بأنَّ المعراج بدأ من «المسجد الحرام» وانتهی ب: «المجسد الأقصی» إلّاأنّ ذلک لا ینافی أن یکون للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم رحله أُخری إلی العالم العُلوی؛ لأنّ هذه الآیه تبیّن فقط قسماً من هذه الرحله، وأمّا القسم الآخر من برنامج هذه الرحله فتتعرض لذکره آیات فی مطلع سوره «النجم».

۴. إنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم عرج بجسمه وروحه معاً، لا بالروح فقط.

ویدلُّ علی ذلک قوله تعالی «بِعَبْدِهِ» الّذی یُستَعمل فی «الجسم والروح معاً» ولو کان المعراج بالروح فقط لزم أن یقول: «بروحه».

۵. إنَّ الغرض من هذا السیر العظیم وهذه الرحله العجیبه هو إیقاف النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم علی مراتب الوجود، وإطّلاعه علی الکون العظیم، وهذا ما سنشرحه فیما بعد.

وأمّا السوره الأُخری الّتی تعرض لبیان حادثه المعراج بوضوح و صراحه

هی سوره «النجم».

والآیات الّتی سندرجها هنا من هذه السوره نزلت علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عندما قال لقریش: «رأیت جبرئیلَ أوّل ما أُوحی إلی علی صورته الّتی خُلِقَ علیها» جادلته قریش فی ذلک، فنزلتِ الآیات التالیه تجیب علی اعتراضهم:

«أَ فَتُمارُونَهُ عَلی ما یَری * وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَهً أُخْری * عِنْدَ سِدْرَهِ الْمُنْتَهی * عِنْدَها جَنَّهُ الْمَأْوی * إِذْ یَغْشَی السِّدْرَهَ ما یَغْشی * ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی * لَقَدْ رَأی مِنْ آیاتِ رَبِّهِ الْکُبْری» .(۱)

أحادیث المعراج:

روی المفسّرون والمحدّثون أخباراً وروایات کثیره حول معراج النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وما شاهده فی هذه الرحله العظیمه، لیست برمّتها صحیحه مُسَلَّمه مقطوعاً بها.

ولقد قسّم المفسّر الشیعیُ الکبیر المرحومُ «العلّامه الطبرسیّ» هذه الأخبار إلی أصناف أربعه إذ قال: وتنقسم جملتها إلی أربعه أوجه:

أحدها: ما یقطع علی صحّته لتواتر الأخبار به، وإحاطه العلم بصحّته (مثل أصل المعراج).

وثانیها: ما ورد فی ذلک ممّا تجوّزه العقول ولا تأباه الأُصول (مثل طوافه فی السماء ورؤیته أرواح الأنبیاء وتحدّثه معهم ورؤیته للجنه والنار)، فنحن نجوّزه ثم نقطع علی أنّ ذلک کان فی یقظته، دون منامه.

وثالثها: ما یکون ظاهره مخالفاً لبعض الأُصول، إلّاأنّه یمکن تأویلها علی

۱- . النجم: ۱۲-۱۸.

وجهٍ يوافق المعقول، فالأولى أن نؤوّله على ما يطابق الحقّ والدليل. (مثل أنّه رأى أهل الجنه وأهل النار وتحدّث معهما الّذى يجب أن يؤوّل فيُحمل على أنّه: رأى أشباحهم وصورَهُم وَ صفاتهم).

ورابعها: ما لا يصحّ ظاهره ولا يمكن تأويله إلّاعلى التعسف البعيد، (وهى ما أُلصِق وأُلحق بهذه الحادثه من الأساطير والخرافات، مثل ما روى من أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كلّم اللّه سبحانه جهرةً ورآه وقعد معه على سريره أو سمع صرير قلمه، ونحو ذلك ممّا يوجب ظاهره التشبيه والتجسيم واللّه سبحانه يتقدّس عن ذلك كلّه)، فالأولى أن لا نقبله.(۱)

***

متى وَقَعت هذه الحادثه؟

مع أنّ أهميّه هذه الحادثه العجيبه كانت تستوجب أن تكون مضبوطه التفاصيل من جميع الجهات، إلّاأنّها تعرّضت للاختلاف – مع ذلك – من بعض الجهات و منها تحديد تاريخ وقوعها.

فقد ادّعى كاتبا السيره المعروفان: «ابن إسحاق» و «ابن هشام» أنّها وقعت فى السنه العاشره من البعثه الشريفه.

وذهب المؤرّخ الكبير «البيهقى» إلى أنّها وقعت فى السنه الثانيه عشره من البعثه.

وذهب آخرُون إلى أنّها وقعت فى أوائل البعثه، بينما قال فريق رابع: إنّها وقعت فى أواسطها.

وربّما يقال فى الجمع بين هذه الأقوال: إنّه كان لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم معارج

۱- . مجمع البيان: ۶/۲۱۵.

متعدّده.

ولكنّنا نعتقد أنّ المعراج الّذى فُرِضَت فيه الصلاه وَقع بعد وفاه أبى طالب عليه السلام فى السنه العاشره قطعاً.

لأنّ من مسلَّمات الحديث والتاريخ أنّ اللّه تعالى أمر نبيّه صلى الله عليه و آله و سلم فى ليله المعراج أن تصلّى أُمّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كلَّ يوم وليله خمس صلوات.

كما أنّه يُستفاد من ثنايا التاريخ أيضاً أنّ الصلاه لم تُفرَض مادام أبوطالب عليه السلام على قيد الحياه، بل فُرِضت بعد وفاته، لأنّه حضر عنده - ساعه وفاته - سراه قُريش وأسيادها، وطلبوا منه أن يبت لهم فى أمر ابن أخيه «محمّد» ويمنعه من فعله، فيعطونه - فى قبال ذلك - ما يريد فقال لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى ذلك المجلس: نعم كلمه واحده تعطونيها: «تقولون لا إله إلّااللّه وتخلعون ما تعبدون من دونه».(۱)

لقد طلب منهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هذا الأمر ولم يطلب منهم شيئاً آخر كالصلاه وغيرها من الفُروع أبداً، وهذا هو بنفسه يدلّ على أنّه لم تجب الصلاه حتّى ذلك اليوم، وإلّا كان الإيمان المجرّد عن العمل، والصلاه مفروضه، لا فائده فيه.

وأمّا أنّه لم يذكر شيئاً عن نبُوّته ورسالته فلأنّ الإعتراف بوحدانيه اللّه بأمره وطلبه صلى الله عليه و آله و سلم إعتراف ضِمنىّ برسالته ونبوّته، وفى الحقيقه أنَّ التلفُّظ بهذه العبارات بأمره يتضمّن شهادتين وإقرارين: الإقرار باللّهِ الواحد، والإقرار بنبوّه رسول الإسلام.

هذا مضافاً إلى أن كُتّاب السيره ذكروا كيفيه إسلام جماعه مثل «الطفيل بن عمرو الدوسى» الّذى أسلم قبل الهجره(۲) بأعوام اكتفى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بالشهادتين،

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۲/۲۸۳.

۲- . السيره النبويه: ۱/۲۵۶.

ولم يجر أی حديث عن الصلاه أبداً.

إنّ هذه الأمثله تكشف عن أنّ هذه الحادثه (المعراج) الّتی فُرضت فيها الصلاه وقعت قبل الهجره بسنوات.

والـذين تصوّروا أنّ المعراج وقع قبل السـنه العاشـره مخطئون خطأ كبيراً، لأنّ النبیّ صـلی الله عليه و آله و سـلم كان محصوراً فی شعب أبی طـالب منـذ السـنه الثامنه وحتّی السـنه العاشـره، ولم يكن وضع المسـلمين ليسـمح بفرض تكليف زائـد (مثل الصـلاه) عليهم.

وأمّـا سـنوات مـا قبـل الحصـار فعلاـوه علی ضـغوط قريش علی المسـلمين والّتی كانت هی بنفسـها مانعاً من فرض الصـلاه علی المسـلمين، كان المسلمون قلّةً معدودين، ولم يكن نورُ الإيمان، وأُصول الإسلام قد ترسّخت فی قلوب ذلك العدد القليل بشكل قوی بعد، ولذلك يكون من المستبعد أن يكلّفوا بأمر زائدٍ مثل الصلاه فی مثل ذلك الظرف.

وأمّا ما ورد فی بعض الأخبار والروايات من أنّ الإمام علياً عليه السـلام صلّی مع رسول اللّه قبل البعثه بثلاث سنوات، واستمر علی ذلك بعدها أيضاً فليس المراد منها الصـلوات المحدوده المؤقته بوقت، المشروطه بشروط خاصّه، بل كانت تلك الصلوات عباره من عباده خاصه غير محدوده(۱)، أو كان المراد منها الصلوات المندوبه والعبادات غير الواجبه.

۱- . للمزيد من التحقيق فی تاريخ وجوب الوضوء والصلاه والأذان يراجع الكافی: ۳/۴۸۲-۴۸۹.

هل كان المعراج جسمانياً؟

لقد وقع النقاش والكلام فى كيفيه معراج النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وأنّه هل كان روحانياً، أو جسمانياً وروحانياً معاً؟ وقيل فى ذلك كلام كثير.

ومع أنّ القرآن الكريم والأحاديث تشهد بجلاء لا غموض فيه بأن معراجه صلى الله عليه و آله و سلم كان جسمانياً(۱)، فقد أُوردت فى المقام بعض الإشكالات والاعتراضات الّتى منعت البعض عن قبول هذه الحقيقه، وبالتالى دفعتهم إلى ارتكاب التأويل، والزعم بأنّ معراج النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كان روحانياً، أى بالروح لا بالجسم.

لقد قال هؤلاء: إنّ روح النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم هى الّتى طافت فى تلك العوالم ثم عادت إلى جسد النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم مره أُخرى!! وذهب جماعه إلى أبعد من ذلك إذ ادّعوا بأنّ جميع هذه المشاهدات والقضايا تمّت لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى عالم الرؤيا، فكلّ ما رآه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أو فعله من الطواف واللقاء والصلاه كانت رؤيا، ورؤيا الأنبياء صادقه!!

على أنّ أقوال الفريق الأخير من البعد عن الواقع بحيث لا يمكن ذكره فى عداد الأقوال والنظريات أبداً، لأنَّ قريش بعد أن سمعت من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ادّعاءه بأنّه سار كلّ تلك المسافه الطويله البعيده، وطاف على كلّ تلك الأماكن المتباعده العديده فى ليله واحده انزعجت بشدّه وهبّت لتكذيبه حقيقه، إلى درجه أنّ خبر المعراج أصبح حديث الساعه فى نوادى قريش وأوساطها آنذاك.

ولو كان كلّ ذلك تحقّق للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى المنام والرؤيا لما كان لتكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها معنى، إذ لا موجب للنزاع لو كان صلى الله عليه و آله و سلم يقول: إنّى فعلت تلك الأُمور، ورأيت تلك المشاهد فى الرؤيا والمنام، إذ هو على كلّ حال رؤيا،

۱- . لقد نقل الفقيه الجليل العلّامه الشيعىّ المرحوم الطبرسى فى تفسيره «مجمع البيان» إجماع علماء الشيعه على جسمانيه المعراج فراجع: ۶/۲۱۵.

وكلّ شيء - حتّى الأمور المحاله أوالمستبعده جداً - ممكن فى عالم الرؤيا.

ومن هنا لا قيمه للقول الأخير أصلاً فلا يستحقّ المتابعه أصلاً.

ولكن مع الأسف استحسن بعض العلماء المصريّين (مثل فريد وجدى) هذا الرأى وسعى فى تقويته وتبريره، ونحن نحبذ أن نتركه، وأن لا نناقش فيه.(١)

ما هو المراد من المعراج الروحانى؟

لقد عمد فريق ممّن عجز عن دفع وحلّ بعض الاعتراضات والإشكالات الوارده على المعراج الجسمانى، إلى تأويل الآيات والأحاديث، واعتبر المعراج النبوى معراجاً روحانياً، لا غير.

والمقصود من المعراج الروحانىّ هو التدبّر فى مخلوقات اللّه ومصنوعاته، ومشاهده جلاله وجماله والاستغراق فى ذكر الحقّ، والتفكّر فيه، وبالتالى التخلّص من القيود والأغلال الماديه، والعلائق الدنيويه، والعبور من المراتب الإمكانيه فى المراحل الباطنيه والقلبيه الّتى يحصل بعد طيّها نوعٌ من القرب الخاص الّذى لا يمكن وصفه.

فإذا كان المراد من (المعراج الروحانىّ) هو التفكّر فى عظمه الحقّ وسعه الخلق و.. و.. فلا شك أنّ هذا ليس من مختصّات رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم بل كان أكثر الأنبياء، وكثير من الأولياء من ذوى البصائر القويّه الطاهره يمتلكون هذه المرتبه، على حين أنّ القرآن الكريم يعتبر (المعراج) من خصائص رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويذكره على أنّه نوع من الامتياز الخاص به صلى الله عليه و آله و سلم.

هذا مضافا إلى أنّ مثل هذه الحاله (أعنى: التفكّر فى عظمه الخالق

١- . يلاحظ: دائره معارف القرن العشرين: ٦/٣٢٩، ماده «عرج».

والاستغراق فی التوجّه إلی الحقّ) کانت تتکرّر لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی کلّ لیله(۱)، والحال أنّ (المعراج) الّذی هو محط الکلام قد وقع فی لیلهٍ معیّنه.

إنّ ما دفع بهذا الفریق إلی اتّخاذ مثل هذا الموقف من (المعراج)، وآل بهم اختیار هذا الرأی هو فرضیه الفلکی الیونانی المعروف «بطلمیوس» الّتی کانت سائده فی الأوساط العلمیه فی الشرق والغرب طیله ألفی سنه بالکامل، والّتی أُلّف حولها مئات الکتب، وکانت تعدُّ حتّی حین من المسلّمات فی مجال العلوم الطبیعیه وهی علی نحو الإجمال کالتالی:

إنّ الأجسام فی هذا العالم علی نوعین: أجسام عنصریه، وأجسام فلکیه.

والجسم العنصری هی العناصر الأربعه المعروفه: «الماء، والتراب، والهواء، والنار».

وأوّل کره تبدو لنا هی کره التراب وهی مرکزُ العالم، ثم تلیها کره الماء ثم کره الهواء، وتأتی بعد کلّ هذه الثلاثه کره النار، وکلٌّ من هذه الکرات محیطه بالأُخری، وهنا (أی وعند کره النار) تنتهی الکرات، وتبدأ الأجسام الفلکیه.

والمقصود من الأجسام الفلکیّه هیَ الأفلاکُ التسعه الّتی تقع الواحده فوق الأُخری وتحیط الواحده بالأُخری علی هیئه قشور البصل، وهی متّصله بعضها ببعض من دون فاصله بینها وهی غیر قابله للاختراق والالتئام (أی الشق والالتحام) والفصل والوصل ولا یستطیع أیّ شیء من اختراقها والتحرّک فیها بصوره مستقیمه؛ لأنّ ذلک یستلزم انفصام أجزاء الفلک.

من هنا یکون المعراج الجسمانی مستلزماً لأن ینطلق النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم من مرکز العالم ویصعد بصوره مستقیمه إلی الأعلی عابراً الکرات العنصریه الأربع، ومخترقا

۱- . راجع وسائل الشیعه: ج ۷، الباب ۴ من أبواب الصوم المحرّم والمکروه، الحدیث ۴. قال صلی الله علیه و آله و سلم: «إنّی لست کأحدکم، أنّی أظل عند ربّی فیطعمنی ویسقینی».

الأفلاک التسعه الواحد تلو الآخر، بینما یستحیل خرق هذه الأفلاک ثم التحامها حسب نظریه بطلمیوس وفرضیّته الفلکیه.

وعلی هـذا لاـ منـاص من أن نعتقـد بـأنّ المعراج النبویّ کان معراجاً روحانیاً، أی أنّ روحه صـلی الله علیه و آله و سـلم هی الّتی عرجت حتّی لا یمنع أیُّ جسم من عبورها وسیرها وصعودها إلی النقطه المطلوبه والغایه المرسومه.

الجواب:

إنّ هـذا الکلاـم کان مقبولاً وذا قیمه عنـد ما کانت هیئه بطلمیوس وفرضـیته الفلکیه لم تکن بعـد قـد فقـدت قیمتها فی الأوساط العلمیه وکان هناک مَن یعتقد بها من صمیم فؤاده.

ففی مثل تلک البیئه کان من الممکن التلاعب بالحقائق القرآنیه، وتأویل صریح القرآن ونصوص الروایات.

أمّا الآن فقد فقدت أمثال هذه الفرضـیات قیمتها، وظهر للجمیع بطلانها، ولم یعد أحد یتحدّث عنها، إلّامن باب ما یُسـمّی بتاریخ العلوم.

فـالیوم وبـالنظر إلی کـلّ هـذه الأـجهزه الفلکیه والآلاـت الفضـائیه الـدقیقه، والتلسـکوبات العملاـقه، وهبوط المرکبـات الفضائیه المتعدّده علی سطح القمر والمریخ، لم یعد مجال لهذه الفرضیات الخیالیه.

فالیوم لا یعتبر العلماء المحقّقون فکره العناصر الأربعه والفلک المتّصل کقشره البصل إلّاجزءاً من الأساطیر.

فـإنّ العلمـاء لم یسـتطیعوا بالآلات العلمیه وأجهزه الرصـد الـدقیقه والعیون المسـلّحه من رؤیه، تلک العوالم الّتی حاکها وصـنعها بطلمیوس بقوه خیاله، من هنا فإنّ أیه نظریه تقوم علی هذا الأساس غیر الصحیح تکون عاریه عن أیه قیمه، واعتبار.

ص:۶۰۵

نَغمهٔ شاذهٔ:

ولقد طلع مؤسّس الفرقه الشيخيه «الشيخ أحمد الأحسائی» فی «الرساله القطيفيه» بنغمه شاذه فی هذا الصعيد حيث أراد بإراءه طرحه جديده أن يرضی كلا الطرفين (القائلين بروحانيه المعراج النبوی والقائلين بجسمانيته) حيث قال: إنّ النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم عرج ببدنه البرزخی (الهورقليائی)(۱) ثم استدلّ لذلك بقوله:

إنّ الصاعد كلّما صعد ألقی فی كلّ رتبه من المراتب المذكوره ما فيها، فمثلاً إذا تجاوز كره الهواء ألقی ما فيه من الهواء، وإذا تجاوز كره النار ألقی ما فيها، وإذا رجع أخذ ما له من كره النار، وإذا وصل إلی كره الهواء أخذ ما له من الهواء.

ومن هنا فإنَّ النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم عندما عرج إلی السماء ألقی فی كلّ كره واحداً من تلك العناصر الأربعه فی كرته، وعرج ببدن فاقد لهذه العناصر.

ومثل هذا البدن لا يمكن أن يكون بدناً عنصرياً، فليس هو إلّاالبدن البرزخی (الّذی أسماه الهورقليائی) لا غير.(۲)

وبهذا - حسب تصوّره - أرضی من نفسه كلا الطرفين المذكورين، لأنّه من جانب اعتقد بالمعاد الجسمانی، وفی نفس الوقت تخلّص من إشكال «خرق الأفلاك والتحامها» لأنّ نفوذ الجسم البرزخی لا يستوجب أی خَرق وانفصال فی جدار الفلك.

۱- . وهو البدن البرزخی الّذی يشبه البدن الّذی يفعل به الإنسان الأفعال المختلفه فی عالم النوم والرؤيا ويقوم بكلّ نوع من أنواع النشاط.

۲- . تقع الرساله القطيفيه ضمن مجموعه تحتوی علی ۹۲ رساله باسم جوامع الكلم الّتی طبعت عام ۱۲۷۳. ومع هذا التصريح يدّعی البعض - للتستّر علی خطأ الشيخ وزلته هذه - بأنّ الشيخ يعتقد بأنّ المعراج كان جسمانياً عنصرياً، وأنّه موافق لرأی المشهور فی هذا المجال.

ولكن هـذه النظريه - كمـا هو واضـح لكـلّ عـالِم متحرٍّ للحقيقه، بعيـد عن العصبيه - واضـحه البطلاـن كسابقتها (نظريه المعراج الروحانى)، فمضافاً إلى أنّها مخالفه للقرآن وظاهر الأحاديث، لأنّه - كما أسلفنا - لو عرضنا آيه المعراج (من سوره الإسراء) على أىّ عـارف بـاللغه، مهمـا كان، وطلبنا منه رأيه فى هـذا الصـدد لقال: إنّ مراد القائل هو البـدن الـدنيوى العنصـرى الّـذى عَبّر عنه القرآن بلفظ العبد، فى قوله تعالى: «سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ» (۱)، وليس الهورقليائى الّـذى لم يكن يعرفه المجتمع العربىّ، ولا يعرف أمثاله فى ذلك اليوم أساساً، فى حين أنّهم كانوا هم المخاطَبون فى آيه المعراج فى سوره الإسراء لا غيرهم.

هـذا مضافاً إلى أنَّ ما دفع بالشـيخ إلى ارتكاب هـذا التأويل البارد هو الأُسـطوره اليونانيه المـذكوره حول الفلك، حيث تصوّرها كحقيقه ثابته من حقائق اللوح المحفوظ، وقد كذبها وفندها كلُّ فلكيّى العالم اليَومَ، وأعلنوا عن بطلانها.

فلا يجوز لنا أن نقلِّد تلك الفرضيه تقليداً أعمى.

وإذا ما رأينا بعضَ القدماء من المشايخ قال بمثل هذا محسـناً الظن بتلك الفرضيه الفلكيه القديمه وأمثالها أمكن إعذارهم، لعدم قيام أدلّه علميه قويه على خلافها آنذاك.

أمّا اليوم فلا ينبغى لنا أن نتجاهل الحقائق القرآنيه لفرضيه ثبت بطلانها فى الأوساط العلميه.

المعراج وقوانين العلم الحديث:

قد يتصوّر فريقٌ من الناس أنّ القوانين الطبيعيه والعلميه الحاضره لا تتلاءم

۱- . الإسراء: ۱.

مع معراج النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم وذلك لأنّه:

١. يقول العلم الحديث: إِنَّ الابتعاد عن الأرض يتطلّب التخلّص من جاذبيه الأرض، وبعباره أُخرى إبطال مفعولها.

فإنّ (الكره) الّتى نقذفها إلى الأعلى تعود مرّه ثانيه إلى الأرض بفعل الجاذبيه، وكلّما كرّرنا قذف الكره إلى الأعلى فإنها تعود وترجع إلى الأرض أيضاً.

فإذا أردنا أن نبطل مفعول جاذبيه الأرض إبطالاً كاملاً بحيث لا تعود الكره المقذوفه إلى الأعلى إلى الأرض ثانيةً بل تواصل مسيرها إلى الأعلى فإنّنا نحتاج لتحقيق هذا الهدف إلى جعل سرعه الكره باتجاه معاكس للأرض تعادل ٠٠٠/٢٥ ميل فى الساعه.

وعلى هذا فإنّ معنى المعراج هو أن يكون النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم قد خرج من محيط جاذبيه الأرض، وأصبح فى حاله انعدام الوزن.

ولكن يُطرح هنا سؤال وهو: كيف استطاع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يطوى - بدون وسائل - هذه المسافه بمثل هذه السرعه، وهل البدن الطبيعى يتحمّل مثل هذه السرعه مع عدم توفّر الغطاء الواقى والوسائل اللازمه، الّتى تصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعه الفائقه؟

٢. أنّ الهواء القابل للاستنشاق غير موجود فوق عدد من الكيلومترات بعيداً عن سطح الأرض، بمعنى أنّنا كلما ذهبنا صعداً إلى الطبقات العليا وابتعدنا عن الأرض أصبح الهواء أرقّ، حتّى يغدو غير قابل للاستنشاق، وربّما نصل إذا واصلنا الصعود إلى الأعلى إلى منطقه ينعدم فيها الهواء اللازم للتنفس بالمرّه، فكيف استطاع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وبعد طى تلك المسافه الطويله والبعيده فى أعالى الجو أن يعيش بدون وجود الاوكسيجين؟!

٣. أنَّ الأشعه الفضائيه، والأحجار السماويه والشهب الكثيره المتطايره إذا اصطدمت بأى جسم أرضى أبادَتهُ، وأفنته، ولكنها عندما تصطدم بالغلاف الغازىّ المحيط بالأرض تتلاشى وتصبح كالغبار ولا تصل إلى الأرض، فيكون الغلاف الغازى فى الحقيقه بمثابه درع يقى سُكّان الأرض من خطر تلك القذائف المهلكه.

ومع هذه الحاله كيف تهيّأ لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يصون نفسَه من تلك الأشعه الفضائيه، والأحجار السماويه؟!

٤. إذا تغيّر ضغطُ الهواء على جسم الإنسان فزاد أو نقص اختلت حياته الطبيعيه، فهو يمكنه أن يعيش تحت ضغط معين من الهواء، لا يوجَد فى الطبقات العُليا من الجوّ، فكيف استطاع النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم والحال هذه أن يحافظ على حياته فى أعالى الفضاء؟!

٥. أنَّ سرعه الحركه الّتى سار بها النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لا ريب كانت تفوق سرعه الحركه الّتى يسير بها النور ومع العلم بأنّ سرعه النور هى ٣٠٠/٠٠٠ كيلومتر فى الثانيه، مع العلم أيضاً أنّه ثبت فى العلم الحديث أنّه لا يستطيع أىُّ جسم أن يتحرك بسرعه تفوق سرعه النور، فكيف استطاع النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أن يسير بسرعه تفوق سرعه النور، ومع ذلك يرجع إلى الأرض سالم الجسم كامله؟؟!

جوابنا:

وجوابنا هو: أنّنا إذا أردنا أن نناقش هذه المسأله على ضوء القوانين العلميّه الطبيعيه لتجاوز عدد الاعتراضات والإشكالات ما ذكرناه آنفاً.

ولكنّنا نقول فى جواب هذا الفريق متساءلين: ما هو مقصودكم من توضيح هذه النواميس الطبيعيه؟

هل تريدون القول بأنّ السير فى العوالم العليا أمرٌ غير ممكن، وممتنع ذاتاً وبالتالى أنّه أمر محال؟!

فإننا نقول – حينئذ – فی الجواب علی ذلک بأن الجهود والتحقیقات العلمیه الّتی بذلها علماء الفضاء فی الشرق والغرب قد جعلت هذا الأمر – ولحسن الحظ – أمراً ممکناً، وعادیاً، لأنّ مع إطلاق أوّل قمر اصطناعی عام (۱۹۵۷ م) إلی السماء والّذی أسماه علماء الفضاء ب «اسپوتنیک» اتّضح أنّه یمکن إبطال مفعول جاذبیه الأرض بواسطه الصاروخ، کما أنّ إرسال السفن الفضائیّه الحامله لروّاد الفضاء من البشر بواسطه الصاروخ أوضح أنَّ ما کان یَعِدّه البشر مانعاً من الصعود إلی الأعلی فی الفضاء قد أصبح قابلاً لرفعه وإزالته، والتخلّص منه بفضل العلم والتکنولوجیا.

إنّ البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمیه والتکنولوجیه أن یعالج مشکلات عدیده فی مجال ارتیاد الفضاء مثل مشکله الشهب والنیازک المتطایره فی الجوّ ومشکله الأشعه الفضائیه، ومشکله انعدام الغاز اللازم للتنفس و.. و.. وهاهو علم ارتیاد الفضاء فی حال توسع مستمرّ وأنّ العلماء أصبحوا الآن یثقون بأنّهم سرعان ما یتمکّنون من مدّ بساط الحیاه والعیش فی إحدی الکرات السماویه والسفر إلی إحدی الکواکب کالقمر والمریخ بِسهوله کبری![(۱)]

إنَّ هذه الأحداث العلمیه وهذا التقدّم التکنولوجی فی مجال ارتیاد الفضاء

۱- . بعد إطلاق الأقمار والسفن الاصطناعیه لأوّل مره یوم الأربعاء أبریل عام ۱۹۶۱ م بدأ الضابط الروسی جاجارین (۲۷ سنه) رحلته الفضائیه فی سفینه فضائیه، وکان أوّل إنسان أقدم علی هذه الرحله الفضائیه، وابتعدت سفینته ۳۰۲ کیلومتراً عن سطح الأرض، ودارت دوره واحده حول الکره الأرضیه فی ساعه ونصف. وبعد ذلک أقدمت أمریکا والاتحاد السوفیتی علی إرسال السفن الفضائیه إلی الفضاء فی محاوله لغزو القمر حتّی حطّت السفینه الفضائیه «أپولو» الحامله لعدد من روّاد الفضاء علی سطح القمر لأوّل مرّه، وکان هذا أوّل مره یحط فیها إنسان قدمه علی أرض القمر. وقد تکرّرت تجربه هذا البرنامج الفضائی فیما بعد مرّات ومرّات وکانت ناجحه علی الأغلب. وکلّ هذه الجهود والنتائج تکشف عن أنّ هبوط الإنسان علی سطح الکرات والکواکب أمرٌ ممکن، وما یستطیع البشر فعله عن طریق العلم یقدر اللّه خالق البشر علی فعله بإرادته النافذه.

شاهدٌ قويٌّ على أنّ هذا العمل أمر ممكن مئه بالمئه، وليس من الأمور المستحيله.

وإذا كان مقصود المعترضين على المعراج هو أنّه لا يمكن القيام بمثل هذه الرحله من دون أجهزه علميّه وتكنولوجيه، ولم يكن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يملك فى تلك الليله مثل هذه الأجهزه، فكيف طوى تلك المسافات وطاف على جميع تلك العوالم من دون أدنى وسيلهِ نقلٍ من هذا القبيل؟!

فإننا نقول فى معرض الإجابه عن اعتراضهم هذا بأنّ جواب هذا الاعتراض يتّضح من الأبحاث الّتى سبقت منّا حول معاجز الأنبياء وخصوصاً بحثنا المفصَّل حول حادثه عام الفيل وهلاك جيش أبرهه العظيم بالأحجار الصغيره، لأنّه من المسلَّم أنَّ ما يستطيع البشر فعله عن طريق الأدوات والآلات العلميه الصناعيه يستطيع الأنبياء فعلَه بعنايه اللّه تعالى، وإقداره وبدون الأسباب الظاهريه والخارجيه.

لقد عرج رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم إلى السماء بعنايه وبإقدار اللّه الّذى خلق الوجود كلّه، وأقام هذا النظام البديع برمّته، فهو الّذى أعطى للأرض جاذبيتها، وأعطى للشمس أشعتها وأوجد مختلف طبقات الهواء، وأنواع الغازات فى الجوّ، ومتى أراد أخذَها وانتزعها منها، أو كبح جماحها، وردّ عاديتها.

فإذا تحقّق معراج النبىّ الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله و سلم فى ظلّ العنايه الإلهيّه فإنّ من المسلَّم أن جميع النواميس تخضع أمام قدرته القاهره، وإرادته الغالِبه، وهى طوع إرادته، والسماوات والأرض مطويّات بيمينه والجميع فى قبضته ورهن إشارته دائماً وأبداً، وفى كلّ حين وأوان.

وعلى هذا فماذا يمنع من أن يعمل اللّه الّذى منح للأرض جاذبيتها، وللأجرام السماويه أشعتها، على إخراج عبده المصطفى بقدرته المطلقه ومن دون

الأسباب الظاهريه، من مركز الجاذبيه الأرضيّه، ويصونه من أخطار الأشعه الكونيه، وأن يعمد خالق كلّ هذا القدر الهائل من الأوكسيجين إلى إيجاد الهواء اللازم لنبيّه فى الطبقات الّتى ينعدم فيها الهواء، وهذا هو معنى قولهم: «إنَّ اللّه مسبِّبُ الأسباب ومعطِّلُ الأسباب». إنّ أمر المعجزه يختلف ويفترق أساساً عن أمر العلل الطبيعيه والقدره البشريه.

ونحن يجب أن لا نقيس قدره اللّه المطلقه بقدرتنا المحدوده، فإذا كنّا لا نقدر على شىء من دون الأسباب لم يصحَ أن نقول: إن القادر المطلق لا يقدر على مثله من دون الأسباب الطبيعيه أيضاً.

إنَّ إحياء الموتى، وقلب العصا إلى ثعبان، وإبقاء يونس حيّاً فى بطن الحوت، فى قعر البحار، ممّا صدّقته جميع الكتب السماويه ونقلته إلينا، لا تقلّ إشكالاً ولا تختلف جواباً عن قصه المعراج النبوى

وخلاصه القول: إنّ جميع العلل الطبيعيه والموانع الخارجيه مسخَّرهٌ لِلّه تعالى خاضعه لإرادته، مطيعهٌ لأمره وإرادته يمكن تعلّقُها بكلّ شىء إلّابالأمر المحال، وأمّا غيرذلك أى ما يكون ممكناً بالذات مهما كان، فإنّهُ قابلٌ لأن يتحقّق فى ظل إراده اللّه ومشيئته، سواء يقدر البشر عليه أم لا يقدر.

على أنّ حديثنا هذا موجَّهٌ إلى مَن آمن باللّه، وعرف ربّه بصفاته الخاصّه به تعالى، وبالتالى آمن باللّه الأزلىّ على أنّه القادر على كلّ شىء.

ما هو الهدفُ من المعراج؟

لقد بيّنت الأحاديث - بعد الآيات - الغرض من المعراج وإليك طائفه من هذه الأحاديث.

۱. یقول ثابت بن دینار سألت الإمامَ زین العابدین علی بن الحسین علیه السلام عن اللّه جلّ جلاله هل یوصَف بمکان؟ فقال: «تعالی اللّهُ عَن ذلِکَ».

قلت: فلِمَ أسری بنبیه محمّد صلی الله علیه و آله و سلم إلی السماء؟

قال: «لِیُرِیَهُ مَلکوتَ السماوات وما فیها من عجائب صنعِهِ وبدائع خلقه».(۱)

۲. وقال یونس بن عبدالرحمن قلت لأبی الحسن موسی بن جعفر علیهما السلام:

لأیّ عِلهٍ عرج اللّهُ بنبیّه إلی السماء ومنها إلی «سدره المنتهی»، ومنها إلی «حجب النور» وخاطبه وناجاهُ هناک واللّه لا یوصف بمکان؟.

فقال علیه السلام: «إنَّ اللّه لا یُوصَفُ بمکان ولا یَجری علیهِ زمانٌ، وَلکنَّهُ عزوجل أرادَ أن یُشَرِّف به مَلائِکته، وسکّانَ سَماواتِه، ویکرِّمَهُم بمشاهدته، وَیُرِیَه من عجائب عظمته مایخبر بهِ بَعدَ هُبُوطِه، ولیسَ ذلِکَ علی ما یَقُولُه المشبّهون سبحانَ اللّهِ تعالی عَمّا یَصِفُون».(۲)

أجل یجب أن یکون لرسول الإسلام وخاتم الأنبیاء مثل هذا المقام العظیم ومثل هذه المنزله السامقه، لیقول للبشریه العائشه فی القرن العشرین، والّتی أصبحت تفکّر فی الهُبوط علی «المریخ» و «الزهره» وغیرها من الأنجم البعیده:

بأنّنی قد فعلت هذا من دون أیه وسیله، وإنَّ ربّی قد مَنَّ علیّ وعرّفنی علی نظام السماوات والأرض، وأطلَعَنی بقدرته وبعنایته علی أسرار الوجود، ورموز الکون.

۱- . علل الشرائع: ۱/۱۳۱ ح ۱؛ بحار الأنوار: ۱۸/۳۴۷ ح ۵۷؛ التوحید للصدوق: ۱۷۵.
۲- . علل الشرائع: ۱/۱۳۲ ح ۲؛ بحار الأنوار: ۱۸/۳۴۸ ح ۵۹.

۲۴ سفره صلی الله علیه و آله و سلم إلی الطائف

اشاره

انقضت السنه العاشره بکلّ حوادثها الحلوه والمرّه، فإنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فقد فی هذا العام حامییه الکبیرین المتفانیین فی سبیله، ففی البدایه فقد کبیر بنی عبدالمطلب وسیدهم، والمدافع الوحید عن حوزه الرساله الإسلامیه والذابّ بالإخلاص عن حیاض الشریعه المحمّدیه، والشخصیه الأُولی فی قریش، أعنی:

«أبا طالب» علیه السلام.

ولم تنمح آثار هذه المصیبه المرّه عن خاطر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بعد إلّاوفاجأته مصیبه وفاه زوجته الوفیه العزیزه، السیده خدیجه الکبری الّتی جدّدت برحیلها عنه أحزان النبیّ وآلامه الروحیه.(۱)

لقد حامی أبوطالب ودافع عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وحافظ علی حیاته وسلامته ومکانته، وبینما ساعدت خدیجه بثروتها الطائله فی نشر الإسلام وقدمت فی هذا السبیل خدمات عظیمه لا تنسی.

من هنا سمّی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تلک السنه بعام الحداد، أو الحزن.(۲)

ومنذ أن توفّی اللّه الحامیین العظیمین والمدافعین القویین عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم واجه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ظروفاً صعبه جدّاً قلّما واجهها من قبل.

۱- . جاء فی تاریخ الخمیس: ۱/۳۰۱ أنّه قیل بأنّ «خدیجه» توفّیت بعد «أبی طالب» بشهرٍ وخمسه أیام، بینما ذهب آخرون مثل ابن الأثیر فی الکامل: ۲/۹۰ إلی أن السیده خدیجه توفّیت قبل أبی طالب، لا بعده.

۲- . تاریخ الخمیس: ۱/۳۰۱، السیره الحلبیه: ۱/۳۴۷.

فقد واجه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم منذ حلول السنه الحاديه عشره جوّاً مفعماً بالعداء له، والحقد عليه، وصارت الأخطار تهدّد حياته الشريفه فى كلّ لحظه، وقد فقد كلّ الفرص لتبليغ الرساله وكلّ إمكانات الدعوه إلى دينه.

يقول ابن هشام فى هذا الصدد: إنّ «خديجه بنت خويلد» و «أبا طالب» هلكا (أى توفّيا) فى عام واحد فتتابعت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المصائب بهلك خديجه وكانت له وزيره صدق على الإسلام، وكان يسكن إليها، وبهُلك عمّه أبى طالب وكان له عضداً، وحرزاً فى أمره، ومنعهً وناصراً على قومه، وذلك قبل هجرته الى المدينه بثلاث سنين. فلمّا هلك أبو طالب نالت قريش من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياه أبى طالب حتّى اعترضه سفيهٌ من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.

ولمّا نثر ذلك السفيه على رأس رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ذلك التراب، دخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقول لها:

«لا تبكى يا بُنيَّه فإنَّ اللّهَ مانع أباك».

ويقول بين ذلك:

«ما نالت منى قريشٌ شيئاً أكرَهُهُ حتّى مات أبوطالب».(۱)

ولأجل تزايد الضغط والكبت هذا قرر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أن ينتقل من المحيط المكّى إلى محيط آخر يتسنّى له تبليغ رسالته.

وحيث إنَّ الطائف كانت تعتبر آنذاك مركزاً هامّاً، لذلك رأى رسول

۱- . السيره النبويه: ۱/۲۸۲-۲۸۳؛ بحار الأنوار: ۱۹/۵ عن إعلام الورى: ۱/۱۳۱ عن محمّد بن إسحاق بن يسار.

اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يسافر لوحده إلى الطائف، ويجرى بعض الاتّصالات مع زعماء قبيله ثقيف وساداتها، ويعرض دينه عليهم علّه يحرز نجاحاً ويكسب أنصاراً جدداً لرسالته من هذا الطريق.

ولمّا انتهى صلى الله عليه و آله و سلم إلى الطائف عمد إلى نَفَر من قبيله «ثقيف» هم يومئذ ساده ثقيف وأشرافهم، وجلس صلى الله عليه و آله و سلم إليهم، ودعاهم إلى اللّه، فلم يؤثر فيهم كلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقالوا له: لئن كنتَ رسولاً من اللّه كما تقول لأنتَ أعظمُ خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئِن كنت تكذب على اللّهِ ما ينبغى لى أن أُكلّمك!!

فعرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من رَدّهم الصبيانى أنّهم يحاولون التملُّص من قبول الدعوه واعتناقِ الإسلام، فقام صلى الله عليه و آله و سلم من عندِهِم بعد أن طلب منهم أن يكتموا ما جرى فى هذا اللقاء خشيه أن يعرف سفهاءُ ثقيف فيتجرّأوا عليه ويتّخذوا ذلك ذريعه لاستغلال غربته ووحدته، ومن ثم إيذائه، فوعدوه بالكتمان، ولكنّهم - وللأسف - لم يحترموا وعدهم هذا الّذى أعطوه لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، وفجأه وجد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم نفسه محاطاً بجمع كبير من أُولئك السفهاء يسبّونه ويصيحون به حتّى اجتمع الناس، وألجأوه إلى بستان لعتبه وشيبه ابنى ربيعه وهما فيه فى تلك الساعه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظلٍ فجلس فيه وهو يتصبّب عرقاً، وقد ألحقوا الأذى بمواضع عديده من بدنه الشريف ورجلاه تسيلان من الدماء، وابنا ربيعه ينظران إليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف، وقد كانا من أثرياء قريش، يومئذ.

فلمّا اطمأن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم توجّه إلى ربّه وناجاه قائلاً:

«أللّهُمَّ إلَيكَ أشكُو ضَعفَ قُوَّتى، وَ قِلَّهَ حِيلَتى، وَهَوانى عَلى النّاسِ، يا أرحَمَ الرّاحِمين، أنتَ رَبُّ المُستَضعَفِين، وَ أنتَ رَبّى، إلى مَن تكِلُنى؟ إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُنِى؟ أم إلى عَدُوّ ملكتَهُ أَمرى؟

إن لَم يَكُن بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلا أبالِي، ولكنّ، عافِيَتَكَ هِيَ أوسَعُ لِي.

أعُوذُ بِنُورِ وَجهِكَ الّذى أشرقت لَهُ الظُّلماتُ، وَ صَلُحَ عَلَيهِ أمرُ الدُّنيا وَ الآخِرَه مِن أن يَنزِلَ بِى غَضَبُكَ، أو يَحِلَّ علىَّ سَخطُكَ.

لَكَ العُتبى حتّى تَرضى، وَ لا حولَ وَ لا قُوّهَ إلّابِكَ».(۱)

هذه الكلمات وهذا الدعاء هى استغاثه شخصيه عاش خمسين سنه عزيزاً مكرّماً فى ظلّ حمايه مَن دافعوا عنه بصدق وإخلاص ودفعوا عنه كلّ أذى ولكنّه الآن يضيق عليه رحب الحياه حتّى يلجأ إلى حائط عدوٍّ من أعدائه، ويجلس فى ظل شجره، مكروباً موجَعاً ينتظر مصيره.

فلمّا رآه ابنا ربيعه «عتبه وشيبه» (وكانا من الوثنيّين ومن أعداء الإسلام) وشاهدوا ما لقى من الأذى والعذاب، رَقّا لَهُ فدعوا غلاماً لهما نصرانياً من أهل نينوى يقال له «عداس» فقالا له: خذ قطفاً من العنب فضَعهُ فى هذا الطبق، ثم اذهب به إلى هذا الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل بالعنب حتّى وضعه بين يدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ثم قال له: كل، فلمّا وضع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فيه يده قال:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم».

فتعجب عداس من ذلك بشده وقال: واللّه إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذه البلاد.

فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ومِن أهل أى البلاد أنتَ يا عداس وما دينك؟

قال: أنا نصرانى، من أهل نينوى.

قال صلى الله عليه و آله و سلم: من مدينه الرجل الصالح يونس بن متى.

فقال له عداس: وما يدريك ما (مَن) يونس بن متى؟

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۲/۲۸۴-۲۸۶.

فقال صلى الله عليه و آله و سلم(۱): ذاك أخى كان نبياً وأنا نبيّ، أنا رسول اللّه، واللّه تعالى أخبرنى خبر يونس بن متى.

فأكبَّ عداس على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقد رأى فى كلماته علائم الصدق وآيات الحق، وجعل يقبّل رأسَه ويديه، وقدميه، وهما تسيلان من الدماء وآمن به، ثم عاد بعد الاستئذان منه صلى الله عليه و آله و سلم إلى صاحبيه فى البستان. فتعجّب ابنا ربيعه لِما رأياه فى غلامهما عداس من الانقلاب الروحى العجيب، وسألاه قائلين: ويلك يا عداس مالك تقبّل رأس هذا الرجل، ويديه وقدميه وماذا قال لك؟!

فأجابهما الغلام قائلًا: يا سيدَىَّ ما فى الأرض شىء خيرٌ من هذا، هذا رجلٌ صالح لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلّانبيٌّ.

فشقَّ كلامُ عداس على ابنى ربيعه، وقالا له بنبره الناصحّ له: ويحك يا عداس، لا يصرفنّك هذا الرجلُ عن دينك فإنّ دينَك خير من دينه!!(۲)

النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يعود إلى مكّه:

انتهت ملاحقةُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بلجوئه إلى حائط ابنى ربيعه، وكان عليه الآن، وبعد أن يئس من خير ثقيف أن يعود إلى مكّه، ولكنَّ عودته إلى مكّه لم تكن لتخلو عن مشاكل، لأنّه قد فقد نصيره وحاميه ومدافعه الأكبر والأوحد فكان من المحتمل جداً أن يقبض عليه المشركون ويسفكوا دمه.

فقرر صلى الله عليه و آله و سلم أن يبقى فى منطقه «نخله» (وهى واد بين الطائف ومكّه) بعض الوقت.

۱- . وفى روايه البحار: ۱۹/۶ جمله اعتراضيه هنا: - وكان لا يحقر أحداً أن يبلغه رساله ربه -.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۲/۲۸۷؛ بحار الأنوار: ۱۹/۶ و ۷ و ۲۲ مع اختلاف يسير.

لقـد كان يريد أن يرسل أحداً إلى شخصـيه من شخصـيات قريش يطلب منها أن تجيره حتّى يدخل مكّه بجوار، ولكنه صـلى الله عليه و آله و سلم لم يجد مَن يقوم له بهذه المهمه.

فترك «نخله» إلى حراء، وهنـاك التقى رجلاً خزاعياً وطلب منه أن يأتى «المطعم بن عـدى» بمكه، وكان من الشخصـيات المكيه البارزه و يسأله أن يجير رسول اللّه ليدخل مكّه فى أمان من أذى قريش وكيدها.

فدخل الخزاعىّ مكّه، وأبلغ المطعم ما طلبه منه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقبل المطعم - رغم كونه وثنياً مشركاً - أن يجير رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقال للخزاعى: ائته فقل له: إنّى قد أجرتك فتعال.

فـدخل رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم مكّه ليلاً ونزل فى بيت مطعم مباشـره، وبات ليلته هناك، ولمّا طلعت الشـمس من صبيحه غد قال مطعم لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: لتعلمنّ قريش بأنّك فى جوارنا، فأصحبنا إلى البيت، ليروا جوارنا.

فاسـتحسن النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم رأيه فأخذ المطعم وأهلُ بيته السلاح ودخلوا مع النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى المسجد الحرام، وكان ورودهم فى المسجد بهيئه رائعه.

وكان أبوسفيان قد كمن للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ليكيد به، فلمّا رأى هذا المشهد المهيب غضب غضباً شديداً، وانصرف عن إيذاء رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم، فجلس المطعم وولده وأختانه وأخوه، وطاف رسول اللّه بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله.(۱)

۱- . لاحظ: السـيره النبويه لابن هشام: ۱/۲۵۵؛ طبقات ابن سعد: ۱/۲۱۰-۲۱۲؛ بحار الأنوار: ۱۹/۷ و ۸. ويستبعد بعض المحقّقين أن يكون رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم قـد طلب الجوار من مشـرك أو دخـل فى جوار مشـرك، على غرار عـدم قبوله الهـديه من المشـرك، وذكر لـذلك أدلّه ووجوها. ولكن يمكن الإجابه عن هـذا بأنّ الإجاره كانت أمراً عادياً فى ذلك العصـر، ولم يكن فيها ما يوجب شـيناً على رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم ولم تستلزم منّه عليه. ثم ما المانع فى مثل هذا الجوار لو ترتبت عليه مصالـح عليا، كتمكين رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم من الدخول بسـلام إلى مكّه، وتمكّنه من القيام بمهامّه الرساليه، خاصّه أنّ هذا الجوار لم يستغرق إلّايوماً أو

ولم يمض على هذه الحادثه زمان طويل حتّى هاجر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من مكّه إلى المدينه، وتوفّى المطعم فى أوائل الهجره فى مكّه، ولمّا بلغ رسول اللّه نبأ موته تذكّر صلى الله عليه و آله و سلم إحسانه وجوارَه، وأنشأ حَسّان بن ثابت شاعر الإسلام شعراً يمدحُه فيه تقديراً لخدمته.

وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يتذكّره كثيراً، حتّى أنّه تذكّره فى واقعه «بدر» الّتى انهزمت فيها قريش وعادت منكسره إلى مكّه بعد أن خسرت كثيراً من رجالها وأُسر منها عدد كبير، فتذكّر مطعم بن عدى ثمه وقال صلى الله عليه و آله و سلم:

«لو كان مطعم بن عَدىّ حياً لوهبت له هؤلاء».(۱)

نقطه هامه:

إنَّ سفر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إلى الطائف يكشف عن إصراره فى أداء رسالته واستقامته وصبره صلى الله عليه و آله و سلم كما أنّ تذكُّره لإحسان مطعم فى المواقع المناسبه يقودنا إلى خصاله الحميده وسجاياه الفاضله، وخلقه العظيم.

ولكن الأهمَّ من هذا وذاك هو أنّنا نستطيع من خلال هذا تقييم خدمات أبى طالب القيمه، ومعرفه أهميتها الكبرى عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، بمقايستها مع ما فعله مطعم.

فإن مطعم لم يفعل شيئاً إلّاأن أجار رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وحماه يوماً أو بعض يوم.

۱- . المغازى للواقدى: ۱/۱۱۰ ثم قال الواقدى: وكانت لمطعم بن عدى عند النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إجاره حين رجع من الطائف.

بینما حدب أبو طالب علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ودافع عنه وخدمه عمراً کاملاً ولقی فی سبیله من المحن والمتاعب ما لم یلق مطعم منها ولا شیئاً ضئیلاً.

فإذا کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یعلن عن استعداده للإفراج عن جمیع الأسری فی «بدر» تقدیراً لما قام به مطعم من إجاره بسیطه قصیره، فماذا عساهُ أن یقوم به تجاه ما أسداه إلیه عمُّه وحامیه وکافله الأکبر والأوحد أبوطالب من خدمات طوال أکثر من أربعین عاماً، أنّه یجب أن یکون لمثل هذا الشخص العظیم - الّذی کفل صاحب الرساله وقام بشؤونه مدّه أربعین عاماً بأیّامها ولیالیها ودافع عنه فی السنوات العشر الأخیره وهی جلُّ عمر الرساله الإسلامیه فی الفتره المکّیه إلی درجه أن عرَّض راحته وسلامته بل حیاته وحیاه أبنائه لخطر الموت دفاعاً عن حیاض الرساله، وحمایهً لصرح النبوه - مقاماً عظیماً ومنزله کبری عند قائد البشریه، ومعلم الإنسانیه، وهادیها العظیم.

کیف لا؛ والفرق بین هذین الشخصین کبیر، والبون شاسع، فمطعم رجل وثنی مشرکٌ، بینما یعتبر أبوطالب واحداً من کبار الشخصیات الإسلامیه العظیمه بلا جدال.

الدعوه فی أسواق العرب:

کانت العرب تجتمع - فی مواسم الحج - فی نقاط مختلفه مثل: «عکاظ» و «المجنه» و «ذی المجاز»، وکان الشعراء والخطباء العرب البارعُون یقفون فی هذه المناطق علی أماکن مرتفعه ویلهون فریقاً من الناس بما یلقونه علیهم من خطب وقصائد تدور فی الأغلب حول الحرب والقتال، والتفاخر، والعشق.

وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم شأنه شأن کلّ الأنبیاء والمرسلین الذین سبقوه یستغلّ هذه الفرصه - کغیرها - لإبلاغ رساله ربه إلی الناس، ولم یکن لأحدٍ منعه أو الکید به

لحرمه القتال والجدال فی الأشهر الحرم.

من هنا کان صلی الله علیه و آله و سلم إذا حلّ الموسم وقف علی مکان مرتفع وخاطب الناس قائلاً:

«یا أیّها الناس قُولُوا لا إله إلّااللّهُ تُفلِحُوا وتملکوا بها العَرَب وتَذِلُّ لکُمُ العَجمُ، وَإذا آمَنتُم کُنتُم مُلُوکاً فِی الجَنَّه».(۱)

دعوه رؤساء القبائل فی مواسم الحج:

وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یلتقی فی مواسم الحج فی هذه النقاط برؤساء القبائل العربیه وأشرافها، ویقف علی منازلهم منزلاً منزلاً، ویعرض دینه علیهم، ویدعوهم إلی اللّه ویخبرهم أنّه نبیٌّ مرسل.(۲)

وربّما مشی خلفه عمُّه «أبو لهب» فإذا فرغ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من قوله وما دعا به، قال أبو لهب فوراً للناس: یا بنی فلان إنّما یدعوکم هذا إلی أن تسلخوا اللّات والعزّی من أعناقکم...، إلی ما جاء به من البدعه والضلاله، فلا تطیعوه ولا تسمعوا له.(۳)

وقد قدمت جماعه من بنی عامر إلی مکّه فدعاهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی الإسلام وعرض علیهم نفسه، فقبلوا أن یعتنقوا الإسلام إلّاأنّهم اشترطوا علیه أن یکون إلیهم خلافته من بعده إذ قالوا: أرأیتَ إن نحن بایعناک علی أمرک ثم أظهرکَ اللّهُ علی مَن خالفَک، أیکونُ لنا الأمرُ من بعدک؟

۱- . الطبقات الکبری: ۱/۲۱۶.

۲- . قال ابن هشام: کان صلی الله علیه و آله و سلم لا یسمع بقادم یقدم مکّه من العرب له اسم وشرف إلّاتصدّی له فدعاه إلی اللّه وعرض علیه ما عنده. السیره النبویه: ۲/۲۸۹.

۳- . الکامل فی التاریخ: ۲/۹۴.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«الأمرُ إلى اللّهِ يَضَعه حيثُ يشاءُ».

فرفضوا اعتناق الإسلام والإيمان باللّه ورسوله.

ثم لمّا عادوا إلى أوطانهم رَجَعُوا إلى شيخ لهم طاعنٍ فى السنّ لم يقدر أن يحجَّ معهم و كان ذا بصيره وفهم فحدّثوه بما جرى بينهم وبين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقالوا: جاءنا فتى من قريش من بنى عبدالمطلب يزعم أنّه نبى يدعونا إلى أن نمنعه(۱) ونقوم معه.

فوضع الشيخ يديه على رأسه ووبَّخَهُم على رفضهم لدعوه الرسول وقال:

يا بنى عامر والّذى نفسُ فلان بيده ما تَقَوَّلَها إسماعيلىٌ قط(۲)، وإنّها لحقٌ، فأين رأيكم كان عنكم؟!(۳)

إنّ هذه القضيه التاريخيه تفيد - فى ما تفيد - بأنّ مسأله الخلافه والإمامه بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أمر تنصيصى، تعيينى، لا انتخابى، أى أنّ تعيين الخليفه بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يعود إلى اللّه، ولاخيار للناس فيه، وإنّما عليهم الطاعه والرضا.

۱- . أى نحميه.

۲- . أى ما ادّعى النبوه كاذباً أحدٌ من بنى إسماعيل.

۳- . لاحظ: السيره النبويه: ۲/۲۸۹.

۲۵ بیعه العقبه

اشاره

کـان (وادی القری) فی مـا مضـی من الزمن طریق التجاره من الیمن إلی الشام، فکانت القوافل التجاریه القادمه من الیمن تـدخل وادیاً طویلاً یُـدعی بوادی القری بعـد العبور بالقرب من مکّه، وکانت المناطق الواقعه علی طول هذا الوادی مناطق خضـراء، ومن هذه المناطق مدینه قدیمه کانت تُدعی ب: یثرب والّتی عرفت فیما بعد بمدینه الرسول.

وقـد سـکن فی هـذه المـدینه منـذ أوائل القرن الرابع المیلادی قبیلتا: «الأوس والخزرج» اللّتان کانتا من مهاجری عرب الیمن (من القحطانیّین).

وکان یعیش إلی جانبهم الطوائف الیهودیه الثلاث المعروفه: «بنو قریظه» و «بنو النضیر» و «بنو قینقاع» الذین کانوا قد هاجروا إلیها من شمال شبه الجزیره العربیه واستوطنوها.

وکان یقدم إلی مکّه کلّ عام جماعه من عرب یثرب للاشتراک فی مراسـیم الحج، وکان النبیّ صـلی الله علیه و آله و سلم یلتقی بهم فی تلک المواسم، ویجری معهم اتّصالات.

علی أنّ کثیراً من تلک الاتصالات وإن لم تثمر ولم تنطو علی أیّه فائـده فعلیه إلّا أنّها تسـبّبت فی أن یحمل حجّاج یثرب - لـدی عودتهم - أنباء ظهور النبیّ الجدید وینشـروه فی أوساط المدینه کأهم نبأ من أنباء الساعه، ویلفتوا نظر الناس فی تلک الدیار إلی مثل هذا الأمر المهم والخطیر.

ولهذا ننقل هنا بعض اللقاءات والاتّصالات الّتی تمّت بین رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم وجماعات من أهل هذه المدینه فی السنه الحادیه عشره والثانیه عشره والثالثه

عشره من البعثه لتتّضح بدراسه هذه المطالب علّه هجره النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم من مکّه إلی یثرب، وتمرکز قوی المسلمین فی تلک المنطقه.

۱. کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کلّما سمع بقادم یقدم مکّه من العرب له اسم وشرف تصدّی له، ودعاه إلی الإسلام وعرض علیه ما عنده.

قدم «سوید بن الصامت» أخو بنی عمرو بن عوف، مکه حاجاً أو معتمراً، فتصدی له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حین سمع به، فدعاه إلی اللّه وإلی الإسلام فقال له سوید: فلعلّ الّذی معک مثل الّذی معی.

فقال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: وما الّذی معک؟

قال: مجله لقمان، یعنی حکمه لقمان.

فقال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: إعرضها علیَّ، فعرضها علیه. فقال له: إنّ هذا الکلام حسن، والّذی معی أفضل من هذا. قرآنٌ أنزلهُ اللّهُ تعالی علیّ هو هدی ونور. فتلا علیه رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم القرآن ودعاه إلی الإسلام، فلم یبعد منه، وقال سوید: إنّ هذا قولٌ حسن (وآمَنَ برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم) فقدم المدینه علی قومه، فلم یلبث أن قتلته الخزرج، فإن کان رجال من قومه لیقولون: إنّا لنراه قد قتل وهو مسلم، وکان قتله قبل یوم بعاث(۱).(۲)

۲. لمّا قدم «أنس بن رافع» مکّه ومعه فتیهٌ من بنی عبدالأشهل، فیهم «إیاس بن معاذ»، یلتمسون الحلف من قریش علی قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فأتاهم وجلس إلیهم، فقال لهم: هل لکم فی خیر ممّا جئتم له؟

فقالوا له: وما ذاک؟

قال: «أنا رسول اللّه بعثنی إلی العباد، أدعوهم إلی أن یعبدوا اللّه ولا یشرکوا

۱- . بعاث موضع کانت فیه حرب بین الأوس والخزرج.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۲/۲۸۹-۲۹۱.

به شيئاً، وأنزل علىّ الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً شهماً: أى قوم هذا واللّه خير ممّا جئتم له. فقد أدركَ جيّداً أنّ دينَ التوحيد يكفُلُ كلَّ حاجاتهم فهو دينٌ شاملٌ مباركٌ؛ لأنّه سيصهِرُ الجميعَ فى بوتقه الأُخوَّه الواحدهِ فتزول عندئذ أسبابُ العداء والقتال، وبذلك ينهى كلّ مظاهرِ الحرب والتنازع، وكلَّ مظاهر الفساد والتخريب فهو أفضل من طلبِ المساعده العسكريه من قريش الّتى جاءُوا من أجلها إلى مكّه، فآمن برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من دون أن يكسب رضا رئيس قبيلته «أنس بن رافع» واستئذانه.

ولهذا غضب أنس بن رافع وأخذ حفنه من تراب البطحاء فضرب بها وجهَ إياس وقال: دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا، فصمَتَ إياس، وقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عنهم، وانصرفوا إلى المدينه، وكانت وقعه بُعاث بين الأوس والخزرج.

ثم يلبث إياس أن هلك، وقد سمعه مَن حضره من قومه عند موته أنّهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل اللّه تعالى ويكبره ويحمده ويسبّحه حتّى مات، فما كانوا يشكّون أنّه قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ما سمع.(۱)

وقعه بُعاث:

كانت وقعه بُعاث من الحروب التاريخيه بين الأوس والخزرج، ففى هذه الوقعه انتصر الأوسيون على منافسيهم، وأحرقوا نخيل الخزرجيين، ثم وقعت بعد ذلك حروب ومصالحات بينهم.

ولم يشترك «عبداللّه بن أُبىّ» وهو من أشراف الخزرج فى هذه الوقعه من

۱- . السيره النبويه: ۲/۲۹۱.

هنا كان موضع احترام من القبيلتين، وكاد الطرفان يفقدان مقاومتهما بسبب تكرر الحروب، وتحمّل الخسائر الثقيله، ولهذا رغب الطرفان فى عقد صلح بينهما يضع حدّاً لجميع أشكال العمليات العسكريه، والغزو والاقتتال، والثأر والانتقام، وأصرّت القبيلتان على «عبداللّه بن أُبى» بأن يقبل بقياده عمليّه المصالحه هذه، بل وأعدّوا له تاجاً يتوّجونه به، حتّى يصبح أميراً فى وقتٍ معيَّنٍ، ولكن هذا المشروع تعرض للانهيار والسقوط وواجه الفشل على أثر اعتناق جماعه من الخزرج الإسلام، ففى هذا الوقت بالذات التقى رسول اللّه بمكه بسته أشخاص من رجال الخزرج ودعاهم إلى الإسلام فآمنوا به، ولبّوا دعوته.

تفصيل الحادث:

خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى الموسم الّذى لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كلّ موسم، فبينما هو عند العقبه لقى رهطاً من الخزرج وكانوا سته أنفار أراد اللّه بهم خيراً. فقال لهم: مَن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمِنْ موالى اليهود؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسُون أكَلِّمُكُم؟

قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى اللّه عزّوجلّ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن وكان ممّا صنع اللّه بهم فى الإسلام، أنّ يهوداً كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهلَ شرك وأصحاب أوثان، وكان اليهود قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا وقع بينهم شىء قال اليهود لهم: إنّ نبياً مبعوث الآن، قد أظلّ (أو أطلّ) زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم.

فلمّا كلَّمَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أولئك النفر، ودعاهم إلى اللّه، قال بعضهم لبعض يا قوم: تعلموا واللّه إنّه للنبيُّ الّذى توعّدكم به اليهود فلا يسبقنّكم إليه.

فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوه والشر مثل ما بينهم، فعسى أن يجمعهم اللّهُ بكَ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الّذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم اللّه عليه فلا رجل أعزّ منك.(۱)

بيعه العقبه الأُولى:

لقد أثّرت دعوه هؤلاء الستّه، الجاده فى يثرب تأثيراً حسناً حيث سبّبت فى إسلام فريقٍ من أهل يثرب واعتناقهم عقيده التوحيد.

فلمّا كان العام المقبل (أى السنه الثانيه عشره من البعثه) قدم مكّه اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب، فلقوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالعقبه، وانعقدت هناك أوّل بيعه إسلاميه.

وأبرز هؤلاء الرجال هم: أسعد بن زراره، وعباده بن الصامت، وكان نص هذه البيعه - بعد الاعتراف بالإسلام والإيمان باللّه ورسوله - هو كما نقل عن عباده بن الصامت قال: كنت فى مَن حضر العقبه الأُولى، وكنّا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على أن لا نشرك باللّه شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا و أرجلنا، ولا نعصيه فى معروف.

(فقال لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم): فإن وفيتم فلكمُ الجنه، وإن غشّيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى اللّه عزّوجل إن شاء عذَّبَ، وإن شاء غفر.(۲)

۱- . تاريخ الطبرى: ۲/۸۶؛ والسيره النبويه لابن هشام: ۲/۲۹۲؛ بحار الأنوار: ۱۹/۲۵.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۲/۲۹۵.

وهـذه البيعه اصـطلح على تسـميتها المؤرّخون وكتّـابُ السيره ببيعه النساء، لأنّ النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم أخـذ البيعه من النساء فى فتح مكّه على هذا النحو(۱).

وعاد هؤلاء النفر إلى يثرب بقلوب مفعمهٍ بالإيمان، مترعه بمحبه رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم فعمـدوا إلى نشرالإسـلام وكتبوا إلى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم أن يبعث لهم مَن يعلّمهم الإسـلام والقرآنَ، فبعث النبىّ صـلى الله عليه و آله و سلم لهم «مصعب بن عمير» وأمره بأن يقرِّئهم القرآن ويعلّمهم الإسلام ويفقّههم فى الدين، فكان يُسمّى المقرئ بالمدينه.

واسـتطاع هـذا المبلّغُ القديرُ، وهذا الداعيه النشـيط أن يجمع المسـلمين بفضل عمله الدؤوب والحكيم وتبليغه الصـحيح فى غياب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ويؤمّهم، ويصلّى بهم.(۲)

بيعه العقبه الثانيه:

لقد أحدث تقدّم الإسـلام فى يثرب هيجاناً كبيراً وشوقاً عجيباً فى نفوس المسـلمين من أهلها، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر حلول موسم الحجّ، ليقدموا مكّه، ويلتقوا برسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم عن كثب، ويُظهروا له عن استعدادهم لتقديم ما يطلبُ منهم من خدمهٍ وعملٍ، وليستطيعوا توسيع نطاق البيعه من حيث الكَمّ ومن حيث الكيف.

وأخيراً حلّ موسم الحجّ فخرجت قافلهٌ كبيرهٌ من أهل يثرب للحجّ تضمّ خمسمائه نفر فيهم ثلاث وسبعون من المسلمين من بينهم امرأتـان، والبـاقى إمّا راغبون فى الإسـلام، وإمّا غير مكترث به، حتّى قـدموا مكّه، والتقوا برسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم فواعدهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالعقبه للبيعه إذ قال: «موعدكم العقبه فى الليله الوسطى

۱- . والّتى جاء ذكرها فى الآيه ۱۲ من سوره الممتحنه.

۲- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۹/۲۵.

من ليالى التشريق».

فلمّا كانت الليله الثالثه عشره من شهر ذى الحجّه وهى الّتى واعدهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فيها باللقاء، ونام الناس حضر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مع عمّه «العباس بن عبدالمطلب» قبل الجميع، وخرج المسلمون من رحالهم يتسلّلون تسلّل القطا مستخفين بعد أن ناموا مع قومهم فى رحالهم، ومضى ثلث الليل لكيلا يحسّوا بخروجهم، حتّى اجتمعوا فى الشعب عند العقبه، ولمّا استقرّ المجلس بالجميع، كان أوّل متكلّم هو: العباس بن عبدالمطلب فقال واصفاً منزله رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنّما يسمّون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسَها - إنَّ محمَّداً مِنّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا،... فهو فى عزّ من قومه، ومَنعه فى بلده، وإنّه قد أبى إلّاالإنحياز إليكم، واللُحوق بكم، فإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترونَ أنكم مُسلِمُوهُ وخاذِلُوهُ بعدَ الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوهُ فإنّه فى عزّ ومَنعةٍ من قومه وبلده. فقال الحضور: قد سمعنا ما قلتَ فتكلّم يا رسول اللّه، فخذ لنفسك ولربك ما أحببتَ.

فتكلمَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فتلا القرآن، ودعا إلى اللّه ورغّب فى الإسلام ثم قال:

أُبايعُكم على أن تمنعونى ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

فأخذ البراء بن معرور بيد النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ثم قال: نعم والّذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك ممّا نمنع منه أُزُرنا(۱)، فبايعنا يا رسول اللّه فنحن واللّه أبناء الحروب وأهل

۱- . الملاحظ فى هذه البيعه انّها كانت بيعه للدفاع عن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وليس بيعه للجهاد فى سبيل اللّه، ولهذا فإنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يقدم على القتال فى بدر إلّابعد أن كسب موافقه الأنصار ورضاهم.

الحلقه (أی السلاح) ورثناها کابراً عن کابر.

(فدبّ فی الحضور حماس وسرور عظیم وتعالت الأصوات والنداءات من الخزرجیّین والّتی کانت تعبیراً عن شده حماسهم، وسرورهم لهذا الأمر، فقام العباس وهو آخذ بید رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

وفی هذه الأثناء نهض «البراء بن معرور» و «أبو الهیثم بن التیهان» و «أسعد بن زراره» من مواضعهم وبایعوا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثم بایعه بقیه القوم جمیعاً).

وقد قال ابن التیهان عند مبایعته للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم: یا رسول اللّه إنّ بیننا وبین الرجال (أی الیهود) حبالاً (وعلاقات) وإنّا قاطعوها، فهل عسیت إن نحن فعلنا ذلک ثم أظهرک اللّه، أن ترجعَ إلی قومک وتدعَنا؟

فتبسَّم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثم قال: «بل الدَم الدَم، والهَدم الهَدم، أنا منکم وأنتم منّی، أُحارب من حاربتم، وأُسالم من سالمتم» یعنی أنّه سیبقی علی العهد، ولا یترکهم وکانت العرب تقول عند عقد الحلف: دمی دمُک، وهَدمی هَدمُک، وهی کنایه عن البقاء علی العهد واحترام المیثاق والحِلف.

ثم إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قال: أخرجُوا إلیَّ منکم اثنی عشر نقیباً لیکونوا علی قومهم بما فیهم.(۱)

فأخرَجوا منهم اثنی عشر نقیباً، تسعه من الخزرج، وثلاثه من الأوس.(۲)

وروی ابن إسحاق عن عبداللّه بن أبی بکر أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، قال للنقباء أنتم علی قومکم بما فیهم کُفَلاء، ککفاله الحواریّین لعیسی بن مریم، وأنا کفیلٌ علی

۱- . راجع: المحبر: ۲۶۸-۲۷۴.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۲/۳۰۲-۳۰۳، بتصرّف.

قومی (یعنی: المسلمین) قالوا: نعم.(۱)

وفی روایه أُخری: أُبایعکم کبیعه عیسی بن مریم للحواریّین کفلاء علی قومهم بما فیهم، وعلی أن تمنعونی ممّا تمنعون منه نساءکم وأبناءکم». فبایعوه علی ذلک. وبعد أن تمّت مراسم البیعه وعدهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بأن یهاجِرَ إلیهم فی الوقت المناسب، ثم ارفض الجمع وعادَ القومُ إلی رحالهم.(۲)

أوضاعُ المسلمین بعد بیعه العقبه:

والآن ینبغی أن نجیب بالتفصیل علی السؤال الّذی یطرح نفسه هنا وهو: ما الّذی دعا أهل یثرب الذین کانوا بعیدین عن مرکز ظهور الإسلام إلی أن یستجیبوا لنداء الرسول صلی الله علیه و آله و سلم ویأخذوا بتعالیمه أسرع من المکیّین مع ما کان بین المکیّین وبین رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من القرابه القریبه؟!

وکیف ترکت تلک اللقاءاتُ المعدودهُ القصیرهُ بأهل یثرب آثاراً تفوق الآثار الّتی ترکتها الدعوهُ المحمّدیه خلال ثلاثه عشر عاماً فی مکّه؟!

إنّ علّه هذا التقدّم یمکن اختصارها وحصرها فی أمرین:

أوّلاً: أنّ الیثربیّین جاوروا الیهودَ سنیناً عدیده وطویله قبل الإسلام وکثیراً ما

۱- . السیره النبویه: ۲/۳۰۵.

۲- . بحار الأنوار: ۱۹/۲۵ و ۲۶؛ السیره النبویه لابن هشام: ۲/۳۰۲-۳۰۵؛ الطبقات الکبری: ۱/۲۲۱-۲۲۳. وفی روایه أُخری فی البحار: ۱۹/۴۷، کما أخذ موسی من بنی إسرائیل اثنی عشر نقیباً. وقد کان هذا العمل النبوی حکیماً جداً لأنّ عامّه الناس لا یمکن التعویل والاتّکال علی التزاماتهم بل لابد من الاعتماد - ضمناً - علی رموز المجتمع ومفاتیحه وهم وجوه القوم وسراتهم.

كانوا يتحدّثون فی مجالسهم وأنديتهم عن النبیّ العربیّ الّذی يظهر، ويأتی بدينٍ جديدٍ.

حتّی أنّ اليهود كانوا يقولون: للوثنيين إنَّ هذا النبیّ سيقيم دينَ اليهود وينشره، ويمحی الوثنيه ويقضی عليها بالمره.

فتركت هـذه الكلماتُ أثراً عجيباً فی نفوس أهل يثرب، وهيّأت قلوبهم لقبول الـدين الّـذی كان يخبر عنه يهودُ وينتظرونه، بحيث عنـدما التقی الأنفار السته من أهل المدينه برسول اللّه صـلی الله عليه و آله و سـلم لأوّل مرّه، بادروا إلی الإيمان به من غير إبطاء ولا تأخير بعد أن قال بعضهم لبعض: واللّه إنَّه للنبیّ الّذی توعَّدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه.

ومن هنا فإنّ ممّا يأخـذه القرآن علی اليهود هو: أنّكم كنتم تهـدّدون الوثنيين بالنبیّ العربیّ، وتبشّـرون الناس بأنّه سـيظهر، وأنّكم قرأتم أوصافه وعلائمه فی التوراه فلماذا رفضتم الإيمان به لمّا جاء صلی الله عليه و آله و سلم؟

يقول تعالی:

«وَ لَمّـا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْـدِ اللّهِ مُصَـدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْـتَفْتِحُونَ عَلَی الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللّهِ عَلَی الْكافِرِينَ» .(۱)

ثانياً: أنّ العامل الآخر الّـذی يمكن اعتبارهُ دخيلاً فی التأثير فی نفوس اليثربيّين وسـرعه إقبالهم علی الإسـلام وتقبّلهم لدعوه النبیّ صلی الله عليه و آله و سـلم هو التعب والإرهاق الّـذی كان أهل يثرب قـد أُصـيبوا به من جرّاء الحروب الطويله الداميه فيما بينهم والّتی اسـتمرّت مائه وعشـرين عاماً والّتی أنهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقّی من رَمقهم، وجعلتهم يملّون الحياه، ويفقدون كلّ أمَلٍ فی تحسّن الأحوال والأوضاع.

۱- . البقره: ۸۹.

وإنّ مطالعه وقعه «بُعاث» وهی - حرب وقعت بین الأوس والخزرج - وحدها کفیله بأن تجسّد لنا الوجهَ الواقعی الّذی کان علیه سکان تلک الدیار. ففی هذه الوقعه انهزم الأوسیّون علی ید الخزرجیّین، فهربوا إلی «نجد»، فعیّرهم الخزرجیّون بذلک، فَغضب «الحضیر» سید الأوس، لذلک غضباً شدیداً، فطعن فخذه برمحه لشده انزعاجه وغضبه، وترجّل عن فرسه وصاح بقومه قائلاً:

واللّه لا أقوم من مکانی هذا حتّی أُقتل!! فأوقد صمود «الحضیر» وثباته نار الحمیه والغیره وأشعل روح الشهامه والبساله فی قومه، فقرّروا الدفاع عن حقّهم مهما کلّفهم الأمر، فقاتلوا أعداءهم مستمیتین، والمستمیت منتصر لا محاله، فانتصر الأوسیّون المغلوبون، هذه المره، وهزموا الخزرج هزیمه نکراء وأحرقت مزارعهم ونزل بهم ما نزل علی ید الأوسیّین!!.(۱)

ثم تتابعت الحروب والمصالحات بعد ذلک، وکانت القبیلتان تتحمّلان فی کلّ مره خسائر کبری، جعلتهم یواجهون عشرات المشاکل الّتی حوّلت حیاتهم إلی حیاه مضنیه متعبه جداً.

من هنا لم تکن کلتا القبیلتین راضیتین علی أوضاعهما، وکانتا تبحثان عن مخلص ممّا هما فیه، من الحاله السیئه، وتفتشان عن نافذه أمل، ومخرج من تلک المشاکل.

ولهذا وجد الخزرجیّون السته ضالّتهم المنشوده عندما التقوا - ولأوّل مرّه - رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وسمعوا منه ما سمعوا، فتمنّوا أن یضعوا به حدّاً لأوضاعهم المتردّیه إذ قالوا له: عسی أن یجمعهم اللّه بک فإن جمعهم اللّه بک فلا رَجلَ أعزّ منک.

۱- . لاحظ: الکامل فی التاریخ: ۱/۶۸۰.

كانت هذه هى بعض الأسباب الّتى دعت اليثربيّين إلى تقبّل الإسلام بشوقٍ ورغبةٍ وحماس.

ردود فعل قريش تجاه بيعه العقبه:

كانت قريش تغطّ فى نوم عميق وكانت تتصوّر بأنّها قد حدّت من تقدّم الإسلام فى مكّه وأنّه قد بدأ يتقهقر ويسير باتجاه السقوط والاندحار، وأنّه لن ينقضى زمانٌ إلّاوتنطفئ جذوه الإسلام وتخمد شعلته، وتنمحى آثاره.

وفجأه استيقظت على دوىّ بيعه العقبه الثانيه الّتى كانت بمثابه انفجار قلبت كلّ المعادلات، وأسقطت كلّ تصوّرات قريش الساذجه، وذلك عند ما عرف زعماء الوثنيّين بأنّ ثلاثاً وسبعين شخصاً من اليثربيّين عقدوا ليله أمس وتحت جنح الظلام بيعه مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على أن يدافعوا عنه كما يدافعون عن أبنائهم وأهليهم.

فأحدث هذا النبأ خوفاً عجيباً فى قلوب قاده قريش وساده مكّه المشركين المتغطرسين، لأنّهم أخذوا يقولون مع أنفسهم: لقد وجد المسلمون الآن قاعده قويه فى قلب الجزيره العربيه، وأنّه يُخشى أن يجمع المسلمون كلّ طاقاتهم المبعثره فيها. ويعملون معاً على نشر دينهم، وبث عقيدتهم، وحينئذ ستواجه الوثنيه فى مكّه خطراً جدياً، يهدّدُها فى الصميم.

ولهذا بادرت قريش إلى الاتّصال بالخزرجيّين صبيحه تلك الليله وقالوا لهم:

يا معشر الخزرج إنّه قد بلغنا أنّكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنّه واللّه ما من حىّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحربُ بينا وبينهم، منكم.

فحلفَ المشركون من أهل يثرب لقريش أنّه ما كان من هذا شىء، وما علموه، وقد صدقوا لأنّهم لم يعلموا بما جرى فى العقبه. فإنّ قافله اليثربيّين كانت

تضمُّ خمسمائه شخص، تسلَّلَ منهم ثلاث وسبعون فقط إلى العقبه وبقيه الناس نيام لا يعلمون بشيء.

فأتت قريشٌ إلى «عبداللّه بن أُبيّ بن سلول» فسألوه عَمّا جرى في ليله العقبه، فأنكر ذلك وقال: إنّ هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا (أي يعملوه من دون مشورتي) وما علمته كان فانصرفوا عنه.(۱)

فعرف المسلمون الذين حضروا ذلك المجلس وبايعوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بفشوّ أمرهم، وانكشاف سرهم، ولهذا قال بعضهم لبعض: مادمنا لم نُعرَف بعدُ فلنخرج من مكّه فوراً قبل أن يظفر المشركون بنا، ولهذا أسرعوا في الخروج من مكّه والتوجّه إلى المدينه، فزاد ذلك من سوء ظن قريش وعزّزت شكوكهم حولَ البيعه، وعرفوا بأنّه قد كان، فخرجوا في طلب جميع اليثربيّين، ولكنّهم لم يتتبّعوا لذلك إلّابعد خروج قافله اليثربيّين من حدود مكّه، والمكيّين، ولم تظفر قريش إلّا بسعد بن عباده. غير أنّ ابن هشام يرى بأنّهم ظفروا بنفرين هما: «سعد بن عباده» و «المنذر بن عمر»، وكان كلاهما من النقباء الاثنى عشر.

أمّا «المنذر» فاستطاع أن يخلّص نفسه منهم.

وأمّا «سعد» فقد أخذوه، وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رَحله، ثم أقبلوا به حتّى أدخلوه مكّه يضربونه، ويجذبونه بجمّته(۲) وكان ذا شعرٍ كثيرٍ.

قال سعد: فواللّه إنّي لفي أيديهم إذ طلع عليّ نفرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضيء أبيض، طويل القامه، فقلت في نفسي: إن يكُ عندَ أحدٍ من القوم خير فعند

۱- . السيره البنويه لابن هشام: ۲/۳۰۷.

۲- . مجتمع شعر الرأس.

هذا.

قال: فلما دنا منّى رفع يده فلكمنى لكمةً شديدةً.

فقلتُ فى نفسى: لا واللّه، ما عندهم بعد هذا من خير.

قال: فواللّه إنّى لفى أيديهم يسحبوننى إذ رقّ علىَّ رجلٌ ممّن كان معهم:

فقال: ويحك أما بينك وبين أحدٍ من قريش جوارٌ ولا عهدٌ؟

قلت: بلى كنتُ أُجير لجبير بن مُطعِم بن عدى تجارةً، وأمنعهم ممّن أراد ظلمهم ببلادى، وللحارث بن حرب، قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما، ففعل. وخرج ذلك الرجل إليهما... فقال لهما: إنّ رجلًا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً، قالا: ومَن هو؟ قال: سعد بن عباده.

فقال مُطعِم: صدق واللّه إنّه كان ليجير لنا تجارّنا، ويمنعهم أن يُظلموا ببلده، فجاءا فخلّصا سعداً من أيديهم.(۱)

تأثير الإسلام ونفوذه المعنوى:

يصرُّ المستشرقون على أنّ انتشار الإسلام ونفوذه فى المجتمعات تمّ بواسطه السيف وفى ظلّ استخدام القوّه.

أمّا بطلان هذا الكلام فسيثبت من خلال الحوادث القادمه.

ونحن نذكر هنا للمثال حادثةً وقعت قبل الهجره، ونلفت إليها نظر القارئ الكريم، فإنّ دراستها والتعمّق فيها يثبت بجلاء أنّ انتشار الإسلام ونفوذه فى أوساط الناس كان فى بدايه الأمر نابعاً من جاذبيته الّتى كانت تجذب كلّ إنسان بمجرد

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۲/۳۰۸.

إعطاء شرح مختصر عنه وعن تعاليمه المحببه إليه.

وإليك الحادثه بنصّها:

قرّر مصعب بن عُمير المبلّغ والداعيه الإسلامى المعروف الّذى بعثه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينه بطلب من أسعد بن زراره، ذات يوم أن يدعو هو وأسعد أشراف المدينه وساداتها إلى الإسلام بالمنطق والدليل، فدخلا حائطاً(۱) من حوائط المدينه فجلسا هناك واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم، وكان سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير وهما من سادات بنى الأشهل موجودين هناك أيضاً.

فقال سعد لأُسيد: جرّد حربتك وقل لهذين (يعنى مصعباً وأسعد) ماذا جاء بهما إلى ديارنا يسفهان ضعفاءنا، ولولا أنّ سعد بن زراره ابن خالتى، لكفيتُك ذلك.

ففعل أُسيد ذلك وقال لمصعب ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا وراح يشتمهما فقال له مصعب داعيه الإسلام الحكيم، والمتكلّم البليغ الّذى تعلّم أُسلوب الدعوه المؤثّر من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره؟

قال: أنصفتَ ثم ركّزَ حربته وجلس إليهما يستمع لقولهما فكلّمه مصعبٌ بالإسلام، وقرأ عليه شيئاً من القرآن فأثّرت آياتُ القرآن وما قاله مصعب من المواعظ البليغه فى نفسه حتّى عُرِفَ ذلك فى إشراق وجهه، وانفراج أساريره، وشوقه فقال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله؟! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلُوا فى هذا الدين؟ فقال مصعب وسعد له: تغتسل فتطهر وتغسل ثوبيك ثم تشهد شهاده الحق ثم تصلّى.

فقام أُسيد بن حضير الّذى حضر لقتل مصعب وسعد من عندهما مبتهجاً

۱- . بستاناً.

مسروراً فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهّد شهاده الحقّ ثم قام فركع ركعتين.

ثم قال لهما: إنّ ورائى رجلاً إن اتّبعَكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه وسأُرسله إليكما الآن، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد بن معاذ الّذى كان ينتظر عودته على أحرّ من الجمر، فلمّا نظر إليه سعد وقومه وهم جالسون فى ناديهم قال:

أحلفُ باللّه لقد جاءكم أُسيد بن حضير بغير الوجه الّذى ذهب من عندكم، فلمّا وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلّمت الرجلين، فواللّهِ ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ، فغضب سعدٌ لذلك غضباً شديداً، وأخذ الحربه من أُسيد، ثم خرج إلى مصعب وأسعد ليقتلهما، فلمّا رآهما سعد مطمئنين وقف عليهما متشتماً مهدّداً إيّاهما، ولكن مصعباً وزميله قابلاه بمثل ما قابلا به سابقه أُسيد، وجرى له ما جرى له، فقد فعلت كلمات مصعب فى نفسه فعلتها، وخضع لمنطقه القوى، وبيانه الساحِر، وندم على ما قصد فعله، وقال لمصعب نفس ما قاله أُسيد واعتنق الإسلام واغتسل وتطهّر وصلّى ثم رجع إلى قومه وقال لهم: يا بنى عبدالأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبةً.

قال: فإنّ كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرامٌ حتّى تؤمنوا باللّه وبرسوله، فالحمد للّه الّذى أكرمنا بذلك.

فلم يُمسِ فى دار بنى عبدالأشهل رجلٌ ولا امرأه إلّامسلماً أو مسلمه، وهكذا أسلم كلُّ قبيله بنى الأشهل قبل أن يروا النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وأصبحوا من الدعاه إلى الإسلام والمدافعين عن عقيده التوحيد، لا بمنطق القوه إنّما بقوه المنطق.(۱)

إنّ فى التاريخ الإسلامى نماذجَ كثيره من هذا القبيل تدلّ على بطلان وتفاهه

۱- . لاحظ: إعلام الورى: ۱/۱۳۹-۱۴۱؛ بحار الأنوار: ۱۹/۱۰ و ۱۱؛ السيره النبويه: ۲۹۷/۲.

ما قاله أو روّجه المستشرقون حول أسباب تقدّم الإسلام وانتشاره، فإنّ العامل المعتمدَ فی جمیع هذه الموارد لم یکن المال والتطمیع، ولا السلاح والتهدید، کما ادّعی المستشرقون، وإنّ الذین أسلموا فی هذه الحوادث والوقائع لا هم رأوا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، ولا أنّهم التقوا أو اتّصلوا به بنحوٍ من الأنحاء، إنّما کان السبب الوحید هو: منطق الداعیه الإسلامی القویّ وبیانه الساحر الجذّاب، فهُو الّذی کان یفعل فی النفوس فعله العجیب، خلال دقائق معدوده، لا فی نفس شخص واحد فحسب، بل ربّما فی نفوس قبیله بکاملها. أجل إنّه المنطقُ القوی والکلام المبرهن والحجه البالغه لاسواها.

مخاوف قریش المتزایده:

لقد أیقظت حمایه الیثربیّین للمسلمین قریشاً من غفلتها ونومها العمیق مره أُخری، وکانت بیعه العقبه الثانیه بمثابه ناقوس خطر لها فبدأت أذاها واضطهادها ومضایقتها لهم من جدید، وتهیّأت للعمل علی الحیلوله دون انتشار الإسلام ونفوذه وتقدّمه فی الجزیره العربیه، وبلغ ذلک الأذی مبلغاً عظیماً.

فشکا أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلیه ما یلقونه علی أیدی المشرکین من ضغوط وأذی، واستأذنوه فی الهجره إلی مکان فاستمهلهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثم قال:

«قد أُخبرت بدار هجرتکم وهی یثرب، فمن أراد الخروج فلیخرج إلیها».(۱)

وبعد الإذن بالهجره من قِبَل النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أخذ المسلمون یخرجون من مکّه، ویتوجّهون إلی المدینه شیئاً فشیئاً وبحجج مختلفه لکی لا تمنعهم قریش من الهجره.

۱- . الطبقات الکبری: ۱/۲۲۶.

ولم يكن قد مضى على بدايه هجره المسلمين التدريجيه هذه زمان طويل إلّا وفطن زعماء قريش لسرّها، وخطرها عليهم فأخذوا يمنعون من أى تنقل وسفر يقوم به المسلمون، وقرّروا أن يعيدوا إلى مكّه كلَ مَن وجدوه فى أثناء الطريق، كما قرّروا أن يحبسوا زوجه كلّ مسلم يريد الهجره وله زوجه قرشيه ويمنعوها عنه، ولكنّهم كانوا يتجنّبون إراقه الدماء فى هذا السبيل، بل وكان يقتصر أذاهم على الحبس والتعذيب ولا يتعدّاهما.

ولكن هذه المحاولات الّتى قام بها زعماء قريش لوقف الهجره إلى المدينه لم تثمر لحسن الحظ.

فقد استطاعت مجاميع كبيره من المسلمين النجاه بنفسها من أيدى قريش واللحاق بزملائهم وإخوانهم فى يثرب حتّى أنّه لم يبق فى مكّه من المسلمين إلّا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وعلى عليه السلام وعدد قليل من المسجونين، أو المرضى من المسلمين.

وقد زاد اجتماع المسلمين فى يثرب من مخاوف قريش، وضاعف من قلقها، ولهذا اجتمع كلُّ رؤساء القبائل المكيه فى «دار الندوه» أكثر من مرّه للتشاور فى كيفيه القضاء على الإسلام وطُرحت فى ذلك المجلس خطط متنوّعه، واقترحت أُمور كثيره لتحقيق هذه الغايه ولكنّها فشلت برمّتها بتدبير رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وحكمته، وسياسته الدقيقه.

وأخيراً هاجر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من «مكّه» إلى «المدينه» فى شهر ربيع الأوّل سنه ١۴ من البعثه.

أجل لقد تضاعف قلق قريش منذ أن حصل محمّد على قاعده ثانيه خارجه عن نطاق هيمنه المكيين وسيطرتهم وأصبحوا حيارى لا يدرون ماذا يفعلون، لأنّ جميع خططهم للمنع من انتشار الإسلام واتّساع رقعته، قد باءت بالفشل.

لقد أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أصحابه بالهجره إلى المدينه والالتحاق بالأنصار وقال لهم: «إنَّ اللّه قد جعل لكم داراً وإخواناً تأمنُون بها»(۱).(۲)

۱- . بحار الأنوار: ۱۹/۲۶.

۲- . لقد انتهينا من تسجيل حوادث السنوات الثلاث عشره من البعثه، وقد حاولنا ذكر كلّ ما كان معلوماً مشهوراً من تواريخها، ولكن لا يمكن اعتبار تواريخ كلّ تلك الحوادث أُموراً مقطوعاً بها من هنا ذكرنا الحوادث المثبته فى الفصل ۲۵ من دون إدراج تواريخ لها فى الأغلب ولكن حيث إنّ الوقائع الحادثه بعد الهجره وقعت فى أوقات معينه معلومه لذلك فاننا سنرفق ذكر كل حادثه بتاريخ وقوعها فى الفصول القادمه.

حوادث السنه الأولی من الهجره

۲۶ قصّه الهجره

اشاره

کان زعماء قریش و رؤساؤها یجتمعون عند کلّ نائبه تنوبهم فی «دار الندوه» لحلّ المشاکل ومعالجه ما عرض لهم من نائبهٍ من خلال التشاور حولها وتداول الرأی فیها، ومن خلال تضافر الجهود علی حلّها، ورفعها أو دفعها.

وفی السنوات الثانیه عشره، والثالثه عشره من البعثه واجه أهل مکّه خطراً کبیراً جدّیاً، فقد حصل المسلمون علی مرکز هام، وقاعده صلبه فی یثرب، وتعهّد الیثربیون الشجعان بحمایه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم والدفاع عنه، وکلّ هذا کان من علامات ومظاهر ذلک التهدید الخطیر، الّذی بات یهدّد کیان المشرکین والوثنیّین والزعامه القرشیه.

وفی شهر ربیع الأوّل من السنه الثالثه عشره من البعثه الّتی وقعت فیه هجره رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وبینما لم یکن قد بقی من المسلمین فی مکّه إلّارسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وعلی وأبوبکر و جماعه قلیله من المسلمین المحبوسین، أو المرضی، أو العجزه، وکان هؤلاء علی أبواب الهجره ومغادره مکّه إلی المدینه اتّخذت قریش فجأه قراراً قاطعاً وحاسماً وخطیراً جداً فی هذا المجال.

فقد انعقدت جلسه هامّه للتشاور فی «دار الندوه» حضرها رؤساء قریش وزعماؤها وبدأ متکلّمهم(۱) یتحدّث عن تجّمع القوی والعناصر الإسلامیه

۱- . وروی أنّه کان: أبوجهل.

وتمركزها فی المدینه والبیعه الّتی تمّت بین الخزرجیّین والأوسیّین وبین رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثم أضاف قائلاً:

یا معشر قریش إنّه لم یکن أحدٌ من العرب أعَزَّ مِنّا، نحن أهل اللّه تفد إلینا العرب فی السنه مرتین، ویکرموننا، ونحن فی حرم اللّه لا یطمع فینا طامعٌ، فلم نزل کذلک حتّی نشأ فینا «محمّد بن عبداللّه» فکنّا نسمّیه (الأمین) لصلاحه، وسکونه، وصدق لهجته، حتّی إذا بلغ ما بلغ وأکرمناه ادّعی أنّه رسول اللّه، وأنّ أخبار السماء تأتیه، فسفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبّاننا، وفرّق جماعتنا، فلم یرد علینا شیء أعظم من هذا، وقد رأیت فیه رأیاً قالوا: وما رأیت؟ قال: رأیت أن ندسّ إلیه رجلاً منّا لیقتله، فإن طلبت بنو هاشم بدمه(۱) أعطیناهم عشر دیات.

فقال رجلٌ مجهول(۲) حضر ذلک المجلس وعرّف نفسه بأنّه شیخ من أهل نجد: هذا رأی خبیث، قالوا: وکیف ذاک؟ قال: لأنّ قاتل محمّد مقتول لا محاله، فمَن هذا الّذی یبذل نفسَه للقتل منکم؟ فإنّه إذا قُتِل محمّد تعصّب بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعه، وإنّ بنی هاشم لا ترضی أن یمشی قاتل محمّد علی وجه الأرض فیقع بینکم الحروب وتتفانوا.

فقال أبو البختری: نلقیه فی بیت ونلقی إلیه قوته حتّی یأتیه ریبُ المنون.

فقال الشیخ النجدیّ مرهً أُخری: وهذا رأیٌ أخبث من الآخر، قال: وکیف ذاک؟ قال: لأنّ بنی هاشم لا ترضی بذلک، فإذا جاء موسمٌ من مواسم العرب استغاثوا بهم، واجتمعوا علیکم فأخرجوه.

فقال ثالث: نُخرجه من بلادنا ونتفرّغ نحن لعباده آلهتنا. وفی روایه أُخری قال: نرحّل بعیراً صعباً ونوثّق محمّداً علیه کتافاً، ثم نضربُ البعیرَ بأطراف الرماح

۱- . وفی روایه: بدیته.

۲- . فی بعض المصادر: وجاء إبلیس فی صوره شیخ کبیر.

فيوشَكَ أن يقطّعه بين الصخور والجبال إرباً إرباً.

فانبرى ذلك الشيخ النجدى يخطّئ هذا الرأى أيضاً قائلاً: أرأيتم إن خلص به البعير سالماً إلى بعض الناس فأخذ بقلوبهم بسحر بيانه وطلاقه لسانه، فصبأ(۱)القوم إليه واستجابت القبائل له قبيله فقبيلهٌ، فليسيرنَّ حينئذ إليكم الكتائب والجيوش فلتهلكنّ كما هلكت أياد ومن كان قبلكم.

فتحيّروا وساد الصمت ذلك المجلس، وفجأه قال أبوجهل (وعلى روايه:

قال ذلك الشيخ النجدى): ليس هناك من رأى إلّاأن تعمدوا إلى قبائلكم فتختاروا من كلّ قبيله منها رجلاً قوياً ثم تسلّحوه حساماً عَضباً وليهجموا عليه معاً بالليل ويقطّعوه إرباً إرباً فيتفرّق دمه فى قبائل قريش جميعاً فلا تستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضه قبائل قريش كلّها فى صاحبهم فيرضون حينئذ بالديه منهم!!

فاستحسن الجميعُ هذا الرأى، واتّفقوا عليه، ثم اختاروا القتله وتقرّر أن يقوموا بمهمتهم اذا جنّ الليل وساد الظلام كلّ مكان.(۲)

الإمدادات الغيبيه والعنايات الإلهيه:

لقد كان أُولئك العتاه الجهله يتصوّرون أنّ رساله محمّد صلى الله عليه و آله و سلم المدعومه من قبل اللّه تعالى والمؤيّده من جانبه سبحانه يمكن أن يقضى عليها بواسطه هذه الحيل والمكائد، والخطط والمؤامرات، ولم يكونوا يدركون أنّ هذا النبىّ - كغيره من الأنبياء - يتمتّع بالمدد الإلهىّ الغيبى، وأنّ اليد الّتى حفظت مشعل الإسلام طوال ثلاثه عشر عاماً فى وجه الأعاصير والرياح، قادره على إفشال هذه الخطه الأثيمه،

۱- . صبأ فلان: أى خرج من دينٍ إلى دين غيره، وكانت العرب تُسمّى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم الصابئ لأنّه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام، وتُسمّى المسلمين: الصباه.. وهو جمع الصابئ.

۲- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ۱/۲۲۷ و ۲۲۸؛ السيره النبويه لابن هشام: ۱/۳۳۱-۳۳۲؛ بحار الأنوار: ۱۹/۴۹-۵۰، و ۵۷-۵۹ باختلاف فى الألفاظ.

وتعطيل هذه المؤامره أيضاً.

يقول المفسّرون: بعد أن دبّر الكفّار ما دبّروا نزل ملك الوحى «جبرئيل»، على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأخبره بما حاك ضدّه المشركون من مؤامره، إذ قرأ عليه قول اللّه تعالى: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ» .(۱)

وعندئذ أُمِرَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالهجره من مكّه إلى المدينه، ولكنّ التخلّص من أيدى القساه المكلّفين بقتله من قبل زعماء الوثنيين وبالنظر إلى المراقبه الدقيقه الّتى كانوا يقومون بها لجميع التحرّكات، لم يكن بالأمر السهل وخاصّه بالنظر إلى بُعد المسافه بين مكّه والمدينه.

فإذا لم يكن رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يخرج من مكّه وفق خطه دقيقه صحيحه كان من المحتمل جداً أنّ يدركه المكيّون فى أثناء الطريق ويقبضوا عليه ويسفكوا دمه الشريف قبل أن يصل إلى أتباعه وأصحابه.

ولقد ذكر المفسّرون والمؤرّخون صوراً مختلفه لكيفيه خروج النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وهجرته والاختلاف الّذى نلاحظه بين هؤلاء المفسّرين والمؤرّخين فى خصوصيات وتفاصيل هذه الواقعه ممّا يقل نظيره فى غيره من الوقائع.

وقد استطاع مؤلّف «السيره الحلبيه»(۲) أن يُوفّق إلى درجهٍ مّا، بين المنقولات والمرويات المختلفه ببيان خاص، ولكنّه لم يوفّق لإزاله التناقض والاختلاف فى بعض الموارد فى هذا الصعيد.

۱- . الأنفال: ۳۰. ليثبتوك أى ليسجنوك.

۲- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۲/۱۹۱ وما بعدها.

على أنّ الموضوع الجدير بالإهتمام هو أنّ أكثر المؤرّخين الشيعه والسنّه نقل كيفيه هجره النبيّ، وخروجه من منزله، ثم من مكّه بنحو مؤدّاه إسناد نجاه النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم وخلاصه إلى عامل الإعجاز، وبالتالى فقد أسبغوا عليه صبغه الكرامه، والمعجزه.

فى حين أنّ الإمعان فى تفاصيل هذه القصه يكشف عن أنّ نجاه النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم كانت نتيجه سلسله من الإجراءات الاحترازيه، والتحسّبات، والتدابير الحكيمه، وإنّ إراده اللّه تعالى تَعَلّقت بأن ينجّى نبيّه الكريم، عن طريق الأسباب العاديه المألوفه، وليس عن طريق التدخّل الغيبيّ وإعمال قدرته تعالى الغيبيه.

ويدلّ على هذا المطلب أنَّ النبيّ توسّل بالعِلل الطبيعيه، والوسائل والأسباب العاديه (كمبيت شخص فى فراش النبيّ، واختفاء رسول اللّه فى الغار، وغير ذلك ممّا سيأتى ذكره)، وبهذا الطريق نجّا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم نفسه، وتخلّص من أيدى أعدائه، العازمين على إراقه دمه.

ملك الوحى يخبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بخطّه قريش لاغتياله

لقد أخبر ملك الوحى «جبرئيل» رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بخطّه قريش المشؤومه لاغتياله وأمره بالهجره، وتقرّر - بغيه إفشال عمليه الملاحقه - أن يبيت شخصٌ فى فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليتصوّر المشركون أنَّ النبيّ لا يزال فى منزله، ولم يخرج بعد، وبالتالى يركّزوا كلّ إهتمامهم على محاصره البيت، وينصرفوا عن مراقبه طرقات مكّه، ونواحيها.

ولقد كانت فائده هذا العمل أى حصر اهتمام المراقبين ببيت النبيّ أنّه تسنّى لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم اغتنام الفرصه والخروج من مكّه، والاختفاء فى مكان مّا من دون أن يحسّ به أحد من الذين باتوا يراقبون بيته، ويبغون قتله.

والآن يجب أن نرى مَن الّذى تطوَّع للمبيت فى فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وفدى النبيّ بنفسه، ووقاه بحياته؟

ستقولون حتماً: إنّ الّذى سبق جميع المسلمين إلى الايمان برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وبقى من بدء بعثته وإلى ذلك الحين يذب عنه، هوالّذى يتعيَّن أن يضحّى بنفسه فى هذا السبيل، ويقى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بحياته فى هذه اللحظه الخطيره، وهذا المضحّى بحياته ونفسه، هو «علىّ» ليس سواه أحد، أنّه تقدير صحيح، وحدس مصيب. فليس غير «على» يصلح لهذه المهمه الخطيره.

ولهذا قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لعلىّ عليه السلام:

يا علىّ إنَّ قريشاً اجتمعت عَلى المكر بى وقتلى، وإنّه أُوحى إلىَّ عن ربّى أن أهجرَ دار قومى، فنُم عَلى فراشى والتحف ببردى الحضرمىّ لِتُخفى بمبيتك عَليهم أثَرى، فما أنت قائل وصانع؟

فقال على عليه السلام: أوْ تَسلَمَنَّ بِمَبيتى هناك يا نبىَّ اللّه؟

قال: نعم، فتبسّم علىّ عليه السلام ضاحكاً مسروراً وأهوى إلى الأرض ساجداً، شكراً لما أنبأه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من سلامته، فلمّا رفع رأسه قال للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم:

إمض لما أُمرتَ فِداك سمعى وبصرى وسويداء قلبى، ومُرنى بما شئتَ أكن فيه كمسرّتك، واقع منه بحيث مرادك، وإن توفيقى إلّاباللّه.

ثم رقدَ علىّ عليه السلام على فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم واشتمل ببرده الحضرمى الأخضر، ولمّا مضى شطرٌ من الليل حاصرَ رَصَدُ قريش - وهم أربعون رجلاً - بيت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقد جرّدوا سيوفَهم، ينتظرون لحظه الهجوم على النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ويتطلّعون إلى داخل البيت من فرجه الباب بين الحين والآخر ليتأكّدوا من بقاء

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى مضجعه، فيظنون أنَّ النائمَ فى الفراش هو النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم.

وهنا أراد النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أن يخرج من بيته.

فمن جانب يحاصر الأعداءُ بيته صلى الله عليه و آله و سلم من كلّ جانب، ويراقبون كلّ شىء، ومن جانب آخر تعلّقت مشيئه اللّه تعالى وإرادته القاهره الغالبه أن ينجو رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من أيدى تلك الزمره المنحطه، فقرأ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سوره (يس) لمناسبه مطلعها لظروفه حتّى بلغ إلى قوله تعالى: «فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ» (۱) وخرج من باب البيت دون أن يشعر به رصدُ قريش المكلّفون بقتله، وذهب إلى المكان الّذى كان من المقرر أن يختبئ فيه على النحو الّذى سيأتى تفصيله.(۲)

وأمّا كيف استطاع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يخترق الحصار البشرىَ المشدَّد الّذى ضُرِبَ على بيته، ويتجاوز رصدَ قريش من غير أن يشعروا به فذلك غير معلوم جيداً.

إلّا أنّه يستفاد من روايه نقلها المفسّرُ الشيعىُ المعروفُ علىُ بن إبراهيم فى تفسيره(۳): قول اللّه تعالى: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» إنّ رجال قريش كانوا نياماً ينتظرون الفجر عند خروج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ولم يكونوا يتصوّرون أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قد عرف بتدبيرهم ومؤامرتهم.

ولكن يصرّح غيره من المؤرّخين وكُتّاب السيره(۴) بأنّ المحاصرين لمنزل النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كانوا يقظين حتّى لحظه الهجوم على بيت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وأنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم خرج من البيت عن طريق الإعجاز والكرامه من دون أن يروه ويحسّوا به.

۱- . يس: ۹.

۲- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۹/۶۰.

۳- . لاحظ: تفسير القمى: ۱/۲۷۶.

۴- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ۱/۲۲۸؛ تاريخ الطبرى: ۲/۱۰۰.

إنّ إمكـان وقوع مثـل هـذه الكرامه ليس موضع شـكّ، ولكن هـل كـان هناك ما يوجب ذلك؟! إنّ دراسه قصه الهجره بصوره كامله تجعل هذه المسأله أمراً قطعياً وهى أنَّ النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم كان عارفاً بمؤامره القوم قبل محاصـره بيته، وكان قد دبّر ورسم لنجاته خطةً طبيعيةً عاديةً، ولم يكن فى الأمر أى إعجاز.

لقـد كان يريـد صـلى الله عليه و آله و سـلم بإضـجاع على عليه السـلام فى فراشه أن ينجو بنفسه من أيدى المشـركين من الطرق العاديه والقنوات الطبيعيه من غير الاستعانه بالإعجاز والكرامه.

وعلى هذا كان فى مقدور النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم أن يتحسّب لمسأله المحاصـره والطوق الّذى كان سيُضرَب على بيته من أوائل الليل، وذلك بمغادره بيته قبل المحاصره وقبل الغروب.

ولكن يمكن أن يكون لتوقّف النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى البيت حتّى ساعه المحاصره علّه لا نعرفها الآن.

من هنا يكون ادّعاء هـذا الموضوع (وهو خروج النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم من البيت فى الليل) غير مقطوع به لدى الجميع لاعتقاد البعض بأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم غادر منزله قبل فرض الحصار عليه، وقبل غروب الشمس.

إ قتحام الأعداء لبيت الوحى:

طوّقت قوى الكفر مهبـط الوحى وبيت الرسـاله وبـاتت تنتظر لحظه الإـذن فى اقتحامه، والهجوم على النبىّ صـلى الله عليه و آله و سلم فى فراشه وضربه وتقطيعه بالسيوف إرباً إرباً!

وقـد أصـرّ جمـاعه منهم أن ينفّـذوا خطتهم المشؤومه هـذه فى منتصف الليـل وقبـل الفجر، فمنعهم أبو لهب من ذلـك وقـال: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل، فإنَّ

فی الدار صبیاناً ونساءً من بنی هاشم، ولا نأمن أن تقع یدٌ خاطئه، فنحرسه اللیله، فإذا أصبحنا دخلنا علیه.

وربّما یقال أنّ علّه التأخیر هی أنّهم أرادوا أن یقتلوا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عند الصباح أمام أعین بنی هاشم حتّی یروا أنّ قاتله جماعه ولیس واحداً.

وانقشع الظلام شیئاً فشیئاً، وانفجر الصبحُ، ودبّ فی المشرکین شوقٌ غریبٌ، مع اقتراب ساعه الصفر، فقد کانوا یتصوّرون بأنّهم سینالون ما یریدون قریباً، وبینما هم ینتضون سیوفهم دخلوا حجره رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وبینما هم یهمّون بأخذ مَن کان راقداً فی الفراش بسیوفهم، إذا بهم یواجهون علیاً علیه السلام یثب فی وجوههم وهو یکشف عن نفسه برد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الأخضر، وقال لهم فی منتهی الطمأنینه والشجاعه: ما شأنکم؟ وماذا تریدون؟

فقالوا له بغضب: أین محمّد؟

فقال علیه السلام: أَجَعَلتمونی علیه رقیبا؟!

فغضِبَ القوم غضَباً شدیداً، وکاد الغیظ یخنقهم، فقد ندموا علی انتظارهم انفجار الصبح وحمّلوا أبا لهب الّذی منعهم من تنفیذ الهجوم علی النبیّ فی منتصف اللیل فشل الخطه وتفویت الفرصه، فأقبلوا علیه یلومونه ویوبّخونه!!

أجل لقد انزعجت قریش بشده لفشل هذه المؤامره، ووجدوا أنفسهم أمام هزیمه نکراء بدّدت کلّ أحلامهم، وحیث إنّهم کانوا یتصوّرون بأنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لا یستطیع الخروج عن حدود مکّه فی مثل تلک المده القصیره، فهو إما مختبئ فی مکّه، أو أنّه لا یزال فی طریق المدینه، لذلک أقدموا فوراً علی العمل علی ترتیب أمر ملاحقته والقبض علیه.(۱)

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۹/۵۰-۵۱.

النبیُّ فی غار ثور:

إنّ ما هو مسلّم به هو أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أمضی هو وأبوبکر لیله الهجره ولیلتین أُخریین بعدها فی غار ثور الّذی یقع فی جنوب مکّه فی النقطه المحاذیه للمدینه المنوره.(۱)

ولیس من الواضح کیف تمّت هذه المصاحبه والمرافقه ولماذا، فإنّ هذه المسأله من القضایا التاریخیه الغامضه.

فإنّ البعض یعتقد بأنّ هذه المصاحبه کانت بالصدفه، فقد رأی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أبابکر فی الطریق، فاصطحبه معه إلی غار ثور.

وروی فریق آخرٌ أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ذهب فی نفس اللیله إلی بیت أبی بکر، ثم خرجا معاً فی منتصف اللیل إلی غار ثور.(۲)

وقال فریق ثالث: إنّ أبابکر جاء هو بنفسه یرید النبیّ وکان صلی الله علیه و آله و سلم قد خرج من قبل فأرشدهُ «علیٌّ» إلی مخبأ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم.

وعلی کلّ حال فإنّ کثیراً من المؤرّخین یعُدّون هذه المصاحبه من مفاخر الخلیفه ومناقبه، ویذکرون هذه الفضیله ویتحدّثون عنها بکثیر من الإسهاب والإطناب، وبمزید من الإکبار والإعجاب.

قریش تفتش عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم:

لقد تسبّب فشل قریش فی تغییر خطّتها، فقد بادرت إلی بثّ العیون والجواسیس فی طرقات مکّه، ومراقبه مداخلها ومخارجها مراقبهً شدیدهً، وبعثت

۱- . حیث إنّ الطریق المؤدّی إلی المدینه تقع فی شمال مکّه، فاختبأ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی منطقه مقابله، أی فی أسفل مکّه، لیعمی بذلک علی قریش فلا یتّبعوا أثره.

۲- . تاریخ الطبری: ۲/۱۰۰-۱۰۱.

القافّه تقتص أثره فی کلّ مکان، وفی طریق مکّه - المدینه خاصّه.

ومن جانب آخر جعلت مائه إبل لمَن یأخذ نبی اللّه، ویردّه علیهم أو یأتی عنه بخبرٍ صحیح.

وعمد جماعهٌ من قریش إلی ملاحقه رسول اللّه والتفتیش عنه فی شمال مکّه، حیث الطریق المؤدّی إلی المدینه، علی حین أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کان قد اختبأ - کما قلنا - فی نقطه بجنوب مکّه لإفشال عملیه الملاحقه.

وتصدّت مجموعه أُخری لتتبع أثر قدم النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ورفیقه!!

وکان الّذی یقفو لهم الأثر یُدعی أبا مکرز فوقف بهم علی باب حجره رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فقال: هذه قدم محمّد، فما زال بهم حتّی أوقفهم علی باب الغار فانقطع عنه الأثر فقال: ما جاوز محمد ومَن معه هذا المکان، إمّا أن یکونا صعدا إلی السماء أو دخلا تحت الأرض، فإنّ بباب هذا الغار - کما ترون علیه - نسجُ العنکبوت والقبجه حاضنه علی بیضها بباب الغار(۱)، فلم یدخلوا الغار.

ولقد استمرت هذه المحاولات بحثاً عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ثلاثه أیام بلیالیها ولکن دون جدوی، فلمّا یئس القوم بعد ثلاثه أیام من السعی ترکوا التفتیش وکفّوا عن الملاحقه.

الإمام علی علیه السلام والتفانی فی سبیل الحق:

إنّ النقطه المهمه فی هذه الصفحه من التاریخ هی ما قام به علی علیه السلام من تفانٍ فی سبیل الحقّ، والحقیقه.

۱- . لاحظ: الطبقات الکبری: ۱/۲۲۹؛ تاریخ الخمیس: ۱/۳۲۷-۳۲۸؛ بحار الأنوار: ۱۹/۷۳ وغیرها. ولقد ذکر عامّه المؤرّخین هذه الکرامه هنا، ولا ینبغی، نظراً لما ذکرناه فی قصه الفیل وهلاک إبرهه وجنده بواسطه الأبابیل، تأویل مثل هذا الکرامات.

إنّ التفانی فی سبیل الحقّ من شیمه الرجال الذین أحبّوا الحقّ وعشقوه بکلّ وجودهم وکیانهم.

إنّ الذین یغضون نظرهم عن کلّ شیء من أشیاء الدنیا ویضحُّون بالنفس والمال والشخصیه، ویستخدمون کلّ طاقاتهم المادیه والمعنویه فی سبیل خدمه الحقّ، وإحیائه، وإقامته هم ولا شک من عشاق الحقّ والحقیقه الصادقین. إنّهم یرون کمالهم وسعادتهم فی هدفهم، وهذا هو الّذی یدفعهم إلی أن یصرفوا النظر عن الحیاه العابره، والعیش المؤقت، ویلتحقوا برکب الحیاه الواقعیّه الأبدیه.

إنّ مبیت علیّ علیه السلام فی فراش رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی تلک اللیله الرهیبه لَنمُوذجٌ بارزٌ من هذا الحبّ الحقیقیّ للحقّ، والعشق الصادق للحقیقه، فإنّ الدافع وراء التطوّع لمثل هذه المهمه الخطیره لم یکن إلّاحبّ «علیّ» لبقاء الإسلام الّذی یکفل سعاده المجتمع، ویضمن ازدهار الحیاه، لا غیر.

إنّ لهذه التضحیه والتفانی من القیمه العظمی بحیث مدحها اللّه تعالی فی کتابه العظیم، ووصفها بأنّها کانت تضحیه صادقه لکسب مرضاه اللّه، فإنّ الآیه التالیه نزلت - حسب روایه أکثر المفسّرین - فی هذا المورد:

«وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یَشْرِی نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ وَ اللّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» .(۱)

إنّ عظمه هذه الفضیله وأهمیه هذا العمل التضحویّ العظیم دفعت بکبار علماء الإسلام إلی اعتبارها واحده من أکبر فضائل الإمام علی علیه السلام، وإلی أن یَصِفُوا بها علیاً بالفداء والبذل والإیثار، وإلی أن یعتبروا نزول الآیه المذکوره فی شأنه من

۱- . البقره: ۲۰۷.

المسلّمات كلّما بلغ الحديث فی التفسير والتاريخ إليها.(۱)

إنَّ هذه الحقيقه لا يمكن كتمانها أبداً فإنّه من الممكن إخفاء وجه الواقع والتعتيم عليه بعض الوقت إلّاأنّه سرعان ما تمزّق أشعهُ الحقيقه الساطعه حجبَ الأوهام، وتخرج شمس الحقيقه من وراء الغيوم.

إنّ معاداه معاويه لأهل بيت النبوه وبخاصّه للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ممّا لا يمكن النقاش فيه.

فقد أراد هذا الطاغيه من خلال تطميع بعض صحابه النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم أن يلوّث صفحات التاريخ اللامعه ويخفی حقائقه بوضع الأكاذيب، ولكنّه لم يحرز فی هذا السبيل نجاحاً.

فقد عمد «سمره بن جندب»(۲) الّذی أدرک عهد رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم ثم انضمّ بعد وفاته صلی الله عليه و آله و سلم إلی بلاط معاويه بالشام، عمد إلی تحريف الحقائق لقاء أموال أخذها من الجهاز الأموی، الحاقد علی أهل البيت.

۱- . لاحظ: مسند أحمد: ۱/۸۷؛ وكنز العمال: ۶/۴۰۷، وقد نقل كتاب الغدير: ۲/۴۷-۴۹ طبعه لبنان مصادر نزول هذه الآيه فی شأن علی عليه السلام علی نحو التفصيل، فراجع.
۲- . سمره بن جندب من العناصر المجرمه فی الحكومه الأُمويه، ولم يكتف سمره بتحريف الحقائق وقلبها بما ذكرناه، بل أضاف إلی ذلک - حسب روايه ابن أبی الحديد - أمراً آخر أيضاً إذ قال: ونزل فی شأن «علیّ» قول اللّه: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِی الْحَياهِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللّهَ عَلی ما فِی قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ» (البقره: ۲۰۴). ومن جرائم هذا الرجل أنّه قتل يوم وُلّیَ البصره علی عهد زياد بن أبيه العراق ثمانيه آلاف ممّن كانوا يحبون أهلَ البيت ويوالونهم، وعندما سأله معاويه: هل تخاف أن تكونَ قد قتلتَ أحداً بريئاً؟ أجاب قائلاً: لو قتلتُ إليهم مثلَهم ما خشيت!! هذا ومخازی هذا الرجل أكثر من أن تستوعبه هذه الصفحات القلائل. وسمره هذا هو ذلک الرجل الصلف الجاف الّذی رد علی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم طلبَه بأن يراعی حقَّ جاره فی قضيه النخله مراراً فقال له رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم: «إنّک رجل مضارّ ولا ضرر ولا ضرار فی الإسلام» ولمزيد التوضيح راجع كتب الحديث والتراجم والتاريخ.

فقد طلب منه معاويه بإصرار أن يَرقى المنبر ويكذّب نزول هذه الآيه فى شأن على عليه السلام، ويقول للناس إنّها نزلت فى حقّ قاتل علىّ (أى عبدالرحمن بن ملجم المرادى)، ويأخذ فى مقابل هذه الأُكذوبه الكبرى، وهذا الاختلاق الفضيع الّذى أهلك به دينه مائه ألف درهم.

فلم يقبل «سمره» بهذا العرض ولكن معاويه زاد له فى المبلغ حتّى بلغ أربعمائه ألف درهم، فقبل الرجل بذلك فقام بتحريف الحقائق الثابته، مسوّداً بذلك صفحته السوداء أكثر من ذى قبل وذلك عند ما رقى المنبر وفعل ما طلب منه معاويه.(۱) وقبل السامعون البسطاء قوله، ولم يخطر ببال أحد منهم أبداً أنّ (عبدالرحمن بن ملجم) اليمنىّ لم يكن يوم نزول الآيه فى الحجاز بل لعلّه لم يكن قد وُلِدَ بعد آنذاك. فكيف يصح؟!

ولكن الحقيقه لا يمكن أن تخفى بمثل هذه الحجب الواهيه، ولا يمكن أن تنسى بمثل هذه المحاولات العنكبوتيه الرخيصه.

فقد تعرّضت حكومه معاويه وتعرّض أهلها وأنصارها للحوادث، واندثرت آثار الاختلاق والافتعال الّذى وقع فى عهده المشؤوم، وطلعت شمس الحقيقه والواقع من وراء حجُبُ الجهل والافتراء مره أُخرى، واعترف أغلبُ المفسّرين الأجلّه والمحدّثين الأفاضل - فى العصور والأدوار المختلفه - بأنّ الآيه المذكوره نزلت فى «ليله المبيت» فى بذل على عليه السلام ومفاداته النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بنفسه.(۲)

۱- . لاحظ: شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۴/۷۳.

۲- . لاحظ: شرح نهج البلاغه: ۱۳/۲۶۲، ولقد أعطى ابن أبى الحديد حقّ الكلام حول هذه الفضيله.

كلام من ابن تيميه:

أحمد بن عبدالحليم الحرّانى الحنبلىّ الّذى مات فى سجن بدمشق عام ٧٢٨ ه من علماء السنّه، تعود إليه أكثر معتقدات الوهابيّين، وأفكارهم.

ولابن تيميه هذا آراء ومواقف خاصّه من النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم وأميرالمؤمنين، وعامّه أهل بيت النبوه، وقد صرّح بأكثر آرائه ومعتقداته هذه فى كتابه «منهاج السنّه».

وقد دفعت عقائدُه المنحرفه وآراؤه الضالّه الكثير من علماء عصره إلى تكفيره، والتبرّى منه.

ومن المؤسف أن يكون قد تأثّر بآرائه بعض السذّج والجاهلين، فنجدهم يشيعون آراءه فى المجتمع من دون تحقيق فيما قال، ومن دون مراجعه ذوى الاختصاص لمعرفه رأيهم فى أفكاره ومعتقداته، وهم غافلون عن أنّ مثل هذه الآراء قد صدرت من منحرف، وكذّبه بل وكفّره بسببها أهل مذهبه.

ولابن تيميه رأى عجيب حول هذه الفضيله (مبيت على فى فراش النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم) نذكره للقارئ الكريم مع تصرّف بسيط فى الألفاظ.(١)

يقول: إنّ مبيت «علىّ» فى فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لا تعدّ فضيله، لأنّ عليّاً عرف من طريقين بأنّه لن يصيبَه شىء فى تلك الليله:

الأوّل: إخبار رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الصادق المصدَّق نفسه إيّاه بذلك، إذ قال له فى نفس تلك الليله: «نَمْ فى فِراشى فإنّه لن يَخْلُص إليكَ شىء تكرَهُهُ منهم»!!.

الثانى: أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كلّفه بردّ الودائع وأداء الأمانات الّتى أودعها أهل مكّه

١- . لاحظ: منهاج السنّه النبويه: ٧/١١٠، فصل (قال الرافضى: البرهان الثامن: قوله تعالى: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ»). تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعه الأُولى - ١۴٠۶ ه.

عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، إلى أصحابها.

فعلم - من ذلك - أنّهُ لن يُقتل وإلّا لكلّفَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الآخرين بها.

فعرف «علىٌ» من هذا التكليف أنّه لن يلحقه أذىً فى هذه العمليّه وأنّه سيوفَّق لأداء ما كلّفَهُ به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

الجواب:

وقبل أن نجيب عن هذا الكلام على نحو التفصيل نقول إجمالاً: إنّ ابن تيميّه بإنكاره هذه الفضيله أثبت فضيله أعلى لعلىّ عليه السلام؛ لأنّه إمّا أن يكون إيمان علىّ بصدق مقاله الرسول كان إيماناً عادياً، وإمّا أن يكون إيماناً قوياً جدّاً، وكانت جميع أقوال النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وإخباراته لديه - فى ضوء إيمانه - كالنهار فى وضوحه. وعلى الفرض الأوّل لم يكن لعلىّ يقينٌ بنجاته من تلك الواقعه، لأنّه لا يحصل لمثل هذه الطبقه من الناس (ولا شكّ أنّ عليّاً ليس منهم حتماً) يقينٌ من كلام النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، وحتّى لوقبلوا به فى الظاهر، فإنّهم سيساورهم القلق، ولا يفارقهم الاضطراب، وإذا هم باتوا فى فراشه فى لحظات الخطر، فإنّهم سيبقون فريسه الخوف والوجل وستمرّ فى نفوسهم احتمالاتٌ كثيرةٌ حول مآل الأمر ومصيره، وسيتمثّل أمامهم شبح الموت المرعب فى كلّ لحظه وآن.

وعلى هذا الفرض لابد أن يقال: بأنَّ علىّاً عليه السلام لم يقدم على هذا الأمر الخطير إلّا وهو يحتمل الهلاك على أيدى المشركين، لا أنّه بات وهو يتيقّن النجاه والسلامه.

وأمّا بناءً على الفرض الثانى فإنّه تثبت لعلىّ عليه السلام فضيله أعلى وأعظم، لأنّ إيمانَ الرجل يجب أن يبلغ من القوه والكمال بحيث لا يفرّق بين صدق كلام النبىّ وبين وضوح النهار، أى أنّهما يكونان عنده بمنزله سواء.

ص:۶۵۸

ولا شک أنّ أهمیه مثل هذا الإیمان لا یمکن أن یعادِلها شیء.

ونتیجه هذا الإیمان هی أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم عند ما قال له: نَم فی فراشی فلن یصیبک من هجوم الأعداء الحاقدین مکروهٌ، أن ینام فی فراش النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بقلبٍ واثِقٍ بالسلامه، ونفس مطمئنّهٍ إلی النجاه، ومن دون أن یخالج نفسَهُ أقل احتمال للخطر.

ولو کان مراد ابن تیمیه من قوله: إنّ علیّاً کانَ واثقاً من سلامته، لأنّ الصادق المصدَّق أخبره بذلک، هو: إثبات أعلی درجات الإیمان لعلیّ علیه السلام، فقد أثبت له علیه السلام من حیث لا یشعر أکبر فضیله، وأعلی منقبه، وهی کمال الایمان والثقه برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وإخباره.

هذا هو الجواب الإجمالی وإلیک الجواب التفصیلی:

الجواب التفصیلی:

فنقول عن الدلیل الأوّل: إنّ عباره «لا یخلص إلیک شیء تکرهه» لم ینقلها بعض أرباب السیره ورجال علم التاریخ الذین لهم سابقه لا تنکر فی هذا الصعید.(۱)

نعم روی ابن الأثیر (المتوفّی عام ۶۳۰ ه)(۲)، والطبری (المتوفّی عام ۳۱۰ ه)(۳) هذه العباره وکأنّما قد أخذاها عن ابن هشام فی سیرته(۴) الّتی نقل فیها

۱- . مثل ابن سعد (المولود عام ۱۶۸ والمتوفّی عام ۲۳۰ ه) فی الطبقات الکبری: ۱/۲۲۷ و ۲۲۸، وکذا المقریزی فی أمتاع الإسماع، عند ذکرهم لتفاصیل قضیه المبیت.

۲- . الکامل فی التاریخ: ۲/۱۰۳.

۳- . تاریخ الطبری: ۲/۹۹.

۴- . السیره النبویه: ۱/۳۳۳.

تلـك العبـاره بـالصوره المتقـدّمه الـذكر، خـاصه أنّ عبـاره ذينـك المؤلّفين (الطبرى وابن الأثير) تطابق عباره ابن هشام فى هـذا المجال تماماً.

هذا مضافاً إلى أنّ القضـيه لا توجد بهذه الصوره فى مؤلّفات علماء الشيعه على ما نعلم. ولقد نقل شيخُ الطائفه الإماميه محمّد بن الحسن الطوسـىّ (المتوفّى عام ۴۶۰ ه) فى أماليه قصه الهجره بشـكل أكثر تفصـيلاً ودقّه، وذكر العباره المذكوره مع تغيير بسـيطٍ، إلّاأنّه تختلف صوره القضـيّه مع ذلك عمّا هى عليه فى كتب أهل السـنّه، فإنّه رحمه اللّه يصـرّح بأنّ عليّاً عليه السـلام انطلق هو و «هنـد بن أبى هاله» ابن خديجه وربيب رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم فى منتصف الليل بعد ليلتين من الهجره حتّى دخلا على النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فقال صلى الله عليه و آله و سلم لعلىّ:

«إنّهم لن يَصِلُوا مِنَ الآن إليك يا على بأمرٍ تكرهه حتّى تقدم علىّ».(۱)

وهـذه الجمله تشـبه الجمله الّتى ذكرهـا ابن هشـام والطبرى وابن الأـثير، ولكن النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم قالهـا لعلىّ عليه السلام مطمئِناً إيّاه بعد ليلتين من المبيت فى الفراش، وليس ليله المبيت كما يروى الثلاثه المذكورون.

هذا علاوه على أنّ كلام على نفسه خير شاهد على ما نقول:

فلقد عدّ علىّ عليه السـلام عمله هذا (أى المبيت فى فراش رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم فى تلك الليله الرهيبه) نموذجاً من بذله وتفانيه فى سبيل الحقّ كما يتّضح ذلك بجلاء من أشعاره حيث يقول:

وَقَيتُ بنفسى خيرَ مَن وَطئ الحصا ومَن طاف بالبيتِ العتيقِ وبالحجر

محمّد لما خافَ أن يمكُروا بهِ فَوقّاهُ ربّى ذُوالجلالِ مِن المَكرِ

۱- . أمالى الطوسى: ۴۶۸ ح ۳۷ (۱۰۳۱)، المجلس ۱۶.

وَبِتُ أَراعيهم متى ينشروننى وَقَد وطّنَت نفسى على القتل والأسر

وباتَ رَسُولُ اللّهِ فى الغار آمِناً هناكَ وَ فى حفظِ الإله وفى سَترِ(۱)

ومع هـذه العبارات الصَريحه لا مجال للاعتماد على قول ابن هشام الّذى تدل قرائنٌ كثيرةٌ على خطئه، ويُحتمل، احتمالاً قوياً، بأنّ اشـتباهه وخطأه قـد نشأ من تلخيصه لسيره ابن إسـحاق، وحيث إنّه (ونعنى ابن هشام) قـد بنى فى سيرته على الاختصار لـذلك اكتفى بنقل أصل العباره، مهملاً ظرف النطق بها لعـدم أهميه زمن النطق بها وأنّها قيلت فى الليله الثانيه أوالثالثه، فى نظره، وروى الموضوع بنحوٍ يوهم بأنّ جميع هذه الأُمور وقعت فى ليلةٍ واحدةٍ!!

ويؤيّـد رأينـا هـذا أيضـاً الحـديث المعروف الّـذى رواه كثيرٌ من علماء السـنّه والشـيعه وهو: أن اللّه أوحى إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أنّى قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر صاحبه فأيّكما يؤثر صاحبه بحياته؟

فاختـار كـلّ منهما الحياه وأحبّاها، فأوحى اللّه تعالى إليهما: عبـداى أفلا كنتما مثل علىّ بن أبى طالب، آخيت بينه وبين «محمّـد» فبات على فراشه يفديه بنفسه.

ثم أمرهما بالهبوط إلى الأرض وحراسه علىّ وحفظه من عدوه.(۲)

الخطيب وقضيه المبيت:

وينبغى أن نختم هذا الفصل بما كتبه الأُسـتاذ عبدالكريم الخطيب حول مبيت على عليه السلام فى فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سـلم حيث قـال: لقـد دعا رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم عليّاً ليله الهجره، وطلب إليه أن يبيت فى المكان الّـذى اعتاد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن يبيت فيه، وأن

۱- . أمالى الطوسى: ۴۶۹ ح ۳۷. هذا مضافاً إلى أنَّ الإمام عليه السـلام نفسه قد اسـتنشد المسـلمين مراراً بهذه القضيه مستدلّاً بها على تفانيه فى سبيل الإسلام.

۲- . بحار الأنوار: ۱۹/۳۹ نقلاً عن إحياء العلوم للغزالى.

يتغطّى بالبرد الحضرمىّ الّذى كان النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يتغطّى به حتى إذا نظر ناظر من قريش إلى الدار رأى كأنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم نائم فى مكانه مغطى بالبرد الّذى يتغطّى به، وهذا الذى كان من علىّ فى ليله الهجره إذا نظر إليه فى مجرى الأحداث الّتى عرضت للإمام على فى حياته بعد تلك الليله فإنّه يرفع لعينى الناظر أمارات واضحه وإشارات دالّه على أنّ هذا التدبير الّذى كان فى تلك الليله لم يكن أمراً عارضاً، بل هو عن حكمه لها آثارها - إلى أن قال: - إنّه إذا غاب شخص الرسول كان علىٌ هو الشخصيه المهيّأه لأن تخلفه وتمثّل شخصه وتقوم مقامه، حين نظرنا إلى علىّ وهو فى برد الرسول وفى مثوى منامه الّذى اعتاد أن ينام فيه فقلنا: هذا خَلَفُ الرسول صلى الله عليه و آله و سلم والقائم مقامه.(۱) وأمّا الدليل الثانى الّذى يستفيد منه ابن تيميه أنّ علياً كان يعلم بمصيره هو توصيه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم له بأداء الأمانات والودائع إلى أهلها، الّتى كانت تَكشف عن أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يعلم بأنّه لن يصلَ إليه مكروهٌ، ولهذا أمره بردّ الودائع والأمانات إلى أصحابها؛ فيمكن الإجابه عنه إذا استعرضنا بقيه قصّه الهجره بشكل صريح وكامل.

وإليك بقيه قصّه الهجره.

بقيه قصهِ هجرهِ النبىّ:

انتهت المراحلُ الأُولى لنجاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وفق تخطيط صحيح، بنجاح، فقد لجأ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى منتصف اللّيل إلى غار ثور، واختبأ فيه، وبذلك أفشل محاوله المتآمرين عليه.

ولقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم طوال هذا الوقت مطمئنّاً لا يحسُّ فى نفسه بأىّ

۱- . راجع كتاب على بن أبى طالب بقيّه النبوّه وخاتم الخلافه: ۱۰۳-۱۰۵ ملخّصاً.

قلق أو إضطراب، حتّى أنّه طمأن رفيقَ سفره عندما وجده مضطرباً فی تلک اللحظات الحسّاسه بقوله:

«لا تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنا» .(۱)

وبقی هناک ثلاث لیال محروساً بعین اللّه تعالی و مشمولاً بعنایته ولطفه، وکان یتردّد علیه صلی الله علیه و آله و سلم فی هذه الأثناء علیٌ علیه السلام وهند ابن أبی هاله (ابن خدیجه) علی روایه الشیخ الطوسی فی أمالیه، وعبداللّه بن أبی بکر وعامر بن فهیره راعی أغنام أبی بکر (بناء علی روایه کثیر من المؤرّخین).

یقول ابن الأثیر: کان عبداللّه بن أبی بکر یتسمَّع لهما بمکه نهاره ثم یأتیهما لیلاً، وأمر عامر بن فهیره مولاه أن یرعی غنمه نهاره علی مقربه من الغار، وکان عبداللّه بن أبی بکر إذا غدا من عندهما أتبع عامر بن فهیره أثره بالغنم حتّی یعفی أثره.(۲)

یقول الشیخ الطوسی فی أمالیه: انطلق (علی) هو وهند بن أبی هاله حتّی دخلا علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الغار (بعد لیله الهجره)، فأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم هنداً أن یبتاع له ولصاحبه بعیرین، فقال أبوبکر: قد کنتُ أعددت لی ولک یا نبی اللّه راحلتین نرتحلهما إلی یثرب.

فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: إنّی لا آخذهما ولا أحدهما إلّابالثمن. قال: فهی لک بذلک، فأمر صلی الله علیه و آله و سلم علیّاً علیه السلام فأقبضه الثمن.(۳)

وکان من جمله وصایا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لعلیّ علیه السلام فی الغار فی تلک اللیله أن یؤدّی أمانته علی أعین الناس ظاهراً، وذلک بأن یقیم صارخاً یهتف بالأبطح غدوه

۱- . التوبه: ۴۰.

۲- . الکامل فی التاریخ: ۲/۱۰۴.

۳- . أمالی الطوسی: ۴۶۷ ح ۳۷.

وعشياً: ألا ـ مَن كان له قبل محمّد أمانه أووديعه فليأت فلنؤدِّ إليه أمانته.(۱) ثم أوصاه صلى الله عليه و آله و سلم بالفواطم (والفواطم هن: فاطمه الزهراء بنت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الحبيبه لديه والأثيره عنده، وفاطمه بنت أسد أُمّ علىّ عليه السلام، وفاطمه بنت الزبير، ومن يريد الهجره معه من بنى هاشم)، وأمره بترتيب أمر ترحيلهم معه إلى يثرب وتهيئه ما يحتاجون إليه من زاد وراحله.(۲)

وهنا قال صلى الله عليه و آله و سلم عبارته الّتى تذرَّع بها ابن تيميه فى دليله الأوّل: «أنّهم لن يصلوا من الآن إليك يا علىّ بأمرٍ تكرهه حتّى تقدم علىَّ».

فالملاحظ للقارئ هو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إنّما قال هذه العباره عندما أمره بأداء أمانته، وذلك بعد انقضاء قضيه ليله المبيت.

أى أنّه أمر علياً بذلك، وقال له تلك العباره وهو يتهيّأ للخروج من غار ثور.

يقول الحلبى فى سيرته: وصّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى إحدى الليالى وهو بالغار علياً رضى اللّه عنه بحفظ ذمّته وأداء أمانته ظاهراً على أعين الناس.

وثم ينقل عن مؤلّف كتاب «الدر» ما يقتضى أنّه اجتمع به عند خروجه من الغار.(۳)

وخلاصه القول: إنّه مع روايه شيخ جليل من مشايخ الشيعه الإماميه كالشيخ الطوسى بالاسناد الصحيحه أنّ الأمر بردّ الودائع والأمانات صدر من جانب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إلى علىّ عليه السلام بعد ليله المبيت لا يحقّ لنا أن نعارض هذا النقل الصحيح، ونعمد إلى إلهاء العامّه بالتوافه، وأمّا روايه مؤرّخى أهل السنّه هذا المطلب بشكل آخر يوحى ظاهرُه بأنّ جميع وصايا النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لعلىّ تمت فى ليله واحده هى ليله

۱- . السيره الحلبيه: ۲/۲۰۵؛ أمالى الطوسى: ۴۶۸ ح ۳۷.

۲- . لاحظ: أمالى الطوسى: ۴۷۰.

۳- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۲/۲۰۴-۲۰۵.

الهجره (ليله المبيت) فقابلٌ للتفسير والتوجيه، لأنّه لا يبعد أن عنايتهم كانت مركّزه على روايه أصل الموضوع، ولم يكن لظرف صدور هذه الوصايا والأوامر ووقت بيانها أهميه عندهم.

الخروج من الغار:

هيّأ على عليه السلام بأمر النبيّ: ثلاث رواحل ودليلاً أميناً يُدعى أريقط، ليترحّلوها إلى المدينه، ويدلّهم الدليل على طريقها، وأرسل كلّ ذلك إلى الغار.

ولمّا سمع النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم رغاء البعير أو نداء الدليل نزل هو و صاحبه من الغار وركبا البعيرين وتوجّها من أسفل مكّه إلى «يثرب» سالكين إلى ذلك الخط الساحلى، وقد جاء ذكر المنازل الّتى مرّا بها فى السيره النبويه لابن هشام.(۱)

صفحهُ التاريخ الأُولى:

أجل لقد حلّ الظلام فى كلّ مكان، ولملمت الشمس أشعّتها الذهبيه من هذا الوجه من الكره الأرضيه لتوجّهها إلى الوجه الآخر منها.

وعاد جماعه من رجال قريش الذين سلكوا كلّ طريق فى مكّه وضواحيها بحثاً عن النبيّ، ثلاثه أيام، بلياليها، إلى بيوتهم ومنازلهم متعبين مرهقين، وقد يئسوا من الظفر بالجائزه (وهى مائه من الإبل) الّتى وضعتها ساده قريش لمن يأخذ محمّداً أو يدلّ على مكانه، وأُعيد فتح طريق مكّه – المدينه الّتى أُغلقت لهذه الغايه بعد اليأس من الظفر برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.(۲)

وفى هذه اللحظات بالذات بلغ نداء الدليل الّذى كان يصطحب معه ثلاث

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۲/۳۴۰.

۲- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲/۱۰۴.

رواحل ومقداراً من الطعام، إلى مسمع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ورفيقه وهما فى الغار وقد كان يقول بصوت خافت: لابد أن نتّخذ من ظلام هذا الليل ستراً، ونسرع فى الخروج من حدود المكيين، ونختار طريقاً يقلّ سالكوه ولا يهتدى إليه أحد.

ويبدأ تاريخ المسلمين من العام الّذى تضمَّن تلك الليله بالضبط، وجعل المسلمون يقيسون كلّ ما يقع من الحوادث بذلك العام وبذلك يحدّدون تاريخه وزمان حدوثه.

لماذا أصبح العامُ الهجرىُ مبدأ للتاريخ؟

إنّ الإسلام أكمل الشرائع السماويه قاطبه، وقد جاء إلى البشريه بما تتضمّنه شريعه موسى وعيسى عليهما السلام ولكن بصوره أكمل وبصيغه تطابق وتتمشّى مع جميع الظروف والأوضاع.

ومع أنّ السيد المسيح عليه السلام وميلاده المبارك يحظى بالاحترام عند المسلمين إلّا أنّ ميلاده عليه السلام لم يُتخَذ لديهم مبدأ للتاريخ، والتوقيت.

وكانت العرب قد جعلت عام الفيل(۱) مبدأ لتاريخها، وكانت تقيس حوادثها وأُمورها إليه فتره من الزمن، ومع أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان قَد وُلِدَ فى ذلك العام نفسه، إلّاأنّ المسلمين لم يتّخذوه مع ذلك مبدأ للتاريخ، لأنّه لم يكن ينطوى على ما يتّصل بقضيه الإيمان والإسلام.

ولأجل هذا أيضاً لم يتّخذوا عام البعثه مبدأ لتاريخ المسلمين أيضاً؛ لأنّ عدد المسلمين لم يكن يتجاوز فى ذلك اليوم ثلاثه أشخاص، إذن فلم يكن فى أى واحد من تلك الحوادث ما يعطى مبرراً قوياً لاتّخاذه مبدأ للتوقيت والتاريخ، إذ لابد أن يكون ما يتّخذ لذلك قضيه مصيريه بالغه الأهميه.

۱- . وهو العام الّذى سيّر فيه أبرهه جيشاً لهدم الكعبه تتقدّمه الفيله. راجع المحبّر: ص ۵-۸.

ولكنّه فی السنه الأولی من الأعوام الهجریه حقّق المسلمون انتصاراً عظیماً وباهراً، وقد أسست فیه حکومه مستقله وتخلّص المسلمون من التشرذم والتبعثر، وتمرکزت قواهم وعناصرهم فی نقطهٍ واحدهٍ، وبیئهٍ حرهٍ لا أثرَ فیها للکبت والاضطهاد، من هنا جعلوا ذلک العام (أی العام الّذی تحقّقت فیه هجره النبیّ العظیم) مبدأً لتاریخهم، وأخذوا یقیسون إلیه - وحتّی الآن - کلّ ما یحدث ویقع من خیر وشر، لتحدید تاریخ وقوعه.

الهجره النبویه مبدأ لتاریخ المسلمین کافّه:

ولقد جعل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم التاریخ الهجریّ بنفسه.

وإنّ أیَّ إعراض وتجاهلٍ لهذا التاریخ، واختیار تاریخٍ آخر مکانه إعراضٌ عن سنّه رسول الإسلام الکریم صلی الله علیه و آله و سلم، ومخالفه لما رسمه للمسلمین فی هذا المجال.

إنّ وجود تاریخ معین ثابت (مؤلّفٍ من السنه والشهر والیوم) فی الحیاه الإجتماعیه البشریه، من الأُمور الضروریه الحیویه بل هو فی غایه الضروره والحیویه، من أجل أن لا تتوقّف عجله الحیاه الإجتماعیه البشریه عن الدوران والحرکه بسبب فقدان مقیاس زمنی ثابت ومعلوم للأُمور والحوادث.

وتلک حقیقه لا حاجه إلی إقامه البرهان علیها؛ لأنَّ الاستدلال علیها یکون مثل الاستدلال علی الأُمور البدیهیه.

فهل یکون تنظیم المعاهدات، والمواثیق السیاسیه والعسکریه، والاتّفاقیات، والعقود الاقتصادیه وتحویل وتسدید السندات والحوالات التجاریه ودفع الدیون وکتابه الرسائل العائلیه من دون ذکر تاریخ معین فیها أمراً مفیداً؟ کلّا حتماً، ودون ریب.

فعندما سأل بعض الصحابه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم عن علّه اختلاف أشکال القمر، وأنّه لماذا یکون هلالاً تاره ثم بدراً أُخری. ثم یعود إلی سیرته الأُولی هلالاً، نزل الوحیُ الإلهی، یبیّنُ بعض حکمه هذه الظاهره الطبیعیه إذ قال تعالی:

«قُلْ هِیَ مَواقِیتُ لِلنّاسِ» .(۱)

أی أنّ اختلاف أشکال القمر وهیئاته إنّما هو لأجل أن یعرف الناسُ به الوقت والتاریخ فیعرفوا فی أی یوم من الشهر هم، فی مبدئه أو منتصفه، أو منتهاه، ولکی یعرفوا بواسطه ذلک مواعید واجباتهم الشرعیه والاجتماعیه، ویعرف الدُّیّان موعد تسلّم دُیونهم، ویعمَدُ المَدِینون إلی دفع ما علیهم فی وقته، ویقومَ المؤمنُون بفرائضهم المقیَّده بالأزمنه والأوقات کالصوم والحج وماشابه ذلک. من هنا لا مجال للنقاش فی احتیاج کلّ أُمّه إلی تاریخ معینٍ ثابتٍ محدّد تجعله ملاکاً للتوقیت، ومداراً لتحدیداتها الزمنیه.

إنّما الکلام هو فی ما ینبغی اتّباعه والجری علیه من التواریخ، وتنظیم المستندات والمکاتبات والمواعید وفقاً له.

وبعباره أُخری: إنّ الکلام إنّما هو فی ما ینبغی جعله مبدأً للتاریخ یقاس به کلّ العُقودِ والاتّفاقات من حیث الزمان، والتوقیت.

فما الّذی یصلح أوینبغی اتّخاذه مبدأً للتاریخ للأُمّه الإسلامیه؟

الجواب:

إنّ الإجابه عن هذا السؤال واضحه جداً، وهی:

إذا کانت لأُمّه من الأُمم حوادث لامعه وسوابق مشرقه فی حیاتها، وثقافه خاصّه بها، ودیناً ومسلکاً مستقلاً وشخصیات علمیه وسیاسیه بارزه، وأحداث

۱- . البقره: ۱۸۹ ومطلعها: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَهِلَّهِ قُلْ هِیَ مَواقِیتُ...».

ووقائع عظيمه مثيره، تبعث على الفخر والاـعتزاز، ولم تكن كنبته وحشيه نبتت عفواً واعتباطاً من غير قانون ولاـ جذور كبعض الجماعات والشَعوب الجديده الظهور الّتى لا ترتكز إلى أُصول ثابته معلومه.

فإنّ على مثل هذه الأُمّه أن تتّخذ من أعظم حوادثها الاجتماعيه والدينيه مبدأً لتاريخها الّذى تقيس، وتنظم عليه بقيه حوادثها وأعمالها الّتى سبقت تلكم الحادثه العظمى، أو الّتى وقعت أو تقع بعدها.

ومن هنا تكون قد أكسبت شخصيتها وكيانها قوةً أكبر، وصانت نفسها من التبعيه للشعوب والأُمم الأُخرى، والميعان والفناء فيها.

وإذ لم يكن فى تاريخ الأُمّه الإسلاميه شخصيه أعلى شأناً من شخصيه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، كما لم يكن هناك حادثه أعظم، وأنفع من حادثه الهجره النبويه المباركه، لأنّ هجره النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فتحت – فى الحقيقه – صفحةً جديدةً فى حياه البشريه، فقد خرج رسول الإسلام وأتباعه من بيئه مكّه الرازحه تحت الكبت، إلى بيئه مناسبه حرّه مكنّتهم من إحداث انطلاقةٍ كبرى لم يشهد التاريخُ البشرىُ برمّته لها مثيلاً.

فقد استقبل أهلُ المدينه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ومَن هاجر معه من المسلمين إلى يثرب استقبالاً حاراً، ووضعوا تحت تصرّفه كلَّ ما توفّر لديهم من الإمكانات والقوى، فلم يمض زمن إلّاوتمتع الإسلام بفضل هذه الهجره المباركه بتشكيلات سياسيه وعسكريه، واتّخذ صوره وشكلَ حكومهٍ قويهٍ لها وزنُها، وشأنُها، وجانبُها المرهوب فى شبه الجزيره العربيه، وسرعان ما نشر رايته على البسيطه كلّها تقريباً، وأسّس حضارةً عظمى لم تر البشريه لها نظيراً.

فإذا لم تحدث تلك الهجره المباركه المعطاء لقُضى على الإسلام فى محيط

مكّه، وحُرمَ العالم الإنسانى من هـذا الفيض العظيم. من هنا، ولأجل هذا اتّخذ المسلمون هجره رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم مبـدأً لتـاريخهم، ودأبوا على ذلـك إلى الآـن حيث ينقضـى أكثر من ألف وأربعمائه عام، أى أنّ هـذه الأُمّه الكبرى تركت وراءها إلى هذا اليوم أربعه عشر قرناً من الأمجاد والمفاخر، وهى الآن تدخل فى القرن الخامس عشر؟

مَن الّذى جعل الهجره مبدأً للتاريخ؟

على العكس ممّـا هـو مشـهور بين المؤرّخين من أنّ الخليفه الثـانى جعـل هجره النـبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم مبـدأً للتـاريخ بـاقتراح وتأييـد من الإمـام أميرالمؤمنين على عليه السـلام وأمر بـأن تؤرّخ الـدواوين، والرسائـل والعهود ومـا شـابه ذلك بـذلك التاريـخ، فـإنّ الإمعـان فى مراسـلات النـبىّ صـلى الله عليـه و آله و سـلم ومكاتبـاته الّتى هى مـدرجه فى كتب التاريـخ والسـيره والحديث والسنّه، وكذا غير ذلك من الأدلّه الّتى سوف نذكرها فى هذه الصفحات يثبت أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم هو نفسه أوّل مَن اعتمـد تلك الحادثه الكبرى كمبـدأ للتاريخ، وكان يؤرّخ رسائله، وكتبه إلى أُمراء العرب، وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزه بذلك التاريخ (أى التاريخ الهجرى).

وها نحن نـدرج هنا نماذج من تلك الرسائل النبويه المؤرّخه بهـذا التاريـخ، ثم نعمـد بعـد ذلك إلى اسـتعراض الدلائل الأُخرى على هذا الأمر، ونحن نحتمل أن تكون هناك أدلّه أُخرى غير ما سنذكره هنا - أيضاً - لم نقف عليها.

نماذج من رسائل النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم والصحابه المؤرّخه:

١. طلب سـلمان من النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم أن يكتب له ولأخيه (ماه بنـداذ) ولأهله وصـيه مفيـده ينتفع بها، فاسـتدعى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عليّاً وأملى عليه أُموراً، وكتبها على عليه السلام

ثم جاء فی آخر تلک الوصیه:

«وکتب علی بن أبی طالب بأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی رجب سنه تسع من الهجره».(۱)

۲. أدرج المؤرّخُ الشهیر «البلاذری» فی کتابه «فتوح البلدان» نصَّ معاهده رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مع یهود «المقنا» وذکر أنّ مصریاً رأی نصَ هذه المعاهده فی جلدٍ أحمر اللون عتیقٍ وکان قد استنسَخها، فقرأها لی.

ثم نقل البلاذری نصّ تلک المعاهده وقد جاء فی نهایتها:

«ولیس علیکم أمیر إلّامن أنفسکم أو من أهل بیت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وکتب علی بن أبو طالب فی سنه تسع»(۲) ومع أنّ «أبا طالب» یجب أن یکتب حسب القواعد الأدبیه فی المقام «أبی طالب» لکونه مضافاً إلیه فقد کتب: «علی بن أبوطالب» ولکن مع ذلک ذکر المحقّقون أنّ قبیله قریش کانت تتلفّظ لفظه أب فی جمیع الموارد (أی فی حاله النصب والرفع والجرّ) ب «أبو» وتکتبها کذلک أیضاً، وقد صرح الأصمعیّ بهذا من بین الأدباء.

ویقول البروفیسور «محمّد حمید اللّه» مؤلّف کتاب «الوثائق السیاسیه»: إنّی لمّا کنت فی المدینه المنوّره فی شهر محرم سنه ۱۳۵۸ وجدت فی الکتابه القدیمه الّتی فی جنوبی جبل سلع فی المدینه المنوره «أنا علی بن أبوطالب».(۳)

۳. أنّ کتاب الصلح الّذی کتبه الإمام علی علیه السلام بأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لنصاری

۱- . طبقات المحدّثین بأصبهان لعبداللّه بن حبان (المتوفّی ۳۶۹ ه): ۱/۲۳۴؛ ذکر أخبار أصبهان لأبی نعیم الحافظ الاصبهانی (المتوفّی ۴۳۰ ه): ۱/۵۳.

۲- . فتوح البلدان: ۷۲.

۳- . مکاتیب الرسول: ۲۸۹، نقلاً عن شرح ملا علی القاری لشفاء القاضی عیاض، وکذا الوثائق السیاسیه.

نجران مؤرَّخ بالسنه الهجريه الخامسه.

فقد جاء فی هذه الرساله:

«وأمر علیاً أن یکتب فیه حین کتب عنه أنّه کتب لخمس من الهجره».(۱)

إنّ هذه الجمله تفید بوضوح أنّ النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم هو واضع التاریخ الهجری ومؤسّسه الأوّل، وهو الّذی أمر علیاً علیه السلام بأن یؤرّخ ذلک الکتاب بالتاریخ الهجری فی ذیله. ۴. جاء فی مقدّمه الصحیفه السجادیه: قال جبرئیل وهو یفسّر رؤیا رآها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «تدور رحی الإسلام من مهاجرک فتلبث بذلک عشراً، ثم تدور رحی الإسلام علی رأس خمس وثلاثین من مهاجرک فتلبث بذلک خمساً، ثم لابد من رحی ضلاله هی قائمه علی قطبها».(۲)

۵. یروی المحدّثون الإسلامیُّون أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قال لأُمّ سلمه:

«یُقتَل الحسین بن علی علی رأس ستین من مهاجری».(۳)

۶. قال أنس بن مالک: «حدثنا أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قال: لاتأتی مائه سنه من الهجره و منکم عین تطرف».(۴)

۷. أرّخ أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی أیام حیاته الحوادث الإسلامیه بهجرته فقالوا: وقع کذا فی الشهر کذا من الهجره، مثلا کانوا یقولون: حولت القبله من بیت المقدس إلی الکعبه فی شهر شعبان وقیل فی رجب، وکان علیه السلام یصلّی إلی بیت

۱- . التراتیب الإداریه (نظام الحکومه النبویه) للشیخ عبدالحی الإدریسی الفاسی: ۱/۱۸۱.

۲- . الصحیفه السجادیه (طبع الأبطحی): ۶۲۲.

۳- . مجمع الزوائد: ۹/۱۹۰.

۴- . مجمع الزوائد: ۱/۱۹۷.

المقدس بالمدينه سته عشر شهراً، وقيل: سبعه عشر شهراً، وقيل: ثمانيه عشر شهراً.(۱)

على رأس ثمانيه عشر شهراً فرِضَ صوم شهر رمضان.(۲)

وقال عبداللّه بن أنيس أمير الوفد الّذى بعثه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

خرجت من المدينه يوم الاثنين لخمس خلونَ من المحرم على رأس أربعهٍ وخمسين شهراً.(۳)

وقال محمّد بن سلمه عن غزوه القرطاء: خرجتُ فى عشر ليال خلون من المحرم فغبت تسع عشره وقدمتُ لليله بقيت من المحرم على رأس خمسه وخمسين شهراً.(۴)

إنَّ هذا النوع من تاريخ الحوادث والوقائع يكشف عن أنّ المسلمين كانوا إلى السنه الخامسه من الهجره يقيسون الحوادث بهجره النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ويؤرّخون بها عن طريق عدّ الأشهر، حتّى إذا كانت السنه الخامسه من الهجره أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بإحلال السنه الهجريه مكان الشهر الهجرى (كما مرّ فى الرساله رقم ۴) حيث أمر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بأن يُؤرَّخ الكتاب الّذى كتبه لنصارى نجران بالعام الهجرى.

۸. نقل المحدّثون الإسلاميون عن الزهرى قوله: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لمّا قدم المدينه مهاجراً أمر بالتاريخ فكتب فى ربيع الأوّل (أى شهر قدومه المدينه).(۵)

۹. روى «الحاكم» عن «ابن عباس» قال: كان التاريخ الهجرى فى السنه الّتى

۱- . تاريخ الخميس: ۱/۳۶۷.

۲- . المغازى: ۲/۵۳۱ تحقيق الدكتور مارسدن جونس.

۳- . المغازى: ۲/۵۳۱.

۴- . المغازى: ۲/۵۳۴.

۵- . فتح البارى: ۷/۲۰۸.

قدم فيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المدينه.(۱)

إنّ هذه النصوص تحكى عن أنّ قائد الإسلام الأكبر قد أوضح مسأله التاريخ من اليوم الأوّل. وأنّه جعل هجرته مبدأ لذلك التاريخ. غايه ما هنالك أنّ هذا التاريخ كان إلى فتره من الزمن يعدُّ بالأشهر ثم حلّ العدُّ بالأعوام منذ حلول السنه الخامسه من الهجره محل العدّ بالأشهر.

۱۰. جاء فى معاهده الصلح الّتى نظمها «خالد بن الوليد» لأهل دمشق، ونصّ فيها على احترام دمائهم، وأموالهم وكنائسهم: «وكتب سنه ثلاث عشره»(۲).

وكلّنا نعلم أنّ دمشق فتحت فى أواخر حياه الخليفه الأوّل.

فما يدّعيه البعض من أنّ التاريخ الهجرى قد اتّخذ فى عهد الخليفه الثانى بإرشاد وتأييد من الإمام على عليه السلام غير صحيح فإنّ تاريخ ذلك يرتبط بالسنه السادسه عشره أوالسابعه عشره من الهجره، والحال أنّ هذه المعاهده قد نظِّمت ودُوّنت وأُرخت بالتاريخ الهجرى قبل ذلك بأربع سنوات.

سؤال:

ويمكن أن يسأل سائل: إذا كان حقّاً أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم هو مؤسّس التاريخ الهجرى وواضعه الأوّل فماذا نفعل بالخبر الّذى رواه كثيرٌ من المحدّثين والمؤرّخين؟

فإنّهم يقولون: رفع رجل إلى عمر صكّاً مكتوباً على آخر بدَين يحلّ عليه فى شعبان، فقال عمر: أى شعبان؟ أمِن هذه السنه، أم الّتى قبلها، أم الّتى بعدها؟

ثم جمع الناس (أى أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: ضعوا للناس شيئاً

۱- . مستدرك الحاكم: ۳/۱۳-۱۴ وقد صحّحه على شرط مسلم، وص ۵۴۸.

۲- . الأموال: ۲۹۷، طبعه مصر.

يعرفون فيه حلول ديونهم. فيقال: إنّ بعضهم أراد أن يؤرّخوا كما تؤرّخ الفرس بملوكهم، كلّما هلك ملك أرّخوا من تاريخ ولايه الّذى بعده فكرهوا ذلك.

ومنهم من قال: أرّخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر، فكرهوا ذلك، ولطوله أيضاً.

وقال آخرون: أرّخوا من مولد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

وقال آخرون: أرّخوا من مبعثه. وأشار على بن أبى طالب عليه السلام أن يؤرّخ من هجرته من مكّه إلى المدينه لظهوره على كلّ أحد، فإنّه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن ذلك عمر والصحابه، فأمر عمر أن يؤرَّخ من هجره رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.(۱)

الجواب:

إنّ هذا القسم من التاريخ لا يمكن الاستناد إليه فى مقابل النصوص الكثيره الّتى وصفت الرسول العظيم صلى الله عليه و آله و سلم بكونه واضعَ التاريخ الهجرى ومؤسّسه الأوّل.

هذا مضافاً إلى أنّه من الممكن أن يكون التاريخ الهجرى الّذى وضعه النبىّ الكريم صلى الله عليه و آله و سلم قد تعرّض للترك، وفقد رسميته بمرور الزمن وقلّه الحاجه إلى التاريخ ولكن جُدِّد فى زمن الخليفه الثانى، بسبب اتّساع نطاق العلاقات وأُعيد الاهتمام به لاشتداد الحاجه إليه فى هذا العهد.

التذكير بنقطتين:

۱. لا نجد فى الاقتراحات الّتى عرضت على الخليفه فى مجال التاريخ أى ذكر للتاريخ المسيحى الّذى يجعل ميلاد السيد المسيح عليه السلام مبدأً للتاريخ.

۱- . البدايه والنهايه: ۷/۸۵. ولاحظ: شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۱۲/۷۴. الكامل لابن الأثير: ۱/۱۰.

والعلّه هی: أنّ التاریخ المیلادی ظهر فی القرن الرابع الهجری الإسلامی بین المسیحیّین بعد سلسله من المحاسبات التخمینیه، فهو لم یکن رائجاً قبل ذلک.

۲. أنّ البلاد والأقطار الإسلامیه بحاجه الیومَ إلی الوحده والاتّفاق أکثر من أی زمن مضی.

ومن مظاهر تلک الوحده هو السعی للحفاظ علی التاریخ الإسلامی الهجری. ومن هنا یتوجب علی الأقطار الإسلامیه أن تقیم کلّ روابطها، وعلاقاتها علی أساس التاریخ الهجری، شمسیاً(۱) کان أو قمریاً.

وإنّ هذا الأمر بحاجه إلی مؤتمر إسلامی کبیرٍ یشترک فیه کبارُ الشخصیات الفکریه الإسلامیه من أجل توحید التاریخ، ودراسه السبل الکفیله بالوصول إلی هذا الأمر، والتخلّص من التبعیه الغربیه فی التاریخ. إنّ من المؤسف جداً أن تتجاهل بعض الدول الإسلامیه والعربیه التاریخَ الهجری وتعتمد التاریخ المیلادی المسیحیّ، حتّی أنّ شیخ الجامع الأزهر الّذی یشکّل قمّه القیاده الدینیه فی المجتمع السنّی یؤرّخ رسائله بالتاریخ المیلادی، ولا یذکر إلی جانبه التاریخ الهجری علی الأقل!!(۲)

۱- . التاریخ الهجری الشمسی یؤرّخ لهجره الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم حسب أشهر السنه الإیرانیه - الخاصّه بها - المرتّبه حسب الفصول الأربعه حیث تبدأ السنه الإیرانیه بفصل الربیع وتنتهی بفصل الشتاء وعدد أیامها ۳۶۵ یوماً. والسنه الکبیسه ۳۶۶ یوماً کالسنه المیلادیه.

۲- . وقد رأیت أنا شخصیاً رسالهً من شیخ الجامع الأزهر الأسبق هو الشیخ محمود عبدالحلیم وعلیها التاریخ المیلادی فحسب!!

مؤامره الطاغوت:

وكانت إيران من الأقطار الإسلاميه الّتى حافظت بشده على التاريخ الهجرى، واعتمدته فى أعمالها، ولكن فى المؤامره الّتى نفّذت بواسطه الطاغيه المقبور فى عام ١٣٩٩ ه، استبدلت التاريخ الهجرى بالتاريخ الشاهنشاهى، وأُعلن فى وسائل الإعلام عن وجوب اعتماد هذا التاريخ المختلَق بدل التاريخ الهجرى الأصيل!!

ولقد تصوَّر الطاغوتُ الأرعن أنّه يستطيع بحذف التاريخ الهجرى، واستبداله بالتاريخ الشاهنشاهى المشؤوم تثبيت قواعد حكومته المهزوزه، وسلطانه المنخور، ونظامه الظالم المتهرّئ، مده أطول، ولكن العنايه الإلهيه، وهمّه الشعب الإيرانى المسلم العاليه، وقياده الأُستاذ الأكبر آيه اللّه العظمى الإمام الخمينى قدس سره الشريف أفشلت هذه المحاوله النكراء، وآل الأمر إلى إسقاط النظام الشاهنشاهى بثوره الشعب المجيده وإقامه حكومه الجمهوريه الإسلاميه على أنقاض الحكم الملكى المباد، وإحلال التاريخ الهجرى الإسلامى المبارك محلّ التاريخ الشاهنشاهى المختلق. والحمدللّه.

الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم يبدأ رحلته إلى يثرب

لقد كان على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يقطع - للوصول إلى المدينه - ما يقرب من أربعمائه كيلومتراً، ولا شك أن طىّ هذه المسافه الطويله تحت تلك الحراره العاليه الدرجه بحاجه إلى خطّه صحيحه، لضمان السلامه، خاصّه وأنّهم كانوا يخافون من أن يقوم الأعراب الذين كانوا ربّما يصادفونهم فى أثناء الطريق بإخبار قريش بهم، ولهذا كانوا يسيرون ليلاً ويستريحون نهاراً.

ويبدو أنّ شخصاً شاهد النبىّ ومن معه فى أثناء الطريق فرجع إلى مكّه وأخبر قريشاً بذلك فخرج «سراقه بن مالك بن جُعْشُم» يطلبهم طمعاً فى جائزه

قریش الکبری فلحق برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقد صرفَ قریشاً عن ملاحقه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قبل ذلک لیتفرد بها.

یقول ابن الأثیر: وکانت قریش قد جعلت لمن یأتی بالنبی صلی الله علیه و آله و سلم دیه فتبعهم سراقه بن مالک بن جعشم المدلجی فلحقهم فقال أبوبکر: یا رسول اللّه أدرکنا الطلبُ، فقال (رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم): «لاتحزن إنَّ اللّهَ معنا».

ودعا علیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: فارتطمت فرسه إلی بطنها وثار من تحتها مثل الدخان، فقال: ادع لی یا محمد لیخلصنی اللّه ولک علیّ أن أرد عنک الطلب، فدعا له فتخلّص، فعاد یتبعهم، فدعا علیه الثانیه فساخت قوائم فرسه فی الأرض أشد من الأُولی فقال: یا محمد قد علمت أنّ هذا من دعائک علیّ فادع لی ولک عهد اللّه أن أرد عنک الطلب، فدعا له فخلص، وقرب من النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وقال له: یا رسول اللّه خذ سهماً من کنانتی وإنّ إبلی بمکان کذا فخذ منها ما أحببت.

فقال (رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم): لا حاجه لی فی إبلک.(۱)

وروی المجلسی أنّ سراقه قال: فسلنی حاجه.

فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: رُدَّ عنّا مَنْ یطلبُنا من قریش.

فانصَرف سراقه فاستقبله جماعه من قریش فی الطلب فقال لهم: انصرفوا عن هذا الطریق، فلم یمرّ فیه أحد، وأنا أکفیکم هذا الطریق، فعلیکم بطریق الیمن والطائف.(۲)

وهکذا ما کان یمرّ بأحد إلّاوصرفه عن البحث عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی هذا

۱- . الکامل فی التاریخ: ۲/۱۰۵.

۲- . بحار الأنوار: ۱۹/۷۵. یذکر کثیر من المؤرّخین القصه کما نقلناها هنا، ولکن مؤلف حیاه محمّد یقول: إنّ سراقه تطیّر لمّا کبا به فرسُه واُلقی فی روعه أنّ الآلهه مانعه منه ضالّته.

الطريق بمثل هذا الكلام.

ثم إنّ كُتّاب السيره من الشيعه والسنّه يذكرون لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كرامات كثيره فى طريق مكّه - المدينه ونحن ندرج واحده منها:

مرّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى أثناء الطريق على خيمه أُمّ معبد الخزاعيه وكانت امرأه برزه تحتبى وتجلس فى فناء الخيمه فسألوا تمراً أو لحماً ليشتروه، فلم يصيبوا عندها شيئاً...

فقالت: لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى، فنظر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى كسر خيمتها فقال (صلى الله عليه و آله و سلم لها): ما هذه الشاه يا أُمّ معبد؟ قالت: شاهٌ خلّفها الجهدُ عن الغنم فقال: هل بها من لبن؟.

قالت: هى أجهدُ من ذلك، قال: أتأذنين فى أن أحلبها؟.

قالت: نعم بأبى أنت وأُمّى إنّ رأيت بها حلباً فاحلبها.

فدعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالشاه فمسح ضرعَها، وذكر اسم اللّه، وقال: «اللّهم بارك فى شاتها» فتفاجت ودرّت، فدعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بإناء لها يربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتّى علته الثمال فسقاها فشربت حتّى رويت، ثم سقى أصحابه فشربوا حتّى رووا، فشرب آخرهم، وقال:

«ساقى القوم آخرهم شرباً».

ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء فغادره عندها، ثم ارتحلوا عنها (إلى المدينه).(۱)

وقد ذُكرت هذه الكرامه فى كثير من كتب السيره والتاريخ، وهو أمر ممكن فى رؤيه المؤمن باللّه، لأنّ الدعاء أحدُ الأسباب التى تستطيع أن تؤثر فى الطبيعه،

۱- . بحار الأنوار: ۱۸/۴۳.

وشأنها شأن غيرها من الكرامات الّتی ورد ذكرها فی الكتب الدينيه وصدقته التجربه.(۱)

النزول فی قريه قباء:

تقع قريه قباء علی ميلين من المدينه علی يسار القاصد إلی مكّه و كانت مساكن «بنی عمرو بن عوف» ومركزهم.

ولقد وصل رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم ومن معه إلی قباء فی الثانی عشر من شهر ربيع الأوّل يوم الاثنين، ونزل علی «كلثوم بن الهرم» وهو شيخ من بنی عمرو و كان ثمه جمع كبير من المهاجرين والأنصار ينتظرون قدومه، ويستخبرون وروده.

ولقد لبث رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی قباء إلی آخر أيام الأُسبوع، وقد خط فی هذه الفتره مسجداً لقبيله «بنی عمرو بن عوف»، ونصب قبلته.(۲)

وكان البعض ممّن رافق رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم يصرّ عليه أن يسارع فی الدخول إلی المدينه، ولكن رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم كان ينتظر ابن عمّه علياً.

ويقول: ما أنا بداخلها حتّی يقدم ابن عمّی، وابنتی (يعنی عليّاً وفاطمه عليهما السلام).(۳)

وأقام علیّ عليه السلام بمكه ثلاث ليال بأيّامها، حتّی أدّی عن رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم الودائع الّتی كانت عنده للناس فقد وقف عليه السلام علی مكان مرتفع فی مكّه ونادی قائلاً:

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۸/۴۳ و ج ۱۹/۹۹-۱۰۳؛ الطبقات الكبری: ۱/۲۳۰ و ۲۳۱؛ تاريخ الخميس: ۱/۳۳۳؛ أُسد الغابه: ۱/۳۷۷.

۲- . لاحظ: تاريخ الخميس: ۱/۳۳۸.

۳- . الفصول المهمه لابن صباغ المالكی: ۱/۳۰۲ دون أن يذكر اسماً؛ كشف الغمه: ۲/۳۲؛ أمالی الشيخ الطوسی: ۴۶۹ ح ۳۷.

«مَن كانَ لَه قِبَلَ محمّد أمانةٌ أو وديعةٌ فليأتِ فلنؤدّ إليه أمانتهُ».

فكان يأتيه مَن له أمانةٌ أو وديعه عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويذكر علامتها ويأخذها، فلمّا فرغ عليه السلام من أداء الأمانات والودائع خرج بفاطمه بنت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأُمّه فاطمه بنت أسد، وفاطمه بنت الزبير وآخرين ممّن لم يكن قد هاجر مكّه حتى تلك الساعه، وتوجّه بهم نحو المدينه ليلاً سالكاً بها طريقاً فى «ذى طوى».

روى الشيخ الطوسى فى أماليه أنّ جواسيس قريش عرفت بسفر على مع تلك الجماعه، فخرجوا لملاحقتهم، لغرض إعادتهم إلى مكّه، فأدركوهم فى منطقه «ضجنان».

ووقع بين رجال قريش وبين على عليه السلام تلاحٍ وتناوش، وأخذٌ وردٌّ، ودنا الرجال من النسوه، والمطايا ليثوروها، فحال علىّ عليه السلام بينهم، وبينها، ولم يجد عليه السلام طريقاً إلّاأن يدافع عن حرم الإسلام والمسلمين، فشدّ عليهم بسيفه شدَّه الأسد الغضِب والليث الغيور وهو يقول مرتجزاً:

خَلُّوا سبيل الجاهد المجاهِد آليتُ لا أعبُدُ غَيرَ الواحِدِ

فتصدّع عنه القوم وقالوا له: إغن عنّا نفسَكَ يا ابن أبى طالب، فقال عليه السلام:

«فإنّى مُنْطَلِقٌ إلى ابن عمّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بيثرب، فمَن سرّهُ أن أُفرى لحمه وأُريق دمه فليتعقبنى أو فليدن منى».

فتركه القومُ وعادوا من حيث أتوا، وواصل الركبُ رحلته باتّجاه المدينه.(۱)

يقول ابن الأثير: قدم «على» المدينه وقد تفطّرت قدماه، فقال النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم:

ادعوا لى علياً، قيل: لا يقدر أن يمشى، فأتاه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم واعتنقه وبكى رحمةً لما

۱- . لاحظ: أمالى الطوسى: ۴۷۰.

بقدميه من الورم.(۱) ولقد قدم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قباء فى الثانى عشر من شهر ربيع الأوّل، والتحق به علىٌ عليه السلام فى منتصف ذلك الشهر نفسه.(۲) ويؤيّد هذا القول ما ذكره الطبرى فى تاريخه إذ كتب يقول: وأقام على بن أبى طالب رضى اللّه عنه بمكه ثلاث ليال وأيّامها حتّى أدّى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الودائع الّتى كانت عنده إلى الناس.(۳)

المدينه تهبُّ لقدوم النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم:

ولقد كان يوم دخول رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يوماً عظيماً جداً، ومشهوداً.

فكم ترى ستكون عظيمةً فرحةُ الذين آمنوا برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم منذ ثلاث سنوات، وظلّوا طوال هذه الأعوام يبعثون برسلهم ووكلائهم إليه، ويذكرون اسمه المقدّس، ويصلّون عليه فى صلواتهم كلّ يوم، إذا سمعوا أنّ قائدهم ذلك الّذى طال انتظارهم إيّاه، واشتدّ تشوّقهم إليه كائن عند ميلين من مدينتهم قد نزل فى قبا أيّاماً، وسيقدم إليهم ويدخل مدينتهم بعد أيام؟ وكم سيكون مبلغُ ابتهاجهم، وأى ابتهاج ترى سيعم كلّ صغير وكبير؟

إنّه حقّاً لأمر يعجزُ القلم عن بيانه، ويكلّ اللسان عن وصفه.

ولقد كان لفتيه الأنصار وشبابهم الضامئين إلى الإسلام الحنيف برنامجٌ رائعٌ وعظيمٌ، فقد كانوا عمدوا بغيه تطهير جوّ المدينه من أدران الوثنيه إلى كلّ صنم فى

۱- . الكامل فى التاريخ: ۲/۱۰۶.

۲- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۱/۶۴ و ۶۸. وعلى هذا تكون محاصره بيت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قد تمّت ثلاث ليال قبل شهر ربيع الأوّل من السنه الأُولى من الهجره، وقد خرج النبىّ من داره ليله الاثنين ودخل غار ثور وبقى ماكثاً فيه ثلاثه أيام، وخرج منه ليله الخميس أوّل ربيع الأوّل وتوجّه نحو المدينه ووصل قباء فى الثانى عشر منه. راجع تاريخ الخميس: ۱/۳۳۷-۳۳۸.

۳- . تاريخ الطبرى: ۲/۱۰۶.

المدينه كان يقدّس ويعبد فأحرقوه وكسّروه، وقد كان كلّ شريف فى بيته صنمٌ يمسحه ويطيّبه، ولكلّ بطن من الأوس والخزرج صنمٌ فى بيت لجماعه يكرّمونه، ويجعلون عليه منديلاً ويذبَحون له.(۱)

ولا بأس فى أن نذكر نموذجاً من هذا العمل الجليل الّذى قام به الأنصار فى التخلّص من الوثنيه:

لمّا قدم مَن بايع من الأنصار فى العقبه الثانيه إلى المدينه أظهروا الإسلام بها وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم «عمرو بن الجموح» وكان سيداً من سادات بنى سلمه وشريفاً من أشرافهم وكان ابنه «معاذ» بن عمرو قد شهد بيعه العقبه، وبايع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

وكان عمرو قد اتّخذ فى داره صنماً من خشب يقال له: مناه، كما كانت الأشراف يصنعون، يتّخذه إلهاً يعظّمه ويطهّره، فلمّا أسلم فتيان بنى سلمهَ: معاذ بن جبل، وابنه معاذُ بن عمرو بن الجموح كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو بن الجموح فيحملونه ويطرحونه فى بعض حُفَر بنى سلمه، وفيها عذر الناس، منكّساً على رأسه!!

فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم مَن عدا على آلهتنا هذه الليله؟

ثم يغدو يلتمسه حتّى إذا وجده غسله وطهّره وطيّبه. ثم قال للصنم: أما واللّه لو أعلمُ من فَعَلَ هذا بك لأُخزينّه!

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ثانيهً ففعلوا به مثل ما فعلوا به أوّلاً.

فيغدو فيجدُه فى مثل ما كان فيه من الأذى والوسخ، فيغسله ويطهّره ويطيّبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك.

۱- . بحار الأنوار: ۱۹/۱۰۷.

فلمّا أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقَوه يوماً فغسله وطهّره وطيّبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إنّى واللّه ما أعلم مَن يصنعُ بك ماترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنِعْ، فهذا السيف معك.

فلمّا أمسى ونام عمرو عَدَوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميّتاً فقرنوه به بحبلٍ، ثم ألقَوه فى بئرٍ من آبار بنى سلمه فيها عذر من عذر الناس وفضلاتهم. ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الّذى كان به. فخرج يتبعه حتّى وجده فى تلك البئر منكساً مقروناً بكلبٍ ميّت، فلمّا رآه وأبصر شأنه وكلّمه مَن أسلم من رجال قومه، فأسلم برحمه اللّه وحسُنَ إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من اللّه ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من أمره، ويشكر اللّه تعالى الّذى أنقذه ممّا كان فيه من العمى والضلاله:

واللّهِ لو كنتَ إلهاً لم تكنْ أنتَ وكَلبٌ وسطَ بئرٍ فى قَرَنْ

أُفٍّ لملقاكَ إلهاً مستدَنْ الآن فتشناك عن سوءِ الغبن

فالحمدللّه العلى ذى المِنَنْ الواهب الرزاقِ دَيّان الدَينْ

هُوَ الّذى أَنقَذنى من قبلِ أن أكونَ فى ظُلْمَهِ قَبْرٍ مرتهَنْ

بأحمد المهدِىْ النبىّ المرتهَنْ (۱)

النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم يدخُلُ المدينه:

بعد أن التحق على عليه السلام ومن معه برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى قباء توجّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينه ولمّا انحدر من ثنيه الوداع (وهى منطقه قريبه من المدينه) وحطّ قدمه على تراب يثرب استقبله الناس رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، استقبالاً

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۳/۳۰۹-۳۱۰.

عظيماً ورحّبوا به أعظم ترحيب، وردّد المرحّبون أناشيد الترحيب التاليه:

طَلَعَ البدرُ عَلَينا مِنْ ثَنيات الوَداع

وَجَبَ الشُكْرُ عَلَينا ما دَعا للّهِ داع

أيّها المبعوثُ فينا جِئتَ بِالأمر المُطاع

وكانت بنو عمرو بن عوف قد اجتمعت عنده وأصرّت عليه بأن ينزل فى قباء وقالوا: أقم عندنا يا رسول اللّه فإنا أهل الجدّ والجَلَد، والحلقه (أى السلاح) والمنعه، ولكن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يقبل.

وبلغ الأوسَ والخزرجَ خروجُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقرب نزوله المدينه فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته لا يمرّ بحيٍّ من أحياء الأنصار إلّاوثبوا فى وجهه وأخذوا بزمام ناقته، وأصرّوا عليه بأن ينزل عليهم، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقول: خَلُّوا سبيلها فإنّها مأموره.

وأخيراً لمّا انتهت ناقته - وكان صلى الله عليه و آله و سلم قد أرخى زمامَها - إلى باب المسجد الّذى هو اليوم، ولم يكن مسجداً إنّما كان أرضاً واسعه ليتيمين من الخزرج يقال لهما: سهل وسهيل وكانا فى حجر أسعد بن زراره فبركت الناقه على باب «أبى أيوب» خالد بن زيد(۱) الأنصارى الّذى كان على مقربه من تلك الأرض.

فاغتنمت أُمّ أبى أيوب الفرصه فبادرت إلى رحل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فحلّته وأدخلته منزلَها، بينما اجتمع عليه الناس ويسألونه أن ينزل عليهم.

فلمّا أكثروا عليه، وتنازعوا فى أخذه قال صلى الله عليه و آله و سلم أين الرحل؟

فقالوا: أُمّ أبى أيوب قد أدخلته بيتها.

۱- . بحار الأنوار: ۱۹/۱۰۸ ولكن ذهب البعض (كصاحب الكامل فى التاريخ: ۲/۱۰۹) إلى أنّهما كانا فى حجر معاذ بن عفراء.

فقال صلى الله عليه و آله و سلم: «المرء مع رحله» وأخذ أسعدُ بن زراره بزمام الناقه فحوّلها إلى منزله.(۱)

أصل النفاق ومنشؤه:

كانت الأوس والخزرج قد اتّفقتا على أن تملّك عبداللّه بن أُبى بن سلول (رئيس المنافقين وكبيرهم) عليهم، وذلك قبل أن تبايع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى العقبه وتؤمن به وتعتنق الإسلام، ولكن هذا القرار أُلغى بعد اتّصال الأوس والخزرج برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، من هنا حنق عبداللّه بن أُبى على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأضمر له العداوه منذ ذلك الحين، ولم يؤمن برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى آخر حياته، بل كان ينافق بإسلامه.

ولمّا دخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المدينه وشاهد عبداللّه بن أُبى ذلك الاستقبال والترحيب العظيمين لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الّذى قام بهما الأوس والخزرج، شقّ عليه ذلك جداً، ولم يستطع إخفاء حنقه وغضبه، وحقده وعداوته للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم! فعندما انتهى صلى الله عليه و آله و سلم إلى عبداللّه بن أُبى وقد أرخى صلى الله عليه و آله و سلم زمام ناقته لتبرك حيث تريد، أخذ عبدُاللّه كمّه ووضعه على أنفه، وقد ثارت الغبرهُ بسبب الزحام وقال للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بنبره الحانِق الغاضب: يا هذا إذهب إلى الّذين غرَّوك وخدعوك وأتوا بك، فأنزل عليهم، ولاتُغشنا فى ديارنا!!

فقام سعدُ بن عباده – وقد خشى أن يسوء رسولَ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هذا الموقف الوقِح الشِرير – فقال: يا رسول اللّه لا يعرض فى قلبك من قول هذا شىء، فإنّا كنّا اجتمعنا على أن نملِّكهُ علينا، وهو يرى الآن أنّك قد سَلَبتهُ أمراً قد كان أشرفَ

۱- . تاريخ الخميس: ۱/۳۴۱.

علیه.(۱)

هذا ویتّفق عامّه المؤرّخین وکتّاب السیره أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم دخل یثرب یومَ الجمعه، وصلّی صلاه الجمعه فی بنی سالم بن عوف فی بطن وادٍ لهم، وکانت هذه أوّل جمعه جمّعها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الإسلام، فخطب فی هذه الجمعه وهی أوّل خطبه خطبها فی المدینه، وقد ترکت هذه الخطبه البدیعه البلیغه الّتی لم یسمع أهل المدینه مثیلها لفظاً ومعنی من قبل، أثراً عمیقاً وطیّباً فی قلوبهم ونفوسهم.

وقد أدرج ابن هشام نصّ الخطبه فی سیرته(۲)، کما أدرجها المجلسی فی بحاره(۳) أیضاً.

غیر أنّ عبارات ومضامین الخطبه الّتی نقلها ابن هشام وأثبتها فی سیرته تختلف عمّا رواها وأثبتها المجلسی، وللاطّلاع علی ذلک یراجَع المصدران المذکوران.

***

انتهی الجزء الأوّل من کتابنا

«سید المرسلین»

والحمد للّه رب العالمین

۱- . بحار الأنوار: ۱۹/۱۰۸.

۲- . لاحظ: السیره النبویه: ۲/۳۴۷-۳۴۸.

۳- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۹/۱۲۶.

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحه

السيره المحمَّديه مدرسه الأجيال... ٧

مقدّمه المحاضر: التاريخُ فی أَعظَم ملاحمه... ١١

عندما يلتقی العالم الحاضر بالعالم الغابر... ١٢

حياه العظماء والخالدين... ١٥

الرسول الأكرم صلی الله عليه و آله و سلم وحياه حافله بالأحداث... ١٥

مزايا هذا الكتاب... ١٩

١. سيّد المرسلين فی ضوء القرآن الكريم... ٢١

٢. شبه الجزيره العربيه أو مَهْد الحضاره الإسلاميه... ٣۴

مَكهُ المعظمه... ٣۶

تاريخ مكّه... ٣٧

المَدينهُ المنوَّرهُ... ٣٧

٣. العَرَب قبلَ الإسلام... ۴٢

أخلاقُ العرب وتقاليدُهم العامّه... ۴۴

هل كانَ للعرب حضَارهٌ قبل الإسلام؟... ۴۶

ملامح المجتمع الجاهلی العربی من منظار القرآن الكريم... ۴٩

١. الشِرْكُ فی العِباده... ۵١

الموضوع... الصفحه

٢. إنكارُ المعاد... ٥١

٣. هَيْمَنهُ الخرافات... ٥٢

٤. الفساد الأخلاقى... ٥٤

٥. وَأدُ البنات وإقبارُهن... ٥٥

٦. تصوّراتهم الخرافيه حول الملائكه... ٥٦

٧. كيفيه الانتفاع من الأنعام... ٥٦

٨. الاستقسام بالأزلام... ٥٧

٩. النسىء... ٥٧

١٠. الربا... ٥٨

صورٌ من الوضع الجاهلى... ٥٩

العقيده والدين فى الجزيره العربيه... ٦١

عقيده العرب حول حاله الإنسان بعد الموت... ٦٥

الآداب مرآه أخلاق الشعوب ونفسياتها... ٦٧

مكانه المرأه عند العرب الجاهليه... ٦٨

المرأه ومكانتها الاجتماعيه عند العرب... ٧١

مقارنه بسيطه... ٧٤

العربُ والرُّوح القتاليه... ٧٥

الأخلاق العامّه فى المجتمع الجاهلى العربى... ٧٧

النزوع إلى الخرافه والأساطير فى المجتمع الجاهلى... ٧٩

الخرافات فى عقائد العرب فى الجاهليه... ٨٢

نماذج من الخرافات فى المجتمع الجاهلى... ٨٣

١. الاستسقاء بإشعال النيران... ٨٤

الموضوع... الصفحه

٢. ضرب الثور إذا عافت البقر الماء... ٨٤

٣. كيّ صحيح الإبل ليبرأ السقيمُ... ٨٥

٤. حبس ناقه عند القبر إذا مات كريمٌ... ٨٦

٥. عَقرُ الإبل عَلى القُبُور... ٨٦

٦. التعشير... ٨٧

٧. تصفيق الضالّ فى الصحراء ليهتدى... ٨٧

٨. الرتم... ٨٨

٩. وطئُ المرأه القتيل الشريف لبقاء وَلَدها... ٨٨

١٠. طَرْحُ السِنّ نَحو الشَمْس إذا سَقَطَتْ... ٨٩

١١. تعليق شيء نجس على الرجل وقايه من الجنون... ٨٩

١٢. الاستشفاء بدم الرئيس... ٩٠

١٣. شقّ البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل... ٩٠

١٤. معالجهُ المرضى بالأُمور العجيبه... ٩٠

١٥. خرافاتٌ حول الغائب منهم... ٩٢

١٦. عقائدهُمْ العجيبه فى الجنّ وتأثيرُهُ... ٩٣

١٧. تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والأشياء... ٩٣

مكافحهُ الإسلام لهذه الخرافات... ٩٤

أوضاع العرب الإجتماعيه قبيل ظهور الإسلام... ٩٧

دُوَل الحيره وغسّان... ١٠١

الدين فى أرض الحجاز... ۱۰۴

العلم والثقافه فى الحجاز... ۱۰۶

الإمام علىّ عليه السلام يصف العهد الجاهلىّ... ۱۰۶

ص:۶۹۱

الموضوع... الصفحه

فاطمه الزهراء عليها السلام تصف الوضع الجاهلى... ١١١

جعفر بن أبى طالب يصف العهد الجاهلى... ١١٢

۴. إمبراطوريّتا الرُوم وإيران إبّان عهدِ الرِّسالهِ... ١١۴

أوضاع الروم إبَان عهد الرساله... ١١۴

ظاهره الجدل العقيم فى المجتمع الرومى... ١١۶

أوضاع إيران إبّان عَهد الرساله... ١١٩

البَذخ والتَرف فى البلاط الساسانى... ١٢٠

الوضع الاجتماعى فى إيران... ١٢١

حَقٌّ التعلّم خاصٌ بالطبقات العليا!!... ١٢٣

صفحهٌ سوداءٌ من جرائم خسروبرويز... ١٢٧

حكم التاريخ فى الملوك الساسانيين... ١٢٨

الفوضى فى الحكومه الساسانيه... ١٢٩

الفوضى الدينيه فى إيران الساسانيين... ١٣١

الحروب الإيرانيه الروميه... ١٣۵

۵. أسلاف رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم... ١٣٨

١. بطل التوحيد: إبراهيم الخليل عليه السلام... ١٣٨

مولد إبراهيم عليه السلام... ١٣٩

إبراهيم ومكافحته للوثنيه... ١۴٣

حوار إبراهيم الخليل عليه السلام مع عبده الكواكب... ١۴۴

طريقه الأنبياء فى الحوار والجدال... ۱۴۹

هَل كان آزر والدَ إبراهيم؟... ۱۵۱

القرآن ينفى أُبوّه «آزر» لإبراهيم عليه السلام... ۱۵۲

الموضوع... الصفحه

إبراهيم محطِّم الأَصنام... ۱۵۴

العِبَر القيمه فى هذه القصه... ۱۵۸

هجره الخليل عليه السلام... ۱۶۲

كيف ظهرت عين زمزم؟... ۱۶۴

تجديد اللقاء... ۱۶۶

۲. قُصَىُّ بنُ كلاب... ۱۶۸

۳. عبدمناف... ۱۷۰

۴. هاشم... ۱۷۰

أُميّه بن عبدشمس يحسد هاشماً... ۱۷۳

هاشم يَتَزوَّج... ۱۷۴

۵. عبدُ المطّلب... ۱۷۵

حَفرُ زَمزَم... ۱۷۷

التفانى فى سبيل الوفاء بالعهد والنذر... ۱۸۰

حادثه عام الفيل... ۱۸۲

ماهى أسباب هذه الحادثه؟... ۱۸۳

عَبدُالمطّلب يَذهب إلى مُعسكر أَبرهه... ۱۸۷

إنتظار قريش... ۱۸۸

كلمه حول المعجزه... ۱۹۰

نقاطٌ تقتضى التأمّل فى تفسير «فى ظلال القرآن»... ۱۹۴

نقطتان هامّتان... ۱۹۶

بحثٌ علميٌّ حول المعجزه... ۱۹۷

۱. ماهى المعجزةُ وما هو تعريفها؟... ۱۹۸

الموضوع... الصفحه

۲. هل الإعجاز يهدم القوانين العقليه المسلَّمه؟... ۲۰۰

۳. هل المعجزه تصدر عن علل ماديه غير معروفه فقط؟... ۲۰۳

۴. كيف تدلّ المعجزه على صحّه ادّعاء النبوّه؟... ۲۰۵

۵. بماذا نميّز المعاجز عن غيرها من الخوارق؟... ۲۰۶

ماذا بَعْدَ هزيمه الأحباش؟... ۲۱۳

أوهام قريش تتفاقم!!... ۲۱۴

۶. عَبدُ اللّه والدُ النبىّ... ۲۱۶

دَورُ الأَيادى المشْبُوهَه فى تاريخ الإسلام... ۲۱۸

قِصَّه فاطمه الخَثعَمِيَّه... ۲۱۹

علائم الإختلاق فى هذه القصه!... ۲۲۱

طهاره النبىّ من دنس الآباء وعهر الأُمّهات... ۲۲۳

وفاهُ عَبْد اللّه فى «يَثْرب»... ۲۲۴

۶. مَولدُ رَسُول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم... ۲۲۶

فترهُ الطُفوله فى حَياه العُظماء... ۲۲۶

فى أىّ يوم وُلدَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم؟... ۲۳۱

أىُّ القولين هو الصحيح؟... ۲۳۱

فَتْرَهُ الحَمْل... ۲۳۲

مُؤاخَذاتٌ وإشكالاتٌ عَلى هذا البَيان... ۲۳۵

الإحتفال بذكرى المولد النبوى... ۲۳۶

مَراسمُ تسميه النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم... ۲۳۹

خَطأ الْمُستَشْرقينْ... ۲۴۰

«أحمد» كانَ مِنْ أسماء النبيّ المشهوره... ۲۴۱

الموضوع... الصفحه

فتْرَةُ الرِّضاع فی حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۲۴۵

نَظرةُ الإسلام فی تأثیر الرضاع... ۲۴۷

۷. فَتْرةُ الطفُوله فی حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۲۴۹

خَمسَهُ أعوام فی الصَحْراء... ۲۵۳

۸. العَوْده إلی أحضان العائله... ۲۵۵

سَفْرةٌ إلی یثرب... ۲۵۷

وَفاه عبْدالمُطَّلب... ۲۵۹

کفاله أبی طالب للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۲۶۰

سَفرةٌ إلی الشام... ۲۶۱

أکذُوبَهُ المُسْتشرقیْن... ۲۶۳

نَظْرةٌ إجْمالیَّه إلی التَوْراه الحاضِرَه... ۲۶۷

۱. داود علیه السلام... ۲۶۸

۲. النبیّ سلیمان علیه السلام... ۲۶۹

۳. یعقوب علیه السلام... ۲۷۰

۴. إبْراهیم علیه السلام... ۲۷۱

۵. المسیح علیه السلام... ۲۷۲

۹. فَتره الشَباب فی حیاه النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم... ۲۷۵

رسولُ اللّه وقدرتُه الروحیّه... ۲۷۶

حُروبُ الفِجار... ۲۷۶

حِلْفُ الْفُضُول... ٢٨٠

١٠. من فتره الشباب إلى مزاوله التجاره... ٢٨٤

سبب آخر لرعى الغنم... ٢٨٦

الموضوع... الصفحه

إقتْراح أبی طالب... ۲۸۷

هل عَمِلَ النبیُّ أجیراً لخدیجه؟... ۲۸۸

رحله النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم التجاریه إلی الشام... ۲۸۹

خَدیجه زَوجهُ الرَّسول الأُولی... ۲۹۱

خدیجه فی أحادیث الرسول صلی الله علیه و آله و سلم... ۲۹۴

افتخار أهل البیت بخدیجه علیها السلام... ۳۰۳

العللُ الظاهریه والحقیقیه وراء زواج خدیجه بالنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۳۰۴

کیفَ تمَّت خِطبهُ خدیجه؟... ۳۰۶

عمر خدیجه عند زواجها بالنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۳۰۸

۱۱. من الزواج إلی البعثه... ۳۱۱

فَترهُ الشَبابِ فی حیاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم... ۳۱۲

مشاعر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم الإنسانیه فی فتره الشباب... ۳۱۳

أولادُ خدیجه... ۳۱۴

حَدْسٌ لا أساس له من الواقع!!... ۳۱۵

دَعِیُّ رسول اللّه: زید بن حارثه... ۳۱۶

بدایهُ الخِلاف بَین الوثنیّین... ۳۱۷

أعمدهُ الوثنیّه تهتزُّ... ۳۱۸

نموذج آخر عن ضَعف قریش... ۳۲۰

أمینُ قَریشُ یَکْفُلُ عَلیّاً... ۳۲۳

إيمان النبيّ وآبائه وكفلائه قبل الإسلام... ٣٢٤

إيمان جدّه عبدالمطّلب... ٣٢٤

إيمان كفيله وعمه أبى طالب... ٣٢٨

الموضوع... الصفحه

إیمان والدَی النبیّ الأکرم... ۳۲۹

إیمان النبیّ باللّه وتوحیده قبل البعثه... ۳۳۱

شبهات المستشرقین علی عدم إیمان النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قبل البعثه... ۳۳۶

الآیهُ الأُولی: الهدایه بعد الضلاله... ۳۳۷

الآیه الثانیه: الأمر بهجر الرجز... ۳۴۰

الآیه الثالثه: عدم علمه بالکتاب والإیمان... ۳۴۲

تفسیر الآیه بآیه أُخری... ۳۴۶

الآیه الرابعه: عدم رجائه إلقاء الکتاب الیه... ۳۴۹

الآیه الخامسه: لو لم یشأ ما تلوته... ۳۵۱

۱۲. بدء الوَحْی... ۳۵۴

دَور الأنبیاء فی إصلاح المجتمع... ۳۵۷

مثالٌ واضح فی المقام... ۳۵۸

أمین قریش فی غار حِراء... ۳۶۱

بدء الوحی... ۳۶۳

ظاهره القضایا الغیبیّه فی رأی المادیّین... ۳۶۴

الروح المجرّده... ۳۶۶

ظاهره الوحی عِند المادیّین... ۳۶۷

أبرز النظریات المادّیه لظاهره الوحی... ۳۶۸

ظاهرهُ الوحی فی منظار العقل والدین... ۳۷۷

قنواتُ المعرفه الثَلاث... ٣٧٨

أنواع الوحى وأصنافه... ٣٨٠

أساطيرُ مختَلقه... ٣٨١

الموضوع... الصفحه

بقيه حادثه نزول الوحى... ۳۸۲

خديجه تذهب إلى ورقه بن نوفل... ۳۸۳

بُطلانُ هذه المزاعم... ۳۸۵

۱۳. متى نزل الوحى أوّلاً؟... ۳۸۸

ما أجاب به علماء الشيعه... ۳۸۹

الأنبياء والبشاره برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم... ۳۹۳

محمَّد خاتم الأنبياء... ۳۹۶

۱۴. ما سَبَقنى أحدٌ... ۳۹۸

أوَّلُ من آمنَ بالنبىَّ منَ الرجال والنِّساء... ۳۹۸

مِنَ النساء: «خديجه»... ۳۹۸

أقدمُ الرجال إسلاماً: «علىّ» عليه السلام... ۳۹۹

النصوص النبويه... ۴۰۴

كلمات أمير المؤمنين عليه السلام... ۴۰۶

كلمه الإمام السبط الحسن عليه السلام... ۴۱۰

رأى الصحابه والتابعين فى أوّل مَن أسلم... ۴۱۰

مناظره بين المأمون وإسحاق... ۴۲۶

قضيّهُ «انقطاع الوَحْى»... ۴۲۷

أُسطوره وليس تاريخاً!... ۴۲۹

اختلافُ المؤرّخين فى مسأله «انقطاع الوحى»... ۴۳۰

الإختلاف فى مده انقطاع الوحى... ۴۳۴

۱۵. الدَعْوَهُ السِرِّيَّه ودَعوَهُ الأقربين... ۴۳۶

دَعْوهُ الأَقْرَبيْن... ۴۳۸

الموضوع... الصفحه

كيفيّه دَعوه الأقربيْن... ۴۴۲

خِيانهٌ تاريخيّهٌ و جِنايَهٌ أدبيّه!!... ۴۴۴

النبوّه والإمامه توأمان... ۴۴۶

۱۶. الدعوه العامّه... ۴۴۸

الثباتُ والإستقامه على طريق الهدف... ۴۴۹

ثَباتُ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم وَصَبرُهُ... ۴۵۰

قريش تمشى إلى أبى طالب للمرّه الثالثه... ۴۵۳

قريش تحاولُ تطميع رسول اللّه!... ۴۵۳

نماذجٌ من إيذاء قُريش وتعذيبها للمُسلمين... ۴۵۵

أبوجهل يكمُن لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم... ۴۶۰

أبولهب يؤذى رسول اللّه... ۴۶۱

صبر النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم واستقامته... ۴۶۲

إيذاء المسلمين وتعذيبُهم!... ۴۶۲

۱. بلال الحبشى... ۴۶۳

۲. آلُ ياسر رمز الصمود والمقاومه!... ۴۶۴

۳. عَبدُاللّه بن مسعود... ۴۶۶

۴. أبوذر: أوّل المجاهرين بالإسلام... ۴۶۷

قبيلهُ غِفار تعتنق الإسلام... ۴۶۹

أعداء النبيّ الألدّاء... ۴۷۱

عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام... ۴۷۲

۱۷. رأى قريش فى القرآن... ۴۷۷

رأى الوَليد فى القرآن... ۴۷۷

ص:۶۹۹

الموضوع... الصفحه

رأی عتبه بن ربیعه فی القرآن... ۴۷۹

تحجّجاتُ قریش العجیبه... ۴۸۱

الدوافع وراء معاداه قریش وعنادهم... ۴۸۸

۱. حَسَدُهُمْ للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۴۸۸

۲. معارضه الدعوه الإسلامیه لشهواتهم... ۴۹۰

۳. الخَوفُ مِن عُقُوبات الیوم الآخر... ۴۹۰

۴. الخَوفُ مِن القَبائل العَربیه المشرکَه... ۴۹۱

طائفهٌ مِن اعتراضات المشرکین... ۴۹۲

القُرآن والنُزُولُ التدریجیّ... ۴۹۲

الأسرارُ المنطقیّه للنُزول التدریجی للقرآن... ۴۹۵

أسرارٌ أُخری لِنُزُول القرآن تدریجاً... ۴۹۸

۱۸. إلی الحبشه... ۵۰۱

الهجره الأُولی... ۵۰۱

الهجره الثانیه إلی الحبشه... ۵۰۵

قریش توفد رجالاً لاسترداد المسلمین... ۵۰۶

العَودهُ من الحبشه... ۵۱۲

وفدٌ مسیحیٌ لتقصّی الحقائق یدخل مکّه... ۵۱۴

وفد قریش إلی یهود یثرب للتحقیق... ۵۱۵

۱۹. الأسلحهُ الفاشله والأسالیب الباطله... ۵۱۷

۱. الاتّهاماتُ الباطله... ۵۱۸

الإصرار فی نسبه الجنون إلیه صلی الله علیه و آله و سلم... ۵۲۲

القرآن یرد علی جمیع الاتهامات... ۵۲۴

ص:۷۰۰

الموضوع... الصفحه

۲. فکرهُ معارضه القرآن... ۵۲۶

۳. تحجّجات صبیانیّه وجاهلیّه... ۵۲۸

۴. مقترحات عجیبه ومطالیب غریبه... ۵۳۰

صبر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم واستقامته وثباته... ۵۳۱

معاجز النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لم تنحصر فی القرآن الکریم... ۵۳۲

۱. شقّ القمر... ۵۳۲

۲. الإسراء والمعراج... ۵۳۳

۳. مباهله أهل الباطل... ۵۳۳

۴. الإخبار بالمغیبات... ۵۳۳

حرص النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم علی هدایه قریش... ۵۳۴

۵. تحریم المشرکین استماع القرآن... ۵۳۶

واضعو القرار ینقضون قرارهم!!... ۵۳۷

۶. منع الأشخاص من الإیمان برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم... ۵۳۸

الأوّل: الأعشی بن قیس... ۵۳۸

الثانی: الطُفیل بن عَمرو الدوسیّ... ۵۴۰

۲۰. أُسطوره الغرانیق... ۵۴۲

ماهی أُسطوره الغرانیق؟!... ۵۴۳

محاسبه بسیطه لهذه الأُسطوره... ۵۴۴

رأی العقل فی هذه القصه... ۵۴۵

تكذيب القِصَّه من طريق آخر... ۵۴۷

دَليلٌ لغَويٌّ على تفنيد هذه الأُسطوره... ۵۴۸

شبهات للمستشرقين والرد عليها... ۵۵۰

۱. ما هو المقصود من تمنّى الأنبياء والرُسل؟... ۵۵۱

الموضوع... الصفحه

۲. ما هو المقصود من تدخّل الشيطان؟... ۵۵۱

۳. ما هو المقصود من محو آثار التدخّل؟... ۵۵۳

۲۱. الحصار الاقتصادی والاجتماعی... ۵۵۵

قریش تحاصر النبیّ والمسلمین اقتصادیاً واجتماعیاً... ۵۵۶

وضع بنی هاشم المأساوی فی الشِعب... ۵۵۹

۲۲. أبو طالب رجل الإیمان والتضحیات... ۵۶۷

نماذج من مشاعر أبی طالب ومودّته للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۵۷۰

التغییر فی برنامج السفر... ۵۷۳

أبو طالب والدِفاعُ عن حوزه العقیده والإیمان... ۵۷۴

تصَوّرٌ باطلٌ... ۵۷۶

الدافع الحقیقیّ لأبی طالب فی دفاعه عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۵۷۷

لمحات من تضحیات أبی طالب... ۵۷۸

تکفیر أبی طالب قضیّهٌ ذات بواعث سیاسیّه... ۵۸۰

الأدِلّه علی إیمان أبی طالب، وفیها ثلاث طرق... ۵۸۱

الطریق الأوّل: آثار أبی طالب العلمیّه والأدبیه... ۵۸۲

الطریق الثانی: دفاع أبی طالب عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وحمایته له... ۵۸۴

وصیه أبی طالب عند وفاته... ۵۸۵

الطریق الثالث: رأی أقربائه وأصدقائه... ۵۸۶

رأی علماء الشیعه فی أبی طالب... ۵۸۸

نظره إلى حديث «الضحضاح»... ۵۸۸

۱. ضعف أسناد هذه الروايه... ۵۸۹

۲. نصّ حديث الضحضاح يخالف الكتاب والسنّه... ۵۹۰

۲۳. المعراج... ۵۹۳

الموضوع... الصفحه

المعراج فی نظر القرآن والسنّه والتاریخ... ۵۹۳

هل للمعراج جذور قرآنیه؟... ۵۹۶

أحادیث المعراج... ۵۹۸

متی وَقَعت هذه الحادثه؟... ۵۹۹

هل کان المعراج جسمانیاً؟... ۶۰۲

ما هو المراد من المعراج الروحانی؟... ۶۰۳

نَغمهٌ شاذهٌ: هل کان المعراج بالبدن البرزخی؟... ۶۰۶

المعراج وقوانین العلم الحدیث... ۶۰۷

ما هو الهدفُ من المعراج؟... ۶۱۲

۲۴. سفره صلی الله علیه و آله و سلم إلی الطائف... ۶۱۴

النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم یعود إلی مکّه... ۶۱۸

الدعوه فی أسواق العرب... ۶۲۱

دعوه رؤساء القبائل فی مواسم الحج... ۶۲۲

۲۵. بیعه العقبه... ۶۲۴

وقعه بُعاث... ۶۲۶

تفصیل الحادث... ۶۲۷

بیعه العقبه الأُولی... ۶۲۸

بیعه العقبه الثانیه... ۶۲۹

أوضاعُ المسلمین بعد بیعه العقبه... ۶۳۲

ردود فعل قريش تجاه بيعه العقبه... ۶۳۵

تأثير الإسلام ونفوذه المعنوى... ۶۳۷

مخاوف قريش المتزايده... ۶۴۰

حوادث السنه الأُولى من الهجره... ۶۴۳

۲۶. قصّه الهجره... ۶۴۳

الموضوع... الصفحه

الإمدادات الغيبيه والعنايات الإلهيه... ۶۴۵

ملك الوحى يخبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بخطّه قريش لاغتياله... ۶۴۷

إقتحام الأعداء لبيت الوحى... ۶۵۰

النبىُّ فى غار ثور... ۶۵۲

قريش تفتش عن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم... ۶۵۲

الإمام على عليه السلام والتفانى فى سبيل الحق... ۶۵۳

كلام من ابن تيميه حول مبيت الإمام على عليه السلام فى فراش النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم... ۶۵۷

الجواب التفصيلى... ۶۵۹

الخطيب وقضيه المبيت... ۶۶۱

بقيه قصهِ هجرهِ النبىّ... ۶۶۲

الخروج من الغار... ۶۶۵

صفحهُ التاريخ الأُولى... ۶۶۵

لماذا أصبح العامُ الهجرىُ مبدأ للتاريخ؟... ۶۶۶

الهجره النبويه مبدأ لتاريخ المسلمين كافّه... ۶۶۷

مَن الّذى جعل الهجره مبدأً للتاريخ؟... ۶۷۰

نماذج من رسائل النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم والصحابه المؤرّخه... ۶۷۰

مؤامره الطاغوت... ۶۷۷

الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم يبدأ رحلته إلى يثرب... ۶۷۷

النزول فى قريه قباء... ۶۸۰

المدينه تهبُّ لقدوم النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم... ۶۸۲

النبيُّ صلى الله عليه و آله و سلم يدخُلُ المدينه... ۶۸۴

أصل النفاق ومنشؤه... ۶۸۶

فهرس المحتويات... ۶۸۹

المجلد ۲

اشاره

سرشناسه:سبحانی تبریزی، جعفر، ۱۳۰۸ -

Sobhani Tabrizi, Jafar

عنوان و نام پدیدآور:سیدالمرسلین صلی الله علیه و آله: دراسه موضوعیه لحیاه الرسول الاکرم.../ جعفر السبحانی؛ بقلم جعفر الهادی.

مشخصات نشر:قم: موسسه الامام صادق (ع)، ۱۴۴۱ق.= ۱۳۹۹.

مشخصات ظاهری:۲ج.

شابک:دوره:۹۷۸-۹۶۴-۳۵۷۶۴۶-۲ ؛ ج.۹۷۸:۱-۹۶۴-۳۵۷۶۴۷-۹ ؛ ج.۹۷۸:۲-۹۶۴-۳۵۷۶۴۸-۶

وضعیت فهرست نویسی:فیپا

یادداشت:عربی.

موضوع:محمد(ص)، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ق.

موضوع:Muhammad, Prophet, d. ۶۳۲

موضوع:غزوات

موضوع:Ghazavat

موضوع:سنت نبوی

موضوع:*Wonts of the Prophet

موضوع:اسلام -- تاریخ -- از آغاز تا ۱۱ق

موضوع:Islam -- History -- To ۶۳۲

شناسه افزوده:هادی، جعفر، ۱۳۲۵ - ۱۳۹۹.

شناسه افزوده:Hadi, Ja'far

رده بندی کنگره:BP۲۲/۹

رده بندی دیویی:۲۹۷/۹۳

شماره کتابشناسی ملی:۶۱۸۱۶۰۶

وضعیت رکورد:فیپا

ص :۱

اشاره

سیدالمرسلین صلی الله علیه و آله: دراسه موضوعیه لحیاه الرسول الاکرم...

جعفر السبحانی؛ بقلم جعفر الهادی

ص:۲

هويّه الكتاب

سيد المرسلين صلى الله عليه و آله و سلم

دراسه موضوعيه لحياه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم وما رافقها من أحداث تاريخيه ودينيه وسياسيه وعسكريه واجتماعيه

محاضرات

العلّامه المحقّق

الشيخ جعفر السبحانى

بقلم

جعفر الهادى

الجزء الثانى

نشر

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

ص:٣

سبحانی تبریزی، جعفر ۱۳۰۸ -

سید المرسلین صلی الله علیه و آله و سلم / تألیف جعفر السبحانی؛ تعریب جعفر الهادی. - قم: مؤسسه الإمام الصادق علیه السلام، ۱۳۹۹.

۲ ج. (VOL.۲) ۶-۶۴۸-۳۵۷-۹۶۴-۹۷۸ ISBN)

۲VOL.SET) ۲-۶۴۶-۳۵۷-۹۶۴-۹۷۸ ISBN)

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیپا.

کتابنامه به صورت زیر نویس.

۱. محمد صلی الله علیه و آله و سلم، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ ق -- سرگذشت نامه. الف. هادی، جعفر، ۱۳۲۵ - مترجم. ب. مؤسسه امام صادق علیه السلام. ج. عنوان.

۹ س ۲ س/ ۲۲/۹ BP ۹۳/۲۹۷

۱۳۹۹

اسم الکتاب:... سیّد المرسلین صلی الله علیه و آله و سلم / ج ۲

المؤلف:... العلّامه المحقّق الشیخ جعفر السبحانی

بقلم:... الأُستاذ الشیخ جعفر الهادی

الموضوع:... السیره النبویه

الطبعه:... الأُولی

تاریخ الطبع:... ۱۳۹۹ ه. ش / ۱۴۴۱ ه ق/ ۲۰۲۰ م

المطبعه:... مؤسسه الإمام الصادق علیه السلام

الناشر:... مؤسسه الإمام الصادق علیه السلام

القطع:... وزیری

عدد النسخ:... ۱۰۰۰

التنضيد والإخراج الفنى:... مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

تسلسل النشر: ۱۰۷۳ تسلسل الطبعه الأُولى: ۵۰۸

حقوق الطبع محفوظه للمؤسسه، فلا يجوز شرعاً استنساخ أو نشر اصدارات

المؤسسه إلّابعد التنسيق مع المؤسسه واستحصال الموافقه الرسميه

توزيع: مكتبه التوحيد

ايران – قم؛ ساحه الشهداء

? ۳۷۷۴۵۴۵۷؛ ۰۹۱۲۱۵۱۹۲۷۱

www.shia.ir

www.tohid.ir

http://www.imamsadiq.org

بسم اللّه الرحمن الرحيم

ص:۵

مقدمه المؤلّف

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مُميّزات النهضه الإلهيه وخصائصها

خصيصه «الخلود» والعمق فى شخصيه رسول الإسلام

تُشبّهُ نهضه «الأنبياء» الإلهيه الّتى قام بها رسلُ اللّه وسفراؤه لتخليص البشريه من براثن الأوهام، والخرافات، ولإنقاذها من جور المستكبرين وظلم الظالمين أكثرَ شىء، بأمواج البحر الّتى تبدأ بدوائر صغيره محدوده، ولكنّها كلّما ابتعدت عن مركز الدائره ازدادت اتّساعاً واتّساعاً، واشتدّت قوّتها أكثر فأكثر.

إنّ الإنقلاب المعنوىّ العريض والتحوّل الروحىّ العظيم الّذى وُضِعت أُسُسُه فى أرض مكّه على يدى رسول الإسلام العظيم، أضاء بشعاعه و نوره الباهر فى اليوم الأوّل غار حراء ثم منزل خديجه وبعض البيوت المتواضعه فى مكّه فقط، ولكنّه اتّسع نطاقه بمرور الزمان، حتّى عمَّ فى مدّه ليست بالطويله شرق الأرض وغربها، ودوّى نداءُ التوحيد فى منطقه واسعه جدّاً من العالم (ابتداء من

فرنسا وانتهاءً بجدار الصين وما وراءه)(۱).

إن مُؤسّسی هذا النوع من النهضات الدينيه(۲) يتمتعون - من حيث الأخلاق والفضائل الإنسانيه - بخصيصه الخلود واللانهايه فإنّ الزمن يكشف

۱- . كتبت هذه المقدّمه وما بعده خلال تواجدی فی الصين عام ۱۴۰۸ ه، وقد جئت إليها فی مهمّه استطلاعيه وتبليغيه إسلاميه، وقد زرت فی نفس الفتره الّتی كنت فيها مشتغلاً بكتابه هذه المقدّمه المسجد الجامع فی (بكين) العاصمه، والتقيت بإمام ذلك المسجد الّذی رحَب بی وبمَن كان معی أشدّ ترحيب، وأتحفنی بنسخه من ترجمه القرآن الكريم باللغه الصينيه، وزرت خلال وجودی فی ذلك المسجد قبر رجلين مسلمين من إيران أحدهما تاجر، والآخر عالم جاءا إلى الصين فی القرن السادس الهجری، ونشرا الإسلام فی بكين وما حولها، وقد نصبت عند قبرهما لوحتان من المرمر نقش عليهما اسمهما، وخصوصياتهما بالأحرف العربيه. وهناك تذكرت حديث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «اطلبوا العلم ولو بالصين». قلت فی نفسی: لعلّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يقصد فيما يقصد فی هذا الحديث دفع المسلمين إلى نشر مبادئ الإسلام فی تلك البلاد العريضه الّتی تضم خمس سكان العالم. وقد قام المسلمون الغيارى على دينهم، الحريصون على نشره وبثّه بهذه المهمّه فيما سبق وأدوا ما كان عليهم. فماذا فعلنا نحن؟ وهل ترى يجوز أن يجهل خمس سكان العالم دين اللّه، ولا ينعموا بخيراته؟! أم هل ترى يجوز فی شريعه الانصاف أنّ يعانی ذلك الشعب الكبير من الأباطره الطغاه فی الماضی، ومن الأنظمه والآيديولوجيات الجائره الملحده فی الحاضر، هذا والنبیّ صلى الله عليه و آله و سلم كان يحرص على هدايه فرد واحد، والقرآن يقول: «وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً»؟؟ هل خُصّصت نهضه الأنبياء الإلهيه برقعه صغيره من الأرض هی الجزيره العربيه، وما حولها؟ أمّ أنّها رحمه للعالمين جميعاً؟ سؤال نطرحه على أبناء الإسلام دعاهً ورعايا، حكومات و شعوباً لعلّهم يتفكّرون؟ (جعفر الهادی).

۲- . المقصود من الدين هو المنهاج الواسع الشامل الّذی يتكفّل سعاده البشريه فی الحياتين الدنياوالأُخرى وليس مجرّد سلسله من الطقوس الفارغه الخاويه كما هو الحال فی المسيحيه الحاضره.

باستمرار عن أبعاد أوسع و آفاق جديده من شخصياتهم فهى تتّسع كلّما تقادم بها العهد تماماً كأمواج البحر، وكأنّ الأنبياء نسخه ثانيه من الطبيعه، فكما أنّنا كلّما أمعنا النظر أكثر فى الطبيعه ظهرت لنا منها حقائق أكثر، وانكشفت لنا رموز وأسرار جديده لم نعهدها من قبل فهكذا شخصيات الأنبياء والمرسلين، وسفراء اللّه إلى البشريه.

وتتجلّى هذه الحقيقه أكثر فأكثر كلّما تعاظمت شخصيه من تلك الشخصيات.

وخلاصه القول: إنّنا كلّما ازددنا تعمّقاً وإمعاناً فيهم، اكتشفنا أسراراً كثيره، وحقائق جديده عن حياتهم.

ويدلّ على كلامنا هذا تلك المؤلّفات الكثيره الوافره الّتى كتبها علماء التاريخ وأصحاب السير، قديماً وحديثاً، حول رسول الإسلام العظيم صلى الله عليه و آله و سلم ولكن مع ذلك كلّه كلّما تقادم العهد به، و كلما اتسعت النظرات وازدادت عمقاً، اكتشف المحققون مزيداً من الآفاق، وجديداً من الابعاد فى هذه الشخصيه الإلهيه.

ولقد كان تعاطى السيره النبويه والحديث حولها فى البدايه منحصراً (أو بالأحرى مقتصراً) على مشاهدات أصحاب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ومسموعاتهم.

ومع ظهور جيل جديد يُدعى بالتابعين بعد وفاه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم اتّخذت الأحاديث والسنن الإسلاميّه، وتفاصيل الحياه النبويّه، وقصص غزواته وحروبه رونقاً جديداً، وأحسّ الجيل الجديد برغبه شديده فى أخذ الأحاديث الإسلاميه، والتعرّف على الحوادث الّتى وقعت فى عصر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، وأيّام حياته من مولده إلى وفاته.

وكلّما ازدادت حالات الوفاه، فى أوساط الصحابه والتابعين الذين كانوا

یشکّلون المنبع الأوّل والمصدر الأصیل لهذا النوع من العلوم الإسلامیه، اتّسع الاهتمام بالسیره وما شابهها وتعاظمت الرغبه فیها وتزاید عطش المسلمین إلی أخذ ومعرفه الأحادیث الّتی تتضمّن بیان خصوصیات حیاه رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم، وجزئیات سیرته الطاهره. هذا من جانب.

ومن جانب آخر کان تشدّد الخلیفه الثانی(۱)، ومنعه عن کتابه أحادیث النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قد أوجب أن یندثر کثیر من الأحادیث الإسلامیه، الّتی سمعها بعض أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وتدفن تحت التراب بموتهم.

ولقد استمر منع الخلیفه عن کتابه الحدیث النبوی وبقیّ ساری المفعول لمده طویله بعد وفاته(۲)، حتّی أتی إلی الحکم خلیفه معتدل السیره من الأمویین هو: «عمر بن عبدالعزیز» فأمر - فی رسالهٍ وجّهها إلی أبی بکر بن حزم حاکم المدینه وقاضیها - بکتابه أحادیث النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم خوفاً من اندراس العلم وزواله(۳).

المصادر الأُولی والأصیله للکتابه عن سیره النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم

ومن حسن الحظ أنّ الخلیفه الثانی لم یمنع إلّامن تدوین وکتابه الأحادیث النبویّه، فلم یشمل هذا المنع کتابه الحوادث والوقائع الّتی وقعت فی عصر الرساله.

ولهذا أُلِّفت فی تلک الفتره کتبٌ کثیره عن حیاه رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم، وأوّل مَن کتب حول وقائع عصر الرساله، وأرّخ حوادث الصدر الأوّل من الإسلام هو:

۱- . لاحظ: تقیید العلم للخطیب البغدادی: ۴۸-۵۳.

۲- . لم یترک نهی الخلیفه أی أثر علی علماء الشیعه الذین کانوا یتبعون علیّاً علیه السلام، فقد عمدوا فی فتره محدوده إلی تدوین وضبط الأحادیث، وحفظوا کنوزاً عظیمه من علوم أهل البیت النبوی. للتوسّع فی هذا المجال راجع کتاب «تأسیس الشیعه لعلوم الإسلام».

۳- . لاحظ: إرشاد الساری فی شرح صحیح البخاری: ۱/۱۹۵ و ۱۹۶.

«عروه بن الزبیر بن العَوّام» الصحابی المعروف الّذی توفّی عام ۹۲ أو ۹۶ من الهجره(۱).

ثمّ عمد بعده جماعه فی المدینه وآخرون فی البصره إلی جمع وتدوین تفاصیل السیره، وحروب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وغزواته، وبیان هذا الأمر علی نحو التفصیل خارج عن نطاق هذه الدراسه.

ولقد کانت هذه الکتب والمؤلّفات هی المنبع والأساس للکتب الّتی دوّنت فیما بعد فی صوره کتب السیره النبویّه، أو تاریخ الإسلام.

وقد بدأ تدوین سیره النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم بشکل جمیل وبصوره بدیعه منذ أوائل المنتصف الثانی من القرن الثانی الهجری، وکان من بین مَنْ قام بجهد مشرّف ومشکور فی هذا المجال العالمُ الشیعیُ الکبیر محمد بن إسحاق (المتوفّی عام ۱۵۱ ه) فهو أوّل مَن استخرج تفاصیل الوقائع الإسلامیه من کتب الماضین، ومن ثنایا روایاتهم و منقولاتهم وألّفها وأخرج شیئاً جامعاً حول السیره النبویّه إلی عالم الکتب والمؤلّفات.

کما أنّ أوّل مَن ضبط ودوَّن غزوات رسول الإسلام بشکل مفصّل هو الواقدی صاحب «المغازی» و «فتوح الشام» (المتوفّی عام ۲۰۷ ه)(۲).

۱- . تأسیس الشیعه لعلوم الإسلام: ۲۳۳. اختلفت الأقوال فی مَن هو أوّل مَن صنّف فی علم المغازی والسیر فی الإسلام. فقال السیوطی فی کتاب الأوّلیات بأنّه عروه بن الزبیر. وقال الأفندی فی «کشف الظنون» إنّه محمد بن إسحاق. والحقّ إنّه لا الأوّل ولا الثانی بل عبید اللّه بن أبی رافع فإنّه تقدّمهما فی التصنیف فی السیر والمغازی.

۲- . عدّ الشیخ الطوسی فی رجاله ابن إسحاق من تلامذه الإمام جعفر الصادق علیه السلام، وتوجد نسخه

وقد لُخّصت سیره ابن اسحاق علی ید ابن هشام أبی محمد عبدالملک (المتوفّی عام ۲۱۸ ه) و عرفت فیما بعد بسیره ابن هشام (أو السیره الهشامیه) وهو الآن معدود من مصادر التاریخ الإسلامی و سیره النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم الموثّقه.

ولو أنّنا تجاوزنا هذه الشخصیات لکان لشخصیّتین أُخریین سهمٌ کبیرٌ فی تدوین وتسجیل تاریخ حیاه رسول الإسلام وهما:

۱. محمد بن سعد الکاتب الواقدی (المتوفّی عام ۲۳۰ ه) مؤلّف «الطبقات الکبری» الّذی أورد فیه سیره النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه علی نحو التفصیل.

وقد طبع هذا الکتاب فی لندن مؤخراً، کما أعید طبعه فی لبنان فی ۹ مجلدات.

۲. محمد بن جریر الطبری (المتوفّی عام ۳۱۰ ه) مؤلّف کتاب «تاریخ الأُمم والملوک».

علی أنّ تثمین جهود هذه الثلّه من الکتّاب والمؤلّفین لا یعنی بالضروره أنّ کلّ ما أدرجوه فی مؤلّفاتهم هو الثابت الصحیح، بل تحتاج مؤلّفاتهم - کغیرها من المؤلّفات، والکتب - إلی التحقیق الواسع والتمحیص الدقیق.

ثم إنّ حرکه التألیف حول شخصیه رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم وسیرته استمرت بعد ذلک طیله القرون الإسلامیه اللاحقه. ونحن الیوم أمام مکتبه زاخره من الکتب، والدراسات، المختلفه فی أحجامها ومستویاتها، والمتنوعه فی طرائقها و أسالیبها، الّتی أُلفت حول رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وهذا إنّما یدلّ علی خصیصه العمق واللانهایه الّتی اتّسمت بها شخصیه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم الخالده العظیمه.

وقد أراد صاحب هذه الدراسه أن يقدم للجيل الحاضر شرحاً ناطقاً عن حياه رسول الإسلام العظيم، فی حدود ما تسمح به إمکاناته المحدوده، ولم یأل جهداً - لتحقیق هذا الهدف علی وجه أفضل - فی مراجعه کتب الفریقین المعتبره، وإن اکتفی بذکر عددٍ قلیل من المصادر عند التألیف، وقد بیّنا عذرنا من هذا فی الجزء الأوّل من هذه الدراسه.

ولقد تناول الجزءُ الأول من هذا الکتاب حوادث مکّه من بدء نشأتها إلی نهایه السنوات الثلاث عشره الأُولی من عصر الرساله أی ما قبل الهجره، وها هو الجزء الثانی وهو یتناول حوادث العشر سنوات للهجره الشریفه، ومن اللّه التوفیق.

جعفر السبحانی

قم المقدّسه - الحوزه العلمیه

۲۱ شعبان ۱۳۹۲ ه

حوادث السنهِ الأولی من الهجره

اشاره

حوادث السنهِ الأُولی من الهجره(۱)

۲۷ أوَّل عمل إیجابی للنبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلم فی المدینه

عقد میثاق تعایش بین المسلمین وغیرهم

حملت وجوه فتیه الأنصار المستبشره، المبتهجه، بمقدم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم والاستقبال العظیم الّذی قام به أغلبیه الأوسیّین والخزرجیّین له حملته صلی الله علیه و آله و سلم، علی أن یعمد قبل أی شیء إلی تأسیس مرکزٍ عامٍ لتجمّع المسلمین فیه فی الأوقات المختلفه، وللقیام بالأعمال التربویه والتثقیفیه، والسیاسیه والعسکریه فی رحابه.

کما أنّ عباده اللّه الواحد تقع فی طلیعه البرامج الّتی جاء بها رسول الإسلام، ولذا رأی من اللازم أن یعمد قبل أی عمل آخر إلی بناء مسجد للمسلمین حتّی یتسنّی لهم أن یعبدوا اللّه ویذکروه فیه فی أوقات الصلوات.

أجل کانت الحاجه إلی مثل هذا المرکز شدیده فلابد من مکان لیجتمع

۱- . لابدّ أنّک أیّها القارئ الکریم تتذکّر جیداً أنّنا قصدنا من السنه الأُولی للهجره الأشهر العشره المتبقیه الّتی قضی رسول اللّه شهرین منها فی مکّه وحط فی الباقی من شهرها الثالث (أی ربیع الأوّل) علی أرض یثرب، بناء علی هذا تکون السنه الأُولی من الهجره تسعه أشهر تقریباً، وتبدأ السنه الهجریه الثانیه من شهر محرّم الحرام (ولیس من الثانی عشر من ربیع الأوّل).

أعضاء حزب الإسلام (حزب اللّه) كلّ أسبوع فی یوم معیّن فیه، ویتشاوروا فی شؤون الإسلام والمسلمین ومصالحهم، ولیجتمع فیه عامّه المسلمین مضافاً إلی هذا اللقاء الأُسبوعیّ مرّتین کلّ عام لأداء صلاه العید، فکان المسجد الّذی بناه کأوّل عمل قام به بعد قدومه المدینه.

فلم یکن المسجد علی عهد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم للعباده فقط بل کانت تلقی فیه کلّ أنواع العلوم والمعارف الإسلامیه الشامله للأُمور التربویه وغیرها.

لقد کان یعلّم فیه کلّ التعالیم والمواد الدینیه والعلمیه، حتّی الأُمور المرتبطه بالقراءه والکتابه.

وقد بقیت أغلب المساجد علی هذا المنوال حتّی مطلع القرن الرابع الهجریّ الإسلامیّ، فقد کانت فی غیر أوقات الصلاه تتحوّل إلی مراکز لتدریس العلوم المتنوّعه(۱).

وربما اتّخذ مسجد المدینه صوره المرکز الأدبیّ، عندما کان یُلقی فیه کبار فصحاء العرب وبلغاؤهم قصائدهم المنسجمه مع التعالیم الأخلاقیه والمعاییر الإسلامیه بین یدی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کما فعل «کعب بن زهیر» إذ ألقی قصیدته المعروفه ب «البرده» عند النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی المسجد، وأعطاه النبیّ الکریم صلی الله علیه و آله و سلم صله جیّده، وخلع علیه بخلعه عظیمه(۲).

۱- . راجع صحیح البخاری: ج ۱ کتاب العلم، بل حتّی عند فصل المراکز العلمیه عن المساجد فی ما بعد، بقیت المدارس تبنی وتشیَّد إلی جانب المساجد فکان هذا العمل یجسد الصله الوثیقه بین العلم والدین.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۹۳۹/۴ قال: أنشد کعب بن زهیر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی المسجد: بانت سعاد.

أو كما كان يفعل «حسّان بن ثابت» الّذى كان يدافع بشِعره عن حوزه الإسلام والمسلمين إذ كان يلقى بعض قصائده فى المسجد عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ولقد كانت مجالس الدرس والتعليم فى مسجد المدينه على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تتسم بروعه كبيره بحيث عندما شاهد وفد ثقيف مشهداً من مشاهدها انبهروا به، وعجبوا بشده لاهتمام المسلمين بتعلّم الأحكام واكتساب المعارف والعلوم(۱).

كما أنّه كانت تمارَس الأُمور القضائيه والفصل بن الخصومات، وإصدار الحكم على المجرمين فى المسجد، فكان المسجد يومذاك بمنزله محكمه (بكلّ معنى الكلمه) أى أنّها تقوم بكلّ ما تقوم به المحاكم اليوم.

هذا مضافاً إلى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يلقى خطبه الحماسيه والجهاديه لتعبئه المسلمين من أجل مجاهده الكفّار والمشركين فى المسجد.

ولعلّ من حكمه الاجتماع فى المسجد لأجل تحصيل المعارف وتعلّم العلوم هو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أراد بذلك أن يثبت عملياً أن العلم والدين توأمان لا ينفكان، فكلّما كان هناك مركز للإيمان وجب أن يكون محلّاً للعلم أيضاً.

وأما ممارسه القضاء والقيام بالخدمات الاجتماعيه، واتّخاذ القرارات العسكريه فى المسجد فقد كان لأجل أن يعلن للجميع بأنّ دينه ليس مجرّد أمرٍ معنوى لا يتّصل بالأُمور الدنيويه ولا تهمه قضايا الحياه وشؤون المعيشه المادّيه، بل هو دينٌ شاملٌ كاملٌ لا يحضّ الناس على التقوى، ولا يدعوهم إلى الإيمان إلّاويهتم أيضاً بشؤونهم المعيشيه وإصلاح أوضاعهم الاجتماعيه.

فليس هو بالتالى يهتمُّ بجانب ويُغفِلُ جانباً، بل هو دين شامل جامع يتكفّل الأُمور

۱- . تاريخ الخميس: ۱۳۶/۲.

المادّیه والمعنویه معاً.

ولقد کان هذا التلاقی والانسجام (بین العلم والإیمان) محطَّ اهتمام المسلمین ونصب أعینهم دائماً حتّی بعدما اتّخذت المراکزُ التعلیمیه والمؤسساتُ العلمیه البحته شکلاً مستقلّاً وصار لها محلٌ خاص تُدرّس فیه، فإنّهم ظلّوا یبنون الجامعات إلی جانب الجوامع ویشیّدون المعاهد إلی جانب المساجد، لیثبتوا للعالم أنّ هذین الأمرین اللّذین یکفلان إسعاد الحیاه والإنسان لا یمکن أن ینفصلا، ویبتعد بعضهما عن بعض.

مع عمّار بن یاسر فی بناء المسجد النبویّ

لقد ابتاع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الأرضَ الّتی برکت فیها ناقته یوم قدومه المدینه، من أصحابها بعشره دنانیر لإقامه مسجد فیها. واشترک کافّه المسلمین فی تهیئه موادّه الإنشائیه وبنائه، وعمل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم نفسُه فی تشییده أیضاً، فکان صلی الله علیه و آله و سلم ینقل معهم اللبن، والحجاره، وبینما هو صلی الله علیه و آله و سلم ذات مره ینقل حجراً علی بطنه استقبله «أُسیدُ بن حضیر» فقال: یا رسول اللّه إعطنی أحمله عنک.

قال صلی الله علیه و آله و سلم: لا، إذهَب فاحمِل غیرَه(۱).

وبهذا الأُسلوب العملی کشف رسول الإسلام العظیم عن جانب من برنامجه الرفیع، إذ بیّن بعمله أنّه رجل عمل ولیس رجل قول، رجل فعل ولیس رجل کلام، وکان لهذا الأُسلوب الأثر الفعّال فی نفوس أتباعه.

فقد أنشد أحد المسلمین بهذه المناسبه یقول:

۱- . بحار الأنوار: ۱۱۲/۱۹.

لَئِن قَعَدنا وَالنبیّ یعمَلُ فذاکَ مِنّا العمل المضَلّل(۱)

وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یردّد وهو یبنی ویعمل: لا عیش إلّاعیش الآخره، اللهمّ ارحم الأنصار والمهاجره.

وقد کان «عثمان بن عفان» ممّن یهتمّ بنظافه ثیابه، ویحرص علی أن یمنع عنها الغبار والتراب، فلم یعمل فی بناء المسجد لهذا السبب، فأخذ عمّار ینشد أبیاتاً تعلّمها من أمیرالمؤمنین علیّ علیه السلام، وفیها تعریض بمَن لا یعمل ویحرص علی ثیابه أن لا تتّسخ بالغبار:

لا یستوی مَن یَعمرُ المساجدا یَدأبُ فیها قائماً وقاعِدا

ومن یُری عنِ الغُبارِ حائدا(۲) وقد أغضب مفادُ هذه الأبیات عثمان بن عفان، فقال لعمّار مهدّداً: قد سمعتُ ما تقول منذ الیوم یا ابن سمیه، واللّه إنّی لأرانی سأعرض هذه العصا لأنفک، أی أضربک بها، وفی یده عصا!!

فلمّا عرف رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بکلام عثمان غضب وقال:

«ما لَهُم وَ لِعَمّار، یَدعوهُم إلی الجنّه، وَیَدعُونَه إلی النار.

إنَّ عماراً جلدهُ ما بین عینیّ وأنفی...»(۳).

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۳۴۴/۲، تحقیق محمد محیی الدین عبد الحمید، نشر مکتبه محمد علی صبیح وأولاده، مصر - ۱۳۸۳ ه.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۳۴۴/۲؛ تاریخ الخمیس: ۳۴۵/۱؛ والسیره الحلبیه: ۷۶/۲. ومع أنّ ابن إسحاق صرّح باسم عثمان بن عفان ولکن ابن هشام الّذی لخّص سیره ابن إسحاق امتنع عن تسمیه عثمان. وقال صاحب المواهب اللدنیه: المراد فی هذه الأبیات عثمان بن مظعون، راجع هامش سیره ابن هشام أیضاً.

۳- . تاریخ الخمیس: ۳۴۵/۱.

وكان «عمّار» فتى الإسلام القوى، يحمل قدراً كبيراً من اللبن والأحجار فى بناء المسجد ولا يكتفى بحمل شىء قليل منها.

فكان البعض يستغل طيب قلبه وإخلاصه فيثقله باللبن والأحجار.

ويروى أنّ أصحاب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم جعل يحمل كلّ واحد لبنه لبنه وعمّار يحمل لبنتين لبنتين لبنه عنه ولبنه عن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم محبه منه لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم(۱).

وذات مرّه رآه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقد حمّلوه ثلاث لبنات أو أحجار ثقيله، فشكا إليه عملهم وقال: يا رسول اللّه قتلونى يحملون علىّ ما لا يحملون فنفض رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وفرته(۲) وكان رجلاً جعداً وهو يقول قولته التاريخيه:

«ويح ابن سميه ليسوا بالذين يقتلونك، إنّما تقتلك الفئه الباغيه»(۳).

وقد كان هذا الخبرُ الغيبى من الدلائل القويه على نبوّه الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم وصدق دعواه، وصحّه إخباراته، فقد وقع ما أخبره كما أخبر، فقد قتل «عمّار» وهو فى التسعين من عمره فى معركه صفّين عندما كان يقاتل جيش الشام بين يدى على عليه السلام، فقتله حزب معاويه، وقد أحدث هذا الخبر الغيبى أثراً عجيباً فى حياه المسلمين، فقد جعله المسلمون معياراً لمعرفه الحقّ، أى كانوا يعرفون حقّانيه أى جهه من الجهات وأى طرف من الأطراف فى الصراعات والنزاعات بانضمام عمّار إليه.

وعند ما قُتِلَ عمّار فى ساحه القتال بصفّين، دبّ فى أهل الشام اضطراب عجيب.

۱- . السيره الحلبيه: ۷۱/۲، البدايه والنهايه: ۲۱۷/۲.

۲- . أى شعر رأسه.

۳- . المصدران السابقان.

فالـذين كـانوا فى شـكّ فى حقّـانيه علىّ عليه السـلام وموقفه فى هـذه الحرب بفعـل الـدعايه المضادّه الّتى كان يقوم بها معاويه ومساعـده عمرو بن العـاص ضـد الإمام قـد انتبهوا إلى خطائهم وعرفوا بمقتل «عمّار» على أيـدى أنصار معاويه بأنّ علياً على حقّ وأنّ معاويه وجماعته هى الفئه الباغيه الّتى أخبر عنها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ومن هؤلاء «خزيمه بن ثـابت» الأنصارىّ الّـذى خرج مع الإمام علىّ عليه السـلام لقتال معاويه، ولكنّه كان متردّداً فى مقاتلته، بيد أنّه جرّد سيفه بعد مقتل «عمّار» على أيدى أهل الشام، وحمل عليهم(۱).

ومنهم «ذوالكلاع» الحميرى الّذى خرج على رأس عشرين ألف مقاتل وهم تمام رجال قبيلته، مع معاويه لمحاربه الإمام علىّ عليه السـلام، وكان معاويه يعتمـد على نصـرته اعتماداً كبيراً، حتّى أنّه لم يقدم على اتّخاذ قرار الحرب إلّابعدَ أن اطمأنَّ إلى تأييده له، ومشاركته فى قتال على عليه السلام.

فقد صُدِمَ القائد المخدوع بشدّه عندما سمع بوجود «عمّار» فى معسكر الإمام «على».

فأرادَ رجالُ معاويه أن يموِّهُوا الأمر، ويشوشوه عليه فقالوا: ما لعمّار ولصفّين؟ فذلك ما يقوله أهل العراق وما يبالون من الكذب.

ولكن ذا الكلاع لم يقتنع بهذا فقال لعمرو بن العاص: يا أبا عبداللّه أما قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «إنّ عمّاراً تقتله الفئه الباغيه»؟

فقال عمرو: أجل، ولكن ليس عمّار فى رجال على.

فقال ذوالكلاع: فلابدّ إذن أن أعرف ذلك بنفسى.

۱- . المستدرک على الصحيحين: ۳/۳۸۵؛ الطبقات الكبرى لابن سعد: ۲۵۹/۳.

ثم أمر رجالاً بأن يتحقّقوا من الأمر. وفی هـذه اللحظه الحسّاسه أدرک معاویه وعمرو خطوره الموقف، إذ لو تحقّق ذوالکلاع من وجود عمّـار فی معسـکر «علی» أو عرف بمقتله بین یـدیه علیه السـلام إذن لأحـدث ذلـک شـرخاً کبیراً وتمزّقاً فضـیعاً فی جیش الشام، من هنا تمّت تصفیه ذوالکلاع فوراً إذ قُتل بصوره غامضه(۱).

إنّ اشتهار هذا الحدیث لدی محدّثی السنّه والشیعه لیغنینا عن استعراض مصادره، واسناده.

فقد روی أحمد بن حنبل أنّه لمّا قُتِلَ عمّار بن یاسـر دخل عمرو بن حزم علی عمرو بن العاص فقال قُتل عمّار وقد قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سـلم: تقتله الفئه البـاغیه؟ فقـام عمرو بن العاص فزعاً یرجع (أی یقول: إنا للّه وإنا إلیه راجعون) حتّی دخل علی معاویه، فقال معاویه: ما شأنک؟ قال: قُتِل عمّار فقال معاویه: قد قُتِل عمّار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یقول: تقتله الفئه الباغیه، فقال له معاویه:

أو نحن قتلناه إنّما قتله علیٌّ وأصحابه جاءُوا به حتّی ألقوه بین رماحنا (وسیوفنا)(۲).

ولکن لا یخفی أنّ هـذا التأویل الباطل الّـذی لجأ إلیه ابن أبی سـفیان لتهـدئه جنود الشام، لیس مقبولاً عند اللّه تعالی قط، کما لا یقبل به أیُّ عاقلٍ لبیبٍ.

فإنَّ هـذا هو الاجتهاد فی مقابل النص، وهو ممّا لا قیمه له أبداً، فإنّ هذا النوع من الاجتهاد فی مقابل الآیات والروایات الصـریحه هو الّذی سبّب فی أن یعمد فریقٌ من المجرمین والجناه إلی تبریر جرائمهم وفضائعهم بحجّه «الاجتهاد»، وتحت غطائه.

۱- . وقعه صفین: ۳۷۷.

۲- . مسند أحمد بن حنبل: ۱۹۸/۴.

وإليك نموذجاً من هذا الأمر:

ضئرٌ أرأف من والده!!

لا يجد المرءُ عبارةً أفضلَ من هذه تعرّف حقيقةَ مؤرّخ القرن الثامن الهجرى (ابن كثير الشامى مؤلّف البدايه والنهايه).

فقد انبرى هذا الرجل إلى الدفاع عن معاويه فى كتابه إذ قال: لا يلزم من تسميه أصحاب معاويه بغاةً تكفيرهم...، لأنّهم وإن كانوا بغاةً فى نفس الأمر فإنّهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال، وليس كلّ مجتهدٍ مصيباً، بل المصيب له أجران، والمخطئ له أجر - ثم يقول: - وأمّا قوله: يدعوهم إلى الجنّه ويدعونه إلى النار، فإنّ عمّاراً وأصحابهُ يدعون أهل الشام إلى الأُلفه واجتماع الكلمه، وأهل الشام يريدون أن يستأثروا بالأمر دون مَن هو أحقّ به، وأن يكون الناس أوزاعاً على كلّ قطر إمامٌ برأسه، وهذا يؤدّى إلى افتراق الكلمه واختلاف الأُمّه فهو لازم مذهبهم وناشئ عن مسلكهم وإن كانوا لا يقصدونه!!(١).

ونحن لم نجد اسماً يناسب هذا العمل إلّاالتحريف للحقائق.

فإنّ مؤيّدى الفئه الباغيه مع كلّ ما أُوتوا من قدره على إخفاء الحقائق وطمسها لم يستطيعوا إنكار هذه الحقيقه، ولكن مؤرّخاً مثل ابن كثير عمد - رغم ورود هذا الحكم الغيبى فى شأن تلك الفئه - إلى تحريف بارد قد غفلت تلك الفئه هى ذاتها عنه!! روى أحمد بن حنبل فى مسنده عن حنظله بن خويلد العنبرى قال: بينما أنا عند معاويه إذ جاء رجلان على معاويه يختصمان فى رأس عمّار يقول كلّ واحد

١- . البدايه والنهايه: ٢٦٥/٣.

منهما أنا قتلته، فقال عبداللّه بن عمرو: وليطب به أحدكما نفساً لصاحبه فإنّی سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یقول: تقتله الفئه الباغیه، قال معاویه: فما بالک معنا؟ قال:

إنّ أبی شکانی إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فقال: أطع أباک مادام حیّاً، ولا تعصه، فأنا معکم ولستُ أُقاتل(۱).

إنّ اعتذار «عبداللّه بن عمرو بن العاص» یشبه تأویل ابن کثیر الشامی الّذی یقول: إنّ معاویه قاتل «علیّاً» فی صفین اجتهاداً وإیماناً، وإن أخطأ فی اجتهاده؛ وذلک لأنّ إطاعه الوالد واجبه مالم تجر إلی مخالفه الشرع، فهذا هو القرآن الکریم یقول:

«وَ إِنْ جاهَداکَ لِتُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما» .(۲)

کما أنّ الاجتهاد إنّما یصحّ إذا لم یکن فی المقام نصٌّ صریح ورد عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، ولهذا کان اجتهاد معاویه وعمرو بن العاص وأمثالهما باطلاً مرفوضاً، لکونه فی مقابل النصّ النبوی.

ولو أنّنا فتحنا باب الاجتهاد هکذا بدون أیّه ضوابط لکان جمیع المشرکین والمنافقین معذورین فی معارضتهم، ومحاربتهم لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، کما لابدّ - حینئذ - أن نقول: إنّ یزید والحجاج وأشباههما کانوا معذورین فی سفکهم لدماء الأئمّه المعصومین، والصالحین من المسلمین، بل ومأجورین فی عملهم هذا.

***

انتهی النبیُّ صلی الله علیه و آله و سلم والمسلمون من بناء المسجد، وظل یوسّع فیه کلّ عام شیئاً فشیئاً.

۱- . مسند أحمد بن حنبل: ۱۶۴/۲-۱۶۵.

۲- . العنکبوت: ۸.

وقد بُنی إلی جانب المسجد صفه لیسکن فیها الفقراء والمهاجرون المحرومون. وکلّف «عباده بن الصامت» بأن یعلّمهم الکتابه، وقراءه القرآن.

التآخی أعظم معطیات الإیمان

لقد فتح تمرکز المسلمین فی المدینه فصلاً جدیداً فی حیاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم .

فقد کان صلی الله علیه و آله و سلم قبل دخوله المدینه لا یهمّه إلّاجذب القلوب والدعوه إلی دینه، ولکنّه الیومَ علیه أن یعمل - کصاحب دوله محنَّک - علی حفظ کیانه وکیان جماعته، ولا یسمح للأعداء الداخلیّین والخارجیّین بالتسلّل والنفوذ فی صفوفهم، ولکنّه کان یواجه فی هذا السبیل ثلاث مشاکل کبری:

۱. خطر قریش وعامه الوثنیّین فی شبه الجزیره العربیه.

۲. خطر یهود یثرب الذین کانوا یقطنون داخل أو خارج المدینه ویمتلکون ثروه کبیره.

۳. الاختلاف الّذی کان بین أتباعه من المهاجرین وبین الأوس والخزرج.

وحیث إنّ المهاجرین والأنصار قد نشأوا فی بیئتین مختلفتین، لهذا کان من الطبیعی أن یختلفوا فی طریقه المعاشره، وآداب السلوک، وأُسلوب التفکیر اختلافاً کبیراً.

هذا مضافاً إلی أنّ الأوس والخزرج الذین کانوا یشکّلون جماعه الأنصار کانوا هم یعانون من رواسب عداءٍ قدیمٍ وبقایا ضغائن نشأت خلال حروب دمویه طویله استغرقت مائه وعشرین سنه بلا انقطاع.

ومع وجود مثل هذه التناقضات والأخطار المحتمله لم تکن مواصله الحیاه الدینیه، والسیاسیه المستقرّه أمراً ممکناً قط.

ولکن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تغلّب علی کلّ هذه المشکلات بطریقه حکیمه، غایه فی الحنکه والإبداع.

فبالنسبه إلی المشکلتین الأُولیین فقد عالجهما بالقیام بأعمال سیأتی ذکرها فی المستقبل.

وأمّا بالنسبه إلی مشکله التناقضات بین فئات وأصناف جماعته فقد عالج تلک المشکله بحذقٍ کبیر، وتدبیر رائع جداً.

فقد أُمر من جانب اللّه تعالی بأن یؤاخی بین المهاجرین والأنصار.

فجمعهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ذات یوم وقال لهم:

«تآخوا فی اللّه أخوَینِ أَخَوَینِ».(۱)

وقد ذکرت المصادرُ التاریخیه الإسلامیه، مثل «السیره النبویه» لابن هشام(۲)أسماء کل متآخیین من المهاجرین والأنصار.

وبهذا الأُسلوب عزّز رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الوحدهَ السیاسیه والمعنویه بین المسلمین وقوّی أُسسَها ودعائمها.

وقد سببت هذه الوحده وهذا التآخی الواسع فی حلّ المشکلتین الأُولیین بسرعه وسهوله.

منقبتان عظیمتان

ولقد ذکر أکثر مؤرّخی السنّه والشیعه ومحدّثیهم فی هذا الموضع منقبتین عظیمتین، نذکرهما نحن هنا أیضاً: لقد آخی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بین ثلاثمائه من

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۳۵۱/۲. نشر مکتبه محمد علی صبیح وأولاده، مصر - ۱۳۸۳ ه.

۲- . السیره النبویه: ۳۵۱/۲-۳۵۳.

أصحابه من المهاجرين والأنصار وهو يقول: يا فلان أنت أخ لفلان.

ولمّا فرغ من المؤاخاه، جاء عليّ عليه السلام، تدمع عيناه فقال:

«يا رسول اللّه آخيتَ بين أصحابكَ ولم تؤاخِ بينى وبين أحد»؟

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقد أخذ بيده:

«يا عليّ أنت أخى فى الدنيا والآخره»(۱).

وقد ذكر القندوزى الحنفى هذه القضيه بنحو أكثر تفصيلاً إذ قال:

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لعليّ:

«والّذى بعثنى بالحقّ نبيّاً ما أخّرتُكَ إلّالنفسى، فأنت منى بمنزله هارون من موسى إلّاأنّه لا نبىّ بعدى، فأنتَ أخى ووارثى»(۲). غير أنّ ابن كثير شكّك فى صحّه هذه الروايه(۳)، وحيث إنّ هذا التشكيك نابع من نفسيّته الخاصّه، ولا يقلّ تفاهةً وبطلاناً من اعتذاره ودفاعه عن معاويه وزمرته الباغيه عن قتل الصحابى العظيم عمّار بن ياسر، لهذا نرجّح أن نصرف النظر عن النقاش فيه، ونترك القضاء والحكم عليه للقارئ المنصف، والمتتبّع العدل.

منقبهٔ أُخرى لعلىّ عليه السلام

فرغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من بناء المسجد، وقد بُنِيَت منازلُه ومنازل أصحابه حولَ المسجد، وكلٌّ شرع منه باباً إلى المسجد، وخطّ لحمزه خطاً فبنى منزلَه فيه،

۱- . المستدرك على الصحيحين: ۱۴/۱۳.

۲- . ينابيع الموده: ۱۵۹/۱، الباب الخامس.

۳- . البدايه والنهايه: ۳۷۱/۷، حديث المؤاخاه.

وشرع بابَه إلى المسجد، وخطّ لعلیّ بن أبی طالب مثل ما خطّ لهم فبنی منزله فیه وشرع بابه إلی المسجد، فکانوا یخرجون من منازلهم فیدخلون المسجد من تلک الأبواب.

وفجأه نزل جبرئیل علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقال:

«یا محمّد إنَّ اللّه یأمُرکَ أن تأمر کلّ مَن کان له بابٌ إلی المسجدِ أنْ یَسدَّهُ ولا یکون لِأَحَدٍ بابٌ إلی المسجد إلّالکَ ولعلیّ علیه السلام».

یقول ابن الجوزی: فأوجدَ هذا الأمرُ ضجّه عند البعض، وظنُّوا أنّ هذا الاستثناء قد نشأ عن سبب عاطفی، فخطب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الناس وقال فیما قال:

«واللّه ما أنا أمرتُ بذلک، ولکنّ اللّه أمَر بسدّ أبوابِکم وَترکِ بابِ علیٍّ»(۱).

وخلاصه القول: إنَّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قضی عن طریق المؤاخاه الإسلامیّه بین أصحابه من الأنصار والمهاجرین علی الاختلافات القدیمه الّتی کانت رواسبها باقیه بین المسلمین إلی ذلک الیوم، وبذلک حلّ مشکله من المشاکل الثلاث الّتی مرّ ذکرها.

معاهده الدفاع المشترک بین المسلمین ویهود یثرب

کانت المشکله الثانیهُ الّتی یواجهها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی المدینه هی مشکله یهود یثرب الذین کانوا یقطنون المدینه وخارجها وکانوا یمسکون بأزمّه التجاره والاقتصاد فی تلک المنطقه.

لقد کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یدرک جیداً إنّه ما لم تصلح الأوضاع الداخلیه فی

۱- . تذکره الخواص: ۴۶، بتصرف بسیط. ولاحظ: بحار الأنوار: ۱۱۲/۱۹.

المدينه وما لم يضمَّ إلى صفوفه يهود يثرب، وبالتالى ما لم يقم وحدةً سياسيةً عريضةً فى مركز حكومته، لم تتهيأ لشجره الإسلام أن تنمو، ولن يتهيّأ له صلى الله عليه و آله و سلم أن يفكّر فى أمر الوثنيّين والوثنيّه فى شبه الجزيره العربيّه، ولا يستطيع معالجه المشكله الثالثه، أعنى: قريش خاصّه.

والمشكله واحدهٍ ما لم يستتبّ الأمن والاستقرار فى مقرّ القياده لن يمكن الدفاع ضدّ العدوّ الخارجى.

ولقد قام بين يهود المدينه والمسلمين فى بدايه هجرتهم إليها نوعٌ من التفاهم لأسباب خاصّه، لأنّ كلا الجانبين كانا موحّدَين يعبدان اللّه، ويرفضان الأوثان، وكان اليهود يتصوّرون أنّهم يستطيعون - إذا اشتدّ ساعد المسلمين، وقويت شوكتهم - أن يأمنوا حملات المسيحيّين الروم، هذا من جانب، ومن جانب كان بينهم وبين الأوس والخزرج علاقات عريقه ومواثيق قديمه.

من هنا حاولَ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أن يكرّس هذا التفاهم، ويبلوره بعقد معاهده تعايش، ودفاعٍ مشترك بين الأنصار والمهاجرين وقّع عليها يهود المدينه أيضاً(۱).

وقد احترمَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى تلك المعاهده دين اليهود وثروتهم فى إطار شرائط معيّنه.

وقد أدرج كُتّاب السيره والمؤرّخون النصَّ الكامل لهذه المعاهده فى كتبهم(۲).

۱- . المقصود منهم يهود الأوس والخزرج، وأمّا يهود بنى النضير، وبنى قينقاع، وبنى قريظه فقد عقد النبى صلى الله عليه و آله و سلم معهم معاهدةً مستقلةً سنذكرها.

۲- . مثل: السيره النبويه لابن هشام: ۳۴۸/۲.

ونظراً لأهميّتها الخاصّه، ولأنها تُعتبر مستنداً تاريخياً حيّاً، قوىَّ الدلاله، ولكونها تكشف عن مدى التزام رسول الإسلام العظيم صلى الله عليه و آله و سلم بمبادئ الحريه والنظم والعداله، ومبلغ مراعاته واحترامه لها فى الحياه، ولأنّها تكشف لنا كيف أنّها أوجدت جبهةً متحدةً قويةً فى وجه الحملات الخارجيه، نذكرها هنا ونسجّلها كواحدٍ من أكبر الانتصارات السياسيه الّتى أحرزتها الحكومه الإسلاميه الناشئه فى العالم ذلك اليوم.

أعظم معاهده تاريخيه

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ من محمّد النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.

«البند الاوّل»

١. إنّهم أُمّةٌ واحدةٌ من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم (أى على الحال الّتى جاء الإسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم (أى يدفعون ديه الدم) وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٢. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى، وكلُّ طائفه تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وهكذا بنو ساعده، وبنو الحارث، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس كلّ على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى (والحال الّتى جاء الإسلام وهم عليها من حيث التعاون على الديات إلى أولياء المقتول، ودفع الفديه معاً لفكِ الأسير).

۳. وإنَّ المؤمنين لاـ يتركون مفرحاً (أى مثقلاً بالـدَّين وكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فـداءٍ أو عقل (أى دفع ديهٍ أو فداء أسير).

۴. وإنَّ المـؤمنين المتّقيـن (يـدٌ واحـده) على مـن بغى منهـم، أو ابتغى دسـيعه (عظيمـه) ظلـمٍ، أو إثـمٍ، أو عُـدوان، أو فسـاد بين المؤمنين، وإنّ أيديهم عليه جميعاً ولو كان وَلدَ احدهم.

۵. وأَن لا يحالف مؤمنٌ مولى (أى عبد) مؤمنٍ دونه (أى دون إذنه).

۶. وأن لا يقتل مؤمنٌ مؤمناً فى كافر (أى قصاصاً لمقتل كافر على يَدَى ذلك المؤمن) ولا ينصر كافراً على مؤمنٍ.

۷. وإنَّ ذمةَ اللّه واحده (تشـمل جميع المسـلمين بلا اسـتثناء) يجيرُ عليهم أدناهم (فاذا أجار عبدٌ مسلمٌ كافراً قُبِلَت إجارته واحترِمَ أمانه).

۸. وإنّ المؤمنين بعضَهُم موالىَ بعض دون الناس.

۹. وإنّه مَن تبعنا من يهود فإنَّ له النصرَ والأُسوةَ غيرَ مظلومِين، ولا متناصر عليهم.

۱۰. وإنَّ سـلمَ المؤمنين واحـده لاـ يُسـالَمُ مؤمنٌ دون مؤمن فى قتال فى سبيل اللّه إلّاعلى سواءٍ وعَـدل بينهم (فلا يجوز لأحـد أن ينفرد بعقدِ معاهَدهِ صلحٍ مع أحدٍ من غير المسلمين إلّابموافقه المسلمين).

۱۱. و إنَّ كـلّ غازيهٍ غزت معنا يعقّب بعضـها بعضاً (أى يتناوب المسـلمون فى المشاركه فى الجهاد)، وانّ المؤمنين يبئ بعضـهُم على بعض بما نالَ دماءَهم فى سبيل اللّه (أى يراقُ منهم الدمُ على السواء لا أن يتعرّض للقتل بعضٌ دون بعض).

۱۲. وإنّ المؤمنين المتّقين على أحسنِ هدى وأقومه.

۱۳. وأن لا يجيرَ مشركٌ (من مشركى المدينه) مالاً لقريش، ولا نفساً، ولا

يحولَ دونه على مؤمنٍ (أى لا يمنعه من مؤمن).

۱۴. وإنّه من اعتبط مؤمناً (أى قتل من المؤمنين مؤمناً بلا جنايه منه توجب قتله) قتلاً عن بيّنه فإنّه قِوَدٌ به (أى يُقتَل بقتله قصاصاً) إلّاأن يرضى وليُّ المقتول.

وإنّ المؤمنين عليه كافّه، ولا يحلُّ لهم إلّاقيامٌ عليه.

۱۵. وإنه لا يحلُّ لمؤمن أقرّ بما فى هذه الصحيفه، وآمنَ باللّهِ واليوم الآخر، أن يَنصُرَ مُحدِثاً (صاحب بدعه) ولا يؤويه؛ وإنّه من نصرَهُ، وآواه فعليهِ لعنهُ اللّهِ وغضبُه يوم القيامه، ولا يُؤخذُ منه صرفٌ ولا عدلٌ.

۱۶. وإنّكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإنّ مردَّهُ إلى اللّه عزّوجلّ وَ إلى محمّد صلى الله عليه و آله و سلم.

«البندُ الثانى»

۱۷. وإنّ اليهودَ ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين (ودفاعاً عن المدينه).

۱۸. وإنّ يهود بنى عوف أُمّهٌ مع المؤمنين (وبنو عوف قبيله من قبائل الأنصار) لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلّا من ظلم وأثم، فإنّه لا يوتغ (لا يهلك) إلّانفسه وأهل بيته (والسبب فى هذا هو أنّ أهل بيت الرجل يتبعونه ويؤيّدونه فى فعله غالباً وعادةً).

(والمراد من هذا الاستثناء هو أنّ العلاقات والاتّحاد يبقى قائماً بين تلك الطائفه من اليهود وبين المسلمين مادام لم يكن ثمّه ظالِمٌ ومعتدٍ).

۱۹. وإنّ ليهود بنى النجار، وبنى الحارث وبنى ساعده، وبنى جشم، وبنى الأوس وبنى ثعلبه، وبنى الشطيبه مثل ما ليهود بنى عوف، (من الحقوق والامتيازات) إلّامَن ظلم وأثم، فإنّه لا يوتغ إلّانفسه وأهل بيته.

وإن جفنه بطن من ثعلبه (أى تلك القبيله فرعٌ من هذه) كأنفسهم، وإنّ لبنى الشطيبه مثل ما ليهود بنى عوف.

٢٠. وإنَّ البرَّ دونَ الإثم (أى أن تغلب حسناتُهم على سيّئاتِهم).

٢١. وإنَّ موالى ثعلبه (أى المتحالفين معهم) كأنفسهم.

٢٢. وإنّ بطانه يهود (أى خاصّتهم) كأنفسهم.

٢٣. وأنّه لا يخرج منهم أحدٌ (من هذه المعاهده) إلّابإذن محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

٢٤. وإنّه لا ينحجر على ثأر جرح (أى لا يضيع دمٌ حتّى الجرح)، وإنّ مَن فتك (بأحد) فبنفسه فتك، وأهل بيته إلّامَن ظلم (أى إلّاإذا كان المفتوك به ظالماً).

٢٥. وإنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصرَ على مَن حارب أهلَ هذه الصحيفه (أى أنّ على كلّ جماعهٍ من المسلمين واليهود أن يقوم بنصيبه من نفقات الحرب).

٢٦. وإنّ بينهم النصحَ والنصيحه (أى أن تكون العلاقات على هذا الأساس) والبر دون الإثم.

٢٧. وإنّه لم يأثم امرؤٌ بحليفه (أى لا يحقُّ لأحدٍ أن يظلم حليفَه) وأن النصرَ للمظلوم (لو فعل أحد ذلك).

٢٨. وإنّ يثرب حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفه (أى أنّ داخل المدينه حرمٌ ومأمنٌ لجميع مَن وقَّعَ على هذه الصحيفه).

٢٩. وإنَّ الجار (وهو مَن يدخل فى أمانِ أحد) كالنفس غير مضارٍّ ولا آثم، (فلا يجوز إلحاق ضرر به).

٣٠. وإنّه لا تُجار حرمةٌ إلّابإذن أهلها.

۳۱. وإنّه ما كان بين أهل هـذه الصـحيفه من حَـدَث أو اشـتجار يُخاف فسادُه فإنّ مردَّهُ إلى اللّهِ عزّوجلّ، وإلى محمّـد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وإنَّ اللّه على أتقى ما فى هذه الصحيفه وأبرهُ (أى أنّه تعالى ناصر وولى لمَن التزم بهذه المعاهده).

۳۲. وإنّه لا تجارُ قريشٌ ولا مَن نَصَرَها.

«البند الثالث»

۳۳. وإنّ بينهم (أى بين اليهود والمسلمين) النصر على من دهم يثربَ (فعليهم معاً أن يدافعوا عن المدينه ضدَّ المعتدين).

۳۴. وإذا دُعوا (أى دعا المسلمون اليهود) إلى صلح يصالحونه، ويلبسونه، فإنّهم يصالحونهُ ويَلبسونه.

وإنّهم إذا دُعوا (أى إذا دعا اليهودُ المسلمين) إلى مثل ذلك (الصلح) فإنّه لهم على المؤمنين إلّامَن حاربَ فى الدين.

(فعلى اليهود أن يوافقوا على كلّ صـلح يعقِدُه المسـلمون مع الأعداء وهكذا على المسلمين أن يقبَلوا بكلِّ صلح يعقده اليهود مع الأعداء إلّاإذا كان ذلك العدوّ ممّن يخالفُ الإسلام ويعاديه ويتآمر عليه).

۳۵. وإنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفه.

«البندُ الرابع»

۳۶. وإنّهُ لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ وآثم. (فلا يمكن لأحد أن يتسير وراءه ليتخلّص من العقاب إذا ارتكبَ خطيئةً وجنايةً).

۳۷. وإنّه مَن خرج (من المدينه) آمنٌ، ومَن قعد آمن بالمدينه إلّامن ظلم أو

أثم.

ثم خُتِمَت هذه المعاهده بالعباره التاليه:

«وإنّ اللّه جارٍ لِمَن بَرَّ واتّقى ومحمَّد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم»(۱).

إنَّ هـذه المعاهـده السياسـيه التـاريخيه الّتى أدرجناهـا هنـا تعـدُّ نموذجـاً كاملاً ـ لرعـايه الإسـلام وحرصِه على مبـدأ حرّيه الفكر والاعتقاد، ومبدأ الرفاه الاجتماعى العام، وضـروره التعاون فى الأُمور العامّه؛ بل وتوضّح هذه المعاهدهُ - فوق كلّ ذلك - حدودَ صلاحيّات واختيارات القائد، ومسؤوليّه كلّ الموقّعينَ عليها، وعلى أمثالها.

على أنّه وإن لم يشترك يهودُ «بنى قريظه» و «بنى النضـير» و «بنى قينقاع» فى إبرام هـذه المعاهـده والتوقيع عليها، بل شارك فيها يهـودُ الأـوس والخزرج فقـط، إلّـا أنّ تلـك الطوائـف اليهوديه (الثلاـث) قـد وقّعت فيمـا بعـد مع قائـد المسـلمين وزعيمهم على معاهدات مماثله أهم بنودها هى: أن لا يُعينوا على رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم ولا على أحدٍ من أصـحابه بلسان ولايدٍ ولاـ بسـلاح ولاـ بكراع (أى الخيل وغيرها من المراكب) فى السـر والعلانيه لا بليلٍ ولا بنهارٍ، اللّه بـذلك عليهم شـهيد، فإن فعلوا فرسول اللّه فى حلٍّ من سفك دمائهم، وسبى ذراريهم، ونسائهم، وأخذ أموالهم.

وقد كتبَ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم لكلِّ قبيله منهم كتاباً على حده على هذا الغرار، ثم وقّع عليها «حيىُ بن أخطب» عن قبيله بنى النضير، و «كعب بن أسد» عن بنى

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۳۴۸/۲-۳۵۱ بتفاوت يسير؛ البدايه والنهايه: ۲۷۳/۳-۲۷۵.

قريظه، و «المخيريق» عن قبيله بنى قينقاع(۱).

وبهذا سادَ الأمنُ يثرب وضواحيها بعد أن اعتبرت المنطقه حرماً آمناً.

والآن جاء دور أن يعالج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المشكله الأُولى، يعنى قريش؛ لأنّه مادام هذا العدوُّ يعرقل حركه الدعوه ويقف سدّاً أمام تبليغ الإسلام، فلن يُوَفَّقَ لنشر هذا الدين وتطبيق أحكامه وتعاليمه المباركه.

ممارسات اليهود الإجهاضيه

لقد تسبّبت تعاليمُ الإسلام الرفيعه وأخلاق الرسول العظيم فى أن يتزايد عددُ المنتمين إلى الإسلام يوماً بعد يوم، وتزداد بذلك قوّهُ الإسلام العسكريه والاقتصاديه والسياسيه.

وقد أحدث هذا التقدمُ المتزايد الباهر قلقاً وضجّهً عجيبهً فى الأوساط اليهوديه الدينيه، لأنّهم كانوا يتصوَّرون أنّهم يستطيعون بدعمهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتقويته وتأييده جرَّه إلى صفوفهم، ولم يكونوا يتصوّرون قط أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم سيحصل بذاته على قوهٍ تفوق قوه اليهود والنصارى، من هنا بَدَأوا بممارسه الأعمال الإجهاضيه مثل طرح الأسئله الدينيه العويصه على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بغيه زعزعه إيمان المسلمين بنبيّهم، ولكن جميع هذه المخططات باءت بالفشل ولم تترك أى أثر فى صفوف المسلمين المتراصّه وإيمانهم العميق برسول الإسلام.

وقد جاء ذكر بعض هذه المناظرات والمجادلات فى سورتى البقره والنساء.

ويستطيع القارئ العزيزُ من خلال قراءه آياتِ هاتين السورتين والتمعّن

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۱۰/۱۹ و ۱۱۱. احتفظ فى ذاكرتك أيّها القارئ الكريم بهذا القسم من المعاهده الثانيه؛ لأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عاقب اليهود بسبب نقضهم لهذه المعاهده.

فيهما أن يقف على مدى العناد واللجاج الّذى كان يُبديه اليهودُ.

فمع أنّهم كانوا يتلقّون من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أجوبه واضحه لكلِّ واحد من أسئلتهم كانوا يتهرّبون من الانضواء تحت رايه الإسلام ويحجمون عن الاعتراف به، وكانوا يقولون فى مقام الردّ على دعوه النبىّ إيّاهم إلى اعتناق الإسلام:

«قُلُوبُنا غُلْفٌ» : أى لانفهم ما تقول!!!(۱).

إسلام عبداللّه بن سلّام

هذه المناظرات والمجادلات وإن كانت لا تزيد غالبيه اليهود إلّاتعنّتاً وعناداً، ولكنّها كانت تسبّب أحياناً يقظه البعض وإقبالهم على الإسلام مثل «عبداللّه بن سلّام». فقد أسلم ابن سلام الّذى كان من علماء اليهود وأحبارهم، برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد سلسله من المناظرات والمجادلات المطوّله.

ولم يمض وقتٌ كبيرٌ على إسلام ابن سلام إلّاوالتحق به عالمٌ آخر من علماء اليهود هو «المخيريق».(۲)

وكان عبداللّه بن سلّام يعلم بأنه سيذمُّه قومُه من اليهود إذا عرفوا بإسلامه وترك دينهم، من هنا طلب من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يكتم عن الناس إسلامه، ريثما يحصل أوّلاً على اعتراف من قومه بعلمه وتقواه، وبمعرفته وصلاحِه قائلاً: «يا رسول اللّه إن يهود قومٌ بُهُت، وإنّى أُحبُّ أن تُدخلنى فى بعضِ بيوتك، وتغيّبنى

۱- . للوقوف على نصّ هذه المناظرات راجع: السيره النبويه لابن هشام: ۲/۳۵۸-۴۰۹، بحار الأنوار: ۳۰۳/۹ وما بعدها.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۳۶۲/۲.

عنهم ثم تسألهم عنّی حتّی یخبروک کیف أنا فیهم قبل أن یعلموا بإسلامی فإنّهم إن علموا به بهتونی وعابونی».

فأدخله رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی بعض بیوته وأخفاه عن الأنظار ثم قال للیهود الداخلین علیه:

«أیُّ رجلٍ الحصینُ بنُ سلام فیکم؟»

قالوا: سیدُنا وابنُ سیدنا، وحَبرُنا وعالمُنا، فخرجَ علیهم «عبدُ اللّه بنُ سلام» من مخبئه وقال لهم: یا معشر یهود اتّقوا اللّهَ واقبَلوا ما جاءکم به، فواللّه إنّکم لتعلمون إنّه لرسول اللّه تجدونه مکتوباً عندکم فی التوراه باسمه وصفته، فإنّی أشهدُ أنّه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وأُؤمن به وأُصدّقه وأعرِفُه.

فغضب الیهودُ من مقالته، وقالوا له: کذبتَ، ووقعوا فیه، وعابوه، وبهتوه(۱).

خطهٌ یهودیه أُخری للقضاءِ علی الحکومه الإسلامیه

لم تُضعف مجادلاتُ الیهود وأسئلتهم العویصه عقیدهَ المسلمین وإیمانَهم برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فحسب، بل تسبَّبَت فی أن تتضح مکانته العلمیه، وقیمه معارفه الغیبیه للجمیع أکثر من ذی قبل.

ففی ظلّ هذه المجادلات والمحاورات رغب جماعات کبیره من الوثنیّین والیهود فی الإسلام فآمنوا برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وصدَّقوه.

من هنا دبَّر الیهودُ مؤامره أُخری وهی التذرُّع بأُسلوب «فرِّقْ تسُدْ»، لإلقاء الفرقه فی صفوف المسلمین.

فقد رأی دهاه الیهود وساستهم أن یستغلّوا رواسب الاختلافات، ویؤجّجوا

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۲/۳۶۰-۳۶۱.

نیران العداء القدیم بین الأوس والخرج الّذی زال بفضل الإسلام وبفضل ما أرساه من قواعد الأخوّه والمساواه والمواساه والمحبّه، بعد أن کانت مشتعلهً طوال مائه وعشرین عاماً متوالیه، لیستطیعوا بهذه الطریقه تمزیق صفوف المسلمین بإثاره الحروب الداخلیه بینهم، والّتی من شأنها ابتلاع الأخضر والیابس والقضاء علی الجمیع دونما استثناء.

ففیما کان نفرٌ من أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من الأوس والخزرج فی مجلس قد جمعهم، یتحدّثون فیه إذ مرّ علیهم «شاس بن قیس» وهو یهودیٌ شدید العداء للإسلام، عظیمُ الکفر، شدیدُ الضغن علی المسلمین، فغاظه ما رأی من أُلفهِ الأوس والخزرج، واجتماعهم وتوادُدِهم، وصلاح ذاتَ بینهم علی الإسلام بعد الّذی کان بینهم من العداوهِ الطویلهِ فی الجاهلیه، فأمر فتی من یهود کان معه فقال له: إعْمِدْ إلیهم فاجلس معهم، ثم اذکر یومَ بعاث(۱) وما کان قبله وأنشدهم بعضَ ما کانوا تقاولوا وتبادلوا فیه من الأشعار!! إیقاعاً بین هاتین الطائفتین من الأنصار، وإثاره لنیران الأحقاد الدفینه، والعداوات الغابره.

ففعل ذلک الغلامُ الیهودیُ ما أمره به «شاس» فتکلّمَ القومُ عند ذلک، وتنازعوا، وتفاخروا، حتی تواثبَ رجلان من القبیلتین علی الرُّکَب وأخذ کلّ منهما یهدّدُ الآخر، وتفاقم النزاعُ، وغضب الفریقان وتصایحا، وقاما إلی السلاح وکاد أن یقع قتالٌ ودمٌ بعد أن ارتفعت النداءات القبلیه بالاستغاثه والاستنجاد علی عاده الجاهلیه، فبلغ ذلک رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وعرف بمکیده الیهود، ومؤامرتهم الخبیثه هذه، فخرج إلی تلک الجماعه المتصایحه من الأوس والخزرج فی جمع من

۱- . قد مرّ ذکر هذه الوقعه فی الجزء الأوّل وقلنا: هو یوم اقتتلت فیه الأوسُ والخزرج وکان الظفریومئذ للأوس علی الخزرج.

أصحابه المهاجرين فقال:

«يا معشر المسلمين، اللّهَ اللّهَ أَبِدَعوى الجاهليهِ وأنا بينَ أظهُرِكُم بَعدَ أن هَداكُم اللّه للإسلام، وأكرَمَكُم به، وقطع به عنكم أمرَ الجاهِليّه، واستنقذكُم به من الكُفر، وألَّف به بينَ قُلُوبِكُم».

فعرف القومُ أنّها مؤامره مبيَّته من اليهود أعداءِ الإسلام والمسلمين، وكيدٌ خبيثٌ منهم، فندموا على ما حدث، وبكَوا وعانَق الرجال من الأوس والخزرج بعضهُم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سامعين مطيعين، قد أطفأ اللّهُ عنهم كيدَ أعدائهم(۱).

إلّا أنّ مؤامرات اليهود لم تتوقّف عند هذا الحدّ، ولم تنته بهذا، فقد اتّسعت دائره خيانتهم وجنايتهم، ونقضهم للعهد وأقاموا علاقات سريه وخاصه مع مشركى الأوس والخزرج، ومع المنافقين والمتردّدين فى إسلامهم واعتقادهم، واشتركوا بصورهٍ صريحهٍ فى اعتداءات قريش على المسلمين، وفى الحروب الّتى وقعت بين الطرفين، وكانوا يُقدّمون كلّ ما أمكنهم من الدعم والمساعده للوثنيّين، ويعملون لصالحهم!!

وقد جَرّت هذه النشاطاتُ السرّيه والعلنيهُ المضادَّهُ المعاديهُ للإسلام والمسلمين، وهذا التعاون المشؤوم مع مشركى قريش، جرّت إلى وقوع مصادمات وحروب داميه بين المسلمين والطوائف اليهوديه أدت فى المآل إلى القضاء على الوجود اليهودى فى المدينه.

وسيأتى ذكر هذه الحوادث فى وقائع السنه الثالثه والرابعه من الهجره، وسيتضح هناك كيف أن الجماعه اليهوديه ردت على الجميل الّذى تعكسه كلتا

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۲/۳۹۶-۳۹۷.

المعاهدتين من أوّلهما إلى آخرهما، بنقض العهد، ومعاداه الإسلام والمسلمين، والتآمر ضدّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خاصّه، وبنصره أعدائه، ودعم خصومِه، الأمرُ الّذى أجبر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم على تجاهل تلك المعاهدات الوديه والإنسانيه ومن ثم محاربتهم، وإخراجهم من المدينه وما حولها والقضاء على ما تبقى مِن كياناتهم الشريره. لقد أقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى المدينه من ربيع الأول من السنه الأُولى للهجره إلى شهر صفر من السنه الثانيه حتّى بنى المسجد والبيوت والمنازل المحيطه به، وقد أسلم فى هذه الفتره من تبقّى من الأوس والخزرج، ولم تبق دارٌ من دور الانصار إلّاأسلم أهلُها، ما عدا بعض العوائل والفروع ممّن بقوا على شركهم، ولكنّهم أسلموا بعد معركه بدر(۱).

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۳۴۴/۲.

حوادث السنه الثانیه من الهجره

۲۸ مناوراتُ عسکریه واستعراضاتُ حربیه

اشاره

الهدفُ من هذا الفصل هو شرحُ وبیان الأسرار الکامنه وراء سلسله الاستعراضات الحربیه، والمناورات العسکریه، الّتی قام وأمر بها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

فقد بدأت هذه المناورات منذ الشهر الثامن من الهجره واستمرت حتّی شهر رمضان من السنه الثانیه، وتعد فی الحقیقه أوّل مناورات عسکریه، وعروض حربیّه قام بها المسلمون.

إنّ التفسیر الصحیح لهذه الوقائع، وبیان رموزها وأسرارها إنّما یتیسَّر إذا طالعنا نصّ ما کُتِبَ حول هذه الوقائع فی المصادر التاریخیه من دون زیاده أو نقصان ثم نعرض علی القارئ الکریم رأی المحقّقین من المؤرّخین فیها.

وإلیک فیما یأتی خلاصه هذه الحوادث:

۱. لم یکن یمضی علی إقامه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی المدینه أکثر من ثمانیه أشهر عندما عقد النبیّ أوّل لواءٍ لقائدٍ عسکریّ شجاع هو «حمزه بن عبدالمطلب» وقد أمّره علی ثلاثین رجلاً من المهاجرین بعثهم إلی سواحل البحر الأحمر حیث الطرق التجاریه الّتی تمر فیها قافله قریش التجاریه، فالتقوا قافله قریش فی «العیص» فیها أبوجهل فی ثلاثمائه رجل من أهل مکّه، فاصطفّوا للقتال، ولکنّهما تفرّقا ولم یقع قتال لوساطه قام بها «مجدیّ بن عمرو» الّذی کان حلیفاً للفریقین، فانصرف حمزه راجعاً إلی المدینه، وتوجّه أبوجهل فی عیره وأصحابه إلی مکه(۱).

تهدید خطوط قریش التجاریه

إنقضت السنه الأُولی من الهجره بکلّ حوادثها الحلوه والمرّه، والمسرّه والمحزنه، ودخل النبیّ وأصحابهُ العامَ الثانی من الهجره.

والسنه الثانیه من الهجره تتضمّن حوادث عظیمه وباهره، ومن أبرزها حادثتان تحظیان بمزید من الأهمیه: إحداهما: تغییر القبله، والأُخری وقعه بدر الکبری. ولکی تتّضح أسباب وعلل معرکه بدر نذکر سلسلهً من الوقائع الّتی وقعت قبلها، إذ بتحلیلها ودراستها تتّضح أسباب معرکه بدر.

لقد کان من بین الحوادث الّتی وقعت فی أواخر السنه الأُولی وبدایات السنه الثانیه من الهجره: بعث «الدوریات العسکریه» إلی خطوط قریش

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۴۳۱/۲؛ بحار الأنوار: ۱۸۶/۱۹؛ إمتاع الأسماع: ۷۱/۱؛ الکامل فی التاریخ: ۷۷/۲ و ۷۸؛ المغازی للواقدی: ۹/۱-۱۹.

التجاریه(۱) والآن یجب أن نری ما هو هدف الحکومه الإسلامیه من هذه التحرّکات العسکریه؟

هناک مصطلحان رائجان فی کتابات المؤرّخین وکُتّاب السیره أکثر من أی مصطلح آخر، وهما لفظه: «الغزوه» و «السریّه»(۲).

والمقصود من «الغزوه» تلک العملیات العسکریه الّتی کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یشارک فیها بنفسه، ویتولّی قیادتها بشخصه.

علی حین یکون المقصود من «السریّه» إرسال مجموعات عسکریه وفرق وکتائب نظامیّه لا یشترک فیها رسول اللّه بنفسه بل یؤمِّرُ علیها أحدَ قادته العسکریّین ویوجّهها إلی الوجهه الّتی یریدُها.

وقد أُحصیت غزواتُ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فکانت (۲۷) أو (۲۶) غزوه.

ویعود الاختلاف فی العدد إلی أنّ بعض المؤرّخین یعتبر غزوه «خیبر» و غزوه «وادی القری» اللّتین حدثتا تباعاً ومن دون فاصله، غزوتین والبعض الآخر عدَّهما غزوهً واحدهً (۳).

وقد وقع نظیر هذا الخلاف فی تعداد سرایا النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أیضاً فأحصی

۱- . لقد بعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم دوریات عسکریه عدیده إلی ضواحی المدینه وأطرافها لتهدیدقوافل قریش التجاریه. وقد کان ینبغی - طبقاً للترتیب الموضوعی والتسلسل التاریخی - أن نذکر بعض السرایا مثل سریه حمزه وسریه عبیده بن الحارث فی فصل وقائع السنه الأُولی للهجره، بید أنّه لوجود مناسبه بینها وبین حوادث السنه الثانیه ذکرناها فی أحداث السنه الثانیه. هذا مضافاً إلی أنّ ابن هشام - تبعاً لابن إسحاق - یری وقوع هذه الحوادث فی السنه الثانیه من الهجره وإن کان الواقدی یعتبر بعضها من حوادث السنه الأُولی.

۲- . راجع المحبَّر: ۱۱۰-۱۱۶.

۳- . مروج الذهب: ۲۸۷/۲ و ۲۸۸.

المؤرّخون (۳۵)، (۳۶)، (۴۸)، و حتّی (۶۶) سریه.

ویعود هذا الاختلاف إلی أن بعض السرایا لم یُحسب لها حساب لقلّه أفرادها، ولهذا حدث هذا الاختلاف فی العدد.

من هنا کلّما ذکرنا لفظَ السریّه قصدنا منه مالم یشارک فیه النبیّ، وکلّما ذکرنا لفظَ الغزوه قصدنا منه ما شارک فیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بنفسه.

وقد أحجمنا عن ذکر السرایا إلّاسرایا السنوات الأُولی من الهجره؛ لأنّ فی بیان هذه الطائفه من السرایا أثراً مهماً فی تفسیر بعض الغزوات مثل غزوه «بدر».

وإلیک بیان هذه السرایا والغزوات وشرح تفاصیلها.

۲. فی نفس الوقت الّذی بعث فیه رسولُ اللّه سریّه حمزه، عقد لواءً آخر لعبیده بن الحارث بن عبدالمطلب، وبعثه فی ستین راکباً من المهاجرین بهدف التعرّض لقافله قریش التجاریه، فسار حتّی بلغ ماءً بالحجاز بأسفل «ثنیه المُره»(۱). فلقی بها جمعاً عظیماً من قریش یبلغ مائتین بقیاده أبی سفیان، ولکن لم یکن بینهم قتال إلّاأنّ «سعد بن أبی وقاص» رُمیَ یومئذٍ بسهم، کما أنّه التحق رجلان مسلمان کانا فی صفوف أبی سفیان بالمسلمین وقد خرجا مع الکفّار وجعلا ذلک وسیله للوصول إلی المسلمین والالتحاق بهم(۲).

۳. بعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی شهر ذی القعده فی السنه الأُولی من الهجره سریّه أُخری بقیاده «سعد بن أبی وقاص» علی رأس ثمانیه

۱- . لاحظ: المحبّر: ۱۱۶.

۲- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۲/۴۲۸.

أشخاص آخرين من المهاجرين للتحقيق فی تنقلات قريش ورصد تحرّكاتها خارج المدينه، فخرجوا حتّی بلغوا منطقه «الخرّار» ولكنّهم لم يجدوا أحداً فعادوا إلی المدينه(۱).

النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم یلاحق قریشاً بنفسه

۴. فی شهر صفر من السنه الثانيه للهجره استعمل رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم علی المدينه «سعد بن عباده» وأناط إليه إداره أُمورها الدينيه وخرج بنفسه مع جماعه من المهاجرين والأنصار، لملاحقه ركب قريش التجاری واعتراضه، وعقد معاهدهَ موادعه مع «بنی ضمره» حتّی بلغ الأبواء، ولكنّه لم يلق أحداً من قريش، فرجع صلی الله عليه و آله و سلم هو ومن معه إلی المدينه(۲).

۵. وفی شهر ربيع الأوّل من السنه الثانيه للهجره استعمل صلی الله عليه و آله و سلم مره أُخری علی المدينه: «السائب بن عثمان» أو «سعد بن معاذ» وخرج هو علی رأس مائتين من الرجال يريد قريشاً حتّی بلغ بَواط (وهو جبلٌ من جبال بقرب ينبع علی بُعد ۹۰ كيلومتراً من المدينه تقريباً) ولكنّه لم يظفر بقافله قريش الّتی كان يقودُها «أُميّه بن خلف» وعلی رأس مائه رجل من قريش، فرجع إلی المدينه.

۶. وفی منتصف شهر جمادی الأُولی من السنه الثانيه للهجره جاءَ الخبر أنّ قافله قريش التجاريه تخرج من مكّه بقياده أبی سفيان تريد الشام للتجاره، وقد جمعت قريش كلّ أموالها فی تلك القافله، فخرج رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی جمع من أصحابه لاعتراضها حتّی بلغ «ذات العشيره» وقد استعمل علی المدينه هذه المره

۱- . المحبّر: ۱۱۶.

۲- . تاريخ الخميس: ۳۶۳/۱ نقلاً عن ابن اسحاق.

«أبا سلمه بن عبد الأسد»، وبقی صلی الله علیه و آله و سلم فی ذات العشیره إلی أوائل شهر جمادی الآخره ینتظر قافله قریش، ولکنّه لم یظفر بها، ثم وادَعَ فیها بنی مدلج وعقد معاهدهَ عدم اعتداء ذکرتها المصادر التاریخیه بالنص(۱).

وفی هذه الغزوه (والمکان) نزل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وجماعته فی بواط عند عین فنام علی وعمّار فوجدهما رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم نائمین فی رقعاء من التراب فأیقظهما، وحرّک علیّاً فقال: قم یا أبا تراب ألا أُخبرک بأشقی الناس: أُحیمر ثمود عاقر الناقه، والّذی یضربک علی هذه [یعنی قرنه] فیخضِّب هذه منها [یعنی لحیته](۲).

۷. بعد أن رجع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی المدینه بعد الیأس من قافله قریش لم یقم بالمدینه إلّالیالی قلائل لا تبلغ العشر حتّی هاجم «کرز بن جابر الفهری» علی إبل أهل المدینه ومواشیهم الّتی کانت قد سرحت للرعی بالغداه.

فخرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی طلبه وقد استعمل علی المدینه «زید بن حارثه» حتّی بلغ وادیاً من ناحیه بدر وفاته کرز بن جابر فلم یدرکه ثم رجع صلی الله علیه و آله و سلم ومن معه إلی المدینه فأقام بها بقیه جمادی الآخره ورجباً وشعبان(۳).

۸. وفی شهر رجب من السنه الثانیه للهجره بعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم «عبداللّه بن جحش» علی رأس ثمانیه رهط من المهاجرین لملاحقه قافله قریش التجاریه، وقد کتب له کتاباً بالمهمه الّتی یجب ان ینفّذها، وأمره أن لا ینظر

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۴۳۳/۲؛ تاریخ الخمیس: ۳۶۳/۱.

۲- . لاحظ: تاریخ الطبری: ۱۲۳/۲.

۳- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۲/۴۳۵؛ الطبقات الکبری: ۹/۲. وقد عدّ بعض المؤرّخین هذه الحادثه ضمن الغزوه الّتی عُرفت فی التاریخ باسم غزوه صفوان أو غزوه بدر الأُولی.

فیه(۱) قائلاً له:

«قد استَعمَلتُکَ علی هؤلاء النَفَر فامضِ حتّی إذا سرتَ لیلتین فانشُر (أی افتح) کتابی ثم امض (أی نفّذ) لما فیه».

ثم عیّن له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الوجهه الّتی یجب أن یتوجّه إلیها.

فانطلق عبدُاللّه ورفقاؤه وساروا یومین کاملین کما أمرهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثم فتح عبداللّه کتاب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وقرأ ما فیه، فاذا فیه:

«إذا نَظَرتَ فی کتابی هذا فامض حتّی تنزلَ نَخلَه بینَ مکّه والطائِفَ علی اسم اللّه وبرکته فترصَّد بها قریشاً، وتعلّم (أی حصّل) لنا من أخبارهم ولاتُکرهنّ أحداً من أصحابکَ وامضِ لأمری فیمن تبعک».

فلمّا قرأ الکتاب قال لأصحابه: قد أمرنی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن أمضیَ إلی نخله أرصد بها قافله قریش حتّی آتیه منهم بخبر، وقد نهانی أن استکره أحَداً منکم، فمَن کان منکم یرید الشهاده ویرغب فیها فَلینطلق، ومَن کره ذلک فلیرجع، فأمّا أنا فماضٍ لأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، ومن أرادَ الرجعه فمن الآن.

فقال أصحابه أجمعون: نحن سامعون مطیعون للّه ولِرسوله ولکَ فسِرّ علی بَرَکه اللّه حیث شئتَ؛ فسارَ هو ومَن معه لم یتخلَّف منهم أحدٌ حتّی جاء نخله فوجد قافلهً لقریش یرأسها «عمرو بن الحضرمی» وهی عائده من الطائف إلی مکّه، فنزل المسلمون بالقرب منهم، ولکی لا یکتشفهم العدوّ، ولا یعرف بأمرهم

۱- . یقال إنّه کان الجنود - إلی حین الحرب العالمیه الثانیه - إذ انتهوا من خدمتهم العسکریه تُسَلَّم إلیهم مع وثیقه الانتهاء من الخدمه العسکریه رساله مغلقه مختومه یؤمر الجندی فیها بالمحافظه علیها کأمانه عسکریه لا یجوز له فتحها إلّاعند حالات النفیر العام، والعمل بمضمونها وقد سبق النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم إلی هذا التکتیک العسکریّ فی أعماله النظامیه.

ومهمّتهم حلقوا رؤوسهم ليتصوّر العدو أنّهم عمّار يعتزمون الذهاب إلى مكّه للعمره، فلمّا رآهم رجالُ قريش على هذه الحال اطمأنّوا وأمنوا جانبهم وقالوا:

عُمّارٌ لا بأس عليكم منهم.

ثم تشاور المسلمون فيما بينهم فى جلسه عسكريه للنظر فيما يجب عمله فتبيّن لهم: أنّهم إذا تركوا القوم (أى قريشاً) فى تلك الليله (وكانت آخر ليله من شهر رجب) لدخلوا الحَرَم، ولم يمكن قتالهم فيه، وان خرج الشهر الحرام.

فأجمعوا على قتل مَن قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، من هنا باغتوا تلك القافله، ورمى «واقدُ بن عبداللّه» قائدها «عمرو بن الحضرمى» بسهم فقتله، وفرَّ رجالُه إلّانفرين هما: «عثمان بن عبداللّه» و «الحكم بن كيسان» حيث أسرهما المسلمون، وعاد عبداللّه بن جحش وأصحابه بالقافله مع ما فيها من أموال قريش والأسيرين إلى المدينه.

ولمّا قدموا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المدينه وأخبروه بأنّهم قاتلوا القومَ فى الشهر الحرام (رجب) انزعج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من تصرّف قائد المجموعه وعدم استفساره لما يجب أن يفعله بشدَّه وقال:

«ما أمرتُكُم بِقتال فى الشهرِ الحرام».

وقد استخدَمت قريش هذه القضيه كسلاحٍ دعائيٍّ ضدَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم واشاعت بأنَّ «محمَّداً» وأصحابه قد استحلّوا الشهرَ الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الاموال، كما أنّه تشاءم اليهود بهذه القضيه وأرادوا أن يثيروا فتنهً، وعاب المسلمون على «عبداللّه بن جحش وأصحابه» فعلتهم هذه، هذا من جانب ومن جانب آخر وقَف النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم الأموالَ والأسيرين وأبى أن يأخذ من كلّ ذلك شيئاً وبقى ينتظر الوحى، وفجأه نزلَ جبرئيل بهذه الآيه:

«يَسْئَلُونَکَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ کَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ کُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَکْبَرُ عِنْدَ اللّهِ وَ الْفِتْنَهُ أَکْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» .(۱)

أی إن کُنتم قَتلْتُم فی الشهر الحرام، فقد صَدّوکم عن سبیل اللّه مع الکفر به وصدّوکم عن المسجد الحرام، وإخراجُکم منه وأنتم أهله أکبر عند اللّهِ مِن قتل من قُتِلَ منهم «وَ الْفِتْنَهُ أَکْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» أی ما کانوا یرتکبونه من فتنه المسلم فی دینِه حتّی یردُّونَه إلی الکفر بعد إیمانه أکبر عند اللّه من القتل.

ولمّا نزل القرآنُ بهذا الأمر، وفرّج اللّه تعالی عن المسلمین ما کانوا فیه من الخوف والحیره قبض رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الأموالَ، والأسیرین وقسّمها بین المسلمین، وکانت أوّل غنیمه غنمها المسلمون.

وبعثت قریشٌ إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی فداء أصحابهم فقال النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم:

«لَن نفدیهما حتّی یَقدمَ صاحبانا».

یعنی رجلین من المسلمین کانا قد أُسِرا من قِبَل قریش، قد اشترکا فی هذه العملیّه ولکنّهما أضلّا طریقهما فی الصحراء فأسرتهما رجال من قریش.

وهکذا أبی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن یطلق سراح أسیرَی قریش لقاء فدیه إلّاإذا أطلق المشرکون أسیرَی المسلمین، قائلاً لموفدی قریش:

«إنّی أخافُ علی صاحِبَیَّ فَإن قَتلتُم صاحِبیَّ قَتلتُ صاحِبَیکُم».

فاضطرت قریشٌ إلی الإفراج عن المسلمَین الأسیرَین، ومع وُصولهما إلی المدینه أفرجَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عن أسیرَی قریش.

ومن حُسن الحَظ أنَّ أحد الأسیرَین أسلمَ ورَجَعَ الآخر إلی مکه(۲).

۱- . البقره: ۲۱۷.

۲- . لاحظ: المغازی: ۱۳/۱-۱۸، السیره النبویه لابن هشام: ۴۳۵/۲-۴۳۸.

ما هو الهدف من المناورات العسكريه؟

لقد كان الهدفُ الأساسی من بعث وتوجيه السرايا، وعقد الاتّفاقيات والمعاهدات العسكريه مع القبائل القاطنه على خطوط التجاره المكّيه هو إيقاف قريش على قوه المسلمين العسكريه، واشتداد ساعِدِهم، وخاصّه عندما كان النبیّ صلى الله عليه و آله و سلم يشترك بنفسه فی العمليات، ويترصّد مع مجموعات كبيره من أنصاره تحرّكات قريش الاقتصاديه، ويعترض قوافلها التجاريه.

لقد كان رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم يريد بذلك إفهام حكومه مكّه الوثنيّه بأنّ جميع طرق التجاره المكّيه هی فی متناول يده، وأنّه يستطيع - متى شاء - أن يُشلّ اقتصاد المكيّين بتعريض خطوطهم وطرقهم التجاريه، للتهديد الجدّی.

ولقد كانت التجاره أمراً حَيَويّاً وحسّاساً جدّاً بالنسبه إلى أهل مكّه، وكانت البضائع الّتی تنقل منها إلى الطائف والشام تشكّل أساسَ الاقتصاد المكّی، فإذا كانت هذه الخطوط تتعرّض للتهديد من قِبَل العدوّ وحلفائه مثل «بنی ضمره» و «بنی مدلج» فإن ذلك كان يعنی انهدام وانهيار حياتهم. لقد كان الهدف من بعث تلك الدوريات العسكريه هو: أن تعرف قريش بأنّ طريق تجارتها الرئيسيه هی الآن تحت رحمه المسلمين، فإذا استمرُّوا فی معاداتهم للإسلام وللمسلمين وحالوا دون انتشار الإسلام والدعوه إليه واستمروا فی إيذاء مَن تبقّی من المسلمين المستضعفين والعجزه فی مكّه واضطهادهم، قطع المسلمون شريان اقتصادهم.

وخلاصه القول: إنّ الهدف كان هو أن تعيد قريشٌ النظر فی مواقفها فی ضوء الحاله الجديده، والتهديد العسكریّ الإسلامی الجدّی، وتترك للمسلمين الحريه فی الدّعوه إلى عقيدتهم، وتفتح الطريقَ لزياره بيت اللّه الحرام، ونشر التوحيد

ليستطيع الإسلام بمنطقه القوىّ، والمحكم أن ينفذ فى القلوب، ويتجلّى نورُ الإسلام ويشعَّ على جميع نقاط شبه الجزيره العربيه، وربوعها، وبخاصّه منطقه الحجاز مركز الجزيره، وقلبها النابض.

فإنّ المتكلّم مهما كان قوىَّ المنطق، سديد البرهان، وأنَّ المربّى والمرشد مهما كان مخلصاً مجداً فإنّه لا يستطيع أن يحرز أى نجاح فى تنوير العقول، وتهذيب النفوس، وبثّ الفكر الصحيح إذا لم تتوفّر له حريه العمل، ولم تتهيّأ له البيئةُ المطمئِنّه وأجواءُ الحرّيه والديمقراطيه.

ولقد كان الاضطهادُ والكبتُ وسلبُ الحريات الّتى كانت تمارسها قريش هى الموانع الكبرى أمام تقدُّم الإسلام وسرعهِ انتشارِ نفوذه، وكان الطريق إلى كسر هذا السدّ، وإزاله هذا المانع ينحصر فى تهديد اقتصادها وتعريض خطوطِها التجاريه، للخطر، وكانت هذه الخطّه تتحقّق فقط عن طريق القيام بتلك المناورات العسكريه والاستعراضات الحربيه، والعمليات الاعتراضيه.

نظريه المستشرقين

ولقد وقع المستشرقون عند تحليلهم لهذه العمليّات فى خطأ كبير، وتفوّهوا نتيجه ذلك بكلامٍ يخالف القرائن والشواهد الموجوده فى التاريخ.

فهم يقولون: لقد كان هدف النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم من مصادره أموال قريش، والسيطره عليها هو تقويه نفسه.

فى حين أنَّ هذا الرأى لا ـ يلائم نفسيّه أهل يثرب؛ لأنَّ الغارَه، وقطع الطريق، واستلاب الأموال، من شيم الأعراب أهل البوادى، البعيدين عن روح الحضاره، وقيم المدنيه وأخلاقها، بينما كان مسلمو يثرب عامّه، أهل زرع، وفلاحه، ولم يُعهَد

منهم أن قطعوا الطرق على القوافل، أو سلبوا أموال القبائل الّتى كانت تعيش خارج حدودها.

وأمّا حروب الأوس والخزرج فقد كان لها أسبابٌ وعلل محلّيه، وقد كان اليهودُ هم الذين يؤجّجون نيرانها، بغيه إضعاف القوى والصفوف العربيه وتقويه أنفسهم ومواقعهم.

ومن جانب آخر لم يكن المسلمون المهاجرون الذين كانوا حول الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ينوون تلافى ما خسروه، رغم أنَّ ثرواتِهم وممتلكاتهم كانت قد صودِرت من قِبَل المكيّين، ويدلّ على ذلك أنّهم لم يتعرّضوا بعد معركه «بدر» لأيّه قافله تجاريه لقريش.

كيف لا وقد كان الهدف وراء أكثر هذه الإستطلاعات العسكريه هو تحصيل وجمع المعلومات، عن العدوّ وتحرّكاته وخططه، والمجموعات الّتى لم يكن يتجاوز عدد أفرادها غالباً الثمانيه أو الستين أو الثمانين رجلاً ـ لا ـ يمكنها قطع الطريق، واستلاب الأموال، ومصادره القوافل التجاريه الكبرى الّتى كان يقوم بحراستها رجال أكثر عدداً وأقوى عُدّه من تلك السرايا، بأضعاف المرّات غالباً. فإذا كان الهدف هو الحصول على المال والثروه من هذا الطريق فلماذا خُصَّت قريش بذلك، ولم يعترض المسلمون تجاره غيرهم من القبائل المشركه؟

ولماذا لم يمسّ المسلمون شيئاً من أموال غير قريش؟

وإذا كان الهدف هو الغاره، وقطع الطريق واستلاب الأموال، فلماذا كان النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يبعث المهاجرين فقط، ولا يستعين بأحد من الأنصار فى هذا المجال غالباً؟

وربما قال هؤلاء المستشرقون: إنّ المقصود من هذه العمليات الاعتراضيه

كـان هـو الانتقـام مـن قريش، لأـنّ النـبىّ صـلى الله عليـه و آلـه و سـلم وأصـحابه تعرّضـوا على أيـدى المكيّين لأـلوان التعـذيب والاضـطهاد والأذى، فـدفعتهم غريزه الانتقام والثأر - بعـد أن حصـلوا على القوه - إلى تجريـد سـيوفهم، للانتقام من الذين طالما اضطهدوهم، وليسفكوا منهم دماً!!

ولكن هذا الرأى لا يقل فى الضـعف والوَهن والسـخافه عن سابقه، لأنّ الشواهد والقرائن التاريخيه الحيّه العديده، تكذّبه وتفنّده، وتوضّح - بجلاء - أنّ الهدف من بعث تلك السرايا والدوريات العسكريه لم يكن أبداً القتال والحرب، والانتقام وسفك الدماء.

وإليك مايدلُّ على بطلان هذه النظريه:

أوّلاً: إذا كان هـدف النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم من بعث تلك المجموعات العسـكريه هو القتال واسـتلاب الأموال وأخذ المغانم، وجب أن يزيد فى عدد أفراد تلك المجموعات، ويبعث كتائب عسكريه مسلَّحه، ومجهزه تجهيزاً قوياً، إلى سيف البحر، وشواطئه، فى حين نجد أنّه صـلى الله عليه و آله و سـلم بعث مع «حمزه بن عبد المطلب» ثلاثين شخصاً، ومع «عُبيده بن الحارث» ستين شـخصاً، ومع «سـعد بن أبى وقاص» أفراداً معـدودين لا يتجاوزون العشـره، بينما كانت قريش قد أناطت حراسه قوافلها إلى أعداد كبيره جداً من الفرسان، تفوق عدد أفراد المجموعات العسكريه الإسلاميه.

فقـد واجه «حمزه» ثلاثمـائه، و «عبيـده» مـائتى رجـل من قريش، وقـد ضـاعفت قريش من عـدد المحافظين والحرس على قوافلها خاصّه بعد أن عرفت بالمعاهدات والتحالفات الّتى عقدها رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم مع القبائل القاطنه على الشـريط التجارىّ؟!

هـذا مضافاً إلى أنّه لو كان قاده هذه البعوث والدوريات مكلَّفين بمقاتله العدوّ فلماذا لم يسـفك من أحد قطره دم فى أكثر تلك العمليات؟! ولماذا انصرف بعضهم لوساطةٍ قامَ بها «مجدى بن عمرو» بين الطرفين؟!

ثانيـاً: أنّ كتـاب رسـول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم الّـذى كتبه لعبـداللّه بن جحش شاهـدٌ حيٌّ على أنّ الهـدف لم يكن هو القتال، والحرب.

فقد جاء فى ذلك الكتاب: «إنزِل نَخلَه بين مكّه والطائف فترصَّد بها قريشاً وتعلم (أى حصّل) لنا من أخبارهم».

إنّ هـذه الرسـاله توضّـح بجلاء أنَّ مهمه عبـداللّه وجمـاعته لم تكن القتـال قط، بل كانت جمع المعلومات حول العـدوّ وتنقّلاته وتحرّكاته، أى مهمه استطلاعيه حسب.

وأمّا سـبب الصدِام فى «نخله» ومصـرع عمرو الحضـرمى فقد كان هذا القرار من الشورى العسكريه الّتى عقدتها نفس المجموعه، وليس بقرار وأمر من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ومن هنـا انزعـج رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم بمجرّد سـماعه بنبـأ هـذا الصِدام الـدموى ولاـمهم على فعلتهم وقال: «ما أمَرتُكم بِقتال».

ويؤيّد هذا ما ورد فى مغازى الواقدى عن سـليمان بن سـحيم أنّه قال: ما أمرهم رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم بالقتال فى الشهر الحرام، ولا غير الشهر الحرام، إنّما أمرهم أن يتحسّسوا أخبار قريش(۱).

والعلّه فى أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كان يختار لهذه الدوريات والاستطلاعات رجالاً

۱- . المغازى: ۱۶/۱.

من المهاجرين دون الأنصار هى أنّ الأنصار قد بايعوا فى العقبه على الدفاع، أى أنّ معاهدتهم مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كانت معاهده دفاعيه تعهّدوا بموجبها بأن يمنعوه من أعدائه ويدافعوا عنه إِذا قصدَهُ عدوٌّ.

من هنا ما كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يريد أن يفرضَ عليهم مثل هذه المهمات، ويبقى هو فى المدينه، ولكنّه عند ما خرج - فيما بعد - بنفسه أخذ معه جماعةً من رجال الأنصار تقويه لروابط الأُخوّه والوحده بين المهاجرين والأنصار، ولهذا كان رجاله فى غزوه «بواط» أو «ذات العشيره» يتكوّنون من الأنصار والمهاجرين.

وعلى هذا الأساس يتّضح بطلان نظريه المستشرقين حول الهدف من بعث الدوريات العسكريه.

كما أنَّ بالتأمّل والإمعان فى ما قلناه يتّضح أيضاً بطلان ما قالوه فى هذا المجال فى تلك العمليات الّتى شارك فيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بنفسه، إذ أنّ الذين خرجوا معه ما كانوا ينحصرون فى المهاجرين خاصّه، بل كانوا خليطاً من المهاجرين والأنصار، والحال أنّ الأنصار لم يبايعوا النبىّ على القيام بأيّه عمليه هجوميّه ابتدائيه، بل كلّ ما بايعوا عليه النبىّ كما قلنا هو: العمل الدفاعى، فكيف يصح أن يدعوهم النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إلى عمليات قتاليه ابتدائيه هجوميّه؟!

وتشهد بما نقول حادثةُ وقعه بدر الّتى سنشرحها فى ما بعد، فما لم يعلن الأنصار عن موافقتهم على قتال قريش لم يقرّر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم الحرب، فى تلك الواقعه.

هذا والسبب فى تسميه أصحاب السير والتواريخ هذا النوع من العمليات الّتى خرج فيها النبىّ بنفسه (غزوه) وإن لم يقع فيها قتالٌ وغزوٌ، هو أنّهم أرادوا أن يجمعوا كلّ الحوادث تحت عنوانٍ واحدٍ، وإلّا فلم يكن الهدف الأساسى من هذه العمليات هو الحربُ والقتال، أو السيطره على الأموال وسلبها.

۲۹ تحویل القبله من بیت المقدس إلی الکعبه

اشاره

لم یکن قد مضی علی هجره النبی صلی الله علیه و آله و سلم إلی المدینه عده أشهر إلّاوبدأت نغمه معارضه الیهود للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم تظهر شیئاً فشیئاً!!

وفی الشهر السابع عشر من الهجره بالضبط(۱) أمر اللّه تعالی نبیَّه صلی الله علیه و آله و سلم بالأمر المؤکَّد القاطع بأن یتحول إلی الکعبه ویتّخذها من الآن فصاعداً قبلهً له وللمسلمین کافّه، فیتوجّهون إلی المسجد الحرام فی أوقات الصلوات.

هذا هو مجمل القصّه، وإلیک بیانها علی وجه التفصیل.

صلّی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثلاثهَ عَشَر عاماً کامله فی مکّه نحو بیت المقدس.

وبعد الهجره إلی المدینه کان الأمر الإلهیّ له هو أن یبقی علی الحاله من حیث القبله، أی أن یصلّی إلی بیت المقدس، کما کان یفعل فی مکّه.

وقد کان هذا الإجراء نوعاً من المحاوله لإقامه التعاون والتقارب بین الدینین القدیم والجدید، ولکن تنامی قوه المسلمین واشتداد ساعدهم أحدث رعباً کبیراً،

۱- . الطبقات الکبری: ۱/۲۴۱ و ۲۴۲؛ إعلام الوری بأعلام الهدی: ۷۱ و ۷۲. ویقول ابن هشام فی السیره النبویه لابن هشام: ۳۹۱/۲: ولمّا صرف القبله عن الشام إلی الکعبه وصرفت فی رجب علی رأس سبعه عشر شهراً من مقدم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم المدینه... ویری ابن الأثیر أنّ ذلک حدث فی منتصف شهر شعبان (الکامل فی التاریخ: ۲/۸۰).

وأوجد قلقاً واسعاً فی أوساط الیهود القاطنین فی المدینه؛ لأنّ تقدّم الإسلام والمسلمین المطرّد کان یدلّ علی أنّ الدین الإسلامی سیعمّ فی أقرب وقت کلّ أنحاء شبه الجزیره العربیه، وستتقلّص (بل تزول) فی المقابل قوه الیهود وسلطانهم، ومکانتهم، من هنا نصب أحبارُ الیهود العداوه لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وعمدوا إلی ممارسه سلسلهٍ من الأعمال الإجهاضیه والإیذائیه.

لقد أخذوا یؤذون رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم والمسلمین بمختلف الطرق وبشتّی الوسائل والسبل، والمعاذیر والحجج ومن جملتها التذرّع بقضیّه صلاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم والمسلمین إلی بیت المقدس.

فکانوا یقولون معیّرین إیّاه: أنتَ تابعٌ لنا تصلّی إلی قبلتنا!!

أو کانوا یقولون: یخالفنا محمَّد فی دیننا ویتّبع قبلتنا(۱).

فشقّ هذا الکلام علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم واغتمّ لذلک غمّاً شدیداً فکان یخرج من بیته فی منتصف اللیل ویتطلّع فی آفاق السماء ینتظر من اللّه أمراً ووحیاً فی هذا المجال کما یفید قوله تعالی: «قَدْ نَری تَقَلُّبَ وَجْهِکَ فِی السَّماءِ فَلَنُوَلِّیَنَّکَ قِبْلَهً تَرْضاها» .(۲)

ویُستفاد من الآیات القرآنیه فی هذا المجال إنّه کان لتغییر القبله مضافاً إلی الردّ علی دعوی الیهود سببٌ آخر أیضاً، وهو: إنّ هذه المسأله کانت من المسائل الاختباریه الّتی أراد اللّه تعالی بها أن یمتحن المسلمین، ویمیّز المؤمن الواقعی الحقیقی عن أدعیاء الإیمان، المنتحلین له کذباً ونفاقاً، وأن یعرف النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم به من حوله معرفهً جیدهً؛ لأنّ اتّباع النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی الأمر الثانی الّذی نزل علی رسول

۱- . مجمع البیان: ۱/۲۵۵ أو: ما دری محمَّد وأصحابه أین قبلتهم حتّی هدیناهم.

۲- . البقره: ۱۴۴.

اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی أثناء الصلاه (وهو التوجه إلی المسجد الحرام) کان علامه قویه من علامات الإیمان والتسلیم، والإخلاص والوفاء للدین الجدید.

بینما کانت مخالفته علامهً قویهً من علامات النفاق والتردّد کما یصرّح القرآن الکریم بنفسه بذلک إذ یقول:

«وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَهَ الَّتِی کُنْتَ عَلَیْها إِلاّ لِنَعْلَمَ مَنْ یَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ یَنْقَلِبُ عَلی عَقِبَیْهِ وَ إِنْ کانَتْ لَکَبِیرَهً إِلاّ عَلَی الَّذِینَ هَدَی اللّهُ» (۱).

ومن المسلَّم أنّه یمکن الوقوف علی حِکَم أُخری لهذا الأمر (أی صرف القبله من الشام إلی الکعبه) إذا تتبّعنا تاریخ الإسلام بشکل أوسع، وطالعنا أوضاع شبه الجزیره العربیه.

ویمکن الإشاره إلی بعض هذه الحِکَم مضافاً إلی ما ذکرناه:

أوّلاً: أنّ الکعبه الّتی رفعت قواعدها علی یَدَی بطل التوحید وناشر لوائه النبیّ العظیم «إبراهیم الخلیل» علیه السلام کانت موضع احترام وتقدیس من المجتمع العربی، فقد کان العرب یحبّون الکعبه ویعظمونها غایه التعظیم علی ماهم علیه من الشرک والفساد، فکان اتّخاذها قبله من شأنه کسب رضا العرب، واستماله قلوبهم، وترغیبهم فی الإسلام تمهیداً لاعتناق دین التوحید ونبذ الأوثان والأصنام.

وأیّ هدفٍ، وأیّه غایه تری أسمی وأجلُّ من أن یؤمن المشرکون المعاندون المتخلّفون عن رکب الحضاره والمدنیه، وینتشر الإسلام بسببهم فی کلّ أنحاء العالم.

۱- . البقره: ۱۴۳. ویمکن بیان هذه العلّه بصوره أُخری وهی إنّما أُمروا بالصلاه إلی بیت المقدس لأنّ مکّه وبیت اللّه الحرام کانت العرب آلفه بحجّها، فأراد اللّه أن یمتحنهم بغیر ما ألفوه لیظهر مَن یتبع الرسول ممّن لا یتبعه. (راجع: مجمع البیان: ۲۲۲/۱ و ۲۲۳).

ثانياً: أنّ الابتعاد عن اليهود - الذين لم يكن يؤمَل فى إذعانهم للإسلام، وإيمانهم برساله (محمّد) - كان يبدو أمراً ضرورياً، لأنّهم كانوا يقومون بأعمال إيذائيه ضد الإسلام والمسلمين ويطلعون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بين الفينه والأُخرى بأسئله عويصه يشغلونه بها، يظهرون بها - حسب تصوّرهم - أنّهم يعرفون أُموراً كثيره وأنّهم علماء، وبذلك يضيّعون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الوقتَ، ويشغلونه عن مهامّه الكبرى.

فكان تغيير القبله واحداً من مظاهر الابتعاد عن اليهود واجتنابهم، تماماً مثل نسخ صوم يوم عاشوراء الّذى تمّ لنفس هذا الغرض.

فقد كانت اليهود تصوم يوم عاشوراء قبل الإسلام فأمر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم المسلمين بأن يصوموا هذا اليوم أيضاً، ثم نسخ الأمر بصوم عاشوراء وفرض مكانه صوم شهر رمضان(۱).

وعلى كلّ حال فإنّ الإسلام الّذى يتفوّق على جميع الأديان، يجب أن تتجلّى فيه هذه الحقيقه بحيث يغدو أمرُ تكامله وتفوّقه بادياً للعيان، واضحاً للجميع.

وفى هذه الحاله تصوَّر بعض المسلمين أنّ ما أتوا به من صلاه وعباده وهم متّجهين إلى بيت المقدس كان باطلاً إذ قالوا: كيف بأعمالنا الّتى كنّا نعمل فى قبلتنا الأُولى، أو حال مَن مضى من أمواتنا وهم كانوا يصلّون إلى بيت المقدس؟!

فنزل الوحىُ الإلهىُ يقول:

«وَ ما كانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ» (۲).

ومع ملاحظه هذه الاعتبارات وبينما كان النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم قد انتهى من الركعه

۱- . مجمع البيان: ۲۷۳/۱.

۲- . البقره: ۱۴۳. والمراد من الإيمان هنا هو العمل وهو من الموارد الّتى استعمل فيها لفظ الإيمان وأُريد به العمل.

الثانیه من صلاه الظهر، نزل علیه جبرئیل، وأمره بأن یتوجّه بالمصلّینِ معه صوب المسجد الحرام.

وجاء فی بعض الأخبار أنَّ جبرئیل أخذ بید النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وأداره نحو المسجد الحرام، فتبعه الرجال والنساء الذین کانوا یأتمّون به فی المسجد(۱).

فتحوّل الرجال مکان النساء والنساء مکان الرجال، فکان أوّل صلاته إلی بیت المقدس، وآخرها إلی الکعبه.

ومنذ ذلک الحین جعلت الکعبه المعظمه - زاد اللّه من شرفها - قبله مستقلّه للمسلمین یتوجّهون إلیها فی کثیر من واجباتهم وشعائرهم الدینیه(۲).

هذا والغریب أنّ الیهود الذین کانوا قبل نزول الأمر بالتحوّل من بیت المقدس إلی الکعبه المعظّمه یفتخرون علی المسلمین بأنّهم یصلّون علی قبله الیهود، لما حُوّل المسلمون إلی الکعبه المعظمه، وأُمروا بالصلاه إلیها دون بیت المقدس أخذوا یعیبون علی المسلمین التوجّه إلی نقطه مّا فی الأرض فردّ اللّه علیهم بقوله:

«سَیَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما وَلّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِی کانُوا عَلَیْها قُلْ لِلّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ» (۳).

أی أنّ اللّه فوق الزمان والمکان، والتوجّه إلی نقطه خاصّه فی حاله العباده إنّما هو لمصالح اجتماعیه خاصّه فالصلاه إلی الکعبه توجّه إلی اللّه کالصلاه إلی بیت المقدس سواء.

۱- . بحار الأنوار: ۲۰۱/۱۹ عن «من لا یحضره الفقیه».

۲- . کالصلاه والذبح ودفن الموتی، والدعاء وغیر ذلک.

۳- . البقره: ۱۴۲.

کرامهٔ علمیه لرسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم

وما ینبغی الإشاره إلیه هنا هو: أنّ العرض الجغرافی للمدینه - طبقاً لمحاسبات علماء الفلک القدامی - هو ۲۵ درجه، وطولها ۷۵ درجه و ۲۰ دقیقه، ولهذا کانت قبله المدینه لا توافق محراب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الباقی علی حالته السابقه إلی الآن فی مسجده الشریف، وقد سبّب هذا الاختلاف حیرهً لدی بعض المتخصّصین فی هذا العلم، وربما دفعهم إلی ارتکاب توجیهات وتبریرات لرفع هذا الاختلاف.

ولکن القائد المعروف بسردار الکابلی أثبت فی الآونه الأخیره - طبقاً للمقاییس المعروفه الیوم - أن خط المدینه الجغرافی علی عرض ۲۴ درجه و ۵۷ دقیقه وطول ۳۹ درجه و ۵۹ دقیقه(۱).

وتکون نتیجه هذه المحاسبه هی أن قبله المدینه تکون فی نقطه الجنوب تماماً وتنحرف عن نقطه الجنوب ب ۴۵ دقیقه فقط.

وهذا الاستخراج الفلکی للقبله ینطبق علی محراب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أفضل تطبیق، ویُعَدُّ هذا من کرامات النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم حیث توجّه فی حاله الصلاه(۲) من بیت المقدس إلی الکعبه بصوره دقیقه ومن دون أی انحراف ولا جزئی مغتفر وذلک من دون أیه محاسبهٍ فلکیّه، وعلمیّه.

وقد أخذ جبرئیل بیده وحوّل وجهه نحو الکعبه المعظمه کما أسلفنا(۳).

۱- . تحفه الأجلّه فی معرفه القبله: ۷۱، طبعه ۱۳۵۹ ه.

۲- . لاحظ: من لا یحضره الفقیه للصدوق: ۱۷۸/۱.

۳- . وقد نقل الحرّ العاملی فی وسائل الشیعه: فی أبواب القبله: ۲۱۵/۳ و ۲۱۶ حادثه تحوّل النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی الصلاه من بیت المقدس إلی المسجد الحرام، فراجع.

۳۰ معرکه بدر الکبری

اشاره

معرکه «بـدر» من معـارک الإسـلام الکبری ومن حروبه البـارزه، وقـد اکتسب الـذین شـارکوا فی هـذه المعرکه منزله خاصّه بین المسلمین فیما بعد.

فالواقعه الّتی کان یشارک فیها فردٌ أو عـدهُ أفراد من المجاهدین فی «بدر» أو اذا کانوا یشـهدون علی أمر قال المسـلمون: ووافقنا علیه البدریون.

أجل إنّ الذین شارکوا فی معرکه بدر من أصـحاب النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم یدعون بالبدریّین، ولم یکن هذا إلّالأهمیّه تلکم الوقعه التاریخیه.

وتتّضح علّه هذه الأهمیّه إذا نحن استعرضنا تفاصیل هذه الوقعه.

لقـد قلنـا فی ما سـبق أنّه بلغ رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم فی منتصف جمادی الآخره من السـنه الثانیه للهجره، أنّ قافله قریش التجاریه خرجت من مکّه إلی الشام بقیاده «أبی سفیان بن حرب».

فخرج رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم لملاحقتها إلی «ذات العشیره» وتوقّف هناک إلی مطلع الشهر التالی، ولم یعثر علی تلک القافله، وقد کان وقت عوده القافله معلوماً تقریباً، فقد کانت قافله قریش تعود من الشام إلی مکّه فی أوائل الخریف.

ومن المعلوم أنّ أوّل خطوه علی طریق الانتصـار فی مثل هـذه المجالات هو تحصـیل أکبر قـدر من المعلومات حول العـدوّ؛ لأنّ قائد الجیش مالم یعرف شیئاً عن

استعدادات العدوّ، ونقطه تمركزه وتواجده، ومعنويات أفراده، فإنّه ربما ينهزم وينكسر فی أوّل مواجهه.

ولقد كان من أساليب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم الرائعه فی جميع الحروب والمعارك الّتی ستقرأ تفاصيلها هو جمع المعلومات حول مدی استعداد العدوّ، ومبلغ تهيُّئِه و مكان تواجده، وتمركزه، وهذه مسأله تحظی وإلی اليوم بأهميّه خاصّه فی الحروب العالميه والمحلّيه، بل وترصد لها ميزانيّات كبری، وتستخدم أجهزه عريضه فی عالمنا الحاضر، كما هو معلوم للجميع، وكما أشرنا إلی ذلك فيما سبق.

وقد بعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عَيناً له علی قافله قريش اسمه «عدی» - حسب روايه المجلسی(۱) - أو «طلحه بن عبيداللّه» و «سعيد بن زيد» حسب ما قال صاحب «حياه محمّد» نقلاً عن المصادر التاريخيه(۲)، لإخباره عن مسير تلك القافله، وعدد حرّاسها ورجالها ونوعيه البضائع المحمّله.

فلمّا عاد العين أخبر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

۱. بأنّ قافله قريش قافلهٌ كبری شارك فيها كلّ أهل مكّه، حتّی أنّه ما من قرشیّ أو قرشيه بمكّه له مثقال فصاعداً إلّابعث به فی تلك القافله.

۲. أنّ البضائع يحملُها ألفُ بعير وأنّ قيمتها تبلغ خمسين ألف دينار.

۳. وأنّه يقودها «أبوسفيان بن حرب» فی أربعين رجلاً.

وحيث إنّ أموال المسلمين المهاجرين إلی المدينه كانت قد صُودرت فی مكّه علی أيدی قريش، من هنا كان الوقت مناسباً جداً لأن يأخذَ المسلمون أموال

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۲۱۷/۱۹.

۲- . المغازی: ۱۹/۱.

قریش فی تلک القافله، ویحتفظوا بها ریثما تفرج قریش عن أموال المسلمین المهاجرین المصادره بمکّه، فإذا لجّوا وأصرّوا فی مصادره أموالِ المسلمین قسَّم المسلمون فی المقابل أموال قریش المأخوذه فیما بینهم وتصرّفوا فیها کغنائم حرب، من هنا قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لهم:

«هذا عِیرُ قریش (أی قافلتهم) فیها أموالهم، فاخرجوا الیها لعَلّ اللّه ینفلُکُمُوها»(۱).

من هنا استخلفَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی المدینه «عبداللّه بن أُمّ مکتوم» للصلاه بالناس، والقیام بالشؤون الدینیه، و «أبا لبابه» للقیام بالشؤون السیاسیه. ثم خرج من المدینه فی ثلاثمائه وثلاثه عشر رجلاً لمصادره أموال قریش أو بالأحری توقیفها وحبسها.

النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم یتوجّه إلی منطقه ذَفران

(۲)

لقد ترک رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم المدینه بعد أن أتاه الخبر عن تحرّک قافله قریش، قاصداً وادی ذفران حیث طریق القافله، فی یوم الاثنین، الثامن من شهر رمضان، وقد عقد رایتین: سلّمْ إحداهما إلی مصعب بن عمیر، والأُخری (وتُسمّی العقاب)

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۴۴۰/۲؛ المغازی: ۲۰/۱.

۲- . وادی ذفران الّذی کان تمرّ به قافله قریش التجاریه یقع علی مرحلتین من بدر. وقد ذکر ابن هشام فی سیرته جمیع المراحل الّتی طواها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من المدینه إلی وادی ذفران ومنه إلی بدر الّذی ارتحل إلیه رسول اللّه بعد أن بلغه نبأ تحرک قافله قریش. وبدر کان موسماً من مواسم العرب یجتمع لهم به سوقٌ کلّ عام یتبایعون فیه ویتفاخرون علی غرار سوق عکاظ، وکان یقع علی طریق مکّه والمدینه والشام. (راجع: السیره النبویه لابن هشام: ۴۴۶/۲-۴۴۷).

إلی علی بن أبی طالب علیه السلام.

ولقد کانت المجموعه الّتی خرج بها النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم تتألّف من اثنین وثمانین من المهاجرین، ومائه وسبعین من الخزرج، وواحد وستین من الأوس، وکان عندهم ثلاثه أفراس فقط.

ولقد بلغ حبُّ الشهاده عند المسلمین یومئذ مبلغاً عجیباً حتّی أنّ فتیاناً دون الحلم اشترکوا فی هذه المعرکه، وردّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم بعضهم إلی المدینه لمّا استصغرهم(۱).

إن کلام رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یفید بأنّه صلی الله علیه و آله و سلم قد وعدهم بالرخاء والانفراج فی المعیشه وذلک عن طریق السیطره علی أموال قریش، وأخذِ بضائعها، وکان المسوّغ لهذا العمل هوما سبق أن ذکرناه، وهو أنّ قریشاً کانت قد صادرت کلّ أموال المهاجرین المسلمین فی مکّه، منقولها وغیر منقولها، ومنعت من دخولهم مکّه، وخروجهم منها.

ومن الواضح أن یسمح العاقل لنفسه - أیّاً کان - بأن یعامِلَ عدوه بمثل هذه المعامله الّتی عامَلَهُ بها العدوُّ.

وأساساً یجب أن نعلم أنّ سبب هجوم المسلمین علی قافله قریش هو أنّهم

۱- . لاحظ: المغازی: ۲۱/۱. وروی أنّه کان الرجل یساهم أباه فی الخروج مع النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم رغبهً فی الجهاد فی سبیل اللّه والشهاده، فکان ممّن ساهم «سعد بن خیثمه» وأبوه فی الخروج إلی بدر، فقال سعد لأبیه: إنّه لو کان غیر الجنه آثرتک به، إنی لأرجو الشهاده فی وجهی هذا. فقال خیثمه: آثِرنی، وقرّ مع نسائک! فأبی سعد. فقال خیثمه: إنه لابدَّ لأحدنا من أن یقیم، فاسْتَهما (أی اقترعا) فخرج سهم سعد فقتل ببدر (المغازی: ۲۰/۱).

قد ظُلِمُوا وقُهِروا، الأمرُ الّذی یذکره القرآن الکریم أیضاً، ولذلک یسمح للمسلمین بأن یقاتلوا عدوَّهم ویعترضوا تجارتهم إذ یقول:

«أُذِنَ لِلَّذِینَ یُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللّهَ عَلی نَصْرِهِمْ لَقَدِیرٌ» (۱).

ولقد کان أبوسفیان قد عرف - عند توجّهه بالقافله إلی الشام - أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یترصّد القافله، ولهذا اتّخذ کافّه الاحتیاطات عند قفوله ورجوعه من الشام، فکان یسأل القوافلَ عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وکان إذا رأی أحداً منهم سأله: هل أحسستَ أحداً؟!

وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قد خرج مع أصحابه من المدینه، یلاحق قافله قریش، وقد نزل فی وادی ذفران.

ولمّا أحسّ أبوسفیان بذلک أحجم عن الاقتراب إلی منطقه بدر ولم یرَ بُدّاً من أن یخبر قریشاً بالخطر الّذی یحدق بتجارتهم، وأموالهم، ویطلب مساعدتهم، فاستأجر رجلاً یُدعی «ضمضم بن عمرو الغفاری» وأمرهُ بأن یجدع بعیره (یقطع أنفه) ویحوِّل رَحْله، ویشقَّ قمیصَه من قُبُله وَ دُبُرِه ویصیح الغوث! الغوث، ویخبر قریشاً أنّ محمّداً تعرّض لتجارتهم!!

فخرج ضمضم سریعاً إلی مکّه، ولمّا قدِمها وقف ببطن الوادی یصیح بأعلی الصَوت: یا معشر قریش اللطیمه اللطیمه(۲)، أموالکم مع أبی سفیان قد تعرّض لها محمّد فی أصحابه، لا أری أن تدرکوها، الغوث الغوث(۳).

فأثار هذا المنظرُ المثیرُ، واستغاثات ضمضم المتتابعه أهل مکّه، فتجهّزوا

۱- . الحج: ۳۹.

۲- . اللطیمه: الإبل الّتی تحمل الأقمشه والعطور، والنداء یعنی: أدرکوا اللطیمه أدرکوها.

۳- . لاحظ: الکامل فی التاریخ: ۲/۱۱۶؛ المغازی: ۲۸/۱؛ بحار الأنوار: ۲۱۵/۱۹-۲۱۶.

سراعاً، وتهيّأوا للخروج، وأعدَّ كلّ صناديد قريش ورجالها المقاتلون أنفسهم للتحرّك نحو المدينه إلّاأبو لهب الّذى لم يشترك فى هذا الخروج، وأرسل مكانه «العاصى بن هشام» لقاء أجرٍ قدرُه أربعهَ آلاف درهم.

وأراد «أُميّه بن خلف» هو الآخر أن يتخلّف لأسباب خاصّه، فقد قيل له: أنّ محمّداً يقول: لأقتلنّ أُميّه بن خلف.(۱)

فرأى أشراف قريش وسادات مكّه أنّ تخلّف رجل مثله يضرّ بقريش ويوهن من عزيمه الجيش، فقرّروا إثارته وتحريكه فأتاه عقبه بن أبى معيط وأبو جهل ومع عقبه مجمره فيها بخور، ومع أبى جهل مكحله ومرود فأدخلها عقبه تحته وقال: تبخّر فإنّما أنت امرأه! وقال أبو جهل: اكتحل فإنّما أنت امرأه!!

فغضب أُميّه، وهاجت به الحميه، فتجهّز من فوره، وخرج مع الناس.(۲)

وخلاصه القول: إنّه أُرعبت قريش لمّا سمعت بتعرّض قافلتها وأموالها للخطر من قبل النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه، فكانوا بين رجلين إمّا خارج أو باعث مكانه رجلاً، وما بقى أحدٌ من عظماء قريش إلّاأخرج مالاً لتجهيز الجيش، وأخرجوا معهم المغنّيات يضربن بالدفوف ويهيّجن الرجال للقتال.

المشكله الّتى كانت تواجهها قريش

ولمّا أُعلن عن موعد الرحيل تذكرت قريش بأنّ بينهم وبين قبيله «بنى بكر» عداءً قديماً، فخافوا أن يوجّهوا إليهم ضربهً من الخلف، أو يحملوا على نسائهم وذراريهم فى مكّه فى غياب منهم، فكاد ذلك يثنيهم عن الخروج.

۱- . المغازى: ۳۵/۱.

۲- . المغازى: ۳۶/۱. ولاحظ: البدايه والنهايه: ۳۱۵/۳، شرح نهج البلاغه: ۱۰۰/۱۴.

وقد كان العداء بين قريش وبنى بكر يعود إلى دمٍ سُفك بينهم فى قصّه ذكرها ابن هشام وغيره من كتّاب السيره(۱).

ولكن سراقه بن جعشم المدلجى - وكان من أشراف بنى كنانه وهم من بنى بكر - طمأنهم ووعدهم بأن لا تأتيهم بنو بكر من خلفهم بشىء يكرهونه، ولمّا اطمأنّوا خرجوا صوب المدينه سراعاً.

وكان النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابُه قد خرجوا من المدينه لاعتراض قافلهِ قريش التجاريه، وهبطوا فى وادى ذفران، وبقوا هناك ينتظرون مرورها، ولكنّه فجأه بلغه خبرٌ جديدٌ غيّر أفكار قاده الجيش الإسلامى، وفتح - فى الحقيقه - فصلاً جديداً فى حياتهم.

فقد أتاه الخبر عن مسير قريش باتّجاه المدينه لحمايه قافلتها التجاريه، وأنّ جيشها قد وَصَل إلى مشارف المنطقه الّتى تواجد فيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه، وأنّ طوائف متعدّده قد ساهمت وشاركت فى تكوين هذا الجيش.

فوجد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والقائد الأعلى للمسلمين نفسَه أمام خيارين:

إمّا أن يقاتل، ولكنّه لم يخرج هو أو أصحابه الذين مرّ ذكرهم إلّالمصادره أموال قريش، فلم يكونوا متهيّئين لمقاتله الجيش المكّى الكبير، لا من حيث العدد، ولا من حيث العُدّه. وإمّا أن يرجع إلى المدينه من حيث أتى، وهذا يعنى أن ينهار كلّ ما كسبوه من الهيبه والمهابه، بفضل المناورات العسكريه، والعروض النظاميه السابقه.

وبخاصّه إذا تقدّم العدوّ نحو المدينه فى ظلّ هذا الانسحاب واجتاح مركز

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۴۴۳/۳-۴۴۵؛ المغازى: ۳۷/۱-۳۸.

الإسلام «المدينه المنوره».

فرأى النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم أن لا ينسحب، بل يقاتل العدوّ بما عنده من العدّه القليله والعدد القليل ويقاوم حتّى اللحظه الأخيره والنفس الأخير.

والجدير بالذكر أنّ أكثر الذين كانوا مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كانوا من شبّان الأنصار وكان عدد المهاجرين لا يتجاوز ٨٢ شخصاً.

وكانت بيعه العقبه الّتى بايع فيها الأنصار رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بيعةً على الدفاع عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وحمايته لا القتال والحرب.

أى أنّهم بايعوه صلى الله عليه و آله و سلم على أن يمنعونه فى المدينه فلا يصل إليه أحد من أعدائه وهو بينهم.

أَمّا أن يخرجوا معه إلى خارج المدينه لقتال العدوّ فلم يبايعوا النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم على مثل ذلك، فماذا يفعل القائدُ الأعلى للمسلمين؟

إنه لم يرَ مناصاً من استشاره الناس الذين معه، ومعرفه رأيهم فى ما يجب اتّخاذه من طريقهِ حلٍّ لهذه المشكله.

النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يعقد شورى عسكريه

وهنا وقف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى تلك الجماعه وقال: أشيروا علىَّ أيّها الناس.

فقام أبو بكر وقال: يا رسول اللّه إنّها قريش، وخيلاؤُها ما آمَنَت منذ كَفَرَت، ولا ذَلَّت مُنذ عزّت، ولم نخرج على أهبه الحرب!!

وهذا يعنى أنّه رأى من الصالح أن ينسحبوا إلى المدينه، ولا يواجهوا قريشاً.

فقال له رسول اللّه: إجلس.

ثم قام عمر بن الخطاب، وكرّر نفس مقاله أبى بكر، فأمره النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم

بالجلوس أيضاً.

ثم قام «المقدادُ بن عمرو» وقال: يا رسولَ اللّه إمض لِما أراك اللّهُ فنحنُ معك، واللّهِ لا نقولُ لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هاهُنا قاعِدُونَ» .(۱)

ولكن إذهَب أنتَ وربُّك فقاتِلا، وإنّا مَعَكُما مُقاتِلون.

فَوَ الَّذى بعثكَ بالحقِّ لو سِرتَ بنا إلى برك الغماد (وهو موضع بناحيه اليمن) لجالَدنا معك مِن دونه، حتّى تبلغَه، ولو أمرتنا أن نخوضَ جَمر الغضا (أى النار المتقده) وشوكَ الهراس (وهو شجرٌ كبير الشوك) لخضناه معك.

فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خيراً ودعا له.

إخفاء الحقائق وكتمانها

إذا كان إخفاء الحقائق، والتعتيم عليها وسترها، والتعصب الباطل أمراً مشيناً مِن كلّ من ألَّفَ وكَتَبَ، فإنّه ولا شك أقبحُ من المؤرّخ، المؤتَمنَ على التاريخ وحقائقه.

فإنّ على المؤرّخ أن يكون مرآةً صادقه للأجيال القادمه لا يكدرها غبار التعصّب، وغشاوه التحريف والتبديل والكتمان للحقائق.

ولقد ذكر ابن هشام(۲) والحلبى(۳) والطبرى(۴) ما وقع فى الشورى العسكريه الّتى عقدها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأدرج فيها ما قاله المقداد، وقاله سعد بن

۱- . المائده: ۲۴.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۲/۴۴۷.

۳- . السيره الحلبيه: ۳۸۵/۲.

۴- . تاريخ الطبرى: ۱۴۰/۲.

معـاذ فی کتبهم علی وجه التفصـیل، ولکنّهم أحجموا عن إدراج مـا قاله أبوبکر وعمر وإنّما قالوا: وقال فلانٌ وأحسَنَ، وقال فلانٌ وأحسنَ!!

وهنا نسأل أُولئک المؤرّخین إذا کان ما قاله فلان وفلان حسـناً أرضـی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم فلماذا ترکوا ذکره علی نحو التفصیل کما فعلوا بالنسبه إلی کلام المقداد وسعد؟!

بلی؛ إنّهما لم یقولا إلّاما ذکرناه قبل قلیل، لیس غیر. وإذا کان أُولئک المؤرّخون یکتمون الحقائق، فقد أظهرها الآخرون وسجّلوا نصَ ما قاله الرجلان(۱)، ولم یکن قولاً حسـناً ولا کلاماً طیباً، بل کان کلامهما مثبطاً، ینمّ عن خوف، ووحشه، فهما صوّرا قریشـاً قوهً لاـ تُقهر، وجیشـاً لاـ یُـدحَر، غیر آبهین بمـا تترک کلمـاتهم من الأـثر السـیئ فی نفوس المسـلمین فی ذلک الظرف الـدقیق، واللحظه الخطیره!!

وإنّـک أیّهـا القـارئ لتسـتطیع أن تعرفَ مـدی إنزعاج النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم من مقالتهما، ممّا ذکره الطبری نفسُه فی الصفحه ذاتها، فإنّ الشیخین کما تلاحظ، کانا أوّل مَن نطقا فی تلک الشوری، ثم تکلّم بعدهما المقداد، وسعد بن معاذ.

فـإنّ الطبری یروی عن ابن مسـعود أنّه قال: لقـد شـهدت من المقـداد مشـهداً لئن أکون أنا صاحبه أحبُّ إلیَّ ممّا فی الأرض من شیء، کان رجلاً فارساً وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إذا غضب احمرّت وجنتاه؛ فأتاه المقداد علی تلک الحال(۲) فقال:

أبشـر یـا رسول اللّه فواللّه لاـ نقول لـک کمـا قالت بنو اسـرائیل لموسـی: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّکَ فَقاتِلا إِنّا هاهُنا قاعِـدُونَ» ، ولکن والذی بعثک بالحقّ لنکونـنّ من بین یدیک

۱- . المغازی: ۴۸/۱؛ إمتاع الأسماع: ۹۳/۱؛ بحار الأنوار: ۲۱۷/۱۹.

۲- . أی وهو غاضب من مقاله وتثبیط من تقدّماه.

ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح اللّه لك.(۱)

ولقد كان ذلك المجلسُ مجلسَ استشاره وتبادل للرأى وكان لكلّ أحدٍ الحقُّ فى أن يُدلى برأيه، ويطرح نظره على القائد الأعلى، ولكنَّ مجريات الأحداث أثبتت أنّ المقداد كان أقرب إلى الصواب، وأكثر توفيقاً فى إصابه الحقّ من ذينك الرجلين.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تخوّف بعض المسلمين من مواجهه العدوّ فى هذه الموقعه إذ قال سبحانه:

«كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ» (۲).

وقال تعالى:

«يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ» (۳).

قرار الشورى الحاسِم أو رأى زعيم الأنصار

كانت الآراء الّتى طُرِحت آراء شخصيّه وفرديه على العموم، والحالَ أنّ الهدف الأساسى من عقد تلك الشورى كان هو الحصول على رأى الأنصار، فلمّا لم يدلِ الأنصارُ برأيهم لم يمكن لتلك الشورى أن تتّخذ رأياً حاسماً، وتبتّ فى الأمر.

من هنا أعاد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قوله: «أشيروا علىّ أيّها الناس» وهو يريد الأنصار.

فقام سعد بن معاذ الأنصارى وقال: واللّه لكأنّك تريدنا يا رسول اللّه؟

فقال النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم: أجل.

۱- . تاريخ الطبرى: ۱۴۰/۲.

۲- . الأنفال: ۵.

۳- . الأنفال: ۶.

فقال سعد: بأبی أنتَ وأمّی یا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إنا قد آمنّا بکَ، وصدّقناک وشهدنا أنّ ما جئتَ به هو الحقّ، وأعطیناک علی ذلک مواثیقنا وعهودنا علی السمع والطاعه، فامض یا رسول اللّهِ لما أردتَ فنحنُ معک، فوالّذی بعثک بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر(۱) فخضته لخضناه معک، ما تخلّف منّا رجلٌ واحدٌ، وما نکرهُ أن تلقی بنا عدونا غداً، إنا لصبّرٌ فی الحرب، صدُق فی اللقاء، لعلّ اللّه یریک منّا ما تقرّ به عینک، فسِر بنا علی برکه اللّه، وصِل مَن شئتَ، واقطعْ من شئتَ، وخذْ مِن أموالنا ما شئتَ، و ما أخذت من أموالنا أحبُّ إلینا ممّا ترکتَ.

فسرّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بقول سعد ونشّطه ذلک، وأزال سحابه الیأس من النفوس، وأشعل ضیاء الأمل فی القلوب.

ولهذا لم یفرغ ذلک الأنصاریُ البطل والقائد المؤمن الشجاع من مشورته الشجاعه إلّاوأصدر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أمره بالرحیل قائلًا: «سیروا علی برکه اللّه وأبشروا فإنّ اللّه تعالی قد وعدنی إحدی الطائفتین ولن یخلف اللّه وعده.

واللّه لکأنّی الآنَ أنظُر إلی مصارع القوم».

وتحرک الجیشُ الإسلامی بقیاده النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم ونَزَل عند آبار «بدر»(۲).

جمع المعلومات حول العدوّ

مع أنّ المبادئ العسکریّه والتکتیکات الحربیه فی الوقت الحاضر تختلف عمّا کان علیه فی العصور الغابره اختلافاً کبیراً، إلّاأنّ مسأله جمع المعلومات حول

۱- . یقصد البحر الأحمر.

۲- . لاحظ: المغازی للواقدی: ۴۸/۱-۴۹؛ السیره النبویه لابن هشام: ۴۴۷/۲-۴۴۸.

العدوّ ومعرفه أسراره العسكريه، ومدى استعداداته ومبلغ قواه الّتى يستخدمها، ودرجه معنويات أفراده كانت على أهمّيتها وقيمتها، لم تتغيّر، بل ازدادت أهمّيتها فى العصر الحاضر - كما أسلفنا -.

فهى تشكّل الآن أيضاً مفتاحاً فى الحروب، ومنطلقاً للانتصارات العسكريه.

على أنّ هذه المسأله قد اتّخذت اليوم صبغه التعليم والتمرين، فقد أصبح لها اليومَ كتبٌ ومعاهدُ تتولّى تعليم طرائق التجسّس العسكرى وأساليبه، كما ويعزى قاده المعسكر الغربى والشرقى الكثير من نجاحاتهم إلى نجاحهم فى توسعه دوائر التجسس ومنظماته الّتى تستطيع إطلاع أصحابها على معلومات دقيقهٍ ومفصّله عن خطط العدو وقواه، وأماكن تمركزه وتواجده، وخطوط إمداده، وتموينه تمهيداً لإفشالِ تحركاته أو إجهاضها فوراً. من هنا استقر الجيشُ الإسلامى فى منطقهٍ تلائم مبادئ التستر بشكل كامل، ومنع عن أى عمل من شأنه انكشاف أسراره، كما أنّ فرقاً مختلفهً و متعدّده كُلّفت بجمع المعلومات عن قريش وقافلتها وجيشها.

فكانت المعلومات الّتى توفرت لدى القياده الإسلاميه هى كالتالى:

١. أنّ النبىّ نفسه ركب هو ورجل من قاده جيشه حتّى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمّد وأصحابه وما بلغه عنهم؟ فأخبرهم بأنّ محمّداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، وإنّه إن كان صدق الّذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا (وكذا للمكان الّذى كان به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم)، وإنّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، وإنّه إن كان الّذى أخبره صدقه فهم اليوم بمكان كذا (وكذا: للمكان الّذى فيه قريش).

وهكذا عرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم نقطه تواجد قريش، واستقرار قواتهم.

۲. بعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم جماعه «الزبیر بین العوام» و «سعد بن أبی وقاص» بقیاده علی علیه السلام إلی ماء بدر یلتمسون له الخبر، فأصابوا إبلاً یستقی علیها الماء لقریش فیها غلامان أحدهما لبنی الحجاج والآخر لبنی العاص فأتوا بهما إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فسألهما النبیّ عن قریش فقالا: هم واللّه وراء هذا الکثیب الّذی تری بالعدوه القصوی.

فقال لهما رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: کم القوم وما عدّتهم؟ فقالا: لا ندری، کثیر. فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: کم ینحرون (من الإبل) کلّ یوم؟ قالا: یوماًتسعاً ویوماً عشراً.

فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: القوم فیما بین التسعمائه والألف.

ثم سألهما: فمَن فیهم من أشراف قریش؟

قالا: عتبه بن ربیعه، وأبو البختری بن هشام، وحکیم بن حزام، وشیبه بن ربیعه، وأبو جهل بن هشام، وأُمیه بن خلف، و... و...

فأقبل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی أصحابه وقال:

«هذه مکّه قد ألقَت إلیکم أفلاذ کبدها»(۱).

۳. کُلِّف شخصان بالدخول إلی قریه بدر وتقصّی الحقائق حول قافله قریش فیها فمضیا حتّی نزلا بدراً فأناخا إبلهما إلی تلّ قریب من الماء، ثم تظاهرا بأنّهما یریدان أن یستسقیا، فسمعا جاریتین من جواری الحاضر وهما تتلازمان علی الماء، والملزومه تقول لصاحبتها: إنّما تأتی القافله غداً أو بعد غدٍ فأعملُ لهم ثم أقضیک الّذی لک.

فقال لها «مجدی بن عمرو الجهنی»، وکان علی مقربه منهما: صدقت، ثم

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۴۴۹/۲.

خلص بينهما.

فسرّ صاحبا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لما سمعا، فعادا فى سرّيه كامله إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأخبراه بما سمعا(۱).

والآن وبعد أن أصبح رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عارفاً بوقتِ ورود القافله، ومكان تواجد قريش، معرفةً دقيقةً عمد إلى ترتيب المقدّمات اللازمه.

كيف هربَ أبو سفيان؟

لقد تعرّض أبوسفيان قائد قافله قريش لدى توجّهه بها إلى الشام للملاحقه من قبل مجموعه من المسلمين، وإنّه كان يعلم جيداً بأنّهم سوف يتعرّضون له عند قفوله من الشام أيضاً. ولهذا عندما وصل بقافله قريش إلى المنطقه الخاضعه للمراقبه الإسلاميه أراحَها فى منطقه بعيده عن متناول أيدى المسلمين ودخل هو قريه «بدر» يتجسّس، ويسأل عن أخبار رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فالتقى «مجدى بن عمرو» على ماء بدر فسأله: هل أحسستَ أحداً؟ (ويقصد هل رأيتَ أحداً من عيون محمَّد ورجاله؟).

فأجابه مجدى قائلاً: ما رأيتُ أحداً أنكرُهُ، إلّاأنّى قد رأيتُ راكبين قد أناخا إلى هذا التلّ ثم استقيا فى شنٍّ لهم، ثم انطلقا.

فأتى أبو سفيان مُناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففتّه، فإذا فيه النوى فقال:

هذه - واللّه - علائف يثرب.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۲/۴۴۹-۴۵۰.

فرجع إلى أصحابه سريعاً وحرّك القافله عن الطريق، فساحل بها (أى أخذ بها جهه ساحل البحر الأحمر) وترك بدراً بيسار، وانطلق حتى أسرع. كما أنّه كلّف أحداً بإخبار قريش فوراً، بأنّ قافلتهم أفلتت من يد محمّد وأصحابه، وأنّ أموالهم نجت فليرجعوا وليتركوا محمّداً تكفيه العرب.(۱)

علم المسلمين بإفلات قافله قريش

عرف المسلمون بإفلات قافله قريش، وانتشر هذا النبأ بينهم بسرعه، فاغتمّ مَن خرجَ مع المسلمين يريد الحصولَ على شىء من تلك الأموال، فقال اللّه تعالى تثبيتاً لهم وتسكيناً لقلوبهم:

«وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» (۲).

إختلاف قريش فى القتال

عندما وافى رسول أبى سفيان قريشاً وهم بالجحفه، وأبلغهم رساله أبى سفيان وطلب منهم الرجوعَ إلى مكّه، حدث بين رجال قريش اختلاف عجيب.

أمّا أبوجهل فقد أصرّ على مواصله التقدّم نحو المدينه، وعدم الرجوع إلى مكّه خلافاً لطلب أبى سفيان، قائلاً:

واللّه لا نرجع حتّى نرد بدراً - وكان بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۴۵۰/۲.

۲- . الأنفال: ۷-۸.

لهم به سوق كلّ عام - فنقيمَ عليه ثلاثاً، فننحر الجزر (الأباعر)، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان والمغنيّات، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلايزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا!!

وقال الأخنس بن شريق بن عمرو الثقفى، وكان حليفاً لبنى زهره، وهم بالجحفه: يا بنى زهره، قد نجّا اللّه لكم أموالكم، وخلّص لكم صاحبكم مخرمه بن نوفل، وإنّما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بى جبنها وارجعوا، فإنّه لا حاجه لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعه، لا ما يقول هذا، يعنى أبا جهل... فرجعت بنو زهره مع الأخنس بن شريق فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحد.

ومضى القوم، وكان بين طالب بن أبى طالب - وكان فى القوم - وبين بعض قريش محاوره، فقالوا: واللّه لقد عرفنا يا بنى هاشم، وإن خرجتم معنا، إن هواكم لمع محمد. فرجع طالب إلى مكّه مع مَن رجع.(۱) حملت كلماتُ أبى جهل المغريه قريشاً على مواصله التقدّم نحو المدينه، ونزلت فى مكان مرتفع(۲) خلف كثيب.

وأمطرت السماء مطراً غزيراً فأصاب قريشاً منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، ومنعهم من مزيد التقدّم.

بينما لم يُحدِث المطرُ أى مشكله فى العدوه الدنيا للمسلمين ولم يمنع من تحركهم بل كان بحيث لبّد الأرض حتّى ثبتت أقدامهم(۳).

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۴۵۰/۲-۴۵۱.

۲- . وهو ما يُسمّى بالعدوه القصوى.

۳- . ويقال كان المطر ينزل على قريش كأفواه القرب وعلى أصحاب رسول اللّه رذاذاً بقدر ما لبّد الأرض.

و «بـدر» منطقه واسـعه يتكون جنوبهـا من مكـان مرتفع (العـدوه القصوى) وشـمالها من مكـان منخفض منحـدر (العـدوه الـدنيا) وكانت فى هذا الوادى الواسع بضع آبار وعيون ماء، فكان منزلاً للقوافل ينزلون فيه ويستقون، ويستريحون ردحاً من الزمن.

وهنا تقـدّم «الحباب بن المنذر بن الجموح» وكان فارساً مجرّباً وعسـكرياً محنّكاً باقتراح إلى النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم إذ قال: يا رسول اللّه أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكهُ اللّه ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه، أُمّ هو الرأى والحرب والمكيده؟

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «بَل هو الرأىُ والحربُ والمكيده».

فقـال: يا رسول اللّه فإنّ هـذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتّى نأتى أدنى ماء من القوم، فننزله ثمّ نغوّر (أى نـدفن العين) ماوراءه من القُلُب، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشربَ ولا يشربون.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: لقد أشرتَ بالرأى.

فنهض رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم ومَن مَعه من الناس، فسار حتّى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُب (الآبار) فغوّرت، وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه، فمُلئ ماءً ثم قذفوا فيه الآنيه.(۱)

إن هـذه الحادثه تكشف جيّداً عن إهتمام رسول الإسـلام بالمشاوره، واحترامه لآراء الآخرين واتّساع صدره لاقتراحاتهم، والأخذ بما يفيد منها دون تكبّر أو انزعاج.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۴۵۲/۲؛ تاريخ الطبرى: ۱۴۴/۲.

«العریش» أو غرفه القیاده

وقیل إن «سعد بن معاذ» تقدّم هو الآخر بمقترح عسکری وهو بناء وإقامه برج لرسول اللّه یقود منه العملیات ویشرف علی سیرها ویکون مأمناً له من کید الأعداء فقال: یا نبی اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ألا نبنی لک عریشاً تکون فیه، ونعد عندک رکائبک، ثم نلقی عدوّنا، فإن أعزّنا اللّه وأظهرَنا علی عدوّنا، کان ذلک ما أحببنا، وإن کانت الأُخری جلست علی رکائبک فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلّف عنک أقوام یا نبیّ اللّه ما نحن بأشدّ لک حبّاً منهم، ولو ظنّوا أنّک تلقی حرباً ما تخلّفوا عنک، یمنعک اللّه بهم، یناصحونک ویجاهدون معک.

فأثنی علیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ودعا له بخیر. ثم بُنی له صلی الله علیه و آله و سلم عریش فوق مکان مرتفع مشرف علی ساحه القتال والحرب، وکان سعد و جماعه من فتیان الأنصار یحرسونه فی بعض حالات القتال!!(۱).

نظره إلی مسأله «العریش»

إنّ مسأله بناء العریش لرسول اللّه، وحراسه «سعد بن معاذ» وجماعه من فتیان الأنصار له هو ممّا ذکره ورواه الطبری فی تاریخه نقلاً عن ابن إسحاق وتبعه الآخرون فی ذلک، ولکن هذه القصّه لا یمکن القبول بها لأسباب هی:

أوّلاً: أنّ هذا العمل یفتُّ فی عَضُد الجنود، ویضعف من معنویاتهم القتالیه؛ لأنّ معناه أنّ القائد یفکّر فی وسیله لنجاه نفسه دون أن یفکّر فی نجاه جنوده، ومثل هذه القیاده لا یمکنها أن تستحوذ علی قلوب جنودها، وتجعلها مطیعه

۱- . تاریخ الطبری: ۱۴۵/۲، السیره النبویه لابن هشام: ۴۵۲/۲-۴۵۳.

لأوامرها.

ثانیاً: أنّ هذه القصّه تتنافی مع الأخبار القطعیه الّتی بشّر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بها المسلمین فی ضوء ما نزل علیه من آیات.

فهو صلی الله علیه و آله و سلم قبل أن یواجه المسلمون قریشاً وعد أصحابه الذین خرجوا معه من المدینه إحدی الطائفتین، أی إمّا الظفر بقافله قریش التجاریه قطعاً، أو الانتصار علی الجیش المکّیّ حتماً ویقیناً إذ قال اللّه تعالی:

«وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللّهُ إِحْدَی الطّائِفَتَیْنِ أَنَّها لَکُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَیْرَ ذاتِ الشَّوْکَهِ تَکُونُ لَکُمْ وَ یُرِیدُ اللّهُ أَنْ یُحِقَّ الْحَقَّ بِکَلِماتِهِ وَ یَقْطَعَ دابِرَ الْکافِرِینَ» (۱).

وإنّما أُقدم علی بناء العریش لرسول اللّه - بناءً علی روایه الطبری - فی الوقتِ الّذی کانت قافله قریش قد أفلتت وهربت من أیدی المسلمین، ولم یبق الّا الجماعه المسلحه الّتی خرجت لحمایه القافله، وکان المسلمون یعلمون - طبقاً لذلک الوَعد الإلهی القاطع - أنّهم سینتصرون علی تلک الجماعه الکافره: «وَ یَقْطَعَ دابِرَ الْکافِرِینَ» فلم یکن المجال مجال تردّد وشک.

وبهذا یکون حدیث هزیمه المسلمین فی هذه المواجهه ولزوم بناء عریش لحمایه النبیّ، وإعداد إبل سریعه السیر عند العریش لینجو صلی الله علیه و آله و سلم علیها بنفسه حدیثاً باطلاً لا مبرّر له، ولا مسوّغ.

یقول ابن سعد نقلاً عن عمر بن الخطاب قال: لمّا نزلت «سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ یُوَلُّونَ الدُّبُرَ» (۲) قلت: وأیُّ جمع یُهزَم ومَن یُغلَب؟ فلمّا کان یوم بدر نظرت إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یثب فی الدرع وثباً وهو یقول: «سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ یُوَلُّونَ الدُّبُرَ»

۱- . الأنفال: ۷.

۲- . القمر: ۴۵.

فعلمتُ أنّ اللّه تبارک وتعالی سیُهزمهم(۱).

ومع هذا هل یحتمل أن یدور فی خلد النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم و أصحابه شیء حول الهزیمه أو یحدّثوا أنفسهم بالفرار؟

ثالثاً: أنّ النبیّ الّذی یصف الإمام علی علیه السلام موقفه وحالته عند اشتداد ضراوه القتال لا تنسجم أبداً ولا تلائم هذا التکتیک الّذی لا یتّسم بالشجاعه والثبات.

یقول علیّ علیه السلام:

«کُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَیْنَا بِرَسُولِ اللّهِ صلی الله علیه و آله و سلم، فَلَمْ یَکُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَی الْعَدُوِّ مِنْهُ»(۲). فهل یفکّر مثل هذه الشخصیه الّتی یصفها أوّل تلامذه مدرسته، وأقرب صحابته إلیه بمثل هذا الوصف، فی الفرار، أو اتّخاذ الاحتیاطات اللازمه لذلک؟!

نحن نعتقد أنّ بناء العریش لم یکن إلّامن باب إعداد غرفه للعملیّات ولمراقبه سیر القتال من مکان مشرف علی ساحه القتال، لأنّ القیاده ما لم تکن مشرفه علی ساحه القتال لا یمکنها أن تتصرّف بواقعیه وإتقان، ولا یمکنها أن تقود الجنود والحشود من منطلق الواقع القتالی والعسکری.

من هنا لم یکن الهدف من العریش إن صحّ أصل القصّه هو الإعداد والتحسّب للفرار وما شاکل ذلک.

۱- . الطبقات الکبری: ۲۵/۲.

۲- . نهج البلاغه: ۵۲۰، فصل فی غریب کلامه برقم ۹. ویقول السید الرضی رضی الله عنه: معنی ذلک: إنّه إذا عظم الخوف من العدوّ، واشتدّ عضاض الحرب فزع المسلمون إلی قتال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بنفسه فینزل اللّه علیهم النصر به ویأمنون ممّا کانوا یخافونه بمکانه.

تحرّک قریش باتّجاه بدر

فی صبیحه السابع عشر من شهر رمضان من السنه الثانیه للهجره، ارتحلت قریش من وراء الکثیب وانحدرت إلی وادی بدر، فلمّا رآها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قال:

«اللّهم هذهِ قریشٌ قد أقبَلت بُخیَلائِها، وفَخرِها تحادُّک وَ تکذّبُ رسُولَک.

اللّهمَّ فَنَصرُکَ الّذی وَعَدتنی بِهِ، اللّهمَّ أحِنهم(۱) الغداه».(۲)

قریش تتشاور فی القتال

استقرّت قوی قریش فی منطقه من أرض بدر استعداداً للمواجهه، وحیث إنّهم لم یکونوا یعرفون شیئاً عن عدد أفراد المسلمین ومبلغ استعداداتهم، لذلک کلّفوا «عمیر بن وهب الجمحیّ» - وکان فارساً ماهراً فی الإحصاء والتخمین - بأن یحرز (ویقدّر بالحدس) عدد أصحاب محمّد.

فاستجال بفرسه حول عسکر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثم رجع إلی قریش وقال:

ثلاثمائه رجل یزیدون قلیلاً أو ینقصون، ولکن أمهلونی حتّی انظرَ أَلِلْقومِ کمینٌ، أو مددٌ.

فضرب فی الوادی حتّی أبعد ولکنّه لم یرَ شیئاً.

فرجع إلی قریش ثانیهً وهو یحمل لهم خبراً مرعباً إذ قال: ما وجدت شیئاً (أی کمیناً أو مدداً وراء المسلمین) ولکنّی قد رأیتُ یا معشر قریش البلایا(۳)

۱- . أی أهلکهم.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۴۵۳/۲؛ المغازی: ۵۹/۱؛ تاریخ الطبری: ۱۴۵/۲.

۳- . البلایا: جمع بلیه وهی الناقه أو الدابه.

تحمل المنایا، نواضح(۱) یثرب تحمل الموتَ الناقعَ (۲)، قومٌ لیسَ مَعَهُم مَنعهٌ ولا مَلجأ إلّاسیوفهم.

واللّه ما أری أن یُقتلَ رَجلٌ منهم حتّی یَقتلَ رجلاً منکم، فإذا أصابوا منکم أعدادهم فما خیر العیش بعد ذلک فَرَوا رأیکم!!!(۳)

وروی الواقدی عبارات عمیر بنحو آخر إذ قال: قال عمیر: واللّه ما رأیت جلداً ولا عدداً ولا حلقه ولا کراعاً، ولکنّی رأیت قوماً لا یریدون أن یؤبوا إلی أهلیهم، قوماً مستمیتین لیست لهم مَنَعَه ولاـ ملجأ إلّاسیوفهم، زرق العیون کأنّهم الحصی تحت الحجَفَ (۴).(۵)

وروی المجلسی ما قاله عمیر بنحو ثالث إذ قال: قال عمیر: ما لهم کمینٌ ولا مددٌ، ولکن نواضح یثرب قد حملت الموت الناقَع، أما ترونهم خُرساً لاـ یتکلّمون، یتلمّظون تلمّظ الأفاعی، ما لهم ملجأ إلّاسیوفهم، وما أراهم یولّون حتّی یقتلوا، ولا یُقتلون حتّی یقتُلوا بعددهم فارتاؤا رأیکم(۶).

اختلاف قاده قریش فی أمر القتال

أوجدت کلمات عمیر الفارس الشجاع ضجّه کبری بین رجال قریش وسادتها وزعمائها، وانتاب الجمیعَ خوفٌ بالغ ورعبٌ شدیدٌ من المسلمین.

۱- . الإبل یستقی علیها الماء.

۲- . الموت الثابت البالغ فی الإفناء.

۳- . السیره النبویه لابن هشام: ۴۵۳/۲-۴۵۴.

۴- . الحجف جمع الحجفه وهی التُّرس.

۵- . المغازی: ۶۲/۱.

۶- . بحار الأنوار: ۲۲۴/۱۹.

فمشی حکیم بن حزام إلی عتبه بن ربیعه لیقنعه بالعدول عن مقاتله المسلمین، فقال له: یا أبا الولید إنّک کبیر قریش وسیّدها، والمطاع فیها، هل لک إلی أن لا تزال تذکر فیها بخیر إلی آخر الدهر؟ فقال: وما ذاک یا حکیم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمرَ (دم) حلیفک عمرو بن الحضرمی، وما أصاب محمّد من ماله ببطن نخله(۱) إنّکم لا تطلبون من محمّد شیئاً غیر هذا الدم والمال؟!

فاقتنع عتبه برأی حکیم، فجلس من فوره علی جمله، ووقف یخطب فی المشرکین من قریش بنطق جمیل وبلیغ یقول: یا معشر قریش، إنّکم واللّه ما تصنعون بأن تلقوا محمّداً وأصحابه شیئاً، واللّه لئن أصبتموه لا یزال الرجل ینظر فی وجه رجل یکره النظر إلیه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشیرته، فارجعوا وخلّوا بین محمّد وبین سائر العرب، فإن أصابوه فذاک الّذی أردتم وإن کان غیر ذلک ألفاکم ولم تعرضوا منه ما تریدون(۲).

وفی «مجمع البیان» قال: وخطب عتبه فقال فی خطبته: یا معشر قریش أطیعونی الیوم واعصونی الدهر، إنّ محمّداً له إل(۳) وذمّه، وهو ابن عمّکم، فخلّوه والعرب، فإن یک صادقاً، فأنتم أعلی عیناً به؛ وإن یک کاذباً کفتکم ذؤبان العرب أمره....(۴)

وانطلق حکیم بن حزام إلی أبی جهل وأخبره برأی عتبه ومقالته، هذا وأبو جهل یهیِّئُ درعه، فانزعج أبوجهل من مقاله عتبه وموقفه انزعاجاً شدیداً، وثارت

۱- . إشاره إلی ما جری فی سریه عبداللّه بن جحش.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۴۵۴/۲.

۳- . الإل: العهد.

۴- . مجمع البیان: ۴۴۰/۴؛ بحار الأنوار: ۲۲۴/۱۹.

ثائرته حسداً على عتبه، وتعنتاً عن الحقّ (۱)، وبعث من فوره رجلاً إلى عامر بن الحضرمى أخى عمرو الّذى قُتل فى غزوه عبداللّه بن جحش بنخله وقال له: هـذا حليفك (عتبه) يريـد أن يرجع بالناس، وقـد رأيت ثارك بعينك، فقم وأنشد خفرتك(۲) ومقتل (أو دم) أخيك.

فقام عامر وكشف عن رأسه، وأخذ يحثو التراب على رأسه، وصاح مستغيثاً واعَمراه واعَمراه، فحميت الحرب، وحقب أمر الناس، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبه.(۳)

ولكن عتبه هـذا الّذى كـان يميـل إلى اعتزال الجيش وترك الحرب، هـاجت مشـاعره هو الآـخر فقام من فوره ولبس لامه حربه واسـتعدّ لقتال رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم وأصـحابه. وهكـذا نجـد كيف يتضاءل نور العقل عند هبوب رياح العاطفه الملتهبه، والمشـاعر الثـائره الباطله وتنطفئ شـعله الفكر، ولا يعود يضـيء لصاحبه درب المسـتقبل حتّى أنّ الرجل الّذى كان قبل قليل داعيه السـلام، والتعايش الأخوى يتحوّل تحت تأثير ذلك الهياج العاطفى، العابر، الأحمق إلى أوّل مبادر إلى القتال وسفك الدماء وإزهاق الأرواح!!!

۱- . قـال الواقـدى فى المغازى: ۱/۶۳-۶۴: فحسـده أبو جهـل حين سـمع خطبته وقـال: إن يرجع الناس من خطبه عتبه يكن سـيد الجماعه، وعتبه أنطق الناس!!!

۲- . أى اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم وعهدهم لك؛ لأنّه كان حليفاً لهم.

۳- . السيره النبويه لابن هشام: ۴۵۴/۲-۴۵۵.

ما هو الأمر الّذى حتّم القتال؟

لمّا أبصر الأسود بن عبدالأسد المخزومى وكان رجلًا شرساً سيِّئ الخلق، الحوضَ الّذى بناه المسلمون عند البئر لشربهم قال: أُعاهد اللّه لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتنّ دونه!!

فلمّا خرج، خرج له حمزه بن عبد المطلب، فلمّا التقيا ضربه حمزه فأطنّ قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد زعم أن يبر يمينه، واتبعه حمزه فضربه حتى قتله فى الحوض.(۱)

فتسبّبت هذه الحادثه فى أن يصبح القتال امراً مسلّماً وحتمياً، لأنّه ليس ثمّه شىء يقدر على تحريك المشاعر، وإثاره العواطف ودفع الناس للقتال كسفك الدم.

فالذين كان الغيظ والحنق على المسلمين يكاد يقتلهم، وكانوا يبحثون عن ذريعه يشعلون بها نيران الحرب ويفجّرون فتيلها، قد حصلوا الآن على ما يريدون.

المبارزات الفرديه أوّلاً

كان التقليد المتبَّع عند العرب فى الحروب أن يبدأ القتال بالمبارزات الفرديّه ثم تقع بعدها الحملاتُ الجماعيه.

فلمّا قُتِلَ الأسودُ المخزومى خرج ثلاثه فرسان من صناديد قريش

۱- . تاريخ الطبرى: ۱۴۷/۲.

المعروفين من صفوف الجيش المكّىّ ودعوا إلى المبارزه.

وهؤلاء الصناديد الثلاثه هم:

١. عتبه(١).

٢. شيبه.

وهما ابنا ربيعه بن عبد شمس.

٣. الوليد بن عتبه بن ربيعه.

فأخذوا يجولون فى ميدان القتال ويدعون إلى المبارزه، فخرج إليهم من المسلمين فتيه من الأنصار ثلاثه وهم: «عوف» و «معوذ» ابنا الحارث و «عبداللّه بن رواحه».

ولمّا عرف عتبه أنّهم من رجال المدينه قال: مالنا بكم من حاجه.

ثم نادى مناديهم: يا محمَّد، أخرج الينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «قم يا عبيدَهَ بن الحارث وقم يا حمزه، وقم يا علىّ».

فقاموا، وخرجوا للمبارزه، ولمّا دَنَوا منهم، سألهم عتبه عن أسمائهم فعرّفَ أبطال الإسلام أنفسهم وذكروا أسماءهم.

فقال رجال المشركين الثلاثه: نعم أكفّاء كرام.

ويرى البعض أنّه بارز كلّ من هؤلاء الثلاثه مَن كان على سنّه من الكفّار فبارز علىٌّ عليه السلام الوليدَ (خال معاويه بن أبى سفيان)، و بارز حمزه (وهو أوسطهم) عتبه

١- . وعتبه هذا هو الّذى اقترح الانسحاب وعدم القتال كما عرفت. ويروى أنّه لمّا خرج قال له حكيم بن حزام: أبا الوليد مهلاً، مهلاً تنهى عن شىء وتكون أوّله!! (المغازى: ٦٧/١).

(جدّ معاويه لأمّه)، وبارز عبيده (وهو أسنّ الثلاثه) شيبه وهو أسنّ الكفّار الثلاثه.

غير أنّ ابن هشام يقول: بارز «حمزه» شيبه، وبارز «عبيده» عتبه، وبارز «علىٌّ» الوليد بن عتبه(۱).

وهذا يعنى أنّ حمزه (الأوسط فى السن) قاتل الأسنّ من الكفّار.

أىّ القولين هو الأصحّ؟

إنّ ملاحظه أمرين توضح الحقيقه فى هذا المجال:

الأوّل: أنّ المؤرّخين كتبوا: أنّ علياً وحمزه قتلا خصميهما فى الحال، ثمّ ساعدا عبيده على قتل خصمه(۲).

الثانى: أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام كتب فى كتاب له إلى معاويه:

«وَعِنْدِىَ السَّيْفُ الَّذِى أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِى مَقَامٍ وَاحِدٍ»(۳).

فمن هذا الكتاب يتّضح بجلاء أنّ الإمام عليه السلام شارك فى قتل جدّ معاويه (أى عتبه) هذا من جانب.

كما أنّنا نعلم من جانب آخر أنّ كلّاً من حمزه وعلياً قد قتل خصمه فى اللحظه الأُولى من المبارزه. فإذا كان خصم حمزه هو عتبه (جدّ معاويه) لم يكن - حينئذ - أى معنى لقول الإمام عليه السلام «أنا قتلت جدَك».

فلا مناص من أن نقول: إنّ الّذى بارز حمزه هو شيبه، وأن الّذى بارز عبيده

۱- . راجع لمعرفه كلا الرأيين: سنن البيهقى: ۲۷۶/۳.

۲- . تاريخ الطبرى: ۱۴۸/۲، السيره النبويه لابن هشام: ۴۵۶/۲ قال: وكرّ حمزه وعلىٌّ بأسيافهما على عتبه.

۳- . نهج البلاغه: ۴۵۴، قسم الكتب الرقم ۶۴. واعضضته به جعلته يعضّه.

هو عتبه، ليصح حينئذ أن يقال إن علياً وحمزه، ذهبا - بعد الفراغ من قتل خصميهما - إلى عتبه وكرّا بأسيافهما عليه وقتلاه، ثم احتملا صاحبَهما «عبيده» وأتيا به إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم(۱).

وبهذا تترّجح النظريه الثانيه، والقاضيه بعدم التكافؤ بين أسنان كلّ من المتبارزين.

الهجومُ العامُّ

إثر مقتل صناديد قريش الثلاثه فى المبارزه الفرديه بدأ الهجومُ العامُ.

ثمّ تزاحفَ الناسُ ودنا بعضهم من بعض، وقد أمرَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أصحابَه أن لا يحملوا حتّى يأمرَهم، فقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل.

إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عدّل صفوف أصحابه يوم بدر، وفى يده سهمٌ يعدّل به القوم. فمر بسوّاد بن غزيه، وهو متقدّم من الصف، فطعن فى بطنه بالسهم الّذى معه وقال له: استو يا سَوّاد.

فقال: يا رسول اللّه أوجَعتنى، وقد بَعَثَكَ اللّه بالحقّ والعدل فأقِدنى (أى اقتصَّ لى من نفسك). فكشف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن بطنه وقال: استقد (أى أنت اقتصَّ) فاعتنقه سوّاد وقبّل بطنه صلى الله عليه و آله و سلم فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: ما حملك على هذا يا سوّاد؟

قال: يا رسولَ اللّه حضر ماترى (من القتال) فأردتُ أن يكون آخرَ العهد بك

۱- . ثم إنّ المقصود من أخ معاويه الّذى أشار الإمام على فى كلمته إلى قتله هو حنظله بن أبى سفيان بن حرب. راجع: السيره النبويه لابن هشام: ۵۲۵/۲؛ وشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۱۹/۱۸.

أن يمس جلدی جلدَک.

فدعا له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بخیر(۱).

ثم إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بعد أن عدّل الصفوف رجع إلی غرفه العملیّات (العریش) فدخله وتوجّه إلی ربه بقلبٍ مفعم بالإیمان یناشده ما وعده من النصر وقال فی مناجاته لربه فی تلک اللحظات:

«اللّهمَّ إنْ تَهْلَک هذه العِصابه من أهل الإسلام لَا تُعبدَ فی الأرضِ أبداً».

ثمّ خرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی الناس فحرضّهم ونفل کلّ امرئ منهم ما أصاب وقال: «وَالَّذی نَفْسُ محمّدٍ بِیَدِهِ لا یُقاتِلُهُم الیَومَ رَجُلٌ فَیُقتَلُ صابراً مُحتسباً مُقبلاً غیرَ مُدْبِرٍ، إلّاأدْخَلَهُ اللّهُ الجنَّهَ».(۲)

ولقد کانت کلمات القائد الأعلی هذه تفعل فعلتها فی النفوس، فتثیر الهمم، وتوجد شوقاً عجیباً إلی الشهاده فی المقاتلین المسلمین، حتّی أن أحدهم ویُدعی «عُمَیر بن الحمام» أخو بنی سلمه قال للنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وفی یده تَمرات یأکلُهُنَّ یا رسول اللّه: بخ بخ، أفما بینی وبین أن أدخلَ الجنَّهَ إلّاأن یقتلنی هؤلاء.

ثم قذف التمرات من یده وأخذ سیفه، فقاتل القوم حتّی قُتِلَ (۳).

ثم إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أخذَ حفنه من الحصباء فاستقبل بها قریشاً ثم قال:

«شاهَتِ الوُجُوه».

ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه، فقال: شدُّوا(۴).

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۴۵۶/۲-۴۵۷.

۲- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۴۵۷/۲؛ تاریخ الطبری: ۱۴۹/۲-۱۵۰.

۳- . السیره ا النبویه لابن هشام: ۴۵۸/۲.

۴- . السیره النبویه لابن هشام: ۴۵۸/۲؛ تاریخ الطبری: ۱۵۰/۲؛ البدایه والنهایه: ۳۴۷/۳.

ولم يمض وقتٌ طويل حتّى ظهرت بوادر انتصار المسلمين على أعدائهم المشركين فقد انتابَ المشركين خوفٌ ورعبٌ شديدان، وأخذوا ينهزمون أمام زحف المسلمين.

فقد كان المسلمون يقاتلون عن إيمان، وإخلاص ويعلمون بأنّهم ينالون السعاده قَتَلُوا أو قُتِلُوا، فلم يرهَبُوا شيئاً، وما كان يمنعهم شيء عن التقدّم والإقبال.

رعايه الحقوق

لقد كان لابدّ من رعايه الحقوق بالنسبه إلى طائفتين فى معسكر المشركين:

الأُولى: أُولئك الذين أحسنوا إلى المسلمين فى مكّه، ودافعوا عنهم كأبى البخترى الذى كان ممن قام فى نقض الصحيفه الظالمه الّتى سبق الحديث عنها.

الثانيه: أُولئك الذين أُكرهوا على الخروج من المشركين إلى بدر، وكانوا يرغبون فى قراره أنفسهم فى الإسلام مثل معظم رجال بنى هاشم كالعباس بن عبدالمطلب عمّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم.

مصرع أُميّه بن خلف

ولقد أُسِّر «أُميّه بن خلف» وابنه على يد عبدالرحمن بن عوف، وكان بينه وبين أُميّه صداقه بمكّه طلب أُميّه من عبدالرحمن أن يخرجه من أرض المعركه لكى لا يُقتَلَ هو وولدُه، أو ليُعدّا من الأسرى.

فرضى عبدالرحمن بذلك، وبينما هو يقودهما إذ رآه بلال، وكان أُميّه هو الّذى يعذب بلالاً بمكّه على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء مكّه إذا حميت فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخره العظيمه فتوضعُ على صدره ثم يقول: لا تزال هكذا حتّى تفارقَ دين محمَّد، فيقولُ بلال: أحد، أحد.

فلمّا رآه بلال فی الأسر وقد أقدم عبدالرحمن علی حمایته والذبّ عنه وهو یرید نجاته وولده، صاح مستصرخاً المسلمین: یا أنصار اللّه رأسُ الکفر أُمیّه بن خلف، لا نجوتُ إن نجا.

فأحاط المسلمون بأُمیّه وولده من کلّ جانب وقطّعوهما بسیوفهم حتّی فرغوا منهما(۱).

وقد نَهی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عن قتل أبی البختری الّذی کان له دورٌ مشرّفٌ فی نقض الحصار الاقتصادی الّذی ضربَتهُ قریش علی المسلمین فی مکّه، وکان لا یؤذی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فلقیه رجلٌ من المسلمین یُدعی «المجذّر بن زیاد البلوی» حلیف الأنصار، فأراد أسره واستبقاءه ریثما یأخذه إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لیری فیه رأیه، ولکنّه نازل «المجذّر» وأبی إلّاالقتال، فاقتتلا فقتله المجذّر.

ثم إنّ المجذّر أتی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فقال: والّذی بعثک بالحقّ لقد جهدتُ علیه أن یُستأسَر فآتیک به فأبی إلّاأن یقاتلنی فقاتلته فقتلته(۲).

خسائر بدر فی الأرواح والأموال

لقد قُتِلَ فی معرکه «بدر» من المسلمین أربعه عشر رجلاً وقُتِلَ من المشرکین سبعون وأُسِرَ سَبعُون من أبرزهم: النضر بن الحارث، وعقبه ابن أبی معیط، وأبو غره، وسهیل بن عمرو، والعباس، وأبو العاص بن الربیع (صهر النبیّ)(۳).

۱- . لاحظ: سیره ابن هشام: / ۴۶۱.

۲- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۴۵۹/۲؛ الطبقات الکبری: ۲۳/۲.

۳- . المغازی: ۱۳۸/۱-۱۷۳؛ السیره النبویه لابن هشام: ۵۲۴/۲-۵۳۲.

ثم دُفِنَ شهداء بدر فی جانب من أرض المعرکه، وقبورهم باقیه إلی الآن.

ثم أمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بأن یُلقی بقتلی المشرکین فی البئر.

قال ابن إسحاق: ولمّا أمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بهم (أی المشرکین) أن یلقوا فی القلیب(۱)، أخذ عتبه بن ربیعه فسحب إلی القلیب فنظر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی وجه «أبی حذیفه» ابن عتبه فاذا هو کئیب، قد تغیّر لونه، فقال صلی الله علیه و آله و سلم: یا أبا حذیفه لعلّک قد دخلک من شأن أبیک شیء؟! فقال: لا واللّه یا رسول اللّه، ما شککت فی أبی ولا فی مصرعه، ولکنّنی کنتُ أعرف من أبی رأیاً وحِلماً وفَضلاً فکنتُ أرجو أن یهدیَه ذلک إلی الإسلام، فلمّا رأیتُ ما أصابَه وذکرتُ ما ماتَ علیه مِنَ الکفر بعدَ الّذی کُنتُ أرجو له، أحزننی ذلک!!.

فدعا له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بخیر(۲).

إن هذه القصّه لتکشف عن مدی حبّ المسلمین لدینهم، ورغبتهم الصادقه فی أن یهتدی إلیه الناس کما تکشفُ أیضاً عن أنّهم کانوا یقدّمون المعیار الدینی علی المعیار العائلی إذا تَعارضا.

«ما أنتم بأسمع منهم»

لقد انتهت معرکه بدر بانتصار عظیم فی جانب المسلمین وهزیمه نکراء فی جانب المشرکین.

فقد غادر المشرکون ساحه القتال هاربین صوب مکّه مخلّفین وراءَهم

۱- . القلیب: البئر.

۲- . سیره ابن هشام (السیره النبویه): ۴۶۸/۲.

سبعين قتيلاً من صناديدهم وساداتهم وفتيانهم الشجعان وسبعين أسيراً.

ولمّا أمر النبيّ بألقاء قتلى المشركين فى القليب، وقف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عند القليب وأخذ يخاطب القتلى واحداً واحداً ويقول:

«يا أهل القليب، يا عُتبه بنَ ربيعه، ويا شيبهَ بنَ ربيعه، ويا أُميّه بنَ خلف، ويا أبا جهل (وهكذا عدّد من كان منهم فى القليب) هَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقاً، فَإِنّى قَدْ وجَدْتُ ما وَعَدَنى رَبّى حَقّاً».

فقال له بعض أصحابه: يا رسول اللّه أتنادى قوماً قد جيفوا؟

فقال صلى الله عليه و آله و سلم:

«ما أَنْتُمْ بَأسْمَعَ لِما أقُولُ مِنْهُمْ ولكنّهمْ لا يَسْتَطيعُونَ أنْ يُجيْبُونى».

وكتب ابن هشام يقول: إنَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قال يوم قال هذه المقاله:

«يا أَهْلَ القليب بِئسَ عشيره النبىّ كُنْتُم لِنَبيّكُمْ! كَذَّبْتُمونى وصَدَّقنىَ الناسُ، وَأخْرجْتُمونى وآوانىَ الناسُ، وقاتلتمونى ونصرنىَ الناسُ، (ثم قال:) هَلْ وَجدتُمْ ما وَعَدَكُمْ ربّى حَقّاً؟»(۱).

الشعر يخلّد هذه القصه

يُعتبر هذا الموضوع من القضايا الثابته والمسلَّمه فى التاريخ الاسلامىّ، فقد ذكرهُ جميعُ المحدّثين والمؤرّخين من الشيعه والسنّه، وقد ذكرنا طائفه من مصادره فى الهامش.

وقد كان من دأب حسّان بن ثابت شاعر عصر الرساله أن ينشد أبياتاً فى كلّ

۱- . سيره ابن هشام (السيره النبويه): ۴۶۶/۲-۴۶۷؛ السيره الحلبيه: ۴۳۱/۲، و غيرهما.

واقعه من وقائع الإسلام البارزه، وبذلك يقوّى من عزيمه المسلمين ويشدّ من أزرهم؛ لأنّ الشعر يجلى البطولات ويكرّم المواقف ويخلّد الأمجاد ويحافظ على المفاخر ويكسبها طابعاً أبدياً، ولهذا يُعد وسيله جيّده لتقويه المعنويات، وإبطال مفعول الحرب البارده والنفسيه الّتى يقوم بها العدوّ.

وقد طبع ديوان «حسّان» لحسن الحظ، ويمكن لنا أن نقف على الكثير من أيام الإسلام وأمجاده من خلال قصائده، وأبياته المدرجه فيه.

وقد أنشد حسّان قصيده بائيه رائعه حول وقعه بدر الكبرى يشير فى بعض أبياتها إلى هذه الحقيقه، أعنى قصّه القليب إذ يقول:

يُناديهُمْ رسولُ اللّه لمّا قَذَفْناهُمْ كباكبَ فى القليبِ

أَلَمْ تَجِدُوا كلامى كانَ حَقّاً وَأمْر اللّهِ يَأخُذُ بالقُلُوبِ؟

فما نَطَقُوا وَلَو نَطقُوا لقالُوا صَدقتَ وكنتَ ذا رأى مصيب!

على أنّه لا توجد عباره أشدّ صراحه من ما قاله رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى المقام حيث قال: «ما أنتم بأسمع منهم».

وليس ثمّه بيانٌ أكثر إيضاحاً وأشدّ تقريراً لهذه الحقيقه من مخاطبه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لواحدٍ واحدٍ من أهل القليب، ومناداتهم بأسمائهم وتكليمهم كما لو كانوا على قيد الحياه.

فلا يحقّ لأيّمسلمٍ مؤمنٍ بالرساله والرسول أن يسارع إلى إنكار هذه القضيه التاريخيه الإسلاميه المسلّمه، ويبادر قبل التحقيق ويقول: إنّ هذه القضيه غير صحيحه؛ لأنّها لا تنطبق على موازين عقلى المادّى المحدود.

وقد نقلنا هنا نصّ هذا الحوار، لكى يرى المسلمون الناطقون باللغه العربيه كيف أنّ حديث النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يصرّح بهذه الحقيقه بحيث لا توجد فوقه عبارةٌ فى

الصراحه، والدلاله على هذه الحقيقه.

ومَن أراد الوقوف على مصادر هذه القصّه فعليه أن يراجع ما ذكرناه فى الهامش أدناه(۱).

بعد معركه بدر

يعتقد كثير من المؤرّخين المسلمين أنّ المبارزات الفرديه ومن بعدها القتال الجمعى فى غزوه بدر استمر حتّى زالت الشمس وانتهت المعركه بفرار المشركين وأسر جماعه منهم. ثم بعد أن فرغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه من دفن شهداء المسلمين صلّى بالناس العصر فى بدر ثم غادر أرض بدر قبل غروب الشمس من ذلك اليوم، هذا وقد كلّفَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أشخاصاً بجمع الغنائم من أيدى الناس.

وهنا واجه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أوّل اختلاف بين أصحابه فى كيفيه تقسيم الغنائم، فقد كان كلّ فريق يرى نفسه أولى من غيره بها، نظراً لدوره فى تلكم المعركه.

فالذين كانوا يحرسون عريش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مخافه أن يكرّ عليه العدو كانوا يرون أن عملهم لا يدانيه فى الأهميه أىّ عمل آخر، لأنّهم كانوا يحرسون القائد، ويحافظون على مقرّ القياده.

وبينما كان الذين جمعوا الغنائم يرون أنّهم الأحقّ؛ لأنّهم جمعوها، فيما كان

۱- . إن تكلم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مع رؤوس الشرك الموتى الذين أُلقيت أجسادهم فى البئر من مسلّمات التاريخ والحديث، وقد أشار إلى هذا من بين المحدّثين والمؤرّخين: صحيح البخارى: ۲۱/۵، باب قصّه غزوه بدر، صحيح مسلم: ۱۶۳/۸، كتاب الجنه، باب عرض مقعد الميت من الجنّه؛ مسند أحمد: ۳۱/۲ و ۳۸ و ۱۳۱ و ج ۱۰۴/۳ و ۱۴۵ و ۲۲۰ و ۲۶۳ و ۲۸۷ و ج ۲۹/۴؛ المغازى: ۱۱۲/۱، غزوه بدر؛ بحار الأنوار: ۳۴۶/۱۹.

الـذين قـد قاتلوا العدو ولاحقوه وطاردوه يقولون: واللّه لولا نحن ما أصـبتموه، إنّا لنحن الذين شـغلنا عنكم القومَ حتّى أصـبتم ما أصبتم(۱).

ولا ريب أنّ أسوأ ما يصيب أيّ جيش هو أن يدبّ الخلافُ بين قطعاته وأفراده، فينفرط عقده وتتلاشى وحدته.

من هنا بادر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، للقضاء على هذه الآمال والمطامع المادّيه، وبغيه إسكات كلّ تلك الأصوات، إلى إيكال جمع الغنائم وحملها، والمحافظه عليها إلى «عبداللّه بن كعب المازنى» وأمر جماعه من أصـحابه أن يعينوه ريثما يفكّر فى طريقه تقسـيمها. لقـد كـان قـانون العـدل والإنصـاف يقضـى بـأن يشترك جميع أفراد ذلـك الجيش فى تلك الغنائم، لأنّهم سـاهموا بـأجمعهم فى تلـك المعركه، وكـان لكـلٍّ منهم دورٌ ومسؤوليه فيهـا، فمـا كـان لفريق أن يحرز نجاحاً من دون أن يقوم الآخرون بأدوارهم.

من هنـا قسّم رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم الغنـائم بينهم - فى أثنـاء الطريق - على قـدم المساواه، وفرز لـذوى الشـهداء أسهماً منها.

ولقد أثارت طريقه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى تقسيم الغنائم (وذلك بقسمتها على جميع المشاركين معه فى معركه بدر بالتساوى) سـخط «سـعد بن أبى وقاص» فقال: يا رسول اللّه أيعطى فارسُ القوم الّذى يحميهم مثل ما يعطى الضعيف؟ فقال النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم: «ثكلتك أُمُّك، وهل تُنْصَرونَ إلّابضعفائكم»(۲).

وهو صـلى الله عليه و آله و سـلم يقصد أنّ هذه الحرب لم تكن إلّالأجل الدفاع عن الضـعفاء، ورفع الحيف عنهم، وأنّه صـلى الله عليه و آله و سلم لم يُبعَث إلّالإزاله هذه الفوارق والامتيازات

۱- . سيره ابن هشام (السيره النبويه): ۴۶۹/۲.

۲- . المغازى: ۹۹/۱.

الظالمه، وإلّا لأجل إقرار المساواه فی الحقوق بین الناس.

هذا ورغم أنّ خمس الغنیمه هی بنصّ آیه الخمس(۱) للّه ولرسوله ولذی القربی والیتامی وابن السبیل من أهل بیته صلی الله علیه و آله و سلم إلّاأنّه صلی الله علیه و آله و سلم لم یخمِّس غنائم «بدر» بل وزّع الخمس علی المشارکین فی بدر أیضاً.

علی أنّه یمکن أن تکون آیه الخمس لم تنزل آنذاک بعد، أو أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کان یتمتّع باختیارات خاصّه، فصرف النظر عن أخذ الخمس لنفسه وقرباه، تکثیراً لأسهم المجاهدین، وذلک ولا ریب خطوه حکیمه جداً وخاصّه فی أوّل مواجهه عسکریه مع العدوّ(۲).

قتل أسیرین فی أثناء الطریق

ولمّا کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی «الصفراء» وهی أحد المنازل علی طریق (بدر - المدینه) عرض علیه الأسری، فأمر بقتل النضر بن الحارث وکان من أعداء المسلمین الألدّاء.

وأمر بأن یضرب عنق عقبه بن أبی معیط إذ کان بعرق الظبیه.(۳)

وهنا ینطرح سؤال وهو: إنّ حکم الإسلام فی أسری الحرب هو أنّهم عبیدٌ للمسلمین والمجاهدین، یُباعون ویشترون بأثمان مناسبه، فلماذا حکم رسول

۱- . الأنفال: ۱.

۲- . وجاء فی بعض المصادر التاریخیه أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ضرب من الغنائم أسهماً لأشخاص لم یحضروا بدر ولم یشترکوا فی القتال مع رغبتهم فی ذلک، وذلک إمّا لأُمور أصابتهم عند الخروج إلی بدر، أو لقیامهم بمهمّات، تتعلّق بأُمور مراقبه العدو فی الطرق أو للقیام بمهمات إداریه داخل المدینه.

۳- . لاحظ: البدایه والنهایه: ۳۷۲/۳.

اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى شأن هذين الأسيرين بحكم آخر؟.

ثم إنَّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم الّذى خاطب المسلمين فى «بدر» فى الأسرى الذين بأيديهم وأوصاهم بهم خيراً قائلاً:

«اسْتَوْصوا بالأُساری خيراً».

كيف اتّخذ مثل هذا القرار فى حقّ بعضهم؟

يقول أبو عزيز بن عمير أخو مصعب لأبيه وأُمّه، وكان صاحب لواء فى جيش قريش: كنت (أسيراً) فى أيدى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّونى بالخبز، وأكلوا التمر (والخبز عندهم قليل والتمر زادهم) لوصيه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إيّاهم بنا، ما تقع فى يد رجلٍ منهم كسره خبز إلّانفحنى بها فأستحى فاردُّها على أحدهم فيردُّها علىّ، وكانوا يحملوننا ويمشون(۱)!! مع ملاحظه هذه الأُمور لابدّ من الإذعان بأنّ قتل هذين الأسيرين كان ممّا تقتضيه المصالحُ الإسلاميه العامّه، لا أنّه كان بدافع الانتقام، فقد كان ذانك الأسيران من رؤوس الكفر، ومن مخطّطى الخطط الجهنَّمِيه ضد الإسلام والمسلمين، وضدّ الرساله والرسول، وكانا ممّن يؤلّبون القبائل ضدّ رسول الإسلام، فلعلّه لو كان النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يفرج عنهم ويطلق سراحهم عادوا إلى تدبير المؤمرات ضدّ الإسلام والمسلمين، وعملا على تخطيط الخطط، وتأليب القبائل، فلم يكن بدٌ من تصفيتهم والقضاء عليهم.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۴۷۳/۲، المغازى: ۱۱۹/۱.

بشائر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم إلی المدینه

کلّف رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم «عبد اللّه بن رواحه»، و «زید بن حارثه» بأن یسبقاه إلی المدینه، لیبشّرا المسلمین بما حقّقه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه فی بدر من الانتصار الکاسح والفتح المبین، ویخبرا أهلها بمصرع رؤوس الکفر والشرک کعتبه وشیبه وأبی جهل وأبی البختری وأُمیّه، ونبیه ومنبه و... و...

فما قدم المبعوثان إلی المدینه إلّاوالمسلمون عائدون من دفن ابنه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم زوجه عثمان بن عفان فامتزجت الأفراح بالأحزان، واختلط السرور بانتصار النبیّ وأصحابه بالحزن علی موت ابنه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

وقد أُرعب المشرکون والیهودُ والمنافقون بخبر انتصار المسلمین الساحق علی قریش، وراحوا یحاولون تکذیبه، وتفنیده حتّی إذا دخل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم المدینه ودخل بعده أسری قریش أصبح الخبر قطعیاً مسلّماً، فباءت محاولات المنافقین بالفشل.

المکیّون یعرفون بمقتل أسیادهم

کان «الحیسمان الخزاعی» أوّل مَن قدم مکّه وأخبر الناس بأحداث «بدر» الدامیه وبمصرع طائفه کبیره من ساده قریش علی أیدی المسلمین.

یقول أبو رافع، الّذی کان غلاماً للعباس بن عبدالمطلب آنذاک ثم أصبح من أصحاب النبیّ وعلیّ فیما بعد: کنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وکان الإسلام قد دخلنا أهلَ البیت، فأسلم العباس وأسلَمَت أُمّ الفضل و أسلمتُ، وکان العباس یهاب قومه، ویکره خلافهم، وکان یکتم إسلامه، وکان ذا مال کثیر متفرّق فی قومه، وکان أبو لهب قَد تخلّف عن بدر،... فلمّا جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من

قریش کبته اللّه وأخزاه، ووجدنا فی أنفسنا قوّهً وعزاً.

وکنت رجلاً ضعیفاً وکنتُ أعمل الأقداح (السهام والنبال) أنحتها فی حجره زمزم، فواللّه بینما أنا جالسٌ فیها أنحت أقداحی، وعندی أُمّ الفضل جالسه، وقد سرَّنا ما جاءَنا من الخبر عن هزیمه قریش، إذ أقبل أبولهب یجرّ رجلیه بشرٍّ حتّی جلس عند طنب(۱) الحجره، فکان ظهره إلی ظهری، فبینما هو جالس إذ قال الناسُ: هذا أبوسفیان بن الحارث بن عبد المطلب، فقال أبولهب: هلمَّ إلیَّ فعندکَ لعمری الخبر.

فجلس إلیه والناس قیامٌ علیه، فقال: یا ابن أخی أخبرنی کیف کان أمرُ الناس؟

قال أبوسفیان: واللّه ما هو إلّاأن لقینا القومَ فمنحناهم أکتافنا یقتلوننا کیف شاءُوا، ویأسروننا کیف شاءُوا، وأیمُ اللّه مع ذلک مالمتُ الناسَ، لقینا رجالاً بیضاً علی خیل بُلق بین السماء والأرض، واللّه ما تُبقی شیئاً ولا یقومُ لها شیء.

یقول أبو رافع: فرفعت طنب الحجره، ثم قلتُ: تلک واللّهِ الملائکه.

فرفَعَ أبو لهب یده فضرب بها وجهی ضربهً شدیده(۲).

اشتراک العباس عمّ النبیّ فی بدر

یبقی أن نعرف أنّ مسأله اشتراک العباس عمّ النبیّ فی غزوه بدر من مشکلات التاریخ وغوامضه، فهو من الذین أَسَرَهُمُ المسلمون فی بدر فهو من جانب یشارک فی الحرب، ومن جانب آخر یحضر فی بیعه العقبه، ویدعو أهل المدینه إلی حمایه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ونصرته.

۱- . الطنب: الطرف.

۲- . سیره ابن هشام (السیره النبویه): ۲/۴۷۳-۴۷۴.

فكيف يكون هذا؟

إنّ الحل يكمن فى ما قاله أبو رافع غلام العباس نفسه: كان العباس قد أسلم ولكنّه كان يهاب قومه ويكره خلافهم ويكتم إسلامه، مثل أخيه أبى طالب لاقتضاء المصالح الإسلاميه ذلك، ومن هذا الطريق كان يساعد النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ويخبره بمخططات العدو ونواياه وتحرّكاته واستعداداته كما فعل ذلك فى معركه «أُحد» أيضاً(۱). فقد كان أوّل مَن أخبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بتحرّك قريش وخططهم واستعداداتهم.

المنع من النَوح والبكاء فى مكه

وقد أفجع مقتل سبعين رجلاً من رجال مكّه وفتيان قريش أكثر البيوت والعوائل فى مكّه، وسلبهم البهجه والفرح، والنشاط والحركه، وتحوّلت مكّه برمّتها إلى مأتم كبير، قال الواقدى: فناحت قريش على قتلاها شهراً، ولم تبق دار بمكّه إلّا فيها نوح، وجزّ النساء شعر الرؤوس...(۲).

غير أنّ أبا سفيان عمد - لإبقاء أهل مكّه على حاله الحنق والغضب - إلى منع النوح والبكاء على القتلى وحثّ الناس باستمرار على الاستعداد للثأر والانتقام من محمّد وأصحابه فقال: يامعشر قريش لا تبكوا على قتلاكم، ولاتنح عليهم نائحه ولا يبكهم شاعر، وأظهروا الجلد والعزاء، فإنّكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم، فأكلّكم ذلك عن عداوه محمّد وأصحابه. ولعلّكم تدركون ثأركم.

۱- . السيره الحلبيه: ۲۱۷/۲.

۲- . المغازى: ۱۲۲/۱.

ولکی یلهب أبوسفیان مشاعر الناس أکثر فأکثر أو یبقی علی سخونتها علی الأقل، قال: والدهن والنساء علیّ حرامٌ حتّی أغزو محمّداً.

وکان «الأسود بن المطلب» قد أُصیب له ثلاثه من ولده: زمعه وعقیل والحارث، وکان یحب أن یبکی علی بنیه، ولکنّه ما کان لیستطیع ذلک لمنع أبی سفیان من النواح والبکاء علی القتلی.

فبینا هو کذلک إذ سمع نائحه من اللیل فقال لغلام له - وقد ذهب بصرُه -:

هل أُحلّ النحب، هل بکت قریشُ علی قتلاها لعلّی أبکی علی زمعه، فإن جوفی قد احترق؟

فلمّا رجع إلیه الغلام قال: إنّما هی امرأه تبکی علی بعیر لها أضلّته، فأنشد الأسود بن المطلب حینها:

أتبکی أن یضلَّ لها بعیرُ ویمنعها من النوم السهود

فلا تبکی علی بکر(۱) ولکن علی بدر تقاصرت الجدودُ

علی بدر سراهِ بنی هصیص ومخزومٍ ورهطِ أبی الولیدِ

وبکّی إن بکیتِ علی عقیل وبکّی حارثا أسد الأسود(۲)

رسول الإسلام ومکافحه الأُمیّه

أعلن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عن قرار تاریخی عظیم وهو: إن کان فی الأسری مَن یکتب ولا مال له للفداء، فیقبل منه أن یعلّم عشره من غلمان الأنصار الکتابه ویخلّی

۱- . البکر: الفتی من الإبل.

۲- . سیره ابن هشام (السیره النبویه): ۴۷۵/۲.

سبیله.(۱)

وروی أحمد بإسناده عن ابن عباس قال: کان ناس من الأسری یوم بدر لم یکن لهم فداء، فجعل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فداءهم أن یعلّموا أولاد الأنصار الکتابه.(۲)

وهذا إن دلّ علی شیء فإنّما یدلّ علی مدی اهتمام الإسلام بالثقافه والتثقیف، والوعی والتوعیه، فإنّ معرفه القراءه والکتابه بدایه التثقیف والتوعیه.

ولابدّ أن نقول هنا أیضاً: إنّ إطلاق الأُسارى العارفین بالقراءه والکتابه لقاء تعلیم صبیان المسلمین تعدّ أوّل عملیه لمکافحه الأُمّیه الّتی اهتمّ بها العالم الحاضر.

ففی الوقت الّذی کانت الکثیر من الدول فی عصرالإسلام الأوّل تمانع من تثقیف أبنائها ورعایاها - کما مرّ علیک فی دراسه أوضاع الامبراطوریتین الفارسیه والرومیه - أعلن رسول الإسلام أنّ من لم یکن معه فداء وهو یحسن الکتابه دفع إلیه عشره من غلمان المدینه (أی صبیانها) یعلّمهم الکتابه فإذا تعلّموا کان ذلک فداءه... وما أعظمها من خطوه ثقافیه وحضاریه.

ما ورد فی السیره حول مصیر الأسری

ذکر ابن هشام أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أعلن عن أنّ مَن علّم من الأسری عشره من الغلمان والصبیان من أولاد الأنصار الکتابه والقراءه، کان ذلک فداؤه وخلّی عن سبیله من غیر أن یؤخذ منه مال.

وإن مَن دفع فدیه قدرها أربعه آلاف درهم إلی ألف درهم خلّی سبیله، وإنّ

۱- . لاحظ: الروض الأنف لعبد الرحمن الخثعمی السهیلی: ۸۴/۳؛ إمتاع الأسماع: ۱۱۹/۱.

۲- . مسند أحمد: ۲۴۷/۱.

من كان فقيراً لامال له أَفرِجَ عنه دون فداء.

فأحدث هذا النبأ فی مكّه لدی عوائل الأسری حركه عجيبه ودفعهم إلی التفكير فی تقديم الفداء إلی المسلمين، وإطلاق أسراهم.

فهيّأ كلّ واحدٍ منهم ما استطاع وقدم المدينه يفدی أسيره.

وعندما أُفرج عن سهيل بن عمرو لقاء فديه قال عمر بن الخطاب لرسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم: يا رسول اللّه دعنی أنزع ثنيتی سهيل بن عمرو (أی أسنانه الأماميه) ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً فی موطن أبداً.

فقال رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم: «لا أُمثّل به فيمثّل اللّه بی وإن كنتُ نبيّاً»(۱).

وتلك لفته انسانيه أُخری من لفتات النبیّ العظيم الكثيره فی المعارك.

وقد كان فی الأُسارى أبوالعاص بن الربيع زوج ابنه رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم: زينب.

وكان أبو العاص من رجال مكّه المعدودين مالاً وأمانه وتجاره، وقد تزوّج بزينب ابنه رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی الجاهليه.

ولمّا جاء الإسلام آمنت خديجه برسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم وآمنت بناته، (ومنهن زينب) كذلك وشهدن أنّ ما جاء به الحقّ، ودِنّ بدينه، وثبت أبو العاص علی شركه، وكان رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم لا يقدر علی أن يفرّق بينهما.

وقد اشترك أبو العاص هذا فی معركه بدر مع قريش، وأُسر بأيدی المسلمين.

فلمّا بَعث أهل مكّه فی فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی فداء زوجها أبی العاص بن الربيع بمال وبعثت فيه بقلاده لها كانت لخديجه (قد

۱- . سيره ابن هشام: ۴۷۶/۲؛ المغازی: ۱۰۷/۱. يقول صاحب المغازی فی الصفحه ۱۰۵ من نفس الجزء: كان عمر يحض علی قتل الأسری لا يری أحداً فی يديه أسير إلّاأمر بقتله!!

أهدتها إليها ليله دخول أبى العاص بها ليله زفافها).

فلمّا رأى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم القلاده عرفها ورقّ لها وذكر خديجه عليها السلام وترحّم عليها (وما أسدته إلى الإسلام من خدمات وقدّمته من تضحيات، وبكى بكاء شديداً). وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا إليها متاعها فعلتم.

فقالوا: نعم يا رسول اللّه، نفديك بأنفسنا وأموالنا.

فأطلقوا أبا العاص بن الربيع، وردّوا على زينب متاعها.(۱) وبذلك احترم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حقوق المسلمين وما يرجع إليهم من أموال؛ بل أنّها واللّه أعظم مظهر من مظاهر الديمقراطيه، (إن صحّ التعبير) فالنبىّ مع أنّ له ماله من الولايه على المسلمين يقترح عليهم الإفراج عن زوج زينب ويترك الأمر لاختيارهم.

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أخذ على أبى العاص الميثاق بأن يخلّى سبيل زينب، ويبعثها إلى المدينه.

ففعل أبو العاص ما تعهّد به، وبعث زينب إلى المدينه.(۲)

ثم إنّ أبا العاص نفسه أسلم أيضاً وقدم المدينه، وردّ عليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم زينباً بالنكاح الأوّل أو بنكاح جديد(۳).

كلام لابن أبى الحديد فى المقام

يقول العلّامه ابن أبى الحديد: قرأت على (أُستاذى) النقيب أبى جعفر يحيى بن أبى زيد البصرى العلوى هذا الخبر، فقال: أترى أبابكر وعمر لم يشهدا

۱- . المغازى: ۱۳۰/۱-۱۳۱.

۲- . سيره ابن هشام (السيره النبويه): ۴۷۹/۲.

۳- . سيره ابن هشام: ۴۸۲/۲-۴۸۳.

هـذا المشـهد؟ أما كان يقتضـى التكريمُ والاحسانُ أن يُطيِّبا قلبَ فاطمه عليها السـلام بفـدك، ويسـتوهب لها من المسـلمين (أى يستوهب فدكاً من المسلمين ويردّه عليها).

أتقصُر منزلتُها عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن منزله زينب أُختِها وهى سيدهُ نساء العالمين؟!

هذا إذا لم يثبت لها حقٌّ، لا بالنحله ولا بالإرث؟

فقلت له: فدك بموجب الخبر الّذى رواه أبوبكر قد صار حقّاً من حقوق المسلمين، فلم يجز له أن يأخذه منهم.

فقال: وفداء أبى العاص قد صار حقّاً من حقوق المسلمين، وقد أخذه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم منهم.

فقلت: رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم صاحب الشريعه، والحكمُ حكمُهُ، وليس أبوبكر كذلك.

فقال: ما قلتُ هلّا أخذه أبوبكر من المسـلمين قهراً فدفعه إلى فاطمه عليها السـلام وإنّما قلت: هلّا اسـتنزلَ المسلمين عنه، واستوهبه منهم لها، كما اسـتوهب رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم فداءَ أبى العاص؟ أتراه لوقال: هذه بنت نبيكم صلى الله عليه و آله و سلم قد حضرت تطلب هذه النخلات أفتطيبون عنها نفساً؟ أكانوا منعُوها ذلك؟!

فقلت له: قد قال قاضى القضاه أبوالحسن عبدالجبّار بن أحمد نحو ذلك.

قال: إنّهما لم يأتيا بحَسَنٍ فى شرع التكريم، وإن كان ما أتياه حسناً فى الدين!!(۱)

۱- . شـرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۱۹۰/۱۴-۱۹۱، ولابن أبى الحديد كلام آخر يشـبه هذا فى إهدار دم من أسـقط جنين زينب، فراجع.

أی أنّ ما فعلاه وإن کان یوافق موازین الدین - حسب تصوّر القاضی - ولکنّه لا یناسب شأن فاطمه وتکریمها لمقامها ولمکانتها من أبیها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

هذا وقد أمر اللّه نبیّه الکریم بأن یعلن للأسری بأنّ الباب مفتوح أمامهم لینضمّوا إلی صفوف المسلمین، فینعموا بالإسلام فیعید اللّه علیهم أفضل ممّا أخذ منهم ویغفر لهم ذنوبهم، إذ یقول تعالی:

«یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِمَنْ فِی أَیْدِیکُمْ مِنَ الْأَسْری إِنْ یَعْلَمِ اللّهُ فِی قُلُوبِکُمْ خَیْراً یُؤْتِکُمْ خَیْراً مِمّا أُخِذَ مِنْکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ» (۱).

وبذلک فتح الإسلام باب الأمل أمام الأُسارى، وکشف عن نزعته الإنسانیه وأیضاً عن رغبته الصادقه فی هدایه البشریه، ونجاتها.

کما ضرب بذلک مثلاً فی الحکمه وحسن السیاسه لم یسبق له مثیل.

علی أنّه هدّد الأسری من ناحیه أُخری إذا أساءُوا، وعادوا بعد الخلاص من الأسر إلی التآمر ضد الإسلام.

إذ قال:

«وَ إِنْ یُرِیدُوا خِیانَتَکَ فَقَدْ خانُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْکَنَ مِنْهُمْ وَ اللّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ» (۲).

وبذلک جمع بین الحزم والحکمه، واللین الحکیم والشدّه المعقوله.

القرآن یتحدّث عن معرکه بدر

ولقد ذکَّرَ القرآن الکریم المسلمین، ولا یزال یذکِّرهم بالانتصار الکبیر الّذی

۱- الأنفال: ۷۰.

۲- . الأنفال: ۷۱.

تحقّق للمؤمنين فی بدر بفضل ثبات المقاتلين ونصر اللّه وتأييده الغيبی إذ قال:

«إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَهِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَهِ الْقُصْوی وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِی الْمِيعادِ وَ لكِنْ لِيَقْضِیَ اللّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَهٍ وَ يَحْيی مَنْ حَیَّ عَنْ بَيِّنَهٍ وَ إِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِی مَنامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِی الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ * وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِی أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِی أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِیَ اللّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَ إِلَی اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (۱).

وقال تعالی:

«قَدْ كانَ لَكُمْ آيَهٌ فِی فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَهٌ تُقاتِلُ فِی سَبِيلِ اللّهِ وَ أُخْری كافِرَهٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْیَ الْعَيْنِ وَ اللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِی ذلِكَ لَعِبْرَهً لِأُولِی الْأَبْصارِ» (۲).

وقال تعالی أيضاً:

«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّی مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَهِ مُرْدِفِينَ» (۳).

وقوله تعالی:

«إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَهً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلی قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ * إِذْ يُوحِی رَبُّكَ إِلَی الْمَلائِكَهِ أَنِّی مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» (۴).

وقال سبحانه أيضاً:

۱- . الأنفال: ۴۲-۴۴.

۲- . آل عمران: ۱۳.

۳- . الأنفال: ۹.

۴- . الأنفال: ۱۱-۱۲.

«وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَهِ مُنْزَلِينَ * بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَهِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَهِ مُسَوِّمِينَ * وَ ما جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّ بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ» (۱).

وفی هذه الآیات تصریحات واضحه بما کان علیه المسلمون فی معرکه بدر من حیث قلّه العدّه والعدد، وبأبرز الإمدادات الغیبیه الإلهیه الّتی ساعدت المسلمین علی الانتصار علی أعدائهم المشرکین، الذین کانوا یفوقونهم فی العده والعدد والسلاح والرجال مع التأکید علی أنّ ذلک الانتصار العظیم جاء نتیجه ثبات المسلمین واستقامتهم، وصبرهم وإخلاصهم.

وأبرز تلک الإمدادات الغیبیه هی:

۱. مع أنّ الأعداء کانوا متمرکزین فی العدوه العلیا وهی أعلی الوادی، والمسلمین فی أسفل الوادی، وکان ذلک من شأنه أن یعزّز موقع الکفّار لإمکان مراقبه المسلمین من مکان مرتفع، کما کان من شأنه أن یجعل هجوم المسلمین علی الکفّار أمراً صعباً، ولکن کفّه الحرب رجحت مع ذلک لصالح المسلمین.

۲. إنّهمْ لو کانوا علی میعاد مع العدو، ومع العلم التفصیلی بحجم إمکانیته البشریه والقتالیه لامتنع عامّه المسلمین عن مقابله المشرکین، ولکن شاء اللّه أن لا یعرف المسلمون شیئاً مفصّلاً عن المشرکین، مسبقاً، بل یواجه المسلمون الأمر الواقع، فیتحقّق ما أراد اللّه من الانتصار علی قریش. وإلی هذا أشار سبحانه بقوله:

«وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِی الْمِیعادِ» .

۱- . آل عمران: ۱۲۳-۱۲۷.

۳. تقلیل عدد المسلمین فی أعین المشرکین وتقلیل عدد المشرکین فی أعین المسلمین فی أول القتال، لکی یستقل الأعداء قوه المسلمین، ولکی لا یهاب المسلمون الأعداء ویستعظموا عددهم، وإلیه یشیر تعالی بقوله:

«وَ إِذْ یُرِیکُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَیْتُمْ فِی أَعْیُنِکُمْ قَلِیلاً وَ یُقَلِّلُکُمْ فِی أَعْیُنِهِمْ» .

۴. تکبیر عدد المسلمین فی أعین الکفّار فی أثناء القتال وإلیه یشیر تعالی بقوله: «یَرَوْنَهُمْ مِثْلَیْهِمْ رَأْیَ الْعَیْنِ» .

۵. الإمداد بالملائکه المردفین المسوّمین.

۶. النعاس الّذی ألقاه اللّه علی المسلمین فجدّد نشاطهم، وضاعف من قوتهم.

۷. نزول المطر علیهم والّذی طهّرهم من الأقذار ومکّنهم من الاغتسال عمّا أصاب بعضهم من حدث، وثبّت الأرض الرملیّه تحت أقدامهم، وقد أشار سبحانه إلی کلّ ذلک فی الآیه ۱۱ من سوره الأنفال.

۸. تثبیت قلوب المؤمنین بواسطه الملائکه.

۹. إلقاء الرعب فی قلوب الکفّار. وإلی هذین النوعین من الإمداد الغیبی أشار بقوله: «فَثَبِّتُوا الَّذِینَ آمَنُوا سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِینَ کَفَرُوا الرُّعْبَ» .

کما ویشیر القرآن الکریم فی هذا السیاق إلی دور الشیطان فی هزیمه الکفّار فهو الّذی یغری وهو الّذی یخذل عند اللقاء یقول سبحانه:

«وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ مِنَ النّاسِ وَ إِنِّی جارٌ لَکُمْ فَلَمّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَکَصَ عَلی عَقِبَیْهِ وَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ إِنِّی أَری ما لا

تَرَوْنَ إِنِّی أَخافُ اللّهَ وَ اللّهُ شَدِیدُ الْعِقابِ» (۱).

کما أنّ القرآن یتحدّث أیضاً عن حاله المشرکین عندما أتوا إلی بدر لمواجهه المسلمین وما کانت تنطوی علیه نفوسهم فیقول:

«وَ لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النّاسِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ وَ اللّهُ بِما یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ» (۲).

کما ویعزی هزیمتهم إلی سبب رئیسی وحقیقی وهو مشاققه اللّه ورسوله إذ یقول:

«ذلِکَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ یُشاقِقِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ» (۳).

۱- . الأنفال: ۴۸.

۲- . الأنفال: ۴۷.

۳- . الأنفال: ۱۳.

۳۱ زواج سیده النساء فاطمه بنت رسول اللّه

اشاره

۳۱ زواج سیده النساء فاطمه بنت رسول اللّه(۱)

إنّ الرغبه الجنسیّه حاله تظهر عند البلوغ لدی کلّ انسان، وربما تنحرف بالشاب وتهوی به فی أحضان الفساد والسقوط الأخلاقی إذا لم تتوفّر له أجواء التربیه الصحیحه ولم تتح له الفرصه المناسبه، والمسیر الصحیح لتنفیذ تلک الرغبه، والاستجابه لها بصوره صحیحه.

وإنّ خیر وسیله للحفاظ علی العفّه الفردیه والحیاء العام، وتجنیب الفرد والمجتمع مفاسد وأخطار الإنحراف الجنسیّ هو الزواج.

فإنّ الإسلام یحتمّ علی الرجل والمرأه - تأکیداً لحکم الفطره وتمشّیاً مع ناموس الطبیعه البشریه - أن یتزوّجا طبقاً لضوابط خاصّه تضمن سلامه الزیجه ودوامها.

وقد جاء هذا التأکید، والحدیث فی الکتاب العزیز، والسنّه الشریفه بمختلف الصور، وتحت مختلف العناوین.

۱- . کان زواج فاطمه بعد وقعه بدر، راجع: بحار الأنوار: ۷۹/۴۳ و ۱۱۱.

فقد جاء فی الکتاب العزیز:

«وَ أَنْکِحُوا الْأَیامی مِنْکُمْ وَ الصّالِحِینَ مِنْ عِبادِکُمْ وَ إِمائِکُمْ إِنْ یَکُونُوا فُقَراءَ یُغْنِهِمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ» (۱).

وقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی هذا الصدد:

«تزوّجوا فإنّی مکاثرٌ بکمُ الأُممَ غداً فی القیامه»(۲).

وقال أیضاً:

«مَن أحب أن یلقی اللّه طاهراً مطهَّراً فلْیلقه بزوجه»(۳).

مشاکل الزواج فی العصر الحاضر

إنّ مشاکل الزواج فی عصرنا الحاضر لا تنحصر - وللأسف - فی مشکله واحده أو مشکلتین.

فالرجال والنساء الیوم یقدمون علی الزواج - غالباً - فی ظروف صعبه، وأوضاع ردیئه، وتنتهی أکثر الزیجات بسبب تلک الظروف والأوضاع، وبسبب ما یلابسها من مستلزمات قاسیه وثقیله بالطلاق والافتراق بعد سلسله من الخلافات والمنازعات.

فتلک هی صحف البلاد تحمل فی أبوابها الاجتماعیه کلّ یوم عشرات الأنباء والأخبار عن الجرائم الزوجیه، وتعالج عشرات المشاکل فی مجال العائله.

ولکن أکثر هذه المشاکل والمصائب تدور حول قضیه واحده، وهی أنّ

۱- . النور: ۳۲.

۲- - وسائل الشیعه: ۱۴، الباب ۱ من أبواب مقدّمات النکاح، الحدیث ۲.

۳- - وسائل الشیعه: ۱۴، الباب ۱ من أبواب مقدّمات النکاح، الحدیث ۱۵.

الفتيان والفتيات فى مجتمعاتنا الحاضره ليسوا بصدد تشكيل عائله تضمن سعادتهم الواقعيه.

فالبعض يهمّه من الزواج أن يصل عن طريقه إلى المناصب الراقيه الحسّاسه .

والبعض الآخر يهمّه من الزواج الحصول على الثروه والمال.

وقلّما يفكر المقدمون على الزواج، وتأسيس العائله فى أُمور هامّه وجوهريه كالعفه والطهر، وإذا لوحظ هذا الجانب فإنّما يلاحظ بصوره هامشيه، لا أساسيه.

ويدلّ على ذلك أنّ الشباب يتنافسون غالباً على التزوّج بفتيات من العوائل المعروفه ذات المكانه والشهره الاجتماعيه والماليه، والحال أنّه يمكن أن تكون تلك الفتيات غير متّصفات بالأخلاق النبيله، ولا يكنَّ من حيث الجانب المعنوى بالنوع الجيد، الجدير بالاهتمام، الصالح للاقتران به.

فما أكثر الفتيات الفاضلات، الطيّبات هنا وهناك فى زوايا المجتمع اللائى لايهتم بهن الشباب، لفقرهنّ، وقله ذات أيديهنّ، أو لعدم شهره عوائلهن.

على أنّ الأسوأ من ذلك كلّه ما أصبح يكلِّفُهُ الزواج فى عصرنا الحاضر من نفقات باهضه نتيجه تزايد التقاليد المبتدعه فى مجال إقامه الأعراس وحفلات القران والزواج، الأمر الّذى أصبح يرهق كاهل الزوجين، ويتعب عائلتيهما، مثل مشكله المهور الباهضه، وما شابه ذلك ممّا هو فى تصاعد مستمر فى بلادنا، الأمر الّذى دفع بالبعض إلى ترك الزواج، وإشباع غرائزهم الجنسيّه بالوسائل غير المشروعه، ومن ثم شيوع اللا أُباليه، والإباحيه فى المجتمعات.

رسول الإسلام يكافح هذه المشاكل عمليّاً

تلك طائفه من المشاكل الاجتماعيه الّتى كانت ولا تزال موجوده فى كلّ

مجتمع بنسب خاصّه.

ولم تكن الفتره الّتی عاصَرَها رسولُ الإسلام بمستثناهٍ من هذا الأمر، فقد كانت هناك فی المجتمع فی عصر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم مشاكل مماثله فی الزواج.

فقد كان أشراف العرب لا يزوّجون بناتهم إلّالمن كان من قبيله ذات مال وشوكه، ومكانه وقوّه، ويردّون كلّ خاطب لبناتهم يكون على غير هذه الصفه.

وقد كان الأشراف، يصرّون - تبعاً لتلك العاده - على أن يتزوّجوا بابنه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم السيده فاطمه؛ لأنّهم كانوا يتصوّرون أنّ النبیّ لن يتشدّد فی هذا الأمر، بل يكفيه أنّهم ذو ثروه ومكانه اجتماعيه مرموقه.

وكانوا يتصوّرون أنّهم يمتلكون كلّ ما يهمّ الفتاه وأباها من الإمكانيات المادّيه، كيف لا والنبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لم يتشدد فی زواج ابنتيه الأُوليين: زينب ورقيه.

ولكنّهم غفلوا عن أنّ هذه الفتاه (أی فاطمه الزهراء عليها السلام) تختلف عن أُختيها السابقتين.

إنّها - كما تدل عليه آيه المباهله(۱) - ذات مقام رفيع، وشأن كبير.

لقد أخطأ خُطّاب فاطمه عليها السلام فی هذا التصوّر، وما كانوا يعلمون أنّ زوج فاطمه وقرينها لا يمكن أنّ يكون إلّاكفؤها فی التقوی والفضل، والإيمان والإخلاص، فإذا كانت فاطمه - بحكم آيه التطهير - معصومه من الذنب وَجَبَ أن يكون زوجُها هوالآخر معصوماً، وإلّا لم يكن كفؤها المناسب.

وليس المال وليست الثروه ملاك هذا التكافؤ.

۱- . آل عمران: ۶۱. فی قضيه المباهله اصطحب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عليّاً والحسن والحسين وفاطمه دون غيرها من النساء، وسيأتی تفصيل هذه القصّه.

لقد قال الإسلام: إذا خطبَ إليكَم كفو فزوّجوه.

ويفسر هذا التكافؤ بالمماثله والتكافؤ فى الإيمان والتقوى، والطهاره والعفاف، لا فى المال والثروه(۱).

ولقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مأموراً من جانب اللّه تعالى أن يقول لكلّ من خطبَ إليه «فاطمه» من أُولئك الرجال: «أمرها بيد اللّه» وهو بهذه الإجابه يكشف القناع عن الحقيقه إلى درجه مّا.

ولقد أدرك أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّ زواج «فاطمه» ليس أمراً سهلاً وبسيطاً، وأنّه ليس لمن كان من الرجال وإن بلغ من الثراء، والمكانه الاجتماعيّه أن يحظى بالزواج منها، فإنّ زوج «فاطمه» ليس إلّامن يشابهها من حيث الأخلاق والفضائل، والصدق والإيمان، والطهر، والإخلاص، بل ويلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى السجايا الكريمه والصفات الرفيعه، والخلق العظيم.

ولا تجتمع هذه الصفات والمواصفات إلّافى «على» عليه السلام لا سواه.

وللتأكد من هذه الحقيقه اقترح بعض الصحابه على (علىّ) عليه السلام أن يخطب إلى النبىّ فاطمه صلوات اللّه عليهما(۲).

وكان على عليه السلام يريد ذلك فى نفسه، ويرغب إليه من كلّ قلبه إلّاأنّه كان ينتظر الفرصه المناسبه ليقدم على هذا الأمر.

فأتى علىّ عليه السلام بنفسه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ولمّا رآه رسول اللّه قال: ما جاء بك يا أبا الحسن، حاجتك؟

۱- . راجع: وسائل الشيعه: ۱۴، الباب ۲۵ و ۲۸ من أبواب مقدّمات النكاح.

۲- . لاحظ: بحار الأنوار: ۹۳/۴۳.

فمنع الخجل عليّاً من البوح بمطلبه وسكت، وأطرق برأسه إلى الأرض، حياء من النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم.

فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: لعلك جئت تخطب فاطمه؟ فأجاب عليٌّ عليه السلام بكلمات ضمّنها رغبته فى الزواج من فاطمه بنت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ولقد كان هذا النمط من الخطبه علامه واضحه لما كان بين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وبين على عليه السلام، من الاخوه والصفاء، ولما تحلّى به الجانبان من إخلاص وودّ. وما أروعها من ظاهره. حقاً أنّ المبادئ والأنظمه التربويه لم تستطع أن تعلّم الشباب الذين يقدمون على الخطبه إلى أحد مثل هذه الحريه، المقرونه بالتقوى، والإيمان والإخلاص.

لقد وافق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على طلب على عليه السلام وقال:

«يا علىّ أنّه لقد ذكرها قبلك رجال فذكرتُ ذلك لها فرأيتُ الكراهه فى وجهها، ولكن على رسلك حتّى أخرجَ إليك».

ثم دخل صلى الله عليه و آله و سلم على فاطمه، فذكر لها الأمر، وأنّ علياً عليه السلام خطبها إليه قائلاً: «إنّ على بن أبى طالب مَن قد عرفتِ قرابته، وفضله وإسلامه، وإنّى قد سألت ربّى أن يزوّجك خير خلقه، وأحبهم إليه، وقد ذكر من أمرك شيئاً فما ترين؟».

فسكتت فاطمه سلام اللّه عليها، ولم ير رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى وجهها كراهه، فقام وهو يقول:

«اللّهُ أكبر، سكوتُها إقرارها»(۱).

ولكن علياً عليه السلام لم يكن يملك آنذاك إلّاسيفاً، ودرعاً فقط.

۱- . لاحظ: أمالى الطوسى: ۴۰ برقم ۱۳ (۴۴)، المجلس الثانى؛ بحار الأنوار: ۹۳/۴۳، الحديث ۴.

قال علی: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: قم فبع الدرع، فقمت فبعته وأخذت الثمن، ودخلت علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فسکبت الدراهم فی حجره، فلم یسألنی کم هی ولا أنا أخبرته.

ثم قبض صلی الله علیه و آله و سلم قبضه (من الدراهم)، ودعا بلالاً فأعطاه فقال:

«ابتع لفاطمه طیباً».

ثم قبض رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من الدراهم بکلتا یدیه فأعطاه أبا بکر وقال: ابتع لفاطمه ما یصلحها من ثیاب وأثاث البیت، وأردفه بعمار بن یاسر وبعدّه من أصحابه.

ففعلا ذلک واشتریا ما أمرهما به رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فکان جهاز فاطمه کالتالی:

جهاز فاطمه

۱. قمیص بسبعه دراهم.

۲. خِمار(۱) بأربعه دراهم.

۳. قطیفه سوداء خیبریه لاتکفی لتغطیه کلّ البدن.

۴. سریر مزمل بشریط (أی مصنوع من جرید النخل وألیافه).

۵. فراشان من خیش(۲) مصر، حشو أحدهما لیف، وحشو الآخر من صوف الغنم.

۶. أربع مرافق(۳) اثنان من الصوف واثنان من اللیف.

۱- . الخمار: مقنعه.

۲- . الخیش: نسیج خشن من الکتان.

۳- . المرفقه: الوساده.

۷. ستر من صوف.

۸. حصير هجرى.(۱)

۹. رحى لليد.

۱۰. مخضب(۲) من نحاس.

۱۱. سقاء من أُدم.

۱۲. قعب للّبن.

۱۳. شنّ (۳) للماء.

۱۴. مطهره مزفّته(۴).

۱۵. جرّه خضراء.

۱۶. كيزان خزف.

فلمّا عرضوا المتاع على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جعل يقلّبه بيده ويقول: «بارك اللّه لأهل البيت»(۵).

إنّ فى مهر فاطمه أُموراً تدعو إلى التأمّل حقّاً، أبرزها مقدار ذلك المهر.

۱- . قال الفيروز آبادى فى القاموس المحيط: ۱۵۸/۲، ماده «هجر»: هجر - محرّكه - بلد باليمن بينه وبين عثر يوم وليله، والنسبه: هجرى وهاجرى، وقيل: اسم لجميع أرض البحرين، وقيل: قريه كانت قرب المدينه.

۲- . المخضب: اناء للمسك والطيب.

۳- . الشنّ: القربه.

۴- . أى مطليه بالزفت.

۵- . أمالى الطوسى: ۴۰ برقم ۱۴ (۴۵)، المجلس الثانى؛ بحار الأنوار: ۹۴/۴۳. ولاحظ: كشف الغمه: ۳۶۹/۱.

فمهرها هو مهر السنّه وهو خمسمائه درهم(۱).

إن هـذه الزيجه – فی الحقيقه – خير درس للآخرين، للفتيان والفتيات الـذين يئنّون من ثقل المهر وبهاضـته وربما يئنّون من قيود الزواج وشروطه.

إنّ البيئه الزوجيه يجب أن تكون – أساسـاً – بيئه دفء وحنـان، بيئه اخلاـص وموّده، بيئه سـلام ووفاق، فهـذا هو ما يسـعد الحياه الزوجيه ويوفّر للزوجين عيشاً هانئاً محبّباً.

أمّـا المهور الثقيله، والنفقـات البـاهضه والجهـاز المُكلِف فلاـ تؤدّی إلّاإلی تعكير صـفو الحياه الزوجيه، والتقليل من بريق الرابطه العائليه، وبالتالی لا تضمن مستقبل الزواج ودوامه، والمحافظه عليه من الهزّات.

إنّ أولياء الفتيات – فی عصـرنا الحاضـر – يعمدون بغيه دعم مكانه فتياتهم وتقويه مركزهنّ وضـمان مستقبلهنّ إلی فرض سلسله طويله وثقيله من الشـروط والقيود ومنهـا المهر البـاهض علی العريس حتّی لاـ يسـتطيع أن يقوم بطلاق زوجته تحت دوافع الهوی والشـهوه، أو كلّمـا سوّلت له نفسه ذلـك، علی حين أنّ هـذا الإجراء لا يضـمن بقاء الرابطه الزوجيه، ودوامها بل العلاج الحقيقی والناجـح هـو إصـلاح الوضع الأخلاـقی للشـباب، ورفع مسـتواهم المعنوی. يجب أن تكون بيئتنـا الثقـافيه والاجتمـاعيه من الطهر والنقاوه بحيث لا يوجد فی رحابها أمثال هذه النوازع الشّريره عند شبابنا، وإلّا لبلغ الأمر إلی نقطه تستعد فيه الفتاه إلی بذل مهرها للنجاه بنفسها من البيت الزوجی.

۱- . لاحظ: وسائل الشيعه: ۱۵، الباب ۴ من أبواب المهور.

مراسم الزواج تقام ببساطه

ثم بعد أن عقد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لعلى عليه السلام على فاطمه عليها السلام فى رحاب مسجده على مرأى ومسمع من المسلمين وفى جو يسوده الفرح والابتهاج والسرور قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لعلى عليه السلام: «هيّئ منزلاً- حتّى تحوَّل فاطمه إليه» فأخذوا منزل أحد الصحابه بصوره مؤقّته، وحوّلت فاطمه إلى على عليه السلام فى منزل ذلك الصحابى الجليل(۱)، فى زفاف جميل مبارك وقد صنع علىٌّ طعاماً من لحم وتمر وسمن وأطعم المسلمين جميعاً تقريباً، وساد الناس فرح عظيم لم يشهد له نظير.

عن ابن بابويه: أمر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بنات عبدالمطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين فى صحبه فاطمه عليها السلام وأن يفرحن، ويرجزن ويكبرن ويحمدن ولا يقلن ما لا يرضى اللّه.

قال جابر: فأركبها على ناقته - وفى روايه على بغلته الشهباء - وأخذ سلمان زمامها والنبىّ وحمزه وعقيل وجعفر وأهل البيت يمشون خلفها مشهرين سيوفهم ونساء النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم قدامها يرجزن، فأنشأت أُمّ سلمه تقول:

سرن بعون اللّه جاراتى واشكرنه فى كلّ حالات

واذكرنَ ما أنعم رب العُلى من كشف مكروه وآفات

فقد هدانا بعد كفر وقد أنعشنا رب السماوات

وسرن مع خير نساء الورى تفدى بعمّات وخالات(۲)

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لمّا دخلوا الدار أنفد إلى على عليه السلام ثم دعا فاطمه عليها السلام

۱- . لاحظ: إعلام الورى: ۱۶۱/۱؛ بحار الأنوار: ۱۱۳/۱۹.

۲- . بحار الأنوار: ۱۱۵/۴۳.

فأتت وهی تسحب أذیالها، وقد تصبّبت عرقاً حیاءً من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فعثرت فقال لها رسول اللّه: «أقالک اللّه العثره فی الدنیا والآخره». فلمّا وقفت بین یدیه کشف الرداء عن وجهها حتی رآها علی علیه السلام، ثم أخذ یدها فوضعها فی ید علی علیه السلام وقال:

«بارکَ اللّهُ لک فی ابنه رسول اللّه، یا علی نعم الزوجه فاطمه، ویا فاطمه نعم الزوج علی».(۱)

ثم أخذ بیده إناء فیه ماء وصب منه علی رأس فاطمه وبدنها ودعا لهما قائلاً:

«اللّهم اجمع شملهما، وألّف بین قلوبهما، واجعلهما وذریتهما من ورثهِ جنّهِ النعیمِ وارزقهما ذریهً طاهرهً طیبهً مبارکهً، واجعل فی ذریتهما البرکه، واجعلهم أئمهً یهدون بأمرک إلی طاعتِک، ویأمرون بما یرضیک».

وروی أنّه صلی الله علیه و آله و سلم قال: «اللّهم إنّهما أحبّ خلقک إلیّ، فأحبهما وبارک فی ذریتهما واجعل علیهما منک حافظاً، وإنّی أعیذهُما بک وذریتهما من الشیطان الرجیم»(۲).

وبذلک أبدی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من نفسه فی تلک اللیله صفاء وإخلاصاً لم یعرف له نظیر حتّی فی مجتمعاتنا الحاضره رغم ما حقّقته من تکامل ورشد.

ثم إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عدد لفاطمه فضائل علیّ کما ذکر لعلیّ فضائل فاطمه وإنّها «لولم یخلق علیّ ما کان لفاطمه کفؤ»(۳). ثم ذکر لهما وظائفهما وواجباتهما

۱- . بحار الأنوار: ۹۶/۴۳.

۲- . بحار الأنوار: ۱۱۷/۴۳.

۳- . ینابیع المودّه للقندوزی: ۶۷/۲ برقم ۵۶، وص ۸۰ برقم ۹۸، وص ۲۸۶ برقم ۸۱۹؛ بحارالأنوار: ۷۷/۴۰.

العائليه فأوكل إلى فاطمه ما هو فى داخل البيت من شؤون وأوكل إلى علىّ ما هو من شؤون الخارج.

ولابدّ أن نذكر هنا قصّه هامّه أداء لحقّ فاطمه، وبياناً لمقامها.

يقول أنس بن مالك: إنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كان يمر ببيت فاطمه سته أشهر إذا خرج إلى الفجر فيقول:

«الصلاه يا أهل البيت، إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً»(۱).

هـذا وقـد كانت هذه الزيجه أفضل زيجه فى الإسـلام وأكثرها بركه وخيراً، فقد عاش هذان القرينان الطاهران جنباً إلى جنب فى وئام ووداد، فى حياه زوجيه طاهره يسودها الاحترام المتقابل، والإخلاص الكامل من بدايتها إلى نهايتها.

وقـد أنجبـا أفضل الأولاد والبنات، أبرزهم: الإمام الحسن والإمام الحسـين عليهما السـلام سـبطا رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم الأثيران لـديه، والمقرّبان إليه، وزينب بنت على الّتى رافقت أخاها فى وقعه كربلاء الـداميه وكان لها مواقف عظيمه ومشـرّفه فى الرعايه للحقّ والعدل، ونصره الإسلام، وغيرهم من الأولاد ذكوراً وإناثاً.

وقـد بقى كلا الزوجين (على وفاطمه) حتّى آخر اللحظات عارفين بمكانه الآخر، فكلاهما من أهل البيت الـذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وكلاهمـا من القربى الـذين أمر بمـودّتهم، ولهـذا لم يـتزوّج على عليه السـلام على الزهراء امرأه أُخرى إلّابعد وفاتها، كما فعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالنسبه إلى خديجه، وفاء لحقّها، واحتراماً لمقامها.

۱- . مسند أحمد: ۲۵۹/۳؛ المصنّف لابن أبى شيبه: ۵۲۷/۷ برقم ۴؛ تفسير الطبرى: ۹/۲۲ برقم ۲۱۷۲۹.

محاولات يائسه للنيل من على وفاطمه عليهما السلام

لكن بعض الأيادى دسّت - مع الأسف - فى التاريخ أباطيل للتقليل من شأن هذين الزوجين الطاهرين، والحطّ من مكانتهما، فنسبت إليهما التنازع، والتشاجر، أو نسبت إلى فاطمه شكايه علىّ عليه السلام إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأوردت فى هذا المجال روايات مختلقه، لا أساس لها من الصحّه، تفندها أخلاق على وفاطمه وتقواهما وزهدهما، وتكذّبُها ما جاء فى شأنهما وجلاله قدرهما من الآيات القرآنيه والأحاديث النبويه.

وقد استند أعداء الإسلام التقليديون إلى أمثال هذه الروايات لمسخ صوره الإسلام الحنيف وتشويه سمعه رجاله العظماء ونسائه الخالدات الطيبات.

فهذا هو المستشرق النصرانى الحاقد الأُستاذ إميل در منغم فى كتابه الملىء بالأباطيل: «حياه محمّد» ترجمه الأُستاذ محمّد عادل زعيتر بعد أن يلصق برسول الإسلام تهماً عجيبه ويصفه بالبدوىّ الحمس، يقع فى على وفاطمه عليهما السلام!!

فتاره يقول: كانت فاطمه عابسه دون رقيه جمالاً ودون زينب ذكاءً، وإنّها لم تكن ترغب فى علىّ لأنّها كانت تعدّ علياً دميماً محدوداً مع عظيم شجاعته!! وإنّ علياً كان غير بهىّ الوجه.. و... و.. مع أنّه كان تقياً شجاعاً صادقاً وفياً مخلصاً صالحاً مع توانٍ وتردد!!

وكان إذا عاد إلى منزله من العمل بشىء من القوت قال لزوجته فاطمه عابساً:

كلى واطعمى الأولاد!! وكان على يحرد(۱) بعد كلّ منافره ويذهب لينام فى المسجد، وكان حموه يربّته على كتفه ويعظه ويوفّق بينه وبين فاطمه إلى حين،

۱- . حرد يحرد حروداً: إذا ترك أهله وقومه وتحوّل عنهم. صحاح الجوهرى: ۴۶۴/۲، ماده «حرد».

وممّا حدث أن رأى النبيّ ابنته فی بيته ذات مره وهی تبکی من لکم علیّ لها!!

ثم يقول: إنّ محمّداً – مع امتداحه قدمَ علی فی الإسلام إرضاءً لابنته – کان قليل الالتفات إليه وکان صهرا النبيّ الأمويان: عثمان الکريم وأبو العاص أکثر مداراةً للنبيّ من علیّ، وکان علیٌ يألم من عدم عمل النبيّ علی سعاده ابنته، ومن عدّ النبيّ له غير قوّامٍ بجليل الأعمال، فالنبيّ وإن کان يفوّض إليه ضرب الرقاب کان يتجنّب تسليم قياده إليه!!(۱)

إلی غير ذلک من الترّهات والسخافات الّتی ألصقها تاره برسول اللّه الأکرم محمّد صلی الله عليه و آله و سلم، وأُخری بحبيبه وابن عمه ووصيّه الإمام علی بن أبی طالب عليه السلام.

العلّامه الأمينی يرد علی افتراءات المستشرق النصرانی الحاقد

إنّ أفضل إجابه عن هذه الافتعالات هو ما کتبه العلّامه الأمينی حيث يقول:

کلّ ما فی الکتاب من تلکم الأقوال المختلقه، والنسب المفتعله إن هی إلّا کلم الطائش، تخالف التاريخ الصحيح، وتضادّ ما أصفقت عليه الأُمّه الإسلاميّه، وما أخبر به نبيّها الأقدس.

هل تناسب تقوّلاته فی فاطمه مع قول أبيها صلی الله عليه و آله و سلم: «فاطمه حوراء إنسيّه کلّما اشتقتُ إلی الجنّه قبّلتها؟!»(۲).

أو قوله صلی الله عليه و آله و سلم: «ابنتی فاطمه حوراء آدميّه؟!»(۳).

۱- . هذه المقتطفات أُخذت من کتاب حياه محمّد: ۱۹۷-۱۹۹. ولاحظ الغدير: ۱۶/۳-۱۷.

۲- . تاريخ الخطيب البغدادی: ۲۹۳/۵؛ کشف الغمه: ۸۷/۲.

۳- . الصواعق المحرقه: ۱۶۰، الباب الحادی عشر؛ کنز العمال: ۱۰۹/۲ برقم ۳۴۲۲۶؛ ينابيع الموده: ۱۲۱/۲ برقم ۳۵۴، وص ۴۵۰ برقم ۲۴۳.

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «فاطمه هى الزهره؟»(۱).

أو قول أُمّ أنس بن مالك: كانت فاطمه كالقمر ليله البدر، أو الشمس كفّر غماماً، إذا خرج من السحاب، بيضاء مشربه حمره، لها شعر أسود، من أشدِّ الناس برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم شبهاً، واللّه كما قال الشاعر:

بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو جثلٌ أسحمٌ (۲)

فكأنَّها فيه نهارٌ مشرقٌ وكأنَّه ليلٌ عليها مظلم(۳)

ولقبها الزهراء المتسالم عليه يكشف عن جليَّه الحال.

وهل يساعد تلك التحكّمات فى ذكاء فاطمه وخلقها قول أُمّ المؤمنين خديجه (رضى اللّه عنها): كانت فاطمه تحدِّث فى بطن أُمِّها، ولمّا ولدت فوقعت حين وقعت على الأرض ساجدهً رافعهً إصبعها؟!(۴). أو يلائمها قول عائشه: ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ودلاً وهدياً وحديثاً برسول اللّه فى قيامه وقعوده من فاطمه، وكانت إذا دخلت على رسول اللّه قام إليها فقبّلها ورحَّب بها، وأخذ بيدها وأجلسها فى مجلسه؟!(۵).

وفى لفظ البيهقى فى السنن: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من

۱- . نزهه المجالس لعبد الرحمن الصفورى الشافعى (المتوفّى ۶۵۸ ه): ۲۲۲/۲؛ أمالى الطوسى: ۵۱۷ برقم ۳۸ (۱۱۳۱)، المجلس الثامن عشر.

۲- . جثل الشعر: كثر والتف واسودّ فهو جثل، سحم فهو اسحم: اسود.

۳- . مستدرك الحاكم: ۱۶۱/۳؛ مقتل الحسين: ۷۰، ط الغرى؛ تاريخ جرجان لحمزه بن يوسف السهمى (المتوفّى ۴۲۷ ه): ۱۷۱.

۴- . ذخائر العقبى للطبرى: ۴۵؛ نزهه المجالس: ۲۲۷/۲؛ ينابيع المودّه للقندوزى: ۱۳۵/۲.

۵- . سنن الترمذى: ۳۶۱/۵ برقم ۳۹۶۴، باب ما جاء فى فضل فاطمه عليها السلام؛ مستدرك الحاكم: ۲۷۲/۴؛ مطالب السؤول لابن طلحه: ۳۶؛ ذخائر العقبى: ۴۰-۴۱.

فاطمه برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم. الحديث.(۱)

وهل توافق مخاريقه فى الإمام علىّ صلوات اللّه عليه، وعدم بهاء وجهه، وعدّ فاطمه له دميماً وكونه عابساً مع ماجاء فى جماله البهىّ: إنّه كان حسن الوجه كأنّه قمر ليله البدر، وكأنّ عنقه إبريق فضّه(۲) ضحوك السنّ (۳) فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم؟!(۴)

وأين هى من قول أبى الأسود الدؤلى من أبيات له؟!:

إذا استقبلتَ وجه أبى تراب رأيتَ البدر حار الناظرينا(۵)

نعم:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا فضله فالناس أعداءٌ له وخصومُ

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً: إنّه لدميمُ

أو يَخبرك ضميرك الحرّ فى على ما سلقه الرجل به من (التوانى والتردُّد)؟!

وعلىٌّ ذلك المتقحم فى الأهوال، والضارب فى الأوساط والأعراض فى المغازى والحروب؛ وهو الّذى كشف الكرب عن وجه رسول اللّه فى كلّ نازله وكارثه منذ صدع بالدين الحنيف، إلى أن بات على فراشه وفداه بنفسه، إلى أن سكن مقرَّه الأخير.

۱- . سنن البيهقى: ۱۰۱/۷؛ مستدرك الحاكم: ۱۵۴/۳؛ صحيح ابن حبّان: ۴۰۳/۱۵.

۲- . كتاب صفّين: ۲۳۳؛ الاستيعاب: ۱۱۲۳/۳؛ الرياض النضره: ۱۰۷/۳؛ كشف الغمه: ۷۶/۱؛ الفصول المهمه: ۵۹۸/۱؛ ذخائر العقبى: ۵۷.

۳- . تهذيب الأسماء واللغات للنووى: ۳۴۹/۱؛ أُسد الغابه: ۳۹/۴؛ ينابيع المودّه: ۱۴۶/۳.

۴- . حليه الأولياء: ۸۴/۱؛ تاريخ ابن عساكر: ۴۰۱/۲۴-۴۰۲، المحاسن والمساوئ: ۳۲/۱؛ نظم درر السمطين للزرندى الحنفى: ۱۳۵؛ مطالب السؤول: ۱۸۰.

۵- . تذكره السبط: ص ۱۰۴؛ الوافى بالوفيات للصفدى: ۱۸۲/۲۱.

أليس علىٌّ هو ذلك المجاهد الوحيد الّذى نزل فيه قوله تعالى: «أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِى سَبِيلِ اللّهِ» (۱). وقوله تعالى: «وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ» (۲).(۳)

فمتى خلا علىٌّ عن مقارعه الرجال والـذبِّ عن قـدس صاحب الرّساله حتّى يصحّ أن يُعزى إليه توان أو تردّد فى أمر من الأُمور؟! غير أنّ القول الباطل لا حدَّ له ولا أمد.

وهل يتصوَّر فى أميرالمؤمنين تلك العشره السيّئه مع حليلته الطاهره؟! والنبىُّ يقول له: «أشبهت خَلقى وخُلقى وأنت من شجرتى الّتى أنا منها»(۴).

وكيف يراه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أفضل أُمَّته وأعظمهم حلماً، وأحسنهم خلقاً، ويقول:

«علىٌّ خير أُمَّتى أعلمهم علماً وأفضلهم حلماً»؟!(۵).

ويقول لفاطمه: «إنّى زوَّجتكِ أقدم أُمَّتى سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلماً»؟!(۶).

ويقول لها: «زوّجتكِ أقدمهم سلماً، وأحسنهم خُلقاً»؟!(۷).

يقول هذه كلّها وعشرته تلك كانت بمرأى منه ومسمع؟! أفك الدجّالون، لقد

۱- . التوبه: ۱۹.

۲- . البقره: ۲۰۷.

۳- . راجع: «الغدير»: ۱۶/۳-۱۹.

۴- . الغدير: ۲۰/۳ نقلاً عن تاريخ بغداد للخطيب: ۱۷۱/۱۱، برقم ۵۸۷۰.

۵- . الغدير: ۲۰/۳.

۶- . مسند أحمد: ۲۶/۵، الرياض النضره: ۱۶۰/۳؛ ذخائر العقبى: ۷۸؛ مجمع الزوائد: ۱۱۴/۹، وصحّحه ووثّق رجاله؛ كشف الغمه: ۸۴/۱ و ۱۱۴ و ۱۴۸؛ تاريخ مدينه دمشق: ۱۲۶/۴۲.

۷- . أخرجه أبو الخير الحاكمى كما فى الرياض النضره: ۱۴۴/۳، وفيه: أقدمهم إسلاماً.

كان علیٌّ علیه السلام کما أخبر به النبیُّ الصادق الأمین.

وهل یقبل شعورک ما قذف به الرجل (فضَّ اللّه فاه) علیّاً بلکم فاطمه بضعه المصطفی؟! وعلیٌّ هو ذاک المقتص أثر الرسول وملأ مسامعه قوله صلی الله علیه و آله و سلم لفاطمه:

«إنّ اللّه یغضب لغضبکِ، ویرضی لرضاکِ»(۱).

وقوله صلی الله علیه و آله و سلم وهو آخذ بیدها: «مَن عرف هذه فقد عرفها، ومَن لم یعرفها فهی بضعهٌ منّی، هی قلبی وروحی الّتی بین جنبیَّ، فمَن آذاها فقد آذانی»(۲).

وقوله صلی الله علیه و آله و سلم: «فاطمه بضعهٌ منّی، یریبنی ما رابها، ویؤذینی ما آذاها»(۳).

وقوله صلی الله علیه و آله و سلم: «فاطمه بضعهٌ منی، فمن أغضبها فقد أغضبنی»(۴).

وقوله صلی الله علیه و آله و سلم: «فاطمه بضعهٌ منّی، یقبضنی ما یقبضها، ویبسطنی ما یبسطها»(۵).

وهل یقصر امتداح النبیّ علیّاً بقدم إسلامه؟! حتّی یتفلسف فی سرِّه ویکون

۱- . مستدرک الحاکم: ۱۵۴/۳ و صحّحه؛ مجمع الزوائد: ۲۰۳/۹؛ ذخائر العقبی: ۳۹؛ تذکره السبط: ۱۷۵، مقتل الخوارزمی: ۵۲/۱، کفایه الطالب: ۲۱۹؛ کنز العمال: ۶۷۴/۱۳ برقم ۳۷۷۲۵، عن الحاکم وابن النجار؛ میزان الاعتدال: ۴۹۲/۲ برقم ۴۵۶۰؛ الإصابه: ۲۶۶/۸؛ الصواعق المحرقه: ۱۷۵؛ الإسعاف: ۱۷۱ عن الطبرانی؛ ینابیع الموده: ۵۷/۲ برقم ۳۳، و ص ۱۳۲ برقم ۳۷۵، و ص ۴۶۴ برقم ۲۹۳.

۲- . الفصول المهمه: ۶۶۴/۱؛ کشف الغمه: ۹۴/۲؛ نور الابصار: ۴۵.

۳- . صحیح مسلم: ۱۴۱/۷، باب فضائل فاطمه؛ سنن ابن ماجه: ۶۴۴/۱ برقم ۱۹۹۸.

۴- . صحیح البخاری: ۲۱۹/۴، باب مناقب فاطمه علیها السلام؛ ینابیع الموده: ۵۲/۲.

۵- . مستدرک الحاکم: ۱۵۸/۳؛ ینابیع المودّه: ۹۸/۲ برقم ۲۴۴؛ الصواعق المحرقه: ۱۸۸.

ذلک إرضاءً لابنته، علی أنّ امتداحه بذلک لو کان لتلک المزعمه لکان یقتصر صلی الله علیه و آله و سلم علی قوله لفاطمه فی ذلک وکان یتأتّی الغرض به، فلماذا کان یأخذ صلی الله علیه و آله و سلم بید علیٍّ فی الملأ الصحابی تارهً ویقول: «إنَّ هذا أوَّل مَن آمن بی، وهذا أوّل مَن یصافحنی یوم القیامه؟» ولماذا کان یخاطب أصحابه أُخری بقوله: «أوّلکم وارداً علیَّ الحوض أوّلکم إسلاماً علیّ بن أبی طالب»؟!

وکیف خفی هذا السرّ المختلق علی الصحابه الحضور والتابعین لهم بإحسان فطفقوا یمدحونه علیه السلام بهذه الإثاره کما یروی عن: سلمان الفارسی، أنس بن مالک، زید بن أرقم، عبداللّه بن عبّاس، عبداللّه بن حجل، هاشم بن عتبه، مالک الأشتر، عبداللّه بن هاشم، محمد بن أبی بکر، عمرو بن الحمق، أبوعمره عدیّ بن حاتم، أبی رافع، بریده، جندب بن زهیر، أُمّ الخیر بنت الحریش.

وهل القول بقلّه إلتفات النبیّ إلی علیّ یساعده القرآن الناطق بأنَّه نفس النبیِّ الطاهر؟! أو جعل مودَّته أجر رسالته؟!

أو قوله صلی الله علیه و آله و سلم فی حدیث الطیر المشویِّ الصحیح المرویّ فی الصحاح والمسانید: اللّهم أئتنی بأحبِّ خلقک إلیک لیأکل معی؟![(۱)]

أو قوله صلی الله علیه و آله و سلم لعائشه: «إنّ علیّاً أحبّ الرجال إلیَّ، وأکرمهم علیّ، فاعرفی له حقّه وأکرمی مثواه؟!»[(۲)].

۱- . لاحظ: السنن الکبری للنسائی: ۱۰۷/۵ برقم ۸۳۹۸؛ سنن الترمذی: ۳۰۰/۵ برقم ۳۸۰۵؛ مستدرک الحاکم: ۱۳۰/۳ وصحّحه وقال: وقد رواه عن أنس جماعه من أصحابه زیاده علی ثلاثین نفساً ثم صحّت الروایه عن علی وأبی سعید الخدری وسفینه؛ مجمع الزوائد: ۱۲۶/۹؛ الریاض النضره: ۱۱۴/۳؛ مطالب السؤول: ۸۹...

۲- . أخرجه الحافظ الخجندی کما فی الریاض: ۱۱۶/۳، وذخائر العقبی: ۶۲؛ أُسد الغابه: ۵۴۸/۵؛ ینابیع المودّه: ۲۴۵/۱ برقم ۲۴.

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «أحبّ الناس إلیّ من الرجال علیٌّ؟!».

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «علیٌّ خير من أتركه بعدی؟!»(۱).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «خير رجالكم علیٌّ بن أبی طالب، وخير نسائكم فاطمه بنت محمّد»؟!(۲).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «علیٌّ خير البشر فمن أبی فقد كفر»(۳).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «مَن لم يقل علیٌّ خير الناس فقد كفر؟!»(۴).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: فی حديث الرايه المتّفق عليه: «لأُعطينَّ الرايه غداً رجلاً يحبّه اللّه ورسوله ويحبّ اللّه ورسوله»؟(۵)

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «علیٌّ منّی بمنزله الرأس (رأسی) من بدنی أو جسدی»؟(۶).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «علیٌّ منّی بمنزلتی من ربّی؟»(۷).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «علیٌّ أحبّهم إلیَّ وأحبّهم إلى اللّه»(۸).

۱- . لاحظ: مجمع الزوائد: ۱۱۳/۹؛ شرح نهج البلاغه لابن أبی الحديد: ۲۲۸/۱۳؛ كنز العمال: ۶۱۰/۱۱ برقم ۳۲۹۵۲؛ شواهد التنزيل للحسكانی: ۹۸/۱ برقم ۱۱۵؛ كشف الغمه: ۱۵۶/۱ و ۱۵۷.

۲- . تاريخ بغداد للخطيب: ۱۵۷/۵ برقم ۲۵۹۵؛ تاريخ مدينه دمشق: ۱۶۷/۱۴؛ ينابيع الموّده: ۲۷۵/۲ برقم ۷۸۸؛ مناقب ابن شهر آشوب: ۲۶۸/۲.

۳- . تاريخ مدينه دمشق: ۳۷۲/۴۲ و ۳۷۳؛ مناقب علی لابن مردويه الاصفهانی: ۱۰۹ برقم ۱۲۲؛ كشف الغمّه: ۱۵۵/۱؛ ينابيع الموده: ۷۸/۲ برقم ۸۰ و ۸۱ و ص ۲۷۳ برقم ۷۷۹ و ۷۸۴.

۴- . تاريخ الخطيب البغدادی: ۴۰۹/۳، عن ابن مسعود؛ كنزالعمال: ۶۲۵/۱۱ برقم ۳۳۰۴۶؛ تاريخ مدينه دمشق: ۳۷۲/۴۲.

۵- . صحيح البخاری: ۲۰۷/۴، باب مناقب علی.

۶- . الجامع الصغير للسيوطی: ۱۷۷/۲ برقم ۵۵۹۶؛ كنز العمال: ۶۰۳/۱۱ برقم ۳۲۹۱۴؛ فيض القدير للمناوی: ۴۷۱/۴؛ كشف الغمه: ۳۰۰/۱؛ ينابيع الموّده: ۱۶۷/۱ برقم ۶ و ج ۷۷/۲ برقم ۷۲.

۷- . الرياض النضره: ۱۱۹/۳؛ ذخائر العقبی: ۶۴.

۸- . تاريخ الخطيب البغدادی: ۱۷۲/۱.

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم لعلیّ: «أنا منك وأنت منی. أو: أنت منّی وأنا منك»؟(۱).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «علیٌّ منّی وأنا منه(۲)، وهو ولیُّ کلّ مؤمن بعدی»؟(۳).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم فی حدیث البعث بسوره البراءه المجمع علی صحّته: «لا یذهب بها إلّارجلٌ منّی وأنا منه»(۴).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «لحمك لحمی ودمك دمی والحقُّ معك»؟(۵).

أو قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «ما من نبیّ إلّاوله نظیر فی أُمَّته وعلیٌّ نظیری»؟(۶).

أو ما صحَّحه الحاکم وأخرجه الطبرانی عن أُمّ سلمه قالت: کان رسول اللّه

۱- . صحیح البخاری: ۱۶۸/۳، کتاب الصلح، باب کیف یکتب. و ج ۲۰۷/۴، باب مناقب علی، و ج ۸۵/۵، باب عمره القضاء.

۲- . مسند أحمد: ۱۶۴/۴ و ۱۶۵؛ سنن ابن ماجه: ۴۴/۱ برقم ۱۱۹؛ فضائل الصحابه للنسائی: ۱۵.

۳- . مسند أحمد: ۴۳۸/۴؛ مستدرک الحاکم: ۱۳۴/۳؛ مجمع الزوائد: ۱۲۰/۹؛ مسند أبی داود الطیالسی: ۱۱۱ و ۳۶۰؛ المصنّف لابن أبی شیبه: ۵۰۴/۷ برقم ۵۸؛ السنن الکبری للنسائی: ۱۳۲/۵ برقم ۸۴۷۳؛ خصائص النسائی: ۹۸؛ مسند أبی یعلی الموصلی: ۲۹۳/۱؛ صحیح ابن حبّان: ۳۷۴/۱۵؛ الریاض النضره: ۱۲۹/۳؛ تاریخ مدینه دمشق: ۱۹۸/۴۲ و ۱۹۹؛ میزان الاعتدال: ۴۱۰/۱؛ تاریخ الإسلام للذهبی: ۶۳۱/۳ و ج ۷۱/۱۱؛ کشف الغمه: ۱۷۷/۱ و ۲۹۵؛ ینابیع المودّه: ۱۷۱/۱ برقم ۱۶ و ص ۱۷۲ برقم ۲۰؛ ذخائر العقبی: ۶۸ و ۸۷. وقد أفتی ابن تیمیه بتضعیف هذا الحدیث وتکذیبه فی منهاج السنّه: ۳۵/۵-۳۶ و ج ۳۹۱/۷ وللمؤلّف بحث مفصّل فی الرد علی ابن تیمیه. راجع ابن تیمیه فکراً ومنهجاً: ۲۹۹-۳۰۲.

۴- . مسند أحمد: ۳۳۱/۱؛ مجمع الزوائد: ۱۱۹/۹؛ خصائص أمیر المؤمنین علیه السلام للنسائی: ۶۳؛ الریاض النضره: ۱۷۴/۳؛ ینابیع المودّه: ۱۱۱/۱.

۵- . الغدیر: ۲۳/۳؛ إحقاق الحق: ۳۵۶/۲۲؛ توضیح الدلائل للشافعی الشیرازی: ۱۷۶؛ آل محمد لحسام الدین المردی الحنفی: ۳۷۰ نقلاً عن إحقاق الحق: ۳۵۶/۲۲-۳۵۸.

۶- . الریاض النضره: ۱۲۰/۳؛ جواهر المطالب فی مناقب الإمام علی: ۶۱/۱؛ ینابیع المودّه: ۱۵۴/۲ برقم ۴۳۰.

إذا أغضب لم يجترئ أحدٌ أن يكلّمه غير عليّ؟(۱).

أو قول عائشه: واللّه ما رأيت أحداً أحبَّ إلى رسول اللّه من عليّ ولا فى الأرض امرأه كانت أحبُّ إليه من امرأته؟(۲).

أو قول بريده وأُبيّ: أحبُّ الناس إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من النساء فاطمه، ومن الرجال عليٌّ؟!(۳).

أو حديث جُميع بن عمير قال: دخلت مع عمَّتى على عائشه فسألت أيَّ الناس أحبّ إلى رسول اللّه؟! قالت: فاطمه. فقيل: مِن الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمت صوّاماً قوّاماً(۴).

وكيف كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يُقدِّم الغير على عليّ فى الإلتفات إليه؟! وهو أوَّل رجل إختاره اللّه بعده من أهل الأرض لمّا اطّلع عليهم كما أخبر به صلى الله عليه و آله و سلم فاطمه بقوله: «إنّ اللّه اطَّلع على أهل الأرض فاختار منه أباك فبعثه نبيّاً، ثمّ اطَّلع الثانيه فاختار بعلكِ فأوحى إلىَّ فأنكحته واتّخذته وصيّاً»(۵).

وبقوله صلى الله عليه و آله و سلم: «إنّ اللّه اختار من أهل الأرض رجلين أحدهما أبوكِ والآخر

۱- . مستدرک الحاکم: ۱۳۰/۳؛ أنساب الأشراف: ۱۰۷/۲.

۲- . مستدرک الحاکم: ۱۵۴/۳ وصحّحه؛ مسند أبی یعلی الموصلی: ۲۷۰/۸؛ خصائص النسائی: ۱۰۹، الریاض النضره: ۱۱۶/۳.

۳- . خصائص النسائی: ۱۱۰؛ مستدرک الحاکم: ۱۵۵/۳، صحّحه هو والذهبی.

۴- . سنن الترمذی: ۳۶۲/۵ برقم ۳۹۶۵؛ مستدرک الحاکم: ۱۵۷/۳؛ الریاض النضره: ۱۱۵/۳؛ تاریخ مدینه دمشق: ۲۶۳/۴۲.

۵- . أخرجه الطبرانی عن أبی أیوب الأنصاری: ۱۷۱/۴؛ کنز العمال: ۶۰۴/۱۱ برقم ۳۲۹۲۳؛ وأخرجه الهیثمی فی مجمع الزوائد: ۱۶۵/۹ عن علی الهلالی.

زوجكِ»(۱).

وإنّی لا یسعنی المجال لتحلیل کلمه الرجل: وکان صهرا النبیّ الأمویّان...

إلـخ، وحسـبک فی مـداراه عثمـان الکریم حـدیث أنس عن رسول اللّه لمّا شـهد دفن رقیّه ابنته العزیزه وقعـد علی قبرها ودمعت عیناه فقال: أیّکم لما یُقارف اللیله أهله؟! فقال أبو طلحه: أنا فأمره أن ینزل فی قبرها.

قال ابن بطّال: أراد النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم أن یحرم عثمان النزول فی قبرها وقد کان أحقّ الناس بذلک لأنّه کان بعلها وفقـد منها علقاً لا عوض منه، لأنّه حین قال علیه السـلام أیّکم لم یُقارف اللیله أهله؟! سـکت عثمان ولم یقل: أنا. لأنّه قـد قارف لیله ماتت بعض نسائه، ولم یشغله الهمُّ بالمصیبه وانقطاع صهره من النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم عن المقارفه، فحرم بذلک ما کان حقّاً له وکان أولی به من أبی طلحه وغیره. وهذا بیّنٌ فی معنی الحدیث ولعلّ النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم قد کان علم ذلک بالوحی فلم یقل له شیئاً، لأنّه فعل فعلاً حلالاً، غیر أنَّ المصیبه لم تبلغ منه مبلغاً یشغله حتّی حرم ما حرم من ذلک بتعریض غیر صریح(۲). وما عسانی أن أقول فی أبی العاص الّـذی کان علی شـرکه إلی عام الحدیبیّه، وأُسـر مع المشـرکین مرّتین، وفرّق الإسـلام بینه وبین زوجته زینب بنت النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم ستَّ سـنین، وهاجرت مسـلمه وترکته لشرکه، ولم ترد قطّ بعد إسلامه کلمه تُعرب عن صلته مع النبیّ ومداراته له فضلاً عن مقایسته بعلیٍّ أبی ذُرِّیَّته وسیّد عترته.

وقد اتّهم الرجل نبیّ الإسلام بعدم العمل علی سعاده ابنته الطاهره المطهّره

۱- . المعجم الکبیر للطبرانی: ۷۷/۱۱؛ کنز العمال: ۱۰۸/۱۳ برقم ۳۶۳۵۵؛ تاریخ بغداد: ۴۱۸/۴؛ تاریخ مدینه دمشق: ۱۳۵/۴۲.

۲- . الروض الأنف: ۱۲۷/۳-۱۲۸.

بنصّ الكتاب العزيز، ويقذف عليّاً بالتألّم من ذلك، وكان صلى الله عليه و آله و سلم إذا أصبح أتى باب عليٍّ وفاطمه وهو يقول: «يرحمكم اللّه إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً». وكان لم يزل يقول: «فاطمه أحبّ الناس إليّ».

ويقول: «أحبّ الناس إليَّ من النساء فاطمه».

ويقول: «أحبُّ أهلى إليَّ فاطمه».

وكان عمر يقول لفاطمه: واللّه ما رأيت أحداً أحبَّ إلى رسول اللّه منكِ (۱).

وما أقبح الرجل فى تقوّله على النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بعدّه لعليٍّ غير قوّام بجليل الأعمال. وقد وازره وناصره وعاضده بتمام معنى الكلمه بكلِّ حول وطول من بدء دعوته إلى آخر نفس لفظه، فصار بذلك له نفساً وأخاً ووزيراً ووصيّاً وخليفهً ووارثاً ووليّاً بعده، وكان قائده الوحيد فى حروبه ومغازيه، وهو ذلك الملقَّب بقائد الغُرّ المحجّلين وحياً من اللّه العزيز فى ليله أسرى بنبيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى(۲).(۳)

العقّاد والنيل من فاطمه عليها السلام

ممّا يُعجب بل ويؤسف أن نجد العقاد كاتب النيل الكبير يذهب هذا المذهب، وينحو هذا المنحى ذاته من سيده نساء العالمين فاطمه بنت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأُمّ الإمامين الهمامين الحسن والحسين عليهما السلام، فيسطر فى كتابه «فاطمه

۱- . مستدرک الحاکم: ۱۵۵/۳ وصحّحه؛ کنز العمال: ۶۷۴/۱۳ برقم ۳۷۷۲۴.

۲- . مستدرک الحاکم: ۱۳۸/۳ وصحّحه؛ الریاض النضره: ۱۳۷/۳؛ کشف الغمه: ۱۸/۲؛ الفصول المهمّه لابن الصبّاغ المالکی: ۵۷۳.

۳- . لاحظ: الغدیر: ۱۹/۳-۲۵.

الزهراء والفاطميّون»(۱) شيئاً من هذه العبارات والمقالات التافهه الّتى لا يليق بكاتب مثله عرف بالتحقيق والفهم، أن يدرجها فى مؤلّفه.

ولا يجاب على ما كتبه العقّاد ومن حذا حذوه إلّابما مرّ فى كلام العلّامه والمحقّق الخبير الأمينى رحمه الله. ففيه كفايه لمن تحرّى الحقيقه عن أهل البيت عليهم السلام.

هذا وينبغى أن نذكّر القارئ الكريم بنفس ما كتبه العقّاد فى كتابه وممّا يعتبر شهاده دامغه تفنّد ما بدر منه من قول غير لائق فى شأن علىّ والزهراء، فهو يقول:

فى كلّ دين صوره للأُنوثه الكامله المقدّسه يتخشّع بتقديسها المؤمنون كأنّما هى آيه اللّه فيما خلق من ذكر وأُنثى.

فإذا تقدّست فى المسيحيه مريم العذراء، ففى الإسلام لاجرم تتقدّس صوره فاطمه البتول.

ثم يقول: من الواضح البيّن أنّ الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء فى التاريخ؛ لأنّها بنت نبى وزوجه إمام وأُمّ شهداء(۲).

فإذا كانت هذه هى صوره الزهراء البتول، فكيف يصدّق العقل ما حاكته أيدى الدسّ فى تاريخ هاتين القمّتين الطاهرتين من قمم الإسلام الشامخه؟!

۱- . راجع: فاطمه الزهراء والفاطميّون: ۳۲ و ۳۳.

۲- . راجع: فاطمه الزهراء والفاطميّون: ۵۱ و ۵۲.

۳۲ جرائم «بنی قینقاع»

اشاره

کانت معرکه «بدر» بمثابه طوفان شدید ضدّ الوثنیه فی قلب شبه الجزیره العربیه.

طوفان اقتلع بعض جذور الوثنیه العریقه، فقد قُتِلَ طائفه من صناديد قریش، وأُسرت أُخری وهرب الباقون بمنتهی الذل والصغار، وانتشر خبر هزیمه جیش قریش المتغطرس فی جمیع أنحاء وربوع الجزیره العربیه.

ولکن ساد بعد هذا الطوفان المرعب، شیء من الهدوء المقرون بالاضطراب والقلق، هدوء کان منشؤه التفکیر فی مستقبل شبه الجزیره العام وما تخبّئه الأیام القادمه لسکانّها علی أثر التحوّل الجدید.

وکانت مخاوف القبائل الوثنیه، ویهود یثرب الأثریاء ویهود خیبر ووادی القری تزداد یوماً بعد یوم من تقدّم الإسلام المطرّد، وتعاظم شوکته، واشتداد أمر حکومته الفتیه، وکان جمیع هؤلاء یجدون مستقبلهم مهدّداً بخطر جدیّ، فإنّهم لم یتوقّعوا أن یکسب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم المهاجر من مکّه کلّ هذه النجاحات الباهره، وأن یبلغ من القوّه ذلک المبلغ، بحیث یقهر بقواه المحدوده قوّه قریش الکبری

ص:۱۳۹

ویکسر شوکتها العریقه!!

وکان یهود بنی قینقاع الذین یقطنون داخل المدینه، ویمسکون بخیوط اقتصادها، أشدَّ خوفاً من غیرهم، وأکثر قلقاً علی مستقبل أمرهم، لأنّهم کانوا یخالطون المسلمین مخالطه کامله، وکان وضعهم یختلف عن وضع یهود خیبر ووادی القری الذین کانوا یعیشون خارج المدینه بعیداً عن مرکز قوه المسلمین ومنطقه حاکمیتهم!!

من هنا بدأ یهود بنی قینقاع قبل غیرهم من طوائف الیهود العائشه فی تلک الدیار بتدبیر المؤامرات، وممارسه الأعمال الإیذائیه ضدّ المسلمین والقیام بالحرب البارده (الإعلامیه) ضدّهم، وذلک بنشر الأکاذیب وبثّ المعلومات الکاذبه، وإطلاق الشعارات القبیحه، وإنشاد القصائد الّتی من شأنها الإساءه إلی المسلمین وتحقیرهم، وتخریب معنویاتهم.

وبهذا یکون الیهود قد بدأوا عملیّاً بنقض معاهده التعایش السلمی الّتی ذکرناها سلفاً، والّتی عقدها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم معهم فی إبّان قدومه المدینه.

ولم تکن هذه الحرب البارده الشّریره لتبرّر تصدّی القوی الإسلامیه لها بالحرب الساخنه، واستعمال السلاح، لأنّ ما یمکن حلّه بسلاحِ المنطق لا یحبذ أن یعالَج بمنطق السلاح، وخاصّه أنّ الرد الساخن والمسلّح یؤدّی إلی زعزعه الأمن والاستقرار فی المدینه، والحال أنّ المحافظه علی الوحده السیاسیه، واستتباب الأمن والاستقرار فی المدینه کان ممّا یهمّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم جدّاً وهو یواجه أعداءً أشدّاء من الخارج.

فلم یکن من مصلحه الإسلام والمسلمین تفجیر الموقف فی عاصمه الإسلام یومئذ.

ولهذا - وبغيه إتمام الحجّه على يهود بنى قينقاع - وقف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ذات يوم فى سوقهم بعد أن جمعهم فيه ثم قال لهم:

«يا معشر يهود احذروا من اللّه مِثل ما نزلَ بقريش من النقمه، وأسلموا، فإنّكم قد عرفتُم أنّى نبىٌ مرسَلٌ، تجدون ذلكَ فى كتابكم وعهد اللّه إليكم».

وهنا نزل قول اللّه تعالى:

«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ * قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَ أُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَ اللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِى ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصارِ» (۱).

ولكن اليهود المغرورين المتكبّرين لم يشكروا نصيحه النبى هذه أو يسكتوا حسب، بل ردّوا عليه بعناد ولجاج وصلافه قائلين: يا محمّد إنّك ترى أنّا قومك! لا يغرنّك أنّك لقيتَ قوماً لا عِلمَ لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصه، إنّا واللّه لئن حاربناك لتعلمنَّ أنّا نحن الناس (أو إنّا واللّه أصحاب الحرب، ولئِن قاتلتنا لتعلمنَّ أنّك لم تقاتل مثلنا)!!(۲).

فلم تترك كلمات يهود «بنى قينقاع» الجوفاء، وتشدّقهم الفارغ بقوّتهم وقدرتهم على القتال والمواجهه أدنى أثر فى نفوس المسلمين.

ولكن النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم قد أتمّ عليهم الحجّه، فلم يعودوا معذورين حسب السياسه الإسلاميه وقد أصبح ساعتئذ من اللازم الاحتكام إلى منطق السلاح بعد أن لم ينجع سلاح المنطق، ولم يقنع اليهود بضروره تغيير مواقفهم، والتخلّى عن مؤامراتهم وخططهم الإيذائيه ضد النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم والمسلمين.

۱- . آل عمران: ۱۲ و ۱۳.

۲- . سيره ابن هشام (السيره النبويه): ۵۶۱/۲؛ المغازى: ۱۷۶/۱.

أجل لابد من استخدام القوه مع هؤلاء اليهود الصلفين المتعنّتين وإلّا ازدادوا صلافه، وكثرت اعتداءاتهم.

ولهذا أخذ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ينتظر الفرصه المناسبه لتأديب تلك الجماعه المتعنّته الوقحه.

لهيب الحرب يبدأ من شراره

قد تؤدّى بعض الحوادث الصغيره إلى سلسله من التحوّلات والأحداث فى المجتمعات الكبرى. يعنى أن تتسبّب حادثه جزئيه فى انفجار الحوادث الكبرى، فيصفّى كلّ من طرفى النزاع حسابه مع الطرف الآخر، انطلاقاً من علل وأسباب أُخرى، وليست من تلك الحادثه الجزئيه؟

فللمثال نشبت الحرب العالميه الأُولى - وهى إحدى أكبر الحوادث التاريخيه فى حياه البشر - من حادثه صغيره تذرّعت بها الدول الكبرى، وتلك الحادثه الصغيره الّتى أشعلت فتيل الحرب العالميه الأُولى هى اغتيال «الأرشيدوق فرانسيز فريدينانند» ولى عهد النمسا فى سراييفو.

فقد وقعت هذه الحادثه فى ٢٨ من شهر يونيو عام ١٩١۴ م وبعد شهر وعدّه أيام بدأت الحرب العالميه الأُولى بهجوم الألمان على بلجيكا، وأسفرت هذه الحرب المدمّره الشامله عن مقتل عشره ملايين وجرح عشرين مليون من البشر(١).

ولقد انزعج المسلمون من صلافه يهود بنى قينقاع، وردّهم الوقح على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو يخاطبهم بأدب وينصحهم، وكانوا يتوقّعون أن يقوم اليهود

١- . الموسوعه العربيه الميسّره: ص ٧٠٠.

بعمل عدائى ليثوروا ضدهم، ويؤدّبوهم.

وبينا هم على هذه الحال إذ تعرّضت امرأه من العرب لاعتداء من اليهود، فأشعل هذا الحادث الموقف.

وإليك مفصّل تلك الحادثه:

جاءت امرأه من العرب إلى سوق بنى قينقاع فجلست عند صائغ تبيع حليّاً لها أو تشترى، وكانت تبالغ فى ستر وجهها عن اليهود، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد رجلٌ من يهود بنى قينقاع إليها وجلس من ورائها، وهى لا تشعر فعقد أسفل ثوبها إلى ظهرها، فلمّا قامت المرأه بدت عورتها، فضحكوا منها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين إلى ذلك الرجل اليهودى فقتله، فاجتمعت بنو قينقاع، وشدّوا على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم القتيل المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون غضباً شديداً.

ولقد كان من الطبيعى أن يثب الرجل المسلم على ذلك اليهودى الوقح الشرير الّذى فعل بالمرأه العربيه ذلك الصنع القبيح، فإنّ قضيه «الأعراض» قضيه حياتيه وحسّاسه فى أى مجتمع، فهى قضيه شرف، وقد كان هذا الأمر يحظى فى المجتمع العربىّ خاصّه بأهمّيه كبرى، وخاصّه عند البدو الرحّل منهم، فكم من دماء جرت لعدوان على عرض ديس، أو تعرّض للتحرّش.

من هنا أزعج وضع تلك المرأه الغريبه وحالها المؤلم واضطرابها الرجل المسلم، وأشعل غيرته فوثب على اليهودى المعتدى وقتله.

وكان من الطبيعى أيضاً أن لا يمرّ هذا العمل دون رد من اليهود فيثب اليهود بأجمعهم على ذلك المسلم الغيور ويقتلوه، ويريقوا دمه بأجمعهم.

نحن هنا لا يهمّنا أن نعرف أنّ قتل ذلك الرجل اليهودى لازدرائه بامرأه كان

أمراً صحيحاً منطقياً يتّفق مع الموازين أم لا ينطبق.

ولكنّه ما من شك فی أن وثوب مئات من الرجال واجتماعهم على قتل رجل مسلم واحد، وإراقه دمه، عملٌ بالغ الشناعه والقبح.

من هنا تسبّب انتشارُ هذا الخبر (أی مقتل رجل مسلم واحد على أيدی مجموعه كبيره من الرجال بصوره مفجعه) فی إثاره المسلمين ونفاد صبرهم، ودفعهم إلى العزم على حسم الموقف حسماً كاملاً ـ وبالتالی هدم قلعه الفساد على رؤوس أصحابها القتله.

فأحس «بنو قينقاع» بخطر الموقف، وأدركوا أنّه لم يعد من الصالح أن يبقوا فی أسواقهم، ويواصلوا البيع والشراء، وقد تلبّد الجوّ بالغيوم الداكنه على أثر العمل الفضيع والجنايه الكبرى الّتی ارتكبوها.

من هنا تركوا أسواقهم بسرعه، وعادوا إلى قلاعهم المحصّنه، وتحصّنوا فيها، وكان ذلك منهم انسحاباً خانعاً بعد ذلك التشدّق الصلف!!

ولقد أخطاؤا هذه المره أيضاً، إذ ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم، من انتقام اللّه.

ولو أنّهم اعتذروا لخطئهم، وأظهروا الندامه لكانوا يجلبون رضا المسلمين، ويحصلون على عفو النبیّ صلى الله عليه و آله و سلم وهم يعرفون خلقه العظيم؛ وصفحه الكريم.

إلّا أنّ تحصّنهم كان آيه عنادهم، واعلانهم الحرب، ونصبهم العداء الصريح للإسلام والنبیّ والمسلمين.

فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمحاصرتهم، ومنع من دخول أیّ إمداد إليهم، كما منع من اتّصالهم بأی أحد خارج حصونهم.

فحصرهم فی حصونهم خمس عشره ليله أشدّ الحصار، حتّى قذف اللّه فی قلوبهم الرعب، وفقدوا القدره على المقاومه، ورضوا بأن ينزلوا عند حكم

النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فیهم!!

وأراد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن یؤدّب تلک الجماعه الّتی کانت أوّل مَن نقض العهد ونبذ المیثاق تأدیباً قاسیاً، یکون عقاباً لهم وعبره لغیرهم.

ولکن «عبداللّه بن أُبی بن سلول» الّذی کان من منافقی المدینه ویتظاهر بالإسلام، أصرّ علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بأن یحسن معاملتهم، ولا یأخذهم بما فعلوا لحلف ومودّه کانت بینه وبین یهود من السابق، فانصرف النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم عن ما کان یرید من تأدیبهم الشدید، وعقوبتهم علی کره منه(۱)، ولکن أمر بأن یُجلوا من المدینه، ولا یبقوا فیها شریطه أن یترکوا أسلحتهم، وأموالهم، ودروعهم.

فنزلوا علی حکم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وکلّف رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أحد المسلمین بقبض أموالهم وأسلحتهم، وکلّف «عباده بن الصامت» بإجلائهم من حصونهم، فعجّل عباده فی ترحیلهم وإجلائهم.

فخرجوا من المدینه ولحقوا بمنطقه تُدعی «أذرعات» وهی بلد فی أطراف الشام.

وبإجلاء «بنی قینقاع» عادت الوحده السیاسیه إلی المجتمع فی المدینه.

۱- . هذا مع العلم أنّ القرآن الکریم ندّد بمثل هذه الوساطه التی قام بها ذلک الرجل المنافق رغم تخفیف النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم معاقبه الیهود، ورسم للمسلمین منهجاً فی التعامل مع الیهود والنصاری إذ قال: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصاری أَوْلِیاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظّالِمِینَ * فَتَرَی الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یُسارِعُونَ فِیهِمْ یَقُولُونَ نَخْشی أَنْ تُصِیبَنا دائِرَهٌ فَعَسَی اللّهُ أَنْ یَأْتِیَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَیُصْبِحُوا عَلی ما أَسَرُّوا فِی أَنْفُسِهِمْ نادِمِینَ * وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِینَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَکُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِینَ» (المائده: ۵۱-۵۳).

وكانت الوحده السياسيه هذه المره مقرونه بالوحده الدينيه، إذ كان المسلمون يشكّلون الأغلبيه الساحقه فى المدينه، فلم يكن لغيرهم فيها شأن يذكر(۱).

تقارير جديده تصل إلى المدينه

من المعلوم أنّ الاخبار تنتشر بين الناس بسرعه فى المناطق الصغيره، على العاده.

من هنا فإنّ أنباء أكثر المؤامرات والتحركات المعاديه للإسلام الّتى كانت تقع فى المناطق المختلفه من شبه الجزيره كانت تصل بسرعه - وعبر المسافرين المحايدين أو الاصدقاء المترصّدين - إلى مركز القياده الإسلاميه فى المدينه. هذا مضافاً إلى أنّ هذا النوع من المعلومات كان يحظى لدى رسول الإسلام بأهميه كبرى، فيرصد لها من يأتى بها أوّلاً ـ بأوّل، ولهذا كانت أكثر التحرّكات والمؤامرات يقضى عليها فى مهدها بفضل الردّ السريع والمناسب الّذى كانت القياده الإسلاميه تقوم به فى ضوء المعلومات الوارده إليها، أو الّتى حصلت عليها.

فبمجرّد أن تتضمّن هذه المعلومات، إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم خبراً مفاده أنّ إحدى القبائل تعدّ قوه، وتستعدّ للهجوم على المدينه، كان صلى الله عليه و آله و سلم يبادر إلى بعث سريه أو يقود هو بنفسه مجموعه مناسبه لمحاصره تلك القبيله، وإفشال مؤامرتها، وإبطال تدبيرها قبل أن تستطيع فعل شىء، وكان هذا هو أُسلوب المباغته الّذى استطاع به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يقضى على كثير من التحرّكات المعاديه فى مهدها.

وإليك مختصراً عن بعض تلك الغزوات الّتى وقعت فى السنه الثانيه من

۱- . لاحظ: المغازى: ۱۷۷/۱؛ الطبقات الكبرى لابن سعد: ۲۸/۲ و ۲۹؛ سيره ابن هشام: ۵۶۱/۲-۵۶۳.

الهجره:

۱. غزوه قرقره الکُدْر(۱):

کانت المنطقه الّتی تتمرکز فیها قبیله «بنی سلم» تدعی «الکُدْر».

وقد بلغ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أنّ القبیله المذکوره تهیِّئ، وتعدّ العدّه للهجوم علی مرکز الإسلام وعاصمته (المدینه). فخرج رسول اللّه بنفسه من المدینه بعد أن استخلف علیها أحد أصحابه وأوکل إلیه إداره المدینه فی غیابه، وکان الّذی استخلفه هذه المرّه «ابن أُمّ مکتوم»، وخرج علی رأس قوهٍ عسکریهٍ إلی مرکز تلک القبیله، فلمّا سمعوا بمسیر القوی الإسلامیه إلیهم تفرّقوا، وعاد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی المدینه من غیر قتال.

ثم بعث سریه بقیاده فارس من فرسانه یُدعی «غالب بن عبداللّه» إلی نفس تلک المنطقه، فوقع بینه وبینهم قتال محدود، وعاد «غالب» إلی المدینه ظافراً بعد أن استشهد ثلاثه من رجاله.

۲. غزوه السویق:

کان عرب الجاهلیه إذا نذروا ینذرون نذوراً غریبه.

فقد نذر أبوسفیان بعد معرکه بدر أن لا یقارب زوجته ما لم یثأر من المسلمین لقتلی بدر، فکان علیه أن یقوم بهجوم علی المدینه، ویقاتل النبیّ وأصحابه لیفی بنذره!!

فخرج من مکّه فی مائتی راکب فجاء بنی النضیر لیلاً، یطلب مشوره من أحبار الیهود.

۱- . قرقره الکدر: ناحیه بین المعدن وبین المدینه، (الطبقات الکبری لابن سعد: ۳۱/۲).

فلمّا كان فی وقت السحر خرج فمر بالعریض فوجد رجلاً من الأنصار مع أجیرِ له، فقتل الأنصاریّ، وقتل أجیره، وحرّق بیتاً وحرثاً لهم بإرشاد من کبیر الیهود «سلام بن مشکم»، ورأی أن یمینه قد حلّت، ثم ذهب هارباً، وخاف ملاحقه المسلمین له.

فعرف به النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فندب أصحابه فخرجوا فی أثره، وجعل أبوسفیان وأصحابه یتخفّفون فیلقون أکیاس السویق (وهو القمح المقلّی المطحون الملتوت بالسمن أو العسل)، وهی عامّه زادهم، فجعل المسلمون یمرّون بها فیأخذونها.

فسُمّیت تلک الغزوه بغزوه السویق لهذا الشأن.(۱)

۳. غزوه ذی أمرّ

بلغ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أنّ قبیله غطفان تجمع أفرادها، وتتأهب للعدوان علی المدینه المنوره، فخرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی رأس أربعمائه وخمسین رجلاً.

فلمّا سمع العدو بمسیر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم خافوا خوفاً شدیداً فهربوا إلی رؤوس الجبال، فراراً من النبیّ والمسلمین.

فخرج النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم إلیهم یبحث عنهم فلم یلاق أحداً منهم، وقد غیّبوا سرحهم وذراریهم فی ذری الجبال خوفاً وفرقاً.

فنزل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم «ذا أمرّ»(۲) و عسکر معسکره هناک، فأصابهم مطرٌ کثیر، فذهب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لحاجته، فأصابه ذلک المطر فبلّ ثوبه، وقد جعل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وادی «ذی أمرّ» بینه وبین أصحابه، ثم نزع ثیابه فنشرها لتجف،

۱- . لاحظ: المغازی: ۱۸۲/۱؛ الطبقات الکبری: ۳۰/۲.

۲- . واد بطریق فید إلی المدینه (وفاء الوفا: ۲۴۹/۲).

وألقاها على شجره، ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كلّ ما يفعل.

فقالت الأعراب لدعثور وكان سيّدها وأشجعها: قد أمكنك محمّد، وقد انفرد من أصحابه، حيث إن غَوَّث بأصحابه لم يُغَث حتّى تقتله.

فاختار سيفاً من سيوفهم صارماً ثم أقبل مشتملاً على السيف حتّى قام على رأس النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم بالسيف مشهوراً، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مستلق على قفاه.

فقال بنبره خشنه مهدّده: يا محمّد من يمنعك منّى اليوم؟ قال النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم:

اللّه.

فكان لهذه الكلمه أثر عجيب فى نفس دعثور بحيث أُرعب، ووقع السيف من يده، فأخذه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقام به على رأسه، فقال: ومن يمنعُك منّى اليوم.

فقال: لا أحد.

ثم قال: فأنا أشهد أن لا إله إلّااللّه، وأنّ محمّداً رسول اللّه، واللّه لا أكثر عليك جمعاً أبداً.

فأعطاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سيفه ثم أدبر، ثم أقبل بوجهه على النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم وقال:

أما واللّه لأنتَ خيرٌ منّى.

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: أنا أحقّ بذلك منك.

فأتى قومه، وقصَّ عليهم ما جرى له مع النبيّ، وأنّه أسلم، ودعا قومه إلى الإسلام.(۱)

أجل يكتب المؤرّخون فى هذا المقام أنّ الرجل أسلم من فوره، ويجب أن نعلم أنّه لم يسلم خوفاً وفرقاً وتحت بارقه السيف؛ لأنّه بقى ثابتاً ومستمراً فى

۱- . لاحظ: المغازى: ۱۹۴/۱-۱۹۶.

إسلامه بعد ذلك وأخذ يدعو قومه كما أسلفنا، وهذا يدلّ على أنّه أسلم عن طواعيه ورغبه، وأنّ إسلامه كان لتتبّه فطرته، ويقظه وجدانه، فإنّ فشله غير المتوقع، ونجاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الّتى تمّت بطريقه خارقه للعاده جعلته ينتبه إلى عالمٍ آخر، وعرف بأنّ لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ارتباطاً بعالم آخر، وأنّه مؤيّد بالتالى بقوهٍ عليا، وراء هذا العالم المادّى.

ولهذا السبب - وليس لسواه - أسلم، وقبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إسلامه، وبعد أن مشى خطوات ردّ إلى النبىّ سيفه الّذى أعاده إليه النبىّ قبل ذلك واعتذر إليه.

وقال: أنت أولى بهذا السيف؛ لأنّك قائد هذه السريه المصلحه.

قريش تغيّر مسير تجارتها

تعرّضت سواحل البحر الأحمر للخطر من قبل عناصر الجيش الإسلامى وحلفائهم، ولم يعد من الممكن مواصله التجاره وإرسال القوافل التجاريه عبرها.

من هنا تشاورت قريش فيما بينها، ودرست أوضاعها فى ظلّ هذه المستجدات، واتّفقت على أنّه لو تركت التجاره لهلكت رؤوس أموالها وفنيت، وكان عليها أن تسلّم للمسلمين.

وإن واصلت التجاره لم تحرز فى هذا المجال نجاحاً مادامت الطريق غير آمنه، ومادام يمكن أن تتعرض أموالها للمصادره على أيدى المسلمين كلّما عثروا عليها.

فاقترح أحدهم التجاره إلى الشام عن طريق العراق فاستحسنوا رأيه جميعاً، وتهيّأت القافله للحركه فى الخط الجديد، وتولّى أبو سفيان وصفوان بنفسيهما مهمه الإشراف على تلك القافله وإدارتها، واستخدما رجلاً من بنى بكر يُدعى

«فرات بن حيّان» ليدلّهما على الطريق.

قال المقريزى فى «إمتاع الأسماع»: سمع رجل من المدينه (وهو سليط بن النعمان) بخبر خروج صفوان بن أُميّه فى عيره وما معهم من الأموال فخرج من ساعته وأخبر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، فأرسل زيد بن حارثه فى مائه راكب فأصابوا العير، وأفلت أعيان القوم، فقدموا بالعير فخمّسها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فبلغ الخمس عشرين ألف درهم، وقسّم مابقى على أهل السريّه، وكان فيمن أُسِرَ فرات بن حيّان فأسلم(۱).

۱- . إمتاع الأسماع: ۱۲۹/۱-۱۳۰.

حوادث السنه الثالثه من الهجره

۳۳ الدفاع عن الحريّه

غزوه أحد أو الدفاع عن الحريّه عند جبل أُحُد

لم تكن السنه الهجريه الثالثه بأقلّ من السنه الثانيه من حيث وقوع الحوادث والوقائع الملفته للنظر فيها.

فإذا وقعت فی السنه الثانيه من الهجره غزوه «بدر»، فقد وقعت فی السنه الثالثه منها غزوه «أُحد» وهما من أعظم معارك الإسلام وغزواته.

علی أنّ غزوه «أُحد» لم تكن الغزوه الوحيده الّتی وقعت فی السنه الثالثه، بل وقعت أيضاً غزواتٌ أُخری(۱) إلی جنب طائفه من السرايا، الّتی اخترنا منها سريه واحده وغزوتين فقط.

۱. سريه محمّد بن مسلمه لقد وَصَل نبأ انتصار المسلمين فی معركه «بدر» عن طريق رجلين من المسلمين.

۱- . مثل غزوه بحران وغزوه حمراء الأسد.

ولم يكن الجيش الإسلامى الظافر قد وصل إلى المدينه بعد، قال «كعب بن الأشرف» - وكان رجلاً من طى، ثم أحد بنى نبهان وكانت أُمّه من يهود «بنى النضير» وكان شاعراً قوياً، وخطيباً بارعاً - وهو منزعج من الفتح الّذى أصابه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم والمسلمون فى «بدر» فقال: واللّه لئِن كان محمّدٌ أصاب أشراف العرب وملوك الناس (ويعنى ساده قريش وصناديدهم الذين قتلوا فى بدر على أيدى المسلمين) لبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها!! وبدأ يبث الأكاذيب والشائعات فى المدينه ومضى يشكّك فى انتصارات المسلمين فى بدر.

وقد كان يسىء إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى قصائده حتّى قبل معركه «بدر» ويحرّض الناس على المسلمين.

ثم إنّه لمّا تيقّن الخبر خرج حتّى قدم مكّه وجعل يحرّض قريشاً على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وقد أنشد فى هذا المجال أشعاراً يبكى فيها أصحاب القليب من قريش وقد ذكرتها المصادر التاريخيه(۱).

ثم رجع كعب هذا إلى المدينه فشبّب(۲) بنساء المسلمين حتّى آذاهم!!

ولا شكّ أنّه بهذه المواقف المعاديه كان من أظهر مصاديق المفسد فى الأرض، الأمر الّذى آل إلى أن يقرّر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم التخلّص منه، وكفايه المسلمين شرّه، وقد أوكل هذه المهمه الصعبه إلى «محمد بن مسلمه».

وقد خطّط «ابن مسلمه» للتخلّص من «كعب» خطةً رائعةً، وألّف لتنفيذها فريقاً كان من بينهم «أبو نائله» الأخ الرضاعى لكعب بن الأشرف، ليمكن من هذا الطريق التمويه على كعب وتنفيذ الخطه المذكوره.

۱- . لاحظ: المغازى: ۱۲۱/۲-۱۲۲؛ سيره ابن هشام: ۵۶۴/۲-۵۶۵.

۲- . لاحظ: سيره ابن هشام (السيره النبويه): ۵۶۶/۲.

فخرج أبو نائله إلى كعب وجلسا يتحادثان، ويتبادلان الشعر.

ثم إنّ أبا نائله قال لكعب - بعد أن طلب منه أن يُخرج كلّ مَن كان هناك من ذويه وأهله -: ويحك يابن الأشرف إنّى قد جئتك لحاجه أُريد ذكرها لك فاكتم عنّى، وإنّى كرهت أن يسمع القوم كلامنا، فيظنون! قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل (يعنى رسول اللّه) علينا بلاء من البلاء، وعادتنا به العرب، ورمتْنا عن قوسٍ واحدةٍ، وقطّعت عنّا السبل حتّى جهدت الأنفس، وضاع العيال، وأصبحنا، قد جهدنا وجهد عيالنا.

فقال كعب: أما واللّه لقد كنتُ أُخبرك يا ابن سلامه إنّ الأمر سيصير إلى ما أقول.

فقال أبو نائله: إنّى قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن فى ذلك، فقال: أترهنونى أبناءكم؟

فقال أبو نائله: لقد أردت أن تفضحنا إنّ معى أصحاباً لى على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم، فتبيعهم وتحسن فى ذلك، ونرهنك من الحلقه ما فيه وفاء.

فرضى كعب بن الأشرف بذلك.

وإنّما قال أبو نائله هذا القول لابن الأشرف حتّى لا يستغرب إذا رأى السلاح بيد الرجال الذين سيأتون معه.

ثم خرج أبو نائله من عند ابن الاشرف على ميعاد، فأتى أصحابه، فأخبرهم بما دار بينه وبين كعب، فأجمعوا أمرهم على أن يأتوه إذا أمسى لميعاده، ثم أتوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عشاءً وأخبروه، فمشى معهم حتّى أتى البقيع، ثم وجّههم، ثم قال:

«انطلقوا على اسم اللّه، اللّهم أعِنهم».

فَمضوا حتّی أتوا ابنَ الاشرف، فلمّا انتهوا إلی حصنِه هتف به أبو نائله، وکان ابنُ الأشرف حدیث عهدٍ بُعرس، فوثب فی ملحفته، فأخذت امرأته بناحیتها وقالت: إنّک امرؤٌ محارب، وإنّ أصحاب الحرب لا ینزلون فی هذه الساعه؟

فقال ابن الأشرف: میعادٌ، إنّه أبو نائله.

ثم نزل إلیهم فحیّاهم، ثم جَلَسوا فتحدّثوا ساعه حتّی اطمأنّ إلیهم.

ثم قالوا له: هل لک یابن الأشرف أن نتماشی إلی شعب العجوز (وهو موضع قرب المدینه) فنتحدّث به بقیّه لیلتنا هذه؟ قال: إن شئتم.

فخرجوا یتماشون حتّی ابتعدوا عن حصنه، وبینما هم کذلک إذ أدخلَ أبو نائله یده فی رأس کعب ثم شمّ یده فقال: ویحک ما أطیبَ عطرک هذا یابن الأشرف، ثم مشی ساعه، ثم کرّر هذا العمل ثانیه حتّی اطمأنّ، ثم مشی ساعه ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه وقال: اضربوا عدوّ اللّه، فضربوه بسیوفهم، وطعنه أبو نائله بخنجر فی بطنه، وصاح صیحه ثم وقع علی الأرض ولم تنفعه استغاثاته.

ثم عاد هذا الفریق الفدائی إلی المدینه من فورهم ولمّا بلغوا «بقیع الغَرقد» کبّروا، وقد قام رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تلک اللیله یصلّی، فلمّا سمع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تکبیرهم بالبقیع کبّر، وعرف أنّهم قد قتلوه.

وبهذا أعلنوا عن نجاح عملیّتهم الفدائیه الجریئه الّتی أراحت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه من شرّ ذلک المفسد الخطیر الّذی لم یفتأ عن إیذاء النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وتناول أعراض المسلمین فی أشعاره..(۱).

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۵۶۶/۲-۵۶۸؛ المغازی: ۱۸۴/۱-۱۹۰.

إغتيال مفسد آخر

وكان أبو رافع سلام بن أبى الحقيق اليهودى يظاهر كعب بن الأشرف على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويقوم بنفس الدور الخبيث الّذى كان يقوم به ابن الأشرف من الإيذاء والإزعاج للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم والمسلمين. فقام فريق فدائى آخر من المسلمين باغتياله على غرار اغتيال صاحبه فى عمليةٍ فدائيةٍ جسورةٍ على نحو ما رواه ابن الأثير فى كتابه: الكامل فى التاريخ بصوره مفصّله(١).

وقد كانت هاتان العمليتان وأُمور أُخرى من أسباب اندلاع معركه «أُحد».

وقد حان الأوان الآن أن نستعرض تفاصيل هذه الواقعه الكبرى!

قريش تتكفّل نفقات الحرب

كانت بذور الرغبه فى الانتقام والثأر من المسلمين قد بُذِرَت فى مكّه من زمان وَقد ساعدت خطه المنع من البكاء والنياحه على القتلى على إذكاء روح الانتقام هذه لدى قريش.

كما أنّ تعذّر مرور قافلتها التجاريه عبر طريق مكّه - المدينه - الشام، واضطرارها إلى سلوك طريق العراق للسفر إلى الشام زاد هو الآخر من سخطها وانزعاجها.

ولقد أجّج مقتل «كعب بن الأشرف» من أوار هذا الحقد، وأوقد لهيبه فى النفوس.

من هنا اقترح «صفوان بن أُميّه» و «عكرمه بن أبى جهل» على أبى سفيان

١- . الكامل فى التاريخ: ٢/١۴۶-١۴٧.

ومَن كانت له فی قافله قریش التجاریه مشارکه، أن یـدفع کلّ واحـد منهم مبلغاً من المال لتسدید نفقات الحرب قائلین: یا معشـر قریش إنّ محمداً قد وترکم، وقتل خیارکم، فأعینونا بهذا المال علی حربه، فلعلّنا ندرک منه ثأرنا بمن أصاب منّا.

ولقد لقی هذا الاقتراح قبولاً من أبی سـفیان وتقرّر الإعداد للحرب فاجتمعت قریش لحرب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حتّی هیّأ أبوسفیان ذلک.

وقـد أشـار القرآن الکریم إلی هـذا الموضوع، کمـا ذکر کیف أنّ قریشـاً لم تحصـد من هـذا الإنفاق إلّاالخیبه والخسـران إذ قال تعالی:

«إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِیَصُدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّهِ فَسَیُنْفِقُونَها ثُمَّ تَکُونُ عَلَیْهِمْ حَسْرَهً ثُمَّ یُغْلَبُونَ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِلی جَهَنَّمَ یُحْشَرُونَ» .(۱)

وحیث إنّ زعماء قریش کانوا یعرفون بقوّه المسلمین وقد رأوا عن کثب استقامتهم وثباتهم فی معرکه «بدر» لهذا قرّروا أن یتألّف جیشهم هذه المرّه من صنادید أکثر القبائل العربیه وشجعانها البارزین وأبطالها المعروفین.

فکلّف «عمرو بن العاص» وعـدّه أشـخاص آخرین بأن یؤلّبوا العرب علی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم ویجمعوا أبطالها وصـنادیدها، للمشارکه فی الجیش الکثیف والمنظّم الّذی اعتزمت قریش علی تسییره لقتال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم والمسلمین، وغزوهم، وبأنّ یخبروهم بأن قریشاً قد تکفّلت نفقات هذه المعرکه.

وقد أثمرت نشاطات «عمرو» ورفاقه فی هذا السبیل.

فقد استطاعوا بعد محاولات واسعهٍ أن یضمّوا إلی جیش قریش أبطالاً وصنادید من بنی کنانه وتهامه، فخرجت قریش وهم أربعه آلاف بمن انضم إلی

۱- . الأنفال: ۳۶، وراجع: السیره النبویه لابن هشام: ۵۸۱/۲؛ مجمع البیان: ۴۶۴/۴.

صفوفهم من تلك القبائل(۱).

وقد كان هذا هو عدد الرجال الذين شاركوا فی هذه المعركه، ولو أضفنا إليهم عدد النساء اللواتی شاركن فيها لتجاوز العدد ما ذكرناه.

علی أنّه لم يكن من عاده العرب أن يشركوا نساءهم فی الغزو ويخرجوهن معهم إلی القتال، ولكن نساء مكّه الوثنيات شاركن مع رجالهنّ فی هذه المعركه علی خلاف عاده العرب، وكان الهدف من أخذهنّ هو أن يحرّضن الرجال علی القتال والصمود، ويمنعن المقاتلين من الفرار، ويذكّرن بقتلی بدر، ويشعلن الحماس فی النفوس بدقّ الدفوف، وإنشاد الأشعار المثيره للهمم والداعيه إلی الثأر؛ ولأنّ فرار الرجال كان يعنی أن تقع النسوه فی الأسر، وهو ما كان يأباه العربی آنذاك. فتكون الغيره والحميّه علی العرض سبباً للمقاومه والصمود.

كما أنّه اشترك فی هذه المعركه طائفه من العبيد والرقيق طمعاً فی العتق الّذی وعدوا به إن نصروا أسيادهم وقاتلوا بين أيديهم، وذلك مثل «وحشی» وكان غلاماً حبشياً لمطعم بن جبير يقذف بالحربه قذف الحبشه قلّما يخطئ بها، فقال له سيده: إنّ عليّاً قتل عمّی يوم بدر - يعنی: طعيمه - فإن قتلت محمداً فأنت حرّ، وإن قتلت عمّ محمد فأنت حرّ.(۲)

وعلی أيّه حال استطاعت قريشٌ أن تجهّز بعد جهد كبير جيشاً كبيراً قوياً يتألّف من سبعمائه دارع، وثلاثه آلاف فارس، ومشاه كثيرين، وقد خرجوا بعدّه وسلاح كثير.

۱- . اختلف علماء التفسير والتاريخ كعلی بن إبراهيم والشيخ الطبرسی فی إعلام الوری، وابن هشام والواقدی فی عدد المشركين والكفّار فی هذه المعركه، وما ذكرناه هو الأقرب إلی الحقيقه.

۲- . بحار الأنوار: ۹۷/۲۰.

الاستخبارات ترفع تقريراً إلى النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم

لمّا أجمعت قريش على المسير كتب العباس بن عبدالمطلب(۱) كتاباً (يضمّ تقريراً مفصّلاً عن نوايا واستعدادات قريش)، وختمه واستأجر رجلاً من بنى غفار واشترط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم....

فقدم الغفارى فلم يجد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالمدينه ووجده بقباء فخرج حتى يجد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على باب مسجد قباء يركب حماره فدفع إليه الكتاب فقرأه عليه أُبىّ بن كعب واستكتم أبيّاً ما فيه.(۲)

روى العلّامه المجلسى عن الإمام أبى عبداللّه الصادق عليه السلام إنّه قال: كان ممّا منّ اللّه عزّوجلّ على رسوله صلى الله عليه و آله و سلم أنّه كان يقرأ ولا يكتب، فلمّا توجّه أبوسفيان إلى «أُحد» كتب العباس إلى النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم فجاءه الكتاب وهو فى بعض حيطان المدينه فقرأه ولم يخبر أصحابه، وأمرهم أن يدخلوا المدينه، فلمّا دخلوا المدينه أخبرهم(۳).

جيش قريش يتحرك باتجاه المدينه

تحرَّك جيش قريش باتّجاه المدينه، وبعد قطع مسافه معيّنه وصلت طلائعه

۱- . وكان العباس كما أسلفنا ممّن أسلم وآمن برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى مكّه ولكنّه ظلّ يكتم إيمانه ليتمكن من البقاء بين قريش ورصد تحرّكاتهم وإخبار النبى صلى الله عليه و آله و سلم بنواياهم. راجع السيره الحلبيه: ۱۹۸/۱۰.

۲- . المغازى: ۲۰۳/۱-۲۰۴. ويرى بعض المؤرّخين أنّ مبعوث العباس قدم بالرساله المدينه وكان النبى ساعتها فى المسجد فأعطى النبيّ الرساله إلى أُبى بن كعب فقرأها عليه.

۳- . بحار الأنوار: ۱۱۱/۲۰ برقم ۳۶. والخبر عن البزنطى عن بعض أصحابه فهو مرسل، علاوه على أنّه خلاف المشهور بأنّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن يقرأ ولا يكتب.

إلى الأبواء، وهى المنطقه الّتى دفنت فيها والده النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم السيده «آمنه بنت وهب» فقال فتيه من قريش: إنّكم قد خرجتم بالضعن معكم ونحن نخاف على نسائنا، فتعالوا ننبش قبر أُمّ محمّد، فإنّ النساء عوره، فإن يصب من نسائكم أحداً قلتم هذه رمه أُمّك، فإن كان برّاً بأُمّه كما يزعم فلعمرى ليفادّينكم برمه أُمّه، وإن لم يظفر بأحد من نسائكم فلعمرى ليفدين رمه أُمّه بمال كثير إن كان بها برّاً.

واستشار أبوسفيان أهل الرأى من قريش فى ذلك فاستقبحوه وشجبوه بشده وقالوا:

لا تذكر من هذا شيئاً فلو فعلنا (ذلك) نبشت بنوبكر وخزاعه (وهم أعداء قريش) موتانا(۱).

وبعث النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ليله الخميس الخامس من شهر شوال، السنه الثالثه من الهجره، «أنساً» و «مونساً» ابنى «فضاله» للتجسّس على قريش خارج المدينه، وإخباره صلى الله عليه و آله و سلم بتحرّكاتهم، فأخبرا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم باقتراب جيش المشركين إلى المدينه، وأنّهم قد سرحوا إبلهم وخيولهم ترعى فى مراعى المدينه.(۲)

كما أخبر «الحُباب بن المنذر» هو الآخر باقتراب جيش المشركين إلى المدينه، وأنّ طلائع ذلك الجيش قد استقرّت على مقربه من جبل أُحد، وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قد بعث الحباب سرّاً وقال له: لا تخبرنى بين أحد من المسلمين إلّا أن ترى قلّه.(۳)

وبخبر الحُباب تأكّد ما أخبر به ابنا فضاله.

۱- . المغازى: ۲۰۶/۱.

۲- . لاحظ: المغازى: ۲۰۶/۱-۲۰۷.

۳- . لاحظ: المغازى: ۲۰۷/۱-۲۰۸.

وحيث إنّ المسلمين كانوا يخافون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من العدو، أن يهاجموه ليلاً، لذلك باتت وجوه الأوس والخزرج (الأنصار) ليله الجمعه وعليهم السلاح فى المسجد بباب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يحرسونه، وحرست المدينه تلك الليله حتّى أصبحوا.

منطقه «أُحد»

كان الوادى الطويل الكبير الّذى يصل طريق الشام التجاريه باليمن يُسمّى آنذاك ب «وادى القرى»، وكانت القبائل العربيه من اليهود وغير اليهود تقطن فى كلّ منطقه تتوفر فيها ظروف المعيشه ومستلزمات الحياه، ولهذا نشأت على طول هذا الخط «قرى» بسبب وجود مناطق خصبه فيه وقد سُوِّرَت بأسوار من الحجاره، وكانت يثرب مركز هذه القرى وأُمّها وهى الّتى سُمّيت فى ما بعد بمدينه الرسول، ومن ثم «المدينه» تخفيفاً واختصاراً.

وكان على كلّ قادم من مكّه إلى المدينه، أن يدخل من جنوب يثرب وحيث إنّ أرض هذه المنطقه ذات طبيعه صخريه، لذلك يكون عبور الجيش من خلالها أمراً عسيراً وفى غايه الصعوبه.

من هنا تحاشت قريش - عندما وصل جيشها إلى مشارف المدينه - هذه المنطقه، ودخلت من شمال المدينه، واستقرت فى وادى العقيق فى سفوح جبل «أُحد»، وقد كانت هذه المنطقه لعدم وجود نخيل فيها، ولسهوله أرضها، أفضل مكان للعمليات العسكريه، وخير ميدان للقتال والحرب.

وقد كانت المدينه عرضه للخطر من هذه الناحيه؛ لأنّه قلّما كان المرءُ يرى فيها موانع طبيعيه.

نزلت قوی المشرکین عصر یوم الخمیس فی الخامس من شوال من السنه الثالثه من الهجره عند جبل «أحد».

وبقی النبی ذلک الیوم ولیلته فی المدینه، وفی یوم الجمعه أقدم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی عقد شوری عسکریه، واستشار قاده جیشه وأهل الخبره والرأی من أصحابه فی کیفیه مواجهه العدو، والتکتیک الّذی یجب أن یتّبعه المسلمون(۱).

المشاوره فی کیفیه الدفاع

کان النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قد أُمِرَ من جانب اللّه تعالی أن یشاور أصحابه فی الأُمور العسکریه وما یشابهها ویشرکهم فی قراراته وخططه الّتی یتّخذها فی المجالات المذکوره، لیعطی بذلک درساً کبیراً للمسلمین، ویبعث بین أصحابه وأتباعه روح الدیمقراطیه (الصحیحه) وتحرّی الحقّ، والموضوعیه.

ولکن هل کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم نفسه یستفید من هذه المشاوره؟ وینتفع بآرائهم ونظریاتهم، ومقترحاتهم، أُمّ لا؟.

لقد أجاب علماء العقیده وروّاد علم الکلام الإسلامی من مختلف الطوائف علی هذا السؤال فی مؤلّفاتهم ودراساتهم، وللقارئ الکریم، إذا أراد الوقوف علی الجواب، أن یراجع تلکم المصنّفات.

لکن الّذی لا یمکن إنکاره فی المقام هو: أنّ هذه المشاورات سیره حیّه ترکها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من بعده، ولقد کانت هذه السیره مؤثّره جدّاً بحیث استخدم

۱- . لم تکن هذه هی المرّه الأُولی ولا الأخیره الّتی شاور النبیّ فیها أصحابه، وقد ذکرنا عدّه موارد من هذا النوع من التشاور والهدف منه فی کتابنا: مفاهیم القرآن (الجزء الثانی): معالم الحکومه الإسلامیه.

الخلفاء والأمراء من بعده أَسلوب التشاور والشورى، وكانوا يستفيدون على هذا الأساس من آراء الإمام على عليه السلام ونظرياته الساميه فى الأُمور العسكريه، والمشكلات الاجتماعيه الّتى كانت تطرأ على حياه المسلمين.(۱)

المشاورات العسكريه

لما سمع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم باقتراب قريش إلى المدينه وقف فى تلك الشورى الّتى كانت تضم جمعاً كبيراً من صناديد أصحابه، وقاده جيشه وجنوده وقال بصوتٍ عالٍ: «أشيروا علىّ».

وهو يطلب بذلك من أُولئك الجنود والقاده أن يُدلوا بآرائهم فى كيفيه مواجهه العدو، وطريقه الدفاع عن حوزه الإسلام وصرح التوحيد المهدّده من قبل قريش والمتحالفين معهم من أحزاب الشرك، وأتباع الوثنيه.

فقام «عبداللّه بن أُبى بن سلول» وكان من منافقى المدينه، وطرح فكره التحصّن فى داخل المدينه، والقتال فيها على غرار حرب الشوارع. وذلك بأن لايخرج المسلمون من المدينه، بل يبقوا داخلها، ويستخدموا أبراجها وسطوحها لمقاتله العدوّ ودفعه، فترمى النساء العدوَّ بالأحجار من السطوح، ويقاتل الرجال أفراده فى الشوارع والأزقه قائلًا: يا رسول اللّه كنّا نقاتل فى الجاهليه فيها، ونجعل النساء والذرارى فى هذه الصياصى ونجعل معهم الحجاره...، ونشبك المدينه بالبنيان فتكون كالحصن من كلّ ناحيه وترمى المرأه والصبى من فوق الصياصى والآطام، ونقاتل بأسيافنا فى السكك (أى الطرقات).

۱- . راجع: نهج البلاغه: الخطبه ۱۳۴.

يا رسول اللّه إنّ مـدينتنا عـذراء ما فُضّت علينا قط، وما خرجنا إلى عدوّ قط إلّا أصاب منّا، وما دخل علينا قط إلّاأصـبناه فدعهم يا رسول اللّه. فإنّهم إن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً.

وكان هذا رأى الأكابر من أصـحاب رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم من المهاجرين والأنصار، إلّاأنّ الفتيان من المسـلمين وبخاصّه مَن لم يشـهد منهم بـدراً وكانوا يشـكّلون الأغلبيه شـجبوا هذا الرأى بشدّه، ورفضوه بقوّه، وطلبوا من رسول اللّه الخروج إلى العدو، ورغبوا فى الشهاده، وأحبّوا لقاء العدو.

وقالوا: إنّا نخشى يا رسول اللّه أن يظن عدوُّنا أنّا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم فيكون هذا جرأه منهم علينا، وقد كنتَ يوم بـدر فى ثلاثمـائه رجل فظفّرك اللّه عليهم، ونحن اليوم بشـرٌ كثيرٌ، قـد كنّا نتمنّى هـذا اليوم ونـدعو اللّه به فقـد ساقه اللّه إلينا فى ساحتنا.

وقال «حمزه» بطل الإسلام العظيم: لا أطعم اليوم طعاماً حتّى أُجالدهم بسيفى خارجاً من المدينه(۱).

الاقتراع من أجل الشهاده!!

وقام خيثمه أبو سـعد بن خيثمه - وهو شـيخ يقظ البصـيره - وقال: يا رسول اللّه إنّ قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع، وتسـتجلب العرب فى بواديها، ومن تبعها من أحابيشها، ثم جاءُونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل، حتّى نزلوا بساحتنا

۱- . المغازى: ۲۰۹/۱-۲۱۱. ومن المعلوم أنّ نظريه عبـداللّه بن أُبى لم تخلو من الخطر، إذ لم يكن من البعيـد أن يسـتفيد العـدوّ بعـد دخـوله فى المـدينه مـن بيـوت المنـافقين. وأن يتعـاون معهم يهـود المـدينه أيضـاً فتكـون حينئـذٍ الضـربه القاضـيه للإسـلام والمسلمين.

فیحصـرونا فی بیوتنا، وصیاصـینا، ثم یرجعون وافرین لم یُکلموا، فیجرّئهم ذلک علینا حتّی یشـنّوا الغارات علینا، ویصـیبوا أطرافنا، ویضـعوا العیون والأرصاد علینا، مع ما قد صـنعوا بحروثنا، ویجترئ علینا العرب حولنا، حتّی یطمعوا فینا إذا رأونا لم نخرج إلیهم، فنذبهم عن جوارنا، وعسی اللّه أن یظفّرنا بهم، فتلک عاده اللّه عندنا، أو تکون الأُخری: فهی الشهاده.

لقـد أخطـأتنی وقعه بـدر، وقـد کنتُ علیهـا حریصاً، لقـد بلغ من حرصـی أن ساهمت(۱) ابنی علی الخروج فخرج سـهمه فرزق الشـهاده، وقد کنتُ حریصاً علی الشـهاده، وقد رأیت ابنی البارحه فی النوم فی أحسن صوره یسرح فی ثمار الجنه وأنهارها، وهو یقول: ألحق بنا ترافقنا فی الجنّه، فقد وجدتُ ما وعدنی ربّی حقّاً.

وقد واللّه یا رسول اللّه أصـبحت مشتاقاً إلی مرافقته فی الجنه، وقد کبرت سنی ورقّ عظمی، وأحببتُ لقاء ربّی فادْعُ اللّه یا رسول اللّه أن یرزقنی الشهاده ومرافقه سعد فی الجنه!!!(۲).

إنّ هـذا الّذی ذکرنـاه لیس سوی نموذج واحـد من مواقف کثیره تجـدها أیّهـا القـارئ الکریم فی صـفحات التاریـخ الإسـلامی المشـرقه، فهناک الکثیر من هؤلاء الفـدائیین المخلصـین الـذین آلوا علی أنفسـهم أن یدافعوا عن حیاض العقیده وشـرف الدین، ورُزقوا الشهاده فی نهایه المطاف.

إنّ الآیدیولوجیه الّتی لا تعتمد علی أُسس الإیمان باللّه والیوم الآخر قلّما تنتج جندیاً فدائیاً مخلصاً مثل خیثمه، ومَن شاکله.

۱- . أی أجریت القرعه بینی وبین ولدی.

۲- . المغازی: ۲۱۲/۱-۲۱۳.

إنّ روح الفداء والتفانی والإیثار بالنفس والتضحیه بالغالی والرخیص، الّتی تدفع بالجندی إلی أن یطلب الشهاده فی سبیل إعلاء کلمه الحقّ، وإعزاز التوحید بإصرار وشوق لا توجد إلّافی مدرسه الأنبیاء والمرسلین، ولاتحصل إلّافی ضوء تربیتهم.

وأمّا فی المجتمعات المادیه کالمجتمعات الحاضره الّتی تهتم أکبر اهتمام بتحسین أحوال العسکریین حیث إنّ الهدف من الحروب والمعارک لم یکن قط إلّا الحصول علی وضع معیشیّ أفضل، فإنّه لایهم الجنود فیها إلّاالحفاظ علی أرواحهم وحیاتهم، فذلک هو أکبر هدف لدیهم، ومن هنا تندر عندهم روح التفانی والتضحیه.

وأمّا فی مدرسه الأنبیاء فإنّ المعارک والحروب لا یهدف منها إلّاابتغاء رضا اللّه سبحانه، فلو انحصر ذلک فی الشهاده أقدم علیها الجندی المسلم من دون خوف أو وجل، وعرّض نفسه لجمیع الأخطار من دون تلکّؤ أو إبطاء.

حصیله الشوری

لقد أخذ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم برأی الأکثریه الّتی کانت ترجّح الخروج من المدینه لمقاتله العدوّ، إذ لم یکن من الصالح - بعد ما اقترحه قاده جیشه البارزین مثل حمزه وسعد بن عباده ونظرائهم، وأصرّوا علیه - أن یأخذ برأی عبداللّه بن أُبی بن سلول المنافق.

هذا مضافاً إلی أنّ حرب الشوارع والمدن غیر المنظم فی داخل سکک المدینه وأزقّتها الضیّقه، واشتراک النسوه فی الأُمور الدفاعیه، والجلوس فی البیت، والسماح للعدو بأن یفعل ما یرید آیه العجز، والوهن، وهو أمر لا یلیق بالمسلمین، ولا یتلاءم مع الانتصار العظیم الّذی کسبوه فی معرکه «بدر»، وهزموا به عدوهم

الغاشم القوىّ.

إنّ محاصره المدينه وسيطره العدوّ على مداخلها وطرقاتها، وسكوت جنود الإسلام على ذلك من شأنه أن يقتل الروح القتاليه، والفروسيه فى أبناء الإسلام المجاهدين.

ويمكن أن يكون «عبداللّه بن أُبى بن سلول» قد أضمر فى نفسه نيّه سيّئه ضد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأنّه بهذا الاقتراح (أى البقاء فى المدينه وعدم الخروج لمجابهه العدوّ، ومواجهته بشجاعه) كان يريد - فى الحقيقه - أن يوجّه ضربه إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم!!

النبىُّ يلبس لامه الحرب

بعد أن تعيّنت كيفيه مواجهه العدو والدفاع، دخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بيته ولبس لامته، وقد لبس الدرع فأظهرها وحزم وسطها بمنطقه من حمائل سيف من أُدم واعتم وتقلّد السيف، وخرج من بيته.

فأثار هذا المشهدُ المسلمين وهزّهم بشدّه وتصوّر بعضهم بأنّ إصرارهم على النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بالخروج من المدينه لم يكن فيه للنبىّ رضا، وخشوا أنّهم قد استكرهوه على هذا الأمر، فندموا على ذلك، وقالوا معتذرين: يا رسول اللّه ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك (و: ما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى اللّه ثم إليك).

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«ما يَنْبَغى لِنَبىٍّ إذا لَبِسَ لامَتَهُ أن يَضَعَها حَتّى يُقاتِلَ»(۱).

النبىّ يخرجُ مِنَ المَدينه

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم صلّى بالناس الجمعه وخرج على رأس ما يزيد على ألف مقاتل قاصداً أُحُد، وذلك بعد أن قال لهم:

«اُنْظُرُوا إلى ما أمَرْتُكُمْ بِهِ فاتّبعُوهُ إمضُوا عَلى اسم اللّه فلكُم النصرُ ما صَبَرتُمْ»(۲).

وقد أجاز رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يومئذٍ لمن لم يبلغوا الحلم بأن يخرجوا معه كسمره ورافع وكان رامياً جيداً، ورد أُسامه بن زيد وعبداللّه بن عمر بن الخطّاب(۳).

ثم إنّ جماعه من اليهود كانوا متحالفين مع عبداللّه بن أُبى بن سلول قرّروا أن يشتركوا فى هذه المعركه ويخرجوا مع المسلمين، ولكنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لم يسمح بذلك لأسباب خاصّه.

وسار النبىّ وأصحابُه حتّى إذا كانوا بمنطقهٍ بين المدينه وأُحُد تُسمّى «الشوط» انعزل عنه «عبداللّه بن أُبى بن سلول» وعاد بثلث الناس كلّهم من الأوس المتحالفين معه إلى المدينه بحجّه أنَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أخذ برأى الفتيه والشباب، ورفض اقتراحه وهو البقاء فى المدينه.

ومن هنا لم يشترك فى هذه المعركه لا اليهودُ ولا حزبُ النفاق.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۵۸۴/۳؛ المغازى: ۲۱۴/۱، الطبقات الكبرى: ۳۸/۲.

۲- . المغازى: ۲۱۴/۱.

۳- . لاحظ: المغازى: ۲۱۶/۱.

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه كانوا يرغبون فى أن يسلكوا أقرب الطرق إلى معسكرهم، من هنا اضطروا إلى أن يمروا عبر بستان لمنافق من منافقى المدينه يدعى «مربع بن قيظى» وكان ضريراً، فامتنع من ذلك، وأساء بالقول إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فابتدره أصحاب النبىّ ليقتلوه فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«لا تَقْتُلُوهُ، فَهذا الأعْمى أعمى القلب، أعمى البصر»(۱).

جنديان فدائيان

استعرض رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جيشه فى منطقه تُدعى بالشيخين(۲)، وكانت الوجوه المشتاقه إلى الجهاد تلمع كما تلمع صفحات السيوف، وتعكس إصراراً كبيراً على قتال الكفّار ومجاهده المشركين.

ولقد كان جيش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الّذى خرج بهم لمجابهه قريش عند جبل أُحد يتألّف من مقاتلين يتفاوتون فى الأعمار تفاوتاً كبيراً.

ففيهم الشيخ الكبير الطاعن فى السن وفيهم الشاب الفدائىّ الّذى لم يتجاوز الخامسه عشره.

ولقد كان الدافع الّذى يحرّك الجميع إلى ذلك هو عشق الكمال الّذى ما كان ليتوفّر إلّافى ظلّ الدفاع عن صرح التوحيد المقدّس، ليس إلّا.

ولإثبات هذه الحقيقه نشير هنا إلى قصّه شيخ كبير السن، وشاب لم يمض من عرسه إلّالليله واحده!!

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۵۸۵/۳؛ المغازى: ۲۱۸/۲.

۲- . ولقد كان من عاده النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وأُسلوبه فى جميع المعارك استعراض جيشه على الدوام، وعدّهم، وتسريح بعض العناصر الضعيفه أحياناً.

۱. إنّ «عمرو بن الجموح» کـان رجلاً ـ شـیخاً أعرج شدیـد العرج - وقـد أُصـیب فی رجله فی حـادثه - وکـان له بنونٌ أربعهٌ مثل الأُسود، یشهدون مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم المشاهد، فلمّا کان یوم «أُحد» أراد أن یخرج مع النبیّ صلی الله علیه و آله و سـلم وقد أبت نفسه أن تفوته الشـهاده، وأن یجلس فی بیته ولا یشترک مع رسول اللّه فی تلک المعرکه، وإن اشترک بنوه الأربعه فیها.

فـأراد أهله وبنوه حبسَهُ وقـالوا له: إنَّ اللّه عزّوجل قـد عـذَرَک، ولم یقتنع بمقالتهم، وأتی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم وقال: إنّ بنیّ یریدون أن یحبسونی عن هذا الوجه، والخروج معک فیه، فواللّه إنّی لأرجو أن أطأ بعرجتی هذه فی الجنّه.

فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«أمّا أنتَ فَقَدْ عَذَرَک اللّهُ فَلا جهادَ عَلَیْکَ»(۱).

ثم قال صلی الله علیه و آله و سلم لبنیه وقومه:

«ما عَلَیْکُمْ أن لا تَمْنَعُوه، لعلَّ اللّه یَرْزقَهُ الشهادَه».

فخلّوا عنه، وخرج وهو یقول: اللهمّ ارزقنی الشهاده ولا تردنی إلی أهلی.

وقـد کان موقف هذا المجاهد الأعرج من مشاهد معرکه «أُحد» العظیمه، ومن قصصـها الرائعه، فقد کان یحمل - وهو علی ما هو علیه من العرج - علی الأعداء ویقول: «أنا واللّه مشتاقٌ إلی الجنّه» وابنه یعدو فی أثره حتّی قُتِلا جمیعاً(۲).

۲. «حنظله» وهو شاب لم یکن قد جاوز الرابعه والعشرین من عمره آنذاک.

۱- . لقول اللّه تعالی: «لَیْسَ عَلَی الْأَعْمی حَرَجٌ وَ لا عَلَی الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَی الْمَرِیضِ حَرَجٌ» (الفتح: ۱۷).
۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۶۰۷/۳؛ المغازی: ۲۶۴/۱-۲۶۵.

وهو ابن «أبی عامر» عدوّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم والّذی کان مصداقاً لقول اللّه تعالی:

«یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ» .(۱)

فقد اشترک والده أبو عامر الفاسق فی معرکه «أُحد» إلی جانب قریش ضد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وکان ممّن یکیدون للإسلام وممّن حرّض قریشاً ضدّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، واستمرّ فی معاداه الإسلام حتّی النفس الأخیر، ولم یألُ جهداً فی هذا السبیل.

وقد کان أبو عامر هذا هو السبب الرئیسیّ وراء حادثه مسجد «ضرار» الّتی سیأتی تفصیلها فی حوادث السنه التاسعه من الهجره.

غیر أن علاقه الأُبوّه والبنوّه وما یتبعها من أحاسیس لم تصرف حنظله عن الاشتراک فی حرب ضد أبیه، مادام أبوه علی باطل وهو (أی حنظله) علی الحقّ، فیوم خرج النبیّ مع أصحابه إلی «أُحد» لمواجهه قریش کان حنظله یرید البناء بزوجته لیلته، فقد تزوّج بابنه «عبداللّه بن أبی بن سلول» وکان علیه أن یقیم مراسیم الزفاف والعرس فی اللیله الّتی خرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی «أُحد» فی صبیحتها المنصرمه.

ولکنّه عندما سمع مؤذن الجهاد، ودوّی نداؤه فی أُذنه تحیّر فی ما یجب أن یفعله، فلم یجد مناصاً من أن یستأذن من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بأن یتوقّف فی المدینه لیله واحده لإجراء مراسیم العرس ویقیم عند عروسته ثم یلتحق بالمعسکر الإسلامی صبیحه الغد من تلک اللیله.

وقد نزل فی هذا الشأن - علی روایه العلّامه المجلسی - قوله تعالی:

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا کانُوا مَعَهُ عَلی أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ

۱- . الأنعام: ۹۵.

يَذْهَبُوا حَتّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَکَ أولئِکَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوکَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» .(۱)

فأذن له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم(۲).

فبات حنظله عند عروسته تلک الليله ودخل بها، ولمّا أصبح خرج من فوره وتوجّه إلى «أُحد» وهو جنب.

ولكنّه حينما أراد أن يخرج من منزله بعثت امرأته إلى أربعه نفر من الأنصار، وأشهدت عليه أنّه قد واقعها.

فقيل لها: لِمَ فعلتِ ذلک؟

قالت: رأيت هذه الليله فى نومى كأنّ السماء قد انفرجت فوقع فيها حنظله، ثم انضمت، فعلمت أنّها الشهاده، فكرهت أن لا أُشهدَ عليه.

ولمّا حضر حنظله القتال نظر إلى أبى سفيان على فرس يجول بين العسكر، فحمل عليه، فضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت الفرس وسقط أبوسفيان إلى الأرض، وصاح: يا معشر قريش أنا أبوسفيان، وهذا حنظله يريد قتلى، وعدا أبو سفيان، وجرى حنظله فى طلبه، فعرض له رجلٌ من المشركين فطعنه، فمشى إلى ذلک المشرک فطعنه فضربه وقتله، وسقط حنظله إلى الأرض بين حمزه وعمرو بن الجموح وعبداللّه بن حزام وجماعه من الأنصار، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«رَأيتُ المَلائکَه تغسِّل حنظلهَ بينَ السَماءِ والأَرْض بماء المزن فى صحائفَ من ذهَب»(۳).

۱- . النور: ۶۲.

۲- . بحار الأنوار: ۵۷/۲۰.

۳- . لاحظ: أُسد الغابه: ۵۹/۲ و ۶۰؛ بحار الأنوار: ۵۷/۲۰-۵۸ و غيرهما.

فكان يُسمّى غسيل الملائكه أو حنظله الغسيل.

وكانت الأوس تعدّ حنظله من مفاخرها فكانت تقول: «ومنّا حنظله غسيل الملائكه».

وكان أبوسفيان يقول: حنظله بحنظله، ويقصد بالأوّل حنظله غسيل الملائكه وبالثانى ابنه حنظله الّذى قتل يوم بدر(۱).

إنّه حقّاً عجيب أمر هذين العروسين (الزوجين) فبينما كانا هما فى أعلى درجات التفانى فى سبيل الحقّ كان والداهما، من أعداء رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وخصومه الألدّاء.

فعبداللّه بن أُبى بن سلول (والد العروس) كان رأس المنافقين فى المدينه، وكان أبو عامر الفاسق والد العرّيس الّذى كان يُسمّى فى الجاهليه بالراهب معادياً أشد العداء لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقد التحق بالمشركين فى مكّه، كما حرّض «هرقل» لضرب الحكومه الإسلاميه الفتيه فى المدينه، ثم اشترك فى معركه أُحد ضدّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقاتل المسلمين قتالاً شديداً(۲).

العسكران يصطفّان

فى صبيحه اليوم السابع من شهر شوال من السنه الثالثه للهجره اصطفّت قوى الإسلام أمام قوى الشرك المعتديه، وكان جيش التوحيد قد جعل ظهره إلى أُحد كمانِع طبيعىّ يحفظ الجيش من الخلف. وقد كان فى جبل أُحد ثغره كان من الممكن أن يتسلّل منها العدوّ ويباغت المسلمين من الخلف، ويوجّه إليهم ضربه

۱- . أُسد الغابه: ۶۰/۲.

۲- . أُسد الغابه: ۵۹/۲.

قاضیه.

ولهذا عمل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی وضع جماعهٍ من الرماه عند تلک الثغره، وأمّر علیهم «عبداللّه بن جبیر» وقال:

«إنضَح الخیْلَ عنّا بالنبل، واحموا لنا ظُهورَنا، لا یأتونا من خلفِنا، والْزموا مکانکم لا تبرحوا منه، إن کانت لنا أو علینا، فلا تفارقوا مکانکم».

ولقد أثبتت حوادث «أُحد» الّتی وقعت فی ما بعد أهمیه هذه الثغره عسکریاً، فقد کانت هزیمه المسلمین بعد انتصارهم فی بدایه المعرکه نتیجه تجاهل الرماه لأمر النبیّ وإخلاء ذلک الموقع الاستراتیجی، الأمر الّذی سمح للعدوّ بأن یباغت المسلمین فی حرکه التفافیه سریعه، ویحمل علیهم، ویوجه إلیهم ضربه قویه!!

إنّ أمر النبیّ المؤکّد والمشدّد للرماه بأن لا یخلوا أماکنهم فی الجبل حیث الثغره المذکوره، یکشف عن معرفته الکامله بقواعد القتال وقوانین الحرب، وبما یصطلح علیه الیوم بالتکتیک العسکری.

بید أنّ نبوغ القائد العسکری لا یکفی وحده لإحراز الانتصار إذا کان الجنود یعانون من عدم الانضباط، وعدم التقیّد بأوامر القائد.

ولقد أشار القرآن الکریم إلی الترتیبات المیدانیه، الّتی قام بها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عند استقرار جنود الإسلام فی أرض المعرکه بأحد، وتعیینه لمکان کلّ قطعه من قطعات الجیش الإسلامی إذ قال:

«وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِکَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِینَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» (۱).

۱- . لاحظ: مجمع البیان: ۴۹۵/۴؛ تفسیر الکشاف: ۳۴۶/۱-۳۴۷. والآیه ۱۲۱ من سوره آل عمران.

رفع معنويات الجنود وتقويه عزائمهم

لم يكن النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم ليغفل فى المعارك والحروب عن تقويه العنصر الروحى لدى الجنود، وما يصطلَح عليه الآن بالروح المعنويه، أو المعنويات العسكريه.

ففى هذه المره أيضاً لمّا اصطفّ سبعمائه مقاتل مسلم أمام ثلاثه آلاف من المقاتلين المشركين المدجّجين بالسلاح، خطب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى المسلمين خطبه رفع بها من معنويات المسلمين، وذلك بعد أن نظم صفوفهم وسوّاها.

فلقد كتب «الواقدى» المؤرّخ الإسلامى الكبير فى هذا الصدد ما يلى:

جعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الرماه خمسين رجلاً ـ على «عَينين» عليهم «عبداللّه بن جبير»، وجعل «أُحُداً» خلف ظهره، واستقبل المدينه، ثم جعل صلى الله عليه و آله و سلم يمشى على رجليه يسوّى تلك الصفوف، ويبوّئ أصحابه مقاعد للقتال يقول تقدّم يا فلان، وتأخّر يا فلان، حتّى أنّه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخّره، فهو يقوّمهم كأنّما يقوّم بهم القداح.

ثم قام صلى الله عليه و آله و سلم فخطب الناس فقال:

«يا أيّها الناسُ، أُوصيكم بما أوصانىَ اللّهُ فى كتابه من العمل بطاعته، والتناهى عن محارِمه، ثم إنكم اليومَ بمنزل أجر وذُخرٍ. لمن ذكر الّذى عليه، ثم وطن نفسَهُ له عَلى الصبر واليقين والجدّ والنشاطِ فإنّ جهادَ العدوّ شديدٌ، شديدٌ كَربهُ، قليلٌ مَن يصبر عليه، إلّامَن عَزَم اللّهُ رشدَه، فإنّ اللّه مَعَ من أطاعهُ، وإنَّ الشيطانَ مع مَن عصاهُ، فافْتتحُوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسُوا بذلكَ ما وَعَدَكُم اللّه، وعليكمْ بالذى أمركم بهِ، فَإنّى حَريصٌ عَلى رشدِكُمْ، فإنَ الاخْتِلافَ والتنازعَ والتثبيطَ مِنْ أمرِ العَجز والضعف مِمّا لا يحبُّ اللّهُ، ولا يعطى عليه النصرَ ولا الظفرَ....

وإِنَّهُ قدْ نفث فی رُوعی الروحُ الأمینُ أنّه لن تَموتَ نفسٌ حتّی تَسْتوفی أقصی رزقها، ولا ینْقص منه شیء وَ أن أبطأ عنها... والمؤمن مِن المؤمنین کالرأس من الجسد إذا اشتکی تداعی علیه سائر الجسد والسلام علیکم»(۱).

العدوّ ینظّم صفوفه

نظم أبوسفیان قائدُ المشرکین صفوف جنوده وقسّمهم إلی ثلاثه أقسام:

الرماه وجعلهم فی الوسط، والمیمنه واستعمل علیهم خالد بن الولید، والمیسره واستعمل علیهم عکرمه بن أبی جهل. وقدّم جماعه فیهم حمله الألویه والرایات.

ثم قال لأصحاب الرایات وکانوا جمیعاً من بنی عبدالدار: إنا إنّما أُتینا یوم بدر من اللواء، وإنّما یؤتی القوم من قِبَل لوائهم، فالزموا لواءکم وحافظوا علیه، أو خلوا بیننا وبینه فإنّا قوم مستمیتون موتورون، نطلب ثأراً حدیث العهد.

فشقَّ هذا الکلام علی «طلحه بن أبی طلحه» وکان شجاعاً، وهو أوّلُ مَن حمل رایه لقریش، فاندفع من فوره إلی ساحه القتال، وطلب المبارزه، متحدیاً بذلک أبا سفیان.(۲)

الإثاره النفسیّه وإلهاب الحماس

قبل أن یبدأ القتال أخذ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم سیفاً بیده وقال: - وهو یثیر بذلک همم جنوده -.

«من یأخذ هذا السیفَ بحقّه»؟ فقام إلیه رجال، فأمسکه عنهم حتّی قام إلیه

۱- . المغازی: ۲۲۱/۱-۲۲۳.

۲- . لاحظ: المغازی: ۲۲۰/۱-۲۲۱.

أبو دجانه الأنصارى، فقال: وما حقّه يا رسول اللّه؟

قال: «أن تضرب به العدوّ حتّى ينحنى».

قال: أنا آخذه يا رسول اللّه بحقّه.

فأعطاه إيّاه، وكان أبو دجانه رجلاً شجاعاً، يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلم بعصابه له حمراء فاعتصب بها عُلِمَ أنّه سيقاتل، فلمّا أخذ السيفَ من يد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أخرج عصابته تلك فعصّب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفّين. فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «إنّها لمشيه يبغضها اللّه إلّافى هذا الموطن»(۱).

حقّاً إنّ مثل هذه الإثاره النفسيه، وهذا التحريك القوىّ للهمم أمرٌ ضرورىٌ لجيش يقاتل دفاعاً عن الحقّ والقِيم، ولا يدفعه إلى ذلك سوى العقيده، وحب الكمال.

إنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لم يهدف بعمله إثاره أبى دجانه وحده، بل كان صلى الله عليه و آله و سلم يهدف بذلك إثاره الآخرين، وإفهامهم بأنّ عليهم أن يبلغوا فى الشجاعه والبطوله، والجرأه والإقدام هذا المبلغ.

يقول «الزبير بن العوّام» وهو كذلك رجلٌ شجاع: وَجدت فى نفسى حين سألت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانه وقلت: أنا ابن صفيّه عمّته، ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إيّاه قبله، فأعطاه إيّاه وتركنى!

واللّه لأنظرنّ ما يصنع. فأتبعته فأخرج عصابه له حمراء، فعصّب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانه عصابه الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصّبَ بها.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۵۸۷/۳.

فخرج وهو يقول:

أنا الّذى عاهَدَنى خليلى ونحن بالسفحِ لدى النخيل

ألّا أقوم الدهر فى الكيّول(۱) أضْرِب بسيف اللّه والرَّسول

فجعل لا يلقى أحداً إلّاقتله، وكان فى المشركين رجلٌ لا يدع لنا جريحاً إلّا ذفّف عليه، فجعل كلّ واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوتُ اللّه أن يجمع بينهما، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانه، فاتّقاه بدرقته، فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانه، فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس «هند بنت عتبه» ثم عدل السيف عنها، قال الزبير: فقلت: اللّه ورسوله أعلم.

ثم إنّ أبا دجانه أوضح عمله هذا فقال: رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له، فلمّا حملت عليه السيف وَلول فإذا امرأه، فأكرمت سيف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن أضرب به امرأه(۲).

بدايه القتال

بدأ القتال بما فَعَله أبو عامر الفاسق الّذى كان قد هرب من المدينه مباعداً لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كما أسلفنا، وكان من الأوس، وقد فرّ معه خمسه عشر رجلاً من الأوس بسبب معارضته للإسلام.

وقد تصوّر أبو عامر هذا أنّ الأوس إذا رأوا يوم أُحُد تركوا نصره رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فلمّا التقى العسكران يومئذ نادى أبو عامر: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر.

۱- . الكيّول: آخر الصفوف فى الحرب.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۵۸۸/۳-۵۸۹.

قالوا: فلا أنعم اللّه بک عیناً یا فاسق. فلمّا سمع ردّ الأوس قاتلهم قتالاً شدیداً...(۱).

ثم إنّ هناک مواقف وتضحیات عظیمه قام بها رجال معدودون فی معرکه أُحُد معروفه بین المؤرخین، أبرزها، وأجدرها بالإجلال تضحیات علی علیه السلام ومواقفه الکبری فی ذلک الیوم.

فهو صاحب اللواء والرایه فی هذه الموقعه الکبری.

قال الشیخ المفید فی «الإرشاد»: تلت بدراً غزاهُ أُحد فکانت رایه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بید أمیرالمؤمنین علیه السلام فیها... فمن ذلک ما رواه یحیی بن عماره قال:

حدّثنی الحسن بن موسی بن رباح مولی الانصار قال: حدّثنی أبو البختری القریشی، قال: کانت رایه قریش ولواؤها جمیعاً بید قصی بن کلاب، ثم لم تزل الرایه فی ید ولد عبدالمطلب یحملها منهم من حضر الحرب حتّی بعث اللّه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فصارت رایه قریش وغیرها إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، فأقرّها فی بنی هاشم، وأعطاها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی علی بن أبی طالب علیه السلام فی غزاه ودان(۲)، وهی أوّل غزاه حمل فیها رایه فی الإسلام مع النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ثم لم تزل معه فی المشاهد ببدر وهی البطشه الکبری، وفی یوم أُحد وکان اللواء یومئذ فی بنی عبد الدار، فأعطاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مصعب بن عمیر فاستشهد ووقع اللواء من یده فتشوفته القبائل، فأخذه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فدفعه إلی علی بن أبی طالب علیه السلام فجمع له یومئذ الرایه واللواء(۳).

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۵۸۷/۳.

۲- . ودان: موضع بین مکه والمدینه سُمّیت الغزوه به.

۳- . الارشاد: ۷۸-۷۹؛ بحار الأنوار: ۸۰/۲۰.

وقد ورد عن ابن عباس ما يؤيّد ذلك فقد روى أنّه قال: لعلى أربع خصال (ليس لأحد من العرب غيره) هو أوّل عربى وعجمى صلّى مع النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، وهو الّذى كان لواؤه معه فى كل زحف...(۱).

كما عن قتاده: أنّ على بن أبى طالب كان صاحب لواء رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يوم بدر وفى كلّ مشهد(۲). ثم إنّه كانت رايه قريش مع طلحه بن أبى طلحه العبدرى (وكان يُدعى كبش الكتيبه) فبرز ونادى: يا محمّد تزعمون أنّكم تجهزونا بأسيافكم إلى النار، ونجهزكم بأسيافنا إلى الجنّه، فمَن شاء أن يلحق بجنته فليبرز إلىّ فبرز إليه علىّ عليه السلام وهو يقول:

يا طلح إن كنتم كما تقول لكم خيول ولنا نصول

فاثبت لننظر أيّنا المقتول وأيّنا أولى بما تقول

فقد أتاك الأسد الصؤول

بصارمٍ ليس به الفلول ينصره القاهر والرسول

ثم تصاولا بعض الوقت قُتل بعده طلحه بضربه على عليه السلام القاضيه.

فأخذ الرايه أخوان آخران لطلحه فخرجا لقتال على عليه السلام على التناوب فقتلا جميعاً على يديه عليه السلام.

هذا ويستفاد من كلام لعلى عليه السلام قاله فى أيام الشورى الّتى انعقدت بعد موت الخليفه الثانى.

۱- . تاريخ مدينه دمشق: ۷۲/۴۲.

۲- . تاريخ مدينه دمشق: ۷۴/۴۲.

فقد قال الإمام علیه السلام فی مجلس ضم کبار الصحابه فی تلک المناسبه:

«نشدتکم باللّه هل فیکم أحدٌ قتل من بنی عبد الدار تسعه مبارزه غیری، کلُّهم یأخذ اللواء، ثم جاء صوأب الحبشی مولاهم وهو یقول لا أقتل بسادتی إلّا محمداً، قد أزبد شدقاه، واحمرّتا عیناه، فاْتّقیتموه، وحُدتم عنه، وخرجت إلیه، فلمّا أقبل کأنّه قبّه مبتیّه فاختلفت أنا وهو ضربتین، فقطعته بنصفین وبقیت رجلاه وعجزه وفخذه قائمه علی الأرض ینظر إلیه المسلمون ویضحکون منه».

قالوا: اللهم لا(۱).

أجل إنّ قریشاً کانت قد ادّخرت لحمل الرایه تسعه رجال من شجعان بنی عبد الدار وقد قتلوا جمیعاً علی ید الإمام علی علیه السلام علی التوالی فبرز غلامهم وقتل هو أیضاً(۲).

المقاتلون بدافع الشهوه!!

من الأبیات الّتی کانت تتغنّی بها «هند بنت عتبه» زوجه أبی سفیان ومن کان معها من النساء فی تحریض رجال قریش وحثّهم علی القتال وإراقه الدماء والمقاومه، ویضربن معها الدفوف والطبول، یتبیّن أنّ تلک الفئه لم تکن تقاتل من أجل القیم الرفیعه کالطهر والحریه، والخلق الإنسانی، بل کانت تقاتل بدافع الشهوه الجنسیه ومن أجل الوصول إلی المآرب الرخیصه.

فقد کانت الأغانی والأبیات الّتی تردّدها تلک النساء اللائی کنَّ یضربن بالدفوف خلف الرجال علی نحو خاص هی:

۱- . الخصال: ۵۶۰.

۲- . وقد ذکر المجلسی قصّه مصرع هؤلاء فی البحار: ۲۰/۵۰-۵۱.

نحن بناتُ طارقْ نمشى على النمارق

إن تقبلوا نُعانِقْ أو تدبروا نفارقْ

ولا شكّ أنّ الفئه الّتى تقاتل من أجل الشهوات، ويكون دافعها إلى الحرب والقتال هو الجنس واللذه، وبالتالى لا تهدف سوى الوصول إلى المآرب الرخيصه فإنّ حالها تختلف إختلافاً بيّناً وكبيراً عن حال الفئه الّتى تقاتل من أجل هدف مقدّس كإقرار الحريه، ورفع مستوى الفكر، وتحرير البشريه من براثن الجهل وأسر الخضوع للأوثان.

ولا شكّ أنّ لكلّ واحده من تلك الدوافع آثارها المناسبه فى روح المقاتل وسلوكه.

ولهذا لم يمض زمان طويل إلّاووضعت قريش أَسلحتها على الأرض وولّت هاربه من أرض المعركه بعد أن أُصيبت بإصابات قويه بفضل صمود وتضحيات رجال مؤمنين شجعان كعلىّ وحمزه وأبى دجانه والزبير و... مخلِّفه وراءها غنائم وأموالاً كثيره، وأحرز المسلمون بذلك انتصاراً عظيماً على عدوهم القوى فى تجهيزاته، الكثير فى أفراده(۱).

الهزيمه بعد الانتصار

قد يتساءل سائل: لماذا انتصر المسلمون أوّلاً؟

لقد انتصروا لأنّهم كانوا يقاتلون، ولا يحدوهم فى ذلك شىء حتّى لحظه الانتصار إلّاالرغبه فى مرضاه اللّه، ونشر عقيده التوحيد، وإزاله الموانع عن طريقها، فلم يكن لهم أى دافع مادىّ يشدّهم إلى نفسه.

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۵۸۸/۳؛ تاريخ الطبرى: ۱۹۴/۲.

وقد يتساءل سائل: لماذا انهزموا أخيراً؟

لقد انهزموا لأنّ أهداف أكثر المسلمين ونواياهم قد تغيّرت بعد تحقيق الانتصار، فقد توجّهت أنظارهم إلى الغنائم الّتى تركتها قريش فى أرض المعركه، وفرّوا منهزمين. لقد خولط إخلاص عدد كبير من المسلمين، ونسوا على أثره أوامر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، وتعاليمه، فغفلوا عن ظروف الحرب.

وإليك فيما يأتى تفصيل الحادث:

لقد ذكرنا عند بيان الأوضاع الجغرافيه لمنطقه أُحد أنّه كان فى «جبل أُحد» شِعب «ثغره» وقد كلّف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خمسين رجلاً من الرماه بمراقبه ذلك الشِّعب، وحمايه ظهر الجيش الإسلامى، وأمّر عليهم «عبداللّه بن جبير»، وكان قد أمر قائدهم بأن ينضحوا الخيل ويدفعوها عن المسلمين بالنبل ويمنعوا عناصر العدوّ من التسلّل من خلالها ولا يغادروا ذلك المكان انتصر المسلمون أو انهزموا، غَلَبوا أو غُلِبُوا.

وفعل الرماه ذلك فقد كانوا فى أثناء المعركه يحمون ظهور المسلمين، ويرشقون خيل المشركين بالنبل فتولّى هاربه، حتّى إذا ظفر النبىّ وأصحابُه، وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوون على شىء وقد تركوا على أرض المعركه غنائم وأموالاً كثيره، وقد تبعهم بعض رجال المسلمين ممّن بايع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على بذل النفس فى سبيل اللّه ومضوا يضعون السلاح فيهم حتّى أجهضوهم عن العسكر، أمّا أكثر المسلمين فقد وقعوا ينتهبون العسكر ويجمعون الغنائم تاركين ملاحقه العدوّ وقد أغمدوا السيوف، ونزلوا عن الخيول ظنّاً بأنّ الأمر قد انتهى.

فلمّا رأى الرماه المسؤولون عن مراقبه الشِّعب ذلك قالوا لأنفسهم: وَ لِمَ نقيمُ هنا من غير شىء وقد هزَم اللّه العدوّ فلْنذهَبْ ونغنم مع إخواننا.

فقال لهم أميرهم (عبداللّه بن جبير): ألم تعلموا أنَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قال لكم:

إحموا ظهورَنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنِمنا فلا تشركونا إحموا ظهورنا؟

ولكنّ أكثر الرماه خالفوا أمر قائدهم هذا وقالوا: لم يرد رسول اللّه هذا، وقد أذلّ اللّه المشركين وهزَمهم، فادخلوا العسكر فانتهبوا مع إخوانكم.(۱)

ولهذا نزل أربعون رجلاً من الرماه من الجبل ودخلوا فى عسكر المشركين ينتهبون مع غيرهم من المسلمين الأموال وقد تركوا موضعهم الاستراتيجى فى الجبل، ولم يبق مع عبداللّه بن جبير إلّاعشره رجال!!

وهنا استغل «خالد بن الوليد» الّذى كان مقاتلاً شجاعاً، قلّه الرماه فى ثغره الجبل، وكان قد حاول مراراً أن يتسلّل منها ولكنّه كان يقابلُ فى كلّ مره نبال الرماه، فحمل بمن معه من الرجال على الرماه فى حمله التفافيّه، وبعد أن قاتل من بقى عند الثغره وقتلهم بأجمعهم انحدر من الجبل وهاجم المسلمين الذين كانوا منشغلين بجمع الغنائم، وغافلين عمّا جرى فوق الجبل، ووقعوا فى المسلمين ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح، ورمياً بالنبال، ورضخاً بالحجار، وهم يصيحون تقويهً لجنود المشركين. فتفرّقت جموع المسلمين، وعادت فلولُ قريش تساعد خالداً وجماعته، وأحاطوا جميعاً بالمسلمين من الإمام والخلف، وجعل المسلمون يقاتلون حتّى قُتِل منهم سبعون رجلاً.

إنّ هذه النكسه تعود إلى مخالفه الرماه لأوامر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم تحت تأثير المطامع الماديه وتركهم ذلك المكان الاستراتيجى عسكرياً والّذى اهتم به القائد

۱- . المغازى: ۲۲۹/۱.

الأعلى صلى الله عليه و آله و سلم، وأكد بشدّه على المحافظه عليه، ودفع أىّ هجوم من قِبَلِ العدوّ عليه.

وبـذلك فتحوا الطريق - من حيث لا يشـعرون - للعـدوّ بحيث هاجمتهم الخيل بقياده خالد بن الوليد، فدخل إلى أرض المعركه من ظهر الجيش الإسلامى، ووجه إلى المسلمين تلك الضربه النكراء!!

ولقـد ساعـد خالـداً فى هـذا «عكرمهُ بن أبى جهـل» الّـذى حمـل هو الآـخر بمن كان معه من الرجال على المسـلمين، وساد على صفوف المسلمين فى هذا الحال الهرج والمرج، وعمّت فوضى لا نظير لها ساحه المعركه، ولم ير المسلمون مناصاً من أن يدافعوا عن أنفسـهم متفرّقين ولكن عِقـد القياده لمّا قـد انفرط بسـبب هذه المباغته العسـكريه لم يسـتطع المسـلمون إحراز أى نجاح فى الـدفاع، بل تحمّلوا - كما أسـلفنا - خسائر كبرى فى الأرواح، وقُتِلَ عـدد من المسـلمين على أيـدى إخوانهم من المسـلمين خطأ ومن دون قصد.

ولقـد صـعّدت حملات خالـد وعكرمه من معنويات المشـركين، ونفخت فيهم روحاً جديـده فعادت قواتهم الهاربه المنهزمه قبل قليل، ودخلت ساحه المعركه ثانيه، وساعدت جماعه منهم خالداً وعكرمه وحاصـروا المسلمين من كلّ ناحيه وقُتِلَ جمع كبير من المسلمين بسبب ذلك!!(۱)

شائعه مقتل النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم

وفى هذا الوقت حمل «الليثى»(۲) وكان من صـناديد قريش وأبطالها على مصـعب بن عمير حامل لواء الإسلام فى تلك المعركه وهو يظن أنّه رسول

۱- . لاحظ: المغازى: ۲۳۲/۱-۲۳۳.

۲- . هو عبداللّه بن قمئه الليثى.

اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتبودلت بينهما طعنات وضربات حتّى قُتل «مصعب» بضربه من الليثى، وكان المسلمون يومئذ ملثَّمون، ثم صاح: قتلت محمّداً، أو قال: ألا قد قُتِلَ محمد، ألا قد قُتِلَ محمد.(۱) فانتشر هذا الخبر فى جموع المسلمين كالنار فى الهشيم وعلمت قريش بذلك فسرّوا بذلك سروراً عظيماً، وارتفعت الأصوات فى ساحه القتال تنادى: ألا قد قُتِلَ محمّد، ألا قد قُتِلَ محمّد.

ولقد زاد هذا الخبر الكاذب من جرأه العدوّ فتحرّكت جحافله وأفراده نحو المسلمين يسعى كلّ واحد منهم أن يقتطع من جسم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عضواً، وبذلك ينال فخراً فى أوساط المشركين!! وبقدر ما ترك هذا الخبر الكاذب من أثر إيجابى فى نفوس المشركين، تركَ أثراً سيئاً جداً فى نفوس المسلمين، وأضعف معنوياتهم بشدّه بحيث تخلّى عددٌ كبير من المسلمين عن القتال، ولجأوا إلى الجبل فراراً بأنفسهم، ولم يثبت إلّاعددٌ قليل لا يتجاوز أصابع اليد من الرجال.(۲)

هل يمكن إنكار فرار بعض الصحابه من أرض المعركه؟

لا يمكن أبداً أن ينكر أحدٌ فرار أصحاب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إلّامن يعدّون بالأصابع فى تلك المعركه، ولا يمنع كونهم صحابه، أو كونهم أصبحوا ذوى مكانَه أو مناصب فى المجتمع الإسلامى فى ما بعد، من القبول بهذه الحقيقه التاريخيه المرّه.

۱- . لاحظ: سيره ابن هشام (السيره النبويه): ۵۹۲/۳.

۲- . لاحظ: سيره ابن هشام: ۵۹۶/۳-۵۹۷.

فهذا هو ابن هشام المؤرّخ الإسلامی الکبیر یکتب فی هذا الصدد قائلاً:

انتهی أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالک إلی عمر بن الخطاب وطلحه بن عبیداللّه فی رجال من المهاجرین والأنصار، وقد ألقوا بأیدیهم(۱) فقال: ما یجلسکم؟ (أی ما یقعدکم عن القتال والمقاومه).

قالوا: قُتِلَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

قال: فماذا تصنعون بالحیاه بعده؟ قوموا فموتوا علی مامات علیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

ثم عاد إلی المشرکین فقاتلهم حتّی قُتِلَ.(۲)

أو قال - حسب روایه کثیر من المؤرّخین -: إن کان محمد قد قُتِلَ فإنّ ربَ محمَّد لم یُقتَل، فقاتِلُوا علی ما قاتل علیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، ومُوتوا علی ما مات علیه، ثم قال: اللّهم إنّی أعتذر إلیک ممّا یقوله هؤلاء، وأبرأ إلیک ممّا جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسیفه علی الکفّار فقاتل حتّی قُتِلَ.(۳)

ویروی ابن هشام عن أنَس بن مالک (ابن أخ أنس بن النضر) لقد وجدنا بأنس ابن النضر یومئذ سبعین جراحه فما عرفه إلّاأُختُه عرفته ببنانه(۴).

وکتب الواقدی فی مغازیه یقول:

حدّثنی ابن أبی سبره عن أبی بکر بن عبداللّه بن أبی جهم، واسم أبی جهم عبید قال: کان خالد بن الولید یُحدّث وهو بالشام یقول: الحمدللّه الّذی هدانی

۱- . ای استسلموا.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۶۰۰/۳.

۳- . تاریخ الطبری: ۲۰۱/۲.

۴- . السیره النبویه لابن هشام: ۶۰۰/۳، راجع تفسیر المنار: ۱۰۲/۴.

للإسلام، لقد رأيتنى ورأيت عمر بن الخطاب حين جالوا وانهزموا يوم أحد وما معه أحد وإنّى لفى كتيبه خشناء فما عرفه منهم أحد غيرى فنكبتُ عنه وخشيت إن أغريت به من معى أن يصمدوا له، فنظرتُ إليه موجِّهاً إلى الشعب(۱).

وقد بلغ الانهزام والضعف النفسى ببعض الصحابه فى هذه المعركه بحيث أخذ يفكّر فى التبرّى من الإسلام لينجو بنفسه فقال: ليت لنا رسولاً إلى عبداللّه بن أُبى فيأخذ لنا أماناً من أبى سفيان!!(۲).

القرآن يكشف عن بعض الحقائق

إنّ الآيات القرآنيه تمزق كلّ حجب الجهل والتعصّب الّتى أُسدلت على هذه المسأله، وتفيد بوضوح أنّ طائفه من أصحاب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم اعتقدوا بأنّ ما أخبر به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من الظفر، والنصر لا ـ أساس له من الصحّه، فإنّ اللّه تعالى يقول فى هذا الصدد:

«وَ طائِفَهٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّهِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَىْ ءٍ» .(۳)

وفى إمكانك أيّها القارئ الكريم أن تحصل على الحقائق المكتومه فى هذا المجال بالتمعن فى آيات من سوره آل عمران(۴).

فهذه الآيات تكشف بصوره كامله عن عقيده الشيعه حول أصحاب رسول

۱- . المغازى: ۲۳۷/۱.

۲- . بحار الأنوار: ۲۷/۲۰؛ تاريخ الطبرى: ۲۰۱/۲؛ البدايه والنهايه: ۲۶/۴.

۳- . آل عمران: ۱۵۴.

۴- . الآيات: ۱۲۱-۱۸۰.

اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

فإنّ الشیعه تعتقد بأنّه لم یکن جمیع صحابه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أوفیاء، لعقیده التوحید، متفانین فی سبیله، بل کان منهم الضعیف فی إیمانهم والمنافق، والمتردّد، ومع ذلک لم یکن المؤمنون الأتقیاء والصالحون الأبرار قلّه أیضاً.

ومن العجیب والمؤسف أن یسعی بعض الکُتّاب من أهل السنّه الیوم إلی التغطیه علی کثیرٍ من المواقف والأعمال المشینه الّتی بدرت من بعض الصحابه کالذی مرّ علیک فی معرکه أُحد، ویحاول تجاوزها بنوع من التبریر البعید عن روح الحقیقه کمحاوله للمحافظه علی شأن جمیع الصحابه، و مکانتهم علی حین أن هذه التبریرات الفجّه، وهذا التعصّب اللامنطقی لا یمکنهما أن تمنع من رؤیه الحقیقه کما هی.

فأی کاتب یستطیع إنکار مفاد هذه الآیه الّتی تصرّح قائله:

«إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلی أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ یَدْعُوکُمْ فِی أُخْراکُمْ» (۱).

إنّ هذه الآیه تقصدُ أُولئک الّذینَ رآهم أنس بن النضر، ومَن شابَهَهُم من الذین ترکوا ساحه المعرکه، ولجأوا إلی الجبل، وجلسوا یفکّرون فی نجاه أنفسهم!!

والأوضح من الآیه السابقه قولُ اللّه تعالی:

«إِنَّ الَّذِینَ تَوَلَّوْا مِنْکُمْ یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّیْطانُ بِبَعْضِ ما کَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِیمٌ» (۲).

إن اللّه تعالی یعاتب ویوبّخ الّذین تذرّعوا - لفرارهم من المعرکه - بنبأ مقتل

۱- . آل عمران: ۱۵۳.

۲- . آل عمران: ۱۵۵.

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على يد العدوّ، وراحوا يفكّرون فى الحصول على أمان من أبى سفيان بواسطه عبداللّه بن أُبى إذ يقول:

«وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِى اللّهُ الشّاكِرِينَ» .(۱)

التجارب المرّه

إنّ فى أحداثِ معركه «أُحد» ووقائعها تجارب مرّه وأُخرى حلوه، فهذه الحوادث والوقائع تثبت بجلاء صمود واستقامه جماعه، وضعف وهزيمه آخرين.

كما أنّه يستفاد من ملاحظه الحوادث التاريخيه أنّه لا يمكن اعتبار جميع المسلمين الذين عاصروا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أتقياء عدولاً بحجّه أنّهم صحبوا النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّ الذين أخلَوا مراكزهم على الجبل، يوم أُحد وعَصَوا أمر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى تلك اللحظات الخطيره، وجَرُّوا بفعلهم على المسلمين تلك المحنه الكبرى، كانوا أيضاً ممّن صحبوا النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم.

يقول المؤرّخ الإسلامى الكبير الواقدى فى هذا الصدد: «بايع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يوم أُحد ثمانيه على الموت: ثلاثه من المهاجرين وخمسه من الأنصار:

على وطلحه والزبير، وأبودجانه والحارث بن الصمّه وحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف، فلم يقتل منهم أحد.(۲)

وكتب العلّامه ابن أبى الحديد المعتزلى أيضاً: حضرت عند محمد بن معد

۱- . آل عمران: ۱۴۴.

۲- . المغازى: ۲/۲۴۰.

العلوی الموسوی الفقیه علی رأی الشیعه الإمامیه رحمه الله فی داره بدرب الدواب ببغداد فی سنه ۶۰۸ هجریه، وقارئ یقرأ عنده مغازی الواقدی، فقرأ: حدّثنا الواقدی عن ابن أبی سبره، عن خالد بن ریاح، عن أبی سفیان مولی ابن أبی أحمد، عن محمد بن مسلمه یقول: سمعت أُذنای، وأبصرت عیناى رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یقول یوم أُحد، وقد انکشف الناس إلی الجبل، وهو یدعوهم وهم لا یلوون علیه، سمعته یقول:

«إلیَّ یا فلان، إلیّ یا فلان أنا رسول اللّه».

فما عرّج علیه واحد منهما، ومضیا!! فأشار ابن معد إلیّ أن إسمع.

فقلت: وما فی هذا؟ قال: هذه کنایه عنهما (أی اللّذین تسنّما مسند الخلافه بعد النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم).

فقلت: ویجوز أن لا یکون عنهما لعلّه عن غیرهما.

قال: لیس فی الصحابه من یُحتشَم ویستحیا من ذکره بالفرار، وما شابهه من العیب، فیضطرّ القائلُ إلی الکنایه إلّاهما.

قلت له: هذا وَهْمٌ.

فقال: دعنا من جَدَلک ومَنعکَ، ثم حَلَفَ أنّه ما عنی الواقدیُ غیرهما، وأنّه لوکان غیرُهما لذکرهما صریحاً(۱).

کما أنّ العلّامه ابن أبی الحدید ذکر فی شرحه لنهج البلاغه أیضاً اتّفاقَ الرواه کافّه علی أنّ عثمان لم یثبت فی تلک اللحظات الحساسه یوم أُحُد(۲).

وستقرأ فی الصفحات القادمه ما قاله رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عن امرأهٍ مجاهدهٍ

۱- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۲۳/۱۵-۲۴.

۲- . شرح نهج البلاغه: ۲۰/۱۵. ولاحظ: المغازی: ۲۷۸/۱ و ۲۷۹.

متفانیه فی سبیل الرساله الإسلامیه تدعی «نسیبه المازنیه» دافعت عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یوم أُحُد.

فقد لمّح رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی کلامه عنها وعن موقفها العظیم یومذاک، إلی ما یقلّل من شأن الذین فرّوا من المعرکه.

نحن لا نرید هنا الإساءه إلی أیّ واحد من صحابه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، بل غایه ما نتوخّاه هو الکشف عن الحقیقه، وإماطه اللثام عن الواقع، فبقدر ما نستنکر، ونقبّح فرار من فرّ، نکبر صمود من صمد وثبات من ثبت ممّن سنأتی علی ذکرهم فی الصفحات القادمه، وهذا هو ما تملیه علینا روح التحلیل الصادق أو تقتضیه أمانه النقل، وما یُسمّی بالأمانه التاریخیه علی الأقل.

خمسه یتحالفون علی قتل النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم

فی تلک اللحظات الّتی تشتت فیها جیش المسلمین، وانفرط عقده، وفی الوقت الّذی ترکّزت فیه حملات المشرکین من کلّ ناحیه علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تعاهد خمسه أنفارٍ من صنادید قریش المعروفین أن یضعوا نهایهً لحیاه النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم ویقضوا علیها مهما کلّفهم من الثمن.

وهؤلاء هم:

۱. عبداللّه بن شهاب الّذی جرح جبهه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم.

۲. عتبه بن أبی وقّاص الّذی رمی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بأربعه أحجار فکسر رُباعیته صلی الله علیه و آله و سلم، وأشظی باطنها، من الجهه الیمنی.

۳. ابن قمیئه اللیثی الّذی رمی وجنتی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وجرحهما بحیث غاب حلق المغفر فی وجنته صلی الله علیه و آله و سلم، فأخرجها أبو عبیده الجراح بأسنانه فکسرت

ثنیتاه العلیا والسفلی.

۴. عبد اللّه بن حمید الّذی قُتِلَ علی ید بطل الإسلام أبی دجانه وهو یحمل علی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم.

۵. أُبی بن خلف وکان من الذین قُتلوا بید رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم نفسه.(۱)

فهو واجه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عندما وصل صلی الله علیه و آله و سلم إلی الشِّعب، وقد عرفه بعض أصحابه وأحاطوا به، فجعل یصیح بأعلی صوته: یا محمّد لا نجوتُ إن نجوتَ، وحمل علی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ولمّا دنا تناولَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الحربه من «الحارث بن الصمّه»، ثم انتفض انتفاضهً شدیدهً وطعن «أُبیّاً» بالحربه فی عنقه، وهو علی فرسه، فجعل أُبیٌّ یخور کما یخور الثور!

ومع أنّ ما أصاب أُبیّاً من جراحه کان یبدو بسیطاً، إلّاأنّه تملّکه رعبٌ وخوفٌ شدیدان، إذ لم ینفعه معهما تطمینات رفاقه، ولم یذهب عنه الروع بکلامهم، وکان یقول: واللات والعزی لو کان الّذی بی بأهل ذی المجاز(۲) لماتوا أجمعون.

أَلیس قال: (أی النبیّ یومَ کان بمکه) أنا أقتلُکَ إن شاء اللّه، قتلنی واللّه محمّدٌ!!

وقد فعلت الطعنه، وکذا خوفه فعلتهما فمات فی منطقه تدعی سرف (وهو موضع علی سته أمیال من مکه) فیما کانت قریش قافلهً من أُحد إلی مکه(۳).

۱- . لاحظ: المغازی: ۲۴۳/۱.

۲- . کان ذوالمجاز سوقاً من أسواق العرب وهو عن یمین الموقف بعرفه قریباً من کبکب (معجم ما استعجم علی ما فی حواشی المغازی: ۵۰۸).

۳- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۶۰۲/۳-۶۰۳؛ المغازی: ۲۵۱/۱.

حقاً إنّ هـذا ينمُّ عن منتهى الدناءه والخسه فى خُلُق قريش وموقفها، فمع أنّها كانت تعرف صدق رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم وتعترف به، وتنكرُ أن يكون قـد صَـدَرَ منه كِـذبٌ فى قول، أو خُلف فى وعـد، كانت تعاديه أشـدّ العِداء، وتمدّ نحوه يَدَ العدوان، وتبغى مصرعه، وتسعى إلى إراقه دمه!!

كما أنّه من جهه أُخرى يدلّ على شـجاعه رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم وبطولته ومقدرته الروحيه الكبرى، من ناحيه أُخرى، وثباته فى عمله من ناحيه ثالثه.

أجل لقد كان رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم يدافع عن رسالته السماويه، وعن حياض عقيدته التوحيديه العظمى، ويصمد لأعدائه صمودَ الجبال الرواسخ مع أنّه ربما دنا من الموت وكان منه قاب قوسين أو أدنى.

ومع أنّه كان صـلى الله عليه و آله و سـلم يرى أنّ كلّ همّ المشـركين وكلّ حملاتهم موجّهه نحوه بشـخصه، إلّاأنّه لم يشهد أحد منه أى قول أو فعل يشـعر بتوجّسه واضـطرابه، ولقد صـرّح المؤرّخون بهذا الأمر فقد كتب المقريزى: ونادى المشركون بشعارهم [يـا للعزى، يالهُبَـل] فأوقعوا فى المسـلمين قتلاً ذريعاً، ونالوا من رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم ما نالوا. ولم يَزِلّ [يتراجع] صلى الله عليه و آله و سـلم شبراً واحداً بل وقف فى وجه العدوّ، وأصـحابه تثوب إليه مرّه منهم طائفه وتتفرّق عنه مرّه، وهو يرمى عن قوسه أو بحجر حتّى تحاجزوا(۱).

نعم غايه ما سمع منه صلى الله عليه و آله و سلم هو ما قاله عندما كان يمسح الدم عن وجهه المبارك إذ قال:

«كيفَ يفلحُ قومٌ فعلوا هذا بنبيّهم وهو يدعوهم إلى اللّه؟!»(۲).

۱- . إمتاع الأسماع: ۱۴۸/۱.

۲- . بحار الأنوار: ۱۰۲/۲۰.

إنّ هذه العباره الخالده تكشف عن عمق رحمه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وعاطفته حتّی بالنسبه إلی أعدائه الألدّاء.

بینما تکشف کلمه قالها علی علیه السلام عن شجاعته صلی الله علیه و آله و سلم الفائقه إذ قال:

«کُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَیْنَا بِرَسُولِ اللّهِ صلی الله علیه و آله و سلم، فَلَمْ یَکُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَی الْعَدُوِّ مِنْهُ»(۱).

من هنا فإنّ سلامه النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم فی الحروب تعود فی أکثر أسبابها إلی حسن دفاعه عن دینه، وعن نفسه، وإلی شجاعته فی المعارک.

ولقد کانت ثمّه علل وأسباب صانت هی الأُخری حیاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من أن یلحقها خطر أو ضرر، ألا وهو تضحیه وتفانی تلک القلّه القلیله من أصحابه الأوفیاء الذین بذلوا غایه جهدهم للحفاظ علی حیاه رسول الإسلام العظیم صلی الله علیه و آله و سلم، وبذلک أبقوا علی هذا المشعل الوقّاد، وهذا السراج المنیر.

لقد قاتل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یوم أُحُد قتالاً شدیداً، فرمی بالنبل حتّی فنی نبله، وانکسرت سیه قوسه، وانقطع وتره(۲).

علی أنّ الّذین دافعوا عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لم یتجاوز عددهم عدد أصابع الید(۳)، وحتّی هذه القلّه القلیله المدافعه فإنّ ثباتهم معه جمیعاً غیر مقطوع به من منظار علم التاریخ، ومن زاویه التحقیق التاریخی.

نعم ما هو متّفق علیه بین المؤرّخین، وأرباب السیر هو ثبات أفراد قلائل نعمد هنا إلی ذکر أسمائهم ومواقفهم بشیء من التفصیل.

۱- . نهج البلاغه: ۵۲۰، فصل فی غریب کلامه برقم ۹.

۲- . الکامل فی التاریخ: ۱۵۷/۲.

۳- . لاحظ: شرح نهج البلاغه: ۱۹/۱۵-۲۱.

الدفاع الموفق أو النصر المجدّد

لو أنّنا أسمينا هذه المرحله من تاريخ الإسلام بمرحله النصر المجدّد لما قلنا جزافاً، فإنّ المقصود من هذا الانتصار هو أنّ المسلمين استطاعوا - وخلافاً لتوقّعات العدو الحاقد - أن يصونوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من خطر الموت الّذى كاد أن يكون محقّقاً، وهذا هو انتصار مجدّد أصابه جند الإسلام.

أمّا إذا عزونا هذا الانتصار إلى جيش الإسلام برمّته فإنّ ذلك إنّما هو لأجل تعظيم مقام المجاهدين المسلمين، وإلّا فإنّ ثقل هذا الانتصار العظيم وقع على عاتقِ عدد محدودٍ جدّاً من رجال الإسلام الذين صانوا حياه الرسول الأكرم عن طريق المخاطره بحياتهم، وتعريضها للخطر الجدّى.

وفى الحقيقه فإنّ بقاء الدوله الإسلاميه وبقاء جذوه هذا الدين المبارك مشتعلةً إنّما هو نتيجه تضحيات تلكم القلّه القليله المتفانيه فى سبيل اللّه ورسوله.

وإليك فيمايلى استعراضاً إجمالياً لتضحيات أُولئك الرجال المتفانين فى سبيل العقيده والدين:

١. إنّ أوّل وأبرز الرجال الصامدين الثابتين على طريق الجهاد والتضحيه فى هذه الواقعه هو شاب بطل لم يتجاوز ربيعه السادس والعشرين من عمره...، هو الّذى رافق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من سنى صغره وبدايات حياته وحتّى لحظه وفاه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

إنّ بطل الإسلام الأكبر وإنّ ذلك الفدائى الواقعى هو الإمام «علىّ بن أبى طالب» عليه السلام الّذى تحفظ ذاكره التاريخ الإسلامى عنه الكثير الكثير من مواقف التضيحه والفداء فى سبيل نشر الإسلام والدفاع عن حوزه التوحيد، وإرساء

دعائمه.

وفی الأساس أنّ هذا الانتصار المجدَّد - علی غرار الانتصار الأوّل - إنّما جاء نتیجةً لبساله وبطوله هذا المجاهد المتفانی فی سبیل الإسلام؛ ذلک لأنّ السبب الجوهری فی هزیمه قریش وفرارها فی بدایه المعرکه کان هو سقوط لوائها بعد مقتل کلّ حَمَلَه اللواء علی ید الإمام علی علیه السلام، وبالتالی نتیجه للرعب الّذی أُلقی فی قلوبهم لمّا رأوا من تساقط صنادیدهم الواحد تلو الآخر، الأمر الّذی سلبهم القدره علی المقاومه.

إنّ الکُتّاب المصریین المعاصرین الذین تناولوا حوادث التاریخ الإسلامی بالتحلیل والدراسه، لم یعطوا علیاً علیه السلام - وللأسف - حقّه فی هذه الموقعه، أو علی الأقل لم یذکروا ما اتفق علیه المؤرّخون، وتطابقت فی إثباته التواریخ، بل جعلوا تضحیات الإمام علیّ علیه السلام ومواقفه الشجاعه والعملاقه فی عداد مواقف الآخرین، وفی مستواها.

من هنا ینبغی أن نسلّط بعض الضوء علی تضحیات ذلک الفدائیّ الواقعیّ، وذلک البطل الشجاع الّذی شهدت له ساحات الوغی مواقف لا نظیر لها فی العظمه، والسمو.

أ. یقول ابنُ الأثیر فی تاریخه(۱): کان الّذی قتل أصحاب اللواء علیّ - قاله أبو رافع -، (قال:) فلمّا قتلهم أبصر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم جماعهً من المشرکین فقال لعلیّ:

إحمل علیهم، (فحمل علیهم) ففرّقهم، وقتل فیهم، ثم أبصر جماعه أُخری فقال له:

احمل علیهم، فحمل علیهم وفرّقهم وقتل فیهم، فقال جبرئیل: یا رسول اللّه هذه المواساه، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: إنّه منّی وأنا منه، فقال جبرئیل: وأنا منکما قال:

۱- . الکامل فی التاریخ: ۱۵۴/۲.

فسمعوا صوتاً: «لا سَيْفَ إلّاذوالفقار ولا فتى إلّاعلى»(۱).

وقد شرح ابن أبى الحديد هذه القضيه بتفصيل أكثر إذ كتب فى شرحه لنهج البلاغه يقول: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لمّا فرّ معظم أصحابه عنه يومَ أُحُد كثرت عليه كتائبُ المشركين، وقصدته كتيبه من بنى كنانه، ثم من بنى عبد مناه بن كنانه، فيها بنو سفيان بن عويف، وهم: خالد بن ثعلب وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان وغراب بن سفيان، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: يا على اكفنى هذه الكتيبه، فحمل عليها وإنّها لتقارب خمسين فارساً وهو (أى على عليه السلام) راجلٌ، فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرّق عنه، ثم تجتمع عليه هكذا مراراً حتّى قتل بنى سفيان بن عويف الأربعه وتمام العشره منها ممّن لا تعرف أسماؤهم.

ثم نقل ما قاله جبرئيل، ثم كتب يقول: قلت وقد روى هذا الخبر جماعهٌ من المحدّثين وهو من الأخبار المشهوره ووقفت عليه فى بعض نسخ مغازى محمد ابن إسحاق ورأيت بعضها خالياً عنه، وسألت شيخى عبدالوهاب بن سكينه عن هذا الخبر، فقال: خبرٌ صحيحٌ.

فقلت: فما بال الصحاح (أى مثل صحيح البخارى ومسلم وما شاكلهما) لم تشتمل عليه؟

قال: أوَ كلّ ما كان صحيحاً تشتمل عليه كتب الصحاح؟ كم قد أهمل جامعو الصحاح من الأخبار الصحيحه؟!(۲).

ب. ولقد أشار الإمام على عليه السلام نفسُه فى كلام مفصّل له مع رأس اليهود إلى

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۱۹۷/۲؛ ميزان الاعتدال: ۳۲۴/۳؛ لسان الميزان: ۴۰۶/۴.

۲- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۲۵۰/۱۴-۲۵۱.

هذا الموقف إذ قال:

«ذَهَب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وعسکرَ بأصحابه فی سد أُحد وأقبل المشرکون إلینا فحملوا علینا حمله رجلٍ واحدٍ واستشهد من المسلمین من استشهد، وکان ممّن بقی من الهزیمه، وبقیت مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ومضی المهاجرون والأنصار إلی منازلهم من المدینه کلّ یقول: قتل النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وقتل أصحابه، ثم ضرب اللّه عزّوجلّ وجوه المشرکین، وقد جرحت بین یدی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم نیفاً وسبعین جراحه، منها هذه، وهذه».

ثم إنّه علیه السلام ألقی رداءه، وأمرَّ یده علی جراحاته، وقال:

«وکان منّی فی ذلک ما علی اللّه عزّوجلّ ثوابُه إن شاء اللّه»(۱).

وقد بلغ علیٌ علیه السلام - حسب روایه علل الشرائع - من کثره ضربه لطوائف المشرکین الذین کانوا یحملون علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یوم أُحد، ان انکسر سیفُهُ، فجاء إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وقال: یا رسول اللّه إنّ الرجل یقاتِل بسلاحه وقد انکسر سیفی، فأعطاه علیه السلام سیفَه ذا الفقار، فما زال یدفع به عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فقال جبرئیل فی حقّه وفی سیفه ما مرّ(۲).

وقد أشار ابن هشام فی سیرته إلی العباره الّتی نادی بها جبرئیل إذ قال:

وحدّثنی بعض أهل العلم إنّ ابن أبی نجیح قال: نادی مناد یوم أُحد: لا سیفَ إلّا ذوالفقار ولا فتی إلّاعلیٌّ (۳).

۱- . الخصال: ۳۶۸.

۲- . علل الشرائع: ۷/۱؛ بحار الأنوار: ۷۱/۲۰.

۳- . السیره النبویه لابن هشام: ۶۱۵/۳.

كما عد ابن هشام فی سیرته(۱) القتلی من المشرکین فی أحد (۲۲) رجلاً، وقد ذکر أسماءهم واحداً واحداً وذکر قبائلهم، وغیر ذلک من خصوصیاتهم، وقد قُتلَ منهم (۱۲) رجلاً بید علی علیه السلام، وقتل البقیه بأیدی المسلمین، ونحن نعرض هنا عن ذکر أسماء أُولئک المقتولین رعایه للاختصار. هذا ونحن نعترف بأنّنا لم نستطع بیان کلّ ما قام به علی علیه السلام من خدمات کبری فی هذه الصفحات القلائل علی نحو ما جاء فی کتب الفریقین السنّه والشیعه وبخاصّه فی موسوعه بحار الأنوار.

إنّ ما نستفیده من مطالعه الروایات والأخبار الثابته والمتعدّده فی هذا المجال هو أنّه لم یثبت أحد فی معرکه «أُحد» کما ثبت علی علیه السلام(۲).

۲. أبو دُجانه، وهو البطلُ المسلم الثانی بعد الإمام علی علیه السلام فی الصمود، والتضحیه، والبساله والفداء دفاعاً عن حیاه النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم.

فقد بلغ من حرصه علی حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ودفاعه عنه أن جعل من نفسه ترساً یقی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم من سیوف الکفّار ورماحهم، وسهامهم وأحجارهم، وقد وقعت سهام کثیره فی ظهره ولکنّه ظلّ مترساً بجسمه دون النبیّ، وبذلک حافظ علی حیاته الشریفه(۳). وقد جاء أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قال له یوم «أُحد» بعد أن فرّ وانهزم أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وحاصره الکفّار من کلّ جانب: «یا أبا دجانه انصرف وأنتَ فی حلٍّ من بیعتک، أمّا علیٌّ فهو أنا وأنا هو».

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۶۳۹/۳.

۲- . لاحظ: بحار الأنوار: ۸۴/۲۰.

۳- . السیره النبویه لابن هشام: ۶۰۰/۳.

فتحول وجلس بين يدى النبى صلى الله عليه و آله و سلم وبكى وقال: لا واللّه، ورفع رأسه إلى السماء وقال:

لا واللّه، لاجعلت نفسى فى حلٍّ من بيعتى إنّى بايعتك، فإلى مَن أنصرفُ يا رسول اللّه إلى زوجه تموتُ، أو ولد يموتُ، أو دارٍ تخربُ، و مالٍ يفنى، و أجل قد اقتربَ؟

فرقّ له النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فلم يزل يقاتلُ حتّى أثخنتهُ الجراحه وهو فى وجه و «علىٌّ» فى وجه، فلمّا سقط احتمله علىٌّ عليه السلام فجاء به إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فوضعه عنده، فقال: يا رسول اللّه أوفيت ببيعتى؟ قال: نعم(۱).

وقد ذُكر فى كتب التاريخ أشخاصٌ آخرون كعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، وطلحه بن عبيداللّه، وغيرهم ممّن يبلغ - حسب بعض الكتب - ۳۶ شخصاً ادّعى أنّهم ثبتوا ولم يفروا، إلّاأنّ ما هو مسلم به تاريخياً هو ثبات على عليه السلام وأبى دجانه، وحمزه وامرأه تُدعى أُمّ عامر، وأمّا ثبات غير هؤلاء الأربعه فأمرٌ مظنونٌ، بل ومشكوكٌ فى بعضهم.

۳. حمزهُ بن عبدالمطلب، عمُّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وكان من شجعان العرب ومن المعروفين ببطولاته فى الإسلام، وهو الّذى أصرّ على أن يخرج المسلمون من المدينه ويقاتلوا قريشاً خارجها.

ولقد دأب حمزه على حمايه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من أذى المشركين والوثنيّين فى اللحظات الخطيره، والظروف القاسيه من بدء الدعوه المحمديه بمكّه.

وقد ردّ على أبى جهل الّذى كان قد آذى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بشدّه، وضربه

۱- . بحار الأنوار: ۱۰۷/۲۰-۱۰۸، عن روضه الكافى: ۳۱۸/۸-۳۲۲.

ضربه شجّ بها رأسه فی جمع من قاده قریش ولم یجرأ أحد علی مقابلته.

لقد کان حمزه مسلماً مجاهداً وبطلاً ـ فدائیاً متفانیاً فی سبیل الإسلام، فهو الّذی قتل «شیبه» وشیبه من کبار صنادید قریش وأبطالها، فی بدر کما قتل آخرین، ولم یهدف إلّانصره الحقّ، والفضیله، وإقرار الحریه فی حیاه الشعوب والأُمم.

ولقد کانت هندُ بنتُ عتبه زوجه أبی سفیان تحقد علیه أشدّ الحِقد، وقد عزمت علی أن تنتقم من المسلمین لأبیها مهما کلّف الثمن.

فأمرت «وحشیاً» وهو غلامٌ حبشی لجبیر بن مطعم الّذی قُتل هو الآخر عمُّه فی بدر بأن یحقّق غرضها، وأملها کیفما استطاع، وقالت له: لئن قتلتَ محمداً أو علیّاً أو حمزه لأُعطینّک رضاک.

فقال وحشی لها: أمّا محمد فلا أقدرُ علیه، وأمّا علیٌّ فرأیته رجلًا حذراً کثیر الالتفات فلم أطمع فیه، فکمنت لحمزه فرأیته یهدّ الناس هدّاً....(۱)

یقول وحشی: فلمّا التقی الناس (یوم أُحد) خرجت أنظر حمزه وأتبصّره، حتی رأیته فی عرض الناس مثل الجمل الأورق، یهدّ الناس بسیفه هدّاً ما یقوم له شیء،... وهززتُ حربتی - وکان ماهراً فی رمی الحراب - حتّی إذا رضیتُ منها، دفعتها علیه، فوقعتْ فی ثنته (وهی أسفل البطن) حتّی خرجَت من بین رجلیه، وذهب لینوء نحوی، فغُلِبَ، وترکتُه وإیّاها حتّی مات، ثم أتیتُه فأخذت حربتی ثم رجعتُ إلی العسکر، فقعدتُ فیه، ولم یکن لی بغیره حاجه، وإنّما قتلتُه لأُعتقَ.

فلمّا قدمتُ إلی مکّه أُعتقت، ثم أقمتُ حتّی إذا فتح رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مکّه

۱- . بحار الأنوار: ۵۵/۲۰. وفی روایه أُخری: وأمّا حمزه فإنّی أطمع فیه، لأنّه إذا غضب لم یبصر بین یدیه. لاحظ بحار الأنوار: ۸۳/۲۰.

هربت إلى الطائف فمكثتُ بها. فلمّا خرج وفدُ الطائف إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليُسلِمُوا تعيّت عليّ المذاهب، فقلتُ: ألحق بالشام أو باليمن، أو ببعض البلاد، فواللّه إنّى لفى ذلك من همّى إذ قال لى رجُلٌ: ويحَكَ إنّه واللّه ما يقتل أحداً من الناس دَخَلَ فى دينه، وتشهَّد شهادته.

فلمّا قال لى ذلك، خرجتُ حتّى قدمتُ على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المدينةَ، فلم يَرُعْهُ إلّابى قائماً على رأسه أتشهّد بشهاده الحقّ، فلمّا رآنى قال: أوحشى؟! قلت:

نعم يا رسول اللّه.

قال: اقعد فحدّثنى كيفَ قتلت حمزةَ؟ فحدّثتُه...، فلمّا فرغتُ من حديثى قال: ويحك! غَيّب عنّى وجهَكَ فلا أرَيَنَّكَ.(۱)

أجل هذه هى الروحُ النبويّه الكبرى، وتلك هى سعه الصدر الّتى وهبها اللّه تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم قائد الإسلام الأعلى، ومعلم البشريه الأكبر، تراه عفا عن قاتل عمّه، مع أنّه كان فى مقدوره أن يعدمه بمائه حجّه وحجه!!

يقول وحشى: فكنتُ أتنكَّبُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حيث كان لئلّا يرانى، حتّى قبضه اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فلمّا خرج المسلمون إلى قتال مسيلمه الكذّاب صاحب اليمامه خرجتُ معهم، وأخذتُ حربتى الّتى قتلتُ بها حمزةَ، فلمّا التقى الناسُ رأيتُ مسيلمةَ الكذاب قائماً فى يده السيفُ، وما أعرفُه، فتهيّأتُ له، وتهيّأ له رجل من الأنصار من الناحيهِ الأُخرى، كلانا يريدُه، فَهززتُ حربتى حتّى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وشدّ عليه الأنصاريُ فضربَهُ بالسيف.(۲)

۱- . سيره ابن هشام: ۵۹۱/۳-۵۹۲.

۲- . سيره ابن هشام: ۵۹۲/۳.

هذا هو ما ادّعاه وحشی، بید أنَّ هشاماً قال فی سیرته: فبلغنی أنّ وحشیاً لم یزل یُحدّ فی الخمر حتّی خُلِعَ من الدیوان فکان عمر بن الخطاب یقول: قد علمتُ أنَّ اللّه تعالی لم یکن لیدعَ قاتل حمزه.(۱)

۴. أُمّ عماره لا ریب أنّ الجهاد الابتدائی مرفوع عن المرأه ساقط عنها فی نظر الإسلام، ولهذا عندما أوفدت نساءُ المدینه امرأه إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لتتحدّث معه حولَ الحِرمان من هذه العباده الکبری، فجاءت إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقالت: یا رسول اللّه نحن نقوم بکلّ ما یحتاج إلیه الرجال فی حیاتهم، لیجاهدوا ببال فارغ، فلِمَ حُرِمنا نحن من هذه الفضیله؟!

فأجابها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قائلاً: «افهمی أیتها المرأه وأعلمی من خلفک من النساء أنّ حسن تبعّل المرأه لزوجها، وطلبها مرضاته، واتّباعه موافقته یعدل ذلک کلّه»(۲)، وهو صلی الله علیه و آله و سلم یشیر إلی أنّ لهذا المنع أسبابه الطبیعیه والوظیفیه فی طبیعه المرأه وخلقتها، ولیس هو بالتالی یعنی حرمانها من شیء فإنّ قیامها علی الوجه الصحیح بخدمه زوجها وتربیه أولادها تعدل الجهاد فی سبیل اللّه.

بید أنّ بعض النسوه المجرّبات ربما کنّ یخرجن من المدینه لمساعده جنود الإسلام کسقی العطاشی، وغسل ثیاب المقاتلین، وتضمید الجرحی. وبذلک کنَّ یقدّمن خدمه مؤثّره فی نصره المسلمین ودعمهم.

تقولُ أُمّ عماره (نسیبه المازنیه): خرجت أوّل النهار إلی «أُحد» وأنا أنظرُ ما یصنع الناس، ومعی سقاء فیه ماء، فانتهیت إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهو فی الصحابه،

۱- . سیره ابن هشام: ۵۹۲/۳.

۲- . لاحظ: أُسد الغابه: ۳۹۸/۵-۳۹۹ فی ترجمه أسماء بنت یزید الأنصاریه..

والدوله والريح للمسلمين.

فلمّا انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فجعلت أباشرُ القتال وأذبّ عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالسيف، وأرمى بالقوس حتّى خلصت الىّ الجراح.

(تقول راويه هـذا الكلام أُمّ سعد بنت سعد بن الربيع) فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت: يا أُمّ عماره من أصابك بهذا؟.

قالت: أقبل ابن قميئه وقد ولّى الناس عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، يصيح: دلّونى على محمد، لا نجوتُ إن نجا. فاعترض له مصعبٌ بن عمير وناس معه، فكنت فيهم فضربنى هذه الضربه، ولقد ضربتُه على ذلك ضربات، ولكنَّ عدوَّ اللّه كان عليه درعان.(۱)

وقال عبد اللّه بن زيد المازنى: جرحت جرحاً فى عضدى اليسرى، ضربنى رجل كأنّه الرقل ولم يعرّج على، ومضى عنّى، وجعل الدم لا يرقأ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: أعصب جرحك، فتقبل أُمّى إلىّ، ومعها عصائب فى حقويها قد أعدّتها للجراح، فربطت جرحى والنبى صلى الله عليه و آله و سلم واقف ينظر، ثم قالت: إنهض يا بنى فضارب القوم، فجعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقول:

«ومن يطيق ما تطيقين يا أُمّ عماره».

قالت: وأقبل الرجل الذى ضربنى، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: هذا ضارب ابنك، فاعترضت أُمّى له، فضربت ساقه، فبرك، فرأيت النبى صلى الله عليه و آله و سلم تبسّم حتّى بدت نواجذه، ثم قال: «استقدت يا أُمّ عماره». ثمّ أقبلنا نعلوه بالسلاح حتى أتينا على نفسه، فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «الحمد للّه الذى ظفرك وأقرّ عينك من عدوك وأراك ثأرك

۱- . شرح نهج البلاغه: ۲۶۵/۱۴؛ المغازى: ۲۶۹/۱؛ بحار الأنوار: ۱۳۳/۲۰.

بعینک».(۱)

وعندما نادی منادی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم إلی حمراء الأسد، بعد معرکه أُحُد، وطلب من الجرحی أن یخرجوا لملاحقه جیش المشرکین، شدّت علیها ثیابها وقد کان بها جراح عدیده أعظمها الجرح الّذی علی عاتقها فما استطاعت بسبب نزف الدم، فأرادت أن تخرج مع العسکر منعتها جراحها الباهضه من ذلک، فلمّا رجع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من غزوه حمراء الأسد ما وصل إلی بیته حتّی أرسل إلیها عبدَاللّه بن کعب المازنی یسأل عنها فرجع إلیه یخبره بسلامتها، فسُرّ النبیّ بذلک.(۲)

ولقد أثار موقف هذه المرأه البطله الثابته علی درب الإیمان سرور النبیّ وإعجابه فقال فی حقّها مشیّداً بموقفها البطولی ومعرِّضاً بفرار مَن فرّ وهروب مَن هرب فی معرکه أُحد: «لمقامُ نسیبَه بنتِ کعب الیومَ خیرٌ من مقام فلان وفلان».

وقال ابنُ أبی الحدید معلّقاً علی عباره رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «لمقام نسیبه الیومَ خیرٌ من مقام فلان وفلان» قلت: لیت الراوی لم یُکَنِّ هذا الکنایه، وکان یذکر مَن هما بأسمائهما حتّی لا تترامی الظنون إلی أُمور مشتبهه، ومن أمانه المحدّث أن یذکر الحدیث علی وجهه ولا یکتم منه شیئاً، فما باله کتم اسمَ هذین الرجلین(۳).

ولکنّنا نعتقد أنّ الرجلین هما من الشخصیات الّتی تسنّمت مراکز القیاده العلیا بعد وفاه رسول اللّه علیه السلام، وقد أحجم الراوی عن التصریح باسمیهما إمّا احتراماً أو تقیهً وخوفاً.

۱- . شرح نهج البلاغه: ۲۶۷/۱۴؛ المغازی: ۲۷۰/۱-۲۷۱.

۲- . المغازی: ۲۷۰/۱.

۳- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۲۶۶/۱۴.

وكانت نسيبه قد طلبت من النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يوم أُحُد بعد أن أشاد النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم بصلابتها ومواقفها أن يدعو لها بمرافقته فى الجنه فقال النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم داعياً لها ولأهل بيتها:

اللّهم اجعَلْهُم رفقائى فى الجنّه».(۱)

بقيه أحداث واقعه «أُحد»

لقد آلت تضحيات ثلّه قليله ومعدودهٍ من رجال الإسلام المتفانين وبسالتهم إلى الإبقاء على حياه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وحفظها من الخطر القطعى الحتمى.

ومن حسن الحظ أن أكثر أفراد العدوّ قد تصوّروا يومئذ أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم قد قُتِل، ومضوا يفتشون عن جسده بين القتلى، ودفعت الحملات الّتى كان يقوم بها أقليهٌ من المشركين على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قد رُدّت على أعقابها بفضل ثبات على عليه السلام وأبى دجانه وأنفارٍ آخرين (احتمالاً) وقد رأى النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم أنّ من الصالح فى تلك اللحظات أن لا ينتشر تكذيبُ شائعه مقتل النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم لكى لا يصرّ العدوُ على البقاء فى أرض المعركه مع ما كان عليه المسلمون من التشتّت والتفرّق، والمحنه، ومن هنا صعد هو وبعض أصحابه إلى الشعب فى جبل أُحُد.

وفى خلال ذلك سقط رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى حفيره فى الجبل حفرها أبو عمّار الفاسق للمسلمين، فأخذ على عليه السلام بيد النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم وأخرجه منها، وكان أوّل مَن عرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من المسلمين – بعد الهزيمه، وقول الناس: قتل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم –، «كعب بن مالك» وقال: عرفت عينيه صلى الله عليه و آله و سلم تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى: يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فأشار إليه

۱- . شرح نهج البلاغه: ۲۶۹/۱۴؛ المغازى: ۲۷۳/۱.

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن أنصت.(۱)

وذلك لأنّ انتشار خبر سلامه النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم كان من شأنه أن يدفع المشركين - كما قلنا - إلى مواصله حملاتهم على المسلمين، بهدف استئصال شأفتهم، ولهذا أمر النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم كعباً بالسكوت، فسكت كعب.

وأخيراً وصل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى فم الشِّعب، ولمّا عرف المسلمون بحياته صلى الله عليه و آله و سلم سرّوا بذلك وأخذوا يتجمّعون عنده، وهم يُظهرون الندامه من تركه بين الأعداء والفرار بأنفسهم إلى الجبل، وأخرج أبو عبيده الجرّاح حلقتى المغفر من وجه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وجاء على عليه السلام بماء فى درقته فغسل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم به الدمَ عن وجهه وصبّ منه على رأسه وقال:

«اشْتدَّ غضَبُ اللّه على مَنْ دَمّى وجهَ نَبيّهِ».(۲)

العدوُّ يحاول استغلال الفرصه

فى الوقت الّذى واجه المسلمون فيه هزيمه كبرى انهارت بها الكثير من المعنويات، اغتنم العدوّ الفرصه للترويج عن معتقداته، فأطلق شعارات متعدّده ضد عقيده التوحيد، كان من شأنها أن تغرى البسطاء، والضعفاء فى الإيمان وتؤثّر فيهم، وتزلزلَ إيمانهم. فليست هناك حاله لبثّ العقائد وتسريبها إلى النفوس أفضل من حاله الانهزام والنكسه، والبلاء والمصيبه، ففى حاله كهذه يبلغ الضعفُ النفسىُ لدى المصاب والمنكوب حدّاً يفقد معه العقلُ سيطرته على الإنسان بحيث يفقد على أثر ذلك قدره التمييز بين الحقّ والباطل، وفى هذه الصوره

۱- . سيره ابن هشام: ۶۰۱/۳.

۲- . لاحظ: سيره ابن هشام: ۶۰۲/۳-۶۰۳.

تصبح مسأله بثّ الدعايات السيّئه وزرعها فى النفوس واستثمارها مسأله بسيطه، إذ يكون الإنسان فى هذه الحاله أكثر تقبّلاً وأيسر قبولاً.

من هنا عمد أبو سفيان وعكرمه فرفعا أصناماً كبيره على الأيدى بعد إلحاق الهزيمه بالمسلمين، وأظهروا الفرح والسرور وأخذوا ينادون بأعلى أصواتهم - مستغلين هذه الفرصه -: «اُعلُ هُبَل، اعلُ هُبَل»!!

ويعنون بذلك الشعار أنّ الانتصار الّذى أحرزه المشركون إنّما هو بفضل الصنم: هُبل، وبالتالى بفضل الوثنيه الّتى يدين بها أهلُ مكّه. ولو كان ثمه إله سواه، وكانت عقيده التوحيد على حقّ لانتصر المسلمون، ولما خلص إليهم من المحنه ما خلص، فأدرك رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عمقَ الخطر الّذى يكمن فى الأُسلوب الّذى أخذ العدوّ يمارسه فى مثل هذه اللحظه الحسّاسه، وما سيتركه ذلك من أثر سيّئ فى النفوس، وبخاصّه الضعيفه منها، ولهذا تناسى كلّ أوجاعه ومصاعبه وأمر عليّاً والمسلمين فوراً بأن يجيبوا منادى الشرك بشعارٍ مضادٍ قوى، فقال: قولوا:

«اللّهُ أعْلى و أَجَلّ، اللّهُ أَعْلى و أَجلّ».

أى إنَّ هذه الهزيمه ليست نابعه من عقيده التوحيد، بل هى ناشئه من انحراف بعض الجنود عن أوامر القائد وتعليماته العسكريه الحكيمه.

بيد أنّ أبا سفيان لم يكف عن إطلاق شعاراته، والمضىّ فى الدعايه لمعتقده الباطل فقال: نحن لنا العزّى ولا عُزى لكم!!

فأمر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بأن ينادى المسلمون بشعار مضاد لشعار أبى سفيان، مشابه له فى الوزن والسجع فقال: قولوا:

«اللّه مولانا ولا مولى لكم».

أى إذا كنتم تعتمدون على صنم مصنوع من الحجر والخشب، فإنّنا نعتمد

على اللّه الخالق، القادر والعلیّ الأعلی.

فنادی منادی الشرک ثالثاً: یَومٌ بیومِ بدر. فأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بأن یجیبه المسلمون:

«لا سَواء قتلانا فی الجنه، وقتلاکُم فی النار».

فکان لشعارات المسلمین القویه الرادعه الّتی کان یردّدها المئات، أثرها العجیب فی نفس رأس الشرک أبی سفیان الّذی بدأ هذه الحمله النفسیه والحرب البارده بغیه تحطیم إیمان المسلمین، ورأی کیف ارتدّ کیده إلی نحره، ولهذا انزعج بشده وقال: ألا إن موعدَکم بدر للعام القابل.

ثم انصرف إلی أصحابه، وغادروا جمیعاً أرض المعرکه راجعین إلی مکّه(۱).

وکان علی المسلمین الآن - وفیهم مئات الجرحی والمصابین وسبعون قتیلاً - أن یُصَلّوا الظهرَ والعصر فصلّی بهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم جلوساً، وصلّوا معه جلوساً، لما أصابهم من الضعف، ثم أمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بدفن الشهداء، ومواراتهم الثری عند جبل أُحد.

نهایه المعرکه

وَضَعت الحرب أوزارها، وتباعد الجانبان، وقد تحمّل المسلمون من الخسائر فی الأرواح ثلاثه أضعاف ماتحمّله المشرکون. وکان علیهم أن یبادروا إلی دفن الشهداء علی النحو الّذی أمرهم به الدین.

ولکنّهم فُوجئوا بأمر فضیع، فقد اغتنمت نسوه من قریش وفی طلیعتهنّ هند زوجه أبی سفیان فرصه انشغال المقاتلین المسلمین وارتکبن بحقّ الشهداء

۱- . لاحظ: المغازی: ۲۹۷/۱؛ سیره ابن هشام: ۶۰۹/۳.

الأبرار، جنايه فظيعه لم يعرف لها تاريخ البشريه مثيلاً فهن لم يكتفين بالانتصار الظاهرى بل عمدن إلى التمثيل بشهداء المسلمين، تمثيلاً مروعاً فخمشن وجوههم، وقطّعن الأُنوف، وجدعنَ الآذان، وسملنَ العيون، وقطعنَ أصابع الأيدى والأرجل، والمذاكير، وصنعن منها القلائد والأساور، نكايةً بالمسلمين، وإطفاءً للحقد الدفين، وبذلك ألحقنَ بهنّ وبأوليائهنّ عاراً لا ينسى.

فإنّ جميع الأُمم والشعوب متّفقه على أنّ الميّت الّذى لا يستطيع دفاعاً عن نفسه، ولا يتوقع منه ضررٌ يجب احترامه، وتحرم إهانته وإن كان عدواً. ولكنّ هنداً زوجه أبى سفيان ومَن كان برفقتها من نساء المشركين مثّلن بأجساد القتلى شرّ تمثيل، وصنعن ممّا قطّعن منها الأساور والقلائد، وبقرت «هند» بالذات صدر حمزه بطل الإسلام الفدائىّ، وأخرجت كبده، ولاكته بين أسنانها ولكنّها لفظته ولم تستطع أكله.(۱)

وقد بلغ هذا العمل من القبح، والسوء أن تبرّأ منه أبو سفيان وقال: «فى قتلاكم مُثله لم آمر بها»(۲).

وقد عرفت هندٌ بسبب فعلتها الشنيعه هذه بآكله الأكباد، ودُعى أبناؤها فى ما بعد ببنى آكله الأكباد.

ولمّا أبصر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حمزه بن عبدالمطلب، ببطن الوادى وقد بقر بطنه عن كبده، ومثل به فجدع أنفه وأذناه، حزن حزناً شديداً وغاضه تمثيلهم به فقال:

۱- . لاحظ: سيره ابن هشام: ۶۰۷/۳؛ تاريخ الطبرى: ۲۰۴/۲؛ الكامل فى التاريخ: ۱۵۹/۲.

۲- . السيره الحلبيه: ۵۳۰/۲.

«ما وَقَفتُ موقفاً قطّ أغيظ إلیّ مِن هذا!».

ثم إنّ المؤرّخين يتّفقون على أنّ المسلمين تعاهدوا فی ذلک الموقف (وربما نَسِبَ هذا إلی النبیّ نفسه) لئِن أظفرهمُ اللّه بالمشرکين يوماً أن يمثّلوا بهم مُثله لم يمثّلها أحدٌ من العرب أو يمثّلوا بدلَ الواحد ثلاثين.

ولم يمض زمان حتّی نزل جبرئيل بقوله تعالی:

«وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ» .(۱)

ولقد کشف الإسلام مره أُخری ومن خلال هذه الآيه - الّتی تتضمّن أصلاً إسلامياً فی مجال القضاء مسلّماً به - عن وجهه الإنسانیّ العاطفیّ، وأظهر للجميع بأنّ الدين الإسلامی ليس شريعه انتقام، وثأر، فهو يعلّم أتباعه بأن لا يغفلوا فی أشدّ اللحظات والحالات النفسيه هياجاً وغضباً، عن قانون العداله، والحق، وبهذا يکون الإسلام قد راعی مبادئ العداله والإنصاف علی الدوام، وصانها من الانهيار، والسقوط.

ولقد أقبلت صفيّه بنت عبد المطلب لتنظر إلی حمزه، وکان أخاها لأبيها وأُمّها، فقال رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم لابنها الزبير بن العوّام: إلقها فارجعها، لاتری ما بأخيها، فقال: لها يا أُمّه إنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم يأمرک أن ترجعی.

فقالت صفيّه: قد بلغنی أن قد مثّل بأخی، وذلک فی اللّه، فما أرضانا بما کان من ذلک! لاحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء اللّه.

فلمّا جاء الزبيرُ إلی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فأخبره بذلک، قال صلی الله عليه و آله و سلم: خلّ سبيلَها، فأتته، فنظرت إليه، فصلّت عليه، واسترجَعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول

۱- . النحل: ۱۲۶.

اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فدفن(۱).

حقاً أن قوّه الإيمان أعظم القوى، فهى تحبس الانسانَ وتحفظه فى أصعب الحالات، وتفيض على صاحبه حاله من السكينه والوقار.

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم صلّى على شهداء أُحد الأبرار، وأمر بدفنهم واحداً واحداً أو اثنين اثنين، وأمر بأن يُدفن «عمرو بن الجموح» و «عبداللّه بن عمرو» فى قبر واحد.

قائلاً:

«إدفنُوا هذين المتحابّين فى الدنيا فى قَبرٍ واحد»(۲).

آخر ما نطق به سعدُ بن الربيع

كان سعد بن الربيع من صحابه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الأوفياء، وكان رجلًا مؤمناً مخلصاً، عظيم الوفاء والحبّ لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقد أُصيب فى «أُحد» اثنتا عشره إصابه قاضيه فسقط على الأرض.

فمرّ عليه رجلٌ يدعى مالك بن الدخشم فقال له: أما علمتَ أنّ محمّداً قد قُتِلَ؟ فقال سعد: أشهد أنّ محمّداً قد بلّغ رساله ربّه، فقاتل أنت عن دينك فإنّ اللّه حىّ لا يموت(۳).

ثم إنّه قد مرّ عليه رجل من الأنصار وهو فى هذه الحال وبعد أن وَضعَت الحرب أوزارها فقال لسعد: إنَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أمرنى أن أنظر أفى الإحياءِ أنتَ أُمّ

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۶۱۲/۳.

۲- . المغازى: ۲۶۶/۱؛ بحار الأنوار: ۱۳۱/۲۰.

۳- . شرح نهج البلاغه: ۲۷۶/۱۴؛ بحار الأنوار: ۱۳۶/۲۰.

فی الأموات؟ فقال سعد: أنا فی الأموات فأبلغ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم منّی السلام، وقل له:

إنّ سعد بن الربیع یقول: جزاک اللّه خیراً عنّا ما جزی نبیّاً عن أُمّته، وأبلغ قومک عنّی السلام، وقل لهم: إنّ سعد بن الربیع یقول لکم: لا عذر لکم عند اللّه، إن یخلص إلی نبیکم صلی الله علیه و آله و سلم ومنکم عین تطرف.

قال: فلم أبرح عنده حتی مات، ثم جئت إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فأخبرته فقال: «اللّهم ارض عن سعد بن الربیع».(۱)

إنَّ حبَّ الإنسان لنفسه، أو ما یصطلح علیه العلماء بحبّ الذات من الغرائز القویه المتأصله فی کیان الإنسان بحیث لا یمکن لأی أحد أن یغفل عنها مهما کانت الظروف، وهی بالتالی من القوّه والهیمنه علی وجود الإنسان بحیث یضحّی فی سبیلها بکل شیء.

ولکن قوّه الإیمان وحبّ الإنسان للعقیده، وتعشقه للمعنویات أقوی وأشدّ تأثیراً من ذلک، فهذا الجندیّ الشجاع لم یکن بینه - حسب ما تفیده النصوص التاریخیه - وبین الموت فی ذلک الوقت سوی لحظات، ومع ذلک نجده ینسی نفسه، ویفکّر فی حیاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الّذی کان یعتبره أقوی سبب لبقاء الدین، ودوام الشریعه، وهذا هو الهدف المقدّس الّذی قاتل من أجله سعد البطل، ولهذا لا یحمل ذلک الرجل الأنصاری سوی رساله واحده إلی أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یحثّهم فیها علی السهر علی حیاه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم والعمل معه علی تحقیق أهدافه، فی إرساء دعائم التوحید.

۱- . شرح نهج البلاغه: ۲۷۷/۱۴؛ بحار الأنوار: ۱۳۶/۲۰.

النبیّ یعود إلی المدینه

کانت الشمس تمیل نحو المغرب وکانت تستعد للملمه أشعتها الذهبیه من صفحه الأرض، وکان السکون والصمت یخیّم علی کلّ مکان من الأرض.

فی مثل هذه اللحظات کان علی المسلمین المقاتلین أن یعودوا بجرحاهم إلی منازلهم فی المدینه لیستعیدوا قواهم، ویجدّدوا نشاطهم، ویضمّدوا جرحاهم.

ولهذا صدرت أوامر من جانب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بالتوجّه نحو المدینه.

فلمّا کانوا بأصل الحرّه قال صلی الله علیه و آله و سلم: «اصطفوا فنثنی علی اللّه»، فاصطف الرجال صفین خلفهم النساء ثم دعا فقال:

«اللّهم لکَ الحمدُ کلّه، اللّهم لا قابضَ لما بَسطتَ، ولا باسطَ لما قبضتَ، ولا مانِعَ لما أعطیتَ، ولا معطی لما منعتَ، ولا هادی لمن أضللتَ، ولا مضلّ لمن هدیتَ، ولا مقرّبَ لما باعدتَ، ولا مباعِدَ لما قرّبتَ.

اللّهم إنّی أسألک من برکتک ورحمتک وفضلک وعافیتک.

اللّهم إنّی أسألک النعیمَ المقیمَ الّذی لا یحولُ ولا یزول.

اللّهم إنّی أسألکَ الأمنَ یوم الخوف والغنی یوم الفاقه.

عائذاً بک اللّهم من شرّ ما أعطیتنا وشرّ ما منعتَ منّا.

اللّهم توفَّنا مسلمین.

اللّهم حبّب إلینا الإیمان، وزیّنه فی قلوبنا، وکرّه إلینا الکفر والفسوق والعصیان، واجعلنا من الراشدین.

اللّهم عذّب کَفَره أهل الکتاب الذین یکذّبون رسولک، ویصدّون عن سبیلک.

اللّهم أنزل عليهم رجسَكَ وعذابك إله الحقّ. آمين»(۱).

وقد كان هذا العمل خطوةً مهمةً جداً من الناحيه النفسيه فقد أمدّ هذا الدعاء نفوسَ المسلمين المصابين بطاقه روحيه ضخمه، ممّا كان من شأنه تخفيف وطأه الهزيمه وتقويه عزائم المسلمين، كما علّمهم أن يلجأوا إلى اللّه تعالى فى كلّ حال.

فدخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ومعه أصحابه - من الأنصار والمهاجرين الذين شاركوا فى تلك المعركه - المدينه.

وكانت أكثر بيوت المدينه قد تحوّلت إلى مناحات ومآتم، يرتفع منها أصوات بكاء الأُمّهات والأزواج والبنات اللائى أصبن فى رجالهنّ وأوليائهنّ، وآبائهنّ.

ومرّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بدار من دور الأنصار من بنى عبد الأشهل وظفر، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فبكى، ثم قال:

«لكنَّ حمزهَ لابَواكىَ لهُ»(۲).

فلمّا رجع سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير إلى دار بنى عبد الأشهل أمرا نساءهم بأن يتحزّمن، ثمّ يذهبن فيبكين على عمّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فلمّا سمع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بكاءَهنّ على حمزه خرج عليهن وهنّ على باب مسجده يبكين عليه فقال:

«ارجعن يرحمكنّ اللّه، فقد آسيتنّ بأنفسكنّ».

وقيل لما سمع صلى الله عليه و آله و سلم بكاءهنّ قال:

۱- . إمتاع الأسماع: ۱۷۵/۱؛ المغازى: ۳۱۴/۱-۳۱۵.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۶۱۳/۳.

«رَحِمَ اللّه الأنصارَ، فإنَّ المواساةَ منهم ما علمت لقديمه.. مُروهُنَّ فَلينصرِفنَ»(۱).

ذكريات مثيره عن امرأه مؤمنه

إنّ للنسوه المؤمنات صفحات مشرقه، وعجيبه فى تاريخ الإسلام، لأنّنا قلّما نجد لها نظيراً فى عالم المرأه اليوم.

ومن تلك النسوه المؤمنات ذوات المواقف الرائعه والعجيبه فى صدر الإسلام امرأه من بنى دينار، أُصيب زوجُها وأخوها وأبوها مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأُحد.

فإنّها لما نعوا لها مصرعَ رجالها قالت: فما فعلَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم؟

قالوا: خيراً يا أُمّ فلان، هو بحمد اللّهِ كما تحبّين.

قالت: أرونيه حتّى أنظر إليه؟

فأُشير لها إليه حتّى إذا رأته قالت: كلّ مصيبه بعدك جلل (أى صغيره)(۲).

ما أعظم تلك الاستقامه، وما أعظم ذلك الإيمان الّذى يجعل من الإنسان طوداً راسخاً ثابتاً فى وجه العواصف والأعاصير.

نموذج آخرٌ من النسوه المجاهدات

لقد أشرنا فى الصفحات الماضيه بصوره إجماليه إلى قضيه «عمرو بن الجموح» الّذى آلى على نفسه أن يشارك فى الجهاد مع ما كان به من العرج

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۶۱۳/۳-۶۱۴؛ ولاحظ إمتاع الأسماع: ۱۷۵/۱-۱۷۶.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۶۱۴/۳.

الموجب لسقوط الجهاد، كما عرفت.

فقد شارك هذا المسلم الصادقُ والمؤمن المجاهدُ فی معرکه أُحد، ومضی یقاتل فی الصف الأوّل من المجاهدین، وشارک ابنه «خلّاد بن عمرو بن الجموح» و أخو زوجته «عبداللّه بن عمرو»(۱) فی هذا الجهاد المقدّس، واستشهدوا جمیعاً فی تلک المعرکه أیضاً.

فخرجت «هند» زوجته وهی بنت عمرو بن حزام، عمه جابر بن عبداللّه الأنصاری إلی «أُحد» وحملت أجسادهم علی بعیر وتوجّهت بها نحو المدینه، بمنتهی الجلاده، ورباطه الجأش.

وعندما فشی فی المدینه أن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قُتِل بأُحد، خرجت النسوه، یتأکّدن من هذا النبأ، فالتقت هندٌ ببعض نساء النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم - وهی عائده من أُحد - فسألنها عن النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فقالت: خیراً، أمّا رسول اللّه فصالحٌ، وکلُّ مصیبه بعده جلل، واتّخذ اللّهُ من المؤمنین شهداء، وقَرَأت قولَ اللّه تعالی:

«وَ رَدَّ اللّهُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِغَیْظِهِمْ لَمْ یَنالُوا خَیْراً...» !!

فسألوا: مَن هؤلاء؟

قالت: أخی، وابنی خلّاد، وزوجی عمرو بن الجموح!!

فقلنَ لها: فأین تذهبین بهم؟

قالت: إلی المدینه اقبرهُم بها... ثم زجرت بعیرها تحثه علی السیر قائله:

«حَل.. حَل» فی نبره صامده.(۲)

۱- . وهو عبداللّه بن عمرو بن حزام بن ثعلبه بن حزام الأنصاری.

۲- . لاحظ: المغازی: ۲۶۵/۱؛ إمتاع الأسماع: ۱۶۱/۱.

ومرةً أَخرى يظهر فى هذه الصفحه الناصعه من تاريخ الإسلام نموذجٌ حىٌّ آخر من مشاهد الثبات والصمود، والاستقامه، وتجاوز المصائب، وتحمّل الآلام والشدائد فى سبيل الهدف المقدّس، وكلُّ ذلك من فِعل الإيمان، ونتائجه.

إنّ المذاهب الماديه لاولن تستطيع تربيه أمثال هذه النسوه والرجال المتفانين فى سبيل العقيده، بمثل هذا التفانى العظيم.

على أنّ هؤلاء لم يقاتلوا من أجل المآرب المادّيه، وإنّما قاتلوا من أجل الهدف، وهو إعلاء كلمهِ الدين وإقامه صرح التوحيد، ومحو الوثنيه والشرك.

هذا وفى بقيه هذه القصّه ما هو أعجب من أوّلها، وهو أمر، لا يمكن أن يدرَك بالمقاييس المادّيه، والأُسس الّتى ينطلق منها أصحاب الاتّجاه المادّى فى تحليل القضايا التاريخيه، وانما يهضمها - فقط - من يؤمن بعالم آخر وراءَ العالم المادّى الصِرف، ويصدّق بتأثيره فى هذا العالم، وبالتالى لا يقبل بها إلّامن يصدّق بقضيه الإعجاز والمعجزه، ويذعن لها ويعترف بصحّتها من غير تلكّؤ وإبطاء.

واليك هذه البقيه:

لمّا زجرت هند بعيرها لتدخل به المدينه بَرَكَ البعير فى مكانه.

فقالت النسوه الّتى كنَّ هناك: لعلّه بَرَكَ لما عليه.

فقالت هند: ما ذاكَ به، لربما حمل ما يحمل البعيران، ولكنّى أراه لغير ذلك.

فزجرته ثانيه، فقام، فلمّا وجّهت به إلى المدينه بَركَ، فوجهته راجعه إلى أُحد فأسرع.

فرجعت إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فأخبرته بذلك، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: فإنَّ الجَمَلَ مأمور. هل قال (يعنى: عمرو بن الجموح) شيئاً؟

قالت: إنَّ عمراً لمّا وجّهه إلى أُحُد استقبل القبلهَ، وقال: اللّهم لا تردّنى إلى

أهلی خزیاً، وارزُقنی الشهاده!!

قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «فلذلک الجملُ لا یمضی. إنَّ منکم یا معشر الأنصار من لوأقسم علی اللّه لأبرَّهُ، منهم عمرو بن الجموح، یا هند ما زالتِ الملائکه مظلّلهً علی أخیکِ مِن لدن قُتِلَ إلی الساعه ینظرون أین یُدفَن»، ثم مکث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حتّی قبرهم، ثم قال: یا هند قد ترافقوا فی الجنه جمیعاً، عمرُو بن الجموح، وابنُک خلّاد، وأخوک عبداللّه».

قالت هند: یا رسول اللّه فادعُ لی عسی أن یجعلَنی معهم(۱).

ثمّ إنَّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم دخل بیته فلمّا أبصرت به بنتُه العزیزهُ «فاطمهُ» ورأت ما أصابه من الجراح ذرفت عیناها بالدموع، فأعطی رسول اللّه سیفه لابنته (الزهراء) حتّی تغسله.

وقال الإربلی المؤرّخ المعروف الّذی کان یعیش فی القرن السابع الهجری:

کان علیّ یجیء بالماء فی ترسه، وفاطمه تغسل الدم، وأخذ حصیراً فأحرقه وحشا به جرحه(۲).

وفی «الإمتاع»: لمّا رأت فاطمه الدمَ لا یرقأ - وهی تغسله وعلی یصب الماء علیها بالمجنَّ - أخذت قطعه حصیر فأحرقته حتّی صار رماداً، ثم ألصقته بالجرح فاستمسک الدم، ویقال: داوته بصوفه محترقه(۳).

۱- . إمتاع الأسماع: ۱۶۱/۱-۱۶۲.

۲- . کشف الغمه: ۱۸۸/۱-۱۸۹.

۳- . إمتاع الأسماع: ۱۵۴/۱.

لابدّ من ملاحقه العدو

لقد كانت الليله الّتى استقرّ فيها المسلمون فى منازلهم بالمدينه بعد يوم أُحد ليله جدّاً خطيرةً وحسّاسةً.

فالمنافقون واليهودُ وأتباع عبداللّه بن أُبى قد سُرّوا لما أصاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه سروراً كبيراً، وأظهروا القول السيّئ وقالوا: ما أُصيب نبىٌّ هكذا قط.

وكان أنين الجرحى والمكلومين وبكاء الموتورين فى رجالهم ونياحهم يُسمع من أكثر بيوت المدينه.

والأخطر من كلّ هذا هو التخوّف من أن يقوم المنافقون واليهود بعمليه خيانيه ضد الإسلام والمسلمين فى تلك الظروف.

أو أن يعرّضوا وضعَ العاصمه الإسلاميه الثابت، والوحده السياسيه القائمه فى المدينه للخطر بإيجاد الاختلاف والتشتّت على الأقل.

إنّ ضرر الاختلافات الداخليّه أشدُّ بكثير من حملات العدوّ الخارجى، وإنّ انهيار الوحده والانسجام فى الجبهه الداخليه أخطر بكثير من تعرّض البلاد لهجوم من الخارج.

من هنا كان يتعيّن على النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أن يُرهب العدو الداخلى، ويفهمه بأنّ قوى التوحيد لم تفقد انسجامها وتماسكها، وأنّ أيّه خطوه أونشاط مُعاد يهدّد أساس الإسلام للخطر سيُسحَق بشدّه فى اللحظه الأُولى.

ولهذا أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأن يخرج فى نفس الليله لملاحقه العدوّ (أى مشركى مكّه).

فكلّف النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم رجلاً بأن ينادى فى كلّ مناطق المدينه:

«ألا عِصابَةٌ تشدّدُ لأمر اللّه تَطْلُبُ عدوّها، فإنّها أنكأ للعدوّ وأبعد للسمع. ألا لا يخرجن أحدٌ إلّامَن حضر يومنا بالأمس».(۱)

أو قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار مَن كانت به جِراحه فليخرج، ومَن لم يكن به جراحه فليقم».(۲)

وإنّما خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - كما أسلفنا - لِيُرهب العدوّ، وليبلغهم أنّه خارج فى طلبهم، فيظنّوا به قوّه، وأنّ الّذى أصابهم لم يوهنهم من عدوّهم(۳).

على أنّ لهـذا التقييـد، ولهـذا النهى عن خروج غير الجرحى، أو مَن لم يشترك فى أُحـدُ، عللاً ـ أو حكمـاً لا تخفى على العارفين بالسياسه، والأسرار العسكريه.

ويمكن الإشاره إلى بعضها:

أوّلاً: أنّ هـذا التحديد، وبالتالى الاقتصار على مَن شارك فى معركه أُحُد هو نوع من التعريض بمَن امتنع عن المشاركه فى تلك المعركه، وفى الحقيقه هو نوعٌ من تجريدهم من صلاحيه المشاركه فى الدفاع المقدّس.

ثانيـاً: أنّ هـذا التحديـد هو نوع من عقـاب المشـاركين فى معركه أُحُـد، لأـنّهم بتجاهلهم لتعاليم القياده، وانصـرافهم بسـرعه إلى المطـامع المادّيه، والغفله عن ملاحقه العَـدوّ فى حينه تسـبّبوا فى توجيه تلكم الضـربه النكراء إلى الإسـلام، ولـذلك يجب عليهم أنفسـهم ملافـاه تلـك الخسـاره، وترميم ذلـك العطب، لكيلاـ يعودوا إلى مثـل ذلـك، ولا يتجاهلوا أوامر القياده، ونحن نعلم أنّ الانضباطيه والتقيّد الكامل بالأوامر هو أهم عنصر فى نجاح الأُمور

۱- . مجمع البيان للطبرسى: ۴۴۷/۲.

۲- . تفسير القمىّ: ۱۲۵/۱؛ بحار الأنوار: ۶۴/۲۰.

۳- . مجمع البيان للطبرسى: ۴۴۷/۲.

العسكريه(۱).

إنّ رجلًا من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من بنى الأشهل كان شهد أُحُداً مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، قال: شهدت أحد مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، أنا وأخ لى، فرجعنا جريحين، فلمّا أذّن مؤذّن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالخروج فى طلب العدو، قلت لأخى أو قال لى: أتفوتنا غزوه مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم؟ واللّه مالنا من دابه نركبها، وما منّا إلّا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وكنت أيسر جرحاً منه، فكان إذا غلب حملته عقبه، ومشى عقبه، حتّى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون(۲).

حمراءُ الأسد

(۳)

خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حتى انتهى إلى حمراء الأسد (وهى من المدينه على ثمانيه أميال) واستعمل على المدينه «ابن أُمّ مكتوم».

وقد مرّ به «معبد بن أبى معبد الخزاعى» - رئيس بنى خزاعه - وكانت خزاعه مسلمهم ومشركهم يومذاك ذات علاقات طيّبه جدّاً مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والمسلمين، وكانوا لا يخفون عن النبىّ شيئاً.

فتقدّم معبد رئيسهم وعزّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بما أصابه، وهو يومئذ مشرك قائلًا: يا محمّد أما واللّه لقد عزّ علينا ما أصابك (فى أصحابك)، ولوددنا أنّ اللّه عافاك فيهم.

۱- . كلا هذين الوجهين يستقيمان إذا قلنا بأنّ النبىّ خرج بكل مَن شارك فى أُحُد لا أنّه اقتصر على الجرحى، كما تصرّح به بعض النصوص التاريخيه.

۲- . سيره ابن هشام: ۶۱۵/۳-۶۱۶؛ تاريخ الطبرى: ۲۱۲/۲.

۳- . لقد عدّ البعض خروج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى حمراء الأسد لملاحقه العدوّ غزوه مستقلّه، وذكرها البعض الآخر فى ذيل معركه أُحد.

ثم خرج معبد ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بحمراء الأسد، حتّى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه للكرّه عليهم، واستئصالهم، والقضاء عليهم.

فلمّا رأى أبوسفيان معبداً (وكان معبد قد استهدف من خروجه إلى أبى سفيان وجماعه المشركين القيام بخدمه لصالح النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه) قال: ما وراءك يا معبد؟

فقال معبد: - وهو يريد إرعاب قريش وصرفهم عن الرجوع إلى المدينه - محمّدٌ قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أرَ مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، قد اجتمع معه مَن كان تخلّف عنه فى يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحَنَقِ عليكم شىء لم أرَ مثله قط!!

فقال أبو سفيان: - وقد أُرعب بشده من هذا النبأ - ويحك ما تقول؟

قال معبد: واللّه ما أرى أن ترتحل حتّى ترى نواصىَ الخيل.

قال أبو سفيان: فواللّه لقد أجمعنا الكرّه عليهم لنستأصل بقيّتهم!

قال معبد: فإنّى أَنهاك عن ذلك.(۱)

وقد تركت كلمات معبد، ووصفُه لقوّه المسلمين وعزمهم الشديد على توجيه ضربه إلى الكفّار أثرها فى نفس أبى سفيان الّذى تملّكهُ خوفٌ شديدٌ، دعاهُ إلى الانصراف عن الرجوع إلى المدينه ثانيهً، و العزم على القفول إلى مكّه.

ومضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأصحابه حتّى عسكروا ليلاً بحمراء الأسد، فأمر بأن يوقد المسلمون النيران فأوقدوا خمسائه نار حتّى تُرى من المكان البعيد،

۱- . سيره ابن هشام: ۶۱۶/۳؛ تاريخ الطبرى: ۲۱۲/۲.

وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم فی كلّ وجه، وتصوّر العدو أنّ النبیّ جاءهم فی جیش عظیم، فتشاوروا حول الرجوع إلی المدینه فنهاهم صفوان عن ذلک، فانصرفوا(۱).

لا یُخدَعُ مؤمن مرّتین

هذا هو معنی قول النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم:

«المؤمن لا یلدغ من جُحرٍ مَرّتین».

ولقد قاله رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عندما أسّر المسلمون أبو عزّه الجمحی فی طریق عودتهم من حمراء الأسد علی نحو الصدفه، وأراد النبیّ ضرب عنقه فاستقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وطلب منه العفو وکان قد أسِرَ ببدر قبل ذلک، ثم مَنّ علیه النبیُّ وأطلق سراحه مشترطاً علیه أن یکفّ عن المؤامره ضد النبیّ والمشارکه فی قتاله، ولکنّه عاد إلی مکّه، وشارک فی قتال النبی مره أُخری فی أُحُد.

فقال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، لمّا طلب العفو ثانیهً:

«واللّهِ لا تمسح عارضَیکَ بمکّه بعدها وتقول: خَدَعتُ محمّداً مرّتین،...

وقیل: قال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: إنّ المؤمن لا یُلدغ من جحرٍ مرّتین».

ثم أمر بضرب عنقه، وضرب عنقه(۲).

۱- . لاحظ: الطبقات الکبری: ۴۹/۲؛ إمتاع الأسماع: ۱۸۰/۱.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۶۱۸/۳. نلفت نظر القارئ الکریم إلی أنّنا قد ذکرنا فی الهوامش مصادر أهم الحوادث فی معرکه أُحُد وفی إمکان القارئ الکریم لو أراد التوسّع أن یراجع المصادر التالیه الّتی اعتمد علیها المؤلّف: وهی: الطبقات الکبری لابن سعد: ۳۶/۲-۴۹؛ المغازی: ۱۹۹/۱-۳۴۰؛ شرح نهج البلاغه، لابن أبی الحدید: ۱۴/۱۴-۲۱۸ و ج ۵، ص ۶۰،

وأخيراً انتهت معركه أَحُد وقد قدّم المسلمون فيها سبعين، أو أربعه وسبعين، أو واحداً وثمانين شهيداً على روايات مختلفه، بينما لم يتجاوز عدد قتلى قريش اثنين وعشرين.

وقد نشأت هذه النكسه المرّه بسبب تجاهل الرماه لتعليمات الرسول القائد على النحو الّذى قرأت.

وقد وقعت معركه أُحد يومَ السبت السابع من شهر شوال من السنه الثالثه للهجره النبويه الشريفه، هذا مضافاً إلى غزوه حمراء الأسد الّتى استمرت إلى يوم الجمعه من ذلك الأُسبوع نفسه، فتكون قضايا ووقائع هذه الغزوه فى الرابع عشر من شهر شوال من نفس السنه.

ميلاد الإمام الحسن السبط

هذا وقد ولد فى هذه السنه (أى السنه الثالثه من الهجره) سبط رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الأكبر الإمام الحسن بن على عليه السلام فى منتصف شهر رمضان من تلك السنه، وأجرى له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مراسيمَ ولاده خاصّه ذكرها أصحاب الحديث وتجد تفصيلها فى سيره الأئمه من أهل البيت النبوى الطاهرين.

ص:٢٢۶

حوادث السنه الرابعه من الهجره

۳۴ فاجعه فریق المبلّغین

اشاره

۳۴ فاجعه فریق المبلّغین(۱)

لقد ظهرت الآثار السیاسیه لنکسه المسلمین فی معرکه «أُحد» بصوره واضحه بعد الحرب.

فمع أنّ المسلمین أظهروا مقاومه رائعه أمام العدوّ المنتصر ومنعوا من رجعته إلی المدینه وتحقیق أهدافه الخطیره فی استئصال المسلمین إلّاأنّ التحرّکات الداخلیّه والخارجیه ضدّ الإسلام بهدف القضاء علی هذا الدین، ورجاله قد تصاعد مدّها فی أعقاب حادثه «أُحد». وقد تجرّأ منافقو المدینه، ویهودها والمشرکون المتواجدون فی شتّی النقاط البعیده خارج المدینه علی إثر ذلک، وبدأوا یحیکون المؤامرات ضدّ الإسلام والمسلمین ویجمعون الأسلحه والرجال لشنّ الحروب والغارات علی المدینه.

وقد استطاع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وبمهاره کبیره إطفاء کلّ تلک التحرّکات، کما

۱- . وقعت حادثه قتل المبلّغین فی الشهر السادس.

واستطاع قمع تحرّكات القبائل القاطنه خارج المدينه الّتى كانت تنوى الهجوم على المدينه وذلك بإرسال السرايا والمجموعات القويه من المجاهدين.

وفى هذه الأثناء بلغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم نبأ مفاده أنّ قبيله بنى أسد تنوى الهجومَ على المدينه واحتلالها، وقتل المسلمين، ونهب أموالهم، فبعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من فوره جماعه من المقاتلين يبلغ عددهم (١٥٠) رجلاً بقياده «أبى سلمه» إلى منطقه تجمّع المتآمرين.

ثم إنّه صلى الله عليه و آله و سلم أوصاهم بأن يخفوا مقصدهم الأصلى، ويسلكوا طريقاً آخر غير الطريق المتعارف، ويقيموا نهاراً ويسيروا ليلاً، ليعمّوا على القوم.

وقد فعل «أبو سلمه» وجماعته ما أوصاهم به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فكانوا يسيرون الليل، ويكمنون النهار، حتّى وردوا المنطقه فأحاطوا ببنى أسد فى عمايه الصبح، وقضوا على المؤامره فى مهدها، وعادوا غانمين موفورين إلى المدينه، وقد وقعت هذه الحادثه فى شهر المحرّم على رأس خمسه وثلاثين شهراً من الهجره(١).

خطّه ماكره للفتك بالمبلّغين

كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يُرسل السرايا والمجموعات العسكريه لإفشال جميع مؤامرات المتآمرين ضد الإسلام، كما أنّه كان يقوم إلى جانب ذلك ببعث المجموعات التبليغيه إلى القبائل، والجماعات وبذلك يكسب قلوب المحايدين منهم نحو العقائد الإسلاميه.

وكان المبلّغون والدعاه الذين كانوا من قرّاء القرآن الكريم، ومن الملمّين

١- . لاحظ: المغازى: ٣٤٠/١، وإمتاع الأسماع: ١٨١/١.

بالأحكام الإسلاميه والتعاليم النبويه يبدون استعداداً عجيباً للقيام بهذه المهمّه الصعبه ولو كلّفتهم حياتهم، فكانوا ينقلون تعاليم الإسلام إلى الناس فى المناطق النائيه، والأماكن البعيده بأوضح بيان وأوضح أُسلوب.

ولقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ببعثه للمجموعات العسكريه من جانب، وإرساله للفرق التبليغيه من جانب آخر يقوم - فى الحقيقه - بوظيفتين هامّتين من وظائف المنصب النبوىّ.

فهو ببعثه للسرايا والمجموعات العسكريه كان يقصد فى الحقيقه القضاء على محاولات التمرّد، والتآمر الّتى كانت فى مرحله التحقّق والتكوّن لكى يتسنّى للمجموعات التبليغيه فى ظل الأمن والحريه الدعوه إلى الإسلام، والقيام بوظيفتها الأساسيه ألا وهى إرساء دعائم الحكومه الإسلاميه فى القلوب، وتنوير الأفكار، وإيقاظ العقول.

ولكن بعض القبائل المتوحّشه، والمنحطّه أخلاقياً وفكريّاً كانت تتحايل على المجموعات التبليغيه الّتى كانت تمثّل القوى المعنويه للإسلام، والّتى لم يكن لها هدفٌ سوى نشر التوحيد، واقتلاع جذور الكفر والوثنيه، وكانوا يقتلونهم بصوره فضيعه ومفجعه.

وفيما يلى نلفت نظر القارئ الكريم إلى قصّه مجموعه من الدعاه والمبلّغين الذين لقوا هذا المصير وكان عددهم يبلغ سته أشخاص حسب روايه ابن هشام(۱)، أو عشره أشخاص حسب روايه ابن سعد(۲).

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۶۶۷/۳، وقال فى إمتاع الأسماع: ۲۷۴/۱۳: إنّهم سبعه أشخاص.

۲- . الطبقات الكبرى: ۵۵/۲.

الغدر بالدعاه إلى الإسلام وقتلهم

لقد مشت جماعه من قبيلتى «عضل» و «القاره» إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقالوا - وهم يضمرون المكر -: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إنّ فينا إسلاماً فاشياً فابعث مَعَنا نفراً من أصحابك يقرِّئوننا القرآن، ويفقّهوننا فى الإسلام.

فرأى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّ من واجبه الاستجابه لمطلب تلك الجماعه الّتى كانت تمثّل قبائل كبرى، وكما رأى المسلمون أيضاً أنّ من واجبهم أن يستفيدوا من هذه الفرصه مهما كلّف الثمن.

من هنا بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جماعه بقياده «مرثد بن أبى مرثد الغَنَوىّ» مع تلك الجماعه إلى القبائل المذكوره.

فخرج هؤلاء المبلغون ووفد القبيلتين من المدينه متوجّهين إلى حيث تتواجد «عضل» و «القاره»، ولمّا كانوا بماء يُسمّى: الرجيع تقطن عنده قبيله تُدعى:

«هذيل» كشف مندوبو القبيلتين عن نواياهم الشرّيره، واستصرخوا هذيلاً وكميناً من رجالهم، وكانوا مائه رام وبأيديهم السيوف فأحاطوا بالدعاه يريدون أسرهم ثم قتلهم وإبادتهم!!

فلم ير المبلّغون بدّاً - وهم محاطون بتلك الجماعات المسلّحه - من اللجوء إلى سيوفهم والدفاع عن أنفسهم.

ولكنّ العدوّ قال: ما نريد قتالكم، وما نريد إلّاأن نصيب منكم من أهل مكّه ثمناً، ولكم عهد اللّه وميثاقه لانقتلكم!!

فنظر الدعاه بعضهم إلى بعض، وقرّر أكثرهم المقاومه وعدم الرضوخ لهذا العرض الغادر، والخطّه الماكره، وقال أحدهم: إنّى نذرت أن لا أقبل جوارَ

مشرک(۱) ثم جعلوا یقاتلون القوم قتال الرجال الأبطال، حتّی قتلوا إلّاثلاث هم:

«زید بن دثنّه»، و «خبیب بن عدیّ»، و «عبداللّه بن طارق البلویّ» فقد أغمد هؤلاء سیوفهم وسلّموا، فأُخِذوا ووثّقوا بأوتار قسیّهم، ولکن «عبداللّه» ندم علی فعله، فنزع یده من رباطه ثم أخذ سیفه، وراح یقاتلهم حتی قتلوه رمیاً بالحجاره، وقد انحازوا عنه وهو یشدّ فیهم وینفرجون عنه، ودفن فی مر الظهران.

ثم أخذوا الأسیرین الآخرین «خبیب» و «زید» وقدموا بهما مکّه فباعوهما لأهل مکه!!

فأمّا زید بن الدثنّه فقد اشتراه «صفوان بن أُمیه» وقتله ثأراً لأبیه، ولقتله قصّه عجیبه سطّر فیها أروع آیات المقاومه والوفاء والإخلاص.

فقد اشتراه «صفوان بن أُمیه» کما أسلفنا لیقتله بأبیه، وقد حبسه صفوان فی الحدید، وکان یتهجّد باللیل ویصوم بالنهار، ولا یأکل شیئاً ممّا أُتی به من الذبائح، وهو فی الأسر والحبس.

ثم إنّه أُخرِجَ إلی «التنعیم»(۲) لیُصلَب علی مرأی حشد کبیر من الناس.

فرفعوا له جذعاً، فقال: دعونی أُصلّی رکعتین، فصلّی رکعتین، ثم حملوه علی الخشبه ثم جعلوا یقولون له: یا زید إرجع عن دینک المُحدَث، واتّبع دیننا، ونرسلک، فیقول: واللّه لا أُفارق دینی أبداً.

فقال له أبو سفیان فرعون مکّه وأشدّ المتآمرین علی الإسلام ومدبّر أغلب الحروب ضد رسول اللّه، والمسلمین: أنشدک باللّه یا زید أیسرّک أنّ محمّداً فی أیدینا مکانَکَ وأنت فی بیتک؟. فقال زید بشجاعه ووفاء عظیمین: ما یسرّنی أنّ

۱- . أو قالوا: واللّه لا نقبل من مشرک عهداً ولا عقداً أبداً (السیره النبویه لابن هشام: ۶۶۸/۳).

۲- . التنعیم ابتداء الحرم، ومنها یحرم المعتمرون للعمره المفرده.

محمّداً أَشِيك بشوكه وإنّى فى بيتى، وجالس فى أهلى!!!

وقد كان لهذه الكلمه أثر الصاعقه فى نفس طاغيه مكّه أبى سفيان فقال: ما رأينا أصحاب رجلٍ قطّ أشدّ حبّاً من أصحاب محمّد بمحمّد!!

ولم تمض لحظات إلّاوصار «زيد» على خشبه الإعدام ورفرفت روحه إلى خالقها، ومضى ذلك المسلم الوفىّ، والمؤمن الشجاع شهيدَ الثبات فى طريق العقيده، والدفاع عن حياض الدين.

وأمّا «خُبيب» فقد حُبس مدّةً من الزمان حتّى قرّر رجال ندوه مكّه قتله، فخرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعه من أهل مكّه، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعونى حتّى أركع ركعتين فافعلوا، فقالوا دونك فاركع.

فركع ركعتين أتمّهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم وقال: أما واللّه لولا أن تظنّوا أنّى طوّلتُ جَزَعاً من القتل لاستكثرتُ من الصلاه!!

ثم رفعوه على خشبه ثم وجّهوه إلى المدينه، وأوثقوه رباطاً، ثم قالوا له:

إرجع عن الإسلام نخلّ سبيلك.

قال: لا واللّه ما أَحَبُّ أنّى رجعتُ عن الإسلام وأنّ لى ما فى الأرض جميعاً.

فقالوا: أما واللات والعزّى لئن لم تفعل لَنقتلنّك!

فقال: إنّ قتلى فى اللّه لقليل، فلمّا أبى عليهم وقد جعلوا وجهه من حيث جاء (أى نحو المدينه)، قال: أمّا صرفكم وجهى عن القبله، فإن اللّه يقول: «فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ» ثم قال: اللّهم إنّى لا أرى إلّاوجه عدوّ، اللّهم أنّه ليس هاهنا أحدٌ يبلّغ رسولَك السلامَ عنىّ فبلّغه أنتَ عنّى السلام.

ثم دعا على القوم وقال: اللّهم أحصهِم عَدَداً، واقتُلهُم بَدَداً، ولا تغادر منهم

أحداً.

ثم دعوا أبناء من أبناء مَن قُتِلَ ببدر فوجدوهم أربعين غلاماً، فأعطوا كلّ غلامٍ رمحاً، ثمّ قالوا هذا الّذى قتل آباءكم، فطعنوه برماحهم طعناً خفيفاً فاضطرب على الخشبه فانقلب، فصار وجهه إلى الكعبه، فقال: الحمدللّه الّذى جعل وجهى نحو قبلته الّتى رضى لنفسه ولنبيّه وللمؤمنين!!

فأثارت روحانيّته الكبرى، وطمأنينته العظيمه غيض أحد المشركين الحاضرين، وهو «عقبه بن الحارث» وتملّكه غضب شديدٌ من إخلاصه للإسلام فأخذ حربته وطعن بها خبيباً طعنه قاضيه، قتلته، وهو يوحّد اللّه ويشهد أن محمّداً رسول اللّه.

ويروى ابن هشام أنّ خبيباً أنشد قبل مقتله أبياتاً عظيمه نذكر هنا بعضها:

إلى اللّهِ أشْكُو غُرْبَتى ثمّ كُربَتى وما أرصدَ الأحزاب لى عند مَصْرعى

فذا العرش صبّرنى عَلى ما يُرادُ بى فقد بضّعوا لحمى وقد يأسَ مَطْمَعى

وذلكَ فى ذات الاله وأن يشأ يبارك على أوصالِ شلوٍ مُمزَّع

وقَد خيّرونى الكفر والموتَ دونَه وقَد هَمَلَتْ عيناى من غير مجزع

وما بى حِذارُ الموت إنّى لميّت ولكن حِذارى جحم نار ملفَّع

فواللّه ما أرجو إذا متّ مسلماً على أی جنب کان فی اللّه مَصْرَعی

فلستُ بمُبدٍ للعدوّ تخشعاً ولا جزعاً إنّی إلی اللّهِ مرجعی

وقد أحزَنت هذه الحادثه الأليمه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وکذا جمیع المسلمین.

وأنشد فیهم «حسانُ بن ثابت» أبیاتاً ذکرها ابن هشام فی سیرته، کما أنّه هجا هذیلاً فی أبیات أُخری لارتکابهم هذه الجریمه النکراء(۱).

ولقد خشی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن تتکرّر مثل هذه الجریمه النکراء، وبذلک یواجه رجال التبلیغ والدعوه الذین کان یعدهم بصعوبه بالغه مصاعب فی سبیلهم، ویتعرّضوا لخسائر لا تجبر، وعملیات غدر واغتیال أُخری.

وقد بقی جثمان هذا المسلم المجاهد علی الخشبه مده من الزمن، یحرسه جماعه من المشرکین حتّی قام رجلان قویّان شجاعان من المسلمین بإنزاله من فوق الصلیب لیلاً، ومن ثم دفنه بأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم(۲).

جریمه بئر معونه

وفی شهر صفر من السنه الرابعه وقبل أن یصل نبأ مصرع الدعاه المذکورین واستشهادهم علی أیدی المشرکین فی منطقه الرجیع إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، قدم أبو براء عامر بن مالک العامری ملاعب الأسنّه علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم المدینه فعرض علیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الإسلام ودعاه إلیه، فلم یسلم ولم یبعد من الإسلام وقال: یا محمّد لو بعثتَ رجالاً من أصحابک إلی أهل «نجد» فدعوهم إلی أمرک، رجوتُ أن یستجیبوا لک.

۱- . لاحظ: المغازی: ۳۵۴/۱-۳۶۲، السیره النبویه لابن هشام: ۶۶۷/۳-۶۷۳.

۲- . سفینه البحار: ۳۷۲/۱.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: إنّى أخشى عليهم أهل نجد.

قال أبو براء: أنا لهم جارٌ، فابْعَثْهُمْ فليَدعوا الناس إلى أمرك.

فبَعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المنذر بن عمرو أخا بنى ساعده الملقّب ب: (المعنق ليموت)(۱) فى أربعين رجلاً من خيار المسلمين من أصحابه ممّن حفظوا القرآن وعرفوا أحكام الإسلام...»، فساروا حتّى نزلوا ببئر معونه، وهى بين أرض بنى عامر وحرّه بنى سليم، وهم يحملون من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كتاباً إلى عامر بن الطفيل أحد زعماء «نجد»، وكلّف أحد المسلمين بإيصال ذلك الكتاب إلى عامر، فلمّا أتاه لم ينظر فى كتابه حتّى عدا على الرجل (حامل الكتاب) فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً.

فاستصرخ عليهم قبائل بنى سُلَيم فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتّى غشوا القوم، فأحاطوا بهم فى رحالهم، فلمّا رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتّى قتلوا عن آخرهم.(۲) بعد أن أبدوا مقاومه كبرى، وبساله عظيمه، ولم يكن يتوقّع منهم غير ذلك.

فإنّ مبعوثى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لم يكونوا مجرّد رجال فكر وعلم فقط، بل كانوا رجال حروب، وأبطال معارك ولذا رفضوا الاستسلام للمعتدين، واعتبروا ذلك عاراً لا يليق بالمسلم الحرّ الأبىّ، فقاتلوهم حتّى استشهدوا جميعاً، إلّاكعب بن زيد، فإنّه جرح فعاد بجراحه إلى المدينه، وأخبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بما جرى

۱- . المعنق: بضم الميم وسكون العين المهمله وكسر النون وبالقاف: أى المتقدّم أو المسرع، وإنّمالقّب بذلك لتقدّمه أو لإسراعه إلى الشهاده. (سبل الهدى والرشاد للصالحى الشامى: ۶۸/۶).

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۶۷۸/۳-۶۷۹.

لأصحابه على أيدى قبائل بنى سليم المشركه الغَدَره.

فحزن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والمسلمون جميعاً لهاتين الحادثتين، المفجعتين أشد الحزن؛ بل ولم يجد على قتلى مثل ما وجد عليهم، وبقى رسول اللّه يذكر شهداء بئر معونه ردحاً من الزمان(۱).

هذا ولقد كانت هاتان الحادثتان المؤسفتان المؤلمتان جميعاً من نتائج النكسه الّتى أصابت المسلمين فى «أُحد» والّتى جرّأت القبائل خارج المدينه على قتل رجال المسلمين ودعاتهم غدراً ومكراً.

كيدُ المستشرقين وجفاؤهم

إنّ المستشرقين الذين دأبوا على نقد أبسط سوء يتعرّض له مشرك على أيدى المسلمين فينالون من الإسلام والمسلمين أشدّ نيل، ويصرّون على أن يؤكّدوا على أن الإسلام لم ينتشر إلّابالسيف والقهر، التزموا صمتاً عجيباً تجاه هاتين الحادثتين المؤلمتين المفجعتين، ولم ينبسُوا فى هذا المقام ببنت شفه أبداً، وكأنّ شيئاً من هذا لم يقع، وكأنّ ما وقع لا يستحقّ اهتماماً وحديثاً.

ترى أىّ نظام من أنظمه العالم القديم والجديد يجيز أن يُقتَل الدعاه والمبشّرون ورجالُ العلم والفكر، والتعليم والتثقيف.

إذا كان الإسلام قد تقدّم بالسيف - كما يدّعى رجالُ الاستشراق - فلماذا تخاطر جماعات التبليغ والدعوه هذه بأنفسها وتزهق أرواحها فى سبيل نشر الإسلام والدعوه السلميه الفكريه إليه.

إنَّ هاتين الحادثتين تنطويان على نقاط حيويه، وعبر مفيده جداً، فإنّ قوه

۱- . لاحظ: المغازى: ۳۴۶/۱؛ إمتاع الأسماع: ۱۸۱/۱-۱۸۳.

الإيمان لدى تلك الجماعات، وعمق تفانيها، وتضحيتها، وبسالتها تستحقّ إعجاب المسلمين، وإكبارهم. كما وتعتبر من أفضل الدروس وأبلغها لهم.

المؤمن لا يلدغ من جحر مرّتين

لقد أثارت حادثتا «الرجيع» و «بئر معونه» المفجعتان اللّتان جرّتا إلى مصرع مجموعه كبيره من خيره الدعاه والمبلّغين موجه من الحزن والأسى فى المسلمين وتركت أثراً مؤلماً فى أوساطهم.

وهنا يتساءل القارئ: لماذا أقدم النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم على إرسال المجموعه الثانيه من المبلّغين إلى «نجد» مع أنّه حصل على تجربه مرّه؟! ألم يقل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«لا يُلدغ المؤمن من جحر مرّتين»؟!

إنّ الإجابه عن هذا السؤال تتّضح من خلال مراجعه النصوص التاريخيه؛ لأنّ المجموعه الثانيه قد بُعثت فى جوارِ من أبى براء (عامر بن مالك بن جعفر) والّذى كان رئيساً لقبيله بنى عامر، ولم تفعل قبيلته ما خالف جوار رئيسهم ولم يشتركوا فى تلك الجريمه، وقد بقى أبو براء نفسه فى المدينه تأكيداً لجواره، ريثما يرجع فريق التبليغ إلى المدينه.

لقد كانت خطّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خطّه مدروسه وصحيحه؛ لأنّ جماعه المبلّغين الثانيه لم تقتل على يد قبيله أبى براء، ومع أنّ ابن أخيه عامر بن الطفيل قد استصرخ قبيله أبى براء الّتى كانت قبيلته أيضاً، ضدّ جماعه المبلّغين إلّاأنّ قبيله أبى براء أبت أن تنفر معه، ولم يستجب لندائه أحدٌ منهم بل قالوا: لن يُخفَرَ جوار أبى براء. ولمّا أيس منهم استصرخ قبيلةً أُخرى لا تمتُّ إلى قبيله أبى براء بصله، فأقدمت تلك القبائل على محاصره الدعاه الأربعين ومقاتلتهم.

ثم إنّ جماعه المبلّغين المذكوره كانت قد بعثت عند مغادرتها المدينه وتوجّهها إلى منطقه أبى براء رجلين من رجالها هما: «عمرو بن أُميّه» و «حارث بن الصمه»(۱) ليرعيا إبل الجماعه ويحافظا عليها، وبينما كان الرجلان يقومان بواجبهما إذ أغار عليهما «عامر بن الطفيل». فقتل حارث بن الصمه، وأطلق سراح عمرو بن أُميّه.

فعاد عمرو إلى المدينه، فى أثناء الطريق التقى رجلين من العامريين فرافقهما وأمهلهما حتّى إذا ناما وثب عليهما فقتلهما، وهو يرى بأنّه انتقم لزملائه من المسلمين من بنى عامر، وقد أخطأ فى تصوّره هذا لأنّ بنى عامر لم تخفر جوار سيدها أبى براء ولم تنقض أمانه كما أسلفنا، ولم يشترك فى جريمه قتل الدعاه الأربعين.

فلمّا قدم على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأخبره الخبر، حزن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لذلك وقال لعمرو:

«بئس ما صنعت، قتلت رجلين كان لهما منّى أمان وجوار، لأدفعن ديتهما».(۲)

ولكن الإجابه الأكثر وضوحاً على هذا الاعتراض (أو السؤال) هو ما يذكره ابن سعد صاحب الطبقات إذ يقول: وجاء رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خبر أهل بئر معونه، وجاءه تلك الليله أيضاً مصاب خبيب بن عدىّ ومرثد بن أُبى مرثد(۳).

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۶۷۹/۳ و صاحب السيره يرى أنّه المنذر بن محمد بن عقبه الجلاح.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۶۸۰/۳.

۳- . الطبقات الكبرى: ۵۳/۲.

۳۵ غزوه «بنی النضیر»

اشاره

لقد فرح منافقو المدینه ویهودها بانتکاسه المسلمین فی معرکه «أُحد» کما فرحوا أیضاً بمصرع رجال التبلیغ والدعوه، فرحاً بالغاً وباتوا یتحیّنون الفرصه لإثاره القلاقل والفتن فی المدینه لإفهام القبائل خارجها بأنّه لا توجد أیّه وحده سیاسیّهٍ وانسجام اجتماعیّ فی مرکز الإسلام وعاصمه الحکومه الإسلامیه، وأنّ فی مقدور الأعداء الخارجیّین أن یُجهزوا علی حکومه الإسلام الفتیه، ویقضوا علیها بسهوله!!

ولکی یقفَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی نوایا ودخائل یهود بنی النضیر مشی فی جماعه من أصحابه إلی حصنهم.

علی أنّ الهدف الظاهری المعلَن عنه کان هو الاستعانه بهم فی دیه العامریّین اللذین قتلا ـ خطأ علی ید «عمرو بن أُمیّه» کما أسلفنا، وذلک بموجب الاتفاقیّه المعقوده بین رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وبین الیهود، وکذا بنی عامر وغیرهم والقاضیه بالتعاون معاً فی تسدید الدیه فی مثل هذه الموارد.

فلمّا وصل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی حیث یسکن بنو النضیر(۱)، وکلّمهم فی أن یعینوه فی تلک الدیه، رحبوا به ظاهراً، ووعدوا بأن یلبّوا مطلبه، ثم إنّهم خاطبوه

۱- . ذکر الواقدی فی المغازی: ۳۶۴/۱ بأنّ النبیّ جاء بنی النضیر فی ناديهم.

قائلين: نفعل يا أبا القاسم ما أحببتَ. ثم دعوه إلى أن يدخل فى بيوتهم، ويقضى يومه فيها، قائلين: قد آن لك أن تزورنا، وأن تأتينا، إجلس حتّى نطعمك، فلم يقبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بتلبيه مطلبهم، بل جلس مستنداً إلى جدار بيت من بيوتهم وأخذ يكلّمهم.

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أحسَّ بشرٍّ من ذلك الترحيب الحارّ الّذى قابلته به رجال بنى النضير، والّذى رافق حركات مشبوهه منهم!!

هذا مضافاً إلى أنّه صلى الله عليه و آله و سلم شاهدهم وقد خلا بعضهم إلى بعض يتناجون ويتهامسون، الأمر الّذى يدعو إلى الشكّ، ويورث سوء الظن!!

وقد كان سوء الظن هذا فى محلّه، فقد قرّر ساده يهود - لمّا أتاهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى رهط قليل من أصحابه - أن يتخلّصوا منه باغتياله والغدر به على حين غفله منه صلى الله عليه و آله و سلم، فانتدبوا أحدهم وهو «عمرو بن جحاش» لتنفيذ هذه الجريمه، وذلك بأن يعلو على البيت الّذى استند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى جداره فيُلقى عليه صخره تقتله.

إلّا أنّ هذه المؤامره انكشفت - ولحسن الحظ - قبل تنفيذها، إمّا من خلال حركات أُولئك اليهود الخبثاء، المشبوهه، أو بخبر أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من السماء، كما يروى ابنُ هشام والواقدى فى مؤلّفيهما.

فنهض رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سريعاً، كأنّه يريد حاجه، وتوجّه من توّه إلى المدينه دون أن يخبر أصحابه الذين أتوا معه، بقصده.

وبقى أصحابه هناك ينتظرون عودته من حاجته دون جدوى.

وندمت يهود على ما صنعت، واضطربت لذلك اضطراباً شديداً، وأصابتها حيره شديده فيما يجب أن تقوم به.

فمن جهه خشیت أن یکون رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قد عَلِمَ بمؤامرتهم وتواطئهم، فیقدم علی تأدیبهم لنقضهم میثاق التعایش السلمیّ، ولتواطئهم القبیح، ومکرهم السیِّئ.

ومن ناحیه أُخری أخذت تفکّر فی أن تنتقم من أصحابه الموجودین هنا إن هو فاتهم، ولکنّها خشیت أن یؤدّی ذلک إلی مزید من تأزّم الموقف، وأن ینتقم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حینئذ منهم قطعاً ویقیناً.

وفیما هم فی هذه الحاله من الاضطراب والتحیّر قرّر أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم العوده إلی المدینه بعد أن یئسوا من رجعته إلیهم من حاجته، فلقوا رجلاً ـ مقبلاً ـ من المدینه فسألوه عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فقال: رأیته داخلاً المدینه، فأقبلوا حتّی انتهوا إلیه صلی الله علیه و آله و سلم وعرفوا بمؤامره الیهود، إذ قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لهم لمّا قالوا: یا رسول اللّه قمت ولم نشعر:

«همّت الیهودُ بالغدر بی، فأخبرنی اللّهُ بذلک فقمتُ»(۱).

بماذا یجب أن تقابل هذه الجریمه؟

والآن ماذا یجب أن یقوم به رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تجاه هذه الزمره الخائنه المتآمره؟ تلک الزمره الّتی تنعم بما وفّرتها لهم الحکومه الإسلامیه من أمن وحریه، ویحافظ جنودُ الإسلام علی أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، کما یفعلون الفعل ذاته بالنسبه إلی أنفسهم وأموالهم وأعراضهم علی حد سواء.

تلک الزمره الّتی کانت تری کلّ آثار النبوه ودلائلها فی حیاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وأعماله، وأقواله تماماً علی نحو ما قرأت عنه فی کتبها وأسفارها، ولکنّها بدل أن

۱- . المغازی: ۳۶۶/۱؛ الطبقات الکبری: ۵۷/۲.

تردّ الجميل بالجميل وتقابل الإحسانَ بالإحسان، وبدل أن تحسن ضيافته وقد نَزَل عليهم ضيفاً، تتآمر لقتله غيله وغدراً دونما خجل ولا حياء!!

ما هو يا تُرى ما تقتضيه العداله فى هذا الصعيد وفى هذه الحال؟

وماذا يجب أن يفعل المرء حتّى يمنع من تكرار مثل هذه الحوادث، ويستأصل جذور مثل هذه الجرائم؟

إنّ الطريق المنطقى هو ما أختاره رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وفعله.

فقد أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المسلمين بالتهيّؤ لحربهم، والسير إليهم، ثم دعا محمد بن مسلمه وأمره بأن يذهب إلى بنى النضير، ويبلغ سادتهم، من قِبَلِهِ رساله.

فخرج محمد بن مسلمه الأنصارى الأوسى إلى بنى النضير وقال لسادتهم:

إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أرسلنى إليكم يقول:

«قد نَقَضتُم العهدَ الّذى جَعلتُ لكم بما هَمَمتُمْ به من الغدر بى». وأخبرهم بما كانوا ارتأوا من الرأى وظهور عمرو بن جحاش على البيت يطرح الصخره فأسكتوا فلم يقولوا حرفاً. ويقول:

«اُخرجُوا مِن بلدى فقد أجلّتكُم عشراً فمن رُئى بعدَ ذلك ضربتُ عنقه».(۱)

فأحدثت هذه الرساله الشديده اللهجه والساخنه المضمون انكساراً عجيباً فى يهود بنى النضير، وأخذوا يتلاومون، وأخذ يحمّل كلّ واحد منهم الآخر مسؤوليه هذه القضيه.

فاقترح عليهم أحد سادتهم أن يعتنقوا الإسلام ويؤمنوا برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ولكن عنادهم منعهم من القبول بهذا الاقتراح. وعمّتهم حاله يرثى لها من الحيره،

۱- . المغازى: ۳۶۶/۱-۳۶۷.

والانقطاع، فقالوا لمبعوث النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم: يا محمّد ما كنّا نرى أن يأتى بهذا رجلٌ من الأوس.

ويقصدون أنّه كان بيننا وبين الأوس حلفٌ فما بالك تريد حربنا الآن.

فقال محمد بن مسلمه: تغيّرت القلوب.

وقد كان هذا الإجراء متطابقاً مع ما جاء فى ميثاق التعايش الّذى عقده رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مع يهود يثرب إبّان دخوله المدينه، وقد وقّع عليه عن يهود بنى النضير حيى بن أخطب، وقد نقلنا فى ما سبق النصَّ الكامل لهذا الميثاق وها نحن ندرج هنا قسماً منه ليتّضح ما ذكرناه.

جاء فى أحد بنود الميثاق (العهد):

«ألّا يعينوا (أى بنو النضير وبنو قريظه وبنو قينقاع) على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ولا على أحد من أصحابه بلسانٍ و لايدٍ ولا بسلاحٍ ولا بكراعٍ فى السرّ والعلانيه لا بليلٍ ولا بنهارٍ، واللّه بذلك عليهم شهيدٌ، فإن فعلوا فرسول اللّه فى حلٍّ من سفك دمائهم، وسبى ذراريهم، ونسائهم، وأخذِ أموالهم»(۱).

المستشرقون و دموع التماسيح

لقد أبدى المستشرقون حزنهم وأسفهم لما جرى فى هذه القضيه، وذرفوا دموع التماسيح، وأبدوا رقّه وشفقةً أكثر ممّا تبديه والده تجاه وليدها، على اليهود الخونه الناقضين العهد، الناكثين للإيمان، واعتبروا الإجراء الّذى اتّخذه النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم بحقّهم بعيداً عن روح الإنصاف وسنن العدل!!

والحقّ أنّ هذه الاعتراضات والانتقادات لا تنبع من منطق السعى لمعرفه

۱- . بحار الأنوار: ۱۱۱/۱۹.

الحقيقه، لأنّنا عنـد مراجعتنا لنصّ الميثاق الّذى أدرجناه للقارئ الكريم نرى الحقيقه على غير ما يتصوّرون ويصوّرون، فإنّنا نعرف أنّ الجزاء الّذى جازى به رسول اللّه يهود بنى النضير هو فى الحقيقه أقلّ من الجزاء المنصوص عليه فى ذلك الميثاق بدرجات.

إنّ هناك اليوم مئات الجرائم والمظالم الّتى يرتكبها أسياد هؤلاء المستشرقين فى الشرق والغرب دون أن يعترض عليها أى واحد من هؤلاء المستشرقين (الرحماء)، أدعياء الدفاع عن حقوق الإنسان!!!

أمّا عنـدما يقوم رسول الإسـلام بتنفيـذ عقوبه - هى فى الحقيقه - أقلّ بكثير من ما هو منصوص عليه فى الميثاق بحقّ زمره خائنه متآمرٍ ناقضٍ للعهد، تتعالى أصواتُ حفنه من الكتّاب المدفوعين بأغراض معينه ودوافع خاصّه، بالاعتراض والانتقاد.

دور حزب النفاق أيضاً

كـان خطر المنافقين - وكما أسـلفنا - أكبر من خطر اليهود لأنّ المنافق يطعن من الخلف وتحت غطاء من الصـداقه، ويتستّر وراء قناع الصحبه والزماله.

وقد كان رأس هذا الحزب هو «عبداللّه بن أُبى» و «مالك بن أُبى» و.. و..

ولمّـا سـمع هؤلاء المنـافقون بما يلقاه بنو النضـير من رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم أرسل عبـد اللّه بن أُبى إليهم سويد وداعس فقالا: يقول عبـد اللّه بن أُبى: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا فى حصونكم، فإنّ معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم

وتمدكم قريظه فإنّهم لن يخذلوكم، ويمدّكم حلفاؤكم من غطفان؟![1]

ولقد جرّأت هذه الوعود بنى النضير، فانصرفوا عن فكره الرضوخ لمطلب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فأغلقوا أبواب حصونهم، وأعدُّوا عدّه الحرب، وعزموا على أن يقاوموا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مهما كلّف الثمن، ولا يسمحوا للمسلمين بأن يسيطروا على بساتينهم وممتلكاتهم دون عوض.

فَنَصَحَهم أحدُ كبرائهم وهو «سلام بن مشكم» وشكّك فى وعود عبداللّه بن أُبى، واعتبرها وعوداً جوفاء، وقال: ليس قول ابن أُبى بشىء، إنّما يريد ابن أُبى أن يورطك فى الهلكه حتى تحارب محمّداً ثمّ يجلس فى بيته ويترككك...

قال حيى: تأبى نفسى إلّاعدواه محمد وإلّا قتاله.

قال سلام: فهو واللّه جلاؤُنا من أرضنا، وذهاب أموالنا، وذهاب شرفنا، أو سباء ذرارينا مع قتل مقاتلينا.

فأبى «حيى بن أخطب» إلّامحاربه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم (وحثّ الناس على المقاومه والصمود)، وأرسل أخاه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يخبره: إنّا لا نبرح من دارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع!![2]

فعرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم برساله «عبداللّه بن أُبى» إلى بنى النضير، ووعوده لهم، فاستخلف ابن أُمّ مكتوم على المدينه، وسار صلى الله عليه و آله و سلم فى أصحابه مكبّراً لمحاصره بنى النضير فصلّى صلاه العصر بفضائهم واستقر فى الطريق بين «بنى النضير» وبين «بنى قريظه» ليقطع بذلك سبيل الاتّصال بين هذين الفريقين، وحاصر

۱- . المغازى: ۳۶۸/۱.

۲- . المغازى: ۳۶۹/۱-۳۷۰.

بنی النضیر ست لیال - حسب روایه ابن هشام -(۱) أو خمسه عشر یوماً حسب روایات آخرین، ولکن الیهود تحصّنوا منه فی الحصون، وأظهروا المقاومه، والإصرار علی الامتناع، فأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بقطع النخیل المحیطه بتلک الحصون، وإلقاء النار لییأس الیهود من البقاء فی تلک المنطقه مادامت بساتینهم أُعدمت، وأُفنیت.

فتعالت نداءاتُ الیهود تقول: یا محمّد، قد کنتَ تنهی عن الفساد، وتعیبه علی من صنعَهُ، فما بالُ قطعِ النخل وتحریقها؟!

فردّ اللّه تعالی علیهم بقوله:

«ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِینَهٍ أَوْ تَرَکْتُمُوها قائِمَهً عَلی أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللّهِ وَ لِیُخْزِیَ الْفاسِقِینَ» .(۲)

هذا من جهه ومن جهه أُخری خذلهم عبداللّه بن أُبیّ، فلم یأتوهم، کما اعتزلتهم قریظه فلم تعنهم بسلاح ولا رجال.

وقد ذکر القرآن الکریم هذا الخذلان إذ قال تعالی:

«أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ نافَقُوا یَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَکُمْ وَ لا نُطِیعُ فِیکُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّکُمْ وَ اللّهُ یَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لا یَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا یَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَیُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا یُنْصَرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَهً فِی صُدُورِهِمْ مِنَ اللّهِ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا یَفْقَهُونَ * لا یُقاتِلُونَکُمْ جَمِیعاً إِلّا فِی قُریً مُحَصَّنَهٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۶۸۳/۳. وهذا من التکتیکات العسکریه الّتی کان النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم یستعملها لیقطع خطوط الارتباط بین الجماعات المتعاونه.

۲- . الحشر: ۵.

بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ» .(۱)

وقد كشفت الآيات الحاضره - إلى جانب ما ذكر - عن نفسيه اليهود الجبانه، والّتى انهارت أيضاً بسبب معنويات المسلمين القويه حتّى أنّهم رغم اجتماعهم وعددهم الكبير يخافون من مواجهه المسلمين فلا يقاتلونهم إلّامن وراء أسوار الحصون، وجدران القلاع القويه خائفين مذعورين، ومرعوبين، وهم إلى جانب كلّ ذلك يعانون من اضطراب وقلق وتفرّق كلمه فى الواقع.

وأخيراً رضخ اليهودُ لمطلب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وسألوه أن يجليهم، ويكفَّ عن دمائهم على أن يكون لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلّاالسلاح والدروع، فرضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بذلك.

فاحتملوا من أموالهم أكبر قدرٍ ممكنٍ، حتّى أنّ الرجل منهم يقلع باب بيته فيضعه على ظهر بعيره، ثم يخرب بيته بيديه!!

فخرج جماعه منهم إلى خيبر، وسارت جماعه أُخرى منهم إلى الشام.

وقد خرجت تلك الزمره الذليله الخاسئه وهم يضربون بالدفوف، ويزمّرون بالمزامير، وقد ألبسوا نساءهم الثياب الراقيه، وحلىّ الذهب، مظهرين بذلك تجلّداً ليغطوا على هزيمتهم، ويروا المسلمين أنّهم غير منزعجين من مغادرتهم تلك الديار!!(۲)

مزارع بنى النضير تقسَّم بين المهاجرين فقط

إنّ ما يغنمه جنود الإسلام دون قتال وهو ما يُسمّى بالفىء يعود أمره إلى

۱- . الحشر: ۱۱-۱۴.

۲- . لاحظ: المغازى للواقدى: ۳۷۴/۱-۳۷۵.

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خاصّه، يضعه حيث يشاء ويصرفه فيما يرى من مصالح الإسلام لقوله تعالى:

«ما أَفاءَ اللّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» .(۱)

وقد رأى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم أنّ من الصالح أن يقسّم المزارع والممتلكات الّتى غنمها من بنى النضير على المهاجرين دون الأنصار، لحرمانهم من ممتلكاتهم وثروتهم فى مكّه بسبب الهجره منها إلى المدينه، وكانوا فى الحقيقه ضيوفاً على الأنصار طوال هذه المده، وقد أيّد «سعد بن معاذ» و «سعد بن عباده» هذا الرأى، ومن هنا قسّم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جميع تلك المزارع والممتلكات على المهاجرين خاصّه، ولم يحصل أحد من الأنصار منها على شىءٍ إلّارجلين كانا محتاجين هما:

«سهل بن حنيف»، و «أبو دجانه»، الأنصاريان، وحصل بذلك انفراج فى أحوال المسلمين عامّه، وأعطى «سعد بن معاذ» سيف رجلٍ من زعماء بنى النضير وكان سيفاً معروفاً.

يقول المقريزى:

فلمّا غنم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بنى النضير بعث ثابت بن قيس بن شماس فدعا الأنصار كلّها - الأوس والخزرج - فحمد اللّه وأثنى عليه، وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إيّاهم فى منازلهم، وأثرتهم على أنفسهم ثم قال صلى الله عليه و آله و سلم:

«إن أحببتم قسّمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء اللّه علىّ من بنى النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم»؟

۱- . الحشر: ۷.

فقال سعد بن عباده وسعد بن مُعاذ: بل تقسّمه للمهاجرين، ويكونون فی دورنا كما كانوا. ونادت الأنصار: رضينا وسلّمنا يا رسول اللّه.

فقسّم رسول اللّه ما أفاء اللّه عليه، على المهاجرين دون الأنصار إلّارجلين كانا محتاجين: سهل بن حنيف بن واهب وأبو دجانه سمّاك بن خرشه(۱).

وقد وقعت هذه الحادثه فی شهر ربيع الأوّل فی السنه الرابعه من الهجره ونزلت سوره الحشر فی هذا الشأن، والّتی جاء فی مطلعها قوله تعالى:

«هُوَ الَّذِی أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللّهِ فَأَتاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِی الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِی الْأَبْصارِ» .(۲)

هذا ويعتقد أكثر المؤرّخين المسلمين أنّه لم يُسفَك فی هذه الحادثه، أی دم، ولكن ذكر الشيخ المفيد فی إرشاده أنّه وقع ليله فتح حصون بنی النضير قتالٌ محدودٌ قتل فيه عشره من اليهود وكان ذلك هو السبب فی فتح تلكم الحصون(۳).

وقال المقريزی: وفُقِدَ علیٌّ رضی الله عنه فی بعض الليالی، فقال النبیّ صلى الله عليه و آله و سلم: إنه فی بعض شأنكم، فعن قليل جاء برأس «عزوك» وقد كمن له حتّی خرج فی نفر من اليهود يطلب غرّه من المسلمين، وكان شجاعاً رامياً، فشدّ عليه علی رضی الله عنه، فقتله وفرّ اليهود(۴).

۱- . إمتاع الأسماع: ۱۹۱/۱ و ۱۹۲.

۲- . الحشر: ۲.

۳- . لاحظ: الإرشاد: ۹۲/۱-۹۳.

۴- . إمتاع الأسماع: ۱۸۹/۱.

۳۶ تحریم الخمر ذات الرقاع، بدر الصغری

تحریم الخمر

کانت الخمور، وعلی العموم جمیع المسکرات ولا تزال من أشدّ الأوبئه الاجتماعیه الّتی تهدّد أمن وسلامه المجتمعات البشریه وتجرّ إلیها أکبر الأخطار، ویکفی فی خطوره هذا السمّ القاتل أنّه یعادی أکبر ما یمیّز البشر عن ما سواه من الأحیاء، ذلکم هو العقل، فإنّ الخمره هی العدوّ الأوّل لهذه الموهبه الإلهیه الّتی فی سلامتها ضمان لسعاده الإنسان.

إنّ الفارق بین الإنسان وبین سائر الأحیاء هو القوه العاقله الّتی یمتلکها الإنسان دون غیره، وتکون المسکرات من أعدی أعداء هذه القوه، من هنا کان المنع من تعاطی الخمور والمسکرات من أبرز البرامج الّتی جاء بها الأنبیاء، وکانت الخمور محرّمه فی جمیع الشرائع السماویه(۱).

۱- . فی عام ۱۳۳۹ ه، زار الدکتور آرشه تونک رئیس منظمه مکافحه الخمور إیران، وقد سرّ لمّا

ولقد كانت معاقره الخمور من الآفات المتفشيه والمتجذّره فى المجتمع العربى فى شبه الجزيره العربيّه بحيث كانت معالجتها تحتاج إلى وقت طويل، وأُسلوب مدروس، ولم تكن الظروف والأحوال فى ذلك العهد لتسمح بأن يعلن رسولُ الإسلام عن تحريم الخمر دفعةً واحدةً ومن دون أيّه مقدّمات، وممهّدات لذلك، بل كان يتحتّم عليه أن يعالج هذا الوباء الاجتماعىّ من خلال إعداد الناس لمرحله التحريم النهائى والقطعى تماماً كما يفعل الطبيب بالنسبه إلى المرضى الذين طال بهم المرض، وتجذّر.

من هنا حرّمت الخمر فى أربع مراحل تدريجيه ضمن آيات أربع أظهرت الاستياء من الخمر لكن لا على نمطٍ واحدٍ، بل بدأت من مرحلهٍ مخفّفه حتّى انتهت إلى مرحله الإعلان عن التحريم القطعى.

إنّ التمعّن فى هذه الآيات يكشف لنا عن كيفيّه الأُسلوب النبوىّ فى التبليغ والإرشاد، والدعوه والهدايه، وينبغى للخطباء، والكتاب أن يتبعوا هذا الأُسلوب المؤثّر والمفيد فى معالجه الأدواء الاجتماعيه المزمنه، ويكافحوها بهذا الشكل حتّى يحصلوا على أفضل النتائج.

ص:٢٥١

إنّ الشرط الأساسی لمکافحه ناجحه لأیّخلق وسلوک فاسد هو إیقاظ المجتمع وإیقافه أوّلاً ـ علی أضرار ذلک السلوک، ومفاسده، وتذکیره بآثاره السیّئه لیحصل لدی المجتمع - بذلک - الاستعداد الروحی بل والدافع الداخلی إلی خوض معرکه أساسیه وجذریه ضدّ ذلک السلوک الفاسد، والخلق الذمیم، ویکون الناس هم الضمانه لإنجاح هذه المهمه. وذلک لأنّ ردّ المعتاد عن عادته کالمعجز کما فی الحدیث الشریف عن الإمام الحسن العسکری علیه السلام(۱).

کیف والعرب کانوا یعشقون الخمره حتّی أنّ الرجل منهم ربما کان یوصی بأن یدفن إلی جنب کرمه لتسقی عظامه بالخمر.

یقول أحدهم:

إذا مِت فادفنی إلی جنب کرمه تروّی عظامی بعد موتی عروقُها(۲)

من هنا اعتبر القرآن الکریم اتّخاذ الخمر من التمور والأعناب - فی مجتمع کان تعاطی الخمر جزءاً أساسیاً من حیاته - مخالفاً للرزق الحسن، وبذلک أیقظ العقول الغافیه، إذ قال:

«وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِیلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً» .(۳)

إنّ القرآن أعلن - فی المرحله الأُولی من مراحل النهی عن تعاطی الخمر - أنّ اتّخاذ المسکر من التمر والعنب لا ـ یُعد من الارتزاق الحسن، بل الارتزاق الحسن هو تناول التمر والعنب علی حالتهما الطبیعیه.

إنّ هذه الآیه: أعطت هزهً ذکیهً للعقول، وهیّأت الطبائع المنحرّفه لمرحله

۱- . لاحظ: تحف العقول: ۴۸۹؛ بحار الأنوار: ۳۷۴/۷۵ برقم ۳۰.

۲- . تفسیر الرازی: ۱۰۷/۶.

۳- . النحل: ۶۷.

أقوى فی مسیره تحریم الخمر، حتّی یتسنّی لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن یشدّد من نبرته، ویعلن عن طریق آیه أَخری أنّ النفع المادّی القلیل، الّذی تعود به الخمر ویأتی به القمار، لیس بشیء بالقیاس إلی أضرارهما الکبری وأخطارهما العظیمه، وقد تمّ الکشف عن هذه الحقیقه فی قوله تعالی:

«یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ قُلْ فِیهِما إِثْمٌ کَبِیرٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ وَ إِثْمُهُما أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما» .(۱)

ولا ریب أنّ مجرّد المقارنه بین النفع والضرر، وکذا الوقوف علی زیاده الضرر علی النفع کافٍ لإیجاد النفور والاشمئزار لدی العقلاء، والواعین، من الخمر وما شاکلها، وشابهها.

إلّا أنّ جماهیر الناس وعامّتهم لن یقلعوا عن هذه العاده الشریره المتجذّره ما لم یسمعوا نهیاً صریحاً وقاطعاً عنها.

فها هو عبدالرحمن بن عوف رغم نزول هذه الآیه قد استضاف جماعه من الصحابه وأحضر علی المائده خمراً، فأکلوا، وشربوا الخمر، ثم قاموا إلی الصلاه، فأخطأ أحدهم فی القراءه وهو سکران خطأ غیّر من مراد اللّه تعالی فی ما قرأ من الآیه، فقد تلا سوره «الکافرون»، وبدل أن یقول: «لا أعبُدُ ما تعبدون» قرأ: «أعْبُدُ ما تعبدون». فاضطربت تلک الجماعه لهذا الأمر، وخشیت أن تکون ارتکبت بذلک أمراً عظیماً!!

وقد هیّأ هذا الحادث الناس لیحرّم تعاطی الخمر فی ظروف وحالات خاصّه علی الأقل.

۱- . البقره: ۲۱۹.

من هنا جاء الإعلان عن حرمه تعاطی الخمر قبل الصلاه، وأعلن القرآن الکریم بصراحه أنّه لا یجوز لمسلم أن یصلّی فی حاله السکر، وقد أعلن عن هذا التشریع الإلهیّ فی قول اللّه تعالی:

«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاهَ وَ أَنْتُمْ سُکاری حَتّی تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ» .(۱)

ولقد بلغ من تأثیر هذه الآیه، وفاعلیتها أن هجر جماعه من المسلمین تعاطی الخمر بالمرّه بحجّه أنّ ما یضرّ بالصلاه یجب أن یُطرَد من حیاه المسلم نهائیاً.

ولکن البعض بقی یتعاطاها حتّی أنّ رجلاً من الأنصار دعا جماعه إلی مائده أحضر فیها الخمر - رغم نزول الآیه الحاضره - فلمّا شربوا وأسکروا حمل بعضهم علی بعض، وجرح بعضهم بعضاً فشکوا أمرهم إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، وکان الخلیفه الثانی لم یزل یشرب الخمر إلی ذلک معتقداً عدم کفایه الآیه الحاضره فی التحریم القطعیّ لها، ولهذا رفع یدیه إلی السماء وقال: اللّهم بیّن لنا فی الخمر بیاناً شفاءً.(۲)

ولا یخفی أنّ هذه الحوادث والوقائع المؤسفه قد هیّأت الارضیه بشکل رائع لتقبّل مسأله تحریم الخمر تحریماً کاملاً وقاطعاً، من هنا نزل قولُه تعالی یعلن عن هذه الحرمه القطعیه: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَیْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّیْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ» .(۳)

وقد دفع هذا البیان البلیغ القاطعُ أن یقلع عن الخمر نهائیاً من کان یشربها حتّی تلک الساعه بحجّه عدم وجود نهی صریح وقاطع عنها.

۱- . النساء: ۴۳.

۲- . لاحظ: سنن أبی داود: ۱۸۲/۲ برقم ۳۶۷۰؛ سنن الترمذی: ۳۲۰/۴ برقم ۵۰۴۲.

۳- . المائده: ۹۰.

وقد جاء فی کتب السنّه والشیعه أنّ الخلیفه الثانی قال بعد سماع هذه الآیه:

انتهَینا یا ربّ (۱)!!

وقفه عند «البیان الشافی»

قلنا إنّ الخلیفه الثانی لم یقتنع بعد سماع الآیات الثلاث بحرمه الخمر، بل بقی ینتظر بیاناً شافیاً یکشف عن التحریم القطعی، حتّی أقنعته الآیه الرابعه بحرمه الخمور والمسکرات، وقد کان حکم اللّه تعالی فی هذه الآیه هو: أنّ الخمر «رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّیْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ» ولکنّ المتغرّبین، وهواه المادّیه الغربیه فی عصرنا لم تقنعهم کلّ هذه الآیات بحرمه الخمر، حتّی الآیه الرابعه الصریحه فی هذا الأمر، فیقولون لابدّ أن یُعلَنَ عن هذا التحریم بلفظه:

حرام أو حرّمت، والّا لم یمکن القطع بحرمه الخمر!!

إنّ هذه الزمره التابعه لأهوائها، الأسیره لشهواتها الحرام، لا تریـد فی الحقیقه إلّا أن تظل عاکفه علی الخمر أبداً، ومن هنا تطرح مثل هذه المعاذیر وتتوسّل بمثل هذه الحجج الجوفاء.

علی أنّ القرآن الکریم قد استعمل لفظ الحرام بشکلٍ مّا فی شأن الخمر إذ قال:

«وَ إِثْمُهُما أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما» .(۲)

وقد حرّم تعالی جمیع أنواع الإثم فی آیه أُخری إذ قال:

«قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ» .(۳)

۱- . مستدرک الحاکم: ۱۴۳/۴؛ روح المعانی: ۱۷/۷.

۲- . البقره: ۲۱۹.

۳- . الأعراف: ۳۳.

وبعباره أَخرى: لقد بيّن اللّه تعالى فى آيه أَخرى الموضوع، وهو أنّ الخمر (الّتى تُسمّى إثماً أيضاً) قد حُرّمت.

فهل ينتظر هواه الغرب بعد هذا البيان الواضح والتحريم الصريح بياناً كافياً شافياً؟!

وفى الحقيقه نحن لا نحتاج إلى مثل هذا الاستدلال أبداً فالآيات الأربع المتقدمه الّتى وصفت الخمر بأنّها «رجس» وأنّها نظير «الميسر»، وأنّها «عمل شيطانى»، مناقض للفلاح، وسببٌ «للعداوه» و «البغضاء»، قد أعلنت عن حرمتها بصوره واضحه لا إبهام فيها، ولا غموض، وهى بالتالى أقوى بيان لمن تدبّر وأنصف، وتجرّد عن الأهواء والأغراض المريضه. وهنا لابدّ أن نذكّر بنقطهٍ هامّهٍ وهى أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم استطاع أن يطهّر فى هدى هذه الآيات الأربع، بيئته ومجتمعهُ من أدران هذه العاده الشريره، ويقوم المؤمنون أنفسهم بتنفيذ هذا الحكم من دون قهر أو إجبار، بينما لم يستطع العالمُ الغربى رغم كلّ ما يملك من الإمكانات الماديّه العريضه، وأجهزه الدعايه الواسعه أن يخطو خطوهً ناجحهً فى هذا الطريق، فقد أخفقت كلّ خططه، أمامَ هذا السمّ القاتل، والفشل الّذى أصاب الولايات المتحده فى مكافحه المشروبات الروحيه فى أعوام ۱۹۳۳-۱۹۳۵ أمر معروف للجميع، وله قصّه عجيبه يمكن أن يقف عليها القارئ الكريم فى مصادرها(۱).

روايه مختلَقَه

ومن عجيب الأمر أن يروى بعض المفسّرين عند تفسير قوله تعالى: «لا

۱- . راجع: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ۸۰ وغيره.

تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ» (۱) روایه جاء فیها أنّ إمام المتّقین علی بن أبی طالب علیه السلام کان ضمن جماعه شربوا الخمر ثم قاموا إلی الصلاه فقرأ إمامهم غلطاً: «أعبد ما تعبدون»!! فأنزل اللّه تعالی هذه الآیه: «لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ» .

نقول: إنّ من العجیب أن تنسب إلی الإمام علی علیه السلام مثل هذه النسبه وهو الطاهر المطهّر بحکم آیه التطهیر(۲)، وهو الّذی نشأ وترعرع فی أحضان سید المرسلین صلی الله علیه و آله و سلم الّذی کان یتجنّب الخمر، حتّی قبل نزول النهی الصریح عنها، هذا وعلی علیه السلام المعروف بحکمته وفهمه وعلمه عارف بما للمسکر من تبعات خطیره.

نعم من العجیب أن نصدّق بأنّ علیاً علیه السلام شرب الخمر، وهناک فی الجاهلیه (وقبل الإسلام) مَنْ حرّم الخمر علی نفسه لکونها تذهب بالعقل، وتؤول بالمرء إلی ما لا یُحمَد.

ففی «السیره الحلبیه» کان عبداللّه بن جدعان من جمله من حرّمَ الخمر علی نفسه فی الجاهلیه، أی بعد أن کان بها مغرماً، وسبب ذلک أنّه سکر لیله فصار یمدّ یده علی ضوء القمر لیمسکه، فضحک منه جلساؤه ثم أخبروه بذلک حین صحا، فحلف أن لا یشربها أبداً.

وکان عثمان بن مظعون ممّن حرّمَ الخمرَ علی نفسه فی الجاهلیه أیضاً وقال:

لا أشرب شیئاً یذهِبُ عقلی، ویضحَکُ بی من هو أدنی منّی، ویحملُنی علی أن

۱- . النساء: ۴۳.

۲- . الأحزاب: ۳۳، راجع تفاسیر الفریقین ومجامیعهم الحدیثیه.

أَنكِحَ كريمتى مَن لا أَريد(۱).

وورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «أوحى اللّه تعالى إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إنّى أشكر لجعفر بن أبى طالب عليه السلام أربع خصال.

فدعاه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فأخبره فقال: لولا أنّ اللّه تبارك وتعالى أخبرك ما أخبرتك:

ما شربتُ خمراً قط، لأنّى علمت أنّى إن شربتها زال عقلى.

وما كذبتُ قط، لأنّ الكذب ينقص المروّه.

وما زنيت قط، لأنّى خفت أنّى إذا عملتُ عُمِلَ بى.

وما عبدت صنماً قط، لأنّى علمت أنّه لا يضر ولا ينفع.

فضرب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يده على عاتقه وقال: حقّ على اللّه عزّ وجل أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكه فى الجنّه»(۲).

نعم هذا هو موقف مَن هو أقلّ مرتبه ومنزله من الإمام على عليه السلام من الخمر، ولو فى العهد الجاهلى، وقبل تحريمها فى الإسلام.

لكن يد الوضع والدسّ أبت إلّاأن تختلق روايه فى المقام، فقد جاءت فى «جامع البيان» للطبرى روايتان نذكرهما سنداً ومتناً ليقف القارئ على ما تعانيان من مآخذ:

۱. حدّثنا محمد بن بشار قال: حدّثنا عبدالرحمن قال: حدّثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن أبى عبدالرحمن، عن على أنّه كان هو وعبدالرحمن ورجل آخر شربوا الخمر فصلّى بهم عبدالرحمن فقرأ: يا أيّها الكافرون فخلط فيها

۱- . السيره الحلبيه: ۲۱۱/۱.

۲- . من لا يحضره الفقيه: ۳۹۷/۴ برقم ۵۸۴۷.

فنزلت: «لا تَقْرَبُوا الصَّلاهَ وَ أَنْتُمْ سُکاری» .(۱)

۲. حدثنی المثنی قال حدّثنا الحجاج بن المنهال قال: حدّثنا حمّاد، عن عطاء ابن السائب، عن عبداللّه بن حبیب، أنّ عبدالرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفراً من أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فأکلوا وشربوا حتّی ثملوا، فقدّموا علیّاً یصلّی بهم المغرب فقرأ: قل یا أیّها الکافرون أعبُد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد وأنا عابد ما عبدتم. لکم دینکم ولی دین؛ فأنزل اللّه تبارک وتعالی هذه الآیه: «لا تَقْرَبُوا الصَّلاهَ وَ أَنْتُمْ سُکاری حَتّی تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ» (۲).

والروایتان - مضافاً إلی ما یرد علیهما من الإشکال - تعانیان من مؤاخذات متعدّده أبرزها الإشکال فی سندهما، فکلتا الروایتین تنتهی إلی عطاء بن السائب، وهو مطعون فی وثاقته ودیانته، وفی حفظه وحدیثه، وإلیک ما قال عنه أئمه علم الرجال:

قال عنه الذهبی: عطاء بن السائب أحد علماء التابعین، تغیّر بأخره وساء حفظه.

وقال عنه أحمد: مَن سمع منه قدیماً فهو صحیح، ومن سَمع منه حدیثاً لم یکن بشیء.

وقال عنه یحیی بن معین: لا یحتجّ به.

وقال أحمد بن أبی خیثمه عن یحیی: حدیثه ضعیف.

وقال عنه أبو حاتم: محلّه الصدق قبل أن یخلّط.

وقال النسائی: ثقه فی حدیثه القدیم لکنّه تغیّر.

۱- . جامع البیان فی تفسیر القرآن (تفسیر الطبری): ۱۳۳/۵.

۲- . جامع البیان فی تفسیر القرآن (تفسیر الطبری): ۱۳۴/۵.

وقال ابن علیّه: قدم علینا عطاء بن السائب البصره، فکنّا نسأله، فکان یتوهّم، فنقول له: مَن؟ فیقول: أشیاخنا میسره، وزاذان، وفلان.

وقال الحمیدی، حدّثنا سفیان، قال: کنتُ سمعتُ من عطاء بن السائب قدیماً، ثم قدم علینا قِدمهً فسمعته یحدّثُ ببعض ما کنتُ سمعتُ، فخلّط فیه، فاتقیته واعتزلته.

وأضاف الذهبی: «ومن مناکیر عطاء...»(۱).

أجل هذا هو عطاء فی منظار علماء الرجال، إنّه سیِّئ الحفظ، ضعیف مخلّط له مناکیر، یتوهّم، تغیّر بآخره، وقد ظهرت آثار الوهم وسوء الحفظ والتخلیط هذا فی روایتیه هاتین. فهو تاره یقول أنّ علیّاً علیه السلام کان مأموماً فی هذه القصّه (کما فی الروایه الأُولی) وتاره یقول کان علیه السلام إماماً للجماعه.

وهذه الروایه من مناکیره، وأوهامه بلا ریب، إذ کیف یصحّ أن یُنسب إلی رجلٍ لازم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الطیّبَ الطاهر منذ نعومه أظفاره، شرب الخمر، والائتمام برجل دونه فی الفضل، أو إمامته للجماعه وتخلیطه فی قراءه سوره عظیمه من سور القرآن الکریم؟!

ولنستمع معاً إلی ما یقوله إمام المتقین علی بن أبی طالب علیه السلام عن فتره صباه فی کنف رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فإنّه أفضل ردّ علی هذه الروایه ونظائرها: قال علیه السلام:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِی مِنْ رَسُولِ اللّهِ صلی الله علیه و آله و سلم بِالْقَرَابَهِ الْقَرِیبَهِ، وَالْمَنْزِلَهِ الْخَصِیصَهِ. وَضَعَنِی فِی حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ (ولیدٌ) یَضُمُّنِی إِلَی صَدْرِهِ، وَیَکْنُفُنِی فِی فِرَاشِهِ، وَیُمِسُّنِی جَسَدَهُ، وَیُشِمُّنِی عَرْفَهُ.

۱- . میزان الاعتدال: ۳/۷۰-۷۳.

وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْ ءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صلى الله عليه و آله و سلم مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ»(۱).

هذا وأغلب الظن أنّ الذين اختلقوا هذه الروايه لما وجدوا أمثال هذه القبائح فی حياه بعض الصحابه أرادوا أن يساووا بين الإمام علی عليه السلام وغيره، فاختلقوا هذه الفريه الوقحه.

وممّا يثير الاستغراب أن يقع بعض الكتّاب والمفكّرين المعاصرين فی نفس ما وقع القدامی من الخطأ فی هذا المجال، ويذكر هاتين الروايتين فی تفسيره للقرآن الكريم، مع كلّ هذه المؤاخذات عليهما حتّی فی صوره النقل، كما فعل سيد قطب فی تفسيره «فی ظلال القرآن»(۲)، إذ ليس كلّ ما هو مذكور فی كتب الأقدمين يصحّ نقله، ويجوز تكراره. وبخاصّه من دون تعليق وتكذيب!!

غزوهُ ذات الرقاع

قيل إنّما سُمّيت هذه الغزوه، وهذا الجهاد المقدس بالرقاع، لأنّ المسلمين مرّوا بجبل فيه بقعٌ حمره وسواد وبياض كأنّها مرقّعه برقاع مختلفه.

وربما قيل: لأنّ أقدامهم نقبت فيها فكانوا يلفّون علی أرجلهم الخرق، والرقاع فسُمِّيت هذه الغزوه بذات الرقاع(۳).

۱- . نهج البلاغه: ۳۰۰، الخطبه رقم ۱۹۲.

۲- . عند تفسير قوله تعالی: «لا تَقْرَبُوا الصَّلاهَ وَ أَنْتُمْ سُكارى».

۳- . بحار الأنوار: ۱۷۷/۲۰؛ إمتاع الأسماع: ۱۹۶/۱.

وعلى كلّ حال فإنّ هذه الغزوه لم تكن ابتدائيه تماماً مثل بقيه الغزوات، بل كانت لإطفاء شراره كانت على شرف الاشتعال، والانفجار، وبالضبط جاءَت لتقضى على تحرّكات واستعدادات عدائيه كان يقوم بها بنو محارب وبنو ثعلبه وكلاهما من قبائل غطفان.

وقد كان من دأب النبىّ وسياسته أن يَبُثَّ أشخاصاً أذكياء إلى المناطق المختلفه ليأتوا له بالأخبار عن كلّ ما يستجدّ على ساحه الجزيره العربيه، وفى أوساط القبائل.

فأتاه الخبر ذات مرّه أن القبيلتين المذكورتين تنويان جمع الأسلحه والرجال لاجتياح المدينه وغزوها، فسار إليهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على رأس مجموعه من رجاله وأصحابه حتّى نزل نخلاً بنجد قريبه من مكان العدو(۱).

فدفعت سوابق المسلمين الجهاديه، وما سطّروه فى المعارك والمواقف من قصص المقاومه والصمود والبساله والاستقامه، وما حقّقوه من انتصارات ساحقه حيّرت سكّان الجزيره العربيه من أقصاها إلى أقصاها. لقد دفع كلّ هذا العدوّ إلى الانسحاب، واللجوء إلى رؤوس الجبال، وقد خافوا ألّا يبرح رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حتّى يستأصلهم.

وقد صلّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالمسلمين فى هذه الغزوه صلاه الخوف، الّتى بيّن اللّه تعالى كيفيتها فى سوره النساء الآيه ۱۰۲.(۲)

وأغلب الظن أنّ العدوّ كان فى هذه الغزوه قوياً فى تجهيزاته وقواه، وأنّ الأوضاع العسكريه قد وصلت إلى مرحله خطيره مما سبّب الخوف، ولكن

۱- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۱۹۷/۱.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۶۹۳/۳.

الانتصار كان فی المآل من نصیب المسلمین.

مواقف خالده فی هذه الغزوه

یروی المؤرّخون والمفسّرون المسلمون کابن هشام(۱) وأمین الإسلام الطبرسی(۲) قصصاً عجیبه، وحوادث مثیره للإعجاب وقعت فی هذه الغزوه تکشف عن عمق مروءه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم مع أعدائه، وقد نقلنا نظیر هذا فی غزوه ذی أمر(۳)، من هنا نحجم عن ذکر ذلک فی هذه الدراسه رعایه للاختصار، ولکن نلفت نظر القارئ الکریم إلی القصّه التالیه الّتی تکشف عن صمود المسلمین وإخلاصهم لدینهم.

الحُرّاس الصامدون

مع أنّ جیش الإسلام قد عاد إلی المدینه من هذه الغزوه من دون قِتال ولکنّه أصاب مع ذلک بعض الغنائم، واستراح فی شِعبٍ فی أثناء الطریق، وبات لیلته هناک ثم کلّف رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم رجلین بحراسه الجیش لیلاً یدعیان: «عباد» و «عمار»، فقسم الرجلان اللیل بینهما، فنام أحدهما وسهر الآخر یحرس الجیش، وکان الّذی سهر أوّل اللیل هو «عباد».

ثم إنّ رجلاً من العدوّ خرج فی أثر المسلمین، وکان یقصد أن یریق دماً أو یصیب شیئاً ویعود إلی محلّه.

وقام «عباد» یصلّی، وأقبل ذلک الرجل یطلب غِرّهً فلمّا رأی «عباد» سوادَه من

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۶۹۳/۳-۶۹۵.

۲- . مجمع البیان: ۱۰۳/۳.

۳- . راجع: ص ۱۴۸ من هذا الکتاب.

قریب قال ذلک الرجل فی نفسه: یعلم اللّه أنّ هذا لطلیعه القوم، وحرسهم ففوّق له سهماً ورماه به فأصاب عباداً ولکن عبّاداً نزع السهمَ ووضعه، وثبت قائماً یصلّی فرماه العدوّ بسهم آخر، فأصابه فانتزعه وثبت قائماً فرماه بثالثٍ فنزعه، فلمّا غلب علیه الدم رکع وسجد، ثم قالَ لصاحبه: اجلِس فقد أُصبتُ، فجلسَ عمّار، فلمّا رأی الأعرابی أنّ عمّاراً قد قام علم أنّهما قد علما به، فقالَ عمّار: أی أخی ما منعک أن توقظَنی به فی أوّلِ سهم رمی به؟!

قال: کنتُ فی سوره أقرأُها وهی سوره الکهف، فکرهتُ أن أقطعَها حتّی أفرغ منها، ولولا أنّی خشیتُ أن أُضیّعَ ثغراً أمرنی به رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ما انصرفت ولو أتی علی نفسی(۱).

وهکذا صمد هذا المسلم واستمر فی صلاته غیر مبال بما أصابته من السهام.

غزوه بدرُ الصغری

لمّا أراد أبوسفیان أن ینصرف یوم «أُحد» نادی: موعد بیننا وبینکم بدرُ الصفراء رأس الحول نلتقی فیه فنقتتل.(۲)

ولهذا أمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم المسلمین بأن یتهیّأوا للدفاع عن أنفسهم، وقد مرّ علی وقعه «أُحد» عامٌ واحدٌ.

وکان أبو سفیان الّذی کان یرأس قریش آنذاک یواجه فی ذلک الوقت مشاکل داخلیه مختلفه، فکره الخروج إلی رسول اللّه فی الموعد الّذی ضربه لمقاتله المسلمین، واتّفق أن قدم مکّه فی تلک الأیام «نعیم بن مسعود» الّذی کانت بینه

۱- . لاحظ: المغازی: ۳۹۷/۱.

۲- . المغازی: ۳۸۴/۱.

وبين أبى سفيان علاقات صداقه خاصّه، فجاءه أبوسفيان وقال له: يا نعيم إِنّى وعدتُ محمّداً وأصحابه يومَ «أَحد» أن نلتقى نحن وهو ببدر الصفراء على رأس الحَول، وقد جاء ذلك.

فقال نعيم: ما أقدمنى إلّاما رأيتُ محمّداً وأصحابَه يصنعون من إعداد السلاح والكراع، وقد تجلّب إليه حلفاءُ الأوس من بلى وجهينه وغيرهم، فتركتُ المدينه أمس وهى كالرمّانه.(۱)

فزاد ذلك من مخاوف أبى سفيان، وضاعف من كراهته للخروج إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم. وتقرّر بالتالى أن يعود نعيم إلى المدينه ويحذّر المسلمين من الخروج للموعد، ويخذّلهم.

وعاد «نعيم» إلى المدينه، وراح يرعّب أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويخوّفهم من الخروج إلى أبى سفيان إلّاأن كلامَه لم يترك أى أثر فى نفس رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فخرج صلى الله عليه و آله و سلم فى ألفٍ وخمسمائه مقاتل من أصحابه، وقد خرجوا ببضائع لهم، وتجارات حتّى انتهوا إلى «بدر» وقام السوق السنوى هناك فباعوا واشتروا فى موسم بدر وربحوا كثيراً ثم تفرّق الناس، ولكن النبىّ وأصحابه بقوا هناك ثمانيه أيام ينتظرون أبا سفيان وجيشه.

وقد كان هذا الإجراء إجراء عسكرياً حكيماً ورائعاً، إذ أظهر قوّه النبىّ وعزيمته وقوه أصحابه وعزيمتهم، ولهذا كان له أثرٌ قوى فى نفوس الأعداء.

فلمّا بلغت أنباء خروج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه إلى بدر، لم ير حكّام مكّه المشركون بدّاً من الخروج إلى بدر حفاظاً على ماء الوجه، فخرج أبوسفيان والمشركون بتجهيزات كافيه إلى مرّ الظهران، ولكنّهم عادوا من منتصف الطريق إلى

۱- . المغازى: ۳۸۵/۱.

مكّه بحجّه الغلاء والقحط، فاعترض صفوان بن أمَيّه على أبى سفيان وقال: قد واللّه نهيتُك يومئذ أن تعد القومَ، وقد اجترأوا علينا، ورأوا أن قد أخلفناهم، وإنّما خلفنا الضعف عنهم(۱).

ولادهُ السِبط الأصغر لرسول اللّه

وفى الثالث من شهر شعبان من هذه السنه (الرابعه من الهجره) وُلِدَ السبط الثانى لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الإمام الحسين بن علىّ (۲)، كما توفّيت «فاطمه بن أسد» والده الإمام على عليه السلام(۳).

وفى هذا العام بالذات أمرَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم زيد بن حارثه أن يتعلّم السريانيه من اليهود(۴).

۱- . لاحظ: المغازى: ۳۸۵/۱-۳۹۰. وقد وقعت هذه الحادثه فى الشهر الخامس والأربعين بعد الهجره. وتُسمّى هذه الغزوه «بدر الموعد».

۲- – تاريخ الخميس: ۴۶۷/۱.

۳- . تاريخ الخميس: ۴۶۷/۱.

۴- . إمتاع الأسماع: ۱۹۶/۱، تاريخ الخميس: ۴۶۴/۱.

حوادث السنه الخامسه من الهجره

۳۷ من أجل تحطيم التقاليد الخاطئه

اشاره

تعتبر معركه «الأحزاب»، وقصّه بنى قريظه، وزواج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بزينب بنت جحش(۱) من أهمّ الحوادث التاريخيه الّتى وقعت فى السنه الخامسه من الهجره.

وأوّل هذه الحوادث - كما عليه المؤرّخون المسلمون - هو زواج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالمرأه المذكوره.

وقد ذكر القرآن الكريم تفاصيل هذه القضيه ضمن الآيات (۴، ۶، ۳۶ إلى ۴۰) من سوره «الأحزاب»، ولا يبقى - حينئذ - مجال لأكاذيب المستشرقين

۱- . يرى مؤلّف كتاب «تاريخ الخميس» أنّ هذه الحادثه وقعت فى شهر ذى القعده من السنه الخامسه للهجره، ولكن هذا الرأى يبدو غير صحيح من وجهه نظر الحسابات الاجتماعيه، لأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، كان منشغلاً بغزوه «الأحزاب»، و «بنى قريظه» من ۲۴ شهر شوال من السنه الخامسه إلى ۱۹ من شهر ذى الحجّه من نفس السنه فيكون تحقّق مثل هذا الزواج فى مثل هذه الظروف أمراً مستبعداً جدّاً، وإذا كان الزواج من زينب يُعدّ من حوادث السنه الخامسه لزم أن يكون قد تحقق قبل الحادثتين المذكورتين، ولهذا عمدنا إلى ذكر هذه الحادثه قبل تينيك الواقعتين.

ودسائسهم ومختلقاتهم الواهيه.

ونحن هنا ندرُسُ هذه القضيه على ضوء أصحّ المصادر التاريخيه الإسلاميه الّتى لم تطلها أيدى العبث والتحريف، والمسخ، والتشويه، ألا ـ وهو القرآن الكريم، ثم بعد ذلك نتحدّث حول ما قاله المستشرقون ومَن لفّ لفّهم، ونحا منحاهم فى التعامل مع تاريخ السيره النبويه.

مَن هو زيد بن حارثه؟

كان زيد شاباً سرقه قُطّاع الطرق من الأعراب وهو صغير من قافله، وباعوه عبداً فى سوق عكاظ، وقد اشتراه حكيم بن حزام لعمّته خديجه بنت خويلد، وقد أهدته خديجه لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد زواجها منه.

ولقد دفعت سيرةُ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم الحسنه، وأخلاقه الفاضله وسجاياه النبيله زيداً هذا إلى أن يحب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حباً شديداً، حتّى أنّه عندما جاء أبوه إلى مكّه يبحث عنه، وعلم بوجوده عند النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم مشى إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وطلب منه أن يعتقه، ويعيده إليه ليعيده بدوره إلى أُمّه ويُلحقه بأقربائه، فأبى زيد إلّاالبقاء عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وفضَّل ذلك على المضى مع أبيه، والعوده إلى وطنه، وعشيرته، وقد خيّره رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى المكث عنده أو الرحيل مع أبيه إلى وطنه.

على أنّ ذلك الانجذاب والحب كان متبادلاً بين زيد ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فكما أنّ زيداً كان يحب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويحب أخلاقه وخصاله، كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يحب زيداً كذلك لنباهته وأدبه حتّى أنّه أعتقه وتبنّاه، فكان الناس يدعونه زيد بن محمد بدل زيد بن حارثه، ولكى يتأكّد ذلك وقف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ذات

يوم وقال لقريش: «يا من حَضَر إشهَدُوا أن زيداً هذا ابنى»(۱).

وقد بقى هذا الحبُ المتبادل بين زيد، وبين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى أن استشهد هذا المسلم الصادق والمؤمن المجاهد فى معركه مؤته، فحزن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لمصرعه كما حزن لولد من أولاده.

زيدٌ يتزوّج بابنه عمّه النبىّ

لقد كان من أهداف رسول الإسلام العظيم صلى الله عليه و آله و سلم هو أن يخفّف من الفواصل بين طبقات المجتمع وفئاته، ويقارب بينها قدر الإمكان، ليعيش البشر جميعاً تحت لواء الإنسانيه والتقوى إخوهً متحابّين لاتبعد بعضهم عن بعض مقاييس الثروه والنسب، بل يكون الملاك فى التفاضل هو الأخلاق الفاضله والسجايا الإنسانيه.

من هنا كان يجب التعجيل فى إزاله التقاليد العربيه الباليه الّتى كانت تقضى بأن لا يتزوّج بنات الساده والأشراف بأبناء الطبقات الضعيفه والفقيره.

وأى وسيله لضرب هذا التقليد القبيح الظالم وتحقيق المساواه الكامله أفضل من أن يبدأ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى تحطيم هذا التقليد بأقربائه وذويه ليقدّم بذلك درساً عملياً للأُمّه فى هذا المجال، فقام بتزويج عتيقه «زيد بن حارثه» من شريفه من بنى هاشم وهى ابنه عمّته زينب بنت جحش حفيده عبدالمطلب، ليعلم الناس أنّه يجب عليهم الإقلاع عن تلك التقاليد الجاهليه الظالمه بسرعه، ويعرفوا أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو أوّل من نفّذَ فى حقّ ذويه ما كان يردّده من قوله: «لافضل لأحد على أحد إلّا بالتقوى» و «إنّ المؤمن كفؤ المؤمن».

۱- . لاحظ: أُسد الغابه: ۲۳۵/۲. وكذا الاستيعاب والإصابه ماده: زيد.

ولأجل تحطيم ذلك التقليد الجاهليّ الخاطئ ذهب رسول اللّه بنفسه إلى منزل زينب، وخطبها لزيد، فلم تبد زينب وأخوها رغبةً فى هذا الأمر فى الوهله الأُولى؛ لأنّ الأفكار الجاهليه كانت لا تزال مترسّبه فى قلوبهم، ومن ناحيه أُخرى كان الرد على النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم أمراً صعباً، ولهذا تذرّعا بعبوديه «زيد» السابقه وحاولا بذلك التخلّص من مطلب النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم.

فلم يلبثا حتى نزل قوله تعالى يشجب ردّ زينب وأخيها لطلب النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم:

«وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَهٍ إِذا قَضَى اللّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً» .(۱)

فتلاها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عليهم فوراً فدفع إيمان زينب وأخيها الصادق برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأهدافه المقدّسه إلى أن تبادر زينب إلى الإعلان عن رضاها وقالت: رضيت يا رسول اللّه، وجعلت أمرها بيد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وكذلك أخوها رضى بهذا الزواج، فتزوّجت ابنه شريف قوم «زينب» بعتيق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم زيد، وبذلك طبّق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم واحداً من أعظم مناهج الإسلام الحيّه، وآدابه الإنسانيه الرفيعه، وحطّم عملياً واحده من أقبح السنن الجاهليه، وأكثرها تخلّفاً وإجحافاً.(۲)

زيد يطلّق زوجته

إلّا أنّ هذا الزواج لم يدم طويلًا، فقد آل إلى الطلاق، والافتراق ويعزى البعضُ ذلك إلى نفسيّه «زينب» وسلوكها الحاد حيث كانت ربما تذكر لزيد دنوّ

۱- . الأحزاب: ۳۶.

۲- . لاحظ: مجمع البيان: ۱۶۱/۸.

حسبه، وعلوّ حسبها، ممّا يؤدّى إلى انزعاجه.

ولكن يحتمل أنّ السبب وراء هذا الطلاق كان هو زيد نفسه، فإنّ تاريخ حياته يشهد بأنّه كان يعانى من روح العزله، وعدم الأُلفه، فقد اتّخذ أزواجاً متعدّده وطلقهنّ (إلّا الاخيره منهن حيث استشهد عنها وهى فى حبالته) فتكون هذه الطلقات المتعدّده دليلاً على عدم القدره على الانسجام مع زوجاته، لحاله نفسيّه كان يعانى منها.

ويشهد بذلك أيضاً خطاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الحادّ، فإنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لمّا عرف بأنّ زيداً يبغى طلاق زوجته زينب غضب وقال:

«أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللّهَ» .(۱)

ولو كان الذنب كلّه ذنب زوجته زينب لما كان يُعَدُّ تطليقها عملاً مخالفاً للتقوى.

ومهما يكن فقد طلّق زيد زينباً وافترقا، ثم تزوّج بها النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بعد ذلك.(۲)

زواج النبىّ بمطلقه متبنّاه لإبطال سنه جاهليه أُخرى

ولكن قبل أن ندرس العلّه الأساسيه لهذا الزواج لابد أن نلقى نظره فاحصه إلى مسأله النسب الّذى يعدّ مقوماً مهماً من مقومات المجتمع السليم.

وبعباره أُخرى وأكثر تحديداً لابد أن ندرس الفرق الجوهرى بين الوالد الحقيقى، وبين المتبنّى.

وتوضيحاً لهذا الأمر نقول:

۱- . الأحزاب: ۳۷.

۲- . لاحظ: مجمع البيان: ۱۶۲/۸.

كـان يوجـد فى المجتمع العربى الجـاهلى أبنـاءٌ لاـ يعرفُ لهم آباء، أو لهم آباء معروفون، وكان الرجل يعجبه أحـد هؤلاء فيتبنّاه ويدعوه ابنه، ويُلحقُه بنسبه وتصير له حقوق البنوّه وملحقاتها.

ولمّـا كـان هـذا شـذوذاً عن الأساس الطبيعى للأُسـره أبطله الإسـلام؛ وذلك لأنّ الوَلَـد الحقيقى ينتمى إلى أبيه بجـذور تكوينيه، فالوالـد هو - فى الحقيقه - المنشـأ المـادّى لوجود ابنه، ويرث الولـد من والـده ووالـدته الكثير من صـفاتهما الجسـميه والروحيه، وبذلك يكون امتداداً طبيعياً لوالديه.

وعلى أسـاس هـذه الوحـده الطـبيعيه، ووحـده الـدّم يتوارث الآبـاء والأبنـاء، وتترتّب أحكـامٌ خـاصّه فى مجـال الزواج والطلاـق، والتحليل والتحريم.

وبناءً على هذا فإنّ مثل هذا الموضوع الّذى ينشأ من جذور تكوينيه واقعيه، لا يُوجد أبداً باللفظ واللسان.

ولهذا قال اللّه سبحانه فى الكتاب العزيز فى معرض الردّ على مَن يتصوّر المتبنّى ولداً حقيقياً لمجرّد ادّعاء البنوّه:

«مـا جَعَـلَ اللّهُ لِرَجُـلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَ مـا جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاّئِى تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ * اُدْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِى الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً» .(۱)

فلا يكون الابن المتبنّى والولد الحقيقى على صعيد الموضوع سيّان أبداً،

۱- . الأحزاب: ۴-۵، راجع الميزان فى تفسير القرآن: ۲۹۰/۱۶-۲۹۱.

فكيف على صعيد الأحكام كالتوراث، والزواج والطلاق وما شابه ذلك؟

فإذا ورث الولـد الحقيقى من أبيه أو بالعكس أو حُرّمت زوجه الولد الحقيقى على أبيه بعد طلاقها من زوجها لا يمكن أن نقول: إنّ الابن المتبنّى يشبهه ويشترك معه فى هذه الأحكام أبداً.

ومن المسلّم به أنَّ مثل هـذا التشـريك فى الحقوق والشؤون مضافاً إلى كونه لا يسـتند إلى أساس معقول وصـحيح هو نوع من العبث بعامل النسب، وهو العنصر المهم فى المجتمع السليم.

وعلى هـذا الأساس إذا كان التبنّى بـدافع العاطفه أمراً مستحسـناً ومقبولاً، إلّا أنّه إذا كان بهـدف إشـراكه فى سلسـله من الأحكام الاجتماعيه الّتى هى من شؤون الولد الحقيقى وحقوقه يعدّ أمراً بعيداً وغريباً جدّاً عن المحاسبات العلميه، والأُسس الموضوعيه.

ولقد كان المجتمع العربى - كما أسلفنا - يعدّ الابن بالتبنّى كالولد الحقيقى دون فرق، وقد كُلّف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من جـانب اللّه تعـالى بـأن يقضـى على هـذا التقليـد الجاهلى والسـنّه الخاطئه بإجراءٍ عملى صارخ، وذلك بالتزوّج بزينب مطلَّقه متبنّاه «زيـد»، ويمحى من حياه المجتمع العربى هـذا التقليـد القبيـح بالعمل الّذى يفوق القول، ووضع القانون، فى التأثير، والفاعليه. ولم يكن لهذه الزيجه غير هذا السبب.

لقـد كان هـذا التقليـد أمراً مقـدّساً فى المجتمع العربى بشـكلٍ كبير جـدّاً بحيث لم يكن أحدٌ ليجرأ على نقضه ومخالفته والتزوّج بمطلّقه دعيّه(۱) لقبحه فى نظر العرب، لذلك دعا اللّه سبحانه نبيّه إلى القيام بهذا العمل الخطير، إذ قال:

۱- . الدعىّ هو الابن المتبنّى وجمعه أدعياء.

«وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللّهُ عَلَیْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِ أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ وَ اتَّقِ اللّهَ وَ تُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللّهُ مُبْدِیهِ وَ تَخْشَی النّاسَ وَ اللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمّا قَضی زَیْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناکَها لِکَیْ لا یَکُونَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ حَرَجٌ فِی أَزْواجِ أَدْعِیائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ کانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً» .(۱)

إنّ هذا الزواج مضافاً إلی کونه استهدِف منه تحطیم سنّه جاهلیّه مقیته (سنّه عدم الزواج بمطلّقه المتبنّی) وإعاده العلاقات العائلیه إلی وضعها الصحیح، یعتبر من أقوی مظاهر المساواه فی الإسلام، لأنّ النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم تزوّج بمطلّقه عتیقه، وقد کان مثل هذا العمل مخالفاً لشؤون المجتمع یومذاک.

ولقد أثار هذا الإقدام الشجاع موجهً من الاعتراض والنقد من جانب المنافقین، وأصحاب العقول الضیّقه، فقد طُرِحَت هذه المسأله فی الأوساط والنوادی وأخذوا یشنعون بها علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ویقولون: لقد تزوّج محمّد بمطلّقه دعیّه.

فأنزل اللّه تعالی فی الردّ علی تلکم الأفکار والأقوال الباطله قوله:

«ما کانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِکُمْ وَ لکِنْ رَسُولَ اللّهِ وَ خاتَمَ النَّبِیِّینَ وَ کانَ اللّهُ بِکُلِّ شَیْ ءٍ عَلِیماً» .(۲)

علی أنّ القرآنَ لم یکتف بهذا البیان بل امتدحَ نبیَّه الّذی نفّذ حکم اللّه بشجاعه کامله بقوله:

«ما کانَ عَلَی النَّبِیِّ مِنْ حَرَجٍ فِیما فَرَضَ اللّهُ لَهُ سُنَّهَ اللّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ کانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مَقْدُوراً * اَلَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللّهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لا یَخْشَوْنَ

۱- . الأحزاب: ۳۷.

۲- . الأحزاب: ۴۰.

أَحَداً إِلاَّ اللّهَ وَ كَفى بِاللّهِ حَسِيباً» .(۱)

وخلاصه المفاد لهاتين الآيتين هى: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كغيره من الأنبياء يُبلّغ رسالات اللّه ولا يخالف لومَ اللائِمين، وكيد المنافقين، وإرجاف المرجفين.

هذه هى فلسفه تزوّج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بزينب بنت جحش مطلّقه دعيّه ومتبنّاه وعتيقه زيد بن حارثه فى ضوء القرآن الكريم.

المستشرقون وقضيه زواج النبىّ بزينب

إنّ زواج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بزينب مطلّقه زيد بن حارثه - كما لاحظت - قضيةٌ بسيطةٌ خاليه عن أى إبهام أو غموض.

ولكنَّ جماعةً من المستشرقين تذرّعوا بها لإغراء البسطاء ومن شاكلهم غير الملمّين بالتاريخ الإسلامى وأرادوا بذلك إضعاف إيمان الذين لا يعرفون السيره النبويّه حقّ المعرفه، فإنّنا يجب أن ندرس ما قالوه فى هذا المجال، ونكشف للقارئ الكريم عن مواطن الدسّ والتحريف فيه.

ولا يخفى أنّ الاستعمار البغيض لم يكتف للسيطره على بلادنا باستخدام القوّه العسكريه، والسلاح الاقتصادى؛ بل ربما دخلها متستراً بقناع العلم والتحقيق، فقد سعى - ولم يزل - لفرض أسوأ هيمنهٍ فكريهٍ شاملهٍ وتبعيّه ثقافيّه مقيته على شعوبنا وفق تخطيط دقيق ومدروس، وهذا هو ما يُسمّى بالاستعمار الفكرى، والثقافى.

وفى الحقيقه فإنّ المستشرق هو طليعه ذلك الاستعمار، بل وجيشه المتقنّع بقناع العلم والمعرفه الّذى ينفذ إلى أعماق المجتمع، ويتسلل إلى أوساط المفكّرين

۱- . الأحزاب: ۳۸-۳۹.

والمثقفين وينفث سمومه القاتله، ويخدّر العقول، ويمهّد النفوس للاستعمار السافر، والمكشوف.

ويمكن أن لا يرتضى كثير من الكتّاب وعشّاق القلم والثقافه فى الغرب منطقنا هذا فيعمدوا إلى رمينا بالتحجّر، والعصبيّه والتخلّف ويتصوّروا بأنّنا نقول مانقوله بدافع العصبيّه القوميه أو الدينيه، ولكنَّ كتاباتِ المستشرقين وإخفاءَهم المتعمَّد والكثير للحقائق، وتحريفهم ودسّهم المكشوف فى تاريخ الإسلام حيناً والخفىّ حيناً آخر يشهد بوضوح أنّ دافعهم فى كثير ممّا كتبوا ليس حبَّ العلم وتحرّى المعرفه، فإنّ أكثر ما كتبوه ممزوجٌ بطائفهٍ من أفكارهم المعاديه للإسلام، ولرسول اللّه والمسلمين.(۱)

ويشهد على هذه النزعه - بجلاءٍ ووضوحٍ - موقِفُهُم من زواج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بزينب بنت جحش وما نسجوه من قضايا خياليّه حول هذه القضيه، الّتى وقعت بهدف إبطال سنهٍ باطلهٍ، فأعطوها صبغه قصص الحب وأساطير الغرام على طريقه القصّاصين والروائيّين وديدنهم، وعمدوا إلى حكايه تاريخيه مختلقه وضخّموها ونفخوا فيها ونسبوها إلى أطهر إنسان عرفه العالم البشرى.

وعلى كلّ حال فإنّ أساس هذه الاُسطوره عباراتٌ نَقَلَها ابنُ الأثير(۲) ومن قبله الطبرى(۳) وبعضُ المفسِّرين، وهى أنّه: خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يريد زيداً وعلى الباب سترٌ من شعر فرفعته الريح فرآها وهى حاسره فأعجبته!!!

ولكن المستشرقين بدل أن يتحقّقوا من سند هذه الأقوال، لم يكتفوا بنص ما

۱- . للتأكّد الأكثر مِنْ هذا الأمر، راجع: كتاب «المستشرقون».

۲- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ۱۷۷/۲.

۳- . لاحظ: جامع البيان فى تفسير القرآن (تفسير الطبرى): ۱۸/۲۲؛ إمتاع الأسماع: ۲۰۹/۱۰.

ذکره أولئک المؤرّخون والمفسّرون، بل ألصقوا به الکثیر الکثیر حتّی تحوّلت تلک الجُمَل العابره إلی قصّه تشبَهُ أقاصیص ألف لیله ولیله.

إنّ من المؤکّد أنّ الذین یعرفون سیره رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الطاهره یدرکون أنّ هذا التاریخ إنّما هو فی أصله وفرعه من نسج الخیال، وصنع الأوهام، وإنّها تخالف ما فی صفحات التاریخ النبویّ الوضّاءه النقیّه مخالفهً کاملهً، إلی درجه أنّ علماء معروفین کالفخر الرازی والآلوسی کذّبوا هذه القصّه بشکلها الّذی ذکرها ابن الأثیر والطبری بصراحه کامله وقالوا: إنّ هذه الروایه روایه باطله زوّرها واختلقها أعداء الإسلام وراجت فی کتب المؤلّفین المسلمین(۱).

فکیف یمکن القول بأنّ هذه القصّه وبهذه الکیفیه کانت ممّا یعتقد بصحّته ابن الأثیر، والطبریّ فی حین أنّ هناک العشرات ممّن نقلوا خلافها وبرّأوا ساحه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم من هذه المساوئ.

وعلی أیّه حال فإنّنا نشیر فی الصفحات التالیه إلی دلائل اختلاقِ هذا القسم من التاریخ، ونعتقد أنّ القضیه فی واقعها وحقیقتها واضحه جداً، وأغنی من أن ندافع عنها.

وإلیک أدِلّتنا

أوّلاً: أنّ التاریخ المذکور یخالف المصدر الإسلامی الأصیل وهو (القرآن الکریم)؛ لأنّ القرآن بشهاده الآیه (۳۷) من سوره الأحزاب تصرّح بأنّ زواج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من زینب کان لأجل إبطال سنّه جاهلیه باطله، وهی السنّه القاضیه بأنّه لا یحقّ لأحد أن یتزوّج مطلّقه دعیّه، خاصّه وأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فعل ذلک بأمر اللّه

۱- . لاحظ: تفسیر الرازی: ۲۱۲/۲۵؛ روح المعانی: ۲۴/۲۲-۲۵.

سبحانه وليس بدافع من الرغبه الشخصيه، والحب الشخصى، ولم يكذّب ذلك أحدٌ فى صدر الإسلام.

فإذا كان ما قاله القرآن الكريم مخالفاً للحقيقه لسارع اليهود والنصارى والمنافقون إلى نقده وتفنيده، ولأحدثوا ضجّه بسبب ذلك، فى حين أنّ مثل هذا لم يُؤثَر من أعداء الإسلام الّذين كانوا يتحيّنون الفرص للإيقاع برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وتلويث سمعته.

ثانياً: أنّ «زينب بنت جحش» هى تلك المرأه الّتى اقترحت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الزواج بها قبلَ أن يتزوّج بها «زيد» ولكنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أصرّ على أن تتزوّج غلامَه المعتق زيداً رغم رغبتها فى الزواج من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فلو كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يحبّ الزواج بها - وهو يعرفها طبعاً - لما وجد مانعاً من ذلك عندما طلبت منه الزواج بها، فلماذا لم يتزوّج بها؟ ولِمَ رفض طلبها؟

أجل، إنّه لم يتزوّج بها ولم يُجب مطلبها، بل ألحّ عليها أن تتزوّج بشخص آخر رغم إنّه أحسَّ برغبةٍ شديده لدى زينب فى الزواج منه لا من غيره.

وبعد تكذيب هذا القِسم المحرّف من التاريخ الإسلامى لا يبقى مجال لتعليقات وأوهام جنود الاستعمار وطلائعه المغرضين.

إنّنا نبرّئ ساحه رسول الإسلام العظيم صلى الله عليه و آله و سلم من أمثال هذه الترّهات والنسَب الرخيصه، ونرى أنّ ساحته المقدّسه أجلّ من أن ننقل كلمات هذا الفريق من الكتّاب المغرضين الحاقدين فى حقّ نبيٍّ بقى مكتفياً بزوجه تكبره بثمانيه عشر عاماً، إلى أن بلغ سن الخمسين.

من هنا نعرض عن ذكر أقوالهم.

ولا بأس بأن نذكر هنا ما كتبه جماعه من المحقّقين المصريّين الذين أشرفوا

على طباعه «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير تعليقاً على ما أدرجه فى هذا المجال:

هذه روايه باطله زوّرها الملاحده، واختلقها أذهان أعداء الدين الإسلامى ليطعنوا فى نبى الإسلام عليه وعلى آله الصلاه والسلام، وهل يُعقل: أنّه لا يعرف ابنه عمّته الّتى كان ولى زواجها إلى مولاه زيـد؟ وإنّما دسائس الزنادقه، ومبشّرى المسيحيه قـد تغلغلت فى نفوس العلماء من حيث لا يعلمون، فافتكروا فى روايه الخبر، فاتّخذوه أساساً، وأعرضوا عن كتاب اللّه وعن قول اللّه تعالى من أنّ اللّه أعلمه بأنّها صارت زوجه قبل أن استشاره زيدٌ فى طلاقها.

والعجيب أنّ ابن الأثير مع جلاله قدره ينقل هذه الروايه المزيَّفه الّتى هى طعن صـريح فى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم، وقـد قلّد فى روايته هذه ابن جريرٍ قبلَهُ، وكلاهما وقع فى هوّه الضـلاله من حيث لا يشـعر، ولو عُرضت كلُّ روايه على كتاب اللّه تعالى لما أقدم أحدٌ على مثل هذا الإفك العظيم!!

إنّ زينباً هى التى وهبت نفسـها لرسول اللّه فزوّجهـا من مولاه، ثم تزوّجها رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم «لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْواجِ أَدْعِيـائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً» ، فـإذن كـان الزواجُ لأجـل التشـريع، وكان عمليّاً، لشـدّه نفره أهل الجاهليه من هذا الزواج من النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّهم يعدّون المتبنّى ولداً صريحاً أو فى مرتبته.

قال الفخر الرازى: وفيه إشاره إلى أنّ التزويج من النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن لقضاء شهوه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بل لبيان الشريعه بفعله، انتهى.

ونحن نعتب عليه أيضـاً إذ جعله إشاره ولم يجعله صـريحاً وبما أنّ روح التقليـد الأعمى قـد اشـتدّ بين المسـلمين منـذ زمن بعيـد، فالحكايه الّتى أوردها المؤلّف نقلها كثير من المفسّرين غير مفكّرين بما فيها من طعن فى الدين، لإفادتها

أنّ الشريعه الإسلاميه عباره عن اتّباع أهواء أو تنفيذ شهوات تنزّهت عن ذلک کله، ویرحم اللّه السیّد الآلوسی حیث قال فی تفسیره: وحاصل العتاب: لِمَ قلتَ «أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ» ، وقد أعلمتک أنّها ستکونُ من أزواجک وهو مطابق للتلاوه، لأن اللّه أعلم أنّه مبدئ ما أخفاه علیه الصلاه والسلام ولم یظهر غیر تزویجها منه فقال: «زَوَّجْناکَها» فلو کان الضمیر محبتها وإراده طلاقها، ونحو ذلک لأظهره جلّ وعلا، وللقصّاص فی هذه القصّه کلامٌ لا ینبغی أن یُجعل فی حیّز القبول، انتهی.

ثم أورد الروایات المزیّفه الّتی تشبه ما أورده المؤلّف (أی ابن الأثیر) محذّراً الناس منها ومن أمثالها الّتی لا تروّج إلّاعلی الحمقی والمغفلین. انتهی.(۱)

توضیح عبارتین

هذا واستکمالاً للبحث، وإتماماً للفائده ندرج نصّ الآیه الّتی نزلت فی هذا المجال، والّتی تسبّبت جملتان منها فی إثاره الشکوک لدی بعض الجاهلین بحقائق السیره النبویّه الزکیّه، ونعطی بعض التوضیحات اللازمه حولهما، والیک نص الآیه أوّلاً: «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللّهُ عَلَیْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِ أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ وَ اتَّقِ اللّهَ» .

وفیما یلی الجملتان اللتان تحتاجان إلی التوضیح:

«وَ تُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللّهُ مُبْدِیهِ» .

فماذا کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یُخْفی فی نَفْسِهِ وقد أظهرهُ اللّهُ وأبداه بعد کلّ تلک النصیحه الّتی نصحَ بها صلی الله علیه و آله و سلم زیداً؟

۱- . راجع هامش الکامل فی التاریخ: ۱۲۱/۲، طبعه القاهره إداره الطباعه المنیریه عام ۱۳۴۹ ه.

ربما يتصوَّر أحدٌ أنّ الأمرَ الّذی کان یخفیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم هو رغبه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی تطلیق زید زوجته زینب، أی أنّه وإن کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ینهی زیداً فی الظاهر عن تطلیق زینب، إلّاأنّه کان فی سرّه یرضی بذلک؛ بل یرغب فیه لیتسنّی له بعد ذلک أن یتزوّجها هو.

ولا شکّ أنّ هذا الاحتمال غیر صحیح مطلقاً؛ لأنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم إذا کان یبطن مثلَ هذا الأمر، فلماذا لم یبد اللّه سبحانَه نیّته هذه بآیات أُخری، فی حین أنّه سبحانه وَعَد فی هذه الجمله بأن یظهرَ ما کان یخفیه رسولُ اللّه فی نفسه إذ قال تعالی: «اَللّهُ مُبْدِیهِ» ؟!

ولهذا قال المفسّرون: إنّ المقصود ممّا کانَ یخفیه هو الوحیُ الإلهیُّ الّذی أنزلهُ اللّهُ علیه، وتوضیح ذلک هو: أنّ اللّه تعالی أوحی إلیه بأنّ زیداً سیطلّق زوجته رغم نصیحه النبیّ، وأنّه صلی الله علیه و آله و سلم سیتزوّج بها من بعده لإبطال سنّهٍ جاهلیهٍ مقیتهٍ (وهی حرمه الزواج بمطلّقه الدعیّ).

ومن هنا کانَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حین نصیحته لزید ونهیه عن تطلیق زینب زوجته مُلتفتاً ومنتبهاً إلی هذا الوحی الإلهیّ أیضاً، ولکنّه أخفی هذا الوحیَ عن زید وغیره، ولکنّ اللّه تعالی أخبر النبیَّ فی نفس تلک الجمله بأنّه تعالی سیبدی للناس ما یخفیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی قلبه، وأنّ الأمر لن یبقی خافیاً علی أحد بإخفائه صلی الله علیه و آله و سلم له.

ویشهد بهذا المعنی أنّ القرآن الکریم أظهر الأمر فی ذیل نفس هذه الآیه إذ قال:

«فَلَمّا قَضی زَیْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناکَها لِکَیْ لا یَکُونَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ حَرَجٌ فِی

أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً» .(۱)

فمن هـذا التعقيب يستفاد أنّ مـا كان يُخفيه رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم هو الوحىُ الإلهىُ، بأنّه عليه أن يتزوّج بزوجه دعيّه بعد طلاقها لإبطال سنّه جاهليّه خاطئه.

وأمّا الجمله الثانيه الّتى هى بحاجه إلى التوضيح فهى قوله تعالى: «وَ تَخْشَى النّاسَ وَ اللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ» . غير أنّ هذا القسم من الآيه هى الجمله الثانيه الأقل أيّهاماً وغموضاً من الجمله السابقه بـدرجات؛ لأنّ تجاهل سنّه عريقه متجـذّره فى بيئه منحرفه (وهى الزواج بمطلّقه الـدعىّ) يقترن - بطبيعه الحـال وحتمـاً - بحرج نفسـىّ يزول ويرتفع لـدى الأنبيـاء بتوجّههم إلى الأمر الإلهى. وإذا كان النبىّ صـلى الله عليه و آله و سلم يعانى من حرج نفسىٍّ شديد من هذه القضيّه فإنّما هو لأجل أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كـان يتصوّر أنّ جمـاعه العرب الـذين لم يكن عهـدهم بالإسـلام طويلاً، لم يمرّ على انقطاعهم عن عاداتهم وتقاليـدهم الجاهليه سوى زمن قصير سيقولون: إنّ النبى ارتكب عملاً سيّئاً، والحال أنّ الأمر ليس كما يعتقدون.

قـال العلّامه الطباطبائى فى هـذا الصـدد: قوله: «لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً» تعليل للتزويج وبيان مصلحه للحكم. وقوله: «وَ كانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً» مشيرٌ إلى تحقّق الوقوع وتأكيد للحكم.

ومن ذلـك يظهر أن الّـذى كان النبىّ صـلى الله عليه و آله و سـلم يخفيه فى نفسه هو ما فرض اللّه له أن يتزوّجها لا هواها، وحبّه الشديد لها وهى بعدُ مزوَّجه كما ذكره جمع من المفسّرين، واعتذروا عنه بأنّها حاله جبليّه لا يكاد يسلم منها البشر، فإنّ فيه أوّلاً:

منع أن يكون بحيث لاـ يقوى عليه التربيه الإـلهيه. وثانيـاً: أنّه لاـ معنى حينئـذ للعتـاب على كتمانه وإخفائه فى نفسه فلا مجوّز فى الإسلام لذكر حلائل الناس والتشبّب

۱- . الأحزاب: ۳۷.

بهن(۱).

ولما كانت المسأله مسأله وضع قانون جديد لهذا مضى القرآن الكريم يؤكّدها ويزيل عنصر الغرابه عنها فقال تعالى:

«ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللّهُ لَهُ سُنَّهَ اللّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مَقْدُوراً * اَلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّهَ وَ كَفى بِاللّهِ حَسِيباً * ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْ ءٍ عَلِيماً * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَهً وَ أَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً * يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً * وَ داعِياً إِلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً * وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللّهِ فَضْلًا كَبِيراً * وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَ كَفى بِاللّهِ وَكِيلًا» .(۲)

ففی هذه الآیات إشاره إلی:

۱. أنّ ما قام به النبی من التزوّج بزینب کان بأمر اللّه، وکان علی سبیل سنّ قانون وتشریع سنّه ولکن بصوره عملیه، وإنّ ذلک القانون علم اللّه ضرورته وقدره وزمانه ومکانه.

۲. أنّ زیداً لیس ابن محمّد صلی الله علیه و آله و سلم إنّما هو متبنّاه ودعیّه، بل هو ابن والده حارثه واقعاً وحقیقه، ولیس ذلک إلّاتقریراً وتأکیداً للحقیقه الّتی سبقت الإشاره إلیها فی قوله تعالی: «وَ ما جَعَلَ أَدْعِیاءَکُمْ أَبْناءَکُمْ» .

۱- . المیزان فی تفسیر القرآن: ۳۲۳/۱۶.

۲- . الأحزاب: ۳۸-۴۸.

۳. أنّ ما قام به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من التزوّج بمطلّقه متبنّاه هو جزء من تشريعه الّذى يشرّعه بأمر اللّه وإذنه تعالى لتسير عليه البشريه، وفق آخر رساله السماء إلى الأرض، لا أنّه أمر واقع بدافع شخصى.

۴. إنّ اللّه هو الّذى يعلم ما يصلح لهذه البشريه وما يصلحها، وهو الّذى فرض على النبىّ ما فرض ليحلّ للناس أزواج أدعيائهم إذا ما قضوا منهن وطراً وانتهت حاجتهم منهن وأطلقوا سراحهن. قضى اللّه هذا وفق علمه بكلّ شىء، ومعرفته بالأصلح والأوفق من النظم والشرائع. ۵. أنّ ما سنّه اللّه للمسلمين وما اختارهُ تعالى للأُمّه الإسلاميه فى مجال العلاقات العائليه يريد بها الخير والخروج من الظلمات إلى النور، فعليهم أن يذكروه ويشكروه أبداً ودائماً، فإنّه سيكون لهم - لو أطاعوه وسبّحوه وذكروه - شأنٌ فى الملأ الأعلى فهو يصلّى عليهم وملائكته، ويذكرهم هناك، بالخير، وإنّما يفعل كلّ هذا من منطلق الرحمه والعنايه بهم.

۶. أنّ وظيفه النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى المسلمين هى (الشهاده) عليهم، فليحسنوا العمل، وهى (التبشير) لهم بما ينتظر العاملين من رحمه وغفران، و (الإنذار) للغافلين المسيئين بما ينتظرهم من عذاب ونكال، و (الدعوه إلى اللّه) لا إلى دنيا أو مجد أو عزه قوميه أو عصبيّه جاهليه، وذلك بإذن اللّه فما هو بمبتدع، ولا بقائل من عنده شيئاً.

۷. أنّ على النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يبشّر المؤمنين المطيعين لأوامر اللّه بأنّ لهم فضلاً كبيراً، ولا يطيع الكافرين، والمنافقين، وألّا يحفل بأذاهم له وللمؤمنين، وأن يتوكّل على اللّه وحده وهو بنصره كفيل، وهو يوحى بأنّ المنافقين أرجفوا بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه القضيه، إرجافاً عظيماً.

وكلّ هـذه الأمور توحى بأنّ تغيير تلك السـنّه الجاهليه (عـدم الزواج بمطلّقه المتبنّى) كانت عمليه صـعبه فاحتاجت إلى كلّ هذا التعقيب، وبالتـالى تثبيت اللّه للنفوس فيه، كى تتلقّى ذلـك الأـمر بالرضـى والقبول والتسـليم، وهـذا هو الحـال عنـد سنّ القوانين المهمّه والخطيره.

ص:٢٨٥

۳۸ غزوه الأحزاب

اشاره

۳۸ غزوه الأحزاب(۱)

لقد قاد رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی السنه الخامسه مجموعه من الغزوات، کما وبعث سلسله من السرایا لإفشال المؤامرات الّتی کانت فی طور الانعقاد أو التکوین أو الّتی کانت محتمله من جانب العدو.

والیک فیما یأتی بعض غزوات السنه الخامسه:

۱. غَزوه دُومه الجندل

(۲)

بلغ رسولَ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أنّ بدومه الجندل جمعاً کثیراً وأنّهم یظلمون من مرّ بهم من المسافرین والتجّار، وأنّهم یریدون أن یدنوا من المدینه، فخرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی ألف من المسلمین، فکان یسیر اللیل ویکمن النهار أخذاً بعنصر الاستتار والسِّرّیه علی عادته.

۱- . ذکر ابن هشام فی سیرته: ۶۹۹/۳ أنّ هذه الغزوه وقعت فی شهر شوال من السنه الخامسه للهجره، وحیث إنّ غزوه الأحزاب انتهت فی الرابع والعشرین من شهر ذی القعده، وطالت محاصره المدینه شهراً واحداً لذلک یجب أن نقول إنّ هذه المعرکه بدأت منذ الرابع والعشرین من شهر شوال تقریباً.

۲- . المغازی: ۴۰۲/۱؛ السیره النبویه لابن هشام: ۶۹۹/۳. ودومه الجندل منطقه بین دمشق والمدینه (الطبقات الکبری: ۴۴/۲).

ولمّا دنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من دومه الجندل وعرفت به تلك الجماعه تفرّقوا من فورهم فلم يجد صلى الله عليه و آله و سلم بها أحداً، فأقام بها أيّاماً وبثّ السرايا والدوريّات وفرّقها حتّى غابوا عنه يوماً ثم رجعوا إليه ولم يصادفوا من تلك الجماعه أحداً.

ثم إن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عاد إلى المدينه فى العشرين من شهر ربيع الثانى، من دون أن يقاتل(۱).

***

۲. غزوه الخندق (الأحزاب)

اشاره

أجلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يهود بنى النضير فى السنه الرابعه من الهجره كما قلنا بسبب نقضهم للميثاق، وسيطر على قسم من أموالهم وممتلكاتهم، واضطرّت بنو النضير إلى أن تذهب إلى «خيبر» وتسكن هناك، أو تسير إلى الشام.

وقد كان إجراء النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم هذا متطابقاً مع ما جاء فى الميثاق المعقود بينه وبين يهود يثرب.

وقد دفع هذا الإجراء بساده بنى النضير وزعمائهم إلى التآمر ضدّ الإسلام، فقدموا مكّه، وحرّضوا قريشاً على حرب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وإليك مفصّل هذه الغزوه:

عَبّأ المشركون العربُ، واليهودُ قواهم فى هذه المعركه ضدّ الإسلام.

فقد شكّلوا اتّحاداً عسكريّاً قوياً وحاصرّوا المدينه مدّه شهر واحد، وبما أنّ أحزاباً مختلفه اشتركت فى هذه المعركه سُمّيت هذه المعركه بمعركه الأحزاب، وربما سُمّيت بمعركه «الخندق»؛ لأنّ المسلمين حفروا حول المدينه خندقاً عظيماً،

۱- . لاحظ: المغازى: ۴۰۲/۱؛ إمتاع الأسماع: ۲۰۱/۱-۲۰۲.

دفاعاً عنها، ومنعاً للكفّار عن اجتياحها.

ولقد كان زعماء بنى النضير وبنى وائل - كما أسلفنا - هم المحرّكون الأصليّون لهذه الحرب، والمشعلون الرئيسيون لفتيلها.

فإنّ الضربه القويه الّتى تلقّاها يهود بنى النضير من المسلمين، والّتى اضطرّوا على أثرها إلى مغادره المدينه، فسكن بعضهم خيبر، دفعهم إلى أن يخطّطوا بصوره جهنّميه ودقيقه لاستئصال شأفه الإسلام والقضاء عليه. وإنّها لخُطّه عجيبه حقّاً، فقد جعلوا المسلمين يواجهون طوائف متعدّده وأحزاباً مختلفه لم يعرف لها تاريخ العرب مثيلاً!!

كما أنّ فى هذه الخطّه كان اليهود هم أنفسهم المموّلون الأساسيّون لطوائف العرب العديده، فقد أمدّوهم بأموال كثيره، وهيّأوا كلّ ما يحتاجون إليه من حاجات ومعدّات!!

وكانت الخطه كالتالى: قدم جماعه من ساده بنى النضير مثل «سلام بن أبى الحقيق» و «حيى بن أخطب» فى نفر من بنى النضير على قريش مكّه، فدعوهم إلى حرب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقالوا: نحن معكم حتى نستأصل محمداً. قال أبو سفيان:

هذا الذى أقدمكم ونزعكم؟ قال: نعم جئنا لنحالفكم على عداوه محمَّد وقتاله.(۱)

وقال حيى بن أخطب: إنّ محمَّداً قد وترنا وأجلانا من المدينه من ديارنا وأموالنا، وأجلى بنى عمّنا بنى قينقاع، فسيروا فى الأرض، وأجمعوا حلفاءكم وغيرهم حتّى نسير إليهم، فإنّه قد بقى من قومى بيثرب سبعمائه مقاتل وهم بنو قريظه، وبينهم وبين محمّد عهد وميثاق، وأنا أحملهم على نقض العهد بينهم وبين

۱- . المغازى: ۴۴۱/۱-۴۴۲.

محمّد ویکونون معَنا علیهم، فتأتونه أنتم من فوق وهم من أسفل.(۱)

فأثّرت کلماتُ الیهود وما قاله «حییُ بن أخطب» فی نفوس المشرکین الحانقین علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وأصحابه، واستحسنوا خطّتهم، وأبدوا استعدادهم للخروج إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقتاله. ولکنّهم قبل أن یوافقوا الیهود علی ذلک الرأی سألوهم قائلین: یا معشر الیهود إنّکم أهلُ الکتاب الأوّل، والعلم، أخبرونا عمّا أصبحنا نختلف فیه نحن ومحمّد، أفدیننا خیر أُمّ دین محمَّد؟

ویجب أن نری الآن بما أجابت هذه الطائفه (الّتی کانت ولا تزال تعدّ نفسها حامله لواء التوحید، الوحیده فی العالم) أُولئک المشرکین الجهله الذین وصفوا الیهود بالعلم والمعرفه، وطلبوا منهم حلّ مشکلتهم؟! أجل لقد قال الیهود بوقاحه کبیره: بل دینکم خیرٌ من دینه، وأنتم أولی بالحقّ، إنّکم لتعظّمون هذا البیت، وتقومون علی السقایه، وتنحرون البُدن، وتعبدون ما کان علیه آباؤکم، فأنتم أولی بالحقّ منه!!!(۲).

ولقد أضافت الیهود بهذه الإجابه الوقحه وصمه عار أُخری إلی سجلّهم الأسود، وزادوا تاریخهم المشؤوم سواداً، وسوءاً.

ولقد کانت هذه الغلطه فضیعه، وقبیحه إلی درجه أنّ الکتّاب الیهود تأسّفوا لوقوعها، فی ما بعد.

فهذا هو الدکتور إسرائیل ولفنسون یکتب فی کتابه: (تاریخ الیهود فی بلاد العرب) حول هذا الموقف المشین جداً قائلاً: «کان من واجب هؤلاء ألّا یتورّطوا فی مثل هذا الخطأ الفاحش، وألّا یصرّحوا أمام زعماء قریش بأنّ عباده الأصنام

۱- . بحار الأنوار: ۲۱۷/۲۰.

۲- . لاحظ: السیره الحلبیه: ۶۲۹/۲.

أفضل من التوحيد الإسلامی ولو أدّی بهم الأمر إلی عدم اجابه مطالبهم، لأنّ بنی إسرائیل الذین کانوا لمدّه قرون حاملی رایه التوحید فی العالم... کان من واجبهم أن یضحّوا بحیاتهم وکلّ عزیز لدیهم فی سبیل أن یخذلوا المشرکین، هذا فضلاً عن أنّهم بالتجائهم إلی عبده الأوثان إنّما کانوا یحاربون أنفسهم ویناقضون تعالیم التوراه»(۱).

وفی الحقیقه أنّ هذا المنطق هو الّذی یتوسّل به الساسه المادّیّون الیوم لإنجاح مقاصدهم، وتحقیق مآربهم. فهم یعتقدون - بکلّ جدّ - أنّ علیهم - لتحقیق أهدافهم - التوسّل بکلّ وسیله ممکنه، مشروعه کانت أو غیر مشروعه، وهذه هی مقوله «الغایه تبرر الوسیله» الّتی طرحها میکافیلی، وبالتالی فإنّ «الأخلاق» فی منظور هذه الجماعه هو ما یخدم مصالحهم ویحقّق أغراضهم لیس إلّا.

إنّ القرآن الکریم یتحدّث عن هذه الواقعه المرّه فیقول:

«أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتابِ یُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطّاغُوتِ وَ یَقُولُونَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدی مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا سَبِیلاً * أُولئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَ مَنْ یَلْعَنِ اللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِیراً» .(۲)

ولقد ترک کلام أدعیاء العلم والدین هؤلاء، أثراً عجیباً فی نفوس المشرکین وعبده الأوثان، فأظهروا موافقتهم علی خطّه الیهود الجهنّمیه وهو تألیف جیش من قبائل متعدّده لمقاتله المسلمین وحدّدوا معهم موعداً للتوجّه إلی المدینه، لتحقیق ذلک الغرض المشؤوم.

فخرج مثیرو الفتنه ومشعلو الحرب (الیهود) من مکّه بقلوب مملوءه سروراً،

۱- . حیاه محمّد: ۳۲۹؛ التفسیر الوسیط للسید طنطاوی: ۱۸۲/۳.

۲- . النساء: ۵۱-۵۲.

وغبطه، وساروا إلى نجد، ليتّصلوا بقبيله غطفان - وكانت من أعدى أعداء الإسلام - فاستجلبوا موافقه قبائل غطفان: بنى فزار، وبنى مرّه، وبنى اشجع، شريطه أن يعطونهم تمر خيبر، لمده سنه، بعد الانتصار على المسلمين، ولكن تحرّكات قريش فى مجال ضمّ القبائل إلى ذلك الجيش لم تنته إلى هذا الحدّ، فقد راسلت قريشٌ حُلفاءها من بنى سليم، وراسلت غطفان حلفاءها من بنى أسد، ودعوهم إلى المشاركه فى هذه الحرب، فاستجابت لهم تلك القبائل، وتحرّكت جميع هذه الفئات والأحزاب فى جيش كبير هائل قدمت عناصره من مختلف نقاط الجزيره، نحو المدينه فى يوم معيّن وهى تبغى اجتياح مركز الإسلام واستئصال شأفته!!(١)

استخبارات المسلمين ترفع تقريراً للقياده

منذ أن سكن رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى المدينه كان يبعث بجواسيسه وعيونه النشطين الأذكياء إلى مختلف مناطق الجزيره، لتقصّى الأخبار ومراقبه الأوضاع، وإخبار النبى صلى الله عليه و آله و سلم بكلّ ما يحصلون عليه فى هذا المجال أوّلاً بأوّل.

فقدم أحدهم على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأخبره بخروج تلك القوه الكبيره ومسيرها إلى المدينه، وبهدفها، وتاريخ خروجها، ووصولها إلى مشارف يثرب.

فدعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أصحابه فوراً وأخبرهم خبر عدوّهم، وشاورهم فى الأمر، ليستفيدوا من تجارب «أُحد»، فاقترح جماعه منهم أُسلوب التحصّن، والقيام بالدفاع من داخل القلاع والحصون، ولكن هذا العمل لم يكن كافياً لأن جيش العدوّ كان كثيفاً وكبيراً جدّاً وكان من المحتمل بقوّه أن تقوم عناصره الكثيره، الكبيره فى عددها بهدم الحصون والقلاع، والقضاء على المسلمين، فلابد إذن من

١- . لاحظ: المغازى: ٤٤٢/٢-٤٤٣.

اتّخاذ وسیله تمنع العدوّ من الاقتراب إلی المدینه أصلاً.

فقال سلمان الفارسی الّذی کان عارفاً بفنون القتال عند الفرس معرفه کامله:

یا رسول اللّه إنّا إذ کُنّا بأرض فارس، وتخوّفْنا الخیل، خَنْدَقْنا علینا، فهَلْ لک یا رسول اللّه أَنْ نخندقَ؟(۱)

وفی روایه أُخری أنّه قال: یا رسول اللّه نَحفر خندقاً یکون بیننا وبینهم حجاباً، فیمکنک منعهم فی المطاوله، فلا یمکنهم أن یأتونا من کلّ وجه، فإنّا کنّا معاشر العجم فی بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا نحفر الخنادق فیکون الحرب من مواضع معروفه، (أی محدوده).(۲)

فأعجب رأی سلمان المسلمین جمیعاً، وکان لهذا التکتیک أثرٌ جوهری وبارز جدّاً فی حفظ الإسلام وصیانه المسلمین.

ومن الجدیر بالذکر أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم خرج بنفسه یدرس المنطقه میدانیاً ولکی یحدّد المنطقه الّتی یمکن أن ینفذ من خلالها العدو فقرّر أن یحفروا الخندق من ناحیه «أُحد» إلی «راتج» وکان سائر المدینه مشبک بالبنیان والنخیل لا یتمکّن العدو منها، وعلّم الموضع الّذی یجب أن یحفر بخط خطّه علی الأَرض.

ولکی یتمّ هذا الأمر بنظام وسرعه جعل علی کلّ عشرین خطوه، وثلاثین خطوه جماعه من المهاجرین والأنصار یحفرونه، فحملت المساحی والمعاول، وبدأ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وأخذ معولاً فحفر فی موضع المهاجرین بنفسه، وعلی علیه السلام ینقل التراب من الحفره حتّی عرق رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وعیی(۳) وهو یقول:

۱- . المغازی: ۴۴۵/۱، تاریخ الطبری: ۲۳۴/۲.

۲- . بحار الأنوار: ۲۱۸/۲۰.

۳- . وجاء فی تاریخ الخمیس: ۴۸۹/۱ أنّه صلی الله علیه و آله و سلم کان ینقل التراب حتّی اغبرَّ بطنه.

«لا عَيشَ إلّاعيش الآخره، اللّهم اغفر للأنصار والمهاجره».(۱)

وقد كشف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعمله هذا عن جانب من نهج الإسلام وأُسلوبه، وفى ذلك تنشيط الأُمّه وتقويه لعزائمهم فى مجال القياده وأخلاق القائد، وأفهم المجتمع الإسلامى أنّ على القائد الإسلامىّ، وعلى إمام الأُمّه أن يشارك الناس فى آلامهم كما يشاركهم فى آمالهم ويسعى أبداً إلى التخفيف عن كاهلهم بمشاركته العمليه فى الأعمال، ولهذا لمّا نظر الناس إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يحفر نشطوا واجتهدوا فى الحفر، ونقلوا التراب، ولمّا كان اليوم الثانى بكّروا فى العمل، وكان ذلك النشاط العظيم عاملاً فى أن يندفع يهود بنى قريظه أيضاً إلى مساعدتهم فأعاروهم المساحى والفؤوس والأوعيه الكبيره لنقل التراب(۲).

وكان المسلمون يومئذ يعانون من نقص وضيق شديدين فى المواد الغذائيه، ومع ذلك كان أصحاب المكنه والثراء من المسلمين يمدُّونهم بالطعام وغيره(۳).

وربّما عرضت للمسلمين وهم يحفرون فى الخندق صخره عظيمه عجزوا عن كسرها وإزالتها، فأخبروا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بذلك فأخذ معولاً فكسرها وأزالها.

أمّا طول الخندق فكان بالنظر إلى عدد العاملين فى حفرها - وقد كان المسلمون يومئذ ثلاثه آلاف حسب المشهور، وكان كلّ عشره يحفرون (۴۰) ذراعاً - هو (۱۲۰۰۰) ذراع أى ما يقارب خمس كيلومترات ونصف الكيلومتر، وأمّا

۱- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۲۶۸/۲.

۲- . السيره الحلبيه: ۳۱۱/۱.

۳- . السيره الحلبيه: ۳۱۲/۱.

العرض فكـان بحيث لاـ يقـدر الفرسـان المـاهرون من عبوره بالقفز بأفراسـهم، فيكون عرضه بطبيعه الحال ما يقارب خمسه أمتار وعمقه خمسه أمتار أيضاً.

القوله النبويه الخالده فی شأن سلمان

عنـدما قسَّم رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم المهاجرین والأنصار جماعات جماعات، وأوکل إلی کلّ جماعه حفر موضع من الخندق، تنافس الناس یومئذ فی سلمان الفارسی وأراد کلٌّ أن یضمّه إلی صفّه، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقالت الأنصار: سلمان منّا ونحن أحقّ به!!

فبلغ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قولهم فقال قولته الخالده فی شأن سلمان یومذاک:

«سلمانُ منّا أهل البیت»(۱).

ثم إنّ رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم بقی إلی جانب الخندق سته لیال بأیّامها حتّی فرغ المسلمون من عمل الخندق، غیر أنّ المنافقین تخاذلوا فی هـذه القضیّه وکانوا یتـذرّعون بأعـذار مختلفه لیتملّصوا من العمل فی الخندق، وربما کانوا یَذهبون إلی منازلهم من دون أن یستأذنوا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

أمّـا المؤمنون الصـادقون فکـانوا یعملون باسـتمرار، وإذا مـا احتاجوا إلی الـذهاب إلی منازلهم أحیاناً، أو جـدَّ لهم عـذرٌ اسـتأذنوا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فأذن لهم ثم عادوا إلی الخندق فوَر أن یرتفع عذرهم، وقد ذکر القرآن الکریم هذه القضیه فی سوره النور، إذ یقول تعالی:

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا کانُوا مَعَهُ عَلی أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ یَـذْهَبُوا حَتّی یَسْـتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِینَ یَسْـتَأْذِنُونَکَ أُولئِکَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا

۱- . المغازی: ۴۴۶/۱؛ الکامل فی التاریخ: ۱۷۹/۲.

اِسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (۱).

مقاتلو العرب واليهود يحاصرون المدينه

وتتابعت أرتال الجيش المشرك على منطقه «أُحد» وعلى مقربه من الخندق الّذى كان قد تمّ إنجازه قبل سته أيام وقد كان الكفّار ومَن لفّ لفَّهم يتوقّعون أن يلتقوا جنود الإسلام عند جبل «أُحد»، ولكنّهم لم يلقوا أحداً منهم هناك فتقدّموا نحو المدينه حتّى وصلوا إلى الخندق، فلما نظروا إلى الخندق الّذى كان أشبه بحصن منيع يحفظ المدينه من الخطر، فوجئوا به وقالوا: هذه مكيده ما كانت العرب تعرفها قبل ذلك إنّ هذا من تدبير الفارسى الّذى معه.

العدد الدقيق لقوّات الطرفين

كان جيش العرب لا يتجاوز فى عدده عشره آلاف، وقد استقروا خلف الخندق وسيوفهم تلمع وهى تخطف بلمعانها الأبصار!

وكان عدد المشاركين فى هذا الجيش من قريش وحدها - على روايه المقريزى فى الإمتاع - (۴ آلاف) مقاتل، معهم (۳۰۰) فرس و (۱۵۰۰) بعير.

وقد التحق بهم بنوسليم - وهم من حلفاء قريش - فى (۷۰۰) رجل فى مرّ الظهران، وكان من قبيله بنى فزاره (۱۰۰۰) مقاتل، ومن قبائل أُخرى، مثل اشجع

۱- . النور: ۶۲-۶۳.

وبنی مرّه کلّ واحد منهما (۴۰۰) مقاتل، والباقی وهم ما یقارب (۳۵۰۰) مقاتل من بقیه القبائل، وعلی هذا الأساس لم یکن المجموع لیتجاوز عشره آلاف، وقد استقرّوا جمیعاً فی مکان واحد.

وأمّا عدد المسلمین فکان لا یتجاوز ثلاثه آلاف، وقد نزلوا فی سفح جبل سلع وهو موضع مرتفع، مشرف علی الخندق وخارجه، إشرافاً کاملاً بحیث یمکن معه مراقبه جمیع تحرّکات العدوّ ونشاطاته منه.

وقد وکّل النبی صلی الله علیه و آله و سلم جماعه من أصحابه بحفظ الممرّات ونقاط العبور علی الخندق ومراقبه تحرّکات العدوّ، ورصد عناصره. وبذلک کان المسلمون یملکون متراساً قویاً طبیعیاً، وغیر طبیعی، إذ أنّ سائر المدینه کان مشبکاً بالبنیان، والنخیل کما أسلفنا.

لقد حاصر الکفّار «المدینه» ما یقرب من شهر واحد، ومکثوا خلف الخندق متحیّرین، ولم یستطع أن یعبر منهم الخندق إلّاأفراد معدودون، فمَن کان یفکّر فی العبور رماه المسلمون بالحجاره، فولّی هارباً!!

وللمسلمین فی هذه الفتره قصص جمیله ومواقف رائعه مع عناصر الجیش العربی المعتدی ذکرتها صحائف التاریخ الإسلامی فی مواضعها(۱).

خطر البرد، وتناقص الغذاء والعلف

صادفت غزوه الخندق فصل الشتاء وکانت المدینه قد أُصیبت فی تلک السنه بقلّه الغیث، ولذلک کانت تعانی من نقص فی الطعام.

کما أنّ طعام المشرکین لم یکن هو الآخر یکفی لمده طویله، ولم یکن أحد

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۷۰۲/۳-۷۰۴.

منهم يتصوّر أنّ عليه أن يمكث خلفَ الخندق مده شهر واحد، بل كان المشركون - جميعاً - يرون - بادئ الأمر - أنّهم سيقضون بهجوم واحد واسع، على جنود الإسلام ويجتاحون المدينه، ويستأصلون المسلمين!!

ولقد أدرك مثيرو هذه الحرب العدوانيه (اليهود) هذه المشكله بعد أيام، فقد عرفوا بأن مضىّ الزمان سيقلّل من مقدره ساده الجيش العربى وقادته على مقاومه القرّ، وقلّه العلف وتناقص الطعام، ومن هنا فكّروا فى الاستعانه بيهود بنى قريظه داخل المدينه، ليشعلوا فتيل الحرب من داخل المدينه، وبذلك يمهِّدوا السبيل لجيش العرب لِغزو المدينه، واجتياحها من الخارج!!

حيى بن أخطب يدخل حصن بنى قريظه

كان بنو قريظه الطائفه اليهوديه الوحيده الّتى بقيت فى المدينه تعايش المسلمين فى سلام وأمن، وكانوا يحترمون الميثاق الّذى عقدوه مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم، احتراماً كاملاً.

فرأى «حُيىُّ بن أخطب» أنّ طريق الانتصار يتوقّف على الاستعانه بمَن فى داخل المدينه لصالح المعتدين العرب، وذلك بأن يدعو يهود بنى قريظه إلى نقض العهد الّذى عاهدوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم به، ليشعل بذلك حرباً بين المسلمين ويهود بنى قريظه ويشغل المسلمين بفتنه داخليه، وبذلك يمهّد لانتصار المشركين الذين يحاصرون المسلمين خلف الخندق.

وانطلاقاً من هذه الفكره أتى «حُيىُّ» إلى حصن بنى قريظه ودقّ عليهم الباب وعرّف نفسه، فأمر رئيس بنى قريظه «كعب بن الأسد» بأن لا يفتحوا له الباب ولكنّه أصرّ، وقال: ما يمنعك من فتح الباب إلّاجشيشتك (أى خبزك) الّذى فى التنور تخاف أن أُشارككَ فيها فافتح فإنَّك آمِنٌ من ذلك. فأثارت تلك الكلمات الجارحه

حميّه كعب فأمر بأن يفتحوا له باب الحصن، ففتحوا له، فدخل مثير الحرب المشؤوم «حيىّ» وقال لكعب: يا كعب لقد جئتك بعزّ الدهر، هذه قريش فى قادتها وسادتها مع حلفائهم من كنانه، وهذه فزاره مع قادتها وسادتها، وهذه سليم وغيرهم، ولا يفلت محمَّد وأصحابُه من هذا الجمع أبداً وقد تعاقدوا وتعاهدوا ألّا يرجعوا حتّى يستأصلوا محمَّداً ومن معه، فانقض العهد بينك وبين محمَّد، ولا تردَّ رأيى.

فأجابه كعب قائلاً: لقد جئتنى - واللّه - بذلّ الدهر، وبسحاب يبرق ويرعد وليس فيه شىء، وأنا فى بحر لجى لا أقدر على أن أريم دارى ومالى معى، والصبيان والنساء، إنّى لم أرَ مِن محمَّد إلّاصدقاً ووفاء فارجع عنّى، فإنّه لا حاجه لى فيما جئتنى به.

ولكن حيّى بن أخطب لم يزل يراوض كعباً ويخاتله ويلحّ عليه كما يفعل صاحب الجمل الجامح الّذى يستصعب عليه، حتّى أقنعه بنقض عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهيّأه لذلك، فقال: أنا أخشى أن لا يقتل محمَّد وتنصرفَ قريشٌ إلى بلادها، فماذا نفعلُ حينذاك؟ فوعده حيى أن يدخل معه حصنهُ ليصيبه ما أصابه إن لم يُقتل محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم.

فقال كعب: دَعنى أُشاور رؤساء اليهود، فدعا رؤساء اليهود وشيوخهم، وخبرهم الخبر، وحيى حاضرٌ، وقال لهم كعبٌ: ما ترون؟ فقالوا: أنت سيدنا، والمطاع فينا، وصاحب عهدنا وعقدنا، فإن نقضت نقضنا معك وإن أقمت أقمنا معك، وإن خرجت خرجنا معك.

فقال «الزبير بن باطا» وكان شيخاً كبيراً مجرّباً قد ذهب بصره: قد قرأت فى التوراه الّتى أنزلها اللّه فى سفرنا يبعث نبيّاً فى آخر الزمان، يكون مخرجُه بمكّه،

ومهـاجرُه فی هـذه البحیره... یبلغ سـلطانه منقطع الخفِّ والحافر، فإن کان هـذا (أی محمَّد) هو فلا یهولنّه هؤلاء ولا جمعهم، ولو ناوی علی هذه الجبال الرواسی لغلبها.

فقال أخطب من فوره: لیس هـذا ذاک، ذلک النبیُ من بنی إسـرائیل، وهذا من العرب من ولد إسـماعیل، ولایکونوا بنو إسـرائیل أتباعـاً لولـد إسـماعیل أبـداً، لأنّ اللّه فضّلهم علی النـاس جمیعاً وجعل فیهم النبوه والملک، ولیس مع محمَّد آیه، وإنّما جمعهم جمعاً وسحرهم!!

ولم یزل یقنّع بهم، ویقلِّبهم عن رأیهم، ویلـحُّ علیهم حتّی أجابوه، ورضوا بأن ینقضوا العهد الّذی بینهم وبین رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سلم.

فقـال: أخرجوا الکتاب الّـذی بینکم وبین محمَّد، فأخرجوه، فأخـذه و مزقه، وقال: قـد وقع الأمر، فتجهَّزوا وتهیّأوا للقتال، وبـذلک جعلهم أمام الأمر الواقع الّذی ظنوا أنّه لا مفرَّ منه!!(۱)

النبی یعرف بنقض بنی قریظه للعهد

بلغ رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم عن طریق جواسـیسه الأذکیاء نقضُ بنی قریظه للعهد، فی مثل ذلک الظرف الحسّاس، فغمّه غمّاً شدیـداً. فأمر مِن فوره «سـعد بن معاذ» و «سـعد بن عباده» - وکانا من خیره رجاله الشـجعان ومن قاده جیشه الممتازین، کما أنّهما کانا رئیسـی الأوس والخزرج - بأن یحصـلا له علی معلومات دقیقه عن هذا الحادث، وأسبابه وملابساته، وأنّه إذا کان هناک خیانه ونقض للعهد فعلاً أن یخبّراه وحده فقط ولا یخبّرا أحداً به ویقولا: عضل والقاره، لکیلا یفتَّ ذلک أعضادَ

۱- . لاحظ: المغازی: ۴۵۶/۱؛ سیره ابن هشام: ۷۰۵/۳-۷۰۶؛ بحار الأنوار: ۲۲۱/۲۰-۲۲۳.

المسلمين ولا يضعف من معنوياتهم، وأمّا إذا لم تكن هناك خيانه، فيكذّبا الأمر بصراحه.

فذهب الرجلان، واقتربا إلى حِصن بنى قريظه، فأشرف عليهما كعبٌ من داخل الحصن، فشتم سعداً وشتم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وبذلك أظهر نقضه للعهد والميثاق فأجابه سعد - بإلهام غيبى -: إنّما أنت ثعلب فى جحر، لتولَّيَنَّ قريشٌ، وليحاصرنَّك رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ولَيُنزلنك على الصغر والقمأ (أى الذلّ) وليضربنَّ عنقك.

ثم رجعا إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقالا له: عضل والقاره. فكبّر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقال برفيع صوته: «أبشروا يا معشر المسلمين بنصر اللّه وعونه»(۱).

وهذه العبارات تكشف عن مبلغ شجاعه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وعمق سياسته، فقد قالها لكى لا تضعف معنويه المسلمين، ولا يتملّكهم الخوف إذا سمعوا بنقض بنى قريظه للعهد، وهم فى تلك الظروف الحرجه الشديده أحوج ما يكونون إلى المعنويات العاليه، والإحساس بروح النصر.

تجاوزات بنى قريظه الأوّليه

كانت الخطّه المبدئيه لبنى قريظه تقضى بأن يبدأوا عملهم الخيانى بالإغاره على المدينه، وإرعاب النساء و الأطفال الموجودين فى البيوت و المنازل، وقد نفذت مراحل من هذه الخطّه تدريجاً!!

فقد أخذ بعض صناديد بنى قريظه يحومون حول بيوت المسلمين الّتى فيها أطفالهم ونساؤهم بصوره مشبوهه!!

۱- . لاحظ: المغازى: ۴۵۹/۱؛ بحار الأنوار: ۲۲۳/۲۰.

كانت «صفيه بنت عبدالمطلب» عمّه النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم فى فارع، حصن حسان بن ثابت قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه، مع النساء والصبيان، فمرّ بنا رجل من يهود. فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظه، وقطعت ما بينها وبين رسول صلى الله عليه و آله و سلم، وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنّا، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والمسلمون فى نحور عدوّهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت، فقلت: يا حسّان: إنّ هذا اليهوديّ كماترى يُطيف بالحصن، وإنّى واللّه ما آمنه أن يدلّ على عورتنا مَن وراءه مِن يهود، وقد شُغل عنّا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وأصحابه، فأنزل إليه فاقتله، قال: يغفراللّه لك يا بنه عبدالمطلب واللّه لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلمّا قال لى ذلك، ولم أر عنده شيئاً، احتجزت(۱) (أى شددت وسطى) ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتّى قتلته، فلمّا فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسّان أنزل إليه فاسلبه فإنّه لم يمنعنى من سلبه، إلّاأنّه رجلٌ، فقال حسّان:

مالى بسلبه حاجه يابنه عبدالمطلب!!(۲).

ولمّا بلغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن طريق عيونه على اليهود أنّهم نقضوا ما بينه وبينهم من العهد وأنّهم طلبوا من قريش ألف رجل ومن غطفان ألف رجل ليغيروا على المدينه عبر حصن اليهود، وكان ذلك فى ما كان المسلمون منشغلين بحراسه الخندق، فعظم بهذا الخبر البلاء وصار الخوف على الذرارى أشد من الخوف على أهل الخندق، بعث النبى صلى الله عليه و آله و سلم مسلمه بن أسلم وزيد بن حارثه فى خمسمائه رجل يحرسون المدينه ويظهرون التكبير تحفظاً على الجوارى، من بنى قريظه(۳).

۱- . وفى روايه: اعتجرت.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۱۱/۳.

۳- . لاحظ: المغازى: ۴۶۰/۱.

الإيمانُ فی مواجهه الكفر

لقد خاض المشركون حروباً عديده ضدّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم قبل معركه الأحزاب، ولكن العدوّ فی جميع تلك المعارك والحروب كان من طائفه أو قبيله واحده، ولم يكن من عموم الجزيره العربيه، ومن عموم القبائل، أی الإسلام لم يواجه فی تلك الحروب والوقائع عدواناً شاملاً من سكان الجزيره.

وحيث إنّ أعداء الإسلام رغم الجهود الكبيره لم ينجحوا فی القضاء علی الحكومه الإسلاميه الفتيّه، قرّروا هذه المرّه أن يستأصلوا الإسلام عن طريق اتّحاد عسكری عريض، يضم كلّ قبائل الجزيره العربيه المشركه، ويرموا المسلمين بآخر سهم فی جعبتهم، من هنا عمدوا إلی تعبئه أكبر قدر من المقاتلين، واستصرخوا أكبر قدر من القبائل وتحرّكوا فی جمع لم يعرف له تاريخ العرب والجزيره من نظير نحو المدينه لتحقيق ذلك الهدف المشؤوم. ولولا تدبير المسلمين للدفاع عن المدينه لحقق العدوّ الحاقد أهدافه.

ولهذا جلب أعداء الإسلام معهم أكبر صنديد من صناديد العرب، وأشهر بطل من أبطالهم ورأسوه عليهم، وهو عمرو بن عبد ود العامری ليشدُّوا به أزرهم، ويحقّقوا بسببه ما كانوا يأملونه من الظفر.

وعلی هذا الأساس كانت معركهُ الأحزاب مواجهه كامله بين كلّ الكفر وكلِّ الإيمان، وخاصّه عندما تبارز بطل الإسلام وبطل الكفر وتواجها فی ساحه القتال.

ولقد كان الخندق الّذی احتفره المسلمون سلفاً من عوامل إخفاق المشركين، وكان العدوُّ يحاول أن يعبر هذا الخندق فتطيف فرسانهم به ليل نهار ولكن دون جدوی، لأنّهم كانوا يواجهون فی كلّ مره سهام الحرس الّذين وكلهم رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم بحراسه الخندق، ورصد محاولات العدو لاجتيازه وإفشالها فوراً،

وأيضاً بفضل تدابير النبى القائد نفسه.

ثمّ إنّ طائفه من الأنصار خرجوا ليدفنوا ميّتاً منهم بالمدينه فصادفوا عشرين بعيراً لقريش محمّله شعيراً وتمراً وتبناً حملها ذلك حيى بن أخطب شداداً لقريش فأتوا بها إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فتوسّع بها أهل الخندق(۱).

وذات يوم من أيام الانتظار وراء الخندق كتب أبوسفيان إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كتاباً يقول فيه: فإنّى أحلف باللّات والعزّى لقد سرت إليك فى جمعنا وإنّا نريد ألّا نعود إليك أبداً حتّى نستأصلك فرأيتك قد كرهت لقاءنا، وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعرى مَن علّمك هذا؟ فان نرجع عنكم فلكم مِنّا يومٌ كيوم أُحد تُبقَر فيه النساء(۲).

فكتب إليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «من محمَّد رسول اللّه إلى أبى سفيان بن حرب... أمّا بعد فقديماً غرّك باللّه الغرور، أمّا ما ذكرت أنّك سرت إلينا فى جمعكم، وإنّك لا تريد أن تعود حتّى تستأصلَنا فذلك أمرُ اللّه يحولُ بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبه حتى لا تذكر اللّات و العزّى. وأمّا قولك: مَن علّمك الذى صنعنا من الخندق فإنّ اللّه ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك، وليأتينَّ عليك يومٌ تدافعنى بالراح، ولياتينّ عليك يوم أكسرُ فيه اللّات والعزّى وأساف، ونائله، وهبل حتّى أُذكّرك ذلك»(۳).

ولقد وقعت إجابه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم - الّتى كانت تنبئ عن قوه إرادته وشدّه عزيمته، وتصميمه القاطع - موقع السهم فى قلب زعيم المشركين، وحيث

۱- . السيره الحلبيه: ۶۴۷/۲.

۲- . المغازى: ۴۹۲/۱.

۳- . المغازى: ۴۹۲/۱-۴۹۳؛ إمتاع الأسماع: ۲۴۲/۱ و ۲۴۳.

إنّ قريشاً كانت تعتقد بصدق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فإنّها أُصيبت بهذا الرد الحاسم فى عزيمتها ونفسيتها، ولكنّها مع ذلك لم تكفَّ عن مواصله عدوانها.

وذات ليله عزم «خالد بن الوليد» على أن يعبر بجماعته الخندق ولكنّه اضطرّ إلى التراجع عندما واجه مقاومه شجاعه من مائتين من المسلمين بإمره «أُسيد بن حضير» وقد كلّفهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالقيام على شفير الخندق، ودفع المشركين ومنعهم من العبور!!

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن ليغفل عن تقويه عزائم المقاتلين المسلمين ورفع معنوياتهم، ولهذا كان يهيّئهم بخطبه الحماسيه، وكلماته المشجّعه، الحاثّه على الجهاد والاستقامه والدفاع عن حياض العقيده والإيمان، والذود عن صرح الحريه، والعدل.

فقد وقف ذات يوم خطيباً فى اجتماع كبير من المسلمين وقال - بعد أن حَمِد اللّه وأثنى عليه -.

«أيّها النّاسُ إذا لَقْيتُمُ الْعدُوَّ فاْصبِرُوا وَاْعَلمُوا أَنَّ الجَنَّه تَحْتَ ظِلال السيوف»(۱).

أبطالٌ من العرب يَعبُرونَ الخندق

لبس خمسهٌ من شجعان المشركين هم: «عمرو بن عبد ود العامرى»، «عكرمه ابن أبى جهل»، «هبيره بن وهب»، «نوفل بن عبداللّه»، و «ضرار بن الخطاب» لامه الحرب، ووقفوا أمام بنى كنانه فى غرور عجيب، وقالوا: تهيّأوا يا بنى كنانه للحرب، فستعلمون مَن الفرسان اليوم؟

۱- . السيره الحلبيه: ۶۴۸/۲.

ثم ضربوا خيولهم فعبرت بهم الخندق من مكان ضيق قد أغفله المسلمون، ولكنّهم بادروا إلى محاصره تلك الثغره ومنع غيرهم من العبور.

وكان الموضع الّذى وقف فيه أُولئك الشجعان الخمسه الّذين عبروا الخندق للمبارزه يقع بين الخندق وجبل سلع حيث تمركز جنود الإسلام(۱).

ثم أخذوا يدعون المسلمين إلى البراز، فى كبرياء وغرور كبيرين، وهم يقطعون ذلك الموضع جيئه وذهاباً بخيولهم!!

بيد أنّ أشجع أُولئك الخمسه وأجرأهم وأعرفهم بفنون القتال وهو: «عمرو بن عبد ود العامرى» تقدّم، وأخذ يرتجز داعياً المسلمين إلى النزال والبراز قائلاً:

ولَقَدْ بُحِحْتُ من النداء بجمعكم هَلْ مِنْ مُبارزْ

وَوَقفْتُ إذ جَبنَ المُشَجَّعُ مَوقفَ القرن المناجِزْ

وكذلك إنّى لم أزلْ متسرّعاً قبل الهزاهز

إن والشجاعه فى الفتى والجود من خيْرُ الغرائز(۲)

فأحدثت نداءات عمرو الرهيبه حاله من الرعب، والوجل الشديدين فى معسكر المسلمين، وسكت الجميع، ولم ينبسوا ببنت شفه رهبه وخوفاً منه.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«أيكمْ يبرز إلى عمرو أضمنُ له الجنه»؟

وقد قالها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ثلاث مرات، وفى كلّ مره يقوم علىّ عليه السلام ويقول:

أنا له يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، والقوم ناكسوا رؤوسهم(۳) أو كأنَّ المسلمين يومئذ على

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲۳۹/۲؛ الطبقات الكبرى: ۲۸/۲.

۲- . تاريخ مدينه دمشق: ۷۹/۴۲.

۳- . تاريخ الخميس: ۴۸۶/۱.

رؤوسهم الطير، لمكان عمرو وشجاعته، كما يقول الواقدى(۱).

ولابدّ أن تحلَّ هذه المشكله بيد على عليه السلام فارس ميادين الحرب المقدام، وكان كذلك، فلمّا أبدى علىٌّ عليه السلام استعداده الكامل لمقاتله عمرو أعطاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سيفه وعمّمه بيده، ووجّهه صوب عمرو وقد دعا له قائلاً: اللّهم أعِنهُ عَليه.

وقال أيضاً: «اللّهم إنَّكَ أخذتَ مِنِّى عُبيده بنَ الحارث يَومَ بَدر، وَ حَمزه بن عبدالمطلب يومَ أُحُد، وهذا أخى علىّ بن أبى طالب، ربِّ لا تَذَرنى فرداً وأنت خيرُ الوارثين»(۲).

فبرز علىّ عليه السلام إلى عمرو يهرول فى مشيته، مبادراً إليه دون إبطاء، وهنا قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كلمته الخالده فى تلك المواجهه:

«بَرزَ الإيمان كلُّه إلى الشرك كلِّه»(۳) وارتجز عليه السلام قائلاً:

لا تعجلنَّ فقد أتاك مجيبُ صوتكَ غير عاجزْ

ذُو نيّه وَبصيره والصدقُ مُنجى كلّ فائز

إنى لأرجو أن أُقيمَ عليكَ نائحه الجنائزْ

مِنْ ضَرْبَهٍ نَجلاء يَبقى ذكرُها عِندَ الهَزاهِزْ

وقد كان علىٌّ عليه السلام مسربلاً بالحديد لا يرى منه إلّاعيناه من تحت المغفر، فأراد عمرو أن يعرف مَن برز إليه فقال: من أنت؟

۱- . المغازى: ۴۷۰/۱.

۲- . كنز الفوائد: ۱۳۷؛ بحار الأنوار: ۲۱۵/۲۰ ح ۱.

۳- . تاريخ الخميس: ۴۸۶/۱ و ۴۸۷؛ بحار الأنوار: ۲۱۵/۲۰.

قال: أنا علیُّ بن أبی طالب.

فقال عمرو: إنّی أکره أن أُریق دمک، واللّه إنّ أباک کان لی صدیقاً وندیماً، ما أمِنَ ابن عمک حین بعثک إلیَّ أن اختطِفَکَ برمحی هذا فأترککَ شائلاً بین السماء والأَرض لاحیٌّ ولا میت.

فقال علیٌّ علیه السلام: لکنّنی ما أکرهُ واللّه أن أهریق دمَک، وقدعلم ابنُ عمی أنّک إن قتلتنی دخلتُ الجنه، وأنت فی النّار، وإن قتلتک فأنتَ فی النّار وأنا فی الجنه.

فضحک عمرو وقال مستهزئاً: کلتاهما لک یا علیّ، تلک إذاً قسمهٌ ضِیزی.

(أیْ ناقصّه جائره).

یقول ابن أبی الحدید: کان شیخنا أبو الخیر یقول إذا مررنا فی القراءه علیه بهذا الموضع: واللّه ما أمره (أی ما أمر عمرو بن عبد ودّ علیاً علیه السلام) بالرجوع إبقاءً علیه، بل خوفاً منه، فقد عرف قتلاه ببدر وأُحُد، وعلم أنّه إن ناهضهُ قتله، فاستحیا أن یُظهرَ الفشل، فأظهر الإبقاء والإرعاء، وإنّه لکاذب فیهما(۱).

ثم إنّ علیّاً علیه السلام ذکّر عمراً بعهد قطعه علی نفسه فقال له:

یا عمرو إنّی سمعت منک وأنت متعلّق بأستار الکعبه تقول: لا یعرض علیّ أحد فی الحرب ثلاث خصال إلّاأجبتُه إلی واحده منها، وأنا أعرض علیک ثلاث خصال فأجبنی إلی واحده.

قال عمرو: هات یا علیّ.

قال: تشهد أن لا اله الّا اللّه، وأنَّ محمَّداً رسول اللّه.

فقال عمرو: نحِّ عنی هذا.

۱- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۶۴/۱۹.

قـال على عليه السـلام: فالثـانيه أن ترجع وترد هـذا الجيش عن رسول اللّه، فـإن يـك محمَّدٌ صادقـاً فأنتم أعلى به عيناً، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره.

فقـال عمرو فى غرور عجيب: اذاً تتحـدّث نساء قريش بـذلك، وينشـد الشـعراء فىَّ أشـعارها أنّى جبنت، ورجعت على عقبى من الحرب، وخذلتُ قوماً رأسونى عليهم.

فقال له على عليه السلام: فالثالثه أن تنزل إلىّ فإنّك راكبٌ وأنا راجلٌ، حتّى أُنابذَك.

فقال عمرو: هذه خصله ما ظننت أنّ أحداً من العرب يسومنى عليها، ثم وثب عن فرسه وعرقبه.(۱)

تصاول البطلين

وهنـا بـدأ تصاولٌ شديـدٌ بين البطلين، وارتفعت بينهما عجاجه حجبت الرؤيه، وإنّما كان الناس يسـمعون فقط صوت إصـطكاك السـيوف والدروع الحديديه وغيرها، وبعد فتره من التصاول بين ذينك البطلين العملاقين ضـرب «عمرو» «أميرالمؤمنين علياً» عليه السلام بالسيف على رأسه، فاتّقاه على عليه السلام بالدرقه فقطعها، وشجّت الضربه رأسه ففاجأه علىٌّ عليه السلام بضربه قويه على ساقيه فقطعهما، جميعاً، ثم انكشـفت العجاجه فنظر المسـلمون فإذا علىٌّ عليه السـلام على صـدر عدوّ اللّه يريد أن يذبحه. وارتفع صوت على بالتكبير من بين العجاجه يعلن عن انتصاره، ومقتل عمرو.

فـألقى هلاـك فـارس العرب الأكبر «عمرو بن عبـد ود» رعباً عجيباً فى نفوس بقيه الأبطال والشـجعان الـذين عبروا معه الخنـدق، فهربوا راجعين إلى معسكرهم،

۱- . بحار الأنوار: ۲۲۷/۲۰. ولاحظ: المغازى: ۴۷۰/۲-۴۷۱.

إلّا «نوفل» الّذی سقط فرسه فی الخندق، وهوی هو إلی الأرض بشده، فرماه حرس الخندق بالحجاره فقال: قتلهً أجمل من هذه، ینزلُ إلیّ بعضکم أقاتله، فنزل إلیه علیٌّ علیه السلام فضربه حتّی قتله فی الخندق(۱).

فهیمن الخوفُ والرعب علی کلّ أرجاء المعسکر العربی المشرک، وبهت أبوسفیان أکثر من غیره.

ثم إنّه کان یتصوّر أنّ المسلمین سیمثّلون بجسد «نوفل» انتقاماً لحمزه الذی مُثِّل به فی أُحد، فبعث إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مَن یشتری جثته بعشره آلاف فقال النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم:

«هو لکم، لا نأکلُ ثمن الموتی»(۲).

قیمه هذه الضربه

لقد قتل علیٌّ علیه السلام – حسب الظاهر – رجلاً شجاعاً لا أکثر، بید أنّه بضربته لعمرو وبقتله إیّاه أحیا – فی الحقیقه – کلّ مَن أرعبته نداءات عمرو المهدّده، من المسلمین، وألقی رعباً کبیراً فی نفوس جیش قوامه (۱۰/۰۰۰) رجل تعاهدوا وتعاقدوا علی محو الإسلام واستئصال الحکومه الإسلامیه الفتیه. ولو أنّ الانتصار کان یحالف عمراً لعرفنا حینئذ قیمه هذه التضحیه الکبری الّتی قام بها علیٌّ علیه السلام.

وعندما عاد علیٌّ علیه السلام ظافراً منتصراً قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«ضربهُ علیّ یومَ الخندق أفضلُ مِن أعمال أُمّتی إلی یوم القیامه».(۳) وفی

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۲۰۵/۲۰؛ تاریخ الطبری: ۲۴۰/۲.

۲- . بحار الأنوار: ۲۰۵/۲۰؛ البدایه والنهایه: ۱۲۲/۴.

۳- . ینابیع المودّه: ۴۱۲/۱.

روایه أخری قال صلی الله علیه و آله و سلم: «لمبارزه علی بن أبی طالب لعمرو بن عبد ود یوم الخندق أفضل من أعمال أمّتی إلی یوم القیامه».(۱)

وقیل أنّه قال:

«لو وُزنَ الیومَ عملُک بعمل جمیع أُمّه محمّد لرجح عملک علی عملهم، وذاک إنّه لم یبق بیت مِن المشرکین إلّاوقد دخله ذلٌ بقتل عمرو، ولم یبق بیتٌ من المسلمین إلّاوقد دخله عزّ بقتل عمرو»(۲).

وبذلک کشف عن أهمیه الضربه الّتی أوقعها علی علیه السلام بعمرو فی تلک الواقعه.

لماذا التنکّر لهذا الموقف؟

ویحقّ لنا هنا أن نستغرب تنکّر بعض المؤرّخین أو تجاهلهم لهذا الموقف العظیم الّذی أدی إلی هزیمه المشرکین، والأحزاب فی معرکه الخندق هزیمه نکراء، کلّ واحد بشکل من الأشکال وصوره من الصور: فهذا ابن هشام رغم إسهابه فی بعض الأُمور التاریخیه ممّا لا قیمه له بعد أن یذکر مقتل «عمرو» علی ید بطل الإسلام الخالد علیّ علیه السلام من دون أن یذکر ما قاله النبی صلی الله علیه و آله و سلم عند مطالبه عمرو بالمُنازل والمبارز، ذکر أبیاتاً قالها علیّ علیه السلام فی المقام ثم یشکّک فی نسبتها إلیه علیه السلام(۳).

وهکذا ابن الأثیر رغم اهتمامه بالدقائق التاریخیه ووصفه لکتابه بالکامل، نجده یحاول التقلیل من أهمیه هذا الموقف بصوره أُخری، وهو أن علیّاً خرج

۱- . مستدرک الحاکم: ۳۲/۳.

۲- . کنز الفوائد: ۱۳۷؛ شواهد التنزیل: ۱۲/۲؛ ینابیع الموده: ۲۸۴/۱ برقم ۷؛ بحار الأنوار: ۲۱۶/۲۰.

۳- . السیره النبویه لابن هشام: ۷۰۹/۳.

ضمن مجموعه لمقاتله عمرو وليس وحده.

ولكنّ المعلّقين على الطبعه المنيريه للكامل والّتى أشرف عليها فضيله الأُستاذ عبدالوهاب النجّار لم يرق لهم هذا الصنيع، وأبت عليهم ضمائرهم الحرّه أن يتركوا الروايه على حالها فقالوا فى الهامش: وروى السهيلى عن ابن إسحاق أنّ عمراً دعا المسلمين للمبارزه، وعرض رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الأمر ثلاث مرّات، ولا يقوم إلّاعليٌّكرم اللّه وجهه، وفى الثالثه قال له: إنّه عمرو قال: وإن كان عمراً، فنزل إليه وقتله وكبّر فكبّر المسلمون فرحاً بقتله(۱).

وهذا ابن تيميه يحاول التنقيص من هذه الفضيله ولكن بالضرب على وتر آخر حيث قال: إنّ قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى شأن علىّ عليه السلام لما قتل عمراً: «قتل على لعمرو بن عبد ود أفضل من عباده الثقلين» من الأحاديث الموضوعه الّتى لم ترد فى شىء من الكتب الّتى يعتمد عليها بسند ضعيف، وكيف يكون قتل كافر أفضل من عباده الثقلين... ثم قال: بل إنّ عمرو بن عبد ود لم يعرف له ذكرٌ إلّافى هذه الغزوه.

فهو يحاول التقليل من شأن عمرو، والإيحاء بأنّه لم يكن شيئاً، فلا يكون لقتله أهميه.

ولكن صاحب السيره الحلبيه الّذى ينقل كلّ هذه العبارات عن ابن تيميه يردّ عليه قائلاً: ويرد قوله: «إنّ عمرو بن عبد ود هذا لم يعرف له ذكرٌ إلّافى هذه الغزوه» قول الأصل: وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتّى أثبتته الجراحه فلم يشهد يوم أُحُد فلمّا كان يوم الخندق خرج مُعلِماً، أى جعل له علامه يعرف بها ليرى مكانه.

۱- . الكامل فى التاريخ: ۱۲۴/۲، الطبعه المنيريه، إشراف الأُستاذ عبد الوهاب النجّار.

ویرده أیضاً ما تقدّم من أنّه نذر أن لا یُمسَّ رأسه دهناً حتّی یقتل محمّداً صلی الله علیه و آله و سلم.

واستدلاله بقوله: وکیف یکون إلی آخره، فیه نظر؛ لأنّ قتل هذا کان فیه نصره للدین وخذلان الکافرین(۱).

وما قاله صاحب السیره الحلبیه عن مشارکه عمرو فی معرکه بدر یوافق ما جاء فی الکامل لابن الأثیر الجزء ۲ الصفحه ۱۲۴ ویوافق أیضاً ما جاء فی السیره النبوّیه الجزء ۳ الصفحه ۷۰۹.

مروءه علیّ علیه السلام وشهامته

ولقد أحجم علیّ علیه السلام عن سلب «عمرو بن عبد ود» درعه، وکان درعاً غالیه الثمن لیس للعرب، درعٌ خیرٌ منها، وقد فعل ذلک مروءه، وترفّعاً، فاعترض علیه بعضٌ، حتّی أنّ عمر بن الخطاب قال له: هلا سلبته درعه فإنّه لیس فی العرب درع خیر منها(۲). ولما عرفت أُختُ عمرو بمقتله سألت عمّن قتله؟ فأخبروها بأنّ علیاً علیه السلام هو الّذی قتله، فقالت لم یَعْدُ موته إلّاعلی ید کفؤ کریم، لارقأت دمعتی إن هرقتها علیه، قتلَ الأبطال، وبارز الأقران، وکانت منیتُه علی ید کفؤ کریم من قومه ما سمعت بأفخر من هذا یا بنی عامر.

ثم أنشأت تقول:

لو کانَ قاتِلُ عمرو غیر قاتِلِه بکیته ما أقام الروح فی جسدی

۱- . السیره الحلبیه: ۶۴۳/۲. ولاحظ أیضاً رد الأمین علی ابن تیمیه فی أعیان الشیعه: ۲۶۴/۱.

۲- . السیره الحلبیه: ۶۴۳/۲.

لكنَّ قاتله مَن لا يُعابُ بِه وكانَ يُدعى قديماً بيضه البلد(۱)

وقد ذكر على عليه السلام صنيعه هذا فى أبيات أنشأها يوم الخندق إذ قال:

أَعَلىَّ تقتحمُ الفوارسُ هكذا؟ عَنّى وَ عنها خبّروا أصحابى

أَردَيْتُ عمراً إذ طغى بمهنَّدٍ صافى الحديد مجرَّب قضاب

فصددتُ حين تركتُه متجدّلاً كالجذع بين دكادك وروابى

وعففتُ عن أثوابه وَ لَو أنَّنى كنتُ المقطَّر بَزّنى أثوابى(۲)

والآن حان أن نرى إلى أىّ مصير آل أمر معسكر المشركين بعد مقتل فارس العرب وشجاعها البارز.

جيش العرب يتفرّق فى موقفه

لم يكن دافع جيش العرب ومَن عاوَنهم ومالأهم من اليهود إلى محاربه الإسلام واحداً، فاليهود كانوا يخشون من اتّساع رقعه الحكومه الإسلاميه الفتيّه، المتزايد، وأمّا دافع قريش فكان هو العداء القديم للإسلام والمسلمين. وأمّا قبائل «غطفان» و «فزاره» وغيرها من القبائل فلم يحرّكها إلّاالطمع فى محاصيل «خيبر» الّتى وعدهم بها اليهود.

فعلى هذا الأساس لم يكن محرّك «الأحزاب» المشاركه فى جيش الشرك أمراً واحداً، فقد كان محرّك الطوائف الأخيره أمراً مادياً، ولو أنّ هذا الهدف تحقّق عن طريق المسلمين لعادت هذه القبائل إلى أوطانها مسروره راضيه، وخاصّه أنّ البرد، وقلّه الطعام، والعلف، طوال مدّه المحاصره قد أوجدت فى نفوسهم كللاً

۱- . مستدرك الحاكم: ۳۳/۳.

۲- . بحار الأنوار: ۲۵۷/۲۰؛ المستدرك على الصحيحين: ۳۲/۳ باختلاف يسير.

وملالًا، من جهه، وعرَّضت أنعامهم لخطر الهلاك والفناء من ناحيه أَخرى.

من هنا كلّف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جماعه بأن يتّصلوا بهذه القبائل (الأخيره) ويذكروا لهم بأنَّ المسلمين مستعدّون لإعطائهم ثلث تمر المدينه إن هم تركوا قريشاً وعادوا إلى ديارهم، فأعدّوا عهداً وجاءُوا به إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليمضيه، ولكنّه شاور فيه سعد بن معاذ، وسعد بن عباده قبل أن يمضيه، فقالا له: يا رسول اللّه، أمراً تحبّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك اللّه به، لابدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: «بل شيء أصنعه لكم، واللّه ما أصنع ذلك إلّالأنّني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحده، وكالبوكم من كلّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما» فقال له سعد بن معاذ: يا رسول اللّه قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللّه وعباده الأوثان، لا نعبد اللّه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمره إلّاقرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا اللّه بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟! واللّه ما لنا بهذا من حاجه، واللّه لا نعطيهم إلّاالسيف حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم، قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: فأنت وذاك.

فتناول سعد بن معاذ الصحيفه، فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا.(۱)

وبهذا كشف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن صفحه أُخرى من سياسته الحكيمه، فقد كان إقدامه على ثنى القبائل المتحالفه مع قريش فى جيش الأحزاب بإعطاء بعض التنازلات الماديه (لا المعنويه) وتحييدها خطوه سياسيه وعسكريه صحيحه، ورائعه، وكانت مشورته مع أصحابه من الأنصار (خاصّه) عملًا حكيماً أيضاً؛ لأنّه استثار بذلك هممهم، وشدّ على عزائمهم، فوعدوا بالصمود والمقاومه فى ذلك

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۰۷/۳-۷۰۸.

الظرف العصيب وعدم تقديم أيّه تنازلات، ولهذا انصرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عمّا أراد أوّلاً، فكان مجموع هذه الخطوات عملاً حكيماً جداً، يكشف عن حنكه سياسيه عظيمه، ودرايه عسكريه عميقه.

العوامل الّتى فرّقت كلمه «الأحزاب»

هناك عوامل عديده تسبّبت فى تفرّق الجيش العربى الّذى زحف إلى المدينه لاجتياحها، وانقسام الأحزاب على أنفسهم، وإليك أبرزها:

١. إنّ أوّل عامل من تلك العوامل هو تكلّم مبعوثى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مع ساده غطفان وفزاره، لأنّ هذه المعاهده وإن لم توقّع إلّاأنّها لم تُنقضْ، فتسبَّب ذلك فى أن يختلفوا مع قريش فى الرأى، أى اجتياح المدينه وبأى شكل من الأشكال وأن لا يقدموا على أى إجراء عسكرىّ مع غيرهم انتظاراً للتوقيع على تلك المعاهده، ولهذا كلّما طلبت القياده القرشيه منهم الهجوم الشامل اعتذروا ببعض الأعذار تملّصاً من ذلك الطلب.

٢. مصرع «عمرو بن عبد ود» فارس العرب الأكبر الّذى كان الأغلبيه فى ذلك الجيش يعلّقون عليه آمالهم فى الانتصار على المسلمين. فلمّا قتل تملّك الجميع رعبٌ غريبٌ وانهارت آمالهم، وبخاصّه عندما هرب زملاؤه الشجعان من وجه علىّ عليه السلام خوفاً، ورهبه.

٣. ما لعبه «نُعيم بن مسعود» الّذى أسلم حديثاً، من دور فى إلقاء روح الشك والفرقه بين يهود بنى قريظه وجيش «الأحزاب»، فقد قام بهذا الدور بشكل رائع، تماماً كما يفعله الجواسيس المنظّمون فى عصرنا الحاضر، بل كان ما فعله أفضل وأكبر تأثيراً وعطاء.

فقد أتى «نُعيم» هذا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقال: يا رسول اللّه؛ إنّى قد أسلمتُ، وإنّ قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم «إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذّل عنّا إن استطعت (أى أُدخُل بين القوم حتّى يخذّل بعضهم بعضاً)، فإنّ الحرب خدعه».

فخرج نعيم بن مسعود حتّى أتى بنى قريظه، وكان لهم نديماً فى الجاهليّه، فقال: يا بنى قريظه قد عرفتم وُدّى، وخاصّه ما بينى وبينكم.

قالوا: صدقتَ، لست عندنا بمتَّهم.

فقال لهم: إنّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البَلدُ بلدُكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإنّ قريشاً وغطفان قد جاءُوا لحرب محمَّد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهزَه أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلُّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقه لكم به، إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتّى تأخذوا منهم رهناً من أشرافِهم يكونون بأيديكم ثقه لكم، على أن تقاتلوا معهم محمَّداً حتّى تناجزوه.

فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

ثم خرج حتّى أتى قريشاً، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّى لكم، وفراقى محمّداً، وإنّه قد بلغنى أمرٌ قد رأيت علىَّ حقّاً أن أبلّغكموه، نصحاً لكم فاكتموا عنى. فقالوا: نفعل.

قال: تعلموا أنَّ معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمَّد، وقد أرسلوا إليه إنّا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك

على مَن بقى منهم حتّى نستأصلَهم؟ فأرسلَ إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهودُ يلتمسون منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحداً.

ثم خرج حتّى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، إنّكم أصلى وعشيرتى، وأحبُّ الناس إلىّ، ولا أراكم تتّهمونى، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتّهم، قال فاكتموا عنّى، قالوا: نفعل فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ما حذّرهم.(۱)

وهكذا أدّى «نعيم» وظيفته بأحسن صوره ثم دخل سرّاً فى جيش المسلمين، وأشاع بين المسلمين أنَّ بنى قريظه تنوى أخذ رجال من المشركين لتسليمهم إلى النبىّ والمسلمين.

وقد كان يقصدُ من إشاعه هذا النبأ أن يبلغ مسامع رؤساء العرب وقادتهم.

مبعوثو قريش يمشون إلى بنى قريظه

ولمّا كانت ليله السبت قرّر أبوسفيان أن يحسم الموقف بأىّ شكل من الأشكال، فأرسل إلى بنى قريظه جماعه من ساده قريش وغطفان فقالوا لهم: إنّا لسنا بدار مقام قد هلك الخفُ والحافر، فاغدوا للقتال حتّى نناجز محمَّداً، ونفرغ ممّا بيننا وبينه.

فأرسلوا (بنو قريظه) إليهم: إنّ اليوم يوم السبت، وهو يومٌ لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضُنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمَّداً حتّى تعطونا رُهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقه لنا حتّى نناجز محمَّداً، فإنّنا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتدّ عليكم القتالُ أن تتشمّروا

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۱۲/۳-۷۱۳.

إلى بلادكم وتتركونا، والرجل فى بلدنا ولا طاقه لنا بذلك منه.

فلمّا رجعت إليهم الرسلُ بما قالت بنو قريظه قالت قريش وغطفان: واللّه إن الَّذى حدَّثكم نعيم بن مسعود لحقّ.

فأرسلوا إلى بنى قريظه من يقول لهم: إنّا واللّه لا ندفع إليكم رجلًا واحداً، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظه - حين انتهت الرسُلُ إليهم بهذا -: إنّ الّذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ، ما يريد القوم إلّاأن يقاتلوا، فإن رأوا فرصه انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلّوا بيننا وبين الرجل فى بلدكم(۱).

وهكذا انسحبت بنو قريظه من الأحزاب وأوقع اللّه التخاذل بينهم وتفرّقوا، وتمزق شملهم، وكان ذلك من عوامل فشل الأحزاب، وتقهقرهم ورجوعهم خائبين.

آخر العوامل لهزيمه الكفّار

لقد انضمت العوامل المذكوره إلى عامل مهم آخر يمكن تسميته - فى الحقيقه - بالإمداد الغيبىّ أدّت إلى هزيمه الكفّار وتفرّق جماعه الأحزاب، وتشتّت جماعتهم، وذلك العامل هو أنّ اللّه بعث عليهم فجأه الريح والعاصفه، واشتد البرد، وكان اشتداد الريح كبيراً بحيث أكفأ قدورَهُم، واقتلع خيامهم ومضاربهم، وأطفأ أضواءهم، وأوجد حريقاً فى الصحراء.

وهنا أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حذيفه أن يعبر الخندق، ويأتيه بخبر عن أحوال المشركين ومن مالأهم من الأحزاب.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۱۳/۳؛ تاريخ الطبرى: ۲۴۲/۲-۲۴۳.

يقول حذيفه: فذهبتُ فدخلتُ فى القوم والريح وجنود اللّه تفعل بهم، ما تفعل، لا تقرُّ لهم قدراً، ولا ناراً ولا بناءً،... ثمّ قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنّكم واللّه ما أصبَحتم بدار مقام، لقد هلك الكُراعُ والخفُّ، وأخلفَتنا بنوقريظه، وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من شدّه الريح ما ترون، ما تطمئنُّ لنا قدر، ولا تقوم لنا نارٌ، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنّى مرتحل.

ثم قام إلى جمله - وهو معقول - فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فواللّه ما أطلق عقاله إلّاوهو قائم... وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.(۱)

ولم يسفر الصبح إلّاوأسرعت قريشٌ وغطفانٌ عائدين إلى بلادهم يجرّون أذيال الخيبه، ولم يبق منهم أحدٌ هناك.

وهكذا انتهت معركه الأحزاب فى الرابع والعشرين من شهر ذى القعده من السنه الخامسه للهجره.

القرآن الكريم و معركه الأحزاب

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أبرز النقاط فى معركه الأحزاب (الخندق) ضمن سبع عشره آيه وها نحن ندرجها برمّتها ونشير باختصار إلى ما تضمّنته من حقائق، قال تعالى:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَهَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۱۴/۳-۷۱۵؛ تاريخ الطبرى: ۲۴۴/۲.

هُنالِکَ ابْتُلِیَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِیداً * وَ إِذْ یَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً * وَ إِذْ قالَتْ طائِفَهٌ مِنْهُمْ یا أَهْلَ یَثْرِبَ لا مُقامَ لَکُمْ فَارْجِعُوا وَ یَسْتَأْذِنُ فَرِیقٌ مِنْهُمُ النَّبِیَّ یَقُولُونَ إِنَّ بُیُوتَنا عَوْرَهٌ وَ ما هِیَ بِعَوْرَهٍ إِنْ یُرِیدُونَ إِلاّ فِراراً * وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَیْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَهَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلاّ یَسِیراً * وَ لَقَدْ کانُوا عاهَدُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ لا یُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ کانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْؤُلاً * قُلْ لَنْ یَنْفَعَکُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاّ قَلِیلاً * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِی یَعْصِمُکُمْ مِنَ اللّهِ إِنْ أَرادَ بِکُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِکُمْ رَحْمَهً وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً * قَدْ یَعْلَمُ اللّهُ الْمُعَوِّقِینَ مِنْکُمْ وَ الْقائِلِینَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَینا وَ لا یَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاّ قَلِیلاً * أَشِحَّهً عَلَیْکُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَیْتَهُمْ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ تَدُورُ أَعْیُنُهُمْ کَالَّذِی یُغْشی عَلَیْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوکُمْ بِأَلْسِنَهٍ حِدادٍ أَشِحَّهً عَلَی الْخَیْرِ أُولئِکَ لَمْ یُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللّهُ أَعْمالَهُمْ وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللّهِ یَسِیراً * یَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ یَذْهَبُوا وَ إِنْ یَأْتِ الْأَحْزابُ یَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِی الْأَعْرابِ یَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِکُمْ وَ لَوْ کانُوا فِیکُمْ ما قاتَلُوا إِلاّ قَلِیلاً * لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللّهِ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ لِمَنْ کانَ یَرْجُوا اللّهَ وَ الْیَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَکَرَ اللّهَ کَثِیراً * وَ لَمّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلاّ إِیماناً وَ تَسْلِیماً * مِنَ الْمُؤْمِنِینَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَیْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضی نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِیلاً * لِیَجْزِیَ اللّهُ الصّادِقِینَ بِصِدْقِهِمْ وَ یُعَذِّبَ الْمُنافِقِینَ إِنْ شاءَ أَوْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللّهَ کانَ غَفُوراً رَحِیماً * وَ رَدَّ اللّهُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِغَیْظِهِمْ لَمْ یَنالُوا خَیْراً وَ کَفَی اللّهُ الْمُؤْمِنِینَ الْقِتالَ وَ کانَ اللّهُ قَوِیًّا عَزِیزاً» .(۱)

۱- . الأحزاب: ۹-۲۵.

ویمکن تقسیم هذه الآیات إلی ثلاثه أقسام:

القسم الأوّل: وهی الآیات الّتی ترسم الوضع العام للمسلمین عندما أتتهم عساکر الأحزاب.

القسم الثانی: وهی الآیات الّتی تتعرّض لذکر موقف المنافقین وضعّاف الإیمان.

القسم الثالث: وهی الآیات الّتی تتعرّض لذکر موقف المؤمنین الصادقین.

وإلیک بیاناً لمفاد هذه الآیات علی وجه الاختصار.

۱. تبدأ هذه المجموعه من الآیات بتذکیر المؤمنین - فی الآیه الأُولی - بنعمه اللّه علیهم أن ردّ عنهم الجیش الّذی قصد استئصالهم لولا عنایه اللّه ومدده العظیم، وفی هذا إشعار قوی بأنّ اللّه هو الّذی یحمی القائمین علی دعوته ومنهجه من عدوان الکافرین والمتآمرین.

۲. ثم تشرح الآیه الثانیه الحاله العسکریه الخطیره الّتی کان یواجهها المسلمون، فهم محاصرون من قبل الأعداء والمتواطئین معهم من کلّ جهه محاصره ألقت الرعب فی قلوب الکثیرین من أهل المدینه فزاغت الأبصار هولاً، وبلغت القلوب الحناجر خوفاً، وظنّ البعض أنّ ما أعطاهم اللّه ورسوله من الوعد بالتأیید والنصره لم یکن صحیحاً.

۳. ثم تحدّثت الآیه الثالثه عن الابتلاء والاختبار الّذی أفرزه هذا الوضع الخطیر، فقد ابتلی المسلمون فی هذه الواقعه، وتملّکهم خوفٌ شدیدٌ.

۴. ولکنّ المنافقین، والذین فی قلوبهم مرض کانوا أشدّ هولاً ـ وخوفاً حتّی أنّ ذلک الکرب والهول أخرج خبیئه نفوسهم، فشکّکوا فی وعود اللّه الصادقه، وقالوا: ما وعدنا اللّه إلّاغروراً، فهو خدعنا إذ وعدنا بالغلبه علی أعدائنا.

۵. ولم يكتف المنافقون بإشاعه هذه التشكيكات بين المسلمين بل دعوا أهل المدينه إلى الانسحاب من الميدان إلى داخل المدينه، وبالتالى حرّضوهم على ترك الصفوف. واحتجّوا لذلك بالخوف على النساء والصبيان من كيد الأعداء قائلين: «بُيُوتَنا عَوْرَةٌ» وهم لا يريدون إلّاالفرار جبناً وخوفاً.

۶. ثم تكشف الآيتان السادسه والسابعه عن حقيقه ما فى نفوس أُولئك المنافقين، فهم لا يريدون الانسحاب إلى داخل المدينه للمحافظه على الذرارى والصبيان، إنّما هو نقض العهد، وخلف الوعد، وفقدان الإيمان القلبى، فهم إذا دخل عليهم العدوّ المدينه وطلبوا منهم الرجوع عن الإسلام لرجعوا إلى الكفر دون تأخير. ولكن اللّه سيسألهم عن العهد الّذى أعطوه من قبل بأن يثبتوا أمام العدو، «وَ كانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْؤُلاً» .

۷. ثم إنّ اللّه تعالى يوبّخهم - فى الآيات اللاحقه - على موقفهم المتخاذل هذا، ويقول لهم: بأنّ الفرار والانسحاب لن ينجيهم من الموت إن كان مقدّراً عليهم، وحتّى لو عاشوا أيّاماً فلن يعيشوها فى خير وأمان.

كما ويقول لهم: بأنّ اللّه لا يخفى عليه ما يقومون به من تخذيل وعرقله لمسيره الإسلام الصاعده، ولا تخفى عليه سبحانه مواقفهم فى أوقات المحنه، من كف الأيدى عن مساعده المؤمنين، أو سلقهم بألسنتهم وتحميلهم عوامل المحنه والشدّه، حتّى بعد الانتصار.

وهنا يبدو و يبرز دور المنافقين، وتظهر حالاتهم العجيبه فى الحرب والسلم.

فهم يخافون خوفاً شديداً، وهم يظنّون باللّه ظنّ السوء، وهم يشيعون الخوف وروح الهزيمه فى الناس، وهم ينسحبون ويدعون إلى الانسحاب من الصفوف وهم مستعدون فى كلّ وقت للارتداد والرجوع عن الإسلام إلى الكفر،

وهم بالتالی أشحّه بخلاء، فی نفوسهم کزازه علی المسلمین، کزازه بالجهد، وکزازه بالمال، وکزازه بالعواطف والمشاعر علی السواء.

۸. إنّهم لکونهم لم تخالط قلوبهم بشاشه الإیمان ولم یهتدوا بنوره یفقدون الشجاعه والقوه حتّی بعد ذهاب عوامل الخوف والهول.

فهم ما یزالون یرتعشون، ویتخاذلون، ویأبون أن یصدقوا أنّ الأحزاب قد ذهبت وولّت مهزومه. ویودّون لو أنّ الأحزاب دخلت المدینه أن لا یکونوا فیها مبالغه فی النجاه من الأهوال!!

۹. ولکن فی مقابله هذا الفریق المتخاذل الجبان یرسم القرآن الکریم فی الآیات ۲۱ إلی ۲۵ صوره المؤمنین الصادقین وفی مقدّمتهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم القدوه الحسنه لجمیع المسلمین فی جمیع الحالات والظروف.

فإنّ هذه الجماعه المؤمنه الصادقه لمّا رأت الأحزاب قالت: هذا ما وعدنا اللّه ورسوله، هذا الهول لابدّ أن یجیء فیه النصر فهو وعد اللّه الصادق المحقّق.

فصمدوا وصدقوا ما عاهدوا اللّه علیه، فجزاهم اللّه بصدقهم «وَ رَدَّ اللّهُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِغَیْظِهِمْ لَمْ یَنالُوا خَیْراً وَ کَفَی اللّهُ الْمُؤْمِنِینَ الْقِتالَ وَ کانَ اللّهُ قَوِیًّا عَزِیزاً» خلافاً لما ظنّه المنافقون، وتوهموه.

وقد کانت هذه الواقعه فی منظور القرآن الکریم امتحاناً عظیماً، واختباراً دقیقاً للنفوس والقلوب وهو امتحان لابدّ منه حتّی یتمیّز الصادق عن المنافق، والموفون بعهدهم والناقضون له.

کما أنّ هذه الواقعه و ما جاء حولها من الآیات کشفت عن أنّ وعود اللّه صادقه ومحقّقه إذا توفّرت شرائطها، ومقدّماتها، ومنها استخدام الوسائل الطبیعیه المناسبه، والاتّکال علی اللّه واستمداد العون منه.

وفی هذه الآیات إشاره إلی دور ما یُسمّی الآن بالطابور الخامس وإلی خطوره الشائعات السیّئه فی المجتمع، وبخاصّه فی ظروف الحرب.

کما أنّ فیها إشاره إلی کیفیه مواجهه هذه الشائعات والتعامل مع فعّالیات هذا الفریق الخطر.

ولقد لاحظنا خلال ما مضی من السیره کیف أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کان یبطل بتکتیکاته العسکریه مفعول تلک النشاطات التخریبیه والمضرّه.

فقد کان یعتمد أُسلوب الدعاء، والذکر، والتشجیع، والتکبیر، وإرسال الدوریات العسکریه، والعمل المباشر، والمشارکه الفعلیه فی عملیات الدفاع والحراسه، وما شاکل ذلک ممّا ذکرناه، وممّا لم تسع هذه الدراسه لذکره.

حوادث السنه الخامسه من الهجره

۳۹ سقوط آخر أَوكار الفساد والمؤامره

اشاره

أقدم رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى السنه الأُولى من هجرته إلى المدينه، على تنظيم وعقد ميثاق تعايش بين سكان المدينه وما حولها، بغيه إنهاء جميع أشكال الاختلاف، والتنازع، والصراع الداخلىّ.

وقد تعهَّد الأوسيّون والخزرجيُّون عامّه، واليهود من تينك القبيلتين أن يدافعوا عن المدينه وما حولها، وقد مرّ النصُّ الكامل لهذا الميثاق على القارئ الكريم فيما سبق(۱).

هذا من ناحيه.

ومن ناحيه أُخرى عقد رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بينه وبين يهود المدينه ميثاقاً آخر ينصُّ على أنّ مختلف الطوائف اليهوديه تتعهّد بأن لا تلحق أىَّ ضرر وأذى برسول اللّه وأصحابه، ولا تمدَّ أعداءهم بالخيل والسلاح، وأنّها لو فعلت شيئاً من ذلك يكون لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الحقُّ فى أن يقتلهم، ويسبى نساءهم وأبناءهم.

۱- . راجع صفحه ۲۷ من هذا الجزء.

إلّا أنَّ جميع الطوائف اليهوديه الثلاث نقضت الميثاق المذكور بشتّى العناوين والصور، وتجاهلت بنوده، وموادّه!

فقد قتل «بنو قينقاع» مُسلماً، وخطّطت «بنوالنضير» لاغتيال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ، وأجبرهم على الجلاء من المدينه وأخرجهم من البيئه الإسلاميه.

وتعاونت «بنو قريظه» مع جيش المشركين لضرب المسلمين، وطعنهم من الخلف، والآن يجب أن نرى كيف يوبّخ رسولُ اللّه بنى قريظه على نقضهم للميثاق .

قوات الإسلام تحاصر بنى قريظه

لم يكن الصبح قد أسفر بعد عندما غادرت آخر مجموعه من جنود «الأحزاب» أرض المدينه قافله إلى بلادها مرعوبه فزعه للغايه.

كما أنّ آثار التعب والإرهاق لم تكن قد فارقت بعد ملامح المسلمين، ومع ذلك فقد أمر اللّه نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بأن يعالج قضيّه «بنى قريظه» بصوره نهائيه، فَأذَّن مؤذّن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وصلّى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بالمسلمين صلاه الظهر، ثم نادى منادى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى الناس:

مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّينّ العصر إلّاببنى قريظه!

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قدّم «علىّ بن أبى طالب» برايته، وخرج معه جنودُ الإسلام الشجعان، فحاصروا حصون «بنى قريظه»، فأخبرهم ديرانيهم بنشاط المسلمين، فبادروا إلى إغلاق أبواب الحصون، والتحصّن فى داخلها، ونشبت الحرب بين بنى قريظه والمسلمين من اللحظات الأُولى، فقد أخذ اليهود يشتمون رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقالوا فيه مقاله قبيحه، فرجع على عليه السلام بالمسلمين فالتقى رسول

اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى الطريق وقد كره أن يسمع النبى صلى الله عليه و آله و سلم أذاهم وشتمهم، وحاول أن يثنى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من الاقتراب إلى حصن بنى قريظه قائلاً: لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث.

فلمّا عرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سبب ذلك قال: لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئاً، فلمّا دنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من حصونهم قال لهم:

«يا إخوان القرده هل أخزاكم اللّهُ وأنزل بكم نقمته»؟

وقد كانت ردهُ فعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الشديده غير متوقعه لليهود، ومن هنا قالوا: يا أبا القاسم ما كنتَ جهولاً... وهم يريدون بذلك إطفاء مشاعره الملتهبه ضدّهم(۱).

فأثارت كلمتهم هذه عاطفه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بحيث رجع من غير اختيار، وسقط رداؤه من كتفه.

اليهودُ يتشاورون حول الموقف

تشاور يهود بنى قريظه وهم معتصمون بحصونهم فى الموقف، وقد شارك فيه «حُيى بن أخطب» مثير معركه الأحزاب، فإنّه لم يذهب إلى خيبر بعد أن وضعت الحرب - فى معركه الأحزاب - أوزارها وولّى العرب المشركون، بل دخل فى حصون بنى قريظه.

هذا وقد طرح زعيمُ بنى قريظه ثلاثه اقتراحات وطلب من الجميع أن يتّفقوا على واحده منها لمعالجه الموقف:

۱. أن يؤمنوا برسول اللّه، ويصدّقونه لأنّه قد تبيّن لهم أنّه نبى مرسل، وأنّه

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۱۶/۳؛ تاريخ الطبرى: ۲۴۵/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۷۶/۸.

الّذی یجدونه فی کتابهم، وبذلک یأمنون علی دمائهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم.

۲. أن یقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم یخرجوا إلی محمَّد وأصحابه یقاتلونهم، فإذا هلکوا، هلکوا ولم یترکوا وراءهم نسلاً یُخشی علیه، وإن انتصروا تزوّجوا من جدید، ووجدوا أبناء.

۳. أنّ اللیله هی لیله السبت، وأنّه عسی أن یکون محمَّد وأصحابه قد امنوهم فیها، لعلمهم بأنّ الیهود لا یقاتلون فی السبت، فلینزلوا من الحصون لعلّهم یصیبون من محمَّد وأصحابه علی حین غفله.

ولکنّ المشاورین رفضوا جمیع هذه الطروحات وقالوا: لا نفارق حکم التوراه أبداً، ولا نستبدل به غیره، وقالوا: إن نقتل أبناءنا ونساءنا فما خیر العیش بعدهم، وقالوا: لا نقاتلُ لیله السبت، محمَّداً وأصحابه نفسد سبتنا علینا، ونحدث فیه ما لم یُحدث من کان قبلنا إلّامن قد علمت، فأصابه ما لم یخف علیک من المسخ(۱).

إنّ هذا الحوار یساعدنا علی فهم نفسیه تلک الجماعه (نعنی الیهود)، وخصالهم وأخلاقهم الفاسده.

فإنّ رفض الاقتراح یکشف عن أنّهم کانوا جماعه معانده، لجوجه، لأنّهم إذا کانوا حقّاً یعرفون صدق نبوّه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم - کما قال زعیمهم - لم یکن لوقوفهم سبب إلّاالعناد والعتوّ، واللجاج.

وأما الاقتراح الثانی وما دار حوله من کلام فیشهد - بجلاء - علی أن تلک الطائفه کانت جماعه قاسیه، لا تعرف للرحمه والحنان معنی، لأنّ قتل الأطفال والنساء الأبریاء لا یمکن من دون قسوه شدیده.

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۷۱۷/۳.

هـذا مضافاً إلى أنّ المشاورين آنذاك رفضوا هذا المقترح لا بدافع الرحمه والشـفقه على الأطفال والنساء، بل لأنّ الحياه لا تعود لذيذه بعد فقدهم، هذا هو ما قالوه.

وأمّا الاقتراح الثالث فيكشف عن أنّهم لم يكونوا يعرفون جيداً مدى علم رسول الإسـلام صـلى الله عليه و آله و سلم بفنون القتال والـدفاع، وكانوا يتصوّرون أنّ القائـد الأعلى للإسـلام لا يراعى قواعـد الحـذر والاحتياط ليله السـبت ويومه، وخاصّه فى مواجهه أعداء خونه، أخوان غدر و مكر، أمثال اليهود الناقضين للعهود، الناكثين للمواثيق.

إنّ دراسه وتقييم معركه «الأحزاب» تثبت نـدره وجود الأذكياء والفطنين بين هذه الجماعه، وإلّا لكانوا يتمكّنون من حفظ كيانهم حتّى من الناحيه السياسيه فى تلك الظروف من دون أن ينحازوا إلى أىّ واحد من طرفى الصراع (الإسلام والشرك).

أى أنّه كان من الممكن أن يتّخـذوا جانب الحياد الكامل، ويبقوا متفرّجين لما يـدور بين محمَّد، وجيش المشـركين، وبهذا يبقوا محافظين على كيانهم ووجودهم، انتصر من انتصر وغلب من غلب.

ولكنّهم خُـدعوا بتسويلاـت «حيى بن أخطب» ووسوسـاته وانحـازوا إلى جيش العرب المشـركين فتورّطوا فى مثـل تلك الورطه، وهى أن يتخلّوا - فى النهايه - عن مساعـده قريش بعـد شـهر كامل من التعاون معهم، والرضوخ لخطّه «نعيم بن مسـعود»، وإخبار قريش بأنّهم لن يتعاونوا معهم ضدّ رسول الإسـلام ما لم تسـلّم قريش بعض شخصياتها إليهم، لغرض الاحتفاظ بهم فى حصونهم كوثيقه!!

لقد غاب عن تلك الزمره المعانده اللجوجه أنهم قد تعاونوا ضدّ رسول

الإسلام فی بدایه الأمر، فإذا قطعوا علاقاتهم مع قریش، وترک جیش المشرکین ساحه المعرکه إذا أحس بالعجز عن تحقیق أی انتصار، وعاد إلی بلاده، فإنّ بنی قریظه بأجمعهم سیکونون حینئذٍ فی قبضه المسلمین.

فلو کانوا یملکون شیئاً من الرؤیه السیاسیه الصحیحه لکان علیهم أن یعلنوا لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم - فور قطع العلاقات مع قریش - عن ندامتهم علی نقض المیثاق الّذی عقدوه من قبل مع النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ویعتذروا إلیه ممّا بدر منهم لینجوا من الخطر - فی صوره انتصار المسلمین علی الکفّار - ولکنّ الشقاء أصابهم عندما قطعوا العلاقات مع جیش قریش، ولم یلتحقوا بالمسلمین، ولم یعتذروا إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

علی أنّه لم یکن فی مقدور النبی صلی الله علیه و آله و سلم أن یترک بنی قریظه - بعد هزیمه جیش العرب - علی حالهم، ویغض النظر عن موقفهم إذ لم یکن من المستبعد، أن یفکّر العرب فی مناسبه أُخری فی تسییر جیش ضخم ومنظّم آخر لاجتیاح المدینه، ویتمکّنوا بمساعده بنی قریظه من استئصال الإسلام.

فکان یهود بنی قریظه یُعتبرون - فی الحقیقه - العدوّ الداخلی الّذی یهدّد کیان الإسلام من الداخل، وعلی هذا کان من الواجب معالجه الأمر مع بنی قریظه، وحلّ هذه المسأله الخطیره بالنسبه إلی المسلمین من الأساس.

خیانهُ أبی لبابه

لقد طلب یهودُ بنی قریظه بعد محاصره النبی صلی الله علیه و آله و سلم أن یبعث إلیهم «أبا لبابه» الأوسی لیتشاوروا معه فی الموقف، وقد کان أبو لبابه حلیفاً للیهود قبل دخول الإسلام إلی المدینه، فأرسله رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلیهم، فلمّا رأوه قام إلیه الرجال وجهش إلیه النساء والصبیان یبکون فی وجهه وقالوا: یا أبا لبابه أتری أن ننزل علی

حکم محمّد؟

قال: نعم - وأشار بیده إلی حلقه - إنّه الذبح؛ یرید أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم سوف یقتلهم ولم یحقن دماءهم، لو سلّموا.

لقد کان أبولبابه یعلم أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لن یوافق علی بقاء هذه الزمره الشریره الخائنه الخطره علی دین التوحید، إلّاأنّ أبا لبابه قد خان بفعله هذا المسلمین، ومصالح الإسلام العلیا، وأفشی سرّاً کان علیه أن یکتمه قبل وقوعه، ولهذا ندم علی فعله ندماً شدیداً، وقال: فواللّه ما زالت قدمای من مکانهما حتی عرفت أنّی قد خنت اللّه ورسوله صلی الله علیه و آله و سلم، ثمّ انطلق علی وجهه، ولم یأت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وربط نفسه فی المسجد بعمود من أعمدته، وقال: لا أبرح مکانی هذا حتّی یتوب اللّه علیّ ممّا صنعت!!

ویقول المفسّرون: فنزل فی خیانه أبی لبابه قول اللّه تعالی:

«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِکُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .(۱)

فلمّا بلغ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم خبر أبی لبابه، وکان قد استبطأه قال: «أما إنّه لوجاءنی لاستغفرت له، فأمّا إذ قد فعلَ ما فعلَ فما أنا بالذی أطلقه من مکانه حتّی یتوب اللّه علیه».(۲)

وبقی أبو لبابه مرتبطاً بالاسطوانه، وکانت زوجته تأتیه فی مواعید الصلاه، وتحلّ رباطه، فیصلّی ثم تعید الرباط.(۳)

فلمّا کان السحرُ من الیوم السابع نزلت توبه أبی لبابه بواسطه ملک الوحی

۱- . الأنفال: ۲۷.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۷۱۸/۳.

۳- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۷۱۹/۳.

علی رسول اللّه وهو فی بیت أُمّ سلمه، والآیه الّتی نزلت فی توبته هی قوله تعالی:

«وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .(۱)

فقالت أُمّ سلمه: سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من السحر وهو یضحک فقلت:

ممّ تضحک یا رسول اللّه أضحک اللّه سنّک؟ قال صلی الله علیه و آله و سلم: «لقد تیب علی أبی لبابه» قلت: أفلا أُبشره یا رسول اللّه؟ قال: بلی إن شئت.

فقامت إلیه وهو مرتبط بالجذع فی المسجد وقالت له: یا أبا لبابه أبشر فقد تاب اللّه علیک.

فثار الناس لیطلقوه فقال: لا واللّه حتّی یکون رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم هو الّذی یطلقنی بیده.

فلمّا مرّ علیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم خارجاً إلی صلاه الصبح أطلقه(۲).

ولا شکّ أنّ زلّه أبی لبابه کانت بسبب عواطفه تجاه یهود بنی قریظه، فقد سلبه بکاء نسائهم وصبیانهم واستغاثتهم العاطفیه القدره علی ضبط النفس، فکشف سرّاً من أسرار المسلمین کان علیه أن یکتمه، ولکنّ قوه الایمان باللّه والخشیه من عذابه أکبر وأعلی من کلّ شیء إلی درجه أنّها دفعت بأبی لبابه إلی أن یندم علی فعله ذلک الندم العجیب، ویعمد - لجبران تلک الخیانه - إلی ما فعل من الإنابه، والاستغفار، الأمر الّذی تکون نتیجته أن لا تراود مثل هذه الفکره نفسه مرّه أُخری قط.

۱- . التوبه: ۱۰۲.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۳/۷۱۸-۷۱۹.

إلى أىّ مدى ذهب الطابورُ الخامس فى مشاغبته؟

خرج «شأسُ بن قيس» اليهودى من الحصن ليتحادث مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم نيابه عن بنى قريظه، فطلب من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يسمح ليهود بنى قريظه بأن يحملوا معهم أموالهم ويخرجوا من المدينه كما فعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مع بنى النضير، فأبى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقال: «لا، إلّاأن تنزلوا على حكمى».

فقال شأس: لكَ الاموالُ والسلاح وتحقن دماءنا، فأبى النبى صلى الله عليه و آله و سلم ورفض هذا الاقتراح أيضاً.(۱)

وهنا يطرح السؤال التالى نفسه وهو: لماذا رفض رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم مقترحات مندوب بنى قريظه؟!

إنّ السبب واضح، فإنّه لم يكن من المستبعد أن تقدم هذه الزمره - بعد خروجها من قبضه المسلمين - على تحريك العرب المشركين الوثنيّين ضدّ الإسلام والمسلمين على نحو ما فعلت بنو النضير، وتعرّض المجتمع الإسلامى والدوله الإسلاميه الفتيه لأخطار كبرى جدّاً، وتسبّب فى سفك دماء كثيره.

ولهذا لم يوافق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على اقتراحات مندوب بنى قريظه، وعاد شأس إلى الحصن، وأخبر قومه بمقاله رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ورفضه لمقترحاته.

فقرّر بنو قريظه التسليم للمسلمين من دون أى قيد أو شرط.

أو الرضا بما يحكم به سعد بن معاذ الأوسى - وكان حليفاً لهم - فى حقّهم.

ولهذا عمدوا إلى فتح باب الحصن، ودخل على عليه السلام على رأس كتيبه خاصّه من المسلمين الحصن، وجرّدوا بنى قريظه من السلاح، وحبسوهم فى منازل «بنى

۱- . لاحظ: المغازى: ۵۰۱/۱.

النجار» ليتقرّر مصيرهم فيما بعد.

وحيث إنّ يهود بنى قينقاع قد أُسروا على أيدى جنود الإسلام ثم عفى عنهم بوساطه من الخزرج وبخاصه «عبداللّه بن أُبى»، وانصرف النبى صلى الله عليه و آله و سلم عن إهراق دمهم فيما مضى، لذا ضغط الأوسيّون المتحالفون مع بنى قريظه على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصرّوا عليه إصراراً شديداً بأن يعفو عن بنى قريظه الذين كانوا متحالفين مع الأوس من قبل أن يقدم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المدينه، وذلك منافسه للخزرج، ولكن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قاوم هذا الطلب، وقال لهم:

«ألا ترضَون يا معشرَ الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم»؟

قالوا: بلى.

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: فذاك إلى «سعد بن معاذ» فهو يحكم فيهم.

والطريف أنّ اليهود قد قبلوا هم أيضاً بما يحكم به سعد بن معاذ فقد بعث بنو قريظه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - كما يروى ابن هشام(۱) والشيخ المفيد(۲) -: يا محمَّد ننزل على حكم سعد بن معاذ.

وكان سعدٌ آنذاك يتداوى فى خيمه لامرأه تدعى «رفيده» من سهم أصابه فى معركه الخندق، وكانت رفيده تداوى الجرحى فى سبيل اللّه، وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يعود سعداً بين الحين والآخر، فلمّا حكّمه فى بنى قريظه أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطّئوا له بوساده من أدم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فلمّا طلع سعد على رسول اللّه والناس حوله صلى الله عليه و آله و سلم جلوس، قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «قوموا إلى سيّدكم».

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۲۱/۳.

۲- . الإرشاد: ۱۱۱/۱. وأيضاً راجع: زاد المعاد: ۷۳/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۷۷/۸.

فقام الناس على أرجلهم صفين احتراماً لسعد، وحيّاه كلّ واحد منهم، حتّى انتهى إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وقد طلب منه رجالُ قومه مراراً أن يحسن الحكم فى حُلفائهم: يهود بنى قريظه، ويخلّصهم من خطر الموت والقتل قائلين: يا أبا عمرو أحسن فى مواليك فإنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إنّما ولّاك ذلك لتحسن فيهم.

ولكن سعداً حكم فى ذلك المجلس - رغم كلّ ذلك الإلحاح، والضغط - بأن يُقتل رجال اليهود، وتقسَّم أموالهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم(۱).

تقييم ما استند إليه سعد فى حكمه

ليس من شكّ فى أنّه إذا غلبت عواطف القاضى وأحاسيسه على عقله، تعرّض جهاز القضاء للفوضى والاختلال، وانتهى إلى تمزّق المجتمع وسقوطه، وانهيار كلّ شىء، لارتباط كلّ شىء بالعداله وارتباط العداله بالقضاء والمؤسسه القضائيه.

إنّ العواطف تشبه إلى حد بعيد الشهوه الكاذبه الّتى تزيّن فى نظر صاحبها كلّ مضر مهلك فى حين إذا غلبت هذه العواطف والمشاعر العقل سحقت مصالح الفرد والمجتمع، أو أضرت به أشدَّ وأبلغ أضرار.

إنّ عواطف سعد وأحاسيسه ومشاعره، ومنظر صبيان ونساء بنى قريظه المحزن، وأوضاع رجالهم الّتى كانت تثير الإشفاق وهم فى الحبس، وملاحظه الرأى العام فى قبيله الأوسيّين الذين كانوا يلحّون على سعد أن يُحسِن الحكم والرأى فى بنى قريظه، كلّ هذه الاعتبارات كان من شأنها أن تجعل القاضى فريسه العاطفه، فيصدر حكمه على أساس من تقديم مصالح أقليه خائنه مشاغبه

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۲۰/۳-۷۲۱؛ المغازى: ۵۱۰/۲، زاد المعاد: ۷۳/۲ و ۷۴.

على مصالح الأكثريه (أى عامّه المسلمين) ويبرّئ بنى قريظه الجناه الخونه، أو يخفف من عقوبتهم أكبر قدر ممكن، على الأقل أو يسلّم لإحدى المقترحات السابقه.

إلّا أنّ منطق العقل، وحريه القاضى واستقلاله فى الحكم والقضاء ومراعاه المصالح العامّه كلّ ذلك قاد سعداً إلى ناحيه أُخرى، فحكم بأن يقتل رجال تلك الزمره المتآمره الخائنه، وتصادر أموالهم، وتسبى نساؤهم وأطفالهم.

وقد استند ذلك الحاكم فى حكمه هذا إلى الأُمور التاليه:

١. أنّ يهود بنى قريظه قد تعهّدوا للنبى صلى الله عليه و آله و سلم قبل مدّه بأنّهم لو تآمروا ضدّ الإسلام والمسلمين وناصروا أعداء التوحيد، وأثاروا الفتن والقلاقل، وألّبوا على المسلمين، كان للمسلمين الحقّ فى قتلهم ومصادره أموالهم وسبى نسائهم(١).

وقد رأى بأنّه لو حكم بمعاقبه اليهود حسب هذا الميثاق لم يصدر حكماً مخالفاً للعداله، ولم يرتكب ظلماً.

٢. إنّ هذه الزمره الناقضه للميثاق أخلّت بأمن المدينه فى ظلّ حرب القوى المشركه، فتره من الزمن، وهاجمت منازل المسلمين، ولولا ـ مراقبه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم للاوضاع وحراسه من عيّنهم من جنود الإسلام للحفاظ على أمن المدينه، لفعلت تلك الزمره الأفاعيل ولارتكبت أسوأ الفضائع والفجائع، ولو أُتيح لهم أن يسيطروا على المدينه لقتلوا رجال المسلمين وصادروا أموالهم، وسبوا نساءهم وأطفالهم.

ومن هنا رأى سعد بن معاذ فى نفسه بأنّه لو قضى فيهم بمثل هذا القضاء لما

١- . ولقد مرّ عليك نص هذا الميثاق الّذى وقّع عليه كعب بن الاسد رئيس بنى قريظه.

خالف الحقّ.

۳. من المحتمل جدّاً أنّ سعد بن معاذ رئیس الأوس الحلفاء لیهود بنی قریظه، والذین کانت بینهم علاقات ودّ ومحبَّه کان مطّلعاً علی قوانین الیهود، الجزائیه فی هذا المجال، فإنّ التوراه تنصُ بما یلی: «حین تقربُ من مدینه لکی تحاربها استدعها إلی الصلح. فإن أجابتک إلی الصلح وفتحت لک فکلُّ الشعب الموجود فیها یکون لک للتسخیر، ویستعبد لک. وإن لم تُسالِمک بل عملت معک حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الربُّ إلهُک إلی یدک فاضرب جمیع ذکورها بحدّ السیف. وأمّا النساء والأطفال والبهائم وکل ما فی المدینه کلّ غنیمتها فتغتنمها لنفسک...»(۱).

ولعلّ سعداً فکّر فی نفسه بأن القاضی المرضیّ والمقبول لدی الجانبین لو عاقب المعتدین حسب شریعتهم ما فعل إلّاما یقتضیه العدل والانصاف.

۴. والّذی نتصوّره هو أنّ أکبر أسباب هذا الحکم هو أنّ «سعد بن معاذ» رأی بأُمّ عینیه أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عفا عن بنی قینقاع المعتدین بناء علی طلب من الخزرجیّین، واکتفی - من عقابهم - بإخراجهم من المدینه، وإجلائهم عنها ولکنّ تلک الزمره الّتی شملها عفو النبیّ لم تکن تغادر أراضی الإسلام حتّی بدأت بالمشاغبه والمؤامره الدنیئه ضدّ الإسلام، فذهب کعب بن الأشرف إلی مکّه، وأخذ یتباکی - دجلاً وخداعاً - علی قتلی بدر، ویذرف علیهم دموع التماسیح، ولم یفتأ عن تألیب قریش ضد رسول الإسلام وأصحابه حتّی عزمت قریش علی تسییر جیشها نحو المدینه، وکانت واقعه، «أُحد» الّتی استشهد فیها اثنان وسبعون من خیره أبناء الإسلام، ورجاله.

۱- . التوراه: سفر التثنیه، الإصحاح العشرون: ۱۰-۱۴.

وهكذا فعلت بنو النضير المتآمرون الخونه، الذين عفا عنهم رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم واكتفى من عقابهم بمجرّد إجلائهم عن المدينه، ولكنّهم قابلوا هذا الموقف الإنسانى، بتأليب القبائل العربيه المشركه ضدّ الإسلام والمسلمين، وكوّنوا اتّحاداً عسكريّاً بينها، وألّفوا منها جيشاً قوياً ساروا به إلى عاصمه الإسلام (المدينه)، فكانت وقعه (الأحزاب) الّتى لولا حنكه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وخطّه حفر الخندق، لقضى على الإسلام بسببها منذ الأيام الأُولى، ولما بقى من ذلك الدين خبر ولا أثر ولقتل آلاف الناس.

لقد لاحظ (سعد بن معاذ) كلّ هذه الاعتبارات، فلم تسمح له التجارب الماضيه بأن يستسلم لعواطفه، ويضحّى بمصالح الآلاف فى سبيل الحفاظ على مصالح أقلّيه، لأنّه كان من المسلّم به أنّ هذا الفريق سيقوم فى المستقبل بايجاد تحالف عسكرى أوسع، وسيثير ويؤلّب قوى العرب ضد الإسلام ويعرّض مركز الإسلام، ومحوره الأساسى للخطر من خلال تدبير مؤامرات أُخرى.

وعلى هذا الأساس رأى بأنّ وجود هذه الزمره يضرّ المجتمع الإسلامى مائه بالمائه وأيقين بأنّ هذه الزمره لو أُتيح لها أن تخرج من قبضه المسلمين لما فتأت لحظه عن المؤامره ولواجه المسلمون بسببها أخطاراً كبرى.

ومن المحقّق أنّه إذا لم تكن فى المقام هذه الجهات والاعتبارات لكان إرضاء الرغبه العامّه فى الإبقاء على بنى قريظه أو التخفيف فى عقابهم أمراً فى غايه الأهميه بالنسبه إلى سعد بن معاذ، فإن رئيس أى قوم، أو جماعه أحوج ما يكون إلى تأييد قومه و جماعته وكسب رضاهم ودعمهم، ولا ريب أنّ عدم الاستجابه لمطلبهم، وتجاهل توصياتهم يوجّه أكبر ضربه لسيد القوم ورئيسهم، ولكنّ سعداً (رئيس الأوس) أدرك أنّ جميع هذه التوصيات والوساطات تخالف مصالح الآلاف

من المسلمين، من هنا آثر عدم الحياد عن حكم العقل، والمنطق، على رضا قومه عنه.

هذا وإن الَّذى يشهد بدقّه نظر سعد، وصواب رأيه، وصحّه تشخيصه وتقديره للأمر، أنّه عندما أُتى بحيى بن أخطب ليضرب عنقه فوقعت عينه على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قال: ما لمتُ نفسى فى عداوتك، ولكنّه مَن يخذل اللّه يُخذل (أى لولا خذلان اللّه لليهود لاستمرّوا فى معاداه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتدبير المؤامرات ضده).

ثم أقبل على الناس فقال: يا أيّها الناس إنّه لا بأس بأمر اللّه وقدره وملحمهٌ كتبها اللّه على بنى إسرائيل. ثمّ جلس فضربت عنقه.(۱)

ثم إنّه قُتِل فى هذه الواقعه من النساء امرأه واحده؛ لأنّها ألقت برحّى من فوق الحصن فقتلت به أحد المسلمين، فقتلت قصاصاً.(۲)

وكان بين المحكوم عليهم بالقتل رجلٌ اسمه «الزبير بن باطا» شفع له رجل من المسلمين يدعى ثابت بن قيس، فلم يُقتل، وأُخلى سبيل زوجته وأولاده، وأُعيدت إليه أمواله(۳)، وأسلم أربعهٌ من بنى قريظه، وقسّمت غنائم العدوّ بين المسلمين بعد إخراج الخمس منها، وإخراج ما يرتبط بالأُمور الإداريه الإسلاميه العامّه.

وقد أُعطى للفارس سهمان، وللراجل سهمٌ واحدٌ، وسلّم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أموال «الخُمس» إلى زيد بن حارثه ليذهب بها إلى نجد ويشترى بها السلاح،

۱- . تاريخ الطبرى: ۲۵۰/۲؛ السيره النبويه لابن هشام: ۷۲۲/۳؛ إمتاع الأسماع: ۳۷۷/۸.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۲۲/۳.

۳- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۲۲/۳-۷۲۳.

والخيل، وغيرها من أدوات الحرب(۱).

وهكذا انتهت مشكله بنى قريظه فى التاسع عشر من شهر ذى الحجّه من السنه الخامسه للهجره، وقد نزلت فى شأن هذه الواقعه الآيات ۲۶ و ۲۷ من سوره الأحزاب إذ يقول سبحانه:

«وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ قَدِيراً» .

وقد استشهد «سعد بن معاذ» الّذى سبق أن جرح فى معركه الخندق بعد حادثه بنى قريظه هذه(۲).

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۲۴/۳-۷۲۵.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۳۰/۳.

حوادث السنه السادسه من الهجره

۴۰ أعداء الإسلام تحت المراقبه المشدّده

اشاره

۴۰ أعداء الإسلام تحت المراقبه المشدّده(۱)

لم تنقض السنه الهجريه الخامسه إلّاوقد انتهت فتنه «الأحزاب» و «بنى قريظه»، وقضى عليهما بالكامل، وأصبحت المدينه وضواحيها برمّتها فى قبضه المسلمين وتحت سيطرتهم، وازدادت قواعد الحكومه الإسلاميه الفتيه رسوخاً وثباتاً، وساد هدوء نسبى فى المنطقه الّتى تخضع للحكومه الإسلاميّه، غير أنّ هذا الهدوء كان هدوءاً مؤقتاً، وكان على قائد المسلمين الأعلى أن يراقب أحوال العدو وأوضاعه، وتحرّكاته ليقضى فى المهد على كلّ مؤامره ضدّ الإسلام بما أُوتى من قوى وإمكانيات.

ولقد سَمَح الهدوء الّذى ساد المنطقه للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم بأن يقمع بعض مشعلى

۱- . يستفاد من السيره النبويه لابن هشام: ۲۹۱/۳ ط ۱۳۵۵ ه، أن خطه اغتيال «سلّام» كانت قبل نهايه السنه الهجريه الخامسه، ولكن بالنظر إلى أنّ قضيه بنى قريظه حدثت فى التاسع عشر من شهر ذى الحجّه يستبعد هذا الرأى.

فتنه «الأحزاب» الذين هربوا من قبضه المسلمين بعد رحيل «الأحزاب».

فلقد قُتِل «حيى بن أخطب» الّذى كان من مشعلى معركه الأحزاب، فى غزوه بنى قريظه، ولكن رفيقه «سلّام بن أبى الحقيق» كان لا- يزال يعيش فى خيبر، ولا- شكّ فى أنّ هذا العنصر الخطر لم يكن ليفتأ لحظه واحده عن إثاره وتأليب «الأحزاب» مرّه أُخرى ضدّ الإسلام، وخاصّه أنّ العرب الوثنيّين كانوا مستعدّين لشن حرب على الإسلام وكان من المحتمل إذا توفّرت هناك جهه تتكفّل نفقات الحرب، أن تتكرّر قضيه الأحزاب مره أُخرى.

على أساس هذه المحاسبات كلّف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم(۱) مجموعه من شجعان الخزرج وفوارسهم بأن يصفّوا هذا العنصر الخطر، الجرىء والحاقد، بشرط أن لا يتعرّضوا لأحد من أبنائه وزوجاته.

فخرجوا حتّى إذا قدموا خيبر، أتوا دار ابن أبى الحقيق ليلاً- فلم يدعوا بيتاً فى الدار إلّاأغلقوه على أهله حتّى لا يحسّ بهم أحد إذا صاح واستغاث بأحد، ثم تسلّلوا إلى غرفته وكانت فى الطابق الأعلى، فطرقوا باب حجرته، فخرجت إليهم امرأته فقالت: مَن أنتم؟ قالوا: ناسٌ من العرب نلتمس الميره، ففتحت الباب وسمحت لهم بالدخول عليه من دون التحقّق من أمرهم، فدخلوا فى غرفته وابتدروه وهو على فراشه بأسيافهم بعد أن أغلقوا باب الغرفه على أنفسهم، وقضوا على ذلك المفسد الشرير الّذى طالما أزعج المسلمين بفتنه ومؤامراته، ثم خرجوا،

۱- . إنّ السبب أو الحكمه فى تكليف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الخزرج بهذه المهمه هو أنّ الأوس قاموابعمليه مشابهه فى حقّ «كعب بن الأشرف» اليهودى الخطر، فأراد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إقامه توازن فى كسب المفاخر بين تينك القبيلتين، ولذلك أوكل مهمه تصفيه هذا اليهودى المفسد إلى رجال الخزرج.

وانحدروا من الدرج واختبأوا فی ممّر مائی من خارج الحصن إلی داخله، فصاحت زوجته، واستغاثت بالجیران، فأوقد الیهود النیران، واشتدوا فی طلب تلک الجماعه الفدائیه المسلمه، ولکن من دون جدوی، وعندما یئسوا من القبض علیهم رجعوا إلی صاحبهم المقتول، وقد بلغ من جرأه المسلمین أن بعثوا أحدهم لیدخل بین الیهود فی خیبر ویأتی لهم بخبر ابن أبی الحقیق، لأنّهم کانوا یظنّون بأنّه لا یزال علی قید الحیاه.

فدخل ذلک الرجل بین الیهود فوجدهم وامرأته حول ابن أبی الحقیق، وفی یدها المصباح تنظر فی وجهه، وتحدّثهم، وتقصُّ علیهم ما جری، ثم أقبلت علیه تنظر فی وجهه ثم قالت: فاظ (أی مات) واله یهود.

فعاد إلی رفاقه وأخبرهم بنجاح عملیّتهم وهلاک عدوّ اللّه: «سلّام بن أبی الحقیق» علی أیدیهم، فخرجوا فی تلک اللیله من مخبأهم وعادوا إلی المدینه وأخبروا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بما جری.(۱).

أهل الرأی من قریش یهاجرون إلی الحبشه

توجه جماعه من أهل الرأی فی قریش الذین أخافهم تقدّم الإسلام وانتشارُه المطّرد بشدّه، إلی البلاط الحبشی لیقطنوا ویقیموا فی الحبشه فقد قالوا: الرأی أن نلحق بالنجاشی فنکون عنده، فإن ظهر «محمّد» علی قومنا کنّا عند النجاشی، فإنّا أن نکون تحت یدیه أحبُ إلینا من أن نکون تحت یدی محمَّد، وإن ظهر قومنا فنحن مَن قد عرفوا فلن یأتینا منهم إلّاخیر.

وخرجت هذه الجماعه وفیهم «عمرو بن العاص» بهدایا کثیره من الحجاز

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۷۴۷/۳-۷۴۸.

قاصده أرض الحبشه، وبلاط النجاشیّ بالذات.

وصادف دخولُهم علی «النجاشی» ورود «عمرو بن أُمیّه الضمری» مبعوث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وحامل کتابه إلی النجاشی یوصیه فیه بجعفر بن أبی طالب، والمهاجرین الآخرین من رفقائه.

فقال «عمرو بن العاص»: هذا عمرو بن أُمیه الضمری لو قد دخلتُ علی «النجاشیّ» وسألته إیّاه فأعطانیه، فضربت عنقه.

قال عمرو بن العاص: فدخلت علیه فسجدت له کما کنت أصنع، فقال:...

أهدیت إلیَّ من بلادک شیئاً؟

قال ابن العاص: نعم أیّها الملک، قد أهدیت إلیک أُدما کثیراً، قال: ثمّ قرّبته إلیه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أیّها الملک إنّی قد رأیت رجلاً خرج من عندک (ویقصد مبعوث رسول اللّه) وهو رسولُ رجل عدوّ لنا، فأعطنیه لأقتله، فإنّه قد أصاب من أشرافنا وخیارنا.

فغضب النجاشیّ لمقاله ابن العاص غضباً شدیداً فصفعه صفعه کادت أن تکسرَ أنفه، ثم قال: أتسألنی أن أُعطیک رسول رجلٍ یأتیه الناموس الأکبر الّذی کان یأتی موسی لتقتله؟! قلت: أیّها الملک أکذاک هو؟ قال: ویحک یا عمرو أطعنی واتّبعه فإنّه واللّه لعلی الحقّ، ولیظهرنَّ علی مَن خالفه کما ظهر موسی علی فرعون وجنوده، قلت: أفتبایعنی له علی الإسلام؟

قال: نعم، فبسط یده فبایعته علی الإسلام ثم خرجتُ إلی أصحابی، وقد حال رأیی عمّا کان علیه، وکتمت أصحابی إسلامی(۱).

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۷۴۸/۳ و ۷۴۹.

الوقايه من تكرار التجارب المرّه

ترکت حادثه «الرجیع» المرّه الّتی قتل فیها جماعه من قبائل «عضل» و «القاره» من بنی لحیان ثله من دعاه الإسلام غدراً ومن دون رحمه، بل وسلّمت رجلین منهم بقیا علی قید الحیاه إلی قریش فصلبَتهما قریشٌ صبراً إنتقاماً من رسول اللّه والمسلمین.

لقد ترکت هذه الفاجعه المأساویه المؤلمه ألماً شدیداً فی نفوس المسلمین، وأحدثت جرحاً عمیقاً فی ضمائرهم وأدّت إلی توقّف حرکه الإرشاد والتبلیغ والدعوه.

ولکن فی الظروف المستجده الّتی استطاع الإسلامُ أن یزیل - بعد الأحزاب وبنی قریظه - کلّ العراقیل والعقبات عن سبیل المسلمین، رأی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من الضروری تأدیب بنی لحیان لتعتبر بقیه القبائل، فلا یؤذوا بعد ذلک فرق الدعوه وبعثات التبلیغ الإسلامی.

فاستخلف مکانه لإداره شؤون المدینه «ابن أُمّ مکتوم» فی الشهر الخامس من السنه الهجریه السادسه ولم یُظهر لأحد ما یقصده، بل خرج یظهر أنّه یرید الشام لیصیب «بنی لحیان» علی غفله منهم، فلمّا وصل إلی طریق مکّه عرّج حتّی نزل بمنطقه تُدعی «غراب» وهی منازل بنی لحیان، وقد کان بنو لحیان قد عرفوا بمسیر النبی إلیهم فحذروه، وتمنّعوا فی رؤوس الجبال.

وکان غزو المسلمین هذا، وجبن العدو قد ترکا أثراً نفسیاً قویاً، فأحدث رعباً فی قلوب أعداء الإسلام.

واستکمالاً لهذا الهَدف العسکریّ الهامّ عَمدَ رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی القیام بسلسله من المناورات العسکریه، واستعراض القوه القتالیه فی جنوده لیرهب

أعـداء اللّه القريب منهم والبعيـد ولتسـمَع بهم قريش خاصّه فيـذعرهم، فنزل فی مائتی راکب من أصـحابه حتّی نزل عسـفان علی مقربه من مکّه وقد قال من قبل:

«لوهبطنـا عسـفان لرأی أهـلُ مکّه أنّـا قـد جئنا مکّه». فخرج فی مائتی راکب من أصـحابه حتی نزل عسـفان ثمّ بعث فارسـین من أصحابه حتّی بلغا کراع الغمیم (وهو موضعٌ بناحیه الحجاز بین مکّه والمدینه وهو واد أمام عسفان بثمانیه أمیال).

ثمّ کرّ وراح رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قافلاً.(۱)

فکان جابر بن عبداللّه الأنصاری یقول: سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یقول حین وجه راجعاً من هذه الغزوه:

«... أعوذ باللّه مِن وَعثاء السَفر، وکآبه المنقلب، وسوء المنظر فی الأهل والمال»(۲).

غزوهُ ذی قَرد

لَم یُقم رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم فی المدینه بعد عودته من الغزوه السابقه إلّالیالی قلائل حتّی أغار «عیینه بن حصن الفزاری» بمساعده بنی غطفان، علی إبل لرسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سلم کانت ترعی فی منطقه تُدعی الغابه (وهی موضعٌ قرب المـدینه من ناحیه الشام) کانت مرعی أهل المدینه، وکان فیها آنذاک رجلٌ من بنی غفار، وامرأه مسـلمه له، فقتلوا الرجل، وأخـذوا معهم المرأه والإبل. وکان أوّل مَن أخبر الناس بـذلک رجلٌ یُـدعی سـلمه بن عمرو بن الأکوع الأسـلمی وکان قـد غدا یرید الغابه متوشحاً سیفه وقوسه ونبله، یرید الصید، حتّی إذا

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۷۵۱/۳.

۲- . تاریخ الطبری: ۲۵۴/۲-۲۵۵؛ المغازی: ۵۳۷/۱؛ إمتاع الأسماع: ۳۷۹/۸.

علا «ثنیه الوداع» نظر إلی بعض خیول المغیرین، فصعد علی تلّه سلع وصرخ مستغیثاً ومستنجداً: واصباحاه، ثم خرج یشتد فی آثار القوم (المغیرین) فجعل یردّهم بالنبل، ولکن المعتدین لاذوا بالفرار.

وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أوّل مَن سمع صراخ ابن الأکوع واستغاثاته، فصرخ صلی الله علیه و آله و سلم هو مستغیثاً: الفزع، الفزع. فأسرع جماعه من الفرسان برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فلمّا اجتمعوا عنده أمّر علیهم «سعد بن زید الأشهلیّ» وقال له:

«أُخرج فی طلب القوم، حتّی ألحقکَ فی الناس».

فخرج الفرسان المسلمون فی طلب القوم، وخرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من ورائهم، حتّی أدرکوا القوم فی ذی قرد، فوقع بین المسلمین، وبین المغیرین قتال قلیلٌ قتلَ فیه من المسلمین رجلان، ومن المعتدین ثلاثه، واستنقذت المرأه، وبعض الإبل المسروقه، ولکن العدوّ لجأ إلی غطفان، فأقام رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی تلک المنطقه یوماً ولیله، تخویفاً للعدوّ، ولم یَرَ من الصالح ملاحقه العدوّ رغم إصرار بعض المسلمین علی ملاحقتهم، واستنقاذ بقیه السرح (الإبل).

ثم رجع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قافلاً حتّی قدم المدینه(۱)، وکانت هذه الغزوه فی الثالث من ربیع الأوّل من السنه السادسه من الهجره(۲).

النذر غیر المشروع

وأقبلت المرأه الغفاریه المسلمه الّتی استنقُذت من أیدی المغیرین علی ناقه من إبل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حتّی قدمت علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وأخبرته بما جری ثم

۱- . لاحظ: تاریخ الطبری: ۲۵۵/۲، المغازی: ۵۳۷/۱ و ۵۴۹.

۲- . إمتاع الأسماع: ۳۸۰/۸.

قالت: يا رسول اللّه إنّى قد نذرتُ للّه أن أنحرها إن نجّانى اللّه عليها فآكلُ كَبدَها وسنامها.

فتبسّم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ثم قال:

«بئس ما جَزيتيها أن حمَلَك اللّه عليها ونجّاك بها ثم تنحريها، إنّه لا نَذر فى معصيه اللّه، ولا فيما لا تَملِكين إنّما هىَ ناقةٌ مِن إبلى، فارجعى إلى أهلك على بركه اللّه»(۱).

وبذلك بَيّن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حكماً فى مجال النَذر، وهو أن النذر لا يصحّ فى مال الغير، فلا نذر إلّافى ملك.

والقصّه إلى جانب ذلك تكشف عن الخلق العظيم الّذى كان يتحلّى به قائد الإسلام الأعلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ولطفه بأصحابه واتباعه، حيث جابه المرأه المذكوره برفق ولطف، وبصّرها بما لها وما عليها فى منتهى التواضع والشفقه.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۵۵/۳؛ المغازى: ۵۴۸/۱؛ الطبقات الكبرى: ۱۳۳/۲؛ إمتاع الأسماع: ۲۶۴/۱، قال صاحب الإمتاع: و كانت الناقه هى القصواء، والقصواء اسم ناقه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

۴۱ تمرّد بنی المُصطَلِق

اشاره

لقد بلغَت قوهُ المسلمین العسکریه فی السنه الهجریه السادسه حدّاً ملفتاً للنظر، بحیث تمکّن جماعه خاصّه منهم أن یتردّدوا علی المناطق القریبه من مکّه بمنتهی الحریه، ومن دون خوف، بید أنّ هذه القوه العسکریه لم تکن کافیه للسیطره علی المناطق الّتی کان تتواجد فیها القبائل المشرکه، ومصادره أموالهم وممتلکاتهم.

وإذا کان المشرکون لا ینتزعون المسلمین حریتهم، وکانوا یسمحون لأن تجری النشاطات التبلیغیه من دون منع أو معارضه لما کان رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم یقدم علی شراء الأسلحه، وبعث السرایا، والمجموعات العسکریه، ولکن حیث إنّ نشاطات المسلمین التبلیغیه، ومجموعات الإرشاد والدعوه کانت تتعرّض باستمرار للمضایقه، والأذی؛ بل والاغتیال من قِبَل العدو، لذلک کان رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم مضطرّاً بحکم العقل والفطره أن یقوّی من قدرات الإسلام الدفاعیه.

لقد کانت العلل والأسباب الواقعیّه لأکثر الحروب الّتی وقعت إلی السنه الهجریه السادسه؛ بل حتّی آخر لحظه من حیاه رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم تتلخّص فی

إحدى الأمور التاليه:

۱. الردّ على اعتداءات المشركين الغادره، مثل معركه «بدر» و «أُحد» و «الخندق».

۲. تأديب وعقاب الظالمين الذين قتلوا رجالاً أبرياء من المسلمين، أو قتلوا جماعات الدعوه والتبليغ فى البرارى والقفار النائيه، أو عرّضوا كيان الإسلام للخطر بنقضهم عهودهم، وتتمثّل هذه الحروب فى الغزوات الثلاثه ضدّ الطوائف اليهوديه الثلاث (بنى قينقاع، بنى النضير، بنى قريظه) وبنى لحيان.

۳. إفشال وإحباط المؤامرات، أو محاولات التمرّدُ الّتى كانت على شرف الانعقاد فى القبائل الّتى كانت تنوى بجمع الرجال والأسلحه غزو المدينه، واكتساح عاصمه الإسلام واستئصال المسلمين، وكانت أكثر الحروب الصغيره والمناوشات العابره ناشئه من هذا العامل الأخير.

غزوه بنى المُصطلِق

كان بنو المصطلق من قبائل «خزاعه» المتحالفه مع قريش.

وقد بلغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّ الحارث بن أبى ضرار زعيمها يعدّ العدّه، ويجمع الرجال المقاتلين لمحاصره المدينه وغزوها، فقرّر رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأن يقضى على هذه المؤامره فى مهدها كما كان يفعل دائماً.

ولهذا أرسل أحد أصحابه وهو: «بريده» إلى أرض بنى المصطلق ليأتى بأخبارهم، فذهب بريده، ودخل فيهم وتحادث - فى هيئه متنكّره - مع رئيسهم وعرف بيّته، ثم عاد إلى المدينه وأخبر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم بما رآه وسمعه، وأنّ بنى المصطلق عازمون على المسير إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لمحاصره المدينه.

فخرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى جمع من أصحابه حتّى لقيهم عند ماء يُدعى «المُريسيع»، ونشبت الحرب بينهم وبين المسلمين، ولكن صمود المسلمين وبسالتهم الّتى كانت قد أرعبت قلوب قبائل العرب تسبّب فى أن لا يطول القتال بين المسلمين وبين «بنى المصطلق» فتفرّق جيش العدو بعد أن قتل منهم عشره رجال، كما وقتل رجل مسلم خطأ، فأصاب المسلمون غنائم كثيره وسبوا جماعه كبيره من نساء بنى المصطلق(۱).

هذا وإنّ النقاط والدروس المفيده فى هذه الواقعه تتمثّل فى السياسه الحكيمه الّتى مارسها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى حوادث هذه الغزوه، ممّا سنذكر بعضها عمّا قريب.

أوّل خلاف بين المهاجرين والأنصار

وقد شبّ فى هذه المنطقه ولأوّل مرّه خلافٌ بين المهاجرين والأنصار، كاد أن يأتى بنتائج مروّعه أبسطها أن توجّه ضربه قويه إلى الاتّحاد الحاصل بين المسلمين نتيجه هوى البعض وهوسهم لولا تدبير النبى صلى الله عليه و آله و سلم، وحكمته الرشيده الّتى أنهت كلّ شىء، وأبقت على روح التآخى بين المسلمين.

وتعودُ جذور هذه الحادثه إلى تزاحم رجلين من المسلمين على البئر بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

فقد ازدحم «جهجاه بن مسعود» وهو من المهاجرين و «سنان بن وبر الجهنى» وهو من الأنصار على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهنى - مستغيثاً بقبيلته على عاده الجاهليّين -: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، وكاد أن

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۵۸/۳، تاريخ الطبرى: ۲۶۰/۲، إمتاع الأسماع: ۳۶۹/۸.

يتقاتل المسلمون من الفريقين فيما بينهم فى هذه الحادثه، وفى هذا المكان البعيد عن عاصمه الإسلام ومركزه، ويتعرّض بذلك كيانهم للسقوط والانهيار، لأنّهم تواعدوا على القتال، كلّ فريق انتصاراً لصريخه.

فلمّا عرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بذلك قال:

«دَعُوها فإنها منتنه».(۱)

أى أنّ هذا النوع من الاستغاثه ولمثل هذا الدافع ما هو إلّامن دعوى الجاهليه، وقد جعل اللّه المؤمنين إخوه وحزباً واحداً، فإنّما ينبغى أن تكون الدعوه للمسلمين، وإلّا كانت جاهليه، لاقيمه لها فى الإسلام.

وبذلك قضى النبى الحكيم على الفتنه فى مهدها، وجنّب المسلمين أخطارها.

منافق حاول إشعال الموقف

أجل لقد استطاع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بهذا الاستنكار الشديد أن يطفئ نار الاختلاف والتنازع فيكفّ الفريقان (القبيلتان) عن استئناف التنازع والتقاتل.

إلّا أنّ «عبدَ اللّه بن أُبى» رئيس حزب المنافقين بالمدينه، والّذى كان يكنُّ حقداً كبيراً على الإسلام وقد شارك فى تلك الغزوه طمعاً فى الغنيمه، أظهر - فى هذه الحادثه - حقده، وضغينته على الإسلام، وقال لرهط من أهل المدينه كانوا عنده آنذاك: أوقد فعلوها، قد نافرونا (أى المهاجرين) وكاثرونا فى بلادنا، واللّه ما أعدّنا وجلابيب قريش إلّاكما قال الأوّل: سمّن كلبَك يأكلك، أما واللّه لئن رجعنا إلى المدينه ليخرجنَّ الأعزُ منها الأذل (ويقصد بالأذلّ المهاجرين)!!!

۱- . لاحظ: صحيح البخارى: ۶۵/۶، كتاب التفسير، سوره المنافقين؛ صحيح مسلم: ۱۹/۸، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً.

ثمّ أقبل على مَن حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما واللّه لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم.(۱)

فتركت كلمات «ابن أُبى» أمام تلك الجماعه الّتى كانت لا تزال تعانى من بقايا عصبيه جاهليه، أثرها فى نفوسهم، وكادت توجه ضربه قاضيه إلى صرح الوحده الإسلاميّه، والإخوه الإيمانيه الّتى كانت تشدّ المسلمين - أنصاراً ومهاجرين - بعضهم ببعض كالبنيان المرصوص.

ومن حسن الحظ أنّ فتى غيوراً من فتيان المسلمين هو زيد بن الأرقم لمّا سمع بهذه الكلمات المثيره للشغب والفتنه ردّ على «ابن أُبى» بكلمات قويه شجاعه إذ قال: أنت واللّه الذليلُ القليلُ المبغَضُ فى قومك، ومحمَّد فى عزّ من الرحمن، ومودّه من المسلمين، واللّه لا أُحبُّك بعد هذا أبداً.(۲)

ثم نهض ومشى إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأخبره الخبر، فردّه رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ثلاث مرات حفظاً للظاهر، قائلاً: لعلّك وهمت يا غلام؟ قال: لا واللّه ما وهمت، فقال: فلعلك غضبت عليه؟ قال: لا واللّه ما غضبت عليه، قال: فلعلّه سفّه عليك؟ قال: لا واللّه.(۳)

إنّ زيداً كان يؤكّد على صحّه ما أخبر به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من مقاله المنافق الخبيث «عبداللّه بن أُبى»، وتحريكه للناس ضد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

وهنا طلب عمر بن الخطاب من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يُقتَلَ «ابن أُبى» قائلاً: مر

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۵۸/۳؛ تاريخ الطبرى: ۲۶۱/۲.

۲- . بحار الأنوار: ۲۸۲/۲۰.

۳- . بحار الأنوار: ۲۸۶/۲۰.

به عبّادَ بن بشر فليقتله(۱).

ولكن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أجاب عمر بقوله:

«فكيف يا عُمَر إذا تحدّثَ الناسُ أنّ محمَّداً يقتُل أصحابه، لا»(۲).

ولقد مشى «عبداللّه بن أُبى» إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حين بلغه أنّ «زيد بن الأرقم» قد بلّغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ما سمع منه، فحلف باللّه: ما قُلتُ ما قال، وقال بعض مَن حضر من أهل الرأى من أصحابه دفاعاً عن ابن أُبى: يا رسول اللّه عسى أن يكون الغلامُ قد أُوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل.

ولكن الأمر لم ينته إلى هذا، فقد كان هذا نوعاً من الهدوء المؤقّت تماماً كالهدوء الّذى يسبق العاصفه، الّذى لا يمكن الاطمئنان إليه.

فقد كان يتوجّب على قائد المسلمين الأعلى أن يقوم فوراً بما يؤدّى إلى أن ينسى الطرفان هذه القصّه نهائياً، ولهذا أمر بالرحيل فى ساعه من النهار لم يكن صلى الله عليه و آله و سلم يرتحل فيها عاده.(۳)

فجاءه «أُسيد بن حضير»، وقال: يا نبى اللّه، واللّه لقد رحت فى ساعه منكره

۱- . تثبت دراسه حياه الخليفه الثانى أنّه لم يبد فى أيّه معركه من معارك الإسلام قوه وبساله، بل كان فى صفّ المتقاعدين دائماً. ولكن كلّما أسّر المسلمون أحداً كان هو أوّل مَن يقترح على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بقتله ونذكر للمثال ما يلى: أ. هذا المورد الّذى طلب فيه من رسول اللّه أن يُقَتَلَ ابن أُبى. ب. طلبه من النبى بأن يُقتَل حاطب بن أبى بلتعه الّذى تجسّس لصالح المشركين من أهل مكّه فى فتح مكّه. ج. طلبه من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بقتل أبى سفيان الّذى جاء به العباس عمّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إلى خيمه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قبيل فتح مكّه، وغير ذلك من الموارد الّتى سبقت أو الّتى تأتى.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۵۹/۳؛ إمتاع الأسماع: ۲۰۸/۱.

۳- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۵۹/۳.

ما كنت تروح فی مثلها؟

فقال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«أو ما بلغك ما قال صاحبُكم؟ قال: وأی صاحب یا رسول اللّه؟ قال: «عبد اللّه بن أُبی». قال: وما قال؟ قال: «زعم أنّه إن رجع إلی المدینه أخرج الأعزُّ منها الأذل»؟

فقال أُسید: فأنت یا رسول اللّه واللّه تخرجهُ منها إن شئت، هو واللّه الذلیلُ، وأنت العزیز، ثمّ قال: إرفق به یا رسول اللّه، فَواللّه لقد جاء اللّه بكَ وأنّ قومه لینظِمُون لَهُ الخِرَز لیتوِّجوهُ، فإنّه لیری أنّك قد استلبته مُلكاً.

ثم أمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بالرحیل فارتحلَ الناسُ، وسار بهمُ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم یومَهُم ذاك حتّی أمسی، ولیلتهم تلك حتّی أصبحَ، من دون أن یسمحَ لهم بالنزول والاستراحه، إلّااللصلاه، وسار بهم فی الیوم هكذا حتّی آذتهم الشمسُ وسُلبوا القدره علی مواصله السیر فأذن لهم بالاستراحه، فنزل الناس، ولم یلبثُوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نیاماً من شده التعب، وقد نسوا كلّ شیء من تلك الذكریات المرّه، وكان هذا هو ما یریده النبی صلی الله علیه و آله و سلم فقد سار بهم لیل نهار من دون توقّف لیشغِلَهم عن الحدیث الّذی كان من «عبداللّه بن أُبی» المنافق المفتِّن(۱).

صراعٌ بین الإیمان والعاطفه

كان عبداللّه بن «عبداللّه بن أُبی» من فتیان الإسلام الشجعان، ومن فرسانه البواسل، وكان - كما تقتضیه تعالیم الإسلام - یبرّ بأبیه المنافق أكثر من غیره، ولكنّه

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۷۵۹/۳-۷۶۰، تاریخ الطبری: ۲۶۱/۲ و ۲۶۲، مجمع البیان: ۲۱/۱۰-۲۲.

عندما عرف بما تفوّه به أبوه فی شأن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وظنّ أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم سیقتل أباه، جاء إلی النبی صلی الله علیه و آله و سلم وقال: یا رسول اللّه إنّه بلغنی أنّک ترید قتل «عبداللّه بن أُبی»، فیما بلغک عنه، فإن کنت لابدّ فاعلاً فمرنی به فأنا أحمل الیک رأسه، فواللّه لقد علمت الخزرج ما کان لها من رجل أبرّ بوالده منّی، وإنّی أخشی أن تأمر به غیری، فیقتله فلا تدعنی نفسی أنظرُ إلی قاتل عبداللّه بن أُبی یمشی فی الناس فأقتله، فأقتل (رجلاً) مؤمناً بکافر فأدخلَ النار!!(۱)

إنّ حدیث هذا الفتی یعکس - فی الحقیقه - أعظم تجلّیات الإیمان وآثاره فی النفس، والروح الإنسانیه.

لماذا لم یطلب من النبی صلی الله علیه و آله و سلم أن یعفو عن أبیه؟! لأنّه کان یعلم أنّ ما یفعله رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إنّما هو بأمر اللّه تعالی، ولکنّ ابنَ عبداللّه کان یری نفسه فی صراع روحیّ حادّ.

فمن جانب کانت تدعوه عواطف البنوّه والأخلاق العربیّه أن ینتقم ممّن یقتل أباه، ویسفک بالتالی دم مسلم.

ومن جانب آخر توجب عوامل أُخری مثل ضروره استتباب الأمن والطمأنینه فی البیئه الإسلامیه أن یُقتَلَ رأسُ المنافقین «ابن أُبی»، إنّه صوره من صوره الصراع بین مقتضی الایمان، ومقتضی العاطفه.

ولقد اختار عبداللّه بن عبداللّه بن أُبی طریقاً ثالثاً فی هذا الصراع، یضمن مصالح الإسلام من جهه، ویحافظ علی مشاعره من أن تُجرَح علی أیدی الآخرین من جهه أُخری، وذلک بأن یکون هو الّذی ینفّذ حکم الإعدام فی أبیه المنافق المشاغب.

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۷۶۰/۳.

وهـذا العمـل وإن كـان شاقّاً مؤلمـاً إلّاأنّ قوه الإيمـان بـاللّه والتسـليم لأـمره سـبحانه كانت تفيض عليه قـدراً كبيراً من الطمأنينه والسكون.

ولكنّ النبيّ الرحيم صلى الله عليه و آله و سلم ردّ على سؤال واقتراح عبداللّه بن عبداللّه بن أُبى قائلاً:

«بل نترفّق به ونحسن صحبتَهُ ما بقى معنا»!!!

وهـذا الكلاـم الّـذى يكشف عن سـمو أخلاق النبيّ صـلى الله عليه و آله و سـلم ومبلغ رحمته، أدهش المسـلمين جميعاً فتوجّهوا باللوم والعتاب الحادّ إلى المنافق «عبـداللّه بن أُبى»، ولحقه بسـبب ذلك ذلٌ شديدٌ بين الناس ما وراءه ذلٌ، وهوانٌ ما وراءه هوانٌ، واحتقره الناس حتّى أنّه لم يعد أحدٌ يعبأ به، ويقيم له وزناً.

لقد عَلَّم رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم المسـلمين فى هذه الحوادث دُرُوساً مفيده جدّاً، وأظهر جانباً من سـياسه الإسـلام الحكيمه، والرشيده.

فقـد تحطم «عبـداللّه بن أُبى» رئيس المنافقين بعـد هذه الحادثه، ولم يعد له أى دور، بل عاش بقيه حياته مهاناً محتقراً بين الناس بعد أن رأى الناس إيذاءه المستمر لرسول اللّه، وعفو النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم عنه، وإغضاءه عن مساوئه.

وقـد قـال رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم لعمر بن الخطـاب ذات يوم حين بلغه احتقـار النـاس لاـبن أُبى ذلـك الاحتقار، وسقوط محلّه فى القلوب:

«كَيفَ ترى يا عُمَر، أما واللّه لَو قتلتُه يوم قلت لى: اقْتُلْه، لأُرعدت له أُنفٌ، لو أمرتُها اليوم بقتله لقتلتهُ».

فقال عمر: قد واللّه علمتُ لأمرُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أعظم بركه من أمرى(۱).

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۶۰/۳-۷۶۱، وفى السيره الحلبيه: ۶۰۳/۲: لأُرعدت له أنوف.

الزَواجُ المبارک

کانت «جویریه» بنت الحارث بن أبی ضرار رئیس بنی المصطلق من جمله السبایا الّتی وقعت فی أیدی المسلمین فی غزوه بنی المصطلق، فأقبل أبوها الحارث بفداء ابنته إلی المدینه فلمّا کان فی وادی العقیق نظر إلی الإبل الّتی جاء بها لفداء ابنته فرغبَ فی بعیرین منها، فغیَّبهما فی شعب من شعاب العقیق، ثم أتی إلی النبی صلی الله علیه و آله و سلم وقال: یا محمّد أصبتم ابنتی وهذا فداؤها، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «فأینَ البعیران اللّذان غیبّتهما بالعقیق فی شعب کذا وکذا»؟!

فلمّا سمع الحارث بهذا الخبر الغیبی علی لسان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم آمنَ هو وولداه به، وأسلم أُناس آخرون من قومه کانوا معه، وأرسل إلی البعیرین فجاء بهما، فدفع الإبل إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ودُفعَت إلیه ابنته «جویریه» فأسلمت هی أیضاً وحسن إسلامها.

ثم خطبها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی أبیها، فزوّجه إیّاها، وأصدقها أربعمائه درهم.(۱)

فلمّا بلغ الناس أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تزوّج جویریه بنت الحارث وکان بأیدیهم بعض الأسری من بنی المصطلق قالوا: أصهارُ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فأطلقوا ما کان بأیدیهم من أُولئک الأسری وکانوا مائه عائله، فما عُلِمَ امرأه اعظم برکه علی قومها منها، فقد اعتق بتزویجه إیّاها مائه من بنی المصطلق.

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۷۶۲/۳-۷۶۳؛ إمتاع الأسماع: ۳۱۵/۱۳.

وهكذا أَطلِق جميعُ أسرى بنى المصطلق الذين كانوا بأيدى المسلمين رجالاً ونساء بفضل ذلك الزواج المبارك، أو قل بفضل هذه السياسه الاجتماعيه الحكيمه، وعادوا إلى قبيلتهم(۱).

الفاسق يفتضح

كان إسلام بنى المصطلق إسلاماً نابعاً من قناعه ورغبه؛ لأنّهم لم يجدوا من المسلمين خلال مدّه الأسر إلّاحسن المعامله والإحسان والعفو حتّى أنّه تمّ إطلاق جميع الأسرى ببعض الذرائع وعادوا إلى قبيلتهم وأهليهم.

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أرسل إليهم «وليد بن عقبه بن أبى معيط» لجبايه زكاتهم، فلمّا سمعوا بقدومه خرجوا إليه راكبين ليكرموه وليؤدّوا إليه ما عليهم من الزكاه، فلمّا سمع بهم هابهم، فرجع إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فأخبره بأنّ القوم قد همّوا بقتله، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم، فأكثر المسلمون فى ذكر غزوهم حتى همّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأن يغزوهم، فبينما هم على ذلك قدم وفدهم على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقالوا: يا رسول اللّه سمعنا برسولك حين بعثته إلينا فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدّى إليه ما قبلنا من الصدقه فانشمر راجعاً؛ فبلغَنا أنّه زعم لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّا خرَجنا إليه لنقتلهُ، وواللّه ماجئنا لذلك. فنزلت فى هذا الشأن الآيه السادسه من سوره الحجرات تؤيّد مقاله بنى المصطلق وتصف الوليد بالفسق، إذ يقول تعالى:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَهٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ» .(۲)

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۶۲/۳؛ إمتاع الأسماع: ۳۱۴/۱۳-۳۱۵.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۶۳/۳.

۴۲ قصّه الإفک

اشاره

بقی رئیس حزب النفـاق عبـداللّه بن أُبی یواصل تجارته بالجواری، والإماء ویضـعهن تحت تصـرّف الرجال للزنا بهن، لیجنی من هذا الطریق أرباحاً طائله.

حتّی بعد دخول الإسلام فی المدینه.

فعنـدما نزلت آیات تحریم الزنا کان ذلک الفاسق یمارس حرفته القـذره، حتّی أنّ إماءه ضـقن بهذا العمل الفاجر ذرعاً، فشـکینَ إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقالت إحداهن: إنّ سیّدی یکرهنی علی البغاء.

فنزلَ قوله تعالی فی شجب هذا العمل الدنیء:

«وَ لا تُکْرِهُوا فَتَیاتِکُمْ عَلَی الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَیاهِ الدُّنْیا» (۱).(۲)

ولقـد أراد رجل یعبث بعفاف النساء کهذا، أن یسـیء إلی امرأه ذات مکانه وشخصـیه فی المجتمع الاسـلامی(۳)، ویتهمها بالزنا نکایه بالمؤمنین، والمؤمنات،

۱- . النور: ۳۳.

۲- . لاحظ: مجمع البیان: ۲۴۶/۷، تفسیر الدر المنثور: ۴۶/۵.

۳- . اخترنا هذا التعبیر لورود نوعین من شأن النزول فی المقام بحیث لم یتأکّد للمؤلّف مَن هی

وبغياً وحسداً.

حقّاً إنّ معاداه النفاق للإيمان من أشدّ أنواع المعاداه، فإنّ العدوّ المشرک والکافر یعمد دائماً إلی إشفاء غیظه وإطفاء غضبه وحنقه باستخدام عدائه فی جمیع الموارد والأوقات.

ولکنّ المنافق الّذی یتظاهر بالإیمان، ویتستّر بالإسلام حیث إنّه لا یمکنه التظاهر بعدائه، فإنّ عداءه الباطنی یتراکم ویتصاعد حتّی یصل أحیاناً إلی حدّ الإنفجار، لهذا ینطلق المنافق فی کیل التهم من دون حساب أو میزان تماماً کما یفعل المجانین.

ونری مثل هذه الحاله فی عبداللّه بن أُبی.

ولقد ظهرت ذلّهُ «عبداللّه بن أُبی» رئیس حزب النفاق فی واقعه بنی المصطلق، وقد منعه ابنه من دخول المدینه، ولم یسمح له بدخولها إلّابوساطه من النبی صلی الله علیه و آله و سلم، وهکذا آل مصیر رجل کان یحلم بالملوکیه والسلطان إلی أن یمنعه أخصّ أقربائه عن الدخول إلی مسقط رأسه، فیما کان یطلب هو من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن یکفّ عنه ولده.

إنّ من الطبیعی أن یعمد رجلٌ مثل هذا إلی فعل کلّ ما یشفی غلیله ویذهب غیظه، ومن ذلک ترویج الشائعات الکاذبه انتقاماً من المجتمع الإسلامی.

فعندما یعجز العدوّ عن المواجهه المباشره یعمد إلی حبک الشائعات،

وترويجها وإشاعتها ليستطيع من خلال ذلك، توجيه ضربه نفسيّه إلى المجتمع، وكذا بلبله الرأى العام، وإشغاله بالتوافه وصرفه عن القضايا المهمه والمصيريه.

إنّ سلاح الشائعات من الأسلحه المدمّره الّتى يمكن أن تستخدم فى تشويه سمعه الأفراد الصالحين، وإبعاد الناس عنهم.

المنافقون يتّهمون شخصاً نقىّ الجيب

يستفاد من الآيات النازله فى قضيّه «الإفك» أنّ المنافقين اتّهموا شخصاً بريئاً بتهمه الزنا، تحقيقاً لمآربهم الدنيئه، وإضراراً بالمجتمع الإسلامىّ، وقد ردّهم القرآن وشجب عملهم بشدّه قلّ نظيرها، وأبطل خطّتهم.

فمَن هو - يا ترى - ذلك البرىء؟ إنّ فى ذلك خلافاً بين المفسّرين، فالأكثرون على أنّها «عائشه» زوجه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ويرى الآخرون أنّها «ماريه» القبطيه أُمّ إبراهيم وزوجه رسول اللّه أيضاً، ولقد ذكروا أسباباً مختلفه لنزول هذه الآيات لا تخلو عن إشكال. وها نحن ندرس القول الّذى يذهب إلى أنّ المراد فى هذه الآيات هو: «عائشه»، وتوضيح ما يصحّ وما لا يصح فى هذا المجال:

دراسه القول الأوّل

يرى المحدّثون والمفسّرون من أهل السنّه أنّ نزول آيات «الإفك» يرتبط بعائشه، ويذكرون فى هذا المجال روايه مفصّله لا يتلاءم بعضها مع عصمه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ومن هنا لا يمكن القبول بهذا القول على إطلاقه.

وها نحن نذكر ما يتلاءم من هذه القصّه مع عصمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم ثم نستعرض آيات الإفك، ثم نشير إلى القسم الّذى يخالف عصمته صلى الله عليه و آله و سلم فى هذا القول.

إنّ إسناد هذه الروايه تنتهى برمّتها إلى «عائشه»(۱) نفسها، فهى تقول: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيّتهنّ خرج سهمها خرج بها معه، فلمّا كانت غزوه بنى المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمى عليهن معه فخرج بى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم...، فلمّا فرغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من سفره ذلك وجّه قافلاً حتّى إذا كان قريباً من المدينه نزل منزلاً فبات به بعض الليل، ثم أذّن فى الناس بالرحيل، فارتحل الناسُ وخرجتُ لبعض حاجتى، وفى عنقى عقد لى، فيه جزع ظفار (أى خرز يمنى)، فلمّا فرغت انسلّ من عنقى ولا أدرى، فلمّا رجعت إلى الرَّحل ذهبت التمسُه فى عنقى فلم أجده، وقد أخذ الناس فى الرحيل، فرجعت إلى مكانى الّذى ذهبتُ إليه، فالتمستُه حتّى وجدته، وجاء القوم خلافى الذين كانوا يرحّلون لى البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنّى فيه كما كنت أصنع، فاحتملوه، فشدّوه على البعير ولم يشكُّوا أنّى فيه، ثم أخذوا رأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس .

قالت: فتلفّفت بجلبابى، ثم اضطجعت فى مكانى، وعرفت أن لو قد افتقدتُ لرجع إلىّ. قالت: فواللّه إنّى لمضطجعه إذ مرّ بى صفوان بن المعطل السلمى (وهو من فرسان الإسلام) وقد كان تخلّف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادى، فأقبل حتّى وقف علىّ، وقد كان يرانى قبل أن يُضرب علينا الحجاب، فلمّا رآنى قال: إنا للّه وإنا إليه راجعون ظعينه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وأنا متلفّفه فى ثيابى. قال: ما خلّفكِ يرحمك اللّه. قالت: فما كلّمتُه، ثم قرّب البعير فقال:

إركبى، واستأخرَ عنّى فركبتُ، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً يطلبُ الناس،

۱- . راجع: تفسير الدر المنثور: ۲۴/۵-۳۴.

فواللّه ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتّى أصبحت، ونزل الناسُ فلمّا اطمأنوا طلَع الرجلُ يقودنى، فقال أهل الإفك ما قالوا؛ فارتعج العسكر (أى شكوا فىّ) وواللّه ما أعلم بشىء من ذلك.(۱) حتّى نزلت آيات «الإفك» تبرّئنى ممّا اتّهمنى به المنافقون .

هذا القسم من شأن النزول الّذى لخّصناه لك من قصّه مفصّله يمكن تطبيقها مع آيات «الإفك»، وليس فيه ما ينافى عصمه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

واليك الآيات الّتى نَزلَتْ فى هذا المجال:

«إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَهٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِى تَوَلّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ * لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَهِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ * وَ لَوْ لا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَهِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيمٌ * وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ» .(۲)

أبرز النقاط فى آيات «الإفك»

يستفاد من القرائن أنّ هذه التهمه كانت نابعه أساساً من المنافقين، أى أنّه من

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۶۴/۳-۷۶۵. ولاحظ: صحيح البخارى: ۵۵/۵-۵۷، حديث الإفك؛ وج ۵/۶-۷، تفسير سوره النور.

۲- . النور: ۱۱-۱۶.

كيدهم، وإليك هذه القرائن:

١. يقال: أنّ المراد من قوله سبحانه: «وَ الَّذِی تَوَلّی کِبْرَهُ مِنْهُمْ» هو «عبداللّه بن أُبی» رئیس المنافقین، وکبیرهم.

٢. لقد عبّر تعالی فی الآیه الحادیه عشره عن الذین اتّهموا المرأه بلفظ:

«عصبه» وهذه العباره تستعمل فی الجماعه المنظّمه، الّتی یربطها هدفٌ واحدٌ وتحدوها غایهٌ واحدهٌ، وتفید أنّهم کانوا متعاونین ومتعاضدین فی المؤامره، ولم یکن مثل هذه الجماعه بین المسلمین إلّاالمنافقون.

٣. أنّ «عبداللّه بن أُبی» بسبب منعه من الدخول إلی المدینه، بقی عند مدخل المدینه، وعندما شاهَد عائشه وهی راکبه بعیر صفوان استغل الفرصه للإیقاع برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إشفاءً لغیظه، فبادر إلی استعمال سلاح التُّهمه والبهتان، وقال:

إنّ زوجه النبی صلی الله علیه و آله و سلم باتت مع أجنبی فی تلک اللیله وواللّه ما نجا منهما مِن الإثم أحدٌ.

٤. إنّه تعالی یقول فی نفس الآیه (أی الحادیه عشره): «لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَکُمْ بَلْ هُوَ خَیْرٌ لَکُمْ» .

والآن یجب أن نری کیف لا یکون اتّهام مؤمن طاهر الجیب، شرّاً للمؤمنین؛ بل یکون خیراً لهم؟

إنّ سبب ذلک هو أنّ هذه القصّه کشفت القناع عن نوایا المنافقین ومقاصدهم الشرّیره وافتضحوا برمّتهم، هذا مضافاً إلی أنّ المسلمین أخذوا من هذه القضیه دُرُوساً مفیده، مذکوره فی محلّها.

الزیادات فی هذه القصّه

اشاره

هذا القدر من القصّه یمکن تطبیقه مع القرآن الکریم، ولا یتنافی مع عصمه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ولکنّ البخاری روی بین ثنایا هذه القصّه أُموراً - نقلها عنه الآخرون فی الأغلب - تعانی من إشکالین أساسیین هما:

۱. منافاتها لمقام النبوّه والعصمه

فقد روی البخاری عن عائشه نفسها قولها:

فقدمنا المدینه فاشتکیت حین قدمت شهراً، والناس یفیضون فی قول أصحاب الإفک لا أشعر بشیء من ذلک، وهو یریبنی فی وجعی أنّی لا أعرف من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم اللطف الذی کنت أری منه حین اشتکی، إنّما یدخل علیّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فیسلّم ثم یقول: کیف تیکم، ثم ینصرف، فذاک الذی یریبنی ولا أشعر بالشر... فأخبرتنی (أُمّ مسطح) بقول أهل الإفک فازددت مرضاً علی مرضی، قالت:

فما رجعت إلی بیتی ودخل علیّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثم قال: کیف تیکم؟ فقلت: أتأذن لی أن آتی أبوی قالت: وأنا حینئذٍ أُرید أن استیقن الخبر من قبلهما، فإذن لی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فجئت أبوی، فقلت لأُمّی: یا أمتاه ما یتحدّث الناس؟ قالت: یا بنیّه هونّی علیک فواللّه لقلّما کانت امرأه قط وظیئه عند رجل یحبها ولها ضرائر إلّاکثرن علیها.... ثم إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم شاور «أُسامه بن زید» فی الأمر، فأثنی علیَّ خیراً وقال: یا رسول اللّه أهلَک وما نعلم إلّاخیراً.

وشاور علیّاً فقال: یا رسول اللّه لم یضیّق اللّه علیک والنساء سواها کثیر وإن تسأل الجاریه ستُصَدّقک (إی جاریه عائشه) فدعا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بریره فقال: أی

بریره هل رأیت من شیء یریبک؟ قالت بریره: لا والذی بعثک بالحقّ إن رأیت علیها أمر أغمضه علیها...(۱)

إنّ هذا القسم من الروایه یتنافی بقوه مع عصمه النبی صلی الله علیه و آله و سلم؛ لأنّه یکشف عن أنّ النبی وقع فریسه بأیدی الشائعات الکاذبه إلی درجه أنّه غیّر سلوکه مع عائشه، وشاور أصحابه فیها!!

إنّ مثل هذا الموقف مع شخص بریء لا یوجدُ علی تهمته أی دلیل، لیس فقط یتنافی مع مقام العصمه النبویه، بل یتنافی حتّی مع مقام مؤمن عادی؛ لأنّه بین المؤمنین لیس من الجائز أبداً أن تغیَّر الشائعات سلوک مسلم عادیٍّ تجاه شخص منهم، وحتّی لو ترکت تلک الشائعات تأثیراً فی نفس المسلم، فلیس من الجائز أن تُحدث مثل ذلک التغییر والانقلاب فی نظرته وسلوکه.

إنّ القرآن الکریم یوبّخ فی الآیه ۱۲ و ۱۶ من سوره النور أُولئک الذین وقعوا فریسه الشائعات وظنّوا الظنّ السوء إذ یقول تعالی:

«لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَیْراً وَ قالُوا هذا إِفْکٌ مُبِینٌ» ؟

«وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما یَکُونُ لَنا أَنْ نَتَکَلَّمَ بِهذا سُبْحانَکَ هذا بُهْتانٌ عَظِیمٌ» ؟!(۲).

فإذا صحَّ هذا القِسمُ من الروایه المذکوره فی شأن النزول لزم أن نقول: إنّ

۱- . لاحظ: صحیح البخاری: ۶/۶-۷، تفسیر سوره النور، و ج ۵/۵۶-۵۷، حدیث الإفک، السیره النبویه لابن هشام: ۷۶۶/۳.

۲- . أی لماذا - عندما سمعتم بهذا الافتراء - لم تظنّوا بأنفسکم خیراً؟! وقلتم: هذا إفک، ولماذا - عندما سمعتم بهذا الکلام - لم تقولوا هذا بهتان لا یجوز ان نتکلم به؟!

هذا العتاب الشديد وهذا التوبيخ الصارخ كان يعمُّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أيضاً، والحال أنّ مقام النبوه الّذى يلازم العصمه لا يسمح لنا بأن نقول بأنّ هذا الخطاب والتوبيخ موجَّهين إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

من هنا لا مناص من رفض كلّ هذه الروايه المذكوره فى شأن النزول الّذى يتنافى مع عصمه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، أو القبول بالقسم الّذى لا يتنافى منها مع عصمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم ورفض ما يتنافى معها.

۲. سعدُ بن معاذ توفّى قبل حادثه «الإفک»

ويروى البخارى فى صحيحه فى ذيل شأن النزول عن عائشه نفسها: بعد أن سأل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بريره عن أمرى، فقالت فىّ خيراً، وصعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المنبر فحمدَ اللّه وأثنى عليه وقال: يا معشر المسلمين مَن يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى واللّه ما علمت على أهلى إلّاخيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلّاخيراً، وما يدخل على أهلى إلّامعى.

فقام «سعدُ بن معاذ» وقال: يا رسول اللّه أنا أعذرک فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک.

فقام «سعد بن عباده» وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلک رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميه فقال لسعد: كذبتَ لعمراللّه، لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطک ما أحببت أن يقتل(۱).

۱- . كان «سعد بن معاذ» رئيس الأوس و «سعد بن عباده» رئيس الخزرج، وكانت بين هاتين القبيلتين منافسه قديمه، وكان «عبداللّه بن أُبى» خزرجياً، فاعتبر «سعد بن عباده» كلام «سعد بن معاذ» تعريضاً بالخزرج وحطّاً من شأنهم.

فقام أَسید بن حضیر - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عباده:

کذبت لعمر اللّه لنقتلنَّه، فإنّک منافقٌ تجادلُ عن المنافقین.

فثار الحیّان الأوس والخزرج حتی همّوا أن یقتتلوا ورسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قائم علی المنبر، فلم یزل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یخفضهم حتی سکتوا وسکت.(۱)

هذا القسم من القصّه المذکوره فی روایه البخاری غیر صحیح، ولا یتلاءم مع التاریخ الثابت الصحیح لأنّ «سعد بن معاذ» کان قد مات بعد إصدار حکمه فی بنی قریظه متأثراً بجرح أصابه فی معرکه «الأحزاب»، وقد وقعت حادثه «الإفک» بعد واقعه بنی قریظه، وقد صرّح البخاری نفسه بهذا فی صحیحه (ج ۵ ص ۵۱) فی باب «معرکه الأحزاب وبنی قریظه»، فکیف یمکن والحال هذه أن یحضر مجلس رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ویجادل «سعد بن عباده» فی قصّه الإفک الّتی وقعت بعد واقعه بنی قریظه بعدّه شهور؟!(۲)

لقد ذهب المؤرّخون إلی أنّ معرکه الخندق ثم واقعه بنی قریظه وقعتا فی شهر شوال من السنه الخامسه للهجره، فتکون النتیجه أنّ قضیه بنی قریظه انتهت فی التاسع عشر من شهر ذی الحجّه، وقد توفّی سعد بن معاذ فی أعقاب هذه الحادثه مباشره لمّا انفجر به جرحه(۳) فی حین وقعت غزوه بنی المصطلق فی

۱- . صحیح البخاری: ۵۸/۵، حدیث الإفک؛ وج ۷/۶، تفسیر سوره النور.

۲- . والجدیر بالذکر أنّ ابن هشام لم یذکر فی سیرته «سعد بن معاذ»، ولکنّه روی جدال أُسید مع سعد بن عباده، راجع: السیره النبویه لابن هشام: ۷۶۷/۳، وهکذا فعل ابن الاثیر فی الکامل فی التاریخ: ۱۹۷/۲، ولکنّ صاحب المغازی ذکر القصّه کامله، وأتی باسم سعد بن معاذ راجع المغازی: ۴۳۱/۱.

۳- . السیره النبویه لابن هشام: ۷۳۰/۳.

شهر شوال من السنه السادسه(۱).

أجل إنّ ما هو مهمٌّ فی المقام هو أن نعرف أنَّ حزب النفاق حاول أن یزلزل النفوس، ویبلبلها ببهت امرأه صالحه ذات مکانه فی المجتمع الإسلامی یومذاک.

وقد فُسّر قوله: «وَ الَّذِی تَوَلّی کِبْرَهُ» : أی الّذی تحمّل القسط الأکبر من هذه العملیه الخبیثه هو عبداللّه بن أُبی، فهو الّذی قاد هذه العملیه الرخیصه والخطره کما صرّحت بذلک عائشه نفسُها أیضاً.

الروایه الأُخری فی سبب النزول

وتقول هذه الروایه: إنّ الآیات الحاضره نزلت فی «ماریه القبطیّه» زوجه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ووالده إبراهیم.

فإنّ هذه الروایه تقول: لمّا مات إبراهیم بن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حزن علیه حزناً شدیداً، فقالت عائشه: ما الّذی یُحزنک علیه؟ ما هو إلّاابن جریح، فبعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علیّاً صلوات اللّه علیه وأمره بقتله، فذهب علیٌّ صلوات اللّه علیه ومعه السیف، وکان جریح القبطی فی حائط (أی بستان)، فضرب «علیٌ» باب البستان، فأقبل جریح لیفتح له الباب، فلمّا رأی علیّاً صلوات اللّه علیه، عرف فی وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم یفتح باب البستان، فوثب علی علیه السلام علی الحائط ونزل إلی البستان، وأتبعه، وولّی جریح مدبراً، فلمّا خشی أن یرهقهُ (أی یدرکه) صعد علی نخله وصعد «علیٌ» فی أثره، فلمّا دنا منه رمی جریح بنفسه من فوق النخله،

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۷۵۷/۳. ولعلّه فطن ابن هشام لهذه الناحیه فترک ذکر سعد بن معاذ، بینما غفل عنها البخاری فی صحیحه، راجع شروح البخاری منها: فتح الباری شرح صحیح البخاری لابن حجر: ۴۷۱/۸ و ۴۷۲ للوقوف علی اضطراب الشرّاح فی معالجه هذا التناقض.

فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء، فانصرف عليٌّ عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقال له: يا رسول اللّه إذا بعثتنى فى الأمر أكونُ فيه كالمسمار المحمى فى الوبر أم أتثبّت؟

قال: لا؛ بل تثبت.

قال: والّذى بعثك بالحقّ ما له ما للرجال ولا ما للنساء.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: الحمدللّه الّذى صرَف عنّا السُّوء أهل البيت.(۱)

وهذه الروايه الّتى نقلها «المحدّث البحرانى» فى «تفسير البرهان»، و «الحويزى» فى تفسير «نور الثقلين» ضعيفه وغير مستقيمه من حيث المفاد، وهو ضعف ظاهر لا يحتاج إلى البيان.

ومن هنا لا يمكن القبول بها فى شأن نزول هذه الآيات.

فالمهم هو وقوع أصل هذه الحادثه، كان مَن كان المتَّهم فيها.

۱- . البرهان فى تفسير القرآن: ۵۳/۴ برقم ۷۵۷۳؛ نور الثقلين: ۵۸۱/۳-۵۸۲.

۴۳ رحلهٌ سیاسیّهٌ دینیّهٌ

اشاره

کانت السنه الهجریه السادسه بکلّ حوادثها المرّه والحلوه تقترب من نهایتها عندما رأی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی المنام أنّه دخل البیت (الکعبه) وحلق رأسه، وأخذ مفتاح البیت، وعرّف مع المعرّفین، فقصّ صلی الله علیه و آله و سلم هذه الرؤیا علی أصحابه وتفاءل بها خیراً(۱).

ولم یلبث أن أمر أصحابه بالتهیّؤ للعمره، ودعا القبائل المجاوره الّتی کانت لا تزال علی شرکها وکفرها إلی مرافقه المسلمین فی هذه السفره، ولهذا شاع فی جمیع أنحاء الجزیره العربیه أنّ المسلمین سیتّجهون فی شهر ذی القعده صوب مکّه یریدون العمره.

ولقد کانت هذه السفره الروحانیه تنطوی - مضافاً إلی العطاء الروحی والمعنوی - علی مصالح إجتماعیه وأهداف سیاسیه، فقد عزّزت مکانه المسلمین فی شبه الجزیره العربیه، وتسبّبت فی انتشار دین التوحید فی أوساط المجتمع العربی آنذاک، وذلک:

۱- . المغازی: ۵۷۲/۱؛ إمتاع الأسماع: ۲۷۴/۱.

أوّلاً: لأنّ القبائل العربيه المشركه كانت تتصوّر أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم يخالف كلّ عقائد العرب، وتقاليدهم الشعبيه، والدينيه حتّى فريضه الحج، والعمره الّتى كانت تعدّ من ذكريات الاسلاف ومواريثهم.

من هنا كانوا يخافون رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويتوجّسون خيفه من دينه، وعقيدته، ولكنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم استطاع فى هذه المناسبه باشتراكه، واشتراك أصحابه فى مراسيم العمره أن يخفّف هذا الخوف لدى القبائل المشركه إلى حدٍّ كبير، وأن يوضح بعَمله أنَّ رسولَ الإسلام لا يعارضُ زياره بيت اللّه الحرام، والفريضه المذكوره الّتى تعد من طقوسهم الدينيه، وتقاليدهم المذهبيه، بل يعتبرها فريضه مقدّسه، فهو مثل والد العرب الأكبر «إسماعيل بن إبراهيم الخليل» عليهما السلام يعمل على المحافظه على هذه التقاليد الدينيه، وبهذا استطاع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يستقطب قلوب من كان يتوهّم أنّ رساله «محمَّد» ودعوته، ودينه يعارض جميع شؤونهم وتقاليدهم وأعرافهم الدينيه، والشعبيه، ويخالفها مخالفه مطلقه، ويقلّل من خوفهم، واستيحاشهم.

ثانياً: إذا استطاع المسلمون أن يحرزوا فى هذا السبيل نجاحاً، ويؤدّوا مناسك العمره فى المسجد الحرام بحريه، أمام أعين الآلاف من المشركين، فإنّ عملهم هذا بنفسه سيكون تبليغاً ناجحاً للإسلام، لأنّ أخبار المسلمين ستنتشر بواسطه المشركين الذين قدموا مكّه من جميع المناطق لأداء مناسك العمره، فسيحملون أنباء ما رأوه وشاهدوه من أفعال المسلمين الرشيده، وأخلاقهم الفاضله، إلى أوطانهم لدى عودتهم من مكّه إلى بلادهم، وبهذا ينتشر نداء الإسلام فى تلكم المناطق الّتى لم يستطع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يبعث إليها الدعاه والمبلغين حتّى ذلك الحين، ويترك هذا الأمر أثره المطلوب.

ثالثاً: أنّ رسولَ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ذكّر الناس فى المدينه بحرمه الأشهر الحرم ثم أمر المسلمين بأن لا يحملوا معهم من الأسلحه شيئاً إلّاالسيف الّذى يحمله كلّ مسافر معه.

ولقد جلب هذا الأمر عواطف كثير من الغرباء عن الإسلام نحو هذا الدين، وغيّر من نظرتهم السلبيه تجاه دعوه الإسلام، لأنّهم شاهدوا بأُمّ أعينهم أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يحرّم القتال فى هذه الأشهر، ويدافع بنفسه عن هذه السنّه الدينيه القديمه ويدعو إلى رعايتها خلافاً لكلّ الدعايات الّتى كانت تبثّها قريش عن أنّ الإسلام لا يحترم هذه الأشهر، ويجيز الاقتتال وسفك الدماء فيها.

لقد فكّر القائد الإسلامى مع نفسه بأنّه لو أصاب المسلمون فى هذا السبيل أىّ نجاح، فإنهم يكونون قد حقّقوا أملاً قديماً من آمالهم الّتى طالما تشوّقوا إلى تحقيقها.

كما أنّه سوف يستطيع المهاجرون الّذين طال بعدهم عن وطنهم، وأهليهم، أن يزوروا ذويهم وأقرباءهم. هذا إذا سمحت قريش لهم بدخول مكّه.

وأمّا إذا منعتهم قريش عن الدُّخول فى الحرم فإنّ مكانه قريش ستتعرّض - حينئذ - لخطر السقوط فى العالم العربى، وسيلومهم العرب على ذلك، لأنّ جميع ممثلى القبائل العربيه المحايده سترى كيف عاملت قريشٌ جماعه مسالمه أرادت دخول مكّه لأداء مراسيم العمره، وزياره الكعبه المعظمه، ولا تحمل معها أىَّ سلاح إلّاما يحمله المسافر فى سفره عاده، فى حين يرتبط المسجد الحرام بالعرب كافّه، وإنّما تقوم قريش بمجرّد سدانته، وإداره شؤونه.

وهنا تتجلّى حقّانيه المسلمين بشكل واضح، ويتّضح عدوان قريش، وينكشف للجميع بطلان مواقفها، فلا تستطيع قريش بعد ذلك أن تواصل تأليبها

للقبائل العربيه ضدّ الإسلام، وعقد تحالفات عسكريه واتّحاد عسكرى مع قواها لمحاربه المسلمين لأنّها قد منعت الزوّار المسلمين أمام أعين الآلاف من الحجيج والزائرين من حقّهم المشروع.

لقد لاحظ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كلّ هذه الجوانب وغيرها فأمر المسلمين بالتوجّه نحو مكّه، وأحرم ألف وأربعمائه(۱)، أو الف وستمائه(۲)، أو ألف وثمانمائه(۳) فى «ذى الحليفه» و قلّد سبعين بدنه (بعيراً) وبهذا أعلن عن هدفه من تلك الرحله.

ولقد أرسل رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عيناً له ليخبره عن قريش إذا وجدهم فى أثناء الطريق.

ولمّا كان رسول اللّه بعسفان (وهى منطقه بين الجحفه ومكه) أتاه رجلٌ خزاعىّ كان يتقصّى الأخبار لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقال: يا رسول اللّه هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذى طوى، يعاهدون اللّه أن لاتدخلها عليهم أبداً، وهذا «خالد بن الوليد» فى خيلهم (وكانوا مائتين) قد قدّموها إلى كراع الغميم. (وهى موضع بين مكّه والمدينه أمام عُسفان بثمانيه أميال).

فلمّا سمع رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعزم قريش على منعه ومنع أصحابه من العمره قال:

«يا ويحَ قريش، لقد أكَلتهُم الحربُ، ماذا عليهم لوخلّوا بينى وبين سائر

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۷۴/۳.

۲- . مجمع البيان: ۲۸۸/۲.

۳- . روضه الكافى: ۳۲۲/۸.

العرب، فإن هم أصابونی کان الّذی أرادوا، وإن أظهرنی اللّه علیهم دخلوا فی الإسلام وافرین، وإن لم یفعلوا قاتلوا وبهم قوه، فما تظُنُّ قریش، فواللّه لا أزال أُجاهد علی الّذی بعثنی اللّه به حتّی یظهره اللّه، أو تنفردُ هذه السالفه(۱) (أی أُقتل أو أموت).

ثم قال: مَن رجل یخرج بنا علی طریق غیر طریقهم التی هم بها؟ قال رجل من أسلم: أنا یا رسول اللّه، فسلک بهم طریقاً وعراً أجرل(۲) بین شعاب، فلمّا خرجوا منه، وقد شق ذلک علی المسلمین وأفضوا إلی أرض سهله عند منقطع الوادی....

وخرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حتّی إذا سلک فی ثنیه المرار برکت ناقته، فقال الناس: خلأت(۳) الناقه، قال: ما خلأت وما هولها بخلق، ولکن حبسها حابس الفیل عن مکّه.(۴)

ثم أمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الناس أن ینزلوا فی ذلک المکان فنزلوا.

ولمّا علمت طلیعه قریش بمسیر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، لحقت به، حتّی اقتربت منه وحاصرت موکبه ورجاله فکان علی النبی صلی الله علیه و آله و سلم إذا أراد أن یواصل سیره باتّجاه مکّه أن یخترق صفوف رجال قریش، فیسفک دماءهم ویعبر علی أجسادهم، وحینئذ کان الجمیع یری أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لا یهدف العمره والزیاره بل یرید الحرب والقتال، فکان مثل هذا العمل یسیء إلی سمعه النبی صلی الله علیه و آله و سلم ویضر بهدفه

۱- . السالفه: صفحه العنق، وکنی بهذه الجمله عن الموت لأنّها لا تنفرد عمّا یلیها الّا بالموت.

۲- . أجرل - بفتح الهمزه وسکون الجیم وفتح الراء -: أی کثیر الحجاره. والجرل: الحجاره. سبیل الهدی والرشاد للصالحی الشامی: ۸۳/۵، لسان العرب: ۱۰۷/۱۱، ماده «جرل».

۳- . خلأت الناقه: أی برکت ولم تبرح من مکانها.

۴- . السیره النبویه لابن هشام: ۷۷۵/۳. وقد أشار بهذا الکلام إلی واقعه الفیل.

السلميّ.

ثم إنّ قتل هؤلاء النفر من طليعه قريش لا يزيل جميع الموانع من طريقه، لأنّ قريشاً كانت تبعث بإمدادات مستمره، ولم يكن لينته إلى هذا الحدّ.

هـذا مضافـاً إلى أنّ المسـلمين ما كانوا يحملون معهم - حينـذاك - إلّاما يحمله المسافر العادىّ من السـلاح، ومع هـذه الحال لم يكن القتال أمراً صحيحاً، وحكيماً، بل كان يجب أن تحلَّ المشكله عن طريق التفاوض.

ولهذا عندما نزل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى تلك المنطقه قال:

«لا تَدْعُونى قريشٌ اليوم إلى خُطّه يَسألونَنِى فيها صلهُ الرحم إلّاأعطيتُهُمْ إيّاها»(۱).

ولقـد بلغ كلامُ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم هذا مسامع الناس، وكان من الطبيعى أن يسـمَعَ به العدُو أيضاً، ولهذا بعثوا برجال من شخصيّاتهم إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليتعرّفوا على هدفه الأصلى من هذا السفر.

مندوبُو قريش عند النبى صلى الله عليه و آله و سلم

بعثت قريش بعدّه مندوبين إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليتعرّفوا على مقصده وهدفه من هذا السفر.

وكان أوّل أُولئك المبعوثون هو: «بديل بن ورقاء الخزاعى» الّذى أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى رجال من خزاعه فكلّموه - نيابه عن قريش - وسألوه: ما الّذى جاء به؟ فقال لهم رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم: «إنّا لَمْ نجئ لِقتال أحـدٍ، ولكنّا جئنا معتمرين».

فرجعوا إلى قريش وأخبروهم بأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يأت لِقتال وإنّما جاء

۱- . تاريخ الطبرى: ۲۷۳/۲؛ السيره النبويه لابن هشام: ۷۷۵/۳-۷۷۶.

معتمراً زائراً لبيت اللّه، ولكنّ قريشاً لم يصدّقوهم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فواللّه لا يدخُلها علينا عنوه أبداً، ولا تحدّثُ بذلك عنّا العربُ.

ثم بعثوا «مكرز بن حفص» فسمع من النبى صلى الله عليه و آله و سلم ما سمعه سابقه، فعاد وصدّق ما أخبر بديل قريشاً به، ولكنّ قريشاً لم تصدّق مكرزاً أيضاً كما لم تصدّق سابقه.

فبعثت فى المره الثالثه الحليس بن علقمه(۱) وكبير رماه العرب، لحسم الموقف، فلمّا رآه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مقبلاً قال:

«إنّ هذا من قوم يتألَّهُون (أى يعظّمون أمر اللّه) فابعثوا الهدىَ فى وجهه حتّى يراهُ».

فلمّا رأى الحليس، الهدىَ يسيل عليه من غير عُرض الوادى فى قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محلّه، رجعَ إلى قريش، ولم يصل إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إعظاماً لما رأى، فقال لهم: يا معشر قريش واللّه ما على هذا حالفْناكُمْ، ولا على هذا عاقَدْناكم، أيُصدّ عن بيت اللّه من جاء معظّماً له؟! والّذى نفسُ الحليس بيده لتخلّنَّ بين محمَّد وما جاء له، أو لأنفِرنَّ بالأحابيش نفره رجل واحد.(۲)

وهكذا امتنع الحليس من مواجهه رسول اللّه بالقوّه واستخدام العنف معه لصدّه، وقد لاحظ بأُمّ عينيه أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم والمسلمين لا يريدون إلّاالعمره والزياره لا القتال والحرب، بل عاد يهدّد قريشاً إذا هى أرادت صدّه عن ذلك.

فشقّ هذا الكلام وهذا التهديد على قريش وخافوا من مخالفته، فقالوا: مَهْ، كفَّ عنا يا حُلَيس حتّى نأخذ لأنفسَنا ما نرضى به.

۱- . لقد جاء الحليس إلى النبى بعد عروه الثقفى حسب روايه الطبرى فى تاريخه: ۲۷۶/۲.

۲- . تاريخ الطبرى: ۲۷۶/۲.

ثمّ بعثوا أخيراً «عروه بن مسعود الثقفى» وكان رجلاً لبيباً تطمئن قريشٌ إلى درايته وحكمته، وكان لا يحبُّ أن يمثّل قريشاً فى هذه المفاوضات لما رآه مِن معاملتهم مع المبعوثين السابقين، ولكنّ قريشاً تعهدت له بأن تقبل بما يقول، وأعلنت له عن ثقتها الكامله به، وبما سيخبر به، وبأنّه غير متّهم عندهم.

فخرج من عندهم حتّى أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فجلس بين يديه ثم قال: يا محمَّد جمعتَ أوْشابَ الناس (أى أخلاطهم) ثم جئتَ بهم إلى أهلك وقبيلتك، إنّها قريشٌ قد خرجت معها العُوذُ المطافيلُ، وقد لبسوا جلود النمُور، يعاهدون اللّه لا تدخلها عليهم عنوه أبداً، وأيمُ اللّه لَكأنّى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، (أو قال: أن يَفرُّوا عنك ويدعوك).

وعندما بلغ ابن مسعود فى كلامه إلى هذا قال له أبوبكر وكان جالساً خلف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: أنحنُ ننكشفُ عنه؟

لقد كان «عروه» كأىّ دبلوماسىّ ماكر، يحاول إضعاف معنويات أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بكلامه، وروغانه.

وأخيراً انتهت المباحثات دون جدوى. وهنا جعل «عروه» يتناول لحيه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ازدراء به صلى الله عليه و آله و سلم، والمغيره بن شعبه - وكان واقفاً على رأس رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - يقرعُ يَدَه إذا تناول لحيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم ويقول: اكفُف يَدكَ عن وَجه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قبل أن لا تصِلَ إليك.

فسأل عروه: من هذا يا محمَّد؟ فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: هذا ابن أخيك المغيره بن شعبه (ويبدو أنّ جميع من كان حول النبى آنذاك أو بعضهم كانوا مقنّعين رعايه للظروف الأمنيه).

فغضب عروه وقال: «أى غُدَر، وهل غَسلْتُ سوأتك إلّابالأمس» وكان

المغیره قد قتل قبل إسلامه ثلاثه عشر رجلاً من بنی مالک من ثقیف فودی عروه المقتولین وأصلح الأمر.

فقطع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الکلام علی عروه وقال له مثل ما قال لبُدیل ورفیقیه، وأنّه لم یأت یریدُ حرباً، بل جاء یرید العمره، ولأجل أن یُری عروه مکانته بین أصحابه وأتباعه، قام صلی الله علیه و آله و سلم وتوضّأ أمامه، فرأی عروه بأُمّ عینیه کیف أنّه لا یتوضّأ إلّا وتسابق أصحابُه علی التقاط القطرات المتناثره من وضوئه، فرجع إلی قریش وقال لهم: یا معشر قریش إنّی قد جئت کسری فی مُلکه، وقیصر فی مُلکه، والنجاشیَّ فی مُلکه، وإنّی واللّه ما رأیتُ مَلِکاً فی قوم قطّ مَثلَ محمَّد فی أصحابه، ولقد رأیتُ قوماً لا یُسْلِمُونَهُ لشیء قط، فَروا رأیَکُمْ (۱).

رسول اللّه یبعث مندوباً إلی قریش

لم تثمر الاتّصالات الّتی جرت بین مبعوثی قریش، وبین رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فکان من الطبیعی أن یتصوّر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أنَّ مبعوثی قریش لم یستطیعوا نقل هدفه إلی قریش، وإسماعهم الحقیقه، وأنّ اتّهامهم لهم بالجبن والکذب منعهم من قبول ما قد أخبروا به، ولهذا قرّر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن یبعث هو مندوباً عنه إلی رؤوس الشرک لیوضّح لهم هدف رسول الإسلام من هذا السفر، وأنّه لیس إلّازیاره بیت اللّه وأداء مناسک العمره لا غیر.

فاختار رجلاً لبیباً حازماً من بنی خزاعه یدعی «خراش بن أُمیّه» فبعثه إلی قریش بمکّه وحمله علی بعیر یقال له «الثعلب». لیبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له من الزیاره والعمره، فدخل مکّه، وبلّغ ساده قریش رساله النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم ولکنّ قریشاً –

۱– . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۷۷۸/۳–۷۷۹؛ المغازی: ۵۹۸/۲؛ إمتاع الأسماع: ۲۸۷/۱.

خلافاً لكلّ الأعراف الدوليه والاجتماعيه قديماً وحديثاً، والقاضيه بحصانه السفراء وضروره احترام كلّ ما يمتّ إليهم بصله من ممتلكاتهم - عمدت إلى جمل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الّذى امتطاه سفير النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى مكّه فعقروه عدواناً، وكادوا أن يقتلوا سفير النبى صلى الله عليه و آله و سلم نفسه، ولكن وساطه جماعه من قاده العرب أدّت إلى أن تخلّى قريش سبيله حتّى أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.(۱)

إنّ هذا العمل الدنىء أثبت - بوضوح - أن قريشاً لم تكن تريد السلام بل كانت دائماً فى صدد إشعال فتيل الحرب.

ولم تلبث قريش أن كلّفت خمسين رجلاً من فتيانها بالطواف بعسكر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بُغيه أخذ شىء من أمواله، أو أسر بعض أصحابه لو أتيح لهم ذلك، إرعاباً للمسلمين وتخويفاً لهم. ولكن هذه الخطّه فشلت فشلاً ذريعاً، فإنّ هؤلاء لم يصيبوا شيئاً بل أسرهم المسلمون جميعاً، وأتى بهم رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فعفا عنهم، وخلّى سبيلهم مع أنّهم كانوا قد رَموا عسكر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالحجاره والنبل.

وبهذا أثبت رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم مرّه أُخرى، أنّه يحب السلام ويسعى إليه، وأنّه جاء معتمراً لا معتدياً ولا محارباً(۲).

النبىُ يبعث سفيراً آخر إلى قريش

رغم كلّ هذه الأُمور ورغم كلّ التصلّب والتعصّب الّذى أبدته القيادهُ القرشيهُ المشركهُ ضدّ الإسلام والمسلمين وضدّ محاولات رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم السلميّه لم ييأس رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من تحقيق السلام فقد كان يريد - واقعاً - أن يعالج المشكله

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۷۹/۳.

۲- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲۷۸/۲؛ السيره النبويه لابن هشام: ۷۷۹/۳.

عن طريق المفاوضات، ومن طريق تغيير التصوّرات الّتى كان يحملها أشراف قريش وسادتها المتعنّتون المتصلّبون عن رسول اللّه و دعوته.

ومن هنا كان يجب هذه المرّه أن يختار صلى الله عليه و آله و سلم رجلاً لم تخض يده فى دماء قريش، ولهذا لم يصلح «على بن أبى طالب» ولا «الزبير» ولا غيرهم من فرسان الإسلام وشجعانه الذين جالدوا صناديد قريش فى ميادين القتال وأردوا فريقاً منهم صرعى، لمثل هذه السفاره، وهذه المهمه.

ولهذا تقرر - بعد التأمّل - انتداب «عمر بن الخطاب» لهذه المهمه، أى الذهاب إلى مكّه، والتحدّث إلى ساده قريش، ورؤسائها، لأنّه لم يكن قد أراق من المشركين حتّى ذلك اليوم ولا قطره دم، ولكن «عمر» اعتذر عن تحمّل هذه المسؤوليه، والقيام بهذه المهمه المحفوفه بالمخاطر قائلاً: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم؛ إنّى أخاف قريشاً على نفسى، وليس بمكّه من بنى عدىّ بن كعب (وهم عشيرته) أحد يمنعنى،... ولكنّى أدُلّك على رجل أعزّ بها منّى، «عثمان بن عفان». (لكونه أموياً بينه وبين أبى سفيان زعيم قريش قرابه)(1).

فدعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم «عثمان بن عفان» فبعثه إلى «أبى سفيان» وأشراف قريش، يخبرهم أنّه لم يأت لحرب، وأنّه إنّما جاء زائراً لهذا البيت ومعظِّماً لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكّه، فلقيه «أبان بن سعيد بن العاص» حين دخل مكّه، أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه، ثم أجاره حتّى بلّغ رساله رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فانطلق «عثمان» حتّى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رساله رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۸۰/۳.

واحتبسته قريش عندها، (ولعلّهم فعلوا ذلك ريثما يتوصلوا إلى حلّ ثم يطلقوه ليبلّغ إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم رأيهم).(۱)

بيعهُ الرضوان

إلّا أنّ إبطاء مبعوث النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم عن العوده من مكّه أوجد قلقاً شديداً فى نفوس المسلمين، خاصّه وأنّه شاع أنّ عثمان قد قتل، فثارت ثائره المسلمين، واستعدّوا للانتقام من قريش، وعمد النبى صلى الله عليه و آله و سلم أيضاً إلى مخاطبتهم قائلاً:

«لا نبرح حتّى نناجِزَ القوم».

وذلك تقويه لإراده المسلمين، وتحريكاً لمشاعرهم الطاهره.

وفى هذه اللحظات الخطيره، وفى ما كان الخطر على الأبواب، وبينما لم يكن المسلمون متهيّئين للقتال قرّر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يجدّد بيعته مع المسلمين.

فجلس رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تحت شجره، وأخذ أصحابُه يبايعونه على الاستقامه والثبات والوفاء واحداً واحداً، ويحلفون له أن لا يتخلّوا عنه أبداً، وأن يدافعُوا عن حياض الإسلام حتّى النفس الأخير، وقد سمّيت هذه البيعه ببيعه «الرضوان» الّتى جاء ذكرها فى قوله تعالى:

«لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَهِ فَعَلِمَ ما فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَهَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» .(۲)

فَاتّضحَ موقفُ المسلمين بعد هذه البيعه، فإمّا أن تسمح لهم قريش بدخول مكّه لزياره بيت اللّه المعظّم، وإمّا أن تتصلّب فى موقفها الرافض فيكون بينهم القتال

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۸۰/۳.

۲- . الفتح: ۱۸.

والحرب(۱).

وبينما كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه الحال إذ طلع عليهم «عثمان بن عفان»، وكان ذلك بنفسه طليعه سلام كان يريده رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فأخبر عثمان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّ الّذى يمنع قريشاً من السماح لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بدخول مكّه هو اليمين الّتى ألزموا بها أنفسهم أن لا يدعوه يدخل مكّه هذا العام، وأنهم سيبعثون إليه من يتفاوض معه بهذا الشأن.

سهيلُ بن عمرو يفاوضُ رسولَ اللّه

بعثت قريش - فى المرّه الخامسه - «سهيلَ بن عمرو» إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقد كلّفته بانهاء المشكله ضمنَ شروط خاصّه سنقرؤها فى ما يأتى.

فأقبل «سهيل بن عمرو» على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ولمّا رآه النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال: قد أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فلمّا انتهى «سهيل» إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تكلّم فى المسأله كما يتكلّم أى دبلوماسىّ بارع، فقال وهو يحاول إثاره عواطف النبى صلى الله عليه و آله و سلم وأحاسيسه:

يا أبا القاسم إن مكّه حرمُنا وعِزُّنا، وقد تسامعت العربُ بك إنّك قد غزوتنا ومتى ما تدخلُ علينا مكّه عنوه تطمعُ فينا فنُتَخَطّف، وإنا نذكِّرك الرحم، فإنّ مكّه بيضتك الّتى تفلَّقت عَن رأسك.

فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «فما تريد»؟

۱- . ولقد كان لهذه البيعه فى نفسها أثرٌ سياسى مهم فى نفس العدو، يقول الواقدى: فلمّا نظرت قريش إلى ما رأت من سرعه الناس إلى البيعه وتشميرهم إلى الحرب اشتدّ رعبُهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضيه (المغازى: ۱/۶۰۴). وراجع: إمتاع الأسماع: ۲۹۰/۱ أيضاً.

قال: أَريـد أن أكتب بينى وبينك هُدنه على أن أَخلّيها لك فى قابل(۱)فتدخلها، ولا تدخلها بخوف ولا فزع، ولا سلاح إلّاسلاح الراكب، السيف فى القراب.(۲)

فقبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعقد مثل هذا الصلح.

وهكذا أدّت مفاوضات «سهيل» مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى عقد صلح شامل وواسع بين قريش وبين المسلمين.

ولقـد تشـدّد «سـهيل» فى شـروط هذا الصـلح كثيراً، حتّى كاد أن ينتهى هذا التشدُّد إلى قطع المفاوضات أحياناً، ولكن حيث إنّ الطرفين كانا يرغبان فى الصلح والموادعه، لهذا كانا يستأنفان التحاور والتفاوض مره أُخرى، بعد كلّ أزمه تطرأ على المباحثات.

وأخيراً انتهت مفاوضـات الجـانبين - رغم كلّ ما أبـداه منـدوب قريش من التصـلّب - إلى عقـد وثيقه موادعه وهـدنه نُظّمت فى نسختين ووقع عليها الجانبان.

ويروى كـافّه المـؤرّخين وأربـاب السـيَر أنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم دعـا عليّـاً عليه السـلام، وأمره أن يكتب تلك الوثيقه قائلاً له: اكتب «بسم اللّه الرحمن الرحيم» فكتب «علىّ» ذلك، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن أكتب: باسمك اللّهم!!

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: اكتب: باسمك اللّهم وامحُ ما كتبتَ. ففعل «علىٌّ» ذلك.

ثم قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: اكتب «هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللّه سهيل بن عمرو».

۱- . أى افرغ لك مكّه فى العام القادم لتدخلها.

۲- . بحار الأنوار: ۳۶۱/۲۰-۳۶۲.

فقال سهيل: لو أجبتُك فی الكتاب إلی هذا لأقررت لك بالنبوّه، فامحُ هذا الاسمَ واكتب: محمَّد بن عبداللّه (أو قال: لو شهدتُ أنّك رسولُ اللّه لم أُقاتلك، ولكن اكتب اسمَك واسم ابيك).

ولم يرض بعض مَن حضر من المسلمين فی هذه النقطه بأن يرضخ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم لمطالب «سهيل» إلی هذه الدرجه، ولكنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم - الّذی كان يلاحظ مصالح عُليا غفل عنها ذلك البعض كما سنذكرها فيما بعد - رضی بمطلب «سهيل»، وقال لعلیّ عليه السلام: امحها يا علیّ.

فقال علیٌّ عليه السلام بأدب بالغ: يا رسول اللّه إن يَدیَّ لا تنطلِقُ لمحو اسمك من النبوّه.

فقال رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم: فضع يدِی عليها، فمحا رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم بيده كلمه:

«رسول اللّه» نزولاً عند رغبه «سهيل» مفاوض قريش(۱).

إنّ التسامح الّذی أَبداه رسولُ اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی تنظيم وثيقه الصلح هذه لا يعرف له نظير فی تاريخ العالم كلّه، لأنّه أظهر بجلاء أنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم لم يقع فريسه بيد الأهواء والأغراض الشخصيه والعواطف والأحاسيس العابره، وكان يعلم أنّ الحقائق لا تتبدَّل ولا تتغيّر بالكتابه والمحو، من هنا تسامحَ مع مفاوض قريش «سهيل» الّذی تصلَّب فی مطاليبه غير المشروعه كثيراً، حفاظاً علی أصل الصلح.

۱- . الإرشاد: ۱۲۰/۱-۱۲۱؛ إعلام الوری: ۳۷۱/۱-۳۷۲؛ بحار الأنوار: ۳۶۱/۲۰-۳۶۲ وقد أخطأ الطبری فی تاريخه: ۲۸۲/۲ فی هذا المقام إذ قال فی إحدی رواياته لهذه الحادثه: قال لعلی عليه السلام: امحُ «رسولَ اللّه»، قال: لا واللّه لا أمحاك أبداً، فأخذه رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم وليس يحسن يكتب فكتب مكان «رسول اللّه»: محمَّد. وهكذا نسب الكتابه إلی شخص رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم ونحن نعلم أنّه أُمّیّ، لا يحسن الكتابه، وقد حقّقنا هذه المسأله فی كتابنا مفاهيم القرآن: ۳۱۹/۳-۳۷۴.

وحرصاً على السلام.

التاريخ يعيد نفسه

ولقد ابتُلىَ علىٌّ عليه السلام، تلميذ النبىّ الأوّل بمثل هذه التجربه المرّه بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فيومَ امتنع علىٌّ عليه السلام عن محو كلمه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن اسم النبىّ قال له النبى صلى الله عليه و آله و سلم:

«يا عَلىّ إنَّک أبيتَ أن تمحوَ اسمِى من النبوّه، فوَالَّذى بعثنى بالحقّ نبيّاً لتجيبنَّ أبناءهم إلى مِثلِها وأنتَ مَضيضٌ مضطهَدٌ»(۱).

ولقد بقيت هذه القضيه فى ذاكره علىّ عليه السلام، حتّى إذا كان يوم «صفين» وخدع بعض أصحاب الإمام علىّ عليه السلام بالأُسلوب الماكر الّذى اتبعه جيش الشّام الّذى قاتل عليّاً عليه السلام بقياده معاويه بن أبى سفيان ومساعده عمرو بن العاص، وأجبروا الإمام عليه السلام على عقد الصلح مع معاويه فشكّل الجانبان لجنه لتنظيم وثيقه ذلک الصلح، كُلِّفَ «عبيداللّه بن رافع» كاتب الإمام، من جانب الإمام علىّ عليه السلام بأن يكتب وثيقه الصلح، فكتب:

«هذا ما تقاضى عليه أميرُالمؤمنين علىٌّ» قال عمرو بن العاص ممثل معاويه فى تلک المفاوضات: لو علمنا أنّک أميرُالمؤمنين لم ننازعک!!

وهكذا طالب عمرو بن العاص بحذف عباره أميرالمؤمنين.

وطال الكلام والتشاجر فى هذا الموضوع، ولم يكن الإمام علىٌّ يريد أن يعطى حجّه للبسطاء من أصحابه، ولهذا لم يرضخ لهذا المطلب، ولكنّه بعد إلحاح

۱- . بحار الأنوار: ۳۵۳/۲۰.

من أحد قاده جيشه سمح بأن يُمحى لقب «أميرالمؤمنين» من اسمه ثم قال: «اللّه أكبر سُنةٌ بسنّه».

وهو بذلك يشير إلى حديث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم له يوم الحديبيه(۱).

نَصُّ صُلح الحديبيه

وأخيراً عُقِدَت اتّفاقيه صُلح وهُدنه بين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقريش تضمّنت المواد والشروط التاليه:

۱. تعهّد المسلمون، وقريش بترك الحرب عشر سنين يأمنُ فيهن الناسُ، ويكف بعضهم عن بعض.

۲. مَن أتى محمَّداً من قريش بغير إذن وليّه رَدّهُ عليهم، ومن جاء قريشاً ممّن مع محمَّدٍ لم يردّوه عليه.

۳. مَن أَحبّ أن يدخل فى عقد محمَّد وعهده (أى يتحالف معه) دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

۴. أنّ محمَّداً يرجع بأصحابه إلى المدينه عامَهُ هذا ولا يدخل مكّه، وإنّما يدخل مكّه فى العام القابل فى أصحابه فيقيم فيها ثلاثه أيام، لا يدخل فيها بسلاح إلّا سلاح المسافر، السيوف فى القُرب.

۵. أن لا يُستكرَه أحدٌ على ترك دينه ويعبُد المسلمون اللّه بمكّه علانيه وبحريه، وأن يكون الإسلام ظاهراً بمكّه، وأن لا يؤذى أحد ولا يعيَّر(۲).

۱- . الكامل فى التاريخ: ۳۲۰/۳، راجع المصدر لتقف على القصّه بكاملها ولتقف على مادار بين الإمام وابن العاص.
۲- . لاحظ: بحار الأنوار: ۳۵۲/۲۰.

۶. لا إسلال (سِرقَه) ولا إغلال (خیانه) بل یحترم الطرفان أموالَ الطرف الآخر، فلا یخونه ولا یسرق منه(۱).

۷. أن لا تعین قریش علی محمَّد وأصحابه أحداً بنفس ولا سلاح(۲).

هذا هو نصُ وثیقه «صلح الحدیبیه»، وقد جمعنا بنوده من المصادر المتنوّعه(۳) الّتی أشرنا إلی بعضها فی الهامش، وقد کتبت هذه الوثیقه فی نسختین، ثم وقع علیها جماعه من شخصیات قریش، والمسلمین وشهدوا علیها وأُعطیت نسخه إلی «سهیل بن عمرو» ممثّل قریش، وتُرکَت نسخه عند رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

نشید الحریه

لقد کان کلّ عاقل لبیب یحسن تقدیر الأُمور یسمع نشید الحریّه من ثنایا هذا الصلح التاریخیّ، ومع أنّ کلّ بنود هذه المعاهده جدیره بالاهتمام والإکبار، إلّاأنّ النقطه الّتی تستحقّ الاهتمام والتقدیر أکثر من سواها هی المادّه الثانیه فی هذا الصلح، وهی المادّه الّتی أزعجت بعض الصحابه یوم انعقاد تلک المعاهده.

فقد انزَعج صحابه النبی صلی الله علیه و آله و سلم من هذا التمییز الصارخ، وقالوا حول قرار القیاده الحکیمه المتمثّله فی قائد محنّک کرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ما کان ینبغی أن لا یقولوه، فی حین تعتبر هذه الماده من أعظم بنود الوثیقه إذ تعکس نظره رسول

۱- . مجمع البیان: ۱۹۷/۹-۱۹۸. أو: «مَن قدم مکّه من أصحاب محمَّد حاجّاً أو معتمراً أو یبتغی من فضل اللّه فهو آمن علی دمه وماله، ومَن قدم المدینه من قریش مجتازاً إلی مصر أو الشام فهو آمن علی دمه وماله».

۲- . بحار الأنوار: ۳۵۲/۲۰.

۳- . لاحظ: المغازی: ۶۱۱/۱-۶۱۲؛ تاریخ الطبری: ۲۸۱/۲؛ إمتاع الأسماع: ۲۹۵/۱؛ السیره النبویه لابن هشام: ۷۸۲/۳؛ السیره الحلبیه: ۷۰۸/۲-۷۰۹.

الإسلام وتفكيره حول كيفيّه تبليغ الإسلام وإشاعته ونشره، فإنّه يظهر منها - وبجلاء - مدى احترام رسول الإسلام لمبدأ الحريه.

ولقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى معرض الإجابه على مَن اعترض من صحابته على البند القاضى بتسليم كلّ مسلم فرّ من قريش إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والمسلمين إلى قريش، دون العكس قائلاً:

«مَن جاءهُم مِنّا فأبعَدَهُ اللّه وَمَن جاءنا مِنهُم رَددناه إليهم، فلو علمَ اللّه الإسلامَ مِن قَلبه جَعلَ له مخرجاً».(۱)

وأراد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّ الّذى يهرب من جماعه المسلمين ويلجأ إلى المشركين فلا قيمه لإيمانه وإسلامه، إذ أنّ ذلك يدلُّ على أنّه لم يؤمن بهذا الدين حقّ الإيمان فلا داعى لأن يعاد إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إذ لا إكراه فى الدين، وأما من هرب من المشركين إلى المسلمين فلو علمَ اللّه منه الصدق لنجّاه حتماً.

ولقد كانت نظريه النبى صلى الله عليه و آله و سلم ورأيه متطابقاً كلّ التطابق مع موازين العقل والمنطق السليم، وقد تجلّت صوابيته وحقّانيته مع مضىّ الزمن فى ما بعد، لأنّه لم يمض زمن طويل إلّاوقريش - وبعد سلسله من الحوادث المؤسفه - طلبت بنفسها إلغاء هذه المادّه كما سيأتى بيانه فى ما بعد.

إنّ هذه الماده تعدّ ردّاً قاطعاً على تقوّلات وتخرّصات المستشرقين المغرضين الذين يصرّون على القول بأنّ الإسلام انتشر بالسيف.

إنّهم حيث لا يتحمّلون رؤيه هذا الامتياز العظيم الّذى كسبه الإسلام الحنيف، حيث انتشر فى مدّه قصيره جداً فى شتّى نقاط العالم وبقاعه، حتّى كاد أن

۱- . بحار الأنوار: ۳۳۴/۲۰؛ مجمع البيان: ۱۹۸/۹.

يَعمَّ المعموره كلّها، ولهذا اضطروا إلى إعزاء انتشار الإسلام إلى عامل استخدام القوه، وقالوا: إنّ الإسلام انتشر بالقوه، ليشوّهوا بذلك ملامح الإسلام ويخفوا الحقيقه خلف غطاء من الأراجيف، فى حين أنّ هذا الميثاق الّذى عقد فى الجزيره العربيه أمام أعين المئات من المسلمين وغير المسلمين، يعكس بجلاء روح الإسلام وحقيقه تعاليمه الساميه، ومع هذا يكون من مجانبه الواقع القول بأنّ الإسلام انتشر بقوه السيف، لا بالدعوه الحرّه، والتبليغ والارشاد.

هذا ولقد تحالفت قبيله خزاعه مع المسلمين فى ضوء الماده الثالثه من الميثاق، بينما تحالفت قبيله بنى كنانه - وكانوا أعداء تقليديّين لخزاعه - مع قريش.

آخر الجهود للحفاظ على عمليه الصلح

كانت مقدّمات الميثاق المذكور، وبنوده توحى بصوره جليّه وكامله بأنّ أكثرها قد فرضت فرضاً على المسلمين، فلو أنّ رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم قبل بإمحاء كلمه «رسول اللّه» من اسمه، وبدأ الميثاق بعباره «باسمك اللّهم» على عاده الجاهلين بدل البسمله الكامله، فإنّ غايته من ذلك كانت هى الحفاظ على الصلح، وإقرار الأمن فى الجزيره العربيه.

ولو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم رضى بأن يسلّم المسلمين الهاربين من قبضه المشركين إلى جماعه المسلمين، ويعيدهم إلى القياده الوثنيه فى مكّه فإنّ بعض ذلك كان بسبب تصلّب سهيل ممثّل قريش وتعنّته، ولو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ماكان يرضخ لهذا الشرط (استجابه لرغبه الرأى العام الإسلامى الّذى كان مخالفاً لمثل هذا الشرط ومعارضاً لإعاده المسلمين الهاربين من مكّه إلى قريش، وحفاظاً على حقوق أُولئك الأشخاص الهاربين) لتعطّلت عمليه السلام، ولما تحقّق الصلح،

ولفاتت المسلمين هذه النعمه الكبرى الّتى انطوت على آثار عظيمه فى المستقبل كما أثبتت الوقائع فى ما بعد.

من هنا قاوم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كلّ الضغوط من جهه، وتحمّل عمليه فرض هذا الشرط من جهه أُخرى، ليصل إلى المقصد الأعلى والهدف الأكبر الّذى تتضاءل تجاهه هذه المتاعب.

ولو كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يراعى الرأى العام ويلاحظ حقوق هذه الجماعه، لكان «سهيل» يتسبّب - بسبب تصلّبه الأرعن - فى اشعال نائره الحرب، والقصّه التاليه تشهد بما نقول:

حينما انتهت مفاوضات السلام، وبينما كان الإمام على عليه السلام يكتب وثيقه الموادعه والصلح دخل أبو جندل بن سهيل فى مجلس النبى صلى الله عليه و آله و سلم وهو يرسف فى قيوده.

فتعجّب الجميع من حضوره هناك، إذ كان محبوساً فى سجن أبيه سهيل (المفاوض) مدّه طويله.

ولم يكن لأبى جندل من ذنب إلّاأنّه اختار التوحيد عقيده، والإسلام ديناً، ورفض الوثنيه والشرك وكان يحب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حباً شديداً فحبسه أبوه.

وكان أبو جندل قد بلغه أمرُ المفاوضات هذه، فهرب من محبسه وانفلت إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سالكاً إليه طرقاً وعره فى الشعاب، والوديان.

فلمّا رأى «سهيل» ابنه أبا جندل وقد هرب من سجنه، ولجأ إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه ثم قال: هذا يا محمَّد أوّل من أقاضيك عليه أن تردّه.

ولا شكّ أنّ كلام «سهيل» كان باطلاً، ولامبرّر لطلبه، لأنّ الميثاق لم تتمّ كتابته على الورق، ولم يوقع عليه الطرفان، ولم ينته – بالتالى – من مراحله النهائيه والأخيره بعد، فكيف يمكن الاستناد إليه، ولهذا أجابه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قائلاً:

«إنا لم نرضَ (نقض) بالكتاب بعد»(۱).

فقال سهيل: إذاً واللّه لا أُصالحك على شىء أبداً، حتّى ترده الىّ، ولم يزل يصرّ على كلامه ورفضه هذا حتّى انزعج اثنان ممّن رافقه من شخصيات قريش، هما: مكرز وحويطب، من تصلّب سهيل وتشدّده.

ثم قاما وأخذا أبا جندل من أبيه وأدخلاه خيمه وقالا: نحن نجيره.

ولقد فعلا ذلك حتّى يُنهيا ذلك التنازع، والجدال، ولكن إصرار سهيل على موقفه، أبطل تدبيرهما إذ قال: يا محمَّد لقد لجّت القضيه بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا(۲).

فاضطُرّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى أن يقوم بآخر سعى فى طريق الحفاظ على الهدنه والصلح الّذى كان له أثر عظيم فى انتشار الإسلام، ولهذا رضى بردّ أبى جندل إلى والده، لإعادته إلى مكّه، ثم قال لذلك المسلم الأسير تطييباً لخاطره:

«يا أبا جَندَل، إصبر واحتسب، فإنّ اللّه جاعلٌ لك ولمَن معك مِن المستضعفين فَرجاً ومَخرجاً، إنّا قد عقدنا بَيننا وبينَ القوم صُلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهدَ اللّه، وإنا لا نغدِرُ بهم».

وانتهت جلسه المفاوضات، وتمَّ التوقيع على نسختى الميثاق، وعاد سهيلٌ ورفاقه إلى مكّه، ومعهم «أبو جندل» ابن سهيل فى جوار مكرز وحويطب، ونحر

۱- . بحار الأنوار: ۳۳۴/۲۰.

۲- . السيره الحلبيه: ۷۱۰/۲. لجّت: وجبت وتمت.

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ما كان معه من الهدى(۱) فى نفس ذلك المكان وحلق فنحر جماعه من المسلمين وحلقوا(۲).

تقييم عاجل لصلح الحديبيه

بعد أن فَرَغَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من عقد صلح الحديبيه بينه وبين رؤوس الشرك، وبعد أن توقّف فى أرض الحديبيه مده ۱۹ يوماً عاد هو وأصحابه إلى المدينه، وعاد المشركون إلى مكّه.

هذا وقد نشبت مشاجرات ومشادّات كلاميه حين تنظيم ذلك الميثاق وكتابته، بين أصحاب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، فمنهم من كان يعتبر ذلك الصلح فى صالح الإسلام، وقليل منهم كان يعدّه مضرّاً بمصلحه الإسلام والمسلمين.

ولقد انقضى الآن أكثر من أربعه عشر قرناً على عقد ذلك الصلح التاريخى العظيم فلندرس معاً تلك المعاهده بموضوعيه وتجرّد، ونستعرض طرفاً من تلك الاعتراضات والمجادلات لنقف على معطيات تلك العمليه، ونتائجها.

إنّ الّذى نراه هو: أنّ هذا الصلح كان فى صالح الإسلام مائه بالمائه، وأنّه هو الّذى جعل أمر انتصار الإسلام قطعيّاً، لا شك فيه، وإليك أدلّه هذا الرأى:

۱. أن حملات قريش المتتابعه على المسلمين، والتحريكات الداخليه والخارجيه الّتى أشرنا إليها فى حوادث «أُحد» و «الأحزاب» على نحو الاختصار، لم تترك للنبى صلى الله عليه و آله و سلم فرصه لنشر الإسلام بين القبائل، وفى المناطق المختلفه خارج

۱- . أى الإبل الّتى ساقها معه.

۲- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲۸۱/۲، بحار الأنوار: ۳۵۳/۲۰؛ السيره النبويه لابن هشام: ۷۸۳/۳؛ إمتاع الأسماع: ۱۱/۹-۱۲.

شبه الجزیره العربیه.

من هنا کان صلی الله علیه و آله و سلم یصرف أکثر أوقاته الثمینه فی الدفاع والعمل علی إفشال المؤامرات الخطره الّتی کان العدوّ الداخلی والخارجیّ یحیکها باستمرار.

ولکنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم فرغ باله بعد عقد صلح الحدیبیه مع قریش من ناحیه الجنوب، فتهیّأت الأرضیه لانتشار الإسلام فی المناطق الأُخری.

وقد ظهر أثر هذا الهدوء والاستقرار بعد سنتین من عقد تلک المعاهده، فقد کان مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الحدیبیه ألف و أربعمائه، ولکنّه عندما توجّه إلی مکّه لفتحها بعد عامین خرج معه عشره آلاف، وکان هذا التفاوت من نتائج صلح الحدیبیه مباشره، لأنّ بعض الناس کانوا یخشون قریشاً فلا یلتحقون بالمسلمین لذلک السبب، ولکن بعد أن اعترفت قریش بالکیان الإسلامی بصوره رسمیه، وأُعطیت للقبائل الحریه الکامله للانضمام إلی المسلمین زال الخوف المذکور عن کثیر من القبائل، فاستطاع المسلمون أن یستغلوا تلک الفرصه ویقوموا بنشاط تبلیغی ودعوه واسعه إلی الإسلام.

۲. أن النتیجه الثانیه الّتی حصَل علیها المسلمون من هذه المعاهده هی زوال الستار الحدیدی الّذی کان قد ضربه المشرکون بین الناس وبین الإسلام، فقد سمح ذلک الصلح بالسفر إلی المدینه فکان الناس فی سفرهم إلی المدینه یحتکون بالمسلمین ویلتقون بهم، فیتعرّفون علی تعالیم الإسلام السامیه.

ولقد أثار نَظمُ المسلمین، وإخلاصُهم، وطاعه المؤمنین الکامله لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إعجاب المشرکین کما أثارت نظافه المسلمین، فی أوقات الصلاه خاصّه، وصفوفهم المتلاحمه أثناء هذه العباده المبارکه، وخُطبُ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الرائعه، وآیات القرآن الکریم البلیغه، والسهله فی نفس الوقت، رغبه قویه فی نفوس الکفّار

فی الالتحاق بالإسلام.

هـذا مضافـاً إلی أنّ المسـلمین اسـتطاعوا بعـد عقـد ذلک المیثاق السـفر إلی مکّه وشتّی نقاط الجزیره بحجـج مختلفه، والاتّصال بـذویهم وأقـاربهم، والتحـدّث معهم فی أمر الإسـلام وتعـالیمه المقـدّسه المحبّبه، وقوانینه وآدابه الرائعه، ومـا جاء به من حلال و حرام.

وقـد تسـبّبت کـلّ هـذه الأُـمور فی أن یلتحق کثیر من رؤوس الشـرک والکفر کخالـد بن الولیـد وعمرو بن العـاص بالمسـلمین، ویعتنقوا ذلک الدین قبل فتح مکّه، وأن تساعد هذه المعرفهُ بحقائق الإسلام والاطّلاع علی مزایاه وفضائله علی تسهیل عملیه فتح مکّه، وانهیـار صـرح الوثنیه فیهـا من دون أیّه مقـاومه من أهـل مکّه، بحیث سـیطر المسـلمون علیها بسـهوله وأقبلت أفواج الناس تدخل فی دین اللّه راغبه، کما ستعرف تفاصیل ذلک فی حوادث السنه الثامنه.

إنّ هذا الانتصار العظیم کان نتیجه الاتّصالات الّتی أجراها المسـلمون مع ذویهم وأصدقائهم فی مکّه خلال تردّدهم المتکرّر بعد زوال الخوف والحصول علی الحریه فی الدعوه بفضل صلح الحدیبیه.

۳. أنّ الاتصال برؤوس الشـرک أثناء عقد اتّفاقیه السـلام مع رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سلم فی الحدیبیه، ساعد علی إزاله کثیر من العقد النفسیه الّتی کانوا یعانون منها تجاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، لأنّ أخلاق النبی الرفیعه، وحلمه وصبره أمام تعنّت قاده المشـرکین وتصلّبهم وعتوهم، وسعیه الحثیث وحرصه الصادق علی تحقیق السلام، أثبت لهم بأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم معدنٌ نفیس من معادن الخلق الانسانی الکریم.

فبالرغم من أنّه صلی الله علیه و آله و سلم قد أُصیب علی أیدی قریش بخسائر فادحه، وناله

منهم أذى كثير، إلّاأنّ فؤاده كان طافحاً بمشاعر اللطف، والحب والحنان على الناس.

لقد رأت قريش بأُمّ عينيها كيف أنّه صلى الله عليه و آله و سلم خالف فى عقد ميثاق الصلح آراء جماعه من أصحابه، المعارضه لبعض بنود الاتّفاقيه رغبه منه فى تحقيق السلام، وكيف آثر الحفاظ على حرمه المسجد الحرام، على هواه، ورغبته الشخصيه.

إنّ هذا النوع من السلوك أبطل مفعول جميع الدعايات السيّئه الّتى كانت تُرَوّجُ ضد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ومواقفه وخُلقه، وأفكاره وأثبتت للجميع أنّه حقاً رجلُ سلام، وداعيه خير للبشريه، وأنّه حتّى لوسيطر على مقاليد الجزيره العربيه، لما عامَل أعداءهُ إلّابالحسنى واللطف، لأنّه لم يكن مشكوكاً فيه بأنّه لو كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يخوض حرباً ضد قريش فى ذلك اليوم لغلبها وهزمها شر هزيمه كما يصرح بذلك القرآن الكريم أيضاً إذ يقول:

«وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» .(۱)

ومع ذلك أبدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تسامحاً كبيراً، وأعلن عن عطفه، وحنانه للمجتمع العربىّ، وبذلك أبطل كلّ الدعايات الّتى كانت تُروّجُ ضدّه، وضدّ دعوته العظيمه المباركه.

من هنا نهتدى إلى مغزى ما قاله الإمام الصادق جعفر بن محمَّد عليهما السلام عن أهميه هذا الصلح حيث قال:

«وما كان قضيه أعظم بركه منها».(۲)

إنّ الحوادث اللاحقه أثبتت أنّ اعتراض عدد ضئيل من صحابه النبى صلى الله عليه و آله و سلم

۱- . الفتح: ۲۲.

۲- . بحار الأنوار: ۳۶۸/۲۰.

وفی مقدّمتهم عمر بن الخطاب علی هذا الصلح کان باطلاً ولا مبرر له.

وقد أدرج أرباب السیر والتاریخ جمیع هذه الاعتراضات، کما تنقل ردّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم علیها، ویمکن للوقوف علیها مراجعه «السیره النبویه» لابن هشام، و «إمتاع الأسماع» وغیرهما(۱) أنّ قیمه هذه المعاهده تتجلّی من أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم لم یصل إلی المدینه حتّی نزلت سوره الفتح الّتی وعدَت المسلمین وبشّرتهم بالانتصار ویمکن اعتبار هذا العمل مقدّمه لفتح مکّه کما یقول تعالی: «إِنّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً» .(۲)

قریش تصرُّ علی إلغاء أحد بنود المعاهده

لم یمض زمان طویل حتّی أجبرت الحوادثُ المُرّه قریشاً علی أن تبعث إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من یطلب منه إلغاء الماده الثانیه من معاهده صلح الحدیبیه، وهی الماده الّتی أغضبت بعض صحابه النبی صلی الله علیه و آله و سلم وأثارت سخطهم، وقبل بها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تحت إصرار من «سهیل» ممثّل قریش فی مفاوضات الحدیبیه.

تلک الماده الّتی تقول: علی الحکومه الإسلامیه أن تعید کلّ مسلم هارب من مکّه إلی حکومه مکّه، ولکن لا یجب علی قریش أن تعید کلّ هارب من المسلمین إلی مکّه، إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

وقد أثارت هذه الماده - المجحفه فی الظاهر - سخط البعض واعتراضهم، ولکنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم قال لأبی جندل فی وقته:

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۷۸۱/۳؛ إمتاع الأسماع: ۲۹۱/۱؛ المغازی: ۶۰۶/۱؛ تاریخ الطبری: ۲۸۰/۲.

۲- . لاحظ: بحار الأنوار: ۲۶۳/۲۰ نقلاً عن إعلام الوری، وزاد المعاد فی هدی خیر العباد: ۱۲۶/۲.

«فإنَّ اللّه جاعلٌ لک وَ لِمَن معَک مِنَ المستضعفین فَرجاً وَ مَخرجاً».

ثم إنّ مسلماً آخر یدعی «أبوبصیر» کان قد حبسه المشرکون ردحاً طویلاً- من الزمن استطاع أن یفرّ من محبسه ویصل إلی المدینه، وقد وصلها سعیاً علی قدمیه، فکتب شخصیتان من شخصیات قریش هما: «أزهر» و «الأخنس» کتاباً إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یطلبان منه إعاده أبی بصیر إلی قریش ویذکّرانه بالمعاهده وأرسلاه مع رجل من بنی عامر یرافقه غلامُه، فدفع رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم «أبا بصیر» إلی الرجلین عملاً بالمعاهده قائلاً:

«یّا أبابصیر إنّا قَد أعطینا هؤلاء القوم ما قد علمتَ (أی مِن العهد) ولا یَصلح لنا فی دیننا الغدرُ، وإنّ اللّه جاعلٌ لکَ وَ لِمَن معَکَ مِنَ المسلمین فَرَجاً وَ مخرجاً»(۱).

فقال أبوبصیر: یا رسول اللّه تردَّنی إلی المشرکین؟!

فقال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثانیه:

«إنطلِق یا أبا بصیر، فإنّ اللّه سیَجعَل لَکَ مخرجاً».

ثم دفعه إلی العامریّ وصاحبه فخرج معهما باتّجاه مکّه.

فلمّا کانوا بذی الحلیفه (وهی قریه تبعد عن المدینه بسته أمیال یحجّ منها بعض أهل المدینه) صلّی أبوبصیر رکعتین صلاه المسافر ثم مالَ إلی أصل جدار فاتّکأ علیه، ووضع زاده الّذی کان یحمله وجعل یتغدّی وقال لصاحبیه فی لهجه الصّدیق: ادنُوا فکُلا- معه؟ فأکَلا- معه ثم آنسَهُم ثم قالَ للعامری: یا أبا جابر أصارم سیفک هذا؟ قال: نعم. قال: ناولنیه انظُر إلیه إن شئت؟ فناولهُ العامری سیفهُ وکان أقرب إلی

۱- . المغازی: ۶۲۵/۱.

السیف مِن أبی بصیر، فجَّردَ أبُوبصیر السیفَ وقتلَ به العامریّ فی اللحظه، فهربَ الغلامُ یعدُو نحوَ المدینه خوفاً، وسبق أبا بصیر إلی المدینه، وأخبر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بما جری لسیّده العامریّ، فبینا رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم جالسٌ فی أصحابه والغلام عنده یقصّ علیه ما جری إذ طلع أبوبصیر، فدخل علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی المسجد وقال: وَفَت ذِمّتُک، وأدّی اللّه عنکَ، وقد أسلَمتنی بید العدوّ، وقد امتنعتُ بدینی من أن أُفتَن.

ثم إنّ أبا بصیر بعد أن قال هذا الکلام خرج من عند رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وغادَر المدینه، ونزل ناحیه علی ساحل البحر، علی طریق قافله قریش إلی الشام، تُسمّی «العیص».

وعرف المسلمون الذین حُبسوا بمکه بهذا التطّور، ففرّ منهم سبعون رجلاً وانضمُّوا إلی أبی بصیر وکانوا ممّن نالهم علی ید قریش أشدُّ العذاب والعنت، فلا حیاه ولا حریه لهم.

من هنا قرّروا أن یتعرّضوا لقافله قریش التجاریه ویغیروا علیها، أو یقتلوا کلّ مَن وقعت یدُهم علیه من قریش.

وقد لعبت هذه الجماعه دورها بصوره رائعه جداً بحیث أقلقت بال قریش، وسلبت منها الرقاد إلی درجه أنّهم کتبوا إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یطلبون منه إلغاء هذه الماده (أی الماده الثانیه)، بموافقه الطرفین وقد أعلنوا موافقتهم علی إلغائها، وإعاده أبی بصیر وجماعته إلی المدینه والکف عن التعرّض لتجاره قریش.

فوافق رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی إلغاء تلک الماده، وطلب من المسلمین فی منطقه «العیص» القدوم إلی المدینه.

وبهذا توفّرت فرصهٌ طیبهٌ لجمیع المسلمین، کما عرفت قریش أنّها لا

تستطيع سجن المؤمن، وحبسه فى القيد، وأنّ تقييده وحبسه أخطر بكثير من إطلاق سراحه، لأنه سيفرُّ ذات يوم وهو يحملُ روح الانتقام على سجّانه.(۱)

النساءُ المسلمات لا يُسلَّمن إلى قريش

بعد أن تمّ الاتّفاق والتوقيع على معاهده صلح الحديبيه هاجرت «أُمّ كلثوم بنت عقبه بن أبى معيط» فى تلك المدّه، فخرج أخواها «عماره» و «الوليد» ابنا عقبه حتّى قدما على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يسألانه أن يردّ أُختهما عليهما بالعهد الّذى بينه وبين قريش فى الحديبيه، فلم يفعل ذلك رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقال لهما:

«إن اللّه نَقضَ العَهدَ فى النساء»(۲).

وقد نزل قولهُ تعالى يوضح حكم هذا الأمر:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا» .(۳)

كانت هذه قصّه «الحديبيه»، وقد استطاع رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى ظلّ الهُدُوء والأمن اللّذين تحقّقا بسبب معاهده الحديبيه أن يراسل قاده العالم وزعماءه، وأن يبلّغ نبأ دعوته إلى مسامع شعوبهم، وستقف على مفصل هذا القسم من تاريخ الإسلام المشرق فى الفصل القادم.

۱- . لاحظ: المغازى: ۶۲۵/۱-۶۲۹.

۲- . المغازى: ۶۳۱/۱.

۳- . الممتحنه: ۱۰.

حوادث السنه السابعه من الهجره

۴۴ النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلم یعلن عن رسالته العالمیه

اشاره

لقد أراحت معاهدهُ الحدیبیه بالَ رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم من ناحیه الجنوب (أی مکه)، وقد آمن برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ولبّی دعوته فی ظلّ الهدوء والأمن والاستقرار الحاصل بسبب هذا الصلح جماعه من زعماء العرب ورجالها البارزین.

واغتنم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم هذه الفرصه ففتح علی ملوک العالم وزعماء القبائل، ورجال الدین المسیحی یومذاک باب المراسله، فکاتبهم ووجّه إلیهم رسائل کثیره عبر رسله وسفرائه، وقد عرض فیها علیهم رسالته ودعوته الّتی کانت یومذاک لا- تخرج عن صوره العقیده البسیطه وکان فی مقدورها أن تضم تحت لواء التوحید، وفی إطار التعالیم الأخلاقیه والإنسانیه کلّ البشریه.

وقد کانت هذه هی الخطوه الأُولی الّتی خطاها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بعد ۱۹ عاماً من الصراع مع قریش العاتیه.

ولو أنّ الأعداء الداخلیّین لم یشغلوه بالصراعات والحروب لاستطاع رسول الإسلام أن یقوم بتوجیه دعوته إلی شعوب العالم آنذاک قبل هذا الوقت، ولکن

الحملات الظالمه والمضايقات الشديده الّتى قام بها العربُ الوثنيون الجهله طوال ما يقرب من عقدين من عمر الرساله أجبرت رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم على أن يصرف قسماً عظيماً من أوقاته الغاليه فى ترتيب شؤون الدفاع عن حياض الإسلام وكيان المسلمين.

إنّ الرسائل الّتى وجّهها رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى الأُمراء والسلاطين، وإلى رؤساء القبائل، والشخصيات الدينيه والسياسيه البارزه داخل الجزيره العربيه وخارجها لدعوتهم إلى الإسلام تكشف عن طريقته فى الدعوه والتبليغ، والإرشاد والهدايه.

وبين أيدينا الآن نصوص ١٨٥(١) رساله وكتاب من مكاتيب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ورسائله الّتى دعا فيها من أرسلها إليهم، إلى الإسلام، أو كتبه الّتى تشكّل معاهداته ومواثيقه صلى الله عليه و آله و سلم الّتى أعطاها أو عقدها مع الأطراف المختلفه وقد جمعها، وضبطها أرباب السير وكتّاب التاريخ وهى تكشف برمّتها عن أنّ أُسلوب الإسلام فى الدعوه والتبليغ يعتمد على المنطق والبرهان، لا على السيف والقهر، وعلى الإقناع لا الإكراه.

فيوم اطمأنّ بالُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأمن جانب قريش وحلفائها، وجّه نداءه الالهى إلى مسامع البشريه فى العالم وذلك عن طريق إرسال الرسائل، أو بعث

١- . لقد اجتهد علماء الإسلام فى جمع وإحصاء رسائل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم وكتبه قدرَ المستطاع، وإنّ أكملَ المصادر الحاضره من حيث الاستقصاء وسعه التتبع كتابان يتّسمان بأهميه كبرى فى هذا المجال وهما: أ. الوثائق السياسيه تأليف البروفيسور محمَّد حميد اللّه حيدرآبادى، الأُستاذ بجامعه باريس. ب. مكاتيب الرسول تأليف العلّامه المحقّق الشيخ على الأحمدى. والكتاب الأخير يمتاز بتحقيقات وتحليلات أدبيه، وتاريخيه وسياسيه إسلاميه فى غايه الأهميه.

المبلّغين والدعاه إلى شتّى أنحاء العالم.

إنّ نُصوص هـذه الرسائـل، والإشارات الموجوده فى خلالها، ونصائحه الّتى كان يوجّهها صـلى الله عليه و آله و سـلم إلى الناس، والتسامـح الّـذى كان يبـديه من نفسه خلال عقـد الاتّفاقيات وإبرام المعاهدات مع الأجانب، تشـكّلُ برمّتها شواهد قاطعه، ودامغه ضدّ نظريه المستشـرقين الذين أرادوا مسخَ وجه الإسـلام المشـرق، بكيل الاتّهامات الباطله له، والزعم بأنّ تقدّم الإسـلام وانتشاره كـان بفعـل القهر، وبقـوه السـيف، وتحت عامـل الفرض والإجبـار وإنّنـا لنأمـل أن نوفّق ذات يوم لـدراسه وتقييم تلـك الرسـائل والكتب واسـتجلاء هـذه النقاط المـذكوره واسـتخراج خطوط السـياسه النبويه ومعالم الـدعوه المحمـديه، من ثنايا تلكم الرسائل والكتب التاريخيه الخالده لنستطيع من خلال هذا العمل بيان أُسلوب الإسلام فى نشر دينه فى شتّى نقاط العالم.

الرسالهُ المحمَّديه كانت عالميه

ينظر بعض الجهله إلى مسـأله عـالميه الرساله المحمَّديه بنظر الشكّ والترديـد، وهم يتبعون فى مثل هـذه النظره الجاهله ما يروّجه بعض الكتاب العملاء، وفى مقدّمه هؤلاء المغرضين مستشرقٌ معاد للإسلام هو «السير ويليم موير» الّذى يقول:

إنّ موضوع عالميه الرساله المحمَّديه قد ظهر وتبلور فى ما بعد، وأنّ محمَّداً اقتصر فى دعوته من بدء رسالته إلى لحظه وفاته على العرب، ولم يكن «محمَّد» يعرف أى مكان غير الجزيره العربيه.

ولقـد اتّبع هـذا المستشـرق نهج أسـلافه الإنجليز، وحاول التعتيم على الحقيقه فى مقابله الآيات الكثيره الّتى تشـهد - بجلاء - بأن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يدعو البشر عامّه إلى التوحيد والاعتقاد برسالته وقال: إنّ محمَّداً كان يقتصر فى دعوته على

العرب خاصّه.(۱)

ونحن هنا ندرج بعض الآيات الّتی تشهد بأنّ رساله الإسلام وأنّ الدعوه المحمَّديه كانت منذ بدايه ظهورها دعوه عالميه، ويمكن مراجعه كتب التفسير والعقائد للوقوف على المزيد من التوضيح فی هذا المجال.

آيات تدلّ على عالميه الرساله المحمَّديه

۱. «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاّ كَافَّهً لِلنّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً» .(۲)

۲. «وَ ما هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» .(۳)

۳. «لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا» .(۴)

۴. «هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَی الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» .(۵)

والآن نسأل هذا الكاتب الإنجليزی: كيفَ تقول - مع هذه الدعوه العالميه -

---

۱- . هاهنا مسألتان يجب التمييز بينهما: أ. عالميّه الرساله المحمَّديه. ب. خاتميه الرساله المحمّديه. وفی الأُولی تعالج مسأله عالميّه رساله النبیّ محمّد وعدم عالميتها، وأنّه صلی الله عليه و آله و سلم هل كان مبعوثاً لخصوص سكان الجزيره العربيه أم لعموم البشر، وللنّاس كافّه؛ فی حين أنّ المحور فی المسأله الثانيه هو أنّه صلی الله عليه و آله و سلم هل هو آخر نبی أو لا؟ على أنّه يمكن أن يقول البعض: إنّ دينه كان عالمياً إلّاأنّ نبوّته لم تكن خاتمه النبوات؛ بل سيأتی بعده نبی آخر وشريعه اخرى. من هنا لابدّ من البحث فی النبوه الخاصّه حول كلا المسألتين بصوره مستقله، وقد بحثنا المسألتين فی الجزء الثالث من مفاهيم القرآن بصوره موسّعه.

۲- . سبأ: ۲۸.

۳- . القلم: ۵۲.

۴- . يس: ۷۰.

۵- . التوبه: ۳۳.

أنّ موضوع عالميه الرساله الإسلاميه قد ظهر وتبلور فيما بعد.

فهَل مع وجود هذه الآيات ونظائرها ومع وجود سفراء رسول اللّه ومبعوثيه إلى المناطق النائيه، والبلاد البعيده، وإلى نصوص الرسائل الّتى بقيت مسجّله فى صفحات التاريخ عن رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم وخاصّه مابقى منها محفوظاً بعينه إلى الآن فى المتاحف العالميه الكبرى يبقى مجال لأن يشكّ أحدٌ فى عالميه رسالته؟

والعجيب أنّ الكاتب المذكور يكتب بكلّ وقاحه قائلاً: إنّ محمَّداً لم يكن يعرف غير الحجاز، فى حين أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سافر يوم كان فى ربيعه السادس عشر مع عمّه أبى طالب إلى الشام، كما سافر إلى الشام فى تجاره خديجه فى سنّ الخامسه والعشرين، مع قافله قريش التجاريه.

حقّاً إنّ من العجب العجاب أنّنا كلّما قرأنا فى التاريخ أنّ شاباً يونانياً (هو الاسكندر المقدونى) كان يريد أن يسيطر على العالم، أو نسمع أنّ (نابليون بونابرت) كان يفكّر فى أن يكون امبراطور العالم الوحيد، لم يبعثنا كلُّ ذلك على الاستغراب والدهشه، ولكن كلما يسمع فريق من المستشرقين بأنّ قائد المسلمين الأعلى وجّه دعوه الإسلام - وبأمر اللّه - إلى زعماء عصره العالميّين الذين كان بينهم وبين قومه علاقات تجاريه عريقه، أنكروا ذلك وبوقاحه، واعتبروه أمراً محالاً.

رُسُل الإسلام إلى المناطق النائيه

طرح رسول الإسلام قضيه دعوه الملوك والأُمراء إلى الإسلام على شورى كبيره من أصحابه كغيرها من المسائل المهمه فقال:

«أيّها الناس إنّ اللّه قد بعثنى رحمه وكافَّه فلا تختلفوا علىَّ كما اختلف

الحواريون على عيسى بن مريم».

فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريّون يا رسول اللّه؟ قال:

«دعاهم إلى الّذى دعوتكم إليه، فأمّا مَن بعثه مبعثاً قريباً فرضى وسلم، وأمّا مَن بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل».(۱)

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم اختار سته أشخاص من خيره أصحابه وكتب معهم كتباً إلى الملوك تضمّنت دعوته العالميه، وبعثهم إلى مختلف نقاط الأَرض.

وهكذا توجّه سفراء الهدايه ورسل الدعوه المحمَّديه فى يوم واحد إلى إيران، والروم، والحبشه، ومصر، واليمامه، والبحرين، والحيره، و (الأردن) وسوف نقرأ معاً مفصّل ما احتوته رسائله صلى الله عليه و آله و سلم(۲).

وعندما فرغ من كتابه الرسائل المذكوره قال بعض ذوى الاطّلاع والعلم بأحوال بلاطات الملوك آنذاك لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يا رسول اللّه: إنّ الملوك لا يقرأون كتاباً إلّامختوماً، فاتّخذ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يومئذ خاتماً من فضه، فصّه منه، نقشه ثلاثه أسطر: محمَّد رسول اللّه، فى الأعلى لفظه الجلاله وتليه كلمه رسول ثم يليه اسمه الشريف، وختم به الكتب.

ولم يكتف بهذا بل ختم تلك الرسائل بالشمع أو الطين إمعاناً فى السريه، والحفاظ عليها من التزوير(۳).

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۲۵/۴.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۲۵/۴-۱۰۲۶؛ الطبقات الكبرى: ۲۵۸/۱؛ السيره الحلبيه: ۲۸۳/۳؛ بحار الأنوار: ۳۸۲/۲۰.

۳- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۲۸۱/۳.

أوضاع العالم أيام إبلاغ الرساله العالميه

كانت الامبراطوريتان (الروميه والفارسيه) تقتسمان آنذاك قياده العالم، وكانت الحروب قائمه بين ذينك المعسكرين على قدم وساق، ومنذ زمن بعيد.

فلقد بدأ الصراع على النفوذ بين إيران والروم منذ عهد الهخامنشيين، واستمرّ حتّى عصر الساسانيّين ملوك ايران.

فكان الشرق تحت النفوذ الإيرانى، كما كانت العراق واليمن وشيء من آسيا الصغرى تعدّ من توابع الامبراطوريه الإيرانيه ومستعمراتها.

وأمّا الامبراطوريه الروميه فقد كانت منقسمه يومذاك إلى معسكرين شرقى وغربى، لأنّ «تئودوز الكبير» امبراطور الروم قسّم بلاده فى سنه (٣٩٥) ميلاديه بين ولديه، ومن هنا ظهرت الروم الشرقيه والروم الغربيه.

وقد انقرضت الروم الغربيه على أيدى متوحّشى وبرابره شمال أُوربا، ولكن الروم الشرقيه الّتى كان مركزها يومذاك «القسطنطينيه» وكانت تسيطر على الشام ومصر، فكانت تسيطر أبان ظهور الإسلام على قدر كبير من مقاليد السياسه العالميه إلى أن فتحت القسطنطينيه عام (١۴۵٣ م) على يد السلطان محمَّد الثانى «محمّد الفاتح»، وبذلك غربت شمس دوله الروم الشرقيه، واضمحلّت نهائياً. وقد كانت أرضُ الحجاز محاصره بين هذين القطبين ومحاطه بهاتين القوّتين العظيمتين، ولكن حيث إنّ أراضى الحجاز لم تكن أراض خصبه، وكان أهلها فى الأغلب من الرحَّل المتفرّقين فى البرارى والقفار، لذلك لم تُبد كلتا الامبراطوريتين رغبتهما فى الاستيلاء على تلك الأَراضى، فقد كان الفساد والظلم، والحروب الّتى اتّسمت بها طبيعه وحياه تينك الدولتين تمنعهما من الاطّلاع على أى تغيير اجتماعى أو تحوّل سياسى يقع فى هذه المنطقه من العالم.

ص:۴٠٨

فهم لم يكونوا يتصوّرون قط أن يتمكّن شعبٌ - كان بعيداً عن روح الحضاره والمدنيه - من وضع نهايه لإمبراطوريّتهم، بفضل ما أُتوا من إيمان، وإناره النقاط - الّتی کانت ترزح فی ظلام جور السلطات الرومیه وظلمها - بنور الإسلام المشرق، ولو کانوا یعرفون شیئاً عن هذه النهضه المشرقه وهذا الانفجار المعنوی العظیم فی بدء حدوثه لقضوا علیه فی أوّل الأمر، ولم یترکوه یمتد إلی ملکهم، ویقلبُ کلّ شیء رأساً علی عقب.

رسولُ النبی صلی الله علیه و آله و سلم فی أرض الروم

کان قیصر الرُّوم قد عاهَدَ اللّه إذا غلب الفرس أن یسیر إلی بیت المقدس من عاصمته: «القسطنطینیه» مشیاً علی قدمیه للزیاره، شکراً للّه، وقد وفی بنذره هذا بعد انتصاره علی إیران.

فکُلِّفَ «دحیه الکلبی» بإیصال کتاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی قیصر، وکان دحیه قد سافر مراراً إلی الشام، وکان عارفاً بمناطقها وعاداتها معرفه کامله، وکان إلی ذلک جمیل الصوره حسن السیره، ولهذا کان جدیراً بتحمّل هذه المسؤولیه الخطیره لائقاً لها.

وقد توجَّه إلی «القسطنطینیه» رأساً بعد أن کلّفه رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بإیصال کتابه إلی قیصر، ولکنّه ما أن وصل إلی بصری (من مدن الشام) إلّاوبلغه أنّ قیصراً قد فارقها قاصداً بیت المقدس ولهذا بادر إلی الاتّصال بحاکم بصری(۱): «الحارث بن أبی شمر» وأخبره بالمهمّه الخطیره الّتی جاء من أجلها.

۱- . کانت بصری مرکز محافظه حوران الّتی کانت تعدُّ من مستعمرات قیصر. وکان الحارث بن أبی شمر - بصوره عامّه - وجمیع ملوک بنی غسان، من ولاه قیصر علی تلک المناطق.

يقول مؤلّفُ الطبقات الكبرى: بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم دحيه بن خليفه الكلبى إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ليدفعه إلى قيصر، (ولعلّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كان يعرف بمغادره قيصر لعاصمه ملكه، أو لعلّ ذلك الأمر كان مراعاه لإمكانيات دحيه المحدوده، وكون السفر إلى القسطنطينيه كان يتطلّب جهداً كبيراً أو لا يخلومن محاذير).

فدفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذٍ بحمص.(۱) ولمّا انتهى دحيه إلى الحارث بن أبى شمر (عظيم بصرى) أرسل معه عدى بن حاتم ليوصله إلى قيصر فذهب به، فقال قومه لدحيه: إذا رأيت الملك فاسجد له، ثم لا ترفع رأسك حتّى يأذن لك.

قال دحيه: لا أفعل هذا أبداً، ولا أسجد لغير اللّه! (أى إنّنى قد جئت لتحطيم هذه السنن الجاهليه المقيته فكيف أخضع لها، إنّما جئتكم من قبل نبى لأُبلّغ ملككم بأنّ عهد عباده البشر قد انقضى وانتهى، وأنّه لا يحقّ السجود إلّااللّه وحده، فكيف يمكننى ذلك وأنا أحمل هذه الرساله التوحيديه إليكم؟!). قالوا:

إذن لا يؤخذ كتابك، فقال له رجل منهم: أنا أدلّك على أمر يؤخذ فيه كتابك، ولا تسجد له، فقال دحيه: وما هو؟ فقال: إنّ له على كل عتبه منبراً يجلس عليه فضع صحيفتك تجاه المنبر فإنّ أحداً لا يحرّكها حتّى يأخذها هو، ثم يدعو صاحبها، ففعل.(۲) فلمّا أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب فدعا الترجمان الّذى يقرأ بالعربيه فإذا فيه:

۱- . الطبقات الكبرى: ۲۵۹/۱.

۲- . السيره الحلبيه: ۲۸۴/۳.

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. مِن محمَّد بن عَبداللّه إلى هرقل عظيم الرّوم سلامٌ على مَن اتّبع الهدى.

أمّا بعدُ فإنّى أدعوك بدعايه الإسلام أسلم تسلَم، وأسلم يؤتكَ اللّه أجرَك مرَّتين. وإن تولّيت فعليك إثمُ الأريسيّين(۱)، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمه سواء بيننا وبينكم، ألّا نعبُد إلّااللّه ولا نشرك به شيئاً وَلا يَتّخذَ بعضُنا بَعضاً أرباباً مِن دون اللّه، فإن تَوَلَّوا فَقُولوا اشهَدوا بأنّا مُسلِمُونَ. محمَّد رسولُ اللّه».(۲)

قيصر يحقّق حولَ النبى صلى الله عليه و آله و سلم

احتمل حاكم الروم اللبيب أن يكون كاتب هذه الرساله هو: «أحمد الموعود» الّذى بشّر به الإنجيلُ والتوراه، ولهذا قرّر أن يحقّق حول شخصيّته، ويتعرّف على خصوصيات حياته، الدقيقه.

فبعث أحداً إلى الشام فوراً ليأتى له بقريب لمحمَّد، أو من يعرف شيئاً عنه.

حتّى يسأله عن شخصيه رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم فاتّفق أن كان أبوسفيان بن حرب يومذاك بالشام للتجاره فى ركب من قريش، فأخذهم صاحب شرطه «قيصر» إلى بيت المقدس، فأدخلهم على «قيصر» فى مجلسه وحوله عظماء الروم.

فقال قيصر: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الّذى يزعم أنّه نبى؟

۱- . بين العلماء فى تفسير هذه اللفظه خلاف، فيقول ابن الأثير: قيل هُم الخدم والخول، وقال بعض: هم الأكّارون (أى الفلاحون) لأنّ أكثر الناس يومذاك كانوا من الفلاحين، وهم أطوع الناس للحاكم. ويؤيّد الرأى الأخير أنّه جاء فى بعض النسخ (الكامل: ۲۱۳/۲) كلمه الأكّارين بدل الأريسيين، والأكّار هو المزارع، واحتمل البعض أن يكون الأريسيون طائفه كانت تعيش فى الروم.

۲- . تاريخ الإسلام للذهبى: ۵۰۵/۲؛ البدايه والنهايه: ۳۰۲/۴.

فقال أبوسفيان: أنا أقربهم نسباً.

فقال قيصر: أدنوه منّى، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إنّى سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كذّبنى فكذّبوه.(۱)

ثم طرح قيصر على أبى سفيان الأسئله التاليه:

قال أبو سفيان: ثمّ كان أوّل ما سألنى عنه أنّه قال:

۱. كيف نسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

۲. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط؟

قلت: لا.

۳. قال: فهل كان فى آبائه من مَلِك؟

قلت: لا.

۴. قال: فأشرافُ الناس اتّبعوه أُمّ ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم.

۵. قال: أيزيدون أُمّ ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

۶. قال: فهل يرتدّ منهم أحد سُخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

۷. قال: فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

۱- . بحار الأنوار: ۳۸۵/۲۰؛ البدايه والنهايه: ۳۰۱/۴.

قلت: لا.

۸. قال: فهل يغدر؟

قلت: لا.

۹. قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

۱۰. قال: فكيف كان قتالُكم إيّاه؟

قلت: الحربُ بيننا وبينه سجال، ينالُ منّا وننالُ منه.

۱۱. قال: ماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا اللّه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمُرنا بالصلاه والصدقه والعفاف والصله....

فقال قيصر للترجمان قل لأبى سفيان ومن معه:... فإن كان ما تقول حقّاً فسيملكُ موضعَ قدمىّ هاتين فهذه صفه نبىّ، وقد كنت أعلم أنّه خارج لم أكن أظنّ أنّه منكم، فلو أنّى أعلمُ أنّى أخلصُ إليه لتجشمتُ لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ قدميه!!(۱)

فاعترض ابن أخى قيصر على كتاب رسول اللّه وأظهر الغيظ الشديد وقال لعمّه: قد ابتدأ بنفسه وسمّاك صاحب الروم ألق به، يعنى الكتاب.

فقال قيصر: واللّه إنّك لضعيف الرأى. أترى أرمى بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر، وهو أحقُّ أن يبدأ بنفسه، ولقد صدق أنا صاحب الروم، واللّه

۱- . بحار الأنوار: ۳۸۴/۲۰-۳۸۶؛ البدايه والنهايه: ۳۰۱/۴-۳۰۲.

مالکی، مالکه.(۱)

قال أبوسفیان: فلمّا قال ما قال وفرغ من قراءه الکتاب کثر عنده الصخب وارتفعت الأصواتُ وأُخرجنا، فقلت لأصحابی حین خرجنا: لقد أمرَ أمرُ ابن أبی کبشه، أنّه یخافه ملک بنی الأصفر.(۲)

وروی أیضاً أنّ أباسفیان قال: لمّا سألنی قیصر عن رسول اللّه جعلتُ أُزهّدُ له شأنه، وأُصغّر له أمره وأقول له: أیّها الملک، ما یهمّک من أمره، إنّ شأنه دون ما یبلغک، وجعل قیصر لا یلتفت إلی ذلک، ثم قال: أنبئنی عمّا أسألک من شأنه(۳).

أثر رساله النبی إلی قیصر

لم یکتف قیصر بالمعلومات الّتی حصّلها من أبی سفیان حول رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم بل کتب إلی أحد علماء الروم وأساقفتهم یسألهم عن هذا الأمر.

فأجابه ذلک الأُسقف: هذا النبیُ الّذی کنّا ننتظره، بشّرنا به عیسی بن مریم.

فعمد قیصر إلی خطّه لیجسّ بها نبض قومه، ویختبرهم ویعرف ما إذا کانوا یرضون بإسلامه أو لا؟ فجمع عظماءهم فی صومعه له بحمص فقال: یا معشر الروم هل لکم فی الفلاح والرشد، وأن یثبت لکم ملککم وتتّبعون ما قال عیسی ابن مریم؟

فقالت الروم: وما ذاک أیّها الملک؟

قال: تتّبعون هذا النبی العربی.

۱- . السیره الحلبیه: ۲۸۸/۳-۲۸۹.

۲- . بحار الأنوار: ۳۸۶/۲۰؛ البدایه والنهایه: ۳۰۲/۴.

۳- . تاریخ الطبری: ۲۹۰/۲.

فثاروا فی وجهه، ورفعوا الصلیب، فلمّا رأی منهم ذلک یئس من إسلامهم وخافهم علی نفسه وملکه، فسکّنهم، ثم قال: إنّما قلتُ لکم ما قلتُ اختبرکم لأنظر کیف صلابتکم فی دینکم، فقد رأیتُ منکم الّذی أحبّ. فسکنوا ورضوا عنه. ثم أمر بإکرام دحیه، وکتب جواباً علی رساله النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وأرسله مع دحیه وأرسل بهدیه إلی النبی صلی الله علیه و آله و سلم(۱).

سَفیر النبیّ فی البلاط الإیرانی

یوم توجّه سفیر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بکتابه إلی البلاط الإیرانی کان الملک الّذی یحکم هذه الأرض الواسعه هو «خسرو پرویز» ثانی ملک بعد أنوشیروان، الّذی جلس علی العرش الملکی الإیرانی مده ۳۲ عاماً قبل الهجره النبویه المبارکه.

وقد واجهت حکومه هذا الملک خلال مده سلطانه أنواعاً عدیده من الحوادث المرّه والحلوه، وکانت مکانه ایران فی عهده تعانی من الاضطراب، وعدم الاستقرار بشکل ملحوظ.

وقد امتدّ النفوذ الإیرانیُ ذات یوم حتّی شملَ آسیا الصغری، وامتدّ إلی مشارف القسطنطینیه، وأتی بصلیب عیسی الّذی کان أقدس شیء عند النصاری إلی طیسفون (المدائن)، فطلب سلطان الروم الصلح وبعث سفیراً من قبله إلی البلاط الإیرانی لعقد معاهده الصلح.

بید أنّ سوء تدبیر الملوک فی تلک الدوله العظمی، وانغماسهم فی اللّهذه والمجون أکثر من المتعارف، تسبب فی أن تصبح إیران علی حافه السقوط والانهیار فی أواخر العهد الساسانی، فقد خرجت المستعمرات من تحت النفوذ

۱- . لاحظ: الطبقات الکبری: ۲۵۹/۱؛ الکامل فی التاریخ: ۲۱۱/۲؛ بحار الأنوار: ۳۷۹/۲۰.

الإيرانى الواحده تلو الأخرى، واجتاح العدوُ الرومىُّ الأراضى الإيرانيه إلى الأعماق، ووصل الأمر بخسرو پرويز امبراطور ايران إلى أن يهرب من وجه الروم الغزاه، وقد أثار هذا الهروب الخانع وهذه الهزيمه المنكره سخط الشعب يومذاك، فقُتِلَ بيد ابنه «شيرويه».

ويُعزى محلّلو التاريخ القديم تخلّف إيران وضياع قوتها إلى غرور قادتها وحكامها وميلهم إلى البذخ والترف، وهناء العيش ورغد الحياه، والزينه واللّذه. ولو كان ذلك الملك يتلقّى رساله السلام الّتى عرضها الإسلام بالصوره اللائقه لبقيت عظمه إيران على حالها فى ظلّ هذا السلام دون أن يصيبها ما أصابها.

ولو أنّ رساله رسول الإسلام لم تترك أثراً حسناً فى نفس «خسرو پرويز» يومذاك، فإنّ ذلك لم يكن لتقصير أو عيب فى تلك الرساله أو فى سلوك حاملها إلى البلاط الإيرانى، بل كان لنفسيّه ذلك الحاكم المغرور، المنحرّفه، وأنانيته الطاغيه، الّتى لم تسمح له بالتفكير بعض اللحظات فى كتاب رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم كما فعل «قيصر»، أو غيره. بل لم يمهل المترجم حتّى ينتهى من قراءه كتاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ، إنّما صاح به فى تلك الأثناء، وأخذ منه رساله النبى صلى الله عليه و آله و سلم ومزّقها بوقاحه بالغه، وأُسلوب بالغ فى الجفاف، وسوء الادب.

وإليك تفصيل الحادث:

فى مطلع السنه الهجريه السابعه بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أحد فرسانه الشجعان وهو «عبداللّه بن حذافه السهمى»، إلى إيران وكتب معه كتاباً إلى «خسرو پرويز» ملك إيران يومذاك يدعوه فيه إلى الإسلام وأمره أن يدفع الكتاب إلى كسرى نفسه وإليك نصّ هذه الرساله:

«بسم اللّه الرحمن الرّحيم من محمَّد رسول اللّه إلى كسرى عظيم فارس.

سلامٌ على من اتّبع الهُدى وآمن باللّه ورسوله، واشهدُ أن لااله الّا اللّه وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله. أدعوك بدعايه اللّه، فإنّى أنا رسول اللّه إلى الناس كافّه لأُنذرَ مَن كانَ حيّاً، ويحقَّ القولُ على الكافرين أسلِمْ تسلَمْ، فإن أبيتَ فعليك إثمُ المجوس».

إنّ كسرى لمّا أُعلم بكتاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فأذن بحامل الكتاب أن يدخل عليه، فلمّا وصل أمر كسرى أن يقبض منه الكتاب، فقال (عبداللّه بن حذافه): لا ـ حتّى أدفعه اليك كما أمرنى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فقال كسرى: أدنه، فدنا فناولته الكتاب، فدعا مَن يقرؤه، فقرأ، فإذا فيه: من محمَّد رسول اللّه إلى كسرى عظيم فارس فأغضبه حين بدأ رسولُ اللّه بنفسه، وصاح، ومزّق الكتاب، قبل أن يعلم ما فيه وأمر بإخراج حامل ذلك الكتاب، فلمّا رأى ذلك قعد على راحلته وسار، فلمّا ذهب عن كسرى سوره غضبه بعث فطلب حامل الكتاب فلم يجده، فلمّا وصل إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم وأخبره الخبر، قال النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم: مزّق كسرى ملكه(۱).

نظريه اليعقوبى

ويختلف ابن واضح الأخبارى المعروف باليعقوبى فى تاريخه - مع عامّه المؤرّخين -: قرأ كتاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم ثم كتب كتاباً إليه جعله بين سرقتى حرير وجعل فيهما مسكاً، فلمّا دفعه الرسول إلى النبى فتحه فأخذ قبضه من المسك فشمّه، وناوله أصحابهُ، وقال: لا حاجه لنا فى هذا الحرير، ليس من لباسنا، وقال: لتدخلنَّ فى أمرى أولآتينّك بنفسى ومن معى، وأمر اللّه أسرع من ذلك.(۲)

۱- . السيره الحلبيه: ۲۹۱/۳.

۲- . تاريخ اليعقوبى: ۷۷/۲، دار صادر، بيروت.

ولكن هذا رأى ينفرد به اليعقوبى ولا يوافقه عليه أحدٌ من أرباب السيَر إلّا أحمد بن حنبل الّذى يقول: أهدى كسرى لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقبل منه(۱).

أوامر «خسرو» إلى واليه على اليمن

تقع أرض اليمن الخصبه فى جنوب مكّه، وكان ملوكها وحكّامها ولاه منصوبين من قبَل البلاط الإيرانى بأجمعهم، وكان الّذى يحكم اليمن يوم مراسله النبى لقاده العالم وملوكه رجلٌ يُدعى «باذان» فكتب طاغيه إيران المغرور «خسرو» بعد أن مزّق رساله النبىّ إلى عامله باليمن (باذان):

بلغنى أنّ فى أرضك رجلاً يتنبّأ فاستتبه، فإن تاب وإلّا فابعث به إلىّ.

فبعث «باذان» رجلين من فرسانه يُدعى أحدهما: «فيروز» والآخر «خرخسره» وكتب معهما كتاباً إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يأمره فيه أن ينصرف معهما إلى كسرى، أو أن يجبراه على الرجوع إلى دين آبائه وان أبى قتلوه وأرسلوا برأسه إلى الملك، حسب روايه ابن حجر فى الإصابه.

إنّ رساله كسرى إلى «باذان» تكشف عن جهل هذا الحاكم، وعدم معرفته بما كان يجرى فى بلاده ومستعمراته، فقد بلغ من جهله أنّه لم يكن يعلم أنّ هذا الرجل الّذى يدّعى النبوه(۲) قد مضى على ادّعائه النبوه أكثر من ۱۹ عاماً.

ثم إنّ الّذى ادّعى النبوه فى منطقه نائيه، وانتشر دينه، وأصبح من القوه والشوكه بحيث يجرأ على مراسله الامبراطور، ودعوته إلى دينه لا يمكن أخذه وإحضاره إلى اليمن بواسطه رجلين. وأنّ الأمر - بالتالى - لن يتم بمثل هذه السهوله،

۱- . مسند احمد بن حنبل: ۹۶/۱.

۲- . حسب تعبير كسرى.

والبساطه، الّتی تصوّرها.

وعلی کلّ حال لما قدم مبعوثا «باذان» المدینه ودخلا علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قدّما رساله «باذان» إلیه صلی الله علیه و آله و سلم وقالا: لقد بعثنا «باذان» إلیک لتنطلق معنا، فإن فعلت کتبَ فیک إلی مَلِک الملوک بکتاب ینفعک، ویکفّ عنک به، وإن أبیت فهو من قد علمت، فهو مهلکک ومهلک قومک ومخرب بلادک.

وکانا قد دخلا علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقد حلقا لحاهما وأطلقا شواربهما، فاستمع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی کلامهما، وقبل أن یجیب علی مطلبهما دعاهما إلی الإسلام وقد کره النظر إلیهم ا لما کانا علیه من الهیئه فقال لهما: من أمرکما بهذا؟! قالا: أمرنا بهذا ربُّنا (یعنیان کسری). فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«لکِنّ رَبِّی أمرَنی بإعفاء لِحیَتی وقصّ شاربی»(۱).

فأرعبتهما، هیبه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وجلال محضره، بحیث أخذا یرتجفان عندما عرض رسول اللّه الإسلام علیهما.

ثم قال لهما رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«إرجعا حَتّی تأتِیانی غداً».

وفی هذه الأثناء أتی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الخبر من السماء أن اللّه عزّوجلّ قد سلّط علی کسری ابنه شیرویه، فقتله فی شهر کذا وکذا، لکذا وکذا من اللیل.

فلمّا حضر الرجلان (مبعوثا باذان) عند رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من غد قال لهما رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«إنّ رَبِّی قد قَتل رَبَّکُما لیلهَ کذاوکذا مِن شهر کذاوکذا. بعد ما مضی من اللیل

۱- . لاحظ: تاریخ الطبری: ۲۹۶/۲؛ بحار الأنوار: ۳۹۰/۲۰.

كذاوكذا سلّط عليه شيرويه فقتله».

وكانت الليله الّتى ذكرها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هى ليله الثلاثاء العاشر من شهر جمادى الأُولى سنه سبع من الهجره.

فاستغرب الرجلان لخبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقالا: هل تدرى ما تقول؟ إنّا قد نقمنا منكَ ما هو أيسر من هذا. فنكتب بها عنك ونخبر الملك (أى باذان).

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«نعم أخبراهُ ذلك عَنِّى وقولا لَهُ: إن دِينى وسُلطانى سَيبلغُ ما بلغ مَلكُ كسرى، وينتهى إلى منتهى الخُفّ والحافر، وقولا له: إن أسلَمتَ أعطيتُكَ ما تحتَ يديك، ومَلّكتك على قومك».

ثم أعطى رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لخرخسره منطقه (أى حزاماً) فيها ذهب وفضه كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتّى قدما على باذان باليمن وأخبراه الخبر.

فقال باذان: واللّه ما هذا بكلام ملك وإنّى لأرى الرجل نبياً كما يقول، ولننظر ما قد قال، فلئن كان ما قد قال حقاً فإنّه لا ريب نبىٌ مرسلٌ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا.

فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتابُ شيرويه: أمّا بعد فإنّى قد قتلتُ كسرى، ولم أقتله إلّاغضباً لفارس، لما كان استحلّ من قتل أشرافهم، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعه ممّن قبلك، وانظر الرجل الّذى كان كسرى كتب إليك فيه فلا تهجهُ حتّى يأتيك أمرى فيه.

وقد تسبّب كتاب «شيرويه» هذا فى أن يعتنق «باذان» الإسلام هو وجميع رجال دولته وكانوا من الفرس، وكتب إلى رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم يخبره بإسلامه

وإسلام أعضاء حكومته(۱).

سفيرُ النبىّ فى أرض مصر

تُعتبر «مصر» مهد الحضارات والمدنيات العريقه، ومركز سلطان الفراعنه، وموضع سياده الأقباط.

ويوم أشرقت شمس الإسلام على أرض الحجاز كانت «مصر» قد فقدت استقلالها، وقوّتها، وكان المقوقس قد فُوض إليه حكم «مصر» من قِبَل قيصر الروم لقاء ۱۹ مليون دينار يدفعها إلى قيصر.

وكان «حاطب بن أبى بلتعه» - وكان فارساً بارعاً وله قصّه فى تاريخ الإسلام سيأتى ذكرها فى حوادث السنه الثامنه - أحد السته الذين كلِّفوا بإبلاغ كتب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى الملوك والرؤساء يومذاك وقد أمره رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بإيصال كتابه إلى المقوقس حاكم «مصر».

وإليك نصَ كتاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى المقوقس:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم مِن محمَّد بن عَبداللّه إلى المقوقس عظيم القبط، سلامٌ على مَن اتّبَعَ الهُدى.

أمّا بعد فإنّى أدعوك بدعايه الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك اللّه أجرك مرَّتين، فإن تولّيتَ فإنّما عليكَ إثمُ القِبط - أى الذين هم رعاياك - «يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَهٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلّا نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ» (۲).(۳) وختم

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲۹۶/۲-۲۹۷؛ بحار الأنوار: ۳۹۰/۲۰-۳۹۱.

۲- . آل عمران: ۶۴.

۳- . السيره الحلبيه: ۲۹۵/۳-۲۹۶؛ أعيان الشيعه: ۲۴۴/۱.

الكتاب. وجاء به حاطب حتى دخل على المقوقس بالاسكندريه، أى بعد أن ذهب إلى مصر فلم يجده فذهب إلى الإسكندريه فأُخبر أنّه فى مجلس مشرف على البحر، فركب حاطب سفينه وحاذى مجلسه، وأشار بالكتاب إليه، فلمّا رآه أمر بإحضاره بين يديه، فلمّا جيء به نظر إلى الكتاب وفضّه وقرأه وقال لحاطب: ما منعه إن كان نبيّاً أن يدعو على مَن خالفه (أى من قومه) وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلّط عليهم.

فقال حاطب (وكان حكيماً فهيماً): ألست تشهدُ أنّ عيسى ابن مريم رسول اللّه؟ فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم اللّه تعالى حتّى رفعه اللّه إليه؟

(فأعجب المقوقس - الّذى لم يكن يتوقّع أن يجابه بهذا المنطق القوى المفحم - برد حاطب) وقال: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم.

ثمّ قال له حاطب: إنّه كان قبلك رجل يزعم أنّه الربُ الأعلى (يعنى فرعون) «فَأَخَذَهُ اللّهُ نَكالَ الْآخِرَهِ وَ الْأُولى» (۱)، فانتقم به، ثمّ انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرُك بك، إنّ هذا النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم دعا الناس فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمرى ما بشاره موسى بعيسى عليهما الصلاه والسلام إلّاكبشاره عيسى بمحمَّد صلى الله عليه و آله و سلم، وما دعاؤنا إيّاك إلى القرآن إلّاكدعائك أهلَ التوراه إلى الإنجيل، وكلُّ نبى أدرك قوماً فهم أُمَّتُه، فالحقُّ عليهم أن يطيعوهُ، فأنت ممّن أدرك هذا النبيّ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنّا نأمرك به.(۲)

وهو يقصد بكلامه الأخير أن الإسلام هو الصوره الأكمل لدين المسيح.

۱- . النازعات: ۲۵.

۲- . السيره الحلبيه: ۲۹۵/۳-۲۹۶. ولاحظ: أعيان الشيعه: ۲۴۴/۱.

انتهى الحوار بين حاطب سفير النبى صلى الله عليه و آله و سلم والمقوقس حاكم مصر، إلّاأنّ المقوقس لم يعطه جواباً قاطعاً فى ذلك المجلس، وقال: سأنظر، وأخذ كتاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم وجعله فى حقّ عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريه له. فكان على حاطب أن يلبث فى مصر مده حتّى يتلقّى جواب كتاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم(۱).

ثم طلب المقوقس حاطباً ذات يوم وانفرد به فى قصره، وقال: أسألك عن ثلاث؟ فقال: لا تسألنى عن شىء إلّاصدقتك. قال: إلى مَ يدعو محمد؟ فقال له حاطب: إلى أن نعبد اللّه وحده، ويأمر بالصلاه، خمس صلوات فى اليوم والليله، ويأمر بصيام رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميته والدمّ....

فقال له المقوقس: صفه لى.

قال حاطب: فوصفتُ فَأَوجزتُ.

فقال المقوقس: قد بقيت أشياء لم تذكرها...، وكنتُ أعلمُ أن نبيّاً قد بقى، ولكنّنى كنتُ أظنُ أنّ مخرجَهُ بالشام فهناك كانت تخرجُ الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج فى أرض العرب، فى أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعنى فى اتّباعه، وسيظهر على البلاد، وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه، حتّى يظهروا على ما هاهنا.

(ثم طلب المقوقس من حاطب أن يكتم أمر هذا الحوار الّذى دار بينه وبين حاطب عن قومه قائلاً:) وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفاً واحداً، ولا أحب أن يعلم بمحادثتى (أو بمحاورتى) إيّاك(۲).

۱- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۲۹۶/۳.

۲- . الإصابه: ۲۹۶/۶.

ثم إنّه أكرم حاطباً مده اقامته بمصر إكراماً بالغاً، وأحسن قراه، وضيافته.

المقوقس يكتب كتاباً إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم

ثم إنّ حاكم «مصر» المقوقس دعا كاتبه العربىّ، وأمره أن يكتب كتاباً إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هذا نصه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. لمحمَّد بن عبداللّه من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أمّا بعد فقد قرأتُ كتابَك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه، وما تدعو إليه، وقد علمتُ أنّ نبياً قد بقى، وقد كنتُ أظنُ أنّه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك، وبعثتُ لك بجاريتين لهما مكانٌ فى القبط عظيمٌ، وبثياب، وأهديت إليك بغله لتركبها والسلام عليك(۱).

إنّ الاحترام الّذى أبداه «المقوقس» فى رسالته المذكوره، وتقديم اسم النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم على اسمه وكذا هداياه الّتى بعثها إلى رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و تكريم سفير النبى صلى الله عليه و آله و سلم كلّها تحكى عن أنّ المقوقس قبل دعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى سرّه ولكن حبّه فى البقاء فى السلطه منعه من التظاهر بإيمانه وإسلامه، ومن الإنقياد العملىّ والعلنى للإسلام.

خرج «حاطب» من مصر بصحبه جماعه من الحرس وهو يحمل الهدايا الّتى بعثها المقوقس ولمّا وصل إلى الشام أذن للحرس بالانصراف ثم واصل هو سفره ضمن قافله إلى المدينه، ولمّا قدم المدينه على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سلّم إليه كتاب المقوقس وهداياه قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

۱- . السيره الحلبيه: ۲۹۶/۳-۲۹۷.

«ضَنّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه»(۱).

المغيره بن شعبه فی البلاط المصری

توجّه المغيره بن شعبه الّذی كان معروفاً بحكمه وعقله ودهائه، والّذی أصبح فی ما بعد من رجال السياسه العرب ودهاتها المعروفين.

توجّه فی جمع من قبيله ثقيف إلی البلاط المصری، فسألهم كبير المصريين (المقوقس):

كيف خلصتم إلیَّ، ومحمَّد وأصحابه بينی وبينكم؟

قالوا: لصقنا بالبحر.

قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟

قالوا: ما تبعه منّا رجلٌ واحد.

قال: فكيف صنع قومُه؟

قالوا: تبعه أحداثُهم، وقد لاقاه من خالفه فی مواطن كثيره.

قال: فإلی ماذا يدعو؟

قالوا: إلی أن نعبداللّه وحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا، ويدعو إلی الصلاه، والزكاه، ويأمر بصله الرحم، ووفاء العهد، وتحريم الزنا، والربا، والخمر.

فقاطعهم المقوقس قائلاً: هذا نبی مرسَلٌ إلی الناس كافّه، ولو أصاب القبط، والروم لاتّبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسی، وهذا الّذی تصفون منه بُعث به الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبه حتّی لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلی منتهی الخفّ

۱- . الطبقات الكبری: ۲۶۱/۱؛ السيره الحلبيه: ۲۹۹/۳.

والحافر.

فاستاء رجال ثقيف من هذا الكلام وقالوا بكلّ صلافه ووقاحه: لو دخل الناسُ كلّهم معه ما دخلنا معه.

فأخفض المقوقس رأسه وقال: أنتم فی اللعب(۱). بید أنّ هذه الروایه لا توافق بقیه المصادر التاریخیه؛ لأنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم کاتب ملوک العالم وقادته فی السنه السابعه من الهجره، علی حین کان المغیره فی معرکه الخندق قد آمن، وکان فی الحدیبیه فی صفوف المسلمین، حتّی أنّه کان بینه وبین مندوب قریش المفاوض عروه بن مسعود الثقفی مشاجره مرّ ذکرها عند استعراض قصّه الصلح.

وعلی فرض صحّه هذه الروایه لابد من القول بأنّ المغیره لم یکن فی وفد ثقیف.

وفی الختام ینبغی أن نلفت نظر القارئ الکریم إلی أنّ الواقدی نقل نصّ رساله النبی إلی عظیم القبط بصوره أُخری. ولکن أُسلوب الرساله وعباراتها تدلّ علی أنّ هذه الصوره لا أساس لها من الصحّه، لأنّها تتضمّن تهدیداً من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لعظیم القبط بالحرب والغزو إذ جاء فیها: «وأمرنی (أی اللّه) بالإعذار والإنذار، ومقاتله الکفّار حتّی یدینوا بدینی»(۲).

وممّا لا شکّ فیه أنّ هذا غیر صحیح؛ لأنّ امکانیات المسلمین فی ذلک الیوم لم تکن لتسمح لهم بمقاتله المکّیین فکیف یغزو «مصر» وهی منطقه نائیه جداً.

هذا مضافاً إلی أنّ صدور مثل هذا الکلام عن النبی فی أوّل دعوه له إلی

۱- . الإصابه: ۲۹۸/۶؛ إمتاع الأسماع: ۳۶۲/۳-۳۶۳.

۲- . فتوح الشام: ۳۹/۲.

الإسلام لا يتلاءم ونفسيه وخُلق ذلك الرجل العظيم الّذى كان يقدّر الظروف آنذاك أفضل من غيره.

***

سفير النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى أرض الذكريات «الحبشه»

تقع «الحبشه» فى آخر أفريقيا الشرقيه وتبلغ مساحتها ۱۸۰۰ كيلومتر مربع، وعاصمتها اليوم: أديس أبابا.

ولقد تعرّف الشرقيّون على هذه الأرض قبل ظهور الإسلام بقرن، وذلك على أثر هجوم الجيش الإيرانى الّذى تمّ فى عهد حكومه الملك الفارسى «انوشيروان»، وبلغ هذا التعرّف والتردّد ذروته فى هجره المسلمين من مكّه إلى الحبشه (الهجره الأُولى والهجره الثانيه).

ويوم قرّر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يبعث سته من خيره رجاله الشجعان إلى نقاط مختلفه، ونائيه من العالم لإبلاغ نداء رسالته العالميّه كلّف: «عمرو بن أُميه الضمرى» بأن يأخذ كتابه إلى الحبشه، ويسلِّمهُ إلى النجاشىّ ملكِها العادل الطيّب.

على أنّ الكتاب الّذى ستقرأ نصّه قريباً ليس هو الكتاب الوحيد الّذى بعثه رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم إلى النجاشى، بل سبق أن كتب صلى الله عليه و آله و سلم إليه قبل هذا يوصيه بالمهاجرين المسلمين، ويطلب منه فيه أن يلطف بهم، ويرعاهم، ولا يزال نصّ هذين الكتابين موجوداً فى المصادر التاريخيه الإسلاميه.

وربما حصل اشتباه بين هذين الكتابين (الرساله الّتى بعثها النبى لإبلاغ دعوته العالميه، والرساله الّتى أوصى فيها النجاشى بالمهاجرين) فخلط بعض

المؤرّخين بين عبارتيهما.(۱)

ويوم قدم سفيرُ النبى بكتاب الدعوه إلى الإسلام، الحبشه على النجاشى كان بعض المهاجرين المسلمين لا يزالون فى أرض الحبشه، يعيشون فى كنف النجاشى وحمايته، بينما عاد بعضهم من قبل إلى المدينه، وهم يحملون أجمل الذكريات والخواطر عن عَدل حاكمها الطيّب «النجاشى»، ولطفه، وحسن وفادته.

من هنا كانت أرض الحبشه فى نظر المسلمين تُعتبر أرض الذكريات الجميله والخواطر الحلوه، وكانوا يمدحون حاكمها ويصفونه بالعدل والاستقامه.

ولو أنّنا لاحظنا فى كتاب النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم إليه نوعاً من اللطف، واللين فى القول فإنّ ذلك مردّه إلى معرفه رسول اللّه بنفسيه النجاشى وخلقه وحسن موقفه.

فإنّك لا تجد لتهديدات رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى كتبه ورسائله الأُخرى إلى الملوك والزعماء بالعقاب الإلهى إن رفضوا القبول بدعوته، وحمّلهم مسؤوليه شعوبهم فى عبارات صريحه وقاطعه، أىَّ أثر فى هذا الكتاب.

فقد كتب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى النجاشى مايلى:

«بسم الله الرحمن الرحيم. مِن مُحَمَّد رَسُول اللّه إلى النجاشى ملك الحبشه.

سلامٌ عليكَ، فإنّى أحمد إليك اللّه الّذى لا إله إلّاهو الملك القدّوس السلامُ المؤمنُ المهيمنُ، وأشهدُ أنّ عيسى بن مريم روحُ اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيّبه الحصينه فحملت بعيسى، حَملَتهُ من رُوحه، ونفخِه، كما خَلقَ آدمَ بيده، وإنّى أدعوك إلى اللّه وحده لا شريك له والموالاه على طاعته، وأن تتّبعنى وتوقن بالذى جاءنى، فإنّى رسول اللّه، وإنّى أدعوك وجنودك إلى اللّه عزّ وجلّ وقد بلّغتُ

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۲۹۴/۲، البدايه والنهايه: ۱۰۴/۳، إعلام الورى: ۱۱۸/۱.

ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتّبع الهدى»(۱).

لقد بدأ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كتابه بالتسليم على حاكم الحبشه وأرسل إليه بتحياته الشخصيه، ولكنّه لم يفعل هذا فى كتاب غيره، فلم يرسل بتحيّاته الشخصيه إلى «كسرى» و «قيصر» و «المقوقس» حكّام إيران والروم ومصر، بل بدأ كتبه إليهم بالسلام العام حيث قال: «السلامُ على مَن اتّبع الهدى».

ولكنّه صلى الله عليه و آله و سلم سلّم فى كتابه هذا، على النجاشى نفسه، وقال: «سلام عليك»، وبهذا خصّه دون غيره من الزعماء والملوك باحترام وتكريم خاصّين.

وقد أشار صلى الله عليه و آله و سلم فى هذا الكتاب إلى جمله من صفات اللّه البارزه الّتى تدلّ جميعُها على تنزهه سبحانه، وعظمته وجلاله.

ثم أشار إلى مسأله أُلوهيه المسيح (الّتى هى من ولائد التفكير الكنسى المنحطّ) وردّ على ذلك باستدلال قويٍّ خاصّ مستلهَم من القرآن الكريم، حيث قايس ولاده المسيح عليه السلام بخلقه آدم، وأثبت أنّ ولاده شخص من دون أب لو كان دليلاً على أُلوهيّته، أو كونه ابناً للّه، لصحّ ذلك فى حقّ آدم، الّذى خلق من غير أب ولا أُمّ، ولكن لا يرى أحدٌ فيه مثلَ هذا الرأى.

ثم ختم صلى الله عليه و آله و سلم كتابه هذا بإخراج دعوته فى لباس النصح والموعظه، تجنّباً من إظهار نفسه بمظهر الآمر.

محاوره بين سفير النبىّ وحاكم الحبشه

لمّا مثلُ سفير النبى صلى الله عليه و آله و سلم أمام النجاشىّ، قال للنجاشى:

يا أصحمه إنَّ علىَّ القولُ، وعليك الاستماعُ، إنَّك كأنّك فى الرقّه علينا منا،

۱- . السيره الحلبيه: ۲۹۳/۳.

وكأنّا فی الثقه بک منک، لأنّا لم نظن بک خیراً قط إلّانِلناهُ، ولم نحفظک علی شرّ قطّ إلّاأمنّاه، وقد أخذنا الحجّه علیک من قبل آدم، والإنجیلُ بیننا وبینک شاهدٌ لا یُرَدّ، وقاض لا یجور، وفی ذلک موقع الخیر، وإصابه الفضل، وإلّا فأنت فی هذا النبی الأُمّی کالیهود فی عیسی ابن مریم، وقد فرّق النبی صلی الله علیه و آله و سلم رُسُلَه إلی الناس فرجاک لما لم یرجهم له، وأمنَک علی ما خافهم علیه لخیر سالف، وأجر ینتظر.

فقال النجاشی: أشهد باللّه أنّه للنبیُ الّذی ینتظره أهل الکتاب، وإنّ بشاره موسی براکب الحمار، کبشاره عیسی براکب الجمل، وإنّه لیس الخبر کالعیان، ولکنَّ أعوانی من الحبشه قلیل، فانظرنی حتّی أُکثّر الأعوان، وأُلیّن القلوب(۱).

رساله النجاشی إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم

ثم کتب کتاباً إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم هذا نصّه:

«بسم اللّه الرَّحمن الرَّحیم؛ إلی محمَّد رسول اللّه مِنَ النجاشی الأصحم ابن أبجر، سلامٌ علیک یا نبی اللّه ورحمه اللّه وبرکاته، من اللّه الّذی لا إله إلّاهو، الّذی هدانی إلی الإسلام. أمّا بعد، فقد بَلغنی کتابُک یا رسول اللّه فیما ذکرت مِن أمر عیسی، فوربّ السماء والأَرض إنّ عیسی ما یزید علی ما ذکرت ثفروقاً(۲) إنّه کما قلت وقد عرفنا ما بعثتَ به إلینا، وقد قرینا ابنَ عمّک وأصحابه، فأشهدُ أنّک رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم صادقاً مصدّقاً وقد بایعتُک وبایعتُ ابن عمک وأسلمتُ علی یدَیْه للّه ربِّ العالمین،

۱- . السیره الحلبیه: ۲۹۴/۳.

۲- . الثفروق: الأقماع الّتی تلزق بالبسر والتمر، وقیل: هو علاقه ما بین النواه والقمع، وقیل: هوغلاف ما بین النواه والقمع. لسان العرب: ۳۴/۱۰، ماده «تفرق».

وقد بعثتُ إليك بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر، فإنّى لا أملك إلّانفسى، وإن شئت أن آتيك فعلتُ يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فإنّى أشهدُ أنّ ما تقولُ حقّ والسلام عليك يا رسول اللّه(۱).

ثم إنَ النجاشى بعث بهدايا خاصّه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وكتب إليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد ذلك كتابين آخرين أيضاً، وكان فى كلّ مره يحترم كتابَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويقبّله ويضعُه على عينيه.

تقييم سريع لمراسله النبى صلى الله عليه و آله و سلم قاده العالم

ربما تصوّر بعض العارفين بأحوال الساسه فى ذلك اليوم أنّ دعوه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لحكّام وشعوب العالم يومذاك كان أمراً خارج المألوف وعملاً غير متعارف، ولكنّ مضىّ الزمان أثبت أنّ ذلك العمل كان من وظائف النبىّ ومهامّه الأساسيه.

أوّلاً: أنّ إرسال سته سفراء فى يوم واحد إلى أنحاء العالم، محمَّلين برسائل قويه مبرهنه أغلق كل باب للشكّ فى وجه المخالفين فى المستقبل، فلا مجال لأن يشك أحدٌ هذا اليوم وهو يرى هذا العمل العظيم فى عالميّه الرساله المحمَّديه، فمضافاً إلى الآيات الوارده فى هذا الصعيد يعدّ إرسال السفراء بنفسه دليلاً قاطعاً وكبيراً على عالميه الرساله الإسلاميه.

ثانياً: لقد تأثّر جميع الزعماء والمُلوك والقاده الذين راسلهم النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم - ما عدا «خسرو پرويز» ملك إيران الّذى كان طاغيه مستبدّاً متكبّراً - برسائله صلى الله عليه و آله و سلم ودعوته، وأكرموا سفراءه.

۱- . تاريخ الطبرى: ۲۹۴/۲؛ ولاحظ: بحار الأنوار: ۳۹۲/۲۰.

كما أنّ قضيه ظهور النبیّ العربی قد أصبح حدیث الأوساط والمحافل الدینیه بسبب هذا العمل.

لقد أیقظت هذه الرسائل والکتب بمحتویاتها ومضامینها القویه المبرهنه العقول الغافیه، وهزّت الغافلین بشدّه، وأثارت مشاعر الشعوب العالمیّه المتحضّره، ودفعتهم إلی البحث والتحقیق حول من بشّرت به التوراه والإنجیل، کما تسبّب فی أن یجری العلماء والأساقفه والقساوسه غیر المغرضین إتّصالات بمن ینتسب إلی هذا الدین، ویقیموا ارتباطاً مع هذه العقیده بشکل وآخر.

ومن هنا ولأجل هذا تسابقت أفواج وفرق کبیره من رجال الدین من الشرائع الدینیه المختلفه الّتی کانت سائده آنذاک فی الأیام الأخیره لحیاه رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم وبعدها إلی القدوم علی المدینه لدراسه أوضاع الدین الجدید، والتعرّف علی ماهیته ومنطقه.

ولقد شرحنا فی الفصول الماضیه وبشکل مفصَّل نوعَ ومدی التأثیر الّذی ترکته رسائل النبی وسفراؤه فی نفوس حکّام الرّوم ومصر والحبشه، وها نحن نواصل بیان بقیه التأثیرات الّتی ترکتها مراسله النبی صلی الله علیه و آله و سلم لحاکم الحبشه العادل، وملکها البار: أصحمه النجاشی.

فقد عمد النجاشیّ بعد تقدیم الهدایا إلی سفیر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم، إلی إرسال ثلاثین رجلاً من القساوسه والأساقفه الأحباش إلی أرض المدینه للتحقیق فی أمر الإسلام، ونبوه محمَّد صلی الله علیه و آله و سلم ولیروا عن کثب حیاته الزاهده البسیطه، ولا یتصوّروا أنّه یعیش کما کان یعیش الملوک والجبابره فی ذلک العصر.

ولمّا قدم مبعوثو النجاشی المدینه علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم سألوه عن نظریته حول السیّد المسیح علیه السلام فبیّن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عقیدته حول ذلک النبیّ العظیم

بقراءه الآیه التالیه:

«إِذْ قالَ اللّهُ یا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ اذْکُرْ نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَ عَلی والِدَتِکَ إِذْ أَیَّدْتُکَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُکَلِّمُ النّاسَ فِی الْمَهْدِ وَ کَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتُکَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ التَّوْراهَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَهِ الطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیها فَتَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِی وَ تُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِی وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتی بِإِذْنِی وَ إِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرائِیلَ عَنْکَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَقالَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلّا سِحْرٌ مُبِینٌ» .(۱)

وقد کان لهذه الآیات أثرٌ عجیبٌ فی نفوس أُولئک القساوسه والأساقفه حتّی أنّهم بکوا عند سماعها من دون اختیار.

وبعد التحقیق الدقیق فی دعوه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عاد هذا الفریق من علماء الدین المسیحی إلی الحبشه، وأخبروا النجاشیّ بما سمعوه وشاهدوه، فبکی هو أیضاً لما سمع من أُولئک الرجال(۲).

وقد نقل ابن الأثیر فی «الکامل» و «أُسد الغابه» قصّه هذا الوفد بصوره أُخری إذ کتب بعد ذکر ما مرّ من رساله النجاشی بإضافه قوله: «وبعثت إلیک بابنی أرمی بن الأصحم»... فخرج ابن النجاشی فی ستین نفساً من الحبشه (قاصدین المدینه) فی سفینه فی البحر، فلمّا توسطوا البحر غرقوا کلّهم.

ولکن وصول الرساله الّتی أشار إلیها ابن الأثیر إلی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم

۱- . المائده: ۱۱۰.

۲- . لاحظ: إعلام الوری: ۱۱۹/۱.

شاهد على أنّه لم تحدث مثل هذه الحادثه لمبعوثى النجاشى(۱).

كتاب رسول اللّه إلى أمير الغساسنه (بالشام)

الغساسنه فرع من قبيله «الأزد» القحطانيين الذين سكنوا «اليمن» مده طويله، وكانت أراضيهم تسقى من سدّ مأرب، فلمّا انهدم ذلك السدّ اضطروا إلى الرحيل عن «اليمن» ونزلوا بالشام. فسيطروا على جزء من أراضيها وحكموا فيها، وانتهى بهم الأمر إلى تشكيل دوله الغساسنه. الّتى كانت تحكم تلك الديار تحت نفوذ قياصره الروم وسيادتهم، فلمّا جاء الإسلام أزال نظامهم، وانتهت حكومتهم، بعد أن حكم منهم، اثنان وثلاثون ملكاً فى مناطق «الجولان»، و «اليرموك»، و «دمشق»(۲).

وقد بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم «شجاع بن وهب» - وهو أحد السفراء السته الذين بعثهم صلى الله عليه و آله و سلم لإبلاغ الرساله الإسلاميه إلى العالم - إلى أرض الغساسنه، وقد حمّله كتاباً إلى ملكها يومذاك «الحارث بن أبى شمّر الغسانى»، فخرج «شجاع» بكتاب النبى إلى الشام لتسليمه إلى ملك الغساسنه فانتهى إليه وهو بغوطه دمشق وهو مشغول بإعداد المقدّمات لاستقبال «قيصر» الّذى كان فى طريقه إلى زياره بيت المقدس وفاء للنذر الّذى نذره للانتصار على إيران كما مر.

ولهذا لم يستطع «شجاع» من الوصول إلى الأمير الغسانى إلّابعد انتظار دام ثلاثه أيام، فاستغلّ «شجاع» هذه الفرصه وصادق فيها حاجب الأمير الغسانى فكان يحدّثه عن صفه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأخلاقه وما يدعو إليه من العقيده الطاهره،

۱- . أُسد الغابه: ۶۲/۱؛ الكامل فى التاريخ: ۲۱۳/۲.

۲- . راجع: معجم البلدان، ومروج الذهب، وغيرهما.

فأثّرت كلمات «شجاع» تأثيراً عجيباً فی نفس ذلک الحاجب الّذی کان رومیّا حتّی أنّه رقّ وغلبه البکاء وقال: إنّی قد قرأت الإنجیل وأجد صفه هذا النبی بعینه، وأنا أُؤمن به وأُصدّقه، وأخاف من «الحارث» أن یقتلنی إذا عرف بإسلامی، وکان یکرم سفیر النبی صلی الله علیه و آله و سلم ویحسن ضیافته طوال تلک المده، ویقول إنّ «الحارث» یخاف «قیصر» أیضاً.

ثم لمّا خرج «الحارث» ذات یوم وجلس علی عرشه أذنَ لسفیر النبی صلی الله علیه و آله و سلم بالدخول علیه، فلمّا مثل بین یدیه دفع إلیه کتاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فقرأه وکان نصّه کالتالی:

«بسم اللّه الرحمن الرَّحیم مِن محمَّد رَسُول اللّه إلی الحارث بن أبی شمر، سلامٌ علی من اتّبع الهُدی، وآمَن به وصدّق، وإنّی أدعوک أن تؤمن باللّه وحدَهُ لا شریکَ له یبقی مُلکُکَ».

فانزعج الحارث ممّا قرأ فی آخر الکتاب ورمی به جانباً، وقال: مَن یَنتزع منّی مُلکی؟ أنا سائر إلیه، ولو کان بالیَمَن جِئته، علیّ بالناس.

وبهذا أمر بإعداد العسکر حالاً لیستعرض قوته العسکریه أمام سفیر النبی إرعاباً وتخویفاً له. ولأجل أن یظهر نفسه بمظهر المدافع عن مُلک قیصر بادرَ إلی کتابه رساله إلی «قیصر» یخبره فیها بما عزم علیه من غزو رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم!!

واتّفق أن وصلت رساله الأمیر الغسّانی إلی «قیصر» فی الوقت الّذی کان فیه «دحیه الکلبی» سفیرُ النبی إلی الروم فی مجلس قیصر، وکان «قیصر» یحاوره، ویسأله عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وعن صفته ودینه، فانزعج «قیصر» من مبادره الحاکم الغسانی العجوله وکتب إلیه یمنعه عن السیر إلی رسول الإسلام طالباً منه أن یلتقی به فی مدینه «ایلیا».

فغيّر موقف «قيصر» الإيجابى هذا موقف عميله: الحاكم الغسّانى السلبى تبعاً للمثل القائل «الناسُ على دين ملوكهم» فبادر من فوره إلى إكرام سفير النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ومنحه هدايا ثمينه، ووجَّهه نحو المدينه معززاً مكرّماً وقال له: «إقرأ على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم منّى السلام».

ولكن النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يرض بهذا الموقف الدبلوماسى الّذى لم يكن ينمُّ عن واقع صادق فقال: بادَ ملكُهُ. أى سيزول ملكه عمّا قريب. فمات «الحارث» فى السنه الهجريه الثامنه أى بعد عام واحد من هذه القضيه(۱).

سادس السفراء فى أرض اليمن

سادس سفراء النبى هو المبعوث إلى أرض اليمامه (وهى من نجد)، وهو سليط بن عمرو.

فقد خرج سليط هذا بكتاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى «هوذه بن على» الحنفى ملك اليمامه يدعوه إلى الإسلام ولمّا قدم عليه سلّم الكتاب إليه وفيه.

«بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم. مِن محمَّد رسول اللّه إلى هَوذَه بن عَلى. سلامٌ على مَن اتَّبع الهُدى وَ اعلَم أنّ دينى سيظهَر إلى منتهى الخفِّ والحافِر (أى يعمُّ الشرق والغربَ) فأسلِم تَسلم وَأجعَلُ لكَ ما تحتَ يَديك».(۲)

وحيث إنّ ملك اليمامه (هوذه) كان نصرانياً لذلك بعث إليه رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سليطاً وكان ممّن عاش مده من الزمن فى أرض الحبشه عندما هاجر إليها فريقٌ من المسلمين فراراً من اضطهاد وفتنه قريش لهم، وعرف بتقاليد النصارى

۱- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ۲۶۱/۱؛ تاريخ الطبرى: ۲۹۳/۲؛ السيره الحلبيه: ۳۰۴/۳-۳۰۵.

۲- . السيره الحلبيه: ۳۰۳/۳.

ومنطقهم، وكانت تعاليم الإسلام وكذا اختلاطه بمختلف الفئات فى رحلاته وأسفاره قد صنعت منه رجلًا شجاعاً قوياً وذكياً، وقد استطاع بما أُوتى من قوه المنطق، والشجاعه أن يقنع بكلامه وحديثه ملك اليمامه عندما قال له: يا هوذه إنّه سوّدتك(۱) أعظم حائله (أى باليه) وأرواح فى النار، وإنّما السيّد من متّع بالإيمان ثم تزوّد بالتقوى. وإنّ قوماً سعدوا برأيك فلا تشقين به، وأنا آمركَ بخير مأمور به، وأنهاك عن شىء منهيٍّ عنه. آمرك بعباده اللّه، وأنهاك عن عباده الشيطان، فإنّ فى عباده اللّه الجنه، وفى عباده الشيطان النار، فإن قبلتَ نلت ما رجوتُ وأمِنتُ ما خفتُ، وإن أبيتَ فبيننا وبينك كشف الغطاء وهول المطّلع.(۲)

كانت ملامح ملك اليمامه المتغيّره المتأثّره توحى بحسن تأثير كلمات سليط سفير النبىّ فى نفس ذلك الملك، ولهذا طلب من سليط أن يمهلهُ مده حتّى يفكّر فى أمر النبى ودعوته، وكان من الملوك العقلاء.

ويذكر أنّ هوذه كان عنده عظيم من عظماء النصارى حين قال للنبى صلى الله عليه و آله و سلم ما قال فقال له: لم لا تجيبه.

قال هوذه: أنا أملِكُ قومى، ولئن اتّبعته لا أملك.

قال: بلى واللّه لئن اتّبعتَهُ لَيُملكنّك، وإنّ الخير لك فى اتّباعه، وإنّه النبىّ العربى الّذى بشّر به عيسى بن مريم عليه السلام. وإنّه لمكتوب عندنا فى الإنجيل: محمّد رسول اللّه.(۳)

فتركت نصيحه الأُسقف وكلماته أثراً عميقاً وقوياً فى نفس ملك اليمامه

۱- . يقصد إنّه سوده كسرى وهو فى النار.

۲- . السيره الحلبيه: ۳۰۴/۳.

۳- . السيره الحلبيه: ۳۰۴/۳.

«هوذه» فاستدعى سفير النبى صلى الله عليه و آله و سلم وكتب إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم كتاباً هذا نصه: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومى وخطيبهم، والعرب تهاب مكانى فاجعل إلىّ بعض الأمر اتّبعكَ (أى أنّه كان يطلب أن يجعله النبىُ خليفه له من بعده). وأجاز سليطاً بجائزه وكساه أثواباً من نسج هجر.(۱)

ولم يكتف «هوذه» بهذا بل بعث وفداً إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بزعامه «مجاعه بن مراره» ليبلّغ إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم رسالته ويقول له: ان جعَلَ الأمر له من بعده أسلمَ وسار إليه ونصَره، وإلّا قصدَ حربَه.

فلمّا قدم الرسول على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأخبره بما جرى وقرأ الكتاب على النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم قال: «لا ولا كرامه، لو سألنى سيابه من الأرض ما فعلتُ اللّهم اكفنيه»(۲).

رسائل أُخرى لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم

هذا وإنّ الرسائل والكتب الّتى بعثها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لغير من ذكرناه من القاده والزعماء والشخصيات الدينيه والسياسيه أكثر ممّا أدرجناه هنا، وقد استطاع العلماء المحقّقون أن يجمعوا ويثبتوا فى كتب خاصّه نصّ ۲۹ رساله من رسائل الدعوه إلى الإسلام الّتى بعثها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تركنا إدراجها هنا رعايه للاختصار.(۳)

۱- . السيره الحلبيه: ۳۰۳/۳.

۲- . السيره الحلبيه: ۳۰۳/۳-۳۰۴؛ الكامل فى التاريخ: ۲۱۵/۲؛ الطبقات الكبرى: ۲۶۲/۱. و سيابه من الأرض أى قطعه من الأرض.

۳- . راجع: مكاتيب الرسول للعلّامه الأحمدى، وغيره من المؤلّفات فى هذا المجال.

۴۵ قلعه خیبر أو بُؤره الخطر

اشاره

یوم طلع نجمُ الإسلام فی أَرض المدینه حقدت الیهود علی رسول اللّه والمسلمین، أکثر من قریش، وعملت بمختلف الطرق والحیل من أجل القضاء علی الإسلام والإیقاع برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه.

ولقد ابتلی یهود المدینه وما حولها بمصیر سیّئ نتیجه أعمالهم وتصرّفاتهم السیّئه، فقُتِل فریق منهم، وأُجلی آخرون مثل قبیله بنی قینقاع وبنی النضیر من أَرض المدینه فسکنوا «خیبر» و «وادی القری» أو نزلوا باذرعات الشام.

وکانت خیبر منطقه واسعه وخصبه تقع علی بُعد اثنین وثلاثین فرسخاً من المدینه وکان قد سکنها الیهود قبل بعثه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وبنوا فیها سبع قلاع وحصون قویه لتحصنهم وتحفظهم.

وحیث إنّ التربه والمناخ فی تلک المنطقه کانت قد جعلت منها مکاناً جیداً وصالحاً للزراعه جداً، لذلک کان سکانها الیهود قد حصلوا علی مهاره کبری فی أُمور الزراعه وجمع الثروات، وتهیئه وسائل الدفاع والقتال، وإعداد السلاح

والقوه.

وكان عدد نفوسها يقارب عشرين ألف نسمه بينهم عدد كبير من المقاتلين الشجعان(۱).

إنّ أكبر ذنب اقترفه يهود «خيبر» هو أنّهم شجّعوا جميع القبائل العربيه على محاربه الحكومه الإسلاميه والقضاء عليها، واستطاع جيش الأحزاب المشرك بمساعده يهود «خيبر» أن يتحرّكوا فى يوم واحد من مختلف مناطق الجزيره العربيه لاجتياح المدينه واستئصال المسلمين فى أكبر تحالف واتّحاد عسكرى من نوعه فى ذلك العصر، كما سبق وأن عرفت فى قصّه «معركه الأحزاب». ولكن هذا الجيش المعتدى الظالم تفرّق بفعل تدابير رسول الإسلام الحكيمه وأصحابه بعد شهر من الانتظار خلف الخندق، وتقهقر وعادت أحزابه ومن جملتهم يهود خيبر متشتّته متفرّقه إلى أوطانها تجرّ أذيال الخيبه والخسران، واستعادت عاصمه الإسلام استقرارها وأمنها.

إنّ خيانه، وخباثه ولؤم يهود خيبر حملت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على أن يقضى على بؤره المؤامره ومركز الفساد والخطر هذا، وأن يجرّد سكانها جميعاً من السلاح، لأنه كان يخشى أن يعود هذا الشعب المعاند الخبيث - ببذل الأموال الطائله - إلى تأليب العرب الوثنيّين مرّه أُخرى ضد المسلمين ويعيدوا قصّه الأحزاب مره أُخرى. وخاصّه أنّ تعصّب اليهود لدينهم ومعتقدهم كان أشدّ من تعصّب قريش للوثنيه، ولهذا التعصّب كان يسلم ألفُ مشرك وثنىّ ولا يدع يهودىٌ واحدٌ دينهُ، ومعتقده!!

ثم إنّ عاملاً آخر حمل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على تحطيم قدره الخيبرّيين

۱- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۷۲۶/۲.

وشوكتهم، وانتزاع السلاح منهم ورصد تحرّكاتهم بواسطه فرسانه ورجاله، أنّه راسل الملوك والسلاطين، ودعاهم جميعاً وبشكل قوى إلى الإسلام، فلم يكن من المستبعد أن يستغل «كسرى» و «قيصر» يهود خيبر فيتعاونوا جميعاً للقضاء على الإسلام والنهضه الإسلاميه فى مهدها، أو تحرك اليهود ذينك الملكين ضدّ الإسلام كما حرّكت من قبل المشركين ضدّ هذا الدين، وتسبّبت فى وقوع مشاكل.

خاصه أنّ الشعب اليهودى كان ضليعاً فى الحروب الّتى دارت بين الروم والفرس فى تلك العصور، وكان اليهود يتعاونون مع أحد الطرفين.

من هنا رأى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّ من الحكمه بل ومن الضروره بمكان أن يطفئ شراره الخطر هذه إلى الأبد.

وكانت هذه الفرصه أفضل الفرص لهذا العمل؛ لأنّ بال النبىّ كان قد فرغ من ناحيه الجنوب (أى قريش) بعد صلح الحديبيه، وكان يعلم أنّه لو أقدم على عمل ضد اليهود لم تمتد يد من جانب قريش لمساعدتهم، ولكى يمنع من وصول أيّه مساعدات وإمدادات لهم من ناحيه قبائل الشمال مثل «غطفان» الذين كانوا أصدقاء ليهود خيبر والمتعاونين معهم فى معركه «الأحزاب» نفذ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خطّه سيأتى تفصيلها مستقبلاً.

لهذه الأسباب والعوامل والاعتبارات أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المسلمين بالتهيّؤ لغزو خيبر آخر مركز من مراكز اليهود فى الجزيره العربيه. وقال: «لا تخرجوا معى إلّا راغبين فى الجهاد فأمّا الغنيمه فلا».(۱)

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم استخلف على المدينه «نميله بن عبداللّه الليثى»،

۱- . المغازى: ۶۳۴/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۰۶/۱؛ السيره الحلبيه: ۷۲۶/۲.

ودفع رايه بيضاء إلى «علىّ بن أبى طالب» عليه السلام وأمر بالتوجّه إلى خيبر، ولكى تسرع الإبل فى سيرها أذن لعامر بن الأكوع أن يحدو بالإبل لأنّ الإبل تُستَحثُ بالحداء، فأخذ يرتجز قائلاً:

واللّه لولا اللّه ما اهتَدَينا ولا تصَدّقنا ولا صَلَّينا

إنّا إذا قومٌ بَغُوا علينا وإن أرادوا فتنه أبينا

فَأَنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا(۱)

وقد عكست هذه الأبيات الجميله جانباً من هدف هذه الغزوه، فهى تفيد أنّ اليهود ظلمونا، وأشعلوا نيران الفتنه وقد خرجنا لإطفائها، وتحملنا فى سبيل ذلك عناء هذا السفر.

ولقد سُرّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمضامين هذه الأبيات فدعا لابن الأكوع، وقال:

«يرحمك اللّه» وقد استشهد ابن الأكوع هذا فى هذه الغزوه.

هذا وقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يراعى مبدأ الاستتار فى جميع تحرّكاته العسكريه، فقد كان يحب أن لا يعرف العدوُّ بمسيره ومقصده حتّى يفاجئ العدو ويباغته، ويحاصره قبل أن يستطيع فعل شىء، هذا مُضافاً إلى ناحيه أُخرى وهى أن يظن حلفاء العدوّ الّذى يقصده بأنّه يقصدهم ويسير إليهم، فيغلقوا على أنفسهم أبواب منازلهم ولا ينضم بعضهم إلى بعض.

وربما تصوّر البعض فى هذه الغزوه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقصد منطقه الشمال (شمال المدينه) لتأديب قبائل غطفان وفزاره الذين تعاونوا مع اليهود فى معركه الأحزاب، لما وجدوه متوجّهاً نحو الشمال.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۹۱/۳-۷۹۲.

ولكنّه عندما وصل إلى منطقه «الرجيع» عرج بجيشه صوب «خيبر» وبهذا قطع الطريق على أيّه إمدادات عسكريه من ناحيه الشمال إلى خيبر، بقطع خطّ الارتباط بين قبائل غطفان وفزاره ويهود خيبر، فمع أنّ حصار خيبر طال مده شهر واحد تقريباً لم تستطع القبائل المذكوره أن تمدّ حلفاءها اليهود بأى شيء(۱).

ولقد خرج مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى خيبر ما يقرب من ألف وستمائه مقاتل، بينهم مائتا فارس(۲).

وعندما أشرف رسول ا للّه صلى الله عليه و آله و سلم على خيبر قرأ الدعاء التالى الّذى يكشف عن نيته الحسنه:

اللهمّ ربِّ السماوات وما أضللنَ

وربَّ الأرضين وما أقللنَ

وربَّ الشياطين وما أضللنَ

وربَّ الرياح وما أذرينَ

فإنّا نسألك خيرهذه القريه وخير أهلها، وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّها

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۹۳/۳.

۲- . الأمالى للطوسى: ۱۶۴، يذهب ابن هشام فى سيرته: ۷۹۱/۳ إلى أنّ خروج النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى خيبر كان فى المحرّم، بينما ذهب ابن سعد فى الطبقات الكبرى: ۷۷/۲ إلى أنّه كان فى جمادى الثانيه من السنه السابعه، وحيث إنّ إرسال الرسل إلى الملوك والأُمراء تمّ فى شهر محرم من هذه السنه ذاتها لذلك يكون الرأى الثانى أقرب إلى الصحّه، وخاصّه أنّ مهاجرى الحبشه التحقوا برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى خيبر بعد وصول رساله النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى النجاشى بوساطه «عمرو بن أُميه الضمرى» لأنّ ذهاب رسول النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى الحبشه وعودته مع المهاجرين إلى المدينه ثم خيبر بحاجه إلى زمان، وحيث إنّ توجّه الرسل والسفراء كان فى شهر محرم، لذلك يجب أن يكون قتال الخيبريين فى الأشهر التاليه.

وشرّ أهلها وشرّ ما فيها».(۱)

إنّ هذا الدعاء وما رافقه من حاله التضرّع، وذلك أمام أعين ألف وستمائه من الجنود الشجعان الّذين كان كلٌّ واحد منهم شعله متّقده من الشوق إلى القتال فى سبيل اللّه يكشف عن أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن يهدف من مسيره إلى هذه الأرض الاستعمار أو الانتقام بل جاء من أجل أن يقضى على بؤره الخطر الّتى كان من المحتمل أن تتحوّل فى كلّ لحظه إلى قاعده انطلاق للمشركين الوثنيّين، حتّى لا تُهدَّد النهضه الإسلاميه من هذه الناحيه فيما بعد.

وسترى أنت أيّها القارئ الكريم كيف أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد فتح القلاع والحصون اليهوديه، وانتزاع السلاح من سكانها المتآمرين المشاغبين فوّض إليهم أراضيهم، واكتفى منهم بأخذ الجزيه فى مقابل المحافظه على أموالهم وأنفسهم، وبعد أن ربطهم بمعاهده قويه ملزمه.

إحتلالُ النقاط والطرق الحسّاسه ليلاً

كان لكلّ حصن من حصون خيبر السبعه اسم خاص يعرف به، فهى عباره عن: «ناعم» و «القموص» و «الكتيبه» و «النطاه»، و «شقّ» و «سطح»، و «سلالم»، وربما سمّى بعض هذه الحصون باسم زعيم الحصن وسيّده، مثل «حصن مرحب».

كما أنّهم كانوا قد بنوا عند كلّ حصن من تلك الحصون برجاً للمراقبه، ولرصد كلّ التحرّكات خارج الحصن، ولأجل أن ينقل الحراس والمراقبون المستقرون فى هذه الأبراج الأخبار إلى داخل الحصن.

وقد كانت تلك البروج والحصون قد شيِّدت بحيث يسيطرُ سكانُها على

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۹۲/۳؛ الكامل فى التاريخ: ۲۱۷/۲؛ السيره الحلبيه: ۷۲۹/۲.

خارج الحصن سيطره كامله وكانوا يستطيعون - عن طريق المجانيق(۱) وغيرها من آلات الرمى - إبعاد أى عدو، وإفشال أيّه محاوله للاقتراب إلى الحصن، وذلك برميه بالأحجار وما شابهها.

وقد كان بين سكان هذه الحصون البالغ عددهم عشرين ألفاً، ألفان من الفرسان الشجعان والصناديد الأبطال الذين توفّر لهم كلّ ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب، والذين أُعدّت لهم فى المخازن كلّ ما يحتاجون إليه من الأسلحه والعتاد.

وكانت هذه الحصون من الإحكام والقوّه بحيث كان من المستحيل إحداث أيّه ثغره فى حيطانها أيضاً، ومن أراد الاقتراب إليها رمى بالأحجار فجرح بها أو قتل، فكانت تعدُّ هذه الحصون - فى الحقيقه - متاريس قويه لمقاتلى اليهود.

لقد واجه المسلمون فى هذه الغزوه مثل هذا العدوّ المسلح، الممتنع بمثل هذه المتاريس القويه، فكان لابدّ لفتح هذه القلاع من استخدام تكتيك عسكرى دقيق.

ولهذا فإنّ أوّل عمل قام به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه فى هذا السبيل هو احتلال كلّ النقاط والطرق الحسّاسه ليلاً.

وقد تمّ هذا العمل بسريه وسرعه بالغه جداً بحيث لم يعرف به حتّى مراقبو الأبراج اليقظون أيضاً.

ولمّا كان صبيحه تلك الليله خرج عُمّال خيبر غادين إلى مزارعهم وبساتينهم وهم يحملون مساحيهم ومكاتلهم(۲) وإذا بهم يفاجَأون بجنود الإسلام الأبطال

۱- . وهى أجهزه حديديه بدائيه تقذف الحجر أو الحديد.

۲- . المكاتل جمع مكتل. والمِكتَل كمِنبَر: زنبيل يحمل فيه التمر أو العنب إلى الجَرين، وقيل: هوشبه الزنبيل يسع خمسه عشر صاعاً. تاج العروس: ۶۴۷/۱۵، ماده «كتل».

وقد احتلّوا بقوه الإيمان جميع النقاط الحسّاسه وسدّوا جميع الطرق عليهم بحيث لو تقدّموا شبراً لقبضَ عليهم، فأفزعهم ذلك وخافوا خوفاً شديداً، فأدبروا هراباً وهم يقولون: محمَّد واللّه محمد والخميس معه، يعنون الجيش. وبادروا فوراً إلى إغلاق أبواب الحصون وإحكامها، وعقدوا شورى عسكريه فى داخل حصنهم المركزى.

وعندما رأى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مساحى اليهود ومكاتلهم وغيرها من أدوات الهدم قال متفائلاً:

«اللّه أكبر خربت خيبرُ أنّا إذا نزلنا بساحه قوم فساء صباح المُنذرين».(۱)

وكانت نتيجه الشورى العسكريه اليهوديه فى هذه الغزوه هى أن يجعلوا الأطفال والنساء فى أحد الحصون، ويجعلوا الذخيره من الطعام فى حصن آخر، ويستقر المقاتلون الشجعان على الأبراج ويدافعوا عن كلّ قلعه وحصن بالأحجار، ويخرج الأبطال الصناديد من كلّ حصن ويقاتلوا المسلمين خارجه.

كانت هذه هى خطه اليهود لمواجهه جنود الإسلام وقد أصرّوا على تنفيذها حتّى آخر لحظه من القتال، ولهذا استطاعوا أن يقاوموا الجيش الإسلامى مدّه شهر واحد تقريباً بحيث كانت محاوله فتح كلّ حصن من تلك الحصون تستغرق عشره أيام دون نتيجه.

متاريس اليهود تتهاوى

كانت هناك نقطه لا تحظى بأهميه تُذكر من الناحيه العسكريه وكان مقاتلو

۱- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ۲۱۷/۲؛ السيره النبويه لابن هشام: ۷۹۳/۳.

اليهود يسيطرون عليها سيطره كامله، ولم يكن فيها أى مانع من استهداف مواقع المسلمين ورميها من جانب العدو.

ولهذا جاء أحد المقاتلين المسلمين إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو «محمَّد بن مسلمه» وقال له:

يا رسول اللّه صلى اللّه عليك إنّك نزلت منزلك هذا فإن كان عن أمر (إلهى) أُمرت به فلا نتكلم فيه، وإن كان الرأى تكلّمنا؟ فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: بل هو الرأى.

فقال: يا رسول اللّه دنوت من الحصن، وإنّ أهل النطاه مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم، فتحوّل يا رسول اللّه إلى موضع برىء من النخل والبناء حتّى لا ينالنا نبلهم.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو يراعى واحداً من مبادئ الإسلام العظيمه (الشورى) واحترام الآخرين: «بل هو الرأىُ، انظر لنا منزلاً ـ بعيداً من حصونهم، بريئاً من الوباء نأمن فيه بياتهم»، فطاف محمَّد حتّى انتهى إلى الرجيع (وهو واد بقرب خيبر) ثم رجع إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليلاً ـ فقال: وجدت لك منزلاً، فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فحولت خيمه القياده عند المساء إلى ذلك المكان الأكثر أماناً من بيات اليهود وغدرهم فكان النبى يغدو كلّ يوم فيقاتل أهل النطاه يومه إلى الليل ثم إذا أمسى رجع إلى الرجيع حيث غرفه القياده، وكان يناوب بين أصحابه فى حراسه الليل فى مقامه بالرجيع سبعه أيام(۱).

على أنّه لا ـ يمكن البتّ فى تفاصيل واقعه خيبر ولكن المستفاد من المصادر التاريخيه هو أنّ جنود الإسلام حاصروا القلاع والحصون حصناً تلو حصن، وحاولوا قطع ارتباط الحصن المحاصر ببقيه الحصون ثم فتحه، ثم محاصره

۱- . لاحظ: المغازى: ۶۴۳/۲-۶۴۴؛ إمتاع الأسماع: ۲۳۱/۹.

حصن آخر.

ولقد تمّ فتح هذه الحصون ببطء لأنّها كانت مرتبطه مع بعضها بممرّات سرّيّه، أو كان المقاتلون يدافعون عنها دفاعاً مستميتاً، ولكن الحصون التى كان الرعب والخوف يسيطر على مقاتليها وحرّاسها، أو الّتى ينقطع ارتباطها بالخارج بصوره كامله كان يتم السيطره عليها بسهوله، وتسفكُ فيها دماء أقلّ، ويتقدم العمل فيها بسرعه أكبر.

وإنّ أوّل حصن فُتح على أيدى المسلمين بعد جهد كبير - كما يذهب إليه جمع من المؤرّخين - هو حصن «ناعم». ولقد استشهد فى فتح هذا الحصن أحد المقاتلين المسلمين البارزين، يدعى «محمود بن مسلمه» الانصارى، وجرح خمسون رجلاً من مقاتلى الإسلام، فقد استشهد الفارسُ المذكور بعد أن رماه اليهود بصخره كبيره من فوق الحصن فقُتل من فوره، وقيل: إنّه توفى بعد ثلاثه أيام - حسب روايه ابن الأثير فى أُسد الغابه(۱) - ونقل الجرحى الخمسون إلى منطقه أُخرى من المعسكر خصّصت لغرض التضميد،(۲) كما أنّه سمح لبعض نساء بنى غفار بأن يأتين إلى «خيبر» لمساعده المسلمين وتضميد الجرحى وتقديم غير ذلك من الخدمات الّتى يليق بهن فى المعسكر، وقد أظهرت تلك النسوه من أنفسهن تفانياً، وتضحيه عجيبه(۳).

ولقد رأت الشورى العسكريه الإسلاميه أن يعمد المقاتلون المسلمون - بعد فتح حِصن «ناعم» - إلى فتح حصن «القموص» الّذى كان يرأسه أبناء «أبى

۱- . أُسد الغابه: ۳۳۴/۴.

۲- . لاحظ: المغازى: ۶۴۶/۲.

۳- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۸۰۴/۳.

الحقيق»، ولقـد فُتح هذا الحصن بفضل تفانى جنود الإسـلام وأَسـرت منه «صـفيه بنت حيى بن أخطب» الّتى صارت فيما بعد من زوجات رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ولقـد قوّى هـذان الانتصاران العظيمان معنويه الجنود المسـلمين وألقى رعباً شديـداً فى نفوس اليهود، ولكنّ المسـلمين وقعوا فى مخمصه شديـده بسـبب قلّه المواد الغـذائيه بحيث اضـطروا إلى أن يأكلوا من بعض الأنعام المكروهه اللحم، وقد كان هناك بين حصون اليهود حصن مملوء طعاماً إلّاأنّ المسلمين لم يظفروا به حتّى ذلك الحين.

التقوى فى ظروف المخمصه الشديده

فى مثل هـذه الحاله الّتى كان قد اسـتولى فيها جوعٌ شديدٌ على المسـلمين، اضـطروا معه إلى تناول لحوم ما كره أكلُه من الأنعام، أتى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم راع أجيرٌ لليهود وهو يسـار الحبشـى - عبـد أسود لعامر اليهودى - فى غنم مولاه فلمّا رأى أهـل خيبر يتحصّنون ويقاتلون سألهم فقالوا: نقاتل هـذا الـذى يزعم أنّه نبى. قال: فوقعت تلك الكلمه فى نفسه فأقبل بغنمه يسوقها إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقال: يا محمد ما تقول؟ ما تدعو إليه؟ قال: أدعوا إلى الإسلام فاشهد أن لا إله إلّااللّه وأنّى رسول اللّه.

قال: فما لى؟ قال: الجنّه إن ثبتّ على ذلك. قال: فأسلم. وقال: إنّ غنمى هذه وديعه.

فقال النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم:

«أخرجها مِنَ العسكر ثم صِح بها وارمها بحصيات فإنّ اللّه عزّوجلّ سيؤدّى عنك أمانتَك».(۱)

ففعل الراعى ما أمره به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وخرجت الغنم إلى صاحبها حتّى

۱- . المغازى: ۶۴۹/۲.

دخلت الحصنَ كأنّ سائقاً يسوقها، وقد قاتل ذلك الرجل إلى جانب المسلمين حتّى استشهد(۱).

أجل لم يكتسب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لقب «الأمين» من قومه فى فتره شبابه فقط بل كان أميناً فى جميع الحالات والظروف وهو القائل:

«ما من شىء كان فى الجاهليه إلّاهو تحت قدمى، إلّاالأمانه فإنّها مؤدّاه إلى البر والفاجر»(۲)، وقد بقى تردّد القطعان حرّاً طوال مده الحصار ولم يفكّر ولا واحدٌ من المسلمين بأخذ غنم منها؛ لأنّهم تعلّموا الأمانه والتقوى والصدق والورع من معلّمهم الأكبر «محمَّد» الصادق الأمين صلى الله عليه و آله و سلم.

نعم غلب الجوع الشديد على العسكر ذات يوم حتّى كادوا أن يهلكوا فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأن تؤخذ شاتان من غنم اليهود اضطراراً، واطلق البقيه لتدخل الحصن بأمان، ولولا ذلك الاضطرار الّذى يباح معه المحذور بقدره لما سمح رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بذلك، ولمّا رأى جوع أصحابه وتضوّرهم من شده السغب دعا قائلاً:

«اللّهم إنّك قد عرفت حالَهم وأن ليست بهم قوّه، وأن ليس بيدى شىء أُعطهم إيّاه، فافتح عليهم أعظم حُصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاماً»(۳).

ولم يكن يأذن لأحد من المسلمين بأن يأخذ شيئاً من أموال الناس أبداً.

فى ضوء كلّ هذا تتّضح دسائس جماعه من المستشرقين فى تاريخنا المعاصر فهم يصرُّون على القول بأنّ غزوات الإسلام ومعاركه كانت للإغاره

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۸۰۶/۳؛ السيره الحلبيه: ۷۴۰/۲.

۲- . مجمع البيان: ۳۲۷/۲، عند تفسير قول اللّه تعالى: «وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ...».

۳- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۹۵/۳.

وجمع الغنائم ومصادره الأموال والسيطره عليها، وأنّ جنوده لم يكونوا يتقيّدون خلال تلك المعارك بمبادئ العداله والأمانه، وذلك كيد منهم للإسلام، ومحاوله بغيضه للحطّ من قيمه الأهداف الإسلاميه العليا، وتشويهها.

ولكن النموذج المذكور هنا، وأمثاله ممّا يعدُّ بالعشرات فى صفحات التاريخ الإسلامى تشهد بكذبهم فإنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يأذن وهو فى أشدّ الظروف وأصعبها وجنوده الأوفياء قد غلبهم الجوع ودنوا من الهلاك، بأن يخون راع فى أغنام كان يرعاها ليهودى، بل أمره بردّها إلى صاحبها وهو فى قتال مع اليهود على حين كان يمكنه مصادرتها جمله واحده.

فتح الحصون الواحد تلو الآخر

بعد فتح القلاع المذكوره حمل جنود الإسلام على حصن الوطيح، وسلالم، ولكنّهم واجهوا مقاومه عنيفه من اليهود الذين كانوا يدافعون عنها خارجها، من هنا لم يستطع جنود الإسلام الأبطال رغم كلّ التضحيات الّتى ذكرها كاتب السيره المعروف ابن هشام - فى موضع خاص من سيرته - أن يحرزوا انتصاراً بل ظلّوا يجالدون مقاتلى اليهود أكثر من عشره أيام، ولكنّهم كانوا يعودون فى كلّ يوم إلى مقرّهم من دون نتيجه.

وذات يوم بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أبا بكر وأعطاه رايته البيضاء على رأس جماعه من المقاتلين المسلمين لفتح بعض حصون خيبر، ولكنّه رجع ولم يكن فتح، وكلّ من الأمير والجنود يلقى باللوم على الآخر، ويتّهمه بالجبن والفرار.

فبعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى يوم آخر «عمر بن الخطاب» على رأس جماعه أُخرى فكان كرفيقه إذ رجع ولم يحقّق فتحاً، بل عاد فزعاً مرعوباً وهو يصف شجاعه مرحب وقوّته البالغه، فأغضب هذا العمل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وفرسان

الإسلام الأبطال وقاده الجيش الاسلامی، فجمع رسول اللّه صناديد جيشه وقال:

«لأُعطِينَّ الرايـهَ غـداً رَجلاً يُحـبُّ اللّهُ وَ رَسُولَه ويحبُّه اللّهُ ورسـولُه يفتـحُ عَلى يَدَيه لَيس بفرّار» أو: «كرّار غير فرّار» حسب نقل الحلبی(۱).

وقـد أثارت هـذه الجمله الخالـده الحاكيه عن فضـيله وشـجاعه وتفوّق ذلك الفارس الّذی قدّر أن يكون الفتح على يديه وتميّزه المعنوی على غيره، موجه من الفرح الممزوج بالاضطراب بين أفراد الجيش وقادته الشجعان.

فقد بات كلّ واحد منهم يتمنّى أن يكون هو صاحب هذا النوط الخالد والعظيم، وأن تصيب القرعه اسمه.

ولمّا بلغ عليّاً عليه السـلام مقاله النبی صـلى الله عليه و آله و سـلم هـذه وهو فی خيمته قال: «اللّهم لا معطی لما منعت ولا مانع لما أعطيت»(۲).

غطّى ظلامُ الليـل كـلّ مكـان، وذهب جنود الإسـلام إلى أمـاكن نومهم، وبينما بقی الحرّاس يتحارسون طوال الليل، ويرصـدون أوضاع العدوّ الغادر وتحرّكاته.

وعند الصباح ومع طلوع الشمس الّتی شقّت بأشعتها رداء الظلام، وأضاءت

۱- . لاحـظ: مجمع البيان: ۲۰۱/۹؛ السيره الحلبيه: ۷۳۶/۲-۷۳۷، السـيره النبويه لابن هشام: ۷۹۷/۳؛ إمتاع الأسماع: ۳۰۹/۱؛ بحار الأنوار: ۹/۳۹. ولقد انزعج المؤرّخ الإسـلامی المعروف ابن أبی الحديد من فرار هاتين الشخصـيتين فقال فی ضـمن ما يعزی إليه من القصـيده العلويه: وما أنْسَ لا أنْسَ اللَّذين تَقـدَّما وَفرَّهُما والفرُّ قَـد علِما حُوبُ وللرايه العظمی وقـد ذهبا بها ملابس ذلّ فوقها وجلابيب يشـلُّهما من آل موسی شمردَلٌ طويل نجاد السيف أجيد يعبوبُ (الروضه المختاره (شرح القصائد العلويات السبع) لابن أبی الحديد المعتزلی: ۹۲، مؤسسه الأعلمی، بيروت).

۲- . السيره الحلبيه: ۵۴۵/۲.

السهل والجبل، تجمع قاده الجيش الإسلامی وصناديده وأبطاله وغيرهم من الرجال وفيهم الأميران المنهزمان بالأمس حول رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم، وهم يريدون بشوق بالغ أن يعرفوا من سيعطيه الرايه اليوم، وقد (تطاول لها أبوبكر وعمر)(۱).

ولم يطل هذا الانتظار، فقد كسر رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم جدار الصمت هذا عندما قال: «أين علی»؟!

فقيل: يا رسول اللّه هو رمد، معصوب العينين.

فقال رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم:

«هاتوه»(۲).

إنّ هذه العباره تكشف عن أنّ ما أصاب علياً عليه السلام من الرمد كان من الشدّه بحيث سلبه القدره علی المشی، وعاقه عن الحركه.

فأمرّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم يده الشريفه علی عينی علی عليه السلام ودعا له بخير، فعوفی من ساعته، واستعادت عيناه عليه السلام سلامتها أفضل ممّا كانت بحيث لم يرمد عليه السلام حتّی آخر حياته بفضل تلك المسحه النبويه المباركه.

ثم دفع رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم اللواء إلی علیّ عليه السلام ودعا له بالنصر، كما أنّه أمره بأن يبعث إلی اليهود قبل قتالهم من يدعو رؤساء الحصون إلی الإسلام، فإن أبوا اعتناق الإسلام أخبرهم بوظائفهم فی ظلّ الحكومه الإسلاميه وأنّ عليهم أن يسلّموا أسلحتهم إلی الحكومه الإسلاميه، ويعيشوا بحريه وأمان تحت ظلّ هذه الحكومه شريطه أن يدفعوا الجزيه(۳).

۱- . هذه هی عباره الطبری: ۳۰۰/۲، كنز العمال: ۴۶۳/۱۰.

۲- . بحار الأنوار: ۲۸/۲۱-۲۹؛ تاريخ الخميس: ۴۹/۲.

۳- . لاحظ: صحيح مسلم: ۱۲۲/۷، باب فضائل علی عليه السلام؛ صحيح البخاری: ۷۷/۵، باب غزوه خيبر.

وإذا رفضوا ذاک وهذا قاتلهم، ثم قال لعلی الّذی أوکل إلیه قیاده تلک المجموعه:

«لئن یَهدیَ اللّهُ بِکَ رَجُلًا واحِداً خَیرٌ لک مِنَ أن یکُونَ لکَ حُمرُ النعمَ»(۱).

أجل إنّ النبی الأـکرم صلی الله علیه و آله و سلم یفکِّر فی هدایه الناس حتّی فی أشدّ لحظات الحرب، وهذا یفید بأنّ جمیع حروب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کانت لهدایه الناس لا غیر.

الانتصار الکبیر فی خیبر

عندما کُلِّفَ علیٌّ علیه السلام من جانب النبی صلی الله علیه و آله و سلم بفتح قلعتی سلالم والوطیح (وهما الحصنان اللّذان عجز عن فتحهما الأمیران السابقان ووجها بفرارهما ضربه لا تجبر إلی سمعه الجیش الإسلامی)، ارتدی درعاً قویاً وحمل معه سیفه الخاص ذو الفقار وراح یهرول بشجاعه منقطعه النظیر نحو القلعتین المذکورتین، والجندُ خلفَه، حتّی رکز الرایه الّتی أعطاها له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی الأَرض تحت الحصن. ولمّا رأی الیهود أنّه دنا من الحصن خرج إلیه کبار صنادیدهم.

وکان أوّل من خرج إلیه أخو مرحب ویُدعی «الحارث» فتقدّم إلی علیّ وصوته یدوی فی ساحه القتال بحیث تأخّر مَن کان خلف علیّ من شده الفزع(۲).

ولکن لم یمض زمان حتّی سقط الحارث علی الأرض جثّه هامده بضربه قاضیه من علی علیه السلام.

۱- . السیره الحلبیه: ۷۳۶/۲.

۲- . إمتاع الأسماع: ۳۱۰/۱. قال: فانکشف المسلمون وثبت علیٌ.

فغضب مرحب بطل خيبر المعروف لمقتل أخيه الحارث وخرج من الحصن وهو غارق فی السلاح، فقد لبس درعاً یمانیاً، ووضع علی رأسه خوذه منحوته من حجاره خاصّه، وتقدّم إلی علیّ علیه السلام کالفحل الصؤول یرتجز ویقول:

قَد عَلِمَت خیبرُ أنّی مرحبُ شاکی السلاح بطلٌ مجرّبُ

أطعن أحیاناً وحیناً أضربُ إذا اللیوث أقبلت تلهب(۱)

فأجابه علیٌ علیه السلام مرتجزاً وقد أظهر للعدو شخصیته العسکریه فی رجزه:

أنا الَّذی سَمَّتنِی أُمّی حَیدرَه ضرغامُ آجام ولیثٌ قَسورَه

عَبل الذِراعین شدید القصره کلیث غاباتْ کریهُ المنظره(۲)

وبعد أن انتهی الطرفان من إنشاد رجزهما تبادلا الضربات بالسیوف والرماح، فألقت قعقعه السیوف وصوت الرماح رعباً عجیباً فی قلوب المشاهدین، وفجأه هبط سیف بطل الإسلام القاطع علی المفرق من رأس «مرحب» بطل الیهود قدّت خوذته نصفین ونزلت علی رأسه وشقته نصفین إلی أسنانه!!

ولقد کانت هذه الضربه من القوّه بحیث أفزعت أکثر مَن خرج مع «مرحب» من أبطال الیهود وصناندیدهم ففرّوا من فورهم، ولجأوا إلی الحصن، وبقی جماعه فقاتلوا علیّاً منازله فقاتلهم حتّی قتلهم جمیعاً، ثم لاحق الفارین منهم حتّی باب الحصن، فضربه عند الحصن رجل من الیهود فطاح ترسُه من یده فتناول علیه السلام باباً کان علی الحصن وانتزعه من مکانه، فترّس به عن نفسه فلم یزل ذلک البابُ فی یده وهو یقاتل حتّی فتح اللّه علی یدیه ثم ألقاه من یده حین فرغ، وقد حاول ثمانیه من أبطال الإسلام ومنهم أبو رافع مولی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن

۱- . یروی ابن هشام فی سیرته أشعار مرحب بصوره أُخری. لاحظ: ج ۷۹۶/۳.

۲- . بحار الأنوار: ۱۸/۲۱؛ أعیان الشیعه: ۵۵۱/۱؛ ینابیع الموده: ۱۵۵/۱.

يقلبوا ذلک الباب أو يحرّکوه من مکانه فلم يقدروا علی ذلک(۱).

وهکذا فتحت القلعه الّتی عجز عن فتحها المسلمون عشره أيام، فی مده قصيره علی يد بطل الإسلام الأوّل «علی بن أبی طالب» عليه السلام.

ويقول اليعقوبی فی تاريخه:... واقتلع (علی عليه السلام) باب الحصن، وکان من حجاره طوله أربعه أذرع فی عرض ذراعين فی سمک ذراع(۲).

ويقول الشيخ المفيد فی إرشاده بسند خاصّ عن أميرالمؤمنين قصّه قلعه ذلک الباب: «لمّا عالجتُ باب خيبر جعلته مجنّاً لی وقاتلت القوم، فلمّا أخزاهمُ اللّه وضعتُ الباب علی حصنهم طريقاً، ثم رميتُ به فی خندقهم، فقال له رجل: لقد حملت منه ثقلاً! فقال عليه السلام: «ما کان إلّامثل جُنّتی الّتی فی يدی فی غير ذلک المقام»(۳).

وقد نقل المؤرّخون قضايا عجيبه حول قلع باب خيبر هذا وخصوصياته ومواصفاته، وعن بطولات علی عليه السلام فی فتح هذا الحصن، وجميعها لا تتماشی ولا تتساير مع القدره البشريه المتعارفه، ولا يمکن أن تصدر منها.

ويقول الإمام علی عليه السلام نفسه فی هذا الصدد ما يرفع کلّ شک وإبهام قد يعترض المرء فی هذا المجال:

«ما قَلَعْتُها بِقوّه بَشريّه، ولکنْ قَلعتها بقوه إلهيه، ونفس بلقاء ربِّها مطمئنّه رضيّه»(۴).

۱- . لاحظ: مجمع البيان: ۲۰۱/۹-۲۰۲؛ الطبقات الکبری: ۱۱۱/۲؛ تاريخ الطبری: ۳۰۰/۲-۳۰۱؛ الکامل فی التاريخ: ۲۱۹/۲-۲۲۰.

۲- . تاريخ اليعقوبی: ۵۶/۲، دار صادر، بيروت.

۳- . الإرشاد: ۱۲۸/۱.

۴- . بحار الأنوار: ۴۰/۲۱.

لو أنّنا أردنا أن نلتزم بحدود الحقّ والإنصاف لوجب أن نقول: إنّ «ابن هشام» فی سیرته و «الطبری» فی تاریخه ذکرا قصّه مبارزه علیّ علیه السلام فی یوم خیبر بصوره مفصّله، نقلا تفاصیلها بصوره دقیقه، ولکنّهما ذکرا فی نهایه بحثهما التاریخی قصّه خیالیه لا أساس لها وهی أنّ مرحباً قُتِل علی یدی «محمّد بن مسلَمه» وقالوا: ویری البعض أنّ مرحباً الیهودی قتله محمَّد بن مسلمه انتقاماً لأخیه الّذی قتل عند فتح حصن «ناعم» علی أیدی الیهود، فقد کلّفه رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بقتال مرحب فبرز إلیه فقتله.(۱)

إنّ هذا الاحتمال من الوَهن والبطلان بحیث لا یقاوم التاریخ الإسلامی المسلّم والمتواتر، هذا مضافاً إلی أنّ هذه الأُسطوره التاریخیه تعانی من إشکالات، ومؤاخذات نذکرها للقارئ الکریم:

۱. أنّ محمَّد بن مسلمه لم یکن بذلک الرجل الشجاع، والبطل الصندید الّذی تؤهّله شجاعته لأن یکن فاتح خیبر وقاتل بطلها الأکبر، فإنّ التاریخ لا یذکر عنه نموذجاً بارزاً من بطولته وشجاعته، إنّما کلّف فی السنه الثالثه من جانب النبی صلی الله علیه و آله و سلم فقط بأن یغتال «کعب بن الأشرف» الّذی حرّک المشرکین وألّبهم ضد الإسلام والمسلمین بعد معرکه بدر الکبری، وقد بقی ثلاثه أیام بلیالیها لا یطعم شیئاً خوفاً، فأنکر علیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم خوفه و سأله عن سبب ذلک فقال: یا رسول اللّه قلت لک قولاً لا أدری هل أفیّ به أم لا؟ فلمّا رأی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم منه ذلک أرسل معه أربعه رجال آخرین لیعینوه فی هذه المهمّه، ویتخلّصوا من «کعب» الّذی کان

۱- . لاحظ: تاریخ الطبری: ۲۹۹/۲؛ السیره النبویه لابن هشام: ۷۹۷/۳.

يريد إعاده القتال بين المسلمين والمشركين.

فخرجوا إليه فى منتصف الليل وقتلوا عـدوّ اللّه كعباً وفق خطّه خاصّه ولكن «محمّد بن مسـلمه» جَرَحَ أحد رفاقه من شده الخوف والوحشه الّتى أصابته(۱)، ولا شكّ أنّ صاحب مثل هذه النفسيه لا يمكنه أن يبارز صناديد «خيبر» المعروفين وينازلهم.

۲. أنّ فاتح «خيبر» لم يقاتل مرحباً ويقتله وحده، بل قاتل بعد مصـرع مرحب من كانوا قد جاءُوا معه إلى ساحه القتال من شجعان اليهود فلاحق الفارّين، ونازل الذين بقوا ولم يفرّوا.

وإليك أسماء مَن بقوا فى ساحه القتال وقاتلوا علياً عليه السلام بعد قتله مرحباً:

۱. داود بن قابوس.

۲. ربيع ابن أبى الحقيق.

۳. أبو البائت.

۴. مرّه بن مروان.

۵. ياسر الخيبرى.

۶. ضحيج الخيبرى.

وكـلّ هؤلاء كانوا من صـناديد اليهود وأبطالهم، وكانوا يقاتلون خارج حصن خيبر ويمنعون من أيه محاوله لفتـح قلاع اليهود فى هذه الوقعه.

إنّ هؤلاء السته قتلوا على يد على بن أبى طالب عليه السلام وهم يرتجزون فى

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۵۶۷/۲.

ساحه القتال ویطلبون المبارز والمناجز(۱).

فمَن یکون والحال هذه فاتح «خیبر» وقاتل مرحب؟

إذا کان «محمَّد بن مسلمه» فإنّه لا یمکن أن یعود بعد قتل مرحب إلی معسکر المسلمین ویتجاهل أُولئک الأبطال خلف مرحب بل لابد أن یقاتلهم، فی حین اتّفقت کلّ السیر والتواریخ علی أنّ هؤلاء قتلوا جمیعاً علی ید علی بن أبی طالب علیه السلام.

۳. أنّ هذه الأُسطوره التاریخیه تتنافی مع الحدیث المنقول عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فإنّه صلی الله علیه و آله و سلم قال فی حقّ علی علیه السلام: «یفتح اللّه علی یدیه» مع العلم بأنّ المانع الأکبر من فتح خیبر کان هو مرحب الّذی أجبرت شجاعته الأمیرین السابقین علی الفرار، فإذا کان قاتل مرحب هو «محمَّد بن مسلمه» لزم أن یقول رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم جملته هذه فی حقّ «محمّد بن مسلمه» لا فی حقّ «علی» علیه السلام الّذی أعطاه الرایه بعد أن قال تلک الجمله: «یفتح اللّه علی یدیه».

یقول الحلبی کاتب السیره المعروف: قیل: القاتل له (أی لمرحب) علیّ (کرّم اللّه وجهه) وبه جزم مسلم رحمه الله فی صحیحه. قال بعضهم: والأخبار متواتره به، وقال ابن الأثیر: الصحیح الّذی علیه أهل السیر والحدیث أنّ علیّاً قاتله (کرم اللّه وجهه)...(۲).

ولقد وقع الطبری فی تاریخه، وابن هشام فی سیرته فی شیء من الاضطراب والفوضی وکتبا قصّه هزیمه ورجوع الرجلین اللّذین کُلّفا قبل علی علیه السلام بفتح قلاع الیهود بصوره لا تتّفق مع مفهوم الجمله الّتی قالها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی

۱- . ناسخ التواریخ: ۲۸۲/۲-۲۸۶.

۲- . السیره الحلبیه: ۷۳۸/۲. وراجع: زاد المعاد: ۱۳۴/۲ و ۱۳۵.

حقّ على عليه السلام.

فقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى حقّه: «ليس بفرّار»(۱) يعنى أنّ الّذى سوف يعطيه الرايه لا يفرّ أبداً، ومفهوم هذه الجمله هو أنّ عليّاً عليه السلام لا يفرّ و لا يجبن أمام العدوّ كما فرّ القائدان السابقان، وهذا يعنى أنّ القائدين السابقين فرّا أمام العدوّ، وأخليا الساحه، فى حين أنّ الكاتبين المذكورين لا يذكران مسأله فرار القائدين المذكورين، وإنّما يكتبان رجوعهما كما لو أنّهما قد أدّيا وظيفتهما القتاليه والعسكريه على الوجه الكامل، ولكنّهما لم يوفقا للفتح(۲).

ثلاث نقاط مشرقه فى حياه على عليه السلام

ونختم هذا البحث بذكر ثلاث فضائل لفاتح خيبر ذكرها أحد خصومه لها ارتباط بموقفه عليه السلام فى خيبر:

أمر معاويه سعد بن أبى وقاص يوماً سبّه فامتنع، فقال: ما منعك أن تسبَّ أبا التراب؟

فقال: أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنَّ له رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فلن أسبَّه لأن تكون لى واحده منهنَّ أحبُّ إلىَّ من حُمرِ النعم.

ثم أخذ سعد فى عدّ تلك المناقب فقال:

۱. سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقول له وقد خلّفه فى بعض مغازيه(۳) فقال له علىٌ: يا رسول اللّه خلّفتنى مع النساء والصبيان؟

۱- . المغازى: ۶۵۳/۲.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۷۹۷/۳.

۳- . وهى إشاره إلى واقعه تبوك.

فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«أما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى، إلّاأنّه لا نبوّه بعدى».

۲. وسمعته يقول يوم خيبر:

«لأُعطين الرايه رجلًا يحبُّ اللّه ورسوله ويحبه اللّه ورسوله». قال: فتطاولنا لها فقال: «أُدعوا لى علياً». فأُتى به أرمد فبصق فى عينه، ودفع الرايه إليه ففتح اللّه عليه(۱).

۳. ولما نزلت هذه الآيه: «فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ...» (۲) دعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عليّاً وفاطمه وحسناً وحسيناً فقال:

«اللهم هؤلاء أهلى»(۳)(۴).

عوامل الانتصار

اشاره

فتحت حصون «خيبر»، واستسلم اليهودُ للمسلمين بشروط خاصّه، ولكن يجب أن نرى ماهى العوامل الّتى أدّت إلى هذا الانتصار، فهذه هى فى الحقيقه النقاط الهامّه فى هذا القسم.

إنّ انتصار المسلمين الساحق فى هذه الغزوه يعودُ إلى عوامل يمكن الإشاره إليها على نحو الإجمال ثم شرحها بالتفصيل فى ما بعد.

۱- . وهى إشاره إلى واقعه خيبر.

۲- . آل عمران: ۶۱.

۳- . وهى إشاره إلى قصّه مباهله النبى نصارى نجران.

۴- . صحيح مسلم: ۱۲۱/۷، باب من فضائل على عليه السلام.

١، التخطيط العسكرى والتكتيك الحربى الدقيق.

٢. تحصيل المعلومات ومعرفه أسرار العدو الداخليه.

٣. تفانى الإمام على بن أبى طالب، وبطولته النادره. وهنا نحن ندرس هذه الأُمور الثلاثه على وجه التفصيل:

١. التخطيط والتكتيك العسكرى الدقيق

لقد هبط الجيش الإسلامى فى منطقه قطع بها المسلمون ارتباط اليهود بأصدقائهم القدامى (قبائل غطفان).

وقد كان بين قبائل غطفان فرسان كثيرون، ولو استطاعوا أن يعينوا اليهود فى هذه الموقعه لما أمكن فتح حصون خيبر.

فإنّ «غطفان» لمّا سمعت بمسير رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى خيبر خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، ولكنّهم ما أن سمعوا الشائعه الّتى مفادها أنّ أصحاب محمَّد قد قصدوهم من طريق آخر ظنّوا أنّهم سيهاجمون أموالهم وأهليهم فرجعوا من منتصف الطريق على أعقابهم، وأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلّوا بين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وبين «خيبر».

يقول المؤرّخون: إنّ هذه الشائعه كانت نتيجه نداء غيبىّ سمعه رجالُ غطفان فظنّوا أنّ المسلمين داهموا أهليهم(١)، ولكنّه ليس من المستبعد أن تكون هذه الشائعه من فعل المسلمين المتسترين من قبائل غطفان، والذين أُمروا بأن يتظاهروا بالكفر، ويبقوا فى قبائلهم حتّى يعينوا إخوانهم المسلمين فى اللحظات المناسبه.

١- . لاحظ: المغازى: ۶۵۱/۲-۶۵۳.

فخطّطوا لهذه الموقعه بمهاره كبيره وكانوا فی ذلک ناجحین جدّاً إلی درجه أنّه تسبب فی أن تعدل إمدادات غطفان العسکریه للیهود من مواصله مسیرها إلی «خیبر»، والعوده إلی أهلیهم وترک الیهود وشأنهم.

وقد سبق لهذا نظیرٌ فی معرکه «الأحزاب» - کما مرّ علیک - یوم امتنعت قبائل غطفان عن نصره الیهود بسبب شائعه بثّها بینهم رجلٌ من المسلمین من بنی غطفان یُدعی «نعیم بن مسعود»، وتفرّق علی أثره جماعه الأحزاب، وانفرط عقدهم.

۲. تحصیلُ المعلومات حول العدوّ

لقد کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کما أسلفنا مراراً یُولی تحصیل المعلومات ومعرفه أسرار العدو، أهمیّه کبیره.

ولهذا بعث قبل محاصره «خیبر» طلیعه من المسلمین وأمّر علیهم «عبّاد بن بشر» ووجّههم إلی «خیبر»، فالتقوا بیهودی قرب حصون «خیبر»، و بعد التحقیق معه تبیّن أنّه عینٌ للیهود یتجسّس لهمُ الأخبار، فهدّدوه بالقتل، فقال: أفتؤمننی علی أن أُصدقَک؟ فأمّنه عبّاد.

فقال الیهودیُ: القومُ مرعوبون منکم خائفون وجلون لما قد صنعتم بمن کان بیثرب من الیهود... فأتی به عبّاد النبی صلی الله علیه و آله و سلم فأخبره الخبر.(۱)

ثم قال: خرجتُ من حصن «النطاه» من عند قوم لیس لهم نظامٌ ترکتهم یتسلّلون من الحصن فی هذه اللیله. قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: فأین یذهبون؟ قال: إلی أذلّ ممّا کانوا فیه، إلی «الشق» وقد رُعبوا منّک حتّی أنَّ أفئدتهم لتخفق، وهذا

۱- . المغازی: ۲/۶۴۰-۶۴۱.

حصن اليهود فيه السلاح والطعام والودك، وفيه آله حصونهم التى كانوا يقاتلون بها بعضهم بعضاً، قد غيبوا ذلك فى بيت من حصونهم تحت الأرض. قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: وما هو؟ قال: منجنيق مفكّكه ودبابتان وسلاحٌ من دروع وبيضٌ وسيوف، فإذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله، قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: إن شاء اللّه، قال اليهودى: إن شاء اللّه أوقفُك عليه فإنّه لا يعرفه أحد من اليهود غيرى... ثمّ انصب المنجنيق على حصن الشق وتدخل الرجال تحت الدّبابتين فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك(۱).

إنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم وإن لم يستخدم هذه الأدوات التخريبيه إلّاأن المعلومات الّتى وقف عليها من ذلك اليهودى الأسير كانت مهمه؛ لأنّها أوضحت نقطه الهجوم غداً، وعرف النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم أن التغلّب على حصن «النطاه» لايحتاج إلى قوه كبيره، وأنّه لابدّ من رعايه المزيد من الحيطه والحذر عند فتح حصن «الشق».

نموذجٌ آخر: عند فتح إحدى القلاع أتى يهودىٌ إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم بعد ثلاثه أيام مضت على محاصرتها وقال - ولعلّه لتخليص نفسه - إنّك لو أقمت شهراً ما بالوا، لهم دبول (جدولٌ) تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربونَ بها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، وإن قطعت مشربهم عليهم ضجّهم.(۲)

وفى روايه أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يوافق على قطع الماء عن العدو.

وفى أُخرى؛ قطع عليهم مشاربهم موقتاً فلم يطيقوا المقام على العطش(۳).

۱- . المغازى: ۶۴۷/۲-۶۴۸؛ إمتاع الأسماع: ۲۳۲/۹.

۲- . المغازى: ۶۶۶/۲-۶۶۷.

۳- . ناسخ التواريخ: ۲۹۹/۲.

۳. تفانی امیر المؤمنین علیه السلام

ولقد ذکرنا تفانی علی بن أبی طالب، وبطولته فی هذه الموقعه بصوره مجمله، وها نحن ننقل عباره قالها هو علیه السلام عن هذه المسأله:

وَرَدنا مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مدینه أصحابک خیبر علی رجال من الیهود وفرسانها من قریش وغیرها، فتلقونا بأمثال الجبال من الخیل والرجال والسلاح، وهم فی أمنع دار وأکثر عدد، کلّ ینادی ویدعو ویبادر إلی القتال، فلم یبرز إلیهم من أصحابی أحدٌ إلّاقتلوه حتّی احمرّت الحدق، و دعیت إلی النزال، وأهمّت کلّ امرئ نفسه، والتفت بعض أصحابی إلی بعض وکلٌّ یقول: یا أبا الحسن انهض.

فأنهضنی رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی دارهم فلم یبرز إلیَّ منهم أحدٌ إلّاقتلتُه، ولا یثبتُ لی فارس إلّاطحنتُه، ثم شددتُ علیهم شدّه اللیث علی فریسته حتّی أدخلتهم جوف مدینتهم مسدّداً علیهم فاقتلعت باب حصنهم بیدی حتّی دخلت علیهم مدینتهم وحدی أقتلُ من یظهر فیها من رجالها، وأسبی من أجدُ من نسائها حتّی افتتحتها وحدی، ولم یکن لی فیها معاونٌ إلّااللّه وحده(۱).

الرحمه فی ساحه القتال

عندما افتتح حصن «القموص» سُبیت «صفیّه بنت حیی بن أخطب» وابنه عمّها، فمرّ بهما «بلال» علی القتلی فصاحت ابنه عمّها صیاحاً شدیداً جزعه ممّا رأت، فکره رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ما صنع بلال وقال صلی الله علیه و آله و سلم:

«أذَهَبَت مِنّکَ الرحمه؟ تمرّ بجاریه حدیثه السنّ علی القتلی؟»

۱- . الخصال: ۳۶۹، باب السبعه.

فقال بلال: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ما ظننتُ أنّك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع قومها(۱).

ولم يكتف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بهذا القدر من تطييب خاطر «صفيّه» بل احترمها، وعيّن لها مكاناً خاصاً للاستراحه فى المعسكر، واختارها زوجه لنفسه، وبهذا الطريق أزال آثار ذلك الصنيع السيّئ الّذى قام به بلال.

لقد تركت أخلاق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتعامله الإنسانى الرفيع مع «صفيه» أثراً حسناً فى نفسها، فقد صارت فى ما بعد من أزواج النبى صلى الله عليه و آله و سلم الوفيّات المخلصات، وقد حزنت عند وفاته، وبكت له أكثر من بقيه أزواجه(۲).

مصرع كنانه بن الربيع

منذ أن أُجلى «بنو النضير» عن المدينه وسكنوا «خيبر» أحدثوا صُندوقاً لجمع الأموال لإداره شؤونهم العامّه، ولسد نفقات الحروب، ولإعطاء ديه كلّ مَن كان يُقتَل من بنى النضير.

فبلغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّ هذا الكنز وهذه الأموال قد أُودعت عند «كنانه بن الربيع» زوج «صفيه»، فلمّا افتتح صلى الله عليه و آله و سلم خيبر طلب ابن الربيع وسأله عن كنز اليهود، فأنكر ذلك فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بحبسه، ثم عرف بعد التحقيق من اليهود، بمكان ذلك الكنز، وقد كان بخربه، إذ قال له يهودى: إنّى رأيت كنانه يطيف بهذه الخربه كلّ غداه، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لكنانه: أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟ قال: نعم، فأمر رسول اللّه بالخربه فحفرت فأُخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقى فأبى

۱- . المغازى: ۶۷۳/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۱۶/۱.

۲- . لاحظ: سير أعلام النبلاء: ۲۳۱/۲ برقم ۲۶؛ الإصابه: ۲۱۰/۸ برقم ۱۱۴۰۷.

أن يؤديه...، ثمّ دفعه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى محمَّد بن مسلمه فضرب عنقه قصاصاً لأخيه الّذى قُتل فى وقعه خيبر «محمود بن مسلمَه» والّذى قتله اليهود بإلقاء رحى من حجر من فوق حصونهم على رأسه.(۱) وإنّما قتل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كنانه بضرب عنقه، لتواطؤه ضدّ الإسلام، وكتمانه مثل هذا الأمر، وتأديباً لغيره من اليهود حتّى يتورّعوا عن حبك المؤامرات ضد رسول الإسلام وضدّ أصحابه، وضدّ الحكومه الإسلاميه، وكان «كنانه» آخر مَن قُتل من يهود خيبر.

تقسيم غنائم الحرب

بعد افتتاح حصون «خيبر»، وتجريد العدو من كلّ أسلحته، وجمع الغنائم أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأن تجمع الغنائم كلّها فى مكان واحد، ثم أمر صلى الله عليه و آله و سلم رجلاً بأن ينادى فى الناس:

«ردُّوا الخيط والمخيط، فإنّ الغُلولَ عارٌ وشنارٌ ونارٌ يوم القيامه»(۲).

ولقد شدّد قاده الإسلام وأئمته الحقيقيّون على أهميّه الأمانه تشديداً بالغاً حتّى أنّهم اعتبروا ردَّ الأمانه - مهما صغرت ودقّت - من علائم الإيمان، والخيانه وعدم ردّها من علائم النفاق.

من هنا عندما عثر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى رحل مُسلم من المقاتلين شيئاً من أموال الغنيمه لم يردَّها إلى بيت المال، لم يصلّ على جنازه ذلك الرجل عندما استشهد، وإليك تفصيل هذه الحادثه.

لمّا انصرف رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه من خيبر ومع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم غلام

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۷۹۹/۳-۸۰۰؛ بحار الأنوار: ۳۳/۲۱.

۲- . مجمع البيان: ۴۳۳/۲؛ المغازى: ۶۸۱/۲، وفيه: «أدوا» بدل «ردّوا».

له، يقوم له بشؤونه، وفيما كان ذلك يضع رَحلَ النبى صلى الله عليه و آله و سلم إذ أتاه سهمٌ لا يُعلمُ راميه فأصابه فقتله، فقال المسلمون: هنيئاً له الجنه.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«والَّذى نَفسُ محمَّد بيده إنَّ شملته(۱) الآن لتحترق عليه فى النار، كان قد غلَّها من فىء المسلمين يوم خيبر»!!

فسمع رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم هذا الكلام فأتاه وقال: يا رسول اللّه، أصبت شراكين لنعلين لى فقال صلى الله عليه و آله و سلم: «يُقدُّ لك مثلهما من النار»(۲).

وهذه القصّه تفضح أيضاً دسائس بعض المستشرقين، لأنّهم كانوا يصفون حروب الإسلام ومعاركه العادله بأنّها كانت من أجل الإغاره على أموال الناس ومصادرتها كما يفعل قُطّاع الطرق، متجاهلين عمداً وكيداً الأهداف الإنسانيه والإلهيه العليا لهذه المعارك والغزوات، والحال أنّ مثل هذ الانضباطيه والنظم والورع ممّا لا يمكن تصوّره فى قوم همّهم الإغاره والنهب والسلب.

إنّ قائد شعب أو قوم هذا هو همّهم وهذه هى همّتهم لا يمكن أبداً أن يعتبر ردّ الأمانه من واجبات الدين ومن علائم الإيمان، كما لا يمكنه أن يربّى أتباعه وأصحابه بمثل هذه التربيه الرفيعه، بحيث يجعله يجتنب عن سرقه صغيره جداً مثل غلّ شراكى نعلين لاقيمه لهما.

قافله من أرض الذكريات

قبل أن يتوجّه رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالمسلمين إلى «خيبر» بعث «عمرو بن أُميه»

۱- . الشمله كساء غليظ يُلتَحفُ به.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۰۲/۳؛ تاريخ الطبرى: ۳۰۴/۲؛ الكامل فى التاريخ: ۲۲۲/۲.

إلى البلاط الحبشی لغرض إيصال رسالته إلى ملك الحبشه النجاشیّ، وليطلب منه أن يهيّئ المقدّمات اللازمه لترحيل المسلمين المهاجرين من الحبشه إلى المدينه.

فهيّأ النجاشی سفينتين لأُولئك المهاجرين بعد أن جهّزهم بجهاز حسن وأمر لهم بكسوه، فسارت بهم حتّى وصلت إلى السواحل القريبه من المدينه.

ولمّا علم المسلمون بمسير رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى «خيبر» توجّهوا من فورهم إلى «خيبر» فقدموا مع «جعفر بن أبی طالب» على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يوم «خيبر» بعد أن افتتحت جميع حصون اليهود وقلاعهم.

فلمّا رأى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جعفراً مشى فی استقباله (١٢) خطوه ثم قبّل ما بين عينيه والتزمهُ وقال:

«ما أدرى بأيّهما أنا أسرُّ بفتح خيبر أُمّ بقدوم جعفر؟».(١)

وفی روايه أُخرى قال صلى الله عليه و آله و سلم:

«لا أدرى بأيّهما أنا أشدُّ سروراً، بقدومك يا جعفر أُمّ بفتح اللّه على أخيك خيبر».(٢)

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قال لجعفر:

«يا جعفر ألا أمنحك؟ ألا أُعطيك، ألا أحبوك؟».

فظنّ الناس أنّه يعطيه ذهباً أو فضه، فتشوّف - أی فتطلّع - الناس لذلك.

فقال له:

إنّی أُعطيك شيئاً إن أنت صنعته فی كلّ يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها».

١- . السيره النبويه لابن هشام: ٨٠٢/٣.

٢- . الخصال: ۴۸۴؛ بحار الأنوار: ٢۴/٢١ برقم ١٩.

ثم علّمه صلى الله عليه و آله و سلم الصلاه المعروفه بصلاه جعفر الطيار(۱).

حجم الخسائر وعدد القتلى

لم يتجاوز عدد قتلى المسلمين فى هذه الغزوه ۲۰ شخصاً ولكن قتل من اليهود أكثر من هذا بكثير، وقد سجل التاريخ أسماء ۹۳ رجلاً منهم(۲).

العفو بعد الانتصار

المؤمنون باللّه وأصحاب المروءات من البشر يعاملون العدو المنهزم المقهور عند الغلبه عليه والظفر به باللطف والحب، ويعفون عنه ويتناسون روح الانتقام، أجل إنّهم يشملون العدو منذ استسلامه بعطفهم وحنانهم وتلك هى حقيقه أثبتتها وقائع التاريخ الحيه.

وكذلك فعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عندما تغلّب على يهود خيبر فقد عاملهم بعد الانتصار معامله حسنه، وشملهم بعفوه، ولطفه رغم كلّ ما ارتكبوه فى حقّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من ظلم وجنايه وتأليب للعرب الوثنيين ضدّ الإسلام وإشعال حروب كادت أن تودى بالحكومه الإسلاميه وتستأصل المسلمين، وتقضى على جهود رسول الإسلام.

فقد قبل بطلب اليهود بأن يسكّنهم فى خيبر كما كانوا، وأن يترك أراضيهم وبساتينهم بأيديهم، على أن يكون له نصف محاصيلها سنوياً.

بل إنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم - كما يروى ابن هشام - هو الّذى اقترح هذا الأمر على

۱- . فروع الكافى: ۴۶۵/۳، الحديث ۱، باب صلاه التسبيح؛ بحار الأنوار: ۲۴/۲۱.

۲- . لاحظ: بحار الأنوار: ۳۲/۲۱.

اليهود، وترك لهم حريه التصرف فى مزارعهم وأراضيهم ليغرسوا أو يزرعوا ما يريدون من الشجر(۱).

لقد كان فى مقدور النبى صلى الله عليه و آله و سلم، كأىّ فاتح آخر، أن يريق دمهم جميعاً، أو أن يجليهم برمّتهم من أراضيهم، أو يجبرهم على اعتناق الإسلام، ولكنّه - خلافاً لتصوّر زمره مغرضه من المستشرقين، وطلائع الاستعمار الثقافى الذين يتصوّرون ويزعمون بأنّ الإسلام دين القهر والقوه، وأنّ المسلمين أجبروا الأُمم والأقوام المغلوبه على ترك عقائدها، واعتناق الإسلام - لم يفعل مثل هذا العمل قط، بل تركهم أحراراً فى ممارسه شعائرهم، والبقاء على ما كانوا يعتقدونه من أُصول دينهم وفروعه.

ولم يحارب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه يهود «خيبر» إلّالأنّ «خيبر» قد تحوّلت إلى بؤره خطره للمؤامره، والكيد بالإسلام والمسلمين، فقد كانوا يمدّون المشركين بكلّ ما يريدون للقضاء على الحكومه الإسلاميه الحديثه التأسيس، ولهذا اضطرّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى مقاتلتهم، وتجريدهم من أسلحتهم، حتّى يعيشوا تحت ظلّ الحكومه الإسلاميه بمنتهى الحريه، ويشتغلوا بمشاغلهم فى الزراعه، ويقيموا شعائرهم الدينيه من دون أن يجدوا فرصه للمشاغبه والتآمر ضدّ رساله التوحيد الكبرى، إذ كانوا يسبّبون مشاكل كبيره للمسلمين - فى غير هذه الصوره - ويمنعون من تقدّم الإسلام وانتشاره.

وأمّا الجزيه(۲) فقد كانت لقاء دفاع الحكومه الإسلاميه عنهم، وحمايتهم من

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۸۱۶/۳.

۲- . الجزيه ما يؤخذ من أهل الذمّه.

الأعداء، وتوفير الأمن لهم، إذ كانت حمايه أموالهم وأنفسهم من وظائف المسلمين.

ثم إنّ المحاسبه الدقيقه تقودنا إلى أنّ ما كان يدفعه المسلمون إلى الحكومه الإسلاميّه من الضرائب كان أكثر بكثير ممّا كان يدفعه اليهود، والنصارى إلى الحكومه الإسلاميه بعنوان الجزيه.

فقد كان يتوجّب على كلّ مسلم أن يدفع إلى الحكومه الإسلاميه الخمس والزكاه وربما توجّب عليه أن يدفع شيئاً من أصل ماله لسدّ نفقات واحتياجات الحكومه الإسلاميه، بينما كان اليهود والنصارى الذين كانوا يعيشون فى ظلّ الحكومه الإسلاميه فى أمن وأمان ويتمتّعون بجميع الامتيازات والحقوق الاجتماعيه والفرديه يدفعون إلى الحكومه الإسلاميه الجزيه بدل ما كان يدفعه المسلمون، فالجزيه شىء والأتاوه شىء آخر، على خلاف ما يروّجه بعض الكتّاب المغرضين.

ولقد كان عامل الجبايه الّذى كان يزور خيبر بأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لتقدير حجم المحاصيل فيها، ثم تنصيفها رجلاً عادلاً ورعاً إلى درجه أنّ اليهود أنفسهم أُعجبوا بعدله، واعترفوا بإنصافه، هو «عبداللّه بن رواحه» الّذى استشهد فيما بعد، فى موقعه «مؤته».

فقد كان «ابن رواحه» يخمّن نصيب المسلمين من محاصيل خيبر، وربما تصوّر اليهود أنّه أخطأ فى التخمين والخرص، وخمّن أكثر ممّا هو الحقّ فقالوا له:

تعدّيت علينا!

فكان عبدُاللّه يقول: إن شئتم فلكم وإن شئتم فلنا.

فتقول اليهود – معجبه بهذا الإنصاف العظيم والعدل الكبير الّذى كان يتحلّى

به مخرّص الحكومه الإسلاميه -: بهذا قامت السماوات والأرض(۱).

ولقد حصل المسلمون أثناء جمع غنائم «خيبر» على قطعه من التوراه، فطلبت اليهود من النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم أن يعيدها إليهم، فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مسؤول بيت المال بإعادتها إليهم(۲).

وهذا يكشف عن إحترام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم للشرائع الأُخرى.

سلوك اليهود المتعجرف

فى قبال كلّ هذه الألطاف لم تكف اليهود عن خيانتها وكيدها، بل ظلّت تخطّط - فى الخفاء - للإيقاع برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه، وإلحاق الأذى بهم.

ولنقف فيما يأتى على نموذجين من هذا الأمر:

۱. لمّا اطمأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم (قرّرت جماعه من اليهود فى الخفاء أن تقضى على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بدس سمّ إليه). فأهدت له «زينب بنت الحارث» زوجه «سلام بن مشكم اليهودى» شاه مصليّه، وقد سألت: أى عضو من الشاه أحب إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السمّ، ثم سمّت سائر الشاه، ثم جاءت بها، فلمّا وضعتها بين يدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، تناول الذراع، فلاك منها مضغه، فلم يسغها، ومعه «بشر بن البراء بن معرور» قد أخذ منها كما أخذ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فأمّا بشر فأساغها، وأمّا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فلفظها، ثمّ قال: إنّ هذا العظم ليخبرنى أنّه مسموم، ثمّ دعا بها، فاعترفت. فقال لها: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومى ما لم يخف عليك، فقلتُ: إن كانَ ملكاً استرحت منه، وإن

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۱۴/۳.

۲- . لاحظ: المغازى: ۶۸۰/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۱۸/۱.

كان نبيّاً فسيُخبر.

فتجاوز عنها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ومات بشر من أكلته التى أكل.(۱)

لاشكّ لو أنّ مثل هـذه الحادثه حدثت لغير رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم من القاده والزعماء لصـبغوا الأرض بدماء مَن ظنّوا أنّه قصد قتلهم، أو ملأوا السـجون بهم وحبسوهم، أعواماً مديده أو أخضـعوهم لأشد أنواع التعذيب الجسدى والنفسـى كما يحدِّثنا بذلك التاريخ القديم والحديث.

إنّ هذه المؤامره الدنيئه الّتى قامت بها امرأه من اليهود جعلت الكثير من أصـحاب رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم يسيئون الظن بصفيه اليهوديه الّتى أصبحت فى عداد أزواج النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

فقد باتوا يتصوّرون أنّها ربما أقدمت فى ليله من الليالى على اغتيال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ولهـذا عندما أعرس رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم بها بخيبر أو فى أثناء الطريق بات «أبو أيّوب الأنصارى» خالد بن زيد أخو بنى النجار متوشحاً سيفه، يحرس رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويطيف بالقبه حتّى أصبح رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فلمّا رأى مكانه قال: مالكَ يا أبا أيوب؟

قال: يا رسول اللّه خِفتُ عليك من هذه المرأه، وكانت امرأه قد قتلت أباها

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۰۱/۳؛ ولاحظ: المغازى: ۶۷۷/۲ و ۶۷۸؛ وإمتاع الأسماع: ۳۴۹/۱۳. هذا والمعروف أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سـلم قال فى مرضه الّذى مات فيه: إن هذا لأوان وجدت فيه انقطاع أبهرى من الأكله الّتى أكلتُ بخيبر. سيره ابن هشام: ۸۰۱/۳؛ إمتاع الأسماع: ۴۳۷/۱۴. فإنّ النبىَّ، وان كان لفظ المضـغه إلّاأنّ بقايا السمّ اختلط ببزاقه الشـريف، وأثّر فى جسمه المبارك حتّى أودى بحياته المقدّسه بعد حين.

وزوجها وقومها، وكانت حديثه عهد بكفر، فخفتُها عليك. فشكرهُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ودعا له بخير(۱).

۲. والنموذج الثانى من جفاء اليهود، وكيدهم حتّى بعد عفو النبى عنهم، ولطفه بهم أنّ «عبداللّه بن سهيل» الّذى كُلِّف من جانب النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى إحدى السنين بخرص محاصيل خيبر وتقديرها وحمل نصيب المسلمين منها إلى المدينه قتلته جماعه مجهوله من اليهود أثناء قيامه بواجبه فى خيبر وقد كسروا عنقه وألقوه فى بئر، ثم قدموا (جماعه من زعماء اليهود المدينه ودخلوا) على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فذكروا له شأنه، فتقدّم إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أخوه «عبدالرحمن» ومعه إبنا عمّه حويصه ومحيصه ابنا مسعود، وكان عبدالرحمن من أحدثهم سناً وكان صاحب الدّم، وكان ذا قدم فى القوم، فلمّا تكلّم قبل ابنى عمّه، قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: الكُبْر الكُبْر (أى قدّموا الأكبر للكلام إرشاداً إلى الأدب فى تقديم الأسنّ وهو خلق يدعو إليه الإسلام). فسكت فتكلّم حويصه ومحيصه، ثم تكلّم هو بعد، فذكروا لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قتل صاحبهم وطلبوا القصاص فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«أتسمُّون قاتلكم، ثم تحلفون عليه خمسين يميناً فنسلّمه إليكم؟».

قالوا: يا رسول اللّه ما كنّا لنحلف على ما لا نعلم.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «أفيَحلفونَ (أى يحلف اليهود) باللّه خمسين يميناً ما قتلوهُ، ولا يعلمون له قاتلاً، ثم يبرأون من دمه؟»

قالوا: يا رسول اللّه ما كنّا لنقبل أيمان اليهود، ما فيهم من الكفر أعظمُ من أن يحلفوا على إثم.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۰۲/۳؛ السيره الحلبيه: ۷۴۹/۲.

فکتب رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی یهود خیبر حین کلّمته الأنصار: إنّه قد وُجدَ قتیل بین أبیاتکم فدوه (أی أعطوا دیته).

فکتبوا إلیه یحلفون باللّه ما قتلوه، ولا یعلمون له قاتلاً.

فوداه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من عنده مائه ناقه(۱). وهکذا أثبت النبی صلی الله علیه و آله و سلم للیهود مره أُخری بأنّه لیس داعیه حرب ولا طالب قتال وسفک دماء، ولو کان کغیره من الزعماء والسیاسیین لاتّخذ من قصّه مقتل «عبد اللّه» ذریعه للقضاء علی حیاه تلک الزمره المعتدیه، المشاغبه المخلَّه بالأَمن(۲).

إنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم کما یصرّح بذلک القرآن الکریم ویصفه: نبیُ الرحمه، فهو لا یحتکم إلی السیف ما لم یبلغ الأمر مداه.

حیله مُجازه

کان فی خیبر تاجر یُدعی الحجّاج بن علاط السلمی له تجاره مع أهل مکّه، وکان ممّن حضر یوم خیبر، وشاهد لطف النبی ورحمته فأسلم طائعاً راغباً.

ولمّا فرغ المسلمون من أمر «خیبر» أتی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وقال: یا رسول اللّه

۱- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۸۱۵/۳-۸۱۶.

۲- . لم تنحصر تعدیات الیهود وتجاوزاتهم علی ما ذکرناه فلطالما خطّطوا ودبّروا الحیل لإلحاق الأذی والضرر بالمسلمین، ومن جمله ذلک حادث «عبد اللّه بن عمر» الّذی ذهب إلی خیبر فی عهد الخلیفه الثانی لعقد اتفاقیه مع أهلها فاعتدوا علیه بالضرب، فلمّا عرف بذلک عمر رأی أن یجلیهم من خیبر لقول رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «لا یجتمعنّ بجزیره العرب دینان» فقال لصحابه النبی صلی الله علیه و آله و سلم: مَن کان له مال بخیبر فلیلحق به فإنّی مخرج یهود، ثم أجلاهم من خیبر جزاء کیدهم وتآمرهم المستمر. (لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۸۱۶/۳-۸۱۷).

إنّ لی بمکه مالاً عند صاحبتی أَمّ شیبه بنت أبی طلحه - وکانت عنده، له منها معرض ابن الحجاج - ومال متفرّق فی تجّار مکّه فأذن لی یا رسول اللّه، فأذن له رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بذلک لیستنقذ أمواله من المشرکین وغیرهم فی مکّه.

فقدم مکّه، فرآه رجالُ قریش اجتمعوا حوله وأخذوا یسألونه عن أمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ولم یکونوا علموا بإسلامه فأجابهم قائلاً: لقد هُزم (محمَّد بخیبر) هزیمه لم تسمعوا بمثلها قط، (وقُتِلَ أصحابُه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط)، وأُسر محمَّد أسراً، وقالت الیهود: لا نقتله حتّی نبعث إلی أهل مکه فیقتلوه بین أظهرهم انتقاماً بمن کان أصاب من رجالهم.

ففرح ساده قریش لهذا الخبر الکاذب فرحاً شدیداً، ثم قال الحجّاج لهم:

أعینونی علی جمع مالی بمکّه وعلی غرمائی، فإنّی أُرید أن أقدم خیبر، فأُصیب من محمَّد وأصحابه قبل أن یسبقنی التجّار إلی ما هنالک. فجمعوا له ماله کأسرع ما یکون.

فلمّا سمع «العباس بن عبدالمطلب» هذا الخبر جاء إلی الحجّاج وقال: یا حجاج ما هذا الخبر الّذی جئت به؟ فأشار الحجّاج إلی العباس بأنّه سیخبره بحقیقه الأمر، ثم التقی العباس خفیه وأخبره بأنّه ماکر أهل مکّه، وأنّ النبی ظفر بیهود خیبر، وطلب من العباس قائلاً: احفظ علیّ حدیثی یا أبا الفضل، فإنّی أخشی الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، قال: أفعل.

فلمّا فرغ من جمع ماله کلّه غادر مکّه بسرعه فائقه. فلمّا مضی علی ذلک ثلاثه أیام واطمأنّ العباسُ من نجاه الحجّاج لبس حلّه جمیله، وتعطّر وأخذ عصاه، ثم خرج حتّی أتی الکعبه فطاف بها، فتعجبّت قریشٌ لذلک، وظنّت أنّه فعل ذلک تجلّداً، فقالت للعباس: یا أبا الفضل هذا واللّه التجلّد لحرّ المصیبه، قال: کلا، واللّه

الّذی حلفتم به، لقد افتَتح «محمَّد» خیبر، وترک عروساً علی بنت ملکهم، وأحرز أموالهم وما فیها، فأصبحت له ولأصحابه.

فقالوا: مَن جاءک بهذا الخبر؟

فقال: الّذی جاءکم بما جاءکم به (ویعنی الحجّاج الّذی احتال علیهم). ولقد دخل علیکم مُسلماً، فأخذ ماله، وانطلق لیلحق بمحمَّد وأصحابه، فیکون معه.

فغضبت قریش لهذه المکیده وانزعجت انزعاجاً شدیداً، ولکن بعد فوات الأوان، ولم یلبثوا أن جاءهم خبر انتصارات المسلمین الساحقه علی أعدائهم(۱).

۱- . لاحظ: بحار الأنوار: ۳۴/۲۱؛ والسیره النبویه لابن هشام: ۸۰۶/۳-۸۰۸.

۴۶ قصّه فَدَک

اشاره

کـانت «فَـدک» منطقه خصـبه، کثیره الخیر، قرب خیبر، وهی تبعـد عن المـدینه بما یقرب من (۱۴۰) کیلومتراً، وکـانت تعتبر بعد حصون خیبر النقطه الهامه الّتی یعتمد علیها یهود الحجاز(۱).

وقـد ملأت القیاده الإسـلامیه - بعـد أن هُزم الیهود فی خیبر ووادی القری وتیماء - الفراغ الّذی حصل فی شـمال المدینه، بالقوه العسکریه الإسلامیه.

ولأجل أن تنهی الوجود السیاسـی الیهودی فی هذه المنطقه الّتی کانت بمثابه منبع خطر، وبؤره شـغب ضدَّ الإسلام، بعثت القیاده الإسـلامیه سـفیراً إلی ساده فـدک وزعمائها، لمعرفه موقفهم فآثر «یوشع بن نون» الّذی کان یرأس سـکان تلک المنطقه، الصـلح والسلام علی الحرب والقتال، وتعهّد بأن یسلّم کلّ سنه نصف محاصیل فدک إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم(۲).

وأن یعیش هو وقومه من الآن تحت رایه الحکومه الإسلامیه، ولا یشاغب

۱- . راجع کتاب «مراصد الاطّلاع»: ۳/۱۰۲۰، ماده «فدک»؛ معجم البلدان للحموی: ۲۳۸/۴، ماده «فدک».

۲- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۸۱۳/۳؛ إمتاع الأسماع: ۳۲۵/۱؛ فتوح البلدان: ۳۳/۱.

ولا يتآمر ضدّ المسلمين، على أن تتعهّد الحكومه الإسلاميه - فى مقابل هذا المبلغ - بتوفير الأمن فى المنطقه.

حكم الأراضى المفتوحه بلا قتال

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ الأراضى الّتى يسيطر عليها المسلمون بالحرب والقتال تعود ملكيتها إلى عامّه المسلمين وتكون إدارتها بيد القائد الأعلى للأُمّه.

أمّا الأراضى الّتى لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ولم يسيطر عليها المسلمون بالقتال فتكون لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والإمام من بعده خالصه، فهو يتصرّف فيها كما يشاء ويرى، فله أن يهبها، وله أن يؤجّرها، ومن جمله ما له أن يفعل فيها هو أن يهبها لأقربائه فيسدوا بها حاجتهم، ويديروا بها معيشتهم(۱).

وعلى هذا الأساس وهب رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فدكاً لابنته الطاهره فاطمه الزهراء، وقد أُريد من أيّهاب هذه الأرض لها - كما تشهد بذلك القرائن - أمران:

۱. أنّ قياده الأُمّه كانت بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كما صرّح النبى بذلك مراراً، ل:

«على بن أبى طالب»، ومثل هذه المسؤوليه الثقيله تحتاج ولا شكّ إلى ميزانيه كبيره، فكان لعلىّ عليه السلام أن يصرف من أموال فدك وعائداتها إذا صارت تحت تصرّفه أكبر قدر ممكن ليحفظ به ذلك المنصب، ويستطيع القيام بمتطلّباته.

وكأنّ جهاز الخلافه - بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - أدرك هذه الحقيقه، ولهذا عمد منذ الأيام الأُولى لوفاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى انتزاع فدك من أهل بيت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

۱- . وقد طرحت هذه المسأله فى الآيه ۶ و ۷ من سوره الحشر وعولجت فى الكتب الفقهيه فى باب الجهاد تحت عنوان «الفىء» و «الأنفال».

۲. لقد كان من الواجب أن تعيش ذريه النبى صلى الله عليه و آله و سلم الّتى كان يتمثّل مصداقها الكامل فى وحيده رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فاطمه الزهراء، وابنيها الحسن والحسين عليهما السلام بعد وفاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بصوره تليق بمقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وشرفه، ومكانته الساميه. ولهذا الهدف وهب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فدكاً لابنته فاطمه الزهراء عليها السلام.

يقول المفسّرون والمحدّثون الشيعه وبعض علماء السنّه إنّه لمّا نزل قوله تعالى:

«وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ» .(۱)

دعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ابنته فاطمه وفوّض إليها فدكاً(۲)، وقد روى هذا الأمر أبو سعيد الخدرى وهو من كبار صحابه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ويعترف جميع المفسّرين، سنّه وشيعه، بأنّ هذه الآيه نزلت فى حقّ أقرباء رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وابنته الزهراء أظهر وأقوى مصاديق «ذى القربى»، حتّى أنّه كان على بن الحسين السجّاد فى الشام بعد واقعه كربلاء، وسأله بعض الشاميّين عن نسبه، فتلا عليه السلام الآيه المذكوره للتعريف بنفسه، وحيث إنّ مفاد الآيه والمراد بها كان معلوماً عند المسلمين كافّه قال الشامى متعجّباً: وإنّكم للقرابه الّذى أمر اللّه أن يؤتى حقّه(۳).

وخلاصه القول: إنّ ثمه اتّفاقاً بين علماء السنّه والشيعه فى أنّ هذه الآيه قد نزلت فى شأن الزهراء وابنيها، نعم هناك خلاف فى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهب -

---

۱- . الإسراء: ۲۶.

۲- . لاحظ: مجمع البيان: ۲۴۳/۶، مؤسسه الأعلمى، بيروت؛ شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۲۶۸/۱۶؛ الدر المنثور: ۱۷۷/۴.

۳- . الدّر المنثور: ۱۷۶/۴.

ساعه نزول هذه الآیه – فدکاً لابنته فاطمه، أم لا؟ ولقد اتّفق علماء الشیعه علی الشقّ الأوّل، وذهبوا إلی أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم وهب فدکاً عند نزول الآیه لفاطمه ووافقهم علی ذلک جمعٌ من علماء السنّه.

وقد أراد المأمون العباسی (لسبب ما) إعاده فدک إلی بنی الزهراء فکتب إلی المحدّث المعروف «عبداللّه بن موسی» وطلب منه أن یرشده فی هذا الأمر، فکتب إلیه عبداللّه بن موسی الحدیث المذکور الّذی یوضح شأن نزول هذه الآیه، فأعاد المأمون فدکاً إلی أبناء الزهراء وذریتها(۱)، فکتب الخلیفه العباسی إلی والیه علی المدینه یومذاک بأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهب فدکاً لابنته فاطمه الزهراء وهذا أمرٌ مسلّم، ولا خلاف فیه حیث کانت قضیه فدک وخطبه الزهراء علیها السلام ممّا یتوارثه العلویون وأحفاد فاطمه علیها السلام.

وقد جَلس المأمون ذات یوم علی کرسی خاص للاستماع إلی مظالم الناس وشکایاتهم، فکانت أوّل ما أُعطی له، رساله وصف صاحبها نفسه فیها بأنّه یدافع عن الزهراء، فقرأ المأمون الرساله وبکی مده، ثم قال: مَن هو المحامی عن الزهراء؟ فقام شیخٌ کبیرٌ، وقال: أنا هو ذا، فانقلب مجلس المأمون من مجلس القضاء إلی مجلس حوار ومناظره بین المأمون وبین ذلک الشیخ، وأخیراً وجد المأمون نفسه مغلوباً محجوجاً، فأمر رئیس دیوانه بأن یکتب کتاب ردّ فدک إلی أبناء الزهراء، فکتب ذلک الکتاب، ووشّحه المأمون بتوقیعه، وفی هذه المناسبه قام دعبل الّذی حضر ذلک المجلس وأنشأ شعراً هذا مطلعه:

أصبح وجهُ الزمان قد ضحکا بردّ مأمون هاشم فدکاً(۲)

۱- . لاحظ: مجمع البیان: ۲۴۳/۶ عند تفسیر قوله تعالی: «وَ آتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ» الإسراء: ۲۷؛ فتوح البلدان: ۳۷/۱.

۲- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۲۱۷/۱۶.

وليس الشيعه بحاجه - فى إثبات أنّ فدكاً كان ملكاً طلقاً وخالصاً للزهراء فاطمه بنت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - إلى الدلائل المذكوره، لأنّ الصدِّيق الأكبر أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام قد صرَّح بمالكيته بفدك فى إحدى رسائله إلى واليه على البصره عثمان بن حنيف إذ قال:

«بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ، مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللّهُ»(۱).

قصّه فدک بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم

لقد حُرمت ابنه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم العزيزه فاطمه من ملكها الخالص (فدک) بعد وفاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لأغراض سياسيه خاصّه، وأخرجوا عمّالها من تلک الأرض، فعمدت إلى إثبات حقّها واسترداد ملكها من جهاز الخلافه عن طريق القانون.

ففى الدرجه الأُولى كانت قريه فدک فى يدها، واليدُ دليل الملک، ولكن جهاز الخلافه طلب منها مع ذلک دليلاً على كون فدک ملكها، خلافاً لكلّ الموازين القضائيه الإسلاميه.

إذ لا يُطلبُ من أىّ واحد له يد على شىء (أى يكون ذلک الشىء تحت تصرّفه) أن يقيم دليلاً على ملكّيته لذلک الشىء، ولكنّ جهاز الخلافه لم يُعر ليد الزهراء على «فدک» أهميه، بل طالبها بأن تأتى بشاهد على ملكيتها.

ولهذا اضطرّت فاطمه الزهراء عليها السلام إلى أن تأتى للشهاده على ذلک بشخصيّه ذات مكانه هامّه كعلىّ عليه السلام وامرأه تدعى أُمّ أيمن الّتى شهد لها رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأنّها

۱- . نهج البلاغه: قسم الرسائل، برقم ۴۵.

من نساء الجنّه(۱).

وبعتيق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم «رباح» حسب روايه البلاذرى(۲)، ولكن جهاز الخلافه لم يعر اهتماماً لشهاده هؤلاء الشهود، وحرم ابنه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من ملكها الّذى وهبه إيّاها والدها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ولقد كانت «الزهراء» و «على» وابناهما الحسن والحسين عليهم السلام مطهّرين من كلّ رجس كما صرّح بذلك قوله تعالى:

«إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» .(۳)

ولو أنّ هذه الآيه شملت نساء النبى صلى الله عليه و آله و سلم لكانت فاطمه الزهراء من أوضح مصاديقها قطعاً ويقيناً، ولكن الخلافه تجاهلت - مع الأسف - حتّى هذا الدليل، واعتبر الخليفه ادّعاءها ادّعاءً غير مشروع.

وفى المقابل يرى علماء الشيعه أنّ الخليفه الأوّل أذعن فى نهايه الأمر لصحّه رأى الزهراء وصحّه ادّعائها وشرعيّته، وكتب كتاباً يصرّح بأنّ فدكاً ملك خالصٌ للزهراء وأعطاها ذلك الكتاب، ولكن رفيق الخليفه وصاحبه لمّا صادف الزهراء فى أثناء الطريق وعرف بأنّها حصلت على اعتراف صريح من الخليفه بملكيتها لفدك أخذ منها ذلك الكتاب وأتى به إلى الخليفه الأوّل وقال معترضاً على شهاده على عليه السلام وأُمّ أيمن لها: إنّ علياً يجرُّ إلى نفسه وأُمّ أيمن امرأه.

ثم عمد إلى الكتاب فمحاه وخرقه(۴).

۱- . لاحظ: الاصابه: ۳۵۹/۸ برقم ۱۱۹۰۲؛ الطبقات الكبرى: ۲۲۴/۸.

۲- . لاحظ: فتوح البلدان: ۳۵/۱ برقم ۱۱۴.

۳- . الأحزاب: ۳۳، راجع كتاب: آيه التطهير فى أحاديث الفريقين: ج ۱ و ۲.

۴- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۳۷۴/۱۶.

هذا ويروى الحلبى فى سيرته هذه الحادثه بصوره أخرى إذ يكتب قائلًا: إنّ أبا بكر كتب لفاطمه بفدك، ودخل عليه عمر فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبته لفاطمه بميراثها من أبيها، فقال: ممّاذا تنفق على المسلمين وقد حاربتك العرب كماترى؟! ثم أخذ عمر الكتاب فشقّه(۱).

وما ذكره ابن أبى الحديد عن أحد متكلمى الشيعه قال: قلتُ لمتكلّم من متكلّمى الإماميّه يُعرف بعلى بن تقى من بلده النيل: وهل كانت فدك إلّانخلًا يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير! فقال لى: ليس الأمر كذلك، بل كانت جليله جدّاً، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفه الآن من النخل، وما قصد أبوبكر وعمر بمنع فاطمه عنها إلّاألّا يتقوّى علىٌّ بحاصلها وغلّتها على المنازعه فى الخلافه، ولهذا اتّبعا ذلك بمنع فاطمه وعلى وسائر بنى هاشم وبنى المطّلب حقّهم فى الخمس، فإنّ الفقير الّذى لا مال له تضعف همّته ويتصاغر عند نفسه، ويكون مشغولا بالاحتراف والاكتساب عن طلب المُلك والرئاسه(۲).

ويكتب هذا الكاتب فى موضع آخر من كتابه أيضاً: سألت على بن الفارقىّ مدرّس المدرسه الغربيه ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمه صادقه؟ قال: نعم، قلت:

فِلمَ لمْ يدفعْ إليها أبوبكر فدكاً وهى عنده صادقه؟ فتبسّم، ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحُرمته وقلّه دعابته، قال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً، وادّعت لزوجها الخلافه، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقه بشىء، لأنّه يكون قد سجّل على نفسه على أنّها صادقه فيما تدّعى كائناً ما كان من غير حاجه إلى بيّنه ولا شهود. وهذا كلام صحيح، وإن كان

۱- . السيره الحلبيه: ۳۹۱/۳.

۲- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۲۳۶/۱۶-۲۳۷.

أخرجه مخرج الدُّعابه والهزل(۱).

لقـد بدأ منع بنی الزهراء من فدک فی عهد الخلیفه الأوّل، وبعد أن قضـی علی علیه السـلام وتسـلّم معاویه زمام الأمر، وزّع فدکاً بین ثلاثه هم: (مروان بن الحکم، وعمرو بن عثمان، وابنه یزید).

ولمّا ولی الأمر «مروان» سیطر علی فدک بصوره کامله، ووهبها لابنه عبدالعزیز، وأعطاها عبدالعزیز لولده «عمر بن عبدالعزیز»(۲).

وحیث إنّه کـان حاکمـاً معتـدل السیره بین خلفاء بنی أُمّیه لهـذا فإنّ أوّل بـدعه أزاحها کان هو اعاده فـدک إلی بنی فاطمه، ثم انتزعها الخلفاء الذین توالوا بعده من أیدی بنی هاشم، وکانت بأیدیهم حتّی یوم انقرضت فیه حکومه الأُمویّین.

وقـد اضـطرب أمر فـدک اضـطراباً عجیبـاً أیـام الخلافه العباسـیه، فلمّا ولی أبو العباس السـفّاح ردّها علی عبـداللّه بن الحسن بن الحسن، ثم قبضـها أبوجعفر من بنی الحسن، ثم ردّها محمَّد المهدی ابنه، علی وُلد فاطمه علیها السـلام، ثم قبضها موسی الهادی بن المهدی وهارون أخوه، لأسباب سیاسیه خاصّه، حتّی وصل الدور إلی المأمون فردّها علی الفاطمیّین أصحابها الشرعیّین ضمن تشریفات خاصّه وبصوره رسمیه.

ثم اضطرب أمر فدک من بعده أیضاً فربما سُلِبَت من أصحابها وربما رُدَّت إلیهم. وهکذا تراوحت بین السلب والرد.

ولقد استغِلّت فدک فی عهد الأُمویّین والعباسیّین فی أغراض سیاسیه بحته قبل أن تستغَلّ فی أغراض اقتصادیه.

۱- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۲۸۴/۱۶.

۲- . لاحظ: شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۲۷۸/۱۶.

فلقد كان الخلفاء فی صدر الإسلام یحتاجون إلی عائدات فدک المالیه، مضافاً إلی أنّهم انتزعوها من ید علیّ لغرض سیاسی، ولکن فی العصور المتأخّره عن ذلک کثرت ثروه الخلفاء وزادت زیاده هائله بحیث لم یکونوا بحاجه إلی عائدات فدک، ولهذا فإنّ عمر بن عبدالعزیز لمّا أعاد فدکاً إلی بنی فاطمه احتجّ علیه بنو أُمیّه واعترضوا قائلین: هجَّنت فعل الشیخین،... فإن أبیت إلّاهذا فأمسک الأصل وأقسم الغلّه(۱).

فدک فی محکمه التاریخ

إنّ دراسه وتقییم ملَفّ «فدک» تثبت بوضوح أنّ منع ابنه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من حقّها المشروع کان عملاً سیاسیاً بحتاً، أی أنّه ما کان یستند إلی أی مبرر شرعی مطلقاً، وإنّ المسأله کانت أوضح من أن تخفی علی خلیفه العصر.

وقد أوضحت الصدّیقه الطاهره فاطمه الزهراء علیها السلام هذه الحقیقه فی خطابها الساخن البلیغ إذ قالت:

هذا کتابُ اللّه حکماً عَدلاً وناطقاً فصلاً یقول: «یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ» (۲)، «وَ وَرِثَ سُلَیْمانُ داوُدَ» (۳) وبیّن عزّوجلّ فی ما وزّع من الأقساط وشرع من الفرائض والمیراث»(۴).

إنّ البحث حول دلاله الآیتین علی وراثه أبناء النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم عنه، والحدیث الّذی رواه الخلیفه وحده یوجب إطاله الکلام، وفی إمکان من یحبّ التوسّع أن

۱- . شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید: ۲۷۸/۱۶.

۲- . مریم: ۶.

۳- . النمل: ۱۶.

۴- . الاحتجاج للطبرسی: ۱۴۴/۱.

يراجع كتب التفسير المفصّله.

السيطره على وادى القُرى

إنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم لم يضع نهايه لنشاط القوى المضادّه للإسلام فى هذه المنطقه (خيبر) فقط، بل رأى أن يتوجّه إلى وادى القرى الّذى كان يشكّل مركزاً آخر من مراكز اليهود. فحاصر بنفسه حصونهم عدّه أيام، حتّى فتحها، ثم عقد بعد الفتح معاهده مع أهلها على غرار معاهده «خيبر».

وبهذا طهرت أرضُ الحجاز من فتنه اليهود الأوغاد، وقد جُرِّدوا من أسلحتهم ووضعوا تحت حمايه المسلمين ومراقبتهم الدقيقه(۱).

۱- . لاحظ: الكامل فى التاريخ: ۱۵۰/۲.

۴۷ عمره القضاء

اشاره

۴۷ عمره القضاء(۱)

کان یحقّ للمسلمین بعد التوقیع علی معاهده صلح الحدیبیه أن یدخلوا بعد عام واحد من تاریخ یوم التوقیع، مکّه، ثم یغادروها بعد ثلاثه أیام یقیمون فیها شعائر العمره، وکان علیهم بموجب الاتّفاق أن لا یحملوا معهم إلّاسلاح الراکب:

السیف فی القرب، لیس غیر.

والآن مضی عام واحد علی یوم التوقیع علی المعاهده المذکوره، وآن الأوان لیستفید المسلمون من هذه الماده فی تلک الاتّفاقیه، وأن یتوجّه المسلمون المهاجرون الذین مضی علیهم سبعه أعوام ابتعدوا فیها عن بیوتهم ووطنهم ومسقط رؤوسهم، ورجّحوا الحیاه فی الغربه، وتحمل متاعبها علی العیش فی الوطن للمحافظه علی عقیده التوحید.

۱- . العمره أعمال خاصّه ومناسک معیّنه یمکن للمرء الإتیان بها طوال أشهر السنه علی العکس من أعمال الحج الّتی یجب أداؤها فقط فی شهر ذی الحجّه، وقد توجّه رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی مکّه فی یوم الاثنین السادس من شهر ذی القعده من السنه الهجریه السابعه. وسمّیت هذه العمره عمره القضاء لأنّها کانت بدلاً عن العمره الّتی منع النبیّ والمسلمون عنها فی عام الحدیبیه.

يتوجّه مثل هؤلاء مرّه أَخرى إلى زياره بيت اللّه الحرام ولقاء الأحباب والأقرباء وتفقّد المنازل والبيوت الّتى ولدوا فيها وترعرعوا فى رحابها.

ولهذا عندما أعلن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأن يستعد من حُرمَ من العمره فى العام الماضى للعمره، دبّ شوق عجيب فى نفوس المسلمين، واغرورقت عيونهم بدموع الفرح، فخرج مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ألفا شخص بدل ألف وثلاثمائه وهم عدد الذين خرجوا معه فى السنه الماضيه.

وكان بين الخارجين مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جمع كبير من شخصيات المهاجرين والأنصار البارزه الذين كانوا يلازمون رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم طول سيره ملازمه الظل لصاحب الظل.

وساق رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه العمره ستين بدنه وقد قلّدها(۱)، وأحرم من مسجد المدينه واتبعه الآخرون، وخرج ألفان وهم يلبّون مرتدين أثواب الاحرام يقصدون مكّه.

ولقد كان هذا الموكب العظيم من الجلال والمغزى المعنوى بحيث لفت نظر الكثير من المشركين إلى حقيقه الإسلام ومعنويته الرائعه.

ولو قلنا: إنّ هذا السفر كان - فى حقيقته - سفراً تبليغياً، وإنّ المشتركين فيه كانوا - فى حقيقه الأمر - طلائع التبليغ والدعوه لما قلنا جزافاً، فان آثار هذا السفر المعنوى ظهرت للتو، فقد انبهر بمنظر سلوكهم وعبادتهم ونظامهم ألدُّ أعداء الإسلام أمثال «خالد بن الوليد» بطل معركه أُحد وعمرو بن العاص داهيه العرب فرغبوا فى الإسلام، وأسلموا بعد قليل.

۱- . البَدنه الناقه تنحر بمكه والجمع بُدْن، وتقليد البدنه أن يجعل فى عنقها نعلاً فيُعلَم أنّها هديٌ.

وحيث إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن آمناً من غدر قريش فقد كان يحتمل أن يباغتوه ويباغتوا أصحابه فى أرض مكّه، ويسفكوا دماء جماعه منهم وهم لا يحملون معهم إلّاسلاح الراكب، إذ لم يكن مسموحاً للمسلمين - حسب المعاهده - أن يأخذوا معهم سلاحاً غير ذلك.

من هنا عمد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تحسّباً لأى طارئ إلى تكليف مائتى رجل من المسلمين بالتسلّح الكامل، وأمّر عليهم «محمَّد بن مسلمه» وحملهم على مائه فرس سريع، وأمرهم بالتوجّه صوب مكّه أمام القافله الكبرى، والاستقرار فى منطقه «مرّ الظهران» قرب الحرم، ينتظرون ورود رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ومَن معه.

فعرف عيون قريش الذين كانوا يراقبون تحرّكات رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بقضيه الفرسان المسلّحين المائتين، واستقرارهم فى وادى «مرّ الظهران»، وأخبروا ساده قريش بالأمر.

فبعثت قريش «مكرز بن حفص» إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليكلّموه فى هذا الإجراء فأتى مكرز إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وسلّمه اعتراض قريش قائلاً: يا محمد واللّه ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك وقد شرطت ألّا تدخل إلّابسلاح المسافر السيوف فى القرب.

فأجابه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«لا نَدْخلُها إلّاكذلك».

وقد أفهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مكرزاً بهذه العباره بأنّ قريش لو استغلّت عدم حمل النبى وأصحابه للسلاح الثقيل فباغتتهم أدركتهم هذه القوه الاحتياطيه المسلّحهُ القويه المستقرّه على مقربه من الحرم، ومدّوهم بالسلاح والعتاد.

فعاد «مكرز» وأخبر قريشاً بما سمع من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فأدركت قريش حنكه رسول الإسلام وبُعد نظره، وحسن تقديره للأُمور، ففتحت أبواب مكّه فى وجه المسلمين، وخرج رؤوس المشركين وأهلوهم ومن تبعهم إلى رؤوس الجبال، وخلّوا مكّه، وقالوا: لا ننظر إلى محمَّد ولا إلى أصحابه، ولكنّهم كانوا يراقبون المشهد من بعيد!!(۱).

النبى يدخل مكّه

دخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو على راحلته القصواء وأصحابه متوشّحو السيوف محدقون به يلبّون وهم ألفان، فدوّى صوتهم الموحَّد بالتلبيه فى أرجاء مكّه، وكانت نغمه هذه التلبيه الكبرى من الجلال والجمال بحيث بهرت كلّ سكّان مكّه، وسحرت قلوبهم وعطفها نحو المسلمين، وفى نفس الوقت أرعب اتّحاد المسلمين، ونظامهم، والتفافهم حول النبى قلوب المشركين، ولم يقطع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تلبيته حتّى استلم الركن.

فلمّا انتهى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى البيت وهو على راحلته وابن رواحه آخذ بزمامها وقد صف له المسلمون حين دنا من الركن حتّى انتهى إليه استلم الركن بمحجنه...(۲) أنشد عبداللّه بن رواحه يقول:

خَلُّوا بَنى الكفّار عَن سبِيله إنّى شهدتُ أنّه رسولُه

حقّاً وكلُ الخير فى سبيله نحن قتلناكم على تأويله

كما ضَربناكم على تنزيله ضرباً يُزيل الهام عن مقيله

۱- . لاحظ: المغازى: ۷۳۴/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۳۱/۱.

۲- . المحجن: عصا معقفه الرأس كالصولجان. النهايه لابن الأثير: ۳۴۷/۱، ماده «حجن».

ویذهلُ الخلیل عن خلیله(۱)

وطاف رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بالبیت المعظم علی راحلته، وهنا أمر صلی الله علیه و آله و سلم ابن رواحه ان یردّد هذا الدعاء بلحن ونغم خاص؛ وأن یتبعه المسلمون:

«لا إله إلّااللّه وحدَه وَحدَه، صدَق وعدَه، ونصرَ عبدَه، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده».

کانت مکّه بجمیع مشاعرها فی ذلک الیوم تحت تصرّف المسلمین، المسجد، الکعبه، الصفا، المروه، وغیرها. وقد کانت هذه الشعارات التوحیدیه الساخنه فی مکان کان طوال سنین مدیده مرکزاً للوثنیه، والشرک توجّه ضربات روحیه قویه إلی نفسیّه ساده المشرکین، وأتباعهم، ممّا کان یُوحی بغلبه «محمَّد» صلی الله علیه و آله و سلم علی کلّ أرجاء الجزیره العربیه حتماً ویقیناً.

ولمّا قضی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم نُسکه دخل البیت فلم یزل فیه حتّی حان الظهر، فصعد بلال الّذی طالما عُذِّب فی هذا البلد بسبب إسلامه فوق ظهر الکعبه بأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وأذّن لصلاه الظهر.

ولقد کان لهذا المنظر مردود عجیب فی نفوس المشرکین، فبلال واقفٌ فی نقطه طالما عُذّبت فیها الشهاده بالتوحید وبرساله محمَّد، ذنباً لا یُغتفر، وجریمه لا ینجو صاحبها من العذاب، یردّد ویردّد معه المسلمون ما یردّد من فصول الأذان فصلاً فصلاً فی خشوع وروحانیه بالغه.

لقد أزعج أذان بلال المشرکین وأعداء التوحید، حتی قال «صفوان بن أُمیّه»:

الحمدُ للّه الّذی أذهب أبی قبل أن یری هذا، وقال خالد بن أُسید: الحمدُ للّه الّذی

۱- . المغازی: ۷۳۶/۲؛ زاد المعاد: ۱۵۲/۲.

أمات أبی ولم یشهد هذا الیوم، حین یقوم بلال ابن أم بلال ینهق فوق الکعبه!!

وأمّا «سهیل بن عمرو» ورجال معه فحین سمعوا ذلک غطّوا وجوههم.(۱)

إنّهم لم ینزعجوا من صوت «بلال» بل أحرجتهم مضامین فصول الأذان الّتی کانت ضدَّ ما یحملونه من المعتقدات الباطله الموروثه، وجعلتهم یعانون بسبب ذلک من عذاب روحی شدید.

ثم إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حین أراد السعی بین الصفا والمروه سمع بأنّ قریشاً تحدّثت بینها أنّ محمَّداً وأصحابه فی عسره وجهد وشدّه، وأنّ الذین هاجروا معه إلی المدینه مرضی، وأنّهم صفّوا له عند دار الندوه لینظروا إلیه وإلی أصحابه، فهرول رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم هروله فی المکان المعلّم الآن فی المسعی، وتبعه المسلمون وقد قال لهم قبل ذلک: «رحم اللّه امرَأً أراهم الیوم من نفسه قوّه»(۲).

وذلک لیبطل ما أشاعته قریش حول المسلمین المهاجرین من الضعف والهزال بسبب ظروف المهجر. وهذا إن دلّ علی شیء فإنّما یدلّ علی أمرین:

أوّلاً: جواز القیام بالأعمال السیاسیه فی موسم الحج.

ثانیاً: أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم کان حذراً جدّاً فکان یبطل کلّ خطط العدو أوّلاً بأوّل.

یقول صاحب زاد المعاد: أمر النبیّ بذلک لیری المشرکون جلدهم وقوتهم، وکان یکایدهم (أی یبطل کیدهم) بکلّ ما استطاع(۳).

۱- . المغازی: ۷۳۸/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۳۳/۱؛ السیره الحلبیه: ۷۸۴/۲.

۲- . لاحظ: تاریخ الطبری: ۳۰۹/۲؛ زاد المعاد: ۱۵۲/۲.

۳- . زاد المعاد: ۱۵۲/۲. ولنا رساله فی هذا المجال تحت عنوان: «الحجّ: موسم عبادی وملتقی

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد أن فرغ من السعى نحر البدن، ثم قصّر من شعره، ثم خرج من إحرامه، وتبعه المسلمون فى كلّ ما فعل.

ثم أمر صلى الله عليه و آله و سلم مائتين من أصحابه بعد أن طافوا بالبيت وانتهوا من مناسك العمره أن يذهبوا إلى أصحابه بمرّ الظهران فيقيموا على السلاح فيأتى الآخرون فيقضوا مناسكهم، ففعلوا.

انتهت أعمال العمره ونسكها، وذهب المهاجرون إلى منازلهم الّتى هجروها قبل سبعه أعوام، ليجدّدوا اللقاء بذويهم وأقربائهم بعد طول فراق، واستضافوا جماعه من الأنصار فى بيوتهم وفاء لجميلهم وتقديراً لخدماتهم حين قدموا عليهم المدينه بعد الهجره، فأسكنوهم وأكرموهم فى منازلهم وخدموهم سنيناً عديده.

النبى صلى اللّه عليه و آله و سلم يغادر مكّه

تركت أحوالُ المسلمين وأوضاع الإسلام وجلال الموكب النبوى وعظمته أثراً بليغاً وعجيباً فى نفوس سكان مكّه المشركين، فقد تعرّفوا على نفسيه المسلمين النبيله الطيبه فى هذه الزياره أكثر من أى وقت مضى، وكاد ذلك أن «يفعل» فعلته، ويحدث انقلاباً روحياً فى تلك البيئه.

ولمّا رأى زعماء المشركين أن توقّف النبى وأصحابه فى مكّه سيؤثر فى عقائد أهل مكّه ويضعف تمسّكهم بوثنيّتهم، ويوجد علاقات المحبّه بينهم وبين المسلمين، لهذا بعثوا أحدهم وهو حويطب إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - بعد انقضاء

المدّه المقرّره للإقامه فی مکّه فی المعاهده - لیطْلب منه مغادره مکّه قائلاً: إنّه قد انقضی أجلک فاخرج عنا.

فانزعج بعض أصحاب النبی صلی الله علیه و آله و سلم من مقاله مبعوث قریش هذا، ولکنّ النبی لم یکن بالذی یخالف ما تعهّد به، ولهذا أمر بأن ینادی فی المسلمین بالرحیل، فترک هو والمسلمون مکّه فوراً.

ولقد تأثرت «میمونه» أُختُ أُمّ الفضل زوجه العباس، بما شهدت من مشاعر المسلمین وروحانیتهم فأرسلت إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عن طریق عمّه العباس أنّها ترغب فی الزواج برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فوافق رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم(۱) وتزوّجها، وبهذا قوّی علاقاته مع قریش.

إنّ رغبه فتاه فی الزواج بمَن یکبرها بسنین عدیده لدلیلٌ واضح علی مدی التأثیر الروحی والمعنوی الّذی ترکه النبی والمسلمون فی النفوس حتّی أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم لمّا طلب من مبعوث قریش بأن یمهلوه بعض الوقت لیعرس بین أظهرهم، ویصنع لهم طعاماً یحضروه، أبوا إمهاله خوفاً من تعاظم تأثیره فی النفوس، وقالوا له: لا حاجه لنا فی طعامک فاخرج عنّا(۲).

فأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن یخرج المسلمون من مکّه فی منتصف النهار ولم یبق بمکّه إلی وقت الظهر، وخلّف أبا رافع لیحمل إلیه زوجته «میمونه» حین یمسی، فأقام أبو رافع حتّی أمسی، فخرج بمیمونه ومن معها فلقوا عناء من سفهاء المشرکین، ولاموا «میمونه» علی فعلها، ولکن کلامهم لم یؤثر قط فی نفسها، فقد رغبت فی الزواج برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بدافع الرغبه فی خلقِه وسموّ أخلاقه.

۱- . حیاه محمد: ۴۰۱.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۸۲۹/۳؛ تاریخ الخمیس: ۶۲/۲-۶۵.

وهکـذا تحقّقت رؤیـا رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم الصـادقه الّتی رآهـا قبل سـنه واحـده بأنّه دخل البیت، وحلق رأسه، ونزلت بعد هذه الوقائع الآیه ۲۷ من سوره الفتح تتحدّث عن تحقّق هذا الوعد حیث أخبرت ضمناً عن فتح قریب، - هو فتح مکّه - الّذی تحقّق فی السنه الثامنه من الهجره إذ یقول سبحانه:

«لَقَدْ صَدَقَ اللّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْیا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِکَ فَتْحاً قَرِیباً» .(۱)

۱- . الفتح: ۲۷.

احداث السنه الثامنه من الهجره

۴۸ معرکه مؤته

اشاره

انقضت السنه الهجریه السابعه، واستطاع المسلمون بفضل معاهده صلح الحدیبیه أن یزوروا معاً بیت اللّه المعظم ویعتمروا فی أمان، ویردّدوا فی مرکز حکومه الوثنیین شعارات قویه لصالح عقیدتهم التوحیدیه إلی درجه أنّهم استطاعوا أن یستمیلوا نحو الإسلام قلوب جماعه من سراه قریش وزعماء المشرکین أمثال: «خالد بن الولید»، «وعمرو بن العاص»(۱) و «عثمان بن طلحه»، فلم یلبثوا أن جاءُوا طائعین راغبین إلی المدینه، واعتنقوا الإسلام وقطعوا علاقاتهم بحکومه مکّه الوثنیه المشرکه الّتی لم یبق منها إلّاجسم من دون روح، وهیکل من دون حیاه(۲).

وذکر بعض المؤرّخین إسلام خالد أو ابن العاص فی السنه الخامسه من الهجره.(۳)

۱- . لقد ذکر الواقدی فی مغازیه: ۷۴۳/۲ علّه إسلام عمرو بصوره أُخری.

۲- . لاحظ: الطبقات الکبری لابن سعد: ۲۵۲/۴-۲۶۱.

۳- . لاحظ: الإصابه: ۲۱۵/۲ برقم ۲۲۰۶؛ سبل الهدی والرشاد للصالحی الشامی: ۶۷/۱۲.

ولكن هذا غير صحيح قطعاً لأنّ «خالداً» كان يقود فى الحديبيه مائتين من فرسان قريش، ونحن نعلم أنّ إسلام هذين الرجلين تمّ فى وقت واحد.

كان ثمهُ أمنٍ نسبيٍّ يسود أكثر مناطق الحجاز فى أوائل السنه الثامنه، وكان نداء الإسلام قد وصل إلى أكثر النقاط ولم يبق من نفوذ اليهود شىء، ولم تعد قريشٌ تهدّد المسلمين من ناحيه الجنوب، ولهذا فكّر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى أن يركّز دعوته على سُكان المناطق الحدوديه للشام، ويستميل إلى الإسلام قلوب أُولئك الأقوام الّتى كانت فى تلك الأيام تعانى من ظلم السلطات الروميّه.

ولهذا الغرض وجّه «حارث بن عمير الأزدى» مع كتاب إلى «الحارث بن أبى شمر الغسّانى» ملك «بُصرى» الّذى كان حاكم الشامات المطلق يومذاك، وكان يحكم من جانب قيصر.

فلمّا نزل مبعوث النبى مؤته، عرف به شرحبيل وكان حاكم المناطق الحدوديه، فقبض عليه، وحقّق معه، فاعترف له بأنّه يحمل كتاباً من جانب رسول الإسلام إلى حاكم الشامات المطلق (الحارث الغسّانى)، فأمر بأن يُوثق وقدّمه وضرب عنقه صبراً مخالفاً بذلك كلّ الأعراف العالميه القاضيه باحترام السفراء وحصانتهم.

فعرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بذلك وغضب لمقتل رسوله بشدّه وندب الناس فأخبرهم بمقتل سفيره ومن قتله، ودعا المقاتلين المسلمين إلى الخروج للاقتصاص من قاتل «الحارث».(۱)

۱- . لاحظ: المغازى: ۷۵۵/۲-۷۵۶.

حادثه أفجع من السابقه

واتّفق أن وقعت فی نفس الأیام حادثه أُخری أفجع من الأُولی، أکّدت عزم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی تأدیب سکان المناطق الحدودیه الشامیه الذین سلبوا دعاه الإسلام حریه العمل والدعوه، وقتلوا دون رحمه، وغدراً سفیر النبی، و جماعه الدعوه والتبلیغ، وإلیک مفصّل الحادثه الثانیه:

بعث رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کعب بن عمیر الغفاری فی شهر ربیع الأوّل سنه ثمان من الهجره فی خمسه عشر رجلاً إلی منطقه «ذات أطلاح» من أرض الشام، خلف وادی القری لدعوه الناس إلی الإسلام، فخرجوا حتّی انتهوا إلی تلک المنطقه فوجدوا جمعاً من جمعهم کثیراً فدعوهم إلی الإسلام فلم یستجیبوا لهم، ورشقوهم بالنبل، فلمّا رأی أصحاب النبی صلی الله علیه و آله و سلم ذلک قاتلوهم أشدّ القتال، حتّی قتلوا (مؤثرین عزّ الشهاده علی ذلّ الأسر) وأفلت منهم رجلٌ جریح فی القتلی، فلمّا جنّ علیه اللیل تحامل حتّی أتی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فأخبره الخبر، فشقّ ذلک علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.(۱)

فتسبّب العدوانُ علی دعاه الإسلام وقتلهم فی أن یصدر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أمراً بالخروج إلی الجهاد فی شهر جمادی، ووجّه جیشاً قوامه ثلاثه آلاف مقاتل لتأدیب المتمرّدین، و مزاحمی دعاه الإسلام.

فتجمع ثلاثه آلاف بعد الأذان بالجهاد فی معسکر خارج المدینه یُدعی «الجرف» فخرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بنفسه إلی ذلک المعسکر، وخطب فی المقاتلین خطاباً، هذا نصّه:

۱- . المغازی: ۷۵۲/۲-۷۵۳.

«اغزوا بسم اللّه فقاتلوا عدوّ اللّه وعدوّكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً فی الصوامع معتزلين الناس، فلا تعرضوا لهم، وستجدون آخرين للشيطان فی رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف، ولا تقتلُنَّ امرأه، ولا صغيراً ولا مرضعاً، ولا كبيراً فانياً، لا تغرقنَّ نخلاً، ولا تقطعنَّ شجراً، ولا تهدموا بيتاً»(۱).

ثم قال: جعفر بن أبی طالب أميرُ الناس، فإن قُتِلَ فزيدُ بن حارثه، فإن أُصيب زيد فعبداللّه بن رواحه، فإن أُصيب عبداللّه بن رواحه فليرتضی المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم.

ثم أمر رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم المقاتلين بالتحرّك نحو الهدف، وخرج فشيّعهم مع جماعه من اصحابه حتّی «ثنيه الوداع» وهناك ودّعهم وكان المسلمون المشيّعون يقولون: دفع اللّه عنكم وردكم صالحين غانمين.

فأجابهم عبد اللّه بن رواحه قائلاً:

لكنّنی أسأل الرحمن مغفره وضربه ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنه بيدی حرّان مجهزه بحربه تنفذُ الأحشاء والكبدا

حتّی يقال إذا مرّوا علی جدثی أرشده اللّه من غاز وقد رشدا(۲)

وأنت أيّها القارئ الكريم يمكنك أن تعرف من خلال هذه الأبيات عمق إيمان هذا الفارس القائد وحبه للشهاده فی سبيل اللّه.

ثم إنّ الناس رأوا عبداللّه بن رواحه لمّا ودّع مَن ودّع بكی، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحه؟ فقال: أما واللّه مابی حبُّ الدنيا، ولا صبابهٌ بكم، ولكنّی سمعت

۱- . المغازی: ۲/۷۵۸.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۸۳۰/۳؛ الطبقات الكبری: ۱۲۸/۲.

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقرأ آيه من كتاب اللّه عزّوجلّ يذكر فيها النار:

«وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا» .(۱)

فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود(۲).

خلافٌ حول مَن هو الأمير الأوّل؟

لقد كتب بعض المؤرّخين: إنّ الأمير الأوّل كان هو زيد بن حارثه ابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالتبنّى، ثم جعفر بن أبى طالب، ثم عبداللّه بن رواحه، ولكن محقّقى الشيعه يرون عكس هذا فهم يعتبرون جعفر بن أبى طالب قائد الجيش وزيداً وعبداللّه معاونين أو خليفتين له على الترتيب، فيجب أن نرى أى الرأى يوافق الحقيقه.

لتحصيل الحقيقه فى هذا المجال هناك طريقان:

۱. أنّ زيد بن حارثه لم يكن يعادل من ناحيه التقوى والعلم والمكانه الاجتماعيه جعفر بن أبى طالب (جعفر الطيّار).

يقول ابن الأثير عنه: جعفر بن أبى طالب كان أشبه الناس برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خَلقاً وخُلقاً، أسلم بعد إسلام أخيه علىّ بقليل. روى أنّ أبا طالب رأى النبى صلى الله عليه و آله و سلم وعليّاً رضى الله عنه يصلّيان وعلىٌّ عن يمينه، فقال لجعفر: صِلْ جناح ابن عمك وصلِّ عن يساره(۳).

وجعفر رأس المهاجرين إلى الحبشه الذين هاجروا اليها حفاظاً على دينهم وعقيدتهم من الفتنه، وهو الّذى استمال قلب النجاشى بما تكلّم به عنده من الحجّه،

۱- . مريم: ۷۱.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۳۰/۳.

۳- . أُسد الغابه: ۲۸۷/۱.

وقرأ عليه آيات من القرآن عن المسيح عليه السلام وأمه مريم، وأثبت كذب مبعوثى قريش لاستعادتهم إلى أرض الحجاز، و هو الّذى وُفّقَ لأن يخطب ودَّ النجاشى ويكسب حمايته للمهاجرين الملاحقين إلى درجه أنّه طرد مندوبى قريش(۱).

إنّ جعفراً هو الشخصيه البارزه الّتى لمّا رآه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يوم خيبر وقد عاد من الحبشه مشى إليه (۱۲) خطوه وعانقه وضمّه وقبّل مابين عينيه وبكى من فرط الشوق إليه وقال فى حقّه:

«ما أدرى بأىّ الأمرين أنا أسرّ بقدوم جعفر أم بفتح خيبر».(۲)

إنّه هو ذلك الرجل العظيم الّذى كان يذكره علىٌّ عليه السلام بعد استشهاده ويثنى على شجاعته وبسالته، فعندما سمع علىّ عليه السلام بمبايعه عمرو بن العاص لمعاويه، وتقرّر أن يوكل معاويه حكومه مصر إلى عمرو إذا غلبا عليّاً، غضب علىّ عليه السلام من هذا الأمر وتذكر شجاعه عمّه حمزه وأخيه جعفر وقال:

لو أنّ عندى يابن حرب جعفرا أو حمزه القرم الهمام الأزهرا

رأت قريشٌ نجمَ ليل ظُهُرا(۳)

فهل مع هذه المواصفات والجهات الّتى نقلنا قسماً منها هنا فقط يجيز العقل أن يفوّض رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قياده القوات إلى زيد ويجعل جعفر معاونه أو خليفته الأوّل.

۲. أنّ الأشعار الّتى أنشدها شعراء الإسلام الأفذاذ فى رثاء هؤلاء القاده بعد استشهادهم حاكيه عن أنّ القائد الأعلى فى هذه المعركه الكبرى (مؤته) كان

۱- . لاحظ: أُسد الغابه: ۲۸۶/۱، ترجمه جعفر بن أبى طالب، وغيره من المصادر فى هذا المجال.

۲- . المعارف لابن قتيبه الدينورى: ۲۰۵؛ أُسد الغابه: ۲۸۷/۱؛ بحار الأنوار: ۲۹۴/۳۸.

۳- . وقعه صفين: ۴۴.

«جعفر» وکان أمر المعاونه والخلافه یرتبط بالرجلین الآخرین، فهذا «حسّان» شاعر عصر الرساله أنشد شعراً بعد أن بلغهُ استشهاد أُولئک القاده بصورته المفجعه قال فیه:

فلا یبعدنَ اللّه قتلی تتابعوا بمؤته منهم ذو الجناحین جعفر

وزیدٌ وعبداللّه حین تتابعوا جمیعاً وأسباب المنیه تخطر(۱)

فکلمه تتابعوا تشهد بجلاء علی أنّ مقتل هؤلاء القاده الذین ذکرهم تمّ علی النحو الّذی جاء ذکرهم، یعنی أنّ جعفراً کان أوّل الشهداء ثم تلاه فی قیاده الجیش الإسلامی ثم الشهاده زیدٌ، ثم ابن رواحه.

وإنّ أوضح الأدلّه علی ذلک قصیده «کعب بن مالک» فی رثاء شهداء مؤته، التی یصرّح فیها بأنّ جعفراً کان هو القائد الأوّل، وقد کان صاحب هذه الأبیات ممّن شاهد تفویض أمر القیاده العلیا للجیش من جانب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی جعفر.

یقول کعب فی قصیدته:

إذ یهتدون بجعفر ولوائه قُدّام أوّلهم فنعم الأوّلُ (۲)

إنّ هذه القصائد الرثائیه الّتی أُنشدت فی أعقاب استشهاد أُولئک القاده، وسلمت من ید التحریف، أقوی شاهد علی أنّ ما کتبه مؤرّخو السنّه حول هذا المطلب یخالف الحقیقه، وأنّ الرواه اختلقوا هذا الترتیب لدوافع وأغراض سیاسیه لا ـ مجال لذکرها، وبیانها هنا، وقد تبعهم فی ذلک کُتّاب السیره وأدرجوه فی کتبهم من دون تمحیص وتحقیق.

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۸۳۷/۳.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۸۳۸/۳.

والعجب أنّ ابن هشام الّذى نقل كلّ هذه الأبيات والقصائد قال: إن جعفراً كان المعاون الأوّل لزيد بن حارثه، وليس القائد الأعلى للجيش(۱)، وهو كماترى تناقض مكشوف!!

جيشا الإسلام والروم يتواجهان

كانت «الروم» قد أُصيبت يومذاك - نتيجه الحروب العديده والطويله مع منافستها إيران - بالفوضى، والهرج والمرج الشديدين.

فمع أنّ قاده الروم كانوا سكارى من نشوه الانتصار على ايران إلّاأنّهم قد بلغهم شىء كثير عن شجاعه المسلمين وبسالتهم النابعه من إيمانهم والّتى كسبوا عن طريقها أمجاداً عظيمه، وكانوا يراقبون على الدوام تحرّك جنود الإسلام ونشاطاتهم العسكريه.

ولهذا لمّا بلغ هرقل قيصر الروم بموعد توجّه جنود الإسلام إلى ناحيه الشام لتأديب عميله شرحبيل الغسّانى، أرسل جيشاً عظيماً وقوياً لمواجهه جنود الإسلام البالغ عددُهم ثلاثه آلاف.

وقد أعدّ «شرحبيل» حاكم أرض الشام وحده مائه ألف فارس من مختلف القبائل القاطنه فى الأراضى الشاميه ووجهه إلى حدود الشام لإيقاف تقدّم الجيش الإسلامى، وقد أعدّ قيصر قبل ذلك مائه ألف جندى رومى فنزل فى منطقه تدعى «مآب» من مدن البلقاء، واستقرّ هناك كقوه احتياطيّه تتدخّل عند اللزوم(۲).

ولقد كان تجميع هذا القدر الهائل من الجنود والمقاتلين لمواجهه جيش

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۲۹/۳.

۲- . لاحظ: المغازى: ۷۶۰/۲، السيره النبويه لابن هشام: ۸۳۱/۳.

يقـلّ عـدداً بكثير عن هـذا القـدر نابعـاً من الأنباء الّتى بلغت قاده الروم والشام عن فتوحات المسـلمين وانتصاراتهم الساحقه وعن الوقوف على شجاعتهم وبسالتهم الّتى ذاع صيتُها، وإلّا فإنّ عشر هذا العدد، (أى عشرون ألف) يكفى لمواجهه ثلاثه آلاف مقاتل مهما كانت شجاعه هؤلاء.

كمـا أنّه عنـد المقارنه بين العسـكرين كان الجيش الإسـلامى أضـعف من جيش الروم بكثير، سواء من ناحيه العتاد، أو من ناحيه المعرفه بفنون القتال وتكتيكاته العسـكريه، لأنّ القاده العسـكريّين الروم كانوا قـد كسـبوا خبره حربيه واسـعه نتيجه المشاركه فى الحروب العديـده والطـويله الّتى دارت بيـن الروم وبين إيران، وعرفـوا بالتـالى مفاتيـح الانتصـار، بينمـا كـانت معلومـات الجيش الإسلامى الناشئ معلومات بدائيه وبسيطه فى هذا المجال.

هـذا مضافاً إلى عدم وجود التكافؤ بين الجيش الإسـلامى والجيش الرومانى فى نوعيه المعدّات الحربيه والأجهزه القتاليه ووسائل النقل وماشابه ذلك.

وفوق هـذا وذاك فإنّ القوّه الإسـلاميه كانت تحارب فى أرض غريبه عليها، وتقوم بدور المهاجم، بينما كان الرومان يقاتلون فى بلادهم دفاعاً وهم يتمتعون بجميع مستلزمات القتال ومتطلّبات الحرب.

وفى مثل هذه الحاله يجب أن تكون القوه المهاجمه قويه جداً، بحيث يمكنها تلافى سلبيات الظروف غير المساعده.

ومع هذا فإنّنا سنرى عمّا قريب كيف أنّ قاده الجيش الإسلامى قاوموا وآثروا الصمود والقتال على الهروب والفرار مع أنّهم كانوا يرون الموت على بعد أقدام معدوده منهم، وبهذا أضافوا إلى أمجادهم أمجاداً أُخرى، وسطّروا أسطراً أُخرى فى سجّل بطولاتهم.

منذ أن ورد المسلمون المناطق الحدوديه للشام عرفوا باستعدادات العدوّ العريضه، وحجم قدراته العسكريه الواسع فشكّلوا من فورهم شورى عسكريه فقال البعض: نكتب إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فنخبره الخبر، فإمّا يردّنا وإمّا يزيدنا رجالاً. فبينا الناس على ذلك من أمرهم جاءهم ابن رواحه فشجّعهم ثم قال: «واللّه ما كنّا نقاتل الناس بكثره عدد، ولا بكثره سلاح، ولا بكثره خيول، إلّابهذا الدين الّذى أكرمنا اللّه به، انطلقوا، واللّه لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلّافرَسانُ، ويوم أُحد فرسٌ واحد، وإنّما هى إحدى الحسنيين: إما ظهورٌعليهم، فذلك ما وعدنا اللّه ووعدنا نبينا، وليس لوعده خُلف؛ وإمّا الشهاده فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان».(۱)

فقوّت هذه الخطبه الحماسيه الصادقه معنويات المقاتلين المسلمين وبثّت فيهم روح البساله والمقاومه.

ثم تواجه الجيشان فى منطقه تُدعى «مشارف» ولكن جنود الإسلام تأخّروا وانسحبوا قليلاً لبعض العلل، ونزلوا فى مؤته. فقسّم جعفر بن أبى طالب قائد الجيش، جنود الإسلام إلى أقسام: مختلفه، وأمَّرَ على كلّ قسم أميراً، ثم بدأت المبارزه الفرديه على نحو ما كان متعارفاً فى حروب العرب، فكان على جعفر أن يأخذ اللواء بيده ويوجّه صفوف المقاتلين المسلمين، ويقاتل فى نفس الوقت.

ثم إنّنا نكتشف مدى الشجاعه الروحيه وثبات الإراده لتحقيق الهدف من خلال الرجز الّذى أنشده «جعفر» خلال القتال فقد أخذ يرتجز ويقول:

يا حبّذا الجنه واقترابُها طيبه وبارداً شرابُها

۱- . المغازى: ۷۶۰/۲.

والروم رومٌ دنا عذابها كافره بعيده أنسابُها

علیَّ إذ لاقیتُها ضِرابُها(۱)

ولقد قاتل قائد الجیش الأعلی (جعفر) قتالاً عظیماً، فلمّا حاصره الأعداء فی ساحه القتال وأیقن بالشهاده وثب إلی الأرض ثمّ عقر فرسه فی الحال لکی لا ینتفع به العدوُّ وأخذ یقاتل، وهو آخذ باللواء بیمینه، فقطعت یمینهُ فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضُدیه حتّی لا یسقط لواء رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی الأَرض حتّی قتل وقد وُجِدَ به ثمانون جراحه أو تزید!!(۲).

فلمّا قتِل «جعفر» أخذ الرایه «زیدُ بن حارثه» معاونه الأوّل فقاتل ببساله عظیمه حتّی قتل برماح القوم.

فأخذ الرایه «عبداللّه بن رواحه» معاونه الثانی، ثم تقدّم بها وهو علی فرسه، فجعل یقاتل ویرتجز، فأحسّ بالجوع أثناء القتال، وألحّ علیه، فأتاه رجل بعرق من لحم لیزیل به جوعه ویشدُّ به صُلبَه، فلم یأکل منه شیئاً حتّی سمع صوت هجوم العدوّ، فألقی الطعام من یده، ثم أخذ سیفه فتقدّم فقاتل حتّی قُتِل.

حیره المقاتلین المسلمین بعد مقتل القاده

وهنا بدأت حیره المقاتلین المسلمین، فقد قُتِلَ القائد الأعلی للجیش ومعاوناه وعلی الترتیب الّذی ذکر.

ولکن النبی صلی الله علیه و آله و سلم کان قد تحسّب لهذه الحاله، وترک أمر اختیار القائد فی

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۸۳۳/۳.

۲- . لاحظ: المغازی: ۷۶۱/۲-۷۶۲، وقد أثابه اللّه بذلک جناحین فی الجنّه یطیر بهما، وسُمّی فی ما بعد بجعفر الطیار، راجع السیره النبویه لابن هشام: ۸۳۳/۳.

مثل هذا الوضع إلى الجنود أنفسهم، فأخذ الرايه «ثابت بن أرقم أخو بنى العجلان» وقال: يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطُلِحَ على «خالد بن الوليد»(۱) الّذى كان حديث عهد بالإسلام آنذاك.

ولقد كانت الساعه الّتى أُنيط فيها القياده إلى خالد ساعه خطيره وحسّاسه جدّاً، حيث قد تغلّب الخوف والرعب على المسلمين كافّه.

فعمد القائد الجديد إلى استخدام تكتيك عسكرى لم يعرف له مثيل، فقد أمر بالعسكر إذا جنّ الليل أن يحدث بعض التغييرات فى صفوفه من دون ضجيج فتنتقل الميسره إلى الميمنه، والميمنه إلى الميسره، وتتأخّر المقدّمه إلى مكان القلب، ويتقدّم القلب إلى موضع المقدّمه. ففعل المسلمون ذلك، واستمرّت هذه التغييرات حتّى طلوع الفجر.

كما أنّه أمر جماعه من المسلمين المقاتلين أن يخرجوا من الجيش ليلاً ويذهبوا إلى مكان بعيد فإذا أسفر الصبح التحقوا بالمسلمين سريعاً وهم يكبّرون حتّى يظن العدوّ وصول إمدادات عسكريه بشريه جديده إلى المقاتلين المسلمين، وقد تسبّب هذا التكتيك بنفسه فى أن يحجم الجيش الكافر عن مهاجمه المسلمين واستئصالهم، بعد أن قتل خيره قادتهم.

فلمّا كان الصبح ورأى العدو وجوهاً جديده، كما رأوا إمداد المسلمين بمجموعه عسكريه جديده قالوا: قَد جاءهم مدد. فرعبوا وانهزموا فقاتلهم المسلمون، وقتلوا منهم مقتله عظيمه، وقُتِل فى هذه الأثناء أحدُ الجنود المسلمين.

ثم ساد الموقف صمتٌ رهيبٌ، فاستفاد من هذا الصمت والأمن الّذى كان

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۳۴/۳.

يخيم على الجيش فرجعوا من حيث أتوا.

إنّ أكبر انتصار للمسلمين هو أنّ قوه قليله محدوده واجهت جيشاً عظيماً منظماً ثلاثه أيام، وبالتالى نجوا بأنفسهم، وكان تدبير القائد الجديد تدبيراً حكيماً خلّص المسلمين من موت محتم، فعادوا سالمين إلى المدينه، وكان هذا ممّا يشكَرون عليه، ويستحقون والثناء(۱).

الجنود يعودون إلى المدينه

وقبل أن يقدم جنود الإسلام من «مؤته» المدينه كانت قد وصلت إلى المسلمين أنباء انسحابهم وأنباء سيّئه عن وضع الجيش، من هنا ذهب المسلمون الى منطقه الجرف لاستقبالهم.

ومع أنّ عمل القائد الجديد كان تكتيكاً حكيماً، إلّاان مثل هذا الصنيع حيث إنّه كان يتنافى مع ما حقّقه المسلمون من أمجاد مشرقه وينافى مشاعرهم وبسالتهم الذاتيه والأصيله لذلك استقبلوهم بشعارات نابيه وانتقادات جارحه، وألقوا بالتراب والحجاره فى وجوه المقاتلين العائدين، وقالوا: يا فُرّار، أفررتم فى سبيل اللّه؟(۲)

وقد كانت رده فعل بعض المسلمين قويّه جداً إلى درجه أنّه اضطر بعض الشخصيات الّتى شاركت فى تلك المعركه إلى أن يقعد فى بيته، ولا يظهر فى الملأ، فكان الناس - إذا خرجوا - يشيرون إليهم بالأصابع ويقولون: ألا تقدّمت مع أصحابك؟(۳).

۱- . لاحظ: المغازى: ۷۶۳/۲-۷۶۴.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۳۶/۳.

۳- . لاحظ: المغازى: ۷۶۵/۲، إمتاع الأسماع: ۳۴۱/۱.

ولقد كانت ردّه فعل المسلمين تجاه عمليه انسحاب جنود الإسلام الذكيه، كاشفه عن روح الشهامه والجهاد الّتى أوجدها الإيمان باللّه والإيمان بيوم القيامه فى نفوسهم بحيث صاروا يعدّون القتل والشهاده فى سبيل اللّه، أفضل من الانسحاب والتأخّر.

أُسطوره بدل التاريخ الصحيح

حيث إنّ الإمام على بن أبى طالب عليه السلام قد اشتهر بين المسلمين بأسد اللّه، لذلك أراد البعض أن ينحتوا تجاه هذا القائد قائداً آخر، ويمنحونه لقب سيف اللّه، ولم يكن ذلك إلّاخالد بن الوليد من هنا قالوا: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لقّب خالد بن الوليد بعد رجوعه من معركه «مؤته» بسيف اللّه(۱). ولو أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم منح مثل هذا اللقب لخالد فى مناسبه أُخرى لما كان للبحث والنقاش مجال.

ولكنّ الأوضاع بعد معركه «مؤته» ما كانت توجب بل ولا تسمح بأن يعطيه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مثل هذا اللقب، فهل مَن يرأس فريقاً يُسمّيه المسلمون الفُرّار، ويحثون فى وجوههم التراب يحسن أن يُعطى فى مثل هذه المناسبه لقب سيف اللّه؟ أجل؛ لو أنّ خالداً كان مظهراً لسيف اللّه فى غزوات ومعارك أُخرى أمكن القبول بذلك، أمّا فى هذه المعركه فلم يكن مظهراً لسيف اللّه، ولم يصدر منه بعد تقليده إماره الجيش إلّاتكتيك عسكرى حكيم، ولما وصف هو ومن معه بالفراريين، خاصّه أنّ ابن سعد يكتب قائلاً: فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء، وانكشف الناسُ، فكانت الهزيمهُ فتبعهم المشركون فُقتِلَ من قُتِلَ من

۱- . لاحظ: صحيح البخارى: ۲۱۸/۴؛ باب مناقب خالد، و ج ۸۷/۵، باب غزوه مؤته؛ السيره الحلبيه: ۷۸۹/۲.

المسلمين(۱).

إنّ مختلقی هـذه الأُسـطوره أضافوا لتأكيـد مطلبهم هـذه الجمله أيضاً: قال خالـد: لقد اندقّ يومئذ (أی يوم مؤته) فی يدی سـبعه أسياف فما ثبت بيدی إلّا صفيحه يمانيه(۲).

إنّ مختلق هـذه الكـذبه غفل تماماً عن أنّ خالـداً وجنوده لو كانوا أبـدوا فی هـذه المعركه مثل هـذه البساله، ولو أنجزوا فی هذه الحرب مثل هذا العمل العظيم فلماذا سـمّاهم أهلُ المدينه بالفرّار؟! ولماذا حثوا التراب فی وجوههم؟! ولماذا وقع الناس فی خالد بعينه؟!(۳) إذ كان من اللازم فی هـذه الصوره أن يزرعوا طريقهم بالورود، ويقربوا بين أيديهم القرابين إبتهاجاً بعودتهم الضافره، وإعجاباً بعملهم الجبار!!

النبیّ يبكی بشده لمقتل جعفر

لقد بكی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم علی مقتل ابن عمه «جعفر» بشدّه، ولكی تعرف زوجته أسماء بنت عميس بمصرع زوجها دخل عليها، فقال لأسماء: إيتينی ببنی جعفر.

فجـاءت بهم إليه فضـمّهم وشـمّهم، ثم ذرفت عينـاه ثم بكی، فعرفت أسـماء بمصـرع زوجها فصاحت وبكتْ ثم خرج رسولُ اللّه صلی الله عليه و آله و سلم إلی أهله وقال:

«لا تغفلُوا آلَ جَعْفَر مِنْ أَن تَصْنَعوا لَهُمْ طَعاماً، فإنَّهُمْ قَد شُغِلوا بأمر صاحبهم» وكان كلّما تذكّر جعفراً وزيد بن حارثه بكی (۴).

۱- . الطبقات الكبری: ۱۲۹/۲، إمتاع الأسماع: ۳۴۱/۱.

۲- . أُسد الغابه: ۹۴/۲.

۳- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۷۹۳/۲ وغيره.

۴- . بحار الأنوار: ۵۴/۲۱؛ المغازی: ۷۶۶/۲، السيره الحلبيه: ۷۹۰/۲، إمتاع الأسماع: ۳۶۵/۱۳.

۴۹ غَزوهُ ذات السَلاسِل

اشاره

منـذُ أن هاجرَ رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم إلى المـدينه، وأصـبحت «المـدينه» مركز الإسـلام وقاعدته، وموضع تمركز المسـلمين وعاصـمتهم، ظلّ رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم يراقب أوضاع أعداء الإسلام، ويرصد تحرّكاتهم، ومؤامراتهم، وكـان يولى مسـأله تحصـيل المعلومـات المفصَّله عن المتـآمرين من المشـركين وغيرهم إهتمامـاً كبيراً، ويعمـد دائمـاً إلى اختيار أفضل العناصـر لإرسالهم - بمختلف الحجج - إلى نواحى مكّه، وبثّهم فى القبائل المشركه المختلفه لتجسّس أخبارهم، والتعرّف على نواياهم، وتدابيرهم.

ولقد اسـتطاع النبىُ صـلى الله عليه و آله و سـلم بفضل الاطّلاع المبكِّر والدقيق على المؤامرات الّتى كانت تحاك ضدَّه أن يُفشِّل الكثير من خططهم.

فقد كان صـلى الله عليه و آله و سـلم يباغت العدوّ، ويحاصـره قبل أن يتحرّك من مكانه، عن طريق المجموعات العسـكريه الّتى كـان يقودهـا بنفسه، أو الّتى كان يؤمِّر عليها أحـد أركان جيشه ويوجّهها صوب مكان تجمع العـدو، فيفرّقون جمعهم، ويشـتّتون شملهم، ويقضون على المؤامره فى مهدها، وبهذا كان الكيان الإسـلامى فى أمن من خطر الأعداء، وكان هذا العمل وهذا التدبير يجنّبُ الطرفين المزيد من إراقه الدماء

وإزهاق الأرواح.

إنَّ الاطّلاع المبكِّر على أسرار العدوّ العسكريه، ومعرفه حجم طاقاته، ومبلغ استعداداته، واكتشاف خططه، وتكتيكاته يُعدّ من العوامل الجوهريه، والمؤثّره فى الظفر والانتصار.

فلِلدّول الكبرى اليوم أجهزهٌ طويلهٌ وعريضهٌ، وتشكيلاتٌ واسعهٌ، ومعقَّدهٌ لإعداد وتخريج الجواسيس البارعين، وإرسالهم إلى النقاط والمراكز المطلوب اكتشاف أسرارها، والتعرّف على أوضاعها وخصوصياتها، وترصد هذه الدول ميزانيات ضخمه لهذا الغرض(۱).

وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أوّل مَن ابتكر فى تاريخ الإسلام هذا العمل فى صورته المنظَّمه، وتبعه فى ذلك الخلفاء الذين جاءُوا من بعده، وبخاصّه الإمام أميرالمؤمنين علّى بن أبى طالب الّذى كان يستعين بجواسيس وعيون كثيرين فى مجالات مختلفه، عسكريه، وإداريه.

فكان عليه السلام إذا نصبَ والياً على بلد، جعل عليه عيناً يراقب أعماله وتصرّفاته، ويخبر الإمام بها أوّلاً بأوّل، فكان الإمام يكتب إلى ذلك الوالى، ويوبّخه على تصرّفاته وانحرافاته إن بلغَهُ شيءٌ من ذلك(۲).

ولقد كلّفَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى السنه الثانيه ثمانيه رجال من المهاجرين، بالتوجّه تحت إمره «عبداللّه بن جحش» إلى موضع معيّن، والنزول فيه، للتعرّف

۱- . راجع: كتاب: المخابرات والعالم وغيره.

۲- . راجع: نهج البلاغه قسم الرسائل والكتب، رقم ۳۳ و ۴۵ وكتاب الغارات. هذا وقد بحثنا موضوع الاستخبارات والتجسّس فى النظام الإسلامى بصوره مسهبه فى موسوعتنا: مفاهيم القرآن: ۵۴۰/۲-۵۵۸. ويبحث هذا الجزء عن: معالم الحكومه وأركانها وبرامجها، فراجع.

على نشاطات قريش، ومؤامراتهم.

وقد كان عدم مفاجأه قريش للنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فى معركه «أُحد» وخروجه المبكِّر من المدينه بقواه، وجنوده، والنزول فى منطقه مناسبه عسكرياً خارجها، وحفره المبكِّر أيضاً للخندق المعروف فى شمال المدينه، والّذى منع العدو (جيش الاحزاب) من اقتحام المدينه المنوَّره، كلّ ذلك كان نابعاً من معرفه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المسبقه والدقيقه بأسرار العدوّ، ونواياه، وحجم قواته، وبالأَرض، وذلك عن طريق عيونه وجواسيسه الأذكياء اللبقين، اليقظين الذين كانوا يرصُدون - بدقّه وباستمرار - أوضاع العدوّ، وتحرّكاته، وينقلون معلوماتهم إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وبذلك كانوا يقومون بواجبهم الدينى فى مجال الحفاظ على عقيده التوحيد، وصيانتها من خطر السقوط.

إنّ هذا التدبير الذكىّ، والطريقه الحكيمه الّتى ابتكرها وأخذ بها رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم تُعتبر أكبر درس للمسلمين اليومَ، ودائماً.

ولهذا يتوجبُ على قاده المسلمين المخلصين أن يعرفوا بكلّ ما يُحاك - فى بلاد الإسلام أو فى غيرها من بلاد العالم - من مؤامرات ضدّ المسلمين، وما يدبَّر من خُطَط لتقويض دعائم الإسلام ويبادروا إلى إطفاء شرارات الفتن فى مهدها، وقبل اشتعالها، وأن يسلكوا نفس المسلك الّذى سلكه رسولُ الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم ليحصلوا على ذات النتيجه، ولا شكّ أنّ مثل هذا العمل لا يتيسَّر من دون أجهزه مناسبه، ومن دون تشكيلات خاصّه.

ولقد استطاع رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى غزوه: «ذات السلاسِل» الّذى هو موضوع بحثنا الآن، أن يطفئ نار الفتنه عن طريق استخدام المعلومات الدقيقه الّتى حصل عليها عن العدوّ.

ولو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أغلق على نفسه هذا الباب لتحمَّل خسائر لا تُجبَر، ولتعرّضت الكثير من جهوده المباركه فى سبيل نشر الدعوه الإسلاميه لخطر الفشل والإخفاق.

تفاصيل هذه الغزوه

لقد أبلغ العيون وعناصر المخابرات الإسلاميه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأنّ آلافاً من الناس قد تحالفوا وتعاقدوا فى ما بينهم فى منطقه تُدعى ب: «وادى اليابس» على التوجّه إلى المدينه المنوَّره للقضاء على الإسلام بكلّ ما لديهم من قوه، فإمّا أن يُقتَلوا فى هذا السبيل، أو يقتلوا «محمّداً» أو فارسه البطل الفاتح «على بن أبى طالب»!!

ويقول على بن إبراهيم فى تفسيره: «نزل جبرئيل على محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم وأخبره بقصّتهم، وما تعاقدوا عليه وتواثقوا»(۱).

غير أنَّ شيخَ الشيعه ومحقّقهم الكبير المرحوم «الشيخ المفيد» (المتوفّى عام ۴۱۳ ه) ذكر: بأنّ أَعرابياً جاء إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، وأخبره باجتماع قوم من العرب بوادى الرمل(۲) للتآمر عليه، وعلى الإسلام، (وأضاف) بأنّهم يعملون على أن يبيّتوه بالمدينه(۳).

ورأى رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يُطلِعَ المسلمين على هذا الأمر، فأمر مؤذنه بأن ينادى: الصلاه جامعه، وهى جمله كان يراد منها اجتماع الناس للصلاه واستماع أمر

۱- . تفسير القمّى: ۴۳۴/۲، تفسير سوره العاديات.

۲- . يحتمل أن يكون وادى الرمل هو وادى اليابس نفسه. وذلك للمناسبه بين الوصفين.

۳- . الإرشاد للمفيد: ۱۱۴/۱.

مهمّ وذی بال.

فعلا مؤذّن النبی صلی الله علیه و آله و سلم مکاناً مرتفعاً ونادی: الصلاه جامعه، فسارع المسلمون إلی الاجتماع فی مسجد النبی صلی الله علیه و آله و سلم ثم رقی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم المنبر وقال فی ما قال:

«أیّها الناس، إنَّ هذا عَدوَّ اللّه وعدوّکم قد عمل علی أن یبیِّتکم فمَنْ لهمْ؟».(۱)

فانتدب جماعه أنفسهم لهذا الأمر، وأمّر علیهم النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم أبابکر، فتوجّه أبوبکر بتلک المجموعه إلی قبیله «بنی سلیم»، ولمّا سار بهم مسافه واجه أرضاً خشنه وکانت قبیله «بنی سلیم» تسکن فی شعب واسع، فلمّا أراد المقاتلون المسلمون أن ینحدروا إلی الشعب عارضهم بنوسلیم وقاوموهم، فلم یر قائد المجموعه بُدّاً من الانسحاب بمجموعته والرجوع بهم من حیث أتی!!

یقول علی بن إبراهیم فی تفسیره: قالوا (أی بنی سلیم لأبی بکر): ما أقدمک علینا؟

قال: أمرَنی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن أعرض علیکم الإسلام فإن تدخُلوا فیما دخل فیه المسلمون لکمْ مالهمْ، وعلیکمْ ما علیهمْ، وإلّا فالحربُ بیننا وبینکم.(۲)

فهدّده زعماء تُلک القبیله - وهم یباهون بکثره رجالهم ومقاتلیهم - بقتله وقتل مَن معه، فأُرعبَ لتهدیدهم وعاد بجماعته إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم رغم أنّ أفراده کانوا یصرّون علی مقاتله بنی سلیم تنفیذاً لأوامر النبی صلی الله علیه و آله و سلم!!

ولقد أزعجتْ عودهُ الجیش الإسلامی بهذه الصوره المهینه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم،

۱- . بحار الأنوار: ۷۷/۲۱.

۲- . تفسیر القمی: ۴۳۵/۲.

فأمر عمر بن الخطاب أن يتولّى قياده تلك المجموعه ويتوجّه بها إلى «وادى اليابس»، ففعل عمر ذلك.

ولكنّ العدوَّ كان قد ازداد – هذه المره – يقظه وتحسّباً فكمن عناصره عند فم الوادى، واختبأوا وراء الأحجار والأشجار بحيث يرون المسلمين، ولا يراهم من المسلمين أحدٌ.

ولهذا خرجوا على المسلمين بغتةً عندما حلّ الجيش الإسلامى بذلك الوادى، وقابلوهم ببساله وشجاعه، فأمر قائد المجموعه الإسلاميه أفراده بالانسحاب، وعاد بهم إلى المدينه مهزوماً مذعوراً كسابقه، فلقى من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ما لقيه صاحبه من قبل من الاستياء، والكراهيه. وهنا قال عمرو بن العاص – وكان من دهاه العرب وساسته الماكرين، وقد كان يومئذ قريب عهد بالاسلام –: إبْعثنى يا رسول اللّه إليهم، فإنّ الحرب خدعه، فلعلّى أخدعُهم!

فأنفذه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مع جماعه ووصّاه فلمّا صار إلى الوادى خرج إليه بنو سليم فهزموه، وقتلوا من أصحابه جماعه![(١)]

الإمام علىٌّ ينتدَب لقياده العمليه

هذه الهزائم المتلاحقه أزعجت المسلمين وأحزنتهم بشدّه، فعمد رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى تنظيم مجموعه جديده واختار لقيادتها «علىَّ بن أبى طالب»، وأعطاه رايه.

وطلب علىٌّ عليه السلام من زوجته «فاطمه» بنت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن تأتى له

١- . بحار الأنوار: ٧٨/٢١.

بالعصابه الّتی کان یشدّها علی جبینه فی اللحظات الصعبه، فتعصَّب بها، فحزنت «فاطمه» لمنظر زوجها وهو یتوجّه بمثل هذه الصوره إلی «وادی الیابس» للقیام بأمر خطیر، وبکت إشفاقاً علیه، فسلّاها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهدّأها، ومسح الدموع عن عینیها(۱).

ثم إنّه صلی الله علیه و آله و سلم شیّع علیّاً حتّی بلغ معه مسجد الأحزاب، وعلیّ راکب علی فرسٍ أبلقٍ، وقد لبس بردین یمانیّین، وحمل رمحاً هندیاً بیده.

ثم توجّه علی علیه السلام بأفراده نحو الهدف، إلّاأنّه سلک طریقاً غیر الطریق المعروفه لیعمّی علی العدوّ، حتّی أنّ الذین خرجوا معه تصوّروا أنّه یقصد العراق، وقد قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی علی علیه السلام حینما وجّهه لهذه المهمّه:

«أرسلتُه کراراً غیر فرّار».(۲)

إنّ تخصیص «علیّ» علیه السلام بهذه الجمله یکشف عن أنّ القاده الذین سبقوه فی هذه الحادثه لم ینسحبوا فقط، بل کان انسحابهم مقروناً بالهزیمه القبیحه.

***

عوامل انتصار الإمام علیّ فی هذه الموقعه

هذا ویمکن أن نلخّص عوامل انتصار الإمام علیّ علیه السلام فی هذه الموقعه فی ثلاثه أُمور أساسیه هی:

۱. أنّه علیه السلام أخفی مسیره ووجهته علی العدوّ، فلم یشعر العدوّ بوجهته ومقصده، لأنّه غیّر مسیره حتّی لا یعرف العدو به بواسطه الأعراب من سکان

۱- . بحار الأنوار: ۸۱/۲۱؛ الإرشاد: ۱۱۵/۱.

۲- . إرشاد المفید: ۱۶۳/۱؛ بحار الأنوار: ۷۸/۲۱.

البادیه.

۲. أنّه علیه السلام اتّبع مَبدأً هامّاً من مبادئ العمل العسکری، واستخدم تکتیکاً مهمّاً من التکتیکات الحربیه وهو: مبدأ الکتمان والتستّر، فقد کان علیه السلام یسیر بأفراده لیلاً، ویکمن نهاراً، یستریح خلاله.

وهکذا حتّی دنا من أرض العدوّ، وقبل أن یصل فم الوادی أمر جنوده بالنزول والاستراحه لاستعاده نشاطهم من جهه، ولکی لا یحسّ العدوُ بمجیئهم من جهه أُخری.

ولهذا السبب الأخیر نفسه أمر علیه السلام جنوده بأن یکمُّوا أفواه خیولهم حتّی لا یشعر العدوُّ بوجودهم بصهیلها.

وعند الفجر صلّی «علیٌّ» علیه السلام بجنوده صلاه الصبح، ثم صعد بهم الجبَلَ حتّی وصل إلی القمّه، ثم انحدر بهم - بسرعه فائقه - إلی الوادی حیث یسکن «بنو سلیم» فأحاطُوا بهم وهم نیام، فلم یستیقظوا إلّاوقد حاصرهم المسلمون، فأسَرُوا منهم فریقاً، وفرَّ آخرون.

۳. شجاعه «علیّ» علیه السلام وبسالته النادره فهو الّذی قتل الشجعان الأربعه المعروفین فی تلک الموقعه فأُرعب العدو إرعاباً شدیداً فقد معه القدره علی المقاومه فی وجه علیّ علیه السلام، ففرّ تارکاً وراءه شیئاً کثیراً من الغنائم. ولقد عاد بطلُ الإسلام الضافر إلی المدینه بفتح لا سابق له، فخرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی جماعه من أصحابه لاستقباله، واستقبال مَن معه من جنود الإسلام.

وما أن وقعت عینا القائد الفاتح علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حتّی ترجّل من فرسه فوراً، فقال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهو یربت علی کتفه:

«إرکبْ فإنَّ اللّه ورسوله عنک راضیان».

وفی هذه اللحظه بالذات اغرورقت عینا «علیّ» علیه السلام بالدموع استبشاراً فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی شأن «علیّ» علیه السلام قولته المعروفه:

«یا علیّ لَولا أَنّی أُشفقُ أن تقولَ فیک طوائف مِنْ أُمّتی ما قالت النصاری فی المسیح لقلتُ فیک الیوم مقالاً لا تمرُّ بملأ من الناس إلّاأخذوا التراب من تحت قدمیک»(۱).

ولقد بلغت تضحیه «علیّ» علیه السلام وبسالته، وشجاعته فی هذه الواقعه من الأهمیه بحیث نزلت فیها سوره کامله هی سوره العادیات الّتی یقول سبحانه فیها:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ * وَ الْعادِیاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِیاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِیراتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً».(۲)

إنّ القَسم بخیول الغزاه المغیرین صبحاً، والمشعلین بحوافرها شرارات الفتح والانتصار، إنَّ هذا القسم الحماسیّ الجمیل لهو تکریمٌ رائعٌ لبطولات جنود الإسلام فی هذه العملیه الضافره، وإکبارٌ بروحهم القتالیه العالیه.

إعتراض وجواب

هذا ولقد اعترض بعض الملحدین ذات مرّه علی هذا النوع من الأیمان والأقسام فی القرآن الکریم وقال ساخراً: وماذا یعنی القَسم بالخیول الضابحه، العادیه، والشرارات المنقدحه من حوافرها؟!

ولقد غاب عن هذا الملحد أن القَسم بخیول الغزاه المجاهدین أو القسم بالشرارات المنقدحه من حوافرها بسبب احتکاکها بالصخور فی أرض المعرکه

۱- . الارشاد: ۱۶۵/۱.

۲- . لاحظ: تفسیر السوره فی: تفسیر فرات: ۵۹۱-۶۰۳؛ مجمع البیان: ۲۵۳/۱۰.

إنّما هو إشعارٌ بأهميه الجهاد ضدّ الظالمين أعداء البشريه.

إنّ مثل هؤلاء الجنود البواسل ليسوا وحدهم الذين يحظون - فى نظر الإسلام - بمنزله رفيعه ومكانه عاليه، بل خيولُهم الّتى تحملهم فى هذا الجهاد المقدَّس، وكذا الشرارات الّتى تنقدح من حوافرها تحظى بالقداسه والأهميه أيضاً.

وأيه قيمه - ترى - أعلى من محاربه الظالمين الجائرين، وإنقاذ البشريه من براثن ظلمهم وجورهم، ومن حيفهم وعسفهم؟؟

إنّ مثل هؤلاء وما يمكّنهم من أهدافهم من الأدوات، والوسائل مقدَّسون جميعاً، لأنّهم يحرّرون - بجهادهم - الإنسانَ من قيود الطغاه، الظالمين، ويمهّدون لحاكميه اللّه فى الأَرض، وأى هدف أعلى وأعظم قدسيه من هذا الهدف؟

ولقد دعا القرآن الكريمُ المؤمنين - من خلال تقديس خيول المجاهدين وضبحها وعدوها وشرارات حوافرها - إلى العنايه بالجهاد دائماً، وإلى تجميع قواهم، والاستعداد لكسر القيود الّتى ترزح على أيدى البشريه وأرجلها وعقولها، وإلى تحطيم القلاع الّتى ضربها الطغاه على الشعوب المغلوب على أمرها. أجل؛ إنّ فِرَقَ التحرير والجهاد الإسلاميه لا تستحقّ وحدها التقديس والاكبار بل تستحقّ خيولها ومراكبها، وشرارات حوافرها التقديس كذلك.

ولقد استبدلت تلك الخيول هذا اليوم بالدبّابات والطائرات فهى مقدّسه أيضاً، كما كانت خيول الغزاه والمجاهدين فى عصر الرساله، كما وأنّ أزيز محرّكاتها، هو الآخر يحظى بالتقديس كما كانت أنفاسُ الخيول تحظى بالتقديس فى عصر الرساله؛ لأنّها تحقّق ذات الهدف، ونفس الغايه المقدّسه وهى: تحرير الإنسان من براثن الظلم والطغيان.

هذا هو ملخّص غزوه «ذات السلاسل» الّتى سَجَّلها وضبَطها مفسّرو الشيعه،

ومؤرِّخوهم، ورَوَوها بأسناد صحيحه.

غير أنّ مؤرّخي أهل السنّه - كالطبرى -(۱) رووا هذه الواقعه بنحو آخر يختلف عمّا ذكرناه هنا، اختلافاً شاسعاً.

ولا يبعد أن يكون «ذات السلاسل» اسماً لغزوتين نقلَ كلّ واحد من الفريقين: «السنّه والشيعه» واحده منها، وأعرض عن ذكر الأُخرى لأسباب خاصّه.

۱- . المغازى: ۷۶۹/۲-۷۷۴؛ تاريخ الطبرى: ۳۱۵/۲، السيره الحلبيه: ۱۹۸/۳ و ۱۹۹.

۵۰ فَتحُ مَکّه

اشاره

قصّه «فتح مکّه» من قضایا التاریخ الإسلامی الجدیره بالمطالعه والتأمّل، لما تنطوی علیه هذه الحادثه من دروس وعبر، ولکونها تعکس - بصدق وجلاء - أهداف رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم المقدّسه، کما تکشفُ عن أخلاقه العالیه، وسیرته الحسنه، وأُسلوبه الإنسانی مع الصدیق، والعدوّ.

ففی هذا الفصل من التاریخ یتجلّی ما کان یتحلّی به خاتم الأنبیاء صلی الله علیه و آله و سلم من صدق ووفاء، کما یتبیّن صدقُ أصحابه، ووفاؤُهم، واحترامُهم لکلّ ماتعهّدوا، والتزموا به للخصم فی معاهده «صلح الحدیبیه»، بینما یتّضح من جانب آخر نفاقُ المشرکین من قریش، وخیانتهم فی تنفیذ بنود اتفاقیه الصلح، وبالتالی نقضهُم للعهد، وبالتالی عدم احترامهم لأیّشیء من الالتزامات!!

إنّ دراسه هذا الفصل تثبتُ لنا حنکه النبی، وحُسن تدبیره، وسیاسته الحکیمه فی فتح أصعب وآخر قلعه من قلاع العدوّ الکافر، المتصلّب فی شرکه، وکفره، والمتمادی فی عناده وتعسّفه، وکأنّ هذا الرجل الإلهیّ قد أمضی شطراً من حیاته فی إحدی المعاهد العسکریه العلیا، فهو یخطّط أفضل من أی قائد محنَّک قدیر، للفتح، ویکون تخطیطه من الدقّه والمتانه، والعمق والحکمه، بحیث یصیب

المسلمون فتحاً عظيماً بأقلّ قدر من المتاعب والمشاكل.

وبالتالى يتجلّى فى هـذا القسم من التاريخ الإسـلامى الوجهُ الإنسانىّ الرحيم الّذى كان يتّسمُ به رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم الّذى كان يحرصُ على دماء أعداء الرساله الألدّاء، وأموالهم، ويسعى إلى حفظها وصيانتها، كما لو كانوا أصدقاءً لا أعداء.

فهو يعفو بمروءه كبيره، وبُعـد مـدى واسع، ورؤيه مستقبليّه عميقه عن قريش، ويغفر لهم جرائمهم وأذاهم ويُصـدر عفواً عامّاً لم يعرف له تاريخ الفاتحين نظيراً فى أسبابه، وعلله، وفى ظروفه وملابساته.

وإليك تفاصيل هذه الحادثه الكبرى من بدايتها إلى نهايتها.

تفاصيلُ فتح مكّه

لقـد قرأنا فى ما مضـى أنَّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم عقـدَ فى السـنه السادسه معاهده صُـلح مع قريش، نصّت المادهُ الثـالثه منهـا على: أنَّ لِكـلّ من قريش والمسـلمين أن يتحـالفوا مع من شـاءُوا من القبائل. فتحالفتْ «خُزاعه» مع المسـلمين، وتعهّد رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم لخزاعه فى هـذا التحالف بأن يـدافع عن أرضـهم وأموالهم وأنفسـهم كلّما تعرّضوا لخطر، وطلبوا ذلك.

وتحالفت قبيله «بنى كنانه» - وكانوا من أعداء خزاعه التقليديين - مع قريش.

ولقـد تمّ كلُّ هـذا فى ضوء عقـد معاهده صـلح مدّتُها عشـرُ سـنوات تعهّد فيها الطرفان بالحفاظ على الأمن الاجتماعى، والسـلام الشامل فى كافّه أرجاء الجزيره العربيه.

ولقد تعهّد الطرفان - فى هذه المعاهده - بأن لا يقوم أىُّ واحد منهما بعمليات عسـكريه وتحرّكات عدائيه، لاضدّ الآخر، ولا ضدّ حليف الطرف الآخر،

كما لا يحرّك حليفه ضد حليف الطرف الآخر.

ولقد انقضَتْ سنتان من تاريخ التوقيع على هذه المعاهده، وعاش الجانبان فى هذه الفتره فى سلام ورفاه، وأمن واستقرار إلى درجه أنَّ المسلمين، استطاعوا بعد مضىّ سنه واحده من التوقيع على تلك المعاهده، أن يزوروا - بكامل حرّيتهم - بيت اللّه الحرام، فى مكّه المكرّمه، ويؤدّوا مناسك العمره أمام عُيون الآلاف من أعدائهم الوثنيين، وهى العمره الّتى سُمِيَت بعدئذ بعمره القضاء كما عرفت.

***

ولقد بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى شهر جمادى الأُولى من السنه الثامنه للهجره كتيبه قوامها ثلاثه آلاف مقاتل بقياده ثلاثه فرسان من أركان جيشه، إلى تخوم الشام وحدودها، لمعاقبه وتأديب المتمرّدين والجناه من ولاه الروم وعُمّالهم فيها، وبالضبط أُولئك الذين قتلوا دعاه الإسلام - الذين ابتعثهم صلى الله عليه و آله و سلم للدعوه والتبليغ - من دون ذنب أو جرم.

والجيشُ الإسلامى وإن استطاع أن ينجو بنفسه من هذه المعركه، ويخرج منها بسلام، من دون أن تكلِّفه تلك المواجههُ خسائر كبرى فى الأرواح سوى ثلاثه هم قاده الجيش - على ما مرّ فى قصّه غزوه مؤته - إلّاأنّه ما عاد بانتصار باهر كان يأمله جنودُ الإسلام المجاهدون، بل كانت العمليه فى هذا المعركه أشبه ما تكون بعمليه الكرّ والفرّ.

وقد أوجب انتشار هذا النبأ جرأه ساده قريش وسراتها، فقد تصوّروا أنّ المسلمين تضاءلت فيهم (أو انعدمت) روحُ الفروسيه والإقدام، وروح الشجاعه والبساله.

من هنا قرّرت قريش أن تخلّ بالأمن والهدوء اللّذين استتبّا بعد اتّفاقيه

الحديبيه، فبادرت - أوّلاً - إلى توزيع الأسلحه على قبيله «بنى بكر» من كنانه، وإلى تحريضهم على أن يبيّتوا «خزاعه» المتحالفين مع المسلمين، فيغيروا عليهم ليلاً، ويقتلوا فريقاً، ويأسروا آخرين!!

بل لم تكتف قريشٌ بهذا، إنّما اشترك جماعه من رجالها فى هذا العمل الغادر بصوره مباشره، وبذلك نقضوا عهدهم الّذى أعطوه فى الحديبيه، وأخلّوا عملياً بالأمن والسلام، وأحلُّوا الفوضى والقتال، مكان الاستقرار والهدوء اللّذين سادا الجزيره خلال عامين فى أعقاب عقد معاهده الحديبيه! أجل، لقد حملت «بنوبكر» ومَن ساعدهم من رجال قريش بتحريك من زعامه مكّه على «خزاعه» ليلاً، وكان بعضهم نياماً، والبعض الآخر يتهجّد ويعبد اللّه ليلاً، فقتلوا من خزاعه جماعه، وأسروا آخرين، وغادر - منهم - فريقٌ منازلهم تحت جنح الظلام، ولجأوا إلى مكّه الّتى كانت للعرب يومئذ منطقه أمن لا يجيزون الاعتداء فيها على لاجئ إليها، ودخل الذين لجأوا إلى الحرم دار «بُديل بن ورقاء»(۱) وشكوا إليه ما حلَّ بهم على أيدى رجال قريش، وحلفائهم من بنى كنانه ليلاً، من قتل وأسر وتشريد!!

كما وَعَدَ المظلومون من خزاعه إبلاغ مظلمتهم إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فأرسلوا رئيسهم: «عمرو بن سالم» فقدم المدينه على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فوقف عليه وهو صلى الله عليه و آله و سلم جالسٌ فى المسجد بين ظهرانيى الناس، وأخبره بما لحق بحلفائه من خزاعه على أيدى بنى بكر من كنانه بتحريك وتحريض من قريش، وأنشد أبياتاً يستغيث فيها برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إذ قال:

۱- . كان بُديل من شخصيات «خزاعه» من ذوى السن والشرف فيهم، وكان يعيش فى مكّه، وكان له من العمر آنذاك ۹۷ عاماً (أمالى الطوسى: ۲۳۹).

يا ربّ إنّى ناشدٌ محمَّداً حِلف أبينا وأبيه الاتلدا

فانْصُر هَداكَ اللّه نصراً أعتدا وادْعُ عبادَ اللّه يأتوا مَددا

فيهم رسولُ اللّه قد تجردا إنْ سيم خَسفاً وجهُهُ تربّدا

فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا

وَنَقَضُوا ميثاقَك المؤكَّدا وجعلوا لى فى كداء رصدا

هم بيّتونا بالوتير هُجّدا وقتلونا ركّعاً وسُجّداً

وقد كان «ابن سالم» يعيد البيت الأخير ويكرّرُه إثاره لمشاعر المسلمين، ويكرّر عباره: قُتِلْنا وقد أسلْمنا.

فانزعج رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من قريش لغدرها ونقضها للعهد، ووعد «خزاعه» بالنصره، وقال:

«نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم».(۱)

وقد أفاض هذا الوعد القاطع والقوىُ حاله من الطمأنينه على قلب مبعوث خزاعه: «عمرو بن سالم» إذ قد تيقّن أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سينتقم لخزاعه ممّن غَدَروها بها وبيّتوها، وفتكوا بأبنائها، وبخاصه من قريش الّتى حرّضت بنى بكر على خزاعه، وأشعلت شراره هذه الفتنه، وبالتالى كانت السبب الحقيقى وراء هذه الجريمه النكراء، ولكن ابن سالم ما كان يظن أنّ هذه المسأله ستنتهى بفتح مكّه، وتقويض دعائم الحكومه الوثنيه الجاهليه، والقضاء عليها إلى الأبد!!

ولم يلبث أن قدم المدينه على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم «بُديل بن ورقاء» فى جماعه من «خزاعه»، وأخبروه بما فعلته قريش وبنوبكر من قتل فتيان خزاعه، ثم عادوا

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۵۴/۴-۸۵۵.

قافلين إلى مكّه.(۱)

قريشُ تتوجّس خيفه من ردّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم

نـدمت قريش بشـدّه على ما صـنعتْ من تأليب بنى بكر على خزاعه ومساعدتهم العمليه فى العدوان على الأخيره، وأدركت للتوّ، بأنَّ هذا الّذى صـنعتهُ هو نقضٌ للعهد الّذى بينهم وبين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وأنَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سـلم لن يـدعَ هـذه الجريمه النكراء تمرُّ دون ردّ قاطع وحاسم، ولهـذا بادرت إلى إيفاد زعيمها «أبى سـفيان بن حرب بن أُميه» إلى المدينه المنوره لتطييب خاطر النبى صلى الله عليه و آله و سلم، وتسكين غضبه وتأكيد إحترام قريش لمعاهده الصلح.

فتوجّه أبو سفيان إلى المدينه، والتقى فى «عسفان» بديل بن ورقاء الخزاعىّ وهو عائدٌ من المدينه، فسأله: من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنّه قد أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

قال: تسيّرت فى خزاعه فى هذا الساحل، وفى بطن هذا الوادى.

قال: أو ما جئت محمداً؟

قال: لا. فلمّا راح بـديل إلى مكّه، قال أبو سـفيان: لئن كان جاء بـديل المدينه لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته، فأخذ من بعرها ففتّه، فرأى فيه النوى، فقال:

أحلف باللّه لقد جاء بديل محمّداً.(۲)

ثمّ خرج أبوسـفيان حتى قـدم على رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم، المـدينه فـدخل على ابنته «أُمّ حبيبه» زوجه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فلمّا ذهب ليجلس على فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۸۵۵/۴.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۵۵/۴.

طوته (أَمّ حبيبه) عنه، فقال: يا بنيّه ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنّى؟!

قالت: بل هو فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأنت رجلٌ مشركٌ نجسٌ، ولم أُحبُّ أن تجلس على فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.(۱)

وفى «إمتاع الأسماع»: ثم قام أبو سفيان فدخل على ابنته أُمّ حبيبه، فلمّا ذهب ليجلس على فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم طوته دونه وقالت: أنت امرُؤٌ نجس مشركٌ!

فقال: يا بنيه! لقد أصابك بعدى شرٌّ.

قالت: هدانى اللّه للإسلام، وأنت يا أبتى سيد قريش وكبيرُها، كيف يسقطُ عنك دخولُك للإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمعُ ولا يبصرُ!! قال: يا عجباه! وهذا منك أيضاً! أَأَترکُ ما كان يعبد آبائى، واتّبعُ دين محمّد؟!(۲)

أجل هذا هو منطق ابنه رجل حاك مؤامرات عديده وقاد جيوشاً ضد الإسلام طيله عشرين عاماً تقريباً، وكانت تربطه بأُمّ حبيبه رابطه الأُبوّه والبنوه الوثيقه، ولكن حيث إنّ تلك المرأه ترعرعت فى مهد الإسلام، ونشأت فى مدرسه التوحيد، حصلت لها مشاعر دينيه قويه جداً حتّى أنّها رجّحت المشاعر الدينيه على المشاعر العاطفيه الشخصيه، مقاومه فى هذا السبيل رغباتها الذاتيه، وميولها الشخصيه.

لقد أنزعج أبوسفيان من سلوك ابنته الّتى كان يتصوّر أنّها ملجأه وملاذُه الوحيد فى المدينه، فخرج من منزلها فوراً، حتّى أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فكلّمه حول

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۵۵/۴-۸۵۶.

۲- . إمتاع الأسماع: ۳۴۹/۱.

تجديد العهد، واستمراره، فلم يردّ عليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كنايه عن عدم اعتنائه به.

فذهب إلى بعض أصحابه صلى الله عليه و آله و سلم يطلب منهم أن يشفعوا له عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأن يُقنعوه بتجديد ميثاق الصلح، ولكن دون جدوى.

وأخيراً دخل على «على بن أبى طالب» وعنده فاطمه بنت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وعندها الحسن غلام يدب بين يديها، فقال: يا على، أنّك أمسُّ القوم بى رَحماً، وإنّى جئتُ فى حاجه فلا أرجعَنَّ كما جئتُ خائباً، فاشفعْ لى إلى رسول اللّه.

فقال علىّ عليه السلام: ويحكَ يا أبا سفيان، واللّه لقد عزم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على أمر ما نستطيع أن نكلّمَه فيه.

فالتفت إلى فاطمه - وهو يحاول إثارتها عاطفيّاً - فقال: يا بنت محمَّد هل لك أن تأمرى بُنَيّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

(ولمّا كانت فاطمه عليها السلام تعرف بنوايا أبى سفيان الشريره لذلك) قالت: واللّه ما بلغ بُنى ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فقال أبو سفيان: يا أبا الحسن إنّى أرى الأُمور قد اشتدت علىَّ، فانصحنى.

قال علىٌ عليه السلام: واللّه ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً، ولكنّك سيد بنى كنانه، فقم فأجر بين الناس (أى تعطى الأمان للمسلمين) ثم إلحق بأرضك.

فقال أبوسفيان: أوَترى ذلك مُغنياً عنّى شيئاً؟ قال: لا واللّه، ما أظنُّه، ولكنّى لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبوسفيان فى المسجد - وكان يثق بصدق علىّ فى نصيحته - فقال: أيّها الناس؛ إنّى قد أجرتُ بين الناس.(۱)

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۵۶/۴.

ثم ركب بعيره، وانْطلق راجعاً إلى مكّه، وأخبر ساده قريش بما صنع، وذكر نصيحه «علىّ» إيّاه، فقال: إنّ علياً نصحنى أن أَجير الناس، فناديت بالجوار. قالوا:

فهل أجاز ذلك محمَّد؟

قال: لا.

قالوا: ويلكَ واللّه إن زاد الرجلُ (ويقصدون علياً) على أن لعبَ بك، فما يغنى عنك ما قلت. لأنّ النبى لم يجز أمانه، وما لا يجيزه الطرفان لا قيمه له فى ميزان العهود. ثم إنّ ساده قريش عقدوا مجلساً من فورهم للتشاور فى ما يطفئ غضب المسلمين، ويثنى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن عزمه(۱).

جاسوسٌ يُكتَشف!

إنّ تاريخ رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم يكشف عن أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يسعى دائماً إلى أن يُقنِع العدوّ بالحقّ، ويجعله يستسلم لمنطق الدين، ولم يكن يهدف قط الانتقام من العدوّ وإبادته.

ففى الكثير من الغزوات والمعارك الّتى شارك فيها صلى الله عليه و آله و سلم بنفسه أو السرايا الّتى بعثها كان الهدف الأساسى هو القضاء على مؤامره العدو، وإفشالها، وتشتيت شمله، وتفريق اجتماعه قبل أن يقوم بعمل يضرّ بالإسلام والمسلمين، فقد كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم يعرف جيداً أنّه لو أُزيلت الموانع ورُفعت عن طريق الدعوه الإسلاميه لترك منطقُ الدين الحنيف أثره فى المجتمع الحرّ، وكان يعلم بأنّ الذين يعقدون

۱- . لاحظ: المغازى: ۷۸۰/۲-۷۹۴؛ السيره النبويه لابن هشام: ۸۵۴/۴-۸۵۷؛ بحار الأنوار: ۱۰۲/۲۱.

الاجتماعات، ويقيمون التحالفات العسكريه ليحولوا دون تقدّم الإسلام وانتشاره، لو جُرِّدوا من أسلحتهم، وأنهيت حاله الحرب بينهم وبين الإسلام وتركوا فكره التغلّب على الإسلام عن طريق القوه العسكريه، وسمعوا منطق الإسلام فى جوّ بعيد عن صخب القتال، لانجذبوا إلى عقيده التوحيد بدافع الفطره وهدايتها، ولاستجابوا لنداء الضمير، وصاروا من أنصار الإسلام ومؤيّديه المخلصين الأوفياء.

ولهذا السبب كانت الجماعات والأقوام الّتى يتغلّب عليهم جنود الإسلام ثم يتسنّى لهم مناخ التفكير الحرّ فى العقيده والتعاليم الإسلاميه الساميه فى جوّ بعيد عن الضوضاء والصخب، تنجذب إلى الإسلام وترغب فيه، وتعتنق بل تشمّر عن ساعد الجدّ لنشر العقيده الإسلاميه التوحيديه.

وقد تجلَّت هذه الحقيقه فى موضوعنا الراهن وهو فتح مكّه بصوره أكمل وأقوى، فقد كان رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يدرك جيّداً لو أنّه فُتِحَت مكّه، وجُرّد العدوُّ من السلاح ووُفّرت أجواءٌ حرّه آمنه بعيده عن الكبت والاضطهاد فإنّه لم يلبث أن يصبح هذا الفريق المعادى والمناهض للإسلام بشدّه، من أنصار هذا الدين، ومن المجاهدين الصادقين، الساعين فى نشره.

ولهذا يجبُ التغلّب على هذا العدوّ، وكسر شوكته، ولكن يجب عدم إفنائه وإبادته، بل ينبغى تجنب إراقه الدماء، وإزهاق الأرواح ما أمكن.

ولأجل الوصول إلى هذه الغايه المقدّسه (الغلبه على العدوّ من دون إراقه الدماء) استخدم رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أُسلوب مباغته العدوّ.

فقَبْل أن يفكّر العدوّ فى الدفاع عن نفسه، ويجمع قواه، ويستعدَّ للمواجهه، كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم يحاصر العدوّ فى أرضه، ويجرّده من سلاحه، ويجهض محاولته،

ومؤامرته.

على أنَّ مبـدأ «مبـاغته العـدو» إنّما يمكن الاسـتفاده منه إذا بقيت جميع الأسـرار العسـكريه للجانب المباغت طى الكتمان، وتمّت الترتيبات اللازمه فى سريه كامله، بحيث لم يعرف بها العدوُّ، بل لا يعرف العدو أساساً هل ينوى النبى صلى الله عليه و آله و سلم الهجوم عليه، أو لا، وعلى فرض أنّه ينوى ذلك لا يخبر أحداً شـيئاً عن موعد تحرك الجيش الإسلامى، ووجهته، إذ فى غير هذه الصوره لا يمكن الاسـتفاده من مبدأ «مباغته العدو». ولقد أعلن رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن التعبئه العامّه لفتح مكّه، وتحطيم أقوى قلعه من قلاـع الوثنيه وإزاله حكومه قريش الظـالمه الّتى كانت تمثّل أقوى مانع فى طريق تقـدّم الـدعوه الإسـلاميه وانتشارهـا وتوسّـعها، وقـد طلب من اللّه سـبحانه فى دعـائه أن يعمّى على عيـون قريش وجواسيسـهم فلاـ يعرفـوا شـيئاً عن حركه المسلمين ومقصدهم إذ قال: «اللّهم خُذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها فى بلادها»(۱).

أو قال: «اللّهم خُذْ عَلى قريش أبصارهم، فلا يَرونى إلّابغته، ولا يسمَعون بى إلّا فجأه».(۲)

فاجتمع فى مطلع شهر رمضان ناسٌ كثيرون من مختلف المناطق خارج المدينه، وداخلها.

ويذكر المؤرّخون جدولاً تفصيلياً بالطوائف والقبائل الّتى شاركت فى هذا الفتح العظيم، وإليك ما ذكروه:

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۵۷/۴.

۲- . المغازى: ۷۹۶/۲.

المهاجرون: سبعمائه مع ثلاثمائه من الخيل.

الأنصار: أربعه آلاف مع خمسمائه من الخيل، وألويه كثيره.

قبيله مزينه: ألف مع مائه فرس، ومائه درع، وثلاثه ألويه.

قبيله جهينه: ثمانمائه مع خمسين فرساً، وأربعه ألويه.

قبيله بنى كعب: خمسمائه مع ثلاثه ألويه.

وكانت بقيه الجيش من قبائل غفار، وأشجع، وبنى سليم(۱).

ويقول ابن هشام: كان جميع مَن شهد فتح مكّه من المسلمين عشره آلاف:

من بنى سليم سبعمائه، ويقول بعضهم: ألف، ومن بنى غفار أربعمائه، ومن أسلم أربعمائه، ومن مزينه ألف وثلاثمائه شخص، وسائرهم من قريش، والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم، وقيس وأسد(۲).

ولتحقيق مبدأ المباغته والكتمان وضِعَت جميع الطرق المؤدّيه إلى مكّه تحت المراقبه الشديده من قِبَل عناصر الحكومه الإسلاميه، كما روقب بشدّه تردّد الماره والمسافرين بواسطه الحرس(۳).

وبينما كان جيش الإسلام يتهيّأ للتحرّك باتجاه مكّه، نزل جبرئيل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأخبره بأنَّ أحدَ البسطاء من المسلمين أقدم على إرسال كتاب إلى قريش، يخبرهم فيه بتوجّه النبى وأصحابه إلى مكّه، وأنّه أعطى ذلك الكتاب إلى امرأه تُدعى «ساره» - وكانت مغنّيه من مغنيّات مكّه - لتوصله إلى مكّه لقاء مال تقبضه.

۱- . المغازى: ۸۰۰/۲؛ شرح نهج البلاغه: ۲۵۹/۱۷.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۷۷/۴.

۳- . لاحظ: بحار الأنوار: ۱۳۰/۲۱، إمتاع الأسماع: ۳۵۲/۱.

ولقد كانت «ساره» - كما أسلفنا - مغنّيه بمكّه، تغنّى لأهل مكّه، وربما شاركت فى مجالس العزاء فى قريش أيضاً، وقد تعطّل عملُها بعد معركه «بدر»، ومقتل جماعه من رجال قريش، ودخول الحزن فى كلّ بيوت مكّه، فلم تعدْ تستطيع أن تغنّى وتطرب، من ناحيه، ومن ناحيه أُخرى كان أبوسفيان قد أمر الناس بأن لا يبكوا، ولا يقيموا المآتم والمناحات على قتلى بدر حتّى لا يذهب غيضهم على «محمَّد» صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه الذين قَتلوا رجالاً من قريش فى بدر.

من هنا تركت «ساره» مكّه بعد عامين وقدمت المدينه، وعندما عرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمجيئها إلى المدينه سألها: هل أسلمت؟ فقالت: لا، فقال لها رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: ولِمَ أتيت إلى المدينه؟ فقالت: إنّى مولاتكم، وقد أصابنى جهدٌ، وأتيتكم أتعرّضُ لمعروفكم(۱). فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فكُسيَت وَ حُمِلَت وَ جُهّزَت.

ومع أنّ هذه المرأه قد شملها الإسلام بلطفه ورحمته ولكنّها خانت النبى والمسلمين عندما تطوّعت للقيام بعمليه جاسوسيه ضد الإسلام والمسلمين بأخذ كتاب «حاطب بن أبى بلتعه» وإخفائه فى شعر رأسها لتبلغه إلى قريش لقاء عشره دراهم، مفشيه بذلك سِرّاً للمسلمين، تضيع - على أثره - جهود النبى صلى الله عليه و آله و سلم وتفشل خطّته!!

ولمّا عرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بهذا الأمر إثر خبر من السماء بعث ثلاث رجال من فرسانه الأشاوس، هم: علىّ والمقداد والزبير، ليدركوا المرأه الخائنه، على طريق مكّه ويأخذوا منها ذلك الكتاب الّذى يحذّر قريشاً ممّا أجمع رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عليه.

۱- . بحار الأنوار: ۱۳۶/۲۱.

فخرج الرجال الثلاثه فی طلبها مجدّین حتّی أدرکوها فی منطقه تدعی «روضه خاخ»(۱) فاستنزلوها، وفتّشوا عن الکتاب فی رحلها فلم یجدوا شیئاً، فسألوها عنه فأنکرت، فقال لها علیٌ علیه السلام.

«إنی أحْلِفُ باللّه ما کذِبَ رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ولا کُذِبنا، ولتُخرجنّ لنا هذا الکتاب أو لنکشفنّک»(۲).

ولمّا رأت تلک المرأه هذا الجِدّ من علی علیه السلام وکانت تعرف أنّ علیّاً لا یترکها حتّی ینفّذ أمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قالت: إعرضْ، فأعرضَ علیٌّ، فحلّتْ ضفائر شعرها فاستخرجت الکتاب منها، فدفعته إلیه، فأتی به رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

فانزعج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لفعل «حاطب» وکان من المسلمین السابقین، فدعاه من فوره وقال له عاتباً ومستفهماً: یا حاطب ما حملک علی هذا؟

فحلف حاطب باللّه وبرسوله أنّه لم یقصد شرّاً، وقال: یا رسول اللّه، أما واللّه إنی لمؤمنٌ باللّه ورسوله، ما غیّرتُ ولا بَدّلتُ، ولکنّی کنت امرءاً لیس لی فی القوم من أصل ولا عشیره، وکان لی بین أظهرهم ولدٌ وأهلٌ، فصانعتهم علیهم!!

ویستفاد من اعتذار حاطب هذا أنّ أسیاد قریش کانوا یضغطون علی مَن تخلّف فی مکّه من أقارب المهاجرین وعوائلهم، ویؤذونهم، ولا یترکون أذاهم إلّا إذا حصلوا منهم علی أسرار المسلمین بالمدینه.

وهذا الاعتذار وإن کان غیر وجیه؛ لأنّ ذلک لا یبرّر إفشاء أسرار المسلمین لأعدائهم الحاقدین، غیر أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عفا عنه، وخلّی سبیله لمصالح معیّنه

۱- . وقال ابن هشام فی سیرته: فأدرکوها بالخلیقه (لاحظ: ج ۴/۸۵۸).

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۸۵۸/۴، وذکر ابن هشام شخصین فقط هما: الإمام علی والزبیر.

منها: سابقه «حاطب» فی الإسلام(۱).

ولکی لا یتکرّر مثل هذا العمل الخطر والأثیم أنزل اللّه سبحانه قرآناً بهذا الشأن فی عدّه آیات إذ یقول: بسم الله الرحمن الرحیم

«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّکُمْ أَوْلِیاءَ تُلْقُونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ وَ قَدْ کَفَرُوا بِما جاءَکُمْ مِنَ الْحَقِّ یُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِیّاکُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللّهِ رَبِّکُمْ إِنْ کُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِی سَبِیلِی وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِی تُسِرُّونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَیْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ یَفْعَلْهُ مِنْکُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِیلِ * إِنْ یَثْقَفُوکُمْ یَکُونُوا لَکُمْ أَعْداءً وَ یَبْسُطُوا إِلَیْکُمْ أَیْدِیَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَکْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَکُمْ أَرْحامُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَفْصِلُ بَیْنَکُمْ وَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ * قَدْ کانَتْ لَکُمْ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ فِی إِبْراهِیمَ وَ الَّذِینَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّا بُرَآؤُا مِنْکُمْ وَ مِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ کَفَرْنا بِکُمْ وَ بَدا بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمُ الْعَداوَهُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتّی تُؤْمِنُوا بِاللّهِ وَحْدَهُ إِلاّ قَوْلَ إِبْراهِیمَ لِأَبِیهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَکَ وَ ما أَمْلِکُ لَکَ مِنَ اللّهِ مِنْ شَیْ ءٍ رَبَّنا عَلَیْکَ تَوَکَّلْنا وَ إِلَیْکَ أَنَبْنا وَ إِلَیْکَ الْمَصِیرُ * رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَهً لِلَّذِینَ کَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ * لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِیهِمْ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ لِمَنْ کانَ یَرْجُوا اللّهَ وَ الْیَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ یَتَوَلَّ فَإِنَّ اللّهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ * عَسَی اللّهُ أَنْ یَجْعَلَ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَ الَّذِینَ عادَیْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّهً وَ اللّهُ قَدِیرٌ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ * لا یَنْهاکُمُ اللّهُ عَنِ الَّذِینَ لَمْ یُقاتِلُوکُمْ فِی الدِّینِ وَ لَمْ یُخْرِجُوکُمْ مِنْ دِیارِکُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَیْهِمْ إِنَّ اللّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ * إِنَّما یَنْهاکُمُ اللّهُ عَنِ الَّذِینَ قاتَلُوکُمْ فِی الدِّینِ وَ أَخْرَجُوکُمْ مِنْ دِیارِکُمْ

۱- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۳۷۶/۱۳ وغیره.

وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكَمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ» .(۱)

النبی صلی الله علیه و آله و سلم یتحرّک باتجاه مکّه

أخذاً بمبدأ «المباغته» کتم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم موعد الحرکه، ووجهتها، فلم یکن أحدٌ یعرف أین یرید رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی وجه التحدید(۲).

وفی الیوم العاشر من شهر رمضان من السنه الثامنه أصدر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أوامره بالخروج، وکان قد أصدر أوامره للمسلمین کافّه من قبل بالاستعداد والتهیّؤ للخروج.

ثم إنّه استخلف علی المدینه رجلاً من بنی غفار یُدعی «أبارهم» ثم استعرض جیشه خارج المدینه علی عادته.

ثم لمّا کان صلی الله علیه و آله و سلم بمکان یُدعی «الکدید» طلب شیئاً من الماء أمام المسلمین، وأفطر به فی تلک الساعه من النهار، وأمر الجند بأن یفطروا اقتداء به أیضاً.

فأفطر أکثر المسلمین، وأمسک البعض ولم یفطر ظنّاً بأنّ الجهاد فی حاله الصوم أفضل، وأکبر أجراً، ولم یعرف هؤلاء السذّج غیر المفطرین، بأنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم الّذی أمر بالإفطار فی شهر رمضان فی تلک الحال، هونفسه الّذی أمر بالصوم أیضاً.

فإذا کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قائد حقّ ودلیل سعاده فإنّه - فی کلتا الحالتین - یرید

۱- . الممتحنه: ۱-۹، راجع السیره النبویه لابن هشام: ۸۵۸/۴-۸۵۹؛ مجمع البیان: ۴۴۶/۹.

۲- . المغازی: ۸۰۲/۲، إمتاع الأسماع: ۳۵۲/۱، قال: وأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الناس بالجهاز وطوی عنهم الوجه الّذی یرید،.. فظانّ یظنُّ أنه یرید الشام، وظان یظنُّ ثقیفاً، وظان یظن هوازن.

سعاده الناس، وينشد خيرهم، فلا معنى إذن لأن يطاع فى أمره، ولا يطاع فى نهيه.

ولهذا غضب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لامتناع ثلّه من المسلمين عن الإفطار كما أمر وقال عنهم: «أُولئك العصاه»!!(۱).

وأمرهم بأن يفطروا قائلًا: «إنّكم مُصبحو عدوّكم، والفطرُ أقوى لكم».

إنّ مِثل هذا التقدّم على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتجاهل أمره ما هو فى الحقيقه إلّا نوع من الانحراف عن الحقّ، وهو يكشف عن ضعف فى إيمان الجماعه العاصيه، المتمرّده عن أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

ولهذا نزل فيه قرآنٌ يلومهم، ويوبِّخهمْ على عصيانهم إذ قال سبحانه:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» .(۲)

هذا وقد كان «العباسُ بن عبدالمطلب» من المسلمين الذين بَقَوا، فى مكّه بأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليتجسّس له الأخبار، ويطلعَه على نوايا قريش، وخططهم أوّلاً بأوّل.

وقد تظاهر العباسُ - بعد فتح خيبر - بإسلامه، ولكنّه بقى محافظاً على علاقاته بساده قريش وزعمائها، فقرّر أخيراً أن يكون آخر من يهاجر من بيوت المسلمين، فغادر مكّه متوجّهاً إلى المدينه، وصادف خروجُه مسير رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى مكّه، فالتقى ببعض الطريق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ولقد كان بقاء العباس بن عبدالمطلب فى مكّه بعد هجره رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم

۱- . المغازى: ۸۰۲/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۵۵/۱؛ السيره الحلبيه: ۱۵/۳.

۲- . الحجرات: ۱.

مفيداً للجانبين: (قريش والمسلمين) فلو لم يكن العباس، ونشاطاته السياسيه الذكيه، لما تيسّر فتح مكّه من دون مقاومه قريش، ومن دون إراقه دماء وإزهاق نفوس.

من هنا لا يبعد أن يكون خروج العباس من مكّه فى تلك اللحظات والظروف الخطيره قد كان هو الآخر بأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لكى يستطيع القيام بدوره الإصلاحى، الّذى سنأتى على ذكره قريباً.

العفو عند المقدره

لقد كانت سوابق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المشرّفه، وأخلاقه الحميده، وصدقه وأمانته، طوال حياته من الأُمور الواضحه المعلومه عند أقربائه، وأبناء عشيرته.

فقد كان الجميع يعلم بأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يرتكب طيله حياته الشريفه إثماً، ولم يفكّر فى ذنب، ولم ينو الاعتداء على أحد، ولم يقُلْ بلسانه سوءاً ولا قبيحاً، ولا خان فى أمانه، ولا أفشى سرّاً ولا تخلّف عن فضيله.

ولهذا استجاب لدعوته - فى الأيّام الأُولى من دعوته العامّه - الأكثريه الساحقه من قبيلته (بنى هاشم)، والتفُّوا حولَه، وتحمّلوا الدفاع عنه، ودعم مواقفه.

ولقد أشار أحد المستشرقين المنصفين إلى هذه الحقيقه، واعتبرها دليلاً على طهاره رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وصدقه ونزاهته، فهو يقول: مهما كان المرء متكتّماً متستراً على أعماله وأفكاره، فإنّه لا يستطيع بحال أن يخفى تفاصيل حياته عن ذويه وأقربائه، ولو كان لمحمد حالات نفسيه أو أفعال سيّئه لما خفيت على أقربائه، ولما

كانوا ينقادون إليه بمثل هذه السرعه(۱).

نعم يُستثنى من بنى هاشم عدّه أشخاص أحجموا عن الإيمان برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والاستجابه لدعوته، ويمكن الإشاره - فى هذا المجال - بعد أبى لهب المعروف بل والمصرّح بعداوته فى القرآن، إلى «أبى سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب» و «عبداللّه بن أبى أُميّه بن المغيره» اللّذين خاصما رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وعارضا دعوته بشدّه، ولم يكتفيا بعدم الإيمان برسالته، بل منعا من انتشار الحقّ، وآذيا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أشدّ الأذى وألّبا عليه أكثر من أىّ شخص آخر.

ولقد كان أبوسفيان هذا ابنَ عمّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم و أخاه من الرضاعه، وكان يألف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قبل البعثه، ولكنّه اختلف مع النبى بعد ابتعاثه بالرساله، وبنى على مخالفته ومعاداته(۲).

وأمّا عبداللّه بن أبى أُميّه فهو أخو أُمّ سلمه ابنه عاتكه عمّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وابنه عبدالمطلب.

ولقد حدا انتشار الإسلام فى كلّ أنحاء الجزيره العربيه بهذين الرجلين إلى أن يخرجا من مكّه ويلتحقا بالمسلمين.

فقد خرجا قُبيل الفتح من مكّه، فلقيا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه فى أثناء الطريق، وعلى وجه التحديد فى نقطه تُدعى بثنيّه العقاب، والنبى قاصد مكّه، فاستأذنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليدخلا عليه، وأصرّا على ذلك، فأبى النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم أن يأذن لهما.

وقد وسّطا أُمّ سلمه، وطلبا منها بلهجه عاطفيه أن تشفع لهما عند رسول

۱- . راجع كتاب: «الأبطال»: ل: توماس كارليل الانجليزى، وقد ترجمه إلى العربيه محمد أفندى السباعى المصرى.
۲- . لاحظ: المغازى: ۸۰۶/۲ و ۸۰۷.

اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حتّى يرضى عنهما، فكلّمته، فيهما، ولكن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أبى وقال:

«لا حاجَه لى بهما، أمّا ابن عمىّ فهتَك عِرضى، وأمّا ابنُ عمّتى وصهرى فهُو الّذى قال بمكّه ما قال»(۱).

ولمّا كان «علىّ» عليه السلام أعرف الناس بنفسيّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأخلاقه، وبطريقه استعطافه، فقد كلّمه أبوسفيان فى الأمر، فعلّمه على بن أبى طالب عليه السلام أن يأتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من قِبَل وجهه فيقول:

«قالُوا تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنّا لَخاطِئِينَ» .(۲)

فإنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سيجيبه بما قاله يوسف لإخوته إذ قال لهم:

«قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ» .(۳)

لأنّه صلى الله عليه و آله و سلم لا يرضى بأن يتفوّق عليه أحدٌ فى حسن القول.

ففعل أبوسفيان هذا ما أشار عليه الإمام على عليه السلام ودخل من الطريق الّذى بيّنه له، فعفا عنه رسولُ اللّه كما فعل يوسف بإخوته، فأنشد أبوسفيان قصيده أراد بها أن يُكفِّر عمّا سبق منه، قال فيها:

لعمركَ إنّى يومَ أحمل رايه لِتَغْلِبَ خيلُ اللّات خيلَ محمَّد

فكالمُدلج الحيران أظلم ليلُه فهذا أوانى حين أُهدى فأَهتدى(۴)

ويكتب الواقدى فى مغازيه قائلًا: قال أبوسفيان ومعه ابنه، لمّا أعرض رسول

۱- . فهو ممّن اقترح على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمكّه أُموراً غير معقوله، وقد جاء ذكر هذه المقترحات فى الآيات: ۹۰-۹۳ من سوره الإسراء. راجع: مجمع البيان: ۴۳۹/۶؛ وأُسد الغابه: ۲۱۳/۵ و ۲۱۴.

۲- . يوسف: ۹۱.

۳- . يوسف: ۹۲.

۴- . الإصابه: ۱۵۲/۷؛ أُسد الغابه: ۲۱۴/۵؛ السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۰/۴.

اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عنه وأبى أن يأذن له: واللّه لَيقبلُنّى، أو لأخذتُ بيد ابنى هذا فلأذهبنَّ فى الأرض حتّى أهلك عطَشاً وجوعاً وأنت أحلمُ وأكرم الناس مع رحمى بك(۱).

وقد سبق أن قالت أُمّ سلمه لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقد كلّمته فى أبى سفيان: بأبى أنت وَ أُمّى يا رسول اللّه ألَمْ تقلْ: إنَّ الإسلام يجبُّ ما كان قبله؟ فقبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إسلامه(۲).

تكتيكٌ رائع لجيش الإسلام

تقع «مُرّ الظهران» على بُعد عدّه كيلومترات من مكّه المكرمه، وقد قاد رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جيشه العظيم (وقوامه عشره آلاف) حتّى مشارف مكّه بمهاره بالغه.

ومع أنَّ عيون قريش وجواسيسها كانت تتجسَّسُ الأخبار وكان هناك من يعمل لصالح قريش، ولكنّهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يعرفوا شيئاً عن نوايا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهدفه.

ولمّا وَصل رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى مشارف مكّه، عمد - لإرعاب أهل مكّه حتّى يتركوا مقاومه المسلمين عند دخول مكّه وفتحها، ويتسنّى لهم تحطيمُ صرح الوثنيه من دون إراقه الدماء - إلى إصدار أمر لجنوده بإشعال النيران فوق الجبال والتلال، وللمزيد من تخويف سكان مكّه والإظهار بمظهر القوه أمر بأن يُشعِلَ كلُّ واحدٍ من الجنود النار وحده، فى شريط طويل على الأَرض.

كانت قريش وحلفاؤها يغطّون فى نوم عميق آنذاك من جهه، بينما كانت النيران من جهه أُخرى قد غطَّت كلّ المرتفعات المشرفه على مكّه، فلم تستيقظ إلّا

۱- . المغازى: ۸۱۱/۲.

۲- . بحار الأنوار: ۱۱۴/۲۱ و ۱۱۵.

على منظر أرعب قلوبهم، ولفت أنظارهم.

وفى هـذه الأثنـاء كـان بعض ساده قريش كـ: «أبى سـفيان بن حرب» و «حكيم بن حزام» وغيرهما قـد خرجا من مكّه يتجسَّسون الأخبار.

ففكَّر «العباس بن عبدالمطلب» الّذى لازم رسولَ اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم من منطقه الجحفه، فكّر فى نفسه بأنّه إذا ما اتّفق أن واجه جنودُ الإسـلام مقاومه من قريش عند دخول مكّه لأدّى ذلك إلى أن يُقتَل جمعٌ كبيرٌ من قريش، ولهذا فإنّ من الأفضل أن يقوم بدور عمليٍّ لصالح الطرفين، ويقنع قريشاً بالتسليم، وعدم المقاومه.

فركب بغله رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم البيضاء وتوَجّه صوب مكّه ليخبر قريشاً بمحاصـره مكّه من قِبَل جنود الإسلام، ويخبرهم بكثره عددهم، وبمبلغ شجاعتهم وإصرارهم على تحقيق أهداف النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم ويقنعهم بأنّه لا مناص من التسليم للأمر الواقع.

فبينما هو كـذلك إذ سـمع صوت أبى سـفيان وبُديل بن ورقاء يتحادثان فى جوف الليل فيقول أبو سـفيان: ما رأيتُ كالليله نيراناً قط ولا عسكراً، فيقول بديل:

هذه واللّه خزاعه حمشتها الحرب.

فيقول أبو سفيان: خزاعه أذلُّ وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

فصـاح العبـاسُ بـأبى سـفيان وقـال: يا أبا حنظله. فعرف صوتى فقال (أبو سـفيان): أبوالفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك فـداك أبى وأُمّى؟

فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان هذا رسولُ اللّه فى الناس، واصباح قريش واللّه.

فارتعـد أبوسـفيان لما سـمعه من العباس حول عظمه القوه الإسـلاميه، فقال وهو يرتجفُ، وتصـطكُّ أسـنانه من الفزع، فما الحيله فداك أبى وأُمّى؟!

فقال العباس:... إرکبْ فی عَجُز هذه البغله حتّی آتی بک رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فاستأمنْهُ لک.

فرکب أبوسفیان خلف العباس، ورجع صاحباه (حکیم وبدیل) إلی مکّه.(۱)

ولقد کان مسعی العباس - کماتری - فی مصلحه الإسلام کلّه، فقد أرعب شیطان قریش، وزعیمها وعقلها المدبّر أبا سفیان، وکان موفقاً فی هذه الخطوه جداً بحیث لم یعد یفکّر أبو سفیان إلّافی التسلیم، وإلقاء السلاح والکفّ عن المقاومه، بل ومَنَعَه العباسُ من العوده إلی مکّه، فی نفس اللیله (لیله فتح مکّه) وأخذه معه إلی معسکر المسلمین بُغیه تقییده، ومنعه من العوده إلی مکّه، إذ کان من المحتمل جداً أن یقع فریسه أفکار المتطرّفین فی الزعامه المکّیه فیدبّرون معاً خطه لمواجهه جیوش الإسلام فیقع - حینئذ - ما لا یُحمد عقباه، من سفک الدماء، وذهاب الأنفس والأرواح.

العباس یصطحب أبا سفیان إلی خیمه النبی صلی الله علیه و آله و سلم

دخل العباسُ - وهو علی بغله بیضاء وقد أردف خلفه أباسفیان - فی معسکر المسلمین، وهو یقصد خیمه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من خلال نیران المسلمین الّتی أمر النبی صلی الله علیه و آله و سلم بإشعالها، وکان کلّما مرَّ بنار من نیرانهم قالوا: عمُّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فلا یمنعون من مروره، حتّی إذا لقیا عمر بن الخطاب فی الأثناء ورأی عمر أبا سفیان خلف العباس علی عجز البغله همَّ بقتله فی المکان، ولکن عمّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم أجار أبا سفیان فی الحال، ومنع بذلک عمر من إلحاق الأذی به، وهو فی جواره.

وأخیراً وصل العباسُ برفقه أبی سفیان إلی خیمه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فترجّلاً،

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۸۶۱/۴؛ السیره الحلبیه: ۱۶/۳.

فاستأذن العباسُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم للدخول مع أبى سفيان عليه فأذن لهما، فوقعت مشادةٌ كلاميةٌ شديدةٌ بين العباس وعمر بين يدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حول أبى سفيان، وكان عمر يقول: أبوسفيان عدوُّ اللّه فلابد أن يُقتَل، ولكن العباس كان يقول:

يا رسول اللّه إنّى قد أجرته، فقطع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم دابر هذه المناقشه عندما قال:

«إذهبْ به يا عَبّاس إلى رَحلك، فاذا أصبحتَ فَأْتِنى به».

فذهب العباسُ بأبى سفيان إلى رحله، فبات عنده ليلتَه كما أمر، فلمّا أصبح غدا به إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.(۱)

أبوسفيان بين يدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم

لمّا مثل أبوسفيان عند الصباح بين يدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى خيمته قال له النبى صلى الله عليه و آله و سلم:

«ويحَك يا أبا سفيان؛ ألم يأن لكَ أن تعلم أنّه لا اله إلّااللّه؟».

قال أبوسفيان: بأبى أنت وأُمّى ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلَك، واللّه لقد ظننتُ أن لو كان مع اللّه آله غيره، لقد أغنى عنّى شيئاً بعد.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أنْ تعلمَ أنّى رسول اللّه»؟

قال: بأبى أنت وأُمّى ماأحلمك، وأكرمك، وأوصلك، أما هذه واللّه فإنَّ فى النفس منها حتّى الآن شيئاً!!

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۲/۴؛ السيره الحلبيه: ۱۷/۳.

فقال له العباس: ويحك، أسلِمْ واشهْد أن لا إله الّا اللّه، وأنّ محمَّداً رسولُ اللّه قَبلَ أنْ تُضرَبَ عنقُك.

فشهد أبوسفيان شهاده الحقّ، فأسلَم.(۱)

إنّ إسلام أبی سفيان الّذی حصل فی جوٍّ من الرعب والتهديد وإن لم يكن بالإسلام الّذی كان يريده رسولُ الإسلام صلی الله عليه و آله و سلم ويطلبُه دينُه الحنيفُ، ولكنَّ مصالح معيَّنه كانت توجب أن يدخل أبو سفيان فی عداد المسلمين كيفما كان ليرتفع بذلك أكبر سدّ، وينزاح أكبر مانع من طريق الدعوه الإسلاميه، لأنَّ رجالاً مثل «أبی سفيان» و «أبی جهل» و «عكرمه» و «صفوان بن أُميّه» وغيرهم، كانوا قد أوجدوا جوّاً من الرعب والخوف فی مكّه استمرَّ أعواماً عديده، فلم يكن يجرؤ أحدٌ من المكّيين فی مثل هذا الجوّ المشحون بالخوف أن يفكّر فی الإسلام، أو يظهر رغبته فی اعتناقه، والانضواء تحت لوائه.

فإذا لم يكن إسلام أبی سفيان الظاهریّ والسطحیّ مفيداً من حيث الواقع، ولكنّه كان مفيداً جداً لرسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم، وللّذين كانوا تحت سيطره أبی سفيان ونفوذ زعامته من جماهير مكّه، وبالتالی لِمن كانت له علاقات قُربی معه.

ومع ذلك لم يسمحْ رسولُ اللّه صلی الله عليه و آله و سلم بإخلاء سبيل أبی سفيان؛ لأنّه لم يكن آمناً - وحتّی مع إظهاره الإسلام - من جانبه قبل أن يتمَّ فتح مكّه، ولهذا أمر صلی الله عليه و آله و سلم عمَّه العباس بأن يحبسه بمضيق الوادی عند ممرّ الجنود ليُبصر عظمه القوات الإسلاميه وكثافتها قائلاً:

«يا عبّاس احبسه بمضيق الوادی عند خَطم الجبَل (أی انفه) حتّی تمرَّ به

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۲/۴؛ السيره الحلبيه: ۱۸/۳.

جنودُ اللّه فَيراها».(۱)

ثم إنّ العباس. قال لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: يا رسول اللّه إنَّ أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً.

واستجاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لهذا الطلب، ومع أنّ أبا سفيان كان قد عادى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وألّب ضدَّه طيله عشرين عاماً، وأثار فى وجه دعوته الحروب والفتن الكثيره، ووجّه بذلك ضربات كثيره إلى الإسلام والمسلمين، فمنحه - رغم ذلك ولمصالح خاصّه - مقاماً، وقال كلمته التاريخيه فى حقّه... تلك الكلمهُ الّتى تكشف عن عظمه أخلاق رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم وسمو روحه، وعمق حكمته إذ قال:

«مَنْ دخَل دارَ أبى سفيان فهو آمِن.

و مَنْ أغْلقَ عليه بابَه فهوَ آمِن.

ومَنْ دخل المسجد فهو آمن.

ومَنْ طرَحَ السلاح فهو آمن»(۲).

***

مكّه تستسلم من دون إراقه دماء

تقدَّم جيشُ التوحيد العظيم نحو مكّه، حتّى أصبح على مقربه منها.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۳/۴؛ البدايه والنهايه: ۳۳۲/۴.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۴/۴. ولاحظ الخبر عن فتح مكه فى: مجمع البيان: ۴۶۸/۱۰-۴۷۳؛ المغازى: ۸۱۶/۲-۸۱۸، شرح نهج البلاغه الحديدى: ۲۶۸/۱۷؛ تاريخ الطبرى ۳۲۳/۲؛ الكامل فى التاريخ: ۲۳۹/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۵۴/۱.

وقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عازماً على أن يفتح مكّه من دون إراقه دماء، وإزهاق أرواح، وأن يسلّم العدوّ من دون أيّه شروط.

وكـان من العوامل الّتى ساعَـدتْ على تحقيق هـذه الغايه - مضافاً إلى عامل التكتم والتستُّر ومبـدأ المباغته - أنّ العباس عمّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم توجّه إلى مكّه كداعيه صلح ووسيط سلام بن قريش والنبى صلى الله عليه و آله و سلم، فكان أن أتى بأبى سـفيان إلى معسـكر الإسلام كما أسلفنا، وبذلك توصّل إلى تحييد أبى سفيان، ولم يكن فى مقدور ساده قريش أن يتّخذوا قراراً حاسماً من دون أبى سفيان.

وعندما خضع أبو سـفيان أمام عظمه رسول الإسـلام الفريده وأظهر الإسلام رأى رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يستفيد منه لإرعـاب المشـركين أكـثر قـدر ممكن، فـأمر العبـاس بـأن يحبسه عنـد مضـيق الجبـل ليرى بـأُمّ عينيه حشـود المجاهـدين من المسـلمين - كما أسـلفنا - فى وضـح النهار مع كامل عـدّتهم وأسـلحتهم، ونظامهم وقوتهم، فيخبر قريشاً بـذلك، فيزيدهم خوفاً ورهبه، فينصرفُوا عن فكره مقاومه الجيش الإسلامى عند دخوله إلى مكّه.

وفعل العباس ما أمره الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم فحبس أبا سفيان حيث أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

فمرّت القبائل مع راياتها أمام أبى سفيان، وكانت بعض قطعات الجيش الإسلامى على النحو التالى:

١. كـتيبهٌ قوامُهـا ألفُ مقاتـل من بنى سـليم بقيـاده خالـد بن الوليـد، وفيهـا لواءان، أحـدُهما مع «عبـاس بن مرداس»، والآـخر مع «المقداد».

٢. فوجـان قوامُهمـا خمسـمائه مقاتـل بقيـاده «الزبير بن العوام» الّـذى كان يحمل معه لواءً أسود، وكان أكثر أفراد هـذا الفوج من المهاجرين.

۳. فوجٌ قوامُه ثلاثمائه مقاتل من بنی غفار بقیاده «أبی ذر الغفاری» وکان لواؤُه معه.

۴. فوجٌ قوامه أربعمائه مقاتل من بنی سلیم بقیاده «یزید بن الخصیب» ومعه لواؤه.

۵. فوجان قوامُهما خمسمائه مقاتل من بنی کعب بقیاده «بشر بن سفیان» ورایته معه.

۶. کتیبهٌ قوامُها ألف مقاتل من بنی مزینه، فیها ثلاثه أُلویه، لواء مع النعمان بن مقرن، ولواء مع بلال بن الحارث، ولواء مع عبداللّه بن عمر.

۷. کتیبهٌ قوامُها ثمانمائه مقاتل من جهینه، فیها أربعه ألویه، لواء مع «معبد بن خالد» و «سوید بن صخره» و «رافع بن مکیث» و «عبداللّه بن بدر».

۸. فوجان قوامُهما مائتا مقاتل من بنی کنانه، وبنی لیث وضمره، بقیاده «أبی واقد اللیثی»، وکان لواؤهما معه.

۹. فوج قوامه ثلاثمائه مقاتل من بنی أشجع، وفیها لواءان أحدهما بید «معقل بن سنان» والآخر مع «نعیم بن مسعود»(۱).

وعندما کانت هذه القبائل والقطعات تمرّ، سألَ أبوسفیان العباس عن اسمها، وخصوصیاتها، فکان العباس یوضح له کلّ ذلک.

والّذی کان یزید هذا الجیش المنظم جلالاً وعظمه أنّ قاده هذه الأفواج والکتائب کانوا إذا مروّا علی العباس وأبی سفیان کبّروا ثلاثاً بأعلی أصواتهم

۱- . لقد سجّل المؤرّخ الإسلامی الشهیر «الواقدی» عدد أفراد هذه القطعات فی تاریخه «المغازی»: ۸۰۰/۲ و ۸۰۱ و ۸۱۹ بشکل دقیق، وقد نقلها عنه ابن أبی الحدید فی ج ۲۷۰/۱۷ و ۲۷۱.

وبشكل منظّم، وكبّر من ورائهم جنودهم بصوت واحد ومنظم أيضاً كأكبر شعار إسلامى.

ولقد كان لهذه التكبيرات الهادره الّتى كانت تدوّى فى وديان مكّه، وتردّدها الجبال والوديان، أكبر الأثر فى نفوس الأصدقاء والأعداء، فكانت تزيد بهيبتها وجلالها من محبّه الأصدقاء للنظام الإسلامى العظيم، بينما ترهب أعداء اللّه، وتغرقهم فى خوف ورعب شديدين.

هذا وكان أبو سفيان ينتظر بفارغ الصبر عبور الكتيبه الّتى فيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ولهذا كان يسأل العباس كلّما مرّت قطعهٌ من قطعات الجيش الإسلامى:

أفيها محمَّد؟ أو ما مضى بعدُ محمَّد؟!

فيقول العباسُ: لم يمض بعدُ، لو رأيت الكتيبه الّتى فيها محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم رأيت الحديد و الخيل والرجال وما ليس لأحد به طاقهٌ.

وبينما هما كذلك إذ طلعت كتيبهٌ عظيمهٌ قوامُها خمسهُ آلاف مقاتل، فيها ألفا دارع فقط، فيها الرايات والألويه الكثيره، فيها المهاجرون والأنصار، مع كلّ بطن وقبيله من قبائل الأنصار رايه ولواء، وكانت تُسمّى كتيبه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الخضراء؛ لأنّ أفرادها كانوا فى الحديد لا يُرى منهم إلا الحدُق، وقد ركبوا الخيول العربيه الأصيله، والحُمُر من الإبل، ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى وسطها راكبٌ على ناقته القصواء، وقد أحدق به كبارُ الشخصيات من المهاجرين والأنصار، والنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم يحدّثهم.

فارعبتْ عظمهُ هذه الكتيبه أبا سفيان، بشده، حتّى أنّه قال للعباس من دون اختيار: ما لأحَدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقه يا أبا الفضل! واللّه يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيكَ الغداه عظيماً.

فقال له العباس - بنبره موبّخه -: ويحك يا أبا سفيان ليس بملك إنّها النبوّه.(۱) فليست هذه العظمه والجلال من أثر المُلك المادّى الدنيوى إنّما هو فعلُ الرساله الإلهيه، إنّه جلال النبوه، وإنّه بالتالى من فضل اللّه عزّوجلّ الّذى أدخلَ الاسلامَ فى قلوب هذه الجماهير المؤمنه، وهذه الجموع المجاهده فى سبيل اللّه.

أبو سفيان يرجع إلى مكّه

إلى هنا قام العباس بدوره على أفضل صوره، فقد أرعبَ أبو سفيان من قوه الإسلام العسكريه الكبرى، ولهذا رأى النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يخلّى سبيله ليذهب إلى مكّه قبل دخول جنود الإسلام فيها، فيخبر أهلها بعظمه وقوه الجيش الإسلامى القادم إليهم، ويحذّرهم من مغبه المقاومه والمواجهه، ويدلّهم على طريق الخلاص والنجاه، وهو التسليم للأمر الواقع، وإلقاء السلاح، والاستسلام من دون قتال ومقاومه، ومن دون قيد وشرط، لأنّ بمجرّد تخويف أهل مكّه من دون إرشادهم إلى طريق الخلاص ما كان ليحقّق هدف النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، وهو الفتح من دون دماء.

فدخل أبو سفيان مكّه، وقد بات الناسُ ليلتهم فى رعب شديد، وترقّب رهيب حتّى أصبحوا، ولم يكن بإمكانهم أن يقرّروا شيئاً من دونه، فلمّا رأوه قادماً أحاطوا به، فأخذ يشير إلى ناحيه المدينه، وقد اصفرَّ وجهه، وانهارت قواه وصرخ بأعلى صوته، يا معشر قريش، هذا محمَّد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، أو قال: هذا محمَّد فى عشره آلاف فمَن دخل دار أبى سفيان فهو آمِن. ومَن ألقى السلاح فهو آمِن، ومَن دخل المسجد فهو آمِن، ومَن أغلق بابه فهو آمِن.

۱- . لاحظ: المغازى: ۸۲۲/۲؛ السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۳/۴.

على أَنَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يكتف بهذا بل أضاف إلى الأماكن الثلاثه الّتى أعلنها للجوء الناس إليها حتّى يأمنوا من القتل، موضعاً آخر، حيث عقد لأبى رويحه «عبداللّه بن عبد الرحمن الخثعمى» لواء وأمره أن ينادى:

«من دخل تحت لواء أبى رويحه فهو آمن»(۱).

وقد تسبّب أبو سفيان بندائه فى إضعاف المعنويات عند أهل مكّه بشده حتّى أنّهم انصرفوا عن فكره المقاومه، لو كانت، وأثمرت جهود العباس ومساعيه فى الليله الفائته، وأصبح فتحُ مكّه من دون مقاومه فى نظر أهل الرأى وعند مَن ينظر إلى واقع الأُمور، أمراً مسلّماً وقطعياً.

ففزع الناس، وتفرّقوا، ولجأ بعضهم إلى دُورهم، والبعض الآخر إلى المسجد، وأسدى أعدى أعداء الرساله، ونعنى أبا سفيان، ونتيجه لتدبير رسول اللّه الحكيم، أكبر خدمه لجنود الإسلام حيث مهَّد لهم - بما أوجده فى نفوس المكيين وقلوبهم من هزيمه نفسيه - طريق الفتح العظيم بسلام، ومن دون مشاكل تُذكر، اللّهم إلّا «هند» زوجه أبى سفيان الّتى كانت تحرّض الناس على المقاومه، وراحت تشتم زوجها وتسبُّه بأقذع الشتائم والسباب، وتتهمه بالجبن والذلّ.(۲)

بيد أنَّ الأمر كان قد قُدرِ، ولم تعد تنفع أيّه محاوله معاكسه، ولم تكن تلك الكلمات والأعمال المعارضه سوى هباء فى شبك!

ونظير هذا الّذى فعلته هند، ما فعله وقام به بعض الزعماء المتطرّفين مثل «صفوان بن أُميّه» و «عكرمه بن أبى جهل» و «سهيل بن عمرو» ممثّل قريش فى صلح الحديبيه، الذين تحالفوا فيما بينهم على أن يعملوا على منع قوات الإسلام من

۱- . إمتاع الأسماع: ۳۸۷/۱.

۲- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۳۸۳/۱؛ السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۴/۴.

دخول مكّه، وانخدع بهم فريق من البسطاء والمغفّلين، فشهروا السلاح فی وجه أوّل قطعه من قطعات الجيش الإسلامی، وسدّوا بذلك الطريق عليها فی محاوله يائسه لتحقيق مآربهم.(۱)

القواتُ الإسلاميه تدخل مكّه

وقبل أن تدخل قوات الإسلام مكّه كان رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم قد دعا جميع قاده وأمراء جيشه وقال لهم بأنّه يريد أن يفتح مكّه من دون إراقه أيّه دماء، ولهذا أمرهم أن لا يقاتلوا إلّامن قاتلهم، إلّاأنّه أمر بقتل عشره وإن وُجدوا تحت أستار الكعبه وهم: «عكرمه بن أبی جهل» و «هبار بن الأسود» و «عبداللّه بن أبی سرح» و «مقيس بن حبابه الكندی» و «الحويرث بن نقيذ» و «عبداللّه بن خطل» و «صفوان بن أُميه» و «وحشی بن حرب» قاتل حمزه. و «عبداللّه بن الزبعری» و «حارث بن طلاله» وأربع نسوه، وكان كلّ واحد من هؤلاء قد قتل أحداً أو ارتكب جنايه أو شارك فی مؤامره أو حرب ضدّ الإسلام والمسلمين.(۲)

وقد بلّغ الأُمراء والقاده هذا الأمر إلی جنودهم كافّه، ومع أنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم كان يعرف مسبَّقاً بمعنويات المكّيين المنهاره، وعدم قدرتهم علی المقاومه، إلّاأنّه مع ذلك لم يترك جانب الاحتياط والحذر الّذی يفرضه العملُ العسكری، عند دخول مكّه، حيث رسم لدخولها خطه دقيقه.

۱- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۳۸۵/۱؛ السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۵/۴-۸۶۶.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۷/۴-۸۶۸؛ تاريخ الخميس: ۹۰/۲-۹۴، وقد ذكر صاحب تاريخ الخميس تفاصيل ما ارتكبته هذه الجماعه المهدوره دماؤها وما آل إليه أمرهم بعد فتح مكّه.

قد وصل رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بجيشه كلّه إلى «ذى طوى» (وهو موضع مرتفع كانت تُرى منه بيوت مكّه و منازلها) وهو فى كتيبه قوامها خمسه آلاف، فلمّا رأى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم منازل مكّه اغرورقت عيناه بدموع الشوق والحنين، فانحنى تواضعاً للّه تعالى وشكراً، حتّى رأى ما رأى من فتح اللّه وكثره المسلمين، حتّى مسّت لحيته الشريفه واسطه الرحل أو يقرب منه.

ومراعاه لجانب الحذر والاحتياط فرّق صلى الله عليه و آله و سلم جنوده فأمر البعض بأن يدخلوا مكّه من أسفلها، وأمر البعض بأن يدخلوها من أعلاها، ولم يكتف بهذا بل أمر وحدات من الجيش بأن تدخل من جميع المداخل والطرق المؤدّيه إلى داخل مكّه.

فدخلت جميع وحدات الجيش الإسلامى وقطعاته وكتائبه وفرقه مكّه من دون قتال ومن دون أن تلقى من أهلها مقاومه، فقد كانت جميع الأبواب مفتحه فى وجوههم إلّاالمدخل الّذى دخل منه «خالد بن الوليد» بفرقته، فقد عمد جماعه من المكّيين بتحريض من «عكرمه» و «صفوان» و «سهيل» على شهر أسلحتهم فى وجوه المسلمين، ورموهم بالنبل لمنعهم من دخول مكّه، ووقع قتال بين الجانبين، ولكن محرّضى هذه الجماعه اختفوا بعد شىء من القتال والمقاومه، وفرّ الآخرون بعد أن قتل منهم المسلمون اثنى عشر أو ثلاثه عشر شخصاً.(۱)

ومرّه أُخرى قام أبوسفيان و من حيث لا يشعر بعمل آخر لصالح الإسلام فى هذه الحادثه، فإنّه كان لا يزال مرعوباً ممّا رأى من كثره الحشود العسكريه الإسلاميه

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۵/۴-۸۶۶. وحسب المغازى: ۸۲۵/۲-۸۲۶ قُتِلَ ثمان وعشرون رجلاً.

وقوتها وكان يعلم أنّ المقاومه لا تجدى نفعاً ولا تجرُّ على أهل مكّه إلّاالضرر، ولهذا نادى بأعلى صوته - حقناً للدماء -: يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم؟ من دخَل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن....(۱)

فكان لنداء أبى سفيان هذا أثره فى نفوس الناس فجعلوا يقتحمون الدور، ويغلقون عليهم، ويطرحون السلاح فى الطرقات حتّى يأخذها المسلمون، بينما لجأ بعضهم إلى المسجد.

ولمّا ظهر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على «ثنيه أذاخر» نظر إلى لمعان السيوف وهى تصعد وتهبط فقال: «ما هذه البارقه؟ ألم أنه عن القتال»؟

فقيل: يا رسول اللّه، خالد بن الوليد قوتل، ولو لم يُقاتل ما قاتلَ. فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «قضى اللّه خيراً».(۲)

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم دخل مكّه من ناحيه أذاخر، وهى أعلى نقطه فى مكّه فى موكب عظيم جليل، فضربت له قبه من أُدم بالحجون (عند قبر عمّه العظيم أبى طالب) ليستريح فيها، وقد أصرّوا عليه صلى الله عليه و آله و سلم بأنْ ينزل فى بعض بيوت مكّه فأبى صلى الله عليه و آله و سلم(۳).

كسرُ الأصنام وغسل الكعبه

لقد استسلمت مكّه الّتى كانت مركزاً رئيسياً للشرك والوثنيه طوال أعوام عديده ومديده، أمام قوات التوحيد الضافره، وسيطر جنودُ الإسلام على جميع

۱- . المغازى: ۸۲۶/۲.

۲- . المغازى: ۸۲۶/۲.

۳- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۳۸۸/۱.

نقاط تلك المدينه المقدّسه.

ولقد استراح رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى الخيمه الّتى ضربوها له فى الحجون بعض الوقت.

ثم إنّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد أن اطمأنَّ واغتسل ركب راحلته «القصواء» وتوجّه إلى المسجد الحرام لزياره بيت اللّه المعظم والطواف به، بينما كان يحمل معه السلاح، والمغفر على رأسه، وتحيط به هاله من العظمه والجلال، ويحدق به المهاجرون والأنصار، وقد صفَّ له الناس من المسلمين والمشركين، بعضٌ يغمره الفرح والسرور، وآخرون يكادون ينفجرون من الغيظ.

ولمّا انتهى صلى الله عليه و آله و سلم إلى الكعبه فرآها ومعه المسلمون تقدّم على راحلته، ولم يترجّل منها لأسباب خاصّه فاستلم الركن بمحجنه بدل استلامه بيده، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره، ورَجَّعوا التكبير حتّى ارتجّت مكّه لتكبيرهم ودوّى صوتهم فى الجبال والوهاد، وسمعهم المشركون الذين كانوا قد تفرّقوا فوق الجبال ينظرون إلى ذلك المشهد وقد بلغ من هياج المسلمين، وهم يطوفون بالبيت من شدّه سرورهم حداً كاد أن يمنع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من الطواف بالبيت بفكر هادئ، فأشار إليهم صلى الله عليه و آله و سلم أن اسكتوا، فسكت الجميع بأمره، وساد الصمت كلّ أرجاء المسجد الحرام، فطاف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالبيت على راحلته، وقد أخذ بزمامها «محمّد بن مسلَمه» وفيما احتبست الأصواتُ فى الصدور، واتجهت الأبصار إليه صلى الله عليه و آله و سلم فوقعت عيناه الشريفتان - فى الشوط الأوّل من طوافه - على الأصنام الكبرى «هبل» و «إساف» و «نائله» منصوبه فوق الكعبه، فجعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كلّما مرّ بصنم منها يشير بقضيب فى يده ويقول: «جاء الحقُ وزهقَ الباطلُ إنّ الباطلَ كانَ زهُوقا» فيقع الصنم

لوجهه.(۱)

وأمر صلى الله عليه و آله و سلم بهُبل أكبر أصنام المشركين فحطم وكسر فى مرأى من المشركين، ولقد كان هذا الصنم الكبير يهيمن على عقول الجاهليين فى الجزيره العربيه، ويسيطر على أفكارهم أعواماً عديده.

ولمّا كسر المسلمون ذلك الصنم قال الزبير لأبى سفيان وكان ينظر إلى ذلك المشهد: يا أبا سفيان قد كُسِر هُبَل، أما إنّك قد كنت منه يوم «أُحد» فى غرور، حين تزعم أنّه قد أنعمَ.

فقال أبو سفيان: دعْ هذا عنك يا ابن العوام فقد أرى لو كان مع إله محمَّد غيرُه لكان غير ما كان.(۲)

ولمّا انتهى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من طوافه بالبيت انصرف فجلس ناحيه من المسجد، والناس حوله، ثم أرسل بلالاً إلى «عثمان بن طلحه» يأتيه بمفتاح الكعبه، وكان عثمان يومذاك سادن الكعبه، وقد كانت السدانه تُتوراث جيلاً بعد جليل.

فجاء بلال إلى عثمان فقال: إن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يأمرك أن تأتى بمفتاح الكعبه، فاستجاب عثمان، إلّاأنّ أُمّه منعته عن ذلك، وكان المفتاح يومئذ عندها وقالت له: أُعيذك باللّه أن تكون الّذى تذهب مأثرهُ قومه على يديه.

فقال لها عثمانُ: فواللّه لتدفعنَّه إلىَّ، أو ليأتينّك غيرى فيأخذ منك، فسلَّمتْه إيّاه.(۳)

۱- . المغازى: ۸۳۲/۲.

۲- . المغازى: ۸۳۲/۲.

۳- . المغازى: ۸۳۳/۲.

ففتح رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم به باب الكعبه ودخل البيت، ودخل من بعده صلى الله عليه و آله و سلم أَسامه بن زيد وبلالُ وعثمانُ بن طلحه، ثم أمر النبيُّ بإغلاق باب الكعبه، ووقف خالد بن الوليد على الباب يذبُّ الناس عن الباب.

وكانت جدرانُ الكعبه من الداخل مغطّاه بصور الأنبياء والملائكه وغيرهم، فأمر النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم بمحوها جميعاً، وغسلها بماء زمزم.

عليٌّ عليه السلام على كَتِف النبى صلى الله عليه و آله و سلم

روى المحدِّثون والمؤرّخون عن على عليه السلام قال: انطلقت أنا والنبى صلى الله عليه و آله و سلم حتى أتينا الكعبه فقال لى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: اجلس، وصعد على منكبى، فذهبت لأنهض به فرأى منّى ضعفاً، فنزل وجلس لى نبى اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقال:

«إصعدْ على مِنكبى». قال: فصعدت على منكبيه، قال: فنهض بى، قال: فإنّه يخيل إلى أنّى لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه حتى إذا استمكنت منه قال لى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: اقذف به، فقذفت به فتكسّر كما تتكسّر القوارير....

وقد أنشد شاعر الحلّه الشهير بابن العرندس، وهو من شعراء القرن التاسع الهجرىّ قصيده ذكر فيها هذه الفضيله بقوله:

وَ صُعودُ غارب أحمد فضلٌ لهُ دون القرابه والصحابه أفضلا(۱)

۱- . مسند أحمد بن حنبل: ۸۴/۱ باسناد صحيح؛ السيره الحلبيه: ۲۹/۳؛ تاريخ الخميس: ۸۶/۲ و ۸۷؛ مستدرك الحاكم: ۳۶۷/۲ و ج ۵/۳؛ مجمع الزوائد: ۲۳/۶. وراجع بقيه المصادر فى موسوعه الغدير: ۱۰/۷-۱۳.

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أمر بأن يُفتح باب الكعبه فوقف على الباب، وأخذ بعضادتى الباب فأشرف على الناس بطلعته المنيره ومحياه الجميل وقال:

«الحمدللّه الَّذى صدَق وعْدَهُ وَ نصَرَ عَبْدَهُ وَ هَزَمَ الأحزاب وَحْدَهُ».(۱)

ولقد كان اللّه سبحانه قد وعد نبيّه الكريم فى آيه من آيات الكتاب العزيز بأن يعيده إلى مسقط رأسه إذ قال:

«إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَ مَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ» .(۲)

وقد أخبر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بحمده هذا عن تحقّق وعد اللّه له، وبرهَن مره أُخرى على صدقه، وصحّه دعواه.

وفى ما كان الصمتُ يخيّم على أرجاء المسجد الحرام، وفى ما كانت الأنفاسُ محتبسه فى الصدور، وتجول فى رؤوس الحاضرين وأنفسهم أفكارٌ مختلفه، وخواطرُ شتى، ويتذكر أهل مكّه المشركون ما ألحقوه برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأتباعه من الأذى والعذاب الشديد، فتذهب بهم تصوّراتهم مذاهب شتى!!

إنّ الّذين سبق لهم أن أشعلوا حروباً كثيره ضد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقتلوا خيره شبابه وأصحابه، بل وتمادوا فى غيّهم وعدوانهم حتّى أنّهم تآمروا لاغتياله بالهجوم عليه فى منزله ليلاً وأرادوا تقطيعه بالسيوف إربا إرباً، هاهمُ الآن يرون أنفسهم أسرى فى قبضته، وهو صلى الله عليه و آله و سلم قادر على أن ينتقم منهم كيفما شاء!!

إنّ من الطبيعى أن يتحدّث أهل مكّه فى أنفسهم وهم يتذكّرون معاداتهم

۱- . المغازى: ۸۳۵/۲؛ السيره النبويه لابن هشام: ۸۷۰/۴.

۲- . القصص: ۸۵.

الشديده والطويله لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وجرائمهم الكبرى بحقّه، وبحقّ دعوته ويقول بعضهم: إنّه سيقتلنا حتماً، أو يقتل فريقاً منّا، ويحبس آخرين، ويسبى ذريتنا ونساءنا، جزاءَ ما فعلنا.

وبينما كانوا - فى تلك اللحظات - فريسه هذه الأفكار والتصوّرات الشيطانيه، كسر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جدار الصمت الرهيب الّذى يخيّم على أرجاء المسجد الحرام وقال سائلاً:

«ماذا تقولونُ... وماذا تظنون؟!».

فقال أهل مكه: نقول خيراً، ونظن خيراً، أخٌ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم (وقد سمع هذه العبارات العاطفيه):

«فإنّى أقولُ لكُمْ كما قال أخى يوسف: «قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ» (۱).

وكان أهلُ مكّه قد أطمأنُّوا، إلى عفو النبى وصفحه قبل ذلك نوعاً مّا عندما رأوا ردّ فعله الشديد على أحد قاده جيشه عندما أخذ ينادى حين دخول مجموعته العسكريه مكّه من إحدى مداخلها:

اليومَ يومُ المَلحمه اليومَ تُسبى الحُرمَه

فغضب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لهذا الشعار وقال رداً عليه:

«اليوم يوم المرحمه»(۲)

كما أنّه أمر - لغرض تأديب مَن أطلق هذا الشعار - بأخذ اللواء منه، وأعطاه

۱- . المغازى: ۸۳۵/۲؛ بحار الأنوار: ۱۰۷/۲۱ و ۱۳۲، والآيه هى ۹۲ من سوره يوسف.

۲- . المغازى: ۸۲۱/۲ و ۸۲۲.

إلى شخص آخر، وقيل إنّه صلى الله عليه و آله و سلم عزله عن قياده المجموعه، وأمّر ابنه مكانه، وكان هذا الأمير هو سَعد بن عباده رئيس الخزرج.

وقد دفع هذا النوع من اللُطف والموقف الإيجابى الّذى لاحظه أهل مكّه المشركون أن يأمل الناس المغلوبون فى العفو العامّ إلى درجه كبيره، خاصّه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قد أمّن من دخل المسجد الحرام أو بيت أبى سفيان، أو ألقى السلاح، أو أغلق على نفسه باب منزله.

كلُّ هذه الأُمور كانت قد فَتحت على أهل مكّه بصيصاً من الأمل فى العفو الشامل.

النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم يعلنُ عن العفو العام

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أعلنَ عن العفو العام عن جميع أهل مكّه بقوله:

«ألا لبئسَ جيرانُ النبىّ كنتُمْ، لقد كذّبتُمْ، وطردتمْ، وأخرجتُمْ، وَ آذيتمْ، ثم ما رضيتم حتّى جئتمونى فى بلادى تقاتلوننى إذهبُوا فأنتمُ الطُلقاء»(۱).

بلالُ يرفع الأذان على سطح الكعبه

ثم حان وقتُ صلاه الظهر، فعلا مؤذّن الإسلام «بلال» الحبشى سطح الكعبه المعظمه، ورفع فى الحاضرين وبصوت عالٍ نداء التوحيد والرساله (الأذان)، فكان كلُّ واحد من المشركين يقول كلاماً، غضباً وحنقاً على بلال. فمنهم من قال: الحمدُ للّه الّذى أكرم أبى فلم يسمعْ هذا اليوم...

۱- . بحار الأنوار: ۱۰۶/۲۱؛ مجمع البيان: ۴۷۲/۱۰؛ إعلام الورى: ۲۲۶/۱. ولاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۸۷۰/۴.

وقال أبو سفيان: أما أنا فلا أقولُ شيئاً، لو قلتُ شيئاً لأخبرتْهُ هذه الحصباء!!(۱).

إن هـذا العجوز الخرف المعانـد الّـذى لم يشـرق فى قلبه نورُ الإسـلام حتّى آخر لحظه من حيـاته، خلـط بين مسأله الإطلاع على الغيب، وتلقّى الحقائق عن طريق الوحى، وبين مسأله التجسس الّذى يعتمده جبابره العالم وطغاته.

إنّ مسأله اطّلاع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على قضايا الغيب أمرٌ يحصل بطرق غير عاديه ولا متعارفه، فى حين تحصل معرفه جبـابره العـالم بمجريـات الأُمـور فى بلادهم عن طريق اسـتخدام عناصـر بشـريه، أو من يسـمّون برجال المخابرات والأمن. وعلى كلّ حال فإنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم صلّى بالمسلمين صلاه الظهر ثم دعا «عثمانَ بن طلحه» وردَّ إليه مفتاح الكعبه، وقال له:

«هاكَ مفتاحُك يا عثمان، اليومُ يومُ بر ووفاء»(۲).

ورُوى أنّه صلى الله عليه و آله و سلم قال:

«خُذُوها يا بنى أبى طلحه تالده خالده لا ينزعها منكم أحدٌ إلّاظالم»(۳).

ولم يكنْ غير هذا بمتوقع من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فإنّ النبى الّـذى بعثهُ اللّه سـبحانه إلى الناس ليدعوهم إلى أداء الأمانه – فيما يدعوهم إليه – وليبلّغهم قوله تعالى: «إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها» من المسلَّم أن يكون أوّل من يلتزم بهذا التعليم الإلهى، فيعيد مثل تلك الأمانه

۱- . المغازى: ۸۴۶/۲؛ إمتاع الأسماع: ۳۹۶/۱.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۷۰/۴.

۳- . المغازى: ۸۳۸/۲، الطبقات الكبرى لابن سعد: ۱۳۷/۲.

الكبرى إلى صاحبها.

إنه لم يكن بالذى يهضمُ حقوقَ الناس ويدوسُها، فى ظلّ ما أُوتى من قوه، ويقول للناس بكلّ صراحه: «خُذوها يا بنى أبى طلحه، تالده خالدهً، لا ينزعها منكم أحدٌ إلّاظالم».

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ألغى جميع مناصب الكعبه الّتى كانت فى الجاهليه إلّا ما كان نافعاً للناس كالسدانه والحجابه (وهى القيام بشؤون أستار الكعبه) وسقايه الحجيج(۱).

النبئ صلى الله عليه و آله و سلم يتحدّث إلى أقاربه

ولكى يعرف أقرباء النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنّ وشيجه القربى الّتى تربطهم برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لاترفع عن كاهلهم أيّه مسؤوليه من المسؤوليات، بل تزيد من مسؤوليتهم، ألقى فيهم خطاباً خاصّاً بيّن فيه أنّ رابطه القربى مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم لا تبرّر لأحد من أقربائه بأن يتجاهل قوانين الحكومه الإسلاميه، ويتّخذ من انتسابه إلى زعيم هذه الحكومه ذريعه وغطاء لارتكاب ما لا يحلُّ للآخرين كما هو الحال فى أنظمه الحكم البشريه.

ولقد شجب رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى خطابه هذا الّذى خطبه فى اجتماع ضمّ رجال بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، كلّ تمييز، وتفضيل غير صحيح، ودعا إلى لزوم العدل ومراعاه المساواه، بين جميع الطبقات إذ قال:

«يا بنى هاشم، يا بنى عبدالمطلب، إنّى رسولُ اللّه اليكُمْ، وإنّى شفيقٌ عليكم، لا تقولوا: إنّ محمَّداً منّا، فواللّه ما أوليائى منكُمْ ولا مِن غيركم إلّاالمتقون، فلا

۱- . بحار الأنوار: ۱۳۲/۲۱.

أعرفكم تأتونى يومَ القيامه تحملُون الدُنيا على رقابكم ويأتى الناسُ يحملون الآخره.

ألا وإنّى قد أعذرت فيما بينى وبينكم، وفيما بين اللّه عزّوجلّ وبينكم وإنّ لى عَملى ولكم عملكم»(۱).

خطابُ النبى التاريخى فى المسجد الحرام

اشاره

كان الاجتماع الّذى شهده المسجد الحرام يوم فتح مكّه اجتماعاً عظيماً جداً.

المسلمون والمشركون، والصديق والعدو حضروا بأجمعهم فى ذلك الاجتماع، وكانت تجللُ هالهٌ من عظمه الإسلام وعظمه نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله و سلم رحاب ذلك المكان المبارك، وكان الصمت والهدوء، وحاله من الانتظار والترقّب، تخيّم على أجواء مكّه.

لقد آن الأوان - الآن - لأن يكشف رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم للناس عن الملامح الحقيقيه لدعوته المباركه ويوقف ذلك الحشد الهائل المتعطّش على معالم رسالته العظمى، ومبادئ دينه الحنيف، وبالتالى أن يكملَ حديثه الّذى بدأه قبل عشرين عاماً ولكنّه لم يُوفق لإتمامه بسبب مضايقات المشركين، ومعارضتهم، وبسبب ما أوجدوه من عقبات وعراقيل فى طريقه.

ولقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ابن تلك المنطقه، وتلك البيئه، ولهذا كان عارفاً - تمام المعرفه - بأمراض المجتمع العربى، وأدوائه، وعلاج تلك الأدواء ودوائها.

لقد كان يعرف صلى الله عليه و آله و سلم علل انحطاط المجتمع المكىّ وأسباب تخلّفه عن ركب الحضاره والمدنيه، وعن اللحاق بقافله التكامل البشرى الصاعد. من هنا رأى أن

۱- . بحار الأنوار: ۱۱۱/۲۱.

يضع يده على مواضع الداء فى ذلك المجتمع المريض، وأن يعالج أمراض البيئه العربيه بشكل كامل، وكأى طبيب حاذق، وحكيم ماهر.

ونحن هنا ندرج أبرز المقاطع فى الخطاب التاريخى الّذى ألقاه سيد المرسلين صلى الله عليه و آله و سلم على الحشود الكبيره المتجمعه فى ذلك اليوم عند بيت اللّه المعظم.

تلك المقاطع الّتى يعالج كلّ واحد منها مرضاً اجتماعياً خاصّاً من أمراض المجتمع فى ذلك العصر وحتّى فى عصرنا الحاضر.

١. التفاخر بالنسَب

كان التفاخر بالنسب والقبيله والعشيره من الأمراض المستحكمه المتجذّره فى البيئه العربيه الجاهليه، وكان من أكبر أمجاد المرء أن ينتسب إلى قبيله معروفه، ويتفرّع نسبه عن عشيره بارزه كقريش مثلاً.

ولقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى خطابه المذكور لإبطال هذه السنّه الجاهليه المقيته:

«أيّها الناسُ إنَّ اللّه قد أذهبَ عنكم نخوه الجاهليه وتفاخرها بآبائها.

ألا إنكُمْ من آدم، وآدم من طين.

ألا إنَّ خير عباد اللّه عبدٌ إتّقاه».

لقد عمد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى خطابه - لإفهام العالم البشرى بأنّ ملاك الشخصيه والتفوّق إنّما هو (التقوى) والورع فقط - إلى تصنيف الناس إلى صنفين لا ثالث لهما، وأعطى الفضيله والمنزله لأهل التقوى والورع خاصّه.

وبهذا التصنيف الواقعى فى ملاكاته أبطل جميع المعايير الخياليه والملاكات

والمقاييس المصطنعه إذ قال:

«إنّما الناسُ رجلان:

مؤمنٌ تقيٌّ كريمٌ على اللّه.

وفاجرٌ شَقيٌّ هَينٌ على اللّه».

۲. التفاضل بالقوميه العربيه

لقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يعلم جيداً أنّ هذه الجماعه من البشر تعتبر (العربيه) والانتساب إلى العرق العربى من المفاخر الكبرى، وكانت النخوه العربيه قد ترسّخت فى قلوب تلك الجماعه وعروقها كداء دفين ومرض مزمن، فقال فى خطابه لمعالجه هذا الداء الخبيث وتحطيم هذا الصرح الموهوم:

«إنّ العربيه ليست بأب والد، ولكنّها لسان ناطق، فمن قَصُر به عمله لم يبلغه حسبُه». وهل نجد كلاماً أعمق مغزى، وأوضح مراداً، وأقوى وقعاً فى النفوس من هذا الكلام؟!

۳. لجميع أبناء البشر لا لبعض دون بعض

لقد قال داعيه الحريه الحقيقيه، ورائد حقوق الإنسان الواقعى بهدف تقويه ودعم مبدأ المساواه بين الأفراد والجماعات البشريه:

«إنَّ الناس من آدم إلى يومنا هذا مِثلُ أسنان المشط، لا فضلَ للعربى على العجمى، ولا للأحمر على الأسود إلّابالتقوى».

وقد ألغى رسولُ الإنسانيه الأعظم بهذا البيان الصريح كلّ أنواع التمييز

الظالمه، وكل ألوان التشدّد مع الآخرين، وفعل وبيّن فى ذلك العصر ما لم يفعله ولم يبيّنه ميثاق حقوق الإنسان مع كلّ هذه الضجّه الإعلاميه الّتى نشهدها فى عالمنا الحاضر.

۴. الحروب الطويله والأحقاد القديمه

لقد نشأت الأقوام العربيه - نتيجه اشتغالها المستمر بالحروب الداخليه المتلاحقه والطويله - على الحقد والضغينه.

فقد كانت نيرانُ الحروب مشتعله فى المجتمعات العربيه على قدم وساق ومن دون انقطاع.

ولقد واجه رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد سيطرته الكامله على الجزيره العربيه هذه المشكله.

فقد كان يتوجّب عليه - بغيه إقرار الأمن والهدوء والحفاظ عليهما فى البيئه الإسلاميه - أن يبادر إلى وضع نهايه لهذه المعضله، وأن يعالج هذا الداء المزمن، فلم يجد دواء لهذا الداء إلّاأن يطلب من الناس كافّه أن يتنازلوا عمّا لهم من دماء فى أعناق الآخرين سُفِكت فى العهد الجاهلى، وأن تعتبر جميع ملفات العهد القديم باطله، ومنتهيه، ليمكن عن هذا الطريق الحيلوله دون إراقه الدماء الّتى تُعرّض المجتمع الإسلامى الناشئ للخطر، وحتّى ينتزع من أذهانهم ونفوسهم فكره الإغاره والقتل العشوائى الّذى كان يُتمّ بحجّه القصاص فى حين كان من الممكن أن يتمّ بشكل القصاص الحقيقى العادل، فقال صلى الله عليه و آله و سلم للوصول إلى مثل هذه الغايه الساميه:

«ألا إنّ كلّ مال ومأثره ودم فى الجاهليه تحت قدميَّ هاتين».

۵. الأخوّه الإسلاميه

ولقد ارتبط قسمٌ من خطاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى ذلك الحشد العظيم بمسأله اتّحاد المسلمين ووحده كلمتهم، وحقّ المسلم على أخيه المسلم.

وقد كان مقصودُهُ صلى الله عليه و آله و سلم من بيان هذه الحقوق المتبادله بين المسلمين الّتى تعتبر من مميزات الدين الإسلامى الحنيف، هو أن يرغّب غير المسلمين فى الإسلام إذا هم سمعوا ورأوا مثل هذه الحقوق، ومثل هذه العلاقات المتينه بين المسلمين.

فقد قال فى هذا الصعيد:

«المُسلِمُ أخو المُسلم، والمسلمون إخْوَةٌ، وهم يدٌ واحده على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، يسعى بذّمتهم أدناهم»(۱).

معاقبه المجرمين

ليس من شك فى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان مظهراً كاملاً للإنسانيه والرحمه ومثلاً أعلى فى العفو والصفح، فهو رغم مشاعر بعض المتطرّفين الملتهبه، أصدر عفوه العام عن أهل مكّه كافّه.

بيد أنّه كان هناك بين المكّيين عدّه أشخاص تجاوزوا الحدّ فى معاداتهم للنبى ومعارضتهم للرسول، وارتكبوا فى هذا السبيل جرائم لا تغتفر، فلم يكن من الصالح - مع كلّ ما تسبّبوه من فجائع وفضائع - أن يعيشوا بين المسلمين فى أمان

۱- . لقد نقلنا هذه المختارات من: روضه الكافى: ۲۴۶/۸، السيره النبويه لابن هشام: ۸۷۰/۴؛ المغازى: ۸۳۶/۲، بحار الأنوار: ۱۰۵/۲۱ و ۱۳۸ و ج ۳۴۸/۲۲؛ شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۲۸۱/۱۷.

وراحه، إذ كان من الممكن أن يسيئوا استخدام العفو النبوىّ فيعودوا إلى مشاغبتهم، وتآمرهم ضدّ الإسلام مرّه أخرى ويتسبّبوا فى ظهور مشاكل أمنيه جديده لا يُعرف مداها، وتبعاتها.

وقد قُتِلَ بعض هؤلاء المجرمين على أيدى المسلمين فى الطرقات، ولجأ اثنان منهم إلى بيت «أُمّ هانى» بنت أبى طالب أُخت الإمام على عليه السلام، فلاحقهما «علىٌ» وهو غارقٌ فى الحديد لا يُعرف، فدخلَ بيت أُمّ هانى يطلبهما(۱) فواجهت أُمّ هانى فارساً لا يُعرف فقالت: أنا امرأه مسلمه وقد أجرتُ هذين، وجوار المسلمه محترم.

وفى أكثر المصادر أنّها قالت: يا عبداللّه أنا أُمّ هانى ابنه عم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأُختُ على بن أبى طالب، انصرفْ عن دارى.

وهنا عمَد الإمام على عليه السلام إلى الكشف عن هويته لتعرفه، فنزع المغفر عن رأسه، واسفر عن وجهه.

فما أن وقعت عينا أُمّ هانى على أخيها «على» بعد فراق طال سنيناً عديده ومديده إلا وانحدرت منهما دموع الشوق والفرحه، واعتنقت أخاها، ثم توجّها معاً إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليعطى رأيه فى أمانها، وجوارها، فأمضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم جوار تلك المرأه المسلمه، وأمانها قائلاً:

«قد أجرْنا من أجرتِ وأمَّنّا من أمَّنتِ فلا يقتلهما»(۲).

۱- . يقول ابن هشام إن الرجلين هما: «الحارث بن هشام» و «زهير بن أبى أُميّه بن المغيره» (السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۹/۴).

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۶۹/۴؛ الطبقات الكبرى: ۱۴۴/۲ و ۱۴۵.

وقد كان عبداللّه بن سرح الّذى أسلم ثم ارتدّ عن الإسلام أحد العشره الذين أمر النبى بقتلهم، ولكنّه نجا من القتل بشفاعه عثمان له.

قصّه عكرمه وصفوان

اشاره

ولقد فرّ «عكرمه بن أبى جهل» أحد كبار مثيرى الحروب ومشعلى الفتن ضد الإسلام والمسلمين، إلى اليمن، إلّاأنّه نجا من القتل هو الآخر بشفاعه زوجته، فى قصّه مفصّله.

وأمّا «صفوان بن أُميّه» فإنّه مضافاً إلى جرائمه الفادحه، كان قد قتل مسلماً انتقاماً لأبيه «أُميّه بن خلف» الّذى قُتِلَ على أيدى المسلمين فى بدر، وذلك عندما صلبَهُ أمام حشد كبير من أهل مكّه فى وضح النهار، ولهذا أهدر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم دمَه، فعزم أن يخرج من الحجاز عن طريق البحر فراراً من القتل، وبخاصّه عندما علم بأنّه من جمله العشره الذين أمر رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بقتلهم وأهدَرَ دمهم.

فطلب «عمير بن وهب» من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يعفو عنه، فقبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم شفاعته، وأعطاه عمامَتهُ ليدخلَ بها مكّه كعلامه أمان من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ويصطحب معه إلى مكّه «صفوان بن أُميّه»، فذهب عُميرٌ إلى جَدّه، وأخبر صفوان بذلك، وقدم به مكّه على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فلمّا وقعت عينا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على كبير المجرمين - بل أكبرهم يومئذ - قال له ردّاً عليه - لمّا سأله قائلًا: إنّ هذا (عمير) يزعم أنّك قد أمنتنى؟ -:

«صدق».

ثم دعاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى الإسلام فقال: فاجعلنى بالخيار شهرين، فقال

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«أنت بالخيار فيه أربعه أشهر»(۱).

وبهذا أمهله رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أربعه أشهر كفرصه يفكّر فيها فى الإسلام، ودعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

إنّ دراسه إجماليه وسريعه لهذا الموقف تكشف القناع عن حقيقه مسلّمه فى الإسلام وفى تاريخه العظيم يحاول المستشرقون المغرضون إنكارها وإخفاءها، وهو أنّ رؤوس الشرك كانوا أحراراً فى اختيار العقيده الإسلاميه واعتناقها.

فهم اختاروها واعتنقوها بمحض إرادتهم من دون إكراه أو إجبار، ولا إرعاب أو تخويف؛ بل كانت القياده الإسلاميه تسعى دائماً إلى أن يتمّ اعتناق عقيده التوحيد عن طريق التدبّر والتفكير الصحيح، لا عن طريق الإرعاب والتخويف.

هذا هو أبرز حوادث فتح مكّه وأكثرها عبره، وبقى أن نتعرّض لذكر حادثتين جديرتين بالاطّلاع والتأمّل استكمالاً لهذه الدراسه.

وتانك الحادثتان هما:

۱. مبايعه النبى نساء مكّه

بعد بيعه «العقبه» كانت هذه هى المرّه الأُولى الّتى أخذ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم البيعه من النساء بشكل ظاهرىّ ورسمىّ، ولقد بايعَنَهُ على الأُمور التاليه:

۱. أن لا يُشركنَ باللّه شيئاً.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۷۵/۴؛ المغازى: ۸۵۴/۲.

۲. ولا یسرقن.

۳. ولا یزنین.

۴. ولا یقتلن أولادهنّ.

۵. ولا یأتین ببهتان یفترینه بین أیدیهنّ وأرجلهنَّ.

۶. ولا یعصینک فی معروف.

ولقد تمّت هذه البیعه بالکیفیه التالیه وهی أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أمر بقدح من ماء ثم ألقی فی الماء شیئاً من الطیب والعطر ثم أدخل یده فیه وتلا الآیه(۱) الّتی وردت فیها الأُمور المذکوره، ثم نهض من مکانه وقال صلی الله علیه و آله و سلم للنساء:

«مَنْ أرادتْ أن تبایع فلتُدخلْ یدها فی القدح فإنّی لا أُصافحُ النساء»(۲).

وکانت العلّه فی أخذ مثل هذه البیعه - الخاصّه فی موادها وبنودها - من نساء مکّه هی وجود عدد کبیر من النسوه الفاسدات بینهن، فلو أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لم یُقدِمْ علی أخذ مثل هذه البیعه منهن لکان من المحتمل أن تستأنف تلک النسوه الفاسدات عمَلهنَّ القبیح حتّی فی السرّ.

وکانت «هند» زوجه أبی سفیان بن حرب، وأُم معاویه ذات السوابق السوداء والفاضحه من بین تلک النسوه.

وقد کانت هذه المرأه لفضاضه فی طبعها وخشونه فی سلوکها، تهیمن علی عقلیه زوجها أبی سفیان، ولطالما فرضت علیه آراءها، حتّی أنّها یوم قرّر أبوسفیان الاستسلام للأمر الواقع، ورغّب أهل مکّه فی السلام حرّضت الناس علی القتال

۱- . الممتحنه: ۱۲.

۲- . بحار الأنوار: ۱۱۳/۲۱.

وسفک الدماء ومواجهه جنود الإسلام.

إنّ تحریضات هذه المرأه بالذات هی الّتی أشعلت نیران الحرب فی «أُحد»، تلک النیران الّتی کلَّفت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم سبعین شهیداً کان أبرزهم «حمزه» الّذی بقرت تلک المرأهُ الفاسده الفاجره الحاقده وبمنتهی القسوه والفضاضه بطنه، وشقّت صدره، واستخرجت کبده، ولاکته بأسنانها.

لم یکن لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بدٌّ من أخذ هذا النوع من البیعه من هذه المرأه وأمثالها فی مرأی ومسمع من الناس.

وقد تلا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ما نزل من قوله تعالی من شروط البیعه علیهن، فلمّا بلغ إلی قوله: «ولا تسرقن» نهضت هند - وکانت آنذاک متنقّبه متنکّره - وقالت:

إنّ أبا سفیان رجلٌ ممسکٌ وإنّی أصبت من ماله هنات، فلا أدری أیحل لی أم لا؟

فقال أبوسفیان: ما أصبت من مالی فیما مضی وفیما غبر فهو لکِ حلال.

فضحک رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وعرفها فقال لها: «وإنّک لهند بنت عتبه»؟!

قالت: نعم، فاعفُ عمّا سلَف یا نبی اللّه عفا اللّه عنک!

فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «ولا تزنین».

فقالت هند: أو تزنی الحره؟!

لقد کان هذا الدفاع یعدُّ - من منظار علم النفس - نوعاً من کشف القناع عمّا فی السریره والإفصاح عمّا فی الضمیر. وحیث إنّ هنداً کانت تعرف أنّها کانت فیما مضی تفعلُ مثل هذا، وکانت واثقه من أنّ الناس عند سماع هذه العباره سیلتفتون بأنظارهم إلیها لذلک سارعت فوراً - وبهدف صرف الأنظار عن نفسها - إلی القول:

وهل تزنی إلّاالأمه دون الحرّه.

ومن الصدف أنّه كان من الرجال فی ذلک المجلس بعض من سَبقت له معها علاقات غیر مشروعه فی العهد الجاهلی فتعجّب من إنکارها، فضحک حتّی استغرق فی الضحک، وتسبّب دفاع هند عن نفسها فی المزید من افتضاحها(۱).

۲. هدمُ بیوت الأصنام بمکّه وما حولها

کانت فی مکّه وضواحیها بیوتٌ عدیدهٌ وکثیرهٌ للأصنام الّتی کانت تقدُّسها، وتحترمُها القبائلُ المختلفهُ القاطنه فی تلک المناطق، وحتّی یقضی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم علی جُذُور الوثنیه فی أرض مکّه قام بإرسال فرق عسکریه متعدّده إلی تلکم المناطق لهدم تلک المعابد، والبیوت، وإزاله الأصنام والأوثان.

کما أنّه صلی الله علیه و آله و سلم أعلن فی مکّه نفسها أنّ مَن کان فی بیته صنمٌ فلیکسره، وفی هذا السیاق أرسل «عمرو بن العاص» لتحطیم صنم «سواع» و «سعد بن زید» لهدم صنم «مناه».

وتوجّه «خالد بن الولید» علی رأس فرقه عسکریه إلی «تهامه» لدعوه بنی «جذیمه بن عامر» إلی الإسلام وهدم صنم «عزی»، وقد نهاهُ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حین کلَّفه بهذه المهمه عن القتال وإراقه الدماء وبعث معه «عبدالرحمن بن عوف» لیعینه علی ذلک.

وکانت قبیلهُ بنی جذیمه قد قتلت عمّ خالد بن الولید(۲) ووالد عبدالرحمن

۱- . لاحظ: مجمع البیان: ۴۵۷/۹.

۲- . هو الفاکه بن المغیره بن عبداللّه بن عمر بن مخزوم، راجع للوقوف علی أصل هذه الواقعه: السیره النبویه لابن هشام: ۸۸۴/۴، تاریخ الیعقوبی: ۶۱/۲.

لدى رجوعهما من اليمن فى أيام الجاهليه وصادرت أموالهما، ولهذا كان «خالد» يحقد عليهم.

فلما التقى «خالد» بنى جذيمه فى أرضهم، وجدهم قد أخذوا السلاح، وتهيّأوا لقتاله فأمّنهم وقال لهم: ضَعُوا السلاح فإنّ الناس قد أسلموا.

فرأى زعماءُ القوم أن يضع الناسُ السلاح، ويسلّموا لجنود الإسلام ولكن رجلًا من القوم يقال له: جحدم أدرك بفطنته سوء نيه خالد، فقال لزعماء القبيله:

ويلكم يا بنى جذيمه! إنّه خالد واللّه! ما بعد وضع السلاح إلّاالأسئار، وما بعد الأسئار إلّاضرب الأعناق، واللّه لا أضع سلاحى أبداً، فأخذه رجال من قومه فقالوا:

يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا؟ إنّ الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح، ووضعت الحرب، وأمن الناس، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم السلاح لقول خالد.

فلمّا وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك، فكتفوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل منهم، فلمّا انتهى الخبر إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، رفع يديه إلى السماء، ثم قال: اللّهم إنّى أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد.(۱)

ونتيجه لهذه الجريمه النكراء فقد غضب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على خالد غضباً شديداً، ودعا عليّاً من فوره، وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال وأمره بالتوجّه إلى بنى جُذيمه، وأن يدفع ديه من قَتلَ أو جرح خالد من رجالهم، وثمن كلّ ما خسروه أو فقدوه من أموالهم بدقّه وعنايه كاملتين.

فخرج علىٌّ حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فودى لهم

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۸۲/۴-۸۸۳.

الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنّه ليدى لهم ميلغه الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلّاوداه، وبقيت معه بقيه من المال، فقال لهم على عليه السلام حين فرغ منهم: هل بقى لكم من دم أو مال لم يودَ لكم؟

فقالوا: لا.

فقال عليه السلام: فإنّى أعطيكم هذه البقيه من المال احتياطاً لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ممّا يُعلم ولا تعلمون.

ففعل ثم رجع إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فأخبره الخبر، فقال صلى الله عليه و آله و سلم: «أصبت وأحسنت».

ثم قام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم واستقبل القبله قائماً شاهراً يديه حتّى أنّه ليُرى ما تحت منكبيه يقول:

«اللّهم إنّى أبرأ ممّا صنَع خالد بن الوليد».

قالها ثلاث مرات(۱).

لقد تلافى على عليه السلام جميع الخسائر الماديه والروحيه الّتى لحقت ببنى جذيمه، وقد أعطى شيئاً من ذلك المال لمن ارتاع، وفزع من صنع خالد و جنوده، وطيّب خواطرهم وقال: وهذه لروعه القلوب.

وعندما عرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بصنيع علىّ عليه السلام وإجراءاته العادله والإنسانيه مع بنى جذيمه المنكوبين قال فى حقّه:

«واللّه ما يسرُّنى يا علىُّ أنَّ لى بما صنعت حُمُر النِعَم»(۲).

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۸۸۳/۴-۸۸۴. ولاحظ: الكامل لابن الاثير: ۲۵۵/۲-۲۵۶؛ إمتاع الأسماع: ۶/۲-۷.

۲- . الخصال: ۵۶۲.

وفی حدیث آخر قال صلی الله علیه و آله و سلم لعلی علیه السلام فی آخره: «... أرضیْتَنی رضی اللّه عنک، یا علیُّ أنت هادی أُمّتی، ألا إنّ السعیدَ کلّ السعید من أحبَّک وأخذ بطریقتک، ألا إن الشقیَّ کلّ الشقیّ مَن خالفکَ ورغبَ عن طریقتک إلی یوم القیامه»(۱).

جرائم أُخری لخالد

لم تقتصر جرائم خالد الّتی ارتکبها طیله حیاته الإسلامیه فی ظاهرها علی ما ذُکر؛ بل لقد ارتکب جریمه أُخری فی أیام حکومه «أبی بکر» أکبر وأفضع ممّا مرت، وإلیک خلاصه هذه الواقعه:

رفضت بعض القبائل بعد وفاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، الاعتراف بخلافه أبی بکر، وامتنعت عن أداء الزکاه إلیه، فبعث أبوبکر فرقاً عسکریه مختلفه لقمع هذه القبائل المعترضه.

وقد بعث خالد بن الولید علی رأس فرقه عسکریه إلی قبیله «مالک بن نویره» لمقاتلتها بحجّه الارتداد، وما کان «مالک» وجمیع أفراد قبیلته مستعدّین للقتال، وکانوا یقولون: نحن مسلمون، فلا معنی لمقاتلتنا.

فمکر بهم خالد علی نحو مکره ببنی جذیمه فی عهد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وأمّنهم، وطلب منهم إلقاء اسلحتهم، فلمّا وضعوا أسلحتهم، أمر بحبسهم، ثم قتلهم وقتل زعیمهم المسلم الصالح «مالک بن نویره» واعتدی علی زوجته فی نفس اللیله(۲).

۱- . أمالی الطوسی: ۴۹۸ برقم ۱۰۹۳، المجلس ۱۷؛ بحار الأنوار: ۱۴۳/۲۱، الحدیث ۶.

۲- . لاحظ: أُسد الغابه: ۲۹۵/۴، تاریخ ابن عساکر: ۲۵۶/۱۶-۲۵۸؛ البدایه والنهایه: ۳۵۴/۶؛ تاریخ الخمیس: ۲۳۳/۱.

فهل يصحُ أن يوصفَ هذا الرجل - على هذه السوابق السوداء، ومع هذا الملفّ المخزى - بسيف اللّه، وأن يُعدَّ من أَمراء الإسلام المجاهدين الصالحين؟!!(۱).

ص:۵۸۰

۱- . لقد وَرَد ذِكر هذه الحادثه فى كتب التاريخ فى حوادث السنه الأُولى من حكومه «أبى بكر» بصوره مفصّله وقد ذكرناها ملخّصه. وللوقوف على تحليل هذه القضيه المؤسفه راجع كتاب: النص و الاجتهاد: ۱۰۸-۱۳۸، تحقيق أبو مجتبى، قم، ط ۱- ۱۴۰۴ ه.

۵۱ معرکه حنین

اشاره

کانت طریقهُ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عند فتح أیّه منطقه من المناطق هی أن یقوم بنفسه بإداره شؤونها السیاسیه والدینیه مادام هو فیها، فإذا أراد أن یغادرها عیّن أفراداً صالحین للقیام بتلک الأُمور، وشغل تلک المناصب؛ لأنّ الناس فی تلک المناطق کانوا قد اعتادوا علی النظام السابق، ولم یکن لهم معرفه بالنظام الجدید، هذا من جهه، ومن جهه أُخری فإنّ الإسلام دینٌ متکامل، ونظامٌ سیاسی، اجتماعی، أخلاقی، معنوی یستمد قوانینهُ من منبع الوحی الطاهر، ویحتاج إیقاف الناس علی تلکم القوانین والتعالیم، وتطبیقها العملی إلی أفراد صالحین متمرّسین ومدرَّبین علی التثقیف والتطبیق الصحیحین، لیمکنهم إیقاف الناس فی تلک المناطق علی مبادئ الإسلام وأُصوله الصحیحه، وتنفیذ البرنامج السماوی الإسلامی فی حیاتهم علی النحو الصحیح.

وقد فعل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم هذا عند فتح مکّه، فإنّه صلی الله علیه و آله و سلم بعد أن قرّر مغادره مکّه والمسیر إلی قبیلتی «هوازن» و «ثقیف» عیَّن «معاذ بن جبل» لیعلِّمَ الناس القرآن، وأحکام الإسلام، و «عتابَ بن أُسید» الّذی کان رجلاً مؤهَّلاً، لإداره الأُمور، والصلاه بالناس جماعه، ثم غادر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مکّه بأصحابه بعد أن مکث فیها

خمسه عشر يوماً متوجّهاً إلى أرض هوازن(۱).

جيشٌ قليل النظير

كان الجيش الّذى سار به رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى هوازن يبلغ (۱۲) ألفاً من الجنود المسلّحين: عشره آلاف هم الـذين صـحبوه من المـدينه، وشاركوا فى فتـح مكّه، وألفان من رجال وشـباب قريش الذين أسـلموا بعد الفتح، وقد أوكل النبى صلى الله عليه و آله و سلم قيادتهم إلى أبى سفيان(۲).

ولقـد كان مثل هـذا الجيش العظيم والجمع الكبير قليل النظير، ونادر المثيل فى تلك العصور، وقد صارت هذه الكثره ذاتها سـبباً فى هزيمته فى مبـدأ الأمر، فقـد أعجب أفراد هـذا الجيش بكثرتهم - على خلاـف مـا مضـى - فتجـاهلوا التكتيكـات العسـكريه الدقيقه، وغفلوا عن خطط العدو ونواياهُ فكان ذلك داعياً إلى هزيمتهم!!

فقد قال أبوبكر لمّا رأى كثره المسلمين: لو لَقِينا بنى شيبان ما بالَينا، ولا يغلبنا اليومَ أحدٌ من قِلّه(۳).

ولكنّه لم يكن يعرف أنّ الانتصار ليس هو بكثره الأفراد وضخامه الجيش، بل أنّ هذا العامل غير مهمّ بالقياس إلى بقيه العوامل.

ولقد أشار القرآن الكريمُ إلى هذه الحقيقه إذ قال تعالى:

«لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِى مَواطِنَ كَثِيرَهٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ

۱- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ۱۳۷/۲، والمغازى: ۸۸۹/۲.

۲- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ۱۳۹/۲، المغازى: ۸۸۹/۲.

۳- . المغازى: ۸۸۹/۲.

عَنْكَمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» .(۱)

الحصول على المعلومات العسكريه

بعد فتح مكّه دبّت حركهٌ خاصّه فى قبائل هوازن وثقيف، وجرت اتّصالات مكثّفه بينها، وكان حلقه الاتّصال، والمدبّر الحقيقى لهذه التحرّكات، شابٌ عُرف بالفروسيه والشجاعه يُدعى «مالك بن عوف النصرى».

وقد تقرّر بعد سلسله من الاتصالات والمداولات بين زعماء هوازن وثقيف أن تبادر القبيلتان المذكورتان إلى توجيه ضربه قويه إلى جيش الإسلام عبر خدعه عسكريه، قبل أن يغزوها جنود الإسلام فى عقر دورها.

فقد اختارت لقياده هذه المهمه شاباً متهوّراً فى العقد الثالث من عمره هو «مالك بن عوف النصرى» الّذى أشرنا إليه عمّا قريب، واشترك فى هذه الغزوه جميع قبائل هوازن وثقيف بصوره موحّده.

فكان من تدبير هذا القائد أن اقترح على جيشه أن يجعلوا النساء والأطفال والأموال وراء ظهورهم، وعندما سألوه عن علّه ذلك الإجراء قال: أردتُ أن أجعل خلف كلّ رجل أهله وماله وولده ونساءه حتّى يقاتل عنهم(۲).

فقبل المشتركون فى تلك العمليه بأمر قائدهم هذا بالإجماع، وجعلوا أموالهم وأهليهم خلفهم.

وقد خالف شيخٌ مجربٌ حنّكته الحروب منهم يُدعى «دريد بن الصمّه» هذه الخطّه عندما سمع رغاء البعير، وثغاء الشاه، وخوار البقر، وبكاء الصغير، وجادل فيها مالكاً، واعتبرها خطّه فاشله من الناحيه العسكريه وقال للناس: يا معشر

۱- . التوبه: ۲۵.

۲- . المغازى: ۸۸۷/۲-۸۸۸.

هوازن واللّه ما هذا لكم برأى، هذا فاضحُكَم فى عورتكم، وممكَنٌ منكم عدوّكم.(۱)

ولكن مالكاً لم يعر كلام هـذا الشـيخ ونصـيحته اهتماماً وقال - وهو يتّهمه بالجهل بفنون القتال الحـديثه -: أنّك قد كبرت وكبر علمك، وحدث بعدك من هو أبصرُ بالحرب منك.

ولقد أثبت المسـتقبلُ صحّه ما قاله ذلك الشيخ المحنَّك فإنّ إشراك النساء والأطفال والأنعام فى الحرب، وإخراجهم إلى ساحه القتال أحدث لمقاتلى ثقيف وهوازن مشاكل كثيره، فيما بعد.

ثم إنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم لمّـا سـمع بتحرّكـات هاتين القبيلتين بعث «عبـداللّه بن حـدرد الأسـلمى»، وأمره أن يدخل فى هوازن وثقيف فيقيم فيهم حتّى يعرف بنواياهم وخططهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق الرجل إليهم ثم عاد إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأَخبارهم.

وكان «مالك بن عوف» قائد هوازن وثقيف قد بعث بدوره ثلاثه جواسيس ليتجسّسوا له على المسلمين، ويأتوه بأخبارهم، فعادوا بأجمعهم فزعين ممّا شاهدوه من قوه المسلمين وكثرتهم.

فقرر قائدُ العدوّ أن يُجبر ضـعف جنوده وقلّتهم باسـتخدام الخدع العسـكريه، والتوسّل بأُسلوب المباغته ليفرّق - بهجوم مفاجئ - صفوف المسـلمين، ويهدم نظامهم وانسـجامهم، ويصـيبهم بالهرج والمرج، والفوضى والحيره ليختلّ باختلال الجيش أمر القياده، فلا تتمكّن من ضبط الأُمور، وتحقيق انتصار على المسلمين.

۱- . المغازى: ۸۸۸/۲.

ولتحقيق هـذا الهدف هبط «مالك بن عوف» بجيشه فى واد ينحدر إلى منطقه «حنين»، وأمر بأن يختفى الجنود والمقاتلون خلف الصـخور والأحجار، وفى شغاف الجبال، وكلّ ما ارتفع من ذلك الوادى ونشز، حتّى إذا انحدر جنود الإسلام فى هذا الوادى فى غفله من هـذا التـدبير خرج رجـالُ هوازن وثقيف من مكـامنهم، وكمـائنهم، ورموا المسـلمين الغافلين عن خطّه العـدو، بالحجاره والنبل، ثم يخرج إليهم فريق فى أسفل الوادى ويضربونهم بالسيوف!!

تجهيزات المسلمين

كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عارفاً بقوه العدوّ وعناده فدعا «صفوان بن أُميّه» قبل مغادره مكّه، واستعار منه مائه درع بأداتهـا كامله عاريه مضـمونه، ولبس رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم نفسُه درعين كما لبسَ المغفر والبيضه، وركب بغلته البيضاء وسار خلف جيشه وسار حتّى دَنوا جميعاً من الوادى فاستراحوا ليلتهم عنـد فم الوادى، ومع غلس الصـبح انحـدرت كتيبه «بنى سليم» بقياده «خالد بن الوليد» فى وادى «حنين»، وبينما دخل أكثر جنود الإسلام ذلك الوادى حمل عليهم رجالُ هوازن من كمائنهم فى مضـيق الوادى وشـعابه حمله رجل واحد، وأخذوا يرشـقونهم بالأحجار والنبال، فألقت أصواتُ الأحجار والنبال فزعاً شديـداً فى قلوب المسـلمين الـذين مُطروا بالسـهام والنبـال والأحجـار من جـانب، بينما احتوشـهم فريقٌ آخر من هوازن بسـيوفهم ووقعوا فيهم ضرباً وقتلاً.

أجل لقد فعلت مكيده هوازن فعلتها فى قلوب المسـلمين، فقد أوحشتها، وأصابت المسلمين بالفوضى، وخلخلت صفوفهم فلاذوا بالفرار من دون اختيار، وقد أخلّوا هم بنظامهم أكثر ممّا فعله العدوُّ بهم.

ففرح المنافقون فى جيش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لهذا الحادث، وسرّوا به سروراً

عظیماً حتّی قال أبوسفیان شامتاً: لا تنتهی هزیمتُهم دون البحر، وقال آخر: ألا بطَلَ السحرُ الیوم، وقال ثالثٌ: لا یجتبرها محمَّد وأصحابه، وعزم رابعٌ علی اغتیال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی ذلک الوضع المضطرب وإطفاء شعله رسالته المقدّسه(۱).

صمود النبی ومَن ثَبتَ من أصحابه

لقد أزعج فرارُ المسلمین الّذی کان نابعاً - فی الدرجه الأُولی - من الفزع والفوضی الّتی أصابتهم، رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وأدرک صلی الله علیه و آله و سلم بأنّه لو تأخّر لحظه واحده عن فعل ما یجب أن یفعله لتغیَّر وجهُ التاریخ ولتبدّل مسار البشریه، ولحطّم جیش الشرک جیش التوحید.

من هنا صاح بأعلی صوته وهو علی بغلته:

«یا أنصار اللّه وأنصار رسوله أنا عَبدُ اللّه ورسولُه».

قال هذا واندفع ببغلته إلی ساحه القتال فی المکان الّذی جعله «مالک» وجنودُه مسرحاً لمهاجمه المسلمین ومباغتتهم وقتالهم، ومشی معه مَن لازمه فی تلک اللحظات وثبتوا معه کعلی بن أبی طالب علیه السلام والعباس بن عبدالمطلب، والفضل بن العباس، وأبی سفیان بن الحارث - الّذین لم یغفلوا عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم منذ بدء القتال لحظه واحده -، وأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عمَّه العباس الّذی کان صاحب صوت عظیم أن ینادی فی المسلمین الّذین کانوا یواصلون فرارهم، ولا یلوون علی شیء:

«یا معشَر الأنصار، یا أصحاب السَّمُره»(۲).

۱- . المغازی: ۹۰۹/۲-۹۱۱؛ السیره النبویه لابن هشام: ۸۹۴/۴-۸۹۵؛ إمتاع الأسماع: ۱۷/۲.

۲- . تاریخ الطبری: ۳۴۸/۲. ولقد ذکر صاحب المغازی فی: ج ۹۰۲/۲ جانباً من بطولات علی علیه السلام وتضحیاته فی هذه الموقعه.

ویقصد من السمره الشجره الّتی کانت عندها بیعه الرضوان، فکان هذا النداء تذکیراً بتلک البیعه الّتی تعهدوا فیها لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بأن ینصروه حتّی الموت.

فبلغت صرخاتُ العباس مسامع المسلمین فثارت حمیتُهم، وأخذوا یثوبون إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهم یقولون: لبیک لبیک.

لقد أوجبتْ نداءاتُ العباس المتلاحقه الّتی کانت تخبر وتنبئ فی الحقیقه عن سلامه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن تعود الجماعات الهاربه من ساحه القتال إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وهی نادمه علی فرارها ندماً شدیداً، ونظّموا صفوفهم أمام العدو من جدید أفضل ممّا مضی، ثم حملوا حمله رجل واحد علی العدوّ الغادر بأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لغسل ما لحق بهم من عار الفرار، واستطاعوا فی أقصر مده من الوقت أن یجبروا العدوّ علی الانسحاب والفرار، والرسول القائد صلی الله علیه و آله و سلم یقول تشجیعاً لهم، وتقویه لمعنویاتهم:

«أنا النبی لا کذب

أنا ابن عبدالمطلب».

وقد تسبَّب استخدام هذا التدبیر العسکری الحکیم فی إرعاب رجال هوازن ومن ساعدهم من ثقیف المقاتلین، بشدّه بحیث انهزموا أمام هجوم المسلمین هذا هزیمه قبیحه ومنکره، تارکین وراءهم أموالهم ونساءهم وصبیانهم الذین أتوا بهم إلی ساحه المعرکه، وجعلوهم خلف ظهورهم بناء علی أوامر قائدهم مالک - کما أسلفنا - وفروا بعد أن قُتِلَ منهم جماعه إلی منطقه أوطاس ونخله، وقلاع الطائف.

غنائمُ الحرب

لقد بلغت خسائرُ المسلمين من الارواح فی هذه المعرکه ثمانیه أشخاص فی مقابل أسر سته آلاف نفر من العدو.

کما وأنّ المسلمین غنموا فی هذه الواقعه أربعه وعشرین ألف بعیر، وأربعین ألف رأس غنم، وأربعه آلاف أُوقیه(۱) من الفضه.

ثم إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أمر بأن یؤخذ الأسری والغنائم إلی منطقه تُدعی الجعرانه (وهی ماء بین الطائف ومکّه) وکلّف أشخاصاً معیّنین بحراستها وحفظها وجعل الأسری فی بیوت خاصّه، کما أمر بأن تُحفظ الغنائم من دون أن یتصرّف فیها أحدٌ فی ذلک المکان، ریثما یری فیها رأیه، بعد أن یلاحق فلول العدو الّذی فرّ إلی أوطاس ونخله والطائف(۲).

لقطتان من الخلق النبوی العظیم

وینبغی أن نشیر هنا إلی قصّتین تدلّان علی سمو الأخلاق النبویه، وعمق الرحمه الإسلامیه:

۱. بعد أن أعاد النبیُ المسلمین الهاربین إلی ساحه المعرکه فکرّوا علی هوازن وهزموهم هزیمه نکراء، قالت أُمّ سُلیم بنت ملحان للنبی صلی الله علیه و آله و سلم: یا رسول اللّه! ما رأیت هؤلاء الّذین أسلموا وفرّوا عنک وخذلوک!! لا تعفُ عنهمْ إذا أمکنک

۱- . الرطل ۲۵۶۴ غراماً، والأُوقیه ۱/۱۲ من الرطل فعلی هذا تکون الأُوقیه ۲۱۳ غراماً، وأربعه آلاف أُوقیه تساوی ۸۵۲ کیلو غراماً.

۲- . کتب ابن هشام فی سیرته أنّ عدد القتلی فی هذه المعرکه کان أربعه أشخاص، ولکن معرکه واسعه مثل هذه یتوقع أن یکون قتلاها أکثر من هذا العدد.

اللّه منهم، تقتلهم كما تقتُل هؤلاء المشركين!

فقال صلى الله عليه و آله و سلم: يا أُمّ سُليم! قد كفى اللّه، عافيه اللّه أوسعُ (۱).

وهكذا نجد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يعفو عن أصحابه الهاربين الذين خذلوه فى تلك الموقعه.

۲. حنق المسلمون على المشركين فى وقعه حنين فقتلوهم حتّى أخذوا فى قتل الذُريه، فلمّا بلغ ذلك رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قال: ما بالُ أقوام ذهب بهم القتلُ حتّى بلغ الذُريه! ألا لا تُقتلُ الذُريه.

فقال أُسيد بن الحضير: يا رسول اللّه أليس إنّما هم أولاد المشركين!

فقال: أو ليس خيارُكم أولادُ المشركين؟! كلّ نسمه تولَدُ على الفطره حتّى يعرب عنها لسانُها، وأبواها يهوّدانها أو ينصّرانها(۲).

۱- . إمتاع الأسماع: ۱۵/۲.

۲- . إمتاع الأسماع: ۱۵/۲-۱۶.

۵۲ غزوه الطائف

اشاره

«الطائف» من مصایف الحجاز ومِنَ المناطق الخصبه، الکثیره الزرع فیها، وتقع الطائف فی الجنوب الشرقی من مکّه علی بعد (۱۲) فرسخاً منها، وقد کانت ولا تزال بسبب مناخها اللطیف، وبساتینها المثمره، ونخیلها الکثیر مقصداً بل مرکزاً وموطناً لطلّاب اللّذه والراحه من أهل الحجاز.

وقد کانت قبیله ثقیف الّتی کانت تُعدُّ من القبائل العربیه القویه الکثیره العدد تسکن فی هذا البلد.

وکانت أعراب ثقیف من الذین شارکوا فی معرکه «حنین» ضدّ الإسلام والمسلمین، ثم لجأوا بعد الهزیمه المنکره الّتی لحقت بهم علی أیدی جنود الإسلام الضافرین إلی بلدهم الّذی کان لهم فیه آنذاک حصن قویّ ومنیع.

ولتکمیل الانتصار الإسلامی أمر الرسولُ القائدُ صلی الله علیه و آله و سلم بملاحقه الهاربین المنهزمین فی معرکه حنین.

من هنا کلّف صلی الله علیه و آله و سلم أبا عامر الأشعری وأبا موسی الأشعری وفریقاً من جنود الإسلام بملاحقه من لجأ منهم إلی «أوطاس» فقُتِل القائدُ الأوّل فی هذه الواقعه،

واستطاع الثانی أن یحرز انتصاراً کبیراً علی العدو ویفرّق جمعه(۱).

وأمّا النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم نفسه فقد توجّه بالبقیه من جیشه الی الطائف(۲)، ومرّ فی طریقه علی حصن «مالک بن عوف النصری» مثیر فتنه «حنین» ورأس المؤامره، فهدمه وسوّاه بالأَرض.

علی أنّ تهدیم حصن «مالک» لم یکن بدافع انتقامیّ، بل کان لأجل أن لا یترک وراءه نقطه اعتماد وملجأ للعدوّ.

تحرّکت أعمده الجیش الإسلامی الواحده تلو الأُخری، واستقرّت حول مدینه الطائف.

کان حصن الطائف حصناً منیعاً، مرتفع الجدران، قوی البنیان، فیه أبراجٌ للمراقبه مسیطرهٌ علی خارج الحصن سیطره کامله.

ومنذ أن استقرّ الجیش الإسلامی خارج الطائف بدأ حصارَه لها، غیر أنّ الحصار لم یتکاملْ بعدُ حتّی عمَدَ العدو إلی رمی المسلمین للحیلوله دون تقدّمهم نحو المواقع المرسومه لهم، فقُتِل بهذا جماعه من المسلمین فی بدایه هذه الواقعه.

فأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الجیش بالانسحاب والتراجع التکتیکی إلی نقطه بعیده عن مرمی العدوّ، والتمرکز فیها ریثما تصدر الأوامر الجدیده.

وهنا اقترح «سلمانُ الفارسی» الّذی سبق له أن اقترح حفر الخندق فی معرکه الأحزاب، وکان ذا خبره بفنون القتال، اقترح علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بأن یرمی

۱- . المغازی: ۹۱۵/۲ و ۹۱۶.

۲- . بحار الأنوار: ۱۶۳/۲۱.

الحصن بالمنجنيق(۱)، وهذا الجهاز الّذی کان یُستخدم فی حروب تلک الأعصر یؤدی نفس دور الدبابه فی الحروب الراهنه.

فقام أُمراءُ الجیش الإسلامی بنصب المنجنیق بإرشاد وتوجیه من سلمان، وأخذوا یرمون الحصن المذکور وأبراجه الشاهقه بالحجاره طوال عشرین یوماً متوالیه.

ولکن العدوَّ لم یسکتْ تجاه هذه العملیات القویه الّتی بدأها المسلمون، فزاد من رمیه واستمر فی ذلک، فوقعت بین المسلمین بعضُ الإصابات نتیجه ذلک(۲).

والآن یجب أن نری کیف حصل المسلمون علی جهاز المنجنیق، هذا؟

یری البعض أنّ سلماناً هو الّذی صنع هذا الجهاز وعلّم المسلمین کیفیه استخدامه فی هذه الغزوه(۳).

ویری آخرون أنّ المسلمین حصلوا علی هذا الجهاز وغنموه من الیهود فی خیبر عند فتح قلاعهم وحصونهم واصطحبوه معهم إلی الطائف واستخدموه فی غزوها.

ولا یبعد أنّ الصحابی الجلیل سلمان الفارسی قد ادخل بعض التحسینات علی ذلک المنجنیق الّذی جلبه المسلمون من خیبر، وعلّم المسلمین کیفیه نصبه واستخدامه فی القتال، فإنّه یستفاد من التاریخ أنّ المنجنیق لم یکن منحصراً فی المنجنیق الّذی حُصِل علیه من یهود خیبر، لأنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بعث الطفیل بن عمرو

۱- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۲۱/۲.

۲- . الطبقات الکبری: ۱۵۸/۲.

۳- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۲۱/۲ و ۲۳ و ج ۲۶۶/۹.

الدوسی لتحطیم أصنام لقبیله «دوس» فی وقت متزامن مع خروجه إلی معرکه حنین ثم الطائف فعاد الطفیل فاتحاً مع من خرجوا تحت إمرته من جنود الإسلام الأربعمائه، وکانوا برمّتهم من أبناء قبیلته، فقد قدم الطائف علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مع آله منجنیق واحده وعربتین حربیتین خاصتین، وقد استُخدمت هذه الآلیات فی غزوه الطائف.

شدخُ جدار الحصن بالمنجنیق

کان لابدّ لإخضاع العدو ودفعه إلی الاستسلام من القیام بحملات واسعه ومن مختلف الأطراف والنواحی، ولهذا تقرّر أن یقوم جنود الإسلام، مضافاً إلی رمی الحصن بالمنجنیق، بإیجاد ثغره فی الجدار فواجهوا مشکله کبری، لأنّ السهام والأحجار، والنیران کانت تنصبُّ علی رؤوس المقاتلین المسلمین کالمطر، ولم یکن فی مقدور أحد منهم الاقتراب والدنوّ من جدار الحصن، فکان أفضل وسیله لتحقیق هذا الهدف هو استخدام الدبابه الّتی کانت فی جیوش العالم الکبری فی تلک العصور فی صورتها البدائیه.

وکانت الدبابه آنذاک تُصنَعُ من الخشب وتُغطی بجلود البقر، ویدخل تحتها جماعهٌ من الجنود الأقویاء ثم تتحرّک نحو الحصن حتّی تدنو إلیه، ویقوم الجنودُ بعملیه إیجاد ثغره أو نقَب فی جدار الحصن، فاستخدم نفرٌ من جنود الإسلام الشجعان الأشداء هذا الجهاز بالطریقه المذکوره، بید أنّ العدو قد حال دون هذا العمل إذ ألقی علی الدبابه سککَ الحدید المحماه بالنار فأخرب سقفها، واضطرَّ أفرادها إلی الخروج منها، فرمتهم ثقیف بالنبل فقتلت منهم رجلاً ـ واحداً ولم یؤثر، ولم ینجح هذه التکتیک القتالی، ولم یتحقّق أیُ نجاح فی هذا المجال، فانصرف

المسلمون عن استخدامه(۱).

ضغوطٌ اقتصاديه ونفسيه

إنّ تحقيق الانتصار لا ينحصر فی مجرّد استخدام الطرق والتكتيكات العسكريه، بل للقائد الحكيم أن يستخدم - لإضعاف قوه العدو وكسر صموده - الضربات والضغوط الاقتصاديه ويجبره على الاستسلام.

وقد تكون الضربهُ النفسيه والاقتصاديه أقوى مفعولاً بدرجات أی إنّ أثرها يفوق بمراتب عديده أثر الضربه العسكريه، والإضرار البدنی الّذی يلحق بجنود العدو وأفراده.

ولقد كانت أرض الطائف أرض زراعه، ونخيل وأعناب، وكانت معروفه فی الحجاز بخصبها، وكثره محاصيلها وخيراتها، لأنّ أهلها كانوا يجهدون كثيراً فی تنميه نخيلهم وأعنابهم ورعايتها، ويُولُون الحفاظ عليها اهتماماً كبيراً، ويعطون هذا الأمر القسط الأكبر من جهودهم.

فأعلن رسولُ اللّه صلی الله عليه و آله و سلم لتهديد المتمردين اللاجئين إلی الحصن، والمعتصمين به، بأنّه سيعمد إلی قطع أعناب ثقيف، وإفناء مزارعها إذا واصل المعتصمون بالحصن مقاومتهم ولم يسلّموا للمسلمين.

فلم يكترث العدوُ بهذا التهديد؛ لأنّه لم يكُ يتصوّر أنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم - وهو النبی الّذی عُرف برحمته ورأفته - يستخدم مثل هذه الطريقه.

وفجأه وجدت «ثقيف» أنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم أصدر أوامره بقطع الأعناب، وإتلاف المزارع وتحريقها، فوقع المسلمون فيها يقطعون ويحرقون.

۱- . لاحظ: المغازی: ۹۲۸/۲.

فعجّت «ثقيفٌ» لذلك وضجّت، واستغاثت برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأقسمت عليه بالرحم والقرابه أن يكفَّ عن ذلك، فتركها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم احتراماً لوشيجه القربى الّتى كانت بينه وبين «ثقيف».(۱)

إنّ المعتصمين بحصن الطائف وإن كانوا من مثيرى معركه حنين والطائف، وتلك الغزوتان اللّتان كلّفتا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الكثير من الخسائر والمتاعب غير أنّه صلى الله عليه و آله و سلم قَبِل مع ذلك التماس العدو وطلبه هذا، فأبدى ولمرّه ثانيه وجه الإسلام الرحيم وكشف عن إنسانيته فى التعامل مع العدوّ اللدُود فى ميدان القتال، وأمر أصحابه بالكفّ عن قطع الأعناب وتحريقها.

ثم إنّ مع ما نعرفه ونعهدهُ من أخلاق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأساليبه الإنسانيه فى مجال التعامل مع العدوّ، يمكننا أن ندرك بسرعه أنّ الامر بقطع الأعناب وتحريق المزارع كان مجرّد تهديد ومحاوله ضغط على العدو بحيث إذا لم تنجح هذه الطريقه معه لكفَّ عنها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حتماً.

***

آخر محاوله لفتح حصن الطائف

كانت قبيله «ثقيف» جماعه ثريّه، وذات مال كثير، وعبيدٍ وإماءٍ كثيرين، ولكى يحصل رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على معلومات دقيقه عن الأوضاع فى داخل الحصن، ويعرف بالتالى حجم إمكانات العدو ومدى استعداداته من جهه، ويوجد الاختلاف فى صفوفه من جهه أُخرى، أمر أن يعلن عن القرار التالى: و ينادى: أىُ عبد نزَل من الحصن وخرَج إلينا فهو حرٌّ.

۱- . لاحظ المغازى: ۹۲۸/۲.

ونَفعَتْ هذه الطريقه إلى حدّ مّا، فقد خرج من الحصن بطريقه ماهره حوالى بضعه عشر رجلًا من عبيد ثقيف ورقيقهم، والتحقوا بصفوف المسلمين فعرف رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من خلال التحقيق معهم أنّ المعتصمين بالحصن لا ينوون الاستسلام، وأنّهم مستعدون للمقاومه حتّى لوطال الحصار عاماً واحداً، فإنّهم قد أَعدُّوا لمثل هذا الحصار الطويل الطعام الكافى، ولن يقعوا فى أزمه بسبب طول الحصار.

جيشُ الإسلام يعود إلى المدينه

استخدم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه الغزوه جميع الأساليب والتكتيكات العسكريه الماديه والنفسيّه ضدّ العدوّ، وقد أثبتت التجربهُ أنّ فتح الحصن يحتاج إلى مزيد من الصبر و العمل، على حين لم تكن ظروفُ الجيش الإسلامى وإمكاناته - يومذاك - لتسمح بذلك القدر من الصبر والترقّب، والانتظار والتوقّف، أكثر ممّا توقّف ومكث فى تلك المنطقه وذلك:

أولاً: لأنّه قُتِلَ فى أثناء هذه المحاصره (١٢) مسلماً سبعه منهم من قريش، وأربعه من الأنصار، ورجل واحد من قبيله أُخرى.

هذا مضافاً إلى مَن استشهد من المسلمين فى وادى «حنين» إثر هجوم العدوّ الغادر، وانفراط صفوف الجيش الإسلامى، والذين لم يذكر التاريخُ - مع الأسف - أسماءهم، وخصوصياتهم، ولهذا كان قد دبَّ نوعٌ من التعب فى نفوس جنود الإسلام لم يكن من الصالح تجاهلُه.

وثانياً: أنّ شهر شوال قد انتهى، وبدأ شهر ذى القعده الّذى كان معدوداً عند العرب من الأشهر الحرُم، وقد أيّد الإسلام فيما بعد هذه السُّنّه، وأكّد حرمه الأشهر الحُرم.

من هنا كان من الضروری - حفاظاً علی هذه السُّنّه -(۱) إنهاء الحصار فی أقرب وقت لکی لاتتّهمُ عربُ ثقیف رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بمخالفه السُّنّه الصالحه وخرقها.

أضفْ إلی ذلک دُنوَّ حلول موسم الحج، مع العلم بأنّ إداره ذلک الموسم ومناسکه کانت فی ذلک العام للمسلمین، بعد أن کانت - قبل ذلک - تُدار بواسطه المشرکین وبرعایتهم.

ولا شکّ أنّ موسم الحج الّذی کان سبباً لحصول اجتماع بشریّ عظیم من سکان الجزیره العربیه کان یوفّر أکبر وأفضل فرصه لتبلیغ الإسلام وبیان حقیقه التوحید، وکان علی النبی صلی الله علیه و آله و سلم أن یستغلَ هذه الفرصه العظیمه الّتی أُتیحت له لأوّل مره، فی مجال الدعوه، ویستفید منها أکبر قدر ممکن ویولی اهتمامه لقضایا أُخری أکثر أهمیّه وخطوره من فتح حصن واقع فی منطقه نائیه.

مع أخذ هذه الظروف بنظر الاعتبار ترک الرسول القائد صلی الله علیه و آله و سلم حصار الطائف وعاد بجیشه إلی الجعرّانه الّتی جعلها محلّاً لحفظ أسری حنین وغنائمها.

حوادث ما بعد الحرب

انتهت حوادثُ معرکه «حنین» و «الطائف» وعاد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من دون تحقیق نتیجه قطعیه إلی «الجعرّانه» لتقسیم غنائم معرکه «حنین».

۱- . ویدلُّ علی هذا الأمر أنَّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تَرک مکّه متوجّهاً إلی الطائف فی الخامس من شهرشوال واستغرقت مدهُ الحصار عشرین یوماً، وصرفت بقیّه الأیام (وهی خمسه) فی المسیر إلی حنین، وفی المعرکه. وقولنا بأنّ الحصار طال عشرین یوماً یستند إلی روایه نقلها ابن هشام، إلّاأنّ ابن سعد ذکر مده الحصار أربعین یوماً (الطبقات الکبری: ۱۵۸/۲).

والغنـائم الّتی حصل علیها المسـلمون فی معرکه «حنین» کانت من أکبر الغنائم الّتی غنموها طوال المعارک الإسـلامیه کلّها، لأنّ رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم یوم قدم «الجعرّانه» کان هناک سـته آلاف أسـیر، و (۲۴) ألف من الإبـل وأکثر من (۴۰) ألـف رأس غنم و (۸۵۲) کیلو غرامـاً من الفضه یحافظ علیها فی مرکز الغنائم(۱)، وکان من الممکن أن تسـدّد القیاده من هـذه الغنائم قسماً کبیراً من میزانیه الجیش الإسلامی.

لقد مکث رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم فی «الجعرّانه» ثلاثه عشـر یوماً، وفی هذه المدّه قسَّم تلک الغنائم بطریقه خاصّه ملفته للنظر وجدیره بالتأمّل والدراسه.

فقد خلّی سبیل بعض الأسری، وترکهم لذویهم، وخطَّط لإخضاع (أو بالأحری إسلام) مالک بن عوف النصری مثیر معرکه حنین والطائف الهارب، کما أظهر تقدیره وشـکره لمواقف الأشـخاص فی هاتین الغزوتین وخدماتهم، وجذب بسیاسته الحکیمه أعداء الإسـلام ورغّبتهم فی عقیـده التوحیـد الشـریفه، وأنهی نقاشـاً حـدث بینه وبین جمـاعه الأنصار حول طریقه تقسـیم الغنائم بخطبه جمیله.

وإلیک تفصیل الکلام فی المواضیع المذکوره:

۱. لقـد دأب رسولُ الإسـلام صـلی الله علیه و آله و سـلم علی احترام حقوق الأفراد، وتثمین جهودهم مهما ضؤلت ودقّت، وعلی أن لا یبخس أحـداً عمله، فإذا أحسن إلیه أحدٌ قابل إحسانه بما یزید علیه أضـعافاً مضاعفه. وکان ذلک من أبرز صـفاته وأخلاقه صلی الله علیه و آله و سلم.

فقد رضعَ رسولُ اللّه صـلی الله علیه و آله و سلم وترعرع فی قبیله بنی سعد الّتی هی من قبائل هوازن، وقد أرضعته امرأهٌ من هذه القبیله تُدعی «حلیمه السعدیه»، وقد بقی فی تلک القبیله خمسه أعوام.

۱- . الطبقات الکبری: ۱۵۲/۲.

وقد شاركت قبيله بنى سعد فى معركه حنين ضدَّ الإسلام فسُبيت بعض نسائهم وأطفالهم على أيدى المسلمين، كما وقعت بعضُ أموالهم بأيديهم أيضاً، وقد ندمت على فعلها ندماً شديداً.

وقد كانوا يعلمون أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم نشأ وترعرع فيهم، ورضع بلبن نسائهم هذا من ناحيه، ومن ناحيه أُخرى كانوا يعرفون أنَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ملء قلبه الرحمه والمروءه ومعرفه الجميل، فإذا سَنَح لهم أنْ يذكِّروه بذلك لأطلق أسراهم حتماً.

فقدمَ وفد هوازن وكان فى الوفد عمّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم من الرضاعه قال يومئذٍ: يا رسولَ اللّه إنّما فى هذه الحظائر من كان يكفُلك من عماتِكَ وخالاتك، وحواضنك، وقد حضنّاك فى حجورنا وأرضعناك بثدينا، ولقد رأيتُك مرضعاً فما رأيتُ مرضعاً خيراً منك، ورأيتُك فطيماً فما رأيتُ فطيماً خيراً منك، ثمّ رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منكِ، وقد تكاملَتْ فيك خلال الخير، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتُك فامْننْ علينا مَنَّ اللّه عليك.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: قد استأنيت بكم حتى ظننت أنّكم لا تقدمون وقد قسم السبى وجرت فيهم السهمان. وقدم عليه أربعه عشر رجلاً من هوازن مسلمين وجاءُوا بإسلام من وراءهم من قومهم، فكان رأس القوم والمتكلّم أبو صرد زهير بن صرد فقال: يا رسول اللّه... إنّما فى هذه الحظائر عماتُك وخالاتُك وحواضنُك اللّاتى كنَّ يكفُلنَكَ، ولو أنّما مَلحْنا للحارث بن أبى شمر، أو النعمان بن المنذر، ثمّ نزلا منّا بمثل الّذى نزلت به رجونا عطفَهما وعائدتهما علينا وأنت خير المكفولين.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لهم:

«إنّ أحسَنَ الحديث أصدقُه، وعندى مَن ترون من المسلمين، فأبناؤُكم ونساؤُكم أحبُّ إليكَم أَمُ أموالكم»؟

قالوا: يا رسول اللّه خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا وما كُنّا نعدلُ بالأحْساب شيئاً، فرُدَّ علينا أبناءنَا ونساءنا.

فقال صلى الله عليه و آله و سلم:

«أمّا ما لى ولبنى عبدالمطلب فهو لَكُمْ وأسأل لكم الناس، وإذا صلّيتُ الظهرَ بالناس فقولوا: إنّا لنستشفعُ برسول اللّه إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول اللّه فإنّى سأقول لكمْ: ما كانَ لى ولبنى عبدالمطّلب فهوَ لكمْ وسأطلبُ لكم إلى الناس». فلمّا صلّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الظهرَ بالناس قاموا فتكلّموا بالذى أمرهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقالوا: إنا نستشفع برسول اللّه إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول اللّه.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أمّا ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم.

فقال المهاجرون: فما كانَ لنا فهو لرسول اللّه.

وقال الانصارُ: ما كانَ لنا فهو لرسول اللّه.(۱)

وهكذا وهب الأنصارُ والمهاجرون نصيبَهم من الأسرى تبعاً لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ولم يتأخّر عن ذلك إلّاقليلون مثل «الأقرع بن حابس» و «عيينه بن حصن» فقد امتنعا عن أن يهبا نصيبهما، ويطلقا سراح ما عندهم من السبايا، فقام رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقال: إنّ هؤلاء القوم جاءُوا مسلمين وقد استأنيتُ بهم، فخيّرتُهم

۱- . المغازى: ۹۴۹/۲-۹۵۱.

بين النساء والأبناء، والأموال، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء، فمَن كان عندَهُ منهنَّ شيء فطابت نفسه أن يردَّه فليرسلْ، ومن أبى منكم وتمسّك بحقه فليردَّ عليهم، وليكن فرضاً علينا ست فرائض (أى سوف أعطيه بدل الواحد ستاً) من أول ما يفيء اللّه به علينا(۱).

فكان لعمل النبى صلى الله عليه و آله و سلم هذا أثرٌ عظيم فى نفوس المسلمين حيث خلّوا سبيل جميع مَن كان فى أيديهم من الأسرى والسبايا إلّاامرأه عجوزاً امتنع «عيينه» من ردّها إلى ذويها.

وهكذا أثمر عمل صالحٌ غُرست شَتلته - قبل ستين عاماً - فى أرض قبيله بنى سعد على يدى حليمه السعديه، فأتت أُكلَها بعد مده طويله وأُطلق بفضل ذلك العمل الصالح سراح الأسرى والسبايا من هوازن(۲).

النبى صلى الله عليه و آله و سلم يلتقى الشيماء أُخته من الرضاعه

ثمّ إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم دعا أُخته من الرضاعه «الشيماء»(۳) وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، ودمعت عيناه، وسألها عن أُمّه وأبيه (من الرضاعه)، فأخبرته بموتهما... وخيّرها صلى الله عليه و آله و سلم: «إن أحببت فأقيمى عندى محبَّبه مكرَّمه، وإن أحببت أن أُمتّعك وترجعى إلى قومك».

فقالت: بل تُمتّعنى وتردّنى إلى قومى، فمتَّعها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وردَّها إلى

۱- . المغازى: ۹۵۲/۲.

۲- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ۱۵۳/۲ و ۱۵۴، السيره النبويه لابن هشام: ۹۲۵/۴، والحادثه التاريخيه هذه جسَّدت مضمون قول اللّه تعالى: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (النحل: ۹۷).

۳- . هى الشيماء بنت الحارث بن عبدالعزى بن رفاعه. الإصابه: ۲۰۵/۸ برقم ۱۱۳۹۰.

قومها، وأعطاها غلاماً يقال له مكحول وجاريه، وقيل: بل أعطاها (رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم) ثلاثه أعبُد وجاريه ونعماً وشاء.(۱)

وقد قوّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بإخلائه سبيل جميع أسرى هوازن وسباياها من رغبه هوازن فى الإسلام، فأسلموا من قلوبهم، وهكذا فقدت «الطائف» آخر حليف من حلفائها.

۲. اسلام مالک بن عوف

فى هذه الأثناء اغتنم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الفرصه ليعالجَ مشكلته مع «مالک بن عوف النصرى» مثير حرب حنين، عن طريق وفد بنى سعد وذلک بترغيبه فى الإسلام وعزله عن حليفه: «ثقيف».

ولهذا سألهم عن مالک بن عوف ما فعَل؟ فقالوا: يا رسولَ اللّه هو بالطائف مع ثقيف.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«أخبروا مالکاً أنّه إنْ أتانى مُسلِماً ردَدتُ عليه أهلَه ومالَهُ وأعطيتُهُ مائه مِنَ الإبل».(۲)

فبلّغَ وفدُ هوازن مالکاً كلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأمانَهُ المشروط، فقرَّر مالکٌ الّذى كان يرى بأُمّ عينيه تعاظم أمر الإسلام واشتداد أزره كما رأى رحمه النبى ولطفه، أن يخرج من الطائف، ويلتحق بالمسلمين، ولكنّه كان يخشى أن تعرف «ثقيف» بنيّته فتحبسه فى الحصن، ولهذا عمَد إلى خطّه خاصّه للفرار، فقد أمر

۱- . السيره الحلبيه: ۹۳/۳؛ الإصابه: ۲۰۵/۸.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۲۷/۴.

براحلته فهُيِّئت له، وأمر بفرسٍ له فأتى به إلى الطائف، فخرج ليلاً فجلس على فرسه، فركَّضهُ حتّى أتى راحلتَه حيث أمر بها أن تُحبس فركبها، فلحق برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فأدركُه بالجعرانه أو بمكّه، فردّ عليه (النبى صلى الله عليه و آله و سلم) أهلَه وماله، وأعطاه مائه من الإبل كما وَعدَ من قبل، وأسلم فحسُن إسلامه، ثم استعمله رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على مَن أسلم من قومه وقبائل «ثماله» و «سلمه» و «فهم».

وقد أنشد «مالك بن عوف» أبياتاً عندما أسلم يصف فيها أخلاق رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الكريمه، ويمدحه أجمل مديح إذ يقول:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله فى الناس كلّهمُ بمثل محمَّد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدى ومتى تَشأْ يخبْرك عمّا فى غد

وإذا الكتيبه عرَّدتْ أنيابُها بالسمهرىّ وضرب كلّ مهنَّد

فكأنَّه ليثٌ على أشباله وسط الهباءه خادرٌ فى مرصد

وصار يقاتل بتلك القبائل ثقيفاً لا يخرج لهم سرحٌ إلّاأغار عليه، حتّى ضيّق عليهم لما حصل عليه من مكانه وعزّه فى الإسلام، وبعد أن أدرك قُبح موقف «ثقيف»(۱).

۳. تقسيم الغنائم

كان أصحابُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يلحّون عليه أن يسرع فى تقسيم غنائم الحرب، ولكى يدلّل النبىُّ الكريم صلى الله عليه و آله و سلم على حياده الكامل فى تقسيم الغنائم قام إلى بعير فأخذ وبره من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها ثم قال:

«أيّها الناس واللّه مالى من فيئكم ولا هذه الوبْره إلّاالخُمس، والخُمس مردودٌ

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۲۷/۴-۹۲۸. وعرّدت أى عوّجت.

عليكم، فأدّوا الخياط والمخيط فإن الغُلولَ (أى الخيانه فى بيت المال) يكونُ على أهْله عاراً، وناراً، وشناراً يومَ القيامه».(۱)

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قسَّم أموال بيت المال بين المسلمين، وأمّا الخُمس الّذى هو حقُّه الخاصّ به فقد وزَّعه بين أشراف قريش الحديثى العهد بالاسلام يتألَّفهم، ويتألفُ بهم قومهُمْ، فأعطى من هذا المال ل: أبى سفيان بن حرب، وابنه معاويه، وحكيم بن حزام، والحارث بن الحارث، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، والعلاء بن جاريه، وصفوان بن أُميّه، وغيرهم ممّن كانوا يعادونه إلى الأمس القريب من رؤوس الشرك ورموز الكفر، لكلٍّ واحد منهم مائه بعير(۲). وقد كان لهذا العطاء السخىّ أثره الطيب والبالغ فى نفوس تلك الجماعه الّتى شملها رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم برحمته، ولطفه، وعنايته، وكرمه، واشتدت رغبتهم فى الإسلام.

وهذا الفريق هم من يُصطلح عليهم فى الفقه الإسلامى بالمؤلّفه قلوبُهم، وهم يشكّلون إحدى مصارف الزكاه بنصّ القرآن الكريم.

ويقول ابن سعد فى «الطبقات الكبرى» بعد أن ذكر قصّه هذا التقسيم الخاص للغنائم: وأعطى ذلك كلّه من الخمس وهو أثبت الأقاويل عندنا(۳).

ولقد شقّ هذا النوع من الأُسلوب فى تقسيم الغنائم وهذا النمط من البذل الّذى مارسه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، على بعض المسلمين، وبخاصّه الأنصار وقد جهلوا

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۲۹/۴.

۲- . راجع المحبّر: ۴۷۳، المغازى: ۹۴۴/۲-۹۴۸، السيره النبويه لابن هشام: ۹۲۹/۴-۹۳۲.

۳- . الطبقات الكبرى: ۱۵۳/۳.

بالمصالح الّتی کان یراعیها، والأهداف العلیا الّتی کان یتوخّاها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من هذا النوع من البذل والعطاء (وهو تخصیص حدیثی العهد بالاسلام بأکثر الغنائم).

لقد کانوا یتصوّرون أنّ التعصّب القبلی هو الّذی دفع بالرسول القائد صلی الله علیه و آله و سلم إلی أن یقسّم خمس الغنیمه بین أبناء قبیلته حتّی أنّ أحدهم (وهو ذو الخویصره التمیمی) قال لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بکل وقاحه: یا محمَّد قد رأیتُ ما صنعتَ فی هذا الیوم، لم أرکَ عدلت!!

فغضب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من کلامه هذا وقال:

«وَیحَکَ إذا لَمْ یکُنْ العَدلُ عِندی فِعندَ مَنْ یکونُ»؟!

فقال عمر بن الخطاب: یا رسول اللّه ألا أقتله؟ فقال صلی الله علیه و آله و سلم:

«لا، دعْهُ فإنَّه سیَکُونُ له شیعهٌ یتعمّقون فی الدین (أی یتتبعون أقصاه) حتّی یخرجوا منه کما یخرج السهمُ من الرمیّه»(۱).

وقد کان هذا الرجلُ - کما قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم - زعیم فرقه الخوارج فی عهد حکومه الإمام علّی علیه السلام، فهو الّذی قاد تلک الفرقه الخطره، غیر أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم لم یقدم علی عقوبته علی ما بدَر منه فیما بعد؛ لأنّ القصاص أو العقاب قبل الجنایه یخالف قواعد الإسلام.

ولقد رفع «سعد بن عباده» شکوی الأنصار حول کیفیه تقسیم الخمس إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فقال النبی صلی الله علیه و آله و سلم لسعد: إجمَعْ مَن کان هاهنا من الأنصار فی هذه

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۹۳۳/۴؛ السیره الحلبیه: ۸۸/۳، وفی المغازی: ۹۴۸/۲: أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قال فیه: «دعه إنّ له أصحاباً یحقِّر أحدُکم صلاته مع صلاتهم، وصیامه مع صیامهم، یقرأون القرآن لا یجاوز تراقیهم، یمرقون من الدین کما یمرق السهم من الرمیه... یخرجون علی فرقه من المسلمین». وراجع إمتاع الأسماع: ۳۰/۲، وجاء فی السیره الحلبیه: أنّه أصل الخوارج.

الحظیره.

فجمع سعدٌ الأنصار فی تلک الحظیره، فلمّا اجتمعوا دخل علیهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وعلیه جلالُ النبوه، وهیبه الرساله، فحمد اللّه وأثنی علیه بالذی هو أهله ثم قال:

«یا مَعشَر الأنصار ما مَقالهٌ بلغتنی عنکم، وجدَهٌ وجدتموها فی أنفسکم؟ ألمْ آتکمْ ضُلّالاً فهداکُمْ اللّه، وعاله فأغناکم اللّه، وأعداءً فألّف بَین قُلُوبکُمْ»؟

قالوا: بلی اللّه ورسولُه أمَنُّ وأفضلُ!

قال: «ألا تجیبونی یا معشر الأنصار»؟

قالوا: وماذا نجیبک یا رسول اللّه ولرسول اللّه المَنُّ والفضلُ؟

قال: «أما واللّه لو شِئْتُمْ قلتم فَصدَقْتُمْ أتیتَنا مکذَّباً فَصدّقناک، ومخذولاً فنصَرْناکَ، وطریداً فآویناکَ، وعائلاً فآسیناک!(۱) وَجَدْتُمْ فی أنفسِکُمْ یا معشرَ الأَنصار فی شَیء مِنَ الدُّنیا تألّفتُ به قوماً لیسلَمُوا وَوَکَلْتُکُمْ إلی إسلامِکُمْ، أفلا ترضونَ یا معشر الأَنصار أنْ یَذهبَ الناسُ بالشاه والبعیر، وترجعُوا برسول اللّه إلی رحالِکُمْ؟

والّذی نَفْسُ مُحمَّدٍ بیدهِ لَوْلا الهجره لکنتُ امرَأً منَ الأَنصار، وَلو سَلکَ الناسُ شِعباً وسلکَتِ الأَنْصارُ شِعباً لَسلکْتُ شِعبَ الأَنصار».

ثم ترحَّم علی الأَنصار وعلی أبنائهم وعلی أبناء أبنائهم فقال:

«اللّهمُ ارحَم الأَنْصار وأبناء الأَنصار وَأبْناء أبناء الأَنصار».

۱- . إنّ هذا یفید أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم ما کان ینسی فضل أحد علیه وإن کان هو صلی الله علیه و آله و سلم صاحب الفضل الأکبر علی الناس أجمعین.

وقد كانت كلماتُ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم هذه من القوّه والعاطفيّه بحيث أثارت مشاعر الأنصار، فبكوا بعد سماعها بكاء شديداً حتّى اخضلّت لحاهُمْ وابتلَّتْ بالدُّموع وقالوا: رَضينا برسول اللّه قسماً وحَظّاً!!!

ثم انصرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتفرّقوا(۱).

إنّ هذه القصّه تكشف عن عمق حكمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم وعن حنكته السياسيّه البالغه، وكيف أنّه كان يعالج المشاكل بأساليب مناسبه وبروح الصدق واللطف.

رسول اللّه يعتمر

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خرج من الجعرّانه معتمراً، بعد أن قسّم الغنائم، فلمّا فرغ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينه، فقدم المدينه فى أواخر شهر ذى القعده، أو أوائل شهر ذى الحجّه.(۲)

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۳۵/۴؛ المغازى: ۹۵۷/۲-۹۵۸.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۳۶/۴.

۵۳ لامیّه کعب بن زهیر المعروفه

اشاره

«بانت سعاد...»

فرغَ رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی منتصف شهر ذی القعده، من السنه الثامنه للهجره من قسمه غنائم حنین فی الجعرّانه، وکان موسم الحج علی الأبواب، وکانت هذه السنه هی السنه الأُولی الّتی کان یتوجّب علی الحجیج العرب، مسلمین ومشرکین، أن یقوموا بمناسک الحج تحت رعایه الحکومه الإسلامیه

وکان اشتراک رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی هذه الشعائر یزید الحج عظمه وجلالاً، وکان من الممکن - وبفضل قیادته الحکیمه - أن تتم فی ذلک الحشد الهائل والاجتماع العظیم دعوهٌ صحیحهٌ وقویهٌ وواسعهٌ إلی الإسلام، بینما کانت ثمّه مسؤولیات فی المدینه تنتظر عوده رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وقد مضی علی مفارقته المدینه ما یقرب من ثلاثه أشهر، وکانت الأعمال الّتی یجب أن یقوم بها هو بنفسه قد تعطَّلت طوال هذه المده.

وبعد دراسه هذه المسأله من جوانبها المختلفه رأی الرسول القائد صلی الله علیه و آله و سلم أن یکتفی بعُمره، یغادر بعدها مکّه لیصل إلی المدینه فی أقرب وقت ممکن.

ولکنّه صلی الله علیه و آله و سلم رأی أنّه لابدَّ أن یعیّن شخصاً صالحاً لإداره الأُمور السیاسیه والدینیه فی المنطقه الحدیثه العهد بالفتح الإسلامی (نعنی مکّه) حتّی لا تحدث فی

غيابه أزمةٌ فيها، وحتّى تجرى الأمور على النسق الصحيح والمطلوب.

من هنا استخلف النبيُّ صلى الله عليه و آله و سلم «عتّاب بن أسيد» على مكّه، وكان عتاب شاباً لبيباً يتّسم بالصبر والجلد، وكان له من العمر إذ ذاك عشرون سنه، وقد قرّر له النبيُّ راتباً قدره درهمٌ واحدٌ كلّ يوم.

وبهذا العمل (أى تعيين شاب حديث العهد بالإسلام والإيمان فى مقتبل العمر، ولكن كفوء، لتسيير الأُمور فى مكّه، وتفضيله على كثير من الشيوخ وكبار السنّ) حطّم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم سدّاً خيالياً، ومفهوماً باطلاً فى مجال التوظيف والتأمير.

فإنّ جماعه من الناس لمّا أمّر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم «عتّاباً» على أهل مكّه قالوا:

إنّ محمّداً لا يزالُ يستخفُّ بنا حتّى ولّى علينا غلاماً حدث السنّ ابن ثمانيه عشر سنه، ونحن مشايخُ ذوو الأسنان، فأجابَهمْ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بقوله فى كتاب كتبه لعتّاب:

«لا ـ يحتجُّ مُحْتَجٌّ مِنْكُمْ فى مخالَفتِه بِصغَر سنِّه، فليسَ الْأكبرُ هُوَ الأَفضَلُ، بَل الأَفضلُ هَوَ الأكبرُ، وَهُوَ الأكبرُ فى موالاتنا وموالاه أوليائنا ومعاداه أعدائنا، فلذلك جَعلناهُ الأَمير عليكمْ والرئيسَ عليكم، فمَن أطاعَه فمرحباً به ومن خالفَهُ فلا يُبعِدُ اللّهُ غيره»(۱).

وبهذا أثبت صلى الله عليه و آله و سلم عملياً أنّ حيازه المناصب الاجتماعيه إنّما تدور فقط حول معيار الأهليه والجداره، والكفاءه، وأَنَّ صِغر السنّ لا يمنع من ذلك إذا كان صاحبُه يتمتع بكفاءه عاليه.

۱- . بحار الأنوار: ۱۲۳/۲۱.

ثم إنّ «عَتّاباً» قام فخطب فی الناس فقال: أیّها الناسُ أجاع اللّه کبِدَ مَن جاع علی درهم، فقد رزقنی رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم درهماً کلّ یوم، فلیست بی حاجهٌ إلی أحد(۱).

وأحسن رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الاختیار أیضاً عندما عیّن «معاذ بن جبل» لیعلّمَ الناس القرآن ویفقّههم فی الدین، فقد کان معاذ ممّن عرف بالفقه، والمعرفه بأحکام القرآن بین أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حتّی أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لمّا بعثه للقضاء، إلی الیمن سأله صلی الله علیه و آله و سلم: بمَ تَقضی إن عَرضَ قضاءٌ؟ فقال: أقضی بما فی کتاب اللّه.

قال: فإنْ لم یکنْ فی کتابِ اللّه؟

قال: أقضی بما قضی بهِ الرسولُ.

قال: فإنْ لم یکنْ فیما قضی به الرسولُ؟

قال: أجتَهِدُ رأیی ولا آلو.

فضرب النبی صلی الله علیه و آله و سلم صدره، وقال:

«الحمدُ اللّه الَّذی وفّقَ رسول رسول اللّه لما یرضی رسول اللّه»(۲).

قصّه کعب بن زهیر بن أبی سلمی

کان «زهیر بن أبی سلمی» من شعراء العرب البارعین فی العهد الجاهلی، فهو صاحب إحدی المعلّقات السبع الّتی بقیت منصوبه فی الکعبه المعظّمه حتّی

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۹۳۶/۴. ویکتب الجزری فی أُسد الغابه: (ج ۳ ص ۳۵۸) کان عتاب رجلاً خبیراً صالحاً فاضلاً.

۲- . الطبقات الکبری: ۳۴۷/۲ و ۳۴۸.

قُبيل نزول القرآن الكريم، وكانت تفتخر بها العربُ، وتبدأ معلَّقتُه تلك بقوله:

أَمِنْ أُمّ أوفى دِمنةٌ لم تكَلّمِ بِحَومانهِ الدَرّاج فالمتثلّم

وقد توفى «زهير» قبل عصر الرساله، وخلّف ولدين هما: «بجير»، و «كَعْب» وكان الأوّلُ ممّن آمنَ برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ونَصَره، وأحبَّه، بينما عادى الثانى (كعب) رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بشدَّه، وحيث إنّه كان ذا قريحه شعريه موروثه قويه، لهذا كان يهجو رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى قصائده وأشعاره ويؤلّب الناس ضدَّ الإسلام.

ولمّا قدم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المدينه فى الرابع والعشرين من شهر ذى القعده كان «بجير» قد شارك مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى فتح مكّه، وحصار الطائف، وقد شاهد عن كثب كيف هدّدَ النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم بالقتل بعض الشعراء الذين كانوا يهجون رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويؤلّبون الناس ضدَّ الإسلام، وأهدر دماءهم.

فكتبَ بهذا إلى أخيه (كعب) ونصحه فى آخر كتابه قائلاً: إن كانَتْ لكَ فى نفسك حاجه فَطِر إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فإنّه لا يقتل أحداً جاءه تائباً.(۱)

فاطمأنَّ كعبُ بكلام أخيه، وتوجّه من فوره إلى المدينه فدخل المسجد ورسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يتهيّأ لصلاه الصبح، فصلّى مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لأوّل مرّه ثم جلس إليه، ووضع يده فى يده، وكان رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لا يعرفه، فقال: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إنَّ كعب بن زهير قد جاء ليستأمِنَ مِنَكَ تائباً مُسلِماً فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به؟

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: نعم.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۳۷/۴.

قال: أنا يا رسول اللّه كعبُ بن زهير(۱).

ثم أخرج كعبٌ قصيدته اللّاميه العصماء الّتی مدح فيها رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم والّتی كان قد أنشأها من قبل، وأنشدَها بين يدی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی المسجد ليتلافی بها ما سبق أَن بدَرَ منه من هجاء وطعن فی سيد المرسلين صلی الله عليه و آله و سلم(۲).

وهذه القصيده الرائعه هی من أفضل قصائد كعب وقد اعتنی المسلمون بحفظها ونشرها منذ أن أنشدها الشاعرُ المذكور بين يدی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی المسجد، وقد شرحها علماءُ الإسلام كثيراً، وعدد أبيات هذه اللاميه (أی الّتی تنتهی قوافيها باللام المضمومه) ۵۸ بيتاً ومطلعها:

بانَتْ سعادُ فقلبی اليومَ متبولُ متيَّمٌ إثرَها لم يُفْدَ مكبولُ

لقد بدأ كعب قصيدَته هذه - علی عاده شعراء العهد الجاهلی (الذين كانوا يبدأون قصائدهم بمخاطبه محبوبتهم أو مخاطبه الأطلال) - بذكر سعاد زوجته وابنه عمه، ولقد خصّها بالذكر لطول غيبته عنها، لهروبه من النبی صلی الله عليه و آله و سلم فيقول:

فارقَتْنی سعادُ فراقاً بعيداً فقلبی اليوم أسقَمه الحبُّ، وأضناه، فهو ذليلٌ لغيبتها لم يخلص من الأسر والقيد.

ثم يمضی فی هذا النمط من الكلام حتّی يصل إلی أن يعتذر من صنيعه السيئ فقال:

نُبِّئتُ أنَّ رسولَ اللّه أوعدَنی والعَفوُ عند رَسول اللّه مأمولُ

۱- . روی أنّه وثب علی كعب - فی تلك الحال - رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسولَ اللّه دعنی وعدوَّ اللّه أن أضرب عنقه، فقال النبی صلی الله عليه و آله و سلم: دعهُ عنكَ فإنّهُ قد جاء تائباً نازعاً (عما كان عليه). لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۹۳۸/۴- ۹۳۹.

۲- . السيره الحلبيه: ۲۳۹/۳.

مهلاً هَداك الّذى أعطاك نافِ - لَه القرآن فيها مواعيظٌ وتَفصيلُ

لا تأخُذَنّى بأقوال الوُشاه وَلمْ أُذْنبْ ولو كَثُرتْ فىَّ الأَقاويلُ

إلى أن قال:

إنّ الرسولَ لنورٌ يُستَضاء بُه مُهنَّدٌ من سيوف اللّه مَسلولُ (۱)(۲)

حُزنٌ قارَن فَرحاً

فى أواخر السنه الثامنه للهجره فقَد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كُبرى بناته: «زينب»، وقد تزوَّجت زينب قبل البعثه بابن خالتها أبى العاص، وآمنت بأبيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد البعثه من دون تأخير، ولكنَّ زوجها ظلّ على شركه، وشارك فى «بدر» ضدّ الإسلام والمسلمين، وأُسِرَ فى تلك المعركه فخلّى رسولُ اللّه سبيله، شريطه أن يبعث بابنته «زينب» إلى المدينه.

وفعل ابنُ العاص ذلك فجهَّزَ زوجتَه «زينب» وبعثها برفقه أخيه إلى المدينه، غير أنّ ساده قريش عرفوا بذلك، فكلَّفوا مَن يُعيدُها إلى مكّه، فلحق بها هبّار بن الأسود فروّعها وطعن هودجَها برمحه ففزعت زينب ابنهُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأسقطَتْ حملها من شدّه الفزع، ولكنّها لم تنصرفْ عن الذهاب إلى المدينه، فقد واصلتْ سيرها حتّى قدمَت المدينه وهى عليلهٌ، وقضت بقيّه عمرها مريضه حتّى

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۳۹/۴-۹۴۱.

۲- . يقال: إن كعباً عندما فرغ من إنشاء قصيدته كساه النبى صلى الله عليه و آله و سلم بُرده كانت عليه، فلمّا كان زمن معاويه أرسل إلى كعب أن بعنا بُرده رسول اللّه، فقال: ما كنتُ لأُوثر بثوب رسول اللّه أحداً، فلمّا مات كعب اشتراها معاويه من أولاده بعشرين ألف درهم، وهى البرده الّتى كان يلبسها الخلفاء الأُمويون والعباسيون (راجع: الكامل فى التاريخ: ۲۷۶/۲).

توفِّيَت فی أواخر السنه الثامنه من الهجره.(۱)

ولکنَّ هذا الحزنَ قارنَهُ فرحٌ وسرورٌ فقد رُزقَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی أواخر نفس ذلک العام ولداً أسماه «ابراهیم» من زوجته «ماریّه القبطیه» (وهی الجاریه الّتی أهداها المقوقس حاکمُ مِصر إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم).

والجدیر بالذکر أنّه عندما بشّرت سلمی (المولِّدَه) رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بذلک، أعطاها هدیه ثمینه، وعقَّ له فی الیوم السابع من ولادته، وحلق شعرَهُ، وتصدّق بوزن شَعره، فضه فی سبیل اللّه(۲).

۱- . لاحظ: الاستیعاب: ۱۸۵۴/۴ برقم ۳۳۶۰؛ البدایه والنهایه: ۳۹۹/۳؛ أعیان الشیعه: ۴۱/۷.

۲- . تاریخ الخمیس: ۱۳۱/۲.

حوادث السنه التاسعه من الهجره

۵۴ علیُّ بن أبی طالب فی أرض طیّ

عام الوفود

انقضت السنه الهجریه الثامنه بکلّ حوادثها المُرّه والحُلوه، فقد سقطت أکبر قاعده من قواعد الوثنیه والشرک فی أیدی المسلمین، وعادَ رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی المدینه ظافراً منتصراً علی أعداء الإسلام انتصاراً کاملاً، وقد هیمنَت ظلالُ القوه العسکریه الإسلامیه علی أکثر أنحاء الجزیره العربیه ونقاطها.

کما أخذت القبائل العربیه المتمرّده الّتی لم تکن تتصوّر إلی ذلک الیوم أن تتحقّق مثل هذه الانتصارات لدین التوحید، أخذت تفکّر شیئاً فشیئاً فی التقرّب إلی المسلمین وقبول معتقداتهم، واعتناق دینهم.

من هنا کانت وفودُ القبائل العربیه المختلفه، وأحیاناً مجموعه من أفراد قبیله ما بقیاده رئیسها تقدم علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وتعلن عن إسلامها، وقبولها للرساله المحمدیه.

وقد ازداد قدومُ وفود القبائل هذه علی عاصمه الإسلام (المدینه المنوره)

فی هذا العام حتّی سمّی بعام الوفود(۱).

وعندما قدم وفدٌ من قبیله «طیّ» وفیهم سیدهم «زیدُ الخیل» علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وتحادث مع النبی صلی الله علیه و آله و سلم أعجب رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بعقل زید وحکمته ووقاره فقال عنه:

«ما ذُکِرَ لی رَجُلٌ من العَرب بفَضْلٍ ثم جاءنی إلّارأیتُه دونَ ما یُقال فیه، إلّا زید الخیل، فإنّه لم یبلغْ کلّ ما کان فیه».

ثم سَمّاه رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم زید الخیر(۲).

إنّ دراسه قصّه الوفود، والإمعان والتدبّر فی ما دار بینهم وبین رسول الإسلام

۱- . لقد سجّل المؤرّخ المعروف محمّد بن سعد - فی کتابه - خصوصیات وأسماء هذه الوفود وتفاصیل القسم الأکبر ممّا دار بینها وبین النبی صلی الله علیه و آله و سلم وما خصّ هم به رسولُ الإسلام من اللطف لا یسع المجال لذکره هنا، وقد ذکر أسماء ثلاثه وسبعین وفداً من تلک الوفود الّتی وفدت علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم طوال السنه التاسعه من الهجره أو ما قبلها بقلیل (الطبقات الکبری: ۲۹۱/۱-۳۵۹).

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۹۹۹/۴. هذا وینبغی الإشاره هنا وبالمناسبه إلی أنّه کان من سیره رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن یغیّر الأسماء القبیحه الّتی اعتاد الجاهلیّون علی تسمیه أبنائهم بها أیثاراً للاسم الحسن، ولأنّ الاسم یورث الاحساس بالشخصیه لدی صاحبه علی العکس من الاسم القبیح، وقد ثبت هذا نفسیاً، بل ربما غیّر الاسماء الّتی قد یشعر معها الإنسان بالعظمه، والفخر والزهو منعاً من أن تحدث لأصحابها مثل ذلک. فعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عن أبیه علیهما السلام قال: کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یغیّر الأسماء القبیحه فی الرجال والبلدان (قرب الأسناد: ۹۳ برقم ۳۱۰) ولهذا غیّر أسماء کثیره لرجال ونساء فغیّر اسم ابنه لعمر کانت یقال لها عاصیه فسمّاها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم جمیله (صحیح مسلم: ۱۷۳/۶، باب استحباب تغییر الاسم القبیح إلی حسن) وقد روی أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قال: «إنّ أوّل ما ینحل أحدُکُمْ ولَدَهُ الاسمَ الحسن» (بحار الأنوار: ۱۲۲/۲۳).

يفيد بوضوح وجلاء أنّ الإسلام انتشر فی شبه الجزیره العربیه عن طریق الدعوه والتبلیغ.

علی أنّ طواغیت ذلک العصر أمثال أبی سفیان وأبی جهل کانوا یحاولون الحیلوله دون انتشار هذا الدین، فکانت لأجل ذلک حروب النبی صلی الله علیه و آله و سلم فمضافاً إلی أنّ أکثرها کان لإفشال تلک المؤامرات، کان الهدَفُ منها هو قمع أُولئک الطواغیت الذین کانوا یَصدُّون عن سبیل اللّه ویمنعون من دخول مجموعات الدعوه والتبلیغ الإسلامیه إلی مناطق الحجاز ونجد وغیرها.

إنَّ من البدیهیّ أن لا یتیسَّر انتشار أیّ دین، وتطبیق أی برنامج إصلاحی من دون تحطیم الطواغیت، وإزاله الأشواک من طریقه.

ومن هنا نری أنَّ جمیع الأنبیاء والرسُل - ولیس رسول اللّه فقط - کانوا یجتهدون قبل أی شیء فی تحطیم الطواغیت وإزاله السدود والموانع، من طریق الدعوه.

ویتحدّث القرآنُ الکریم فی سوره خاصّه عن قدوم هذه الوفود علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وما حقّقه الإسلام من فتح وانتصار ساحق إذ یقول:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ * إِذا جاءَ نَصْرُ اللّهِ وَ الْفَتْحُ * وَ رَأَیْتَ النّاسَ یَدْخُلُونَ فِی دِینِ اللّهِ أَفْواجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ کانَ تَوّاباً».(۱)

وبالرغم مِن هذا الإقبال المتزاید علی الإسلام لدی القبائل وقدوم الوفود المتلاحق علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فقد قام فی السنه التاسعه من الهجره ببعث عدّه سرایا، ووقعت غزوه واحدهٌ، وکانت السرایا هذه لأجل إفشال المؤامرات الّتی

۱- . النصر: ۱-۳.

كـانت تحـاك ضـدّ الإسـلام والمسـلمين، وكانت فى الأغلب لهـدم الأصـنام الكبيره الّتى كانت لا تزال القبائلُ العربيهُ المشـركهُ تقدّسـها وتعبدها، ومن جمله هذه السرايا سريه على بن أبى طالب عليه السلام الّتى وُجِّهت إلى أرض «طىّ» بأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ومن بين ما وقع فى السنه التاسعه يمكن الإشاره إلى غزوه «تبوك».

ففى هذه الغزوه غادر رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم المدينه متوجّهاً إلى أرض تبوك، ولكنّه لم يلق فيها أحداً، فعاد مِن غير قتال، إلّاأنّه مَهَّدَ الطريق لفتح البلاد الحدُوديه لمن يأتى فى المستقبل.

هدم بيوت الأصنام

لقـد كانت الوظيفه الأساسـيه الأُولى من وظائف النبى صـلى الله عليه و آله و سـلم هى: نشـر عقيده التوحيد، واجتثاث جذور كلّ نوع من أنواع الشـرك، وقـد كـان صـلى الله عليه و آله و سـلم يسـلُك - لتحقيق هـذه الغايه، ولإرشاد الضالّين والوثنيّين - طريق المنطق والاسـتدلال، قبل أى شـىء فكان يلفت أنظارهم بالأدلّه الواضـحه والبراهين الساطعه إلى بطلان الشـرك والوثنيه، فإذا لم يُجـد معهم المنطقُ المبرهَنُ، والإرشـادُ المسـتدَلُّ، ولَجّوا فى كفرهم وشـركهم سـمحَ لنفسه بـأن يتوسَّل بـالقوه، ويـداوى أُولئك المرضى روحاً وفكراً والذين يمتنعون عن استعمال الدواء وبمحض اختيارهم، بالمعالجه الجبريه.

فـإنّه إذا شـاع داء «الكوليرا» فى بلـد من البلـدان مثلاً وامتنع فريقٌ من النـاس عن قبول تلقيحهم بالمصـل اللازم لمكافحه ذلك المرض، فـإنّ المسؤول فى ذلـك البلـد يرى لنفسه الحقّ فى أن يجـبر تلـك الجمـاعه الضـيّقه التفكير الّتى تعرّضُ سـلامه نفسـها وسلامه غيرها للخطر من حيث لا تشعر على الرضوخ لعمليه التلقيح المذكوره.

لقد أدرک رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی ضوء تعالیم الوحی أنَّ الوثنیه أشبه شیء بجرثومه «الکولیرا» تهدم فضائل الإنسان، وشرفه، وتقضی علی مکارم الأخلاق، وتحطّ من مکانه الإنسان الرفیعه، وتجعله کائناً حقیراً أمام الطین والحجر والموجودات المنحطّه.

وعلی هذا الأساس أُمر من جانب اللّه تعالی بأن یجتَثَّ جذورَ الشرک من کیان ذلک المجتمع الموبوء، ویزیل کلّ مظاهر الوثنیه، وکلّ أنواعها وأشکالها، وإذا ما قاومت جماعهٌ هذا العمل، وعارضَتْ هذا الإجراء حطّم مقاومته بالقوه العسکریه، والقبضه الحدیدیه.

إنَّ التفوّق العسکری أعطی لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فرصه بَعْث الفِرَق العسکریه لتحطیم وهدم کلّ بیوت الأصنام، وأنْ لا یبقوا فی منطقه الحجاز صنماً إلّاهَدَّموه.

علیٌ فی أرض طیّ

ولقد کان رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یعرفُ من قَبل، أن فی قبیله طیّ صنماً کبیراً یُقدَّس إلی الآن ومن هنا بَعث صلی الله علیه و آله و سلم بطل جیشه الشجاع علی بن أبی طالب علیه السلام علی رأس مائه وخمسین فارساً إلی أرض طیّ، وأمره بأن یحطّم صنم طیّ، ویهدم بیته.

وقد أدرک قائد هذه السریه أنّ القبیله المذکوره ستقاومُ جنود الإسلام، وأنَّ الأمر لن یتمَّ من دون قتال، ولهذا حمل بأفراده علی موضع ذلک الصنم، عند الفجر والناس نیام، فاستطاع أن یأسر جماعه من تلک القبیله ممّن قاوم، وأن یعود بهم وبالغنائم إلی المدینه، وقد فرّ «عدیّ بن حاتم الطائی» الّذی انضمّ فیما بعد إلی صفوف المسلمین، المجاهدین فی سبیل اللّه، وکان یرأس تلک القبیله، حین سمع بتوجّه علی علیه السلام نحوها.

ولنستمع إلى عدىّ الطائى نفسه وهو يقصُّ علينا قصّه هروبه.

قصه إسلام عدى بن حاتم الطائى

يقول عدىّ: ما من رجل كان أشدّ كراهيه لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حين سمع به، منّى.

أمّا أنا فكنتُ امرأً شريفاً، وكنتُ نصرانياً، وكنتُ أسيرُ فى قومى بالمرباع (أى آخذ الربع من الغنائم لأنّى سيّدهم) فكنتُ فى نفسى على دين، وكنتُ ملكاً فى قومى لما كان يُصنَع بى. فلمّا سمعتُ برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كرهته، فقلت لغلام كان لى عربىّ، وكان راعياً لإبلى: لا أباً لك أعددْ لى من إبلى أجمالاً ذُلُلًا سماناً، فاحتبسها قريباً منّى، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذنّى؛ ففعل.

ثم إنّه أتانى ذات غداه، فقال: يا عدىّ ما كنت صانعاً إذا غشيَتْك خيلُ محمَّد، فأصنَعْهُ الآن، فإنّى قد رأيتُ رايات، فسألتُ عنها، فقالوا: هذه جيوش محمَّد.

قال: فقلت: فقرّبْ إلىَّ أجمالى فقرَّبها، فاحتملتُ بأهلى ووُلدى، ثم قلتُ:

ألحَقُ بأهل دينى من النصارى بالشام فسلكتُ الجوشيه(۱) وخلّفت بنتاً لحاتم فى الحاضر، فلمّا (وصلت) الشام أقمت بها. وتخالفنى خيلٌ لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فتصيب (أُختى) ابنه حاتم فيمن أصابت، فقدم بها على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى سبايا من طىّ، وقد بلغ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هروبى إلى الشام.

فَجُعِلَت ابنه حاتم فى حظيره بباب المسجد، كانت السبايا يُحبَسن فيه، فمرَّ بها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقامت إليه أُختى وكانت امرأه جزله، فقالت: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هلَك الوالدُ، وغابَ الوافدُ، فامْنُنْ علىَّ مَنَّ اللّهُ عليك.

۱- . الجوشيه: جبل للضباب قرب ضريه، من أرض نجد.

قال: ومَن وافدُك؟

فقالت: عدىُّ بن حاتم.

قال: الفارُّ من اللّه ورسوله؟

ثم مضى رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتركنى حتّى إذا كان من الغَدِ مرّ بى، فقلت له مثلَ ذلك، وقال لى مثلَ ما قالَ بالأمس. حتّى إذا كان من الغد مرّ بى وقد يئستُ منه، فاشار إلىّ رجلٌ من خلفهِ أن قُومى فكلّميه، فقامتْ إليه، وقالت: يا رسول اللّه هلك الوالدُ، وغابَ الوافدُ، فامنُن علىَّ منَّ اللّه عليك.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: «قَدْ فَعلتُ فلا تعجَلى بخروج حتّى تجدى مِنْ قومكِ من يكونُ لك ثقه حَتى يُبلغك إلى بلادك ثم آذنينى».

تقول أُختى: فسألت عن الرجل الّذى أشار إلىّ أن أُكلمه فقيل: على بن أبى طالب رضوان اللّه عليه.

وأقمت حتّى قدم ركبٌ من بلّى أو قضاعه قالت: وأنّما أُريد أن آتى أخى بالشام. قالت: فجئتُ رسولَ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقلتُ: يا رسول اللّه قد قدم رهطٌ مِن قومى لى فيهم ثقةٌ وبلاغٌ.

قالت: فكسانى رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وحَملنى، وأعطانى نفقه، فخرجتُ معهمْ حتّى قدمت الشامَ.

قال عَدىّ: فواللّه إنى لقاعدٌ فى أهلى إذ نظرتُ إلى ظعينه (وهى المرأه فى هودجها) تصوّبُ إلىّ تؤمُنا قال: فقلتُ ابنه حاتم، قال: فإذا هى هى، فلمّا وقفَتْ علىّ انسحلت (أخذتْ فى اللوم) تقول: القاطع الظالم، احتملتَ بأهلك وولدك، وتركت بقيّه والدك عورتك.

فقلتُ: أى أُخيّهْ، لا تقولى إلّاخيراً، فواللّه مالى من عُذر، لقد صنعتُ ما

ذكرتِ، ثم نَزلَتْ فأقامت عندى فقلتُ لها، وكانت امرأه حازمه: ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟

قالت: أرى واللّه أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجُل نبيّاً فللسابق إليه فضلُه، وإن يكن مَلِكاً فلن تذل فى عِز اليمن، وأنت أنت. فقلت: واللّه إنّ هذا الرأى.

قال عدىّ: فخرجتُ حتّى أقدمُ على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المدينه فدخلتُ عليه، وهو فى مسجده، فسلّمتُ عليه، فقال: مَنِ الرجلُ؟ فقلت: عدىُّ بن حاتم، فقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فانطلَقَ بى إلى بيته، فواللّه إنّه لعامدٌ بى إليه، إذْ لقيَتْه امرأةٌ ضعيفه كبيره فاستوقفَتْهُ، فوقف لها طويلاً تكلّمُه فى حاجتها. فقلتُ فى نفسى: واللّه ما هذا بملك.

ثم مضى بى رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حتّى إذا دخل بى بيته تناول وساده من أُدم محشوّه ليفاً فقذفها إلىّ، فقال: إجلسْ على هذه، فقلت: بل أنت فاجلسْ عليها، فقال: بل أنتَ، فجلستُ عليها، وجلس رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالأرض (وهو عظيم الحجاز) فقلتُ فى نفسى: واللّه ما هذا بأمر ملك، ثم قال: إيه يا عدىّ بن حاتم، ألم تكُ ركوسيّاً (وهو دين بين دين النصارى والصابئين)؟

قلت: بلى.

قال: أوَلَمْ تكنْ تسيرُ فى قومك بالمرباع؟

قلتُ: بلى.

قال: فإنّ ذلكَ لم يَحُلْ لك فى دينك.

قلت: أجل واللّه، وعرفتُ أنّه نبىٌّ مُرسَل، يَعلمُ ما يُجهَل، ثم قال: لعلّك يا عدىّ إنّما يمنعُك من الدخول فى هذا الدين ماترى من حاجتهم، فواللّه ليوشِكَنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتّى لا يوجد من يأخذُهُ، ولعلَّك إنّما يمنعُك من دخول فيه

ماتری من کثره عـدُوهم وقلّه عددهم، فواللّه لیوشـکَنَّ أن تسـمعَ بالمرأه تخرجُ من القادسـیه علی بعیرها حتّی تزور هذا البیت، لا تخـاف، ولعلَّک إنّمـا یمنعـک من دخول فیه أنّـک تری أنَّ المُلک والسـلطان فی غیرهم، وأیم اللّه لیوشـکِن أن تسـمع بالقصور البیض من أرض بابل قد فُتِحَتْ علیهم.

قال عدیّ: فأسلمتُ.

وکـان عـدیّ یقولُ: قـد مضت اثنتان وبقیت الثالثه واللّه لتکونـنَّ، قـد رأیتُ القصور البیض من أرض بابل قـد فُتِحت، وقـد رأیت المرأه تخرج من القادسـیه علی بعیرها لا تخاف حتّی تحـجَّ هـذا البیت، وأیمُ اللّه لتکونن الثالثه، لیفیضنّ المالُ حتّی لا یوجدَ من یأخذه(۱).

ولقد نقل العلامهُ الطبرسـی فی تفسیر قوله تعالی: «اِتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ وَ الْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ» (۲) اللقاء الّـذی تمّ بین عدیّ ورسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم ویقول: قال عدیّ انتهیتُ إلی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم وهو یقرأ من سوره البراءه هذه الآیه: «اِتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ...» حتّی فرغ منها، فقلت له: إنّا لَسْـنا نعبدُهم، فقال: أَلیس یحرّمونَ ما أحلَّ اللّه فتحرّمونَه، ویُحلّون ما حرّمَ اللّه فتستحلُّونه، فقلتُ:

بلی، قالَ: فَتِلکَ عبادتُهم(۳).

۱- . المغازی: ۹۸۸/۲ و ۹۸۹؛ السیره النبویه لابن هشام: ۱۰۰۰/۴-۱۰۰۲؛ الدرجات الرفیعه فی طبقات الشیعه الامامیه: ۳۵۲-۳۵۴؛ السیره الحلبیه: ۲۵۷/۳-۲۵۹.

۲- . التوبه: ۳۱.

۳- . مجمع البیان: ۴۳/۵-۴۴.

۵۴ غَزْوَهُ تَبُوک

اشاره

تبوک هی قلعهٌ قویّه، رفیعه الجدران مقامه عند عین ماء علی الشریط الحدودی السوری فی طریق «حجر» و «الشام».

وکانت سوریهُ آنذاک من مستعمرات إمبراطوریه الروم الشرقیه، الّتی کانت عاصمتُها القسطنطینیه.

وکان جمیعُ سکان المناطق الحدودیه للشام نصاری علی دین المسیح عیسی ابن مریم علیه السلام وکان أکثر زعمائها ولاه منصوبین من قِبَل حاکم الشام الّذی کان یمثّلُ هو بدوره إمبراطور الروم، ویمتثل أوامره.

ولقد کان لانتشار الإسلام السریع فی شبه الجزیره العربیه وفتوحات المسلمین المشرقه فی الحجاز صداه فی خارج الحجاز ینعکسُ بالوسائل الموجوده فی ذلک الیوم، وکان ذلک یُرعبُ الأعداء، ویدفعُهم إلی التفکیر فی حیله.

ولقد دفعَ سقوطُ حکومه «مکّه» الوثنیه، واعتناقُ زعماء الحجاز الکبار للدین الإسلامی، وبطولات جنود الإسلام الباهره وبسالتهم وتفانیهم الفرید فی طریق عقیدتهم، بامبراطور الرّوم إلی أن یحشّد جموعاً کبیره، ویتهیّأ لمهاجمه المسلمین

وغزوهم بغته، لأنّه كان يرى تزلزل سلطانه مع انتشار الإسلام المطّرد، وكانت مخاوفه تزدادُ يوماً بعد يوم وهو يرى تعاظم القوه الإسلاميه العسكريه، وانتشار نفوذه السياسيّ.

كانت الرومُ - آنذاك - المنافسه الوحيده، والقويه لإيران، وكانت تملك أعظم قوه عسكريه، وكانتْ مغترَّه أشدّ الغرور بنفسها، لما أصابتْهُ من فتوحات وانتصارات فى معاركها الكبرى مع إيران، وما ألحقتْهُ من هزائم نكراء بإيران فى تلك العصور.

وقد كان جيش الروم يتألّفُ من أربعين ألف فارس وراجل، وكان مجهّزاً بأحدث أسلحه وتجهيزات ذلك العصر، وقد استقرَّ هذا الجيش على الشريط الحدوديّ لأرض الشام، والتحقت به قبائل عديدهٌ تسكن الحدود مثل قبيله:

«لخم»، «عامله»، «غسان»، و «جذام»، وتقدمت طلائع ذلك الجيش حتّى منطقه «البلقاء».

ولقد بلغ نبأ استقرار فريق من جنود الروم على الشريط الحدودى للشام إلى مسامع النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم عن طريق القوافل التجاريه الّتى تعملُ على طريق الحجاز - الشام، فلم يرَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بُدّاً من أن يردَّ على هؤلاء المعتدين، بجيش عظيم، ويحافظ بذلك على الدين الَّذى قام بفضل الدماء الزكيه الّتى أُريقتْ من أصحابه، وبفضل تضحياته هو صلى الله عليه و آله و سلم وهو الآن على أبواب أن يعمَّ العالم نورُه وهُداه، من ضربات العدوّ المفاجئه.

ولقد بلغ هذا الخبرُ المقلق أهل المدينه، وأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أصحابه بالتهيّؤ لغزو الروم، والناس فى زمان عسره، وشده من الحرّ، وجَدْب من البلاد، وقد طابت الثمار، والناسُ يحبّون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرَهُون الشخوص

على الحال الّذى هم عليه.

ولكن الـدوافع المعنويه، وروح الحفـاظ على الأهـداف المقـدّسه، والجهاد فى سبيل اللّه مقـدّمٌ عنـد عباد اللّه المؤمنين الصالحين على كلّ تلك الأُمور.

تعبئةُ المقاتلين وتهيئه نفقات الحرب

كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يعرفُ على نحو الإجمال مدى وحجم استعدادات العدوّ، وطاقاته، وقدرته على القتال.

من هنا كان مطمئناً إلى أنّ الانتصار فى هذه المعركه بحاجه - مضافاً إلى الخلْفيه المعنويه القويه وهى الإيمان باللّه والقتال ابتغاء مرضاته - إلى قوه عسـكريه كبيره جـداً ولهذا بعث رجالاً إلى مكّه، ونواحى المدينه يدعون المسـلمين إلى المشاركه فى الجهاد فى سبيل اللّه، ويحثُّون أهل الغنى والثروه، على تهيئه نفقات الجهاد فى سبيل اللّه من الزكاه.

وأخيراً أعلن ثلاثون ألفاً من المسـلمين اسـتعدادهم للمشاركه فى هـذه الغزوه واجتمعوا فى معسـكر عنـد «ثنيه الوداع» وتهيَّأَ قـدرٌ كبيرٌ من نفقات القتال عن طريق الزكاه، وكان الجيش الإسلامى يتألف من عشره آلاف فارس، وعشرين ألف راجل.

وقد أمر رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن تتّخذَ كلُّ قبيله رايه لنفسها.

المتخلِّفُون عن القتال

كـانت غزوهُ «تبوك» خير محَكّ لمعرفه المجاهـدين الصـادقين وتمييزهم عن غير الصـادقين من أدعياء الإيمان والمنافقين؛ لأنّ التعبئه العامّه لهذه الغزوَه أُعلِنت فى وقت كان الناسُ يستعدُّون فيه للحصاد من جهه، وكان الحرّ على أشدّه من ناحيه

أخرى، فكشف تخلّفُ البعض - بالأعـذار والحجـج المختلفه - القنـاع عن وجههم الحقيقى، ونزلت آيـاتٌ فى ذمّهم جميعها فى سوره براءه.

لقد تخلّف البعضُ عن المشاركه فى هذه الغزوه للأسباب والعلل التاليه:

١. عنـدما قـال رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم للجـدّ بن قيس بن صـخر الأنصـارى - وكان من الشخصـيات ذات المكانه الاجتماعيه المرموقه -:

«أبا وَهَبْ هَلْ لكَ العامَ تخرجُ مَعنا»؟

فقال: أو تأذنُ لى، ولا تفتِنّى(١) فواللّه لقد عرف قومى ما أحدٌ أشدّ عَجباً بالنساء منى، وإنّى لأخشـى إنْ رأيتُ نساء بنى الأصـفر (الروم) لا أصبرُ عليهنَّ.(٢)

فأعرضَ عنه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد أن سمع منه ذلك العذر الصبيانى، وقد نزل فيه قول اللّه تعالى:

«وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِى وَ لا تَفْتِنِّى أَلا فِى الْفِتْنَهِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَهٌ بِالْكافِرِينَ» .(٣)

٢. المنافقون: إن جماعه ممّن تظاهروا بالإسلام والإيمان وهم منه خلوٌ، أخذوا يثبّطون الناس عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى غزوه تبوك، وربما تحجّجوا بشـدّه الحرّ فقالوا: يغزُو محمَّدٌ بنى الأصـفر مع جَهْدِ الحال والحرّ، والبلـد البعيـد، إلى ما لا قِبَل لـه بـه، يحسب محمَّدٌ أنّ قتـال بنى الأصـفر اللعب، ونـافق بمن معه ممّن هـو على مثـل رأيه، ثم قـال: واللّه لكـأنّى أنظر إلى أصحابه غداً مقرّنين فى الحبال.(۴) فنزل فيهم قول اللّه تعالى:

١- . أى أخشى الافتتانُ ببنات الروم فلا تفتنّى بهنَّ يا رسول اللّه.

٢- . إمتاع الأسماع: ۴۸/۲؛ المغازى: ۹۹۲/۲.

٣- . التوبه: ۴۹.

۴- . إمتاع الأسماع: ۵۱/۲؛ المغازى: ۹۹۵/۲.

«وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِی الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ کانُوا یَفْقَهُونَ * فَلْیَضْحَکُوا قَلِیلًا وَ لْیَبْکُوا کَثِیراً جَزاءً بِما کانُوا یَکْسِبُونَ» .(۱)

اکتشافُ شَبکَهٍ جاسُوسیَّه فی المدینه

کانَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کما أسلَفْنا یولی مسأله تحصیل المعلومات عن العدو وتحرکاته اهتماماً کبیراً، وکان أکثر انتصاراته تَعُودُ إلی حُسْن استخدامه لهذه الوسیله، وبالتالی لمعرفته الدقیقه بتحرّکات العدو ونشاطاتهِ، وعلی هذا الأساس کان یقضی علی الکثیر من المؤامرات فی مهدها.

ولقد بلغ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أنّ عدداً من المنافقین یجتمعونَ فی بیت «سویلم» الیهودی،... یثبطون الناس عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی غزوه تبوک، فبعث إلیهم رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم «طلحه بن عبید اللّه» فی نفر من أصحابه وأمره أن یُحرِّق علیهم بیت «سویلم». ففعل طلحه.

فاقتحم الضحاک بن خلیفه من ظهر البیت، فانکسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا، فقال الضحّاک فی ذلک:

کادَتْ وبَیتِ اللّه نارُ محمَّد یشیطُ بها الضحّاک وابنُ أبیرق

وظَلْتُ وقد طبَّقتُ کِبسَ سوَیلم أنوءُ علی رجلی کسیراً ومرفَقی

سلام عَلیکُمْ لا أعودُ لِمثلِها أخافُ وَمَنْ تشملْ به النارُ یحرقُ (۲)

۳. البکّاؤون: لقد أتی رجالٌ من المسلمین رسولَ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کانوا یرغبون فی الخروج مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلی هذه الغزوه، وطلبوا منه ما یحملهم علیه من دابّه

۱- . التوبه: ۸۱-۸۲.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۹۴۴/۴.

فقد كانوا أهل حاجه فقراء، فقال لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«لا أجدُ ما أحمِلُكُمْ عليه».

فتولَوْا وأعيُنُهم تفيضُ من الدمع حزناً، ألّا يجدوا ما ينفقون.(۱)

فإذا كان بين أصحاب النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم رجالٌ نافقوا، وتركوا الخروج مع رسول اللّه متعلّلين، بالأعذار السخيفه، فقد كان إلى جانب ذلك أيضاً من كان يبكى بكاء مُرّاً لعدم تمكّنه من المشاركه فى الجهاد المقدّس، حتّى عُرفوا فى التاريخ الإسلامى بالبكّائين، ونزل فيهم قرآنٌ إذ يقول تعالى:

«وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ» .(۲)

۴. المتخلفون: ولقد أبطأَ بعض أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن الخروج، وتخلَّفوا لا عَنْ شكّ وارتياب، أو رغبه عن الجهاد فى سبيل اللّه، وقد كانوا أهل صِدق لا يُتَّهمون فى إسلامهم، إنّما تخلَّفوا حتّى يلتحقوا بركب النبى صلى الله عليه و آله و سلم بعد أن يَفرغوا من الحصاد والقطاف وهم (المخلَّفون) الثلاثه حسب تعبير القرآن الكريم الذين فاتتهم غزوهُ تبوك، فوبَّخهمُ اللّه تعالى وعاقبهم على تخلّفِهم ليكونَ فى ذلك عبره لمن سواهم، كما ستعرف تفصيل ذلك عمّا قريب.

۵. المجاهدون الصادقون: الذين لَبّوا نداء رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتهيّأوا من فورهمْ للخروج معه فى شوق بالغ، ورغبه عظيمه فى الجهاد.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۴۵/۴.

۲- . التوبه: ۹۲.

عدمُ مشاركه «علىّ» عليه السلام فى غزوه تَبُوك

لقد كان من أبرز فضائل علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنّه شارك فى جميع المعارك، ولازم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى جميع غزواته - وكان هو حاملُ لوائه فى تلك المعارك والغزوات - ما عدا تبوك حيث بقى فى المدينه بأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ولم يشاركْ فى هذا الجهاد المقدس؛ لأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يدرك جيّداً أنّ بعض المنافقين والمتربّصين، والمتحيّنين الفرصَ من رجال قريش سيستغِلّون فرصهَ غيبه النبى القائد عن المدينه (مركز الدوله الإسلاميه) فيثيرون فيها فتنه، ويجهزون على الحكومه الإسلاميه الفتيه بانقلاب أو ما شابه ذلك، وأنّ مثل هذه الفرصه إنّما تسنح لهم إذا قصد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مكاناً نائياً، وانقطع ارتباطه بعاصمه الإسلام (المدينه)!! ولقد كانت «تبوك» أبعد نقطه خرج إليها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى جميع غزواته، فكان يحدس - بقوه - أن تقوم القوى المضادّه للإسلام بقلب الأوضاع فى غيابه، ويجمعوا من يروا رأيهمْ ويذهبُ مذهبَهم من شتى أنحاء الحجاز، ويتّحدوا لضرب الدوله الإسلاميه والقضاء عليها من الداخل.

ولهذا - رغم أنّه استخلف «محمَّد بن مَسْلَمه» على المدينه - قال للامام «على ابن أبى طالب»:

«إنّ المدينه لا تصلح إلّابى أو بك، فأنتَ خليفَتى فى أهل بيتى ودار هجرتى وقومى».(۱)

ولقد أزعج بقاءُ علىّ عليه السلام فى المدينه، المنافقين الذين كانوا يتربَّصون

۱- . إرشاد المفيد: ۱۵۶/۱؛ بحار الأنوار: ۲۰۸/۲۱.

بالإسلام الدوائر، ويتحيّنون الفرصه، ويفكّرون فى انقلاب فى غيبه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّهم كانوا يعرفون أنهم لن يعودُوا يستطيعون مع وجود علىّ عليه السلام فى المدينه، ومراقبته الدقيقه لتحرّكاتهم ونشاطاتهمْ فعل أى شىء ممّا كانوا ينوون القيام به، ولهذا أرجفوا به، وبثّوا شائعات خبيثه حوله، بغيه إجباره على مغادره المدينه فقالوا:

ما خلّف رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عَلِيّاً إلّااستثقالاً له، وتخفّفاً منه، أو: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم دعاهُ إلى الخروج لتبوك، ولكن عليّاً امتنَع من الخروج بحجّه الحرّ الشديد، وبُعد الطريق وإيثاراً للدعه والراحه والرفاهيه!!

ولإبطال هذه الشائعه الخبيثه، وتكذيب هذا الكلام، أخذ على عليه السلام سلاحه، وخرج حتّى أتى رسولَ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو نازلٌ بالجرف (وهو موضعٌ على ثلاثه أميال من المدينه) فقال:

«يا نبىَ اللّه، زَعَمَ المنافقون أنَّكَ إنّما خَلَّفْتَنِى أنَّكَ استْثْقَلتَنِىْ وَتَخفَّفْتَ منّى».

فقالَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حينئذٍ كلمته التاريخيه الخالده الّتى تعتبر من أبرز الأدلّه وأقواها وأوضحها على إمامه علىّ بن أبى طالب عليه السلام وخلافته بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بلا فصل:

«كَذِبُوا، وَلكنّنى خلَّفتُك لما تَركتُ ورائى، فارْجعْ فاْخلُفْنِى فى أهْلِىْ وَأهْلِكَ، أفَلا تَرْضى يا عَلىّ أنْ تَكُونَ مِنّى بِمنزلِهِ هارونَ مِنْ مُوسى إلّاأنّه لا نبىَّ بعدى»(۱).

فرجع على عليه السلام إلى المدينه المنوره، ومضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على سفره(۲).

۱- . لاحظ: صحيح البخارى: ۱۲۹/۵، باب غزوه تبوك؛ صحيح مسلم: ۱۲۰/۷، باب فضائل على عليه السلام.

۲- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۴۷/۴؛ السيره الحلبيه: ۱۰۴/۳؛ الطبقات الكبرى: ۲۳/۳ و ۲۴؛ إمتاع

جيش الإسلام يتحرّک نحو تبوک

لقد دأب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم - إذ خرج لتأديب قوم يكيدون بالاسلام، ويمنعون من تقدّمه وانتشاره، أو يقصدون الهجوم على المدينه واجتياحها، أو إيجاد فتن فيها - على أن لا يبوح بمقصده ووجهته لجنوده وأُمراء جيشه، وأن يسير بالجيش فى طريق آخر غير الوجه الّذى ينويه باطناً، حتّى لا يعرف به العدو فيتهيّأ لمواجهته، وبذلک يتسنّى له صلى الله عليه و آله و سلم أن يباغت العدوَّ، ويحقّق الانتصار الساحق عليه(۱).

غير أنَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عدَل عن هذه السيره فى قضيه غزو الروميّين الذين اجتمعوا فى حدود الشام وهم يتأهَّبون للهجوم على عاصمه الإسلام.

فقد بَيّن للناس - منذ أعلن التعبئه العامّه - الوجهه الّتى يقصُدُها، وكان السرُّ فى ذلک هو أنْ يعرف المجاهدون أهميّه هذا السفَر وصعوبتَهُ، وأن يحملوا الزاد الكافى والعدّه اللازمه.

هذا مضافاً إلى أنّ رسولَ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان مضطرّاً - لتقويه الجيش الإسلامى إلى أنْ يستعينَ بقبائل «تميم» و «غطفان» و «طىّ» الّتى كانت تسكن فى مناطق بعيده عن المدينه. وقد عَمد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لهذا الغرض إلى مراسله زعماء تلک القبائل وساداتها، كما كتب إلى «عتَاب بن أُسيد» أمير مكّه الشاب دعا فيه رجال تلک

۱- . المغازى: ۹۹۰/۲.

القبائل، وفتيان مكّه إلى المشاركه فى هذا الجهاد المقدس(۱).

ومثل هـذا النوع من الـدعوه الصـريحه العامّه لا ينسـجم مع الكتمان والسـريّه، لأنّه كان لابدَّ أن يخبر صـلى الله عليه و آله و سـلم رؤساء القبائل فى هذا الموضوع، ويذكر لهم أهميّته، ليحملُوا معهم الزاد والعده اللازمه الكافيه.

النبىُّ صلى الله عليه و آله و سلم يَستعرضُ جيشَهُ

ولمّا حانَ موعد تحرّك الجيش استعرض رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم جيشَه فى معسـكر المدينه العظيم، المؤلَّف من المؤمنين الفـدائيّين الغيارى على الإسـلام، والذين فضّـلوا المشـقّه والموت فى سبيل الهدف على الاستراحه فى الظلال، والتجاره، وكسب المال واكتناز الثروه، وخرجوا يستقبلون الموت فى سبيل الدين بقلوب تفيض إيماناً ويقيناً.

لقد كان هذا المشهد مشهداً جميلاً ورائعاً جداً، وكان له أثرٌ قويٌ فى نفوس المتفرّجين.

وفى هذه المناسـبه ألقى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم خطبه مهمّه، لتقويه معنويات المجاهدين، قد شـرح فيها هدفه من هذه التعبئه العامّه الواسعه.

فبعد أن حمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله قال:

«أيّها الناس! أمّا بعدُ، فإنّ أصدقَ الحديث كتابُ اللّه وأوثق العُرى كَلِمه التقوى، وَخير المِللَ ملهُ إبراهيم عليه السلام، وخير السنن سننُ محمَّد، وأشـرف الحـديث ذكرُ اللّه، وأحسنَ القصَـص هـذا القُرآن، وخير الأُـمور عواقبها، وَشـرّ الأُمور محـدَثاتُها، وأحسـن الهدى هَدىُ الأنبياء، وأشْرفَ القَتْل قتل الشهداء».

۱- . بحار الأنوار: ۲۴۴/۲۱.

إلی آخر الخطبه الّتی وردتْ بکاملها فی المصادر التاریخیه والّتی أدرج فیها مجموعه کبری وهامّه من التعالیم الإسلامیه الهامّه فرغبَ الناسُ فی الجهاد لما سَمِعوا هذا مِن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم(۱) ثم أصدر رسولُ اللّه أوامره للجنود بالتوجّه إلی ثغور الشام من الطریق الّذی عیّنه رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

قصّه مالک بن قیس

إنّ مالک بن قیس «أباخیثمه» رجع بعد أن سارَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أیّاماً إلی أهله فی یوم حار، فوجد امرأتین له فی عریشین لهما فی حائطه، قد رشّت کل واحده منهما عریشها، وبرّدت له فیه ماء، وهیّأت له فیه طعاماً فلمّا دخل قام علی باب العریش، فنظر إلی امرأتیه، وما صنعتا له، فقال: رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الضح والریح والحرّ، وأبو خیثمه فی ظلّ بارد، وطعام مُهیّأ، وامرأه حسناء فی ماله مقیم؟ ما هذا بالنصف.

ثم قال: واللّه لا أدخلُ عریش واحده منکُما حتّی ألحق برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فهیّئا لی زاداً، ففعلتا ثم قدَّم ناضحه فارتحله، ثم خرج فی طلب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حتّی أدرکه حین نزل تبوک، وقد کان أدرک أبا خیثمه «عمیرُ بن وهیب الجمحی» یطلب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم(۲).

لقد کان هذا الرجل ممّن لم یُوفَّق - فی بدایه الأمر - لمرافقه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلّاأنّه التحق برکبه المقدّس ونال السعاده العظمی بحسن اختیاره الّذی یستحق

۱- . المغازی: ۱۰۱۶/۲؛ إمتاع الأسماع: ۵۹/۲؛ بحار الأنوار: ۲۱۰/۲۱-۲۱۲.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۹۴۷/۴. وقد ذکر الواقدی فی المغازی: ۹۹۸/۲ هذه القصّه باختلاف یسیر ونسبها إلی عبد اللّه بن خیثمه.

الإكبار والتقدير، ولم يكن مثل أولئك الذين طلبتهم السعاده ولكنّهم رفضوها، وابتعدوا عنها، وآثروا البقاء فى ضلالهم وشقائهم.

فهذا «عبد اللّه بن أُبى» رئيس المنافقين وكبيرهم الّذى عزم على أن يشارك مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه الغزوه أقام خيمته فى معسكر المسلمين، ولكنّه لخبث سريرته، وعدائه الشديد للإسلام ونبيّه الكريم صلى الله عليه و آله و سلم بدّل رأيه ساعه رحيل الجيش الاسلامى، وعاد إلى المدينه مع أصحابه ليقوم بالشغب، وحيث إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان على عِلم بنفاقه، وخُبث سريرته وكان يدرك جيداً أنّ مشاركه هذا العنصر المنافق وجماعته فى ذلك الجهاد لن تعود على المسلمين بفائده، لذلك لم يهتم صلى الله عليه و آله و سلم بانفصاله عن الجيش الإسلامى ورجوعه إلى المدينه.

مصاعبُ الطريق

لقد واجه جيش الإسلام فى أثناء الطريق متاعب ومشاقّاً كثيره، ولهذا سُمّى هذا الجيش بجيش «العُسره» ولكن إيمانهم العميق باللّه، وحبّهم الشديد للهدف المقدّس سهَّل لهم تلك المصاعب، وهوّن عليهم تلك المشاق، الّتى استقبلوها بصدور رحبه.

لمّا مرّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالحجر (أرض ثمود) سجى ثوبه على وجهه واستحثّ راحلته ثم قال:

«لا تَدْخُلُوا بُيوتَ الَّذين ظَلَمُوا إلّاوَأنْتُمْ باكونَ خوفاً أنْ يُصِيبكُمْ مثلَ ما أصابَهُمْ».(۱)

وهو بذلك يحثُ أصحابه على التدبّر فى أحوال مَن مضى مِن الأقوام

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۴۹/۴.

والشعوب، والتفكّر فی مصائرهم وما آلوا علیه بسبب عُتوّهم وعنادهم، وتمرّدهم علی الحقّ، فإنّ ظلال الموت الّتی کانت تخیّم علی تلک الربوع والأطلال الصامته خیرُ عبره للأجیال والأقوام الأُخری.

ثم نهی رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الناس عن أن یشربوا من مائها شیئاً، وأن لا یتوضّأوا به للصلاه، وأن لا یحاسَ به حیس، ولا یطبَخَ به طعامٌ، وأن العجینَ الّذی عُجِنَ به، أو الحیس الّذی فُعِلَ به یعلفونه الإبل، وأن الطبیخ الّذی طُبِخَ به یُلقی، ولا یأکُلُوا منه شیئاً(۱)، ففعل الناس ما أمرَهُمْ به رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

ثم إنّ الناس ارتحلوا من تلک المنطقه حتّی إذا مضی من اللیل بعضُه وصلوا إلی البئر الّتی کانت تشرب منها ناقهُ النبی صالح علیه السلام، فنزلُوا علیها بأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

تعلیماتٌ احتیاطیّه

ثم إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کان یعرفُ بالریاح الشدیده والسامّه والعواصف القویه الّتی کانت تهبُّ فی تلک الأرض بین الحین والآخر، وتبلغ من الشده والقوه بحیث ربما تحمل البعیر بصاحبه، وتلقیه فی واد آخر. ولهذا أصدر صلی الله علیه و آله و سلم إلی أصحابه تعلیمات احتیاطیه مشدَّده فأمرهم بأن یعقلوا إبلهم ولا یخرج أحدٌ منهم فی تلک اللیله وحده، بل یخرج من خبائه مع صاحبه.

وقد أثبتت التجاربُ والأحداثُ فیما بعد أنّ التعلیمات الاحتیاطیه النبویه المذکوره کانت مفیده جداً، لأنّ شخصین من بنی ساعده من الَّذین کانوا فی رکب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم تجاهَلا هذه التعلیمات فخرجا منفردین من خبائهما لیلاً،

۱- . السیره الحلبیه: ۱۰۶/۳؛ السیره النبویه لابن هشام: ۹۴۸/۴.

فاختنق أحدهما لشده الرياح، بينما احتملت الريحُ الرجل الآخر، وضربت به الجبَل، ولما علم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بذلك انزعجَ بشدّه وقال:

«ألمْ أنهكُمْ أنْ لا يَخرجَ أحدٌ منكم إلّاوَمعهُ صاحبَه»(۱).

هذا وقد استعمل رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على حرس العسكر «عباد بن بشر» فكانَ يطوف فى أصحابه على العسكر.

ثم أصبح الناس ولا ماء معهم، وحصل لهم بسبب العطش ما كاد يقطَعُ رقابهم، حتّى حملَ ذلك بعضهم على نحر إبلهم ليشقُّوا أكراشها، ويشربُوا ماءها، بينما صبر آخرون، وانتظروا حصول الماء على ظمأ شديد، وقلوب ملتهبه عطشاً.

ولقد أعانّ اللّه تعالى الّذى كان قد وَعَد نبيّه الكريم بالنصر أصحابه المسلمين الأوفياء، مرّه أُخرى إذ أرسل سحابه فمطرت حتّى ارتوى الناسُ، واحتملوا ما يحتاجون إليه.

علم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالمغيّبات

لاشكّ فى أنّ فى مقدور رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يَطْلَعَ على الغيب ممّا يخفى على الناس، ويخبر به كما يصرّح القرآنُ الكريم بذلك، إلّاأنَّ هذا العلم لا ريب محدودٌ، ويحتاجُ إلى تعليم اللّه سبحانه. يقول تعالى:

«عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ» (۲).

من هنا يمكن أن تخفى على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى بعض الأحايين، أبسط الأُمور، كأن يفقد مفتاحاً، أو يضيّع مالاً ولا يعرف بمكانه ومصيره، بينما

۱- . السيره الحلبيه: ۱۰۶/۳؛ السيره النبويه لابن هشام: ۹۴۸/۴.

۲- . الجن: ۲۶ و ۲۷.

يقدر صلى الله عليه و آله و سلم أن يعلم بأخفى الأمور الغيبيه وأشدّها غموضاً فيثير حيره الناس ودهشتهم وعجبهم.

والسبب فى كلّ ذلك هو ما ذكرناه، فإنّ مشيئه اللّه سبحانه لو تعلّقت بأن يعلم نبيّه بشىء من عالم الغيب ويخبر به علمَ وأخبر، وإلّا كان صلى الله عليه و آله و سلم كغيره من أفراد البشر العاديّين.

وفى ضوء هذا البيان لابد أن ننظر إلى القصّه التاليه:

لمّا كان رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ببعض الطريق إلى تبوك ضلّت ناقته، فخرج أصحابه فى طلبها، فقام أحد المنافقين، وقال: أليس محمَّد يزعم أنّه نبى، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته؟!

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهو يكشفُ النقاب ببيانه الرائع:

«إنّ رجُلاً قال: هذا محمَّدٌ يخبرُكُمْ أنّه نبىٌّ، ويزعَمُ أنّه يخبركمْ بأمر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته؟ وإنّى واللّه ما أعلمُ إلّاما علّمنى اللّه، وقد دلّنى اللّه عليها، وهى فى هذا الوادى، فى شِعب كذا وكذا، وقد حبَستْها شجرهٌ بزمامها، فانْطلِقُوا حتّى تأتونى بها».

فذهبوا فجاءوا بها(۱).

إخباره بمغيَّب آخر

لقد تخلّف أبو ذر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إذ أبطأ به بعيره، فانتظرهُ المسلمون ريثما يقوم بعيرهُ، ولكن دون جدوى فترك أبوذر البعير، وأخذ متاعه فحملَهُ على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ماشياً، ونزل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى بعض

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۵۰/۴؛ المغازى: ۱۰۱۰/۲.

منازله ونزل المسلمون ليستريحوا فيه بعض الوقت، وفجأه لاح من بعيد رجلٌ، فلمّا نظر إليه ناظرٌ من المسلمين قال: يا رسول اللّه هو واللّه أبوذر، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم:

«رَحِمَ اللّهُ أبا ذر يَمشى وحدَه وَيموتُ وحدَه وَيُبْعَثُ وحدَه»(۱).

وقد كشف المستقبل عن صحّه هذه النبوءه، فقد توفّى أبوذر فى صحراء «الربذه»، وعنده امرأته وغلامه بعيداً عن الناس فى حاله مأساويه(۲).

لقد تحقّقت نبوءه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى معركه تبوك بعد ثلاثه وعشرين عاماً، فقد نُفِيَ هذا الصحابى المجاهدُ الصادق إلى الشام ثم إلى الربذه، لا لشىء إلّالأنّه جهر بالحقّ، وطالب بالعدل، وفقد قواه وطاقاته البدنيه شيئاً فشيئاً حتّى غدا طريح الفراش، فى تلك المنطقه الوعره.

وفيما كان يمضى الدقائق الأخيره من حياته الحافله بالأحداث والتطوّرات، وامرأته جالسهٌ عنده ترمق محيّاه المشرق المتعب وقد عرق جبينه، وهى تمسح بيدها العرق وتبكى قال لها: ما يُبكيك؟

فقالت: أبْكى أنّه لايَد لى بتغييبك (أى ليس لى من يعيننى على دفنِكَ) ولَيسَ عندى ثوبٌ يسعُك كَفناً!

فارتسمت على شفتَىْ أبى ذر ابتسامهٌ مُرّه وقال: لا تبكى علىَّ، فإنّى سمعتُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ذات يوم وأنا عنده فى نفر يقول: ليموتُنَّ رجلٌ منكم بفلاه من الأَرض تشهدهُ عِصابهٌ من المؤمنين (ثم قال:) فكلُّ مَن كان معى فى ذلك المجلس مات فى جماعه وقريه، فلم يبق منهم غيرى، وقد أصبحت بالفلاه

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۵۱/۴.

۲- . لاحظ: المغازى: ۱۰۰۰/۲-۱۰۰۱.

أموت فراقبى الطريق، فإنّك سوف ترين ما أقولُ لك، فإنّى واللّه ما كَذِبتُ ولا كُذِبتُ.

قال هذا وفاضت روحه المباركه(۱).

***

ولقد صَدَق أبوذر، فقد كانت ثمّه قافله من المسلمين تضم شخصيات كبرى مثل «عبد اللّه بن مسعود» و «حجر بن عدى» و «مالك الاشتر» تتقدّم نحو تلك المنطقه.

رأى «عبد اللّه» مِن بعيد مشهداً عجيباً... مشهدَ جسد بلا روح على قارعه الطريق، وعند ذلك الجسد امرأه وصبىّ وهما يبكيان.

فعطف «عبد اللّه» زمام راحلته نحو ذينك الشخصين وتبعه من معه فى القافله أيضاً، وما أن وقعت عينا عبد اللّه على ذلك الجسد حتّى عرف صاحبه، فهذا هو رفيقه وأخوه فى الإسلام أبو ذر!!

فاغرورقتْ عيناهُ بالدموع، ووقف عند جثمان أبى ذر، وتذكَّر نبوءه رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم فى غزوه تبوك وقال: «رحم اللّه أبا ذر يمشى وحدَه، ويموتُ وحدَه، ويبعث وحده».

ثم صلّى ابن مسعود على أبى ذر، ثم واراهُ الثرى، وبعد أن فرغ من دفنه، وقف مالك الأشتر عند قبره وقال:

اللّهمّ إنَّ هذا صاحبُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عَبَدك فى العابدين، وجاهَدَ فيك المشركين، لم يغيّر ولم يبدّلْ لكنَّه رأى غريباً منكراً فغيّره بلسانه وقلبه، حتّى جُفىَ

۱- . أُسد الغابه: ۳۰۲/۱، الطبقات الكبرى: ۲۳۲/۴-۲۳۳.

ونُفیَ وحُرم واحتقر ثم مات وحیداً غریباً(۱).

وقد أشار السبکی فی أبیات له إلی هذا کما فی السیره الحلبیه:

وعاش أبوذر کما قلتَ وحدَه ومات وحیداً فی بلاد بعیده(۲)

***

جیش الإسلام فی أرض تبوک

حلّ جیش التوحید فی مطلع شهر شعبان سنه تسع من الهجره فی أرض تبوک، ولکن دون أن یری أثراً لجیش الروم، وکأنّ جنود الروم لمّا علموا بکثره جنود الإسلام وبشهامتهم وتضحیتهم النادره الّتی شهدوا نموذجاً منها عن کثب فی معرکه «مؤته» رأوا من الصالح أن ینسحبوا إلی داخل بلادهم ولا یواجهوا المسلمین، ویتظاهروا بأنّه لم تراودهُم فکره الهجوم علی المسلمین قط، وأنّ هذا النبأ لم یکنْ إلّاشائعه لا أکثر، فیثبتوا مِن هذا الطریق حیادَهم بالنسبه للحوادث والوقائع الّتی تحدث فی الجزیره العربیه(۳).

۱- . ذکر المؤرّخون قصّه وفاه أبی ذر ودفنه بصور مختلفه، فیستفاد من بعض المصادر التاریخیه أنّ أباذر کان علی قید الحیاه عندما قدمت القافله المذکوره وتحدث مع رجالها، ولکن بعض المصادر الأُخری تنص علی أنّه مات قبل قدوم تلک القافله إلی تلک المنطقه، کما أنّه صرح البعضُ أنّ زوجه أبی ذر وابنه حَملا جثمانه إلی قارعه الطریق، بینما قال آخرون أنّ زوجته وابنه جلسا علی قارعه الطریق ودلّا القافله علی محل جثمانه الطاهر، راجع للوقوف علی ذلک: الطبقات الکبری: ۲۳۲/۴-۲۳۵، والدرجات الرفیعه: ص ۵۳.

۲- . السیره الحلبیه: ۱۰۹/۳.

۳- . ذکر الواقدی فی المغازی: ۱۰۱۵/۲-۱۰۱۶: أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أقام بتبوک عشرین لیله، وذکر أنّ النبی بعد أن صلّی الفجر ذات یوم جمَع الناسَ، فخطَبَ فیهمْ خطبه بلیغه ضمَّنها مواعظَ وتعالیمَ عظیمه کثیره، ثم أدرجَ نصَ الخطبه.

فی هذه اللحظه جمع رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم قاده جیشه الکبار، وتبعاً للأصل الإسلامی: «وشاورْهُمْ فی الأمر» تحادثَ معهم حولَ التقدُّم فی أرض العدوّ أو الرجوع إلی المدینه وشاورهم فی ذلک.

فکانت نتیجه التشاور هی أنَّ علی الجیش الإسلامی الّذی تحمَّلَ مشاق کثیره فی هذه السَّفره، أن یعود إلی المدینه، لیستعید نشاطَه، وقواه، هذا مُضافاً إلی أنّ المسلمین حقّقوا هدفهم السامی من هذه السفره وهو تفریق جیش الروم وتبدید اجتماعهم بعد إلقاء الرعب الشدید فی قلوبهم، وقد یبقی هذا الرعب فی قلوب الرومیین إلی مدّه مدیده بحیث یصرفهم عن فکره تسییر جیش للهجوم علی المسلمین، وهذا القدر من النتیجه الّتی من شأنها أن تضمن أمن الحجاز من ناحیه الشمال ردحاً من الزمن تکفی للمسلمین فعلاً حتّی یقضی اللّه ما یقضی فی المستقبل.

ولقد أضاف کبار المشیرین - حفاظاً علی مکانه الرسول القائد، وإشعاراً بأنّ رأیهم هذا قابل للأخذ والرد - قائلین: إن کنتَ أُمِرت بالسَّیْر فسِرْ(۱).

فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«لو أُمرتُ بالسیر لم أستشَرْتُکُمْ فِیهِ».(۲)

وهکذا احترم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم آراء مشاوریه ورضی بالعوده إلی المدینه.

وحیث کان هناک حکامٌ وولاهٌ یعیثون فی المناطق الحدودیه السوریه والحجازیه فساداً ولهم نفوذ کبیرٌ فی قبائلهم ومناطقهم، وکانوا جمیعاً نصاری، ولهذا کانَ من المحتمل بقوه أن یستغل الروم قواهم ضد الإسلام ویحملوا

۱- . المغازی: ۱۰۱۹/۲.

۲- . السیره الحلبیه: ۱۱۹/۳.

بمساعدتهم على الحجاز.

ولهذا كان يتعيّن أن يعقد معهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم معاهده عدم اعتداء، ليأمن جانبهم ويحصل على أمن أوسع، فأجرى صلى الله عليه و آله و سلم اتصالات مباشره مع أُولئك الحُكّام والولاه الذين كانوا يعيشون على الشريط الحدودى على مقربه من تبوك وعقد معهم معاهدات عدم تعرّض واعتداء بشروط خاصّه، كما أرسل مجموعات إلى النقاط النائيه عن تبوك ليحقّق بذلك مزيداً من الأمن للمسلمين.

لقد اتصلَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم شخصياً بزعماء «أيله» و «أذرح» و «الجرباء»، وتمَّ عقدُ معاهده عدم تعرّض واعتداء بين الجانبين. و «أيله» مدينهٌ ساحليهٌ تقعُ على ساحل البحر الأحمر، ولا تبعدُ عن الشام كثيراً، وكان زعيم تلك المنطقه هو «يوحنا بن رُؤبه»، فهو يومَ أُتى به إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وعليه صليب من ذهب على عاده النصارى، قدّم لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فرساً أبيض، وأعلن عن طاعته لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فاحترمه النبى وأكرمهُ، وصالحه، وكساه بُرداً يمانيّاً.

وقد قبلَ «يوحنا» هذا، أن يبقى على نصرانيته شريطه أن يدفع للنبى جزيه قدرها ثلاثمائه دينار سنوياً، وعلى أن يُحسنَ إلى مَنْ يمرُّ على أيله من المسلمين؛ وكتب لهُ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كتابَ أمان وقَّعهُ الطرفان، وإليك نص الكتاب المذكور:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا أمنهٌ من اللّه ومحمَّد النبىّ ليوحنا بن رؤبه وأهل أيله، سُفُنِهِمْ وسيارتهم فى البرّ والبحر، لهم ذمّهُ اللّه وذمّهُ محمَّد النبى ومَن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمَن أحدث منهم حدثاً، فإنّه لا يحولُ مالُه دون نفسه، وأنّه طَيّبٌ لمن أخذه من الناس، وأنّه لا يحلُّ أن يُمنَعُوا ماء يردونه، ولا طريقاً يُريدونه، من بَرٍّ أو بَحر».

هذا الكتاب يكشفُ عن قاعده مهمّه فى السياسه الإسلاميه وهى أنّ أىّ شعب أراد أن يسالِم المسلمين، وفَّر الإسلام له كلَّ أمن وسلام(۱).

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم صالَحَ بقيه الحكّام الحدوديّين مثل ساده أقوام «أذرح» و «جرباء» الّتى كانت تتمتّع بأهميه استراتيجيه، وبذلك ضمنَ أمن المنطقه الإسلاميه من ناحيه الشمال.

بعث خالد إلى دَومه الجندل

على طريق تبوك كانت تقعُ منطقهٌ عامرهٌ خضراء ذات أشجار وزروع ومياه جاريه تضمُ حصناً منيعاً، وتبعد عن الشام بما يقرب من خمسين فرسخاً، تُسمّى «دومه الجندل»(۲) وكان يحكمها يومذاك رجلٌ مسيحىٌ يُدعى «أكيدر بن عبد الملك».

وحيث إنَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يخشى هجوماً آخر من الروم، والاستعانه بحاكم دومه الجندل المسيحى وبهذا يعرِّضون أمن الحجاز للخطر، لذلك رأى صلى الله عليه و آله و سلم أن يستفيد من قوته الحاضره أكبر قدر ممكن، فبعث مجموعه من المقاتلين بقياده خالد بن الوليد إلى المنطقه المذكوره لتطويعها وتطويع حاكمها.

فتوجّه خالد مع فرسانه إلى دومه الجندل حتّى اقتربوا إلى حصنها، وكمنوا قريباً منه.

وفى تلك الليله خرج «أكيدر» وأخوه «حسان» من الحصن ومعه نفر من أهل بيته للصيد، فلمّا ابتعدوا عن الحصن حاصرتهم خيلُ خالد وأسروا «أكيدر» بعد

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۵۲/۴؛ إمتاع الأسماع: ۶۶/۲؛ بحار الأنوار: ۱۶۰/۲۱.

۲- . يقول الواقدى فى المغازى: ۱۰۲۵/۲: تقع دومه الجندل على عشره أميال من المدينه.

قلیـل من القتال والمواجهه، وقُتل أخوه «حسان» ولجأ البقیه إلی الحصن، واعتصـموا به، فصالـح خالـد «أکیـدر» علی أن یطلب له ولقومه الأمان من رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لقاء أن یفتح أبواب الحصن فی وجوه المسلمین ویلقی أهلُها الأسلحه.

فـأمر أکیـدر الّذی کـان یثـق بصـدق المسـلمین واحـترامهم لوعـودهم وعُهـودهم، أمر قـومه أن یفتحوا أبواب الحصن ویسـلّموا للمسـلمین، ویلقوا أسـلحتهم ویترکوا القتال، وکانت الأسلحه تبلغ أربعمائه درع، وأربعمائه رمح وخمسمائه سیف، ثم توجّه خالد بأکیدر وقومه وما حصل علیه من الغنائم إلی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم فخلب منظرُ الدیباج المخوّص بالذهب عیون جمـاعه من طُلاـب الـدنیا. فأخـذوا یتلمّسونه بأیـدیهم ویتعجّبون منه، فقالَ رسولُ اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم وهو لا یکترث بتلک الثیاب:

«فَوَ الَّذی نفسی بیده لَمناديلُ الجنه أحسنُ مِنْ هذا».

لقد حضـر «أکیدر» عند رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سلم وامتنع عن قبول الإسلام، إلّاأنّه رضی بأن یعطی الجزیه للمسلمین، وصالحه النبی صلی الله علیه و آله و سلم علی ذلک وکتب له کتاباً، ثم أهدی له صلی الله علیه و آله و سلم هدیه واستعمل علی حرسه «عبّاد بن بشر» لیوصلَه إلی دومه الجندل سالماً(۱).

تقییم إجمالیُ لغزوه تبوک

إنّ النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله و سـلم وإن لم یلقَ فی هذا السَّفَر الشاق کیداً ولم یواجه العدوّ، ولم یقاتل إلّاأنَّ هذه السَفره عادتْ علیه بسلسله من الفوائد المعنویه

۱- . لاحظ: الطبقات الکبری: ۱۶۶/۲؛ المغازی: ۱۰۲۵/۲-۱۰۲۸؛ السیره النبویه لابن هشام: ۹۵۲/۴؛ بحار الأنوار: ۲۴۶/۲۱.

والروحیه هی:

أوّلاً: صعود مکانه وسمعه الجیش الإسلامیّ، فقد زاد من عظمته وقوته فی قلوب سکان الحجاز، وحُکّام المناطق الحدودیه السوریه، وعرف الصدیقُ والعدوُّ أنّ المقدره العسکریّه الإسلامیّه بلغت من القوه والعظمه بحیث أصبح فی مقدورها أن تواجه أکبر القوی العالمیه وتقارعها، وتلقی الرعب والخوف فی قلوبها.

إنّ انتشار هذا الموضوع بین القبائل العربیه الّتی عُجنَت جبلَّتها بروح التمرّد والطغیان، أوجب أن تتخلّی عن فکره الطغیان والمعارضه، والتآمر ضدَّ الإسلام ردحاً من الزمن، وأن لا تفکِّر فی هذه الأُمور.

ولهذا السبب أخذت وفودُ القبائل الّتی لم تخضع للإسلام حتّی ذلک الیوم، تفد تباعاً علی رسول الإسلام صلی الله علیه و آله و سلم بعد رجوعه من تبوک إلی المدینه، وتظهر لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم طاعتها وخضوعها حتّی سُمّی ذلک العامُ بعام الوفود، لضخامه عدد تلک الوفود والبعثات الّتی قدمت المدینه علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

ثانیاً: ضمن المسلمون عن طریق عقد المعاهدات المختلفه المتعدّده مع حکّام المناطق الحدودیه الحجازیه والسوریه أمن هذه المنطقه، واطمأنّوا بسببها إلی أنّهم سوف لن یتعاونوا مع جیش الروم، ولن یدخلوا مع تلک الدوله فی مؤامره ضدّ الإسلام والمسلمین.

ثالثاً: مهّد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بهذا السفر الشاق الطریق لفتح الشام، فقد عرف قاده جیشه طرق هذه المنطقه ومشاکلها، وعلّمهم کیفیه تجییش الجیوش الکبری فی وجه القوی العظمی فی ذلک العصر، من هنا کانت الشام وسوریه هی أوّل منطقه فتحها المسلمون بعد وفاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

رابعاً: تميّز المؤمن عن المنافق فی هذه التعبئه العامّه، وحصلت عمليه تصفيه وفرز كبيره وعميقه فی جماعه المسلمين.

المنافقون يخطّطُون لاغتيال النبی صلی الله عليه و آله و سلم

أقام رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم بضع عشره يوماً فی تبوك(۱) وبعد أن بعث خالداً إلی «دومه الجندل» توجّه بالمسلمين إلی المدينه. ولدی العوده تآمر (۱۲) منافقاً - ثمانيه منهم من قريش والباقی من أهل المدينه - لاغتيال رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم فی أثناء الطريق وقبل أن يصلَ إلی المدينه، وذلك بتنفير ناقه النبی صلی الله عليه و آله و سلم فی عقبه بين المدينه والشام ليطرحوه فی واد كان هناك. وعندما وصل الجيشُ الإسلامی إلی بدايه تلك المنطقه (العقبه) قال رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم للناس:

«من شاء مِنكُمْ أنْ يأخذَ بطنَ الوادی فَإنَّه أوسعُ لَكُمْ».(۲)

فأخذَ الناس بطن الوادی، ولكن رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم أخذَ طريق العقبه فيما يسوق «حذيفه بن اليمان» ناقه النبی، ويقودُها «عمّار بن ياسر» فبينما هم يسيرون إذ التفت رسولُ اللّه صلی الله عليه و آله و سلم إلی خَلْفِه، فرأی فی ضوء ليله مقمره فرساناً متلثّمين لحقوا به من ورائه لينفّروا به ناقته، وهم يتخافتون، فغضب رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم، وصاح بهم وأمر حذيفه أن يضرب وجوه رواحلهم. قائلاً: إضرب وجوه رواحِلهم.

فأرعبهم رسولُ اللّه صلی الله عليه و آله و سلم بصياحه بهم إرعاباً شديداً، وعرفوا بأنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم علمَ بمكرهم ومؤامرتهم، فأسرعوا تاركين العقبه حتّی خالطوا الناس.

يقولُ حذيفه: فعرفتُهُمْ برواحلهم وذكرتهم لرسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم وقلتُ: يا

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۹۵۳/۴، وذهب ابن سعد فی الطبقات: ۱۶۸/۲ أنّه مكث بتبوك عشرين يوماً.

۲- . بحار الأنوار: ۲۴۷/۲۱؛ الدر المنثور: ۲۵۹/۳.

رسول اللّه ألا تبعث إليهم لتقتُلَهم؟ فأجابَهُ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى لحن ملؤه الحنان والعاطفه:

«إنّ اللّه أَمرنى أن أُعرض عنهم، وأكرهُ أن يقول الناسُ إنّه دَعا أُناساً مِن قومِه وأَصحابه إلى دينِه فاستجابوا له فقاتل بِهِمْ حَتى ظَهَرَ عَلى عدوِّه ثمَّ أقبلَ عليهِمْ فَقتَلَهُمْ، وَلكِنْ دَعْهُمْ يا حذيفه فإنّ اللّه لَهُمْ بِالمرصاد».(۱)

وقد أنزل اللّه سبحانه إثر هذه الحادثه الآيه ۶۵ من سوره التوبه الّتى قال تعالى فيها: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» .(۲)

النيّه تقومُ مقام العمل

ليس ثمه مشهد أعظمَ جلالاً ـ من مشهد جيش فاتح يعودُ إلى أحضان الوطن، كما ليس هناك أمرٌ ألذَّ وأهنأ عند الجندى المجاهد من الغلبه على العدو، الّتى تحفظ أمجاده، وتضمن بقاء كيانه، وسلامته، وقد تجلّى هذان الأمران عند عوده الجيش الإسلامى المنتصر إلى المدينه.

لقد دخل الجيشُ الإسلامى الفاتح المدينه بجلال عظيم بعد أن طوَى المسافه بين «تبوك» و «المدينه»، وكانت تغمر جنودَ الإسلام فرحهٌ كبيره، وتظهرُ على كلماتهم وأعمالهم أماراتُ الاعتزاز بما أحرزوه مِن غلبه على العدوّ، ومن أَداء لحقّ الجنديه، وكان السببُ واضحاً لأنَّهمْ أرعَبوا دوله قويّه سبق لها أن هزمت الامبراطوريه الإيرانيه، فهم أخافوا الروم الّتى انسحبت من تبوك قبل وصول

۱- . الدرجات الرفيعه: ۲۹۸-۲۹۹؛ إرشاد القلوب: ۳۳۱/۲؛ بحار الأنوار: ۹۹/۲۸. ولاحظ: المغازى: ۱۰۴۲/۲-۱۰۴۵؛ إمتاع الأسماع: ۷۴/۲-۷۵.

۲- . راجع: مجمع البيان: ۴۶/۳.

المسلمين إليها، وهم طَوّعوا حكّامَ وزعماء المدن والمناطق الحدوديه السوريه والحجازيه، وأخضعوهم للدوله الإسلاميه

لا شكّ أنَّ الغلبه على العدوّ فخرٌ عظيم أصاب هذا الجيش، وكان طبيعياً أن يفتخر أفرادُ هذا الجيش ويتباهوا على الذين تخلّفوا فى المدينه من دون عذر، ولكنْ حيث إنّ مثل هذا النمط من التفكير وهذه العوده الظافره كان من الممكن أن يوجِدَ غروراً لدَى البعض فيسيئوا إلى بعض الذين تخلّفوا فى المدينه الذين بقوا فيها لعذر وقلوبهم مع جنود الإسلام، ويشاركونهم بأفئدتهم فى أفراحهم وأتراحهم، لهذا التفَتَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهُمْ على مشارف المدينه وقد توقَّفُوا خارج المدينه بعض الوقت، فقال لهم:

«إنَّ بالمدينه أقْواماً ما سِرتُم مَسِيراً ولا قَطعْتُمْ وادياً إلّاكانُوا مَعكُم».

قالوا يا رسولَ اللّه: وهم بالمدينه؟

قال: «نعم وهم بالمدينه، حَبَسَهُمُ العُذرُ»(۱).

أجل إنّهم كانوا يتشوَّقون إلى الجهاد، هذا الواجب الإسلامى الكبير، ولكن العذر منعهمْ من الاشتراك فيه.

إنّ النبىَ الأكرم بهذه العباره المقتضبه أشار - فى الحقيقه - إلى واحد من البرامج الإسلاميه التربويه، وذكّر بأنّ النيّه الطيّبه والفكر الصالح يقومُ مقام العمل الصالح الطيّب، وأن الذين يُحرَمون من القيام بالأعمال الصالحه لافتقادهم القدره عليها أو فقدان الإمكانيات، يمكنهم أن يشاركوا الآخرين فى ثواب العمل الصالح إذا نَوَوْا ذلك، واشتاقُوا إليه قَلْبياً.

۱- . السيره الحلبيه: ۱۲۲/۳؛ إمتاع الأسماع: ۳۹۴/۸.

إذا كـان الإسـلام يهتمُّ بإصـلاح الظاهر، فإنّه يهتمُّ أكثر بإصـلاح القلب والفكر، بإصـلاح الباطن والسـريره، لأنّ إصـلاح العقيـده وطريقه التفكير هو منبع جميع الإصلاحات، وأعمالنا كلُّها وليده أفكارنا ونوايانا.

إذا خفّف النبيُ الأـكرم بقوله هـذا من غُلَواء المجاهـدين وغرورهم، وحفظ مكانه المعـذورين من المخلفين فلا يلحق بهم هوانٌ، إلّاأنّه قرّر فى نفس الـوقت أن يوبّـخ المتخلّفيـن مـن دون عـذر ويلقّنهـمْ دَرسـاً لـن ينسَـوْه، وللنمـوذج ننقـل هنـا قصّه ثلاـثه من المتخلَّفين.

أخذ المتخلّفين بالعقاب النفسىّ

يوم أُعلِنَ فى المـدينه عن التعبئه العـامّه تخلّف ثلاثهٌ من المسـلمين فى المـدينه هم: «هلال بن أُميّه» و «كعب بن مالك» و «مراره بن الربيع» فقـد حضـر هؤلاـء عنـد رسـول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم لـدى خروجه إلى تبـوك واعتـذروا إليه بمعـاذير عن الاشتراك فى الجهاد، فاعتذر أحدُهم، بأنّ الوقت هو وقتُ إدراك الثمر، وأنّهم سـيلتحقون بجيش الإسلام إذا فرغوا من الحصاد والقطاف.

إنّ هؤلاء وأمثالهم ممّن يريدون الدين والدينار، وتهمُّهم مصالحهم المادّيه الشخصـيه والاسـتقلال السياسـى معاً، يعانون من نظره ضيّقه وقصـيره تعـادل اللذائـذ المـاديّه العـابره بالحيـاه الإنسـانيه الشـريفه، الّتى تتحقّق تحت لواء الاسـتقلال الفكرىّ والسياسـىّ والثقافى، بل ربما رجَّحوا الأُولى على الثانيه.

ولهـذا كان على النبى صـلى الله عليه و آله و سـلم - بعد العوده - أن يؤدّب مثل هذه العناصـر حتّى لا تسـرى عدوى هذه الحاله المرضيّه إلى الآخرين.

إنّهم لم يتخلَّفوا عن هذا الجهاد فحسب، بل لم يعملوا بالعهد الّذى أعطوه

لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أيضاً، فإنّهم انشغَلوا بالتجاره، وجمع المال حتّى فُوجئوا بعوده رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المُظفَّره إلى المدينه، فبادروا عند ذلك - لتلافى ما بَدَر منهم من تخلُّف - إلى الحضور عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم للتسليم عليه وتقديم التهانى إليه كما فعَل الآخرُون.

إلّا أنَّ رسولَ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أعرض بوجهه عنهم ولم يكترثْ بهم، وعندما بدأ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بالكلام فى ذلك الاجتماع العظيم وسط موجه من الفرح والابتهاج كان أوّل ما قاله هو:

«لا تُكلمنَّ أحداً مِن هؤلاء الثلاثه».

ومع أنّ عدد المتخلّفين كان يقارب التسعين شخصاً، إلّاأنّ أكثرهُمْ حيث كانوا من المنافقين، ولم يكنْ يتوقّع منهم أن يشاركوا المسلمين فى جهاد العدُوّ، لهذا تركَّز ثقلُ هذه القطيعه على هؤلاء المسلمين الثلاثه الذين كان بعضهُم سبقَ منه أنْ اشترك فى غزوه بدر مثل «مراره» و «هلال»، وكانت لهم شخصيه ومكانه بين المسلمين!!

ولقد تركت سياسه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الحكيمه - الّتى كانت جزءاً لا ـ ينفك من دينه - أثراً عجيباً، فقد تعطَّلت التجاره والأخذ والعطاء مع المتخلّفين، وكسُدَتْ بضائعُهم، ولم يشترها أحدٌ، وقطع أقرب أقرباء المخلّفين روابطهم وعلاقتهم مع المخلّفين المذكورين إتّباعاً لأوامر النبى صلى الله عليه و آله و سلم، وتركوا حتّى الحديث العابر معهم.

ففعلت مقاطعه الناس للمخلّفين فعلتها، وضغطت عليهم نفسياً بشدّه، حتّى ضاقت عليهم الأَرض على رحابتها فى نظرهم كما يقول القرآن الكريم.

«حَتّی إِذا ضاقَتْ عَلَیْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَیْهِمْ أَنْفُسُهُمْ» .(۱)

ولکنّ هؤلاء الثلاثه المعروفین بفراسه کامله أدرکوا أنّ العیش فی البیئه الإسلامیه لا یمکن إلّابالالتحاق الحقیقی بصفوف المسلمین، وأنّه لا دوام لحیاه الأقلیّه الصغیره أمام الأکثریه القاطعه، وبخاصّه إذا کانت الأقلّیه تتألّف من جماعه مشاغبه ومغرضه.

هذه المحاسبات من جانب، والانجذاب الفطریّ من جانب آخر دفعتْ بهؤلاء المخلّفین إلی العوده إلی حظیره الإیمان الواقعی، وأن یظهروا ندَمهم علی فِعلهمُ القبیح بالتوبه إلی اللّه، والإنابه إلیه، وقبل اللّه تعالی توبتهم، وأخبر نبیّه الکریم بعفوه عنهم فبادرَ النبیُّ صلی الله علیه و آله و سلم من فوره إلی الإعلان عن عفوه ورفع المقاطعه عنهم(۲).

قصّه مسجد ضرار

کانت «المدینه» و «نجران» تُعتَبران بالنسبه إلی أَهل الکتاب منطقتین واسعتین ومرکزیتین فی شبه الجزیره العربیه، فقد کانوا یتمرکزون فی هاتین المنطقتین أکثر من أی مکان آخر، ولهذا اعتنق فریقٌ من عرب الأوس والخزرج الدین المسیحی والیهودی.

ویبدو أنّ «أبا عامر» والد «حنظله غسیل الملائکه» المستشهد فی غزوه أُحد،

۱- . التوبه: ۱۱۸، وتذکر التفاسیر کیفیه توبتهم وأنابتهم علی وجه التفصیل، فلیراجعها من یرید.

۲- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۹۵۷/۴؛ إمتاع الأسماع: ۷۹/۲؛ تاریخ الطبری: ۳۷۴/۲. وهذا النوع من المحاربه الّتی سلکها النبی مع المخلّفین علّم المسلمین درساً کبیراً ومفیداً فی مقابل الأقلّیات الصغیره، وهو لا یحتاج إلّاإلی الإخلاص والاتّحاد والعزم. هذا ویذکر الواقدی فی المغازی: (۱۰۴۹/۲-۱۰۵۶) قصّه هؤلاء المخلّفین بصوره أکثر تفصیلاً ممّا ذکرناه هنا.

كان قد رغب فی الدین المسیحی فی العهد الجاهلی، فانسلک فی صفوف الرُّهبان، فلمّا ظهر نجم الإسلام من أفق المدینه بعد هجره النبی الیها، واحتوی الدین الجدید الأدیان الأُخری انزعج «أبو عامر» من هذه الظاهره بشدّه، فشرع بصدق فی التعاون مع منافقی الأوس والخزرج. وقد عَرفَ رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بخططهم التخریبیه، وأراد اعتقاله، فخرج «أبو عامر» من المدینه إلی مکّه، ومن مکّه إلی الطائف، وهرب من الطائف بعد سقوطها إلی الشام، وأخذ یقود من هناک شبکه تجسُّسیّه لحزب المنافقین.

وقد کتب إلی المنافقین فی المدینه فی إحدی رسائله أن استعدّوا وابنوا مسجداً فی قباء فی مقابل مسجد المسلمین وصلّوا فیه فی أوقات الصلاه لیمکنکم - تحت غطاء أداء الفرائض - التحدّث حول الأُمور المتعلّقه بالإسلام والمسلمین، وکیفیه تنفیذ المؤامرات الحزبیه ضدهم.

لقد کان «ابوعامر» علی غرار أعداء الإسلام فی العصر الحاضر یری أنّ أفضل وسیله لهدم واستئصال الدین فی بلد یسوده الدین هو الاستفاده من نفس سلاح الدین، ومن المعلوم أنّه یمکن توجیه الضربه إلی الدین باسم الدین أکثر من أیّ عامل أو وسیله أُخری.

لقد کان «أبوعامر» یعلم أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم لا یسمح لحزب المنافقین بإقامه مرکز لهم مطلقاً إلّاإذا کان لذلک صبغهٌ دینیهٌ، وکان تحت عنوان مسجد.

عندما کان رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یتجهّز إلی «تبوک» أتاه جماعه من المنافقین وطلبوا منه أن یسمح لهم ببناء مسجد فی محلّتهم بقباء بحجّه أنّ ذوی العلّه والحاجه لا یمکنهم أن یقطعوا المسافه بین قباء ومسجد النبی للصلاه معه صلی الله علیه و آله و سلم فی اللیله المطیره واللیله الشاتیه، فأوکل النبی صلی الله علیه و آله و سلم أمر النظر فی طلبهم إلی ما بعد

العوده من تبوک(۱).

غیر أنّ حزب النفاق بادروا إلی اختیار نقطه من الأَرض فی قباء، وأسرعوا فی إقامه مرکز لهم تحت غطاء المسجد، ولمّا عاد النبی صلی الله علیه و آله و سلم من تبوک حضروا عنده وطلبوا منه أن یصلّی فیه رکعتین لیُسبغوا بذلک الشرعیّه علی مرکزهم، وفی هذه الأثناء نزل جبرئیل علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وأخبره بحقیقه هذا الأمر، وسمّاه فی آیات نزَلَ بها علی النبی بمسجد ضرار، ووصفه بأنّه مرکز بُنی لإیجاد الفُرقه بین المسلمین، والتآمر علیهم إذ یقول تعالی:

«وَ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ کُفْراً وَ تَفْرِیقاً بَیْنَ الْمُؤْمِنِینَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَیَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنی وَ اللّهُ یَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِیهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَی التَّقْوی مِنْ أَوَّلِ یَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِیهِ فِیهِ رِجالٌ یُحِبُّونَ أَنْ یَتَطَهَّرُوا وَ اللّهُ یُحِبُّ الْمُطَّهِّرِینَ» .(۲)

فأمر النبیُّ صلی الله علیه و آله و سلم فوراً بإحراق ذلک المسجد وتسویته بالأَرض فحرّق وهُدِّمَ وَسُوِّیَ بالأَرض وتحوَّل مکانُه إلی مزبله فیما بعد(۳).

إنّ تحریق وهدم مسجد ضرار کانت ضربه قاضیه لحزب النِّفاق، فمنذ ذلک الوقت تلاشت وشائج وروابط ذلک الحزب الخبیث، وهلک حامیهم الوحید عبد اللّه بن أُبی بعد شهرین من غزوه تبوک.

ولقد کانت غزوه تبوک آخر الغزوات الإسلامیه الّتی شارک فیها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إذ لم یشارک صلی الله علیه و آله و سلم بعدها فی أی قتال.

۱- . لاحظ: المغازی: ۱۰۴۶/۲.

۲- . التوبه: ۱۰۷ و ۱۰۸.

۳- . لاحظ: السیره النبویه لابن هشام: ۹۵۶/۴-۹۵۷؛ بحار الأنوار: ۲۵۳/۲۰.

۵۶ وَفد ثقیف فی المدینه

اشاره

انتهت غزوه تبوک بکلّ مشاکلها، ومتاعبها الکثیره وعاد جنودُ الإسلام المجاهدون إلی المدینه بأبدان متعبه من وعثاء السفر، وبُعد الطریق، ولم یلق جنود الإسلام کیداً ولم تحصل بینهم وبین الجیش الرومی أیّه مواجهه، کما ولم یواجهوا عدواً طوال ذلک الطریق، ولم یغنموا غنیمه. من هنا اعتبر بعض السذَّج من المسلمین تسییر هذا الجیش الضخم عملاً لغواً وعبثاً، وذلک لأنّهم لم یعرفوا بالآثار والنتائج غیر المرئیه لهذه الحرکه العسکریه الواسعه، ولم یمض وقتٌ کبیرٌ إلّا واتّضحت نتائجها، فقد أسلمت علی أثر هذه المناوره العسکریه العظمی أشدّ القبائل عداء وعناداً للإسلام، وخضعت لسلطان المسلمین، بإیفاد مندوبیها ووفودها إلی المدینه، وإظهار الطاعه والإسلام عن طریقها، کما أنّها عمدت الی فتح أبواب حصونها الحصینه فی وجه المسلمین لیحطّموا أصنامها وأوثانها، وینصبوا علی حطامها ألویه التوحید.

إنّ الجماعات السطحیه التفکیر القصیره النظر تهتم - عاده - بالنتائج المرئیه الحاضره، فمثلاً إذا واجه جنودُ الإسلام خلال الرحله عدوّاً، وقاتلوه وقضوا علیه، وغنموا غنائم من أمواله قالت هذه الجماعه: لقد حقّقت هذه العملیه العسکریه

نتائج باهره!!

ولكن أصحاب الرؤيه العميقه والنظره البعيده يحلّلون الأُمور على غير هذا النمط، فهم يمتدحون أى عمل يخدم الهدف والنتيجه النهائيه ويعتبرونه نجاحاً باهراً.

ومن حسن الاتّفاق أنّ غزوه تبوك خدمت هدف النبى صلى الله عليه و آله و سلم وهو اجتذابُ الأقوام العربيه إلى الإسلام - خدمه كبرى - لأنه قد شاع فى جميع انحاء الجزيره العربيه أنّ الروميّين (الذين غَلبوا الإيرانيين الذين طالما سادوا نصف المعموره فى ذلك الوقت، وحكموا حتّى اليمن وماحولها فى آخر حُروبهم، واستعادوا منهم صليبهم وأعادوه إلى بيت المقدس) أُرعبوا بالقوه الإسلاميه الكبرى، وانصرفوا عن مقابله جنود الإسلام.

لقد دفَع هذا النبأ أشدَّ القبائل عناداً، والّتى كانت حتّى يوم أمس غير مستعده للتعايش مع الإسلام والخضوع له، دفعها إلى أن تغيّر من مواقفها المتعنّته المتصلّبه، وتفكِّر فى التعاون والتعايش مع المسلمين، ولكى تسلَم من عدوان القوى الكبرى فى ذلك اليوم (إيران والروم) انضوت تحت لواء الإسلام وأعلنت عن إنتمائها إليه.

وإليك فيما يلى نموذج من هذه التطوّرات الّتى حدثت فى مواقف تلك القبائل العربيه المعاديه للإسلام.

وقوع الفرقه والاختلاف فى قبيله ثقيف

كانت قبيله ثقيف معروفه بطغيانها وعنادها العجيب بين القبائل العربيه، ولقد قاوموا حصار الجيش الإسلامى لهم مدّه شهر واحد معتصمين بحصونهم فى الطائف ولم يسلّموا(۱).

۱- . لاحظ: المغازى: ۹۲۲/۲-۹۳۸.

هـذا وكان «عروه بن مسـعود الثقفى» وهو أحـد ساده ثقيف قد علم بانتصار المسـلمين الكبير فى أرض تبوك، فقدم على رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم قبل أن يـدخل المـدينه، وأسـلم على يديه واسـتأذنه فى أن يذهب إلى الطائف، ليدعو قبيلته إلى دين التوحيد فحذّره رسولُ اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم من مخاطر هذا العمل؛ لأنّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يعرف أنَّ فيهم نخوه الامتناع الّذى كان منهم.

وقال له: إنّهم قاتلوك.

فقال عروه: يا رسول اللّه أنا أَحبُّ إليهم من أبكارهم، (أو من أبصارهم)، وكان فيهم كذلك محبَّباً مُطاعاً.

ولقـد كـان قومُ عروه وسـائر قاده ثقيف لم يـدركوا بعـدُ ما أدركه عروه من عظمه الإسـلام، وكان فيهم نخوهٌ وكِبرٌ يمنعانهم من الخضوع للحق.

ولهذا قرّرت أن ترشق بالنبال والسـهام أوّل داعيه أتاها ليدعوها إلى الإسـلام... وهكذا رشقوا بالنبال «عروه» فى الوقت الّذى كان يدعوهم إلى الإسلام، فقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيره: كرامهٌ أكرمنى اللّه بها، وشهاده ساقها اللّه إلىَّ (۱).

وَفْدُ ثَقِيف

نـدم رجالُ ثقيف - بعـد مقتل عروه - على فعلهم هـذا بشـدّه وعرفوا بأنّ الحياه لم تعُدْ ممكنه ومُيسَّره لهم فى قلب الحجاز الذى رُفعَت على جميع مناطقه ألويه التوحيد، وخاصّه بَعد أن أصـبحت جميع المراعى والطرق التجاريه تحتَ رحمه المسلمين، فقرّروا فى ندوه مشاوره عقدت لدراسه مشـكلاتهم أن يبعثوا مندوباً من قِبَلهم إلى المدينه ليتفاوض مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويعلن له عن استعداد قومه لاعتناق

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۹۶۴/۴-۹۶۵.

دین التوحید ضمنَ شروط معیَّنه، واتفقُوا علی إیفاد «عبدیالیل» إلی المدینه وإبلاغ رسالتهم إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ولکن «عبدیالیل» رفض القیام بهذه المهمّه وقال:

لستُ فاعلاً ذلک حتّی تُرسلوا مَعی رجالاً، لأنّه کان لایثق بثبات رأیهم، وکان یخشی أن یصنَعوا به ما صنَعوا بعروه بن مسعود. فاتّفقوا أن یبعثوا معه خمسه رجال من ثقیف لیقوموا جمیعاً بالقدوم علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم والتفاوض معه.

توجّه هذا الوفدُ السداسیّ إلی المدینه، ونَزلوا بعد طیّ مسافه خارج المدینه عند قناه فألفوا عندها «المغیره بن شعبه الثقفی» یرعی خیولاً لأصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

فلمّا رأی المغیره زعماء قبیلته وعرف هدفهم وثب یشتد إلی المدینه لیبشّر رسولَ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بعد أن ترک الخیول عند الثقفیّین، ولیخبره بقرار قبیله ثقیف الّتی طال عنادها، فلقیه أبوبکر قبل أن یدخل علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فأخبره المغیره عن رکب ثقیف، فرجاه أبوبکر أن یسمح له بتبشیر النبی صلی الله علیه و آله و سلم قبل أن یحدّثه المغیره بالأمر، ففعل المغیره فدخل أبو بکر علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فأخبره بقدومهم علیه وأنّهم جاءُوا لیعتنقوا الإسلام بشروط، فأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بإکرامهم، وضربَ لهم قبه فی ناحیه مسجده، وکلّف «خالد بن سعید» بالقیام بشؤون ضیافتهم.

ثم حضر وفدُ ثقیف عند رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ومع أنّ المغیره کان قد علَّمهم کیف یُحیّون رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فإنّهم حیّوه بتحیه الجاهلیه تکبّراً منهم وغروراً، ثم أخبروا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم برأی ثقیف وأضافوا أنّهم مستعدون لاعتناق الإسلام ضمن شروط خاصّه، سوفَ یُعرضونها علیه فی جلسه تالیه.

واستمرت مفاوضات وفد ثقیف مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عده أَیّام، وکان «خالد

بن سعيد» هو الّذى ينتقل بينهم وبين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه المفاوضات.

شروط وَفد ثقيف

قَبِل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كثيراً من شروط ثقيف حتّى أنّه ضمن لأهل الطائف - ضمن ذلك العهد - أمن منطقه الطائف وما يرتبط بالطائفيّين من أراض، ولكن بعض شروطهم كانت غير صحيحه، ووقحه إلى درجه أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم غضب بسببها، ولا بأس أن نتعرض لذكر بعض هذه الشروط:

قال وفد ثقيف: إنّ قبيله ثقيف مستعده لأن تعتنق الإسلام شريطه أن يترك بيت أصنامهم على حاله، وأن يعبُدوا «اللّات» وهو صنم القبيله الأكبر مده ثلاث سنين، فأبى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فلمّا رأوا غضب النبى وإباءَه أخذوا يتنازلون عن المده الّتى ذكروها سنه سنه، وهو يأبى عليهم حتّى سألوا شهراً واحداً، فأبى عليهم أن يدعها ولا يوماً.

ولقد كان مثل هذا الطلب من النبى صلى الله عليه و آله و سلم الّذى كان نَشْرُ التوحيد، وهَدْم بيوت الأصنام، وتحطيم الأوثان يشكّل هدفه الأساسى، كان طلباً مخجلاً جدّاً، ولقد كان مثل هذا الطلب يكشف عن أنّهم كانوا يريدون إسلاماً لا يضرّ بمصالحهم الماديّه وميولهم الباطنيه، أمّا إذا كان غير هذا فلن يقبلوه ولن يرضوا به.

ولهذا عندما عرف وَفدُ ثقيف بقبح مطلبهم هذا، بادَروا إلى التعلّل والاعتذار بأنّهم إنّما أرادوا بذلك إرضاء نسائهم وذراريهم وسفهاء قبيلتهم، حيث إنّهم يكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتّى يدخلهم الإسلام، فإذا أبى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عليهم ذلك فليبعث معهم شخصاً من غير قبيلتهم ليهدمَها، فوافق النبى صلى الله عليه و آله و سلم على هذا الشرط، لأنّ النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم كان يريد محو وإزاله جميع

المعبودات الباطله عن الحياه البشريه، سواء أتمّ هذا على أيدى الطائفيّين أَمّ على أيدى غيرهم.

والشرط الآخر هو أن يعفيهم رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من الصلاه. فلقد كانوا يتصوَّرون أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يمكنُه التصرّف فى الأحكام الإلهيه كما يفعل قاده أهل الكتاب، حسب زعمهم، حيث كانوا يكلِّفون جماعه بهذه الأحكام، بينما يُعفون جماعه أُخرى منها، وذلك غفله منهم عن أنّه صلى الله عليه و آله و سلم يتبع الوحى الإلهىّ، ولا يمكنه التغيير فيه قيد شعره.

إنّ هذا الشرط كان يكشف عن أنّه لم يكن قد تَرَسَّخت فى أفئدتهم روح التسليم المطلق بَعدُ، وأنّ اعتناقهم للإسلام كان نتيجه ظروف ساقتهم إلى إسلام ظاهرىّ سطحىّ، وإلّا فلا داعى ولا مبرّر للإيمان ببعض ما جاء فى الإسلام دون بعض، فيقبلوا شيئاً ويرفضوا شيئاً آخر.

إنّ الإسلام، والإيمان باللّه إن هو إلّانوعٌ من التسليم الباطنى الروحىّ، والخضوع القلبى الّذى يقبل المرءُ فى ظلّه جميعَ التعاليم والدساتير الإلهيه عن طواعيه ورغبه، وفى مثل هذه الحاله لا غير لاتجد فكره التبعيض فى التعاليم الإلهيه طريقاً إلى روح إنسان ومخيّلتهِ.

ولأجل هذا قال رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى جوابهم:

«لاخَير فى دِين لا صَلاه فيه»(۱).

إن المسلم الّذى لا يسجد ولا يركع للّه تعالى فى اليوم والليله ولا مرّه واحده، ولا يذكر ربَّه، لا يكون مُسلماً بالمعنى الصحيح.

۱- . المغازى: ۹۶۸/۲؛ السيره النبويه لابن هشام: ۹۶۷/۴؛ السيره الحلبيه: ۲۴۳/۳.

هذا وعندما اتّفق الطرفان على شروطهما نظمت معاهده تشمل المواد والشروط المتّفق عليها، وقّع عليها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وحينئذ أذِنَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لوفد ثقيف بالعوده إلى قومهم، واختار منهم أحدثهم سنّاً وهو «عثمان بن أبى العاص» الّذى كان أحرصهم على التفقّه فى الإسلام، وتعلّم القرآن خلال وجوده بالمدينه فأمّره عليهم، وجعله نائباً عنه فى قبيله ثقيف وأوصاه - فيما أوصاه - بأن يصلّى بالناس جماعه مراعياً أضعفهم، قائلاً له:

«يا عُثمان تجاوز(۱) فى الصَلاه وأقدر الناس بأضعفِهم، فإنَّ فيهمُ الكبير والصغير والضعيفَ وذا الحاجه».

ثم كلَّف رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم «أبا سفيان بن حرب»، و «المغيره بن شعبه» بالتوجّه إلى الطائف مع وفد ثقيف لهَدم الأصنام فيها، أجَلْ إنّ أبا سفيان الّذى كان وحتّى يوم أمس من حَفظَه الأصنام وهو الّذى أراق فى سبيلها أنهراً مِنَ الدّماء، يمشى الآن إلى الطائف وهو يحمل فأسه ومعوله لتحطيم الأصنام فيها، ويحوّلها إلى تلٍّ من الحطب، ويبيع ما يتعلّق بها من ذهب وفضّه وحلىّ ليقضى بأموالها ديون «عروه» و «الأسود» حسب أوامر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم(۲).

۱- . تجاوَزْ: أى خفف الصلاه وأسْرِعْ بها.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۹۶۵/۴-۹۶۷؛ السيره الحلبيه: ۲۴۳/۳-۲۴۴. ولقد وردت قصّه وفد ثقيف فى كتاب «أُسد الغابه»: ۲۱۶/۱ وج ۳ ص ۴۰۶ أيضاً.

۵۷ إعْلان البراءه من المشركين فى منى

اشاره

فى أواخر السنه التاسعه من الهجره نزل أمين الوحى جبرئيلُ على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعدّه آيات من سوره التوبه (سوره براءه)، وكلّف رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأن يبعث بها رجلاً إلى مكّه ليتلوها مع عهد ذى أربعه بنود فى موسم الحج.

ولقد رُفعَ الأمان فى هذه الآيات عن المشركين، وأُلغيت جميعُ العهود (إلّا العهود والمواثيق الّتى التزم بها أصحابها ولم ينقضوها)، وأُبلغَ إلى رؤوس الشرك وأتباعهم أن عليهم أن يوضحوا مواقفهم من الحكومه الإسلاميه الّتى تقوم على أساس التوحيد، وذلك خلال أربعه أشهر، وإذا لم يتركوا الشرك والوثنيه خلال هذه الأشهر الاربعه نُزعت منهم الحصانه، ورفع عنهم الأَمان.

عندما ينتهى المستشرقون إلى هذه القصّه وهذا الفصل من التاريخ الإسلامى يصوّبون رماح حملاتهم إلى الإسلام ويعتبرون هذا الموقف الحاسم والحكيم مخالفاً لمبدأ الحريّه الإعتقاديه، ولكنّهم إذا طالعوا صفحات التاريخ الإسلامى من دون أىّ تعصب وانحياز، ودَرَسوا الدوافع الحقيقيه وراء هذا الإجراء، والّتى ذُكرت

فی هـذه السوره، وفی النصوص التـاریخیه لسـلموا من کثیر من هـذه الأخطـاء، ولصَـدّقوا واعترفوا بـأنّ هـذا العمل لا ینافی حریه العقیده الّتی یحترمها عقلاءُ العالم، أبداً، وإلیک فیما یأتی الدوافع وراء صدور هذا العهد (البراءه).

۱. کان التقلیـد السائـد عنـد العرب فی العهـد الجاهلی هو أنّ علی زائر الکعبه أن یعطی الثوب الّـذی یدخل به إلی مکّه المکرّمه لفقیر ویطوف بثوب آخر، وإذا لم یکن له ثوبٌ آخر، فإنّ علیه أن یستعیر ثوباً ویطوف به حتّی لا یضطرَّ إلی الطواف عریاناً، وإن لم یمکنه أن یستعیر ثوباً طاف بالبیت المعظّم عاریاً، بادی السوأه.

وقـد دخلت امرأه ذاتُ جمال کبیر، ذات یوم المسـجد الحرام، وحیث إنّها لم تکُ تملکُ ثوباً آخر، لذلک اضـطرّت تبعاً لذلک التقلیـد الجـاهلیّ الخرافی أن تطـوف عـاریه بـالبیت المعظَّم، ومِنَ الواضـح أنّ مِثـل هـذا الطـواف الفاضـح، أی الطواف بالجسـد العاری، فی أقدس بقعه من بقاع العالم علی مرأی من جموع الطائفین بالبیت، ینطوی علی نتائج سیّئه بالغه السوء.

۲. لقد نزلت الآیات الأُولی من سوره التوبه بعد أن انقضت عشـرون سـنه علی بعثه النبی الکریم صلی الله علیه و آله و سلم، وفی هذه المده کان منطق الإسـلام القوی حول المنع من الوثنیه والشرک قد بَلغ مسامع جمیع المشرکین فی شبه الجزیره العربیه، فإذا کانت جماعهٌ قلیلهٌ منهم لایزالون یُصرّون علی الشرک والوثنیه، لم یکن ذلک إلّا عن عصبیه وعناد.

من هنا کان الوقت قـد حانَ لأن یسـتخدم رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم آخر علاج لإصـلاح ذلک المجتمع المنحرف، وأن یسـتعین بمنطق القُوّه لضـرب کلّ مظاهر الوثنیّه، وأن یعتبرها نوعاً من العدوان علی الحقُوق الإلهیه والإنسانیه، وبهذه الطریقه یقضی علی منبع ومنشأ مئآت العادات السیّئه فی المجتمع.

ولكن المستشرقين الذين اعتبروا هذا العمل مخالفاً لمبدأ حريه الاعتقاد - الّذى هو أساس الدين الإسلامى وقاعده المدنيه الراهنه - قـد غفلوا عن هـذه النقطه، لأنّ مبـدأ حريه العقيده محترم مادام لا يضـرُّ بسـلامه الفرد والمجتمع، إذ فى غير هذه الصوره يجب مخالفتها حتماً بحكم العقل وسيره جميع المفكّرين.

فـإذا كـان فى أُوربا اليوم مثلاً جماعه من الشـباب المنحرفين ينادون بحريه العرى انطلاقاً من أفكار منحرفه فاسـده، وقاموا - على أساس أنّ إخفاء بعض الأقسام من الجسـد يثير الفضول ويوجب تحريك الغريزه ويسـبب فساد الأخلاق - بتشـكيل نوادى العرى السـريه، فهل يسمح الفكر الإنسانى الرشيد لمثل هذه الجماعه بأن تفعل ما تريد تحت قناع حريه العقيده، ويقول: إنّ الاعتقاد أمرٌ محترم؟! أو أنّ العقل يقضى بأن نحارب مثل هذه الفكره الحمقاء حفاظاً على سعاده تلك الجماعه نفسها، وسعاده المجتمع وهذا الموقف ممّا لا يتّخذه الإسـلام فحسب، بل هو موقف جميع العقلاء فى العالم من جميع الاتّجاهات والحركات الهدّامه الّتى تهدّد مصالـح المجتمع بـالخطر، فهم يحاربونهـا بلا هواده، وهـذه الحرب فى الحقيقه هى محاربه المعتقـدات الحمقاء لـدى الجماعات المنحطّه.

إنّ الوثنيه ليست سوى حفنه من الأوهـام والخرافـات الّتى تسـتتبع مئات العادات الـدنيئه، وقـد بـذل رسولُ الإسـلام جهوداً كبرى وكـافيه فى سبيـل هـدايتهم، وبعـد أن انقضـى أكثر من عشـرين عامـاً من دعوته كـان الوقتُ قـد حـان لاستئصـال جـذور الفساد باستخدام القوه العسكريه كآخر وسيله.

٣. ومن جانب آخر فإنّ الحـج هو أكبر العبادات والشـعائر الإسـلاميه، ولم تكن الصـراعات والمواجهات الّتى وقعتْ بين الإسـلام ورؤوس الشرك لتسمح

حتّی یوم نزول هـذه السوره بأن یعلّم الرسولُ الکریمُ المسـلمین مناسک الحـج علی الوجه الصـحیح وبعیداً عن أیّ نوع من أنواع الشوائب والزوائد.

من هنـا کـان یتوجّب أن یقوم النـبیُّ الکریمُ بنفسه بالمشـارکه فی هـذا المؤتمر الإسـلامی العظیم، ویعلّم المسـلمین هـذه العبـاده الکبری بصوره عملیّه، ولکن النبیّ صـلی الله علیه و آله و سـلم إنّمـا کان یمکنه المشارکه فی هـذه المراسم والمناسک إذا خلت منطقه الحرم الإلهی ونواحیها من کافّه المشـرکین الـذین أعطوا مقام العبودیه والعباده للأصـنام الخشبیه، والحجریه، ویطهّرها من کلّ معالم الشرک والوثنیه، ویصبح الحرم الإلهی خالصاً للموحّدین والعباد الواقعیّین.

۴. إنّ جهاد النبی لم یکُ له أیُّ ارتباط بحریه العقیده، فالعقیده لیست شـیئاً یمکن أن یُفرَض علی أحد، ویوجد أو یمحی بالقهر. إنّ روح الإنسان ونفسه هو مرکز الاعتقاد ومقرّه، وظرفه ومکانه، وهو لا یخضع لأی قهر أو تسـخیر، وإنّ ظهور العقائـد فی منطقه الضـمیر یتوقّـف علی سلسـله من المقـدّمات والأولیّات الّتی تـوجب حصول العقیـده، وظهور العقیـده وحصولهـا من دون تلک المقدّمات أمر محال.

وعلی هذا الأساس فإنّ مسأله الاعتقاد لا تخضع للقهر، ولا تقبل الفرض، بل کان نضالُ النبی ینحصـر فی النضال ضدَّ مظاهر هذه العقیده وهی عباده الأوثان.

من هنا هَدَم کلّ بیوت الأصنام، وحطَّم الأوثان، بینما ترک الانقلاب فی العقائد والضمائر لعامل الزمن الّذی کان مروره یستتبع – لا محاله – مثل هذا التطوّر والتحوّل والانقلاب.

إنّ العوامل الأربعه المـذکوره دفعت برسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم إلی أن یسـتدعی أبابکر ثم یعلّمه الآیات الأُولی من سوره التوبه ویأمره بأن یذهب برفقه أربعین رجلاً من

المسلمين(۱) إلى مكّه، ويتلو هذه الآيات الّتى تتضمّن البراءه من المشركين فى يوم الأضحى على مسامع الناس.

فتهيّأ أبوبكر للقيام بأداء هـذه المهمّه، وتوجّه نحو مكّه، إلّاأنّه لم يلبث أن نزل أمين الوحى على رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سلم برساله من اللّه سبحانه وهى:

«إنّه لا يُؤَدِّى عَنْكَ إلّاأَنْتَ أو رَجُلٌ مِنْكَ».

ولهذا استدعى رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عليّاً وأخبره بالخبر ثم قال له: إركبْ ناقتى العضباء والحقْ أبابكر فخذ براءه من يـده، وامض بهـا إلى مكّه وانبـذ بهـا عهـد المشـركين إليهم، أى إقرأ على النـاس الوافـدين إلى منى من شتّى أنحـاء الجزيره العربيه براءه بما فيها النقاط الأربعه التاليه:

۱. أن لا يدخُلَ المسجدَ مشركٌ.

۲. أن لا يطوفَ بالبيت عُريانٌ.

۳. أن لا يحجّ بعد العام مشركٌ.

۴. أنّ مَنْ كـانَ لَهُ عنـدَ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم عهـدٌ فهو لَهُ إلى مـدّته، أىْ إنّه محترمٌ ميثاقهُ ومالُه ونفسُه إلى يوم انقضاء العهد، ومَنْ لم يكن له عهد ومدّه من المشركين فإلى أربعه أشهر، فإن أخذناهُ بعد أربعه أشهر قتلناهُ، وذلك بدءاً من هذا اليوم (العاشر من شهر ذى الحجّه).

إى إنَّ على هـذا الفريـق من المشـركين أن يحـدّدوا مـوقفهم من الحكومه الإسـلاميه، فإمّـا أن ينضووا إلى صـفوف الموحّـدين، وينبذوا وراء ظهورهم كلّ مظاهر الشرك ويحطموها، وإمّا أن يستعدوا للقتال مع المسلمين(۲).

۱- . وقد ذكر الواقدى أنهم كانوا ثلاثمائه (المغازى: ۱۰۷۷/۲).

۲- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۲۳۲/۳؛ بحار الأنوار: ۲۷۳/۲۱-۲۷۵.

فخرج علیٌ علیه السلام علی ناقه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم العضباء مع جماعه منهم «جابرُ بن عبد اللّه الأنصاری» حتّی أدرک أبابکر فی الجحفه فأبلغه أمر النبی صلی الله علیه و آله و سلم، فدفع أبو بکر آیات البراءه إلی علی علیه السلام.

ویروی محدِّثو الشیعه وجماعه من محدّثی السنّه أنّ الإمام علی بن أبی طالب قال لأبی بکر: أمرنی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أن أُخیِّرک بین أن تسیر معی أو ترجعَ إلیه، فرجّح أبو بکر العوده إلی المدینه علی المسیر مع علی علیه السلام إلی مکّه فقال: بل أرجعْ إلیه، وعاد إلی النبی صلی الله علیه و آله و سلم، فلمّا دخل علیه قال: یا رسول اللّه إنّک أهّلتنی لأمر طالت الأعناقُ إلیَّ فیه، فلمّا توجّهت له ردْتنی عنه، مالی أَنزل فیَّ قرآنٌ؟!

فقال له النبی صلی الله علیه و آله و سلم: «لا ولکنَّ الأمین جبرئیل هبط إلیّ عن اللّه عزّوجلّ بأنّه لا یؤدّی عنک إلّاأنت أو رجلٌ منکَ، وعلیٌ مِنّی، ولا یؤدّی عنّی إلّاعلیّ»(۱).

إلّا أن بعض روایات أهل السنّه تفیدُ أنّ أبا بکر أُنیط إلیه إماره الحجیج فی ذلک العام، بینما کُلّف علیٌّ علیه السلام وحده بمهمه قراءه آیات البراءه والنقاط الأربعه المذکوره علی الناس یوم الحج الأکبر بمنی(۲).

دخل أمیرُ المؤمنین علیّ بن أبی طالب علیه السلام مکّه وفی الیوم العاشر من شهر ذی الحجّه، صعد علی جمره العقبه وقرأ علی الناس الآیات الثلاث عشره من صدر سوره التوبه (براءه) وأذان رسول اللّه المتضمّن للنقاط الأربعه، رافعاً صوته به، بحیث یسمعه جمیع مَن حضر، وذلک بمنتهی الشجاعه والجرأه، وأخبر المشرکین الذین لاعهد ولا مدّه لهم مع النبی صلی الله علیه و آله و سلم بأنّ لهم أن یسیحوا فی الأرض أربعه أشهر

۱- . إرشاد المفید: ۱/۶۵-۶۶.

۲- . السیره النبویه لابن هشام: ۴/۹۷۰. وراجع للوقوف علی المصادر العدیده لهذه القضیه الغدیر: ۶/۳۳۸-۳۵۰.

ابتداء من يوم قراءه ذلك الإعلان، فإذا انقضت هذه المده قُتِلُوا إذا وُجدوا على الشرك، فعليهم أن يبادروا خلال هذا الأجل المضروب إلى تطهير بيئتهم من كلّ أنواع الوثنيه وإلّا سُلِبَت عنهم الحصانه، ورفع عنهم الأمان.

لقد كان أثرُ هذه الآيات وهذا الأذان النبويّ هو أنّه لم يمض على قراءتهما أربعه اشهر إلّاوأقبلَ المشركون على اعتناق عقيده التوحيد أفواجاً افواجاً، وهكذا استُئصِلت جذور الوثنيه فى شبه الجزيره العربيه فى أواسط السنه العاشره من الهجره.

تعصّبٌ بغيضٌ فى تحليل هذا الحدث

لاريب أنّ عزل أبى بكر عن مقام إبلاغ آيات البراءه، وتنصيب على بن أبى طالب مكانه لأداء تلك المهمه بأمر اللّه تعالى يُعدُّ من أبرز فضائل على ومناقبه المسلّمه الّتى لاتقبل الانكار والشك، ولكن جماعه من الكتّاب المتعصّبين وقعوا فى الخطأ والانحراف رغم ذلك، عند تحليل ودراسه هذه الحادثه.

فهذا «الآلوسى البغدادى» يكتب فى تفسيره عند دراسه وتحليل هذه الحادثه: النكته فى نصب الأمير كرّم اللّه تعالى وجهه مبلِّغاً نقضَ العهد فى ذلك المحفَل وهى أنّ الصِّديق رضى اللّه تعالى عنه لمّا كان مظهراً لصفه الرحمه والجمال كما يرشد إليه ما تقدّم فى حديث الإسراء،... ولمّا كان على كرّم اللّه تعالى وجهه الّذى هو أسد اللّه مظهر جلاله، فوّض إليه نقض عهد الكافرين الّذى هو من آثار الجلال وصفات القهر(۱).

إنّ هذا التفسير النابع من منبع التعصُّب لا ينسجم مع كلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم؛

۱- . روح المعانى: ۴۵/۱۰، تفسير سوره التوبه.

لأنّه قال عند الإجابه لأبی بکر إنّ هذه الآی لا یؤدّیها إلّاأنا أو رجلٌ منّی، أیْ لا یصلُحُ لأدائها غیر هذین الرجلین، ولیس فی هذا الکلام أی إشاره إلی الرأفه والشجاعه.

هذا مضافاً إلی أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم المظهر الکامل للرحمه والرأفه وبناء علی ما قاله الآلوسی یجب أن لا یُکلّف حتّی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بابلاغ هذه الآیات، علی حین أنّ الوحیَ قال: هذه الآیات لا یؤدّیها إلّاأنت أو رجلٌ مِنکَ.

ولقد برّر جماعه أُخری هذا المطلب بنحو آخر فقالوا: لقد کان التقلید المتَّبع عند العرب فی نقض العهود مهما کانت هو أن یقدّم نفسُ الموقِّع علی العَهْد أو أحد أنسبائه علی نبذ العهد ونقضه، إذ فی غیر هذه الصوره کان المتعارف عندهم أن یبقی العهد علی حالِه، وحیث إنّ علّی بن أبی طالب کان من أقرباء النبی لهذا کُلِّف بإبلاغ هذه الآیات الّتی تضمّنت نبذ العهد.

ولکن هذا التفسیر والتوجیه غیر مقنع، لأنّه کان ثمّه بین أقرباء رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من هو أقرب إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مثل عمّه العباس، فلماذا لم یکلَّف بإبلاغ آیات البراءه، ونبذ العهد إلی المشرکین؟

ثم لماذا لم یتبع النبی صلی الله علیه و آله و سلم هذه العاده من أوّل الأمر وهو العارف بتقالید مجتمعه؟

إذا أردنا أن نقضی فی هذه القضیه التاریخیه بالقضاء المحاید المنصف وجب أن نقول: إنّ علّه هذا العزل، والنصب لم تکن لا لدافع الرغبه فی المقام، والطموح إلی السلطه، ولا لوشیجه القربی مع علی علیه السلام، بل کان الغرض من هذا التغییر هوالکشف عملیاً عن أهلیّه أمیر المؤمنین علی علیه السلام وصلاحیّته للقیام بالمهامّ المتعلِّقه بالحکومه الإسلامیه ولیعلَمَ الناس أنّه عدیلُ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی الجوانب

الروحیه، وفی مجال الأهلیّه، والصلاحیه.

وإنّه إذا ما غابت شمسُ الرساله بعد حین وجب أن تُسَلَّم مقالیدُ الحکم، وأزمّه التصرُّف فی المسائل والأُمور المتعلِّقه بشؤون الخلافه إلی علیّ علیه السلام إذ لا یصلح لهذا العمل الخطیر سواه، وإنّه یجب أن لا یقع المسلمون بعد وفاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الإشکال والتشتّت، والاختلاف والحیره فی هذا الأمر، لأنّهم قد رأوا بأُمّ أعینهم کیف نُصب «علیٌ» من جانب النبی بأمر اللّه تعالی لنبذ العهود مع المشرکین، الّذی هو من صلاحیات واختیارات، الحاکم الإسلامی وشؤونه.

حوادث السنه العاشره من الهجره

۵۸ فی رثاء الولد العزیز

اشاره

«یا إبراهیم إنّا لَنْ نُغنِیَ عَنْکَ شَیئاً» ثم ذرفت عیناه صلی الله علیه و آله و سلم وقال: «إنّا بِکَ یا إبراهیم لمحزُونُون، تبکی العین ویحزن القلب وَلا نَقُولُ ما یُسْخِطُ الربَّ».

وفی لفظ: «تدمع العین، ویحزن القلب، ولا نقول ما یسخط الرب، وَلَوْلا أنّه وَعْدٌ صادِقٌ وَمَوعُودٌ جامِعٌ فإنّ الآخِرَ منّا یَتبعُ الأولَ، لَوَجَدْنا عَلیْکَ یا إبراهیم وَجْداً شَدِیداً ما وَجَدْناهُ».

وفی لفظ: «ولولا ـ أنّه أمر حقّ ووعد صدق، وأنّها سبیل مأتیه لحزنّا علیک حزناً شدیداً أشدّ من هذا، وإنّا بک یا إبراهیم لمحزونون».

وفی لفظ: «وإنّا بفراقک یا إبراهیم لمحزونون».(۱)

هذه العبارات قالها رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی رثاء ولدهِ العزیز «إبراهیم» فی اللحظات الّتی کان یلفظ فیها أنفاسه الأخیره فی حجر أبیه الرحیم، وبینما کان الوالد العظیم واضعاً شفتیه علی خدّ ابنه، ویودّعه بروح ملؤها المشاعرُ

۱- . السیره الحلبیه: ۳۹۴/۳. ولاحظ: الاستیعاب: ۵۷/۱، أُسد الغابه: ۳۹/۱.

والعواطفُ، من جانب، وراضيه بالتقدير الإلهى من جانب آخر.

إنَّ حبَّ الأولاد والأبناء من أرفع وأظهر تجلّيات الروح الإنسانيه، كما أنّه خير دليل على سلامه الروح ولطفاتها.

لقد كان رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقول دائماً: «أكرمُوا أوْلادَكُمْ»(۱) وذهب إلى أبعد من ذلك إلى درجه أنّه اعتبر مودَّه الأبناء والعطف عليهم من مكارم أخلاقه ومحاسن سجاياه(۲).

ففى السنين والأعوام الماضيه واجه النبىُّ الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم مصيبه افتقاد ثلاثه من أولاده هم: «القاسِم، والطاهر، والطيب»(۳) وثلاث من بناته وهن: «زينب» و «رقيه» و «أُمّ كلثوم» ولقد حزن لفقدهم حزناً شديداً وكانت «فاطمه» هى البنت الوحيده الّتى بقيت له من زوجته الكريمه خديجه.

لقد بعثَ رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى السنه السادسه من الهجره سفراء إلى البلاد المختلفه خارج الجزيره العربيه وكان من جمله الكتب الّتى أرسلها إلى الأُمراء والملوك هى رسالته إلى حاكم مصر يدعوه فيها إلى الإسلام، وإلى عقيده التوحيد، وهذا الحاكم وإن لم يلبّ نداء النبىّ فى الظاهر، ولم يقبل دعوته إلّاأنّه أجاب على كتاب النبى بإجابه حسنه مضافاً إلى أنّه أرسلَ إليه صلى الله عليه و آله و سلم هدايا منها جاريه تدعى «ماريه».

ولقد نالت هذه الجاريه فيما بعد شرف تزوّج النبى الكريم بها وولدت له ابناً

۱- . بحار الأنوار: ۹۵/۱۰۴، عن مكارم الاخلاق.

۲- . لاحظ: المحجّه البيضاء: ۳۶۶/۳.

۳- . بحار الأنوار: ۱۶۶/۲۲، ولكن بعض علماء الشيعه قالوا: أولاده الذكور من خديجه اثنان فقطراجع بحار الأنوار: ۱۵۱/۲۲.

سمّاه «إبراهيم» أحبَّه رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حبّاً شديداً.

ولقد خفّفت ولاده إبراهيم الكثير من الأحزان الّتى كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يعانى منها بسبب افتقاده لأولاده السته، واشعَلَتْ فى نفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم بصيصاً من الأمل، ولكن هذا البصيص من الأمل سرعان ما غاب بعد ثمانيه عشر شهراً، وانطفأ.

لقد خرج رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من بيته ذات يوم لعمل، وعندما عرف بتدهور خطير فى صحّه ولده الحبيب الوحيد «إبراهيم» عاد من فوره إلى منزله، وأخذ ابنه من حضن أُمّه، وفيما كانت تعلو ملامحه علامات الغم والاضطراب نطق بهذه العبارات.

إنّ حزن النبى صلى الله عليه و آله و سلم وبكاءه فى موت ابنه «إبراهيم» دليل حيٌّ على عاطفته الإنسانيه الّتى استمرت حتّى بعد وفاه ذلك الولد الحبيب، وإنّ إظهار تلك العواطف والإعراب عن الحزن والأسى كان يكشف عن روح رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم العاطفيه الّتى كانت تبرز من دون اختيار، فيما دلَّ تجنّب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم التكلّم بما يسخط اللّه فى هذه المصيبه المؤلمه على إيمانه ورضاه بالتقدير الإلهىّ الّذى لا مفرَّ لأحد منه.

اعتراض غير وجيه

استغرب عبد الرحمن بن عوف الأَنصارى من بكاء النبىّ على ولده «إبراهيم»، فاعترض على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: أو لم تكن نهيتَ عن البكاء، وأنت تبكى؟(۱)

إنّ هذا المعترض لم يكن جاهلاً بمبادئ الإسلام وقواعده الرفيعه فحسب؛ بل كان غافلاً حتّى عن العواطف والمشاعر الإنسانيه الخاصّه الّتى أودعتْها يد

۱- . السيره الحلبيه: ۳۹۵/۳.

الخالق فی ضمیره أیضاً.

إنّ جمیع الغرائز الإنسانیه خُلِقَتْ فی الکیان البشری لأهداف خاصّه ویجب أن یتجلّی کلّ واحد منها فی وقته المناسب وموقعه اللازم، فالشخصُ الّذی لا یحزن لفقد أحبّائه وأعزّائه ولا یغتم لفراقهم، ولا تدمع عیناه لذلک، وبالتالی إذا لم یُظِهر من نفسه أیّه رده فعل عند فراقهم، لم یکن سوی قطعه من الصخر، ولا یستحق اسم الإنسانیه

ولکن ثمّه نقطه مهمّه وجدیره بالانتباه، وهی أنَّ هذا الاعتراض وإن کان اعتراضاً غیر موجَّه، إلّاأنّه یکشف عن وُجود حریه کامله، ودیمقراطیه حقیقیه فی المجتمع الإسلامی الحدیث التأسیس إلی درجه أنَّ شخصاً عادیّاً من الناس تجرّأ علی أن ینتقد عمل قائده بمطلق الحریّه ومن دون خوف أو وجَل، وسمع الجواب.

ومن هنا قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«لا، إنّما هذا رَحْمه، ومَن لا یرحم لا یُرحَم»(۱).

أو قال:

«لا، ولکنْ نَهیتُ عن صوتین أحمقین فاجرین: صوت عند مصیبه وخَمش وجوه وشَقٍّ جیوب ورنه شیطان...»(۲).

ولقد کلّفَ رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام(۳) بتجهیز

۱- . بحار الأنوار: ۱۵۱/۲۲.

۲- . السیره الحلبیه: ۳۹۵/۳. ولاحظ: مستدرک الحاکم: ۴۰/۴.

۳- . بحار الأنوار: ۱۵۶/۲۲، وروی فی السیره الحلبیه: ۳۹۵/۳، أن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کلّف الفضل بن العباس (ابن عم النبی) بتجهیز إبراهیم.

«إبراهيم» وتغسيله وتكفينه وتحنيطه، ثم إنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم شيّعه مع جماعه من أصحابه، ومضى حتّى انتهى به إلى قبره فى البقيع.

ثم إنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم رأى فى قبر «إبراهيم» خللاً فسوّاه بيده ثم قال:

«إذا عَمِل أحدُكُمْ عَملاً فَلْيُتْقِنْ»(۱).

مكافحه الخرافات

عندما مات إبراهيم ابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم انكسفت الشمسُ فتصوّرَ البعضُ ممّن جهل سننَ الطبيعه وقوانينَ العالم الطبيعىّ أنّ الشمس انكسفَتْ لموت إبراهيم.

ولا شكّ أنّ مثل هذا التصوّر الباطل وإن كان قضيه خياليه ووهماً سخيفاً إلّا أنّه كان من شأنه أن ينفع النبى، ويعزّز مكانته فى المجتمع الّذى طالما آمن بالخرافه وعشقها.

ولو أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان قائداً عادياً ومادياً لكان من الجائز أن يؤيّد صحّه هذا التصوّر ليكتسب من وراء ذلك عظمه وقوه.

ولكن النبى صلى الله عليه و آله و سلم على عكس هذا التوقّع رقى المنبر، وأطْلَعَ الناسَ على حقيقه الأمر وقال:

«أيّها الناس إنّ كسوف الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه، يجريان بأمره، مطيعان له لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»(۲).

۱- . الكافى: ۲۶۳/۳ ح ۴۵؛ بحار الأنوار: ۲۶۴/۲۲.

۲- . المحاسن: ۳۱۳/۲؛ السيره الحلبيه: ۳۹۶/۳. ولاحظ: صحيح البخارى: ۲۴/۲، كتاب الكسوف، وصحيح مسلم: ۳۵/۳، باب ذكر النداء بصلاه الكسوف.

إنّ النبی الکریم صلی الله علیه و آله و سلم علی عکس ما یفعله النفعیون الوصولیون الذین لا یکتفون بتفسیر الحقائق وتجییرها لمصالحهم، واستخدامها لمآربهم، بل طالما یحاولون استغلال جهل الناس ونزوعهم إلی الخرافات لصالحهم.

إنَّ رسول الإسلام علی عکس هذه الجماعه لم یکتم الحقیقه، ولم یستفد من جهل الناس وغفلتهم لصالح نفسه.

ولو أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم کان یُسبغ فی ذلک الیوم لباس الصحّه علی مثل هذه الفکره الباطله وهذا التصوّر الخیالی لم یمکنه أن یطرح نفسَه قائداً خالداً للبشریه ورسولاً مختاراً من جانب خالق الطبیعه، والمؤسّس الحقیقی لقوانین العالم المادیّ، فی العالم الراهن الّذی کشف فیه القناع عن أسرار الطبیعه، واتّضحت فیه قوانین العالم المادّی ونوامیسه، وعلل الکسوف والخسوف وغیرهما من الظواهر الطبیعیه.

إنّ دعوه النبی الأکرم لم تکنْ مختصّه بجماعه العرب کما أنّها لا تخضعُ لحدود زمانیه أو مکانیه، فلو أنّه کان نبی الأقوام والأجیال الغابره، فهو کذلک نبیُّ عصر الفضاء، وقائد عصر اکتشاف أسرار الطبیعه ورموزها.

إنّ أحادیث هذا النبی العظیم، وکلماته من القوه، والمتانه ومن الصحّه، والاتّصاف بالواقعیه، بحیث لم یتطرّق إلیها أیُّ إشکال حتّی مع التطوّرات العلمیه الأخیره الّتی قلبت کثیراً من معارف البشر القدیمه رأساً علی عقب.

۵۹ وفد نجران فی المدینه

اشاره

تقع «نجران» بِقُراها السبعین التابعه لها، فی نقطه من نقاط الحجاز والیمن الحدودیه، وکانت هذه المنطقه فی مطلع ظهور الإسلام المنطقه الوحیده الّتی غادر أهلُها الوثنیه لأسباب معیّنه واعتنقوا المسیحیه(۱) من بین مناطق الحجاز.

وقد کتب رسولُ الإسلام کتاباً إلی أسقف نجران(۲) «أبوحارثه» یدعو أهلها فیه إلی الإسلام یوم کتب کتباً إلی ملوک العالم ورؤسائه.

وإلیک مضمون هذا الکتاب:

«بِسْم إله إبراهیم وإسحاق وَیَعقوب من مُحَمد النبی رسول اللّه إلی أسْقُف نَجْران وأهل نَجْران إن أسْلَمْتُمْ فإنّی أحْمَدُ إلیکُم اللّه إله إبْراهیم وَإسحاق ویعقوب، أمّا بعد فإنی أدعوکم إلی عباده اللّه من عباده العباد، وأدعُوکم إلی ولایه اللّه من ولایه العباد، فإن أبیتم فالجزیه، فإن أبیتم فقد آذنتکم بحرب والسلام».(۳)

۱- . ذکر یاقوت الحموی فی معجم البلدان: ۲۶۶/۵-۲۷۷ علل اعتناقهم للمسیحیه.

۲- . الأسقُف معرب کلمه یونانیه هی ایسکوپ وتعنی الرقیب والمناظر، وهو الیوم منصب أعلی من منصب القسّیس.

۳- . بحار الأنوار: ۲۸۵/۲۱؛ إمتاع الأسماع: ۶۷/۱۴؛ البدایه والنهایه: ۶۴/۵.

وأضافت بعض المصادر التاريخيه الشيعيه أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم كتب فى ذلك الكتاب الآيه المرتبطه بأهل الكتاب(۱) والّتى تدعوهم إلى عباده اللّه الواحد القهّار.

قدم سفير رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم نجران وسلّم كتابه المبارك إلى أسقف نجران، فقرأ ذلك الكتاب بعنايه ودقّه متناهيه، ثم شكّل جماعه للمشاوره وتداول الأمر واتّخاذ القرار، مكوَّنه من الشخصيات البارزه الدينيه وغير الدينيه، وكان أحدُ أعضاء هذه المجموعه «شرحبيل» الّذى عُرف بعقله ونُبله، وتدبيره وحكمته، فقال فى معرض الإجابه عن استشاره الأسقف إيّاه: قد علمتُ ما وَعَد اللّه إبراهيم فى ذريه إسماعيل من النبوّه، فما يؤمِنُك أن يكون هذا الرجلُ، ليس لى فى النبوه رأى، لو كان أمرٌ من أُمور الدنيا أشرتُ عليك فيه وجَهدتُ لك.

فقرّر المتشاورون أن يبعثوا وفداً إلى المدينه للتباحث مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ودراسه دلائل نبوّته، فاختير لهذه المهمّه ستون شخصاً من أعلم أهل نجران وأعقلهم، وكان على رأسهم ثلاثه أشخاص من أساقفتهم هم:

۱. «أبو حارثه بن علقمه» أُسقف نجران الأعظم والممثّل الرسمى للكنائس الروميّه فى الحجاز.

۲. «عبد المسيح» رئيس وفد نجران المعروف بعقله ودهائه، وتدبيره.

۳. «الأيهم» وكان من ذوى السن ومن الشخصيات المحترمه عند أهل نجران.(۲)

۱- . المرادُ من تلك الآيه هو قوله تعالى: «قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَهٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً» (آل عمران: ۶۴). الإقبال: ۳۱۱/۲.

۲- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۶۵/۱۴.

قدمَ هذا الوفد المسيحىُ المدينه ودخلُوا المسجد على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وهم يلبسون أزياءهم الكنسيَّه ويرتدون الديباج والحرير، ويلبسون خواتيم الذهب ويحملون الصلبان فى أعناقهم، فأزعج منظرُهم هذا وخاصه فى المسجد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فشعروا بانزعاج النبى ولكنّهم لم يعرفوا سبب ذلك، فسألوا «عثمان بن عفان» و «عبد الرحمن بن عوف» وكانت بينهم صداقه قديمه، فقال الرجلان لعلى بن أبى طالب: ماترى يا أبا الحسن فى هؤلاء القوم؟

قال: أرى أن يَضَعوا حُللَهم هذه وخواتيمهم ثم يعودون إليه.

ففعلوا ذلك ثم دخلوا على النبى صلى الله عليه و آله و سلم فسلّموا عليه فرد عليهم السَّلام، واحترمهم، وقبلَ بعض هداياهم الّتى أهدوها إليه صلى الله عليه و آله و سلم، ثم إنّ الوفد قبل أن يبدأوا مفاوضاتهم مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم قالوا: إن وقت صلاتهم قد حان واستأذنوه فى أدائها، فأراد الناسُ منعهم ولكن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أذن لهم وقال للمسلمين: «دعوهم» فاستقبلوا المشرق، فصلّوا صلاتهم(۱).

وبذلك أعطى النبى صلى الله عليه و آله و سلم درساً فى التسامح الدينى يدفع افتراءات أعداء الإسلام على هذا الدين.

مفاوضاتُ وَفد نجران مع النبى

لقد نَقَل طائفه من كتّاب السيره، والمحدّثين الإسلاميين نصَّ الحوار الّذى دار بين وفد نجران المسيحى ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ولكن المرحوم السيد ابن طاووس نقل نصّ هذا الحوار وقضيه المباهله بنحو أدقّ وأكثر تفصيلاً ممّا ذكره الآخرون من المحدّثين والمؤرّخين.

۱- . لاحظ: إمتاع الأسماع: ۶۵/۱۴؛ تاريخ الإسلام للذهبى: ۶۹۵/۲.

فقد ذكر جميع خصوصيات المباهله من البدايه إلى النهايه نقلاً عن كتاب «المباهله» لمحمد بن المطلب الشيبانى(۱). وكتاب «عمل ذى الحجّه» للحسن بن إسماعيل(۲)، غير أنّ نقل جميع تفاصيل هذه الواقعه التاريخيه الكبرى الّتى قصّر حتّى فى الإشاره اليها إشاره عابره بعض أصحاب السيرَ، أمرٌ خارجٌ عن نطاق هذا الكتاب، ولهذا فإنّنا نكتفى بنقل جانب من هذا الحوار الّذى نقله ورواه الحلبى فى سيرته(۳).

عرض رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على وفد نجران وتلا عليهم القرآن، فامتنعوا وقالوا:

قد كنّا مُسلمين قبلك.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: كَذِبتُمْ، يمنعكم من الإسلام ثلاثٌ: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمُكُمْ أنّ للّه ولداً. أى لأنّ أحدهم قال له صلى الله عليه و آله و سلم: المسيح ابن اللّه لأنّه لا أبَ له.

وقال له آخر: المسيح هو اللّه لأنّه أحيا الموتى، وأخبر عن الغيوب، وأبرأ من الأدواء كلِّها، وخلَق من الطين طيراً.

فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو عبد اللّه وكلِمته ألقاها إلى مريم.

فغضبوا وقالوا: إنّما يرضينا أن تقول إنّه إله... فنزل الوحى بقوله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» (۴)، وقوله تعالى:

۱- . هو محمَّد بن عبد اللّه بن محمَّد بن عبيد اللّه بن البهلول بن همام بن المطلب المولود عام ۲۹۷ ه والمتوفّى عام ۳۸۷ ه.

۲- . من أراد الوقوف على خصوصيات هذه الواقعه التاريخيه فليراجع كتاب «الإقبال» للمرحوم السيد ابن طاووس: ۳۱۰/۲-۳۴۹.

۳- . لاحظ: السيره الحلبيه: ۲۳۵/۳-۲۳۶.

۴- . المائده: ۱۷ و ۷۲.

«إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ» (۱).

فقال وفد نجران: إنّا لا نزدادُ منکَ فی أمر صاحبنا إلّاتبایُناً، وهذا الأمر الّذی لا نقرّه لک، فهلمَّ فلنلاعنک أیّنا أولی بالحقّ فنجعل لعنه اللّه علی الکاذبین(۲).

فأنزلَ اللّهُ عزّوجلّ آیه المباهله علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم:

«فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّهِ عَلَی الْکاذِبِینَ» (۳).

فدعاهُمْ إلی المباهله، فقبلوا، واتّفق الطرفان علی أن یقوما بالمباهله فی الیوم اللاحق.

خروجُ النبی صلی الله علیه و آله و سلم للمباهله

تُعتبر قصّه مباهله رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مع وَفد نجران من حوادث التاریخ الإسلامی المثیره والجمیله، وهی وإن قصّر بعض المفسّرین والمؤرّخین فی روایه تفاصیلها، وتحلیلها، إلّاأَنَّ ثلّه کبیره، مِن العلماء کالزمخشری فی الکشّاف(۴)، والفخر الرازی فی تفسیره(۵)، وابن الأثیر فی الکامل(۶) أعطوا حقّ الکلام فی هذا المجال، وها نحن ننقل هنا ملخّص ما کتبه الزمخشریُ فی هذا

۱- . آل عمران: ۵۹.

۲- . بحار الأنوار: ۳۲۰/۲۱، ولکن آیه المباهله، وکما یستفاد من السیره الحلبیه (: ۲۳۶/۳) تفید أن النبیَّ هو الّذی اقترح المباهله ابتداء کما تفیدُ عباره: «تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا...».

۳- . آل عمران: ۶۱.

۴- . تفسیر الکشّاف: ۴۳۴/۱.

۵- . تفسیر الرازی: ۸۵/۸-۸۶.

۶- . الکامل فی التاریخ: ۲۹۳/۲.

المجال:

حان وقت المباهله... وكان النبى صلى الله عليه و آله و سلم ووفد نجران قد اتّفقا على أن يُجريا المباهله خارج المدينه، فى الصحراء... فاختار رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من المسلمين ومن عشيرته وأهله أربعه أشخاص فقط وقد اشترك هؤلاء فى هذه المباهله دون غيرهم، وهؤلاء الأربعه لم يكونوا سوى: على بن أبى طالب عليه السلام، وفاطمه الزهراء بنت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والحسن، والحسين؛ لأنّه لم يكنْ بين المسلمين من هُوَ أطهر من هؤلاء نفوساً، ولا أقوى وأعمق إيماناً.

طوى رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المسافه بين منزله، وبين المنطقه الّتى تقرر التباهلُ فيها فى هيئه خاصّه مثيره، فقد غدا محتضناً الحسين(۱) آخذاً بيد الحسن وفاطمه تمشى خلفَه وعلىٌ خلفَها، وهو يقول: إذا دعوتُ فأمّنوا.

كان زعماء وفد نجران ورؤساؤهم قد قال بعضهم لبعض - قبل أن يغدو رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى المباهله -: انظروا محمَّداً فى غد، فإن غدا بولده وأهله فاحذَروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه فإنّه ليس على شىء. وهم يقصدون أنّ النبى إذا جاء إلى ساحه المباهله محفوفاً بأُبّهه ماديه، وقوه ظاهريه، تحفُ به قاده جيشه وجنوده فذلك دليلٌ على عدم صدقه، وإذا أتى بوُلده وأبنائه بعيداً عن أيّه مظاهر ماديه وتوجّه إلى اللّه بهم وتضرّع إلى جنابه كما يفعل الأنبياء، دلّ ذلك على صدقه؛ لأنّ ذلك آكد فى الدلاله على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزته، وأفلاذ كبده، وأحبِّ الناس إليه لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه.

۱- . جاء فى بعض الروايات أنّ النبى غدا آخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمه وبين يديه علىّ (بحار الأنوار: ۳۳۸/۲۱).

وفيما كان رجال الوفد يتحادثون فى هذه الأمور إذ طلع رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والأغصانُ الأربعه من شجرته المباركه بوجوه روحانيه نيّره، فأخذ ينظر بعضهم إلى بعض بتعجّب ودهشه، كيف خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بابنته الوحيده، وأفلاذ كبده وكبدها المعصومين للمباهله، فأدركوا أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم واثق من نفسه ودعوته وثوقاً عميقاً، إذ أنّ المتردّد غير الواثق بدعوته لا يخاطر بأحبّائه وأعزّته ويعرّضهم للبلاء السماوى.

ولهذا قال أُسقف نجران: يا معشر النصارى إنّى لأرى وُجُوهاً لوشاء اللّه أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأَرض نصرانى إلى يوم القيامه(۱).

إنصراف وَفْد نجران عن المباهله

لمّا رأى وفد نجران هذا الأمر (وهو خروج النبى بأحبَّتِهِ وأعزّته) وسمعوا ما قاله أُسقفُ نجران تشاوروا فيما بينهم ثم اتّفقوا على عدم مباهله النبى صلى الله عليه و آله و سلم، معلنين عن استعدادهم لدفع الجزيه للنبى كلّ سنه، لتقوم الحكومه الإسلاميه فى المقابل بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم، فقبل النبى صلى الله عليه و آله و سلم بذلك، وتقرَّر أن يتمتّع نصارى نجران بسلسله من الحقوق فى ظلّ الحكومه الإسلاميه لقاء مبالغ ضئيله

۱- . يروى العالم الشيعى الكبير السيد ابن طاووس فى كتاب «الاقبال»: ۳۴۵/۲: أقبلَ الناسُ من أهل المدينه من المهاجرين والأنصار، وغيرهم من الناس فى قبائلهم وشعارهم من راياتهم وألويتهم وأحسن شارتهم وهيئتهم... ولبث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى حجرته حتّى متع (ارتفع) النهار ثم خرج آخذاً بيد على والحسن والحسين أمامه، وفاطمه عليها السلام من خلفهم فأقبل بهم حتّى أتى الشجرتين فوقف من بينهما من تحت الكساء على مثل الهيئه الّتى خرج بها من حجرته، ثم أرسل إلى وفد نجران ليباهلهم.

يدفعونها سنوياً، ثم قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم:

«أما والَّذى نَفْسى بيده لقد تَدلّى العذابُ على أهل نجران، ولو لاعَنُونى لَمُسِخُوا قرده وخنازير، ولأضرم الوادىُ عليهم ناراً، ولاستأصل اللّه تعالى نجران وأهله».

عن عائشه: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خرج (أى يوم المباهله) وعليه مرط(۱)مرجَّل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فادخله، ثم فاطمه، ثم علىٌّ، ثم قال: «إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (۲).(۳)

ثم يقول الزمخشرى فى نهايه هذا الكلام: وفيه دليل لاشىء أقوى منه على فَضْل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهانٌ على صحّه نبوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، لأنّه لم يرو أحدٌ من موافق ولا مخالف أنّهم أجابوا إلى ذلك.(۴)

صورهُ العهد النبوىّ لأهْل نجران

سأل وفد نجران النبىَّ صلى الله عليه و آله و سلم أن يكتب مقدار الجزيه الّتى اتّفق عليه دفعها من قِبَل أهالى نجران إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى كتاب، وأن يضمن النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم أمن نجران فى ذلك الكتاب، فكتب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب بأمر النبى كتاباً هذا نصّه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. هذا ما كتبَ النبىُ محمَّدٌ رسولُ اللّه لنجران إذا كان لهُ عليهم حِكْمَهٌ فى كلّ ثَمره، وكلّ صفراء، وبيضاء، وسوداء، ورقيق وأفضل عليهم

۱- . كساء.

۲- . الأحزاب: ۳۳.

۳- . مستدرك الحاكم: ۱۴۷/۳؛ المصنّف لابن أبى شيبه: ۵۰۱/۷.

۴- . تفسير الكشّاف: ۴۳۴/۱.

وترک ذلک کلّه علی: ألفی حلّه من حلل الأواقی فی کلّ رجب ألف حلّه، وفی کلّ صفر ألف حلّه، لکلّ حلّه أوقیه من الفضه، فما زادت علی الخراج أو نقصت علی حلل الأواقی فبالحساب، وما قضوا من دروع أو خیل أو رکاب أو عروض أخذ منهم بالحساب، وعلی نجران مؤنه رسلی ومتعتهم ما بین عشرین فدونه ولا یحسبن رسلی فوق شهر، وعلیهم عاریه ثلاثین درعاً، وثلاثین فرساً، وثلاثین بعیراً، إذا کان کید ومعره وما هلک ممّا أعاروا رسلی من دروع أو خیل أو رکاب فهو ضامن علی رسلی حتی یؤدّوه إلیهم، ولنجران وحاشیتها جوارالله وذمّه محمد النبی علی أنفسهم وملّتهم، وأراضیهم، وأموالهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشیرتهم، وبیعهم، وأن لا یغیروا ممّا کانوا علیه، ولا یغیر حقّ من حقوقهم، ولا ملّتهم، ولا یغیّر أُسف عن أُسقفیته، ولا راهب من رهبانیّته، ولا واقها من وقیهاه، وکلّ ما تحت أیدیهم من قلیل أو کثیر ولیس علیهم دینه، ولا دم جاهلیه، ولا یحشرون، ولا یعشرون، ولا یطأ أراضیهم جیش، ومن سأل فیهم حقّاً فبینهم النصف غیر ظالمین، ولا مظلومین بنجران، ومن أکل ربا من ذی قبل فذمّتی منه بریئه، ولا یؤخذ منهم رجل بظلم آخر، وعلی ما فی هذه الصحیفه جوار اللّه وذمّه محمد النبی صلی الله علیه و آله و سلم أبداً حتی یأتی اللّه بأمره، وما نصحوا وأصلحوا فیما علیهم غیر مثقلین بظلم.(۱)

أکبر فضیله

تعتبر واقعه المباهله وما نزلَ فیها من القرآن، أکبر فضیله تدعم موقف الشیعه علی مرّ التاریخ، لأنّ ألفاظ الآیه النازله فی المباهله ومفرداتها تکشف عن مکانه

۱- . إمتاع الأسماع: ۷۰/۱۴؛ دلائل النبوّه للبیهقی: ۳۸۹/۵؛ فتوح البلدان: ۷۷/۱. ولاحظ: مکاتیب الرسول: ۱۵۲/۳.

ومقام مَن باهل بهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم والذين يتّخذهم الشيعه قاده لهم.

فهذه الآيه اعتبرت الحسن والحسين أبناء لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وفاطمه الزهراء المرأه الوحيده الّتى ترتبط برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويصدق عليها عنوان «نسائنا». وقد عبّر عن على عليه السلام بأنفسنا فكان على عليه السلام تلك الشخصيه العظيمه بحكم هذه الآيه بمنزله نفس رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ترى أيه فضيله أعظم وأسمى من أن ترتفع مكانه المرء من الناحيه المعنويه ارتفاعاً وتسمو سمواً عظيماً حتّى أنّه يوصف صاحبها بأنّه بمنزله نفس النبى(۱).

أليست هذه الآيه شاهد صدق على أفضليه أمير المؤمنين على عليه السلام على جميع المسلمين.

لقد ذكر الفخر الرازى الّذى عرف الجميع أُسلوبَه فى الأبحاث الكلاميّه ومواقفه من القضايا المرتبطه بالإمامه، ذكر استدلال الشيعه بهذه الآيه ثم أورد على هذا الاستدلال اعتراضاً قليل الأهميه ممّا لا يخفى جوابه على أرباب العلم وأهل المعرفه.

هذا ويستفاد من الأحاديث الوارده عن أئمّه أهل البيت عليهم السلام أنَّ المباهله لا تختصّ بالنبىّ الأكرم، بل يجوز أن يتباهل كلُّ مُسْلِم فى القضايا الدينيه مع مَنْ يخالفه ويجادلُه فيها، وقد جاءت طريقه المباهله والدعاء المخصوص بها فى كتب الحديث، وللوقوف على هذا الأمر يراجع كتاب «نور الثقلين»(۲).

۱- . وقد استند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى هذه الآيه فى قوله: «علىٌ منى كنفسى».

۲- . نور الثقلين: ۳۵۱/۱-۳۵۲؛ وراجع أيضاً الكافى ج ۵۱۳/۲، كتاب الدعاء، باب المباهله. وقد أشار العلّامه الطباطبائى فى إحدى رسائله إلى هذا الموضوع أيضاً، ويعتبره من معاجز الإسلام الخالده.

۶۰ تاریخ المباهله عاماً وشهراً ویوماً

اشاره

إنّ حادثه المباهله من قضایا التاریخ الإسلامی المعروفه المتواتره الّتی جاء ذکرها فی کتب التفسیر، والتاریخ والحدیث بصوره مبسوطه ومفصَّله لمناسبه وأُخری، وتتلخّصُ هذه القصّه فیما یلی:

لقد کتبَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم - یوم راسَلَ ملوک العالم وأُمراءه یدعوهم إلی الإسلام - کتب کتاباً إلی أُسقف نجران «أبو حارثه» دعا فیه أهل نجران إلی الإسلام، ولما تسلّم أبو حارثه کتاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم شاور جماعه من أصحابه، فأشاروا علیه بأن یَبْعثوا وفداً یمثّلون أهل نجران إلی المدینه، لیتفاوضوا مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عن قُرب.

وفعلاً قدم الوفد المذکور المدینه، والتقی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وبعد مداولات ومفاوضات کثیره اقترح النبیُّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم علی ذلک الوفد المباهله بأمر اللّه سبحانه، بأن یخرج الجمیع (الطرفان) إلی الصحراء، ویدعُو کلُّ واحد من الجانبین علی الآخر، فرضوا باقتراح رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، ولکنّهم أحجموا عن المباهله لما شاهدوا ما علیه رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من حاله معنویه، وروحانیه عظیمه، حیث إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم اصطحب معه إلی المباهله أربعه أنفار من أفضل أحبته وأعزّته،

وتقرّر أن ينضوى نصارى نجران تحت مظلّه الحكومه الإسلاميه وهم على دينهم شريطه أن يدفعوا جزيه (وهى مبلغ ضئيل).

هذه هى خلاصه قضيه المباهله الّتى لا يستطيع إنكارها وإخفاءها أى مفسِّر أو مؤرّخ على النحو الّذى ذكر، والآن يجب أن نرى متى وفى أى يوم وشهر وعام وقعتْ هذه الحادثهُ الإسلاميه الكبرى؟

عام المباهله حسب المشهور

ذكر مؤلّف كتاب «مكاتيب الرسول» أنّه لاخلاف عند المؤرّخين فى أنّ وفودهم إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وكتاب الصُّلح لهم كان سنه عشر من الهجره، فتكون سنه المباهله نفس هذه السنه أيضاً؛ لأنّ كتاب الصلح هذا إنّما كتب عندما أحجم الوفد النجرانى النصرانى من مباهله النبى صلى الله عليه و آله و سلم.(۱)

وقد أدرج نصّ كتاب الصلح من مصادر عديده.(۲)

الشهر واليوم الّذى وقعت فيه المباهله

إنّ المشهور بين العلماء هو أنّ المباهله وقعت فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى الحجّه، وذهب المرحوم الشيخ الطوسى إلى أنّها وقعت فى اليوم الرابع والعشرين من ذلك الشهر، وروى فى كتابه دعاء خاصاً فى هذه المناسبه(۳).

وأمّا المرحوم السيّد ابن طاووس فقد نقل حول يوم المباهله أقوالاً ثلاثه،

۱- . لاحظ: مكاتيب الرسول: ۴۹۶/۲.

۲- . لاحظ: مكاتيب الرسول: ۱۵۲/۳-۱۷۱.

۳- . مصباح المتهجد: ۷۵۹.

وذكر بأنّ أصحّ تلك الأقوال والروايات هو القائل بأنّ يوم المباهله هو الرابع والعشرون من شهر ذى الحجّه، وقد ذهب البعض إلى أنّه اليومُ الواحد والعشرون، بينما ذهب آخرون إلى أنّه اليوم السابع والعشرون(۱).

ثم إنّه رحمه الله روى فى آخر كتابه(۲) قصّه المباهله بصوره مفصّله لم ترد فى أى كتاب أو مؤلَّف آخر، ونوّه بأنّ محتويات هذا الباب اقتبست من الكتابين التاليين:

۱. كتاب المباهله تأليف أبى المفضل محمَّد بن عبد المطلب الشيبانى(۳).

۲. كتاب عمل ذى الحجّه تصنيف الحسن بن إسماعيل بن أشناس(۴).

إلى هنا اتّضح أنّ يوم المباهله على المشهور هو اليوم الرابع والعشرون أو الحادى والعشرون أو الخامس والعشرون أو السابع والعشرون من شهر ذى الحجّه.

وأمّا رأينا حول التاريخ الدقيق لهذه الواقعه من حيث العام والسنه، فهو:

إنّ خلاصه القول هى أنَّ هذه الأقوال والآراء حول عام ويوم المباهله لا

۱- . الإقبال: ۳۵۴/۲.

۲- . الإقبال: ۳۱۰/۲.

۳- . لم ينقل المرحوم السيد نسبه بصوره صحيحه، فقد ذكر النجاشى نسبه على النحو التالى: محمَّد بن عبد اللّه بن محمَّد بن عبيد اللّه بن البهلول بن همام بن المطلب وعلى هذا الأساس يكون جده المطلب وليس عبد المطلب، كما أنّه يكون المطلب جده الخامس. وتنبغى الإشاره هنا إلى أنّ لمحمَّد بن عبد اللّه - حسب ما يرى النجاشى - فترتين من الحياه، كان فى إحداهما موثوقاً به، وفى الأُخرى غير موثوق به، ولهذا يقول: اجتنب الروايه عنه إلّاعندما يروى الثقات عنه أيام استقامته وصلاحه (راجع: رجال النجاشى: ۳۹۶ برقم ۱۰۵۹).

۴- . جاء ذكره فى اسناد الصحيفه السجاديه وهو من مشايخ الطائفه الإماميه وقد توفّى عام ۴۶۰ ه وقد نقل أحاديث المباهله (راجع الذَّريعه: ۳۴۴/۱۵).

توافق النقول التاريخيه الأخرى الّتى يتّسم بعضُها بطابع القطعيه إلى حدّ بعيد، وإليك أدلّتنا على ذلك فيما يلى:

رأينا حول عام المباهله

١. لقد جاء فى ختام الكتاب الّذى بعثه النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى أُسقف نجران عباره:

«وإنْ أبيتم فالجزيه»، وقد جاءتْ لفظهُ الجزيه فى القرآن الكريم فى سوره التوبه والظاهر أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم استخدم هذه الجمله واللفظه فى الكتاب المذكور اتباعاً للآيه المذكوره، وقد نزلت سوره التوبه قبيل غزوه تبوك بقليل، وقد وقعت هذه الغزوه بعد شهر رجب من السنه التاسعه.

وبناء على هذا يبعد أن يكون رسول اللّه قد كتب لأهل نجران كتاباً، بعثوا بجوابه إليه صلى الله عليه و آله و سلم بعد عام ونصف العام على يد وفدِهم.

إنّ هذه الواقعه التاريخيه تحكى عن أنّ هذه الحادثه قد وقعَتْ فى السنه العاشره من الهجره.

٢. اتفق كتّاب السيره على أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بعث عليّاً عليه السلام إلى اليمن للقضاء وتعليم الأحكام الدينيه، وقد مكث عليٌ عليه السلام هناك ردحاً من الزمان لأداء مهامّه المخوّله إليه، وعندما علم بتوجّه النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى مكّه للحج، خرج هو أيضاً إلى مكّه على رأس جماعه من أهل اليمن، فلقى النبىّ بمكّه، وقدَّم إليه ألف حلّه من البز كان قد أخذها من أهل نجران من باب الجزيه الّتى فرضت وكتبت عليهم فى معاهده الصلح(١).

إن هذه القضيه التاريخيه تفيد أنّ واقعه المباهله وكتابه العهد لا ترتبط بالسنه

١- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ١٠٢١/٤؛ بحار الأنوار: ١١٥/٤١.

العاشره من الهجره، وذلک لأنّ أهل نجران تعهدوا فی وثیقه الصلح أن یدفعوا إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی کلّ سنه ألفی حلّه (مخیَّطه وغیر مخیّطه)، ألف حلّه منها فی شهر رجب، وألف حلّه أُخری فی شهر صفر(۱).

فاذا سلّمنا بأنّ وثیقه الصلح کتبت فی شهر ذی الحجّه وجب أن نقول إنّ المقصود منه هو شهر ذی الحجّه من الأعوام السابقه علی السنه العاشره.

لأنّه کیف یمکن أن نقول بأنّ کتابه وثیقه الصلح، وتنفیذها بواسطه الإمام علی علیه السلام قد تمّا معاً فی السنه العاشره.

وإذا ارتضینا القول المشهور حول الیوم والعام الّذی کتبت فیهما وثیقه الصلح، أمکن فی هذه الصوره أن یکون عقدُ الصلح قد تمّ فی السنه العاشره، ولکن یجب أن نُرجع تاریخ کتابته إلی ما قبل شهر رجب؛ لأنّ الفرض هو أنّ الإمام علیاً علیه السلام قد استلم أوّل قسط من الجزیه المقرّره فی شهر رجب فی السنه العاشره.

والخلاصه: أنّه مع ملاحظه هذه القضیه التاریخیه (وهی أنّ الإمام علیاً استلم القسط الأوّل من الجزیه من أهل نجران فی شهر رجب وسلمه إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی مکّه فی شهر ذی الحجّه) وجب أن نختار أحد القولین التالیین:

ألف: إذا سلّمنا بأن یوم وشهر تنظیم وثیقه الصلح هو شهر ذی الحجّه، وجب أن نقول إنّ المقصود منه هو أشهر ما قبل السنه العاشره.

ب: إذا تردّدنا فی یوم وشهر کتابه الصلح علی نحو التردّد فی تحدید عامِه، أمکن فی هذه الصوره أن نقول بأنّ یوم المباهله وکذا یوم تنظیم وثیقه الصلح یرتبطان بأشهر ما قبل شهر رجب من السنه العاشره للهجره.

***

۱- . لاحظ: الطبقات الکبری: ۳۴۸/۱.

زمن المباهله يوماً وشهراً

إلى هنا اتّضح أنّه من غير الممكن أن يكون عام المباهله هو السنه العاشره من الهجره حتماً، إلّافى صوره واحده وهى أن نغيّر رأينا فى اليوم والشهر اللّذين تمّت فيهما كتابه وثيقه الصلح.

وقد حان الحين الآن لأن نحدّد تاريخ المباهله من حيث اليوم والشهر فى ضوء الأحداث والوقائع التاريخيه، فنقول: إنّ الشهر واليوم اللّذين وقعت فيهما قضيه المباهله هما - حسب ما هو مشهور بين العلماء كما أسلفنا - شهر ذى الحجّه واليوم الرابع والعشرون أو الخامس والعشرون وعلى قول: الحادى والعشرون، أو السابع والعشرون من ذلك الشهر.

والآن يجب أن نرى هل تنطبقُ هذه الأقوال على غيرها من الحوادث التاريخيه القطعيه أم لا؟

إنّ الدراسه التاليه تثبتُ لنا أنّ قضيه المباهله من غير الممكن أن تكون قد وقعت فى شهر ذى الحجّه من السنه العاشره مطلقاً، لأنَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قد توجَّه إلى مكّه المكرّمه لتعليم مناسك الحج فى السنه العاشره من الهجره، وفى اليوم الثامن عشر من هذا الشهر (وهو يوم الغدير) نصب فى منطقه غدير خم الّتى تبعد عن الجحفه بميلين(۱)، علياً خليفه على المسلمين من بعده.

۱- . «الجحفه» - على وزن طُعمه - تقع على بعد ثلاثه منازل من مكّه وسبعه منازل من المدينه، وتبعد عن البحر الأحمر بسته أميال تقريباً وتقرب من رابغ الّتى تقع الآن على الطريق بين مكّه والمدينه. راجع كتاب التحرير للنووى والتهذيب له أيضاً. هذا ويقول ياقوت الحموى فى «مراصد الاطّلاع» ص ۱۰۹: إنّ الجحفه تقع على بعد أربعه أميال من مكّه وهى ميقات أهل

ولم تكن حادثه الغدير بالحادثه الّتى تنتهى ذيولُها فى يوم واحد ليتابع النبى سفرَه إلى المدينه فوراً؛ لأنّ النبى - بشهاده التاريخ - أمر بعد نصب علّى عليه السلام للخلافه أن يجلس علىٌ فى خيمه، وأن يدخل عليه المسلمون الحاضرون ثلاثه ثلاثه، ويهنّئونه بالخلافه والإمره، وقد استمر هذا العمل حتّى الليله التاسعه عشره من شهر ذى الحجّه، وقد هَنّأت «أُمهاتُ المؤمنين» عليّاً عليه السلام فى نهايه مراسيم التهنئه(۱).

من هنا لا يمكن القول بأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم غادر أرض غدير خم فى اليوم التاسع عشر، خاصّه أنّ تلك المنطقه كانت المحلّ الّذى تتشعّب فيه طرق المدنيّين والمصريّين والعراقيّين، وبناء على هذا لابدَّ أنّ الجماعات المختلفه الأوطان الّتى كانت تريد التوجّه إلى أوطانها قد ودَّعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ولا شكّ أنّ عمليه التوديع هذه قد أوجبت مكث رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى أرض الغدير مده أطول.

وحتّى لو فرضنا - افتراضاً - أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم توجّه نحو المدينه فى اليوم

۱- . للتعرّف على تفصيل مراسيم التهنئه، لاحظ: موسوعه الغدير: ۱/۲۷۰-۲۸۳.

التاسع عشر، فهل يمكن أن نقول - فی ضوء المحاسبات الّتی نملكها من التاريخ حول مقدار طیّ هذه المسافه - أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قدم المدینهَ فی الیوم الرابع والعشرین أو الخامس والعشرین، وأخذ بمقدّمات قضیه المباهله ثم كتب وثیقه الصلح بینه وبین أهل نجران؟، كلّا حتماً، لأنّ المسافه بین مكّه والجحفه كما ذكرنا فی الهامش المتقدّم هی ثلث المسافه بین مكّه والمدینه.

ویجب أن نری الآن كم كان یستغرقُ من الزمن مجموع سفر القوافل - آنذاك - من مكّه إلی المدینه المنوّره؟

لا توجد هنا أیّه وثیقه توضح ذلك إلّاحدیث سفر النبی الأكرم صلی الله علیه و آله و سلم نفسه الّذی وضعه التاریخ تحت تصرّفنا، فإنّ التاریخ یقول: إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قطع هذه المسافه عند هجرته من مكّه إلی المدینه فی مده تسعه أیام(۱).

كما أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قطع هذه المسافه فی مده أحد عشر یوماً(۲).

وسبب التفاوت بین هاتین الرحلتین هو أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم قطع المسافه المذكوره فی الرحله الأُولی برفقه شخصین، بینما قطع تلك المسافه فی الرحله الثانیه بصحبه جیش قوامُه عشره آلاف رجل، ومن الطبیعی أن تتمّ الحركه فی الرحله الثانیه بصوره أكثر بُطئاً.

ولنفترض أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم غادر أرض «غدیر خم» فی الیوم التاسع عشر، فإنّنا إذا اتّخذنا تسعه أیّام مقیاساً لتقییمنا وجب أن نقول: إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لابدّ أنّه

۱- . غادر رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مكّه مهاجراً إلی المدینه فی اللیله الرابعه من شهر ربیع الأوّل، ووصل إلی محلّه «قبا» حوالی الظهر فی الیوم الثانی عشر من نفس ذلك الشهر، وتدلّ القرائنُ علی أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قطع هذه المسافه بسرعه بسبب ملاحقه قریش له، (الطبقات الكبری: ۱۳۵/۱).

۲- . بحار الأنوار: ۱۹/۲۲.

قطع المسافه بين الجحفه والمدينه فى سته أيام؛ لأنّ المسافه بينهما هى ثلثا مجموع المسافه بين مكّه والمدينه، وبالتالى دخل المدينه فى اليوم الرابع والعشرين.

وإذا اعتبرنا الثانى (أى أحد عشر يوماً) أنّه هو المقياس وجب أن يقطع تلك المسافه (أى بين الجحفه والمدينه) فى سبعه أيّام ونصف اليوم، فيكون) - حسب القاعده - قد قدم المدينه فى اليوم السادس والعشرين، حوالى الظهر منه.

فهل يمكن القول - فى ضوء هذه المحاسبه - بأنّ قضيه المباهله وقعت فى اليوم الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين أو السابع والعشرين؟!

إنّ بطلان هذا القول، وخلوّه عن الصحّه يتّضح أكثر إذا عرفنا بأنّ وفد نجران قبلوا بالتباهل بعد سلسله من المفاوضات والمداولات، وقد انصرفوا عن التباهل فى المآل ووقّعوا على وثيقه صلح بينهم وبين النبى صلى الله عليه و آله و سلم، تحت شروط خاصّه.

فإنّ أعضاء الوفد المذكور دخلوا المدينه وهم يرتدون ثياباً راقيه من الديباج والحرير، وفى أيديهم خواتيم من ذهب، وعلى صدورهم صلبان من ذهب، وتوجّهوا فور قدومهم - وعلى هذه الهيئه - إلى مسجد النبى صلى الله عليه و آله و سلم ولكن النبى واجههم بالكراهه بسبب الهيئه الّتى دخلوا بها عليه.

فانتهى هذا اللقاء من دون عمل شىءٍ وتفرّق أعضاء الوفد، وهم فى حيره من موقف النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم فالتقى الوفد علياً عليه السلام وسألوه عن سبب استياء النبى وإعراضه عنهم، فأخبرهم الإمام علىٌ عليه السلام بأنّ عليهم أن ينزعوا تلك الثياب والحلىّ عنهم، ويدخلوا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بثياب عاديه حتّى يرتاح إليهم النبىُّ ويستقبلهم بوجه منبسط.

فعاد أعضاء الوفد ودخلوا على النبى صلى الله عليه و آله و سلم ثانيه، ولكن بثياب عاديه خاليه

عن الزينه والحلىّ، فاستقبلهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ببشاشه خاصّه، ورحّب بهم ترحيباً كبيراً، ثم سألوا النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يؤدّوا صلاتهم فى المسجد، فأذن لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بذلك، ثم دخلوا مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى مناظرات ومناقشات مفصّله، ذكرها أكثر المفسّرين والمؤرّخين ومنهم ابن هشام فى سيرته(۱)، اتّفقوا على أن يحسموا الأمر بالمباهله، وحُدِّدَ يوم المباهله.

ولمّا كان ذلك خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى ذلك اليوم مع ابنته الزهراء وصهره علىّ بن أبى طالب، وسبطيه الحسن والحسين، إلى الصحراء للمباهله مع وفد نجران.

ولكن وفد نجران بعد أن رأوا النبى ومن معه وماهم عليه من البساطه والجلال، انصرفوا عن الدخول فى المباهله ورضخوا طائعين لدفع جزيه سنويه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

فهل هذه الوقائع الّتى استغرقت - كما يقول بعض المؤرّخين - أربعه مجالس يمكن أن تكون قد تمّت فى يوم واحد؟!

إنّ المحاسبات تقضى وتفيد بأنّ مراسيم المباهله، وكتابه وثيقه الصلح من غير الممكن أن تكون قد وقعت فى اليوم الواحد والعشرين أو الرابع والعشرين، أو الخامس والعشرين أو السابع والعشرين من شهر ذى الحجّه من السنه العاشره للهجره.

هذا مضافاً إلى أنّ «نجران» مدينه حدوديه بين الحجاز واليمن، ولابد أنّ تردّد القبائل كان من شأنه أن ينقل إلى مسامع النجرانيّين أنباء وجود رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى مكّه لأداء مناسك الحج، ولهذا فإنّ من المستبعد أن يكون وفد نصارى

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۴۱۲/۲؛ مجمع البيان: ۳۰۹/۲-۳۱۰.

نجران قـد أقـدم على التوجّه إلى المـدينه للحضور عند رسول اللّه صـلى الله عليه و آله و سـلم قبل التأكّد الكامل من عودته إلى المدينه والاستقرار الكامل فيها.

هل كانت قضيه المباهله فى السنه التاسعه؟

هنا يمكن أن يقال بأنّ قضـيه المباهله وقعت فى شـهر ذى الحجّه من السـنه التاسـعه، وقـد ذهب إلى هـذا الرأى بعض المؤرخين أيضاً(۱).

ولكن المحاسـبات التـاريخيه تثبت أيضاً بطلان هـذا الرأى، وذلك لأنّ الإمام عليّاً عليه السـلام الّذى كان من الشاهـدين لقضـيه المباهله، كما أنّه هو الّذى كتب وثيقه الصـلح بيده الشريفه، كان قد كلِّف فى التاسع من شهر ذى الحجّه من هذه السنه (التاسعه) من قِبَل النبى صـلى الله عليه و آله و سلم بمهمه إبلاغ آيات البراءه إلى المشركين فى يوم الحج الأكبر بمنى، وفى الحقيقه كانت السـنه الثانيه الّتى كانت قـد أنيطت إماره الحـج وإداره أمر الحجيج إلى المسـلمين، وكان قد اختير أمير المؤمنين أميراً على الحج فيها.

ونحن نعلم أنّ مناسك الحج تنتهى فى اليوم الثانى عشـر من شـهر ذى الحجّه، ولاشكّ أنّ شخصـيه بارزه ومسؤوله كالإمام على عليه السلام الّذى كان يرأس الحج

۱- . جاء ذكر هـذا عند تفسـير سوره التوبه. نقل صاحب الغدير: فى ج ۶ ص ۳۱۸-۳۲۱ هذا الرأى من اثنين وسـبعين شخصاً من علماء السـنّه، وكأنّ قضـيه المباهله بين النبى ووفـد نجران وقعت فى آخر هـذه السـنه (التاسـعه)، لأنّه ورد أنّ هذا الأمر قد تمّ فى شهر ذى الحجّه بعـد فتـح مكّه، ولابـد أنّ المراد بـذى الحجّه ليس هو ذو الحجّه من عـام حجّه الوداع وهى السـنه العاشـره الّتى وقعت فيها قضيه الغدير، فإذن هو ذو الحجّه من السنه السابقه على عام الغدير واستغرقت أربعه مجالس (بتلخيص).

فی ذلک العام، من غیر الممکن أن یکون قد غادر مکّه فی الیوم الثالث عشر ویتوجّه إلی المدینه وهو الّذی کانت له أقرباء وأنسباء کثیرون فی مکّه، هذا مضافاً إلی أنّ حرکه الحجیج لم تکن فی تلک العصور حرکه انفرادیه حتّی یستطیع کلُّ واحد منهم أن یقطع الفیافی القفراء والصحاری القاحله الموحشه بمفرده، فکان علی مَن یریدون الحج أن یتوجَّهوا بصوره جماعیه إلی مکّه أو یغادروها إلی بلادهم.

ولهذا فإنّ علیّاً علیه السلام مهما أسرع وجدّ فی السیر قافلاً إلی المدینه، وقطع المسافه بین مکّه والمدینه بسرعه فائقه، فإنّه من غیر الممکن أن یکون قدم المدینه قبل الیوم الرابع والعشرین، ولهذا کیف یمکن أن یقوم بارشاد وفد نجران ودلالتهم علی ما یجب أن یفعلوه حتّی یستقبلهم النبی ببشاشه ویرحّب بهم، ویشهد المباهله مع المتباهلین؟!

إنّ الشواهد والأدلّه التاریخیه تشهد بأنّ النظریه المشهوره حول زمن المباهله (یوماً وشهراً وعاماً) لا تحظی بالاعتبار الکافی، ولابدَّ - لمعرفه زمن هذه الحادثه الّتی هی من مسلّمات القرآن والتفسیر والحدیث - من مزید التحقیق، ومزید الدراسه، والتقصّی.

وهنا یبقی سؤالٌ لابدَّ من الإجابه عنه وهو: کیف اختار المشهورون من العلماء مثل هذه النظریه حول یوم المباهله وشهرها وعامها؟

والجواب هو: أنّ المرحوم الشیخ الطوسی اختار هذا القول استناداً إلی روایه مسنده نقلها فی کتابه، ولکن فی سند الحدیث المذکور رجالاً غیر ثقات فی نظر علماء الرجال، نظراء:

۱. محمَّد بن أحمد بن مخزوم - أُستاذ التلعکبری فی الحدیث - فهو ممّن لم

یوثّق(۱).

۲. الحسن بن علی العدویّ وقد ضعّفه العلّامه(۲).

۳. محمَّد بن صدقه العنبری وقد وصفه الشیخ الطوسی بالغلوّ(۳).

وقد ذکر المرحوم السید ابن طاووس فی کتاب «الاقبال» أُموراً تتعلّق بالمباهله نقلاً عن کتاب أبی المفضل، وقد ذکرنا فی الهامش (ص ۶۸۹) أنّ أبا المفضل له فترتان فی حیاته، فهو موثق فی حال وغیر موثق فی حال آخر، ولا یُدری فی أی حال من الحالین کتب أبو المفضل قضایا المباهله، وأخذها عنه العلماء.

کما أنّ السیّد استند فی کتابه المذکور علی حدیث مرفوع (وهو ما فیه نقص فی رجال سنده)، وذکر فی ضوئه أنّ یوم المباهله هو الیوم الرابع والعشرون، فی حین لا تقوم مثل هذه الروایه بإثبات المدّعی.

۱- . وإن حاول المامقانی توثیقه فی تنقیح المقال: ۷۴/۳ برقم ۱۰۳۴۹ حیث قال: وظاهره کونه إمامیاً وکونه شیخ إجازه بدرجه فی الحسان.

۲- . رجال العلّامه: ۲۱۵ برقم ۱۶، الباب الأوّل من الفصل السادس، القسم الثانی.

۳- . رجال الشیخ الطوسی: ۳۴۳ برقم ۵۱۰۷.

۶۱ ۱. تقییم البراءه من المشرکین ۲. وفود القبائل فی المدینه

اشاره

ترکت البراءه القویه الّتی أعلنها أمیر المؤمنین علی علیه السلام فی موسم الحج فی السنه التاسعه بمنی بأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم والّتی أعلن فیها بصراحه وبصوره رسمیه:

إنّ اللّه ورسوله بریئان من المشرکین والوثنیین، وأنّ علی المشرکین أن یضعوا حدّاً لشرکهم خلال أربعه أشهر فإمّا أن یسلّموا ویکفّوا عن عباده الأصنام ویهجروها، وإمّا أن یستعدوا لمواجهه شامله.

لقد ترک إعلان هذه البراءه الصریحه أثره العمیق والسریع، فقد ارتبکت القبائلُ العربیه القاطنه فی شتّی أنحاء الجزیره العربیه الّتی کانت بسبب عنادها ولجاجتها ترفض الخضوع لمنطق القرآن والاستجابه لنداء التوحید وتصرّ علی المضیّ فی عاداتها الشنیعه، والعکوف علی الاوهام والخرافات وعباده الأصنام والأوثان.

لقد ارتبکت هذه القبائل، علی أثر تلک البراءه الصریحه القویه، فعمدت إلی إیفاد وفود ومندوبین من جانبها إلی المدینه عاصمه الإسلام، وقد دار بین کلّ واحد

من هذه الوفود وبين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حوار خاص.

وقد ذكر ابن سعد فى «الطبقات الكبرى»(۱) مواصفات وخصوصيات اثنين وسبعين وفداً من تلك الوفود.

إنّ توافد هذه البعثات والوفود العجيب وخاصّه فى أعقاب إعلان البراءه يكشف عن أنّ مشركى العرب فقدوا فى السنه العاشره من الهجره كلّ حصن يمنعهم عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، وإلّا لكانوا يلجأون إليه، ويتظاهرون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ولم تنته المده المضروبهُ (أربعه أشهر) بعد إلّاودخلت كلّ مناطق الحجاز وكلّ أقوامها تحت رايه التوحيد، ولم يبق فى الحجاز بيت تعبد فيه الأصنام والأوثان ظاهراً حتّى أن فريقاً من سكان اليمن والبحرين واليمامه انتبهوا إلى الإسلام فأقبلوا عليه واعتنقوه.

محاوله اغتيال النبى صلى الله عليه و آله و سلم

عُرفت قادهُ بنى عامر من بين القبائل العربيه - يومئذ - بالشرّ والطغيان، وقد اعتزم ثلاثه اشخاص منهم، هم: «عامر» و «أربد» و «جبار» على أن يدخلوا المدينه على رأس وفد من بنى عامر، ويتظاهروا بالتفاوض مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ثم يغدروا به فى المجلس ويغتالوه.

وكانت الخطّه تقضى: بأن يتحدّث «عامرٌ» إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويفاوضه، وفيما هويفعل ذلك يبادر «أربد» إلى ضرب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بسيفه.

ولم يخبر بقيه أعضاء الوفد بنوايا هؤلاء الثلاثه وخطّتهم، ولهذا أعلنوا

۱- . الطبقات الكبرى: ۲۹۱/۲-۳۳۰.

لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم عن رغبتهم الصادقه فى الإسلام، ووفائهم لشخص النبى صلى الله عليه و آله و سلم، ولكنّ «عامراً» أحجم عن أى نوع من أنواع التظاهر بالإسلام فى ذلك المجلس، وكان يصرّ على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أن يخلو به فى مكان آخر ليتحدّث معه على انفراد تمهيداً لتنفيذ الخطّه المشؤومه، وهو ينظر إلى «أربد» وينتظر منه ما كان أمره به واتّفقا عليه، ولكن لا يزداد نظراً إلى «أربد» إلّاويزداد «أربد» حيره ودهشه، هذا ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقول لعامر كلّما قال: خالِّنى: لا واللّه حتّى تؤمن باللّه وحده لا شريك له.

فلمّا أيس «عامر» من «أربد»، وكأنّ «أربداً» كلّما عزم أن يجرد سيفه ويهجم على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هاب النبى، ومنعته عظمته ومهابته، فانصرف عن نيّته، قال عامر وهو يترك مجلس النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم: أما واللّه لأملأنّها عليك خيلاً ورجالاً، وهو بذلك يكشف عن عناده وعتوه.

فقابله رسول اللّه بحلم كبير، ولم يرد على كلامه وتهديده وإنّما اكتفى بأن دعا عليه وعلى صاحبه بعد أن غادرا مجلس النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

ولقد استجاب اللّه لدعاء نبيه سريعاً، فقد خرج هو وصاحبه راجعين إلى بلادهم حتّى إذا كانا فى أثناء الطريق بعث اللّه الطاعون فى عنق «عامر» فقتله ذلك المرض الوبىء فى بيت امرأه من بنى سلول فى صوره فضيعه، وحاله سيئه.

وأمّا «أربد» فأرسل اللّه عليه وعلى جمله صاعقه وهو فى الصحراء فأحرقتهما، وقد تسبّبت هاتان الحادثتان الفضيعتان اللّتان أصابتا عدوَّين لدُودين من أعداء النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى أن يزداد تعلّقُ بنى عامر برسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ويتضاعف حبهم له صلى الله عليه و آله و سلم.(۱)

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۹۹۱/۴-۹۹۲؛ السيره الحلبيه: ۲۴۵/۳.

أمير المؤمنين فى ربوع اليمن

لقد مكّن إقبال أهل الحجاز على الإسلام وأمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم جانب القبائل العربيه، مكّن النبى من العمل على مدّ شعاع الإسلام إلى البلاد المتاخمه للحجاز.

فكان أوّل ما فعل صلى الله عليه و آله و سلم فى هذا الصعيد هو بعث أحد أصحابه العلماء وهو «معاذ بن جبل» إلى اليمن ليبلِّغَ إلى أهلها نداء التوحيد ويشرح لهم معالم الإسلام وتعاليمه المقدّسه، وقد أوصاه بوصايا كثيره ومفصّله منها قوله صلى الله عليه و آله و سلم:

«يَسِّرْ ولا تُعَسِّر، وَبَشِّرْ وَلا تُنَفِّر، وَإِنَّكَ ستقدِمُ عَلى قَومٍ مِن أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنه: فقل شهاده أنْ لا اله الّا اللّه وحده لا شريك له».(۱)

ويبدو أنّ معاذاً رغم أنّه كان ملمّاً بالكتاب العزيز والسنّه النبويه وتعاليمها وأحكامها، إلّاأنّه لمّا سألته أمرأه عن حقّ الزوج على الزوجه لم يملك لها جواباً مقنعاً، ولهذا رأى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بأن يوجّه إلى اليمن تلميذه المتميّز «على بن أبى طالب» عليه السلام حتّى يتمكّن فى ضوء دعوته الدائبه، وأحاديثه المبرهنه، وما يمتلك من شجاعه أدبيه نادره، وقوّه عقليه متميّزه من نشر الإسلام العظيم فى تلك الربوع.

هذا مضافاً إلى أنّ النبىَّ صلى الله عليه و آله و سلم كان قد بعث «خالد بن الوليد» إلى اليمن من قبل ليزيل المشكلات الّتى كانت تعرقل تقدّم الإسلام فى تلك الديار، ولكنّه لم يُوفَّق فى مده بقائه لعمل شىء فى هذا المجال(۲).

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۱۰/۴.

۲- . لاحظ: صحيح البخارى: ۱۱۰/۵، باب بعث على بن أبى طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن؛ البدايه والنهايه: ۱۲۰/۵.

فاستدعى النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم علياً عليه السلام وأخبره بأنّه يريد أن يذهب إلى اليمن ليدعو أهلها إلى الإسلام، وليخمّس ركازهم، ويعلّمهم الأحكام، ويبيّن لهم الحلال والحرام، وإلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم، فقال علىٌّ عليه السلام بتواضع بالغ:

«يا رَسولَ اللّه تبعثنى وأنا شابٌّ أقضى بينهم ولا أدرى ما القضاء؟» أى ما فعلتهُ قبل هذا.

فضرب رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بيده فى صدر علىّ عليه السلام وقال:

«اللَّهمَ أهدِ قَلبَه وثَبِّتْ لسانَه».(۱)

ثم قال صلى الله عليه و آله و سلم:

«يا علّى لا تقاتِلَنَّ أحداً حتّى تدعوه، وأيمُ اللّه لئن يَهدىَ اللّهُ على يَديكَ رَجُلًا خيرٌ لكَ ممّا طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا على».(۲)

ثم أوصاه صلى الله عليه و آله و سلم بوصايا أربع هامّه إذ قال:

يا على أُوصيك:

۱. بالدُّعاء فإنّ معه الإجابه.

۲. وبالشكر فإنَّ معه المزيد.

۳. وإيّاك أن تخفِرَ عهداً أو تعين عليه.

۴. وأنهاك عن المَكر، فإنّه لا يحيقُ المكر السيّئ إلّابأهله، وأنهاك عن البغى،

۱- . الطبقات الكبرى: ۳۳۷/۲؛ إمتاع الأسماع: ۲۹۴/۱۱؛ بحار الأنوار: ۳۶۰/۲۱.

۲- . الكافى: ۲۸/۵ ح ۴؛ بحار الأنوار: ۳۶۱/۲۱ ح ۳.

فإنّه من بُغی علیه لینصرنّه اللّه».(۱)

ولقد بقی علی علیه السلام یقومُ بالقضاء طیله أیّام إقامته فی الیمن بصوره عجیبه محیّره، وقد دُونت أکثر أقضیته فی کتب التاریخ والحدیث.

هذا ویروی «البراء بن عازب» وکان من الذین صحبوا علیاً علیه السلام فی سفره هذا إلی الیمن أنّه لمّا انتهی علیٌّ علیه السلام ومن معه إلی أوائل أهل الیمن، وبلغ القوم الخبر، فخرجوا إلیه، صفَّ علیٌّ علیه السلام الجنود الذین کانوا قد استقرّوا هناک من قبل بقیاده خالد بن الولید، ثم صلّی بهم صلاه الفجر، ثم دعا قبیله همدان کلّها، وکانت أکبر القبائل الیمنیه، لیقرأ علیهم کتاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فحمد اللّه، وأثنی علیه، ثم قرأ علی القوم کتابَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فأسلَمتْ همدانُ کلُّها فی یوم واحد متأثّره بجلال المشهد، وحلاوه البیان، وعظمه المنطق النبوی؛ فکتبَ أمیر المؤمنین علیه السلام بذلک إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فلمّا قرأ کتابه استبشر وابتهج وخرَّ ساجداً شکراً للّه تعالی، ثم رفع رأسه وجلس وقال:

«السلام علی هَمْدان» یقوله ثلاثاً.

ثم تتابع - علی أثر إسلام همدان - أهلُ الیمن علی الإسلام(۲).

۱- . أمالی الطوسی: ۵۹۷ برقم ۱۲۳۹؛ بحار الأنوار: ۳۶۱/۲۱ ح ۴.

۲- . لاحظ: الکامل فی التاریخ: ۳۰۰/۲، بحار الأنوار: ۳۶۰/۲۱-۳۶۳.

۶۲ حجّه الوداع

اشاره

تُعتبر مراسيم الحج ومناسكه من أعظم العبادات الإسلاميه الجماعيه التى يؤدّيها المسلمون، جلالاً وأُبّهه؛ وذلك لأنّ أداء مراسيم الحج ومناسكه فى كلّ سنه مره واحده، يُمثِّلُ بالنسبه للأُمّه الإسلاميه أكبر مظاهر الاتّحاد، والوحده ودليلاً كاملاً على الترفّع عن المناصب والدرجات وتكونُ نموذجاً بارزاً للمساواه بين جميع أبناء البشر، وسبيلاً إلى تقويه أواصر الأُخوه المتينه بين المسلمين، فإذا كان المسلمون لا ينتفعون بهذه المائده الكبرى الّتى منحها ربُّهم لهم، وإذا كانُوا لا يستفيدون من هذا المؤتمر الإسلامى السنوى العظيم (الّذى يمكنه بِحقٍّ أن يجيبَ ويعالج الكثير من مشكلاتنا الاجتماعيه، ويكون نقطه تحوّل عميق فى حياتنا) استفاده كامله لائقه، فإنَّ ذلك ليس - وبدون ريب أو شك - ناشئاً من قصور فى القانون الإسلامى، بل هو دليلٌ على قصور قاده المسلمين وتقصير حُكّامهم الذين لا يُولون هذه المراسم وهذا الموسم العظيم اهتماماً مناسباً، ولا يفكّرون فى استغلاله على الوجه المطلوب.

فمنذ أن فرغ إبراهيم الخليل عليه السلام من إقامه صرح الكعبه المعظَّمه ودعا الموحِّدين إلى زيارتها، والحج إليها لم تزلْ هذه البنيه الشريفه كعبه القلوب،

ومطاف الشعوب والأقوام والجماعات الموحّده الّتی تأتی إلیها کلّ عام من شتّی نقاط العالم، ومن مختلف أنحاء الجزیره العربیه، ویؤدُّون عندها المناسک الّتی علّمها إیّاهم النبیُّ العظیمُ إبراهیم الخلیل علیه وعلی نبینا السَّلام.

ولکن تقادُم العهـد، وانقطاع شـعب الحجاز عن قیاده الأنبیاء، وأنانیه قریش، وسـیاده الوثنیه علی عقول العرب أوجب أن تتعرّض مراسم الحج ومناسکه - من حیث الزمان والمکان - لعملیه تحریف وتغییر، وأن تفقد صبغتها الحقیقیه ووجهها الواقعیّ.

لهذه الجهات أُمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی السنه العاشره من الهجره، ومن قِبَل اللّه سبحانه أن یشارک فی مراسم الحـج شخصـیاً، ویقوم بتعلیم مناسک الحج للناس، ویوقفَهم علی واجباتهم فی هذه العباده الکبری عملیاً، کما یقوم بإزاله کلّ ما عَلِق بها من زوائـد طیله السـنوات الغابره، ویعیّنُ حـدود «عرفات» و «منی» ویوم الإفاضه منها، ولهذا فإنّ السـفر کان سـفراً ذا طابع تعلیمی، قبل أن یکون ذا طابع سیاسیّ واجتماعی.

أمر رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم فی الشـهر الحادی عشـر من العام العاشـر للهجره (أی شـهر ذی القعده) بأن ینادی فی المـدینه وبین القبائل بأنّ رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم یقصـد مکّه للحج هذا العام، فأحدث هذا الإعلان شوقاً وابتهاجاً عظیمَیْن فی نفـوس جمع کـبیر من المسـلمین، فتهیّأ عـددٌ هائـلٌ منهم لمرافقه رسـول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم، وضـربت مضارب وخیم کثیره خارج المدینه المنوره بانتظار حرکه النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم وتوجّهه إلی مکّه(۱).

وفی الیوم السادس والعشرین من شهر ذی القعده خرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من

۱- . لاحظ: المغازی: ۱۰۸۸/۲؛ السیره الحلبیه: ۳۰۷/۳.

المدینه متوجّهاً إلی مکّه، وقد استخلف مکانه فی المدینه أبا دجانه الأنصاری، وقد ساق معه ما یزید عن ستین بدنه.

وعندما بلغ الموکب النبویُ العظیمُ إلی «ذی الحلیفه» (وهی نقطه فیها مسجد الشجره أیضاً) أحرم بلبس قطعتین عادیتین من القماش الأبیض من مسجد الشجره، ودخل الحرم، ولبّی عند الإحرام قائلاً:

«لَبَّیْکَ اللَّهمَ لَبَّیْک، لَبَّیْکَ لا شَرِیْکَ لَکَ لَبَّیْک، إنَّ الحَمد والنعمه لک والملکَ، لَبَّیْکَ لا شرکَ لَکَ لَبَّیْکَ».

وهو بذلک یلبّی نداء إبراهیم، کما أنّه صلی الله علیه و آله و سلم کان یکرّر هذه التلبیه کلّما شاهد راکباً، أو علا مرتفعاً من الأَرض، أو هبط وادیاً.

ولمّا شارف مکّه قطع التلبیه المذکوره.

وفی الیوم الرابع من شهر ذی الحجّه، دخل صلی الله علیه و آله و سلم مکّه المکرمه وتوجّه نحو المسجد الحرام رأساً، ثم دخله من باب بنی شیبه وهو یحمد اللّه ویثنی علیه ویصلّی علی إبراهیم علیه السلام.

ثم بدأ من الحجَر الأسود فاستلمه(۱) أوّلاً ثم طاف سبعه أشواط حول الکعبه المعظّمه، ثم صلّی رکعتین خلف مقام ابراهیم، وعندما فرغ من صلاته سعی

۱- . المراد من الاستلام هو مسح الحجر الأسود بالیدین قبل الشروع بالطواف، وفلسفه هذا العمل هی أنّ هذا الحجر کان یقف علیه إبراهیم لدی بناء جدران الکعبه وإقامتها ورفعها، واستلامُه نوعٌ من تجدید المیثاق مع الخلیل علیه السلام والعمل علی نصره عقیده التوحید علی نحو ما فعل إبراهیم. ولقد اعتمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الفتره المدنیه مرتین: إحداهما فی السنه السابعه والأُخری فی السنه الثامنه بعد فتح مکّه، وکانت هذه ثالث عمره یقوم بها رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم مع الحج (الطبقات الکبری: ۱۷۴/۲).

بين الصفا والمروه(۱) ثم التفت إلى حجاج بيت اللّه الحرام وقال:

«مَنْ لَمْ يَسُقْ منكُمْ هَدياً فَلْيُحلَّ ولْيَجْعَلها عُمره (أى فليقصِّر، أى يأخذ من شعره وظفره فيحلّ له ما حرم عليه بالإحرام) ومَن ساق منكُمْ هَدياً فَلْيُقِمْ على إحرامه».

وقد كرهَ البعضُ هذا واعتذَروا بأنّه يعزُّ عليهم (أو لا يلذُّ لهم) أن يخرجوا من الإحرام فيحلّ لهم ما يحرم على المحرم فيلبسوا الثياب ويقربوا النساء ويتدهّنوا ورسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على إحرامه أشعث أغبر.

وربّما قالوا: لا يصحَّ هذا، كيف تقطر رؤوسنا من الغسل(۲) ونحنُ زوّار بيت اللّه؟

فالتفت النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى عُمر وكان ممّن بقى على إحرامه وقال له: مالى أراك يا عمر مُحرماً؟ أسقتَ هدياً؟

قال عُمر: لم أسُقْ.

فقال النبىُ: فَلِم لا تُحِلّ وقد أمرتُ مَن لَم يَسُقْ بالإحْلال؟

قال عمر: واللّه يا رسول اللّه لا أحلَلْتُ وانت محرمٌ.(۳)

فغضب النبىُ لموقف الناس المتلكّئ هذا وقال:

«لو كنتُ استقبلتُ من أمرى ما استَدْبَرتُ لَفعلْتُ كما أمرتُكم».

۱- . الصفا والمروه جبلان على مقربه من المسجد الحرام، والسعى هو المشى بينهما ابتداء من الصفا وانتهاء بالمروه.

۲- . هذه العباره كنايه عن مقاربه الأزواج وغسل الجنابه؛ لأنّ مقاربتهن هى إحدى محرّمات الإحرام وترتفع هذه الحرمه بالتقصير وهو أخذ شىء من شعر الرأس أو اللحيه أو تقليم الظفر.

۳- . لاحظ: إرشاد المفيد: ۱۷۳/۱-۱۷۴؛ بحار الأنوار: ۳۸۵/۲۱-۳۸۶.

وهو صلى الله عليه و آله و سلم يعنى: أنّنى لو كنتُ أعلم بالمستقبل، ولو عرفت بموقف الناس المتردّد وخلافهم هذا من قَبل لما سقتُ الهدى، ولفعلتُ ما فعلتموه من عدم سوق الهدى، ولكن ماذا عساى أن أفعل الآن وقد سقتُ الهدى، ولا يمكننى الإحلالُ من الإحرام، فيجبُ علىَّ أن أبقى على إحرامى «حتّى يبلغ الهدْىُ مَحِلَّه» أى أنحرُ هديى بمنى كما أمر اللّه سبحانه، وأمّا أنتم فمَنْ لِم يَسُق الهدىَ منكم فإنَّ عليه أن يُحلَّ إحرامه، واحسبوها عمره، ثم أحرموا للحج مره أُخرى(۱).

الإمام على عليه السلام يعود من اليمن

لمّا علم على عليه السلام بتوجّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلى مكّه للمشاركه فى مراسم الحج، خرج هو وجنوده وقد ساق معه (۳۴) هدياً للمشاركه فى الحج، واصطحب حُلَلا من بزّ اليمن وحريرها قد أخذها من أهل نجران، وهى الجزيه الّتى تقرَّر دفعُها إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

ولقد تعجّل علىٌّ عليه السلام إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم واستخلف على جنده الذين خرجوا معه إلى الحج رجلاً من أصحابه لقيادتهم حتّى مكّه، فالتحق برسول اللّه ولقيه على مشارف مكّه، فسرّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم به، وبما أحرزَه من نجاحات فى مهمّته الّتى بعثه بها إلى أرض اليمن، وقد أخبر بها النبى صلى الله عليه و آله و سلم على وجه التفصيل.

فلمّا فرغ من الخبر عن سفره قال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: انطلِقْ فطفْ بالبيت، وحِلَّ كما حلَّ أصحابك.

۱- . وهذه القصّه توقفنا على تعنّت فريق من الصحابه وتمرّدهم على تعليمات النبى وأوامره الأكيده، وهم يعلمون أنّه لا ينطق عن الهوى إن هو إلّاوحىٌ يوحى، وثمه شواهد وموارد أُخرى كثيره على الموضوع، وقد جمعها المغفور له العلامه السيد عبد الحسين شرف الدين العاملى فى كتابٍ أسماه «النص والاجتهاد».

فقال على عليه السلام: يا رسول اللّه إنّى أهللتُ كما أهللت.

فقال: ارجع فاحلل كما حلّ أصحابك.

فقال على عليه السلام: يا رسول اللّه إنى قلتُ حين أحرمتُ: اللّهمَ إنى اهلُّ بما أهلَّ به نبيُّك وعبدُك ورسولُك محمَّد صلى الله عليه و آله و سلم.

قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: فهل مَعَكَ من هدى؟

قال على: لا.

فأشركه رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى هديه، وثبت على إحرامه مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم حتّى فَرغا عن الحج ونحر رَسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الهدىَ عنهما.(۱)

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أمر علياً عليه السلام بأن يرجع إلى جنوده الذين فارقهم، ويصطحبهم إلى مكّه، فلمّا رجع على عليه السلام إليهم وجد أن الرجل الّذى استخلفه على أُولئك الجنود قد عمد فكسا كلّ رجل من القوم حلّه من البزّ الّذى كان قد أخذه علىٌ من أهل نجران ليسلّمها إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فانزعج من هذا التصرّف غير المشروع وقال له: ويلك ما هذا؟

قال: كسوتُ القوم ليتجمّلوا به إذا قدموا فى الناس بمكّه، فقال على عليه السلام:

ويلك! أنزع قبل أن تنتهى إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فانتزع ذلك الرجل الحلل من الجنود، وردّها إلى مكانها مع الأشياء الأُخرى من جزيه أهل نجران.

فانزعج جماعةٌ من أُولئك الجنود ممّن يزعجهم العدل والنظام دائماً، ويريدون أن تسير الأُمور وفق أهوائهم ومشتهياتهم وإن خالفت سنن

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۲۱/۴؛ السيره الحلبيه: ۳۱۸/۳. إنّ هذا يدلّ على أنّ النيه الإجماليه كافيه، ولا يلزم وقوف الناوى على تفاصيل العمل وجزئياته.

الحقّ ومبادئ العداله، وأبدوا شكواهم من ما صنع بهم من استرداد الحُلل والثياب.

ولمّا قدموا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمكّه اشتكوا عليّاً عليه السلام فقام رسول اللّه خطيباً فى الناس وقال:

«أيّها الناس، لا تشكوا عليّاً، فواللّه إنّه لأخشن فى ذات اللّه (أو فى سبيل اللّه) مِنْ أن يشكى»(۱).

شروع مراسِمُ الحج

انتهتْ أعمالُ العمره، وكان النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم يكره أن ينزل ويمكثَ فى دار أحد فى المده الّتى بين العمره والحج، ولهذا أمر بأن تُضرب له خيمه خارج مكّه.

لقد حلَّ اليوم الثامن من شهر ذى الحجّه، فخرجَ زوّار بيت اللّه الحرام فى ذلك اليوم من مكّه إلى أرض عرفات ليقفوا فى اليوم التاسع وهو يوم عرفه من ظهر ذلك اليوم وحتّى الغروب منه.

وقد قصَدَ النبى عرفات أيضاً فى اليوم الثامن من شهر ذى الحجّه (الّذى يُدعى يوم الترويه أيضاً) من طريق منى، وتوقّف فى «منى» إلى طلوع الشمس من اليوم التاسع ثم ركب بعيره، وتوجّه نحو عرفات، ونزل فى خيمه كانت قد ضربت له فى مكان يُدعى «نمره».

وقد ألقى فى ذلك الاجتماع الهائل خطاباً تاريخياً هامّاً وهو على ناقته.

۱- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۲۲/۴. وفى بحار الأنوار: ۳۸۵/۲۱: أمر النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم منادياً أن ينادى فى الناس: «ارفعوا ألسنتكم عن علىٍّ فإنّه خشنٌ فى ذات اللّه غير مداهن فى دينه».

خطابُ النبیّ التاریخی فی حجّه الوداع

... فی ذلک الیوم الّذی کانت عرفات تشهد فیه اجتماعاً عظیماً وحَشْداً بشریاً هائلاً، لم یشهد مثله شَعْبُ الحجاز من قبل حتّی ذلک الیوم، کان نداءُ التوحید وشعار الإسلام یدوّی فی ربوع تلک المنطقه الّتی کانت فیما مضی من الزمان موطن المشرکین ومسکن الوثنیّین، ولکنّها قد تحوّلت الآن إلی قاعده الموحِّدین، وملتقی عباد اللّه المؤمنین.

فی هذه المنطقه بالذات (أی أرض عرفات) نزل رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم وصلّی الظهر والعصر وهو یؤُمُ مائه ألف، ثم خطب فیهم خطابَهُ التاریخیّ وهو راکب علی راحلته، وکان أحد أصحابه - وکان رفیع الصوت قویه - وقیل: هو ربیعه بن أُمیّه بن خلف(۱)، قال: یقول له رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

«قُلْ یا أیّها الناسُ إنّ رسولَ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یقول: هَل تدرون أیّ شهر هذا»؟

فیقولون: الشهرُ الحرام. فیقول النبی صلی الله علیه و آله و سلم لربیعه:

«قُلْ لَهُمْ: إنّ اللّه قد حرّم علیکم دماءکم وأموالکمْ إلی أن تَلقوا ربکم کحرمه شهرکم هذا».

ثم قال صلی الله علیه و آله و سلم لربیعه:

«قل: یا أیّها الناسُ إنّ رسول اللّه یقول: هلْ تدرون أیّ بَلد هذا؟».

فأجابوا جمیعاً: البلدُ الحرام. فقال رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لربیعه:

«قل لَهُمْ: إنّ اللّه قد حَرَّم علیکُمْ دماءکم وأموالکمْ إلی أن تَلقوا ربّکم کحرمه بلدکم هذا».

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۱۰۲۳/۴.

ثم قال صلى الله عليه و آله و سلم لربيعه:

«قُلْ: يا أيّها الناس إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يقول: هل تَدرُون أى يوم هذا؟».

فأجابوا بأجمعهم: يوم الحج الاكبر.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لربيعه:

«قُل لَهُمْ: إنّ اللّه قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربَّكم كحرمه يومكم هذا».(۱)

وفى روايه أُخرى:... فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: أيّها الناس اسمعوا قولى، فإنّى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً.

أيّها الناس إنّ دماءكم وأموالكم(۲) عليكم حرام إلى أن تَلقوا ربّكم كحرمه يومكم هذا، وكحرمه شهركم هذا.

ثم قال صلى الله عليه و آله و سلم:

«وَإنّكُمْ ستَلْقونَ ربَّكُمْ فيسالُكم عَن أعمالكمْ، وَقَد بلّغتُ، فَمَن كانت عندَهُ أمانه فليؤدِّها إلى من ائتمنَهُ عليها.

وَإنَّ كلّ رباً موضوعٌ ولكن لكم رؤوسُ أموالكم لا تَظلِمُونَ ولا تُظلَمون.

قضى اللّه أنّه لا ربا، وإنَّ ربا العباس بن عبد المطلب موضوعٌ كلُّه، وإنّ كلّ دم كان فى الجاهليه موضوع، وإنّ أوّل دمائكم أضع دم ابن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعاً فى بنى ليث، فقتلته هذيل - فهو أوّل ما أبدا به من دماء الجاهليه.

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۲۳/۴-۱۰۲۴.

۲- . فى الخصال: ۴۸۷/۲ بزياده: وأعراضكم.

أمّا بعد أيّها الناس فإنّ الشيطان قد يئس مِن أنْ يُعبَد بأرضكم هذه أبداً، ولكنّه إن يُطَع فيما سوى ذلك فقد رضىَ به ممّا تحقرون من أعمالِكُمْ (أو رضى منكُمْ بمحقَّرات الأعمال)، فاحذرُوه على دينكم.

أيّها الناس إنَ النسىء(۱) زيادةٌ فى الكفر، يُضلّ به الذين كَفَروا يُحلّونه عاماً ويحرِّمُونَهُ عاماً ليواطِئُوا عِدَّه ما حرّم اللّه، فَيحلّوا ما حرّم اللّه ويُحرّموا ما أحلَّ اللّه، وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السماوات والأَرض، وإنّ عده الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً، منها أربعه حُرُمٌ، ثلاثةٌ متواليه: (ذو القِعده، وذو الحجّه، وشهر المحرم) ورجب مضر، الذى بين جمادى وشعبان.

أمّا بعد أيّها الناس إنّ لكم على نسائكم حَقّاً، ولهنّ عليكم حقّاً:

لكم عليهن أنْ لا يوطئن فُرشَكُمْ أحداً تكرهونه (أىْ لا يضيِّفن فى بيوتكم مَن تكرهونه).

وعليهن أن لاـ يأتين بفاحشه مبيّنه، فإن فعلنَ فإنّ اللّه قد أذن لكم أن تهجُروهنَّ فى المضاجع، وتضربُوهُنَّ ضرباً غير مبرَّح، فإن انتهين فلَهُنَّ رزقُهُنَّ وكسوتُهنَ بالمعروف، واستَوصُوا بالنساء خيراً، فإنَّهنَ عندكم عَوان لاـ يملكن لأنفسهنَّ شيئاً، وإنّكم إنّما أخذتُمُوهُنَّ بأمانه اللّه، واستحللتم فروجَهُنَّ بكلمات اللّه، فاعقلوا أيّها الناسُ قولى فإنّى قد بلّغتُ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتُمْ به فلنْ تَضِلُّوا أبداً أمراً بَيّناً: كتاب اللّه وسنّه نبيّهِ (۲).

۱- . شرحنا النسىء فى ص ۵۷ من الجزء الأوّل من هذا الكتاب فراجع.

۲- . لقد أوصى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الأُمّه فى هذه الخطبه التاريخيه بالكتاب والسنّه، ولكنّه أوصى فى خطبه الغدير وفى أُخريات حياته بالكتاب والعتره، وحيث إنّ هذين الحديثين وردا فى واقعتين فلا تنافى بينهما، لأنّه يصحّ أن يجعل النبى صلى الله عليه و آله و سلم السنّه عدلاً للكتاب فى واقعه،

أيّها الناس اسـمَعوا قولی واعقلوه، تَعلَّمُنّ أنّ کلّ مسلم أخٌ للمسلم، وأنَّ المسلمین إخوه، فلا یحلّ لامرئ من أخیه إلّاما أعطاهُ عن طِیب نفس منهُ، فلا تظلِمُنَّ أنفسـکُمْ، اللّهمّ هل بلّغت؟ فذکر لی أنّ الناس قالوا اللّهمّ نعم، فقال رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سلم: اللّهمّ اشهد.(۱)

***

ولقد مکث رسولُ اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم فی عرفات حتّی غروب الیوم التاسع، وعندما اختفی قرصُ الشـمس عن الأُفق، واظلمَّ الفضـاء بعض الشـیء رکبَ نـاقته، وأفـاضَ إلی المزدلفه، وأمضـی فیها شـطراً من اللیل ولم یزلْ واقفاً من الفجر إلی طلوع الشـمس فی المشـعر، ثم توجَّه فی الیوم العاشـر إلی «منی» وأدّی مناسـکها من رمی الجمار والذبح والتقصـیر، ثم توجَّه نحو مکّه لأداء بقیه مناسک الحج.

وهکذا علّم رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الناسَ مناسک الحج بصوره عملیه، وحدّد أو أکّد علی مشاعره بصوره دقیقه.

ویُطلَقُ علی هذه الحجّه التاریخیه فی کتب التاریخ والحدیث «حجّه الوداع» تاره، و «حجّه البلاغ» أُخری، و «حجّه الإسـلام» ثالثه، وإنّما یُطلق کلُّ عنوان من هذه

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۱۰۲۲/۴-۱۰۲۳. ولاحظ: الخصال: ۴۸۷؛ وبحار الأنوار: ۳۸۱/۲۱ باختلاف.

العناوين على هذه الحجّه لمناسبه لا تخفى على القارئ البصير(۱).

هذا ونلفتُ نظر القُرّاء الكرام فى خاتمه هذا الفصل إلى أنّ المشهور بين المحدّثين هو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ألقى هذا الخطاب التاريخى الخالد فى يوم عرفه ولكن يذهبُ بعض المؤرّخين إلى أنّ هذه الخطبه أُلقيت فى اليوم العاشر من شهر ذى الحجّه، ويرى آخرون أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم خطب خطباً عديده فى هذه الحجّه مستغلّاً كلّ فرصه سانحه لإبلاغ مبادئ رسالته الإلهيه.(۲)

هذا وقد وقعت فى أثناء هذه الرحله المقدّسه قضايا ووقائع لطيفه وجديره بالدرس والتأمّل والتملّى، وقد تركنا ذكرها هنا رعايه للاختصار(۳).

۱- . راجع: السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۲۵/۴؛ إمتاع الأسماع: ۱۰۲/۲. هذا ولعلَ الوجه فى تسميه هذه الحجّه بالوداع؛ لأنّها آخر حجّه للنبى صلى الله عليه و آله و سلم، وبالبلاغ هو نزول قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» فى أعقابها وبالتمام والكمال هو نزول قوله تعالى: «اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى».

۲- . راجع: المغازى: ۱۱۱۱/۲، إمتاع الأسماع: ۱۱۸/۲، بحار الأنوار: ۱۱۳/۳۷.

۳- . راجع: بحار الأنوار: ۳۷۸/۲۱-۴۱۳، إمتاع الأسماع: ۱۰۲/۲-۱۲۱.

۶۳ إكمال الدين الإسلامى بتعيين الخليفه

اشاره

الخلافهُ حسب عقيده علماء الشيعه الإماميه منصبٌ إلهىّ يعطى من قبل اللّه تعالى لأفضل أفراد الأُمّه، وأصلحهم، وأعلمهم، والفرق الواضح بين الإمام والنبىّ هو: أنّ النبى مؤسّس قواعد الشريعه، وهو الّذى يوحى إليه وينزلُ عليه الكتابُ من السماء، والإمام وإن كان لا يتمتّع بأى واحد من هذه الشؤون إلّاأنّه مضافاً إلى شؤون الحكومه والقياده هو المبيّن لما جاء به رسول اللّه من الدين مّما لم يوفق - بسبب الظروف المعاكسه أو عدم الفرص المناسبه - لبيانه أو إظهاره، وترك مهمه بيانه على عاتق أوصيائه وخلفائه.

وعلى هذا الأساس فإنّ الخليفه - من وجهه نظر عقيده الشيعه الإماميه - ليس مجرّد حاكم زمنىّ للمسلمين وليس المطبق لقوانين الشريعه المقدّسه والحافظ للحقوق الاجتماعيه، والحارس لثغور المسلمين وحدود بلادهم المدافع عنها، فحسب، بل هو علاوه على كلّ ذلك الموضح لما خفى من مَعالم الدين، والمكمِّل المبيِّن لذلك الجانب من أحكام الشريعه وقوانينها الّذى لم يُبيَّن من قبَل مؤسّس الشريعه لبعض الأسباب.

أمّا الخلافه فى عقيده أهل السنّه فهى منصبٌ عادىّ وليس الهدف منها إلّا

حفظ الكيان الظاهرى والشؤون الماديه للأَمّه الإسلاميه، والخليفه لا ينصَبُ إلّا باختيار الناس وانتخابهم أحداً لشَغل منصب الحكم والقضاء وإداره الأُمور السياسيه والاقتصاديه وماشابهها، وذكر تفصيل ما بيّنه صاحبُ الشريعه من الأحكام على نحو الإجمال.

وأمّا بيانُ ما لم يوفق النبىُ لبيانه لأسباب خاصّه فهو يرتبط بعلماء الإسلام وفقهاء المسلمين فهم يعالجون ما يستجدُّ للناس من مشكلات فقهيه ودينيه من هذا النوع عن طريق الاجتهاد، والرأى.

وعلى أساس هذا الاختلاف فى الموقف من قضيه الخلافه وحقيقتها والنظره إليها انشطرت الأُمّهُ الإسلاميهُ إلى طائفتين واتجاهين لا يزالان باقيين إلى هذا اليوم.

وبناء على النظريه الأُولى يكون الإمام مشاركاً للنبىّ فى بعض شؤونه، فيُشتَرطُ فى الإمام أيضاً ما يُشترط فى النبى. وإليك الشرائط المعتبره فى النبى، الّتى تشترط فى الإمام أيضاً:

١. يجب أن يكون النبىُّ معصوماً، يعنى أن لا يحوم حول الإثم والمعصيه طول حياته أبداً، ولا يزلَّ أو يخطأ فى بيان أحكام الدين وحقائقه، وعند الإجابه عن أسئله الناس واستفساراتهم الدينيه، ويُشترط فى الإمام ذلك أيضاً، والدليلُ فى الموردين واحد.

٢. يجب أن يكون النبىُّ أعلم الناس بالشريعه، ويجب أن لا يخفى عليه شىء من مسائل الشريعه مُطلقاً؛ وهكذا يجب أن يكون الإمام أعلم الناس بأحكام الدين ومسائله لكونه مكمّلاً أو مبيّناً لما لم يبيّن من مسائل الشريعه فى زمن النبىّ.

۳. إن النبوه منصبٌ تعيينى وليس منصباً انتخابياً، بمعنى أنَّ النبىَ لا يكونُ نبيّاً إلّا إذا عيَّنهُ اللّه وابتعثه، ونُصِب فى مقام النبوّه من جانبه سبحانه؛ لأنّه تعالى دون سواه يميّز المعصوم عن غير المعصوم، وهو سبحانه دون غيره يعلم مَن بلَغ درجه العصمه عن الخطأ والمعصيه فى ظل العنايه الربانيه الغيبيه الخاصّه، بحيث يعرف كلّ تفاصيل الدين وجزئياته.

إنّ هذه الشرائط الثلاثه كما هى معتبره فى النبى، كذلك هى معتبره ومشترطه فى خليفته والقائم مقامه.

ولكن بناء على النظريه الثانيه لا يشترط أىُّ شىء من هذه الشروط المعتبره فى النبىّ، فى الخليفه فلاتجب العصمه، ولا العداله، ولا يجبُ العلم والإحاطه بالشريعه، ولا يشترط فيه التعيين من جانب اللّه، والارتباط بعالم الغيب، بل يكفى فى استحقاق الخلافه أن يكون الشخصُ قادراً فى ظلّ ذكائه، ومشوره المسلمين على حفظ الكيان الإسلامىّ، وقادراً على إقرار الأمن فى البلاد بتطبيق قوانين الشريعه الجزائيه، كما ويتمكّن من توسيع رقعه الأَرض الإسلاميه فى ظل الدعوه إلى الجهاد.

وعلينا الآن أن نعالج هذه المسأله (أى هل الخلافه والامامه منصبٌ تنصيصى أو انتخابى؟ وهل على النبى أن يعيّن بنفسه مَن يخلفه، أو يوكل الأمر إلى الأُمّه لتختار من تريد؟) وندرسها فى ضوء المحاسبات الاجتماعيه ليلمس القارئ بوضوح أنَّ الأحوال والظروف الاجتماعيه كانت توجبُ أن يقوم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بتعيين خليفته فى حياته، ويحلّ بذلك مشكله الخلافه من بعده، ولا يوكل الأمر إلى الأُمّه.

واليك توضيح هذا القسم وبيانه:

اقتضاءُ المحاسبات الاجتماعيه فی مسأله الخلافه

اشاره

لاشکّ فی أنّ الـدین الإسـلامی دینٌ عالمی، وشـریعه خاتمه، وقـد کانت قیادهُ الأُمّه الاسـلامیه من شؤون النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله و سلم مادام علی قید الحیاه، وکان علیه أن یوکل مقام القیاده من بعده إلی أفضل أفراد الأُمّه وأکملهم.

إنّ فی هذه المسأله – وهی أنّ منصب القیاده بعد النبی صـلی الله علیه و آله و سلم هل هو منصب تنصیصی تعیینی أو أنّه منصب انتخابی؟ – اتّجاهین:

فالشیعه یَرون أنّ مقام القیاده منصبٌ تنصیصیٌ ولابد أن یتعیَّن خلیفه النبی من جانب اللّه سبحانه.

بینمـا یری أهـل السـنّه أنّ هـذا المنصب منصبٌ انتخـابی جمهوری، أی أنّ علی الأُمّه أن تقوم بعـد النبی باختیار فرد من أفرادها لإداره البلاد.

إنّ لکـلّ من الاتّجـاهین المـذکورین دلائـل ذکرها أصـحابُهما فی الکتب العقائـدیه، إلّاأنّ ما یمکن طرحه هنا هو تقییم ودراسـه المسأله فی ضوء دراسه وتقییم الظروف السائده فی عصر الرساله، فإنّ هذه الدراسه کفیلهٌ بإثبات صحّه هذا الاتّجاه أو ذاک.

إنّ تقییم الأوضـاع السیاسـیه داخـل المنطقه الإسـلامیه وخارجها فی عصـر الرساله یقضـی بأنّ خلیفه النبیّ کان لابـدّ أن یعیَّن من جـانب اللّه تعـالی، ولا یترک الأمر من دون مثل هـذا التعیین الإلهی، فإنّ المجتمع الإسـلامی کان مهـدداً علی الـدوام من جانب الخطر الثلاثی (الروم – إیران – المنافقون) بشنّ الهجوم الکاسح، وإلقاء بذور الفساد والاختلاف بین المسلمین.

کما أنّ مصالح الأُمّه کانت توجبُ أن توحّدَ صفوف المسلمین فی مواجهه

الخطر الخارجی وذلک بتعیین قائد سیاسیّ من بعده، وبذلک یسدّ الطریق علی نفوذ العدوّ فی جسم الأمّه الإسلامیه والسیطره علیها، وعلی مقدّراتها.

وإلیک بیان وتوضیح هذا المطلب:

لقد کانت الامبراطوریه الرومیّه أحد أضلاع المثلث الخطر الّذی یحیط بالکیان الإسلامی ویتهدّده من الخارج والداخل.

وکانت هذه القوه الرهیبه تتمرکز فی شمال الجزیره العربیه، وکانت تشغلُ بالَ النبی القائد علی الدوام حتّی إنّ التفکیر فی أمر الروم لم یغادرْ ذهنه وفکره حتّی لحظه الوفاه، والالتحاق بالرفیق الأعلی.

وکانت أوّل مواجهه عسکریه بین المسلمین، والجیش المسیحیّ الرومی وقعت فی السنه الهجریه الثامنه فی أرض فلسطین وقد آلتْ هذه المواجهه إلی مقتل القاده العسکریین البارزین الثلاثه وهم: «جعفر الطیار»، و «زید بن حارثه»، و «عبد اللّه بن رواحه».

ولقد تسبّب انسحاب الجیش الإسلامی بعد مقتل القاده المذکورین إلی تزاید جرأه الجیش القیصری المسیحی فکان یخشی بصوره متزایده أن تتعرّض عاصمه الإسلام للهجوم الکاسح من قبل هذا الجیش.

من هنا خرج رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی السنه العاشره للهجره علی رأس جیش کبیر جداً إلی حدود الشام لیتصدی بنفسه إلی أیّه مواجهه عسکریه یقوم بها العدو، وقد استطاع الجیش فی هذه الرحله الصعبه والمضنیه أن یستعید هیبته الغابره ویجدّد سلطته السیاسیه.

غیر أنَّ هذا الانتصار المحدود لم یُقنِعْ رسولَ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فأعدّ قُبَیل مرضه جیشاً کبیراً من المسلمین وأمَّر علیهم «أُسامه بن زید»، وکلّفهم بالتوجّه إلی حدود

الشام، والحضور فی تلک الجبهه.

أمّا الضلعُ الثانی من المثلّث الخطیر الّذی کان یتهدّد الکیان الإسلامی فکان الامبراطوریه الإیرانیه (الفارسیه) وقد بلغ من غضب هذه الامبراطوریه علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ومعاداتها لدعوته أن أقدم امبراطور إیران: «خسرو پرویز» علی تمزیق رساله النبی صلی الله علیه و آله و سلم وتوجیه الإهانه إلی سفیره باخراجه من بلاطه والکتابه إلی والیه وعمیله بالیمن بأن یوجّه إلی المدینه مَن یقبض علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، أو یقتله إن امتنع!!

و «خسرو» هذا وإن قُتِلَ فی زمن رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلّاأنّ موضوع استقلال الیمن - الّتی رزحت تحت استعمار الامبراطوریه الإیرانیه ردحاً طویلاً من الزمان - لم یغبْ عن نظر ملوک إیران آنذاک، وکان غرور أُولئک الملوک وتجبّرهم، وکبریاؤهم لا یسمح بتحمّل منافسه القوه الجدیده (القوه الإسلامیه) لهم.

والخطر الثالث کان هو خطر حزب النفاق الّذی کان یعمل بین صفوف المسلمین - فی صوره الطابور الخامس - علی تقویض دعائم الکیان الإسلامی من الداخل إلی درجه أنّهم قصدوا اغتیال رسول اللّه، فی طریق العوده من تبوک إلی المدینه.

فقد کان بعضُ عناصر هذا الحزب الخطر یقول فی نفسه: إنّ الحرکه الإسلامیه سینتهی أمرها بموت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ورحیله وبذلک یستریح الجمیع(۱).

ولقد قام أبوسفیان بن حرب بعد وفاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بمکیده مشؤومه لتوجیه ضربه إلی الأُمّه الإسلامیه من الداخل، وذلک عندما أتی علیّاً علیه السلام وعرض

۱- . قال سبحانه: «أَمْ یَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَیْبَ الْمَنُونِ» الطور: ۳۰.

علیه أن یبایعه فی مقابل من عیّنه رجالُ السقیفه، لیستطیع بذلک تشطیر الأمّه الإسلامیه الواحده إلی شطرین متحاربین متقاتلین فیتمکّن من التصیّد فی الماء العکر.

ولکن الإمام علیاً علیه السلام أدرک بذکائه البالغ نوایا أبی سفیان الخبیثه، فرفض مطلبه وقال له کاشفاً عن دوافعه ونوایاه الشریره:

«واللّه إنّک ما أردت بهذا إلّاالفتنه، وإنّک واللّه طالما بغیت للإسلام شراً...

لاحاجه لنا فی نصیحتک»!!(۱).

ولقد بلغ دورُ المنافقین التخریبی من الشدّه بحیث تعرّض القرآن لذکرهم فی سُور عدیده هی آل عمران، والنساء، والمائده، والأنفال، والتوبه، والعنکبوت، والأحزاب، ومحمَّد، والفتح، والمجادله، والحدید، والمنافقین، والحشر.

فهل مع وجود هؤلاء الأعداء الخطرین والأقویاء الذین کانوا یتربّصون بالاسلام الدوائر، ویتحیّنون الفرص للقضاء علیه یصحُّ أن یترک رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أُمّته الحدیثه العهد بالإسلام، الجدیده التأسیس من دون أن یعیّن لهم قائداً دینیاً سیاسیاً؟

إنّ المحاسبات الاجتماعیه تقول: إنّه کان یتوجّب أن یمنع رسول الإسلام بتعیین قائد للأُمّه، من ظهور أیّ اختلاف وانشقاق فیها من بعده، وأن یضمن استمرار وبقاء الوحده الإسلامیه بإیجاد حصن قوی وسیاج دفاعی متین حول تلک الأُمّه.

إنّ تحصین الأُمّه، وصیانتها من الحوادث المشؤومه، والحیلوله دون حدوث ظاهره مطالبه کلّ فریق الزعامه لنفسه دون غیره، وبالتالی التنازع علی مسأله

۱- . الکامل فی التاریخ: ۳۲۶/۲؛ تاریخ الطبری: ۴۴۹/۲.

الخلافه والزعامه لم يكن ليتحقّق إلّابتعيين قائد للأمّه، وعدم ترك الأمور للقدر.

إنّ المحاسبه الاجتماعيه تهدينا إلى صحّه نظريه «التنصيص على القائد بعد رسول اللّه»، ولعلَّ لهذه الجهه، ولجهات أُخرى طرح رسول الإسلام مسأله الخلافه فى الأيام الأُولى من ميلاد الرساله الإسلاميه وظلَّ يواصل طرحها والتذكير بها طول حياته حتى الساعات الأخيره منها حيث عيَّن خليفتَه ونصَّ عليه بالنص القاطع الواضح الصريح فى بدء دعوته، وفى نهايتها أيضاً.

واليك بيان كلا هذين المقامين:

١. النبوّه والإمامه توأمان

بغضّ النظر عن الأدلّه العقليه على صحّه المحاسبه الاجتماعيه الّتى تثبت حقّانيه الرأى الأوّل بصوره قطعيه، هناك أخبار وروايات وردت فى المصادر المعتبره تثبت صحّه الموقف والرأى الذى ذهب إليه علماء الشيعه، وتصدّقه، فقد نصّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم على خليفته من بعده فى الفتره النبويه من حياته مراراً وتكراراً، وأخرج موضوع الإمامه من مجال الانتخاب الشعبى، والرأى العام.

فهو لم يعيّن (ولم ينصّ على) خليفته ووصيّه من بعده فى أُخريات حياته فحسب، بل بادر إلى التعريف بخليفته ووصيّه فى بدء الدعوه يوم لم ينضو تحت رايه رسالته بعدُ سوى بضع عشرات من الأشخاص، وذلك يوم أُمر من جانب اللّه العلى القدير أن ينذر عشيرته الأقربين من العذاب الإلهى الأليم، وأن يدعوهم إلى عقيده التوحيد قبل أن يصدع برسالته للجميع ويبدأ دعوته العامّه للناس كافّه.

فجمع أربعين رجلًا من زعماء بنى هاشم وبنى المطلب ثم وقف فيهم خطيباً فقال:

«أيّكم يؤازرُنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم».

فأحجم القوم، وقام على عليه السلام وأعلن مؤازرته وتأييده له، فأخذ رسول اللّه برقبته والتفت إلى الحاضرين وقال:

«إنَّ هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم»(۱).

وقد عُرِفَ هذا الحديث عند المفسّرين والمحدّثين ب: «حديث يوم الدار» و «حديث بدء الدعوه».

على أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يكتف بالنص على خليفته فى بدء رسالته، إنّما صرّح فى مناسبات شتّى، فى السفر والحضر، بخلافه على عليه السلام من بعده ولكن لايبلغ شىء من ذلك فى الاهميه والظهور والصراحه والحسم مابلغه حديث الغدير.

۲. قصّه الغدير

لمّا انتهت مراسيم الحج، وتعلّم المسلمون مناسكه عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قرّر رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الرحيل عن مكّه، والعوده إلى المدينه، فأصدر أمراً بذلك.

ولمّا بلغ موكبُ الحجيج العظيم إلى منطقه «رابغ»(۲) التى تبعد عن «الجحفه»(۳) بثلاثه أميال (أى ما يعادل ۴/۸۳ كيلومتراً) نزل أمين الوحى جبرئيل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بمنطقه تُدعى «غدير خم» وخاطبه بالآيه التاليه: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ

۱- . تاريخ الطبرى: ۶۳/۲؛ الكامل فى التاريخ: ۶۲/۲-۶۳.

۲- . رابغ تقع الآن على الطريق بين مكّه والمدينه.

۳- . من مواقيت الإحرام وتنشعب منها طرق المدنيّين والمصريّين والعراقيّين.

اَلنّاسِ» (۱).

إنّ لسان الآیه وظاهرها یکشف عن أنّ اللّه تعالی ألقی علی عاتق النبی صلی الله علیه و آله و سلم مسؤولیه القیام بمهمه خطیره، وأی أمر أکثر خطوره من أن ینصّب علیاً علیه السلام لمقام الخلافه من بعده علی مرأی ومسمع من مائه ألف شاهد.

من هنا أصدر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أمرهُ بالتوقّف، فتوقفتْ طلائعُ ذلک الموکب العظیم، والتحق بهم من تأخَّر.

لقد کان الوقت وقت الظهیره، وکان الجوُ حاراً إلی درجه کبیره جداً، وکان الشخص یضعُ قسماً من عباءته فوق رأسه والقسم الآخر منها تحت قدمیه، وصُنِعَ للنبی صلی الله علیه و آله و سلم مظلّهٌ وکانت عباره عن عباءه أُلقیت علی أغصان شجره (سمُره)، وصلّی رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بالحاضرین الظهر جماعه، وفیما کان الناسُ قد أحاطوا به صعدَ صلی الله علیه و آله و سلم علی منبر أُعِدَّ من أحداج الإبل وأقتابها، وخطب فی الناس رافعاً صوته وهو یقول: «الحمدُللّه وَنَسْتعینُهُ وَ نُؤْمن به وَنَتوکَّلُ عَلَیهِ وَنَعُوذُ بِهِ مِن شُرُور أنفُسنا وَ مِنْ سیئاتِ أعمالِنا، الذی لا هادیَ لِمَنْ ضَلَّ وَ لا مُضِلَّ لِمَنْ هَدی، وَ أَشهَدُ أَنْ لا إله إلّا هو وأنّ محمَّداً عبده ورسوله.

أمّا بَعْد، أیّها الناس قَد نَبَّأَنی اللطیفُ الخبیرُ أنّه لم یعمَّر نبیٌ إلّامثلَ نصف الذی قبلَهُ، وإنّی أُوشک أن أُدعی فأُجیبُ، وأنّی مسؤول وأنتمْ مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهَدُ أنَّک قد بَلّغتَ ونصحت وجهَدت فجزاک اللّه خیراً، قال صلی الله علیه و آله و سلم:

«ألستُمْ تشهدون أن لا إله إلّااللّه وأنّ مُحمَّداً عبدُه وَ رَسُولُهُ، وَ أَنَّ جنَّته حقّ،

۱- . المائده: ۶۷.

وَ أَنَّ الساعه آتیهٌ لاریب فیها، وَ إنّ اللّه یبعث مَنْ فی القبور»؟

قالوا: بلی نشهدُ بذلک.

قال صلی الله علیه و آله و سلم:

«اللّهمَّ اشْهَدْ».

ثم قال صلی الله علیه و آله و سلم:

«إنّی تارکٌ فیکمُ الثِقلین ما إن تمسَکْتُمْ بِهما لَنْ تَضِلّوا أبداً».

فنادی مناد: بأبی أنت وأُمّی یارسول اللّه، وما الثقلان؟

فقال صلی الله علیه و آله و سلم:

«کِتابُ اللّه سَبَبٌ طرفٌ بید اللّه وَطرفٌ بأیدیکم فتمسکُوا به، والآخرُ عترتی؛ وإنَ اللطیف الخبیرَ نبّأنی أنَّهما لَن یفترقا حتی یَردا عَلیَّ الحوضَ، فلا تقدموهما فتهلکوا، ولا تقصّروا عنهما فتهلکوا».

وهنا أخذ بید «علی» علیه السلام ورفعها حتی رؤی بیاضُ آباطهما وعرفه الناس أجمعون ثم قال:

«أیّها الناس من أولی الناس بالمؤمنین من أنفسهم؟».

قالوا: اللّه ورسوله أعلم.

فقال صلی الله علیه و آله و سلم:

«إنّ اللّه مولایَ وأنا مولی المؤمنین وأنا أولی بهم من أنفسهمْ، فمَن کنتُ مولاه فعلیٌّ مولاه(۱)، اللّهمَّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه، وانصرْ مَن نصره، واخذل

۱- . لقد کرّر النبی صلی الله علیه و آله و سلم هذه العباره ثلاث مرات دفعاً لأی التباس أو اشتباه.

مَن خذله، وأحب مَن أحبه وأبغض مَن أبغضه، وأدر الحقّ معه حيث دار»(۱).

واقعه الغدير خالده إلى الأبد

لقد تعلّقت المشيئةُ الربانيه بأن تبقى واقعه الغدير التاريخيه فى جميع القرون والعصور كتاريخ حىّ يجتذب القلوب والأفئده، ويكتب عنه الكتّاب الإسلاميون فى كلّ عصر وزمان ويتحدّثون حوله فى مؤلّفاتهم المتنوّعه فى مجال التفسير والتاريخ والحديث والعقائد، كما يتحدّث حوله الخطباء فى مجالس الوعظ ومن فوق صهوات المنابر، ويعتبرونها من فضائل الإمام «على» الذى لا يتطرّق اليها أى شكّ أو ريب.

ولم يقتصرْ هذا على الكتّاب والخطباء بل استلهم الشعراء من هذه الواقعه الكبرى التى فجرت بالتفكير حول هذه الحادثه، وبالإخلاص لصاحب الولايه ينابيع التعبير فى وجودهم فأنشأوا أروع القصائد، وجادت قرائحهم بأنواع مختلفه من القصيد الجميل، وخلّفوا لِمن بعدهم وبلغات مختلفه آثاراً أدبيه ولائيه خالده.

ولهذا قلّما نجدُ حادثه تاريخيه حظيت فى العالم البشرى عامّه وفى التاريخ الإسلامى والأُمّه الإسلاميه خاصّه بمثل ما حظيت به واقعه الغدير، وقلّما استقطبت

۱- . ورد حديث الغدير فى كتب أهل السنّه وصحاحهم بأسانيد معتبره وطرق متعدّده وألفاظ مختلفه ومضمون واحد: لاحظ مسند أحمد: ۲۸۱/۴ و ۳۷۲ و ج ۳۶۶/۵ و ۳۷۰؛ سنن ابن ماجه: ۴۵/۱ برقم ۱۲۱؛ سنن الترمذى: ۲۹۷/۵ برقم ۳۷۹۷؛ مستدرک الحاکم: ۱۰۹/۳-۱۱۰ و ص ۵۳۳؛ مجمع الزوائد: ۱۰۳/۹-۱۰۹، باب قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «من كنت مولاه فعلىّ مولاه» وغيرها كثير. وراجع للوقوف الكامل على مصادر هذا الحديث المتواتر موسوعه الغدير للعلّامه الأمينى.

اهتمام الفئات المختلفه من المحدّثين والمفسّرين والكلاميّين والفلاسفه، والشعراء والأدباء، والكتّاب والخطباء، وأرباب السير والمؤرّخين كما استقطبت هذه الحادثه، وقلّما اعتنوا بشيء مثلما اعتنوا بها.

إنّ من أسباب خلود هذه الواقعه الكبرى و دوام هذا الحديث هو: نزول آيتين من آيات القرآن الكريم فيها(۱)، فما دام القرآن الكريم باقياً مستمراً يتلى آناء الليل وأطراف النهار تبقى هذه الحادثه فى الأذهان والنفوس ولا يُمحى ذكرها من العقول والقلوب.

وحيث إنّ المجتمع الإسلامى فى العصور الغابره وكذا الطائفه الشيعيه كانوا يعتبرون هذا اليوم عيداً كبيراً من الأعياد الدينيه، وكانوا يقيمون فيها مايقيمونه من المراسيم فى الأعياد الإسلاميه، لهذا فإنّ هذه الحادثه التاريخيه (حادثه الغدير) قد اتّخذت طابع الأبديّه والخلود الذى لا يُمحى ذكرها من الأذهان والخواطر.

هذا ويُستفاد من مراجعه التاريخ بوضوح أنّ اليوم الثامن عشر من شهر ذى الحجّه الحرام كان معروفاً بين المسلمين بيوم عيد الغدير وكانت هذه التسميه تُحظى بشهره كبيره إلى درجه أنّ ابن خلّكان يقول حول «المستعلى بن المستنصر»: وبويع فى يوم غدير خمّ، وهو الثامن عشر من شهر ذى الحجّه سنه ۴۸۷(۲).

وقال فى ترجمه المستنصر باللّه العبيدى: وتوفّى ليله الخميس لاثنتى عشره ليله بقيت من ذى الحجّه سنه سبع وثمانين وأربعمائه، قلت: وهذه هى ليله عيد

۱- . المائده: ۳ و ۶۷.

۲- . وفيات الأعيان: ۱۸۰/۱.

الغدير، أعنى: ليله الثامن عشر من شهر ذى الحجّه، وهو غدير خم(۱).

وقد عدّه أبو ريحان البيرونى فى كتابه «الآثار الباقيه» ممّا استعمله أهل الإسلام من الأعياد(۲).

وليس ابن خلّكان وأبو ريحان البيرونى، هما الوحيدان اللّذان صرّحا بكون هذا اليوم هو عيد من الأعياد، بل هذا الثعالبىّ قد اعتبر هو الآخر ليله الغدير من الليالى المعروفه بين المسلمين(۳).

إنّ عهد هذا العيد الإسلامى وجذوره ترجع إلى نفس يوم «الغدير»؛ لأنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم أمر المهاجرين والأنصار، بل أمر زوجاته ونساءه فى ذلك اليوم بالدخول على «علىّ» عليه السلام وتهنئته بهذه الفضيله الكبرى.

يقول زيد بن أرقم: كان أوّل مَن صافق النبى صلى الله عليه و آله و سلم وعلياً: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحه والزبير وباقى المهاجرين والانصار وباقى الناس(۴).

الدلائل الأُخرى على أبديّه الغدير

ويكفى فى أهميّه هذا الحدث التاريخى أنّ هذه الواقعه التاريخيه رواها مائه وعشره صحابىّ، على أن هذه العباره لاتعنى أنّ روايه هذه الواقعه اقتصرت على هؤلاء المائه والعشره من ذلك الحشد الهائل، بل يعنى أنّ هؤلاء جاء ذكرهم فى كتب أهل السنّه ومصنّفاتهم.

صحيح أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ألقى خطابه المذكور الذى تضمّن نصب علىّ عليه السلام

۱- . وفيات الأعيان: ۲۳۰/۵.

۲- . الآثار الباقيه فى القرون الخاليه: ۳۳۴، نقلاً عن الغدير: ۲۶۷/۱.

۳- . ثمار القلوب: ۵۱۱، ط القاهره، نقلاً عن الغدير: ۲۶۸/۱.

۴- . راجع مصدره فى الغدير: ۲۷۰/۱ (حديث التهنئه).

للخلافه فی مائه ألف أو یزیدون من الناس، ولکنّ کثیراً منهم کانوا قد أتوا من مناطق نائیه من الحجاز، ولهذا لم یُروَ عنهم هذا الحدیث، کما أنّ کثیراً من الذین حضروا ذلک المشهد التاریخی العظیم رووا ونقلوا للآخرین هذا الحدیث ولکنّ التاریخ لم یوفق لذکر أسمائهم، أو إذا تمّ ذلک لکن لم یصلْ إلینا.

ثم إنّه روی هذا الحدیث فی القرن الثانی الإسلامی وهو عصر التابعین تسعه وثمانون تابعیاً.

وقد بلغ عددُ من روی حدیث «الغدیر» فی القرون اللاحقه فی کتابه من علماء أهل السنّه وفضلائهم ثلاثمائه وستون شخصاً، وصحَّحهُ جمعٌ کبیرٌ منهم واعترفوا بتواتره.

ففی القرن الثالث رواه اثنان وتسعون عالماً.

وفی القرن الرابع رواه أربعه وأربعون.

وفی القرن الخامس رواه أربعه وعشرون.

وفی القرن السادس رواه عشرون.

وفی القرن السابع رواه واحدٌ وعشرون.

وفی القرن الثامن رواه ثمانیه عشر.

وفی القرن التاسع رواه ستهُ عشر.

وفی القرن العاشر رواه أربعهُ عشر.

وفی القرن الحادی عشر رواه اثنا عشر.

وفی القرن الثانی عشر رواه ثلاثهُ عشر.

وفی القرن الثالث عشر رواه اثنا عشر.

وفی القرن الرابع عشر رواه عشرون عالماً.

ولم يكتف البعض بنقل وروايه هذا الحديث فى كتبهم ومؤلَّفاتهم بل ألّفوا حوله رسائل أو كتباً مستقله.

وقد ألّف المؤرّخ الإسلامى الكبير «الطبرى» كتاباً فى هذا المجال أسماه «الولايه فى طرق حديث الغدير» روى فيه هذا الحديث عن النبى بخمس وسبعين سنداً.

ولقد روى «ابن عقده» فى رساله «الولايه» هذا الحديث بمائه وخمسين سنداً.

وروى أبوبكر محمَّد بن عمر البغدادى المعروف بالجمعانى هذا الحديث بخمس وعشرين سنداً.

كما روى من علماء الحديث هذه الواقعه نظراء:

أحمد بن حنبل الشيبانى ب: ۴۰ سنداً.

ابن حجر العسقلانى ب: ۲۵ سنداً.

الجزرى الشافعى ب: ۸۰ سنداً.

أبو سعيد السجستانى ب: ۱۲۰ سنداً.

الأمير محمَّد اليمنى ب: ۴۰ سنداً.

النسائى ب: ۲۵۰ سنداً.

أبو العلاء الهمدانى ب: ۱۰۰ سند.

أبو العرفان الحبّان ب: ۳۰ سنداً.

وبلغ عددُ من ألّف رساله خاصّه أو كتاباً مستقلّاً حول هذه الواقعه وخصوصياتها وتفاصيلها ۲۶ شخصاً، ولعلَّ هناك غيرُهم ممّن ألّف كتاباً أو رساله مستقلّه حولَ هذا الحدث التاريخى الهامّ لم يذكر التاريخُ أسماءهم، أو ضاعت

مؤلّفاتُهم بسبب الحوادث والمصائب التى طرأت على الأمّه الإسلاميه وضيَّعت الكثير من تراثها الفكرىّ خلال عمليات الإغاره والنهب أو الهدم والإحراق (ولقد اقتبسنا كلّ هذه الإحصاءات من كتاب الغدير).(۱)

ولقد كتب علماء الشيعه كتباً قيّمه حول هذه الواقعه أجمعُها وأشملُها كتابُ «الغدير» بقلم العلّامه الجليل والكاتب الإسلامى القدير المرحوم آيه اللّه الشيخ الأمينى رضى الله عنه والذى يقع فى أحد عشر مجلداً فى مايقرب من سته آلاف صفحه، وقد استفدنا كثيراً من تلك الموسوعه فى تنظيم الفصل الحاضر.

ثم إنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يلبث أن نزل عليه قوله تعالى بعد نصبه عليّاً لإمره المسلمين فى تلك الواقعه:

«اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» .(۲)

فكبَّر النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم بصوت عال ثم أضاف قائلاً:

«الحمد للّه على إكمال الدين وإتمام النعمه ورضى الربِّ برسالتى، وولايه علىّ بن أبى طالب من بعدى».

ثم نزل رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من ذلك المنبر المصنوع من أحداج الإبل وأمر أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام أن يجلس فى خيمه وأمر كافّه الناس وكلَّ من حضر المشهد من أُمّته، ومنهم الشيخان ومشيخه قريش ووجوه الأنصار، كما أمر أُمّهات المؤمنين بالدخول على أمير المؤمنين عليه السلام وتهنئته على تنصيبه لمنصب الإمامه والخلافه بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

۱- . راجع: الغدير: ۱۴/۱-۱۵۹.

۲- . المائده: ۳.

ففعل الناسُ ذلك وانكبوا على «على» عليه السلام بأيديهم وكان أوّل من صافق وهنأ عليّاً أبوبكر وعمر واصفين إيّاه بالولايه.

وهنا قام «حسان بن ثابت الأنصارى» شاعر الإسلام واستأذن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى أن ينشد شعراً بهذه المناسبه، فأذِنَ له رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قائلاً: قل على بركه اللّه.

فقام حَسانُ وقال:

يُناديهمُ يومَ الغديرِ نبيّهُمْ بخُمٍّ وَ أَسمِعْ بالنبيِّ منادياً

وقد جاءهُ جبريلُ عن أمر ربِّه بأنّكَ معصومٌ فَلا تكُ وانيا

وَبَلّغهُمُ ماَ أَنزَلَ اللّه ربُّهُمْ إليك ولا تخش هناك الأعاديا

فقامَ به إذ ذاك رافعَ كفّهِ بكف عليٍّ معلنَ الصوت عالياً

فقالَ فمن مولاكُمُ ووليُّكُمْ فقالوا ولم يُبدُوا هناك تعاميا

إلهكَ مَولانا وأنتَ وليّنا ولن تجدنْ فينا لَكَ اليوم عاصيا

فقالَ له: قمْ يا عليُّ فإننى رضيتك من بعدى إماماً وهاديا

فمن كنتُ مولاهُ فهذا وليّه فكونوا له أنصار صدق مُواليا

هناكَ دعا اللّهمَ وال وليّه وكُنْ للذى عادى عَلياً معادياً

فياربِّ انصرْ ناصريه لنَصرهم إمام هُدى كالبدر يَجْلُو الدياجيا(۱)

ولقد كان هذا الحديث على مدى التاريخ الإسلامى أكبر دليل على أفضليه على عليه السلام على جميع صحابه النبى صلى الله عليه و آله و سلم كافّه، حتى أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام احتجّ به مراراً فقد احتجّ به فى مجلس الشورى الذى عقد لتعيين الخليفه عقيب وفاه الخليفه

۱- . لاحظ: الغدير: ۳۹/۲ (غديريه حسّان بن ثابت).

الثانی، وفی أیام خلافه عثمان، وفی أیام خلافته علیه السلام أیضاً، کما أنّ شخصیات کثیره من وجوه المسلمین احتجّوا به علی منکری حقّ علیّ وأفضلیته وکان ذلک دأبهم دائماً وأبداً.

ص:۷۳۶

۶۴ ۱. المتنبّئون کَذباً

اشاره

۶۴ ۱. المتنبّئون کَذباً(۱)۲. التفکیر فی أمر الروم

بعد الانتهاء من مراسم تعیین الخلیفه فی «غدیر خم» انفصلتْ جُموعُ الحجیج المشارکه فی مراسم «حجّه الوداع» من الوافدین من الشام ومصر، عن النبی صلی الله علیه و آله و سلم فی أرض الجحفه والذین شارکوا فی هذه المراسم من «حضرموت» و «الیمن» انفصلوا عنه فی هذه النقطه أو فی نقطه سابقه وقفلوا راجعین إلی أوطانهم.

ولکنَّ العشره آلاف الذین خَرجوا مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عادوا مع النبی صلی الله علیه و آله و سلم إلی المدینه، ووَصلوها قبل أن تأتی السنه العاشره من الهجره علی نهایتها.

کان رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم والمسلمون فرحین جداً لانتشار الإسلام فی شتّی نقاط

۱- . کانت مراسله مسیلمه للنبی صلی الله علیه و آله و سلم فی نهایات السنه الهجریه العاشره، وکذا ادّعاء الأسود العنسی للنبوّه، وقد دمجنا ذکرهما فی حوادث الفصل الرابع والستین تقلیلاً لفصول هذا الکتاب.

الجزیره العربیه، ولانتهاء عهد الحاکمیه الوثنیّه والشرک فی کلّ مناطق الحجاز، وبالتالی لزوال جمیع الموانع والعراقیل التی کانت تحول دون نفوذ الإسلام وانضواء الناس تحت لوائه المبارک.

لم یکن شهر ذی الحجّه من السنه العاشره قد انتهی بعدُ یوم قدم نفران من «الیمامه» المدینه، وسلّما کتاباً من مسیلمه الذی عُرفَ فیما بعد ب «مسیلمه الکذّاب» إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

ففتح أحد کتّاب النبی صلی الله علیه و آله و سلم الرساله وقرأها علیه، فکان مضمونها أنّ شخصاً بالیمامه یُدعی «مسیلمه» یدَّعی النبوّه ویشرک نفسه مع رسول الإسلام فی أمر الرساله، ویرید من خلال کتابه أن یُبلغ النبی صلی الله علیه و آله و سلم بذلک ویعرّفه بنبوّته.

وقد أثبتت کتب السیر والتواریخ الإسلامیه نصَّ الکتاب المذکور. ویوحی أُسلوب الرساله المذکوره بأنّ صاحبها أراد تقلید الأُسلوب القرآنی فی البیان والتعبیر، ولکن محاولته باءت بالفشل، فلم یستطع تقلیده، وأتی بعبارات خاویه خالیه من الروح، یفوقها الکلامُ العادی فی القوه بدرجات.

فلقد کتب «مسیلمه» فی کتابه هذا:(۱).

أمّا بعد، فإنّی قد أُشرکتُ فی الأمر معَک، وإنّ لنا نصف الأَرض، ولقریش نصف الأرض، ولکنّ قریشاً قوم یعتدون.

قال نعیم بن مسعود الأشجعی: سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یقول لهما حین قرأ کتابه: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول کما قال، فقال: «أما واللّه لَولا أنّ الرُّسُل لاتُقْتَل لضربتُ أعناقکما».

۱- . ومن شدّه جهله أنّه لم یبدأ کتابه بِاسم اللّه، بل ولم یفعل مافعله حتی المشرکون فی العهد الجاهلی.

ثم إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أملى على كاتبه كتاباً إلى مسيلمه قصير المحتوى، مفحم المفاد. واليك نصّ رساله النبى صلى الله عليه و آله و سلم:

«بِسْم اللّه الرحمن الرحيم.

مِن محمَّد رسول اللّه إلى مسيلمه الكذّاب السلام على مَن اتبعَ الهُدى.

أمّا بعد فإنَّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبه للمتّقين»(۱).

لمحه عابره عن هويه مسيلمه

كان مسيلمه من الأشخاص الذين وفَدوا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى المدينه فى السنه العاشره من الهجره وأسلم فى مَن أسلم، ولكنّه بعد أن عاد إلى موطنه ادّعى النبوّه، وأجابه طائفه من السذّج والبسطاء، وربما من المتعصّبين من قومه.

ولم يكن نجاح دعوته الباطله فى «اليمامه» دليلاً على شخصيته الواقعيه، بل التفّ حوله فريق ممّن تبعه تعصّباً وحميّه مع أنّهم علموا بكذبه، وزيف دعوته، إذ كانوا يقولون: «كَذّاب ربيعه أحبُ إلينا من صادق مضَر» وقد قال هذه العباره أحدُ أتباعه لمّا سأل مسيلمه ذات مره: مَن يأتيك؟ قال: رحمان، قال: أفى نور أو فى ظلمه؟ فقال: فى ظلمه، فقال: أشهد أنّك كذابٌ وأنّ محمَّداً صادقٌ، ولكن كذّاب ربيعه أحبُّ إلينا من صادق مضَر(۲).

إن من المسلَّم أنّ الرجل قد ادّعى النبوّه، وتبعه على ذلك فريق من قومه،

۱- . السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۱۹/۴؛ إمتاع الأسماع: ۲۲۹/۱۴-۲۳۰. وتكفى مقارنهُ بسيطه بين نصّ الكتابين فى معرفه حقيقه الشخصين.

۲- . تاريخ الطبرى: ۵۰۸/۲؛ إمتاع الأسماع: ۵۲۹/۱۴. ويقصد بالأوّل مسيلمه، وبالثانى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

ولكنّه لم يثبت قط أنّه تصدّى لمعارضه القرآن، وما أثر عنه - فى النصوص التاريخيه - من عبارات وجُمَل فى معارضه القرآن، لايمكن أن تكون من كلام رجل فصيح كمسيلمه؛ لأنّ عباراته العاديه وأحاديثه الأُخرى فى غايه البلاغه والإتقان، فكيف تصدر منه هذه العبارات الضعيفه؟!

ولهذا يمكن القول بأنّ ما نقل عنه - على غرار ما نُقِل عن معاصره «الأسود بن كعب العنسى» الذى ادّعى النبوّه معه فى اليمن - إنّما هى أُمورٌ نُسِبت إليه، وأُلصِقت به إلصاقاً لأسباب خاصّه؛ لأنّ عظمه القرآن وبلاغته الفائقه فى حدٍّ لايجرُؤ معها أحدٌ على التفكير فى معارضه القرآن ومقابلته، ويعلم كلُّ عربيٍّ بحكم فطرته الإلهيه أنَّ هذا الأُسلوب الجذّاب وأنّ عظمه المعانى القرآنيه وسموّها تجعل القرآن الكريم فوق حدود الطاقه البشريه، فكيف يحاول أحد معارضته ومقابلته؟!

ثم إنّ مواجهه المرتدّين من العرب كان أوّل ما قام به الخلفاء بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، ولهذا حُوصرت منطقه «مسيلمه» من قبل جنود الإسلام، وضيّق عليه الحصار شيئاً فشيئاً، حتى إذا اتّضحت هزيمه ذلك الكذّاب، قال له بعض أتباعه السذَّج: أين ما كنت تعدُنا (من النصر الإلهى)؟ فقال مسيلمه: أمّا الدين فلا، قاتلوا عن أحسابكم.

ولكنّ الدفاع عن الأحساب والكرامه لم يُفد مسيلمه ولا أتباعه شيئاً، فقد قُتِلَ هو وفريق منهم فى بستان على أيدى المسلمين، وانتهت بذلك خرافه نبوته المدّعاه(۱).

إنّ هذه العباره القصيره تكشف عن أنّه كان رجلاً فصيحاً وناطقاً بليغاً، كما

۱- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۵۱۴/۲-۵۱۶.

أنّها تفيد أنّه لم يكن صاحب تلك العبارات البارده الخاويه التى نُسِبت إليه - فى التاريخ والسيره - فى معارضه القرآن الكريم.

التفكير فى أمر الرُّوم

مع أنّ ظهور مثل هؤلاء المتنبّئين الكذبه فى شتّى مناطق الحجاز كان خطراً على وحده أهلها الدينيه، فإنّ التفكير فى أمر الروم - الذين كانت الشامات وفلسطين من مستعمراتهم آنذاك - كان يستأثر باهتمام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أكثر من غيره؛ لأنّه كان يعلم بأنّ القاده اللائقين فى اليمامه واليمن قادرين على مواجهه المتنبّئين، ولهذا قضى على «الأسود العنسى» وهو رجلٌ آخر ادّعى النبوه كذباً فى عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وذلك بعد يوم من وفاه النبىّ، على يد والى اليمن.

لقد كان رسولُ اللّه صلى الله عليه و آله و سلم متيقّناً وواثقاً من أنّ الدوله الروميه التى تلاحظ اتّساع رقعه النفوذ الإسلامى الصاعد، والّتى رأت كيف أنّ رسول الإسلام استطاع أن يقتلع جذور اليهوديه من الحجاز، وفرض الجزيه على فريق النصارى يدفعونها للحكومه الإسلاميه، غاضبه لذلك أشدّ الغضب.

لقد كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم منذ أمد بعيد يعتبر خطر الروم خطراً جديّاً لايمكن التغاضى عنه واحتقاره، ولهذا السبب نفسه وجّه فى السنه الثامنه من الهجره جيشاً كبيراً قوامُه ثلاثه آلاف بقياده «جعفر بن أبى طالب» و «زيد بن حارث» و «عبد اللّه بن رواحه» إلى تخوم الشام حيث يسيطر الروم، وقد استشهد فى هذه المعركه القاده الثلاثه، وقفل الجيش الإسلامى راجعاً إلى المدينه من دون انتصارات بتدبير من خالد بن الوليد.

وفى السنه التاسعه عندما بلغه نبأ استعداد الروم لمهاجمه الحجاز - وهو آنذاك فى المدينه - خرج صلى الله عليه و آله و سلم بشخصه على رأس جيش قوامُه ثلاثون ألفاً إلى

تبوک، وعاد من دون مواجهه إلی المدینه.

ولهذا کان هذا الخطر جدّیاً فی نظر النبی صلی الله علیه و آله و سلم.

ومن هنا فإنه صلی الله علیه و آله و سلم لمّا عاد من «حجّه الوداع» إلی المدینه هیّأ جیشاً من المهاجرین والأنصار أشرک فیه أشخاصاً معروفین بارزین مثل أبی بکر وعمر وأبی عبیده وسعد بن أبی وقاص... وأمر بأن یشارک فیه کلّ مَن هاجر إلی المدینه خاصّه(۱).

ثم إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، ولأجل تحریک مشاعر المجاهدین، عقد بیده(۲)لواء لأسامه بن زید الذی أمَّره علی ذلک الجیش. وقال له:

«سِر إلی موضع قتل أبیک فأوطئهم الخیل، فقد ولیّتک هذا الجیش، فأغر صباحاً علی أهل أُبْنَی»(۳).

فأعطی «اُسامهُ» اللواء إلی «بریده» وعسکر بالجرف(۴) لیلتحق به جنودُ الإسلام أفواجاً أفواجاً، ولیتحرّک الجمیع فی وقت واحد.

لقد اختار رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لقیاده هذا الجیش شاباً فی مقتبل العمر، وأمّره علی طائفه کبیره من شیوخ الأنصار والمهاجرین، ولقد أرادَ صلی الله علیه و آله و سلم من فعله هذا

۱- . السیره الحلبیه: ۲۲۷/۳؛ النصُّ والاجتهاد: ۳۰-۳۲.

۲- . یذهب کتّاب السُنّه إلی أنّ النبی عقد اللواء المذکور فی ۲۶ صفر، وحیث إنّ وفاه النبی صلی الله علیه و آله و سلم حسب روایتهم کانت فی ۱۲ ربیع الأوّل، لهذا فإنّ من الممکن أن تقع الحوادث التی سیأتی ذکرها مستقبلاً تدریجاً فی مده ۱۶ یوماً، ولکن حیث إنّ الشیعه یرون تبعاً لما رواه عتره النبی أنّ وفاه النبی صلی الله علیه و آله و سلم کانت فی ۲۸ صفر لهذا یجب أن یکون عقدُ اللواء قدتمَّ قبل ۲۶ صفر بمده لیمکن وقوع کلّ هذه الحوادث الکثیره فی هذه المده.

۳- . «أُبْنی» من مناطق البلقاء وتقع فی الأراضی السوریه وقرب مؤته بین «عسقلان» و «الرمله».

۴- . الجرف: منطقه واسعه علی بعد ثلاثه أمیال (۴/۸۳ کیلومتراً)، وهی مدینه من جانب الشام.

أمرين:

أوّلاً: أن يجبُر - من خلال ذلك - ما لحق من المصيبه بأُسامه بسبب مقتل والده «زيد بن حارث» الذى استشهد فى معركه مؤته مع الروم، وليرفع من شخصيته.

ثانياً: أراد أن يؤكّد قانونه فى مجال التوظيف وتوزيع المناصب والمسؤوليات ويجعل ذلك على أساس الكفاءه والشخصيه القياديه، أنّ المناصب والمسؤوليات الاجتماعيه لاتحتاج إلى غير الكفاءات والمؤهّلات، ولا ترتبط بحال بالعمر والسن. لقد فعل النبى ذلك حتى يهيّئ الشباب الذين يتمتّعون بالمؤهّلات الكافيه لتسلّم المسؤوليات الاجتماعيه الثقيله ويعلموا أن المناصب والمهامّ - فى النظام الإسلامى - ترتبط ارتباطاً مباشراً بالكفاءه والمؤهّلات القياديه، لا العمر والسنّ.

ثم إنّ الإسلام الواقعى هو الانضباطيه الشديده والانقياد الكامل تجاه التعاليم الإلهيه الساميه، والمُسْلِم الحقيقى هو من ينقاد لتعاليم اللّه تعالى وأوامره وتعاليمه ويقبل بها من كلّ قلبه كجندى فى ساحه القتال، سواء أكانت له فيها نفع أم لا، وسواء أكانت تضرُّ به أم لا، وسواء أكانت مطابقه لأهوائه ومطامحه أم لا.

ولقد بيّن الإمام علىٌّ عليه السلام حقيقه الإسلام فى عباره موجزه ولكن بليغه ومعبّره إذ قال: «الإسلامُ هو التسْليم»(۱).

إنّ الذين يؤمنون ببعض تعاليم الإسلام دون بعض، كلّما واجهوا ما لايوافق أهواءهم الباطنيه منها، اعترضوا عليه وحاولوا التملّص من المشاركه فى تنفيذه بشتّى المعاذير والحجج.

۱- . نهج البلاغه: قصار الحكم، برقم ۱۲۵.

لاشكّ أنّ هذا الفريق يفتقر إلى روح الانضباطيه، والتسليم الواقعىّ، والانقياد الكامل الّذى يمثّل روح الإسلام وأساسه.

لقد كان تأمير قائد شاب يُدعى «أُسامه بن زيد» الّذى لم يكن يتجاوز يومذاك العشرين عاماً(۱) شاهد صدق على ما نقول؛ لأنَّ تأميره على لفيف من الصحابه يكبرون عنه فى العمر أضعافاً، شقَّ على البعض، لأنّهم اعترضوا على الإجراء، وطعنوا فى أُسامه، وأطلقوا عبارات تكشف جميعها عن افتقارهم لروح الانقياد والطاعه والتسليم الذى يجب أن يتحلّى بها الجندى المسلم تجاه قائد الإسلام الأعلى (النبىّ)، وأوامره وتعييناته.

ولقد كان محور كلامهم هو أنّ النبى أمَّر شاباً صغير السنّ على شيوخ من الصحابه(۲).

وقد غفلوا عن المصالح والأهداف التى توخّاها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من هذا الإجراء، وكانوا يقدّرون كلّ عمل بعقولهم الضيّقه المحدوده، ويقيسونه بمقاييسهم الشخصيه.

فرغم أنّهم لمسوا من قريب كيف أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان يحرص على تعبئه هذا الجيش وبعثه، ولكن عناصر مشبوهه أخّرت حركه الجيش المذكور من معسكر «الجرف» وتوجهه إلى النقطه المطلوبه، وكانت تسعى لعرقله هذه المهمه.

وبعد يوم من عقد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم اللواء لأُسامه، مرض صلى الله عليه و آله و سلم بشدّه وأصابه

۱- . ذهب البعض إلى أنّه كان فى السابعه عشر من عمره، وذهب آخرون إلى أنّه كان فى الثامنه عشر من عمره. المهم أنّهم اتّفقوا على أنّه لم يتجاوز العشرين سنه. لاحظ: السيره الحلبيه: ۲۲۷/۳.

۲- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ۱۹۰/۲.

صداعٌ شديدٌ تركه طريح الفراش، واستمر هذا المرض عدّه أيام حتى قضى (صلوات اللّه عليه).

وقد علم رَسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى مرضه أنّ هناك مَن تخلّف عن جيش أُسامه، وأنّ هناك مَن يعرقل توجّهه نحو المنطقه الّتى عيّنها، وأنّ هناك بالتالى مَن يطعن فى أُسامه، فغضب صلى الله عليه و آله و سلم لذلك غضباً شديداً، وخرج وهُو يلتحف قطيفه، وقد عصّب جبهته بعصابه إلى مسجده ليتحدّث إلى المسلمين من قريب، ويحذّرهم من مغبّه هذا التخلّف، فصعد المنبر على ما هو عليه من حُمى شديده وبعد أن حمدَ اللّه وأثنى عليه قال:

«أمّا بعدُ أيّها الناس فَما مَقالةٌ بلغَتْنى عن بَعضِكم فى تأميرى أُسامه، ولئن طعَنْتُمْ فى إمارتى أُسامه لقَدْ طعَنتم فى إمارتى أباه من قَبْلِه، وأَيمُ اللّه إن كان للإماره لخليقاً، وإنّ ابنه من بعده لخليق للإماره، وإن كان لِمن أحبّ الناس إلىَّ، وإنهّما لَمخيلان(۱) لكلّ خير، واستوصُوا به خيراً فإنّه من خياركمْ».

ثم نزل صلى الله عليه و آله و سلم ودخل بيته... (واشتدت به الحمى)، فجعل يقول لمن يعوده من أصحابه:

«أنفذوا بَعَثَ أُسامه»(۲).

ولقد بلغ من إصرار رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم على بعث جيش أُسامه أنّه كان يقول وهو فى فراش المرض:

«جَهّزوا جيش أُسامه، لعَن اللّه مَن تخلّف عنه»(۳).

۱- . فلان مخيّل للخير: أى خليق له. صحاح الجوهرى: ۱۶۹۲، ماده «خيل».

۲- . الطبقات الكبرى: ۱۹۰/۲.

۳- . الملل والنحل للشهرستانى: ۱۳/۱، المقدّمه الرابعه.

وقد تسبّبت هذه التأكيدات فی أن يحضر جماعه من المهاجرين والأنصار عند رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم للتوديع والخروج عن المدينه تلقائياً والالتحاق بجيش أُسامه فی معسكره بالجرف.

وفيما كان أُسامه يتهيّأ للتوجّه بجيشه إلی حيث أمره الرسول الكريم صلی الله عليه و آله و سلم بلغ بعض الصحابه الحاضرين فی الجيش أنباء عن تدهور صحّه النبی صلی الله عليه و آله و سلم فتسببت فی عُدولهم عن الحركه حتی كان يوم الاثنين، فحضر أُسامه عند رسول صلی الله عليه و آله و سلم ليودّعه، فرأی آثار التحسّن باديه علی ملامح النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم.

فقال له رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم حاثّاً إيّاه علی المبادره والمسارعه فی الخروج:

«أُغدُ علی بركه اللّه»(۱).

فعاد أُسامه إلی المعسكر وأمر بالتحرّك فوراً، ولكنّ الجيش لم يكن قد غادر «الجرف» بعد، حتی جاء نبأ من المدينه بأنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم يحتضر، فعمد مَن كانوا يبحثون عن حجّه للتخلّف عن جيش أُسامه، والذين حاولوا خلال سته عشر يوماً أن يعرقلوا توجّهه بشتّی المعاذير والحجج إلی التوسّل هذه المره بقضيه احتضار النبی صلی الله عليه و آله و سلم وعادوا إلی المدينه فوراً، وعاد الجيش برمّته هو الآخر إلی المدينه متجاهلين - جميعاً - أوامر النبی صلی الله عليه و آله و سلم بالخروج.

ولم يتحقّق أحد آمال النبی الأكرم صلی الله عليه و آله و سلم فی أيام حياته بسبب اللا انضباطيه التی أبداها فريق من شيوخ القوم وأعيان الجيش.

الأعذارُ غير المقبوله

إنّ خطأً كبيراً كهذا ارتكبه بعض مَن تسلّم أُمور الخلافه بعد رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم

۱- . لاحظ: الطبقات الكبری: ۱۹۰/۲.

وسمّوا أنفسهم خلفاء النبى لايمكن أن يبرَّر أبداً.

ولقد أراد بعض علماء السنّه أن يبرّروا هذا التخلّف بطرق ووجوه مختلفه إلّا أنّهم عجزوا - رغم ذلك - أن يُخرِجوا عذراً مقبولاً ودليلًا مرضياً لأُولئك المتخلّفين عن جيش أُسامه.

وللاطّلاع على ما نُحِت لذلك من أعذار سقيمه راجع «المراجعات»(۱)، و «النص والاجتهاد»(۲).

الاستغفار لأهل البقيع

كتب فريقٌ من أصحاب السيره أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم خرج فى الليله الّتى توفّى فى صبيحتها مع أبى مويهبه خادمه إلى البقيع مع ما كان عليه من شدّه الحمّى والوجع ليستَغفر لأهل البقيع(۳).

ولكنّ المؤرخين الشيعه يرون أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم يوم أحسّ بالوجع أخذ بيد «علىّ» عليه السلام وخرج معه إلى البقيع وخرج خلفه جماعه فقال لمن خرج معه:

«إنّنى قد أُمِرتُ أن استغفر لأهل البقيع».

فانطلقوا معه حتى وقف بين أظهرهم فقال:

«السلامُ عليكم أهل القبور، ليَهْنئكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناسُ فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً، يتبع آخرها أوّلها».

ثم استغفر ودعا لأهل البقيع طويلًا وأقبل على أمير المؤمنين علىّ عليه السلام فقال:

۱- . المراجعات: ۳۶۵ و ۳۷۰، المراجعه ۹۰ و ۹۱.

۲- . النص والاجتهاد: ۳۶-۳۷.

۳- . لاحظ: الطبقات الكبرى: ۲۰۴/۲.

«إنّ جبرئيل كان يعرضُ عليَّ القرآن سنه مرّه، وقد عرضَهُ عليّ العام مرّتين ولا أراه إلّا لحضور أجلى».

ثم قال: يا عليّ إنّى خُيّرت بين خزائن الدُنيا والخلود فيها أو الجنه فاخترتُ لقاء ربِّى والجنّه».(۱)

إنَّ الذين ينظرون إلى الكون من المنظار المادّى البحت ويحصرون كلّ الوجود فى إطار الماده وآثارها، فالوجود عندهم يساوق الماده قد يتردَّدون فى قبول هذا الأمر، ويقولون: كيف يمكن مخاطبه الأرواح؟! وكيف يمكن الاتّصال بهم؟!

كيف يمكن أن يعرف المرء بموته وأجله؟!

ولكنّ الذين كسروا جدار المادّيه هذا واعتقدوا بوجود الروح المجرّده عن البدن المادّى العنصرى لاينكرون مسأله الارتباط والاتّصال بالأرواح(۲)، ويعتبرونه أمراً ممكناً وواقعياً.

ثم إنّ النبيّ الذى يتحلّى بالعصمه فى مجال ارتباطه بعالم الوحى والعوالم المجرّده من الماده، يمكنه - على وجه القطع واليقين - أن يخبر عن حلول أجله بأمر اللّه وإذنه وإخباره إيّاه.

۱- . لاحظ: إرشاد المفيد: ۱۸۱/۱؛ بحار الأنوار: ۴۶۶/۲۲؛ الطبقات الكبرى: ۲۰۴/۲.

۲- . طبعاً نحن لانعرف بكلّ ما يدّعيه أدعياء الاتّصال بالأرواح، فإنّ لذلك طريقه الصحيح، وأُسلوبه المشروع.

حوادث السنه الحاديه عشره من الهجره

۶۵ الكتابُ الذى لم يُكتب

اشاره

تُعدُّ الأيّام الأخيره من حياه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من أكثر فترات التاريخ الإسلامى أهميّه وحسّاسيه ودقّه.

لقد مرّ الإسلام والمسلمون فى تلك الأيام بساعات مؤلمه، وحرجه.

إنّ مخالفه بعض الصحابه الصريحه لأوامر النبى صلى الله عليه و آله و سلم وتخلّفهم عن جيش أُسامه، كلُّ ذلك كان يكشف عن نشاطات سرّيه تنبئ عن عزمهم المؤكَّد على الاستيلاء على زمام الحكومه والإماره والقياده السياسيه فى المجتمع الإسلامى بعد رحيل النبى صلى الله عليه و آله و سلم، وإزاحه الخليفه الّذى نصبه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى الغدير للإماره عن مسند الحكم.

ولقد كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم نفسه عارفاً بنواياهم على نحو الإجمال، ولهذا كان يصرّ على خروج جميع أعيان الصحابه فى جيش أُسامه ومغادره المدينه فوراً لمقاتله الروم، لكى يعطل بذلك خطّتهم.

ولكن دهاه السياسه اعتذروا عن الخروج مع أُسامه بحجج ومعاذير معيّنه،

لکی یستطیعوا تنفیذ خططهم بل وعرقلوا مسیر الجیش المذکور حتی توفّی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

فعادوا إلی المدینه - بعد توقّف دام ۱۶ یوماً - علی أثر تدهور صحّه النبی واحتضاره، فلم یتحقّق ما کان یریده رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من تفریغ المدینه منهم، فلا یکون أحدٌ منهم فیها یوم وفاته لیستطیع خلیفته المنصوب للإماره یوم غدیر خم (نعنی الإمام علیاً) تسلّم زمان الحکم دون منازع ومزاحم من المعارضین السیاسیّین.

إنّهم لم یکتفوا فقط بالعوده إلی المدینه بل حاولوا أن یحولوا دون أی عمل من شأنه أن یؤدّی إلی دعم وتثبیت منصب الإمام علی وخلافته لرسول اللّه بلافصل، فحاولوا منع النبی صلی الله علیه و آله و سلم وصرفه عن البحث فی هذه المسأله بشتّی الوسائل، والسبل.

فعمد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم الذی عرف بنشاط بعض زوجاته من بنات بعض أُولئک الصحابه، المشین، عمد إلی الخروج إلی المسجد مع ما کان علیه من الحمّی والوجع، ووقف إلی جانب المنبر وقال للناس بصوت عالٍ سُمِع خارج المسجد:

«أیّها الناسُ سُعّرت النار، وأقْبلت الفتَن کقِطَع اللیل المظلم، وإنّی واللّه ما تمسَّکون علیّ بشیء، إنّی لم أُحلّ إلّاما أحلّ القرآن، ولم أُحرّم إلّاما حرّم القرآن»(۱).

إنّ هذه العباره تکشف عن القلَق الشدید الّذی کان یحمله النبی صلی الله علیه و آله و سلم علی مستقبل الإسلام بعد وفاته، فما هو المقصود - یاتُری - من النار التی سعرت؟

۱- . السیره النبویه لابن هشام: ۱۰۶۸/۴؛ الطبقات الکبری: ۲۱۵/۲ و ۲۱۶؛ السیره الحلبیه: ۴۶۷/۳.

أليس هى فتنه الاختلاف والافتراق التى كانت تنتظر المسلمين، والتى اشتعلت بعد وفاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وتعالى لهيبها، ولايزال ذلك اللهيب مشتعلاً، وتلك النار مستعره؟!

إيتونى بقلم وقرطاس

كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يعرف بما يجرى من نشاطات خارج منزله للسيطره على الحكم، ولهذا قرّر - بغرض الحيلوله دون انحراف مسأله الخلافه من محورها الأصلى والحيلوله دون ظهور الاختلاف والافتراق - أن يدعم مكانه علىّ ويعزز امارته وخلافته أهل بيته، وذلك بأن يثبت الأمر فى وثيقه حيّه وخالده تضمن بقاء الخلافه فى خطّها الصحيح.

فقد روى البخارى فى صحيحه باسناده عن ابن عباس قال: لما اشتدّ بالنبىّ صلى الله عليه و آله و سلم وجعه قال:

«ائتونى بكتاب اكتُبُ (۱) لكم كتاباً لاتضلّوا بعده».

قال عمر: إنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم غلبه الوجعُ، وعندنا كتابُ اللّه حسبنا.

فناقش الحاضرون رأى الخليفه، فخالفه قومٌ وقالوا: هاتوا الدواه والصحيفه ليكتب النبى مايريد، وناصر آخرون عمرَ وحالوا دون الإتيان بماطلبه النبى، ووقع تنازع بينهم وكثر اللغط، فغضب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بشده لتنازعهم ولما وجّه إليه من كلمه مهينه، وقال:

«قُومُوا عنى ولاينبغى عندى التنازعُ»

۱- . طبعاً لم يكن الهدف من «اكتب» أن يكتب النبى بيده ذلك الكتاب فالنبى لم يكتب شيئاً فى حياته أبداً كما هو مبحوث فى أبحاث أُمّيه النبى، بل المقصود هو الإملاء على كتّابه.

فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزيئه كلّ الرزيئه ما حال بين رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وبين كتابه.(۱)

إنّ هذه الواقعه التاريخيه قد نقلها فريق كبير من محدّثى الشيعه والسنّه ومؤرّخيهم، وتعتبر روايتها - حسب قواعد فنّ الدرايه والحديث - من الروايات المعتبره الصحيحه، غايه مافى الأمر أنّ أغلب محدّثى أهل السنّه نقلوا كلام «عمر» بالمعنى لابااللفظ، ولم يورد نص الكلمات الجارحه النابيه التى نطق بها فى ذلك المجلس المقدّس.

ولا يخفى أنّ الإحجام عن نقل نصّ عبارته ليس لأجل أنّ العبارات التى تفوّه بها تعدّ إهانه لمقام النبوه، بل أنّ هذا التصرّف لأجل الحفاظ على مقام الخليفه ومكانته حتى لايسىء الآخرون النظره إليه إذا عرفوا بما قاله فى حقّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

من هنا عندما بلغ أبوبكر الجوهرى مؤلّف كتاب «السقيفه» فى كتابه إلى هذا الموضع من القضيه قال عند نقل كلام عمر هكذا: وقال عمر كلمه معناها أنّ الوجَع قد غلب على رسول اللّه(۲).

ولكن بعضاً آخر عندما يريد نقل ماقاله الخليفه لايصرّح باسمه حفظاً لمقامه

۱- . صحيح البخارى: ۳۷/۱، باب كتابه العلم، و ج ۱۳۷/۵، باب مرض النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و ج ۹/۷، باب قول المريض قوموا عنى؛ صحيح مسلم: ۷۶/۵، باب ترك الوصيه لمن ليس له شىء يوصى به؛ مسند أحمد: ۲۲۲/۱ و ۳۳۶ و ۳۵۵؛ صحيح ابن حبان: ۵۶۲/۱۴؛ الطبقات الكبرى: ۲۴۲/۲ و ۲۴۴؛ الملل والنحل للشهرستانى: ۲۲/۱؛ إمتاع الأسماع: ۱۳۲/۲؛ السيره الحلبيه: ۴۵۶/۳.

۲- . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ۵۱/۶.

فیقول: فقالوا: إنّ رسولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یهجر.(۱) وفی روایه أخری: فقالوا: ما شأنه أهجر؟!(۲)

إنّ من المسلّم أنّ مثل هذه العباره الجارحه النابیه لو صدرت عن أی شخصیه مهما کان مقامها لعُدَّت ذنباً لا یُغتفر؛ لأنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم بنصّ القرآن مصونٌ من أی نوع من أنواع الخطأ والاشتباه والهذیان فهو لاینطق إلّابالوحی.

إنّ اختلاف الصحابه لدی رسول اللّه الطاهر المعصوم صلی الله علیه و آله و سلم وفی محضره کان عملاً سیئاً، ومشیناً إلی درجه أنّ إحدی أزواجه صلی الله علیه و آله و سلم اعترضتْ علی هذه المخالفه وقالت من وراء حجاب: ألا تسمعون النبی صلی الله علیه و آله و سلم یعهدُ الیکم؟ إئتوا رسول صلی الله علیه و آله و سلم بحاجته.

فقال عمر: اسکتن فإنکنّ صواحبه إذا مرض عصرتُنَّ أعیُنکنَّ، وإذا صحّ أخذتُنَّ بعنُقه(۳).

إنّ بعض المتعصّبین وإن التمسوا لمخالفه الخلیفه لطلب النبی أعذاراً(۴) فی الظاهر إلّاأنّهم خطّأوا کلامه الذی قال فیه «حسبنا کتاب اللّه»، واعتبروه کلاماً غیر صحیح، وصرّحوا جمیعاً بأنّ الرکن الأساسی للإسلام هو السنّه النبویه، ولا یمکن

۱- . صحیح مسلم: ۷۶/۵، باب ترک الوصیه لمن لیس له شیء یوصی به؛ مسند أحمد: ۳۵۵/۱؛ الکامل فی التاریخ: ۳۲۰/۲.

۲- . لاحظ: صحیح البخاری: ۱۳۷/۵، باب مرض رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم؛ صحیح مسلم: ۷۵/۵، باب ترک الوصیه لمن لیس له شیء یوصی به؛ مسند أحمد ۲۲۲/۱.

۳- . کنز العمال: ۲۴۳/۷ برقم ۱۸۷۷۱؛ الطبقات الکبری: ۲۴۴/۲. وفی الطبقات: أنّ النبی قال (فی الرد علی عمر) هنَّ خیرٌ منکم.

۴- . رد العلّامه المجاهد السید شرف الدین فی کتاب المراجعات المراجعه ۸۶ جمیع هذه الأعذاربصوره رائعه.

أن يغنى كتابُ اللّه الأمّه الإسلاميه عن أحاديث رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم وأقواله.

ولكن الأعجب من كلّ ذلك أنّ الدكتور «هيكل» مؤلّف كتاب «حياه محمَّد»(۱) ضمن دفاعه عن الخليفه كتب يقول: ما فتئ ابن عباس بعدها يرى أنّهم أضاعُوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابه ما أراد النبيّ إملاءه. أمّا عمر فظلّ ورأيُه أن قال اللّه فى كتابه الكريم: «ما فَرَّطْنا فِى الْكِتابِ مِنْ شَىْ ءٍ» (۲).

فلو أنّه لاحظ ما قبل هذه الجمله القرآنيه وما بعدها لما فسّرها بمثل هذا التفسير، ولما أيّد الخليفه فى مقابل نصّ النبيّ المعصوم المطاع، لأنّ المقصود من الكتاب فى الآيه هو الكتاب التكوينى، وصفحات الوجود، فإنّ لكل نوع من الانواع فى عالم الوجود صفحه من كتاب الصنع، وتشكّل كلّ الصفحات غير المعدوده كتاب الخليفه والوجود واليك نص الآيه:

«وَ ما مِنْ دَابَّهٍ فِى الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِى الْكِتابِ مِنْ شَىْ ءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (۳).

وحيث إنّ ما قبل الجمله التى استُدلّ بها، يرتبط بخلقه الدواب والطيور، ويرتبط ما بعدها بموضوع الحشر فى يوم القيامه، يمكن القول بصوره قاطعه بأنّ المراد من الكتاب فى الجمله المستدلّ بها والذى لم يفرَّط فيه من شىء هو الكتاب التكوينى، وصفحه الخلق.

ثم إنّنا لو قبلنا بأنّ المقصود من الكتاب هو القرآن الكريم فإنّ من المسلّم أنّ فهم هذا الكتاب - وبحكم تصريحه - يحتاج إلى بيان النبى وهدايته كما يقول:

۱- . حياه محمَّد: ۵۰۱.

۲- . الأنعام: ۳۸.

۳- . الأنعام: ۳۸.

«وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (۱).

تأمّل فی هذه الآیه فإنّها لا تقول «لتقرأ» بل تقول بصراحه: «لتبیّن».

وعلی هذا الأساس إذا کان کتاب اللّه کافیاً لم نحتج إلی توضیح النبی وبیانه احتیاجاً شدیداً(۲).

ولو کان حقّاً أنّ الأُمّه الإسلامیه لاتحتاج إلی النبی فلماذا کان حبر الأُمّه وعالمها الکبیر ابن عباس یقول: یومُ الخمیس وما یوم الخمیس!! ثمّ جعل تسیل دموعه حتی رؤیت علی خدّیه کأنّها نظام اللؤلؤ وقال: قال رسول اللّه: إئتونی بالکتف والدواه (أو اللوح والدواه) أکتب لکم کتاباً لن تضلّوا بعده أبداً، فقالوا: إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یهجر.(۳)

فمع هذا الحزن الذی کان یبدیه ابن عباس، مضافاً إلی الإصرار الذی أظهره رسولُ اللّه، کیف یمکن القول بأنّ القرآن یغنی الأُمّه الإسلامیه من هذه الوصیه (أو الکتاب) الذی کان النبیّ یرید کتابته.

والآن إذا کان النبی لم یوفق لکتابه الکتاب وإملائه فهل یمکن أن نَحدس - فی ضوء القرائن القطعیه - ماذا کان ینوی النبیّ کتابته فی هذه الرساله؟

ماذا کان الهدف من الکتاب؟

إنّ الطریقه الجدیده والقویمه فی تفسیر القرآن الکریم التی أصبحت الیوم موضع عنایه المحقّقین والعلماء فی هذا العصر هو رفع إبهام الآیه

۱- . النحل: ۴۴.

۲- . أنّ بیان مدی حاجه القرآن إلی بیان النبی خارج عن نطاق هذا الکتاب، فاطلبه فی محلّه.

۳- . صحیح مسلم: ۷۶/۵، باب ترک الوصیه لمن لیس له شیء یوصی به؛ مسند أحمد: ۳۵۵/۱.

وإجمالها فی موضوع معیّن بواسطه آیه أخری تتحدّث عن الموضوع ذاته ولکنّها أوضح من الأولی دلاله ومفاداً، وبعباره أخری: الاستعانه فی تفسیر آیه بآیه أُخری.

إنّ هذه الطریقه لاتختصُّ بتفسیر آیات القرآن بل تنسحب علی الأحادیث والروایات الإسلامیه أیضاً إذ یمکن رفع الإجمال عن حدیث بحدیث مشابه، لأنّ القاده الکبار یتحدّثون فی موضوع مهمّ وخطیر بصوره مؤکّده ومکرّره لاتتشابه ولاتتّحد فی دلالتها، فقد تکون دلالتها علی الآیه واضحه، وقد یکون بیان المقصود فیها بالإشاره والکنایه حسب المقتضیات.

قلنا: إنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم طلب من أصحابه وهو فی فراش المرض دواه وصحیفه یملی علیهم شیئاً لایضلّون بعده أبداً، ثمّ تسبّب التنازع الذی حدث بین الحاضرین فی أن ینصرف من کتابه ما أراد.

یمکن أن یسأل سائل: ما هو الشیء الذی کان یریدُ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کتابته فی ذلک الکتاب؟

إنّ الاجابه عن هذا السؤال واضحه؛ لأنّه مع أخذ الأصل الذی ذکرناه فی مطلع البحث بنظر الاعتبار یجب القول بأنّ هدف النبی لم یکن إلّاتعزیز الوصیّه ودعم خلافه الإمام أمیر المؤمنین علیّ علیه السلام وإمرته والتأکید علی لزوم اتّباع أهل بیته الذی صرّح به النبی صلی الله علیه و آله و سلم فی الغدیر وغیره.

وهذا المطلب یستفاد من حدیث الثقلین المتّفق علیه بین محدّثی السنّه والشیعه، لأنّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم قال فی شأن الکتاب الذی نوی کتابته: إنّه یبتغی کتابه شیء لایضلّون بعده أبداً. وقد جاءت هذه العباره بعینها فی حدیث الثقلین إذ یقول

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم معتبراً عدم الضلال بعده معلولاً لاتّباع الكتاب والعتره إذ قال:

«يا أيّها الناس إنّى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضِلّوا: كتابَ اللّه، وعترتى أهلَ بيتى»(۱).

ألا يمكن بعد ملاحظه هذين الحديثين والتشابه الموجود بينهما الحدسُ - بصوره قطعيه - بأنّ ما كان يهدفه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من طلب الدواه والصحيفه هو مفاد كتابه حديث الثقلين، أو ما هو أعلى ممّا يفيده حديث الثقلين، وهو تعزيز ودعم ولايه الإمام على عليه السلام وخليفته مباشره وبلا فصل وهو الذى عيّنه للإماره والخلافه فى الثامن عشر من شهر ذى الحجّه عند مفترق طرق الحجاج المدنيّين والعراقيّين والمصريّين والحجازيّين، وأعلن عن ذلك بصوره شفاهيه.

هذا مضافاً إلى أنّ مخالفه مَن شكّل شورى الخلافه فى سقيفه بنى ساعده بعد وفاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ورشح رفيقه القديم للخلافه بصوره خاصّه بعد رحيل رسول اللّه إلى ربّه، وحصل هو بدوره على أُجرته عند موت الأوّل بصوره نقديّه وعيّنه للخلافه خلافاً لجميع القواعد والأُصول، خير شاهدٍ على أنّ القرائن الّتى كانت فى مجلس النبى وكلامه كانت تكشف عن أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان يريد أن يملى على كاتبه أمراً يتعلّق بخلافه المسلمين والإماره والقياده الّتى أثبتها لعلى وأهل بيته الطاهرين فى احاديثه وخطبه.

ولهذا خالف القوم الحضور هذا المطلب بشدّه وحالوا دون الإتيان بالقلم والقرطاس بوقاحه، وخالفوا كتابه شىء، وإلّا فلماذا أصرّوا على المخالفه...

وارتكبوا ما ارتكبوا.

۱- . سنن الترمذى: ۳۲۸/۵ ح ۳۸۷۴؛ جامع الأُصول: ۱۸۷/۱. وراجع: المراجعات: المراجعه: ۸.

لماذا لم يصرُّ النبى على كتابه الكتاب؟

كان فى إمكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم رغم معاكسات جماعه من أصحابه أن يطلب كاتبه ويكتب الكتاب الذى كان يريد، فلماذا لم يتصرّف هكذا، ولم يستغل مكانته القويّه؛ بل امتنع عن ذلك؟

إنّ الاجابه عن هذا السؤال واضحه: فلو أنّ النبى كان يصرّ على كتابه الكتاب لأصرّوا فى الإساءه إلى النبى الذى قالوا عنه أنّه غلبه الوجع أو هجر، ولعمد أنصارهم إلى إشاعه وبثّ هذا الأمر الرخيص، وصنعوا لإثباته الأفاعيل، فكانت تتّسع رقعه الإساءه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه الحاله وتستمرّ، فتفقد الرساله أثرها المنشود.

من هنا عندما قال البعض للنبى - تلافياً لما لحق به من الأذى -: ألا نأتيك بدواه وكتف يا رسول اللّه؟ فقال:

«أبعد الذى قلتم؟ لا ولكنّى أُوصيكم بأهل بيتى خيراً»(۱).

تلافى الأمر وتداركه

إنّ مخالفه بعض الصحابه الصريحه وإن صرفت النبى عن الكتابه إلّاأنّه بلّغ مقصوده من طريق آخر، فهو - بشهاده التاريخ - بينما كان يعانى من المرض، والوجع الشديدين، خرج إلى المسجد وهو متوكئ على «علىّ بن أبى طالب» و «ميمونه» مولاته فجلس على المنبر ثم قال:

«يا أيّها الناسُ إنّى تاركٌ فيكم الثقلين».

۱- . بحار الأنوار: ۴۶۹/۲۲، نقلاً عن إرشاد المفيد: ۱۸۴/۱.

وسكت، فقام رجل فقال: يارسول اللّه ما هذان الثقلان؟ فغضب حتى احمرّ وجهُه ثم سكن، وقال:

«ماذكرتهما إلّاوأنا أُريد أن أُخبرَكم بهما ولكنْ رَبوتُ فلم استطعْ، سببٌ طرفه بيداللّه، وطرفٌ بأيديكم، تعملون فيه كذا وكذا، ألا وهو القرآن، والثقل الأصغر أهل بيتى».

ثم قال:

«و أيمُ اللّه إنّى لأقولُ لكم هذا ورجالٌ فى أصلاب أهل الشرك أرجى عندى من كثير منكم».

ثم قال:

«و اللّه لايحبُّهم عبدٌ إلّاأعطاهُ اللّه نوراً يومَ القيامه حتى يرد علىَّ الحوض، ولايبغضهُمْ عبدٌ إلّااحتجب اللّه عنه يوم القيامه»(۱).

هذا وقد روى ابن حجر العسقلانى تدارك مافات بصوره أُخرى، ولا تنافى بين الصورتين، إذ يمكن وقوع كليهما.

إنّه يقول: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لأصحابه وقد امتلأت بهم الحجره وهو فى مرضه الذى قبض فيه:

«أيّها الناس يوشَك أن أقبض قبضاً سريعاً، فُينطلَق بى، وقد قدّمت إليكم القول معذره إليكم ألا إنّى مخلّفٌ فيكم كتاب اللّه ربى عزّوجلّ، وعترتى أهل بيتى».

ثم أخذ بيد على عليه السلام فرفعها فقال:

۱- . بحار الأنوار: ۴۷۶/۲۲، نقلاً عن مجالس المفيد: ۱۳۵ برقم ۳، المجلس ۱۶.

«هذا علیٌّ مع القرآن والقرآن مع علی، لایفترقان حتی یردا علیّ الحوض فاسألهُما ماذا خلّفت فیهما»(۱).

فمع أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ذکر حدیث الثقلین(۲) قبل مرضه فی مواضع متعدّده وبألفاظ مختلفه، ولفتَ نظر الناس إلی أهمیّه هذین الثقلین، ولکنّه لفت الأنظار مرّه أُخری وهو فی فراش المرض أمام جمع من أصحابه الذین حالوا دون کتابه ما أراد إلی عدم افتراق القرآن والعتره، یمکن الحدسُ بأنّ الهدف من التکرار هو تدارک مافات من کتابه الکتاب الذی لم یُوفق لکتابته.

تقسیم الدنانیر

دأبَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی مجال بیت المال أن یوزع أمواله فی أقرب فرصه سانحه بین الفقراء والمحتاجین.

وعندما کان فی فراش المرض تذکّر أنّ هناک دنانیر عند إحدی زوجاته فطلبها فوراً، فأحضرتها عنده فأخذها صلی الله علیه و آله و سلم بیده وقال:

«ماظنُّ محمَّد باللّه لولقی اللّه وهذه عنده؟ أنفقیها».(۳)

وفی روایه: أمر علیاً علیه السلام فتصدّق بها(۴).

۱- . الصواعق المحرقه: ۱۲۶، الباب ۹ منِ الفصل الثانی؛ کشف الغمه: ۳۵/۲.

۲- . حدیث الثقلین من الروایات المتفق علیها بین الشیعه والسنه وقد نقل عن الصحابه بأکثر من ۶۰ طریقاً کما یقول ابن حجر العسقلانی فی الصواعق ص ۱۳۶، وقد خصص المرحوم میر حامد حسین الهندی قسماً من موسوعته «العبقات» بذکر اسناد حدیث الثقلین ودلالته. وقد طبعت فی سته أجزاء مؤخّراً.

۳- . مسند أحمد: ۱۸۲/۶؛ الطبقات الکبری: ۲۳۸/۲؛ إمتاع الأسماع: ۲۹۲/۲.

۴- . لاحظ: الطبقات الکبری: ۲۳۹/۲.

غضب النبی من الدواء الذی سقی

لمّا کانت أسماء بنت عمیس وهی من قریبات «میمونه» زوجه النبی صلی الله علیه و آله و سلم والّتی أقامت أیام الهجره زمناً فی الحبشه تعلّمت من أهلها صنع عقار مرکّب من النباتات والأعشاب المختلفه، فلمّا اشتکی وأُغمی علیه تصوّرت أنّ الذی دهاه هو داء: «ذات الجنب»، وکانوا فی الحبشه یداوون هذا المرض بذلک العقار، فعمدت إلی معالجته بذلک الدواء، بصبّ شیء منه فی فم النبی صلی الله علیه و آله و سلم ولمّا أفاق وعرف بما صنعوا غضب وقال:

«کم ترون أنّ اللّه کان یسلّط علیّ ذات الجنب ما کان اللّه لیجعل لها علی سلطاناً...»(۱).

وداع النبی صلی الله علیه و آله و سلم مع أصحابه

خرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی أیام مرضه إلی مسجده مراراً یصلّی بالناس، ویذکّرهم أُموراً.

وذات یوم من أیام مرضه أُخرج إلی مسجده معصوب الرأس متّکئاً علی «علی» علیه السلام بیمنی یدیه وعلی «الفضل» بالید الأُخری، فصعد المنبر فحمداللّه وأثنی علیه، ثم قال:

«أمّا بَعدُ: أیُّها الناس إنّه قد حان منی خُفوقٌ من بین أظهرکم، فمَن کانت له عندی عده فلیأتنی أعطه إیّاها، ومن کان له علیّ دین فلیخبرنی به».

فقام إلیه رجل فقال: یارسول اللّه إنّ لی عندک عده، إنّی تزوجتُ فوعدتنی

۱- . الطبقات الکبری: ۲۳۵/۲.

(أن تعطینی) ثلاثه أواق.

فقال صلی الله علیه و آله و سلم: «انحلها إیّاه یا فضل» ثم نزل.(۱)

فلمّا کان یوم الجمعه - ثلاثه أیام قبل وفاته - صعد المنبر فخطب وقال فیما قال:

«أیُّ رجل منکم کانت له قِبَل محمَّدٍ مظلمه إلّاقام فلیقتص منه، فالقصاص فی دار الدنیا أحبّ إلیّ من القصاص فی دار الآخره علی رؤوس الملائکه والأنبیاء».

فقام إلیه رجلٌ من أقصی القوم یقال له سواده بن قیس فقال له: فداک أبی وأُمّی یا رسول اللّه، إنّک لمّا أقبلت من الطائف استقبلتک وأنت علی ناقتک العضباء وبیدک القضیب الممشوق فرفعت القضیب وأنت ترید الراحله فأصاب بطنی، فلا أدری عمداً أو خطأً. فقال: معاذ اللّه أن أکون تعمّدت. ثمّ قال صلی الله علیه و آله و سلم یا بلال: قم إلی منزل فاطمه فائْتنی بالقضیب الممشوق....

إنّ طلب النبی صلی الله علیه و آله و سلم هذا بأن یقتص منه من له ذلک لم یکن مجرّد مجامله أخلاقیه، بل کان صلی الله علیه و آله و سلم یرید أن ینبّه الناس إلی أهمیه مثل هذه الحقوق جداً.(۲)

ولمّا أُتی بالقضیب إلی رسول اللّه قال صلی الله علیه و آله و سلم: أین الشیخ؟ قال سواده: ها أناذا یارسول اللّه بأبی أنت وأُمّی، فقال صلی الله علیه و آله و سلم:

«تعال فاقتصَّ مِنّی حتی ترضی».

فقال سواده: فاکشف لی عن بطنک یا رسول اللّه....

۱- . إعلام الوری: ۲۶۴/۱؛ شرح نهج البلاغه: ۱۸۳/۱۰؛ بحار الأنوار: ۴۶۷/۲۲.

۲- . هذا مضافاً إلی أنّ ضرب بطن سواده بالقضیب من قِبَل النبی لم یکن عمداً، ولهذا لم یکن له الحق إلّافی أخذ الدیه دون القصاص، مع ذلک أراد النبی أن یلبّی طلبه لمّا قال أُرید أن اقتص.

ثم إنّه وسط دهشه الصحابه وحزنهم وغمّهم وبكائهم تقدّم سواده إلى النبى وقال: أتأذن لى أن أضع فمى على بطنك؟ فأذن له، فقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول اللّه، وقبّلَ بطن النبى وصدره الشريف.... فدعا له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وقال:

«اللّهم اعف عن سواده بن قيس كما عفا عن نبيك محمّد»(۱).

۱- . أمالى الصدوق: ۷۳۴، المجلس السادس والسبعون.

۶۶ اللحظاتُ الأخیره

اشاره

کان القلق والاضطراب یلفُّ المدینه المنوره بأسرها، فصحابه النبی یحیطون ببیت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم بعیون باکیه وقلوب حزینه لیطّلعوا علی صحّته، وکانت تخرج من منزله بین الحین والآخر أخبار عن اشتداد مرضه، وتفاقم وجعه، لتقضی علی کلّ أمل بتحسّن حالته، وتجعل الناس علی یقین بأنّه لم یبقَ من حیاه رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلّاسویعات قلائل، وأنّه سرعان ما تنطفئ الشعله المقدّسه، التی أنارت العالم بضیائها.

کان فریق من الصحابه یودّون أن یزوروا نبیّهم وقائدهم من قریب ولکن تدهور صحته ماکان لیسمح بذلک، فلم یکن من الممکن أن یتردّد علی غرفته إلّا أهل بیته خاصه. ولقد کانت ابنته الکریمه ووديعته الوحیده فاطمه الزهراء علیها السلام جالسه عند فراش أبیها، تنظر إلی وجهه المشرق، کانت تری کیف أنّ عرق الموت یتحدر علی جبینه وخده مثل حبات اللؤلؤ، فراحت تردّد أبیاتا من الشعر وقلبها یعتصره الحزنُ، ویملأ عیونها دموع الأسی والحزن ویکاد تخنقها الغصّه:

وَ أبیضُ یُستسقی الغمامُ بوجهه ثمالَ الیتامی عصمهٌ للأرامل

وفی هذه اللحظات بالذات فتح رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم عینیه وقال لابنته الزهراء بصوت خافت:

یا بنیّه هذا قول عمّک أبی طالب لاتقولیه ولکن قولی:

«وَ ما مُحَمَّدٌ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ وَ مَنْ یَنْقَلِبْ عَلی عَقِبَیْهِ فَلَنْ یَضُرَّ اللّهَ شَیْئاً وَ سَیَجْزِی اللّهُ الشّاکِرِینَ» (۱).(۲)

النبیُ صلی الله علیه و آله و سلم یتحدّث مع ابنته الزهراء

لقد کشفت التجربه عن أنّ عواطف الشخصیات الکبری تجاه أبنائهم تتضاءل أثر تراکم النشاطات وتزاید الاهتمامات والهموم، لأنّ الأهداف الکبری، والاهتمامات العالیه تشغل بالهم وفکرهم إلی درجه لاتترک لهم مجالاً لمشاعرهم العاطفیه بالظهور والتجلّی، بید أنّه یُستثنی الشخصیات الروحانیه والمعنویه الکبری من هذه القاعده، فهم مع ما یشغل بالهم من الأهداف الکبری، والاهتمامات العالیه، والشواغل الیومیه الکثیره یمتلکون روحاً کبری ونفسیه طیبه سامیه فلا یمنعهم عملٌ عن آخر، ولا یشغلهم شُغلٌ عن آخر، فلا مکان للضمور العاطفی والإنسانی عندهم فی حیاتهم الاجتماعیه والعائلیه.

إنّ محبه النبی صلی الله علیه و آله و سلم لابنته الوحیده فاطمه کانت من أبرز التجلّیات العاطفیه الإنسانیه فی شخصیه النبی الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم، ولهذا لم یُعهَد أن یسافر رسولُ اللّه من دون أن یودّع ابنته، کما لم یُعهَد أن یرجع إلی المدینه من دون أن یزور ابنته قبل أی أحد، کما کان یحترمها عند زوجاته احتراماً لائقاً بها ویقول لأتباعه:

۱- . ال عمران: ۱۴۴.

۲- . إرشاد المفید: ۱۸۷/۱؛ بحار الأنوار: ۴۷۰/۲۲.

«فاطمهُ بَضعهٌ منّی فمن أغضَبها أغضبنی»(۱).

کما أنّ رؤیه فاطمه کانت تـذکّره بأشد نساء العالمین طهراً ووفاء، وعطفاً ولطفاً، (خدیجه) التی تحمّلت فی سبیل أهداف زوجها المقدّس متاعب کبیره، وبذلت ثروتها کلّها فی سبیل تلک الأهداف بإخلاص ورغبه.

کانت فاطمه الزهراء علیها السـلام تلازم فراش والدها النبی صلی الله علیه و آله و سلم طوال أیّام مرضه، ولا تفارقه لحظه واحده، وفجأه أشار النبیّ إلی ابنته یطلب منها أن تقرب رأسـها إلی فمه لیحدّثها، فانحنت فاطمه حتی صار رأسـها قریباً من فمه الشـریف ثم راح النبی صـلی الله علیه و آله و سـلم یحادثهـا بصوت ضـئیل ولم یعرف مَن کان هناک ماذا قال رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سلم لابنته الطاهره فی تلک النجوی؟ وإنّما شاهدوا الزهراء تبکی بشدّه لمّا انتهی والدها من حدیثه وسالت دموعها بغزاره، ولکنّهم شاهدوا أنّ النبی أشار إلیها مره أُخری وحدّثها بشیء فسرّت فاطمه وتهلّلت أسارید وجهها، وتبسّمت مستبشره.

فأثارت هاتان الحالتان المتضادتان المتزامنتان الحضور وبعثتهم علی التعجّب والـدهشه، فلمّا سألوها عن سـرّ ذلک الحزن، وهـذه الفرحه، وطلبوا منها أن تذکر لهم علّه هاتین الحالتین المتضادتین قالت:

«ما کنت لأُفشی سرَّه».

ثم بعد أن قضـی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم کشـفت الزهراء علیها السـلام عن الحقیقه بناء علی إصرار عائشه وقالت: أخبرنی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم أنّه یُقبَض فی وجعه هذا، فبکیتُ،

۱- . صـحیح البخاری: ۲۱۰/۴، بـاب مناقب قرابه رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و سـلم ومنقبه فاطمه علیها السـلام؛ و ص ۲۱۹، باب مناقب فاطمه علیها السلام.

ثم أخبرنی أنّی أوّل أهله لحاقاً به فضحکتُ (۱).

مسواکُ النبی قبیل وفاته

کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم یستاک کلّ لیله قبلَ النوم کما کان یستاک بعد أن یستیقظ من نومه، وکان مسواکُ النبی من شجره الأراک التی تنفع جدّاً فی تقویه اللثه، وإزاله الأوساخ وبقایا الطعام عن الأسنان.

وذات یوم دخل أخو عائشه عبد الرحمن علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم لیعوده وبیده سواکٌ أخضر، فنظر رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم إلیه - وهو فی یده - نظراً عرف أنّه یریده فقال عبد الرحمن: یارسول اللّه ترید أن أعطیک هذا السواک؟ فقال: نعم، فقدّمه إلی النبی فوراً، فأخذه صلی الله علیه و آله و سلم واستنّ به کأشدّ ما رأیته یستن بسواک قط، ثم وضعه(۲).

وصایا النبی صلی الله علیه و آله و سلم قبیل رحیله

کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم خلال فتره مرضه ووجعه یولی إعطاء التعالیم والتذکیر بما فیه هدایه الناس اهتماماً بالغاً، فقد کان یوصی بالصلاه ورعایه الرقیق فی الأیام الأخیره من حیاته الشریفه ویقول:

«الصَلاه الصلاه وما ملکَتْ أیمانُکم...».

وفی روایه أُخری قال صلی الله علیه و آله و سلم: «اللّه اللّه فیما ملکت أیمانکم، ألبسوا ظهورَهُمْ،

۱- . الطبقات الکبری: ۲۴۷/۲؛ الکامل فی التاریخ: ۳۲۳/۲؛ إمتاع الأسماع: ۴۲۲/۱۴.

۲- . لاحظ: الطبقات الکبری: ۲۳۴/۲، السیره النبویه لابن هشام: ۱۰۶۹/۴.

وأشبعوا بطونَهم، وألينوا لهم القَوْلَ»(۱).

وقد سأل كعب الأحبار عمر بن الخطاب بعد وفاه رسول اللّه وفی إيام خلافه الأخير: ما كان آخر ماتكلّم به رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم؟ فقال عمر: سَلْ عليّاً. قال: أين هو؟ قال: هو هنا، فسأله.

فقال علی عليه السلام:

«أسندته إلی صدری فوضع رأسه علی منكبی فقال: الصلاه الصلاه.

فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء، وبه أُمروا، وعليه يبعثون(۲).

وقد فتح النبیُ صلی الله عليه و آله و سلم عينيه فی آخر لحظه من حياته الشريفه وقال:

«أدعوا لی أخی».

فعرف الجميع بأنّه يريد علياً عليه السلام فدعَوا له علياً فقال:

«أُدنُ منّی».

فدنا منه علیٌ عليه السلام فاستند إليه فلم يزل مستنداً إليه يكلّمه(۳).

فلم يلبث أن بدت عليه صلی الله عليه و آله و سلم علامات الاحتضار.

سأل رجلٌ ابن عباس: أرأيت رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم توفّی ورأسه فی حجر أحد؟ قال: توفّی وهو لمستند إلی صدر علی.

فقال السائل: قلتُ: فإنّ عروه حدّثنی عن عائشه أنّها قالت: تُوفّی رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم بين سَحْری ونَحْری.

۱- . الطبقات الكبری: ۲۵۴/۲.

۲- . الطبقات الكبری: ۲۶۲/۲-۲۶۳.

۳- . الطبقات الكبری: ۲۶۳/۲.

فقال ابن عباس: أتعقلُ؟! واللّه لتُوفّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم وأنّه لمستند إلى صدر عليّ، وهو الذى غسّله، وأخى الفضل بن عباس(۱).

وقد صرّح بذلك أمير المؤمنين على عليه السلام فى إحدى خطبه حيث قال:

«وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه و آله و سلم وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِى. وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِى كَفِّى، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِى. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ صلى الله عليه و آله و سلم وَالْمَلَائِكَهُ أَعْوَانِى»(۲).

وينقل بعض المحدّثين أنّ آخر جمله قالها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فى آخر لحظه من حياته الشريفه هى جمله: «بل الرفيق الأعلى»(۳)، وكأنَّ ملك الموت خيّره عند قبض روحه الشريفه فى أن يصحَ من مرضه ويبقى أو يلبّى دعوه ربّه، ويلتحق بالرفيق الأعلى، فعبّر بجملته هذه عن رغبته فى اللحاق بربه، ليعيش مع الذين أشار إليهم قولُه سبحانه:

«فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (۴).

قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم هذا ولفظ أنفاسه الشريفه(۵).

يوم الوفاه

فى منتصف يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر صفر(۶) عرجت روحُ

۱- . الطبقات الكبرى: ۲۶۳/۲.

۲- . نهج البلاغه: الخطبه ۱۹۷.

۳- . لاحظ: تاريخ الطبرى: ۴۴۱/۲؛ الكامل فى التاريخ: ۳۲۱/۲ و ۳۲۲؛ إمتاع الإسماع: ۵۰۰/۱۴ و ۵۰.۹

۴- . النساء: ۶۹.

۵- . لاحظ: إعلام الورى: ۲۶۹/۱؛ الطبقات الكبرى: ۲۳۰/۲.

۶- . وهو ما اتّفق عليه محدثّو الشيعه ومؤرّخوهم، ونقل فى السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۶۹/۴ بصوره: قيل.

النبی الأـکرم المقدّسه إلی بارئها، وإلی جنان الخلد، فسُجّیَ ببُرد یمانی، ووضع فی حجرته بعض الوقت، وارتفعت صرخات العیال، وعلا بکاء الأقارب، فعرف من کان خارج المنزل أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم قد قضی، فلم یلبث أن انتشر نبأُ وفاته فی کلّ أنحاء المدینه التی تحوّلت بسرعه إلی مناحه کبری، ومأتم عظیم.

فصاح الخلیفه الثانی خارج البیت ولأسباب خاصّه أنّ النبیّ لم یَمُتْ إنّما عُرج بروحه کما عُرج بروح موسی، وأنّه لایموت رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم! وأصرّ علی هذا الموقف وهدَّد کلّ من یخالف ذلک، وکاد أن یوافق علیه فریقٌ من الناس لولا أن أبا بکر تلا علیه قول اللّه سبحانه:

«وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ» .(۱)

حتی فرغ من الآیه، فسحَب عمر موقفه، مستغرباً من وجود مثل هذه الآیه قائلاً: هذا فی کتاب اللّه؟(۲)

ثم قام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام بتغسیل جسد النبی الطاهر وکفّنه، لأنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم کان قد قال: «یغسّلنی أقرب الناس إلیّ» ولم یکن ذلک سوی علی علیه السلام.

ولمّا فرغ «علیٌّ» من تغسیل النبی صلی الله علیه و آله و سلم کشف الإزار عن وجهه صلی الله علیه و آله و سلم وقال والدموع تنهمر من عینیه الشریفتین:

«بِأَبِی أَنْتَ وَأُمِّی یَا رَسُولَ اللّهِ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِکَ مَا لَمْ یَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَیْرِکَ مِنَ النُّبُوَّهِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّی صِرْتَ مُسَلِّیاً عَمَّنْ سِوَاکَ،

۱- . آل عمران: ۱۴۴.

۲- . لاحظ: الطبقات الکبری: ۲۶۷/۲؛ السیره النبویه لابن هشام: ۱۰۶۹/۴-۱۰۷۰.

وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً. وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَكَ! وَلكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!»(۱).

ثم إنّ الإمام أمير المؤمنين «على بن أبى طالب» عليه السلام كان أوّل مَن صلّى على جثمان رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ثم صلّى عليه المسلمون جماعه جماعه، ثم تقرر دفنُه صلى الله عليه و آله و سلم فى حجرته المباركه.

فقام أبو عبيده الجراح وزيد بن سهل بحفر قبر له صلى الله عليه و آله و سلم وإعداده ثم دُفِنَ صلى الله عليه و آله و سلم فى تلك الحفره على يد أمير المؤمنين على عليه السلام يساعده فى ذلك الفضل والعباس.(۲)

وهكذا غربت شمس أعظم شخصيه غيّرت مسار التاريخ البشرى بتضحياته الكبرى وجهوده المضنيه، وأعظم رسول إلهى فتح أمام الإنسانيه صفحات جديده ومشرقه من الحضاره والمدنيه.

ولكن ظهرت على الساحه برحيله مشكلات عديده كان لها أثرٌ فى استمرار رسالته، ومواصله أهدافه التى من أهمها مسأله الخلافه وموضوع القياده فى المجتمع الإسلامى، وقد بدت بعضُ بوادر الاختلاف فى الأوساط الإسلاميه حتى قبل رحيله.

غير أنّ هذا القسم وإن كان قسماً مهمّاً وخطيراً من تاريخ الإسلام، إلّاأنّه خارجٌ عن إطار بحثنا هذا (وهو دراسه وتحليل الشخصيه المحمديه وحياه النبى

۱- . نهج البلاغه: الخطبه ۲۳۵.

۲- . لاحظ: السيره النبويه لابن هشام: ۱۰۷۶/۴ وما بعدها.

الرساليه والسياسيه والعسكريه).

من هنا فإنّنا نختم حديثنا هذا بالشكر للّه تعالى على هذه النعمه الكبرى، والحمدللّه رب العالمين(۱).

جعفر السبحانى

شعبان المعظم ۱۳۹۰ ه

قم المقدّسه - الحوزه العلميه

۱- . تمّ تدوين هذه المحاضرات وتوثيقها وتحقيقها فى شهر شعبان المعظم عام ۱۴۰۹ هجريه فى مدينه قم والحمد للّه رب العالمين. جعفر الهادى

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحه

مقدّمه المؤلّف: مُميّزات النهضه الإلهيه وخصائصها... ٧

خصيصه «الخلود» والعمق فی شخصيه رسول الإسلام... ٧

المصادر الأُولی والأصيله للكتابه عن سيره النبیّ صلی الله عليه و آله و سلم... ١٠

حوادث السنهِ الأُولی من الهجره... ١۴

٢٧

أوَّل عمل إيجابی للنبیّ صلی الله عليه و آله و سلم فی المدينه

عقد ميثاق تعايش بين المسلمين وغيرهم... ١۴

مع عمّار بن ياسر فی بناء المسجد النبویّ... ١٧

ضئرٌ أرأف من والده!!... ٢٢

التآخی أعظم معطيات الإيمان... ٢۴

منقبتان عظيمتان... ٢۵

منقبهٌ أُخری لعلیّ عليه السلام... ٢۶

معاهده الدفاع المشترك بين المسلمين ويهود يثرب... ٢٧

أعظم معاهده تاريخيه... ٢٩

ممارسات اليهود الإجهاضيه... ٣۵

الموضوع... الصفحه

إسلام عبداللّه بن سلّام... ۳۶

خطهٌ يهوديه أُخرى للقضاءِ على الحكومه الإسلاميه... ۳۷

حوادث السنه الثانيه من الهجره... ۴۱

۲۸

مناوراتٌ عسكريه

واستعراضاتٌ حربيه

تهديد خطوط قريش التجاريه... ۴۲

النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يلاحق قريشاً بنفسه... ۴۵

ما هو الهدف من المناورات العسكريه؟... ۵۰

نظريه المستشرقين... ۵۱

۲۹

تحويل القبله

من بيت المقدس إلى الكعبه... ۵۶

كرامهٌ علميه لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم... ۶۱

۳۰

معركه بدر الكبرى

النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يتوجّه إلى منطقه ذَفران... ۶۴

المشكله الّتى كانت تواجهها قريش... ۶۷

النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم يعقد شورى عسكريه... ۶۹

إخفاء الحقائق وكتمانها... ٧٠

قرار الشورى الحاسِم أو رأى زعيم الأنصار... ٧٢

جمع المعلومات حول العدوّ... ٧٣

ص:٧٧٤

الموضوع... الصفحه

كيف هربَ أبو سفيان؟... ۷۶

علم المسلمين بإفلات قافله قريش... ۷۷

إختلاف قريش فى القتال... ۷۷

«العريش» أو غرفه القياده... ۸۰

نظره إلى مسأله «العريش»... ۸۰

تحرّك قريش باتّجاه بدر... ۸۳

قريش تتشاور فى القتال... ۸۳

اختلاف قاده قريش فى أمر القتال... ۸۴

ما هو الأمر الّذى حتّم القتال؟... ۸۷

المبارزات الفرديه أوّلاً... ۸۷

أىّ القولين هو الأصحّ؟... ۸۹

الهجومُ العامُّ... ۹۰

رعايه الحقوق... ۹۲

مصرع أُميّه بن خلف... ۹۲

خسائر بدر فى الأرواح والأموال... ۹۳

«ما أنتم بأسمع منهم»... ۹۴

الشعر يخلّد هذه القصه... ۹۵

بعد معركه بدر... ۹۷

قتل أسيرين فى أثناء الطريق... ۹۹

بشائر النبیّ إلی المدینه... ۱۰۱

المکیّون یعرفون بمقتل أسیادهم... ۱۰۱

اشتراک العباس عمّ النبیّ فی بدر... ۱۰۲

ص:۷۷۵

الموضوع... الصفحه

المنع من النَوح والبكاء فى مكه... ۱۰۳

رسول الإسلام ومكافحه الأُميّه... ۱۰۴

ما ورد فى السيره حول مصير الأسرى... ۱۰۵

كلام لابن أبى الحديد فى المقام... ۱۰۷

القرآن يتحدّث عن معركه بدر... ۱۰۹

۳۱

زواج سيده النساء فاطمه بنت رسول اللّه

مشاكل الزواج فى العصر الحاضر... ۱۱۵

رسول الإسلام يكافح هذه المشاكل عمليّاً... ۱۱۶

جهاز فاطمه... ۱۲۰

مراسم الزواج تقام ببساطه... ۱۲۳

محاولات يائسه للنيل من على وفاطمه عليهما السلام... ۱۲۶

العلّامه الأمينى يرد على افتراءات المستشرق النصرانى الحاقد... ۱۲۷

العقّاد والنيل من فاطمه عليها السلام... ۱۳۷

۳۲

جرائم «بنى قينقاع»

لهيب الحرب يبدأ من شراره... ۱۴۲

تقارير جديده تصل إلى المدينه... ۱۴۶

قريش تغيّر مسير تجارتها... ۱۵۰

ص:۷۷۶

الموضوع... الصفحه

۳۳

الدفاع عن الحريّه

غزوه أحد أو الدفاع عن الحريّه عند جبل أُحُد... ۱۵۲

إغتيال مفسد آخر... ۱۵۶

قريش تتكفّل نفقات الحرب... ۱۵۶

الاستخبارات ترفع تقريراً إلى النبىّ صلى الله عليه و آله و سلم... ۱۵۹

جيش قريش يتحرك باتجاه المدينه... ۱۵۹

منطقه «أُحد»... ۱۶۱

المشاوره فى كيفيه الدفاع... ۱۶۲

المشاورات العسكريه... ۱۶۳

الاقتراع من أجل الشهاده!!... ۱۶۴

حصيله الشورى... ۱۶۶

النبىُّ يلبس لامه الحرب... ۱۶۷

النبىّ يخرجُ مِنَ المَدينه... ۱۶۸

جنديان فدائيان... ۱۶۹

العسكران يصطفّان... ۱۷۳

رفع معنويات الجنود وتقويه عزائمهم... ۱۷۵

العدوّ ينظّم صفوفه... ۱۷۶

الإثاره النفسيّه وإلهاب الحماس... ۱۷۶

بدايه القتال... ١٧٨

المقاتلون بدافع الشهوه!!... ١٨١

الهزيمه بعد الانتصار... ١٨٢

الموضوع... الصفحه

شائعه مقتل النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۱۸۵

هل یمکن إنکار فرار بعض الصحابه من أرض المعرکه؟... ۱۸۶

القرآن یکشف عن بعض الحقائق... ۱۸۸

التجارب المرّه... ۱۹۰

خمسه یتحالفون علی قتل النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۱۹۲

الدفاع الموفق أو النصر المجدّد... ۱۹۶

بقیه أحداث واقعه «أُحد»... ۲۰۷

العدوُّ یحاول استغلال الفرصه... ۲۰۸

نهایه المعرکه... ۲۱۰

آخر ما نطق به سعدُ بن الربیع... ۲۱۳

النبیّ یعود إلی المدینه... ۲۱۴

ذکریات مثیره عن امرأه مؤمنه... ۲۱۷

نموذج آخرٌ من النسوه المجاهدات... ۲۱۷

لابدّ من ملاحقه العدو... ۲۲۰

حمراءُ الأسد... ۲۲۳

لا یُخدَعُ مؤمن مرّتین... ۲۲۵

میلاد الإمام الحسن السبط... ۲۲۶

حوادث السنه الرابعه من الهجره... ۲۲۷

فاجعه فريق المبلّغين

خطّه ماكره للفتك بالمبلّغين... ٢٢٨

الغدر بالدعاه إلى الإسلام وقتلهم... ٢٣٠

ص:٧٧٨

الموضوع... الصفحه

جریمه بئر معونه... ۲۳۴

کیدُ المستشرقین وجفاؤهم... ۲۳۶

المؤمن لا یلدغ من جحر مرّتین... ۲۳۷

۳۵

غزوه «بنی النضیر»

بماذا یجب أن تقابل هذه الجریمه؟... ۲۴۱

المستشرقون و دموع التماسیح... ۲۴۳

دور حزب النفاق أیضاً... ۲۴۴

مزارع بنی النضیر تقسَّم بین المهاجرین فقط... ۲۴۷

۳۶

تحریم الخمر، ذات الرقاع، بدر الصغری

تحریم الخمر... ۲۵۰

وقفه عند «البیان الشافی»... ۲۵۵

روایه مختلَقَه... ۲۵۶

غزوهُ ذات الرقاع... ۲۶۱

مواقف خالده فی هذه الغزوه... ۲۶۳

الحُرّاس الصامدون... ۲۶۳

غزوه بدرٌ الصغری... ۲۶۴

ولادهُ السِبط الأصغر لرسول اللّه... ۲۶۶

ص:۷۷۹

الموضوع... الصفحه

٣٧

من أجل تحطيم التقاليد الخاطئه

مَن هو زيد بن حارثه؟... ٢٦٨

زيدٌ يتزوّج بابنه عمّه النبىّ... ٢٦٩

زيد يطلّق زوجته... ٢٧٠

زواج النبىّ بمطلقه متبنّاه لإبطال سنه جاهليه أُخرى... ٢٧١

المستشرقون وقضيه زواج النبىّ بزينب... ٢٧٥

توضيح عبارتين... ٢٨٠

٣٨

غزوه الأحزاب

١. غَزوه دُومه الجندل... ٢٨٦

٢. غزوه الخندق (الأحزاب)... ٢٨٧

استخبارات المسلمين ترفع تقريراً للقياده... ٢٩١

القوله النبويه الخالده فى شأن سلمان... ٢٩٤

مقاتلو العرب واليهود يحاصرون المدينه... ٢٩٥

العدد الدقيق لقوّات الطرفين... ٢٩٥

خطر البرد، وتناقص الغذاء والعلف... ٢٩٦

حيى بن أخطب يدخل حصن بنى قريظه... ٢٩٧

النبى يعرف بنقض بنى قريظه للعهد... ٢٩٩

تجاوزات بنى قريظه الأوّليه... ٣٠٠

الإيمانُ فى مواجهه الكفر... ٣٠٢

أبطالٌ من العرب يَعبُرونَ الخندق... ٣٠٤

تصاول البطلين... ٣٠٨

الموضوع... الصفحه

قیمه هذه الضربه... ۳۰۹

لماذا التنکّر لهذا الموقف؟... ۳۱۰

مروءه علیّ علیه السلام وشهامته... ۳۱۲

جیش العرب یتفرّق فی موقفه... ۳۱۳

العوامل الّتی فرّقت کلمه «الأحزاب»... ۳۱۵

مبعوثو قریش یمشون إلی بنی قریظه... ۳۱۷

آخر العوامل لهزیمه الکفّار... ۳۱۸

القرآن الکریم و معرکه الأحزاب... ۳۱۹

حوادث السنه الخامسه من الهجره... ۳۲۵

۳۹

سقوط آخر أَوکار الفساد والمؤامره

قوات الإسلام تحاصر بنی قریظه... ۳۲۶

الیهودُ یتشاورون حول الموقف... ۳۲۷

خیانهُ أبی لبابه... ۳۳۰

إلی أیّ مدی ذهب الطابورُ الخامس فی مشاغبته؟... ۳۳۳

تقییم ما استند إلیه سعد فی حکمه... ۳۳۵

حوادث السنه السادسه من الهجره... ۳۴۱

۴۰

أعداء الإسلام تحت المراقبه المشدّده

أهل الرأى من قريش يهاجرون إلى الحبشه... ۳۴۳

الوقايه من تكرار التجارب المرّه... ۳۴۵

غزوهُ ذى قَرد... ۳۴۶

ص:۷۸۱

الموضوع... الصفحه

النذر غير المشروع... ۳۴۷

۴۱

تمرّد بنى المُصطَلِق

غزوه بنى المُصطلِق... ۳۵۰

أوّل خلاف بين المهاجرين والأنصار... ۳۵۱

منافق حاول إشعال الموقف... ۳۵۲

صراعٌ بين الإيمان والعاطفه... ۳۵۵

الزَواجُ المبارك... ۳۵۸

الفاسق يفتضح... ۳۵۹

۴۲

قصّه الإفك

المنافقون يتّهمون شخصاً نقىّ الجيب... ۳۶۲

أبرز النقاط فى آيات «الإفك»... ۳۶۴

الزيادات فى هذه القصّه... ۳۶۶

۱. منافاتها لمقام النبوّه والعصمه... ۳۶۶

۲. سعدُ بن معاذ توفّى قبل حادثه «الإفك»... ۳۶۸

الروايه الأُخرى فى سبب النزول... ۳۷۰

۴۳

رحلهٌ سياسيّهٌ ديتيّهٌ

مندوبُو قريش عند النبى صلى الله عليه و آله و سلم... ۳۷۷

رسول اللّه يبعث مندوباً إلى قريش... ۳۸۰

النبىُ يبعث سفيراً آخر إلى قريش... ۳۸۱

بيعهُ الرضوان... ۳۸۳

الموضوع... الصفحه

سهيلُ بن عمرو يفاوضُ رسولَ اللّه... ۳۸۴

التاريخ يعيد نفسه... ۳۸۷

نَصُّ صُلح الحديبيه... ۳۸۸

نشيد الحريه... ۳۸۹

آخر الجهود للحفاظ على عمليه الصلح... ۳۹۱

تقييم عاجل لصلح الحديبيه... ۳۹۴

قريش تصرُّ على إلغاء أحد بنود المعاهده... ۳۹۸

النساءُ المسلمات لا يُسلَّمن إلى قريش... ۴۰۱

حوادث السنه السابعه من الهجره... ۴۰۲

۴۴

النبىّ يعلن عن رسالته العالميه

الرسالهُ المحمَّديه كانت عالميه... ۴۰۴

آيات تدلّ على عالميه الرساله المحمَّديه... ۴۰۵

رُسُل الإسلام إلى المناطق النائيه... ۴۰۶

أوضاع العالم أيام إبلاغ الرساله العالميه... ۴۰۸

رسولُ النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى أرض الروم... ۴۰۹

قيصر يحقّق حولَ النبى صلى الله عليه و آله و سلم... ۴۱۱

أثر رساله النبى إلى قيصر... ۴۱۴

سَفير النبىّ فى البلاط الإيرانى... ۴۱۵

نظریه الیعقوبی... ۴۱۷

أوامر «خسرو» إلی والیه علی الیمن... ۴۱۸

سفیرُ النبیّ فی أرض مصر... ۴۲۱

المقوقس یکتب کتاباً إلی النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۴۲۴

الموضوع... الصفحه

المغیره بن شعبه فی البلاط المصری... ۴۲۵

سفیر النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم فی أرض الذکریات «الحبشه»... ۴۲۷

محاوره بین سفیر النبیّ وحاکم الحبشه... ۴۲۹

رساله النجاشی إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم... ۴۳۰

تقییم سریع لمراسله النبی صلی الله علیه و آله و سلم قاده العالم... ۴۳۱

کتاب رسول اللّه إلی أمیر الغساسنه (بالشام)... ۴۳۴

سادس السفراء فی أرض الیمن... ۴۳۶

رسائل أُخری لرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم... ۴۳۸

۴۵

قلعه خیبر أو بُؤره الخطر

إحتلالُ النقاط والطرق الحسّاسه لیلاً... ۴۴۴

متاریس الیهود تتهاوی... ۴۴۶

التقوی فی ظروف المخمصه الشدیده... ۴۴۹

فتح الحصون الواحد تلو الآخر... ۴۵۱

الانتصار الکبیر فی خیبر... ۴۵۴

تحریف الحقائق... ۴۵۷

ثلاث نقاط مشرقه فی حیاه علی علیه السلام... ۴۶۰

عوامل الانتصار... ۴۶۱

۱. التخطیط والتکتیک العسکری الدقیق... ۴۶۲

۲. تحصیلُ المعلومات حول العدوّ... ۴۶۳

۳. تفانی امیر المؤمنین علیه السلام... ۴۶۵

الرحمه فی ساحه القتال... ۴۶۵

مصرع کنانه بن الربیع... ۴۶۶

الموضوع... الصفحه

تقسیم غنائم الحرب... ۴۶۷

قافله من أرض الذکریات... ۴۶۸

حجم الخسائر وعدد القتلی... ۴۷۰

العفو بعد الانتصار... ۴۷۰

سلوک الیهود المتعجرف... ۴۷۳

حیله مُجازه... ۴۷۶

۴۶

قصّه فَدَک

حکم الأراضی المفتوحه بلا قتال... ۴۸۰

قصّه فدک بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم... ۴۸۳

فدک فی محکمه التاریخ... ۴۸۷

السیطره علی وادی القُری... ۴۸۸

۴۷

عمره القضاء

النبی یدخل مکّه... ۴۹۲

النبی صلی الله علیه و آله و سلم یغادر مکّه... ۴۹۵

أحداث السنه الثامنه من الهجره... ۴۹۸

۴۸

معرکه مؤته

حادثه أفجع من السابقه... ٥٠٠

خلافٌ حول مَن هو الأمير الأوّل؟... ٥٠٢

جيشا الإسلام والروم يتواجهان... ٥٠٥

حيره المقاتلين المسلمين بعد مقتل القاده... ٥٠٨

الموضوع... الصفحه

الجنود يعودون إلى المدينه... ۵۱۰

أُسطوره بدل التاريخ الصحيح... ۵۱۱

النبیّ یبکی بشده لمقتل جعفر... ۵۱۲

۴۹

غَزوهُ ذات السَلاسِل

تفاصیل هذه الغزوه... ۵۱۶

الإمام علیٌّ ینتدَب لقیاده العملیه... ۵۱۸

عوامل انتصار الإمام علیّ فی هذه الموقعه... ۵۱۹

إعتراض وجواب... ۵۲۱

۵۰

فَتحُ مَکَّه

تفاصیلُ فتح مکَّه... ۵۲۵

قریشُ تتوجّس خیفه من ردّ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم... ۵۲۹

جاسوسٌ یُکتَشف!... ۵۳۲

النبی یتحرّک باتجاه مکّه... ۵۳۹

العفو عند المقدره... ۵۴۱

تکتیکٌ رائع لجیش الإسلام... ۵۴۴

العباس یصطحب أبا سفیان إلی خیمه النبی صلی الله علیه و آله و سلم... ۵۴۶

أبوسفیان بین یدی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم... ۵۴۷

مكّه تستسلم من دون إراقه دماء... ٥٤٩

أبو سفيان يرجع إلى مكّه... ٥٥٣

القواتُ الإسلاميه تدخل مكّه... ٥٥٥

ص:٧٨٦

الموضوع... الصفحه

كسرُ الأصنام وغسل الكعبه... ۵۵۷

علیٌّ علیه السلام علی کَتِف النبی صلی الله علیه و آله و سلم... ۵۶۰

النبیُ صلی الله علیه و آله و سلم یعلنُ عن العفو العام... ۵۶۳

بلالُ یرفع الأذان علی سطح الکعبه... ۵۶۳

النبیُ صلی الله علیه و آله و سلم یتحدّث إلی أقاربه... ۵۶۵

خطابُ النبی التاریخی فی المسجد الحرام... ۵۶۶

۱. التفاخر بالنسَب... ۵۶۷

۲. التفاضل بالقومیه العربیه... ۵۶۸

۳. لجمیع أبناء البشر لا لبعض دون بعض... ۵۶۸

۴. الحروب الطویله والأحقاد القدیمه... ۵۶۹

۵. الأُخوّه الإسلامیه... ۵۷۰

معاقبه المجرمین... ۵۷۰

قصّه عکرمه وصفوان... ۵۷۲

مبایعه النبی نساء مکّه... ۵۷۳

هدمُ بیوت الأصنام بمکّه وما حولها... ۵۷۶

جرائم أُخری لخالد... ۵۷۹

معرکه حنین

جیشٌ قلیل النظیر... ۵۸۲

الحصول على المعلومات العسكريه... ٥٨٣

تجهيزات المسلمين... ٥٨٥

صمود النبى ومَن ثَبتَ من أصحابه... ٥٨٦

غنائمُ الحرب... ٥٨٨

الموضوع... الصفحه

لقطتان من الخلق النبوى العظيم... ۵۸۸

۵۲

غزوه الطائف

شدخُ جدار الحصن بالمنجنيق... ۵۹۳

ضغوطٌ اقتصاديه ونفسيه... ۵۹۴

آخر محاوله لفتح حصن الطائف... ۵۹۵

جيشُ الإسلام يعود إلى المدينه... ۵۹۶

حوادث ما بعد الحرب... ۵۹۷

النبى صلى الله عليه و آله و سلم يلتقى الشيماء أُخته من الرضاعه... ۶۰۱

اسلام مالك بن عوف... ۶۰۲

تقسيم الغنائم... ۶۰۳

رسول اللّه يعتمر... ۶۰۷

۵۳

لاميّه كعب بن زهير المعروفه «بانت سعاد...»

قصّه كعب بن زهير بن أبى سلمى... ۶۱۰

حُزنٌ قارَن فَرحاً... ۶۱۳

حوادث السنه التاسعه من الهجره... ۶۱۵

۵۴

علىٌّ بن أبى طالب فى أرض طىّ

عام الوفود... ۶۱۵

هدم بيوت الأصنام... ۶۱۸

علیٌ فی أرض طیّ... ۶۱۹

قصه إسلام عدی بن حاتم الطائی... ۶۲۰

الموضوع... الصفحه

۵۵

غَزْوَهُ تَبُوک

تعبئهُ المقاتلين وتهيئه نفقات الحرب... ۶۲۶

المتخلِّفُون عن القتال... ۶۲۶

اکتشافُ شَبکّهٍ جاسُوسيَّه فی المدينه... ۶۲۸

عدمُ مشارکه «علیّ» عليه السلام فی غزوه تَبُوک... ۶۳۰

جيش الإسلام يتحرّک نحو تبوک... ۶۳۲

النبیُّ صلی الله عليه و آله و سلم يَستعرضُ جيشَهُ... ۶۳۳

قصّه مالک بن قيس... ۶۳۴

مصاعبُ الطريق... ۶۳۵

تعليماتٌ احتياطيّه... ۶۳۶

علم رسول اللّه صلی الله عليه و آله و سلم بالمغيّبات... ۶۳۷

إخباره بمغيَّب آخر... ۶۳۸

جيش الإسلام فی أرض تبوک... ۶۴۱

بعث خالد إلی دَومه الجندل... ۶۴۴

تقييم إجماليٌ لغزوه تبوک... ۶۴۵

المنافقون يخطّطُون لاغتيال النبی صلی الله عليه و آله و سلم... ۶۴۷

النيّه تقومُ مقام العمل... ۶۴۸

أخذ المتخلّفين بالعقاب النفسیّ... ۶۵۰

قصّه مسجد ضرار... ۶۵۲

۵۶

وَفد ثقیف فی المدینه

وقوع الفرقه والاختلاف فی قبیله ثقیف... ۶۵۶

ص:۷۸۹

الموضوع... الصفحه

وَفْدُ ثَقِيف... ۶۵۷

شروط وَفد ثقيف... ۶۵۹

۵۷

إعْلان البراءه من المشركين فى منى

تعصّبٌ بغيضٌ فى تحليل هذا الحدث... ۶۶۸

حوادث السنه العاشره من الهجره... ۶۷۱

۵۸

فى رثاء الولد العزيز

اعتراض غير وجيه... ۶۷۳

مكافحه الخرافات... ۶۷۵

۵۹

وفد نجران فى المدينه

مفاوضاتُ وَفد نجران مع النبى... ۶۷۹

خروجُ النبى صلى الله عليه و آله و سلم للمباهله... ۶۸۱

إنصراف وَفْد نجران عن المباهله... ۶۸۳

صورةُ العهد النبوىّ لأهْل نجران... ۶۸۴

أكبر فضيله... ۶۸۵

۶۰

تاريخ المباهله عاماً وشهراً ويوماً

عام المباهله حسب المشهور... ۶۸۸

الشهر واليوم الّذى وقعت فيه المباهله... ۶۸۸

رأينا حول عام المباهله... ۶۹۰

زمن المباهله يوماً وشهراً... ۶۹۲

ص:۷۹۰

الموضوع... الصفحه

هل كانت قضيه المباهله فى السنه التاسعه؟... ۶۹۷

۶۱

۱. تقييم البراءه من المشركين

۲. وفود القبائل فى المدينه

محاوله اغتيال النبى صلى الله عليه و آله و سلم... ۷۰۱

أمير المؤمنين فى ربوع اليمن... ۷۰۳

۶۲

حجّه الوداع

الإمام على عليه السلام يعود من اليمن... ۷۱۰

شروع مراسِمُ الحج... ۷۱۲

خطابُ النبىّ التاريخى فى حجّه الوداع... ۷۱۳

۶۳

إكمال الدين الإسلامى بتعيين الخليفه

اقتضاءُ المحاسبات الاجتماعيه فى مسأله الخلافه... ۷۲۱

۱. النبوّه والإمامه توأمان... ۷۲۵

۲. قصّه الغدير... ۷۲۶

واقعه الغدير خالده إلى الأبد... ۷۲۹

الدلائل الأُخرى على أبديّه الغدير... ۷۳۱

۶۴

١. المتنبّئون كَذباً

٢. التفكير فى أمر الروم

لمحه عابره عن هويه مسيلمه... ٧٣٩

ص:٧٩١

الموضوع... الصفحه

التفكير فى أمر الرُّوم... ۷۴۱

الأعذارُ غير المقبوله... ۷۴۶

الاستغفار لأهل البقيع... ۷۴۷

حوادث السنه الحاديه عشره من الهجره... ۷۴۹

۶۵

الكتابُ الذى لم يُكتب

إيتونى بقلم وقرطاس... ۷۵۱

ماذا كان الهدف من الكتاب؟... ۷۵۵

لماذا لم يصرُّ النبى على كتابه الكتاب؟... ۷۵۸

تلافى الأمر وتداركه... ۷۵۸

تقسيم الدنانير... ۷۶۰

غضب النبى من الدواء الذى سقى... ۷۶۱

وداع النبى صلى الله عليه و آله و سلم مع أصحابه... ۷۶۱

۶۶

اللحظاتُ الأخيره

النبىُ صلى الله عليه و آله و سلم يتحدّث مع ابنته الزهراء... ۷۶۵

العاطفيه بالظهور والتجلّى، بيد أنّه يُستثنى الشخصيات الروحانيه

والمعنويه... ۷۶۵

مسواكُ النبى قبيل وفاته... ۷۶۷

وصایا النبی صلی الله علیه و آله و سلم قبیل رحیله... ۷۶۷

یوم الوفاه... ۷۶۹

فهرس المحتویات... ۷۷۳

ص:۷۹۲

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹